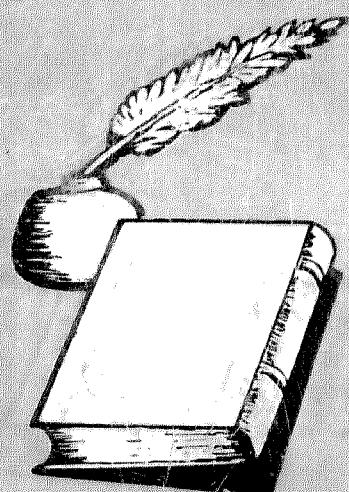


مَوْسُوعَةُ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ وَالْمُخْضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

٦

- تاريخ مصر وسوريا من مطلع الإسلام حتى الآن:
(إنصاف تاريخ مصر - دورها الحضاري - أهم آثارها)
- الحروب الصليبية: دوالعها - أدوارها - نتائجها
(الجهاد الإسلامي في مواجهة العدوان الصليبي)
- الإمبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشأتها حتى الآن
(الإمبراطورية العثمانية : مالمها وما عليها)



تأليف
الدكتور أحمد شلبي

دكتوراه من جامعة كمبردج

أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة



مكتبة التوفيق المصرية
شانع عربى - القاهرة

0003676



الطبعة السابعة (١٩٨٦) مع إضافات واسعة وتحقيقات مهمة



مَوْعِدُنَا بِوَعْدُهُ الْتَّارِيخُ الْإِسْلَامِيُّ

وَاحِضَارَةُ الْإِسْلَامِيَّةِ

دراسة تحليلية شاملة في عشرة لجزاء تأريخ العالم الإسلامي كله ، من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر ، مع دراسة الجوبق الحضاري التي أسمى بها المسلمون في ترقية للمران وتطور الفكر البشري

٥

- تاريخ مصر وسوريا من مطلع الإسلام حتى الآن .
- (انتصارات تاريخ مصر - دورها الحضاري - أهم آثارها)
- الحروب الصليبية : دوافعها - أثاروها - نتائجها .
- (الجهد الإسلامي في مواجهة المدوان الصليبي)
- الإمبراطورية العثمانية (تركيا) مذئباتها حتى الآن .
- (الإمبراطورية العثمانية : ما لها وما عليها)

تأليف

الدُّكْتُورُ أَحْمَدُ رَشْدَلُ

دكتوراه من جامعة كيبرداج (البالترا)
أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
 بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
طبعة السابعة (١٩٨٦)
مع زيادات واسعة وتحقيقات مهمة



مُتْرِفَةُ الطبعِ والنشرِ
مَكَتبَةُ الْمَقْعِدَةِ الْمُصْرِيَّةِ
لِأَصْحَابِنَا حَسَنِ كَهْرَبَ وَأَنْوَارَهُ
وَشَاعِرِ سَلْيَانِيَّةِ بِيَنْفَاصِهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَبِهِ نَسْتَعِنُ

التَّارِيخُ

شِعَاعٌ مِّنَ الْمَاضِيِّ يَنْبُوِيُّ الْحَاضِرَ وَالْمُسْتَقْبِلَ

أحمد شلبي

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى - ١٩٦٧

الطبعة الثانية - ١٩٧٢

الطبعة الثالثة - ١٩٧٧

الطبعة الرابعة - ١٩٧٩

الطبعة الخامسة - ١٩٨٢

الطبعة السادسة - ١٩٨٤

الطبعة السابعة - ١٩٨٦



خطة البحث في هذه الموسوعة

ان خطة البحث التي اتبعتها في كتابة «التاريخ الاسلامي» خطة جديدة ومرية، ويسرى ان ابرزها في التخطيط التالي ليمعرف القارئ كثها، وليسهل عليه متابعتها:

| | | |
|---|------|------------------------------------|
| العرب قبل الاسلام — السيرة النبوية العطرة — عصر الخلفاء الراشدين | ١ جـ | تراسة زمنية في هذه |
| الدولة الاموية والحركات الفكرية والثورية خلالها | ٢ جـ | الأجزاء الثلاثة اذ |
| الخالفة العباسيه مع اهتمام خاص بالعصر العباسي الأول دور المسلمين خلاله في خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية | ٣ جـ | أن العالم الاسلامي وحدة واحدة . |

ثم دراسة مكنته (قطاعات جغرافية) في الأجزاء الخمسة التالية لأن العالم الاسلامي انقسم الى دواليات كثيرة، ويشمل كل جزء من هذه الأجزاء قطاعاً من العالم الاسلامي، بحيث يتناول تاريخه من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر مبتدئين من الغرب ومتوجهين الى الشرق كالالتخطيط التالي:

| الجزء الرابع | الجزء الخامس | الجزء السادس | الجزء السابع | الجزء الثامن |
|--|---|--|--|---|
| الاندلس الاسلامية واندثار الحضارة الاسلامية منها المغارب — الجزائر — تونس — ليبيا ، من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر حتى المهد الحديث : مبادئها وتاريخها | مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر الامبراطورية العثمانية (تركيا) منذ ظهورها حتى الان | الاسلام والدول الاسلامية جنوب صحراء افريقيه منذ وخلالها الاسلام حتى الان : وسائل انتشار الاسلام بطلب افريقيه | تراسة عن — الدول الاسلامية قبل الاستعمار الاربى — السنغال الاسلامية حالياً : — نيجيريا — جامايكا — غينيا — تشاد — السودان — مالى — الصومال | الاسلام والمسلمون حتى الان : طبع الاسلام في اميركا اللاتينية المسعودية — عمان والاتحاد السوفياتي والهند والفلبين وسنغافورة . اذربيجان — افغانستان — الباكستان — الایران — الایشان — الایران — الایران — الایران — الایران — الایران — الایران — الایران |
| وتختم الموسوعة بدراسات تفصيلية عن تاريخ مصر العاصر | الجزء التاسع : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد نجيب وعصر عبد الناصر عصر المظالم والهزائم | والجزء العاشر : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد ابور العقادات | | |

(د)

كتب المؤلف

أولاً : موسوعة التاريخ الإسلامي

دراسة تحليلية شاملة في عشرة أجزاء ل تاريخ العالم الإسلامي كله من مطلع الإسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التي أسمى بها المسلمون في ترقية العمران ، وتطوير الفكر البشري :

١ - الجزء الأول : (الطبعة الثانية عشرة)

- مقدمة الموسوعة : نطاق التاريخ الإسلامي - تقسيم التاريخ - هل التاريخ علم ؟ .. فلسفة التاريخ - فائدة التاريخ - مراحل تدوين التاريخ - قضية الالتمام في كتابة التاريخ الإسلامي - علم التاريخ بين المسيحية والإسلام ...
- تاريخ العرب قبل الإسلام : البدو والحضر - حياة العرب المسيحية والاقتصادية والاجتماعية .

- السيرة النبوية العطرة : جوانب من السيرة تدون لأول مرة

- الدعوة الإسلامية وفلسفتها - عصر الخلفاء الراشدين

٢ - الجزء الثاني : (الطبعة الثالثة)

الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية في عهدها .
أنصار تاريخ الأمويين وأبراز جهودهم السياسية والحضارية .

٣ - الجزء الثالث : (الطبعة الثامنة)

الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسي الأول ، ودور المسلمين خلاله في خدمة الدراسات الإسلامية والحضارة العالمية .

٤ - الجزء الرابع : (الطبعة الثامنة)

- الاندلس الإسلامية ، وانتقال الحضارة الإسلامية إلى إفريقيا عن طريقها .

- المغرب - الجزائر - تونس - ليبيا (من مطلع الإسلام حتى المهد الحاضر) .

- السنوية : مبادرتها وتاريخها .

٥ - الجزء الخامس : (الطبعة السابعة)

- مصر وسوريا من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر .

- (تدوين جديد لتاريخ مصر - دورها الحضاري - أهم آثارها) .

- الغرب الصليبي : دولتها - أدوارها - نتائجها .

- الإمبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشأتها حتى الآن .

(٤)

كتب المؤلف

سادساً : تعلم اللغة العربية لغير العرب

قواعد اللغة العربية

- برنامج شامل ميسّر لتعلم اللغة العربية بكل فروعها لغير العرب .
- أول سلسلة من نوعها في المكتبة العربية تهلاً هذا الفراغ .
- دراسات شاملة سهلة لقواعد اللغة العربية من نحو وصرف .
- تضم هذه السلسلة الكتبين التاليين :

٧) - **تعلم اللغة العربية لغير العرب :**
يبدأ هذا الكتاب من المرحلة الأولى : مرحلة الهجاء ، ويتطور للقراءة ، للتعمير ، نلامذاء ، فالخط والنصوص ، ثم يقترب بالطالب إلى مرحلة متقدمة في القراءة والمحاجة والكتابة ، مستعملًا في هذه المرحلة موضوعات جذابة من الفكر الإسلامي والعربي اختيرت من أهميات الكتب العربية ثم صيغت في أسلوب مناسب ، مع أسئلة وتمرينات منيدة .

٨) - **قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها :**
عرض لجميع أبواب النحو العربي بطريقة تربوية سهلة
ودراسة واسحة لأهم أبواب المصرف

هذا الكتاب ضروري للمثقف العربي وغير العربي

كتب نفذت وإن يعاد طبعها

- ٩) - في قصور الخلفاء العباسيين :
أكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٣ من هذه القائمة .
- ١٠ - مصر في حربين (١٩٦٧ و ١٩٧٣) دراسة مقارنة :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٩ من هذه القائمة .
- ١١ - الحكومة والدولة في الإسلام :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٢ من هذه القائمة .
- ١٢ - الاشتراكية : دراسة علمية تقديرية يدعمها اليقين الروحي .
- ١٣ - النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور وأثر الفكر الإسلامي فيها .
وأكثر مادة هذين الكتبين تضمنها الكتاب رقم ١٤ من هذه القائمة .
- ١٤ - الجهاد والنظم العسكرية في التفكير الإسلامي :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٩ من هذه القائمة .

(ه)

(الطبعة الخامسة)

٦ - الجزء السادس :

**الاسلام والدول الاسلامية جنوب صحراء افريقية منذ دخولها
الاسلام حتى الان :**

- دراسة عن وسائل انتشار الاسلام :
مراکز الشمال - هجرات عربية وغير عربية - التجار - الطرق
الصوفية - مراکز داخلية .

- الدول الاسلامية قبل الاستعمار الاوربي :
غانا - مالي - صنفی - دوك الہوسا - بربنو - باجمری -
وادای - الفونج - متششو - مملکة الزنج .

- الدول الاسلامية الحالية :
موريتانيا - السنغال - جامبيا - غینیا - مالی - النیجر -
نیجیریا - تشاد - السودان - الصومال - جیبوتی .

(الطبعة الرابعة)

٧ - الجزء السابع :

الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق :

- دول الجزيرة العربية من مطلع الاسلام حتى الان :
المملکة العربية السعودية - اليمن - جمهورية اليمن الجنوبيه -
عمان - دولة الامارات العربية - قطر - البحرين - الكويت .
- العراق من مطلع الاسلام حتى الان .

(الطبعة الثالثة)

٨ - الجزء الثامن :

**الاسلام والدول الاسلامية غير العربية بآسیا من مطلع الاسلام حتى
الآن :**

ایران - افغانستان - الپاکستان - بنجلادیش - مالیزیا - اندونیسیا
الاقطیلیات الاسلامیة فی الهند والصین وروسیا والفلیلین ..

دراسات تفصیلیة عن تاريخ مصر المعاصر

(الطبعة الثالثة)

٩ - الجزء التاسع :

ثورة ٢٣ يولیو من يوم الى يوم : عصر محمد نجيب - عصر جمال
عبد الناصر (عصر المظالم والهزائم) .

١٠ - الجزء العاشر :

ثورة ٢٣ يولیو من يوم الى يوم : عصر انور السادات .

(ترجمت اکثر اجزاء هذه الموسوعة لمعدة لغات)

(و)

كتب المؤلف

ثانياً : موسوعة الحضارة الإسلامية

دراسة تحليلية شاملة في عشرة أجزاء ، تبرز الاتجاهات الحضارية التي جاء بها الإسلام لهدى البشرية في ثirteen العقيدة ، والسياسة ، والاقتصاد ، وفي مجال الحياة الاجتماعية والتربوية والعسكرية ، والتشريعية والقضائية ، كما تبرز جهود المسلمين في الحضارة التبريرية ،

وأجزاؤها هي :

١١ - الجزء الأول : تاريخ المناهج الإسلامية (الطبيعة الرابعة)

مناهج التعليم في صدر الإسلام - انحرافاتها في مصوّر الظلام - وجوب تصحيحها ..

١٢ - الجزء الثاني : (الفكر الإسلامي : منابعه وأثاره) مآثر المسلمين في مجال الدراسات العلمية والفلسفية (الطبيعة السابعة)

١٣ - الجزء الثالث : السياسة في الفكر الإسلامي مع المقارنة بالنظم السياسية المعاصرة .. (الطبيعة السابعة)

١٤ - الجزء الرابع : الاقتصاد في الفكر الإسلامي مع المقارنة بالنظم الاقتصادية المعاصرة ، ومع دراسة شاملة للنقاط التالية :

- ١ - الإسلام والمسلمون في مواجهة المشكلة الاقتصادية .
- ٢ - مبادئ الإسلام الاقتصادية .
- ٣ - الإسلام والقضايا الاقتصادية الحديثة (شهادات الاستثمار ...).
- ٤ - من تاريخ الاقتصاد في الإسلام (بيت المال : موارده ونضارته ...).
- ٥ - النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور وأثر الفكر الإسلامي فيها .

(ز)

١٥ - **الجزء الخامس : التربية الإسلامية**
(الطبعة الثامنة)
نظها - تاريخها - فلسفتها

دراسة عميقة وشاملة لفلسفة التربية عند المسلمين ، ويتناول
التخلص وأدائه ، ولحالة المدرسین المسالية والاجتماعية ، والاجازات
العلمية ، والعقوبات ، والجوائز ، والمكافآت ، وملابس المدرسین ،
ونقائة المعلمین ، وتكتافؤ الفرمان بين التلميذ ، وتوجيههم حسب بـ
مواهبهم ..

١٦ - **الجزء السادس : المجتمع الإسلامي**
(الطبعة السابعة)
أسس تكوينه .. أسباب ضعفه .. وسائل نهضته
أبتداء من الطبعة السابعة : رؤية جديدة - تخطيط جديد - أداء جديد .

١٧ - **الجزء السابع : الحياة الاجتماعية**
(الطبعة الخامسة)
في الفكر الإسلامي

- في نطاق الأسرة : كالختان وتحديد النسل وعمل المرأة ...

- وفي نطاق المجتمع : كالإمراح والملامح والموسيقى والفناء ...

١٨ - **الجزء الثامن : تاريخ التشريع الإسلامي**
(الطبعة الرابعة)
وتاريخ النظم القضائية في الإسلام

بع بحوث واسعة عن القرآن الكريم في المقدمة الأولى للتشريع

ومع دراسة شاملة لسائر التشريع الأخرى

ـ «الإسلام» : ووسائله في إنشاء

١٩ - **الجزء التاسع : والعلاقات الدولية**
(الطبعة الرابعة)

ـ دراسات علمية توضح النهج الإسلامي في تنظيم العلاقات بين الدول
الإسلامية والدول غير الإسلامية في المجالات السياسية والاقتصادية
والاجتماعية والعسكرية .

٢٠ - **الجزء العاشر : رحلة حياة**
(الطبعة الرابعة)
تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الإسلامية

(ح)

كتب للمؤلف

ثالثاً : مقارنة الأديان

سلسلة من الكتب في مقارنة الأديان ، تعتمد على انتق المراجع
بمختلف اللغات ، ومتنازع دراستها بالجذيد والعمق ، وتشمل :

٢١ - الجزء الأول : اليهودية : (الطبيعة التاسعة)

- دراسة لشئن المسائل اليهودية : اليهود في التاريخ من عهد
ابراهيم حتى الان : الصهيونية ، أنبياء بنى إسرائيل ، عقيدة بنى إسرائيل ،
يهوه الله بنى إسرائيل ، التعدد والتوحيد في الفكر اليهودي ، التابوت
والهيكل ، الكهنة والقرايين . . .

- مصادر الفكر اليهودي : المعهد القديم ، التلمود ، بروتوكولات حكماء
صهيون . . .

- اليهود في الظلام : المسؤولية ، والروتارى ، الاغتيال ، التيسس ،
البابوية والبهائية . . .

- من صور التشريع في اليهودية . . .

٢٢ - الجزء الثاني : المسيحية : (الطبيعة التاسعة)

- المسيح والمسيحية في نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة .
- بولس وأوضاع المسيحية الحالية ، التثليث ، صليب المسيح للتنكير عن
خطيئة البشر . . .

- شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقة للمعتقدات المسيحية ، المجمع ،
طبيعة المسيح والأراء فيها ، الطوائف المسيحية ، الرهبنة والأديرة ،
خرافة ظهور العذراء في كنيسة الزيتون ، حركة الاصلاح الديني ونتائجها
ونتائجها . . .

٢٣ - الجزء الثالث : الإسلام : (الطبيعة التاسعة)

- الله في التفكير الإسلامي ، النبوة في التفكير الإسلامي ، غير المسلمين
في المجتمع الإسلامي ، الدين العاملة ، المرأة في الإسلام ، الرق و موقف
الإسلام منه ، السياسة والاقتصاد في الإسلام . آراء المفكرين
الغربيين في الإسلام ورسول الإسلام .

٢٤ - الجزء الرابع : أديان الهند الكبرى : (الطبيعة التاسعة)

« الهندوسية - الجينية - البوذية »

- تقديم عن : جغرافية الهند ، سكان الهند ، اللغات في الهند ، الأديان
في الهند . . .

- دراسة الكتب المقدسة الهندية : الويدا : مهابهارتا : يوجاواستها
كينا . . .

- أهم العقائد الهندية : الكارما والتقاسخ ، الاتصالق والترفانا ، وحدة
الوجود . . .

- تاريخ الهندوسية والجينية والبوذية وتاريخ وأسسها .

(ط)

كتب المؤلف**رابعاً : كتب في الثقافة العامة وكتب بلغات أجنبية**

- ٢٥ - كيف تكتب بحثاً أو رسالة
الطبعة الثامنة عشرة)
مع ثلاثة ملاحق مهمة
- دراسة منهجية لكتابه البحوث واعداد رسائل الماجستير والدكتوراه
- ٢٦ - الغروب الصليبي : بدؤها مع مطلع الإسلام ، واستمرارها حتى الآن
عرض للهجمات الصليبية الغربية عسكرية وفكرية على العالم
الإسلامي عبر العصور .

كتبان باللغة الإنجليزية هما :

| | | |
|-----------------------|---------------------------------------|------|
| مكتبة التنمية المصرية | ISLAM : Belief - Legislation - Morals | — ٢٧ |
| | History of Muslim Education | — ٢٨ |

وكتب باللغة الاندونيسية والماليزية :

Pustaka National
(Singapore)

| | |
|--|----------|
| Negara dan Pemerintahan Dalam Islam | — ٢٩ |
| Masyarakat Islam | — ٣٠ |
| Hukum Islam | — ٣١ |
| Sedjarah dan Kebudajaan Islam | ١ — ٣٢ |
| Sedjarah dan Kebudajaan Islam | ١١ — ٣٢ |
| Sedjarah dan Kebudajaan Islam | ١١١ — ٣٤ |
| Perbandingan Agama (Jahudi) | — ٣٥ |
| Perbandingan Agama (Masihi) | — ٣٦ |
| Perbandingan Agama (Islam) | — ٣٧ |
| Perbandingan Agama (Agama2 yang | — ٣٨ |
| Terbesar di India : Hindu-Jaina-Buddha) | |
| Sadjarah Pendidikan Islam | — ٣٩ |
| Politik dan Ekonomi Dalam Islam | — ٤٠ |
| Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam | — ٤١ |
| Perkembangan Keagamaan Dalam Islam dan Maschi | — ٤٢ |
| Perang Salib | — ٤٣ |
| Kurikulum Islam Dalam | — ٤٤ |
| Perkembangan Sedjarah | |
| Pengajian Al Quran | — ٤٥ |
| Sedjarah Kehakiman Dalam Islam | — ٤٦ |

(٤)

كتب المؤلف**خامساً : الكتبة الإسلامية لكل الأعمر**

١٠٠ جزء من سير عظماء الإسلام ، ومن التاريخ ، والحضارة ،
وقصص القرآن للأولاد والشباب والسيدات والرجال
ظهر منها الأجزاء التالية :

المجموعة الأولى : السيرة النبوية العطرة : (١٦ جزءاً)

| الطبعة الثانية | مع زيادات واسعة وتحديثات شاملة | الطبعة الثالثة | مع زيادات واسعة وتحديثات شاملة | الطبعة الرابعة | مع زيادات واسعة وتحديثات شاملة | الطبعة الخامسة | مع زيادات واسعة وتحديثات شاملة | الطبعة السادسة | مع زيادات واسعة وتحديثات شاملة |
|----------------|--------------------------------|----------------|--|----------------|--|----------------|---|----------------|---|
| ١ | محمد قبلبعثة | ج | من غار حراء .. إلى غار ثور . (قصة الإسلام في مكة) | ٢ | الأسراء والمعراج : دراسة تصحيح للقضاء على الشطحات . | ٣ | الهجرة للمدينة ووسائل الاستقرار بها | ٤ | الرسول الداعية ومربي الدعاة |
| ٥ | ج | ج | (١) الرسول في بيته : زوجات الرسول — أسباب تعدد الزوجات | ٦ | (ب) الرسول في بيته : مشكلات الزوجات وكيف عالجهما — الحجاب — أولاد الرسول — أحفاده — خدمه | ٧ | الرسول بين أصحابه — الرسول يربى الفرد المسلم — | ٨ | الرسول يربى المجتمع الإسلامي . |
| ٩ | ج | ج | الرسول يربى القضاة ، ويربي القوة العسكرية ، ويربي | ١٠ | الولاة والحكام | ١١ | الرسول وتشبيب — الرسول والعمل | ١٢ | توجيهات طيبة يقدمها الرسول — مكرمات للرسول |
| ١٣ | ج | ج | الرسول والنصارى — الرسول واليهود | ١٤ | الإسلام والقتال ، وهل انتشر الإسلام بالقوة أو بالدعوة — | ١٥ | غزوة بدر ودراسات جديدة حولها — أهم احداث غزوة بدر | ١٦ | غزوة أحد والهزيمة التي أخانت المفترض — غزوة الاحزاب |
| ١٧ | ج | ج | وكلمة عن سليمان الفارسي | ١٨ | حلح الحديبية — كتب الرسول للملوك والرؤساء — غزوة | ١٩ | مؤتة وبدر الصراع ضد الروم . | ٢٠ | فتح مكة — غزوة حنين والدائنة — غزوة تبوك |
| ٢١ | ج | ج | الفترة الأخيرة في حياة الرسول | | | | | | |

(ك)

المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالجنة : (٧ اجزاء)

ج ١٧ (١) أبو بكر الصديق : حياته وعصره والمشكلات التيواجهها

ج ١٨ (٢) عمر بن الخطاب والتتوسع في عهده — عمر بالي الدولة
الاسلامية

ج ١٩ (٣) مثمن بن عفان : حياته واخلاقه والفتنة في عهده

ج ٢٠ (٤) علي بن أبي طالب : شخصيته وحياته والمشكلات التي
واجهها

ج ٢١ (٥) مطحنة بن عبد الله (٦) الزبير بن العوام

ج ٢٢ (٧) سعيد بن أبي وقاص (٨) أبو عبيدة بن الجراح

ج ٢٣ (٩) عبد الرحمن بن عوف (١٠) سعيد بن زيد بن عمرو

المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية : (٥ اجزاء)

ج ٢٤ نظرية عامة للقرآن الكريم — طريقة الوحي — نزول القرآن
وتقويمه — أسماء السور وترتيبها — قراءات القرآن — تضليل
القرآن — القرآن والمعلم — فضائل قراءة القرآن وحكم
التطريب في أدائه والتفسير به .

ج ٢٥ خصائص القرآن والأصول التي جاء بها لخير الناس في الدنيا
والآخرة — اعجاز القرآن ومظاهر الاعجاز — معجزات
الرسل والمقارنة بينها .

ج ٢٦ غير العرب والأعجاز البلاغي للقرآن — وجوه الاعجاز في
القرآن — مواجهة واقعية بين العرب والقرآن — التكرار
في القرآن : أسراره واعجازه .

ج ٣٤ و ٣٥ . الأخلاق الإسلامية من القرآن الكريم
جمع الآيات القرآنية عن الأخلاق ، وتصنيفها ، وشرحها
شرحها ميسرا .

ج ٣٧ . (الترقيم مؤقت ، وفي الطبعة الثانية ان شاء الله سيأخذان
رقم ٢٧ و ٢٨ وتتسلسل الأرقام بعد ذلك) .

المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم : (٧ اجزاء)

ج ٢٧ دراسات عن القصص في القرآن — قصة أصحاب الكهف ..

ج ٢٨ قصة الرجلين والجنتين — قصة ذي القرنيين وياجوج
وماجوج .

ج ٢٩ قصة موسى والخضر — قصة أصحاب الجنة .

ج ٣٠ قصة عزيز — قصة أيوب عليه السلام

ج ٣١ قصة قارون — قصة أصحاب الأخدود .

ج ٣٢ قصة اسماعيل عليه السلام .

ج ٣٣ قصة يوسف عليه السلام .

(ل)

المجموعة الخامسة : الدولة الأموية : تاريخ يحتاج إلى انصاف :

(٥ أجزاء)

ج ٣٦ تاريخ الدولة الأموية : الانحراف في تدوينه ومحاولة انصافه
معاوية الخليفة الأموي الأول : عام الجماعة — الدهاء —
الاصلاحات الداخلية — التوسع .

ج ٣٧ عبد الملك بن مروان :
أحد فتّهاء المدينة الأربعية .
البطولة — السياسة — الاصلاحات الداخلية — التوسع

ج ٣٨ نموذجان غريدان متعاصران :
الوليد بن عبد الملك .
عمر بن عبد العزيز .

ج ٣٩ التوسع العظيم في العهد الأموي وأهم ميادينه .
ج ٤٠ الشيعة ومدعو التشيع .
قصة استشهاد الإمام الحسين .

المجموعة السادسة : صراع وشهداء وانتصارات (٦ أجزاء) كلاًّاً :١

ج ٤١ جزء عن « من شهداء الاسلام » : حمزة بن عبد المطلب —
جعفر بن أبي طالب — عمار بن ياسر — عمر المختار
ومحاكمته .

ج ٤٢ و ٤٣ و ٤٤ ثلاثة أجزاء في مجلد واحد عن :
الهجمات الصليبية : على العالم الإسلامي من مطلع الاسلام
حتى الآن .

ج ٤٥ و ٤٦ جزءان في مجلد واحد عن :
شهر رمضان وانتصارات المسلمين فيه .
انتصارات المسلمين في شهور رمضان على : قريش —
الروم — الفرس — القوط — الصليبيين — المغول —
الصهاينة .

المجموعة السابعة : الاسلام والمرأة (٤ أجزاء) :

ج ٤٧ حالة المرأة قبل الاسلام في الحضارات المختلة .
ج ٤٨ ماذا قدم الاسلام للمرأة .
ج ٤٩ تمثّل من السيدات المسلمات في مجال السياسة والعلوم .
ج ٥٠ زيجات شهيرة في التاريخ الاسلامي (بوران — قطر الندى) .
(الأجزاء التالية ستظهر تباعاً ان شاء الله)
(لم تدخل اعداد المكتبة الاسلامية ضمن العدد الخاص بكتب المؤلف)

(مس)

محتويات الكتاب

| الصفحة | الموضوع |
|--------|------------------------------|
| ١٧ | مقدمة مهمة |
| | مصر وسوريا |

في عهد الولاة : من الفتح حتى سنة ٢٥٤ هـ = ٨٦٨ م

تقديم :

الفتح الإسلامي لمصر وسوريا ٢٧ — سيناء طريق الزحف العربي ٢٨ — أهم آثار سيناء ٢٩ — العرب في مصر وسوريا ٣٠ — نصوص من البردي تصف الفتح الإسلامي لمصر ٣١ — ولاة مصر قبل الطولونيين ٣٢ — تعريف باشهر هؤلاء الولاة ٣٤ — الإسلام في بلاد النوبة ٣٥ .
ولاة سوريا قبل الطولونيين وتعريف باشهرهم ٤٠ .

أشهر الأحداث في عهد الولاة :

| | |
|----|---|
| ٤٢ | مكتبة الإسكندرية وموضع حرقها |
| ٤٧ | انتشار الإسلام في سوريا ومصر |
| ٥١ | من هم أحفاد الفراعنة؟ |
| ٥٤ | انتشار اللغة العربية |
| ٥٧ | نظم الحكم في عهد الولاة |
| ٦٣ | الحركات بمصر وسوريا حتى العهد الطولوني |

حضارة مصر في عهد الولاة والمرحلة الإسلامية المبكرة :

العلوم الإسلامية ٧٠ — علوم اللغة والأخبار ٧١ — التصوف ٧٢ — دراسات في العلوم ٧٣ — نشاط في المجال الاقتصادي ٧٣ .

| | |
|----|--------------------------------------|
| ٧٤ | حضارة سوريا في عهد الولاة |
| ٧٧ | عواصم مصر في عهد الولاة |
| ٨٠ | آثار عصر الولاة |

(ع)

الموضوع الصفحة

الدولة الطولونية

| | |
|-----|---|
| ٨٥ | الحركات الاستقلالية بمصر |
| ٨٧ | تعريف بالدولة الطولونية |
| ٨٨ | تعريف بأمراء الطولونيين |
| ٨٩ | أحمد بن طولون وخطواته للسلطة وصعوبات في طريقه |
| ٩٢ | الأمراء الطولونيون بعد أحمد |
| ٩٤ | نشاط القرامطة بسوريا |
| ٩٥ | علاقة الطولونيين بالخلافة العباسية |
| ٩٨ | حضارة الطولونيين |
| ١٠١ | بين عهدى الطولونيين والاخشيديين |
| ١٠١ | عودة الاتجاه الاستقلالي |
| ١٠٢ | حملات الفاطميين على مصر |
| ١٠٢ | آثار مصر في العهد الطولوني |

الدولة الاخشيدية

| | |
|-----|---------------------------------|
| ١٠٧ | تعريف بالدولة الاخشيدية |
| ١٠٨ | تعريف بالحكام الاخشيديين |
| ١٠٩ | علاقة الاخشيد بالخلافة العباسية |
| ١١١ | بعد الاخشيد : كافور |
| ١١٣ | بعد كافور |
| ١١٣ | حضارة الاخشيديين |
| ١١٥ | التنبى وصلته بكافور |
| ١١٧ | الحمدانيون في شمالى سوريا |
| ١١٨ | العلم والفكر في بلاط سيف الدولة |

الدولة الفاطمية

| | |
|-----|----------------------------|
| ١٢٣ | نسب الفاطميين وقيام دولتهم |
| ١٢٤ | جوهر يمهد لاستقبال المعز |
| ١٢٦ | جوهر والدعوة الشيعية |
| ١٢٨ | المعز الدين الله في مصر |
| ١٢٩ | العزيز بالله |

| الموضوع | الصفحة |
|--|--------|
| الحاكم يامر الله ودراسة شاملة عن حياته ونهايته ١٤٤ | ١٤٤ |
| نهاية أخيه سنت الملك ١٤٣ — الدرزية ١٤٣ — التشابه بين العقيدة الدرزية واليسوعية ١٤٧ — بعض التشريعات الدرزية ١٤٧ . | |
| الظاهر بن الحاكم ١٤٩ | ١٤٩ |
| المستنصر وبشكلات عصره ١٤٩ | ١٤٩ |
| باقي خلفاء الفاطميين ١٥٦ | ١٥٦ |
| عصر نفوذ الوزراء : بدر الجمالى ١٥٧ — الأفضل بن بدر ١٥٨ — المأمون البطائى ١٥٩ — أحمد بن الأنفل ١٦٠ — بهرام الأرمنى ١٦٠ — رضوان بن البلخى ١٦٠ — ابن السلام وابن حصال ١٦١ — شاور وضرفام ١٦٢ . | |
| أسباب سقوط الخلافة الفاطمية ١٦٣ | ١٦٣ |
| سوريا والحكم الفاطمى ١٦٤ | ١٦٤ |
| الفاطميون ونشاط القرامطة بسوريا ١٦٥ | ١٦٥ |
| مصر تقضى على القرامطة ١٦٦ | ١٦٦ |
| انحسار حكم الفاطميين بسوريا ١٦٦ | ١٦٦ |
| المرداسيون بحبش ١٦٧ | ١٦٧ |
| البورين بدمشق ١٦٨ | ١٦٨ |
| إباكيه الموصل ١٦٩ | ١٦٩ |
| دور الثقافى مملكة نور الدين زنکى بالشام ١٧٠ | ١٧٠ |
| الحضارة الفاطمية بمصر وسوريا : | |
| الأزهر الشريف ١٧٢ — مجالس الفصر و المجالس | ١٧٢ |
| الدعوة ١٧٢ — علماء في الفلك والصيدلة والطب ١٧٢ — | ١٧٢ |
| مؤرخون ١٧٣ — شعراء ١٧٤ — المعري : شاعر | ١٧٣ |
| سوريا الفيلسوف ١٧٤ — الهندسة والمعمار ١٧٥ — | ١٧٤ |
| الزخرفة الاسلامية ١٧٥ — البحرية والترسانة ١٧٨ — | ١٧٥ |
| صناعات مدنية ١٧٨ — صناعات معادن ١٧٩ — اهم | ١٧٨ |
| آثار الفاطميين ١٧٩ . | ١٧٩ |

الصفحة

الموضوع

الدولة الأيوبية

| | |
|-----|--------------------------------|
| ١٨٥ | اصل الأيوبيين |
| ١٨٧ | الأيوبيون في مصر |
| ١٨٩ | صلاح الدين يمكن لسلطانه |
| ١٩٤ | بين صلاح الدين ونور الدين |
| ١٩٧ | صلاح الدين يوسع مملكته |
| ١٩٨ | رجال صلاح الدين |
| ٢٠٠ | شخصية صلاح الدين |
| ٢٠٢ | خلفاء صلاح الدين |
| ٢٠٩ | كلمة ختامية عن الدولة الأيوبية |
| ٢١٠ | آثار مصر في العهد الأيوبي |

المماليك

| | |
|-----|-------------------------------------|
| ٢١٥ | مملوك او رفيق ؟؟ |
| ٢١٦ | مصريون ؟؟ |
| ٢٢٢ | ديكتاتورية المماليك ؟ |
| ٢٢٢ | المهام التي قام بها المماليك |
| ٢٢٤ | عيوب المماليك |
| ٢٢٥ | عصر المماليك في العالم |
| ٢٢٥ | جنسيات المماليك وطريقة تربيتهم |
| ٢٢٦ | ماليك مصر نوعان |
| ٢٣١ | السلطة من الأيوبيين للمماليك |
| ٢٣١ | شجرة الدر |
| ٢٣٤ | تولية السلطة وأساليبها عند المماليك |

تعريف بأشهر السلاطين :

| | | |
|---------------------------------------|--------------|--------------|
| الظاهر بيبرس ٢٣٥ | - قلاوون ٢٣٧ | - الناصر ٢٣٩ |
| الخلافة العباسية بمصر في عهد المماليك | ٢٤٤ | |
| المماليك والقتار | ٢٤٥ | |
| عين جالوت | ٢٤٨ | |
| المماليك والصلابيون | ٢٥٢ | |
| المماليك وببلاد النوبة | ٢٥٣ | |
| استيلاء المماليك على قبرص وتهديد رودس | ٢٦٠ | |

| الصفحة | الموضوع |
|--------|--|
| ٢٦١ | كشف طريق رأس الرجاء الصالح واثره |
| ٢٦٥ | نهاية حكم المماليك |
| | حضرارة مصر في عهد المماليك : |
| | التجارة والمال ٢٦٧ — القطاع ٢٦٨ — الصناعة ٢٧٠ — |
| | الطبقات ٢٧٠ — الآثار والمنشآت ٢٧١ — العلوم |
| | وال المعارف ٢٧٤ — علماء من صفووف المماليك ٢٧٧ . |
| | مصر وسوريا |
| | من الفتح العثماني حتى العهد الحاضر |
| ٢٨١ | الخلاف بين المماليك والعثمانيين |
| ٢٨٤ | نظام الحكم العثماني بمصر وسوريا |
| ٢٨٨ | تاريخ مصر وتاريخ سوريا |
| | تاريخ مصر من الفتح العثماني |
| ٢٩١ | تقديم عن فترات هذه الحقبة : |
| ٢٩٤ | ١ — الفترة العثمانية |
| | أشهر الولاة في هذه الفترة ٢٩٧ — أشهر المماليك في هذه |
| | الفترة ٣٠٠ — أشهر الأحداث ٣٠٤ . |
| | ٢ — الفترة المملوكية : |
| | لماذا سميت مملوكيّة ٣٠٦ — على يد الكبير ٣٠٧ — |
| | من أبي الذهب إلى الحملة الفرنسية ٣١٠ . |
| | الحملة الفرنسية : |
| | سر الحملة وانتصاراتها الأولى ٣١٤ — محمد كريم ونضاله |
| | ونهايته ٣١٤ — سياسة نابليون في مصر ٣١٧ . |
| | مقاومة الحملة وجوانب المقاومة : ١ — المماليك وحرب |
| | العصابات ٣١٨ — ٢ — موقعة أبي قير البحرية ٣١٩ — |
| | ٣ — ثورة القاهرة الأولى ٣٢٠ — (الخائن يعقوب فام |
| | واللواء القبطي ٣٢٢) ٤ — تركيا والحملة الفرنسية |
| | ٣٢٤ — عودة نابليون ونهاية الحملة ٣٢٥ — الانقضاض |
| | المصريون يمانون من الاستعمار الغربي ٣٣٤ — مصر |
| | بعد الحملة الفرنسية ٣٣٦ — بروز القوة المصرية ٣٣٧ . |

| الموضوع | الصفحة |
|--|--------|
| مصر بروزها للدراسات الإسلامية في عصر الجيرتى | ٣٤١ |

ملامح عصر الجيرتى ٢٢٢ — المراكز الثقافية بمصر في عصر الجيرتى ٢٤٥ — الأزهر ٢٤٥ — المدارس ٢٤٦ — المساجد ٢٤٨ — الزوايا ٣٥٠ — المنازل ٣٥٢ — أسباب تهمّ بالعلم جيلاً بعد جيل ٣٥٤ — العلماء الوافدون ٣٥٦ — مواقف سياسية وعسكرية للشيوخ ٣٦٧ — المكانة الاجتماعية للعلماء ٣٧٢ — علماء في الدراسات الإسلامية بروزاً في الآداب والعلوم والفنون ٣٧٤ — ملامح أخرى عن علماء عصر الجيرتى ٣٧٩ .

٢ — الفترة الاستقلالية :

(من محمد على إلى الاحتلال البريطاني) ٢٨٤ — محمد على ٢٨٤ — الزيف في تدوين تاريخ هذه الحقبة ٢٨٥ — كتابة تاريخ هذه الحقبة من جديد ٢٨٧ .

محمد على والطريق ثلريسة ٢٨٨ — مشكلات في طريق الوالي الجديد ٢٨٩ — محمد على وبناء الدولة الحديثة ٣٩١ — الجيش والأسطول ٣٩١ — التعليم والنهضة الفكرية ٣٩٣ — ملكية الأرض ٣٩٤ — الاقتصاد ٣٩٥ .

حروب محمد على :

منحة المأليك ٤٠١ — الحرب مع السعوديين ٤٠١ — حرب السودان ٤٠٢ — حرب اليونان ٤٠٥ — حروب الشام والأناضول ٤٠٦ — معاهدة كوتاهية ٤٠٧ — موقعة نصبيين وأندحار جيش الترك ٤٠٧ — تدخل اوروبا ومعاهدة لندن ٤٠٨ .

| | |
|-----|---------------------|
| ٤٠٨ | نهضة محمد على |
| ٤٠٨ | محمد على في الميزان |
| ٤١٠ | ابراهيم وعباس |
| ٤١١ | سعيد |
| ٤١٢ | الأخديوى اسماعيل |

عهد اسماعيل وقائمة منجزاته ٤١٣ — شخصية مصر الدولية ٤١٦ — توسيع وامتداد ٤١٨ — خيانة أمريكية لمصر ٤٢٠ — تطور ثقافي واجتماعي واصلاحات داخلية

— ٥ —

| الصفحة | الموضوع |
|--------|---|
| ٤٢١ | الفاء السخرة ٤٢١ — نصف الحكم مصريون |
| ٤٢٢ | المدارس والمعاهد والكليات ٤٢٢ — دار العلوم |
| ٤٢٣ | اصلاحات اسماعيل القضائية ٤٢٩ — من سلطة الفرد الى سلطة الجماعة ٤٣١ . |
| ٤٤١ | عيوب اسماعيل ٤٤١ — الديون وعزل اسماعيل ٤٤٣ — اسماعيل في الميزان ٤٤٥ — اسماعيل والتاريخ ٤٤٥ . |
| ٤٤٧ | جمال الدين الأفغاني |
| | ملامح شخصيته والأخذ عليه ٤٥٠ — زعامات مصرية سبقت الأفغاني وعاصراته ٤٥٥ — ضعف كتابة الأفغاني ٤٥٦ . |
| ٤٥٨ | الإمام محمد عبده |
| | الأزهر ومشكلاته ٤٥٩ — مع الأفغاني وهل كان هذا استئنافاً للإمام ؟ ٤٦١ — محمد عبده المدرس والمصحفي والسياسي والقاضي ٤٦٢ — مؤلفات الإمام ٤٦٦ — منهاجه الاصلاحي ٤٦٦ — مأخذ ومناقشتها ٤٦٧ . |

٤ — فترة تعدد السلطات :

| | |
|-----|--|
| ٤٧٠ | الخديوي توفيق ٤٧٠ — ثلاثي ردىء ٤٧٠ |
| ٤٧١ | الثورة العربية والاحتلال ٤٧١ — عرابي في الميزان ٤٧٣ — |
| ٤٧٧ | في اعتذاب الاحتلال ٤٧٧ — تعدد السلطات ٤٧٧ — ثورة |
| ٤٧٩ | المهدى والخلاء السودان ٤٧٩ — نهاية توفيق ٤٨٣ . |
| ٤٨٣ | عباس حلمى (الثاني) |
| | مصطفى كامل ومساواة دنشواى ٤٨٤ — عزل الخديوى ٤٨٦ . |
| ٤٨٧ | أسرة محمد على وإنشاء جامعة القاهرة |
| ٤٩٠ | ٥ — فترة الصراع |
| | الвойن العالمية الأولى وأثيرها على مصر ٤٩١ — سلاطين مصر وملوكها في هذه الفترة ٤٩٣ . |
| ٤٩٣ | السلطان حسين كامل |
| ٤٩٤ | السلطان فؤاد والملك فاروق |
| | الحركة القومية وثورة ١٩١٩ : ٤٩٥ — تصريح ٢٨ |

| الصفحة | الموضوع |
|--------|---|
| | فبراير ٩٩ — الملك والدستور ٥٠٠ — الملك والشعب ٥١ — الغاء معاهدة ١٩٣٦ وحريق القاهرة ٥٠٥ . العلاقات بين بريطانيا ومصر ٥٠٧ — الحرب العالمية الثانية وأثرها على العلاقات ٥٠٨ — الجبهة الوطنية ٥١٠ . الاحزاب ودراسات عنها في عهد الملكة ٥١٣ . حادث ٤ فبراير وتحقيقه ٥١٦ . |
| ٥٢٤ | سعد زغلول وصراعه مع الملك والإنجليز |
| ٥٢٧ | الزعيم مصطفى النحاس وجهوده و موقف ثورة ٢٣ يوليو منه .. . |
| ٥٣٢ | حالة مصر الاجتماعية والاقتصادية في عهد الاستقلال .. . |
| | ٦ — فترة الاستقلال القسام : |
| | من ثورة ١٩٥٢ إلى الآن ٥٣٥ . |
| | المؤرخ المعاصر وتدوين التاريخ ٥٣٨ . |
| | ثورة ٢٣ يوليو وأسبابها ٥٤٠ — عهد محمد نجيب ٥٤١ — التقبض على الرئيس محمد نجيب وهو يؤدى عمله بعابدين ٥٤٢ . |
| | عهد عبد الناصر : عهد المظالم والهزائم والضياع وأهم أحداثه : |
| | قانون الاصلاح الزراعي وما سببه ٥٤٥ — قانون ايجارات المساكن ونتائجها ٥٤٦ — الاوحدة مع سوريا وفشلها ٥٤٧ . الاشتراكية التي افترت الأغنياء واجاعت الفقراء ٥٤٨ — حرب اليمن وضياع رصيد العملة ٥٤٨ — حرب ١٩٦٧ وانهيار جيش عبد الناصر في دقائق ٥٥٩ — اسرة عبد الناصر وثارؤها ٥٥٠ — الانفلاق والافتتاح ٥٥٠ . التوقف بالإضافة إلى المظالم والهزائم ٥٥١ — شيء كان يراد بالاسلام ٥٥٢ — احتلال اسرائيل لسيناء ٥٥٣ . |
| ٥٥٤ | مشكلة الملاحة بخليج العقبة .. . |
| ٥٥٩ | كلمة عن سيناء في الماضي والحاضر .. . |
| | دير سانت كاثرين والمسجد الفاطمي ٥٦٤ — قرية ياميت والعن特 الاسرائيلي ٥٦٨ — طابا ٥٧١ . |
| | عهد أنور السادات : |
| | السادات في الطريق للسلطة ٥٧٣ — مرتبتات ومحضنات |

— ٧ —

الصفحة

الموضوع

| | | |
|--|-----------------------------|------------------|
| لأسرة عبد الناصر بدون ضرائب ثم لأسرة السادات | ٥٧٥ | |
| مصر اقتصاديا في مطلع عهد السادات | ٥٧٦ | |
| حركة مايو وثورة التصحيح | ٥٧٧ | |
| (من سنة ١٩٧١ إلى سنة ١٩٨١) | ٥٧٨ | |
| كتبة التاريخ | ٥٨١ | |
| ثورة ٤٣ يونيو في الميزان (كما يراها المفكرون) | ٥٨٢ | |
| من هرب الملايين ؟ | ٥٩٠ | |
| الضففاء وشبح عبد الناصر | ٥٩١ | |
| نقاش حول القصور والحدائق ماذا | ٥٩٢ | |
| عن محسن الثورة ؟ | ٥٩٣ | |
| شهدت عهد حسني مبارك : | | |
| منجزات في عهد حسني مبارك | ٥٩٦ | |
| ـ آمال يقطع الشعب | | |
| لها ٥٩٧ | ـ قرارات ضرورية مطلوبة | ٥٩٩ |
| أحداث خطيرة في عهد حسني مبارك : | | |
| ١ ـ سفينة وطاولة | ٦٠٤ | |
| ٢ ـ طائرة مصرية وفخ لمي | ٦٠٥ | |
| ٣ ـ أحداث الأمن المركزي | ٦١٤ | |
| ٤ ـ الأزمة الاقتصادية وتسديد الديون | ٦١٧ | |
| ٥ ـ الأحزاب في عهدي السادات وببارك : | | |
| ـ مقدمة ٦٢٢ | ـ السادات والمنابر فالاحزاب | ٦٢٢ |
| السادات يعين رؤساء الأحزاب | ٦٢٣ | ـ مبارك والاحزاب |
| | ٦٢٤ | . |
| الرئيس مبارك بين اهتماماته وأعمالنا فيه | ٦٢٥ | |
| البلاد التي سبقتنا في الانتاج وكانت خلفنا | ٦٢٦ | |
| منشآت حديثة بمصر | | |
| منشآت القرن التاسع عشر | ٦٢٨ | |
| منشآت القرن العشرين | ٦٢٨ | |
| ـ منشآت عهد السادات | ٦٢٩ | |
| ـ منشآت عهد حسني مبارك | ٦٢٩ | |

- ٨ -

الصفحة

الموضوع

مصر والحضارة الإسلامية

- ٦٣١ تراجع بغداد وتقدم مصر
 ٦٣٢ مصر عندما زحف الصليبيون على سوريا
 ٦٣٣ مصر عندما زحف التتار على الجناح الشرقي
 ٦٣٥ مصر عندما زحف الفرنجة على الجناح الغربي

وفود العلماء من كل الجهات إلى مصر :

- ٦٣٦ علماء من الشرق (إيران وال伊拉克)
 ٦٣٧ علماء من الغرب (الأندلس والمغرب)
 ٦٤٠ علماء من الشام
 ٦٤٢ جهود مصر في العصر الحديث

تاريخ سوريا من الفتح العثماني

- ٦٤٥ تقديم عن فترات هذه التاريخ
 ٦٤٦ ١ - الفترة العثمانية (١٥١٦ - ١٩١٨ م)
 الولاة ٦٤٦ - تقسيم سوريا ومشكلة لبنان ٦٤٧ -
 التقسيم بسوريا بعيد الجذور ٦٤٧ - لبنان وجماعات
 الجبل ٦٤٨ - حمايات غربية للطوائف في لبنان ٦٤٩ -
 صراع الموارنة والدروز ٦٥٠ - تقسيم لبنان ٦٥١ -
 الحكم الذاتي في لبنان ٦٥٣ .

- ٦٥٣ لبنان تنتزع من سوريا وتصبح دولة مستقلة
 ٦٥٤ وفلسطين تنتزع من سوريا أيضا
 ٦٥٤ وقصة المملكة الأردنية
 ٦٥٥ اسرائيل أيضا جزء من فلسطين
 ٦٥٦ محاولات أخرى لتقسيم باقي سوريا

أشهر الأمراء والولاة :

- جان بردي غزالى ٦٥٧ - فخر الدين المعنى الأول ٦٥٨ -
 فخر الدين المعنى الثاني ٦٥٨ - أمراء من أسرة العظم
 ٦٦١ - بشر الشهابي ٦٦١ - ظاهر العمر ٦٦٣ -
 احمد الجزار ٦٦٤ .

- ٩ -

| الصفحة | الموضوع |
|--------|--|
| | حضرارة سوريا في المعهد العثماني وأثرها في الحياة العربية .. . |
| ٦٦٥ | |
| ٦٦٧ | ٢ - فترة الاحتلال الأوروبي (١٩١٨ - ١٩٤٦ م) .. . |
| | القوى التي تنازعـت السلطان في سوريا : فرنسا - |
| ٦٦٧ | إنجلترا - النفوذ الصهيوني - الأشراف .. . |
| ٦٦٨ | الإمبراطورية العثمانية وعلاقتها بالدول العربية .. . |
| | ٣ - فترة الاستقلال (١٩٤٦ حتى الآن) : |
| | سوريا ٦٧٩ - الوحدة مع مصر ثم الانفصال والانقلابات |
| ٦٨٠ | - لبنان ورؤساؤه من أول الاستقلال حتى الآن |
| ٦٨٣ | - الأديان والطوائف في لبنان ٦٨٤ - الحرية |
| | الثقافية في لبنان وأخطارها ٦٨٥ . |
| ٦٨٦ | الحرب الأهلية في لبنان : بدؤها وتطورها .. . |
| ٦٨٨ | سوريا تدخل لبنان ، وأسرائيل ، وأمريكا .. . |
| ٦٩٠ | اسرائيل ومجزرة صبرا وشاتيلا وعين الحلوة .. . |
| ٦٩٣ | عملية فدائية ضد الولايات المتحدة .. . |
| ٦٩٤ | مواكب الشهداء ضد إسرائيل .. . |
| ٦٩٦ | المملكة الأردنية الهاشمية في هذه الفترة .. . |
| ٦٩٧ | فلسطين في هذه الفترة .. . |
| | تركيب المجتمع السوري : |
| | من ناحية الأجناس واللغات والأثنين والمذاهب ٧٠٧ - |
| | الجعفرية ، من هم ؟ ٧١٠ - الملويون أو النصيرية ٧١١ . |

الحروب الصليبية

دوافعها - أدوارها - نتائجها

أسباب الحروب الصليبية :

| | |
|-----|---|
| ٧١٥ | ١ - الأسباب التاريخية .. . |
| ٧١٦ | ٢ - أسباب ترتبط بالدينية المسيحية .. . |
| ٧١٨ | ٣ - الأسباب التجارية .. . |
| ٧١٩ | ٤ - أسباب تتدخل بالنظام القطاعي بأوروبا .. . |
| ٧٢٠ | ٥ - أسباب تتصل بالجبهة الإسلامية .. . |

- ١٠ -

| الصفحة | الموضوع |
|--------|--|
| ٧٢٤ | ٦ — موقعة ملائكة |
| ٧٢٥ | دعوة البابوية للحروب الصليبية |
| ٧٢٨ | الجهاد الإسلامي يواجه الحروب الصليبية |
| ٧٣٠ | مطلع الزحف الصليبي |
| | الحرب الصليبية الأولى باشراف البابا : |
| | سير الحملة ٧٣٣ — الارمن والموارنة يساعدون الصليبيين ٧٣٣ — القدس تقاوم وتسقط ٧٣٥ — المغار والتنكيل ٧٣٥ — امارات الصليبيين في الشام ٧٣٧ — عوامل ضعف صليبي عقب انتصار الصليبيين ٧٤٠ . |
| | الجهاد بين الحرب الصليبية الأولى والثانية : |
| | جهاد عماد الدين زنكي ونتائجها ٧٤١ — جهود علماء المسلمين ٧٤٢ — استعادة الرملة والرها ٧٤٣ — غارات مصرية متصلة على الصليبيين ٧٤٣ . |
| | الحرب الصليبية الثانية : |
| | قيادة ملك فرنسا واميراطور المانيا ٧٤٥ — فشل الحملة ٧٤٥ . |
| | الجهاد بين الحرب الصليبية الثانية والثالثة : |
| ٧٤٦ | جهود نور الدين زنكي |
| | صلاح الدين الأيوبي وعصره : |
| | جهود صلاح الدين قبل موقعة حطين ٧٤٩ — موقعة حطين ووصفها ٧٥١ — بعد موقعة حطين ٧٥٥ — تحرير بيت المقدس ٧٥٦ . |
| | الحرب الصليبية الثالثة : حرب الملوك الكبار : |
| | مقارنة بين الحرب الصليبية الأولى والثالثة ٧٦٠ — ضرائب باسم الحرب الصليبية ٧٦٠ — صراع حول عكا وسقوطها ٧٦٢ — صلح الرملة ٧٦٣ — نهاية صلاح الدين ٧٦٣ . |
| ٧٦٤ | بين الحرب الصليبية الثالثة والرابعة |
| ٧٦٥ | الملك العادل يقود معسكر المسلمين |

- 11 -

الصفحة

الموضوع

الحرب الصليبية الرابعة :

اتجاه الصليبيين ضد القسطنطينية والاستيلاء عليها .. ٧٦٦

بين الحرب الصليبية الرابعة والخامسة (زحف الأطفال ونهيابهم) ٧٦٨

الحرب الصليبية الخامسة :

اتجاه الحروب الصليبية ضد مصر ٧٦٩

الحرب الصليبية السادسة :

انفصال يافا والتنازل عن بيت المقدس ٧٧١

بين الحرب الصليبية السابعة والسابعة :

براعمات داخلية ٧٧٤

الصالح اسماويل يستولى على بيت المقدس ٧٧٦

الصالح اسماويل يعيدي بيت المقدس للصليبيين ٧٧٦

الخوارزمية يستعيدون بيت المقدس نهائيا ٧٧٧

خطين: الثانية وتدمر الصليبيين والخوارزمية ٧٧٧

الحرب الصليبية السابعة (لويس التاسع) :

لويس التاسع في دمياط ٧٧٩ - وفي ضواحي المتصورة

٧٨٠ - معركة عنيفة بالتصورة - توران شاه يقود

المعركة ٧٨١ - الاستسلام واسر الملك وصحبه ٧٨٢ .

الحروب الصليبية تقرب من نهايتها :

الظاهر بيبرس وجهوده ٧٨٥ - قلاوون ٧٨٩ - الادشرف

خليل ونهيابة الصليبيين ٧٩٠ - ملاحقة الصليبيين خارج

الحدود . ٧٩١ .

أسباب فشل الحروب الصليبية :

الكنيسة ٧٩٣ - امراء الاقطاع ٧٩٣ - الاكتفاء بزحف

التقار ٧٩٤ - تجمع المسلمين وقت الشدة ٧٩٥ .

نتائج الحروب الصليبية :

اقتباس الثقافة الاسلامية ٧٩٦ - صك التقدود ٧٩٨ -

— ١٢ —

| الصفحة | الموضوع |
|--------|--|
| | مقارنة عن مدى التبادل الثقافي ٧٩٩ — نواة الاستشراق |
| ٨٠١ | — تحرير رقيق أوريا . ٨٠٢ |
| | اضرار لحقت بال المسلمين : تدمير مدن اسلامية ٨٠٤ — الاستعمار ٨٠٥ — عدم التسامح ٨٠٥ |
| ٨٠٦ | نماذج لبطولات اسلامية |
| | الأمبراطورية العثمانية |
| ٨١٤ | الأتراك العثمانيون : نشاطهم وتطورهم |
| ٨١٥ | التوسيع العثماني في آسيا الصغرى |
| ٨١٥ | الدولة العثمانية تقفر الى اوربا |
| ٨١٦ | حروب صليبية ضد العثمانيين |
| ٨١٧ | الخطر المفولي يعتري الزحف العثماني |
| ٨١٨ | صراع بين أمراء العثمانيين |
| | عصر القوة : |
| | فتح الشام وملحت من تاريخها ٨٢٠ — فتح سوريا |
| ٨٢٦ | ومصر ٨٢٦ — نشاط سليمان في اوربا وآسيا ٨٢٧ — |
| | حصار فيينا ٨٢٨ — فتح العراق والصدام مع الفرس |
| | — الشمال الافريقي ٨٢٩ . ٨٢٨ |
| ٨٣٢ | دور الضعف وظاهره |
| | خسارة العثمانيين : |
| | مصادرها ٨٣٧ — الحكم المطلق ٨٣٨ — القاب السلطان |
| ٨٣٩ | — ولاية العهد وأثارها القاتمة ٨٤٢ — أعيان |
| | السلطان ٨٤٥ — الانقطاع ٨٤٧ — الالتزام ٨٤٨ — تكوين |
| | الجيش ونشأة الانكشارية ٨٤٩ — البحرية العثمانية |
| ٨٥٣ | — الآثار المعمارية ٨٥٤ — اهمال المؤسسات |
| | الزراعية والصناعية ٨٥٥ — المؤسسات الدينية |
| | — دوافعها ٨٥٦ . |
| | الخلافة العثمانية في الميزان |
| | خمسينيات العثمانيين : |
| ٨٦١ | ١ — توسعات عسكرية فتحت مجالاً للإسلام |

| الصفحة | الموضوع |
|--|---|
| ٨٦٢ | ٢ - الدفاع عن الأرض الإسلامية ضد الزحف الأوروبي |
| ٨٦٣ | ٣ - مواجهة الصهيونية |
| ٨٦٤ | ٤ - جماعة سيناء من اليهود |
| ٨٦٤ | ٥ - محاربة التشيع |
| ماخذ على العثمانيين : | |
| الحكم المطلق ٨٦٦ - غيبة التقنيات الاقتصادية | |
| والاجتماعية ٨٦٦ - الصراع مع الصنفوين ٨٦٨ - | |
| اهمال العرب والدول العربية . ٨٦٨ | |
| ضعف الامبراطورية العثمانية واسبابه : | |
| انتساع الرقعة مع سوء الادارة ٨٧٠ - ضعف المسلمين | |
| المتأخرین ٨٧٠ - تعدد الاجناس والاديان ٨٧١ - الزواج | |
| من الأوروبيات ٨٧١ - انحدار الانكشارية ٨٧٢ - الرشوة | |
| ٨٧٢ - انحلال التصور ٨٧٣ - الجروب الطويلة . ٨٧٣ | |
| التروض ٨٧٤ - اهمال مصالح الشعب ٨٧٥ - المسالة | |
| الشرقية . ٨٧٧ | |
| انهيار الامبراطورية العثمانية ومرافقه | |
| ٨٨١ | معارك ومعاهدات مدمرة |
| ٨٨٢ | العشانيون يخسرون اثراً املاكم بآوريا |
| ٨٨٧ | مواليد وخصائص في آسيا وافريقيا |
| ٨٩٩ | ظهور مصطفى كمال وانحراف المسيرة |
| ٩٠٤ | مراحل الفاء الخلافة |
| ٩٦٦ | ثورات ضد اتاتورك وقمعها |
| ٩٧٧ | السلطان عبد الحميد الثاني : سيرته و موقفه من الدستور |
| ٩٧٨ | تركيا الفتاة ٩٠٥ - الجامعة الإسلامية ٩٠٦ - اصلاحاته والرأي فيه ٩٠٨ . |
| ٩٠٩ | مدحت باشا : سيرته ونهايته |
| ٩١٢ | جماعة الاتحاد والترقي وديكتاتوريتهم |
| ٩١٣ | الصهيونية والاتحاديون |

الصفحة

الموضوع

مصطفى كمال :

مواقفه لأوروبا وصداقتها للصهيونية ٩١٥ — جذوره اليهودية ٩١٧ — صلته بالمسؤولية ٩١٧ — سوء صلته بأسرته وأتباعه ٩١٨ — محاولاته لارضاء الغرب ٩١٨ — خيانة وطنية ٩٢٠ — مخالفاته للإسلام ٩٢٠ — علمانية الشولة ٩٢١ — ينادى بمناهض الاسلام ٩٢٣ .

٩٢٤ خلفاء مصطفى كمال والانقلابات ضدهم

تركيا في العهد الحاضر :

نشاط اسلامي بعد اتاتورك ٩٢٦ — مشكلة الموصل والاسكندرونة ٩٢٩ — تركيا والمشكلة القبرصية ٩٢٢ — نظرية الدول الاسلامية للامبراطورية العثمانية ٩٣٥ .

٩٣٩ مراجع البحث
فهرس الاعلام والأماكن

فهرست الخرائط والصور

| | |
|-----|--|
| ٣٦ | مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط |
| ٧٩ | عواصم مصر الإسلامية |
| ٨٩ | مسجد أحمد بن طولون |
| ١٢٥ | القاهرة الفاطمية |
| ١٢٧ | الجامع الأزهر ومنطقته |
| ١٣٠ | الدولة الفاطمية في أقصى اتساعها |
| ١٣١ | منارة مسجد الحكم |
| ١٧٦ | باب زويلة وجزء من سور القاهرة القديم |
| ١٧٦ | آثار زخرفية |
| ١٧٧ | آثار زخرفية بالأزهر |
| ١٧٧ | آثار زخرفية بالأزهر |
| ١٨٢ | آثار زخرفية بالأزهر |
| ١٩٨ | اتساع دولة صلاح الدين |
| ٢١١ | قلعة صلاح الدين الأيوبى |
| ٢٣٨ | مسجد قلاون |
| ٢٤١ | مسجد الرفاعي والسلطان حسن |
| ٢٤٢ | منارة مسجد برقوق |
| ٢٤٢ | منارة مسجد قايتباى |
| ٢٤٣ | قلعة قايتباى بالاسكندرية |
| ٢٤٣ | ابريق من الفضة مطعم بالنحاس (المهد المملوكي) |
| ٢٤٩ | اغارات المغول وموقعة عين جالوت |
| ٢٦٢ | كشف طريق رأس الرجاء الصالح |
| ٣٩٨ | مسجد محمد على بالقلعة : تحفة فنية رائعة |
| ٣٩٩ | منذنة مسجد محمد على بالقلعة |
| ٤٠٤ | اتساع سلطة محمد على (خريطة) |
| ٥٤٣ | الرئيس محمد نجيب : ساعة القبض عليه وهو يؤدى عمله |

— ١٦ —

- مضيق تيران : مياه عربية إقليمية ٥٥٥
- المسجد الفاطمي داخل سانت كاترين ٥٦٥
- تجمعات مصرية على حدود غزة : تنظر للأرض العربية ولا تدخلها ٥٦٨
- اطلال قرية ياميت تطرق بالسخط والاشمئزاز ٥٧٠
- وثقة حزينة بجوار اطلال قرية ياميت ٥٧٠
- اطلال قرية ياميت ذكرنا بقصوة اسرائيل ٥٧١
- عبد الناصر صانع الهزائم وهو يحاول الهرب من الذكريات ٥٨٣
- الطائرة المنكوبة : الكابتن هانى جلال ٦١٣
- الطائرة المنكوبة : شادية سلامة المصيحة الشهيدة ٦١٣
- القاهرة : مدينة الله مذنة ٦٣٣
- من معالم القاهرة : خان الخليلي والصناعات اليدوية الدقيقة ٦٣٤
- في موكب الشهداء ضد اسرائيل : سناء مهينلة ٦٩٥
- الزحف المسلح وتكوين الامارات اللاتينية ٧٣٩
- تلاصق ملك الصليبيين في عهد صلاح الدين ٧٥٧
- الامبراطورية العثمانية في أقصى اتساعها ٨٣٠

مقدمة مهمة

باسم الله العلي العظيم أقدم هذا الجزء للقاريء العزيز ، ويعتبر
هذا الجزء من الكتب التي فرحت بإخراجها فرحاً شديداً ، إنه حديث عن
مصر التي رَبِّيتُ على أرضها ونشأتُ بين ناسها ، وتعلمتُ بما أنفقت من
مالها ، ولعلى أدينت لها بعض الدَّيْن إذ دونت تاريخها بأمانة وصدق ،
مفتباً بما تتحقق من أمجاد ، وكاشف البال كلما كَبَّتْ أو استبدَّ بها
الطامعون .

ويشمل هذا الجزء تاريخ مصر منذ دخولها الاسلام في مطلع الاسلام
حتى الان ، وهو تاريخ حافل لعبت فيه مصر دوراً واسعاً في خدمة الاسلام
وأصبحت خلال فترة طويلة جداً مركز الفكر الاسلامي من جانب والقوة
الاسلامية من جانب آخر ، ومن طول معايشتي لتاريخ مصر ودورها
الحضاري باحثاً وكتاباً ومحلياً : استحضرت الى حقيقة مهمة هي :

أن تاريخ مصر يجب أن يكتب من جديد لإيضاح قضايا مهمة
أوشكت الحقيقة حولها أن تخنق بسبب أو الآخر مثل :

— الحركات الاستقلالية المبكرة بمصر وتوافقها ونتائجها .

— مصر تقود النشاط الحضاري الإسلامي .

— رد الخطأ الذي يرى أن الطولونيين والاخشيدين والقاطمين
والماليك وأسرة محمد على ليسوا مصريين .

— الماليك المصريون لم يكونوا رقبياً ، وصفقات بيعهم باطلة .

— رد الزعْم الذي يرى أن الحملة الفرنسية أيقظت مصر وكانت
لها نتائج حضارية .

- ١٨ -

- كتابة تاريخ أسرة محمد على بعيداً عن الزيف والتحصّب .

- هل صحيح أن الإمام محمد عبده كان تلميذاً للأفغاني ؟

- سيناء : معالها ومكانها من تاريخ مصر .

- حقيقة ثورة ٣٣ يوليو التي دمرت مصر والمصريين .

- وقضايا أخرى كثيرة ومهمة كان لابد من عرضها ودراستها ،
ويسرني أننى قمت بذلك كله في هذه الطبعة الجديدة (الطبعة
ال السادسة) .

ولاقى عصر الجبرتي عناية هامة في هذا الجزء استقيتها من التاريخ
الحاصل الذي كتبه عن مصر هذا المؤلف الكبير .

ومن مميزات هذا الكتاب أنه يشمل تاريخ مصر ودورها الحضاري
من مطلع الإسلام حتى الآن ، وهو — مع التحقيقات والتصحيحات
السابقة — مالم يجتمعه سفتر من قبل .

وقد امتد الحديث فيه حتى شمل عدة سنوات من حكم محمد حسني
مبارك حتى سنة ١٩٨٦ .

ومن مميزات هذه الطبعة أن أوردت بها دراسة عن آثار مصر مرتبطة
بطقراطيات تاريخها ، ولم يكن المؤرخون من قبل يهتمون بالآثار اهتماماً كافياً .

وفي هذا الجزء حديث عن سوريا الحبيبة (١) ، وهي شقيقة بلادي
على مر التاريخ ، وقلب الوطن العربي الخنافق ، فإلى دمشق الشامخة ،

(١) سوريا التي نعنيها هنا هي التي انفرط عقدها فأصبحت سوريا —
لبنان — المملكة الأردنية الهاشمية — فلسطين (بما في ذلك المنطقة التي
استولى عليها الصهاينة) .

والغوفطة الفيحة أقدم هذا التاريخ الذي دُوِّن بإحساس طيب ولكن بمدق باللغة ، وقد أضفت لتاريخ سوريا كثيراً من المعلومات الجديدة على نحو ما فعلت مع مصر .

وسيمتد حديثنا عن سوريا حتى العصر الاضحى لنرى إسرائيل تعربد ضد لبنان وفلسطين ، وترتكب جرائم وصل من عنفها أن أدانها الإسرائييليون أنفسهم ، وسفرى كذلك دراسات عن الدروز والنصيرية .

وفي هذا الجزء حديث عن التحرب الصليبية ، وعن صراع الوطن العربي والوطن الاسلامي ضد الصليبيين الطامعين ، الذين يكتسبون أنفسهم ظلماً إلى دين السيد المسيح وهو منهم براء ، وإذا كنت لم أحضر بيضسى هذه المعرك ، فقد حضرتها بفكري ، واستوعبته ، ودَوَّنتها بدقة وإيجاز متخدذاً من الماضي عبرة للحاضر والمستقبل ، وراسماً للجيل الحاضر الطريق الذي سلكه أجدادهم ، فأبعدوا عن أرضنا الطيبة أقدام الفاتحين .

وفي هذا الجزء كذلك حديث عن الامبراطورية العثمانية ، وكانت مدة عدة قرون تمثل الاسلام والمسلمين ، ولها من الحسنات والمساوئ ما يدفعنا الى التعرف عليها وعلى تاريخها الذي ارتبط بتاريخ العرب حوالي أربعة قرون .

ونحن بهذا الجزء نحقق خطوة جديدة ومهمة في خطتنا التي رسمناها ، فنستكمل دراسة قطاع جغرافي أو منطقة من أبرز مناطق العالم الاسلامي ، وهي مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى الان ، والامبراطورية العثمانية منذ نشأتها حتى العهد الحاضر ، مع الحديث عن الحضارات التي قامت بهذه الأقطار على مر القرون ، وقد أفردنا الحروب الصليبية بحديث لأنها كانت طعنة موجهة الى العالم الاسلامي بأسره ، ثم إن إفرادها بحديث كان تتفيدا لخطتنا التي قررتها في مقدمة الجزء الأول من هذه الموسوعة ،

— ٢٠ —

بأن نخص الم الموضوعات ذات الشأن في التاريخ الاسلامي بعنية خاصة ،
وأن ندرسها مجتمعة ، ليكون ذلك أقرب إلى تناولها وفهمها .

وتشمل هذه الطبيعة تصوير الأحداث في فلسطين ، واقتحام اسرائيل
أرض لبنان ، والصراع الممرين في هذه المنطقة الحبية .

* * *

وبعد الجزء الخامس مصدر الجزء السادس ، وهو خاص بالإسلام
والدول الإسلامية جنوب صحراء إفريقيا منذ دخولها الإسلام حتى الآن ،
وهو مجلد كبير الحجم ، دقيق التخطيط ، كثير المراجع ، أزال الغموض
والخدس عن تاريخ هذه المنطقة وغمره بالضوء .

ومصدر كذلك الجزء السابع ، وهو يشمل التاريخ الاسلامي لدول
الجزيرة العربية والعراق .

ثم ظهر الجزء الثامن : ويشمل التاريخ الاسلامي للدول الإسلامية
غير العربية بآسيا .

إيران — أفغانستان — الباكستان — بنجلادش — ماليزيا —
إندونيسيا ، كما يشمل تاريخ الأقليات الإسلامية بالهند والصين والاتحاد
السوفييتي والفيليبين .

كما ظهر الجزء التاسع الذي يشمل تاريخ فترة كالحة في حياة مصر
هي فترة الحكم العسكري الظالم إبان عهد عبد الناصر .

وأوشك أن يظهر الجزء العاشر الذي يشمل تاريخ عهد أنور السادات
بما به من نجاح وفشل .

وادْعُ اللَّهُ مَعِي أَيْهَا الْقَارِئُ الْكَرِيمُ أَنْ يَمْدُدَنَا بِعُونَهُ وَتَوْفِيقِهِ
لِتَحْصِلُ إِلَى الْغَايَةِ الَّتِي رَسَّمْنَاهَا ، أَمَّا أَنَا فَأَعْدِدُ أَبْذَلَ أَقْصَى الْجَهَدِ

— ٤١ —

للوصول الى هذه الغاية ، مضحيا بكل ما يستلزم هذا العمل الكبير من
جهد مادي وأدبي .

* * *

ومن الواضح أن هذا الجزء جولة طويلة في أخطر منطقة في العالم
الإسلامي ، تدارستنا خلالها عدداً من الدول ، وطويينا عدداً من القرون ،
وقد استدعي ذلك مراجع جمة متسلسلة ، واستدعي متابعة الأحداث في
العصر الحديث والرجوع إلى الوثائق والمصحف بعنابة ومثابرة .

وهناك شيء عائيناه بصعوبة في هذا الجزء بوجه خاص ، ذلك هو
اختصار الأحداث الضخمة في هذا العصر المحدود من الورق ، وكانت
أمامنا موضوعات واسعة ذات مراجع متعددة يمكن أن تكتب في مجلدات
كثيرة ، ولكن كان أمامنا التخطيط الذي رسمناه منذ بدأنا هذه الموسوعة ،
والذي يقضى بإيجاز القول دون اخلال ، لنضمن بذلك كتابة التاريـخ
الإسلامي كله في هذه الأجزاء العشرة ، ولكن بدون أن نغفل أي حدث
ذى بال ، وقد كنت أترك الإيجاز كلما طرقت "باب" موضوع مهم ، فكتبت
أصوره تصويراً دقيقاً ، وأعلق عليه بإنفاسة .

* * *

وهناك صعوبة دقيقة للغاية في التاريـخ للحياة المعاصرة ، جعلـت
أكثر المؤرخين يتحاشون التاريـخ لهذه الفترة ، حتى لا يقع الواحد منهم
تحت تأثير رغبة أو رهبة ، ثم لأن الصورة لا تكتمل عن الحاكم أو المسئـول
وهو لا يزال في معركة الحياة ، فقد يترـى بعد رشد ، أو يرشـد بعد الزـلل ،

ومن أجل هذا نوجز القول عن تاريـخ الأحياء عندما نصل للحديث
عنهم ، فإذا أخـلـسوـاً مناصبـهم بالوفـاة أو بغيرـها درسـناـهم دراسـةـ كاملـةـ ،
وكانت الموضوعـيةـ هيـ المسـيـطـرةـ علىـ منـهجـ الـدرـاسـةـ ، فـليـسـ هـنـاكـ
مدحـ أوـ هـجـومـ ، وإنـماـ سـرـدـ الأـحـدـاثـ بـدقـقـةـ وـالـتـعـلـيقـ عـلـيـهاـ بـإـنـصـافـ .

- ٢٣ -

وتحقيقاً لهذه الخطة فقد أوجزت هنا القول عن عصر عبد الناصر
وعصر الساداتى ، أما الدراسة الشاملة عن هذين العهدين فقد سبق أن ذكرت
أنى خصمت لها جزأين من هذه الموسوعة هما :

- ١ - الجزء التاسع عن عصر عبد الناصر : عصر المظالم والهزائم
- ٢ - الجزء العاشر عن عصر الساداتى : عصر الرجل الذى نجح
ثم تالكه ، فكسر بالنجاح كما خسر سواه بالفشل .

* * *

وبعد ، لقد حوى هذا الجزء — فيما حوى — تاريخ بلادى الخبيثة ،
وهو تاريخ كتبه بكل الود ولكن مع كل الدقة ، بكل الحب ولكن مع
الانصاف والحق .

فallahem أدعوك أن تنفع بهذا الكتاب قارئه وكاتبته ، وأن يجعله خالصاً
لوجهك الكريم .

دكتور أحمد شلبى

المعادى فى أبريل سنة ١٩٤٨

مِصْرُ وَسُونَّا

عبدالولاة

«من الفتح إلى قيام الدولة الطولونية»

من الفتح (١٢ إلى ٥٣٤) حتى سنة ٥٣٤
م (٦٤١ - ٨٦٨) م

النقد :

فتحت سوريا ومصر في عهد عمر بن الخطاب ، وأصبحتا منذ ذلك الحين تثنان مركتين من أهم المراكز السياسية والفكرية في العالم الإسلامي ، وقد ارتبط تاريخهما ارتباطاً وثيقاً في أكثر الفترات بعد هذا التاريخ ، وقد جمعهما Stanley Lane Poole^(١) في مبحث واحد ووضع فيه أنه في فترات الاستقلال كانت مصر وسوريا تكوّنان دولة واحدة ، فقد تمت هذه الوحدة إبان العهد الطولوني والإخشيدي والشاطبي والأيوبي وعهد المماليك ، وحققتها إبراهيم باشا بن محمد على ، حتى تبلورت أوزبا وأرغعته على أن يتخلّى عن سوريا ، أما عهد التبعية فكان عهد انفصال ، كما حدث في زمن الحكم العثماني أو الزحف الأوروبي ، وواضح من هذا أن الانفصال يخدم الراغبين في إضعاف الجبهة التي تجعلها الوحدة

هيكل الجناح عظيمة السلطان

وتاريخ مصر وسوريا يستحق اهتماماً كبيراً لما تنتجهما في المنطقة ، وفي العالم العربي والاسلامي ، وفي المحيط الدولي ، ولذلك سنعني بدراسة هذا التاريخ وسننهم بالأخذات الكبرى المتعلقة بهذه المنطقة كالحروب الصليبية ، والنشاط الحضاري الذي رعيته هذه المنطقة وغيره .

الفتح الإسلامي لمصر وسوريا :

وقد تحدثنا في الجزء الأول من هذه الموسوعة^(٢) عن العوامل التي ساعدت على فتح سوريا ومصر ، وفيما يلى خلاصة هذه العوامل :

- كانت سوريا ومصر أرضاً محظوظة بالروماني ، وكان في هؤلاء غطرسة عالية ، فوضعاً أنفسهم موضع المسادة بالنسبة لأهل البلاد ، وفي

Minhammadan Dynastis pp. 67 ff.

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ج ١ ص ٥٧٦ وما بعدها من الطبعة الثانية عشرة .

- ٢٨ -

نفس الوقت كان السكان في سوريا ومصر يسمعون عن عدالة
العرب وحسن سيرتهم .

٢ - لم يكن الجنود الرومان مخلصين في الغرب ، لأن الجنود كانوا
يحاربون عن نظام يدركون أنه لا يحق لهم فيه ، يدافعون عن وطن
يملكه السادة بهـ حتى اضطر القواد ... إلـى أن يقيـدوا الجنود
بالسلسل حتى لا يفرـوا .

٣ - كانت مصر تعرف بمزرعة القمح ٠٠٠٠

٤ - أغار القوط على إسبانيا وأخذوها من الرومان ثباتات الامبراطورية
في التندسـع .

٥ - خلو الكنيسة من الحب والإخاء الروحي ، واختلاف الكنيسة القبطية
عن الكنيسة الرومانية في موضوع « طبيعة المسيح » .

٦ - قدم بعض المصريين وبعض السوريان مساعدات للجيش الزاحفـة
كانت من أسباب تيسير الفتح .

سيناء طريق الزحف العربي :

وقد وصل العرب مصر عن طريق سيناء، وسيـنـاء طريق عبرـة أكثر الذين
زحفوا على مصر من الشرق ، أو زحفوا من مصر إلى الشام ، فعن طريق
سيناء جاء الهكسوس إلى مصر ، وجاء الفرس والرومان والمسلمون العرب
والأتراك ، وعن طريق سيناء تحرك الفراعنة إلى الشام كما تحرك
الطلونيـون والأخـشـيدـيون والـفـاطـمـيون والـأـيـوبـيـون والـمـالـيـكـ وـمـحـمـدـ على
باشا ، ولهذا كانت سيناء منطقة مهمة بالنسبة لتاريخ مصر ، وتـجـبـ العـنـاـيةـ
بـهـاـ أـعـظـمـهـ عـنـاـيةـ لـيـكـونـ سـكـانـهـ عـمـلاـ وـزـرـاعـاـ ٠٠٠٠ـ منـ جـانـبـ وجـنـوـداـ منـ
جانـبـ آـخـرـ .

أهم آثار سيناء :

وتحوى سيناء معالم وأثاراً قديمة وحديثة أهمها :

— دير سانت كاترين : وقد أنشئ سنة ٣٦٠ م باسم دير السيدة العذراء ، وقد زارتة القديسة هيلانة في مطلع القرن الرابع وبنى لها جوزيستان سورا في القرن الخامس ، وسمى باسم كاترين في القرن التاسع اذ قيل ان رفات قدسية من الاسكندرية أعدتها الرومان سنة ٣١٧ انتقل الى هذا الدير ، وأن أحد الرهبان رأى في النام ان جثمانها على قمة جبل قريب من الدير ، فنتقل جثمانها للدير .

وبالدير مكتبة نفيسة ، وتابوتان من الفضة ، رسم على غطائهما صورة كاترين بالذهب ، وصندوقان من الفضة في أحدهما رأس القدسية وعلى تاج ذهبي مرصع بالجوهر ، وفي الثاني ذراعها مع خواتم مرصعة أيضاً .

— وداخل الدير يوجد مسجد بناء الخليفة الفاطمي الامر بن المستعلى (ت ٥٥٤ م ١١٣٠)

— ومن الأماكن الأثرية بسيناء جبل الطور وبجبل التيه وعيون موسى

— ومن الأشياء الحديثة المهمة التي تربط مصر بسيناء نفق أحمد حمدى .

وللتى حديث فيما بعد عن سيناء .

بعد الفتح :

وبعد فتح الشام ومصر أصبحت مصر والشام ولايتين طيلة ما تبقى من عهد الخلفاء الراشدين ، ولما جاء العهد الأموي أصبحت دمشق عاصمة الخلافة وظلت مصر ولاية تابعة للخلافة ، ولهذه الفترة خصص الجزء الثاني من هذه الموسوعة ، وجاء العهد العباسي فانتقلت الخلافة إلى بغداد ، وأصبحت سوريا ومصر ولايتين لخلفاء العاصمة المدورة ،

وفي الجزء الثالث من هذه الموسوعة حديث مستفيض عن سوريا بعد أن انتقلت عنها الخلافة ، وبخاصة تصوير المقاومة التي أبداها بقایا الأمويين و”من“ والاهم ، والصراع بين الدولة الناشئة والدولة الذاهبة^(١) ، ولما في هذا العصر حركات ثورية شملها الجزء الثالث أيضاً وسنعود لها هنا بمزيد من البيان ، وبعد اثنين وعشرين عاماً من مطلع العصر العباسي الثاني بدأت حياة الاستقلال لمصر ولسوريا ، وكان أحمد بن طولون أول من حقق ذلك الاستقلال .

ذلك قول موجز ، نتبعه بشيء من التفصيل ، مبتدئين بعصر الولاية ، سائرين إلى عصور الاستقلال .

العرب في مصر وسوريا :

كان السوريون والمصريون يعتبرون العرب الفاتحين قوماً من بني جنسهم ، فقد هاجر العرب من الجزيرة العربية إلى سوريا ومصر قبل الإسلام بآلاف السنين ، ويقرر أكثر المؤرخين أن أجداد «مينا» مؤسسين أول أسرة من الأسر الفرعونية هم من الأجناس السامية يدلل أن ما وصلنا إليه من لغة الفراعنة نشأنا نحن العنصر الإفريقي والعنصر السامي وأن الأخير غالباً على الأول^(٢) ، وعلى هذا فعندما دخل العرب المسلمون مصر وسوريا لم يعذّهم السكان الأصليون من الأجانب الغاصبين ، ولذلك يمكن القول إن الفتوحات الإسلامية هي عند التحقيق انقلاب اجتماعي سياسي استرد به الشرق الأدنى مجده السامي الغابر ، فقد جاء الإسلام مهيّباً بالشرق إلى التهوض بهن كبوته بعد ألف سنة اجتاحته فيها سطوة الغريب ، فاستطاع الشرق بالإسلام أن يسترجع هاضيه الجيد لا في

(١) ص ٢٠ ، ٤٣ ، ١٥٠ ، ١٥٣ .

(٢) عمر الاسكندرى ومجراج سفديج : تاريخ مصر إلى الفتح العثماني من ٦ وانظر دراسة واسعة عن هذا الموضوع في الجزء السادس من هذه الموسوعة ص ٦٢ وما بعدها .

ميدان السياسة فحسب بل في ميدان الثقافة أيضاً حيث تنسى له أن يعيد سعادته الفكرية (١) .

ويمكن القول إن الفرس والمصريين والسوريين رأوا في الإسلام متنفساً وسماحةً أنفقتهم من الطغيان والإكراه والاستغلال "الله عاشوا تحت ضفافها مدة طويلة ، فلقد ضمن الإسلام لهم حرية الأديان ، وأعفاهم من الأعمال العسكرية نظير دفع جزية ضئيلة إلا من شاء أن يدخل صفووف المدافعين عن البلاد فله أن يدخل ويعرفن من الجزية مع بقائه على دينه ، وترك المسلمين الأرض لاصحابها على أن يدفعوا خراجها وهو أقل بكثير مما كان يأخذه الأكاسرة والقياصرة الذين كانوا يعتبرون أنفسهم ملوك الأرض ولرقيق الأرض ، وأمن المسلمين الأهلين على أموالهم ونسائهم وأولادهم ، ورأى الأهلون في المسلمين المساواة التي كانوا لا يحلمون بها (٢) ، وقد كان لرابطة الدم ورابطة التعاون والمساواة أكبر الأثر في خلق جو من التertiبي بين العرب وبين المصريين والسوريين في أغلب فترات التاريخ الإسلامي بهذه البلاد .

نصوص من البردي تصف الفتح الإسلامي لمصر :

ونصوص البردي المعاصرة لعمد الفتح تظهر لنا أن الغزاة المسلمين لم يكونوا مجرد غزاة مغامرين ، وإنما كانوا يحملون حضارة ، كما كانوا محاربين منظمين أقوياء يحملون أسلحة من الحديد والرصاص ، ويقاتلون ببسالة في سبيل عقيدة اعتقوها بالخلاص ، وقد تحررت مصر بهم من الضغط العبيذني ورحبت بأبنية الصحراء الذين نادوا فيها بحرية العقيدة كما تشهد بذلك وثائق من البردي احدها مؤرخة في ١/٨/٦٤٢ م -

Hitti : History of the Arabs vol. I pp. 194,198

(١)

Kirk : A Short History of the Middle East p 29

(٢)

وانظر التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية للمؤلف ج ١ من ٥٩٣ من الطبعة الثانية عشرة .

الثلاثاء آخر المحرم سنة ٢٢ وتشهد نصوص أخرى من عصر الفتح بأن المسلمين الفاتحين حموا دماء المصريين وأملاكهم واحترموا شخصية البلد العربية النابعة من حضارة قديمة . وفي كتابة الأسقف يوحنا ، المعاصر ل بتاريخ الفتح ، اعتراف بأن عمرو بن العاص لم ينزع شيئاً قط من أملاك الكنيسة .

ولاة مصر قبل الطولانيين :

تولى إمارة مصر منذ الفتح الإسلامي حتى استقل "الطلولونيين" بها ستة وستون واثلية ، وقد تولى بعضهم مرتين ، وببعضهم تولى ثلاثة مرات ، فبلغ عدد المعهود التي صدرت لولاة بمصر مائة عهد ؛ وفيما يلي أشهر هؤلاء الولاة :

عصر الخلفاء الراشدين :

| | |
|--------|------------------------------|
| سنة ٢١ | — عمرو بن العاص |
| ٢٥ » | — عبد الله بن سعد بن أبي سرح |
| ٣٥ » | — قيس بن سعد بن عبادة |
| ٣٦ » | — محمد بن أبي بكر |

العصر الأموي :

| | |
|------|----------------------------------|
| » ٤٣ | — عتبة بن أبي سفيان |
| » ٤٧ | — مسلمة بن مخلد |
| » ٦٥ | — عبد العزيز بن مروان |
| » ٨٤ | — عبد الله بن عبد الملك بن مروان |
| » ٩٠ | — قرعة بن شريك |

— ٤٣ —

- ١٠٥ » — محمد بن عبد الله بن مروان
 ١٠٨ » — حفص بن الوليد
 ١١١ » — الحكم بن قيس
 ١٣٢ » — عبد الله بن مروان بن موسى بن نصير

العصر العباسي :

- سنة ١٣٣
 ١٣٣ » — صالح بن علي
 ١٤٤ » — عبد الله بن زيد الخراساني
 ١٤٥ » — ميزيد بن حاتم بن قبيصة
 ١٥٩ » — عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن العباس
 ١٦٢ » — مطر مولى المنصور
 ١٦٥ » — واضح مولى المهدى
 ١٦٦ » — ابراهيم بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس
 ١٦٩ » — الفضل بن صالح
 ١٧١ » — علي بن سليمان بن علي
 ١٧٦ » — موسى بن عيسى بن موسى
 ١٧٨ » — جعفر البرمكي « حاكم فخرى أثاب عنه عمرو بن مهران »
 ١٧٨ » — هرشة بن أعين
 ١٨١ » — عبد الملك بن صالح
 ٢٠٠ » — اسماعيل بن صالح
 — السرى بن الحكم

| | |
|-----------|---------------------------------|
| ٢٠٥ » | — ابنا السرى (محمد فعبد الله) |
| ٢١١ » | — عبد الله بن طاهر بن الحسين |
| ٢٣٥ » | — إيتاخ التركى |
| ٢٣٨ » | — عتبسة بن إسحق |
| ٢٤٢ » | — الفتح بن خاقان |
| سنة ٢٥٣ | — مزاحم بن خاقان |
| ٢٥٤ » | — باكباك التركى |
| (١) ٢٥٦ » | — يارجوخ التركى |

وستتكلم كلها موجزة عن الولاية الذين ارتبطت باسمهم أحداث ذات بال (١) ، وكان للولاية على العموم مطلق التصرف فيما يوافق سنن الاسلام وتقضيه العدالة ، ولكن كان لوجوه الناس وأهل الرأى وأكابر العلماء والفقهاء عند الوالى قول مسموع ورأى متبع (٢) *

عمرو بن العاص :

وأبرز الولاية عمرو بن العاص وهو أول من ولى مصر بعد أن قاد بنجاح جيش الفتح ، وقد ظلَّ ولانيا عليها طيلة عهد عمر ، وعزله عثمان ، ولكنه عاد لولاية مصر من قبل معاوية مكافأة له على وقوفه بجانبه في صراعه ضد علي بن أبي طالب * ولعمرو بن العاص منشآت مشهورة بمصر ، ولوه كذلك مواقف اجتماعية طيبة ، فهو الذي أسس مدينة القسططاط ، وبنى

(١) زامباور : معجم الأنساب والأسرارات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ج ١ ص ٣٨ - ٤٢ .

(٢) مرجعنا الرئيسي للحديث عن هؤلاء الولاية هو كتاب الولاية والقضاء للخندي .

(٣) عمر الاسكندرى : تاريخ مصر الى الفتح العثماني ص ١٧٢ .

جامعه الشهير ، وأعاد حفر القناة التي تصل النيل بالبحر الأحمر وأطلق عليها « خليج أمير المؤمنين » ، وأنشأ مقاييس النيل في مواضع مختلفة .

ومن مواقفه الاجتماعية حسن سياساته مع المصريين غير المسلمين ، فقد أعمل البطريرك بنيامين كتاباً ، وأعاده إلى كرسيه بعد أن أقصاه عنه الرومان حوالي ثلاثة عشرة سنة ، وترك له إدارة شئون الكنيسة الدينية والإدارية ، وحثَّ عمرو الجند العرب على الاختلاط بالسكان الأصليين والتحبيب إليهم ، ونظم عمرو جبائية الخراج بدون ظلم ، وأنقض المقدار الذي كان يرسله منه للمدينة ليستطيع إتمام المنشآت التي كان يشيدها بمصر ، وعرف عنه تأجيله لجمع الخراج عند ما اقتضى الصالح العام ذلك ، كما أنه جعل تحديد الخراج مشروطاً بزيادة النيل ، وقرر في العهد الذي كتبه للمصريين أنه لا إن نقض نهرهم عن غaitه وقع عنهم بقدر ذلك)١() .

ومن ولادة مصر الشاهير في عهد الخلفاء الراشدين عبد الله بن سعد ابن أبي السرح وقيس بن عبادة الأنصارى ومحمد بن أبي بكر وقد مر ذكرهم في الجزء الأول من هذه الموسوعة .

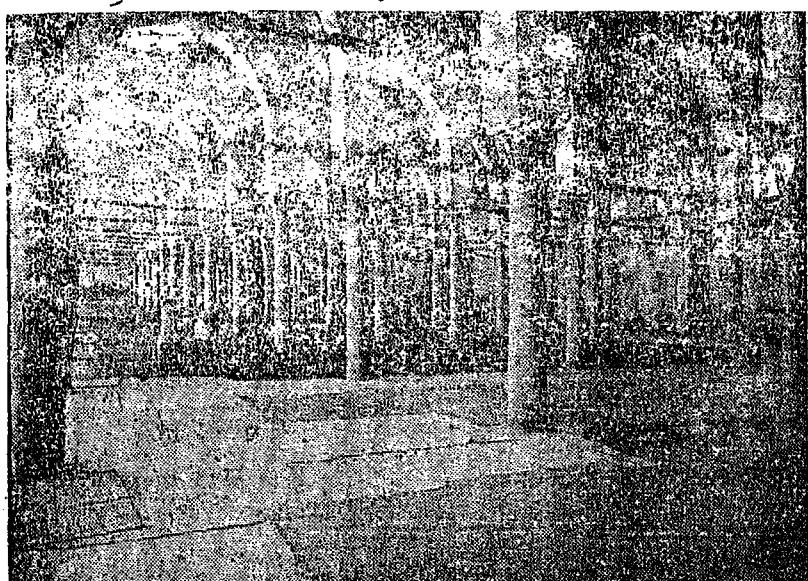
الإسلام في بلاد النوبة :

وعلى يد عمرو بن العاص وخليفه عبد الله بن سعد بن أبي السرح دخل الإسلام بلاد النوبة ، فقد قاد الثاني جيشاً الأول وغزا بلاد النوبة سنة ٤٢١هـ وحقق بعض النصر ، ثم عاد إبان ولائته فغزا بلاد النوبة غزوة موقعة سنة ٤٣١هـ ، ووصل في هذه الغزوة إلى دنالة ويقع مع حكام النوبة معاهدة « البقط » وقد ظلت معمولاً بها حتى عهد المأمون)٢(، وسنعود

(١) أبو يوسف : الخراج ص ٨٨ ، ١٠١ والقلقشندى : صبح الأعشى ١٣٢ ص ٣٢٤ .

(٢) انظر تاريخ الشعوب الإسلامية لكارل بركلمان ج ٤ ص ١٣١ .

- ٢٧ -



مسجد عمرو بن العاص بالقدس

من الداخل

— ٣٧ —

لهذا الموضع بمزيد من التفصيل فيما بعد (١) .

مسامة بن مخلد :

ومن الولاة المشاهير في العهد الأموي مسامة بن مخلد الأنصاري (٤٠ - ٦٥ هـ) وهو الذي أعاد بناء جامع عمرو بعد أن تمشت بعض جدراته ، وبنى مساجد أخرى كثيرة ، وجعل لها كلها هنارات عالية ، وسمح للقبط ببناء كنيسة في الفسطاط .

عبد العزيز بن مروان :

ومن أشهر الولاة أيام العهد الأموي عبد العزيز بن مروان الذي أمضى أطول مدة قضتها وال مصر (٨٤ - ٩٥ هـ) وكان شقيق الخليفة عبد الملك بن مروان وولي عهده ، ولكن الخليفة أغراه بالتنازل عن ولاية العهد ليجعلها في أبنائه ، فقبل ، وأعطاه الخليفة مصر نظير ذلك لتكون طعمة له ، فلم يكن يبعث إلى دمشق بشيء من الخراج ، وقد تربى بمصر ابنته طيبة الذكر عمر بن عبد العزيز ، وقد اتخذ عبد العزيز بن مروان مدينة حلوان عاصمة للبلاد ، فغرس فيها الأشجار والنخل وبنى المساجد والأبنية الضخمة التي تكاثفت حوالي مليون من الدنانير (٢) .

عبد الله بن عبد الملك وترجمة الدواين :

عبد الله من أشهر ولادة مصر ، ففى عهده ترجمت الدواين بمصر إلى العربية بدل القبطية . وفي عهده بدأ كثيرون من أهل الذمة يهجرون قراهم ليتهربوا من دفع الجزية .

(١) عند الكلام عن «المماليك» عقدنا فصلاً بعنوان «المماليك وبلاط التربية» تتبعنا فيه علاقة شمال الوادى بجنوبية .

Stanley Lane-- pool : Egypt in the Middle Ages p. 29

(٢)

قرة بن شريك :

ومن ولاة مصر المشاهير قرة بن شريك ، وقد انتشرت الأساطير عنه بأنه كان واليا ظالما ، والحقيقة أنه كان سمحا عادلا ، وكل ما في الموضوع أن مسألة الهرب من دفع الجزية والضرائب التي بدأت في عهد سلفه عبد الله بن عبد الملك زادت في عهده ، واندفع الزراع من أهل الذمة يتلقون من مكان الذي مكان حتى لا يلتزموا بدفع ما وجب عليهم ، وتتبعهم قرة ليعيدهم إلى مقارهم ، ليس فقط ليأخذ منهم الجزية بل ليتابعوا الزراعة التي أوشكت أن تتوقف وتهدد ثروة مصر ، وبمع إلزام أهل الذمة بالإقامة فإنه اهتم بأن تكون العدالة أبرز أخلاق حكام الأقاليم ، وكان يعاقب ولاته على الأجحاف والقسوة مع الأهالى ، وكان يتجاوز عما يتغدر على دائنيه الضرائب لأن يدفعوه ، ويبيدو أن أهل الذمة هم الذين روجوا الإشاعة التي تتهمه ظالما بأنه ظالم .

صالح بن علي العباسى :

ومن أشهر ولاة العصر العباسى صالح بن علي عم الخليفة العباسى الأول ، وهو الذى شبع مروان بن محمد على إثر فراره من موقعة الزاب . وظل يلاحقه حتى قتل بمصر سنة ١٣٢ (١) . وظل صالح واليا على مصر بعد أن أصبحت تابعة لبني العباس ، ومن أهم المنشآت التي تنساب إليه تشييده عاصمة جديدة للجند هي « العسكرية » التي أصبحت ثانية عاصمة إسلامية بمصر ، وقد بني بها دارا لللامارة ومسجدًا كبيرا يبعد ثانى المساجد الجامعة بعد المسجد العتيق (مسجد عمرو) .

موسى بن عيسى بن موسى :

ومن الولاة العباسين المشاغير موسى بن عيسى بن موسى وهو

(١) انظر الجزء الثالث من هذه الموسوعة ص ٥٢ - ٣٠ من الطبعة السابعة .

أيضاً من بيت الخلافة العباسية وكان أبوه ولياً للعهد ، ولكنه أُرغم على التنازل ، وقد عرف موسى بالعدل مع المصريين ، وكان حسن المعاملة للقبط .

السرى بن الحكم وبده الحركة الاستقلالية :

ومنهم كذلك السرى بن الحكم (٢٠٥ - ٢٠٦) وقد اتخذ مقره في مدينة تتنيس قرب بحيرة المنزلة ، وجعل ولاية مصر إرثاً في أسرته ، ونجح في ذلك فتولى بعده ابناه محمد فعبد الله ، وكان السرى بذلك أول من ظلم في الاستقلال بشئون مصر الداخلية .

وفي عهد السرى بن الحكم بدأت الحركة الاستقلالية بمصر تلك الحركة التي تقرر اعتناق الإسلام والاستقلال السياسي ، وقد تَمَّتْ هذه الحركة في عهد الطولونيين والاخشيدين ، وكملت في العهد الفاطمي كما سُنِّي فيما بعد .

عنبرة بن إسحق آخر الولاة العرب :

ومنهم كذلك عنبرة بن إسحق الذي ولَى مصر أربع سنوات (٢٣٨ - ٢٤٢) وعرف بالعدل والورع والكفاءة العمالية ، وفي عهده حاول « على بابا » ملك النوبة أن يتمدد على المعاهدة التي كانت بين بلاده وبين مصر ، بل زحف تجاه مصر غازياً ، ولكن عنبرة هزمها ، ورده على عقبه ، وحمله على الاستمرار في الأخذ بالمعاهدة . وقد اتتهم عنبرة بمشاركة الخوارج ، فكانت هذه التهمة سبباً في ابعاده عن ولاية مصر .

وكان عنبرة آخر من ولَى مصر من العرب ، فإن الأتراك الذين جلُّهم المعتصم أصبح لهم السلطان ابتداءً من عهد المُتوكل ، وتبعاً لذلك أصبحت المناصب الكبيرة والولايات العظيمة خاصة للأتراك ، وأُنسقط العرب والفرس من الديوان ، وكانت مصر من هذه الولايات التي أُسندت للأتراك ، ولم تمض فترة طويلة حتى آلت ولاية مصر لأحد هؤلاء الأتراك ، ولكن هذا

— ٤٠ —

الوالى (هو أحمد بن طولون) استقل بمصر ثم زحف الى سوريا فشنهمها الاستقلال أيضا تحت سلطانه ، وبذلك انتقل بتاريخ البلدين من عهد إلى عهد .

ولاة سوريا قبل المطalonين :

أما سوريا فقد سبق أن ذكرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب أن أبو عبيدة بن عامر الجراح تسلم قيادة الجيش من خالد بن الوليد وبعد موقعة اليرموك اتجه أبو عبيدة ببعض الجيش الى الشمال ، وتم له فتح النقطة الشمالية الى حلب ، وقد مات أبو عبيدة في عهد عمر .

وكان يزيد بن أبي سفيان قائدا لأحد الجيوش الأربعمة التي وجهها أبو بكر لفتح الشام ، وكانت وجهته دمشق ، ولا أراد أبو بكر أن يرسل مددأ لهذه الجيوش كان معاوية على رأس المدد الذي أرسل ليزيد ، وحارب معاوية تحت إمرة أخيه ، وتولى قيادة الفيلق الذي فتح صيدا وبيروت وغيرها من سواحل الشام ، ولما تم النصر لل المسلمين في عهد عمر ولـى عمر يزيد ولاية دمشق ، كما جعل معاوية واليا على الأردن ، فلما توفي يزيد ضم عمر الى معاوية ولاية دمشق ، وفي عهد عثمان جمعت لعاوية ولاية الشام كلـه ، وظل أميرا للشام عشرين عاما حتى آلت إليه الخلافة عقب عصر الخلفاء الراشدين (١) .

وأصبحت الشام مركز الخلافة الأموية فلم يعد بها ولاة بطبيعة الحال ، ولـما سقطت خلافة الأمويين وقامت دولة بنى العباس ، حرص الخلفاء الجدد على أن تكون الشام لأفراد منهم أو لأقوى أنصارهم حتى يمكنهم إخضاع من تراوده نفسه بالثورة ضد الحكم الجديد سواء من الأمويين أنفسهم أو من أتباعهم والمعصيـن لهم ، ومن ولاة الشام المشاهير في العصر العباسي ذكر :

(١) انظر الجزء الثاني من هذه الموسوعة .

— ٤١ —

| | |
|-----------------|--------------------------------|
| سنة ١٣٢ | — عبد الله بن على |
| » ١٣٦ | — صالح بن على |
| » ١٣٦ | — عبد الوهاب بن ابراهيم الامام |
| » ١٧٥ | — ابراهيم بن صالح بن على |
| » ١٧٦ | — موسى بن يحيى بن خالد البرمكي |
| » ١٧٧ | — عبد الملك بن صالح |
| » ١٨٠ | — جعفر البرمكي |
| سنة ١٩٨ | — طاهر بن الحسين |
| » ٢٠٥ | — عبد الله بن طاهر |
| » ٢١٣ | — المعتصم |
| » ٢١٤ | — العباس بن المؤمن |
| · · · · · · · · | |
| » ٣٦٤ | — على بن أماجور |

[هزمه أحمد بن طلوبن واستولى على دمشق (١)]

وهو لاء الولاة — فيما عدا الوالي الأخير — مر ذكرهم فيما سبق من أحاديث في الأجزاء السابقة ، إنهم صفة أعلام ، وهم من بيت الخلافة العباسية أو من المقربين لبني العباس ، ولهذا لستنا في حاجة لنعيد القول عنهم ، أما الوالي الأخير فليس في تاريخه ما يستحق الذكر .

(١) زامباور : معجم الانساب والأسرات الجاكرة في التاريخ الإسلامي
ج ١ من ٤٣ .

أشهر الأحداث في عهد الولاة

هناك أحداث كبرى جرت بمصر وسوريا خلال عهد الولاة ، واهتم بها الباحثون والمؤرخون اهتماماً كبيراً ، وسنذكر هنا أبرز هذه الأحداث .

مكتبة الإسكندرية و موضوع حرقها

لعل من الأوفق أن نبدأ استعراض هذه الأحداث بالكلام عن مكتبة الإسكندرية ، فإن التاريخ الذي يذكره أولئك الذين ينسبون حرقها للعرب تاريخ يرجع إلى عهد معاشر والى مطلع حياة العرب بمصر ، ومن هنا لزم أن نبدأ بالحديث عن هذا الاتهام ومداه .

الإسكندرية – كما هو معروف – كانت عاصمة مصر قبل الفتح الإسلامي ، وكانت مركزاً مهماً من مراكز الثقافة في العالم ، وقد استدعي ذلك أن وجدت بها مكتبة عظيمة حوت مجموعة كبيرة من الكتب في مختلف العلوم والفنون ، وهناك قصة تقول إن عمرو بن العاص أحرق هذه المكتبة بإشارة من الخليفة عمر بن الخطاب ، وهذه القصة ينكرها البحث العلمي ، فمن الثابت أن يوليوبس قيسار هو الذي أحرق مكتبة البطالمة العظمى حين غزا البلاد المصرية سنة ٤٤٨ق.م ، أما المكتبة الصغرى التي نشأت بعد ذلك فقد أختلفت بأمر الإمبراطور تيودورز حوالي سنة ٣٩٣م ، وأندثرت مكتبات الإسكندرية بعد ذلك ، فلم يكن في الإسكندرية حين الفتح مكتبة ذات شأن (١) .

وبالإضافة إلى ذلك فإن أحداً من الكتاب المعاصرين للفتح لم يذكره الخليفة أو عامله بحرق هذه المكتبة ، ولم يذكرها ثقات المؤرخين السابقين أمثال البيعقي والبلاذري وأبن عبد الحكم والطبرى والكسدري ، ومن أخذ منهم كابن الأثير وأبن شعري بردى والسيوطى مع أن ما كتبه هؤلاء عن تاريخ مصر يُعد من أوثق المصادر وأدقها .

وأول من تحدث عن حادثة إحراق عمر المكتبة هو عبد اللطيف البغدادي المتوفى سنة ٥٦٢هـ ولم يذكر لكلامه مرجعاً ، وكان حديثه عابراً ، فقد كان يصف عمود السواري والمساحة المحيطة به ، ثم قال عن هذه المساحة أنه كان بها الرواق الذي جلس به أرسطو وشيعته للتعلم ، وبه دار العلم التي بناها الإسكندر ، وفيها كانت خزانة الكتب التي أحرقها عمرو بن العاص بأمر من عمر رضي الله عنه (١) ، وقد التقط هذا الخبر منه مؤرخ مسيحي هو أبو الفرج بن العبرى فنماه وأدّاه (٢) وجعله أسطورة منعقة مفصلة دون أن يكون له أساس . وقد عرف عن العرب حرصهم على كتب العلوم والفنون ، فهم الذين أخرجوا كتب اليونان من مخابئها ، وكانت هذه الكتب عند المسيحيين هرطقة وضلالاً (٣) .

ويمكن أن نزيد اتجاهنا تأكيداً بمسألة مهمة ، فقد ذكرت الروايات التي تنسب للعرب حرق المكتبة «أن يوحنا النحوي قابل عمرو بن العاص بشأن هذه المكتبة» ولكن يوحنا لهذا مات قبل استيلاء العرب على الإسكندرية بثلاثين أو أربعين عاماً ، وهذا ينقض الرواية من أساسها (٤) .

ويُسخر الباحثون المسلمون من رواية ابن العبرى وبخاصة أن بها عناصر القضاء عليها ، فهو يقول «فشرع عمرو في تفريغها على حمامات الإسكندرية وأحرقها في موادها فاستندت في مدة ستة أشهر ، فاسْمَع ما جرى وأعجب» ويرى هؤلاء الباحثون أن الخليفة لو طلب من عمرو إحراق هذه الكتب لما كان له أن يفرغها على الأفران لأن أصحاب الأفران كانوا يستطيعون بيعها أو الاحتفاظ بها ، ثم أنها كانت مكتوبة على «الكافد» وهي مادة لا تصلح للاحتراق ، وكيف يتصور أن تبقى ستة

(١) الأفاده والاعتبار من ٢٨ .

(٢) تاريخ مختصر الدول من ١٧٥ - ١٧٦ .

Hitti : History the Arabs vol. I p. 222

(٣)

Butler : The Arab Conquest of Egypt pp. 401 ff

(٤)

— ٤٤ —

أشهر مع أن حمامات الاسكندرية كانت حوالي أربعة آلاف (١) .

وقد اتجه جورج زيدان في كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » إلى الدفاع عن المسلمين وتبينتهم من هذا العمل البربرى ولكنه في كتابه « تاريخ التمدن الاسلامي » عدل عن هذا الرأى ومال إلى اتهام المسلمين بحرق هذه المكتبة لأسباب ينقصها الدقة ، أهمها أن المسلمين كانوا يرون ان القرآن الكريم صفوۃ العلوم والمعارف ، ولم يجدوا حاجة لمساواه (٢) ، وهو استنتاج ناقص متأثر بالاتجاه المسيحي في هذا الكاتب ، فال المسيحية هي التي رأت أن الكتاب المقدس (التوراه والإنجيل) هو كل شيء ولا حاجة لمساواه *

أما المؤرخون الأجانب فقد ناقشوا هذا الاتهام وانتهوا إلى رفضه ، وأن عبد اللطيف البغدادي ، ذكر ذلك عرضا عند كلامه عن عمود السوارى ، ولعله سمع كلاما كهذا من العوام أو من الحانقين على العرب ، ومن هؤلاء المؤرخين جبون وبتلر وسديبو ، وفي ذلك يقول سديبو انه لم يقع في الاسكندرية انتساب قط ، ويتعذر علينا أن نعتقد صدور أمر بدم بارد بمثل هذا العمل البهيج ، ولا تجد مؤرخا معاصرًا لفتح الاسكندرية يروي هذا الخبر ، ويقرر التاريخ أن مكتبة الاسكندرية دمرت في عهد يوليوس قيصر وفي عهد تيودور (٣) .

وهما يؤكد هذا الاتجاه قول أورازيموس انه وجد رفوف المكتبة خالية من الكتب عند زيارته مدينة الاسكندرية في أوائل القرن الخامس اليسلامي (٤) .

(١) دكتور حسن ابراهيم . عمرو بن العاص ١١٤ - ١١٥ .

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ٤٦ - ٤٧ .

(٣) History Général des Arabes p. 150

(٤) نقل عن : تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ص ٣٦٣ .

وعلى هذا فاتهام المسلمين بحرق المكتبة اتهام ظالم لا يقوم على أي أساس سليم .

وقد نقل الباحث العلامة الأستاذ محمد كرد على بعض أقوال المستشرقين التي تنتفي عن المسلمين هذه التهمة نفياً قاطعاً ، ونقتبس بعض العبارات منه (١) :

— إن أفتيلوس بطيريك الاسكندرية ، مع توسيعه في الكلام على استياء المسلمين على شعر مصر لم يذكر كلمة واحدة عن حريق عمرو ابن العاص لهذه الخزانة .

— ذكر إرفنج وكريستون وفلين وغيرهم أن ما أشيع حول حرق الخزانة ، ونسبة ذلك للMuslimين لم يكن له ذكر لدى الباحثين في أوروبا قبل نقل كتاب مختصر الدول إلى اللاتينية ، ومنذ ذلك الحين تمسك بعض الباحثين بهذه الفكرة ، وبدأوا يهاجمون المسلمين .

— قال فوت واهلوبلر في كتابهما (جنایات الأوربيين) : إن الأسقف تيوفيل هو الذي أحرق خزانة الاسكندرية لا المسلمين ، فالدين الإسلامي لا يبيح إحراق الكتب .

— وقال بونه موري : يجب أن نصحح خطأ شاع طوال القرون الوسطى ، وهو أن العرب أحرقوا خزانة الاسكندرية بأمر الخليفة عمر ، والحال أن العرب في ذلك العصر كانوا أشد اعجاباً بعلوم اليونان وفنونهم مما كان لهم مع ذلك أن يقدموا على عمل كهذا ، وقد أحرقت هذه الخزانة قبل ذلك بزمن طويل

— ويعلق الأستاذ محمد كرد على على حماسة المستشرقين الذين قبلوا هذا الاتهام دون بحث واستقصاء بقوله : إن هؤلاء المستشرقين

(١) الإسلام والحضارة العربية (ج ١ من ترجمة روما بعدها .

— ٤٦ —

يتمسكون بتهمة لا أساس لها ، ومن ناحية أخرى تعرض أمامهم حقائق عن حرق الكردينال كسيمنس كتب المسلمين في ساحات غرناطة ، فيمرون على ذلك مروراً عابراً أو يحاولون تبرئة هذا الكاردينال من هذه الورقة كما أن علماء الغرب لم يكتبوا قليلاً أو كثيراً عما فعله الصليبيون بمكتبة طرابلس حين أمر سنجيل بإحرق كتب دار العلم وكان عددها أكثر من مائة ألف مجلد .

انتشار الإسلام في سوريا ومصر

إن انتشار الإسلام في سوريا ومصر يرتبط بما كان البلدان يعانيانه في ظل الاحتلال البيزنطي قبل الإسلام ، وقد انتصرا لثما من دراسة ظروف الفتح (١) أن السكان بمصر وسوريا تعاونوا في حالات كثيرة مع العرب الزاحفين للقضاء على الحكم البيزنطي ، وما إن تم الفتح حتى بدأ دخول المصريين والسوريين دين الإسلام ، بل تشير المصادر التي عاصرت الفتح إلى أن عدداً من المصريين من بينهم أحد رهبان دير بسينا قد أسلم قبل أن يتم فتح مصر بصفة نهائية ، وكان هؤلاء أكبر عومن للعرب في تقديمهم (٢) .

وما إن تم فتح مصر حتى وقعت حادثة كانت شديدة الأثر في نشر الإسلام في مصر ، فقد حدث أن ثارت قرية من قرى البحيرة ضد المسلمين ، ووقعت معركة بين المسلمين وهؤلاء ، وانتصر المسلمون في المعركة ، وأسرموا بعض الأهلالي ، وأرسلوا الأسرى إلى المدينة المنورة ، ولكن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه كان حريصاً على أن تكون المغارك ضد الروم لا ضد المصريين ، فكرم الأسرى وأعادهم إلى مصر احراراً ، وأمر أن يترك لهم الأمر ليدخلوا الإسلام ويكون لهم مال المسلمين وعليهم ما على المسلمين ، أو أن يبقوا على دينهم ويدفعوا الجزية .

وقد كان هذا الموقف شديد الأثر على هذه الأسر وعلى كل من سمع عن هذه المعاملة ، فدخل عدد كبير الإسلام (٣) .

وكان المصريون والسوريون قد أنهكتهم الأعباء المالية التي فرضها عليهم الرومان ، وكان هناك ضغط عدائى سياسى واجتماعى لا يقل عن

(١) في الجزء الأول من هذا الموسوعة .

(٢) هنا التقىوسى : تاريخ هنا التقىوسى من ٥٨٥ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب من ١٢٢ - ١٢٣ .

الضغط الاقتصادي ، وعندما استقر العرب بسوريا ومصر ظهر الفرق واضحًا بينهم وبين البيزنطيين ، فلم يَفْسَدْ العرب أنفسهم موضع السادة ، ولم يعاملوا السوريين والمصريين معاملة المهزوم ، بل أحسن السوريون والمصريون بغيض من الحرية الدينية والاجتماعية ، ويتنظيم اقتصادي بعيد عن العسف والطغيان فجذبهم ذلك إلى الإسلام ٠

وكان هناك اختلاط يتم بطبيعة الحال بين المسلمين والأقباط لسبب أو آخر ، وقد نتج عن هذا الاختلاط أن تعرف الأقباط على دين الإسلام ، فأخذت وفوادهم تدخل هذا الدين من حين لآخر ، ومن هؤلاء جماعة من المصريين تعاقنوا مع المسلمين في حراسة الأقاليم الشرقية لمصر ، وأدى ذلك إلى أن اختلط هؤلاء بالحراس المسلمين ، ويوماً بعد يوم أبدى المصريون إعجابهم بالإسلام والمسلمين ، وأعلنوا دخولهم دين الله (١) ٠

ومثل هذا الاختلاط حدث في المدن ، فقد سكن بعض المسلمين في الدور التي أخلاها الرومان بين ذور المصريين وبخاصة في دمياط ورشيد ، وأتاح الاختلاط فرصة للدعوة للإسلام فاعتنقه الكثيرون من الجيران (٢) ٠

وكان الجيش العربي يشمل كثيراً من الفقهاء والعلماء وطلاب العلم والدارسين ، ولما تم النصر للعرب أطلق السيف المجال للفكر ، فبدأت الدعوة الإسلامية تتضخم وتنتسع ، وتتوالى دخول الناس في الدين الجديد ٠

وهناك ظروف ساعدت على انتشار الإسلام ، منها أن المسيحية لم تكن عميقه في نفوس السكان ، فأكثرهم دخلها بعد أن أُعترف بها قسطنطين ، فأصبحت دين المستعمر ، وكان السكان لذلك لا يقبالون عليها إقبالاً كاملاً ٠ ومنها ما يذكره I.R. Hall من أن السكان غيروا ديانتهم مرة فسهل ذلك عليهم تغييرها مرة أخرى ، فالدين الأقوى في الحالين جرف الدين

(١) الكندي : الولاية والقضاء ص ٣٩٧ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب في أماكن مختلفة .

الأشعف، الذي تسبح في له (١) شرم إن المسيحية كانت هادئة بالإرتباك والانقسامات والغدر، فتزعزع الاعتقاد بها في نقوص دشمني من السكان، ورهبوا بالاسلام عندهما تعرفوا عليه واستقروا بهادئه.

ثم جاءت موجة الزحف العربي الى مصر أرض النيل العذق، والمياه كانت أمل العرب، وكان تاريخ مصر وأمجاد مصر معروفة وبشارة في المنطقة، ومن هنا انهالت القبائل الى مصر، وفي بعض الحالات حدثت خلافات بين هذه القبائل وبين هرذن الخليفة، فلم تجد هذه القبائل بدعا من الاشتغال بالزراعة وغيرها والاندماج بالمصريين، وهذا أتاح الفرصة للمصريين ليتعرفوا على الاسلام ويعتمدوه. وقد بدأ ذلك عندما قتل الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه، فشارت بعض قبائل لخم وجذام على ذلك، ورفضوا البيعة لأمير المؤمنين الجديد على بن أبي طالب حتى يتم القصاص من القتلة (٢)، وسرى نماذج أخرى لذلك بعد قليل.

ثم جاءت الى مصر هجرة عربية كبيرة أيام ولاية عبيد الله بن الحباب في خلافة هشام بن عبد الملك، فقد استقدم عبيد الله جماعات كثيرة من قيس وبني نصر وبني عامر وهوازن وسلمي، وأسكنتهم بلبيس والحواف الشريقي، وسرعان ما انتشر هؤلاء في المناطق الشرقية للذيل واختلطوا بالناس فانتشر بهم الاسلام انتشاراً واسعاً (٣).

وكانت هناك وظائف جذابة لا يتولها إلا المسلمين، ولا شك أن بعض الطامعين المهووبين دخلوا الاسلام حتى لا يحال بينهم وبين هذه الوظائف، وتجلت هذه الظاهرة بوضوح في خلافة عمر بن عبد العزيز الذي أمر بـ لا تسند المناصب الادارية بمصر لغير المسلمين (٤)، مما حمل

(١) History of the World vol. II p. 304

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ص ١٩٥.

(٣) الكلدى: الولاية والقضاء ص ٧٧.

(٤) أبو الحasan: النجوم الظاهرة ج ١ ص ٢١٠ و ٢٦٨.

كثيراً من أهل الذمة على الدخول في الإسلام وتعلم اللغة العربية حتى يتپسرون لهم الاشتغال بالوظائف الدينية ، وأخذ المسلمون منذ ذلك الوقت في الأزيد ياد حتى أصبحت مصر في القرن الثالث الهجري دولة إسلامية (١) .

ويتجه Butler إلى إبراز أن خريطة الجزية كانت من أهم العوامل التي دعت المصريين لدخول الإسلام (٢) ، والحق إن هذارأى لم يصدر عن دقة وإنصاف ، فالجزية مقدار ضئيل ، ولو فر منها الإنسان ودخل الإسلام ليتخلص من دفعها لكان عليه أن يدفع الزكاة ، والزكوة أكبر بكثير ، فليكن هذا القول إلا من الأقوال العابرة التي تقال دون تحقيق علمي عميق (٣) .

وتذكر بعض المراجع أن من المحتمل أن بعض السكان الأصليين أسلموا فراراً من الأوامر التي أصدرها بعض خلفاء المسلمين بالتزام غير المسلمين بلباس معين ومظاهر خاصة ، ونحن نتساءل : إذا كان حمل الصليب مثلاً من هذه المظاهر فلماذا يتهرب منه المسيحيون ؟ مع أننا نراهم اليوم يختفون بالصلبان ويجعلون منها حلية ، وعلى كل حال فإن رواة هذه الأمور هم المؤرخين المسيحيين (٤) ، ومن الطبيعي أن تبدو في كتاباتهم أكثر لتعصيمهم لدينهم ، ومن الثابت أن خلفاء المسلمين أو أكثرهم على الأقل عاملوا أهل الكتاب في كل مكان معاملة طيبة كانت في كثير من الأحوال من أسباب دخول هؤلاء دين الإسلام (٥) .

Stanley Lane - pool : A History of Egypt in the Middle Ages (١)
p. 38

The Arab Conquest to 340 341 (٢).

(٣) اقرأ الاقتصاد في الفكر الإسلامي للمؤلف (باب الجزية والخارج) .

(٤) انظر سير الآباء البطاركة لساويرس ابن المقفع في مكتبة متعددة وفيليب حتى في كتابه تاريخ سوريا وسوريا بعد قليل اقتبسنا منه فيه هذا الاتباع .

(٥) انظر المجتمع الإسلامي للمؤلف .

- ٥١ -

ومن أسباب انتشار الاسلام في سوريا ومصر اندماج العرب في السكان الأصليين هنا وهناك ، وكان سقوط الدولة الاموية معناه ذوبان أتباعهم وجيوشهم بمصر وسوريا في السكان الأصليين ، إذ توقيفت وظائف هؤلاء وانتقطعت رواتبهم ، وكان عليهم أن يعمدوا ليعيشوا ، وحدث مثل ذلك في عهد المعتضم العباسي عندما أسقط العرب من ديوان العطاء ، فدخل العرب في غمار الناس واختلطوا بهم ، وعن طريق هذا الاختلاط انتشر الاسلام وانتشرت اللغة العربية انتشاراً ظل يترافق من يوم إلى يوم .

ومما ساعد على انتشار الاسلام بسوريا أن خمسة آلاف من نصارى بنى تتوخ كانوا يعيشون في جوار حلب وعلى ساحل لبنان عملوا بإشارة المهدى العباسي واعتنقوا الاسلام ، ويبدو أن العباسيين أغدقوا عليهم من المكرمات ووثقوا صلتهم بهم حتى حبوا لهم الاسلام ، واستغل الغبابيون ذلك فيهم فأقاموهم حاجزاً في وجه الروم إن جاءوا من البحر (١) . ويضيف Philip Hitti (٢) إلى الدوافع التي حببت للمسيحيين دخول الاسلام بسوريا ، حرصهم على الظفر بالكرامة الاجتماعية والمنفعة السياسية .

منْ هم أحفاد الفراعنة :

وفي ضوء هذه الدراسة المؤكدة يتحقق علينا أن نعرض بإيجاز لموضوع أثاره الأستاذ زكي شنوده المخامي مرتبًا بالجزأين الثالث والرابع من كتابه « تاريخ الأقباط » ، فقد خصص المؤلف هذين الجزأين للحديث عن تاريخ الفراعنة وحضارتهم ، بادعاء أنهم أجداد الأقباط ، وأن الأقباط وحدهم ، أحفاد الفراعنة .

وهو يقول في الجزء الثالث (٣) « فتاريخ الأقباط هو تاريخ المصريين »

(١) ابن العبرى ج ٢ ص ١٣٣ .

(٢) History of Syria vol. II. p. 170

(٣) تاريخ الأقباط ج ٣ ص ٢ .

ويقول الدكتور باهور لبيب في تقديميه لهذا الجزء « ولا شك أن الأقباط هم السلالة المباشرة لقدماء المصريين ، وأن تراثهم ما هو إلا امتداد لتراث أولئك الأجداد » .

وهذه الفكرة بعيدة — فيما نرى — كل البعد عن الحقائق العلمية ، ومن الواضح أنها خطرت للمؤلف متأخرة ، فقد سار في الجزء الأول سيرا طبيعيا حين تحدث عن المسيحية في مصر ، وأشهر الأضطهادات وأشهر الشهداء والبدع والهرطقات والرهبنة . . . ، وسار الجزء الثاني في هذا الطريق أيضا حين يتكلم عن عقيدة الأقباط ، ثم خطرت له فكرة ربط الأقباط بالمصريين فخصوص الجزء الثالث والرابع لهذا الغرض ، ولو كانت هذه الفكرة أصلية عنده لكان الجزء الأول هو مكانها الطبيعي ، فذلك الترتيب هو من دواعي التسلسل التاريخي الذي يعرفه كل من تعرض لكتابه التاريخ .

ويبدو أنه خطر ببال الأستاذ زكي شفودة أن المصريين جمِيعا تحولوا من أفكارهم الدينية التي كانوا عليها قبل المسيحية إلى المسيحية ، وهو خاطر لا تؤيده الشواهد التاريخية ، فإن المسيحية كانت تعبانى أضطهادا عنيفا في القرون الثلاثة الأولى ، وكان انتشارها في فلسطين ضعيفا جدا ، حتى أنكرها بعض الحواريين (١) ولم يعترف بها الرومان إلا في القرن الرابع ، وبدأت تخطو في أمنٍ من السلطة ابتداء من القرن الخامس .

ومعنى هذا أن المسيحية مرّ عليها حوالي قرنين قبل أن يجيء الإسلام مصر ، ولا يمكن أن تكون المسيحية قد غمرت المصريين أو نصفهم في هذين القرنين ، بدليل بقاء تحويلهم إلى الإسلام ، وأنه لاتزال نسبة منهم تعتقد المسيحية بعد أن دخل الإسلام مصر بأكثر من أربعة عشر قرناً .

والحق أن ربط الدين بالجنس ببلادنا الحبية عمل لا يمكن القطع به ولا ترجيحه ، فبعض المسيحيين الموجودين في مصر وفدو لها فرارا من

Religions of the World : Berry (١) يقول Wells : بعد عيسى انهارت دعوته وتخلى عن فكرته أتباعه جمِيعا ، ولما اتهم بطرس بأنه واحد منهم قال : لا أعرف هذا الرجل (Outline of History 3 : 698).

الاضطهادات التي عانوها المسيحيون من الرومان ، على نحو ما فعل السيد المسيح نفسه وأمه المذراء كما ورد في إنجيل متى (١) ، وعلى نحو ما فعل كثير من خلفاء السيد المسيح مثل القديس مرقص وسواه من القديسين والعلماء .

اما المسلمين في مصر فأكثرهم أحفاد الفراعنة استجابة للاسلام كلها استجاب أجدادهم من قبل للمسيحية ، ولو جاز لنا أن نقول قوله الاستاذ زكي شنودة بأن المسلمين وافقون من الخارج لجاز بالتأكيد أن نقول إن المسيحيين وافقون من الخارج قبلهم ، وهذا يعني اتهام المصريين بالتشكيك بفكرهم الديني التقديم وعدم الاستجابة للدعوات الدينية الواردة من الخارج وهذا خطأ كبير يصور العقلية المصرية بالجمود .

والذى لا شك فيه ان بعض المصريين هزيع من الدم الفرعونى والدم العربى الذى هاجر الى مصر والذى كان شديد الرغبة في الاختلاط ، وبخاصة إذا لاحظنا أن المرأة العربية قلما غادرت الجزيرة العربية ، وأن الرجل العربى هو الذى هاجر جندياً وعملاً ، وتزوج حيث أقام ، ومن هذا المزيج يوجد عدد كبير من أبناء مصر .

أما الكثرة الغالبة من مسلمي مصر فهى تمثل أنسراً مصرية كانت قبطية ثم دخلت الاسلام ، وأحياناً كانت الأسر القبطية تتشعب فيدخل الاسلام جماعة وتبقى على المسيحية جماعة أخرى منها ، وذلك ما يحدث حتى الآن . وكان بعضهم يتوجه الى علوم القرآن ويزرع فيها ، ومن هؤلاء عثمان بن سعيد (ورش) الذي تقرر المراجع أنه ينحدر من أصل قبطي ومح هذا بزرع في علم القراءات وانتهت إليه رياضة القراء في مصر كما سيأتي .

وانتشار الاسلام بين الأقباط هو ما يحدث نظيره في العالم كله ، فقد انتشر الاسلام بين الهنود وبين الفرس وبين الصينيين ، وليس مصر ببعضها عن غيرها .

وما أجرنا ألا نستعمل العلم سلاحاً للرغبات الخاصة .

(١) انجيل متى : الاصحاح الثاني ، الفقرات ١٣ - ١٥ .

انتشار اللغة العربية

في مجال نشر اللغة العربية نجد العرب يمرون بخطوتين هامتين ؛ ففي الخطوة الأولى عملوا على إحياء اللهجات المحلية ؛ الآرامية بسوريا والقبطية بمصر ، وذلك ليتم لهم القضاء على اليونانية التي تخلقت عن البطالسة واللاتينية لغة الرومان ، وسرعان ما تم لهم ذلك إذ رحب به السوريون والمصريون . وتجلى الخطوة الثانية وهي نشر اللغة العربية بعد ذلك ، ولا نزاع أن الإسلام وهو ينتشر أخذ معه اللغة العربية ، فإذا جاز نشر المسيحية بدون لغة أو نشر اليهودية والبوذية كذلك ، فإن نشر الإسلام ينشر اللغة العربية كذلك لضرورة المصلحة وقراءة آيات من القرآن الكريم ، ولذلك نجد أنه بعد حوالي سبعين عاماً من الفتح أصبحت اللغة العربية هي اللغة العامة في الأقطار المفتوحة .

ثم تأتي نقطة أخرى نشرت اللغة العربية ودعمت جانبها حتى مع غير المسلمين ، تلك هي تعریب الدواوین في عهد الولید بن عبد الملك ، فقد أصبح لزاماً أن تقم الحسابات والمكاتب باللغة العربية ، وكان على طلاب الوظائف في الدواوین أن يجيئوا بهذه اللغة ، وقد فتح العرب باب الخدمة في الدولة لكل السكان على اختلاف أديانهم ونحلهم ، غير أن اللغة العربية كانت وسيلة لهم لهذه الخدمة ، ولذلك فإننا نجد أنه بمفرز الزمن وجدت طوائف غير مسلمة لا تعرف إلا اللغة العربية مما أدى إلى ضرورة ترجمة الإنجيل وبعض الكتب المسيحية الأخرى لهؤلاء .

ومما ساعد على انتشار اللغة العربية سعة هذا اللسان وسلامته ، فإن هذه اللغة لم تقف ولم تجمد ؛ هضمت ألفاظاً من الفارسية والرومية والسريانية والعبرانية والقبطية والهندية وتركت ألفاظاً عربية كانت مألوفة في عصر الجاهلية ، واتجهت ببعض الاتهامات العربية لأداء معان أخرى غير تلك التي كانت تؤديها قبل الإسلام ، ويسعى العرب بحماسة ليعملوا لغتهم لغة عام ، كما كانت لغة دين وأدب وسياسة ، ويقرر رينان أن هذه

اللغة ظهرت فجأة في غاية الكمال والبساطة والمعنى بحيث يمكن القول إنها ليس لها عهد بالطفولة^(١)

ومما ساعد على انتشار اللغة العربية بمصر وفود القبائل العربية التي هاجرت إليها وامتنجت بسكنها ، فقد استقبلت مصر في مطلع عهدها بالاسلام كثيرا من عرب الجنوب ، ثم استقبلت إبان خلافة هشام ابن عبد الملك وفودا كثيرة من قبيلة قيس ، وقد نزل هؤلاء في منطقة بلبيس وما حولها بمحافظة الشرقية ، وفي القرن الثالث هاجرت إلى مصر وفود (من ربيعة واستقرت بالصعيد

وتم امتداد العرب بالمصريين على نطاق واسع عقب سقوط الأمويين وفي خلال عهد العتصم كما ذكرنا آنفا ، ونزل العرب ميدان الزراعة والصناعة والتجارة ، وعن هذا الطريق وكذلك عن طريق التراويخ اندمج هؤلاء بأولئك وأصبح عسيرا بعد فترة أن نفرق بين السكان الأصليين وبين الأفراد على مصر وسوريا من العرب

وكل النصر للغة العربية عندما نزح كثير من العرب الرحيل من البدوية وانخرطوا في غمار حياة الاستقرار بالمدن الغنية المفتوحة ، وبشروع اللغة العربية بين السكان الأصليين اضطر رجال الكنيسة في القرن العاشر أن يضعوا كتاباتهم باللغة العربية حتى يفهمها أتباعهم^(٢)

ويبدو على العفوم أن انتصار العربية الفصحى ، تم قبل انتصار العامية ، وبالتالي انتشار التأليف باللغة العربية وكذلك انتشار الحديث بها في المجالات العلمية والأدبية ، قبل انتشار العامية ولغة الشارع ، ففي مصر كتب ابن الدابية سنة ٣٣٩هـ سيرة أحمد بن طولون ، وحوالي هذا الوقت كتب ابن البطريق كتابه في التاريخ ، ثم كتب ساويرس أسقف الأشمونيين

(١) نقلًا عن محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية ج ١ ص ١٨٠ .

Kilk : A Short History of the Middle East p 37 (٢)

سير الأبطال البطارقة ، وازدهرت اللغة العربية في بلاط الإخشييد ، حيث ظهر الأدباء والشعراء ، وكذلك في البلاط الفاطمي خلال القرن الرابع ، وفي سوريا بدأت الكتابة باللغة العربية مبكرة أيضا ، وأقدم ما وصل إلينا مخطوطة ألفها أبو قترة في مطلع القرن الثالث الهجري (سنة ٢٠٥) ، وكتب عبد الله ابن محمد البلوي من مؤرخي دمشق سيرة أحمد بن طولون في الثلث الثاني من القرن الرابع . وما ساعد على انتشار اللغة العربية ، أن التحول من لغة سامية إلى لغة سامية أخرى ليس به مشكلات لغوية مستعصية .

أما اللغة العامية فقد تأخر انتشارها بين الجماهير ، فالمقريزى (١) يقرر أن المؤمن (١٩٨ - ٢١٨) عندما زار مصر كان يمشي والتراجمة بين يديه ، ومن الواضح أن انتشار العربية الفصحى سبق ذلك بكثير ، وبدأت الدواوين تستعمل هذه اللغة منذ آخر عهد عبد الملك (٦٥ - ٨٦) ، ثم انتشرت بعد ذلك مكتوب بها الرسائل ، ثم أصبحت لغة التأليف والتصنيف والأدب ، وعلى العموم فإن من الطبيعي أن سير الفصحى كان سريعا ، أما العامية فكان سيرها بطريقها ، وكانت مصر أسبق من سوريا في القضاء على لغتها المحلية ، أما سوريا فقد اعانت اللغات المحلية بها عمودا أطول ، فنذكر فيليب حتى أن انتصار اللغة العربية على اللغات المحلية بها لم يكتمل إلا في القرن الثالث عشر ، ومع هذا فقد بقيت هناك «جزر لغوية» لأقوام غير مسلمين كالبياعية والنمساطرة والموارنة ، وفي عهد الصليبيين كان هناك كثير من هذه «الجزر اللغوية» وفي لبنان الماروني دافعت اللغة السوريةانية المحلية عن نفسها دفاعا هريرا وطويلا حتى القرن السابع عشر ، ولا تزال السوريةانية لغة الحديث في ثلاث قرى في لبنان الشرقي هي معلوما وبخاصة وجيعدين ، وهي لا تزال لغة الطقس الكتسي لدى الموارنة ، وفي بعض الكنائس السوريةانية الأخرى ، أما السوريان الناطقون باليونانية فلم يظهر منهم مثل هذا التعلق بلغتهم الأم (٢) .

(1) الخطط : ج ١ ٨١

History of Syria pp 171 - 172 (2)

نظم الحكم في عهد الولاية

يمكن القول إن المسلمين استقadero بالنظم والتقسيمات الإدارية التي كانت موجودة في سوريا ومصر قبل الإسلام ، ولكن شيئاً رئيسياً حدث هو إدخال الطابع الإسلامي على نظام الحكم ، وقد شمل هذا الطابع المسلمين الاتجاهات السياسية والإدارية والمالية ، فما أصبح أهم عمل يؤديه الوالي هو إماماة الصلاة ، وأصبحت الضرائب تتبع التعاليم الإسلامية ، وهكذا ، وستتكلم هنا كلمة عن أبرز الوظائف التي كانت تدير جهاز الحكم في عهد الولاية :

الجهاز السياسي :

كانت البلاد مقسمة إلى مناطق ، وكل منطقة كانت مقسمة إلى قرى وكور ، وفي قمة الجهاز السياسي كان يجلس الوالي الذي وضعت بيده مقاليد الأمور كلها ، فكان ينوب عن الخليفة في شئون الدين وإماماة الصلاة ، وكانت له قيادة الجيش التابع له ، والإشراف على الشرطة والأمن ، وتنفيذ أحكام القضاء .

وفي الأقاليم والقرى التابعة للوالي كان هناك تقريباً جهاز مصغر الصورة لاجهاز الذي يرأسه الوالي بالعاصمة ، فرئيس الإقليم أو القرية كان له في دائرته سلطة الوالي في ولايته ، أي كان يؤم الناس في الصلاة ويشرف على استتاباب الأمن وتنفيذ أحكام القضاء ، وبهذا كان في نظام الحكم نوع من اللامركزية .

وكان الوالي يعين صاحب البريد الذي كان يقوم بدور مهم في الإشراف على الكور والقرى والمناطق المختلفة ، إذ كان يحمل للوالي أخبار هذه المناطق وأخبار القائمين باسم الوالي على الأمر بها ، فكان بذلك يمثل عين الوالي التي تبصر له الأحداث في جميع أركان الولاية ، وهذا يوضح مدى أهمية هذه الوظيفة للوالي ، وبجانب ذلك كان صاحب

البريد يحمل الأوامر من الوالي إلى الأقاليم ، وكان الوالي يعين عدداً من الموظفين الذين يتولون عمليات التدوين والرسائل .

وهنالك وظيفتان كثيرتان حرصت عاصمة الخلافة في أكثر الأحوال على إبقاءهما في يدهما وهما : وظيفة حابي الخارج ، والقاضى ، وكان ولاة الأقاليم يحرصون من جهة أخرى أن يترك لهم الأمر في هاتين الوظيفتين أيضاً ، وكان الوالى إذا أشرف على شئون المال يقوى سلطانه ، وقد يهدى بسبب ذلك بالاستقلال عن عاصمة الخلافة ، ولذلك كان الخلفاء يحرصون على أن يستبقوا سلطة المال في أيديهم ، وأن يعيروا لهذه المهمة موظفاً يكون تابعاً لهم مباشرةً ، ومسرى أن أحمد بن طولون وجد من الضروري أن يتخلص من ابن المدبر عامل الفراج ، إذ رأى أن سلطانه لا يتم بمع وجود هذا الموظف بجانبه .

وفيما عدا هذه الوظائف الرئيسية نجد المسلمين يفسحون الطريق للمصريين والسوريين ليشغلوا عدة وظائف ، وقد استعان المسلمون في أول الأمر بمن كانوا يشغلون الوظائف المتصلة بالمال والضرائب من بيزنطيين ومصريين ، ولكنهم أتساحوا الفرصة ليحل المصريون والسوريون محل البيزنطيين من حين إلى حين ، فلم تمض فترة طويلة حتى أصبحت هذه الوظائف في أيدي السوريين والمصريين ، ولكن لما ت unanim العرب فنون الإدارة ، وكانت الدواوين بالعربية في عهد الدولة الأموية أخذ العرب من المصريين هذه الوظائف ، فثار المصريون عليهم ، وحدث صدام كانت الوظائف من أهم أسبابه وكان النصر فيه للعرب ، فلجأ المصريون إلى تعلم اللغة العربية واعتنق الإسلام لتقام مساواتهم بالعرب ، وبالتالي لينالوا حقوقهم في هذه الوظائف (١) .

وقد تحدثنا حديثاً مفصلاً عن الولاية وأنواعها ، والأمور التي يكل

(١) عمر الأسكندرى : تاريخ مصر حتى الشعاع العثمانى ص ١٧٢ .

الخالية النظر فيها إلى ولاته في كتابنا «السياسة في الفكر الإسلامي» (١) .

النظام المالي :

قلنا فيما سبق إن كثرين من المصريين والسورين أسرعوا في اعتناق الإسلام ، وقد وجب على هؤلاء ما يجب على المسلمين من دفع الزكاة وغيرها مما يحتمه الفكر الإسلامي ، أما أولئك الذين لم يدخلوا الإسلام فقد الترموا بالجزية على الرءوس والتزموا بالخروج على الأرض ، ويتبغض لنا مما يذكره المؤرخون أن العرب ساروا في مصر وفق نصوص الصلح التي عقدوها مع المقوس عند حصار حصن بابليون ، فلم يشققا أهلها بالضرائب ولم يفرضوا على المصريين والسورين نظاماً مالياً قاسياً ، وبذكر ابن عبد الحكم أن مصر فتحت صلحاً بفريخة دينارين على كل رجل ، وأن الإسكندرية فتحت عنوة ، ولكن عمرو بن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب يسأل عن طريقة معاملة أهل الإسكندرية ، فأجابه عمر بأن يضرب عليهم الخراج والجزية دون أن يستبعد أحداً ، أو أن يجعل أموالهم شيئاً (٢) .

وهكذا أحق عمر الإسكندرية بسواءها في المعاملة ، وحدث مثل ذلك أيضاً في الشام ، فان عمر لم يقبل أن تقسم الأرض والسكان على الفاتحين وإنما أشار بأن يكتفى بالخرج على الأرض وبالجزية على الرءوس (٣) . وفي كتابنا «الاقتصاد في الفكر الإسلامي» دراسة حافلة عن الخراج والجزية ومقدار كل ٠٠٠٠٠ مليرجم إليه من يشاء (٤) ، وقد وضحتنا بشكل خاص أن الخراج على مصر كان يتفاوت بتفاوت فيضان النيل (٥) .

(١) السياسة في الفكر الإسلامي للمؤلف ج ١٨٩ وما بعدها من الطبعة السادسة .

(٢) ابن الحكم : فتوح مصر ص ٥٥ - ٥٦ .

(٣) البلاذى فتوح البلدان ص ٢٢١ والخرج ليحيى بن آدم ص ٤٥ .

(٤) الاقتصاد في الفكر الإسلامي للمؤلف ص ٢٢٨ وما بعدها من الطبعة السادسة .

(٥) انظر الطبرى ج ٢ ص ٢٢٩ ، والقلقشندى : صبىع الأعشى

وهناك ضرائب أخرى التزم بها المصريون في وثيقة الصلح وهي حق الخيرافة مدة ثلاثة أيام للعرب الواقدين لأمور رسمية الذين ينزلون على أهل هذه البلاط .

والنظرية السريعة للنظم المالية في العهد الإسلامي بمصر والشام تقرر أن الشرايب كانت ميسرة ، وكانت أقل كثيراً مما التزم به المصريون والسوريون للرومان قبل الفتح الإسلامي ، ومن مقارنة ما ذكره Lane Poole والسيوطى يتضح لنا أن ما كان يحصله المسلمون من ضرائب كل عام كان حوالي نصف ما كان يجمعه الموثقين قبل الفتح الإسلامي (١) . ولكن بتلر ينقل عن هنا النقيوسي ما يفيد أن العرب كانوا قساة في معاملة المصريين وتحصيل الضرائب منهم . وليس عيناً على أي باحث أن يدرك أن هنا النقيوسي كان متعمداً ، وأن حكمه يحمل بذور رفضه ، فعباراته تتم عن السخط والكراهية وشدة التذمّر والانفعال ، مما يجعل كلامه لا يقبل بحال في ميزان التاريخ ، وليس معنا أن القاريء أن ننقل هنا سطراً واحداً من كلامه ليりء إلى أي مدى كان هذا الكاتب حافظاً ، فهو يقول عند وصف الأيام الأخيرة من حياة المقويس « إن عمراً لم تكن في قلبه رحمة بالمصريين ولم يرع العهد الذي عقد معهم ، إذ كان رجلاً من الهمج » ومن الواضح أن مثل هذا التحامل يسقط قيمة البحث ، وبالتالي لا يجعله مصدراً جديراً بالاعتبار ، واعتماد « بتلر » عليه يجعلنا نحكم عليه حكمنا على المصدر الذي استمد منه معلوماته (٢) .

وإذا كانت هناك دوافع تعصب ديني جعلت هنا النقيوسي وبتلر يحملان على العرب والحكم العربي ، فإننا كما نود أن تتحاشى الأقلام العربية المسلمة هذا الاتجاه وبخاصة إذا لم تكن هناك مصادر علمية موثوقة بها ويمكن الاعتماد عليها اعتماداً تاماً ، أقول هذا وأمامي مؤلفان عن

(١) انظر حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٤ .

(٢) انظر فتح العرب لمصر لبتلر ص ٣٧٧ وما بعدها .

هذه الحقبة بقلم واحد ، وأشهد أن روح التحامل واضحة فيهما ، وتناسب بين سطورهما دون أساس علمي على الأطلاق ، وبدون مراجع حيث تتحتم المراجع ، ولاكتف بهذه الاشارة دون تعريف بالكتابين فلست أحب أن أتبع سقطات الناس ، وأرجو أن يعود كل كاتب إلى رشده ، فقد نلنا بالإسلام مكانة مادية وأدبية كان يستحيل علينا أن ننالها بدونه .

النظام القضائي :

منصب القاضي — كما أشرنا من قبل — كان يتبع الخليفة غالباً ، وكان الخليفة أحياناً يترك للوالى سلطة تعيين قاضٍ ولايته ، وعندما ظهر منصب قاضي القضاة بالعاصمة كان يقوم باسم الخليفة بتعيين قضاة الأقاليم (١) .

وكان الخليفة يتدخل أحياناً فيلغي حكماً أصدره قاضٍ اذا رأى الخليفة أن الحكم لم يكن منصفاً لسببٍ من الأسباب ، بل كان الخليفة يعزل القاضي اذا رأى في حكمه بعضاً عن العدالة ، ويُزوي لـنا الكتدي ثمادج من هذه التصرفات (٢) .

إذا أشكل أمر على القاضي بعث لقاضٍ القضاة أو إلى الخليفة يسأل رأيه ، وكان الخليفة يجيبه عنه من عنده أو يعقد مجلساً للعلماء لإصدار رأي فيه ، وكانت المساجد هي دور القضاة يتجمع فيها المتقاضون ، وكان جامع عمرو بن العاص مكاناً مختاراً في القاهرة لمجلس القضاة .

وطبيعي أن القضاء في الإسلام كان يستمد أحکامه من المصادر الإسلامية الرئيسية ، فكان بذلك أبعد النظم عن نظيره البيزنطي ، وكان القاضي يعتمد على القرآن والحديث والإجماع . . . وكان أحياناً يجتهد

(١) انظر تاريخ التشريع والقضاء في الإسلام المؤلف ص ٢٦٢ وما بعدها .

(٢) الولاة والقضاء ص ٣٤١ و ٤١٣ .

إذا لم يجد في المصادر المذكورة ما يشفي غلته ، وبعد أن انتشرت المذاهب الأربعية كان للقاضي أن يصدر فتاواه تبعاً للمذهب الذي يرتضيه ٠

أما غير المسلمين فكانوا يتبعون قضاة منهم في قضايا الأحوال الشخصية والخاصة ، وكانت أحكام هؤلاء تصدر وفق أديانهم ٠

وكان قاضي الولاية يقوم بالشراف على أموال اليتامي وعلى الأوقاف الخيرية ، ويتر عم الاحتفالات الدينية ٠

ومن أعظم من اشتهر من القضاة بالفضل والاستقامة والمعدل القاضي غوث بن سليمان المتوفى سنة ١٦٨ ، وكان لا يمنع عن الوصول إليه مظلم قط ، ومنهم كذلك خلفه الفضل ، وهو أول من أمر بتدوين الأسباب الكاملة التي بنى عليها الحكم (١) ٠

وبجانب القاضي كان يوجد المحاسب ، ومهمة المحاسب معاقبة المذنب الذي لم تتجه خطيبته ضد فرد معين ، وإنما اتجهت ضد النظام العام والأداب العامة ، وعلى هذا كان المحاسب يعاقب من يسبب الازدحام في الطرق ، كما كان يحارب الغش ويراقب الموازين (٢) ٠

(١) انظر تفاصيل واسعة عن التشريع والقضاء في الجزء الثامن من موسوعة النظم والحضارة الإسلامية وهو المخصص ل تاريخ التشريع والقضاء في الإسلام ٠

(٢) انظر الحديث عن الحسبة في كتابنا « السياسة في الفكر الإسلامي » ص ٢٣٥ ٠

الحركات بمصر وسوريا

حتى العهد الطولوني

أخذت مصر نصبياً كبيراً في الحركات السياسية والدينية التي كانت تضطرب في العالم الإسلامي إبان فترة الولاية ، ونقصد بمصر سكانها الذين اتخذوها وطنًا لهم سواءً أكانتوا منحدرين من أرومة مصرية أو كانوا من قبائل العرب التي هاجرت إلى مصر ، أو من الجنود والموظفين الذين ارتبطوا بمصر وأمتهنوا عروقهم . وسنلمل هنا المامدة سريعة بالدور الذي قامت به مصر في هذه الحركات .

الفترة في عهد عثمان :

تحدثنا في الجزء الأول من هذه الموسوعة عن الفتنة التي هبت في عهد عثمان ، وعن أسبابها وركائزها السياسية والاقتصادية ، ودور عبد الله ابن سباء اليهودي الذي ادعى الإسلام فيها (١) ، ولعبت مصر دوراً خطيراً في هذه الفتنة ، فقد كان الوالي حينذاك عبد الله بن أبي سرح ، وفي أثناء الفتنة وقبلها كان مشغولاً بحروب خارجية ، فقد غزا إفريقية سنة ٥٢٧ واحتسب في حرب مع بلاد النوبة وعقد مع ملكها معااهدة سنة ٥٣١ وحارب الروم في موقعة ذات السواري سنة ٥٣٤ ، وقد وجد ابن سباء في غياب عبد الله بن سعد بن أبي سرح عن مصر فرصة له لينشر آراءه ويضم حوله الصدوق .

ولما علم عبد الله بن سعد بتفاقم هذه الفتنة أسرع عائداً إلى مصر ، ولكن يبدو أن الأمر كان على وشك أن يقتل زمامه أو أفلت فعلاً .

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ج ١ ص ٥٩٨ وما بعدها من الطبعة الثانية عشرة .

ولذلك رحل عبد الله بن سعد إلى المدينة ليشرح خطورة الأمر للظريفة ، ولبيتفق معه على خطة للاقضاء على هذه الفتنة ، وأناب عنه من يتولى أمره البلاد في أثناء غيابه .

وقد وجدت الفتنة في هذا التصرف فرصة لها فتفاقمت وتزعمها محمد ابن أبي حذيفة الذي استطاع أن يطرد نائب عبد الله بن سعد ، وأن يمنع عبد الله نفسه من دخول مصر عندما حاول أن يرجع إليها ، ثم خرج من مصر جماعة الشوار الذين اشتركوا اشتراكاً فطلياً في قتل الخليفة عثمان كما وضحتنا هذا الأمر في الجزء الأول .

الصراع بين علي ومعاوية :

بعد مقتل عثمان قام صراع عنيف بين علي الخليفة الرابع وبين معاوية الذي ادعى أنه يطالب بدم عثمان ، واتسع هذا الخلاف وتشعب ، وظهر الخوارج فأضعنوا جهة علي ، وقد تحدثنا عن هذا النزاع ونتائجها في الجزء الأول من هذه الموسوعة (١) ، ونريد هنا أن نبرز دور مصر في هذا الصراع .

أعلن محمد بن أبي حذيفة البيعة لعلي ، ولكن أنصار عثمان التفوا حول معاوية بن خديج ، وحصلت مناوشات بين الجماعتين لم تسفر عن حل حاسم ، وجاء معاوية بن أبي سفيان إلى مصر سنة ٣٦ھ ، وأجرى مفاوضة مع محمد بن أبي حذيفة لتظاهر مصر على الحياد ولم يقبل على ابن أبي طلب هذه النتيجة ، وولى على مصر قيس بن سعد بن عبادة ، وهو رجل مشهود له بالكفاءة والحنكة ، فلم يطمئن معاوية أن يتغلب عليه في ميدان السياسة ولا في الميدان العسكري ، وبخاصة أنه لم يكن ينوي الدخول في حرب ضد مصر في هذه الأثناء لانشغاله في الاستعداد لواجهة داري ، فلتجأ إلى وسيلة أخرى ليتخلص من قيس ، تلك هي أن أطلق

(١) ج ١ ص ٦٦١ وما بعدها ، الطبعة الثانية عشرة .

— ٦٥ —

الشائعات عن صلته به وتعاونه معه ، وصدق على هذه الفرية فعزل قيس بن سعد ، وخسر بذلك كفاعة ممتازة واحلاصا جما ، وولى مكانه محمد بن أبي بكر الذي كان أقل منه كفاعة ومهبة ، وبعد نهاية موقعة صفين وانشغل على بالخوارج أرسل معاوية لصر جيشا بقيادة عمرو بن العاص فاستطاع أن يكسب النصر دون كبير عناء وقتل محمد بن أبي بكر ، وعقب ذلك أعلنت خلافة معاوية وأصبحت مصر ولاية أموية .

دفعة ابن الزبير :

تحدثنا عن أطماع ابن الزبير في الجزء الثاني من هذه الموسوعة (١) ، وعن مدى نجاحه وامتداد سلطانه عقب وفاة يزيد بن معاوية ، حتى اقتحم أتباعه الشام على الأمويين ، ونريد هنا أن نقول إن مصر كانت ضمن الولايات التي بايعت ابن الزبير ، وقد أرسل هذا عبد الرحمن بن جحش واليا له عليها ، فاعتزل سعيد بن يزيد والي الأمويين وبدا أن الأمر تم لابن الزبير بمصر .

وظهر مروان بن الحكم وببدأ الأمويون يستعيذون مكانتهم تحت قيادته ، وكانت مصر من أهم البلاد التي وجه لها عنايته بعد أن استتب له الأمر بالشام ، فأرسل لها ابنه عبد العزيز على رأس جيش كبير ، ثم جاءها مروان نفسه ، وقد دارت معارك متعددة بين عبد الرحمن ومروان من أشهرها معركة حول الفسطاط تعرف بموقعة الخندق (٢) وانتهت بفوز مروان ، وقد أقام مروان بعد ذلك شهرين بمصر وطاف فيها سلطانه وقضى على أعداء الحكم الأموي .

مصر والحركات الأموية والهاشمية :

ذكرنا من قبل أن مصر كانت تؤيد على بن أبي طالب ، ولكن سياسة معاوية ودهاء عمرو بن العاص أصبحت مصر تابعة لبني أمية ، بيد أن

(١) ج ٢ ص ٢٢٢ وما بعدها من الطبعة السابعة .

(٢) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٣٣٧ .

شيعة أهل البيت ظلوا ينتظرون الفرصة للثورة من جديد ، وفي أثناء النشاط الشيعي بخراسان بدأ جنده يظهر بمصر ، وعندما تفاقمت الأمور ضد الأمويين بقيادة أبي مسلم الخراساني بدأ الجندي في مصر يخرجون عن طاعة القادة الأمويين ويعصون أوامر الخليفة مروان بن محمد ، وعندما فر هذا إلى مصر لم يوجد من يحسن استقباله ويقاوم بحرارة معه فوائل تقهقرت حتى قُتلت .

وعلى إثر نهاية الأمويين وقيام العباسيين أحس أتباع أهل البيت بخيبة أمل ، فقد كانوا يظلون أن سقوط الأمويين سيعقبه قيام دولة علوية ، ولذلك نجد مصر تشهد خلال العهد العباسي حركات تدعو للعلويين أو تؤيد الثائرين العلويين ، كما هب بمصر حركات أموية قام بها بقايا الأمويين أو أتباعهم .

ومن الحركات الأمية تلك التي قام بها دحية بن مصعب بن الأصمع بن عبد العزيز بن مروان ، وقد خرج في الصعيد إبان ولاية ابراهيم بن صالح (١٦٥ - ١٦٧هـ) وقد نجحت دعوته إلى حد كبير ولم يستطع ابراهيم إيقافها ، فارسل الخليفة العباسي المهدى واليا آخر هو الفضيل بن صالح بن على الذي استطاع بعد نضال طويل أن يقضي على حركة دحية (١) .

أما أتباع العلويين فقد أخذوا يظهرون من حين إلى آخر وكان من أبرز حركاتهم تأييدهم لحمد بن عبد الله « النفس الزكية » ولأخيه ابراهيم ، وقد حضر إلى مصر في خلال هذه المعركة على بن محمد واستطاع أن يضم الكثريين إلى دعوة أخيه ، وحاول أن يرسل الميرة للثائرين بالمدينة عن طريق خليج أمير المؤمنين مما حدا بالمنصور أن يردم هذا الخليج ، ولم يستطع إلى مصر حميد بن قحطبة أن يقضي على هذه الحركة ، ولكن

(١) أبو الحسن : النجوم الظاهرة ج ٢ ص ٥٧ - ٦٠ - ٦١ .

سرعان ما جاءت الأخبار بمقتل النفس الزكية وأخيه ابراهيم ، فخبا بذلك نشاط الحركة بمصر

وفي أثناء الاضطهاد القاسي الذي صبـه العباسيون على العلوين هاجر كثير من العلوين إلى مصر والشمال الإفريقي ، وهم من هاجر إلى مصر السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن على ، فقد جاءت مع زوجها إسحق بن جعفر الصادق ، ويبدو أن المصريين رحبوا بالعلويين والتقووا حولهم ، ولذلك نجد الخليفة المتوكـل على الله يأمر إلى مصر أن يخرج كل على بن أبي طالب من مصر فما خرـجوا إلى العراق والمدينة ، ومن هربوا أيضا من وجه العباسيين إدريس بن عبد الله الذي كونـ دولة الأدارسة ببلاد المغرب ، وعلى كل حال فإن ثورات العلوين لقيـت في مصر والشمال الإفريقي أخصـب الأمـكـنة للازدهار ، وفي هذه المنطقة الأخيرة قـامت دولة الأدارسة والدولة الفاطمية .

مـصر في النـزاع بين الأمـين والمـأـمون :

وفي خلال النـزاع بين الأمـين والمـأـمون اعتمدـ على قـوة أخيـوهـ الفـرس ، وأصـطبـغـتـ حـركـتهـ في مـطلعـها بـصـبغـةـ فـارـسـيـةـ ، وـعـدـ مـغلـوبـاـ علىـ أمرـهـ تـسيـرـهـ قـوىـ العـناـصـرـ الـفـارـسـيـةـ ، وـمـنـ هـنـاـ اـنـتـصـرـتـ لـالأـمـينـ أـكـثـرـ العـناـصـرـ الـعـرـبـيـةـ فـأـصـبـحـ النـزـاعـ بـيـنـ الـأـمـينـ وـالـمـأـمـونـ إـلـىـ حدـ كـبـيرـ نـزـاعـاـ بـيـنـ الـفـرسـ الـطـامـعـيـنـ وـالـعـربـ الـمـادـعـيـنـ عـنـ كـيـانـهـمـ ، وـقـدـ ظـهـرـ بـمـصـرـ الـاتـجـاهـانـ جـمـيعـاـ ، هـكـانـتـ هـنـاكـ قـوـةـ تـنـاصـرـ الـأـمـينـ وـقـوـةـ أـخـرـىـ تـنـاصـرـ الـمـأـمـونـ ، وـلـكـنـ مرـكـزـ الـأـمـينـ بـدـأـ يـضـعـفـ بـسـبـبـ ماـ عـرـفـ عـنـهـ مـنـ خـلـاعـهـ وـحـنـثـ بـالـعـهـودـ ، ثـمـ بـسـبـبـ عـودـةـ الـمـأـمـونـ هـنـاـخـاسـانـ وـقـصـائـهـ عـلـىـ طـبـيـانـ الـفـضـلـ بـنـ سـيـلـ عـلـيـهـ ، وـقـدـ ظـهـرـ فـيـ أـنـنـاءـ هـذـهـ الـفـتـنـةـ عـدـ مـنـ الـقـوـادـ مـنـهـمـ عـبدـ الـعـزـيزـ الـجـارـودـ الـذـيـ اـسـتـوـىـ عـلـىـ شـرـقـوـ الـدـلـلـ ، وـالـسـرـىـ بـنـ الـحـكـمـ الـذـيـ اـسـتـوـىـ عـلـىـ الـوـجـهـ الـقـبـلـ ، وـقـبـيلـتـاـ لـخـمـ وـجـذـامـ الـلـقـانـ أـصـبـحـ لـهـمـاـ الـسـيـطـرـةـ عـلـىـ الـاسـكـنـدـرـيـةـ وـالـبـحـرـيـةـ ، وـظـلـ هـؤـلـاءـ الـمـتـعـلـبـونـ يـيـاشـرـونـ نـفـوذـهـمـ حـتـىـ اـسـتـقـرـ

الأمر للخليفة المأمون ، فاضطر الخليفة أن يرسل إلى مصر خيرة قواده : عبد الله بن طاهر بن الحسين ، وكان واليا على الشام ، وقد استطاع عبد الله أن يعيد الأمن والنظام ، وقام بعدة إصلاحات نافعة ولكنه عندما غادر مصر عادت الفتنة من جديد ولم تهدأ هذه المرة إلا بحضور المأمون نفسه (١) :

* * *

تلك هي أبرز الحركات التي هبت بمصر في عهد الولاة وظروف سوريا تختلف عن ظروف مصر إبان هذه الفترة ، فقد كانت سوريا تحت إمرة معاوية أميراً فطحيقاً ، ثم ظلت عاصمة العالم الإسلامي حتى سقوط الأمويين ، حيث أصبحت ولاية عباسية ، وفي أثناء هذه الولاية قامت بها حركات ثائرة ؛ فقد اتخذ السوريون في العصر العباسى دستورهم من الكلمات التي صاح بها قائد من بنى كلب في قومه يختتم على مقاومة بنى العباس ، مهما كانت ضحايا هذه المقاومة ، وهذه الكلمات هي : يا عشر كلب .. إنها الرایة السوداء .. اقتلوا البشر قبل أن يعظم .. اللوت الفلسطيني خير من العيش الجزئي (٢) .

وقد استجاب بنو كلب لهذا الهتاف ، فتوالت ثورات الأمويين وبثورات أتباعهم بسوريا ، كما أوضحنا ذلك في الجزء الثالث من هذه الموسوعة ، بل إن بعض العباسيين التمردرين على الخلافة العباسية استغلوا سخط سوريا على الخلافة الجديدة فاتخذوا من سوريا مركزاً لتمردthem ،

(١) في كتاب الولاة والقضاة للكندي دراسة واسعة لهذه الحركة وقد وضحتها في الجزء الثالث من هذه الموسوعة .

(٢) الطبرى : ج ٣ ص ٨٤٤ .

— ٦٩ —

كما حدث بالنسبة لعبد الله بن على ، وقد فصلنا الكلام عنه في الجزء الثالث أيضا .

ومن الثورات التي نسبت للأمويين ، ثورة الشائر المقفع ، وهو رجل مجهول النسب ، وإن يادعى بعض أتباعه أنه سفياني وكان هذا الشائر لا يظهر للناس إلا مقنعا فعرف بالشائر المقفع أو البرقع ، وقد اتساع بفوذه فتبعة حوالي مائة ألف رجل أكثرهم من الفلاحين ، مما يدل على أن بذورا اقتصادية كانت تغذى هذه الثورة ، وقد حقق كثيرا من الانتصارات حتى أوقع به الخليفة المعتصم .^(١)

(١) ابن عساكر : الجزء الخامس من ٣١١ .

حضارة مصر في عهد المولاة والمدرسة الإسلامية المبكرة

كانت مصر تعانى أزمة ثقافية قبيل الفتح الإسلامي ، فالأدبية التى كانت تمثل مراكز الثقافة أصبحت قبل الفتح تقف موقف العداء من الفكر الإغريقى بسبب الاختلاف حول طبيعة المسيح ، وقد أدى ذلك إلى أن وصلت الحضارة الإغريقية إلى درجة الاحتضار والذبول فى القرن السادس ، وكما انصرف الرهبان عن الثقافة الإغريقية إنصرفوا كذلك عن اللغة اليونانية واتجهوا إلى إحياء اللغة القبطية ^(١) ، التي أولاهما العرب كثيراً من عنايتهم بعد الفتح كما سبق القول .

وجاء الإسلام بأفانيين من الفكر ، وللإسلام ثقافته وحضارته ، ولمصر تاريخها المجيد فلا عجب أن وجد الإسلام في مصر أرضاً خصبة يزرع بها مبادئ فكره وثقافته ، وسسلم هنا بحضارة مصر في هذا العصر :

العلوم الإسلامية :

جذبت مصر إلى رياها مجموعة من المحدثين والفقهاء والأفذاذ ، وأنتجت مصر مجموعة لا تقل عن الوافدين موهبة وكفاءة ، ومن هؤلاء وأولئك تكونت بمصر مدرسة للدراسات الإسلامية ضارعت المدارس الأخرى في مختلف العواصم الإسلامية ، وكان على رأس هذه المدرسة عبد الله بن عمرو بن العاص الذي يقال إنه أسلم قبل أبيه ، وكان محدثاً وفقيها ممتازاً ، ويجيء بعده فقيه مصر وشيخها يزيد بن أبي حبيب الذي وكل له عمر بن عبد العزيز أمور الفتيا وقد مات سنة ٥١٢٨ ، وبعد الله بن لهيعة الذي تولى القضاء بمصر حوالي عشر سنوات من سنة ١٥٥ حتى وفاته سنة ٥١٦٤ ^(٢) ، ثم الليث بن سعد الذي وصل

(١) بل : مصر من الاسكندر حتى الفتح العربي من ٢٤٨ وما بعدها .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٠ .

القمة بين الفقهاء والمفكرين وكان سرياً نبيلاً سخياً فقيها يجيد الحديث والشعر ، وقد عرض عليه النصور ولاية مصر فامتنع ، ولكنه كان أعلى مقاماً من الوالي والقاضي ، وكان إذا رأبه من أحد المسؤولين شيء كاتب فيه الخليفة فيُعزل ، وتوفي سنة ١٧٥ هـ .

ومن علماء مصر سعيد بن عبد الله بن أسد المغافري (١٧٣) ، وعبد الرحمن بن القاسم بن جنادة (١٩١) وعبد الله بن وهب (١٩٧) ، وعبد الله بن عبد الحكم (٢١٥) وأبناؤه عبد الحكم (٢٣٧) وعبد الرحمن (٣٦٨) الذي خلف لنا كتابه القيم «فتواه مصر» .

ويعتبر الإمام الشافعى مصرياً في الفترة الأخيرة من عمره ، فقد قدم إلى مصر سنة ١٩٨ وجلس فيما يصنف ويعلم حتى مات بها سنة ٢٠٤ ، وبين أشهر مؤلفاته بمصر كتاب الأم والأمالي الكبير والرسالة والسنن ، وقد اتبع المصريون مذهب الشافعى وأحشووه محل مذهب مالك الذى كان واسع الانتشار بمصر قبل ذلك ، وترك الشافعى بمصر تلاميذ أجياله وأصولاً ما بدأه من دراسات وأبحاث ؛ منهم أبو يعقوب يوسف التوبيطى وعبد العزيز ابن عمران الجزاوى والربيع بن سليمان الأزدي .

وبرزت مصر بوجهه خاص في علم القراءات ، ومن علماء مصر المشهورين في هذا المجال عثمان بن سعيد (ورش) الذي ينحدر من أصل قبطي ، والذي انتهت إليه رئاسة القراء بمصر ، وقد توفي سنة ١٩٧ ، ومنهم كذلك أبو يعقوب يوسف بن عمرو المصري الذي خلفَ ورثةً في علم القراءات وقد توفي سنة ٢٤٠ هـ .

علوم اللغة والأخبار :

نهضت مدرسة اللغة والأدب والأخبار بمصر على نحو ما نهضت مدرسة الدراسات الإسلامية ، ومن زعماء هذه المدرسة ابن ناظر المغافري المصري (١٢٨) ، وأحمد بن يحيى التجيبي المصري (٢٠٥) ،

وعبد الملك بن هشام مؤلف سيرة ابن هشام الشهيرة (٢١٨) وهو عراقي الأصل ، ولد بالبصرة ، ثم هاجر إلى مصر عندما سمع عن درستها العلمية المبكرة ، وظل بها حتى مات ، وسرح الغول الذي كان إماماً في العربية وعلوم الدين ، وكان معاصرًا للشافعى ، وكأن الشافعى يعجب ببسه وبفصاحته (١) .

وقد تخطت الحركة الثقافية بمصر حدود مصر فأثرت على الشرق والغرب جميعاً ، وذلك عن طريق الذين وفدوا إلى مصر وأغترفوا من معين المعرفة بها وعادوا بمعارفهم إلى الأندلس أو إلى الشرق .

التصوف :

يزدان هذا العصر بظهور ثوبان بن ابراهيم المصري المشهور بذئب النون المصري ، وقد تلقى العلم عن مالك والليث بن سعد وعبد الله بن لعيزة ثم صار وحيد زمانه في العلم والورع والزهد ، واتجه ذو النون إلى التصوف فجلأَّ فيه ، ولكن أهل مصر أنكروا عليه اتجاهه وشكوه لل الخليفة الم توكل ، فطلب الخليفة أن يرسل له ذو النون مقيداً ، ولكن ذا النون لم يأبه وام يخف ، وراح وهو في القيد يقول : هذا من هبات الله تعالى وعطياته ، وكل فعله عذب ، حسن طيب ، وأخذ ينشد :

لَكَ مِنْ قُلْبِي الْمَكَانُ الْمَصْوُنُ كُلُّ لَسُومٍ عَلَيَّ فِيكَ يَهُونُ
وَلَا أَدْخُلُ عَلَى الْمَتْوَكِلِ وَعَظَمَهُ حَتَّى أَبْكَاهُ ، فَأَطْلَقَ الْخَلِيفَةَ وَشَابَهَهُ
وَأَعْمَادَهُ مَكْرِهًا (٢) .

ويعتبر ذو النون من مؤسسى مذهب الفيصل والعقيدة الصوفية .

(١) السميوطى : بقية الوعاة في طبقات اللغويين والنجاة من ٢٥٢ .

(٢) ابن خلكان : وينيات الأعيان ج ١ ص ١٠١ .

دراسات في العلوم :

وبحانب الدراسات الإسلامية والأدبية كانت بمصر دراسة علمية شملت الطب والكيمياء ، ومن تذكر أسماؤهم في هذا المجال أبهر الطبيب الذي كان بارعاً في الطب إيان خلافة عمر بن عبد العزيز ذو النون المصري الذي يروى أنه اشتغل بالفلسفة والكيمياء بجانب التصوف .

نشاط في المجال الاقتصادي :

واهتم ولاة مصر اهتماماً كبيراً بالزراعة إذ أن مصر خصبة الأرض ، ونيلها دائم الجريان ، ويقرر المؤرخون المصريون أن الولاة العرب اهتموا اهتماماً واضحاً بحفر الترع وإقامة الجسور وبناء القنطر ، وبينى العرب مقاييس للنيل لمعرفة مقدار الزيادة والنقصان في مياهه ، ليكون ذلك مقياساً واضحاً للزراعة وللضرائب التي تجبى من الزراعين (١) .

وازدهرت في مصر أنواع من الصناعة ، ومن أهمها صناعة البناء ، وللمصريين تاريخ مجيد في العمارة عثروا به منذ عهد الفراعنة ، فنلا غرو أن ظهر هذا الفن في طابع إسلامي ، ومن أجل ذلك كانت المساجد والعواصم التي بنيت في عهد الولاة تعتبر آية في الفخامة والإبداع ، ومن الصناعات التي ازدهرت كذلك في مصر في عهد الولاة صناعة الزجاج والتسييج والجلود والخطى والعطور والفالخار .

ونشطت التجارة أيضاً في عهد الولاة ، وكان موقع مصر داعياً إلى هذا النشاط ، يصف التوفيري هذا الموقع كما يصف حاصلات مصر ، وصلاتها التجارية في عبارة تدل على إحكامه بالخطوط التجارية التي ترتبط مصر بها وتتبادل عن طريقها حاصلالها فيقول : إنها فرحة الدنيا يحمل من خيرها إلى سواحلها ، وذلك لأن من ساحلها بالقلزم (السوينس) ينقل

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٥١ والخطط للمقريзи ج ١

إلى الحرمين وإلى جدة وإلى عمان وإلى الهند وإلى الصين وصناعة وعدن
والمسند وجزائر البحر ، ومن جهة تتنيس ودمياط والقurma يتنتقل إلى فرضة
بلاد الروم وأقالى الإفرنجية وقبرص ، وسائر سواحل الشام والتغور إلى
حدود العراق ، ومن جهة الإسكندرية يتحمّل إلى فرضة إقريطيش وصقلية
والغرب كله حتى طنجة ومغرب الشمس ، ومن جهة الصعيد فرضة بلاد
النوبة والبجة والحبشة والمحجاز واليمن (١) .

وفي مجال التجارة كذلك كانت مصر تقوم بدور الوسيط التجارى ؛
أى تسترى وتبيع مستغلة موقعها الممتاز ، كما كانت تصدر منتجاتها من
الخوب والنسوجات وتسترى لوازمها من الأخشاب والمعادن .

خضار سوريا في ذلك العهد

كانت سوريا في مكان تحظى به لها أن تصبح مركزاً للأمة المسلمين
بأنواع من الفكر في علوم شتى ، فقد كان العلماء السوريان يجيدون اللغة
اليونانية وعلى صلة وطيدة وقديمة باليونان ، فعملوا على ترجمة علوم
اليونان إلى السورية ، ونشطت بذلك مدارسهم الشهيرة في الرهبا
وحران وأنطاكية قبل الإسلام ، وفي ظل الإسلام وبخاصة في العصر
العباسي الأول وجد السوريان تشجيعاً عظيماً من الخلفاء فراحوا يترجمون
إلى العربية خير ما حفظت به السورية واليونانية ، وشملت إضافات
وتعليقات فيها طابع الخلق والابتكار .

وفي الدراسات الإسلامية يبرز في سوريا في هذا الإمام الأوزاعي
(عبد الرحمن بن عمرو) ، وقد ولد في بعلبك سنة ٣٩٦هـ ثم انتقل إلى
بيروت ، وفي مطلع العصر العباسي الأول كان يعتبر من خيرة الأعلام
الصاغير ، ويروى ابن خلكان (٢) أن سفيان الثورى يبلغه مقتديم الأوزاعي

(١) النويري : نهاية الأرب ١ ص ٣٤١ .

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٧٥ .

خرج حتى لقيه وسار في مقدم زنته ، وكان كلما مر بزحام صاح في الناس : الطريق للشيخ ، وقد اشتهر الأوزاعي بالعلم والزهد وتميز بالجزأة الأدبية ، وكان إمام أهل الشام ولم يكن بالشام أعلم منه ، وعندما قدم المنصور سوريا سمع الأوزاعي يعظ فأعجب به إعجابا شديدا ، وكان له مذهب شائع في الشام ، وقد بقى بعده حوالى القرنين ثم حل محله المذهب الحنفي ، وسار مذهبه إلى الأندلس ثم حل محله المذهب المالكي .

ومن الشعراء المشاهير الذين ظهروا في سوريا في ذلك الوقت أبو تمام والبحترى ، وقد زار أبو تمام يقابلاً كثيرة بالعالم الإسلامي ، فزار مصر حيث اشتغل بـ مشاقية الماء ، ثم زار الحجاز وأرميinia وفارس والعراق ، ثم استقر أخيراً بمقداد واتصل بيلات المقتسم وأصبح من شعرائه ، وقد رافقه في حملته على عمورية ، ووصف انتصاراته أروع وصف ، فسجلت قصائده الخاود لوعة عمورية ، وقد تحدثنا عن ذلك في الجزء الثالث من هذه الموسوعة ، ويقول ابن خلkan عنه انه كان وحيد عصره في ديباجة لفظه ورصانة شعره وحسن أسلوبه ، وله كتاب الحماسة الذي يدل على غزارة فضاه ، وإتقان معرفته بالشعر (١) .

أما البحترى فأحد فحول الشعراء ، يضعه الفقاد بين أبي تمام والمتبى ، ويروى ابن خلkan (٢) عن أبي بكر الصولى أن البحترى كان يقول : أول أمرى في الشعر ونباهتى فيه أنى صرت إلى أبي تمام وهو بمحض فعرضت عليه شعري ، وكان يجلس ولا يبقى شاعر إلا قد هد وعرض عليه شعره ، فلما سمع شعري أقبل على وترك سائر الناس ، فلما تفرقوا قال لي : أنت أشعر من أنسدنتى ، فكيف حالك ؟ فشكوت خلة ، فكتب إلى أهل معرفة النعمان وشهد لى بالحق وشفع لي إليهم ، وقال لى امتحنهم . فصرت إليهم فاكترمونى بكتابه ، ووظلوا لى أربعة آلاف

(1) وغیات الاعین ج ١ ص ١٢١ - ١٢٣

(2) المرجع السابق ج ٢ ص ١٧٥

درهم ، فكانت أول مال أصبه ، ولما ظهر نبیع البحتری اتّخذ طریقه إلى بغداد حيث أصبغ شاعراً مشهوراً في بلاط الم توکل ومن جاء بعده من الخالقان ، وبرع البحتری في وصف القصور والبرک وخیوان الفلاة وهو مما يندر وجوده في الشعر الغربي (١) .

وفي مجال الصناعة والتجارة كانت سوريا تلعب دورها الهام بسبب مكانتها الاستراتيجي الممتاز بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب ، وقد لعبت هذا الدور على مر التاريخ كما تعددت في عدة مناسبات ، وعلى ساحل سوريا كان يعيش الفينيقون ولهم في ميدان التجارة والمال باع طویل ، وكانت أسواق حلب ودمشق وبيروت عامرة بأصناف العطور والتوابل والنسفج المصبوغ والخزف المطل بالميناء وغيرها .

(١) فيليب حتى : تاريخ سوريا ج ٢ من ١٨٢

عواصم مصر في عهد الولاة

الاسكندرية :

كانت الاسكندرية عاصمة مصر قبل الفتح الاسلامي ، وقد فكر عمرو ابن العاص أن يتذمّرها عاصمة له عقب الفتح ، وبخاصة أن الروم حاولوا مهاجمتها من البحر ، فأراد عمرو أن يستقر بها ليكون أقرب إلى حمايتها والدفاع عنها ، وكتب عمرو بذلك إلى عمر بن الخطاب ، فكتب إليه عمر يسألة : هل يحول بيته وبين المسلمين ماء ؟ فلما أجاب عمرو بالإيجاب تنهى عمر عن ذلك ، وكان مما قاله بناء على رواية السيوطي : إنني لا أحب أن تنزيل المسلمين منزلًا يحول الماء بيني وبينهم في صيف أو شتاء (١) . فتحول عمرو إلى مكان الفسطاط حيث بني العاصمة التي ظلت عاصمة الديار المصرية أكثر عهد الولاة .

الفسطاط :

وتتبّع الفسطاط – في أوضح الاتجاهات – إلى فسطاط عمرو ابن العاص الذي كان قد أقامه بالقرب من حصن بابلون إبان حصار هذا الحصن .

ويزوى السيوطي (٢) أنه عقب الصلح أراد عمرو أن يجمع فسطاطه ليرحل إلى الاسكندرية ، ولكنه وجد يمامته قد اتخذت لها عشًا فسوق الفسطاط وأفرخت به ، فقال عمرو ، قد تحرمت اليمامة بنا ، وأمر أن يبقى الفسطاط حتى تطير فراخها ، وسافر إلى الاسكندرية ، فلما رفض الخليفة أن تتّخذ الاسكندرية عاصمة عاد عمرو إلى مكان الفسطاط وقرر أن يقيم بـه عاصمته .

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٧ .

(٢) المرجع السابق .

ويرى بعض المؤرخين أن الكلمة الفسطاط غير عربية بــل يونانية ومعناها المدنية العسكرية ، وقد اقتبسها العرب لدینتهم التي أقاموها في مواجهة حصن بابليون ٠

وتقع الفسطاط بين النيل وجبن المقطم ، فتجمع بذلك بين القرب من الماء وللغرب حصن عليه ، والقرب من الصحراء ولهم بالصحراء شسف ، ومن مميزات هذا الموقع سهولة اتصاله بالمدينة عاصمة الخلافة بواسطه قناة تربط بين النيل عند القاهرة وبين البحر الأحمر عند السويس (القازم) ويرجع تاريخ هذه القناة للفراعنة ، وقد اهتم بها الرومان فأعادوا حفرها وسميت قناة تراجان ، ولما زدت دينت إعاد عمرو بن العاص حفرها وسممتها قناة أمير المؤمنين ، وقد ظلت ممراً مهماً حتى زدمها أبو جعفر المنصور حتى لا ترسل الميرة عن طريقها إلى محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن (النفس الزكية) الذي قاد الشيعة في أخذى ثوراتهم ضد العباسيين كما سبق ٠

وقد بني عمرو الجامع المنسوب إليه في مركز الدائرة على مساحة طولها ٣٩ متراً وعرضها ١٧ متراً ، ثم اتخذت بكل قبيلة من قبائل الجيش العربي خطة (قسماً) أقامت فيها مساكنها ، وهن هذه الخطط ، خطة بنى تميم وبنى وائل وبني عقبة وهكذا ، وسرعان ما اتسعت الأبنية في الفسطاط وأمتدت ، وأعد العرب غير بعيد من الفسطاط مكاناً ليدفن به موتاهم ، وقد دفن به عمرو بن العاص وبعض الصحابة (١) ٠

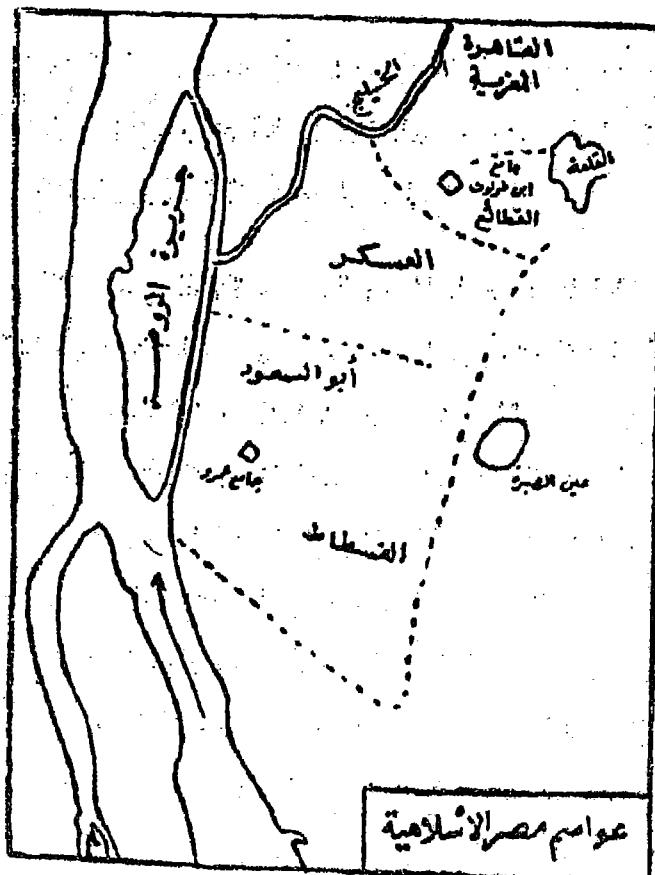
هلـوان :

وظلت الفسطاط تمثل العاصمة الرئيسية لإيان هذه الحقبة ، وقد تحول عبد العزيز بن هروان عندها إلىباب مهدية ، يقول ياقوت إنه وقد بمصر طاعون سنة ٧٥٥هـ وواليها عبد العزيز ، شخرج بهذا يومئذ عن هرقل

جديد يقيم به ، فلما وصل حلوان استحسن موقعها ، فبني بها دوراً وقصوراً ، واستوطنها زرع بها بساتين وغرس كروم ونخلا (١) ، فيعتبر هذا انتقالاً مؤقتاً لهذا السبب الطارئ ، ومعنى هذا أن الفاطمة ظلت العاصمة الحقيقة طيلة حكم بنى أمية حتى مع انتقال بعض الولاة غرباً .

العسكر :

وعند سقوط الدولة الأموية وقيام دولة العباسين ، بني ولاة مصر من قبل العباسيين مدينة جديدة إلى الشرق من الفاطمة ، سموها «العسكر» :



(١) معجم البلدان ج ٢ ص ٣٦٦

القطائع :

وصارت العسكر مقر ولاة مصر الى سنة ٥٢٥ هـ حيث بني ابن طولون
مدينة القطائع واتخذها عاصمة له كما سُنّى ، ويمكن في الحقيقة أن تعدد
العسكر ضاحية من ضواحي الفسطاط أو امتداداً لها ، وموتها الآن البغالة
وزين العابدين .



آثار عصر الولاية :

من أهم الآثار المصرية التي شاهدتها المسلمين الزاحفون « حصن
بابليون » وكان الرومان قد أقاموا هذا الحصن جنوب القاهرة الحالية ،
وقد حاصره المسلمون ستة أشهر ، ولا تزال بقاياه في قصر الشمع .

ومن آثار عصر الولاية مجموعة من المساجد أشرنا لها عند الكلام
عن منشئيها . وفي قعدها مسجد عمرو بن العاص ، وقد اشتراك في تأسيسه
مجموعة من الصحابة الذين كانوا ضمن الجيش الإسلامي ، وهو أول
مسجد بأفريقية ، وقد كان هذا المسجد موضع اهتمام الحكام على مر
العصور ، وجرت فيه زيادات كثيرة وبخاصة أيام عبد العزيز بن مروان ،
وفي العهد الفاطمي لم يفقد جامع عمرو مكانته بدل ظل موضع اهتمام
الخلفاء الفاطميين والعلماء ، وقد أهداه الخليفة الحاكم نجفة كبيرة ، وكان
الخلفاء الفاطميون المتأخرن يصلون به الجمعة اليتيمة ، وكان التدريس
بهذا المسجد حسبة ، وكان به ثمانين زوايا يجلس فيها خيرة العلماء ومن
أهمها زاوية الامام الشافعى ، ولم يبق الآن من المسجد الذى بناه عمرو
إلا أرضه وبعض أجزاء في جداره الشمالي .

المقطم :

والقسطنطين ، أول عاصمة إسلامية بمصر ، وجامع عمرو ، يقعان بوجه عام في سفح جبل المقطم ، ومن هنا لزم أن نتكلّم كلمة عن آثار هذا الجبل التي منها القديم ومنها ما يرتبط بعدة عصور إسلامية ، وأول ما ذكره عنه أن هناك رواية تقول إنه يُدفن فيه غرائب الجن ، ومن هنا وجدت بجوانب منه مقابر للصالحين ومن التمس برకتهم .

ومن الآثار القديمة بالقطم « تشور فرعون » وقد أقيم مكانه مسجد التصور .

وبالقطم وادي دجلة وكهف السودان ، وبه كذلك دير التصوير . وقد تكلمنا عنه في كتابنا « المسيحية » ضمن حديثنا عن الأديرة وما كان بها من لهو وعبث .

ومن أهم الآثار الإسلامية بالقطم مسجد « دكة القضاة » حيث كان استقلاله بالليل يتم فوقها ، ومنها كذلك مسجد الجيوش (نسبة لأمير الجيوش بدر الجمالى) وكان عمر بن العاص (مصر الأبيض) يخلي المسجد بآيات قرآن فيها سبعة « سبعة التفرغ لله » .

وفي المقطم المزبور ، أقسام متعددة قاتمة مصالح الدين ومهنة بحسب
الكتاب ، ملائكة الظل ، يحيى بن مصعب شهد على .

كتاب المقطم

ويحيى بن مصعب الراشد ، أثر ثورة من خسر الراشد ، دير مشاوة أخرى انتهى عن أول شفاعة أسلفه ، في نأي بين مصر وسوريا في عهد الإسلام .

الدَّوْلَةُ الْعَطْلَوِيَّةُ

(م ٩٠٥ - ٨٦٨ - ٢٩٢ - ٤٥٤)

الحركات الاستقلالية بمصر

مع نهاية العصر العباسي الأول (سنة ٢٢٢هـ) بدأ مركز الخلافة يضعف، وبدأت بعض المناطق التابعة للخلافة الإسلامية تتطلع إلى الاستقلال، وبخاصة تلك المناطق التي كان لها أمجاد وتاريخ ناصع قبل الإسلام، فلقد اعتقدت هذه المناطق الدين الجديد وبنبت ثقافته وحضارته، ولكن ذلك لم يتزامنها بالتبعية السياسية، وبخاصة إذ كان مركز الخلافة قد تسلط عليه من لا يمثلون الإسلام ثقافةً وحضارةً، وكانت مصر من أبرز الدول التي اتجهت هذا الاتجاه، فمصر لها تاريخها الفرعوني الطويل الذي يعود إلى الوراء عدة آلاف من السنين، والذي سجل أواها من التقدم في مختلف الاتجاهات.

وعندما جاء الإسلام أحسنت مصر استقباله، واحتضنته فكره، فكان أصافةً مهمة لحضارة المصريين، وفي نفس الوقت كانت المراكز الإسلامية الأولى «الحجاج ودمشق وبغداد» قد بدأت تعاني من المشكلات الداخلية، وأصبح واضحًا أنها ليست أقدر من القاهرة على حمل مسؤولية الفكر الإسلامي ونشره، وهكذا بدأ تراجع في هذه المناطق وتقديم «في مصر»، وصادف أن جاء أحمد بن طولون إلى مصر في ذلك الوقت فقابل استعداداً كبيراً لحركة استقلالية ترمي إلى أن تستعيد مصر استقلالها السياسي من جانب، وتحمل مسؤولية احتضان الإسلام ونشره من جانب آخر، فكانت الدولة الطولونية أول هذه الحركات الاستقلالية، وقد استمرت هذه الحركات الاستقلالية في عهد الطولونيين، ثم في عهد الإخشيديين، وأخيراً حققت نجاحها الكامل في عهد الفاطميين.

ولما جاء العهد الأيوبي بعد العهد الفاطمي اعترف الأيوبيون بالخلافة العباسية اعترافاً شكلياً، ولكن قيادة المسلمين ضد الصليبيين اتخذت مصر مقراً لها، ولما جاء المماليك انتقلت الخلافة العباسية لمصر بعد أن قضى المغول على الخلافة ببغداد.

والهم أن مصر بدأت بها الحركات الاستقلالية هبكة ، منذ عهد السرى بن الحكم الذى تولى ابنة امارة مصر بعده ، ولكن الحركة نمت في العهد الطولونى وسرعان ما أصبحت مصر مركز القوة والعلم للعالم الاسلامي كله .

ونضيف هنا أن المصريين حرصوا على هذه الحركة الاستقلالية منذ قيامها ، فلما سقطت الدولة الطولونية سنة ١٩٣ هـ عادت مصر ل تكون ولاية تابعة للخلافة في بغداد ثار أحد المصريين وهو محمد بن علي الخانجى وكان ينابطا بالجيش الطولونى ، وقاد ثورة ضد الوالى العباسى (عيسى النوشرى) وانضم آلاف المصريين للثائر ، واستطاع الثوار أن يهزموا الوالى العباسى ويستقلوا بمصر حوالي ثمانية شهور (١) .

ويصف مؤرخ معاصر (٢) هذه الثورة ب أنها كانت « تنفيضا عن رغبة المصريين في الاستقلال » :

وقد اتخذ الاتجاه الاستقلالي مظاهر مهمة خلاصتها :

- ١ - أصبح الوالى يُخْطب له . ويدرك اسمه بعد اسم الخليفة .
- ٢ - وضع الوالى اسمه على السكة مع اسم الخليفة .
- ٣ - تكون مصر جيشاً خاصاً ، وأحياناً وجهة الوالى لحرب ممثل الخليفة كما حدث ضد الموقق ضد ابن رائق كما سُرِّى .
- ٤ - أصبح مصر أسطول خاص قوى .
- ٥ - أصبح الوالى مصر يعين القضاة بنفسه ويعين كل موظفي الدولة .
- ٦ - وأصبح الحكم وراثياً ، فعاصمة الخليفة لا ترسل ولها جديداً للبلاد عقب وفاة واليها .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٥٢ .

(٢) دكتور حسن محمود : مصر في عهد الطولونيين والاخشندبيين من ٨٦

وبعد هذا الإيجاز عن الحركات الاستقلالية بمصر ، تتجه إلى تفصيل القول في هذه الحركات :

وقد اشتركت سوريا مع مصر في هذه الحركات الاستقلالية في جميع مراحلها :

تعريف بالدولة الطولونية

تنسب هذه الدولة إلى طولون وهو ينحدر من أسرة كانت تتقمب في بخارى ببلاد تركستان ، وجاء طولون إلى بغداد سنة ١٢٥٤م ليان خلافة المؤمن فضم مجموعة من الأسرى أرسلهم نوح بن أسد الساماني إلى الخليفة ، وقد وجده المؤمن في طولون بسطة في الفكر والجسم فجعله وليساً لحوسه الخاص ؛ وخطا بذلك طولون نحو الجاه ومهد الطريق لابنه أحمد وأحفاده فجو المجد والسيادة .

وأبناء الطولونين هم :

١ - أحمد

٢٧٠ - ٢٥٤

العباس

٣ - خمارويه

٤ - شبيان

٢٩٤ - ٣٨٢

٥ - أبو الفناكر جيش

٦ - أبو موسى هارون

٢٩٤ - ٢٨٣

٧ - ٣٨٣ - ٣٨٢

تعريف بثأراء المطلوبين

أحمد بن طولون :

ولد أحمد بن طولون سنة ٢٣٠ هـ وعن أبيه بتربته عناية كبيرة ،
فرباه كما يربى أولاد الأمراء الأتراك في ذلك الوقت ، دربه على الشجاعة
وعائمه العلوم العسكرية في سامرا ، وأضاف إلى ذلك تعليمه علوم اللغة
والدين ، وثقة أحمد الفقه على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ،
ثم تردد على علماء طرسوس وأخذ من معارفهم وروى عنهم الأحاديث
ولما مات أبوه سنة ٢٤٠ عهد له المتوكل بالقيام ببعض الأعمال التي كان
أبوه يقوم بها ، ثم تلى إمرة الشور وإمرة دمشق (١) .

وتفز المتر إلى الخلاة بعد عزل المستعين (٢٥٢) وسجن المعتر
المستعين في دار بواسط وجعل أحمد بن طولون حارسا عليه ، ولكن
السجان احترم في السجين مكانته ، فلم يشدد الرقابة عليه ، واكتفى منه
الآلا يزاول نشاطا ضد الخليفة القائم بالأمر ، ولكن قبيحة أم المعتر لم
تكت بسجن المستعين وقررت قتلها حتى لا يثبت على ابنها ، وأرسل رجال
القصر بذلك إلى أحمد بن طولون ، ولكن هذا رفض أن يقتله وكتب بذلك
إلى رجال القصر (٢) ، وأثر أن يتخل عن هذا المكان إلى من يستطيع
تنفيذ أوامر القتل ، وعظم أحمد بن طولون بذلك في أعين الفضلاء ، وغادر
ابن طولون واسط إلى سر من رأى .

وكان خلفاء بشي العباس منذ عهد المعتصم يعيتون الأتراك ولادة على
آدم الولايات ، ولكن الأتراك كانوا يحرمون على أن يبقوا بعاصمة
الخلافة لينعموا فيها بحياة الترف ولتكونوا على صلة بمنطقة النفوذ
والسيطرة ، ومن أجل هذا كان هؤلاء الولاية يعيتون نوابا عنهم ليحكموا
الأقاليم باسمهم ويبيرونهم بعاصمة الخلافة (٣) .

(١) ابن نفرى بردى : النجوم الظاهرة ج ٣ ص ٣ .

(٢) ابن الداية : سيرة ابن طولون ص ٥ - ٧ والبلوى ص ٤٠ .

(٣) لعل هارون الرشيد هو الذي ابتدع هذه البدعة منذ جعل ولاية
مصر لجعفر البرمكي ، ولكنه في الوقت نفسه استبقاء بجنبه ، فأناب جعفر
عنه نائبا لحكم مصر هو عمرو بن مهران .

خطوات ابن طولون للسلطة :

وَجَاهَ أَحْمَدَ بْنَ طَوْلُونَ إِلَى مِصْرَ نَائِبًا عَنْ وَالِيهَا التَّرَكُ بِاِكْبَسَكُ
أَوْ « بَقْبَقَ » الَّذِي كَانَ قَدْ تَرَوَجَ أَمَّهُ بَعْدَ وَفَاتَةِ أَبِيهِ ، وَخَشِنَّ أَبْنَ طَوْلُونَ
بِالْعَاصِمَةِ ، وَلَمْ يَتَدْخُلْ بِاِكْبَاسَكِ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ فِي دَائِرَتِهِ ، وَلَمْ يَمْتَ بِاِكْبَاسَكِ
حَرَصَ يَارْجُونَ حَمَوِ أَبْنَ طَوْلُونَ عَلَى أَنْ تَكُونَ لَهُ وَلَايَةُ مَصْرُ ، وَمَا إِنْ
تَمَّ لَهُ ذَلِكَ حَتَّى كَتَبَ إِلَى أَحْمَدَ بْنَ طَوْلُونَ زِوْجَ ابْنَتِهِ يَقُولُ لَهُ : تَسْلِمُ
مِنْ نَفْسِكَ لِنَفْسِكَ ، وَضُمِّنَ لَهُ الْإِسْكَنْدَرِيَّةُ وَكَانَ ذَلِكَ سَنَةُ ٥٢٥٦ (١) ، وَعُرِفَ
أَبْنُ طَوْلُونَ بِالْقُوَّةِ وَالْمِيلِ إِلَى الْإِصْلَاحِ ، ثُمَّ أَتَاهُ جَاءَ بَعْدَ مَجْمُوعَةِ مِنِ الْوَلَاةِ
عَرَفُوهُ بِالْأَنْثَانِيَّةِ وَالْتَّرْقِ فَكَانَ ذَلِكَ مَا حَبَبَ النَّاسَ فِيهِ ، وَرَبِطُوهُمْ بِهِ ،
وَكَانَ أَبْنُ طَوْلُونَ حَسْنَ الْمَرْأَةِ بِالْخَلِيفَةِ الْعَبَاسِيِّ يُوَسِّلُ لَهُ طَرْفَ مَصْرُ
وَمَنْتَجَاتِهَا ، وَلَذِكَّ مَا أَنْ مَاتَ يَارْجُونَ حَتَّى أَقْرَأَهُ الْخَلِيفَةَ وَالْيَا لِمَصْرِ حِيثُ
وَأَصْلَى إِصْلَاحَهُ وَهِيَا لِنَفْسِهِ جَوَا يَضْمَنُ لَهُ الْإِسْتِقْلَالَ (٢) .

اتساع ملك ابن طولون :

وَفِي هَذِهِ الْأَيَّامِ كَانَ بِالشَّامِ عَدَّةُ وَلَاةٍ يَتَبعُونَ الْخَلِيفَةِ الْعَبَاسِيِّ ،
وَكَانَ مِنْ بَيْنِ هُؤُلَاءِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَشِيدٍ عَالِمُ الشَّفُورِ ، وَقَدْ هَزَمَ هَذَا فِي
إِلْحَدَى الْمَارَكِ ضَدَ الْبَيْزَنْطِيَّينَ وَأَسْرِهِ الرُّومِ ، فَظَلَّلَ الْخَلِيفَةُ الْمُعْتَمِدُ سَنَةُ
٣٦٤ مِنْ أَحْمَدَ بْنِ طَوْلُونَ أَنْ يَسِيرَ لِحَارِبَةِ الْبَيْزَنْطِيَّينَ ، فَلَبِيَ أَبْنُ طَوْلُونَ
مَلْبِهِ وَسَارَ بِجَهْلِهِ مِنْ مَصْرُ ، وَقَدْ هَمَنَتْ هِيَةُ أَبْنِ طَوْلُونَ لَهُ أَنْ يَمْدُ
نَفْوَهُهُ حَتَّى طَرَسُوسَ وَتَهْرُ الفَرَاتَ ، وَأَنْ يَسْتَوِيَ عَلَى دَمْشَقَ مِنْ عَلَى
أَبْنِ أَمَاجُورِ وَبِهِذَا أَصْبَحَ مَلِكُ الطَّوْلُوَنِيِّينَ يَشْمَلُ مَصْرَ وَالشَّامَ وَالْجَزِيرَةَ
وَمَنَاطِقَ الشَّفُورِ وَأَقْرَأَهُ الْخَلِيفَةِ الْعَبَاسِيِّ عَلَى ذَلِكَ .

وَسَنَفْسِلُ الْقَوْلَ فِيمَا بَعْدَ عَنْ عَلَاقَةِ الْعَوَالِمِيِّينَ بِالْخَلِيفَةِ الْعَبَاسِيِّ ،
وَنَسْرَعُ هُنَا بِاَنْ نَقُولَ أَنَّ أَبْنَ طَوْلُونَ صَارَعَ الْمُوقَقَ أَخَا الْخَلِيفَةِ وَالْقَانِمَ

(١) أَبْنُ تَغْرِي بَرْدِي : النَّجُومُ الزَّاهِرَةُ جُ ٣ صُ ٧ .

(٢) الطَّبَرِيُّ : جُ ٣ صُ ١٦٧٠ .

بأمر الخلافة وانتصر عليه ، وقرر لعنه في الخطبة وهكذا فعل خماروبيه ، «ووضع» كهذا معناه استقلال تمام عن بغداد ، وعندما تم صلح بين الموقف وخرموبيه كان به نص أن ولاية مصر وسوريا حتى طرسوس حق لخرموبيه «وللألاده مدة ثلاثين عاماً ٠

صعوبات في طريق ابن طولون

شئون الخارج والبريد ٠

وقد واجه ابن طولون كثيراً من الصعوبات وهو يبني مملكته ، ومن هذه الصعوبات أن شئون الخارج بمصر كانت في أول عهده في يد أحمد ابن محمد بن المديبر الذي كان واسع الفراء والنفوذ ، ثم كان عامل البريد الذي يكتب للعاصمة بأخبار أحمد بن طولون يسمى «شفير» وهو من أصفياء ابن المديبر ، وأذا اجتمع عامل الخارج وعامل البريد ضد الوالي شالت كفته ، ولكن أحمد بن طولون صبر وفكّر حتى تخلص من الاثنين ، ويروى أنه عقب استناد ولاية مصر لابن طولون أرسل له ابن المديبر مبلغًا كبيراً من المال ، ولكن ابن طولون رفض تسلمه ، فلخص ابن المديبر أنه أمامه والصعب القيادة ، فبدأ يدرس عليه ، وكان لابن المديبر مجموعة كبيرة من الحرنس تحفيظه بالهيئة ، فارسل له ابن طولون يذكر أن الدفاع عن الدولة يحتاج لمؤلاء الجنود ، فدفعهم إليه ابن المديبر كلها ، وازداد الشد والجذب ٠

وحدث أن طلب الخليفة المعتمد من ابن طولون مزيداً من الأموال ، فلما جات ابن طولون قائلة: كيف أطريق ذلك والخارج في يد غيري؟ المنجي الخليفة ابن المديبر ، ونقله إلى خراج سوريا ، ونافق ابن المديبر على هذا لكتلة ما عانى من ابن طولون ، وضفت بذلك جانب شفير فاستطاع ابن طولون أن يقضى عليه ، ولما أمتد سلطان ابن طولون إلى سوريا التقى بابن المديبر مرة أخرى ونشر عن ما كان الغلب لابن طولون أيضاً فاستسلم ابن المديبر ورضى أن يفارق سوريا ببعض ماله (١) ٠

(١) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ٢٧ ج ٣ من ٤٠

ثورة شيعية :

ومن المجموعات التي هبت في وجه ابن طولون ثورة شيعية في الوجه القبلي يتراعها شخص، اسمه أبو ابراهيم بن محمد وهو من مسلسل الامام على ابن أبي طالب ، ويعرف بابن الصوق ، وقد قضى ابن طولون على هذه الثورة بعد صراع طويل ، وتار بمنطقة أسبوان ثائر آخر يعرف بالعمري نسبة إلى عمر ابن الخطاب ، ولم يهزمه ابن طولون إلا بان دنس عليه أحد خدمه فقتله غدراً وقدم رأسه إلى ابن طولون .

ثورة العباسين :

يبعد أن أعظم الثورات التي عانياها أحمد بن طولون هي ثورة ابن العباس ، وهذه الثورة بجانب ما سببته من مجموعات عسكرية واقتصادية ، كان لها جانب عاطفي لا يقل صنفه عن جوانبها الأخرى ، فالتأثير هو ابن الأكبر لأحمد بن طولون وهو قرة عينه ، وقد استخلفه أبوه على مصر عندما سار إلى الشام والطباخية .

ويتحدث المؤرخون كثيراً عن أسباب هذه الثورة .

هل هي غيرة العباس من أحمد بن محمد الواسطي كاتب أبيه وصاحب الحظوة عنده ؟

هل هي أطماع ابن أن يكون لنفسه مملكة تماثل أو تفوق مملكة أبيه ؟

هل هي بدفع من أعداء أحمد بن طولون ؟

على أي حال لقد خرج ذلك ابن العاق وأخذ معه ما كان بخزانة الدولة من أموال ، كما أخذ قروضاً من بعض التجار واتجه إلى برقة والشمال الأفريقي وأخذ معه الواسطي مكلاً بالسلاسل ، ولكن سرعان ما وجد ذلك ابن العاق نفسه مطوقاً بقوى تفوق قواه ، فالأغلبية بتونس ، وإلياس بن متصور زعيم البربر بجبل نفوسه ، قاما في وجهه ، ومطاردة

أبيه لحقته بعد أن عجز الترغيب والترهيب عن إعادة الابن العاق إلى رشده ، ثم هرب الواسطى وعاد إلى مصر ، وانقضى كثير من أتباع العباس عنه ، وأخيرا أحاطت به جيوش ابن طولون وقبضت عليه وعلى كبار أتباعه ، وأثرغم العباس أن يقتل بيده كثريين من معاونيه ، أما العباس فقد زج به في السجن حيث بقي حتى اعتلى أخيه خمارويه العرش فقتله الحراس ، لأن العباس امتنع عن مبايعة خمارويه (١) .

من صفات ابن طولون :

كان ابن طولون سمحاً كثيراً الصدقات ، فياض الكرم ، يمد سلطنه كل يوم لآلاف الطاعمين ، وكان يميل للجد ولا تجذبه أنواع النبوء ، وهكذا يكون مؤسسو الدول ، وكان ابن طولون ذكيًا فطناً ، أدرك أن أخباره تنتقل إلى دار الخلافة بینداد ، فوضع له عيوناً هناك تحذر وتنقل له ما يدور بعاصمة الخلافة من أحداث واتصالات ، وكان ابن طولون مع ذلك حائلاً السيف يقتل بالظنة ، ويعتمد على البيواسيين في كثير من الأحوال .

الأمراء الطولونيون بعد أحمد :

يمكن القول إن دولة الطولونيين كانت دولة أحمد بن طولون فقط ، وأن بقاء سلطان الطولونيين بعد وفاته لم يكن إلا بقوة الدفع التي يعشها منشئ الدولة ، إذ لا يكاد الباحث يجد بين الأمراء الطولونيين بعد أحمد من يستحق الذكر أو تحمد له مأثره ، وإذا كان ابنه العباس عق وثار ، فإن أبناءه وأحفاده الآخرين كان فيهم عقوق من نوع آخر ، ذلك هو عدم

(١) عن هذا الموضوع أقرأ : البلوي : سيرة أحمد بن طولون من ٢٦٠ وما بعدها .

ابن الديبة : سيرة ابن طولون من ٥٩ - ٦٠

ابن تغري بردى : النجوم الظاهرة ج ٣ من ٤٩

وعن كتب ابن طولون لابنه العباس أقرأ : التلقيشندي : صبح الأعشى ج ٧ من ٥ - ١٠

احتفاظهم بتراثه ، وعدم سيرهم سيرته ، وعدم حرصهم على أن يكونوا امتداداً صالحًا للرجل المكافح .

وأول من نصادف من هؤلاء الأمراء هو خمارويه الذي تولى السلطان بعد أبيه بجامع الجندي رجال الدولة ، وكان في هذا المطلع الهدى المستقر ما يمكن أن يساعد الأمير على حياة صالحة ناجحة ، ولكن الأمير - على الرغم مما حقق من شجاعة وانتصارات سنتحدث عنها فيما بعد - كانته حياته سرفاً ونزقاً تصل إلى أبعد الحدود ، ويقصن التاريخ مما يصعب تصديقه من عطاءات سخية للشمراء والمعنىين ، ومن أنه كان لا يلبس الرداء إلا مرة واحدة ، وإذا ركب الحصان مرة فانه لا يعود إلى زكوبه مرة أخرى ، وحتى التمنور كان يسكن كل قصر عالماً واحداً ثم يستبدل به سواه ، وبهذا سخر آلاف الناس ليخيطوا ثيابه ويدربوا خيوله ويبثو تصويره ، ومن نزقه ما تحدثنا عنه في الجزء الثالث من هذه الموسوعة بخصوص زواج ابنته أسماء (قطر الفدى) من الخليفة المعتصم للعباسي ، وما بذلك خمارويه من سرف في هذا الزواج حتى صار هذا الزواج سبباً من أسباب التدهور الاقتصادي للبلاد ^(١) .

وكانت أخلاقه الشخصية منحلة إلى أبعد حدود الاحتلال ، ويقال إن نهايته كانت نتيجة لهذا الان gulal الفاحش ، فقتلته خدمه وهو منعم في ممارسة هذا الباطل ^(٢) .

وبعد خمارويه تولى ابنه أبو العساكر جيش ، وهو صبي في الرابعة عشرة من عمره ، وكان كليه في نزقه والبحث عن مسراته وسرعان ما أبعد رجال السياسة والأدب وقرب الجملة والمصارعين ، وأوقع بمن شرك في ولاته التكيل والدمار ، وأساء إلى أبناء الأسرة الطولونية ، بل قتل بعض

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ج ٣ ص ١١ - ١٣ .

(٢) ابن عساكر : تاريخ دمشق جه ٦ ص ١٧٨ .

كبار هذه الأسرة ، وكل هذا أثار عليه الناس « فهاجم الشائرون قصره وقتلوه ونهبوا القصر واعتدوا على ما سواه من الأموال » ، وكان ذلك بعد عام واحد من توليه الحكم .

واختار الشائرون آبا هوسن هارون ، وكان أيضا في الرابعة عشرة وجعلوا عليه وصينا ، ولم يكن هناك من سبيل لإصلاح الحال ، فقد انهارت الأسرة ، وتشرذت الطوائف بين رجالها ، وعم الدنس والفتوك ، وأذنت الأمور بتهلكة الدولة .

نشاط القرامطة بسوريا :

القramطة من الشيعة المقطورة ، لهم صلة نسب بالاسماعيلية والقاطمينية الذي سيظهرون فيما بعد ، ويقال إنهم ينسبون إلى حمدان قرمط (١) ويرجح الباحثون أن لفظ قرمط لفظ سورياني معناه « المعلم النزري » (٢) ولم يكن يقترب أحد في جماعتهم إلا بعد اختبارات طويلة ومراسيم خاصة ، وقد بدأ نشاط القرامطة حوالي سنة ٥٢٧هـ بالقرب من الكوفة ، وبعد حوالي تسع سنوات أصبح للقرامطة دولة مستقلة على الضفة الغربية للخليج العربي يوم من هذين المركبين نشر القرامطة الخراب في كل مكان ، ويعدو أن سوريا تناسب اتجاهها السندي ورحب بالاتجاهات المتطرفة بحسب ما عانته من اضطهاد العباسيين ، وبالاضافة إلى هذا فقد وجد القرامطة الفرصة سانحة لهم لميسطروا على سوريا بعد أن ضعف الأمراء الطولانيون ، وكانت فيالق القرامطة يقودها ابن ذكريويه ، وقد حاصر دمشق وأحتل حمص وحمص ومعرة الشعمن وبعلبك وسلمية حيث أصبحت الأخيرة مركزا للخشاشين من الاسماعيلية ، ودعى ابن ذكريويه على كثير من منابر سوريا ، وفي أثناء زحف القرامطة على سوريا قتل هارون بن خمارويه ،

Bernard Lewis The Origins of Iama'ilism pp 122

(١)

(٢) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ١٨٩ بالهامش .

وازدادت الحال سوءاً ، ولكن الزحف العباسي قضى على القرامطة وأنهى عهد الطولونيين (١) .

نهاية الطولونيين :

كانت الدولة الطولونية تنهار بسرعة بعد أحمد بن طولون كما ذكرنا . ويعدو أن صلة النسب بين المتضد الخليفة العباسي وبين طولون قيم أطالت عمر هذه الدولة بعشر الشيء ، ولذلك نجد أنه بعد وفاة المعتصم يسرع الخليفة المكتفي بارسال جيش للقضاء على الطولونيين وبخاصة ليوقف زحف القرامطة ، وكان هذا الجيش بقيادة محمد بن سليمان الكاتب ، مؤيده قوة بحرية سارت في النيل حتى واجهت الفاطلطة ، وفي أثناء هذا الزحف العباسي ، قتل أبو موسى هارون على يد رجاله وتولى شيبان بن أحمد بن طولون عرش مصر ، وقد حاول هذا أن يجمع حوله الجيوش لصد الزحف العباسي ، ولكن الذين استجابوا له كانوا قليلاً ، وأنضمت الكثرة الغالية إلى محمد بن سليمان ، ولم يجد شيبان بدأ من التسلیم للزحف الجبار .

وقد قبض محمد بن سليمان على أفراد الأسرة الطولونية وبعث بهم مكبلين إلى بغداد ، كما صادر أموالهم وأموال قادتهم والأغنياء بدولتهم ، ويعدو أن الخليفة المكتفي اتهم قائدته (محمد بن سليمان) باختلاس بعض هذه الأموال ، فأمر به قبضه عليه وصودرت أمواله .

وبذلك انتهت الدولة الطولونية سنة ٥٩٢ هـ وعادت مصر ولاية عباسية .

علاقة الطولونيين بالخلافة العباسية

كان الخليفة العباسي إيان عهد أحمد بن طولون هو المعتمد ، وكان ابنه «المفوض» ولـى عهده ، وكان السلطان الحقيقى في مطلع عهد المعتمد وقبله منذ عهد التوكـل قـيد المـالـيـكـ، وقد تسبـبـ عنـ قـبـضـ هـؤـلـاءـ علىـ

(١) فـيلـيـبـ حتـىـ : تـارـيـخـ سـورـيـاـ وـلـبـنـانـ وـفـلـسـطـيـنـ جـ ٢ـ مـ ١٨٩ـ .

السلطة أن اضطربت الأحوال في الدولة الإسلامية وتفكرت عرها ، ورأى الماليك أن السبيل الوحيد لإعادة الوحدة الإسلامية والقوة للدولة أن يتذكر السلطان الحقيقي لبني العباس ، فاختار المعتمد أخاه الموفق ليكون المسيطر على الأمر والقائد العام للجيش ، وقد استبد الموفق بالسلطة ، فلم يكن للماليك معه سلطان ، ولم يكن لل الخليفة معه سلطان كذلك ، حتى ليروى أن الخليفة قال شعراً يصف فيه أحواله ومؤسسه في حين استبد أخوه بالسلطان والثراء ، وفيما يلي هذه المقطوعة الشعرية :

أليس من العجائب أن مثلَ يرى ما قلَ ممتنعاً عليه
وتوخذ باسمه الدنيا جميماً وما من ذلك شيءٌ في يديه

وبعد وفاة الموفق تولى ابنه المعتمد الذي كان أكثر أطماعاً من أبيه ، فلما حمل المفوض بن المعتمد من ولادة العهد ، وأخذ ولادة العهد لنفسه ، فلما هنأت المعتمد انتقلت إليه الخلافة .

ويروينا أن نقول إن ولادة أخيم بن طولون بالخلفية المعتمد كانت طبيعية يكتفي ليتقال إيه هاول أن يربب إلى مصر ليعيش في نعم ابن طولون ، وذهب ابن طولون بالسفرة وشجع أمير الأئمرين على ذلك ليتقوى به ، ثم أتى الموفق الذي كان سبباً في ولادة به كما يقتصر فيها بذلك ، ويروى لما تقدّم بذلك إلى الله تعالى ، ولكن الموفق عاتم بذلك ، وكانت إلى ذلك شفاعة في ذلك عامل الوريل وبالجزيرية ، فلما ذهب بالخلفية عند الموفق واعتاده إلى مسكنه ،

أما النزرة التي كانت بين الموفق وأحمد بن طولون ، فيرجع سببها إلى أن الموفق أحسن باتجاه ابن طولون إلى الاستقلال ، ثم ان الموفق كان مشغولاً بمحرب الزنج واحتياج من أجل ذلك إلى أموال كثيرة فكتب إلى ابن طولون بذلك ، وبعد أن ابن طولون لم يرسل ما كان الموفق يطمع فيه ، وإنما أرسل أقل منه بكثير ، ولما بعث له الموفق يوثقه ويحاسبه ردًّا عليه ابن طولون وردًا شديدة جاء فيه : « وإن العمل الذي أنا بسبيله ليس له ، والمكانتة في

أموره ليست إليه ، وتقليدي ليس من قبله ، ولا أنا من ولاته (١) » وكان ذلك تمرداً من أحمد بن طولون على مكانة الموفق ، فلأنَّ ذلك بحرب طويلة قادها إسحق ابن كندة أح سالف الذكر ، ولم تنتصر الحرب عن نتيجة ، وبخاصة لأنَّ الموفق كان مشفولاً بثورة صاحب الزنج (٢) .

ومن الواضح أنَّ خطابَ أحمد بن طولون للموفق ، وـ له يعتبران أدلة واصحة على الاتجاهات الاستقلالية لمصر وسوريا .

ومات ابن طولون وورث خمارويه عداء أبيه مع الموفق ، وقد أراد الموفق أن يقضي على خمارويه وعلى سلطان الطولوينيين ، وكتب له بعض النصر في مطلع الأمر ، ولكن خمارويه أظهر شجاعة نادرة ، وهزم جيوش الموفق وجيوش أمير الموصل والأنبار اللذين آتياه ، ثم عقد صلحًا مع الموفق على أن يكون حكم مصر والشام والشغور لخمارويه وأولاده مدة ثلاثين عاماً ، وحدثت المبالغ التي تدفعها مصر سنويًا لعاصمة الخلافة (٣) وأصبح سلطان الطولوينيين ممتدًا من برقة إلى الفرات بل إلى أبعد من ذلك (٤) .

وعندما آلت الخلافة إلى المعتصد أراد خمارويه أن يدعم صلته به فعرض عليه أن يتزوج ابنته على (الخليفة المكتفى فيما بعد) من ابنته قطر الندى ، ولكن الخليفة وافق على المصاهرة على أن ترف الفتاة إليه هو ، وقد سبّبت هذه الزبحة — التي تحدثنا عنها في الجزء الثالث من هذه الموسوعة — مزيدًا من القرب بين القاهرة وبغداد .

ونسرع هنا بأن نذكر أنه كما حارب الطولوينيون الموفق صاحب النفوذ في الخلافة العباسية ، فقد حارب الإخشيديون محمدًا بن رائق الذي كان له النفوذ في بغداد آنذاك ، والموقنان من أكبر الأدلة على حرص مصر على الحركة الاستقلالية التي وضحتها من قبل .

(١) ابن الدابة : سيرة أحمد بن طولون ص ٢٠ - ٣٤ .
Lane-Poole : History of Egypt in the Middle Ages p. 69

(٢) IBIID P. 73

(٣) (٤) قيلبي حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ١٨٨ :

لم ٧ - موسوعة التاريخ د :

حضارة الطولونيين

النظم : المسکنة والحسبة والشرطة . . .

كان الطولونيون كما سبق القول أول حكام مستقلين بمصر ، فلابد عجيباً أن يهتموا بدعم سلطانهم ، وأن يضعوا الخطط لتنظيم سياسي واستقرار اقتصادي ، ومن أهم المظاهر السياسية التي اتبعتها أحمد بن طولون ليدعم سلطانه أن وضع اسمه في الخطبة بعد اسم الخليفة ووضع اسمه على السكة ، واتخذ الحجاب والكتاب والموائد والمواكب ، ونظم ابن طولون الشرطة ليعتمد عليها في حفظ النظام واستتباب الأمن ، كما نظم القضاء والحسبة ، وكان يولي القضاة بنفسه ، لأن ذلك مظهر مهم من مظاهر الاستقلال ، ومن أشهر القضاة بكلار بن قتيبة الذي رفض الموافقة على لعن الموفق على المنابر عندما طلب ابن طولون منه ذلك ، مما جعل ابن طولون يزوج به في السجن .

الجيش والاسطول :

ومن مظاهر الاستقلال تكوين الجيش ، وقد عنى ابن طولون بذلك عملية كبيرة ، فبلغ تعداد جنوده مائة ألف من السودان والترك والعرب والمصريين ، وقد زاد عدد الجيش في عهد خمارويه زيادة كبيرة ، وكان الجيش الطولوني مزوداً بأحدث الأسلحة التي كانت معروفة في هذا العصر .

واقتضت السواحل الطويلة التي كانت تابعة للطولونيين أن يكون لهم أسطول عظيم ، وقد عنى أحمد بن طولون من أجل ذلك بدار الصناعة بجزيرة الروضة ، وبنى بها عدداً كبيراً من السفن ، كما عنى خمارويه بالاسطول عنانية كبيرة . وحسن ابن طولون مدينة عكا ، وأنشأ بها قاعدة بحرية ، وكان البرج الذي يطل على سورها المزدوج من القوة بحيث صمد بعد ذلك بثلاثة قرون في وجه ملكين من ملوك الصليبيين مدة سنتين ، كما صمد سنة ١٧٩٩ مائة وسبعين نابليون البشة (١) .

(١) غبلبيب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ١٨٧ .

عاصمة جديدة :

ومن مظاهر الاستقلال أن أقام أحمد بن طولون عاصمة خاصة به هي القطاع شهال الفسطاط ، وقد بناها على نظام مدينة ساهم إنشاء عاصمة العباسين آذال ، وبنى بها مستشفى عظيم ، ومسجد فخم ، وكثيراً من المباني الرائعة ، وقد بقيت القطاع مزدهرة حتى قدم الجيش العباسي بقيادة محمد بن سليمان فخر بها وأحرق دورها .



مسجد أحمد بن طولون

النواحي الاقتصادية والاجتماعية :

أما الناحية الاقتصادية فكانت موضع عناية الطولونيين ليضمنوا للبلاد الرخاء والاستقلال ، ولهذا شجعوا الصناعة ، وكانت صناعة التسبيح أهم الصناعات في هذا المعهد ، كما أسسوا مصانع للأسلحة ، وتقدمت في عهدهم صناعة ورق البردي ، وصناعة الصابون والسكر والخزف .

وفي مجال التجارة ظلت مصر وسوريا تراولان نشاطهما التجاري مستغلتين موقعهما في ذلك الشأن ، فأصبحتا حلقة اتصال بين تجارة الشرق

والغرب ، وكانت تتقاضيان خرائب جمركية على البعضائن التي تمر بهما ، وكانت هذه الخرائب تصل أحيانا إلى مبالغ كبيرة .

واهتم الطولونيون بالزراعة وقد استلزم ذلك أن يعنوا بتنظيم فهر النيل واقامة الجسور وشق الترع ، وشجع أحمد بن طولون الفلاحين على امتلاك الأرض ، وقال من الخرائب وكل ذلك ^أ ، إلى تشطيط الزراعة وبلغها مبلغاً عظيماً .

أما عن الناحية الاجتماعية فيبدو أن الأتراك حظوا بمكانة عظيمة في عهد الطولونيين ، وكان بجانبهم طبقة الأشراف التي نالت الإجلال والتعظيم من الشعب ومن الأمراء ، وكانت هناك طبقة كبار المالك وكبار التجار ، وهي طبقة كانت تتعم بالغنى والثراء ، أما جمهور الشعب فقد تحسنت أحواله بسبب الاستقرار وبسبب اهتمام الحاكم بشئون الناس وإقامة العدل ، ولتشي أهل الذمة معاملة طيبة كريمة جعلتهم يقبلون على أعمالهم بشغف وأطمئنان .

وكانت عناية الدولة كبيرة بإحياء الأعياد الإسلامية والمسيحية والوطنية كعيد الفطر وعيد الأضحى ، وعيد الميلاد وعيد الغطاس ، ووفاء النيل ، وكان من أهم المظاهر في هذه الأعياد ، ألعاب الفروسية التي اهتم بها الطولونيون اهتماماً كبيراً ، كما اهتم الطولونيون بالعمارة وبالآداب والعلوم ، ولا يزال الجامع الطولوني شاهد صدق على اهتمامهم بالعلماء والأمور الهندسية ، وجدير بالذكر أن مئذنة هذا المسجد هي أقدم المآذن التي لا تزال قائمة في مصر ، أما المساجد الأخرى فقد غالب عليها الطراز الذي تأثر إلى حد ما بالفن اليوناني المعماري ^(١) ، وكان هذا الجامع مدرسة تعقد بها حلقات العلم ويجلس فيه كبار الفقهاء والمعلمون للتutorيس والافتاء ، كما كان البلاط الطولوني مركزاً يحتذب إليه الشعراء والكتابون ويشع بالعلوم وال المعارف .

^(١) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ من ١٨٧

بين عهدي الطولونيين والإخشيديين

عادت مصر وسوريا ولaitين تابعتين إلى العباسيين بعد سقوط الدولة الطولونية، وظلت كذلك أمددي وثلاثين سنة حتى قامت دولة الإخشيديين فاستقلت بهما من جديد، وقد انفصلت مصر عن سوريا في أغلب سنتي عهد الولاية، ووقيعت معظم بقاع سوريا خلال أطول فترة منها في يد مقتبب معاشر هو ابن رائق، وقد توأى الحكم في مصر بعده ولاة جمع بعضهم بين ولاية مصر وسوريا كلها أو أجزاء منها، وأول واحد في هذه الحقبة هو محمد بن سليمان الكاتب الذي قضى على الطولونيين ولكن سرعان ما استدغاه الخليفة المكتفي وقبض عليه وعين بدله عيسى بن محمد النورسي، وظلت ولايته خوالى خمسين سنوات، ومن الولاية كذلك تكين التركي، وقد حكم مصر أربع مرات، ومنهم أيضا زكا الرومي وهلال بن بدر وأحمد بن كيبلق ومحمد بن طفع.

عودة الاتجاه الاستقلالي :

وفي عهد عيسى النورسي قامت محاولة لاستعادة السلطة للطولونيين، وقد ترجم هذه المحاولة محمد بن على الخالنجي، وكان أحد قواد الطولونيين ثم انضم إلى محمد بن سليمان الكاتب وخرج معه من مصر إلى حلب ولكنه هناك فارقه وعاد إلى مصر وقاد جماعة من المصريين ودعا لإبراهيم بن خماروبيه، ودعا لنفسه نائبا عنه في ظل الخليفة العباسية، وقد لقيت دعوته كثيرا من النجاح واستطاع أن يستولى على العاصمة، وفروعه من وجيه عيسى النورسي، ولكن الخليفة العباسى أرسل له من العراق جيشاً إثرياً جيش حتى استطاع أن يقضى على حركته ويقبض عليه، وبليغت المدة التي سيطر فيها الخالنجي حوالي ثمانية أشهر (١).

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٥٢ .

حملات الفاطميين على مصر :

وكانَتُ الخلافة الفاطمية قد أعلنت بقونس سنة ٥٢٩٧هـ أي بعد سنوات قليلة من سقوط الطولونيين ، وقطع الفاطميين إلى مصر ، وسرعان ما أرسلوا جيوشهم لاحتلالها ، وفي الفترة بين سقوط الطولونيين وقيام الإخشيديين بلغت الحملات الفاطمية على مصر ثلاثة (٣٠١، ٣٠٧، ٣٢١) وقد فصلنا القول عن هذه الحملات من الجزء الرابع من هذه الموسوعة (١) ، وقد تسبّبَ عن هذه الحملات وعن حياة الصحف التي كانت تمر بها الخلافة العباسية ببعضِ الدمار ، لأن اضطراب الأمن بمصر وسوريا ، وعجز الولاة عن السيطرة على الأمور ، وبخاصة أن الخلافة العباسية حرمت لا تدع الفراغ في يد الوالي مقالة أن تتذكر هزيمة الاستقلال الطولونية ، وقد سبّبَ ذلك مزيداً من الضفت للولاية .

ولم يبقَ من شيء يذكر عن هذه الفترة إلا إشارة للأسرة الماذريّة التي تولت أعمال الفراغ ، وكان لها دفع مرتبات الجنود فنافست بذلك الولاة في أكثر سنوات هذه الحقبة ، ومن أشهر أفراد هذه الأسرة العجمي بن أحمد الماذري (٢) .

آثار مصر في العهد الطولوني :

من أهم أعمالِ أحمد بن طولون أنه بني مدينة القطائع التي ذكرناها عندما تكلمنا عن عواصم مصر الإسلامية ، ولم تكن القطائع على نسقِ المدن الإسلامية ، أي لم تكن دوائر يقع المسجد وبيت الإمارة في مركزها ، وإنما كانت مقسمة إلى «قطائع» أي حارات تبعت السكان .

وكان بالقطائع نصر عظيم لأبن طولون ، ولكن شاعت مطالبه ، فقد هدمَتْ الخلافة العباسية آثارَ الطولونيين ، إذ اعتبرتهم متمردين ،

(١) انظر من ٢٩٣ - ٢٩٥ من الطبعة الثامنة .

Lane poole : History of Egypt in the Middle Ages p. 77

(٢)

- ١٠٣ -

فأرادت الخلافة أن تضريحهم حتى لا يسير الآخرون سيرتهم ، ولم يبق من آثار الطولونيين إلا المسجد الذي لم تستطع أيدي الغصب أن تمتد اليه .

والمسجد الطولوني طراز عراقي لتأثر أحمد بن طولون بحياته في ستره مَنْ رأى ، وتعتبر مئذنته أقدم مئذنة بالقاهرة .

وإنها لخسارة عظيمة في نطاق الآثار أن تضيع معالم ما شيده الطولونيون ، فلن الوصف الذي وصلينا عن القصر الشاهق الذي بناه أحمد بن طولون ووسّعه ابنه خمارويه يدل دلالة عظيمة على مدى التقدم التي وصلت له مصر آنذاك ، وعلى رقى العمارة وفخامة الزخرفة وابداع الحدائق .

الدَّوْلَةُ الْأَخْشِنْيَّةُ
(٢٢٣ - ٩٤٥ = ١٠٢٦ م)

تعريف بالدولة الإخشيدية

لقب الإخشيد لقب" كان يحمله ملوك فراعنة في بلاد ما وراء النهر ^(١) ، وقد استطاع محمد بن طنج بن جف أن يحصل على هذا اللقب من الخليفة الراضي تقديراً لخدماته وتكريماً له ، إذ كان ينحدر من الأسرة المالكة ببلاد البقاع ، فعرفت الدولة التي أقامها بمصر وسوريا بالدولة بالإخشيدية .

وقد اتصل « جف » جده الإخشيد بخلفاء العباسين : المعتصم فالواشق فالتوكل ، أما طنج أبو الإخشيد فقد اتصل بخدمة الطولونيين في عهد خمارويه ، ولع في بلاطهم ، وحقق انتصارات عظيمة ضد الروم ، فكاناه خمارويه بأن جعله والياً لدمشق وقد استطاع أن يرد القرامطة عنها ، ولكن طنج أظهر الخلاة والكثير فساحت علاقته بخمارويه مما أدى إلى دفعه إلى السجن بدمشق وزمه محمد ابنه ، ومات طنج في السجن ، وأطلق سراح محمد فبدأ يعمل من جديد لخلفاء بغداد ليستعيد مكانته ، وقد رضى عنه الخليفة المقتدر فولاه دمشق بعد سقوط الطولونيين ، ثم أضاف له الخليفة القاهر " ولاية مصر بشكل مؤقت " ، ولكن سوء الأحوال في دمشق لم يسمح له بمناورةها فأناطب عنده من يحكم مصر باسمه بوقت هذه الائتماء كانت الأحوال في مصر تسير من سيء إلى أسوأ ، وكان الفاطميين يندفعون نحوها ، فلم يجد الخليفة الراضي الذي جاء بعد القاهر بدأ من اللجوء إلى محمد بن طنج ليلبي أمورها ولالية أصلية حتى يوقف أطهاع الفاطميين ويعيد لصر حياة الاستقرار ، فجاء محمد سنة ٣٢٣ وبهذا يؤسس دولته ثم شهدت الحجاز لدولة الإخشيديين ، وظلت العجائز مرتبطة بمصر عدة قرون بعد

(١) من الألقاب التي اتبسها الخلفاء العباسيون ومنحوها البعض أباً لهم للتكرير على نسب الإخشيد لقب خالق وهو لقب ملوك الترك ، والأشين وهو لقب ملوك أشروسنة ، وذلك نسبة لقب التيسير لملك الروم وكسرى الملك الغرس والتبعشي لملك الحبشة وفرعون الملك مصر .

- ١٥٨ -

ذلك ، وفي سنة ٣٣٣ حصل الإخشيد على حقوق وراثية لأسرته في البلاد التي كانت تحت يده ، ودخل بذلك في عداد الدول المستقلة .

وفيما يلى تخطيط بأمراء الإخشيديين :

١ - محمد بن طفعج ٣٣٣ - ٥٣٣٥

٢ - أبو القاسم أنوجور ٣٣٥ - ٤٣٩ هـ . ٣ - أبو الحسن علي ٣٤٩ - ٤٥٤ هـ

بوصاية كافور للاثنين

٤ - كافور ذاتيا ٣٥٦ - ٤٣٦ هـ ٥ - أبو الفوارس أحمد بن علي ٣٥٨ - ٤٥٨ هـ

وكان كافور العبد الحيشي ومعلم ولد الإخشيد وصيا على كل منهما ، مستبدا بالأمر دونهما ، فلما مات أبو الحسن على عين كافور واليا على مصر والشام ، وانتسب لсадته فأصبح يعرف بكافور الإخشيدى ، ولما مات بعد سنتين تولى أبو الفوارس أحمد بن علي ، ولكن الأحداث كانت أكبر منه ، فأخلى الطريق بعد عام أو نحو العام إلى جحافل الفاطميين .

تعريف بحكام الإخشيديين

محمد بن طفعج الإخشيدى :

جاء الإخشيد إلى مصر سنة ٣٣٣هـ واليا عليها وعلى الشام ، وكانت قد اضطربت أحوال هذه الولاية من الداخل وهددها الغزارة من الخارج ، وكان عليه أن يبذل جهدا كبيرا ليعيد الاستقرار والسلام لهذه الولاية الكبيرة ، ومن المشكلات التي صادفها في الداخل مقاومة عامل الخراج محمد ابن على المذرائي الذي ينحدر من أسرة المذرائي التي تحدثنا عنها من قبل ، والتي كان لها نفوذ وأطماع ، وهو من هذه الوجهة قريب الشبه بابن طولون عندما قابل ثفوذ ابن الدبيز ، ومن المشكلات كذلك مقاومة أنصار الوالي السابق أحمد بن كيبلع ، وقد استطاع أن ينفي على المقاومة قضاء تماما ويقضى على عناصر الشعب بالداخل .

وقطل الإخشيد بعد ذلك إلى رد العداون الخارجي ، فاستطاع أن يردد الفاطميين عن مصر وأن يوقف زحفهم عليها (١) ، وانشغلت الخليفة الفاطمية عن مصر بثورة ابن كيداد ، وقد حاول الفاطميون أن يجذبوا لوم الإخشيد وأن يحثوه على نشر دعوتهم بولايته ، لكن الإخشيد حرص على أن تبقى علاقته طيبة مع العباسيين وأن يظل في نطاق المذهب السنّي .

علاقة الإخشيد بالخلافة العباسية :

أما علاقة الإخشيد بالخلافة العباسية فكانت قربة الشبه بعلاقة أحمد بن طولون بها ، فكما كان الموفق متغلبا على الخليفة العباسى وعدواً لابن طولون فاننا نجد هنا شخصا آخر يشغل نفس المكانة ، وذلك الشخص هو محمد بن رائق أمير الأمراء الذي كانت له القبة على الخليفة « المتقي » آنذاك والذي حاول أن يستولي على الشام بل أن يمد سلطانه إلى مصر ، أما الخليفة فقد وقف موقفا سلبيا ، وبيدو أن هواه كان مع الإخشيد ، حتى أن الإخشيد أغراه بالقدوم إلى مصر والإقامة بها ، ولكن الخليفة لم يستطع ذلك ، ودارت معارك بين ابن رائق والإخشيد لم يكن النصر فيها حاسما لأى من الطرفين ، وعُقد صلح بينهما بأن يكون شمالي الشام لابن رائق وجنوبه مع مصر تابعا للإخشيد ، ثم أن الإخشيد استرد شمالي الشام عقب وفاة ابن رائق (٢) .

وهذا الموقف أيضا هو امتداد لحركة الاستقلالية التي تكلمنا عنها من قبل على أن الإخشيد لم ينعم بذلك النصر الذي حققه ، فقد هاجمه الحمدانيون الذين أصبح لهم التفوذ في بغداد ، وتكونت لهم دولة في الموصل سنة ٣٩٧ ثم استولت على حلب سنة ٣٩٩ ، وسرعان ما أرسل الإخشيد جيشا كبيرا بقيادة غلامية فاتك وكافور ، ثم سار بنفسه إلى ميدان المعركة سنة ٤٠٣هـ ، واستطاع أن يحقق نصرا كبيرا وأن يوقع بجيشه سيف الدولة ،

(١) ابن خلفون : العبر ج ٤ ص ٣٩ .

(٢) الكلدى : تاريخ مصر وولاتها من ٢٨٨ - ٢٩١ وابن الأثير : الكلما فى التاريخ ج ٨ ص ٢٩٢ .

- ١١٩ -

ويقول الدكتور فيليب حتى (١) إن سيفه التغول قام بمحاولات عديدة للانسحاب على سائر سوريا ، ولكن حاكم مصر الراهن أفسد خططه ، وهزم جيشه في اشتباikan بين كبيرين ولم يبق له غير منطقة حلب ، وأجبره على الخضوع فيها لسيطرة مصر .

وينبغي ألا ننسى شبهها بين الأحداث هنا والأحداث التي مر ذكرها عن علاقة الطولونيين ببغداد ، ذلك التشبه هو أن مصايرة تمت بين الأشبيدين من جانب وبين ابن رائق من جانب آخر ، ثم بين الأشبيدين من جانب وبين الحمدانيين من جانب آخر ، وهذا يدل على أن المصايرة كانت تلعب دوراً كبيراً في عالم السياسة .

وكما قلنا من قبل كان الخليفة المنقى على صلة طيبة بالأشبي ، وقد خطر له أن يتسلل دعوة الأشبي للانتقال إلى مصر والتخلص من سلطة الأتراك ولكن ظروفاً متعددة حالت دون ذلك ، ومع هذا فقد هرّص الخليفة أن يتمّيّز جانب الأشبي مادياً وأدبياً ليلجا له عند الحاجة ، فمدد سلطانه بآن ولاه مكة والمدينة بالإضافة إلى مصر والشام ، كما جعل هذه الولاية له ولولاده مدة ثلاثة عاماً ، ومضت بعد ذلك فسرون عديدة ومقدرات الحجاز رهن بمقدرات مصر (٢) .

وينبغي أن نختتم كلامنا عن الأشبي بعبارة نقبسها من أبي المحاسن ابن تغري بردى قال : وكان الأشبي ملكاً شجاعاً مقداماً جازماً متيقظاً . حسن التعبير ، عارفاً بالحروب ، مكرماً للجند ، شديد البطش ، ذا قوة مفرطة لا يكاد أحد يجرؤ قوسه ، وله هيبة عظيمة في قلوب الرعية ، وكان متجملاً في مركبه وملبسه ، وكان هو كجهة يضاهي هو كعب الخلافة ، وببلغ عدد مالكه ثمانية آلاف مملوك ، وكان قوى التحرز على نفسه ، وكان

(١) تاريخ سوريا ومصر وفلسطين ج ٢ من ١٩١ .

(٢) فيليب حتى : تاريخ سوريا من ١٩١ .

- ١١ -

عماليكه يحرسونه بالنوبه عندما يلما ، ويوكل الخدم بجهه انب خيمته ، ثم
لا ينق باحد حتى يمضى الى خيمة الفراشين فینام فيها (١) .

وتوفى الاخشيد بدمشق سنة ٥٣٥ ودفن في بيت المقدس .

بعد الاخشيد :

يمكن القول إن دولة الاخشيديين بمصر كانت تتكون من شخصين اثنين ، أحدهما منشيء هذه الدولة محمد بن طفعن الذي تحدثنا عنه آنفا ، والثانى خلّكه كافور ، وبجانب كافور كان هناك اثنان من الدشمن لا يُحسب لهما حساب في تاريخ الدول ، هما أبو القاسم أنوجور وأبو الحسن على ابنا الاخشيد ، وكان الاخشيد قد أخذ البيعة قبل وفاته للأول على القواد والجناد والأعيان ، فلما مات الاخشيد صارت الولاية إلى أنو جشور ، وكان في الرابعة عشرة من عمره وتولى كافور الوصاية عليه ، واستمرت مدة ولايته أربع عشرة سنة ، أى أنه في خلالها تجاوز عهد الصبا إلى الشباب والرجلة ، ولكنه مع ذلك لم ينزل من السلطان طائلا ، وظل كافور ممسكا بزمام الأمور بيد من حديد ، وأطلق للشاب المال ليقمع به وبما يتحققه من متع رخيصة ، ويقال إن أنوجور فيكر مرأة في السيطرة الحقيقية على الأمور ، وبدرت منه بوادر ثورة على كافور ، وأستعد للخروج إلى الشام ليطلب من حاميتها أن تساعده ضد كافور ، ولكن أنه خافت عليه ، فأخبرت كافورا بذلك وسعت للصلح بين الاثنين : ومات أنوجورعقب ذلك مما دعا إلى الظن بأن كافورا دس له سمه في الطعام .

وبعد أنوجور تولى أخوه أبو الحسن على ، ومع أنه كان في الحادية والعشرين من العمر ، إلا أن كافورا نصب نفسه وصيا عليه واستبد بالأمر دونه ، ولما تحركت نفسه لابعاد هذا الوصي المتسلط ، اشتد كافور عليه الحال بينه وبين الناس ، فأصبح سجينًا في قصره ، ثم قيل إنه مات

وأنطلق الظن أيضاً بأن كافوراً قضى عليه كما انطلق عقب وفاة أنوجور ، وكانت مدة ولادته خمسة سنتين وشهرين .

وظل كافور بعد موت أبي الحسن يدير الولاية مدة سنتين كما كان يديراها من قبل بمساعدة الوزير جعفر بن الفضل بن الشرات ، وبعد فترة أظهر كافور كتاب بيضة من الخليفة العباسى له ، فأصبح حاكماً مباشرأ على مصر وسوريا وبلاد الحجاز ، وهكذا أصبحت مقاليد الأمور في هذه المنطقة الحساسة في يد عبد أسود اشتراه الاخشيد بثمانية عشر ديناراً ، ويصنه ابن خلakan بأنه كان شديد السواد ، بصلاماً ، مثقوب الشفة العليا ، بطيناً قبيح المنظر ، مشقوق القدمين ، ثقيل البدن (١) ، ولكنه الاسلام الذى فرض المساواة بين أتباعه : فرفع بذلك إلى أوج الشهرة أناساً من أوضع الأصول (٢) .

وكان عهد كافور قاتماً مثله ، فقد كثرت فيه الزلازل ، وشببت النيران ، وتعرضت بلاد الشام لغزوات القرامطة مرة أخرى ، وتعرضت مصر لغارات ملك النوبة ، وانخفض ماء النيل ، واشتد الغلاء (٣) .

وإذا كنا قد اقتبسنا من ابن خلakan الأوصاف **الخلائقية** المزريية لكافور ، فمن الحق أن نقتبس من ابن تغري بردى حديثاً عن موأب كافور وأوصافه **الخلائقية** ، قال : أبو الحasan : كان كافور يدعى الشعراء ويحييهم ، وكانت تقرأ عنده في كل ليلة السير وأخبار الدولة الاموية والعباسية ، وكان عظيم الحرمة ، له من الفلامن الروم والمسيد ما يتجاوز الوصف ، زاد ملكه على ملك مولاه الاخشيد ، وكان كثير الخلум والهبات ، خبيراً بالسياسة ، فطننا ذكياً ، جيد العقل ، داهية ، كان يهادى المعز صاحب

(١) وفيات الأعيان : ج ١ من ٤٣١ .

(٢) ثوابت حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ من ١٩٢ .

(٣) الترمذى : الخطط ج ٢٣١ من ٢٣١ .

— ١١٣ —

المغرب ويظهر ميله اليه ، ويدعنه بالطاعة لبني العباس ، ويداري ويخادع
هؤلاء وهو لاه ، وقم له الأمر (١) .

بعد كافور :

توفى كافور بعد سنتين من ولادته فأسندت الأمور إلى أبي شفارس
أحمد بن علي بن الأخشيد ، وكان صبياً في الحادية عشرة ، فنقولى الحسن
ابن عبيد الله بن طague الوصاية عليه ، واستبد هذا بالأمر وقبض على جعفر
ابن الفرات ، ولكنه نجف عن تسيير الأمور وبخاصة وسط الجماعة القاسمية
التي أصابت البلاد ، فثار عليه الناس ، ففر من مصر إلى الشام ، وكان
هذا التدهور في مصر ، وما صحبه من تدهور في الخلافة العباسية من الأسباب
التي يسررت على الفاطميين الزحف إلى مصر ، ذلك الزحف الذي شرحته
في الجزء الرابع من هذه الموسوعة .

حضارة الإخشيديين

يمكن القول إجمالاً إن اتجاهات الحضارة في العهد الإخشيدى ليست
بعيدة عن اتجاهاتها في العهد الطولوني ، لقرب الصلة الزمنية بين العهدين
ولكثرة وجوه التشابه ، ولكن يلاحظ أن الصلة بين الإخشيديين والخلافة
ال Abbasية كانت، أقوى من الصلة بين الطولونيين وهذه الخلافة ، وإنطل من
ظاهر ذلك أن الإخشيد لم ينشئ عاصمة خاصة ينافس بها عاصمة الخلافة ،
وإنما اكتفى بزيادة العمارة بالفسطاط ومد ضواحيها ، ومن منشاته بها
القصر الجميل الذي بناء في الروضة وسماه المختار ، والبستان الذي أطلق
عليه فيما بعد البستان الكافوري ، وبجوار هذا البستان أنشأ الإخشيد
ميدانًا فسيحا سُمِّيَ ميدان الإخشيد ، وهن المظاهر الاستقلالية التي
برزت في العهد الإخشيدى ضرب السكة وعليها أسماء الإخشيديين بجانب
اسم الخليفة ، وظهور منصب الوزاراة في مصر لأول مرة منذ الفتح الإسلامي ،
وقد تولاها أبو الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات ، ولما مات سنة ٣٣٧ عين

(٤) النجوم الظاهرة ج ٤ ص ٦ .

(٥) ٨ — موسوعة التاريخ ج ٥

ابنه جعفر مكانه ، وظل يشغل هذا المنصب حتى نهاية الدولة الاخشيدية ، ويُعرف عنه أنه صادر بعض أموال البارزين ، ومنهم يعقوب بن كلايس مما حدا بيعقوب إلى الهرب إلى الشمال الأفريقي وحثّ الفاطميين على الزحف إلى مصر .

منصب الحاجب :

ومن المناصب التي ظهرت في البلاط الاخشيدى منصب الحاجب أيضاً ، ومن أهم الذين شغلوها هذا المنصب فاتك الرومى .

القضاء في العهد الإخشيدى :

وقد عنى الاخشيديون بالقضاء ، واختاروا لهذا المنصب أعظم العلماء ، ومن أشهر قضاة الاخشيد محمد بن بدر الصيرفي ، والحسين بن أبي زرعة الدمشقى ، ومن أشهر قضاة كافور عمرو بن الحسن الهائشى ، وأبو الطاهر الزهلى ، الذى ظل على قضاء مصر حتى دخلها الفاطميين ، وكان الاخشيد يجلس للنظر في المظالم كل يوم أربعاء ، وهذا حذوه كافور في ذلك .

جيش الاخشيديين :

وكان جيش الاخشيديين كبيراً بلغ أربعين ألف جندى فيما عدا حرس الإخشيد الخاص ، وكان الاستقرار والقوة طابع هذا الجيش .

الناحية المالية :

وقد نعمت البلاد بالرخاء والثراء خلال أكثر عهد الاخشيديين ، ولكن يؤخذ على الإخشيد أنه كثيراً ما كان يلجأ لمصادر الأموال ، وربما يُعتقد أنّه بأنه كان ينفق هذه الأموال في الأعمال النافعة التي تحتاج لها الدولة ، كما أنّ أكثر من صادر أموالهم كانت تحوم الشبه حول ثرواتهم ، وما أثير عنه حول المصادر قوله : المصلحة هشومة وأنا مضطر إليها ، وما أنفقتها قط إلا في سفر إلى عدو^(١) ، وإذا كان الاخشيد قد صادر أموال

(١) ابن سعيد : كتاب المغرب ص ٣٦ .

— ١١٥ —

بعض الأغنياء فإنه كان — مع ما عُرِفَ عنه من الحرمن — يُعْنِي بالقراء ويقدم لهم العون المالي من حين لآخر ، وقد سار كافور في مخمار السخاء على القراء شوطاً طويلاً ، فيري أَنَّه كان في عيد الأضحى يُتَّرِّج حمل بغل من الذهب وكتسوها بأسماء المحتاجين ، ويستبيب عنه من يمْرُّ على هؤلاء ويدين أبوابهم ، ويسلم كلاماً منهم تنصيبه من هذه المنحة قائلًا : الاستاذ أبو المسك كافور الاخشيدى يهنتك بالعيد ويقول له اصرف هذا في منفعتك (١) .

العلم في البلاط الإخشيدى :

وكان للعلم والأدب دولة ذات بال في البلاط الإخشيدى ، وقد نبغ من العلماء عدد كبير في هذه الحقبة منهم أبو إسحق المروزى (٥٣٤هـ) وكان من أئمة الدين وأنسجم المعرفة كثير التأليف ، ومنهم على بن عبد الله المعاذري قاضى الاسكندرية (٣٣٩هـ) ومن المحدثين الحسن بن رشيق المصرى الذى ولد سنة ٢٨٣هـ وتوفى سنة ٣٧٠هـ ومن النحاة أحمد بن الوليد التميمى المصرى ، ومن المؤرخين أبو عمرو الكندى ، ومن الشعراء كشاجم ، وكثيرون سواهم من أهل العلم والأدب .

كافور والمتينى :

وقد عاش الشاعر النابى أبو الطيب المتينى أربع سنوات في بلاط كافور ، ومدحه بأخلد القصائد ، وكان أبو الطيب يطبع أن يسند له كافور ولاية أو عملاً كبيراً ، وقد أغدق عليه كافور العطايا ، ولكنه لم يكل له مما كان يطبع فيه من أعمال ، وما سئل كافور عن ذلك أجاب : إن من أدعى النبوة يستطيع أن يدعى الملك والسيادة ، فغضب عليه المتينى وهجر مصر وهجاً كافور باقذع أنواع الهجاء .

(١) دكتور على ابراهيم : مصر في المصادر الوسطى ص ٤٥٧ .

من مدائنه لكافور :

ومن مدائنه المتبنى لكافور في فترة اقباله وأعماله قصيدة البيائية ذات الشهادة الواسعة والمعانى الرائعة ، ومنها :

ومن قصد البحر استقل السواقيا
وخاتمت بياضاً خلفها وما فيها
وكل سحاب لا أخص الغواديا
فإنك تعطى في نداك المعالينا
فريح مأكلاً للعراقين واليابا

تواصد كافور توارك غيره
فجاءت بنا إنسان عين زمانه
أبا كل طيب لا أبا المسك وحده
إذا كسب الناس المعالى بالندى
ونغير كثير أن يزورك راجل

المتبني يتوجّل تحقيق أمه :

فلما طال انتظار المتبني للولاية التي طمع فيها كتب لكافور يتوجّله :

سكتى ببيان عندها وخطاب
ضعيف هوى ، يثير حسى إليه ثواب
على أن رأينى في هوائى صواب
وغرائب ، أنى قد ظفرت وخاربوا
لهم كل يوم بلدة وصتاب

وفي النفس حاجات وفيك فطانة
وما أنا بالباغى على الحب رشوة
وما شئت إلا أن أدل عواذلى
وأعلم قوماً خالقونى فشركتوا
وما كنت لولا أنت إلا مهاجرا

هرب وهجاء :

ثم يئس من أن ينال ما تمناه فغادر مصر وكان من هجائه لكافور قوله :

عن القرى وعن الترحال مردود
من اللسان فنلا كانوا ولا الجود
أو خانه فلنـه من مصر تمجيد
فالحر مستبعد والعبد معبد
إن العبيد لأنجاس منا كيد

إني نزلت بكذابين ، ضيقتم
جود الرجال من الأيدي وجودهم
أكلاماً اغتال عبد السوء سيداه
صار الخسيء أمام الآبقين بهـا
لا تستر العبد إلا والعصـا معهـا

من علم الأسود المخصى مكرمة
أقومة البيض أم آباءه الصيد ؟
أم أذنه في يد النخاس دامية
أم قدره وهو بالفلسين مردود
وذلك أن الفحول البيض عاجزة
عن الجميل فكيف الخصية السود

آثار الإخشidiين بمصر :

ليس للإخشidiين بمصر آثار باقية سوى مشهد آل طباطبا .

الحمدانيون في شمال سوريا

أشرنا عند الكلام عن محمد بن طفع إلى الحمدانيين ونشاطهم بين
الموصل وحلب ، ونريد هنا أن نذكر مزيداً من التفصيل عن هذه الأسرة
التي حكمت جزءاً من سوريا فترة من الزمن .

تنسب هذه الأسرة إلى حمدان بن حمدون من قبيلة تغلب التي كانت
مسيحية الديانة ، ومنها الشاعر الأموي الأخطل : وقد استطاع حمدان إثبات
فترة اضمحلال الخلفاء العباسيين أن يستقل بقبيلته في منطقة قربة من
الموصل حوالي سنة ٥٢٦هـ . وفي سنة ٥٢٩هـ عيّن أبو الهيجاء عبد الله
ابن حمدان حاكما للموصل وما حولها ، وقد أتاح هذا الوضع الفرصة
للهدمانيين ليعودوا جاههم وتبرز قوتهم ، وفي سنة ٣٠٧هـ عيّن إبراهيم
ابن حمدان حاكما لديار ربيعة ، وخلفه أخوه داود سنة ٣٠٩هـ . وفي سنة
٣١٣هـ أصبح سعيد بن حمدان حاكما لنقطة نهاوند كما عيّن آخرون من
الأسرة في مناصب متعددة ، وخلف حسن آباء عبد الله على ولاية
الموصل ، ثم أضيفت له ديار بكر وديار ربيعة ، وفي سنة ٣٣٩هـ أنعم عليه
ال الخليفة العباسى بلقب ناصر الدولة ، كما أنعم على أخيه على بلقب سيف
الدولة ، وجعله حاكما لواسط ، ولكن هذا استطاع أن يأخذ حلب من
الإخشidiين سنة ٣٤٣هـ كما ذكرنا من قبل ، وبهذا أصبح مواجهها لقوى
البيزنطيين ، ودار صراع طويل بين سيف الدولة وبين البيزنطيين كانت به

انتصارات وهزائم للحمدانيين (١) ، ولكن المتبقي شاعر سيف الدولة استطاع بشعره أن يجعل الهزيمة نصراً ، وأن يسجل موقف للبطولة لمدحه : وكان سيف الدولة شيعياً غير متطرف ولذلك استطاع بعد سقوط الأشیعیین ودخول الفاطمیین مصر والشام أن يكون على علاقة طيبة بالخلافة العباسية والخلافة الفاطمیة ، وبعد سيف الدولة بدأت دولة الحمدانیین في الانحلال ، ثم امتد ملك الفاطمیین فشمل منطقة حلب معيناً بذلك وحدة مصر وجميع مناطق سوريا .

وأمراء الحمدانیین بحسب هم :

سيف الدولة ٣٣٣

سعد الدولة ٣٥٦

سعید الدولة ٣٨١

شريف

على ٣٩٢

العلم والفن في بلاط سيف الدولة :

وقد أزدان بلاط سيف الدولة بنخبة ممتازة من رجال الأدب والفن تكاد لا تباريها إلا حلقات خلقاء بقصد في أيام عزهم ، فقد ضفت الفيلسوف الشهير والموسيقى البارع أبا نصر الفارابي ، وهو رخ الأدب العربي اللامع أبا الفرج الأصفهانی ، والواعظ البليغ ابن نباته ، والعالم اللغوي ابن خالویه ، والنحوی الشاعر ابن جنی ، والشاعر الفارشی أبا فراس ،

- ١١٩ -

و فوق هؤلاء جمِيعاً الشاعر الأشهر أبا الطيب المتنبي (١) ، وكان سيف
الهَرْلَة بين هؤلاء — كما يقول الشعالي — واسطة قلادتهم وعزَّة الزمان
ودعامة الإسلام ، وكان به سيدَ آدَ الشفور وسَنَدَ الدهور (٢) .

ولنسَرُ الآن إلَى عَمَدِ جَدِيدٍ حَافَلَ بِالازدَهَارِ فِي مَطْلَعِهِ ، وَمَلَىءَ
بِالصَّرَاعِ فِي خَاتَمَتِهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْمَهْدُ الْفَاطِمِيُّ بِمَصْرٍ وَسُورِيَا .

(١) فَيلِيبُ حتَّى : تَارِيخُ سُورِيَا صَ ١٩٧ .

(٢) بِتِيمَةِ الدَّهْرِ : جَ ١ ، صَ ٨ - ٩ .

الدَّوْلَةُ الْفَاطِمِيَّةُ

(١١٧١ - ٩٦٩ م = ٣٥٨ - ٢٥٧)

- ١٢٣ -

نسب الفاطميين وقيام دولتهم

فـالـجـزـءـ الـرـابـعـ مـنـ هـذـهـ الـمـوسـوـعـةـ (١)ـ تـحـدـثـنـاـ بـإـفـاضـةـ عـنـ نـسـبـ الفـاطـمـيـنـ ،ـ وـأـشـبـتـنـاـ أـنـهـمـ مـنـ نـسـلـ السـيـدةـ فـاطـمـةـ الزـهـراءـ ،ـ وـرـدـدـنـاـ الـادـعـاءـ السـذـىـ يـقـولـ بـغـيـرـ ذـلـكـ .ـ

وـتـحـدـثـنـاـ هـنـاكـ أـيـضاـ عـنـ قـيـامـ دـوـلـتـهـمـ بـالـشـمـالـ الـافـرـيقـيـ ،ـ وـكـانـ الشـمـالـ الـافـرـيقـيـ أـوـ الـيـمـنـ .ـ هـوـ الـكـانـ الـمـختارـ لـقـيـامـ الـدـوـلـةـ الـإـسـلـامـيـةـ عـلـىـ أـمـلـ أـنـ يـكـونـ بـعـدـهـمـ عـنـ مـرـكـزـ الـخـلـافـةـ الـعـبـاسـيـةـ .ـ ضـمـانـاـ لـالـسـلـاحـةـ وـالـنـجـاحـ فـيـ اـقـامـةـ الـدـوـلـةـ الـجـدـيـدـةـ .ـ

وـكـانـ الشـمـالـ الـافـرـيقـيـ أـهـمـ لـدـىـ الـفـاطـمـيـنـ مـنـ الـيـمـنـ ،ـ لـأنـ وـجـودـهـمـ فـيـ الشـمـالـ الـافـرـيقـيـ سـيـفـتـحـ لـهـمـ الـمـجـالـ لـلـتـحـرـرـ إـلـىـ مـصـرـ لـيـحـقـقـوـاـ طـمـوـحـهـمـ الـأـكـبـرـ فـيـ تـكـوـينـ دـوـلـةـ إـسـلـامـيـةـ كـبـرـىـ تـتـفـذـ مـصـرـ مـرـكـزاـ لـهـاـ .ـ

وـفـيـ الـجـزـءـ الـرـابـعـ كـذـلـكـ حـدـيـثـ عـنـ الـمـحاـولاتـ الـفـاشـلـةـ التـىـ قـامـ بـهـاـ الـفـاطـمـيـنـ لـضـمـ مـصـرـ إـلـىـ سـلـطـانـهـمـ ،ـ ثـمـ عـنـ الـمـحاـولةـ التـىـ حـقـقـ بـهـاـ جـوـهرـ الصـقـلـىـ هـذـاـ الـهـدـفـ،ـ وـتـحـدـثـنـاـ كـذـلـكـ عـنـ اـنـتـقـالـ المـعـزـ لـدـيـنـ اللـهـ الـيـهـاـ لـيـجـعـلـهـ مـرـكـزـ سـلـطـانـهـ وـقـاعـدـةـ تـتـسـعـ مـنـهـ دـوـلـتـهـ لـتـصلـ إـلـىـ أـقـصـيـ الـشـرـقـ كـمـاـ وـصـلـتـ فـيـ اـفـرـيقـيـةـ إـلـىـ أـقـصـيـ الـغـرـبـ ،ـ وـهـنـاكـ فـيـ ذـلـكـ الـجـزـءـ وـاـصـلـانـاـ كـلـامـنـاـ عـنـ اـفـرـيقـيـةـ بـعـدـ اـنـتـقـالـهـمـ إـلـيـهاـ ،ـ وـعـهـدـهـمـ يـعـدـ قـمـةـ الـاتـجـاهـاتـ الـإـسـتـقـلـالـيـةـ التـىـ ظـهـرـتـ مـبـكـرـةـ ثـمـ بـرـزـتـ إـلـيـهاـ ،ـ وـعـهـدـهـمـ يـعـدـ قـمـةـ الـاتـجـاهـاتـ الـإـسـتـقـلـالـيـةـ التـىـ ظـهـرـتـ مـبـكـرـةـ ثـمـ بـرـزـتـ معـ قـيـامـ الـدـوـلـةـ الـطـوـلـوـنـيـةـ وـالـأـخـشـيـدـيـةـ ،ـ وـفـيـ الـمـعـدـ الـفـاطـمـيـ اـتـجـهـ الـاـهـتـمـامـ لـلـحـضـارـةـ الـإـسـلـامـيـةـ فـأـضـافـتـ إـلـىـ الـاتـجـاهـ الـإـسـتـقـلـالـيـ اـتـجـاهـاـ خـضـارـياـ بـقـىـ زـمامـهـ فـيـ مـصـرـ عـلـىـ هـرـ الـتـارـيـخـ عـقـبـ ذـلـكـ .ـ

(١) ص: ٢٨٥ وما بعدها من الطبعة السادسة.

جوهر يمهد لاستقبال المعز :

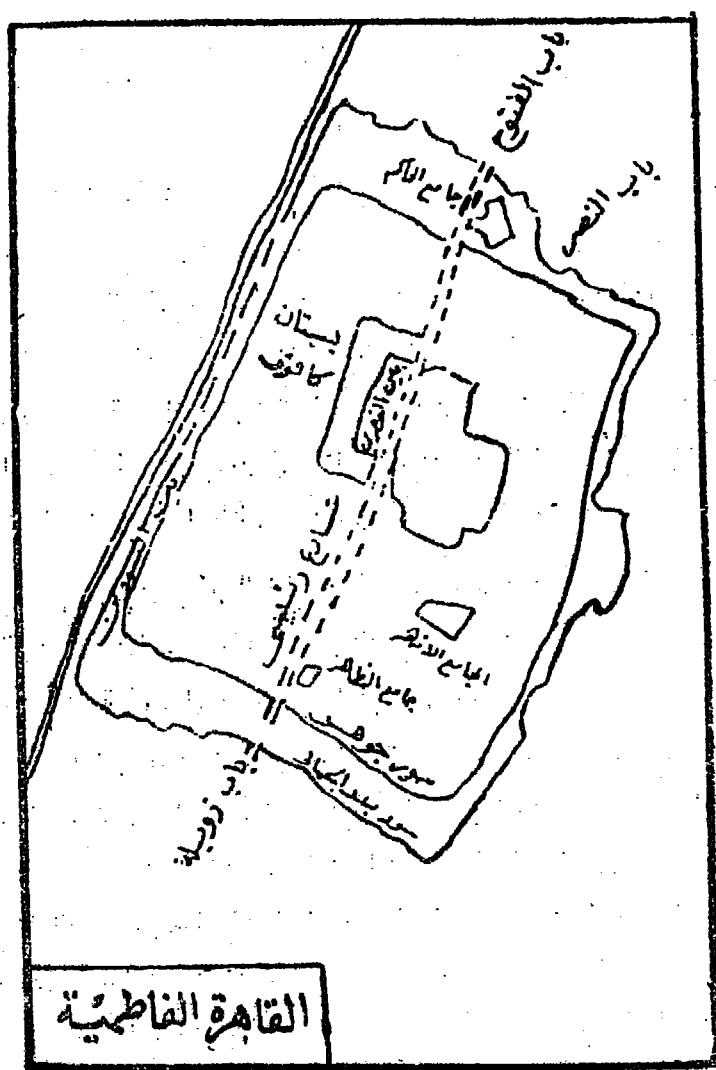
حكم جوهر مصر باسم الخلافة الفاطمية منذ فتحها حتى قيام المعز ، وهي مدة أربع سنوات (٣٥٨ - ٣٦٢) وقد تقلب جوهر خلال هذه المدة على العقبات ، وقضى على المتابع ، وأعاد العدة لاستقبال الخليفة الفاطمي بما يليق به من جلال وعظمة ، فقد خط جوهر في أول امسية له بالعاصمة مدينة جديدة إلى الشمال من القطائع سماها المنصورية وقسمها خططا ، ولما دخل المعز لدين الله البلاد خلع عليها اسم القاهرة المعزية ، أي مدينة المعز التي تفه كل الدين (١) .

وفي نفس الامسية وضع جوهر أساس قصر فخم لينزل به الخليفة عند قدومه (٢) ، وبنى جوهر الجامع الأزهر : (وأقيمت الصلاة فيه لأول مرة في السابع من رمضان سنة ٣٦١) ، وجعل على رأس كل مصلحة منصالح الحكومية الثنين من الموظفين أحدهما مصرى ليرعى شئون المصريين والثانى مغربى ليرعى مصالح المغاربة الذين استقدمهم جوهر منه .

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ١٠٣ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ١٢٠ ، المقريزى : انعااظ الحنفا ص ٧٢ .

- ١٢٥ -



القاهرة الفاطمية

جوهر والدعوة الشيعية :

ومن ناحية الدعوة الشيعية عمل جوهر بتوءة على نشرها وتنقيتها بمصر ، ففي أول الأمر نجد جوهر ينشر وثيقة (١) يشترط فيها على نفسه العدل واستقطاب الرسوم الجائرة ، وتشير تلك النصائح على مذهبهم الذي ي يريدونه ، فلما استقر له الأمر منع جوهر لبس السواد وهو شعار العباسين وحاول نشر الخبرة وهي لبس آل البيت ، وأنج جوهر أن يزداد في الأذان العبارة « حى على خير العمل » ، وأن يزداد في خطبة الجمعة الصلوات والقسم على الإمام على "المرتضى" ، وفاطمة البتول ، والحسن والحسين سبطي الرسول ، والائمة الراشدين آباء أمير المؤمنين ، وقُصَّرَ جوهر المأمور مهمته على الشيعة من مصريين أو مغاربة ، فتندفع الطامعون على اعلان قبولهم لهذا المذهب ، بل ظهر بعضهم التعصب له (٢) .

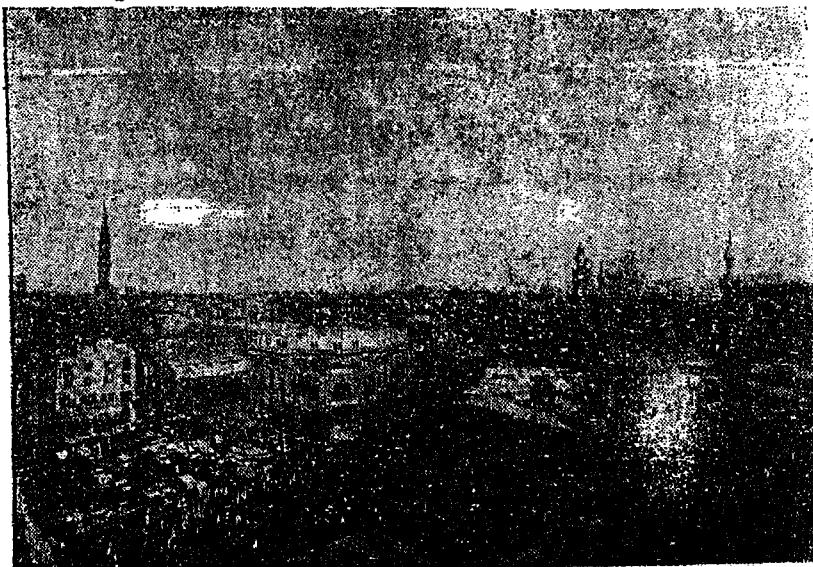
وي ينبغي أن يتضح أن الفاطميين في مصر أحسوا أنهم يعاملون شعراً له ثقافة وفكر ، فقللوا من تعصبهم للتشيع ليضمنوا لأنفسهم الاستقرار والهدوء وبخاصة في أول عدهم بدخول مصر .

وفيمما يتعلق بالاضطرابات الداخلية قضى جوهر على كل المناوئين للسلطة الجديدة ، فقاوم جماعة القرامطة التي كانت تتلقى إمالة من حكام دمشق ، ثم قطعت (٣) الأتاوة بامتداد ملك الفاطميين إلى الشام ، فأثاروا هذا التصرف زعماء القرامطة ، وقاموا بحملة عنيفة استولوا بها على دمشق وحاولوا مهاجمة مصر ، ولكن جوهر تصدى لهم بجيش كبير ، فنشتت شملهم واستعاد دمشق منهم ، وقد جدد القرامطة نشاطهم ضد الفاطميين بعد حضور المعز ل مصر ، ولكن المعز استمال بعض قادتهم بالمال ، الذي كان أكثره مزيقاً ، وانتصر بالسلاح على الباقيين (٤) . وسنزيد هذا الموضوع شرحاً فيما بعد .

(١) اقرأها في اتعاظ الحنفا للمقرizi ص ١٤٨ - ١٥٣ .

(٢) ابن خلkan : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٢٠ .

(٣) انظر تاريخ مصر إلى الفتح العثماني تأليف عمر الاسكندرى والميجر سفديج ص ١٦٤ .



الجامع الأزهر ومنطقته

وسار جوهر شوطاً واسعاً في الفتوحات والتوسع ، فضم بلاد النوبة ،
واعترفت مكة والمدينة بسلطان الفاطميين ، واعترف له الأمير الحمداني
وأثنى على سلطنه بالسيادة .

ورأى جوهر بعد هذا أنه آن الأوان لحضور العز إلى مصر ، فكتب
إليه بذلك فخرج العز من المنصورية في شوال سنة ٣٦١ ووصل القاهرة
في رمضان سنة ٣٦٢ وتسلم زمام الأمور من جوهر ، وخلع على هذا
للقائد خلعة مذهبة وقلده سيفاً ، وقدم إليه عشرين فرساناً مسرجة ، وخمسين
ألف دينار تقديرًا لما حققه من نجاح وما قدمه للدولة من خدمات ،
ولكن السيفان لا يجتمعون في جراب واحد كما يقولون ، فلم يكن هناك
بعد من أن يتوارى جوهر عن الأنظار ليكمل تألق الخليفة . ولابدجـه كل
الاجلال إليه ، وأذلك صرف جوهر عن دواوين مصر وجباية أموالها والنزل

— ١٢٨ —

في أحوالها (١) ، وبدأ نجمه يختفى ، ثم توارى بعد قليل عن مسرح السياسة المصرية (٢) . ولكن نفوذه العسكرى استمر بعد ذلك فقد قاد جيوش الفاطميين للقضاء على افتكين والحسن زعيم القرامطة بالشام سنة ٩٧٦ ووطد سلطان الفاطميين فيها ، ثم عاد إلى مصر سنة ٩٧٩ حيث توفي بالقاهرة في نفس العام .

العز لدين الله في مصر (٣٦٣ - ٩٧٣ = ٣٦٥ - ٩٧٥) :

حمل العز معه إلى مصر أهله وذويه وحمل كذلك جثث آبائه ، وهذا يدل على أنه كان ينوى أن يتتخذ من مصر عاصمة له يحكم منها إمبراطورية كبيرة كان يحلم بها ، فلم تكن مصر بالنسبة له أرضاً ضمها لسلطانه ، وإنما كانت مركزاً يتبعها ما خضع له من بلدان .

وعهد العز بمصر عهد قصير ، فقد توفي بعد ثلاث سنوات من وصوله ، ولكن هذه الفترة كانت حافلة بالإصلاحات وبرفع النظم الطيبة السمحاء ، فقد أطلق سراح المسجونين من الأشقيين وأتباع كافور ، ونشر العدل وتحسين الادارة ، وكبح جماح جنده ، ومنعهم من البقاء خارج ثكناتهم بعد الغروب ، وألغى نظام الالتزام وجعل المصلحة مباشرة بين الدولة وذانعى الضرائب ، وكان تشديد التسامح مع المسيحيين ، واستعمل كثييرين منهم في المناصب المهمة ، وعمل كسوة للكعبة في غاية الفخامة والعظمة ؛ وأمر بعمل خريطة للعالم من الحرير الأزرق ووضع عليها كافة أقطار العالم (٣) .

وفي خصو هذه الإصلاحات أصبح عهد العز عهداً نضراً ، نمت فيه ثروة البلاد نمواً محسوساً ، واستقرت الأمور ، وعم الأمن ، وأصبحت القاهرة مركزاً للعلم والضوء في عالم تلك الأيام .

(١) ابن خلkan : وفيات الاعيان ج ١ ص ١١٨ .

(٢) دكتور على ابراهيم حسن : جواهر المصلى من ١٠٨ - ١١٠ .

(٣) دكتور زكي حسن : كنز الفاطميين ص ٥٣ .

— ١٢٩ —

المعز ووسائل الدعوة للتشييع :

ويذل المعز نشاطاً ملحوظاً لخدمة الدعوة الشيعية ونشرها ، واستعمل لذلك العلماء والشعراء ، فجلس العلماء يحضورن الخاصة ، وراح الشعراء يتهدّون للخاصة وال العامة عن المبادئ الشيعية ووجوب اتباعها ، فقد كان الشعر صحافة تلك الأيام ، كما اقترح الفاطميون مناسبات متعددة يحتفلون بها ، حيث شجّر في هذه الاحتفالات رسوماً ونظم تجدد الدعوة وتقرّبها إلى القلوب ، فكانوا يحتفلون بيستة موالي : مولد النبي ، ومولد على ، ومولد فاطمة ومولد الحسن ، ومولد الحسين ، ومولد الخليفة الحاضر ، وكانوا يحتفلون كذلك بعاشوراء وعيد الغدير وغيرها من المناسبات^(١) .

وتوفى المعز لدين الله سنة ٣٦٥ خلفه ابنه العزيز ٠

العزيز بالله (٣٦٥ - ٤٨٦ = ٩٧٥ م - ٩٩٦) :

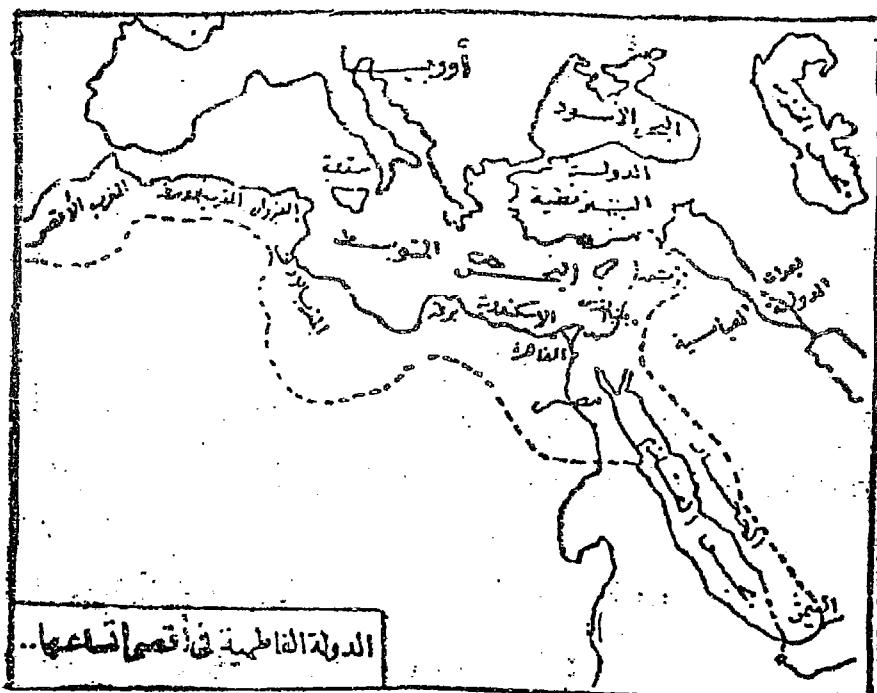
تولى العزيز بعد أبيه وكانت سنه عشرين سنة ، ومع أنه كان في مطلع الشباب يميل للصيد ويولع به فقد كان شهماً نبيلاً جريئاً ، ساس البلاد بحكمة وتسامح ، وقاد الجيوش ببطولة وشجاعة ٠ ويعتبر عصر العزيز أزهى عصور الدولة الفاطمية بمصر ٠

وقد اتسم ملك الفاطميين في عهده اتساعاً عظيماً ، فقد خطّب له في جميع الأقطار الواقعة ما بين المحيط الأطلسي والبحر الأحمر ، بالإضافة لليمن والحجاز ودمشق ، حتى الموصل أحياناً ، ولم تكن خلافة مصر في عهده منافسةً لخلافة بغداد فحسب ، بل إنها فاقت هذه الأخيرة وأخلبت ذكرها ، واكتسبت لنفسها قسوة بحرية بحيث أصبحت الدولة الإسلامية الكبرى الوحيدة في شرقى البحر المتوسط^(٢) .

(١) انظر ما كتبه المؤلف بانفاسة عن المذهب الاسماعيلي في مصر وجهود الفاطميين لنشره في كتابه : تاريخ التربية الإسلامية من ٤٢٠ - ٣٧٨ الطبعة الثامنة .

Hitti : History of the Arabs pp. 734 - 735. (٢)

- ١٣٤ -



ولعل هذا التوسيع هو الذي دفع بال الخليفة ليترك الخطيئة التي ارتكبها من قبله خلفاء بني العباس ويعانوا من شرها كثيراً، وتلك الخطيئة هي أنه بدأ يطلب الترك والزنج ويعتمد عليهم في الأمور العسكرية بجانب البربر الذين قدموا مع جوهر ثم مع أبيه، وعلى هذا وجد في مصر أصناف من الرجال العسكريين أصبحوا فيما بعد سبب اضطراب الدولة وانحلالها عندما جاء خلفاء لم يستطعوا أن يتمكّنوا عليهم التفود والسلطان .

اصلاحات العزيز :

والعزيز اصلاحات اجتماعية وثقافية مهمة ، فهو الذي بدأ ببناء الجامع الذي أتتهه ملن بعده ابنه الحاكم ويعرف باسمه ، وأنشأ بالقصر مكتبة عظيمة بلغ عدد ما بها من مجلدات مئات الآلاف ، ويقول أبو شامة (١) إنه كان بها مليئاً كتاب في مختلف العلوم والفنون ، كالفقه

- ١٣١ -

واللغة العربية والحديث والتاريخ والسير والفلك والدين والكميات ،
وهو الذي حول الجامع الأزهر إلى جامعة تلقى بها الدروس والمحاضرات .



منارة مسجد الحاكم

وينسب للعزيز أنه تشدد في نشر المذهب الشيعي ، وألزم المصريين
أن يعتقدوه كما حتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق قوانينه .

وعرف عن العزيز تسامحه الواسع مع أهل الذمة ، ولعل ذلك راجع
إلى زواجه من سيدتين مسيحيتين ، أو إلى أنه كان يخاف أهل السنة على
دعوته الشيعية أكثر من خوفه عليها من أهل الكتاب ، وكان من بين وزرائه

يـ قوب بن كلس وهو يهودي أسلم وأجاد مذهب آل البيت وكتب فيه ،
وجلس يعلمـه في الأزهر ، وهو الذي نصـحـ العزيـزـ بـ تحـويلـ الجـامـعـ الأـزـهـرـ
إـلـىـ جـامـعـ دـينـيـةـ (١) ، وـمـنـ بـيـنـ وزـرـاءـ العـزـيزـ وزـيرـ مـسيـحـيـ هو عـيسـىـ بنـ
نـسـطـورـسـ وـقـدـ خـالـىـ مـسـيـحـيـتـهـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ شـفـلـهـ هـذـاـ المـنـصبـ الـكـبـيرـ ،
وـكـانـ مـتـعـصـبـاـ لـبـنـىـ دـيـنـهـ مـاـ أـثـارـ عـلـيـهـ جـمـاعـةـ الـمـسـلـمـينـ ، وـتـولـىـ وـزـارـةـ العـزـيزـ
كـذـاكـ مـنـشـئـاـ الـيهـودـيـ ، وـكـانـ طـبـيـبـ العـزـيزـ بـالـلـهـ وـطـبـيـبـ وـلـدـهـ الـحـاـكـمـ مـنـ
بـعـدـهـ نـصـرـانـيـاـ يـدـعـيـ أـبـوـ الـفـتـحـ مـنـصـورـ بـنـ مـعـشـرـ الـمـصـرـىـ وـكـانـ لـهـ
مـكـانـةـ سـامـيـةـ فـيـ الدـوـلـةـ (٢) .

وـقـدـ أـحـسـ العـزـيزـ خـطـرـ هـذـهـ السـيـاسـةـ فـتـخلـىـ عـنـ أـهـلـ الـذـمـةـ وـغـرـمـهـمـ
أـمـوـالـ كـثـيرـ ثـمـ عـادـ فـصـفـحـ عـنـهـمـ بـشـفـاعـةـ اـبـنـتـهـ سـتـ الـمـلـكـ وـتـأـثـيرـ زـوـجـتـهـ
الـنـصـرـانـيـةـ (٣) .

وتـوـقـيـتـ العـزـيزـ فـيـ رـجـبـ سـنـةـ ٣٨٦ـ هـ فـيـ مـدـيـنـةـ بـلـبـيـسـ وـهـوـ فـيـ الطـرـيقـ
إـلـىـ الشـامـ قـاصـدـاـ غـزوـ الـرـومـ .

الـحـاـكـمـ بـأـمـرـ اللـهـ (٤١١ـ =ـ ٩٩٦ـ =ـ ١٤٣٠ـ) :

نـحنـ إـلـآنـ أـمـامـ شـخـصـيـةـ غـامـضـةـ هـيـ شـخـصـيـةـ الـحـاـكـمـ بـأـمـرـ اللـهـ ،
شـخـصـيـةـ كـثـرـتـ عـنـهـ الـأـبـحـاثـ كـثـرـةـ بـالـغـةـ اـشـتـرـكـ فـيـهـاـ الـمـسـتـشـرـقـونـ
وـالـشـرـقـيـونـ ، وـلـاـ يـزالـ الـبـاحـثـوـنـ حـتـىـ الـيـوـمـ يـكـتـبـوـنـ عـنـهـ درـاسـاتـ مـقـتـضـيـةـ
أـوـ مـسـتـقـيـضـةـ ، وـمـعـ هـذـاـ فـلـاـ يـزالـ الـحـاـكـمـ بـأـمـرـ اللـهـ غـامـضاـ حـتـىـ لـيـدـوـ أـنـهـ
انـطـوـيـ وـمـعـهـ كـثـيرـ مـنـ الـأـسـرـارـ وـالـأـخـبـارـ .

(١) ابن خـلـكانـ : وـفـيـاتـ الـاعـيـانـ : جـ ٢ـ صـ ٣٣٤ـ -ـ ٣٣٥ـ .

(٢) ابن العـبـرـىـ : مـختـصـرـ تـارـيخـ الـدـوـلـ صـ ٣١٦ـ . وـيـقـولـ الـدـكـتـورـ
عـبـدـ الـقـبـعـمـ مـاجـدـ (ـ نـظـمـ الـفـاطـمـيـنـ وـرـسـوـمـهـمـ فـيـ مـصـرـ صـ ٤٨ـ)ـ أـنـهـ فـيـ عـهـدـ
الـعـزـيزـ وـالـحـاـكـمـ لـمـ يـحـلـ لـقـبـ الـوـزـيرـ إـلـاـ بـنـ كـلـسـ .

(٣) محمد عـبـدـ اللـهـ عـنـانـ : الـحـاـكـمـ بـأـمـرـ اللـهـ صـ ٨١ـ .

— ١٣٣ —

ويوشك هؤلاء الباحثون أن ينتفقوا على شذوذ في الحاكم بل اضطراب في عقله وانحراف في تفكيره ، واعتقادي أن مصدر ذلك الاتفاق بين الباحثين أن لا أحد منهم يأخذ قضية من الآخر نيسن بها ويحاول أن يجد مزيداً من الأدلة لتأكيدها ، ومع أن طبيعة هذا الكتاب الاختصار واليجاز فانني أريد أن أسلك في بحثي عن الحاكم طريقاً جديداً بالاً" أدرسه تحت تأثير بكاتب أو باحث ، وبالاً أجعل قضية من القضايا عنواناً لدراساتي ثم أحاول أن أدلل عليها بما يؤيدها ، اتنى أريد أن أسلك طريقاً آخر ، أريد أن أجمع المعلومات من هنا ومن هناك حتى تقود هذه المعلومات إلى نتيجة من النتائج نعتنقها أو نؤيدھا :

صبا الحاكم بين الأهواء والاضطراب :

وبادىء ذي بدء نذكر أن الحاكم تولى الخلافة وعمره أحدى عشرة سنة ، وفتح عينيه فوجد نفسه خليفة على ملك شیعی مهدده لـه أبوه وجده ، وعيّن عليه بر جوان الترکي وصيا ، وكانت السلطة بينه وبين ست الملك أخت الحاكم لأبيه وقضى هذا الوصی كما قضت ظروف القصر والحياة الشیعیة أن يلکئن الحاكم علوماً خاصة ، فی قمتها التشیع والبالغة فيه ، ومنها كذلك علوم الفلسفة وعلوم الفلك ، وطبعی أن الحاکم اطلع بوسیلۃ أو بأخری على علوم غير علوم الشیعیة ، فأثرت هذه فیه ، وأوفرته ذلك أمام طریق مزدوج ، ولعل الحاکم رغب في مزيد من العلوم المعتدلة ومن الدراسات الهدائیة ، ولكن رجال القصر والمرشین على تعليمه وتثقیله ، ما كان لهم أن يتوجهوا به هذه الوجهة فحرموه ماشاء ، ومنحوه ما شاءوا ، فقد كان اتجاهه يحمل في طياته انهیار النظم الفاطمی وبالتألی انهیار سلطان أصحاب الجاه في مصر ، واندماج مصر من جديد في إطار النظم السنّی

زحام العناصر في القصر والمجتمع :

ونما الحاکم فتتھت عيناه على قصر يعج بعناصر متعددة من الناس : برب وعرب ومصريين وأتراء وزنج ، ولكل من هؤلاء أهداف واتجاهات ، وفي القصر كذلك أديان متعددة ، فأم الحاکم مسيحیة وزوجة أبيه أم أخته

ست الملك مسيحية كذلك ، وبه أيضا عناصر يهودية وشيعية وسنية ولا دينية محابية ولا دينية هدامة متطرفة ، والقصر صورة مما في المجتمع الفاطمي من اتجاهات وأديان ومذاهب ، وكان المجتمع الإسلامي في عهده — وليس فقط المجتمع الفاطمي — يمر بأقصى فتراته ، ففي إسبانيا ضعف وانحلال بعد عصر المنصور بن أبي عامر وأولاده ، وفي العراق تفكك البوبيهين وتشييعهم وعدوانهم على خلفاء بنى العباس ، وعدم تبولهم في الوقت نفسه الالتحاق بالفاطميين الشيعة .

جوانب مفهيمة في حياة الحاكم

جهود اجتماعية للحاكم :

وتؤكد كل المراجع التي بين أيدينا أن الحاكم كان في السنوات الأولى من حكمه شديد العناية بأداء واجباته كرئيس للدولة ، متقاضيا في خدمة البلاد والعمل على إسعادها وازدهارها ، فكان يختلط بالناس في الشوارع والأسواق ، يتعرف على مشكلاتهم ، ويحاول حلها ، ولم يتعنّ بما عُرِفَ عن الخلفاء السابقين من ترف في اللباس والراكب والحرس ، وأصبح الناس في عهده يعيشون في أمان ، وينامون في بيوتهم وأبوابهم مفتوحة .

يقول المقريزى في سيرات أحدى وتسعين وثلاثمائة : إن الحاكم وأصله الركوب في الليل في كل ليلة وكان يسير من موضع إلى موضع ومن شارع إلى شارع ومن زقاق إلى زقاق ، وأمر الناس بإضاءة الشوارع والأزقة ومنع حرسه من أن يحولوا بينه وبين الناس ، وقال : لا تمنعوا أحدا ، فلما حدق الناس به وأكثروا من الدعاء له (١) .

وفي سنة ٣٩٢هـ أصدر الحاكم قراراً بمنع كل المذكرات وإبطالها ، وبذلك قضى على المذكرات وأراقها ، كما قضى على القمار بكل أنواعه (٢) .

(١) اعتماداً على (٢) من ج ٢ ص ٣٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٤ .

وفي سنة ٣٩٥ أصدر الحاكم أوامر مشددة للنظافة ، فأمر بكتنس الشوارع والأرقة ، كما أمر بقتل الكلاب الفضالة (١) .

وفي سنة ٣٩٩ أمر لا يدخل أحد الحمامات العامة بدون مثير ، وكثبست الحمامات بعد ذلك وقبض على من خالف هذا الأمر وشتمه يوم (٢) .

جهود اقتصادية للحاكم :

واهتم الحاكم اهتماماً كبيراً بالتجارة ، وحرص على سلامة الطرق ، وقضى على اللصوص والمحталين ، كما حرص على سلامة المكابيل والموازين ، وأخذت الحسبة في عهده مكاناً مرموقاً .

وأتجه الحاكم للزراعة التي أزدهرت مع الاهتمام بالنيل وفروعه وببعض الأنواع الزراعية الجديدة التي استقدمها ، ووصل من عنایته بالزراعة أن استقدم من البصرة الحسن بن الهيثم العالم الطبيعي والرياضي الشهير ، الذي نبغ في كتابه الرئيسي «كتاب المناظر» نظرية أقليدس القديمة القائمة بأن الإيمان يكون بمخرج شاعر من البصر إلى المبصرات ، وقرر عكس ذلك ، وهو الأمر الذي انتهى إليه الفكر الحديث ، والحق أن الحسن تهدى للحاكم بأن يعدل فيضان النيل الذي كان أساس خصوبة التربة المصرية (٣) .

ويرى بعض الباحثين أن مشروع الحسن بن الهيثم كان نواة التفكير في العمل الذي تم في عصرنا الحديث وهو السد العالى .

وربما نسأل عن الأسباب التي جعلت ابن الهيثم لا يعمل على تنفيذ هذه التكيرة ؟

(١) المرجع السابق من ٥٦ .

(٢) المرجع السابق من ٨٦ .

(٣) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ص ١٩٤ .

والذى تشير له المصادر أن ابن الهيثم عندما رأى الآثار المصرية العظيمة خطر له أن ذلك المشروع لو كان ممكنا لما غفل عنه المصريون القدماء من براعتهم في ألوان من النحت والفنون والعلوم .

وبجوار الحسن بن الهيثم ازدان بلاط الحكم بمجموعة من العلماء سنتحدث عنهم عند حديثنا عن الحضارة الإسلامية في العهد الفاطمي

اهتمام " بالعدالة في القضاء :

ويقرر الكندي أن الخليفة الحكم أراد أن يحول بين القضاة وبين أخذ الأموال بغير حق ، فأمر بأن يصاغ للحسين بن علي بن النعمان رزقه وصلاته واقطاعياته ، وشرط عليه إلا يتعرض من أموال الرعية لدرهم فيما فوقه (١) وفي ملحق الكندي (٢) أن الحكم مرةً أجاز بعض الرجال للشهادة بأن أقرَّ عدالتهم ، ولكن قاضى القضاة أعلمه أن بعض هؤلاء لا يستحقون التقدير ولا يوثق بهم في شهادة ، فأنذن له بتصفهم ، وإقرار من يرى اقراره منهم ، ولم يتمسك برأيه فيهم .

وهذه النصوص واضحة الدلالة على أن هذا الحكم كان مخلصاً لدولته كفءاً لحمل أعبائها ؛ عالماً يكرم العلماء .

دار الحكمة :

وموضوع آخر ينسب للحكم فيوضعه في القمة من المفكرين المشفدين هو إنشاؤه دار الحكمة سنة ٥٣٩هـ أي وهو في العشرين من عمره ، وكانت دار الحكمة التي أنشأها هذا الخليفة مركزاً علمياً على المستوى ، جمع له الخليفة خيرة العلماء في جميع الفنون والعلوم ، وأجرى عليهم المرتبات الكبيرة ، وهيا لهم الوسائل ليتفرغوا للبحث والدراسة والتأليف ، فألحق

(١) الـ لـ اـ وـ القـ ضـ اـ صـ ٢٩٧ .

(٢) مـ لـ حـ الـ كـ نـ دـيـ صـ ٨٢ .

بدار الحكمة مكتبة عظيمة حوت ما لم يجتمع مثله في مكتبة أخرى في ذلك العهد ، وهيأ للملتحقين بدار الحكمة من طلاب ومطالعين أرزاها كافية ، ووضع تحت تصرفهم الأوراق والمداد (١) ، فورثت بذلك ما كان لبيت الحكمة في بغداد من نشاط علمي زاخر وزادت عليه ، ويمكن القول إنه لما يئس من اصلاح الدراسة في الأزهر آنذاك تركه في دراسته المذهبية المتعصبة وأنشأ دار الحكمة تخدم العلم بدون تأثير مذهبي أو سياسى .

الحاكم والمرأة :

وفي سنة ٤٣٩ھ حظر الحكم على النساء كشف وجههن وراء الجناز

والبكاء والعويل وخروج النائحات خلف الجنازة (٢) .

ثم اتجه الحكم إلى مزيد من الدقة ومزيد من الغيرة على النساء ، فقرر أن تقر النساء في بيotechن ، وألا يخرجن منها لغير ضرورة ، وتتنفيذًا لذلك منع صانعى الأحذية من صنع أحذية لهن ، بل قتل بعض من خالفن تعليماته (٣) .

يقول المقريزى في ذلك : لما أفرطت النساء في الخروج بالليل أمر

الحاكم ألا تخرج إمرأة بعد العشاء ، فان ظهرت نتكل بها ، كما أعلان

الآ تكشف إمرأة وجهها في طريق ولا خلف جنازة ، ولا تتبرج ، ومنع

النساء كذلك من الاقامة في المقابر واطالة الزيارة (٤) .

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفيا ج ٢ ص ٥٦ .

(٢) يحيى بن سعيد الورقة ١١٥ ب .

(٣) المرجع السابق ١٢٤ والخطط للمقريزى ج ٢ ص ٢٨٩ ووفيات

الأعيان لابن خلكان ج ٢ ص ١٢٧ واتعاظ الحنفيا للمقريزى ج ٣ ص ١٢٠ .

(٤) اتعاظ الحنفيا ج ٢ ص ٣٨ ، ٥٣ ، ٧٣ .

إيقاف سب "السلف" :

وأمر الحكم أن يكف الناس عن سب "السلف" ، وعاقب من ارتكب هذا الانحراف ، بل وصل الأمر إلى قتل واحد لأنّه تمادي في ضلاله فسبَّ السيدة عائشة ، وأصادر أمره للشرطة بشأن يقاضوا على من يقوم بسبِّ "السلف" فكف الناس عن هذا العمل ، وفي سنة ١٣٩٧ أمر بمحو ما هو مكتوب على المساجد والأبواب وغيرها بن سبِّ "السلف" فمحى ذلك كلّه ، وطلب متولى الشرطة حتى أزال سائر ما كان منه (١) .

الحاكم الخليفة الراهن :

وفي سنة ٤٠٠هـ أعلن الحكم منهاجاً جديداً لم تعرفه سيرة أكثر الفلاّه ، فقد قرر أن يعيش على طريقة الزهاد الأولين من المسلمين ، وأن يطرح الدنيا وشتؤنها بعيداً ، فاقتصر في مطعمه ومشربه على ما تدعوه إليه الحاجة لتفاسك الجسم دون زيادة أو مغalaة ، وأغلق مطبخ دار الخلافة ، ومنع الناس من تقبيل الأرض بين يديه ، ومن السجود له ، ومن مخالطيته بمولانا ، وترك ركوب الخيل ، وصار يركب الحمير ويختلط بالناس بلا مظلة وبلا طرّاد (٢) بين يديه ، وأسقط الألقاب وجميع الرسوم والكمون المستحدثة ، وأعاد للناس كل ما كان قد أخذ من أملاكهم وعتلّهم في عهده أو غهد أسلافه بمصادرة أو بغير حق ، واعتق سائر مماليكه من الإناث والذكور ، وحررهم جميعاً لوجه الله تعالى (٣) ومنع الحكم زراعة العنب ، واتّهم المزارعين أنّهم يزرعون الكروم لعمل الخمور .

(١) المرجع السابق ص ٦٧ ، ٦٩ .

(٢) الطراد هم الذين يفسحون الطريق أمام الملك .

(٣) يحيى بن تسعيد الانطاكي : مخطوط بباريس رقم ٢٩١ ورقة ١٢٩ - ١٢٦ - ١٢٢ نقلًا عن الحضارة الإسلامية لأدم متر ج ٢ ص ١٢٦ - ١٢٧ والمربي : انماط الحبّنا ج ٢ .

بِحْوَانِبِ قَاتِلَةِ تَتَسَبَّبُ الْحَاكِمِ

وَمِنْاقِشَتِهَا

ذكرنا فيما سبق الجواب المضيئ في حياة الحاكم ، ولكن هناك جانبا آخر أميل إلى الظالم نذكره فيما يلي ونناقشه :

اسْفَكُ الدَّمَاءَ :

يتذكر عن الحاكم أنه كان مولعا بسفك الدم ، قتل الوصى برجوان ودبر اغتيال الوزراء الستة الذين جاءوا بعد هذا الوصى ، أو على الأقل دبر اغتيال أكثرهم ، وقتل قائد قواته الحسين بن جوهر ، والقاضى حسين ابن النعمان ، والفضل بن صالح من أعظم قواد الجيش ، وهو الذى قضى على ثورة أبي زكوة ، وقتل رجاء بن أبي الحسين ، وقتل غالب بن مالك قائد الشرطة ، وقاضى القضاة مالك بن سعيد .

والحاكم قد فعل ذلك كله ، ولكن المقريزى يذكر أسباب هذه التصرفات مما يتتيح فرصة واسعة للحاكم للدفاع عن نفسه ، فمثلا يذكر أن برجوان استقل بذلك وأقبل على سماع الغناء ، وكان شديد الطرف يجمع المغنيين من الرجال والنساء ، ويكون معهم كأحدهم ، ولا يخرج من داره حتى يمضي صدر من النهار ، وإذا عرضت عليه الأمور أمضى منها ما يختار من غير مشاورة ، وكان كثير الدالة على الحاكم ، ويقول الحاكم أنه كان سيء الأدب جدا ، وأنه في بعض الحالات كان يجعل خفته مقابلا لوجه الحاكم وغير ذلك من الأمور التى كانت تحتم القضاء عليه (١) .

ويروى المقريزى قصة مؤامرة قام بها بعض رجال الحاكم ضده وقد نقلت أخبارها إلى الحاكم ، فلقي التآمرون جزاء خيلتهم (٢) .

(١) أتعاظ الحنفاج ٢٦ ص ٢٦

(٢) المرجع السابق ص ٤٧

- ١٤٠ -

وُقْتَلَ القاضي حسين بن النعمان لأنَّه استولى على أموال اليتامي وكان قدرها عشرين ألف دينار (١) .

وُقْتَلَ مالك بن سعيد لأنَّه أخذ جانب ست الملك التي كانت شديدة العداء لل الخليفة الحاكم وقد خافه الحاكم على نفسه (٢) .

— وينسب له أنه أصدر أوامر مضحكة لأسباب تافهة ، فقد حرم اللوخيَّة لأنَّ معاوية كان يحبها ، وحرم الجرجير لأنَّ عائشة كانت تستطييه ، كما ينسب إليه أنه أصدر أوامر متناقصة ، فقد أوصى بمزاولة النشاط بالليل ، والنوم بالنهار ، ثم عدل عن رأيه .

وليس هناك أبداً ما يسلِّدُ على صحة هذه الادعاءات وأغلبظن أنَّ أعداءه نسبوها إليه لهاجمته أو اخترعوها بعد وفاته .

وينسب للحاكم أنه اصطنع نظام التجسس فجعل له عيوناً من النساء يدخلن البيوت وينقلن إليه أخبارها ، وكان يلقى بهذه الأخبار أمام ذويها على أنها من معارفه هو ومن صور مقدراته التي تمكنته من معرفة الغيب (٣) .

* * *

تلك خلاصة موجزة لما أورده المؤرخون عن أعمال الحاكم خيراً وشرها ويجب أن ننظر لها نظرة علمية محايضة محللين وباحثين لنقودنا هذه الأعمال إلى نتيجة أقرب ما تكون إلى الحقيقة .

وباديء ذي بدء نستطيع أن نقول بيقين لا يحتمل شكاماً مما اقتبسناه إنما من المثيري والكتدي ويحيى بن سعيد وكارل بروكلمان ومن إنشاء

(١) و (٢) اعتقاد الحنفية ج ٢ ص ٥٩ .

(٣) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ص ١٠٦ .

الحاكم لدار المحكمة وهو في سن الشرين أن الرجل كان ذكياً وطعومها ، وكان لا يسمى على النسق الذي أريد له أو سارت الدولة عليه ، فالوصي تركى الجنس وأمه مسيحية وهمها يوجهانه وجهاً لا يرتضيها ، والأزهر يسمى في دائرة شيعية لا تنفعه ، وفي نفسه رغبة إلى الاصلاح عبّر عنها في عدة صور كما رأينا ، ولكن التقاليد تسيطر على القصر ، ورجالُ البلاط يرون في اتجاهاته قضاء على نفوذهم وعلى كيانهم ، وتعارضت اتجاهاتِ الحاكم مع نفوذ أخيه سلطان الملك تلك التي ستراماً تدبّر جريمة قتلها ، وقد ذكرنا أنَّ الحاكم قد اكتشف مؤامرة أو هؤامرات ضدَّه للقضاء عليه من هذا النوع ، وأنَّه أُنْزَل سخطه وعقابه على من اشترك فيها من القادة والوزراء مما يفسر لنا قتل الوصي برجوان وغيره من القادة والزعماء ، وعندما تلوثت يدِ الحاكم بالدم لحقته الشكوك ، ولم تُعد الثقة متوفرة بينه وبين رجال قصره .

ويبدو أنَّ المرأة جانبها الصواب في عهده حتى أنه اتهم أخيه سلطان الملك بما يشينها ، فراح الحاكم يضع القيود التي يحمي بها المرأة أو يبيح جماحها فعند ذلك نرقاً منه ، وليس بنزق إذاً قيس بمقياس عصره وبمقاييس الخل الذي دب في القصور في تلك الأثناء .

أما نظام التجسس فهو وسيلة اتبعت ولا تزال تتبع في أرقى الممالك ، ولا شك أنها كانت نتيجة لشكوك التي عاشها الحاكم في آخريات أيامه ، فالحاكم في رأينا كان في أول حياته طرازاً ممتازاً ولكن اتجاهاته اصطدمت بالأراء التي كانت سائدة في قصره ولدى كبار رجالاته ، وأحدث ذلك صراعاً في نفسِ الحاكم وفي المجتمع ، وكانت وفاةِ الحاكم غامضةً كحياته ، والأرجح إنَّ أخيه سلطان الملك دبرت قتلها بعد أن اتهمها بما يشينها وخافت من سخطه ، وقد خرج مرة ليلاً راكباً حماراً إلى مرصدٍ كان يخلو فيه

لنفسه بجبل المقطم ، ولم يعد الحكم من هذه الرحلة ، وعشر الناس على حماره وملايئته ملوثة بالدماء فعرفوا أنه قتل (١) .

نهاية الحاكم :

يصف لنا المقريزى أحداث الأيام التى تلت غيبة الحكم وصفاً يؤكّد مسؤولية أخيه عن قتله وتدبّرها ل نهايته ، كما يفيد هذا الوصف أن هذه الجريمة نزل تصاحبها بالأخت بعد فترة قصيرة ، يقول المقريزى (٢) :

ولليتني بقيتا من شوال سنة ٤١ هـ فتقىدَ الحكم ، وسبب فقده أن أخته سرت الملك كانت امرأة حازمة ، وكانت أحسن منه ، وكان الأمر بيدها طيلة طفولة الحكم ، فلما بلغ الحكم الرشد ، وتخلص من برجوان ، وأراد أن يأخذ كل السلطة من أخيه قام صراع بينهما ، واستمر هذا الصراع طويلاً حتى بلغت العلاقة بينهما نهاية السوء ، وفي بعض المناقشات سنة ٤١٠ دار كلام بينهما فرميا بالفجور ، وقال لها أنت حامل ، ووصلت العلاقة بذلك إلى قمة الجفاء ، فراسلت سرت الملك سيف الدين حسن بن علي بن دواس من مقدمي كتامة ، وكان قد تخوّف من الحكم ، وتتوادعا على قتل الحكم وتحالفا عليه ، وأحضرت سرت الملك عبدين وخلفتها على كتمان الأمر ، ودفعت إليهما أنت دينار ليقتلاه .

ولما أراد الحكم الصعود للجبل كعادته حاولت أمّه منعه لتخوفها عليه ، ولكنّه أصرّ على ما أراد وركب حماره ، ودخل الشّعب الذي كان يدخله ، وكان العبد ان يختفيان فيه ، فخرجا عليه وضرراه حتى مات ، وقتلتا تابعه وحماره ، وحملوا جثته إلى أخيه فدينه ، وقتلت أعوانه الذين خافت أن يثروا الغيبة .

وأنضرب الناس لغيبة الحكم ، فأرسلت إليهم : انه أخبرنى أنه

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٢) انتهاز الحنف ج ٢ ص ١١٥ - ١١٧ .

— ٤٤ —

سيغيب سبعة أيام وأنه يواصلنى بأوامره ، ورتبت رسلاً ينتظرون بالمضى للحاكم والعودة بأوامره ، وفي أثناء ذلك اشتدت شوكتها وكثُر الناس عن الاستقصاء في المسألة ، فلما حضرت ابن دواس واتتنيت معه على البويمة لظاهر بن الحاكم ، وأظهرته للجماهير ، وعلى رأسه تاج جده العزيز ، غنفَّذ ابن دواس ذلك ، وبأيام الناس إلا غلاماً تركياً فانه قال : لا أبايع حتى أعرف خبر هولاني الحاكم ، فقتل هذا الغلام .

نهاية سُتّ المَلَكِ :

اتجهت سُتّ المَلَك للقضاء على ابن دواس فقتلته ، وقتل الجميع من غرف سر نهاية الحاكم ، ولكن أيامها لم تطل بعد ذلك فماتت بعد فترة قصيرة .

وكتب تاريخ الحاكم إثر وفاته ، وقد عادت السلطة إلى من أضطهدتهم ، أولئك الذين كان يهمهم أن يبرزو محتواها أو مجذونا أو مدعياً للألوهية ، ليصرنوا الناس عن البحث عن القتلة ، أو الكشف عما في التفصية من أسرار ، وقد فطن الدكتور فيليب حتى لوقف التاريخ من الحاكم فقال : أتهمة مدونة الأخبار هي خصوصية بفرابه الأطوار (١) .

الدرزية

كانت بايران طوائف تدبر الكايد ضد الإسلام والمسلمين ، وهؤلاء ظهروا منذ تَهَّرَّ الإسلام بلادَ ايران ، وحوش جماهير شعبها من عبادة النار والملوك إلى عبادة الله الواحد الأحد .

فقد كان بايران آنذاك يقاوماً يهود « سجن بابل » وقد تحالف هؤلاء مع الذين أفلتوا من رجال القصور ، وتظاهر هذا الحلف بالإسلام وكوئلوا ما أسمينا في الجزء الثاني من هذه الموسوعة « مدعى التشيع »

(١) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ٢٢٢ .

وأخذ هؤلاء يعلمون بجد لإفساد العقيدة الإسلامية كما أفسد اليهود من قبل العقيدة المسيحية عن طريق بولس وحوّلوا إلى التثلية ، وتحولوا عيسى إلى إله ٠٠٠٠٠٠٠٠

والهم هنا أن هذه الطائفة عندما سمعت عن اضطراب الحاكم ، لم تضع وقتا ، وأوقفت أحد أشارتها ليزيد النار اشتعالا ، فحضر إلى مصر سنة ٤٤٠هـ داعية "أعمى" ، أو كما يقول الانطاكي غامض النشأة (١) وكان الهدف من حضوره أن يعيد للحياة نشاط القراءة المنحرف الذي كان قد خبا وتوقف (٢) .

وهذا الداعية اسمه محمد بن إسماعيل الدرزي ، ويلقب «أنوشكين» ، واتصل هذا بالحاكم ، وكان الحاكم آنذاك في حاجة إلى من يساعد في الصراع الذي كان يواجهه ، ومعنى هذا أنه اتصل به في فترة ضعف بشري ٠

الدرزية تؤثر الحاكم :

وبما الدرزي يعطى تعظيم الحاكم ، وانتقل من التعليم إلى رفعه عن مستوى البشرية ، ثم اندفع ليعلن الوهية الحاكم ، على نحو الادعاء بالوهية عيسى أو الوهية الإمام على ، فالنقط هو هو يهودي^٣ النشأة والأسلوب ، وما قاله الدرزي في هذا المجال «الحذر الحذر أن يقول واحد هنكم بأن مولانا جل ذكره هو ابن العزيز أو أبو على، لأن مولانا سبحانه هو هو في كل عصر وزمان ، يظهر بطريقة بشريّة عندما يشاء» وقد أنكر عليه الناس ذلك ، وقامت فتنة ضده قتل فيها هو وبعض من معه ، ونثّبت داره (٤) ٠

وانتساب هذا إلى العجم يربط بينه وبين الانحرافات التي ظهرت في فارس ، والتي تولى كثيرها من^٥ أسميناهم آنفا «مدعى التشيع»

(١) تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكي من ٢٢٠ ٠

(٢) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله من ٣١٥ ٠

(٣) المقريزي : اتعاظ الختنما ج ٢ ص ١١٣ ٠

فهؤلاء المتأحرفون لم يقنعوا بما فعلوا في مناطق ايران ، بل خرج منهم هذا الداعية لينفتح السم في مصر ، وليجعل من بشّر إلها ، ولكن طبيعة مصر لم تقنع بهذا الانحراف الذي وجد له أرضا خصبة في ايران ، فثار المصريون على هذا الداعية وقتلوه .

وظهر بعد ذلك داعية آخر اسمه حمزة بن أحمد وتلقب بالهادى ودعا إلى مقالة الدرزى ، ولم ينجح مذهبه في مصر أيضا ، فعبرها إلى جبال لبنان حيث البداوة والبساطة التي مهدت له سبل النجاح ، فظهر مذهب الدرزية ببلاد صيدا وبيروت وساحل الشام (١) وفي حوران وجبل لبنان الغربى والجبل الأعلى من أعمال حلب (٢) .

وإذا كان المقريزى يجعل محمد بن اسماعيل سابقا لخمرة بن أحمد ، فإن بعض المراجع الأخرى تقول بالعكس ، وهناك مراجع تذكر أنهما متغاصران وأنهما اختلفا لأن الدرزى تعجل في الكشف عن المذهب الجديد بمصر قبل السوق المتناسب .

وهناك طبقة ثانية من دعاء الدروز يذكر المؤرخون منها بناء الدين السموتى ، وأبا ابراهيم التميمي ، وأبا عبد الله بن وهب .

وتتجه العقيدة الدرزية إلى أن الله تجسد في صورة الحاكم ، وفكرة تجسد الله في صورة انسان فكرة وجدت قبل ذلك بأمد طويل منحدرة من الفكر الهندى ، أو من التعاليم المسيحية ، ووجدت لدى الباطنية والقرامطة والاسमاعيلية مجالا بصورة أو بأخرى وقد انتهز الدرزى فرصة الاضطراب في عهد الحاكم الذى أشرنا إليه من قبل وفرصة تأييده ومعارضته ، فراح يظهور بتأييده تظاهر قریب الشبه بما ادعاه

(١) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٢) محمد فريد وجدى : دائرة معارف القرن العشرين ج٤ ص ٢٦ .

« مدعو التشيع » مع على بن أبي طالب كرم الله وجهه اذ عدوه المها أو صورة للله (١) .

وقد وقف على كرم الله وجهه موقفا حاسما من هؤلاء الكفرة ، أما عن الموقف من الدرزي فقد اتضح لنا أن المصريين ثاروا عليه وأنه لم يجد في مصر تربة مناسبة لأفكاره فرحل من لم يكتنل إلى بعض مناطق الشام كما ذكرنا ، أما موقف الحكم نفسه من الدرزي وفيه فلم توضحه المراجع توضيحا كافيا ، وبينما جاز لمن الحكم لم يؤيد هذا القول بدليل أنه لم يجد له تابعين في القصر ، وربما جاز لمن الحكم أن نظن أن الحكم لم يعارضه معارضة صريحة لاحتاجه إلى الأعوان آنذاك .

الخلافة الفاطمية تتبرأ من الانحراف :

وعقب نهاية الحكم اتجهت الخلافة الفاطمية إلى سحق بقايا هذا المذهب وظهرت مصر من دعاته ، وأعلن الظاهر بن الحكم تبرئته وتقربة ذويه من هذا الانحراف ، وأعلن « أنه هو وأسلاقه الماضين وأخلاقه الباقين مخلوقون لله العلي العظيم ، ولا يملكون لأنفسهم موتا ولا حياة ، وأن من خرج منهم على حد العبودية فعلتهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » (٢) .

لماذا لبنان؟

والذى ساعد على أن يجد هذا المذهب له أتباعا في جبال لبنان ، أنه كان يعيش في هذه المناطق رجال كانت الآراء الشيعية المتطرفة قد غزتهم من قبل ، وقد مهدت هذه الآراء الشيعية الطريق للدرزية لتبurge في هذه الجبال .

(١) انظر الجزء الثاني من موسوعة التاريخ الاسلامي للمؤلف عند الحديث عن « مدعى التشيع » .

(٢) يحيى الانطاكي : ص ٢٣٦

- ١٤٧ -

ويعيش الدروز حياة شبه قبلية في سوريا ولبنان ومن أشهرهم بعو الأطرش وآل جنبلاط ، وبنو أرسلان .

التشابه بين العقيدة الدرزية والمسيحية :

وعقيدة الدروز في أصلها ترى أنّ الحكم بأمر الله لا هوتا وناسوتا (المسيح) وهو وإن كان بشرا في الظاهر فهو في الحقيقة الله المعبود وقد اتّخذ لنفسه صورة انسية كما ذكرنا .

وعندما اغتيل الحكم أشاع قادة الدروز أنه تحول إلى « غيبة » مؤقتة تعقبها « رجمة » فـ « طفرة » وذلك هو نفس التخطيط الشيعي الذي قال به مدعو التشيع في عدة مناسبات ، ومع عدة أشخاص .

ويقول الاستاذ محمد فريد وجدى : (١) إن معتقدات الدروز ظلت نقى الكتمان حتى استولى ابراهيم باشا على معابدهم عندما فتح الشام فوجد في كتبهم كنه مذهبهم تفصيلا ، وكلمة الشهادة عندهم توحى بهذا المذهب المحرف لأنها تتضمن الإيمان بأن الحكم إله جاء في صورة بشر .

بعض التشريعات الدرزية :

ومما وجد في وثائقهم فيما يتعلق بالشريعة عدم الموافقة على تعدد الزوجات ، وعلى اباحة الطلاق بكثير من اليسر ، ولا شردة المطلقة لمن طلقها ولو تزوجت شخصا آخر ، وهم يحرصون على حجاب المرأة حجابا كاملا ، ولا يتبع الدروز نظام المواريث في الاسلام (٢) .

وقد أسقط الدروز عنهم بعض العقائد الاسلامية كالصلوة والصوم والحج ، والتزموا بخصال بديلة تسمى الخصال التوحيدية أهمها صدق اللسان ، وحفظ الاخوان ، والبراءة من الطغيان ، والتوحيد لله والخصوص

(١) دائرة معارف القرن العشرين (مادة درزية) .

(٢) محمد عبد الله عنان : الحكم بأمر الله ص ٣٨ - ٣٩ .

القام للإرادة الالهية ، وقد أصبحت هذه القاعدة الأخيرة المشتملة على عقيدة القضاء والقدر عاملًا فعالاً في التعليم الدرزي ٠

وللدروز كتب مقدسة تتسم بالبدائية ، وتردد هذه الشعارات ، وهم يرون أن الحاكم تجلّى لهم وقرر لهم هذه التعاليم ٠

أجاويد وأتباع :

وينقسم المجتمع الدرزي من حيث العقيدة قسمين ، قسم الأجاويد وهم الذين يعرفون أسرار الدعوة ، وقسم الأتباع وهم الذين يتبعونها دون معرفة الأسرار ، ومن الممكن أن يتطور التابع ويتعلم ليصبح من الأجاويد ٠

الأمير شكيب أرسلان :

وهناك عالم ثمين من علماء العصر الحديث ينسب للدروز وهو شكيب أرسلان مؤلف كتاب « حاضر العالم الإسلامي » وهذا العالم لم تستوعبه الأفكار الضالة التي تنسب للدرزية بل هو معتدل كل الاعتدال في فكره ، وهو يصفهم وصفاً يوحى بالاعتدال فيهم ، يقول في ذلك : الدروز فرقة من الفرق الإسلامية أصلهم من الشيعة الاسماعيلية الفاطمية ، وإذا قيل إن الدروز من الفرق الباطنية التي لا يحكم لها بالاسلام ، فالجواب أن الدروز يعلنون أنهم مسلمون ، وأنهم يقيمون جميع شعائر الاسلام ، ويعلنون أن من خرج على ذلك فهو ليس بمسلم ٠

والاتجاه المعتدل للدروز يرى أن الحاكم ليس بمعبد ، وإنما هو ولی " الله وجليلته " ، وأنه أمير المؤمنين ، ولادي الدروز طبقة تشرف بالنزهين ، وهم أهل ورع وزهد ، وبعضهم لا يتزوج ، ومنهم من يصوم لدهر كله ، ومنهم من لا يذوق اللحم ولا يشرب الخمر ٠

والمعتقد أن الفكر الذي عبر عنه شكيب أرسلان يمثل جمهوراً كبيراً

— ١٤٩ —

بين الدرزية الآن ، فال الفكر الإسلامي الصحيح عرف طريقه لهذه المناطق في فترات متعددة على مر التاريخ واستطاع أن يعيد إلى الرشد كثيرا من الدروز *

الظاهر (٤١١ - ٤٢٧ = ١٠٣٦ - ١٠٢١) :

توفي الظاهر بعد أبيه وكان في السادسة عشرة من العمر ، فقامت عهده سنت الملك بسادارة شئون الخلافة ، ولما ماتت أم سلطان الظاهر بمقاليد الأمور بمساعدة الوزراء الذين بدأ نفوذهم في الظهور ، وقد عاد الظاهر إلى السياسة التقليدية التي تمرد عليها أبوه ، فتساهل مع أهل الذمة وأطلق للمرأة العنان ، وعنتى بأمور الزراعة (١) ، ولكن مجاعة اجتاحت البلاد بسبب انخفاض ماء النيل فعرقلت الاتجاه الاصلاحي في الزراعة ، وفي عهد الظاهر قامت فتن في الشام ضد الحكم الفاطمي ولكنها أخمدت ، بل أضاف ولاة الفاطميين بالشام مزيدا من المناطق إلى سلطان الظاهر *

وتوفى الظاهر سنة ٤٢٧

المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧ = ١٠٣٥ - ١٠٩٤) :

كان المستنصر في السابعة من عمره عندما مات أبوه الظاهر ، وكان الجرجراطي الوزير صاحب النفوذ عند موته هذا الخليفة ، فأعان البيعة للمستنصر ، وقد ظل المستنصر في الحكم ستين سنة ، وهي مدة لم يعمرها في الحكم خليفة مسلم ، ثم هي مدة حافلة بالحركات والاضطرابات والتعديلات ، وفي أئمتها نالت السلطة الفاطمية نهايتها من أيدي الخلفاء إلى أيدي الوزراء ، وجاء ما يعرف في التاريخ الفاطمي بعهد نفوذ الوزراء *

ويمكن القول إن المستنصر لم تستطع حياته مع الترف خلال هذا الحكم

(١) تاريخ يحيى بن سعيد ص ٢٣٥

- ١٥٠ -

المديد ، ففي عهد طقولته استبد به الوزراء ، ولما نما قابته اضطرابات الجيش بسبب قادته وفرقه المتعددة الأجناس والمارب ، وفي العهد المعروف بعهد الشدة المستنصرية أخذ المستنصر تصييده كاملاً كأى فرد من الشعب في المague و الحاجة ، وعندما زالت هذه الشدة وعاد شعاع الرخاء كان السلطان قد تحول إلى الوزراء نهائياً ، وعاش المستنصر بقية عمره تقاضياً بما يمنحه له الوزراء .

الجيش الفاطمي وعناصره :

كان الجيش الفاطمي مبعث قلق وفوضى خلال عهد المستنصر ، ومن ثم يجمل بنا أن نتحدث عن عناصر هذا الجيش وعن حركاته الدمرة :

كان البربر هم عماد الجيش الفاطمي الأول ، قطعى أكتافهم قسام سلطان الفاطميين بالشمال الأفريقي ، وبسيوفهم فتحت مصر ، فكونوا بذلك العنصر الرئيسي للجيش الفاطمي الأول .

ولما جاء العزيز استعان بالأتراك كما سبق القول ، وسرعان ما أصبح هؤلاء عنصراً مهماً من عناصر الجيش الفاطمي .

وكان بنو حمدان على رأس قوة عربية ضاربة يكوتون عنصراً ثالثاً في هذا الجيش .

وجاء عنصر جديد للجيش إبان عهد المستنصر ، فقد كانت أمه سودانية ، فأكثرت من جلب السودان ومنحهم السلطة والنفوذ فأصبحوا قوة رابعة يحسب حسابها .

وبين هذه العناصر ومجد فريق عسكري مصرى الجنسية بدأ يأخذ مكانه بين تلك العناصر .

وكان الوزراء في العهد الأول يقلّلون من سلطة قادة هذه الميلاق ، فقد كان لـ الوزراء الكلمة الأولى ، ولكن السلطة المدنية انهارت بعد الوزير الحسن البازوري (٤٤٢) فوضع الخلاف بين عناصر الجيش . وقامت

ال المعارك الحربية بين هؤلاء وأولئك ، ومن أهم المعارك التي حدثت في هذا المصمار معركة كوم الرشيش سنة ٤٥٤ ، بين الأتراك والبربر والعرب في جانب بقيادة ناصر الدولة الجمادى وبين السودان في جانب آخر ، وهزم السودان في المعركة ولكن هزيمتهم لم تكن حاسمة ، فقد انسحبوا إلى الصعيد ، وأكثروا المنتصرون بذلك فلم يلحقوا بهم لإبادتهم . وترك الصعيد تحت رحمة السودان يعيشون به وينشرون الفوضى . أما المنتصرون فقد عادوا يعيشون بالقصور ويفسدون الوزراء ، على أن الحلف بين ناصر الدولة والأتراك لم يطل عهده ، فقد ثار الأتراك عليه لاستهانته بهم ، وطلب الأتراك من الخليفة عزله ففعل ، ولكن ناصراً رفض الرضوخ لقرار الخليفة ووقعت معارك حربية بين الخليفة والترك من جانب وناصر الدولة وأتباعه من العرب والبربر من جانب ، وقد هزم ناصر الدولة أولاً ولكنه عاد وانتصر ، بيد أن الأيدي الخفية استطاعت أن تقتحم به وبأهلة في الظلام ، وكان من نتائج هذه المعارك وثار الفوضى المترتبة عليها أن توقفت الزراعة وأصبحت السرقة وقطع الطريق من معالم العصر ، ولم ينقذ البلاد إلا بدر الجمالى الذى استدعاه الخليفة وأسلمه زمام الأمر .

ويمتاز عهد المستنصر ببعض المذاهب والمفارقات : تسامح ديني وتعصب ، رخاء وجمع ، توسيع وانكماش ، ويجدر بنا أن نوضح هذه المفارقات ، ففي توضيحها اظهار معالم هذا العصر .

التسامح الدينى والتعصب :

في مطلع عهد المستنصر كانت العلاقات طيبة مع المسيحيين في الداخل ومع بيزنطة المسيحية ، فترك للمسيحيين حرية العبادة ، وواصل المستنصر سياسة أبيه في رفع القيود عن المسيحيين وحسن معاملتهم ، أما من بيزنطة فقد كانت هناك معاهدة سلم ، كانت بيزنطة بمقتضاها تورد القمح لمصر بإيان أزمته .

غير أن بيزنطة توقفت عن تنفيذ هذه المعاهدة ، ومالت إلى مصادقة

— ١٥٢ —

العباسيين الأقوية واهمال الفاطميين الذين لم تعد بيزنطة في حاجة لاتقاء شرهم لضعفهم ، وكان من نتيجة ذلك أن وقف المستنصر موقف عداء من بيزنطة ومن المسيحيين بالداخل لاتهامهم بالإيمان لحكام القسطنطينية باتباع هذه السياسة الجديدة . ففرضت عليهم الضرائب ، وأقفلت بعض الكنائس وألقى القبض على بعض القسس .

الرخاء والجوع :

نعم الخليفة والشعب برباد واسع في مطلع عهد المستنصر ، وقد وصف ناصرو خسرو هذا الرخاء وصفا مفصلا ، وكان قد زار مصر سنة ٤٣٩ فرأى حواتيت الصاغة مكتظة بما فيها من جواهر ثمينة ، ورأى محلات تغيير العملة وبها كميات كبيرة من العملات المتعددة ، وهذه المحلات وتلك كثيرا ما كانت تترك مفتوحة ويدعى أصحابها ويذهبون للصلة أو لأمر من الأمور فقد كان الأمن منتشر ، والرخاء شماملا ، فلم يكن بالناس حاجة إلى السرقة أو الخطف .

ويتحدث ناصرو خسرو عن ثراء الخليفة فيري أنه بالإضافة إلى القصور والدور والأرض كان يملك صندوقا به عشرة أرطال من أندر الجوهر ، ٢٥٠ رطلا من الأحجار الكريمة ، وثلاثين ألف قطعة من البلور الفاخر ، وآلاف الأثواب الحريرية الغالية وسิوفا من الذهب ، وسيف الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وسيف الحسين بن علي ، وسيف جعفر الصادق ، وسبعة من الأحجار الكريمة قيمتها ثمانون ألف دينار ، وسروجا لا تحصى وأسلحة ورماحا وأكوابا وصحافا كلها من الذهب الخالص أو مطعمة بأندر الجوهر ، وكانت لـ ٤ حصيرة من الذهب زنتها ثمانية عشر رطلا ، وفي خزانته ثلاثون مليون دينار من الذهب (١) ٠٠٠٠

(١) اقرأ خطط المقريزى ج ١ ص ٤١٤ وكنوز الفاطميين للدكتور زكي حسن ص ٤٣ - ٤٥ .

ويقول ابن الميسير ان قوائم هذه الممتلكات شغلت كتاباً كبيراً رأه بنفسه (١) ، وعما زاد في ثراء المستنصر أنه ورث عمته الأميرة ابنة العز ، وكانت ثروتها تقدر بحوالى خمسة ملايين من الدنانير (٢) .

وضاع هذا الثراء كله من الخليفة ومن الشعب بسبب اضطراب الجند وتوقف الزراعة وماتلا ذلك من نهب وسلب وتدمير ، وقد أرغم الجنود الخليفة أن يبيع ممتلكاته ليدفع لهم أجورهم ، فكان يبيعها لهم حسبما يقدرون ، وندر الخبز وانتشرت المجاعات ، فأصبح رغيف الخبز يساع بخمسة عشر ديناراً ، وشارك الخليفة شعبه في الجوع ، فالقصر خلا من أثاثه اللهم الا من حصيرة قديمة ، أما طعامه فكان رغيفين كل يوم ، تبعث له بهما بنت أحد العلماء ، أما أسرة الخليفة وأمه فقد هاجرتا من مصر لاتفاق الجوع وعصيان الجند ، وفي وسط هذه الأزمات أكل الناس الكلاب والقطط ، ودمر الجندي المكتبة التلدية ، واستعملوا جلودها أحذية لهم (٣) .

التوسيع والانكماش :

امتد سلطان المستنصر إلى اليمن وحضر موته وقوى سلطانه في الحجاز بالإضافة إلى مصر وسوريا والشمال الأفريقي ، ووصل امتداد سلطانه إلى غايتها عندما تغلب البيهاسيون على بغداد وخطب الخليفة المستنصر (٤) .

ولكن هذا التوسيع بدأ يتوقف ويحل محله انكماش وانحسار ، فالمعز بن باديون أعلن استقلاله بالشمال الأفريقي ، بل أعلن تبعية بلاده للمذهب السنّي ، والبيهاسيون آلت حركته للفشل وعادت بغداد لخلفاء

(١) تاريخ مصر ص ١٤ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيyan ج ٢ ص ١٠٣ .

(٣) انظر الجزء الرابع من موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية للمؤلف .

العباسين ، وحركات آل مدراس بدأت تحكم سوزيا حكمها استقلاليا لا يربطه بالمستنصر إلا خط ضئيل ، ونشط السلاجقة فاقطعوا الخمار من الفاطميين ، وضاعت صقلية واستولى عليها النورمانديون سنة ٤٦٣ وحثى في مصر حاولوا الحمدانيون إبان انتصارتهم أن يخطبوا لخلفاء العباسين ، ولكن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح .

وفي وسط هذا الاضطراب قرر المستنصر أن يستدعي بدرأ الجمالى حاكم عكاالأرمنى وأن يسلمه زمام الأمر لعل في يده يكون الدواء ، فكتب إليه بذلك سرا ، واشترط بدر أن يحضر بجنوبه فوافق الخليفة ، وجاء بدر إلى مصر سنة ٤٦٥ في ثوب زائر ، وسرعان ما تسلم السلطة بنجاح ، وانتقل بذلك الساطان من أيدي الخلفاء الفاطميين إلى أيدي الوزراء ، وسنفص هذا المعهد بدرائمة خاصة فيما بعد .

باقي خلفاء الفاطميين

إبان العهد الفاطمى الثانى ، أو عهد نفوذ الوزراء ، تولى الخلافة ستة من الفاطميين ، نكتفى هنا بأن نورد أسماءهم ، أما حديثنا فيتجه إلى الوزراء الذين أصبحوا في الغالب رؤساء الدولة ، وفي يدهم كل السلطان ، واتجهت لهم كل الأضواء ، حتى أنهم كانوا يعزلون خليفة ويعينون آخر ، فهم بذلك أجدر بـأن تكون أسماؤهم عناوين البحث مكان أسماء الخلفاء ، التي اندلعت إلى الظل في أكثر الأحوال .

ونحن نميل إلى هذا الاتجاه مخالفين الاتجاه العام للمؤرخين الذين خلوا يديرون الحديث تحت عنوان الخلفاء ، وما كان الخلفاء آنذاك رؤساء للدولة بالمعنى الحقيقي ولا مدبرين لأمرها ، وبخاصة أن أكثرهم تولوا الخلافة وهم دون سن الرشد ، فالامر كان في الخامسة والظاهر في السابعة عشرة ، الفائز في الخامسة والعاشر في التاسعة .

وَخِلْفَاءِ هَذَا الْعَهْدِ هُمْ — مَعَ أَرْقَامِهِمْ — فِي سَلِسْلَةِ خَلْقَاءِ الْفَاطِمِينَ
بَعْدَ الْمَهْدِيِّ وَالْقَائِمِ وَالْمُنْصُورِ وَالْمُعَزِّيِّ وَالْمُحَكَّمِ وَالظَّاهِرِ وَالْمُسْتَضِرِ :

٩ — الْمُسْتَعْلِي بْنُ الْمُسْتَضِرِ (٤٨٧ - ٤٩٥ = ١٠٩٤ - ١١٠١) وَوَزَرَ
لَهُ : الْأَفْضَلُ بْنُ بَدْرِ الْجَمَالِي (كَانَ وَزِيرَ الْمُسْتَضِرِ بَعْدَ
مَوْتِ بَدْرِ وَاسْتَمْرَ فِي الْوِزَارَةِ بَعْدَ مَوْتِ الْمُسْتَضِرِ) *

١٠ — الْأَمْرُ بْنُ الْمُسْتَعْلِي (٤٩٥ - ٥٢٤ = ١١٠١ - ١١٣٠) وَوَزَرَ لَهُ
الْأَفْضَلُ (بَقِيَ بَعْدَ مَوْتِ الْمُسْتَعْلِي حَتَّى سَنَةِ ٥١٥ فَاغْتَلَ)
ثُمَّ وَزَرَ لَهُ الْمَأْمُونُ الْبَطَائِحِيَّ مِنْ ٥١٥ إِلَى ٥١٩ (صَلَبُ)

١١ — الْحَافِظُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ الْمُسْتَضِرِ (٥٢٤ - ٥٤٤ = ١١٣٠ - ١١٤٩)
وَحَالَةُ الْوِزَارَةِ فِي عَهْدِهِ كَالْآتِي :

بَدْوُنُ وَزَرَاءٍ مِنْ سَنَةِ ٥٢٤ - ٥٢٥ *

أَبُو عَلَى أَحْمَدَ بْنَ الْأَفْضَلِ مِنْ ٥٢٥ إِلَى ٥٢٦ (اغْتَلَ)
يَانِسُ (مُولُوكُ أَرْمَنِي) ٥٢٦ (سَمِّمَ فِي نَفْسِ الْعَامِ) *

| | |
|--|------------------------|
| الْحَسَنُ بْنُ الْحَافِظِ مِنْ ٥٢٦ إِلَى ٥٢٨ | (أَبْنَا الْخَلِيفَةِ) |
| سَلِيمَانُ بْنُ الْحَافِظِ ٥٢٨ (مَاتَ بَعْدَ شَهْرَيْنِ) | |

أَبُو الظَّفَرِ بَهْرَامُ مِنْ ٥٢٩ إِلَى ٥٣١ (مُسِيحِيُّ أَرْمَنِيٌّ انتُخِبَ
الْجَنْدُ).

رَضْوَانُ بْنُ الْوَلْخَشِيٍّ ٥٣١ (فَرَّ فِي نَفْسِ الْعَامِ) *

بَدْوُنُ وَزَرَاءٍ مِنْ ٥٣١ إِلَى ٥٤٤ *

١٢ — الظَّافِرُ بْنُ الْحَافِظِ (٥٤٤ - ٥٤٩ = ١١٤٩ - ١١٥٤) وَوَزَرَ لَهُ :
سَلِيمَانُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ مَصَالِحٍ ٥٤٤ - ٥٤٨ (تَنَافِسُ
عَلَى بْنِ السَّلَامِ ٥٤٤ - ٥٤٨) وَعدَمُ اسْتِقْرَارٍ

الْعَبَادُونَ بْنُ أَبِي الْفَتوْحِ ٥٤٨ - ٥٤٩

١٣ — الفائز بن الظافر (٥٤٩ - ٥٥٥ = ١١٥٤ - ١١٦٠) وزر له :
طلائع بن رزيك (طيلة عهد الفائز)

١٤ — العاصد بن يوسف بن الحافظ (٥٥٥ - ٥٦٧ = ١١٦٠ - ١١٧١)
وزر له : رزيك بن طلائع ٥٥٥ - ٥٥٨
شاور بن مجبر بن نزار ٥٥٨

ضرغام بن عامر اللخمي ٥٥٨ (قتل سنة ٥٥٩)

شاور (مرة أخرى بعد قتل ضرغام) (٥٥٩ - ٥٦٤)

شيركوه ثم صلاح الدين ابتداء من سنة ٥٦٤ (١)

و قبل أن نتحدث عن وزراء هذا العهد نذكر الملاحظات الآتية :

١ — خلال هذا العهد قام بعض الخلفاء بمحاولات لاستعادة السلطة ، وتبعدوا هذه المحاولات مما نلاحظه في القوائم السابقة حيث خلت بعض المعهود من الوزراء أو جعل الخلفاء وزراءهم من بينهم ، وقد دبر الأمر مؤامرة قتلت فيها الأفضل ، ولكن هذه المحاولات كانت تنتهي بالفشل وتعود السلطة للوزراء مرة أخرى .

٢ — بعض وزراء هذا العهد — حتى قبل شيركوه وصلاح الدين — عارضوا الفكر الشيعي وأظهروا ميلهم للمذهب السنى ، ومع هذا أبقوا على الخلفاء القاطبيين ليظل السلطان في أيدي هؤلاء الوزراء ، فقد خافوا أن يكون التحاقهم بخلفاء بغداد معناه نهاية سلطانهم ، ومن هؤلاء الأفضل ابن بدر الجمالى وأحمد بن الأفضل ، وترتبط على هذا توقف تسلسل الخلفاء فانه بناء على الفكر الشيعي تكون ولادة العهد لابن الخليفة الأكبر ، فلما توقف الفكر الشيعي أهملت هذه الفكرة ، وحال الأفضل دون تولية نزار أكبر أبناء المستنصر وولي بدلـه المستعلى .

(١) هذه القوائم من معجم الانساب والاسرات الحاكمة لزامبلو ج ١ ص ١٤٨ - ١٥٠ .

٣ - قلنا ان هذا العصر هو عصر نفوذ الوزراء ، ولكن مع هذا كان هناك وزراء لم يلعبوا دوراً ذا بال في الحياة العامة ، فجرفهم التيار ليخلو الطريق الى سواهم .

٤ - في هذا العصر بدأت الحروب الصليبية التي كانت سبباً في تطـاطـ وزراء وقـيـامـ آخـرـينـ ، بلـ فـيـ إـسـقـاطـ أـسـرـ حـاكـمـةـ وـقـيـامـ آخـرـىـ سـجـلـهـاـ ، وـلـنـ نـتـحـدـثـ عـنـ هـذـهـ الـحـرـوبـ هـنـاـ بـلـ سـنـتـحـدـثـ عـنـهـاـ حـدـيـثـاـ مـسـتـقـلاـ عـقـبـ الـانتـهـاءـ مـنـ الـحـدـيـثـ عـنـ تـارـيـخـ مـصـرـ وـسـوـرـيـاـ .

فصـنـفـ نـفـوذـ الـوزـراءـ

بـدرـ الجـمالـيـ :

بدأ عصر نفوذ الوزراء بسلطة بدر الجمالى ، وقد حضر في ثوب زائر كما قلنا آنـاـ ، وـمـعـهـ جـنـدـهـ ، وـكـانـ حـضـورـهـ عـنـ طـرـيقـ الـبـحـرـ ، وـخـدـاعـ الـأـتـرـاكـ وـقـادـةـ جـيـشـ الـمـسـتـنـصـرـ فـاسـتـأـذـنـهـمـ فـيـ زـيـارـةـ السـاحـلـ ، فـاذـنـواـ لـهـ وـأـحـسـنـواـ اـسـتـقـبـالـهـ ، وـبـعـدـ قـلـيلـ أـقـامـ حـفـلـاـ كـبـيرـاـ لـهـؤـلـاءـ الـقـادـةـ وـعـيـنـ لـكـلـ مـنـهـ رـجـلـاـ مـنـ رـجـالـهـ لـيـاتـىـ لـهـ بـرـأسـ هـذـاـ القـائـدـ ، وـنـجـحـتـ الـمـؤـامـرـةـ ؛ وـوـقـفـ رـجـالـ بـدرـ فـيـ الـيـوـمـ التـالـىـ أـمـامـهـ وـكـلـ مـنـهـ يـحـمـلـ رـأـسـ القـائـدـ الـذـىـ كـلـفـ بـقـتـلـهـ ، وـأـعـلـنـ بـدرـ حـيـنـئـذـ عـنـ مـهـمـتـهـ الـتـىـ جـاءـ مـنـ أـجـلـهـ وـتـسـلـمـ قـيـادـةـ الـجـيـشـ كـمـاـ تـسـلـمـ بـدرـ اـدـارـةـ الـبـلـادـ ، وـلـذـكـرـ سـمـىـ ربـ السـيفـ وـالـقـلـمـ ، وـسـرـعـانـ مـاـ تـقـضـىـ عـلـىـ عـنـاصـرـ أـخـرـىـ مـنـ الـشـاغـبـينـ وـالـنـافـسـينـ ، فـلـمـ دـانـتـ لـهـ الـعـاصـمـةـ وـالـوـجـهـ الـبـحـرـىـ صـعـدـ إـلـىـ مـصـرـ الـعـلـيـاـ فـنـقـصـىـ عـلـىـ نـفـوذـ السـوـدـانـيـنـ ، وـعـادـتـ الـبـلـادـ إـلـىـ السـكـونـ وـالـسـلـامـ ، وـأـسـتـطـاعـ أـنـ يـسـتـعـيدـ كـثـيرـاـ مـنـ أـمـتـعـةـ الـخـلـفـاءـ الـتـىـ كـانـ الـجـنـدـ نـهـبـهـاـ أـوـ أـخـذـوـهـاـ نـظـيرـ مـرـتـبـاتـهـمـ ، وـيـقـالـ أـنـ قـارـيـءـ قـرـآنـ تـلـاـ فـحـضـرـةـ الـخـلـيـفـةـ الـمـسـتـنـصـرـ قـولـهـ تـعـالـىـ «ـ وـلـقـدـ نـصـرـكـمـ اللـهـ بـبـدرـ »ـ وـلـمـ يـكـملـ الـآـيـةـ فـأـحـسـنـ لـهـ الـخـلـيـفـةـ وـالـوـزـيرـ (١)ـ .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٢

وبدأت الحياة من جديد تسير في طريقها الطبيعي ، فعاد الزراع إلى أرضهم وباشر التجار تجارتهم ، وأعفاهم بدر من الضرائب ريثما يستعيدون نشاطهم ويجددون ثراءهم ، فلما أعيد فرض الضرائب بعد ذلك كان الدخل أوسع مما كان عليه قبل الشدة .

ولم يستطع بدر أن يستعيد بلاد الشام لانشغلَه بالأمور الداخلية ولظهور قوة العسا takoة التي امتدت إلى هذه المناطق .

ومن أعمال بدر الجمالى ذلك السور الفخم الذى أحاط به القاهرة ، وتتجديد أبواب زويلة والفتح والتتص ، وبناء جامع الجيوش على ظهر المقطم ، وقد نسب له هذا الجامع إذ كان يدعى أمير الجيوش .

ومات بدر الجمالى سنة ٤٨٧ ومات بعده في نفس العام الخليفة المستنصر .

الأفضل بن بدر الجمالى :

عيّن بدر الجمالى ابنه الأفضل ولية لمهده ، وهي ظاهرة هامة في هذا العصر أن تكون تولية الوزارة بعهد من الوزير السابق ، وهذا يدل على مدى ما وصل له هؤلاء الوزراء من نفوذ ، ولم يكتف الأفضل بأن يزاول نفوذه أبيه وسلطاته الواسعة مع البقاء على الدواوين كما كانت في عهد أبيه ومع ترك بعض المظاهر الخالية ، بل خطا خطوة جديدة ، فنقل دواوين الحكومة إلى داره ، واستبدل باقامة الولائم في الأعياد ، واتخذ مجالس للعطاء^(١) .

ومات المستنصر – كما قلنا – والأفضل وزير الدولة فحرص الأفضل على أن تكتمل السلطة له ، ولذلك لم يضع في كرسى الخلافة « نزارا » ابن الأكبر للخليفة السابق بل تجاوزه ارشده وعيّن المستنصر ، وكان

(١) دكتور حسن إبراهيم : الناطميون في مصر ص ٢٣٠ .

ضعيماً في العشرين من عمره ، وثار نزار لهذا التصرف ومساعدته فريق من الإسماعيلية هم « الباطنية » ولكن كان النصر للأفضل ودفع نزار رأسه ثمن هذه الثورة .

وفي عهد الأفضل مات المستعلى سنة ٤٩٥ فولى مكانه ابنه الامر وعمره خمس سنوات ، فكان الامر كله للأفضل ، ولما شب الامر وجد نفسه مسلوب السلطة ، فحاول أن يستعيد بعض السلطان ولكنه صادف تحدياً سافراً من الأفضل ، وذهب الأفضل في تحديه إلى حد التخلّي عن مذهب الشيعة وابطال الاختلالات بالأعياد الشيعية بما فيها عيد ميلاد الخليفة وأغلاق دار العلم ، وكانت وسيلة الامر الوحيدة لاستعادة السلطان هي أن يدبر مؤامرة للتخلص من الأفضل ، وتم له ذلك بمساعدة المأمون بن البطائحي وبعض الباطنية سنة ٥١٥ ، وتظاهر الامر بالسخط على اغتيال وزيره وقتل قاتليه من الباطنية (١) .

ومن منشآت الامر جامع الامر ، ومسجد آخر داخل كاتدرائية سانت كاترين بسيناء :

ويقول ابن خلكان ان الأفضل خلف من الاموال والجواهر والخيول والرقيق حالم يسمع بهاته ، ويعد ابن خلكان بعضها وهي تدل على عودة الثراء للقصر بعد ما أصاب مصر من أزمات اقتصادية في عهد المستنصر (٢) .

المأمون بن البطائحي :

أخذ المأمون بن البطائحي مكان الأفضل بعد مصرعه ، وفي عهده استعاد الامر شيئاً من نفوذه ، ولكن البطائحي لم يهنا طويلاً بالسلطان ، فقد عاش بين أطماع الخليفة من جهة وظهور أحمد بن الأفضل من جهة أخرى ، وقد استطاع أحمد أن يثار لأبيه فقتل المأمون بموافقة الامر ،

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٢٢ .

(٢) وفيات الاعيان : ج ١ ص ٢٢٢ .

- ١٦٠ -

ولكن الأمر حرص على أن يظل السلطان في يده ، فلم يمنح الوزارة لأحمد ،
بيد أن هذا أصبح له نقوذ وأفسح في الحياة العامة ، حتى نال الوزارة
بعد الأمر .

أحمد بن الأفضل :

استطاع أحمد أن يستعيد السلطان لبيت بدر الجمالى عقب وفاة
«الامر» ، وكان الخليفة في عهده هو «الحافظ» ، ويبدو أن أحمد كان
يدرك أن المؤامرة التي سقط فيها أبوه دبرت بمعرفة القصر الفاطمى ،
وذلك أشتد أحمد في الاستهانة بالخلفاء ، وحرمهم السلطة نهائيا ، ومنع
الناس من زيارة الخليفة إلا باذن منه ، واستولى على ما في القصور من
تحف ، ومنع ذكر اسم الخليفة في الخطبة ووضع اسمه بدل اسم الخليفة ،
وقلل من الاهتمام بالمذهب الشيعى وجعل بعض القضاة من رجال السنة .

ومرة أخرى دبر الحافظ مؤامرة للتخلص من أحمد بن الأفضل وتم
له ذلك ، ولكن السلطان لم يجد طريقة للخليفة بل رسما على الوزير
الأرمنى بهرام .

أبو المظفر بهرام الأرمنى :

انتخبه الجند بعد أحمد ، ولذلك سرعان ما أكثر من عدد الجنود
الأرمن ، وفي عهده عبث هؤلاء بالأمور واعتدوا على الأهالى وأموال الناس ،
وكان الوزير مسيحيًا فجاء على المسلمين ، فاستجده المسلمون بوالى
الغربية رضوان بن الولخنى ، فاستجاب لهم هذا ، وحدث صراع بين
الاثنين وهزم بهرام في هذا الصراع وآل السلطان لرضوان ، وهرب بهرام
إلى أسوان .

رضوان بن الولخنى :

لقب رضوان نفسه بلقب الملك ، وهو أول وزير يحمل هذا اللقب في

١٦١

العهد الفاطمي (١) ، ومن أهم أعماله القضاء على سلطان الأرمن ومصادرتهم أموالهم ، وتجريد الخليفة من السلطة ، وثار عليه الخليفة لذلك ، واستعلن الخليفة ببهرام ، فهزمه رضوان وقتل : وظل بهزام في القصر مستشاراً لل الخليفة دون أن يُعيده للوزارة .

أبن السلاطين وأبن مصال :

اثنان يتنافسان على الوزارة مع مطلع عهد الظاهر بن الحافظ ، واتخذ هذا التنافس دوراً جديداً ، فقد بدأت الاستعانة بالسلطات الأجنبية ، وكانت تتمثل آنذاك في سلطة نور الدين صاحب حلب ودمشق ، وفي الصليبيين بإمارات الشام ، وكانت الاستعانة بالأجاتب في هذه الدور مقصورة على الاستعانة بنور الدين ، ولكن الصليبيين حرصوا على ألا يتتحققوا لنور الدين أن يسيطر على مصر ، ففي ذلك ، تطويق لهم وهزيمة لإماراتهم ، ومن ثم دخل الصليبيون حلبة السباق لتكون لهم مصر كما سنشير .

عند الكلام عن الغروب الصليبي ..

وفي النزاع المسلح بين ابن السلاطين وأبن مصال أخذ الخليفة جانب الأخير حتى قتل ابن السلاطين ، ولكن ابن مصال قتل بعده بقليل ، ثم قتل الخليفة بيد نصر بن عباس وراح عباس هذا يقتل أبني الخليفة وأقاربه (٢) . فثار لذلك أهل القاهرة فهرب عباس وأبنه نصر ، وقتل عباس وقبض على أبنه الذي يمثل به وصلب .

طلائع بن رزيك وأبنه :

طلائع بن رزيك أصله من الشيعة الإمامية بالعراق ، وقد وفد لمصر وتقرب للفاطميين ، فولاه الخليفة الفاطمي هشيم بن خصيـب بالصعيد ،

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٠ . أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر

ج ٣ ص ٤٦٨ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٧٨ .

فلما زادت الفوضى عقب مقتل الخليفة الظافر استجذ نساء القصر بطلاقع بن رزيك ، فحضر طلائع و وسلم الوزارة وتلقب بالملك الصالح ، وعيّن الفائز ابن الظافر خليفة ، وكان في الخامسة من عمره واستبد بالأمر وقضى على الفوضى ، وأعاد الأمان إلى نصباً ، وتوفى الفائز بعد ست سنين فعيّن طلائع العاضد خليفة سنة ٥٥٥ ، وتزوج العاضد بنت طلائع ، ثم نجح العاضد في تدبير مؤامرة قتل فيها طلائع ليتخلص من سلطنه ولكن العادل بن طلائع تسلّم مكانة أبيه ، فثار عليه شاور أمير الصعيد وقتله بعد ستين من وزارته وتولى مكانه (١) .

شاور وضرغام ونهاية الخلافة الفاطمية :

يمثل شاور وضرغام آخر حلقة في فوضى الوزارة الفاطمية ، وشاور كان ذا نفوذ في الصعيد ، فخافه العادل بن طلائع فعزله ، ولكنه جمع جموعه وهاجم القاهرة ، واحتل قصر العادل وقتله ، وجعل نفسه وزيراً مكانه ، وطفي وهو وأولاده ، أما ضرغام فمن المفارية ، وقد رأى كبرياء شاور وطفيان أولاده ، فثار عليه ويفعله وأرغمه على الهروب ، ولكن شاور ذهب يستجذ بنور الدين ، وبقيت على فتح مصر ، فاستجذ ضرغام بالصلبيين ، واستجاذ نور الدين والصلبيين ، وأصبحت مصر هدف عدوان من الخارج ، وبلغت حملات نور الدين ثلاثة ، وكانت بقيادة شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين ، وفي الحملة الأولى قتل ضرغام ، وفي الثالثة قتل شاور كما سترد ذلك عند الكلام عن الأسرة الأيوبية ، وتقلد أسد الدين شيركوه وزارة العاضد ، ولكنه مات سريعاً فتولى صلاح الدين هذه الوزارة ، وقضى على ثورات الجنود السودانيين وقتل زعمائهم ، وأعاد البلاد إلى الأمن والهدوء ، ثم قطع اسم الخليفة من الخطبة ودعا للخليفة العباسى «المستنصر» ، وكان العاضد مريضاً ، فسرعان ما مات ، واستقل صلاح الدين بمصر باسم نور الدين زنكى

(١) ابن حلكان : وقيّات الاعيّان ج ١ من ٢٣٩ و ٢٢٠ .

- ١٧٣ -

أسباب سقوط الخلافة الفاطمية

١ - الحروب الصليبية :

تعتبر الحروب الصليبية العامل الأساسي لسقوط الدولة الفاطمية ، فقد اتجهت كل القوى لتخليص البلاد الإسلامية من طغيان الصليبيين ، وأصبح انتقال السلطة من أسرة مسلمة إلى أسرة مسلمة أخرى أمراً هيناً مادام في ذلك النجاة من الفرج ، وما يدل على ذلك أن بعض الحكام أسلموا بلادهم للسلطان نور الدين طوعاً ليعيمها من غزو الصليبيين ، ومن أجل موقع مصر وتراثها اتجه الصليبيون إليها وعرفوا أن بقاعهم بإمارات الشام رهن بقتلهم على مصر ، وبالتالي اتجه المصريون إلى الترجح بآلية قوة إسلامية تدفع هذا الخطور ، ولكن فسورة الدين هو هذه القوة المأمولة فلم يقاوموا الانضمام إليه بل أيدوه .

٢ - المغالة في التشيع :

ومن الأسباب كذلك مغالاة الفاطميين في التصنيف التشيع الذي عادت للظهور مما جعل المصريين يؤيدون آلية حركة تعديهم للفكر السنفي .

٣ - ضياع الشمال الأفريقي :

وقد اتجه الفاطميون في توسيعهم إلى الشرق وأهملوا إلى حد ما الشمال الأفريقي حيث أتباعهم الأولون ، فكان ذلك من أسباب ضياع هذه المنطقة ، أو بقل ضياع جناحهم من جانب القوفة الفاطمية .

٤ - أزمات داخلية :

وكانت سلطة الوزراء ، وعناصر الجيش ، والأزمات الاقتصادية ، وتولية كثير من الخلفاء وهمأطفال ، من دواعي انحلال الدولة وسرعة زوالها .

سوريا والحكم الفاطمي

تحديثنا فيما سبق عن خصم سوريا لمصر في مطلع العهد الفاطمي ، ونريد هنا ونحن نؤرخ مصر وسوريا أن نذكر الخطوط التاريخية لسوريا خلال الخلافة الفاطمية .

كان الفاطميين يعدون سوريا جسرا يصلهم لتحقيق أغراضهم في تكوين أمبراطورية لهم في بلاد الشرق الإسلامي ، وكانت سوريا قبلاً ثانية للإخشيديين ، فرأوا أن من حقهم وقد ورثوا الإخشيديين في مصر أن يرثوهم في الشام أيضاً .

ومن عوامل الرغبة في فتح الشام كذلك أن الفاطميين اعتبروا سوريا خط الدفاع عن مصر ضد أي هجوم عباسى ، كذلك رأى الفاطميين أن سوريا هي المركز الذي يمكن منه القضاء على القرامطة الذين بدعوا يتعمدون على الفاطميين وتكلموا من آئوالنهم من قبل ، ومن علامات هذا التمرد مهادنة القرامطة للإخشيديين تطير ضريحه اتفقوا مع الوالي الإشيدى على نفسها لهم (()) .

هذا من جهة الفاطميين ، ولكن عقبات كثيرة وقفت في وجههم ، واستلزمت منهم جهوداً كبيرة لم ينلوا هذا الأمل ، بل أثارت سوريا عليهم كلما بدأ لهم أنهم سيطروا عليها ، وهذه العقبات هي الخلاف الذهبي ، وقومة القرامطة ، وقلة الحنكة السياسية في القائد الفاطمي جعفر بن فلاح الذي عهد له بالرمحف إلى سوريا ، ثم بروز السلاجقة الذين كانوا في قمة قوتهم في حين كان العهد الفاطمي يئذن بالانهيار ، وأخيراً ظهور الصليبيين في هذه المنطقة في آخريات هذا العهد .

(()) الدكتور حسن إبراهيم . ودكتور طه شرف : المعز الدين الله ص ٩٢ .

وَبَيْنَ الشُّدُّ وَالجُذْبِ مِنْ هَنَا وَهُنَاكَ ، وَقَفَتْ سُورِيَا • وَفِيمَا يَلِي أَبْرَزَ
الْعَرْكَاتِ التَّارِيْخِيَّةِ الْمَرْتَبَةِ بِسُورِيَا خَلَالِ هَذَا الْعَهْدِ :

النَّاطِمِيُّونَ وَنِشَاطُ الْقَرَامِطَةِ بِسُورِيَا :

عَدَمًا لِاستِقْرَارِ جُوهَرٍ بِمِصْرَ أَرْسَلَ الْقَائِدُ جَعْفَرُ بْنُ فَلَاحَ لِيَأْخُذَ سُورِيَا
مِنَ الْوَلَاةِ الْأَخْشِيْدِيِّينَ ، وَكَانَ هُؤُلَاءِ الْوَلَاةَ مِنْ أُسْرَةِ الْأَخْشِيْدِ ، فَالْأَحْسَنُ
الْأَخْشِيْدِيُّ كَانَ وَالِيًّا عَلَى الرَّمْلَةِ ، وَشَمْوُلُ الْأَخْشِيْدِيُّ كَانَ وَالِيًّا دَمْشِقَ ،
وَفَاتُكُ الْأَخْشِيْدِيُّ كَانَ وَالِيًّا عَلَى طَبْرِيَّةِ ، وَقَدْ تَحَقَّقَ النَّصْرُ لِجَعْفَرٍ بْنِ بَيْهِيدِ
أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ مُعَامَلَةَ الْأَهْلِينَ ، وَلَمْ يَطْمَئِنُهُمْ إِلَى حُرْيَةِ الاعْتِقَادِ ، فَهَبُوا
ثَائِرِينَ ضَدَّهِ وَاسْتَبَدُوا بِالْقَرَامِطَةِ الَّذِينَ سَاعَاهُمْ أَنْ تَقْطَعَ عَنْهُمُ الْإِتاَوَةُ
الَّتِي كَانُوا يَأْخُذُونَهَا مِنْ حَاكِمِ دَمْشِقِ خَطْرِ عدمِ هُجُومِهِمْ عَلَيْهَا ، وَقَدْ زَرَ
هَذِهِ الْجُزِيَّةَ ٣٠٠٠ دِيْنَارًا ، وَقَاتَمَ مَرْكَةَ بَنِ جَعْفَرٍ بْنِ فَلَاحِ وَالْأَحْسَنِ
بْنِ أَحْمَدَ الْقَرْمَطِيِّ اتَّصَرَ فِيهَا الْأَخْيَرُ وَقُتِلَ جَعْفَرُ وَأَسْتَولَى الْقَرَامِطَةُ
عَلَى دَمْشِقِ (١) .

وَلَمْ يَكُنْ الْقَرَامِطَةُ يَنْوُونَ إِلَيْسِرَارَ فِي الْاحْتِلَالِ دَمْسِيقَ لِبَعْدِهَا عَنِ
مَقْرِبِهِمْ بِالْأَحْسَاءِ ، وَلَذِكَ أَخْلَوُهَا بَعْدَ أَنْ نَالُوا مَا أَسْتَطَاعُوا حَمْلَهُ مِنْ
الْمَسَالِ ، وَوَقَعَتْ دَمْشِقُ فَرِيسَةً فِي أَيْدِيِ الْبَرْوَمِ الْمُسْكِيْنِ ثُمَّ فِي أَيْدِيِ
أَفْتَكِينَ الْتُّرْكِيِّ الْشَّرَابِيِّ غَلَمَ مَعْزُ الدُّوَلَةِ بْنِ بُوْيَةِ ، وَكَانَ مِنْ أَكْبَارِ الْحَنْدَدِ
فِي بَلَاطِ مَعْدَادِ ، وَاسْتَطَاعَ يَمْؤَازِرَةِ بَعْضِ الْعَنَاصِرِ الْيَاقِمَةِ فِي دَمْشِقِ أَنْ
يَسْتَوِيَ عَلَى الْمَدِيْنَةِ ، وَدَعَا أَفْتَكِينَ لِلْخَلِيْفَةِ الْعَبَاسِيِّ ، وَتَحَالَّفَ مَعَ الْقَرَامِطَةِ
الَّذِينَ بَتَّاسُوا اتِّجَاهَمُ الْعَقَائِدِ فِي سَبِيلِ الْمَالِ وَالثَّرَاءِ (٢) .

وَظَهَرَ الْقَرَامِطَةُ مَرَةً أُخْرَى يَهَاجِمُونَ يَافَا وَصَيْداً وَعَكَا ، وَكَانُوا هُمْ
وَأَفْتَكِينَ مَصْدِرَ قَلْقِ طَبَالِ عَهْدِ الْمَعْزِ ، فَلَمَّا جَاءَ الْعَزِيزَ حَوَلَ جُوهَرَ أَنْ

(١) أَبُو الْفَدَا : الْمُختَصَرُ فِي الْخُبُرِ الْبَشِيرِ بَدْلًا مِنْ ٤٤٨ - ٣٥٠ .

(٢) مُحَمَّدُ عَبْدُ اللَّهِ عَنْلَانُ : الْجَامِعُ بِأَمْرِ اللَّهِ بَنْ ٧٧ (انْظُرِ الْمَاهِيْسِ) .

يتغلب عليهم ولكنه لم يفلح لأن التحالف بينهما ومؤازرة سكان الشام لهما جعل هذا الجانب يرجح الجانب الفاطمي ، ومن أجل هذا سار العزيز بنفسه ونازلهما سنة ٣٦٨ وحقق عليهما نصراً مؤزراً فقتل من جيشهما حوالي ٢٠٠٠ جندي وأسر أتقين وهرب الحسن القرمطي بعد الهزيمة ، ثم استولى الفاطميون على حلب من الحمدانيين ، وأصبحت سوريا بذلك ضمن ملك الفاطميين (١) .

حسن تفوي على القرامطة :

وفي الجزء السابع من هذه الموسوعة تفاصيل الحروب بين المصريين والقرامطة ، وتصوير الانتصارات المئاتية التي حققها المصريون ضد القرامطة والتي وضعت نهاية لدولة القرامطة ، فليرجع لذلك من يشاء (٢) .

الخسار ملك الصليبيين بسوريا :

وابتداء من عهد المستنصر بدأت الدولة الفاطمية تتقلص شيئاً فشيئاً ، وتعرضت أملاكها في سوريا إلى زحف من المرداسيين والسلاجقة الذين بدأوا دولتهم في النمو والتطلع إلى الشام ، كما تعرضت إلى زحف الصليبيين ، فاستولى المرداسيون على حلب سنة ٥٤١٤ (١٠٢٣) ، واستولى السلاجقة على بقاع شعى من سوريا ابتداء من منتصف القرن الخامس الهجري ، وألت أملاك السلاجقة في سوريا — عقب انحلال هؤلاء — إلى الدولة البويرية وإلى آل زنكي ، واستولى الصليبيون على بيت المقدس من الفاطميين كما استولوا على مدن أخرى بالساحل كما سبق ذكره فيما بعد . وتقلص بذلك سلطان الفاطميين فلم يعد يشمل مع مصر إلا شريطاً ضيقاً جنوبي فلسطين .

ونستكلم فيما يلى كلمة عن كل من المرداسيين والبويريين وآل زنكي :

(١) ابن القلنسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧ - ١٩ .

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي ج ٧ ص ٤٠٩ وما بعدها .

— ١٩٧ —

المرداسيون

(خطب)

٤٦٤ = ٤٧٣ - ١٠٣٣ = ١٠٧٩

ينسب المرداسيون إلى أسد الدولة صالح بن مردارس من قبيلة بني كلاب العربية ، وقد هاجم لهذا باتباعه من البدو بلدة حلب حوالي سنة ١٠١١ ، ثم انسحب منها ، وفي سنة ١٠٢٣ قام سكان الشام بثورة ضد الفاطميين كما يسوق القول ، فنظم أهل حلب المدينة إلى صالح ، وظل صالح يدافع عن المدينة حتى قتل سنة ١٠٢٩ في معاركه مع المصريين ، فقام ابنه شبل الدولة مقاومه ، ولكن جيوش الفاطميين قتلتة أيضا سنة ١٠٣٧ ، بيد أن ابنا آخر لصالح هو معز الدولة استطاع أن يسيطر مؤقتا على المدينة ، ولكن الفاطميين عادوا فأخذوها منه ، ولكن ملك الفاطميين يخلص عنها نهاية سنة ٤٥٢ (١٠٦٠) فاستعادها رئيس الدولة بن شبل الدولة .

ولم تعرف حلب الاستقرار بعد ذلك ، فقد كانت تعيش بين أطماع البيزنطيين والمرداسيين والعقيليين . وسقطت أخيرا في أيدي العقيليين سنة ٤٧٢ (١٠٦٩) ولكن سرعان ما احتواها ملك السلاجقة وانحدرت منهم إلى الأتابك ، فكانت دمشق من نصيب البورين ، وحلب من نصيب آل زنكي ثم امتد سلطان آل زنكي إلى دمشق أيضا .

— ١٦٨ —

البوريون

(دمشق)

٤٩٧ - ٥٤٩ = ١١٠٣

كان طوغتكين أحد القادة في جيش السلاجقة التابع ل السلطان تتش ، وفي سنة ٤٨٨ (١٠٩٥) عين أتابك للأمير دقاق بن تتش أمير دمشق ، وسرعان ما سلب السلطة منه ، وطوغتكين جد أميرة البوريون التي تتنسب إلى ابنه وخليفته (بوري) وأمراؤها هم :

| | |
|--------------------------------|----------------|
| سيف الإسلام ظاهر الدين طوغتكين | ٤٩٧ = ١١٠٣ |
| تاج الملك بوري | ٥٢٢ = ١١٢٨ |
| شفسن الملك اسماعيل | ٥٢٦ = ١١٣١ |
| شهاب الدين محمود | ٥٢٩ = ١١٣٤ |
| جمال الدين محمود | ٥٣٣ = ١١٣٨ |
| مجين الدين أبيقى | ٥٣٤ = ١١٣٩ () |

واستولى عليها نور الدين زنكي سنة ٥٤٩ (١١٥٤)

آل زنكي

(الموصل - الجزيرة - سوريا - مصر)

كان عماد الدين زنكي أتابك الذي تشن السلاجقوش أمير حلب ، وبعد تشن عين عماد الدين حاكماً للموصل والجزيرة وحران وحلب سنة ٥٣١ — ٥٢٢ وكانت الحروب الصليبية على أشدّها ، وكانت كفة الصليبيين راجحة

(١) المراجع السابق ١٦٦ .

فتقى عماد الدين جماعة المسلمين المكافحين، وحقق نصراً عظيماً ضد الفرتوجة - كما سُنِّى عند الكلام عن الحروب الصليبية - وبعد عماد الدين انقسمت مملكته بين ولديه نور الدين محمود الذي آل له شمال سوريا والذى حل محل أبيه في زعامة الجبهة الإسلامية ضد المسيحيين الصليبيين، وسيف الدين غازى الذى حكم الموصل ومناطق أخرى من العراق (١)، وقد اتسعت مملكة نور الدين فتشملت دمشق ثم امتدت إلى مصر، وبعد موته آل السلطان لابنه اسماعيل وهو في الحادية عشرة، ولكن صلاح الدين الأيوبي - كان قد استقر بمصر حتى قبل موته - نور الدين، ومد سلطانه بعد موته فشمل سوريا واليمن والحجاز وصحر قبرار الخلية العواسى بتوليه هذه البقاع.

وفيما يلى قوائم الأمراء من آل زنكي كما أوردها ستانلى لين بول (٢).

التابعة المؤمن

| | |
|------------|-------------------------------|
| ١١٢٧ = ٥٢١ | عماد الدين زنكي |
| ١١٤٦ = ٥٤١ | سيف الدين غازى (الأول) |
| ١١٤٩ = ٥٤٤ | قطب الدين محمود |
| ١١٦٩ = ٥٦٥ | سيف الدين غازى (الثاني) |
| ١١٨٠ = ٥٧٦ | عز الدين مسعود (الأول) |
| ١١٩٣ = ٥٨٩ | نور الدين أرسلان شاه (الأول) |
| ١٢١٠ = ٦٠٧ | عز الدين مسعود (الثاني) |
| ١٢١٨ = ٦١٥ | نور الدين أرسلان شاه (الثاني) |
| ١٢١٩ = ٦١٦ | نصير الدين محمود |

Stanley Lane Poole: Muhammadian Dynasties pp 162 - 163

(١)

(٢) المرجع السابق ص ١٨٣.

- ١٧٠ -

بدر الدين لؤلؤ (وزير مغلوب) = ٦٣١

اسمهاعيل بن لؤلؤ = ٦٥٧

الى = ٦٦٢

بدر الدين لؤلؤ (وزير مغلوب)

اسمهاعيل بن لؤلؤ

استولى عليها المغول

أتابكية الجزيرة

معز الدين سنقر شاه = ٥٧٦

معز الدين محمود

مسعود

ضمن الأيوبيين

أتابكية سوريا

نور الدين محمود بن زنكى = ٩٤٦

الصالح اسماعيل = ١١٧٣

نور الدين محمود بن زنكى

الصالح اسماعيل

ضمن الأيوبيون

الدور الثقافي لمملكة نور الدين زنكى

أشرنا آننا الى الدور السياسي الضخم الذي قام به نور الدين لخدمة العالم الاسلامي ولتجميع كلمته أيام الزحف الصليبي ، وسيأتي لنا مزيد من هذا الحديث عند الكلام عن الحروب الصليبية وعن الدولة الأيوبيية ، ولكن دور نور الدين لم يكن عسكرياً فقط ، بل انه لعب دوراً ثقافياً مهما للغاية ينبغي أن نشير إليه هنا .

في آخر القرن الثالث الهجري بدأ الفاطميين يكتون دولة في الشمال الافريقي ثم زحفوا الى مصر سنة ٣٥٩ ، وهنا وهناك يدعوا ينشرون مذهب

الشيعة ويقاومون مذهب أهل السنة ، وفي نفس الفترة كان البوبيهيون قد حققوا انتصاراً على بقايا الأئمّة المالكية ويدعوا سلطانهم على الخلافة العباسية سنة (٣٣٤) وبالتالي عمّلوا على نشر التشيع ومقاومة المذهب السنّي ، وهكذا حقق الشيعة نجاحاً في الشرق والغرب وتقدّم أممـا سلطانـهم النـفوـذ السنـي .

و جاء السلـاجـقة للـحكـم (٤٦٤) فـبدـعوا يـعيـدـون الأمـور إـلـى نـصـابـها ، وـقامـ الـوزـيرـ السـلـجـوقـيـ الشـهـيرـ نـظـامـ الـمـلـكـ بـدورـ كـبـيرـ فـإـحـيـاءـ الـدـرـاسـاتـ السـنـيـةـ وـالـقـضـاءـ عـلـىـ بـقـائـاـ التـشـيعـ ، وـتـنـسبـ إـلـىـ هـذـاـ الـوزـيرـ «ـمـدارـسـ النـظـامـيـةـ»ـ الـتـيـ جـلسـ الغـزـالـيـ يـعـلـمـ فـيـ إـحـدـاهـاـ وـالـتـيـ كـانـ لـهـ نـصـيبـ كـبـيرـ فـيـ تـشـيـطـ الـمـذـهـبـ السـنـيـ وـمـقاـوـمـةـ التـشـيعـ ، وـاقـبـيـسـ نـورـ الدـينـ زـنـكيـ هـذـاـ الـاتـجـاهـ مـنـ نـظـامـ الـمـلـكـ ، فـتـنـشـرـ فـيـ مـمـلـكتـهـ بـحـلـبـ وـدـمـشـقـ مـدارـسـ كـلـكـ الـتـيـ أـشـأـمـاـ نـظـامـ الـمـلـكـ ، فـكـانـ بـذـلـكـ اـمـتدـادـاـ لـهـ ، كـمـاـ كـانـ اـمـتدـادـاـ لـأـبـيهـ «ـعـمـادـ الدـينـ»ـ فـيـ الـانتـصـاراتـ الـعـسـكـرـيـةـ ، وـجـاءـ صـلـاحـ الدـينـ الـأـيـوبـيـ فـيـ مـلـكـةـ نـورـ الدـينـ فـيـ الـأـمـرـيـنـ جـمـيـعـاـ ، أـيـ حلـ مـطـلـعـ فـيـ مـقاـوـمـةـ الـصـلـيـبيـنـ ، كـمـاـ نـقـلـ اـتـجـاهـتـهـ الـثـقـافـيـةـ إـلـىـ مـصـرـ فـأـنـشـأـ بـهـ مـدارـسـ لـخـدـمـةـ الـمـذـهـبـ السـنـيـ اـمـتدـادـاـ لـمـارـسـ نـظـامـ الـمـلـكـ فـيـ الـعـرـاقـ وـمـارـسـ نـورـ الدـينـ فـيـ الشـامـ ، وـعـلـىـ هـذـاـ نـجـدـ نـورـ الدـينـ زـنـكيـ فـصـلـاحـ الدـينـ الـأـيـوبـيـ يـمـثـلـانـ الـحـلـقـتـينـ الـثـانـيـةـ وـالـثـالـثـةـ فـيـ الـصـرـاعـ الـعـسـكـرـيـ مـنـ الـصـلـيـبيـنـ وـفـيـ إـحـيـاءـ الـدـرـاسـاتـ السـنـيـةـ ، أـمـاـ الـحـلـقـةـ الـأـوـلـىـ فـيـمـثـلـاـ عـمـادـ الدـينـ زـنـكيـ فـيـ الـصـرـاعـ الـعـسـكـرـيـ وـيـمـثـلـاـ نـظـامـ الـمـلـكـ فـيـ إـحـيـاءـ الـدـرـاسـاتـ السـنـيـةـ (١) .

(١) أـقـرـأـ تـقـاصـيـلـ هـذـاـ النـشـاطـ الـثـقـافـيـ بـكـاتـبـناـ «ـتـارـيـخـ التـرـيـةـ الـاسـلـامـيـةـ»ـ .

الحضارة الفاطمية بمصر وسوريا

الأزهر الشريف :

اهتم الفاطميون اهتماماً كبيراً بالحركة العلمية في اتجاهاتها المختلفة ، وأبرز هذه الاتجاهات كان تنظيم الفكر الشيعي ونشره على أوسع نطاق ، كما سبق القول ، ويمكن اعتبار يعقوب بن كلس مثالاً لهذا النشاط المذهبي ، فعلى الرغم من انشغاله بسئول الوزارة نجده يخصص وقتاً ليؤلف الكتب والرسائل في عقيدة الذهب وفقهه ، ويطلب من العزيز تحويل مسجد الأزهر إلى جامعة شيعية تدرس فيها مبادئ التشيع ، بل يجلس هو في الأزهر لتدريس هذه المبادئ ، وبعد فترة اتسع الأزهر لايران من الفكر بجانب تدريس التشيع .

مجالس القصر ومجالس الدعوة :

انعقد الخليفة من داره أحياناً ندوة يجتمع فيها عليه القوم ويتاذتم لدراسته أصول الذهب وطرق نشره . ومن الوظائف المهمة التي استحدثها الفاطميون وظيفة داعي الدعاة ، وهي تشبه وزارة الدعاية والاعلام في الدول الحديثة ، وكانت يختار لها الصالعون في الفكر الشيعي والعارفون بأسرار الدعوة ، وكان داعي الدعاة يشرف على الدعاية للمذهب ونشره في العاصمة والأقاليم عن طريق المجالس والندوات والمحاضرات والمؤلفات ، وكثيراً ما كان داعي الدعاة هو قاضي القضاة .

وشعّ الفاطميون شعراً الذهب ليشرعوا قصائدهم بين الجماهير .
وكان الشعر آنذاك يمثل صحفة العصر ، فإذا كانت الندوات والمجالس العلمية اتجهت للثقفين فإن الشعر كان وسيلة الدعاية للمذهب بين العامة .

علماء في الفلك والصيدلة والطب : ٠٠٠

وبجانب الذهب الشيعي اهتم الفاطميون بخدمة فروع أخرى من العلم والمعرفة ، وقد سبق أن تحدثنا عن دار العلم التي أنشأها الحاكم

وكيف كانت مركزاً للثقافة والفكر ، وبجانب ذلك عنى الحاكم بدراسات أخرى ، فلقد ازدان بلاطه بعلى بن يونس ألم من أنجبتهم مصر من الفلكيين . وبالحسن ابن الهيثم كبير علماء الطبيعيات المسلمين والأخوائي في علم البصريات والذي لا تقل المصنفات المنسوبة إليه في الرياضيات والفلك والفلسفة والطب عن المائة (١) ، وأهم الكتب التي اشتهر بها كتاب المناظر الذي ترجم إلى اللاتينية وطبع سنة ١٥٧٢ ، وكان له أثر كبير في نشر علم البصريات في العصور الوسطى ، وأغلب كتاب العصور الوسطى الذين خالجوها هذا الموضوع يبنون مؤلفاتهم على كتاب ابن الهيثم الذكور ، وفي مؤلفات روجر بساكون ولزيونارد دي فتشي ويوهان كيلز آثار لهذا الكتاب ، ولقد ناقض ابن الهيثم نظرية إقليدس وبطليموس القائلة بأن العين ترسّل شعاعاً بصرياً إلى الشيء المرئي ، وقال إن شعاعاً ينبع من الشيء للعين ، وقارب في بعض تجاربه حد اكتشاف العدسات الكبيرة نظرياً (٢) .

ومن الطباء الذين ظهروا في هذا العصر أيضاً عمار بن المؤصل والشه كاتب في أمراض العيون عنوانه «المنتخب في علاج العين» وهو مخطوط يوجد قسم منه بمكتبة الاسكندرية (٣) .

كما اشتهر عدد من الأطباء وال فلاسفة من أعظمهم على بن رضوان الذي تولى منصب أرئيس الأطباء في بلاط الخليفة العزيز ، وألف كثيراً من الكتب في الفلسفة والطب .

هورقشون :

وأشتهر كذلك في مصر الفاطمية بعض المؤرخين ، منهم ابن زوالق

(١) ابن الأبيسيمة ج ١ ص ١١ وما بعدها ، والمتقطى ص ١٦٧ - ١٧٨ .
وأبن حكلكلن ج ١ ص ١٢٧ .

Hitti : History of the Arabs pp 744 - 745 (٢)

(٣) نفس الوجه .

الذى ألف كثيرا من الكتب في تاريخ مصر زمن الاخشidiين والفاطميين ، وعنهما أيضا ابن هنحب الصيرفي الذى تولى ديوان الائشاد او اخر العصر الفاطمى ، ويعتبر كتابه « الإشارة الى من نال الرزارة » محة في تاريخ هذا العصر .

شعراء :

وفي هذا العصر ظهر كذلك عدد من الشعراء في مقدمتهم ابن هانىء الاندلسى الذى نظم ديوانا في مدح الخليفة الفاطمى العز الدين الله الفاطمى ، وعنهما كذلك عمارة اليمنى صاحب الديوان المشهور باسمه الذى مدح فيه الخليفة العاشر آخر الخلفاء الفاطميين ، وعمارة هذا هو الذى دبر ثورة ضد الحكم الأيوبي لقوة تعصبه للفاطميين (١) .

شاعر سوريا الفيلسوف :

ومن أبرز شعراء سوريا في هذا العصر أبو العلاء المعري (٣٦٣ = ٩٧٣ - ٤٤٩ - ١٠٥٧) الشاعر الفيلسوف رهين الحسيني (البيت والمعنى) ، وكان قد رحل إلى بغداد في طلب العلم ، ويبدو أنه اتصل فيها ببعض الشيوخ الذين يتوجهون اتجاه المعتزلة وببعض الفلاسفة المتأثرين بالذاهب اليونانية وبفلسفه اليهودية وكان له ولاء أثر في حياته وشعره ، ولم يكن المعري مدحنا للظلام والظلماء بل كان زاهدا به ويروى أنه عندما احتل جيش المستنصر الفاطمى بلدة المعرة قد تم قتاله قائد الجيش إلى المعري ما في خزانة المدينة من مال ، ولكن المعري رفضه (٢) ، وكانت له هيبة عظيمة عند الحكام ، فيروى أنه ذهب مرة ليتوسط لدى صالح بن هراهين ليطلق سراحه ، سرتين من وجهاء المدينة كان صالح قد باعتقلهم ، فاستجاب له صالح في الحال وأطلق سراحهم (٣) .

(١) المرجع السابق ص ٧٤٥ .

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ج ١ ص ٥٩ .

(٣) فيليب حتى تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ٣٤٥ .

- ١٧٥ -

والمعرى هو مؤلف رسالة الغفران التى يُعتقد أن دانتى ألف الكوميديا الالهية على غرارها : وقد التزم المعرى في أكثر شعره الاتجاه الفلسفى ، وله معن سبق بها عمر الخيام ، ومن ناحية القافية التزم المعرى في أكثر شعره ما لا يلزم ، أى جعل قافية مكونة من حرفين ؟ ولذلك سُمى ديوانه « اللزوميات »، أي « يوم لا يلزم » ومن شعره على هذا النسق قوله :

خسكتنا ، وكان المحك هنا سفاهة وحق لأبناء البسيطة أن ي يكونوا
يقطعننا ريب الزمان كأننا زجاج ، ولكن لا يعاد له سببه

الهندسة والغفران :

وفي الفن وهندسة البناء ترك الفاطميين آثارا خالدة في قمتها مدينة القاهرة والأزهر والمساجد الكثيرة التي تحمل أسماء خلفائهم ووزرائهم ، ولا يزال باب زويلة ، وباب النصر ، وباب الفتوح شاهد صدق على ما وصلت له عظمة البناء في هذا العصر ، وقد بلغت القاهرة في عهد الفاطميين شأنها بعيداً من الرقى والتقدم ، فكانت بها الأسواق العاملة والبساتين العناء ، والعمائر الشامخة وغيرها مما أ奇葩 المريزي في ممهديها في خططه .

الزخرفة الإسلامية :

أخذت الزخرفة الإسلامية عناصرها من ثلاثة أشياء :

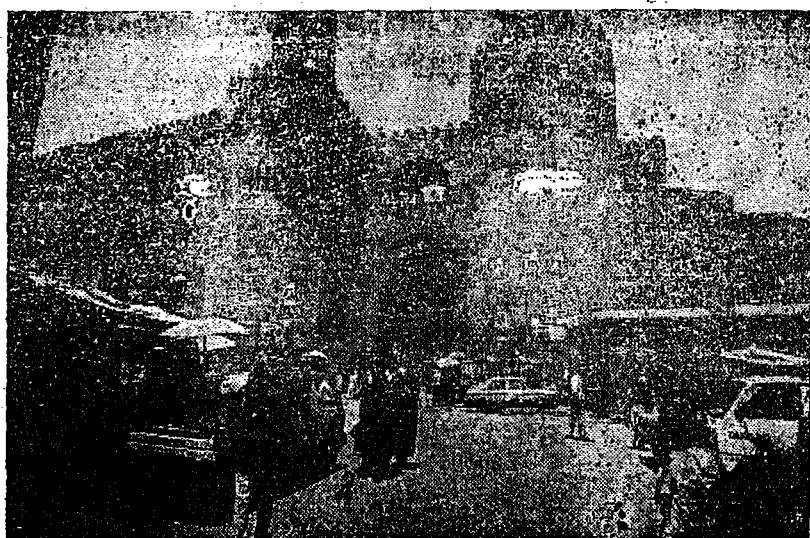
١ - آيات من القرآن الكريم تكتب بالخطوط الجميلة .

٢ - الأشكال الهندسية .

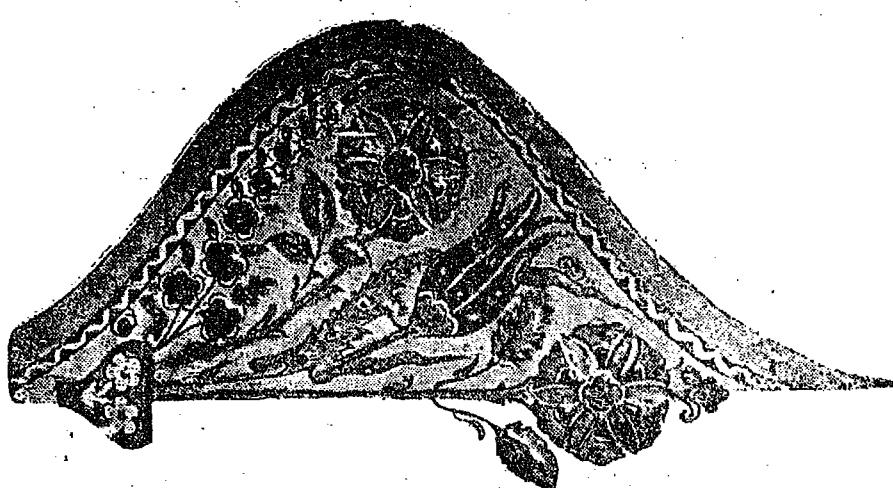
٣ - أوراق الشجر .

ومع هذا بعض نماذج الزخرفة التي ظهرت في الجامع الأزهر وفي غيره من الآثار الإسلامية بالقاهرة .

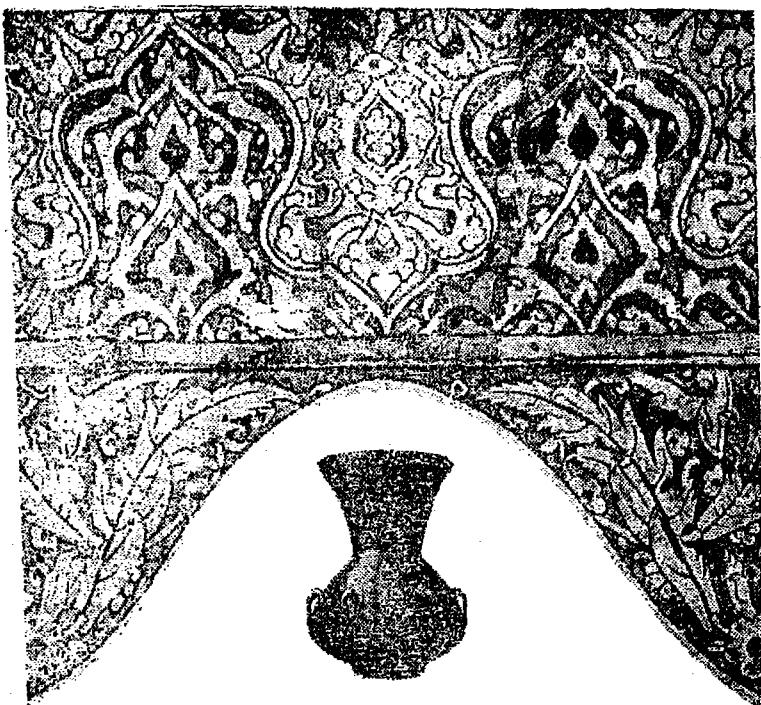
- ١٧٦ -



باب زويلة وجزء من سور القاهرة القديم



آثار زخرفية بمصر



أثار زخرفية بالأزهر
م ١٢ - موسوعة الآثار في مصر

البحرية والترسانة :

وقد ورث الفاطميين بحرية الأغالبة ، كما قلنا في الجزء الرابع من هذه الموسوعة ، ولما جاءوا إلى مصر أدركوا ضرورة تقوية بحريتهم ، إذ هدّدتهم بحرية الروم دائماً ، ولم هذا أنشأ المعز لدين الله ومن جاء بعده ترسانة لإنشاء المراكب الحربية في الروضة وفي الاسكندرية ودمياط ، وكانت بعض وحداتها تسير للمرابطة في الموانئ الشامية مثل عكا وصور وعسقلان ، وكذلك في عيذاب على البحر الأحمر : وأنشأ المعز أيضاً داراً لصناعة السفن بالقسن بنى بها ستمائة سفينة ، وكان على رأس الأسطول الفاطمي عشرة قسّوداد ، عليهم رئيس يدعى أمير الأسطول ، وأفراد للأسطول ميزانية ضخمة ^(١) .

وعنى الفاطميين عناية كبيرة بالصناعات المتعلقة بتجهيز الجيوش وإعداد العدة الحربية التي كانت عبادهم في المحافظة على دولتهم وفي محاولة توسيعها .

صناعات مدنية :

ومن الصناعات المدنية التي اشتهرت في العصر الفاطمي صناعة النسوجات ، وقد بلغت الذروة في الجودة والجمال ، واحتلت بها مدينة دمياط ، وكانت منسوجات مصر تصدر إلى العراق وغيره من البلاد : ولعل من أسباب الاهتمام بالنسوجات أن عادة الفاطميين كانت تجري بتقديم الأكسية لجميع موظفي الدولة في الشتاء والصيف ، ومن أجل هذا أنشأ المعز لدين الله هنرا عرفت بدار الكسوة ، وكانت منسوجاتها تتناسب مع مراتز الذين يستمتعون بهذه الملابس ، ومنهم الوزراء والقضاة ، وكان للفاطميين بجنب دار الكسوة دار تعرف بدار الديباج لصناعة الحرير ، وقد بلغت مخصصات دار الكسوة لعمل الملابس سنة

(١) دكتور على إبراهيم مصر في العصور الوسطى ص ٢٢٢ - ٣٢٣ .

٥١٦ هـ مبلغ ٦٠٠ دينار ، وكانت الحل تقدم للأمـراء والوزراء والأشراف في عيد الفطر ، ولذلك سمي هذا العيد بعيد الحل ^(١) ، وكان الخلفاء يتنافسون في الإنعام على كبار الدولة ؛ وقد روى عن العزيز قوله : أحبب أن أرى الثعم عند الناس ظاهرة ، وأرى عليهم الذهب والفضة والجوهر ؛ لهم الخيل واللباس والضياع والعقار ^(٢) .

وعنى الخلفاء بزركشة الملابس وتطريزها بخيوط من الذهب ومن الفضة أحياناً ، وكانت كسوة الكعبة وملابس كبار الرجال ترددان بالطراز الفاخر ، وامتدت الزركشة إلى الفرش والبسط والخيام وشراعبات السفن ، وكان من أمتعة قصر الخليفة المستنصر الذي نبهه الثوار في أثناء الشدة فسلط الخليفة الظاهر ، وكان منسوجاً من خيوط الذهب ومقاماً على أعمدة من الفضة ، ويبلغت قيمته أربعة عشر ألف دينار ^(٣) .

صناعات معادن :

وعنى المصريون في هذا العصر عنية كبيرة بصناعة المعادن وبخاصة من الذهب والفضة ، كما عنوا بالنقش على الخشب وحفره وتطعيمه بمختلف الأحجار ، وكانت لهم عنية بالغة بصناعة الزجاج والخزف وبالرسم الرائع على هذه الصناعات المهمة ، وقد خلف العهد الفاطمي ألواناً من الصحف ومجموعة رائعة من أواني الذهب ذات النقوش البدعية والأواني الخزفية ذات الرسوم العجيبة مما يشهد لهذا العصر بالتبور والمجد .

أهم آثار الفاطميين :

يعتبر عصر الفاطميين أعنى فترة مصرية بالآثار ، وهو عيد طويل وعرض بإنجازاته وآثاره ، وأهم آثار الفاطميين مدينة القاهرة التي

(١) دكتور علي ابراهيم : مصر في العصور الوسطى ص ٣٧٤ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الظاهرة ج ١ ص ٤١٨ .

(٣) دكتور زكي حسن : كنوز الفاطميين ص ٦٣ .

- ١٨٠ -

كانت تسمى قبل وصول المعز « مدينة المنصورية » ثم أطلق المعز لدين الله
عليها « القاهرة العزيزة » .

الأزهر : التاريخ والفكر :

على أن أهم آثار الدولة الفاطمية هو « الأزهر » الذي لعب دوراً
كبيراً في خدمة الإسلام والمسلمين ، وتجاوز عمره ألف سنة ، وقد وضع
أساسه سنة ٥٣٥ هـ وافتتح للصلوة سنة ٥٣٦ هـ ، وجلس به على بن النعمان
مدرساً سنة ٣٩٥ ثم أعلن يعقوب بن كلس نقله إلى جامعة سنة ٣٧٨
وعين له هيئة تدريس .

وكان يجلس به قاضي القضاة والمحاسب .

وكان الأزهر في أكثر تاريخه يهوى طلاب العلم كل وسائل الراحة ،
فما أن يصل الطالب إلى الأزهر حتى يجد أن مشكلاته قد حلّت ،
فالرواق يضمن له السكنى ، والجراية تضمن له الطعام ، والحلقات
مفتوحة ليختار منها ما يناسبه .

وكان يدرس بالأزهر الفقه الشيعي ويقوم بتدريسه آل النعمان :
ويدرس به التاريخ الإسلامي ويقوم بتدريسه البشحي المصري ،
ويدرس به الحديث ويقوم بتدريسه القضاوي ، وكان هذا يدرس به أيضاً أئمّة
الأنبياء ، وهو العلم الذي يسمى الآن « مقارنة الأديان » بعد نوع من
التعديل في طرق تدريسيّه هذه الأنبياء .

وكان يُدْرِسَ به النحو ، ومن مشاهير من جلسوا لتعليميه
ابن باشاذ والشاطبي .

وكان يُدْرِسَ به الطبل ومهن علم به هذه الاداة الحسن
بن الخطيب و محمد بن الخطيب البندادى .

وهو رائد التاريخ لدى الأزهر صاحبة الشفاعة والسلطان المصريين
وبخاصة خاتمة القاطلة ، وسلطان الملك ، فحتى الأزهر بمزيد من

الأوقاف وأضافوا له أروقة إلى أروقته وزينتها مهاربيه ، كما وهبوا له المنابر والقناديل الثمينة ، وأنتشرت به زخارف غاية في الروعة والجمال ، ولكته عانى بعض الإهمال في العهد الأيوبي وفي العهد العثماني .

وبالأزهر ٢٩ رواقاً للصعايدة والشراقة والبحاروة ٠٠٠ ثم للحرمين وجاءة والسليمانية والمغاربة والأئزاك والمسنارية والجبرية والأكراد والهنود والشمام ٠٠٠

وبه ١٣ محاباً و٦ مآذن و٧ مزاول لعرفة الوقت و٩ أبواب أهمها باب المزينين والمغاربة والعباسى والجوهرية .

ومن أهم مساجد العصر الفاطمى مسجد الحاكم ، وقد أسسها العزيز وأتمه وخطب به وصلى فيه ، ولكن الحاكم أتم ملحقاته وزينته وفرشه فنسب له ، وكان هذا المسجد يقع خارج سور القاهرة ، فلما بني بدر الجمالى سوره أدخل هذا المسجد داخل السور مما يلى باب الفتوح .

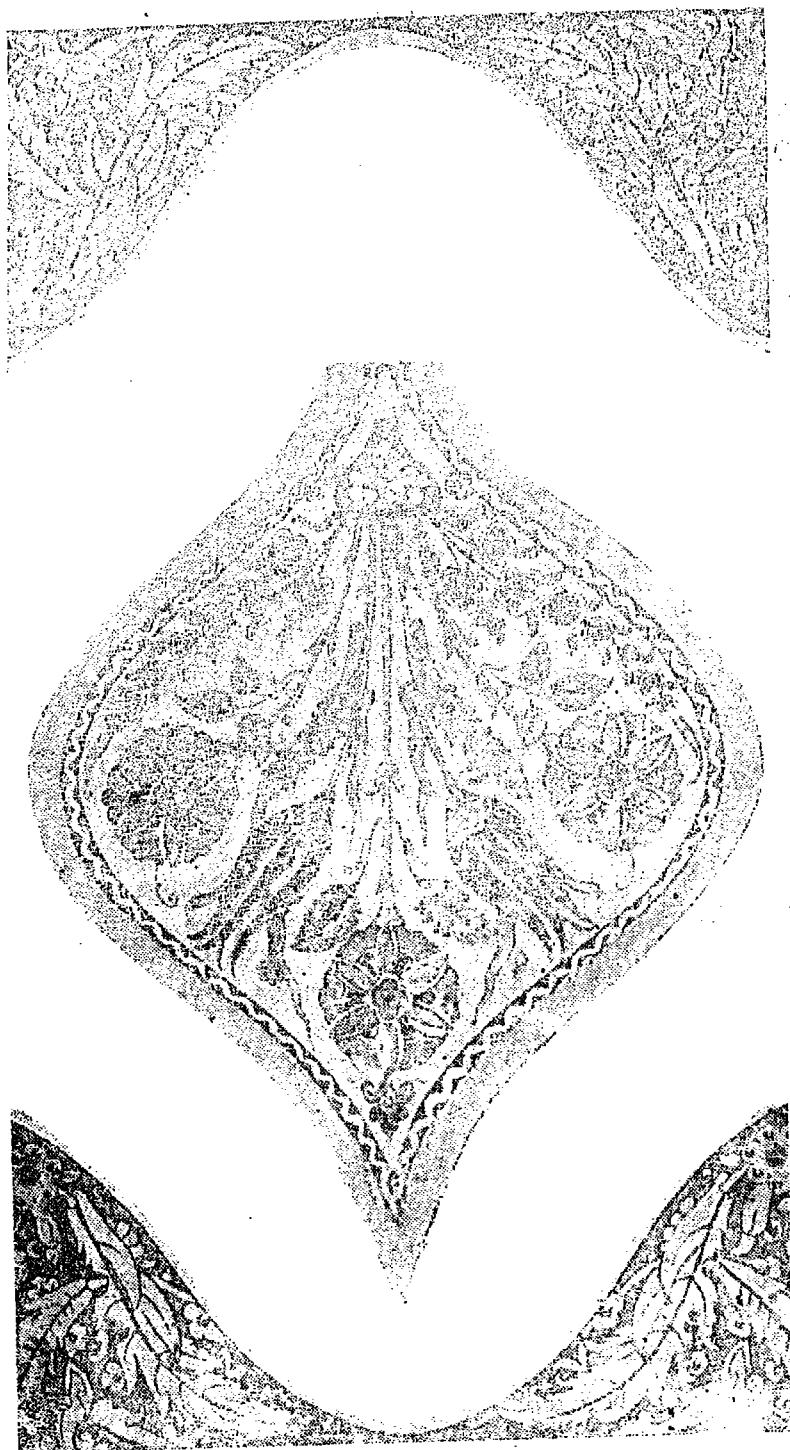
وكان للحاكم مدفن بناء بإشرافه ليدفن به ، ولكنه قُتِّلَ وأُخْفِيَ حثته فلم يدفن فيه ، ومسجد الحاكم يسمى أيضاً الجامع الأنور .

ومن مساجد العهد الفاطمى جامع الصالح طلائع بن رزيك ومشهد الجيوشى وكثير من المشاهد .

ومن الآثار الفاطمية أسوار القاهرة المنيعة ، وأبواب القاهرة : بباب الفتوح وبباب النصر وبباب زويلة .

ملك الفاطميين :

امتد ملك الفاطميين في فترات ازدهارهم من نهر العاصي بالشام حتى حدود مراكش ، ومن منطقة الخرطوم بالسودان إلى آسيا الصغرى ، مما جعل سلطانهم يفوق كثيراً من ممالك ذلك العصر .



آثار زخرفية بالأزهر

الدُّولَةُ الْإِمَارِيَّةُ

(م ١٢٥٠ - ١١٦٩ = م ٥٤٨ - ٥٤)

أصل الأيوبيين :

يُعدّ وفيات الأعيان لابن خلكان من أهم المراجع التي عنيت عناية كبيرة بالأيوبيين ، وبخاصة صلاح الدين ، فقد ترجم ابن خلكان لأكثر أمراء هذه الأسرة وقادتها ، وذكر كل ما يتصل بها في هذه الترجم ، وخصوص صلاح الدين بأطول ترجمة وردت في هذا المؤلف^(١) : حتى يمكن أن تصبح كتاباً قائماً بذاته ، وتمتاز بأنها جمعت من المعلومات ما لم يورده مرجع آخر حتى ابن شداد في كتابه عن صلاح الدين « المحسن اليوسفية » ، وبجانب ابن خلكان هناك كتب كثيرة اهتمت بالأيوبيين إذ كان هؤلاء قادة الدفاع عن الإسلام في الحروب الصليبية ، فوجدوا من المؤرخين المسلمين وغير المسلمين عناية كبيرة ، ومن الكتب الكثيرة عن الأيوبيين نقتبس خلاصة وافية نورس بها لهذا العصر :

تحدر الأسرة الأيوبية من أصل كردي ، وكان شادي جد صلاح الدين وأقدم من نعرف معرفة واضحة في الأسرة^(٢) ، يعيش في بلدة « دوين » من بلاد أذربيجان قريباً من الكرخ ، وكان شادي من خيرة الرجال وذوى المهمة ، وكان له صديق اسمه بهروز ينزل منه منزلة الأخ ، وحدث أن بهروز وقع منه خطأً عوقب عليه ، فلم يستطع بعد ذلك البقاء في دوين ، فهجرها إلى العراق حيث عمل في خدمة السلطان مسعود بن غيث الدين السلجوقى ، وفي هذا البلاط لمع بهروز ؛ فأُنسد له السلطان ولاية بغداد وأقطعه مدينة تكريت : وفي هذا المجد لم ينس بهروز رفيقاً صباح شادي ، فاستدعاه هو وأهله وجعله حاكماً تكريت بالنيابة عنه ، وكان مع شادي ولداً نجم الدين أيوب (والد صلاح الدين) وشريكه ، وتنسب الأسرة الأيوبية إلى نجم الدين أيوب سالف الذكر ، ومات شادي بعد فترة فتولى مكانه ابنه الأكبر نجم الدين ، ولكن حدث خلاف بينه

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ من ٣٧١ وتد اورد ابن خلكان له نسباً وصله إلى آدم ، ولكنه غير موثوق به .

— ١٨٦ —

شيركوه وبين أحد بطانة بهروز المقيمين بتكريت ، فقتله شيركوه : وغضب بهروز لذلك ، وأرسل حاكماً جديداً إلى تكريت وطلب من نجم الدين أن يسلمه السلطان وأن يهاجر من تكريت هو وأهله ، وفي تكريت ولد صلاح الدين ويقال أنه ولد في نفس الليلة التي بدأت فيها رحلة أهله وذويه منها (١) . ولعل موقف بهروز لم يكن فقط بسبب اعتداء شيركوه على أحد بطانته ، بل لإحساسه بنهاي نفوذ نجم الدين وأهله ، وخوفه من عاقبة صلات الود التي كانت تتطور بين هؤلاء وبين سكان المدينة .

الخير لا يضيع :

و قبل أن ندع تكريت نذكر حادثاً وقع بها ، وكان ذا أثير فيما جاء بعد ذلك من أحداث :

كان عماد الدين زنكي أتابك الموصل قد سار بجيشه لمساعدة السلطان مسعود ضد الخليفة العباسي المسترشد ، ولكن عماد الدين زنكي هُزم في المعركة ، وعاد ومعه قلول جيشه يحمل أعباء الهزيمة وخوف المستقبل ، وفي الطريق إلى الموصل مرّ بتكريت في حالة من الألم واليأس ، فألقى بعضاه بها : وأسلم أمره إلى حاكمها نجم الدين بن شادي ، فأكرم نجم الدين وفاته وأحسن استقباله وساعدته على اجتياز دجلة ، وقدم له الزاد والعون ، وأنهى بذلك حيرته و Yashe ، وكان ذلك أيضاً مما أغضب بهروز ، فقد كان بهروز في صف الخليفة ضد عماد الدين زنكي (٢) .

ولهذا نجد نجم الدين عقب خروجه من تكريت سنة ٥٥٣هـ يتوجه إلى الموصل ليستعين على مشكلات الحياة بالرجل الدين له بالعون والمساعدة ، بعماد الدين زنكي (٣) .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ من ٨٤ - ٨٥ .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٧٧ .

(٣) قدرى قلعجي : صلاح الدين الأيوبي ص ٢٨ - ٢٩ .

وفي وحيده عماد الدين قاتلته المؤسسة الأيوبيه ، بعد ألسنتهم قتيلهم
الشيخ يوانكيوه شيريكوه من خصوصية القواد ، ويقطن عمام الدين بعد ذلك والختلفة
أولاده من بنيه ، يذكر في ذكر نور الدين تسلبه عماله ، ولكن لغيره من المسلمين
حالاته اليه المطواطي وتأثر ذلك بعلاقة الشريعة ، وإنما ذلك
أن فتحم دمشق لله ولله مفتح ، مما يفتح الدين بسلطان طوفوه عليه
والخلافه ، حتى حمله لفتحه المزعنة ، لكنه لم يفتح في الملة والمسيحيين ، مما
يختلف القرآن الكريم وزانزوري باسمهم الشرقيه ، بالإنابة إلى هنالك ...
للشريعة والمسيء والرسوبي والرسوبي ... ويشير هنا من خرورات العطاوه .

الأيوبيون في مصر :

سيطر نور الدين على حلب ثم على دمشق كما سبق القول ، ورأى
أن سيطرته على مصر ضرورية ليكمل التقاضي جسول الصليبيين هشى
ويستطيع أن يقضى عليهم ، وليسعني بثراء مصر في مشروعاته ، ثم لينشر
المذهب السنى بها بدل مذهب الفاطميين .

وقد أتاحت فوضى الوزارة في مصر إبان عهد العاصد الفرصة لنور
الدين ليتدخل في شئونها ، وبلغت حملات نور الدين على مصر
ثلاثاً كانت كلها بقيادة أسعد الدين شيريكوه ومعه ابن أخيه
صلاح الدين ، وكانت الحملة الأولى سنة ٥٥٩ استجابة لطلب شاور الذى
هرب إلى الشام من وجه ضراغم واستجده بنور الدين ، وحضرت هذه الحملة
إلى مصر مع شاور وقضت على ضراغم ، ولكن شاور لم يوف بوعده لنور
الدين ، وسرعان ما أُنقلب ضد الدين أعادوه إلى السلطة ، وبلن من خيانته أن
استعن بالصلبيين لينقذوا البلاد من جيش نور الدين ، فحضر له الجيش
الصلبي الذى كان قد أعد لمساعدة ضراغم ضد شاور ، وطرق الصلبيون

جيش أسد الدين شيركوه في بلبيس ، ولكن نور الدين أعد العدة لهاجمة الصليبيين في الشام فخاف هؤلاء ، وأخيراً اتفق الطرفان على إخلاء مصر ، ونفذ الاتفاق .

أما الحملة الثانية فكانت سنة ٥٦٣هـ ، وقد حضرت لمقاومة الصليبيين الذين عادوا إلى مصر بناء على طلب شاور ليثبتوا عرشه الذي كان يهتز تحته ، وحدثت بين الجيشين معركة كبرى هي معركة «البابين» بالقرب من المنيا ، وقد انتصرت جيوش نور الدين انتصاراً كبيراً ، وعقب ذلك انسحب الصليبيين تجاه الشمال لأنها تريد العودة إلى فلسطين ، وبقي شيركوه ببعض الجيش في المنيا أما باقي الجيش فقد قاده صلاح الدين إلى الإسكندرية لرد هجوم صليبي آخر ونفذ من صقلية ، وانتهز الجيش الصليبي المنهزم هذه الفرصة فأسرع خلف صلاح الدين ، وبذلك حاصر صلاح الدين بالإسكندرية ، ومررت فترات قاسية بصلاح الدين أظهر خلالها ضرورياً من البسالة وظهرت فيه شخصيته وحسن ادارته ، وتحطم الحصار لاصراره من جهة ، وإسراع عمه لمساعدته من جهة أخرى ثم لم يحوم نور الدين على القدس من جهة ثالثة ، وتم الاتفاق بين جيش نور الدين وبين الصليبيين على إخلاء مصر مرة أخرى : ونفذ الاتفاق .

أما الحملة الثالثة فكانت سنة ٥٦٤هـ ، وكان سببها أن خالقاً وقع بين شاور والفرنجة لأنه لم يوف لهم بما تعهد به اليهم من أموال ، فهاجم الفرنجة مصر واحتلوا بلبيس ، وأعملوا في سكانها القتل والسلب ، وحينئذ اتصل الخليفة العاضد سراً بنور الدين زنكى وطلب عونه ضد الصليبيين وضد شاور ، فحضر شيركوه لثالث مرة ، وتردد صلاح الدين هذه المرة في مصاحبة لما عاناه إيان الحصار في الإسكندرية ، ولكنه عاد وقبل .

الحضور ، وقد ظاهر شاور بالترحيب بهذه الحملة وذهب لاستقبال شيركوه ، ولكن صلاح الدين قبض عليه وصدرت أوامر الخليفة بالقضاء عليه فقتل ، وأسندت الوزارة إلى شيركوه ، ولكن هذا مات بعد شهرين فاتلت الوزارة إلى صلاح الدين ، وتواتت الأحداث على ما ذكرنا في نهاية الدولة الفاطمية ، فقد قطع صلاح الدين الخطبة للمفاطميين ، وخطب باسم الخليفة العباسى وأسم نور الدين ومات الخليفة العاكس عقب ذلك ، وعادت مصر إلى أحضان المذهب السنّى .

صلاح الدين يمكّن سلطانه :

بدأت سلطة صلاح الدين بمصر سنة ٥٦٤هـ ولكنه لم يُسقط الخلافة الفاطمية إلا سنة ٥٦٧هـ، ومعنى هذا أنه مرت ثلاثة سنوات كان السلطان على مصر من الناحية العملية في يد صلاح الدين، ولكنه كان يعترف بال الخليفة الفاطمي، وكان في نفس الوقت تابعاً لنور الدين زنكي وقائداً من قواده، وكان صلاح الدين لهذا يدعو للاثنين في الخطبة، كما كان يضم الخطط للتخلص من الاثنين جميعاً، ولكن كان عليه قبل كل شيء أن يمكن لسلطانه في البلاد ليكون ذلك عوناً له فيما سيقابلها من مشكلات.

بدأ صلاح الدين ذلك بأن أظهر العدل بين الناس وعاملهم بكل رحمة والسبايا ونبيل الصفات ، وأظهر التسامح مع أتباع المذهب الشيعي الذي كان منتشرًا بالبلاد ، كما سوى في معاملته بين أتباع الديانات المختلفة فأبهر زفافه أصيلة في نفسه هي التسامح الديني ، وأنجح للأقباط حرية التدين إلى أقصى حد ، وكان من نتائج ذلك أن أحبه الأقباط محبة شديدة حتى ليذهب أحمد زكي (باشا) إلى أنهم وضعوا صورته في كنائسهم ، ويستشهد على ذلك بأدلة كثيرة منها أن الشاعر عبد المنعم الأندلسى زاد

١٩٠

مصر في ذلك الحين فدهش لما رأه من حب القبط لصلاح الدين ، فنظم تصييدة طويلة في هذا المعنى جاء فيها :

فَحَاطُوا بِأَرْجَاءِ الْمَيَالِكِ صُورَةً لَكَ اعْتَدُوهَا كَاعْتِقَادِ الْأَقْانِمِ (١)

وأتجه كذلك بجهوده نحو المصريين جميعاً فرفع عنهم المظالم ، وخفف الضرائب والماوس التي كانت ترهقهم ، وأصدر أوامره بأن تكون جبائية الضرائب بمصر بيسير وبسهولة ، واستعمال بذلك قلوب الناس ، كما بذل الأموال مما كان أسد الدين شيريكوه قد جمعه ، وطلب من العاضد شيئاً يخرجه للناس فاستجاب له العاضد راضياً أو كارها ، وفي هذه الائتماء كان صلاح الدين يقف من الصليبيين موقفاً حازماً ، فقد رد بعنف عدوائهم على دمياط ولم يقف طويلاً موقف الدافع ، وإنما راح يهاجم الصليبيين في معاقلتهم ، فابتداً بذلك طور جديد في تاريخ الحروب الصليبية ، وأصبح الفرنجة مدافعين وكانوا من قبل مهاجمين ، وطالما غنم منهم الغنائم في هجماته وأمكن منهم تجار المسلمين وأرضهم ، وبهذا أقبل المصريون على صلاح الدين وأحبوه واتخذوه لهم زعيماً وقائداً ، ناصروه والتقووا حول رايته وتلبياً له بذلك أن يخطو في أمن نحو أهدافه .

مُرْزَلُ الْعَاصِدِ :

أصبح العاضد مسلوب السلطة ، ولم يبق له إلا اسم هزيل يذكر في الخطبة ، وبجواره اسم ناصر الدين السنى الذى يخطب في بلاده لخلفاء بنى العباس ، وأصبح أمر مصر بيد صلاح الدين السنى كذلك ، فكان ذلك أمراً عجباً ، وللهذا ما ان أحسن صلاح الدين باستقرار الأمر له حتى فكر في القضاء على هذا الخيط الضئيل الباقى من الفاطميين ، وبخاصة أن نور الدين زنكى كان يبحث صلاح الدين من حين إلى حين

(١) نثلاً عن صلاح الدين الايوبي لقدری تلعرجى ص ٤٣ .

أن يخطو هذه الخطوة . وكان العاشر آنذاك مريضاً منزوعاً في بيته ، ويروى أن صلاح الدين أحسن بشئ من التردد في اعلان عزل العاشر وإسقاط الخلافة الفاطمية ، فلأوزع إلى أحد أتباعه أن يفعل ذلك في أحد المساجد ليرى رد الفعل عند الجماهير ، ولكن أحداً لم يحرك ساكناً ، مما دعا صلاح الدين أن يأمر جميع خطباء المساجد أن يفعلوا ذلك في الجمعة التالية ، وكان ذلك سنة ٥٦٧ هـ (١) .

وكان العاشر آنذاك قد أشتد مرضه فلم يتعلّم أهله وأصحابه بذلك ، وقالوا إن سلم فهو يعلم وإن توفي فسلاً ينبغي أن نتفق عليه هذه الأيام التي بقيت من أجله ، فتوفى يوم عاشوراء ولم يعلم ، ولما توفى جلس صلاح الدين للعزاء ثلاثة أيام واستولى على قصره فوزع بعض ما بالقصور على قومه وأتباعه ، وأعتق بعض الجنواري ، ونقل أهل العاشر إلى مكان خاص ووكل بهم من يحفظهم وأغدق عليهم الخيرات ، أما مكتبة القصر فقد وكلها صلاح الدين إلى القاضي الفاضل فأبقي منها ما أبقي ، وأحرق ما يبالغ في التشيع ، وباع بعض محتوياتها وأدخل ثمنه في بيت المال (٢) ولم ينتقل صلاح الدين إلى دار الخلافة وإنما بقي بدار الوزارة حيث كان .

وسار صلاح الدين في استكمال الخطوات التي تتبع اسقاط الفاطميين والحق مصر بالخلافة العباسية ، فخطب للخليفة المستضيء بالله العباسى ، وعزل القضاة الشيعة وأقام قاضياً شافعياً في القاهرة ، فاستتب هذا عنه القضاة الشافعية في جميع البلدان (٣) ، ويقول المقريزي إن صلاح الدين هو من القضاء لصدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعى ، فلم يستتب هذا عنه في أقليم مصر إلا من كان شافعى المذهب ، فاختفى

(١) أبو شامة : الروضتين ج ١ من ٢٩٤ .

(٢) ابن خلكان : المرجع السابق من ٣٨٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٥٦٧ .

— ١٩٢ —

مذهب الشيعة حتى فُقدَ من مصر كلها ، ومن منشآت صلاح الدين المرتبطة بذلك مدارسه الشافعية التي أقامها في مصر ، ومنها المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق والقمحية والسيوفية والناصرية بالقرافة ، والصلاحية ببيت المقدس ، والصلاحية بدمشق (١) .

ذبائح الفاطميين :

على الرغم من أن مصر قد استجابت لصلاح الدين وأسدلت السhtar على التشيع ، الا أن فئات خاصة أحست بخسارة تصييبها بسبب زوال الفاطميين ، فلا غرو أن يبدأ هؤلاء بإثارة المتابعين في وجه صلاح الدين لعله يكون من الممكن أن يعودوا بمقرب الساعة إلى الوراء ، وأهم هذه المؤامرات تلك التي قام بها نجاح الخصي الأسود الملقب « مؤتن الخليفة » الذي كان زعيماً للسودانيين في مصر ، فيروي أنه كتب للفرنجية يطلب منهم التزحف على مصر ، ووعدهم بأن يضرب صلاح الدين من الخلف عندما يتوجه هذا لمقابلتهم ، بيد أن رسالة مؤتن الخليفة وقعت في يد رجال صلاح الدين ، فأدرك صلاح الدين ما يراد به ، وعرف ما يكتبه له مؤتن الخليفة من خيانة وغدر ، فأوزع إلى بعض رجاله بالقضاء عليه ، وتم له ما أراد .

ولكن القضاء على مؤتن الخليفة أثار الجنادل السودان ، وكانوا أكثر من خمسين ألفاً ، وكانوا إذا قاموا على وزير أذلوه واستباحوه وبربما قتلواه (٢) ولكن صلاح الدين لم يكن من طراز هؤلاء الوزراء المفسدين ، بل هب يكسر صولة هؤلاء الثنائيين وأوزع إلى بعض أخواته ما توجهوا إلى المحلة التي يعيش بها السودان وأشعلوا فيها النار ، وهرع

(١) الخطط ج ٢ ص ٣٦٣ - ٣٦٥ والنعيimi ٣ : ١٠ والأنس الجليل ٢ : ٣٩٣ واقرأ كذلك تاريخ التربية الإسلامية للمؤلف من ١٠٤ - ١٠٥ .

(٢) عماد الدين بن شداد : المحاسن اليوسفية ص ٧ .

— ١٩٣ —

السودان لينقذوا نسائهم وأطفالهم ، وطاردهم صلاح الدين في تقهقرهم فقضى على الكثيرين منهم وقبض على بعضهم ، ولكن سطوة السودان لم تنته بهذه المعركة فان كثيرين منهم فروا إلى الوجه القبلي ، وبذلك ظل الصعيد مثار شغب وأضطراب على صلاح الدين حوالي ست سنوات ، وذئن يترעם السودانيين في هذه الحركات رجل يسمى كفرن الدولة : وهو من أبناء الصعيد ، ولم تنته هذه الفتنة بالصعيد إلا سنة ٥٧٠هـ و كان الملك العادل أبو صلاح الدين قائداً لجيوش أخيه في هذه المعارك .

ومن الحركات التي أثارت المتابع في وجه صلاح الدين تلك الحركة التي قام بها الشاعر عمارة اليمني ، فقد استطاع عمارة أن يضم إليه كثيرين من التأثيريين على الدولة وبعض السودانيين والتركمان وبعض الأكراد الذين دب في نفوسهم الحسد ضد صلاح الدين ، وأن يضم كذلك بعض الذين كانوا كبار موظفي الدولة الفاطمية : أمثال عبد الجبار بن إسماعيل داعي الدعاة ، وابن كامل قاضي القضاة وغيرهما ، ثم اتصل عمارة اليمني بقوى الأعداء بالخارج يستجدى تعاونهم معه ، فاتصل بملك الفرنجة ببيت المقدس ، وبملك صقلية النورماندي ، وبراشد الدين سنان رئيس الاسماعيلية الحشاشين ، ويمكن القول إن هذه كانت أعنف الحركات التي تعرض لها صلاح الدين ، وبخاصة هجوم أسطول صقلية الذي حاصر الإسكندرية وقسماً في خربها بالمجانيق والدبابات مدة ثلاثة أيام ، ولكن صلاح الدين استطاع أن يتعجب على هذه الفتنة ، وساعدته الظروف إذ اضطرب توقيت العمارات الخارجية ، وقضى صلاح الدين على الهجوم الصقلي قبل أن يبدأ زحف الفرنجة ، ثم قبض على المتأمرين وأنزل بهم صوراً من العقاب ، وقتل عمارة اليمني سنة ٥٦٩هـ .

بين صلاح الدين ونور الدين :

عندما تخلص صلاح الدين من الفاطميين ، كان عليه – ليكمل سلطانه – أن يتخلص من سيادة نور الدين زنكي ، وكان نور الدين زنكي

١٩٤ -

يحس بأن صلاح الدين بدأ يعمل لحساب نفسه أكثر مما يعمل لحساب السلطة التي أرسلته إلى مصر ، وقد ظل صلاح الدين يعمل في جبهتين في وقت واحد ، فهو من جهة يدعم سلطانه ويقوى نفسه ، وهو من جهة أخرى لا يقطع حبل الود مع نور الدين بل يذكر اسمه في الخطبة ، وينقشه على السكة ، ويســـترضيه بالهدايا والتحف النفيـــســـة .^(١) ، ولعل أولى الخطوات التي أثارت الشكوك في نفس نور الدين كانت ذلك الطلب الذي تقدم به صلاح الدين إلى نور الدين بطلب إيفاد والده إليه ، وتبع ذلك مطالب مماثلة كطلب إيفاد أخوهه وذويه ، وقد أحس نور الدين من ذلك أن صلاح الدين يريد تثبيـــت نفسه ودعم سلطانـــه واستقرارـــه بمصر ، ولكن نور الدين لم يمانع في إرسال أسرة صلاح الدين حتى لا يعلن تخوفـــه من قائدـــه .^(٢)

وأخذ صلاح الدين بعد ذلك يعد نفسه لمواجهة مستقبل علاقاته بنور الدين ، مع احتمال الدخول في مشكلات حربية ضـــدـــه إذا عجزـــت أساليـــب السياســـة عن التوفيق ، ولذلك أخذ ينشـــيء قلعة عظيمة على إحدى قمم المقطم لينقل لها مسكنه ودواؤـــنه وليتمكنـــ منها إذا دهمـــه خـــطر ، كما أخذ يبني سوراً حول العواصم الإسلامية الكبرى بمنطقة القاهرة ، وهي الفسطاط والعـــســـكـــرـــ والقطائعـــ والقاهرة .

وراح صلاح الدين يضم المناصب الكبيرة في الجيش والإدارة في أيدي أهله وذويه وصفوة أتباعـــه ليجعلـــ منهم ستاراً بشرياً يحمـــيه بالإضافة إلى الحصون والأسوار .

ويلاحظ في هذه الفترة أن نور الدين كان يضع الخطط ليلتقى بصلاح الدين في فلسطين ، وأن صلاح الدين كان يتهرـــبـــ من هذا اللقاء مخافةـــ أن

(١) ابن وأصل : مخرج الكروب ص ٥٠ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٨١ .

يُعزله نور الدين أو يقبض عليه وهو بعيد عن مصر حصنه الحصين ، وقد تكررت محاولة نور الدين وتكرر معها ثهرب صلاح الدين ؟ ومن ذلك أن صلاح الدين خرج مرة ليهاجم الفرنجة في مدينة الشوبك بفلسطين رجاءً أن يستعيدها منهم حتى يعيد الطريق التجاري بين مصر والشام ، وقد نجح صلاح الدين في حملته ، وبناته علم أن نور الدين شادم لمساعدته فأسرع بالعودة إلى مصر ، وقد كان في هذا دليلاً على اتجاه صلاح الدين مما أحفظ نور الدين عليه .

على أن نور الدين أراد أن يتثبت من الأمر فأرسل إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها إلى منازلة الفرنجة عند مدينة الكرك وذكر أنه هو سيقدم لি�ساعد صلاح الدين في هذه المعركة من ناحية الشمال ، وقد قبل صلاح الدين في بادئ الأمر ، ثم عاد ونكل من مدعياً أن خروجه سيعطي الفرصة لشيعة العلوين ليقوموا بحركة مضادة له ، ولكن هذا العذر لم يكن مقبولاً لدى نور الدين وتأزمت الأمور ، وأشيع أن نور الدين سيقدم على مصر ليسترد ها من قائد المتمرد ، فجتمع صلاح الدين أهله وذويه ليستشيرهم في الأمر ، فقال تقى الدين عمر ابن أخي صلاح الدين : إذا جاء نور الدين قاتلناه ومنعناه من دخول البلاد ، ووافقه غيره من أهله ، ولكن نجم الدين أيوب (والد صلاح الدين) صاح فيهم منكراً ذلك ، واستعظم هذا القول ، وقال : لو حضر نور الدين لترجمانا له وقبلنا الأرض بين يديه ، ولو أمرني أن أضرب عنق ابني لفعلت ، وهذه البلاد لنور الدين ، ولو أراد عزل صلاح الدين لسمعنا له ولأطعنا ، ونصح نجم الدين ابنه أن يرسل لنور الدين يقول له : بلغنى أنك تريد التحرك لسترد مصر مني فأى حاجة إلى هذا ؟ يرسل المولى مندوياً يضع في رقبتي منديلاً ويأخذنى إليك ، فما هنا من يمتنع عليك .

وكتب صلاح الدين بذلك ، وكتب عيون نور الدين إليه ما سمعوه

- ١٩٦ -

من تجم الدين ، فهدأت الأحوال وتحسن العلاقات (١) . على أن انتظار صلاح الدين لم يطل فلن نور الدين مات سنة ٥٦٩ وخلا الجو لصلاح الدين من هذا الخصم الخطير .

بعد نور الدين :

لقد تركت وفاة نور الدين فراغاً كبيراً في هذه المنطقة الخطيرة والفترة الحرجة ، فقد كان رجلاً عظيماً أرهق الفرنجة ، وأنزل بهم كثيراً من الهزائم ، ولم يكن هناك من يملأ هذا الفراغ بسهولة ، فابنه إسماعيل الذي نودى له بالسلطان بعده كان في الخامسة عشرة من العمر ، وكانت حمايته والإشراف عليه موضع نزاع بين كمشتكين الأتابك وشمس الدين محمد عبد الله بن المقدم ، وكان سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى (ابن عم إسماعيل) مستبداً بالوصل وشمس الدين على بن الدايمى على قلعة حلب : ولم يكن صلاح الدين حتى ذلك الوقت أعظم شهرة من هؤلاء ولا أثبت قدماً ، بل كان واحداً من الطامعين ، ولكن حركة التنازع بالشام كانت خطيرة ، إذ كان الفرنجة واقفين بالمرصاد ، يتربصون الفرسن للكسب والتدخل ، وكان المتنازعون للأسف يلجأون للفرنجة طالبين المعون والنجدة ضد بعضهم البعض ، وقد وصف صلاح الدين هذه الحال للخليفة العباسي أبلغ وصف بقوله : وتوافت علينا الأخبار بما الملكة النورية عليه من تشعب الآراء وتوزعها ، وتشتت الأمور وتقطعتها ، وإن كل قلعة حصل فيها صاحب ، وكل جانب قد طمع إليه طالب ، والإفرنج قد بنوا قلاعاً يتخطفون بها الأطراف الإسلامية ، وينصرون بها البلاد الشامية ، وأمراء الدولة النورية قد سجن كبارهم وعوّقوها وصودروا ... (٢) .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٨٥ .

(٢) عماد الدين بن شداد : المحسن اليوسفية ص ٦٧ .

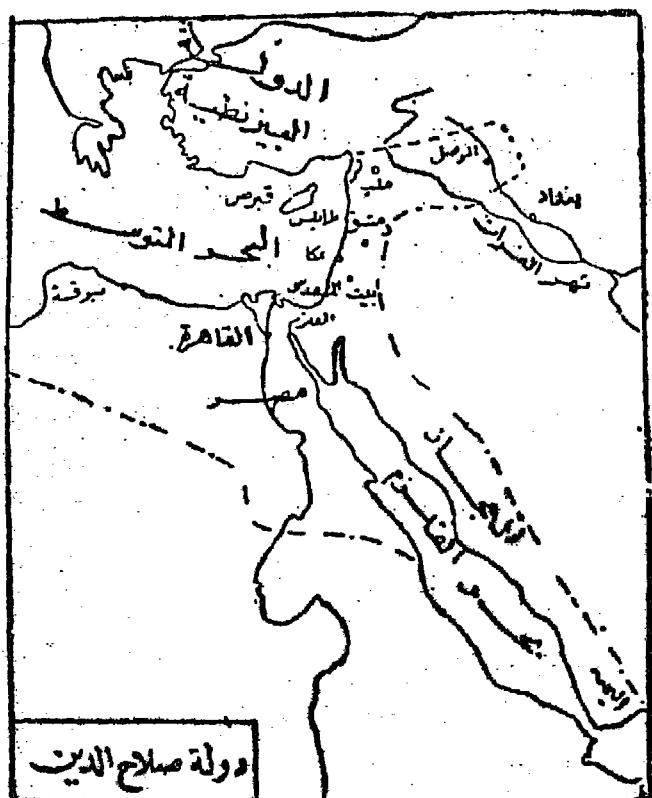
وفي وسط النزاع بين قواد نور الدين رأى ابن المقدم بدمشق أن كفة كمشتكين رجحت فاستطاع أن يمسجن ابن الظاية ويستولى على حلب ، ثم خاف ابن المقدم عاقبة ذلك على نفسه وأتباعه فأرسل إلى سيف الدين غازى يطلب منه أن يحضر إلى دمشق ليحكمها وينجيها من كمشتكين ، ولكن سيف الدين لم يستجب له ، فأرسل هذا يدعو صلاح الدين لذلك ، وكانت مصر آنذاك تنعم في ظله بالاستقرار ، مما رجح كفته إذا قيامت بالاضطراب الذى غمر بلاد الشام ، وأيّد الخليفة العباسى هذه الدعوة فزحف صلاح الدين للشام سنة ٥٧٠هـ بعد أن هادن الفرنجة ، وخاض فى الشام بعض المعارك كتب له فى نهايتها النصر المؤزر ، ودانت له بلاد الشام فيما بين ٥٧٠ و ٥٧٣ وامتد نفوذه إلى الموصل ، ثم استولى على حلب سنة ٥٧٩ بعد وفاة اسماعيل ابن نور الدين (٥٧٧) : وبذلك امتد سلطانه من النيل إلى الفرات فيما عدا معاقل الفرنجة ، وقد أحسن صلاح الدين إلى الأمراء المهزومين وتصالح مع بعضهم ومنهم المال والإقطاع ، وكتب له الخليفة العباسى بالولاية على مصر والشام .

صلاح الدين يوسف مملكته :

تكلمنا آنفا عن تأسيس مملكة صلاح الدين على أنقاض مملكة نور الدين زنكي ، ولكن صلاح الدين كان أبعد طموحا ، فقد أراد أن يضم إلى المملكة التي ورثها عن نور الدين ممالك أخرى وبقايا لم يسبق لنور الدين أن حكمها ، وقد استطاع صلاح الدين أن يحقق هذا الحلم خلال سلطانه بمصر ، وكان أبرز هذه البقاع ما استعاده صلاح الدين من الفرنجة بالشام وما أنزله بهم من خسائر سارت بذكرها الركبان وقوضت صرح حياتهم ، وفتحت الطرق لمن جاء بعده ليكمل رسالته ولزييل هذا الكابوس من أرضنا المقدسة : وسنكلم عن هذه الانتصارات في بحثنا عن « الحروب الصليبية » .

وبجانب الأرض المقدسة التي استعادها صلاح الدين من الفرنجة

مدة صلاح الدين مملكته إلى يقانع أخرى خلال حكمه بمصر ، فقد أرسل أخيه طوران شاه إلى شواطئ شمالى إفريقيا فاستولى على سواحل طرابلس وتونس حتى مدينة قابس من التورماندين سنة ٥٦٨ ، ثم أرسله إلى بلاد النوبة والسودان فاستولى عليها ، ثم بعث به إلى اليمن فاحتلها وضمهما إلى سلطانه سنة ٥٦٩ ودانت له كذلك الحجاز التي كانت تابعة لمن يستولى على السلطة بمصر منذ العهد الإخشيدي كما سبق القول .



رجال صلاح الدين :

أنتجت أسرة صلاح الدين الأيوبي مجموعة من الأبطال في السياسة وال الحرب ، كانوا خير عون لصلاح الدين في المهام التي حملها ، ويعتبر

والده نجم الدين أيوب رجل حكمة من الطراز الأول ، وقد لعب دوراً كبيراً في تهدئة الأحوال بل توثيق العلاقات بين ابنه وبين نور الدين على ما رأينا ، وقد إخوة صلاح الدين جيشه وحققوا له ألواناً من النصر في معارك عهده ضد الصليبيين وفي اليمن وشمال إفريقيا : ويعتبر العادل سيف الدين وطوران شاه أخواً صلاح الدين في القمة بين رجاله .

ومن رجال صلاح الدين كذلك وزيره بهاء الدين قراقوش ، وكان بطلاً عظيماً ، خاض المعارك مع صلاح الدين ، وبنى سور القاهرة وقلعة الجبل (قلعة صلاح الدين) وقنطر الجيزة ، وكان والياً على عكا عندما اقتحمتها جيوش الصليبيين ، فوقع في الأسر وافتداه صلاح الدين بعشرة آلاف دينار ، وقد جرت الأساطير بتعسفه وظلمه ، ولكن في الحقيقة ليس كذلك ، ولا يوجد دليل على صحة هذا الادعاء ، ومن رجال صلاح الدين الكاتب الشهير ابن العماد الأصفهانى الذى خدم من قبل نور الدين ، ثم رافق صلاح الدين فى حملاته جميعاً ، وقد كتب مؤلفاً أخر به لفتح القدس يسمى « الفتح » أو « الفتح القوى فى الفتح القدسى » ، ومع عنايته بالمحسنات اللغظية فيه ، ي تعد من أوئل ما يصور هذا الفتح العظيم ، وله ديوان شعر كبير ، وأعظم شعره ما صوّر به الحروب الصليبية ، وترجم عن الفارسية كتاب « فتور زمان الصدور وصدور زمان الفتور » لأنوشروان بن خالد فى تاريخ السلاجقة .

ومن رجال صلاح الدين كذلك بهاء الدين بن شداد الذى كتب سيرة صلاح الدين ، والقاضى الفاضل وكان أيضاً من رجال الفاطميين ، ثم عنى بالإدارة فى عهد صلاح الدين ، ومنهم الفارس أسامة ابن منقذ ، مؤلف كتاب الاعتبار ، وقد كان من رجال نور الدين ثم انضم تحت لواء صلاح الدين ، وهو يصور فى كتابه هذا مغامراته فى الحرب والسلم ، وفي الطرد بصورة خاصة .

إن رجال صلاح الدين كانوا صفووة ممتازة ساعدت الرجل العظيم على تحقيق آماله .

شخصية صلاح الدين

يُبْرِزُ الفرببيون عند حديثهم عن صلاح الدين أنه كان كريماً، ويريدون بذلك خلق عملية انعزال بينه وبين العرب، وهذه مغالطة يتبينها إبراز زيفها، ففي المجتمع الإسلامي التقت جنسيات عدّة، وأغلبها انماع في هذا المجتمع وأصبح جزءاً منه، حتى هؤلاء الذين تماسكونا حيناً كالمماليك والبوهيميين والسلاجقة آل أمرهم إلى الذوبان في هذا الخضم الآخر، ولقي حتفه منهم من حاول أن يستمر على انعزاليته وهو في وسط البحر الصاخب.

على أن صلاح الدين الأيوبي ولد في أرض عربية، ودرج في القلوات العربية، وتربيَ على التقاليد الإسلامية، وتطورت حياته على النمط العربي الإسلامي، وكانت الآداب العربية متعنته، أفسح لها فازدهرت في قصره وعهده أيماء ازدهار، وكان أكثر جنده من العرب، وبعضهم من قوميات مختلفة، ولكن اللغة العربية كانت لغة الجميع، والثقافة الإسلامية كانت البوتقة التي انصهرت فيها كل هذه الجموع، فخدوا يُهُرَّفون بها وفي ظلها يجاهدون^(١).

وتأثير صلاح الدين بالجماعة التي عاش بينها وأصبح في النهاية قائداً لها، وأثر في هذه الجماعة كذلك، وإن الباحث إذا عَدَّ صفات صلاح الدين وأخلاقه، يجد ما مزيجاً من شهامة العرب وسمحة الإسلام، ومن مواهب صلاح الدين الشخصية، القيادة الماهرة، والسياسة البارعة، وحب العفو، والوفاء للصديق، والنبل مع العدو مع الكرم السافر والعلم الراهن، ومع تشجيع العلم ورعاية العلماء، وهذه كلها صفات نجدها في كثير من القادة المسلمين متقاربة أو متفاوتة بتفاوت شخصياتهم، وقد احتفى كتاب الغرب وملوك الغرب بصلاح الدين وسيرته على نحو ما

(١) قدرى قلعجي: صلاح الدين الأيوبي ص ٥٥.

احتقى به المسلمون ، فقد كان الجانب الإنساني بصلاح الدين موضع دهشة الغربيين في فترة لم يكن للجانب الإنساني فيها مجال .

أما بطولة صلاح الدين ، واحتماله الشدائـد ، وتخطيـه للنجاح ، فقد فاقت كل وصف ، لقد أحدث صدعاً ضخماً بجبهـة الفرنـجة ، ولم يلـتـمـ هذا الصـدـعـ بـدـهـ ، بل ظـلـ يـتـسـعـ فـيـ عـهـدـ منـ جـاهـراـ بـعـدهـ وـسـارـواـ سـيـرـتـهـ ، حتى هوـيـ ذـكـرـ الـصـرـحـ الذـيـ بـنـاهـ الفـرنـجةـ فـيـ أـرـضـنـاـ الطـيـبـةـ .

وليس من شك في أن ثلاثة صـيـلةـ هـنـ أـمـرـاءـ الـمـسـلـمـينـ يـمـكـنـ أـنـ تـفـارـعـهـ منـ حـيـثـ تـجـرـدـهـ عـنـ آـيـةـ نـزـعـةـ إـلـىـ الـكـسـبـ الشـخـصـيـ ، وـمـنـ حـيـثـ اـنـصـارـافـهـ إـلـىـ خـدـمـةـ الـدـوـلـةـ وـرـعـاـيـاهـاـ لـيـسـ غـيـرـ ، وـلـمـ يـسـطـعـ أـعـدـاؤـهـ أـنـفـسـهـ إـلـاـ الإـقـارـارـ لـهـ بـالـشـهـامـةـ وـالـنـبـلـ فـيـ مـعـاـمـلـةـ الـخـصـمـ المـفـلـوبـ (١) .

ومـاـ يـدـلـ عـلـىـ زـهـ صـلـاحـ الـدـيـنـ ، وـبـعـدـهـ عـنـ الـكـسـبـ الشـخـصـيـ أـنـهـ وزـعـ عـلـىـ أـتـبـاعـهـ وـعـلـىـ الـمـسـلـمـينـ جـمـيعـ الـكـنـوزـ الـتـىـ وـقـعـتـ فـيـ يـدـهـ مـنـ قـصـورـ الـفـاطـمـيـنـ ، عـقـبـ نـهـاـيـةـ الـخـلـافـةـ الـفـاطـمـيـةـ وـلـمـ يـتـرـكـ لـنـفـسـهـ شـيـئـاـ مـنـهـ (٢) ، وـعـنـدـمـاـ مـاتـ إـسـمـاعـيلـ اـبـنـ نـورـ الـدـيـنـ وـاسـتـوـىـ صـلـاحـ الـدـيـنـ عـلـىـ مـلـكـهـ ، عـفـ عنـ كـلـ ثـرـوـتـهـ وـتـرـكـهـ أـلـهـ الـمـلـكـ الـراـحـلـ ، وـهـكـذـاـ لـمـ يـخـلـقـ هـذـاـ السـلـطـانـ الـعـمـلـاـقـ إـلـاـ سـبـعـةـ وـأـرـبـعـينـ درـهـماـ وـقـطـعـةـ وـاـحـدـةـ مـنـ الـذـهـبـ (٣) ، كـمـاـ لـمـ يـخـلـفـ دـارـاـ وـلـاـ عـقـارـاـ ، وـكـانـ يـفـوـلـ . إـنـ بـقـيـتـ الـدـيـارـ لـنـاـ فـلـنـاـ كـلـ مـاـ فـيـهـ ، وـإـنـ ضـاعـتـ مـاـ ضـاعـ مـاـ يـمـلـكـهـ كـلـ فـردـ وـاسـتـولـىـ عـلـيـهـ الـعـدـوـ (٤) ، وـلـكـنـ الـذـكـرـيـ الـتـىـ خـلـفـهـ صـلـاحـ الـدـيـنـ لـاـ تـرـالـ كـنـزـاـ يـفـوقـ كـلـ تـقـدـيرـ فـيـ الـشـرـقـ وـالـغـربـ عـلـىـ السـوـاءـ .

وتـوفـيـ صـلـاحـ الـدـيـنـ سـنـةـ ٥٨٩ـ ، وـلـهـ مـنـ الـعـمـرـ خـمـسـ وـخـمـسـونـ سـنـةـ تـارـكـاـ ذـكـرـاـ مـعـطـراـ وـسـيـرـةـ زـاهـيـةـ سـتـبـقـىـ عـلـىـ مـرـ الزـمـنـ .

(١) كـارـلـ بـرـوـكـلـمانـ : تـارـيـخـ الشـعـوبـ الـاسـلـامـيـةـ جـ٢ـ صـ ٢٣٢ـ .

(٢) فـيلـيـبـ حتـىـ : تـارـيـخـ سـيـرـياـ وـلـبـنـانـ وـغـلـسـطـيـنـ جـ٢ـ صـ ٢٤١ـ .

(٣) أـبـوـ الـفـدـاـ : الـمـخـتـصـرـ فـيـ تـارـيـخـ الـبـشـرـ جـ٨ـ صـ ٩ـ .

(٤) شـاهـنـشـاهـ بـنـ أـيـوبـ : ذـيـلـ التـوـادـرـ صـ ٢١٩ـ .

خلفاء صلاح الدين

يمكن القول إن بذور انهيار دولة صلاح الدين قد بدأت مع وفاته؛ فإن ملوكه الفسیح سرعان ما تقطعت أوصاله، إذ قسم الملكة بين أولاده وإخوته وغيرهم من فروع الأسرة، فجعل السلطنة العامة لابنه الأفضل أكبر أولاده وجعل له دمشق وجتوبی سوريا، وجعل مصر لابنه العزيز، وحلب لابنه الظاهر، وكانت العراق وديار بكر لأخيه العادل، وتولى أفراد من أسرته حماه وحمص وبطليوس واليمن، ولكن سرعان ما دب الشقاق بين هؤلاء بعضهم البعض مما أضعف الدولة وقتل نشاطها.

ولقد كانت الدولة مقسمة على هذا النحو في عهد صلاح الدين، بمعنى أنه ولـى إخوته وأفراد أسرته أجل الولايات وأعظم الأعمال كما ثلنا من قبل، ولكن كلا من هؤلاء كان تابعاً له يعلن تبعيته، ولا يقوى أن يبدى أي اتجاه استقلالي، ولعل صلاح الدين كان يعتقد أن ولاء هؤلاء سيظل للسلطان الأفضل، وسيبقون جميعاً حوله خاضعين له مكتفين معه كثلة إسلامية قوية، ولكن هذا الأمل لم يتحقق، وحل محل الوئام خصم، إذ لم يكن الأفضل يشبه صلاح الدين في مواهبه العسكرية والإدارية أو يقرب منه.

وعلى العموم فقد رجحت كفة الملك العادل على منافسيه، فضمَّ تحت سلطانه أكثر بقاع مملكة صلاح الدين، فقد ضم دمشق سنة ٥٩٢هـ من الملك الأفضل، كما استطاع أن يستولى على مصر سنة ٥٩٦هـ من المنصور بن العزيز، ولم تبق من بلاد الشام إلا حلب التي ظلت خاصة لذرية صلاح الدين حتى سنة ٥٦٥هـ، وحوالي سنة ٥٩٧هـ استولى على شمال العراق وعيّن من أولاده من حكمها باسمه، ومات العادل سنة ٥٦١هـ، وتولى أبناءه السلطان في مملكته في فروع متعددة على نحو ما تم بعد موت صلاح الدين، غير أن السلطان ظل في أبناء العادل بهذه

البقاء حتى سقوط الدولة الأيوبية ، ولم يتحول عنهم كما تحول عن أبناء صلاح الدين ، مع ملاحظة أن الناصر يوسف من سلالة صلاح الدين وهو ملك حلب ضم إليه دمشق سنة ٥٦٤٨هـ عند سقوط الأيوبيين وقيام دولة المماليك بمصر ، وقد استردها المماليك فيما بعد ؛ أما حماه وحمص واليمن ، فقد كانت تابعة لأمراء من الأسرة الأيوبية ينحدرون من أبناء عمومته صلاح الدين .

وبسقوط الأفضل سنة ٥٩٢هـ عادت مصر لتكوين المركز الرئيسي لسلطان الأيوبيين بزعامته أولاد الملك العادل الذين استطاع أكثرهم أن يمدو نفوذهم إلى سوريا ، وقد عاشت سلطة الأيوبيين بمصر حتى سنة ٥٦٤٨هـ ثم أفسحت الطريق للمماليك الذين كان اشتراهم الملك الصالح نجم الدين أيوب وجعلهم خاصته وبطانته ، وقضى على غالبية أمرائه وعين المماليك محلهم ، وكان هؤلاء يظلون على ولائهم لابنه توران شاه ، واتخذوا بعد موته لم يستطعوا أن يظلوه على ولائهم لابنه توران شاه ، واتخذوا جانب شجرة الدر زوجة أبيه والتي تحدّر من المعين الذي انحدروا منه وتأمروا معها على توران شاه وقتلوه ، وبدأ بذلك سلطانهم سنة ٥٦٤٨هـ .

ولما استبد المماليك بمصر تبعت دمشق حاب مدة عشر سنوات حتى اكتسحها الغول سنة ٦٥٨ في زحفهم المدمر ، وبعد معركة عين جالوت عاد سلطان المماليك إلى دمشق وحلب ، ومن سلاطين « حماة » الأيوبيين ينبغي أن تذكر المؤرخ الكبير « أبو الفدا » الذي حكم من سنة ٥٧١٠هـ إلى سنة ٦٧٣٣هـ ، أما سلطان الأيوبيين بالحجاز فقد انتقل سنة ٦٢٥هـ إلى الدولة الرسولية باليمن .

وكانت الحروب الصليبية أهم الأحداث التي شغلت العهد الأيوبى ، ولذلك نكتفى الآن بهذا القدر من الكلام عن صلاح الدين وخلفائه ، وسيتمتد لهم الحديث مرة أخرى عند الكلام عن الحروب الصليبية .

والقوائم الآتية تبين أهم ملوك الأيوبيين في البقاع المختلفة :

صلاح الدين ٥٦٤ - - -
أولاد صلاح الدين

| | | |
|--|-------------|---|
| الظاهر بخطب | العزيز بمصر | الأفضل بدمشق |
| ٦١٣ - ٥٨٢ | ٥٩٥ - ٥٨٩ | ٥٩٢ - ٥٨٢ |
| (كانت معه في حياة أبيه وبعده) | منصور | كانت معه في حياة أبيه ، ثم عزله العادل واستولى على دمشق سنة ٥٩٢ |
| العزيز بن الظاهر | ٥٩٦ - ٥٩٥ | (توفي الأفضل سنة ٦٢٢) |
| عزله العادل واستولى ٦٣٤ - ٦١٣ | ٥٩٦ | على مصر سنة ٥٩٦ |
| الناصر يوسف (*) | | |
| ٦٥٨ - ٦٣٤ | | |
| (*) استولى أيضاً على دمشق سنة ٦٤٨ عقب قيام دولة المماليك بمصر كما سبق القول . | | |

العادل : الموصل ٥٨٩ - دمشق ٥٩٢ - مصر ٥٩٦ - توفي سنة ٦١٥
أهم أولاد العادل

| | | | |
|--|----------------|----------------|-----------------------------|
| الشرف موسى | المعظم عيسى | الصالح اسماعيل | الكامل محمد |
| - الموصل ٦٠٧ | - دمشق ٦١١ حتى | ٦٤٣ - ٦٣٧ | دمشق ٦١٥ مصر ٦١٥ |
| ٦٣٥ | | | (قبل وفاة العادل) |
| دمشق ٦٣٥ | | | وفاته سنة ٦٢٤ |
| | | | ثم بعد وفاته |
| | | ٦١٧ | ضم دمشق سنة ٦١٧ الناصر داود |
| | | ٦٢٤ - ٦٢٦ | ضم دمشق سنة ٦٢٤ - ٦٢٦ |
| (توفي سنة ٦٣٥) عزله الأشرف موسى وضم دمشق | | | |

| |
|------------------------------|
| الصالح نجم الدين أيوب |
| - مصر ٦٣٧ |
| - دمشق ٦٤٣ حتى وفاته |
| سنة ٦٤٧ |
| المعلم توران شاه |
| مصر ودمشق ٦٤٧ - ٦٤٨ |
| الملك الأشرف مظہر الدين موسى |
| مصر ودمشق ٦٤٨ (عزله ابنه) |

(اولاد شاهنشاه اخي صلاح الدين)

الظفر الأول تقى الدين
حماء ٥٧٤ - ٥٨٧

فروخششاه داود
 Buckley ٥٧٥ - ٥٧٨

سلیمان الظفر
اليمن ٦١١ - ٦١٢

بعليک ٥٧٨ - ٦٢٢

المنصور الاول
حماء ٥٨٧ - ٦١٧

بهرام شاه

الظفر الثاني محمود
حماء ٦٤٢ - ٦٤٣

الناصر
حماء ٦١٧ - ٦٢٦

المنصور الثاني
حماء ٦٤٢ - ٦٤٣

الأفضل على

المظفر الثالث
حماء ٦٨٣ - ٦٩٨

المؤيد أبو الفدا (المؤرخ)
حماء ٧١٠ - ٧٣١

تبعد الماليك بمصر
٧١٠ - ٦٩٨

الأندلل محمد
٧٤٢ - ٧٣٢

تبعد الماليك بمصر نهائيا

سيف الاسلام (اخو صلاح الدين) اليمن ٥٧٧ - ٥٩٣

معز الدين اسماعيل
اليمن ٥٩٤ - ٥٩٨

الناصر ايسوب

أولاد اسد الدين شيركوه (عم صلاح الدين) في حمص

محمد ٥٧٤ - ٥٨١

مجاهد شيركوه الثاني ٥٨١ - ٦٣٧

المنصور ابراهيم ٦٣٧ - ٦٤٤

الاشرف موسى ٦٤٤ - ٦٦١

— ٢٠٦ —

الأنطمار التي حكمها الأيوبيون

| | |
|-----------|-----------------------|
| ٥٦٤ | مصر : صلاح الدين |
| ٥٨٩ | العزيز عثمان |
| ٥٩٥ | النصور محمد |
| ٥٩٦ | العادل سيف الدين |
| ٦١٥ | الكامل محمد |
| ٦٣٥ | العادل الثاني |
| ٦٣٧ | الصالح نجم الدين أيوب |
| ٦٤٦ — ٦٤٨ | المعظم توران شاه |

وقد حكم السلاطين الخمس الآخرين سوريا أيضاً - وانتقل السلطان بعده توران شاه اسمايا إلى الملك الأشرف مظہر الدين موسى وعملياً إلى شجرة الدر ، ثم عزل إلیک الملك الأشرف وتزوج من شجرة الدر ، وانتقل السلطان إلى المملیک .

| | |
|---------------------------------|------------------------|
| ٥٨٢ | دمشق : الملك الأفضل |
| ٥٩٣ | العادل سيف الدين |
| ٥١٦ | المعظم شرف الدين عيسى |
| ٦٢٤ | الناصر صلاح الدين داود |
| ٦٣٦ (كان حاكماً للعراق سنة ٦٠٦) | الأشرف موسى |
| ٦٣٥ | الصالح إسماعيل |
| ٦٣٥ (سلطان مصر) | الكامل |
| ٦٣٥ (سلطان مصر) | العادل الثاني |
| ٦٣٧ (سلطان مصر) | الصالح نجم الدين أيوب |
| ٦٣٧ (استعاد السلطة) | الصالح إسماعيل |

— ٢٠٧ —

- | | |
|---------------------------------------|--------------------------|
| الصالح نجم الدين أيوب | ٦٤٣ (سلطان مصر مرة أخرى) |
| توران شاه | ٦٤٧ (سلطان مصر) |
| الناصر صلاح الدين يوسف | ٦٤٨ (سلطان حلب) إلى |
| (اكتسحها المغول ثم استعادها المماليك) | |

- | | |
|---------------------------------------|-----|
| حلب : الظاهر غياث الدين | ٥٨٢ |
| العزيز غياث الدين | ٦١٣ |
| الناصر صلاح الدين يوسف | ٦٣٤ |
| (ضم دمشق سنة ٦٤٨ كما سبق) إلى | |
| (اكتسحها المغول ثم استعادها المماليك) | |

- | | |
|--------------------------------|---------------|
| الموصل : الأوحد نجم الدين أيوب | ٥٩٧ |
| الأشرف موسى | ٦٠٧ (ضم دمشق) |
| المظفر غازى | ٦٢٨ |
| إلى | |
| (اكتسحها المغول) | |

- | | |
|-----------------------------------|-----|
| حماء : المظفر الأول تقى الدين عمر | ٥٧٤ |
| المنصور الأول | ٥٨٧ |
| الناصر كلج أرسلان | ٦١٧ |
| المظفر الثاني | ٦٢٦ |
| المنصور الثاني | ٦٤٢ |
| المظفر الثالث | ٦٨٣ |
| (سلطين المماليك) | ٦٩٨ |

- | | |
|------------------------|---|
| المؤيد أبو الفدا | ٧١٠ (المؤرخ الشهير ، استقل بحماء عن المماليك) |
| الأفضل | |
| (عادت السلطة للمماليك) | |

- ٢٠٨ -

٥٧٦ حمص : محمد بن شيركوه

٥٨١ مجاهد شيركوه

٦٣٧ المنصور ابراهيم

٦٤٤ الأشرف موسى

إلى ٦٦١

(آلت السلطة للنميري)

الجبار : المعلم توران شاه بن أبيوب

٥٧٧ سيف الاسلام بن أبيوب

٥٩٣ معز الدين إسماعيل

٥٩٨ الناصر أبيوب

٦١١ المظفر سليمان

مسعود صلاح الدين يومسف إلى ٦٢٥

(آلت السلطة لبني رسول ، باليمن الذين بدعوا سلطانهم نوابا عن الأئميين)

— ٢٤٩ —

كلمة ختامية

عن الدولة الأيوبيية

فـ هذه الكلمة نجيب عن سؤالين مهمين :

١ - هل اقتصر نشاط الأيوبيين على الناحية العسكرية أو كان لهم مجال في الناحية الحضارية ؟

٢ - هل كان صلاح الدين في نضاله يسعى لتكوين مجد شخصي له ؟
فـ الإجابة عن السؤال الأول نقرر أن الناحية العسكرية لم تشغل الأيوبيين عن النشاط الحضاري ، وقد أشرنا من قبل إلى أنهم ساروا بمصر ودمشق سيرة نور الدين في فتح المدارس وذلك ليوجهوا عقول الناس إلى التفكير السندي بعد أن عاشت مصر ودمشق زهاء قرنين في إطار التفكير الشيعي ، وكانت مدارس الأيوبيين كثيرة العدد بحيث تمكنت من تحقيق أهدافها في وقت قصير ، ويمتاز هذا المعهد بأن الأمراء والأميرات والتجار وغيرهم من الأهلين حتى الخدم أسموها في إنشاء المدارس ورعاياه العلم (١) .

وما لشيء إلى المدارس حدث تطور حضاري في مصر وسوريا نتيجة التفاعل بين المسلمين والصلبيين ، وسندرس هذا التفاعل بشيء من التفصيل عقب الحديث عن الضرب الصليبية .

وقدم صلاح الدين من المعاشر خدمات عظيمة في القدس والقاهرة ، فما في القدس فقد كان له فضل تجديد المسجد الأقصى الذي اتخذه الصليبيون قسراً لهم ، وتربيته بالقسيسين والرخام ، ليس هذا فقط بل لقد أقام فيه منبراً فنياً لا يزال يلقياً حتى اليوم .

أما في القاهرة فقد شيد القلعة الشاهقة المعروفة باسمه ، وبدأ في إنشاء السور الذي يصون القاهرة من كل هجوم قد تتعرض إليه .

(١) انظر تاريخ التربية الإسلامية للمؤلف ص ١٢١ من الطبعة الثامنة .

(٢) م ١٤ - موسوعة التاريخ ج ٥

- ٢١٠ -

وللإجابة عن السؤال الثاني نقرر أننا لا نستبعد على أى قائد أو زعيم أن يكون له طموحه الشخصى أو آماله الخاصة ، ولكن براعة الزعيم تبدو لو استطاع أن يوفق بين هذا الطموح وبين آمال الشعب الذى يتربعه . وقد كان صلاح الدين يسير في هذا الاتجاه ؛ فقد كان العالم العربى يميل إلى الوحدة ، إذ أن التشكك سبب الكارثة والاحتلال الصليبي ، وكان العالم الإسلامي يميل إلى التكثل ليقف في وجه التكثل الصليبي ، ولسيتعيد الأرض السليبية ، وقد وجد العالم العربى والإسلامى في صلاح الدين خير معبير عن هذه الآمال .

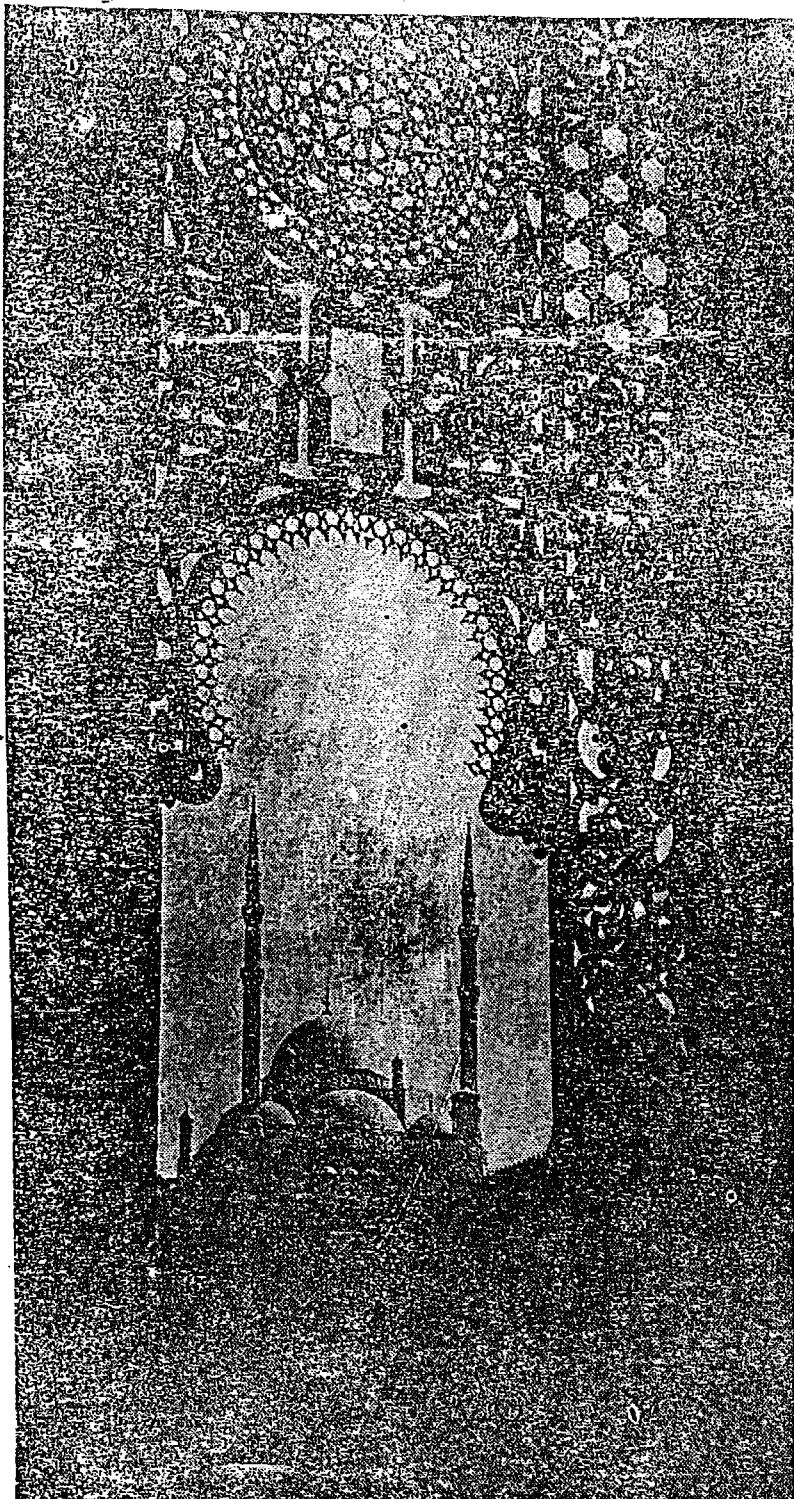
* * *

آثار مصر من العهد الأيوبى :

قلقتْ آثار الدولة الأيوبية لانشغالها بالحروب الصليبية من جانب ، ولاهتمامها بنقل البلاد إلى المذهب السنى من جانب آخر ، وأهم آثار مصر في هذا العهد قلعة صلاح الدين الأيوبى ، وهي آية في الدقة والانتقام ، وقد دخل عليها كثير من التغيير .

ومن آثارها كذلك مشهد الإمام الشافعى الذى مات بمصر سنة ٥٢٠٤ هـ ثم بُشِّرَ مشهده في عهد الدولة الأيوبية ، ولعل ذلك كان جزءاً من نشر المذهب السنى والحفاوة بالعلماء السنين . وقد بني الأيوبيون مجموعة كبيرة من المدارس التي كانت امتداداً لمدارس نور الدين زنكي بالشام ، تلك التي كانت وبالتالي امتداداً لمدارس نظام الملك الوزير السلاجوقى بالعراق وإيران ولا تزال بمصر آثار وامتدادات لهذه المدارس الأيوبية .

أما الآثار المعموية لصلاح الدين فهى تلك القوى ترتبط بزهده في المال العام ، وبطولاته التى دمرت الصليبيين ، و تلك آثار لن تنساها الأجيال الإسلامية ، وسيظل الباحثون المسلمين يتفقون أن يحاكيها القادة والرؤساء على مر الأجيال إن أرادوا أن يعطوا أسرتهم ، وأن يضمنوا رضاء الله ورضاء الأجيال . إنهم : إنها آثار شاهقة تتضاعل أمامها كل الآثار .



قلعة صلاح الدين الأيوبي

المملکت

(١٩٢٣-١٩٥٠ = ١٤١٧-١٢٥)

الماليك

نحن الآن أممـاـم عـصـر لا يـزال يـكتـنـفـهـ الغـمـوضـ ،ـ وـبـالـتـالـيـ يـحـتـاجـ إـلـىـ درـاسـاتـ جـدـيـدةـ تـبـعـثـ فـيـهـ الضـوءـ ،ـ وـيـسـتـثـيرـ فـيـمـاـ يـلـىـ نـقـاطـاـ مـهـمـةـ تـرـتـبـطـ بـالـمـالـيـكـ وـنـحـارـاـ،ـ تـجـلـيـةـ غـمـوضـهاـ :

مـلـوـكـ أـوـ رـقـيقـ ؟

مـالـيـكـ جـمـعـ مـلـوـكـ وـهـوـ شـخـصـ اـشـتـرـىـ بـالـمـالـ ،ـ وـحـقـيـقـةـ اـشـتـرـىـ بـعـضـ الـخـلـفـاءـ وـالـسـلاـطـينـ أـنـاسـاـ بـالـمـالـ ،ـ وـلـكـنـ السـؤـالـ المـهمـ هوـ :ـ هـلـ هـؤـلـاءـ كـانـواـ حـقـيـقـةـ مـالـيـكـ وـأـرـقاءـ يـبـيـعـ التـرـجـعـ بـيـعـهـمـ وـشـرـاءـهـمـ ؟

ويـذـكـرـونـ أنـ العـزـ بنـ عـبدـ السـلـامـ اـمـتـنـعـ عنـ المـبـاـيـعـ لـلـظـاهـرـ بـيـرـسـ لأنـ بـيـرـسـ رـقـيقـ مـلـوـكـ لـلـأـمـيـرـ عـلـاءـ الدـيـنـ الـبـنـدقـدارـ ،ـ وـمـنـ ثـمـ لاـ تـجـوزـ وـلـايـتهـ ،ـ وـلـمـ يـبـيـعـ لـهـ العـزـ بنـ عـبدـ السـلـامـ حتـىـ ثـبـتـ لـهـ أـنـ الـبـنـدقـدارـ باـعـ بـيـرـسـ إـلـىـ الـمـلـكـ الـمـالـحـ نـجـمـ الدـيـنـ الذـيـ اـعـتـقـهـ بـعـدـ ذـلـكـ .

وـالـذـىـ نـحـبـ أـنـ تـقـرـرـهـ أـنـ هـؤـلـاءـ لـيـسـوـ مـالـيـكـ وـلـاـ أـرـقاءـ ،ـ وـأـنـهـمـ أـحـرـارـ تـمـاماـ ،ـ وـأـنـ بـيـعـهـمـ باـطـلـ ،ـ لـقـدـ كـانـواـ جـمـيعـاـ مـنـقـاتـ غـيرـ مـشـروـعـةـ ،ـ كـانـ الـأـبـ يـبـيـعـ إـيـنـهـ لـيـقـعـهـ إـلـىـ الـمـجـدـ فـيـ الـقـصـورـ وـهـوـ هـمـيـ «ـ الرـقـ الصـنـاعـيـ »ـ وـكـانـ الـأـقـوـيـاءـ وـالـنـخـاسـونـ يـخـطـفـهـنـ الـأـطـفـالـ وـيـسـتـولـونـ عـلـيـهـمـ عـنـوـةـ ،ـ ثـمـ يـعـرـضـونـهـمـ لـلـبـيـعـ ،ـ وـالـإـسـلـامـ يـرـفـضـ هـاتـيـنـ الـوـسـيـلـيـنـ وـلـاـ يـقـبـلـ أـيـاـ مـنـهـمـ لـتـكـونـ مـصـدـراـ لـلـرـقـ .

فالـرـقـ فـيـ إـسـلـامـ يـجـيـءـ عـنـ طـرـيـقـ الـحـرـبـ الـدـيـنـيـةـ الـتـىـ يـقـصـدـ بـهـ الـجـهـادـ فـيـ سـبـيلـ اللهـ لـرـدـ اـعـتـدـاءـ يـقـومـ بـهـ غـيرـ الـمـسـلـمـيـنـ ،ـ بـشـرـطـ أـلـاـ يـكـونـ أـسـيـرـ وـقـتـ أـسـرـهـ مـسـلـمـاـ وـلـوـ كـانـ فـيـ جـيـشـ الـأـعـدـاءـ ،ـ وـبـشـرـطـ أـنـ يـضـربـ إـلـمـامـ عـلـيـهـ الرـقـ (١) .

(١) انـظـرـ مـوـضـوعـ «ـ الرـقـ وـمـوـقـعـ الـإـسـلـامـ مـنـهـ »ـ بـكـتـابـ الـإـسـلـامـ لـلـمـؤـلـفـ

ذلك وحده هو مصدر الرق في الإسلام ، مع ملاحظة أن الرسول لم يسترق حرّاً قط (١) ومع ملاحظة الآية الكريمة التي توضح أنه بعد الحرب والأسر يكون المن على الأسرى أو اطلاقهم نظير فدية ، قال تعالى : « إِذَا لَقِيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضْرِبُ الرِّقابَ ، حَتَّىٰ إِذَا أَنْخَنْتُمُوهُمْ فَشَدُّوْهَا الْوَثَاقَ ، ثُمَّ إِمَّا مِنْكُمْ بَعْدٌ وَإِمَّا فَدَاءٌ » (٢) .

فإذا جئنا لتطبيق هذه المبادئ الإسلامية يتضح لنا بشكل لا يوجد منه الشك أن هؤلاء ليسوا أرقاء ولا مماليك ، ونسوق فيما يلى بعض الافتراضات التاريخية التي توضح حقيقة الأمر .

يدرك المقرizi (٣) أن الأطفال الذين كانوا يشترين للبيع كانوا ينتمون إلى قبائل بدائية بسيطة جاهلة ، تعيش في فقر وشظف من العيش ، حتى كان الآباء يخاطرون ببيع أبنائهم للتخلص من تحمل تبعاتهم ، ولكل يضمونوا لهم مستقبلاً أفضل مما ينتظرون في بلادهم .

وهكذا كانت تتم هذه الصفقة تخلصاً من نفقات الأولاد وعجزاً عن أداء الالتزامات نحوهم ، أو كانت وسيلة لدى الآباء ، ليدفعوا أبناءهم إلى القصور والمجد وهو في الحالتين « رق مناعي » كما أسماهنا في مكان آخر (٤) ، وليس رقاً يعترف به الإسلام ، ولا يمكن في مجال إسلامي أن ينتقل الإنسان من الحرية للرق عن هذا الطريق .

وهناكأطفال اختطفوا من ديارهم وأسرهم ، يذكر ابن تغري بردي (٥) أن حكام بعض الولايات وبخاصة السامانيون فيمسا وراء

(١) ابن القيم : زاد المعاد ج ٣ ص ٢٩٠ .

(٢) محمد الآية الرابعة .

(٣) إسلاوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٥٢٥ تحقيق الدكتور زياده .

(٤) انظر بحثاً عن « الرق الصناعي » في كتاب « الإسلام » للمؤلف .

(٥) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١ .

النهر دأبوا على إرسال بعض المالكين هدايا للخلفاء ، أو جزءاً من الخراج المفروض على هذه المناطق التي لم تكن دخلت الإسلام بعد . ولا يعرف الإسلام خراجاً يشمل « الإنسان » ، فالخراج والجزية مقادير مالية تدفع تبعاً لقوانين دقيقة (١) .

وفي أسبانيا كان يباع للأمراء صبيان خطفوا أيضاً بعد يسمى « السبي » فقد دأب الجerman على سبي الصبيان والنساء من بلغاريا وألبانيا ويوغسلافيا ... وكانوا يبيعونهم للمسلمين بالأندلس ، وقد أطلق المسلمون عليهم اسم « الصقالبة » (٢) .

ويقُص لنا التاريخ الأفريقي (٣) أن بعض الزعماء الأفارقة وبعض النحاسين كانوا يحترون اختطاف الأطفال ، أو يأخذونهم فدية لبعض الأمور ، أو يرغمون الآباء على تسليم بعض أطفالهم ليترک لهم باقى الأطفال على نحو ما كان يتبع في السفرة ثم يباع هؤلاء في سوق النخاسة للملوك والسلطانين والقادرين على العموم ، ومن الأطفال الأفارقة الذين اختطفوا عنوة تكون الملائكة من زنوج الولايات المتحدة فيما بعد ، ومنهم كانت تتكون بعض فرق الجيش بالبلاد الإسلامية .

وإذا كانت بلاد تركستان وبلاط ما وراء النهر والديلم والخزر والسودان والنوبة ... هي المراكز الرئيسية لجلب الرقيق . في القرن الثالث الهجري والقرون التالية ، فإن من المؤكد أن هذه البلاد لم تكن فيها حروب شرعية قبيح الاستراق .

ثم - وهذا شيء مؤكد أيضاً - أن المالكين كانوا يجلبون إلى مصر وإلى غيرها وهم في أعمار الزهور ، فيذكر المقريزي (٤) أن الرسم كان

(١) انظر الاقتصاد في الفكر الإسلامي للمؤلف .

(٢) دكتور أحمد الضاوي : الصقالبة في أسبانيا من ١٢ - ١٣ .

(٣) انظر الجزء السادس من هذه الموسوعة .

(٤) الخطط ج ٢ من ٢١٣ .

- ٢٩٨ -

الا يجلب التجار الا المالك المغار ، ويدرك ابن إياس (١) أن الأشرف برسبای جلبه بعض التجار الى البلاد الشامية فاشتراه الأمير دقماق مع جملة مماليك صغار ،

ونتيجة هذه الدراسة فان من نسمتهم مماليك هم في الحقيقة احرار ولا يقبل الاسلام أن تزج بهم في مجال الرق ، ولنذكر قوله عمر بن الخطاب : كيف استبعدتم الناس وقد ولدتهم أمهاطهم احرارا ، ولنذكر تصرف عمر عندما اقتحم الجيش الاسلامي بلاد فارس وببلاد الشام ومصر ، فقد رفض الخليفة أن يعذّب الملعوبين أرقاء ، وتركهم احرارا على أن يدفعوا الجزية الا اذا دخلوا الاسلام فيكون لهم ما لل المسلمين وعليهم ما على المسلمين .

إن الاسلام يسعى الى الحرية ، وحرام أن يتوجه المسلمون للرق والاسترقاق ، وقد عاش هذا التصرف المقيت في العالم الاسلامي اندفاعا الى ما كان معمولا به في البلاد غير الاسلامية ، ومعنى هذا أن المسلمين اتجهوا في هذا الطريق وجهة غير المسلمين ، وهذا مالا يقره الاسلام .

وكان الدافع على رواج هذه التجارة أنها - كما يقول ابن حوقل (٢) كانت مصدر اليسر والغنى للنخاسين الذين كانوا يتذدون من خوارزم وسمرقند وغيرها مراكز لهذه التجارة ، ومن الدافع أيضا أن الملوك والسلطانين والأغنياء ، وجدوا بغيتهم في هؤلاء الأرقاء ، فراغب الخدمة وجدها في صبيانهم ، وراغب الحراسة وجدها فيهم عندما يتقدمون للشباب ، والنتيجه للعاطفة رأى في الفتيات الرقيقات تحقيق أمنيته ، والاسترقاق كله بهذه الطرق حرام وليس من الاسلام في شيء .

(١) بدائع الزهور ج ٢ ص ١٥ .

(٢) صورة الارض ص ٤٦١ - ٤٨٢ .

- ٢١٩ -

فلنقلها الآن كلمة قوية ؛ ان المالكين الذين مستكلم عنهم هنا لم يكونوا من وجهة نظر الشرع الاسلامي أرقاء ، حتى اذا جهوا ذلك او ففل عنه علماء ذلك الزمان ٠

مصريون ؟

موضوع آخر نطرحه هنا هو جنسية هؤلاء المالكين ، فهم قد جيء بهم من أمكنته مختلفة كما رأينا ، وبذلك كانوا ينتمون الى جنسيات متعددة ، ولكن يجب أن يلاحظ ما يلى :

أولاً - ينتمي هؤلاء الى مناطق اسلامية غالبا ، والعالم الاسلامي عالم واحد ، والمسلمون أمة واحدة قال تعالى « ان هذه امتكم أمة واحدة » وكان العالم الاسلامي في القرون الأولى لا تفصل حدوده بين أجزائه ، وكان العالم ينتقل بين ربوعه من حلقة علمية بقطر إلى حلقة أخرى بقطر آخر ، وكذلك كان الطالب والتاجر والعامل ينتقل دون حواجز ، ولم يكن انتقال المسلم من بلاد فارس أو ما وراء النهر الى مصر الا كالانتقال من آسيوط للقاهرة أو من حلب الى دمشق أو نحو ذلك ولذلك فإن المؤرخين يسمون مماليك مصر « الأمراء المصريون » (١) ٠

وكانوا هم أيضا يسمون أنفسهم « مصريين » يذكر ابن حجر (٢) أن الأمير تذكر نائب الشام قال ذات يوم لأحد موظفي ديوان الائشة بدمشق : « ما في دمشق مصرى الا أنا وأنت » وكانوا كذلك يفتخرن بالانتساب لمصر ، ففى هراسلات التهديد بين تيمور لنك وبرقوق قال برقوق نحن سهامنا عربية ، وسيوفنا يمنية ، وقلوبنا مصرية (٣) ٠

- (١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٠٧ السخاوي : الضوء الالامع ج ٣ ص ٤٤ الجبرتي حوادث سنة ١٢٣٠ ٠
- (٢) الدرر الكاملة ج ١ ص ٥٠٤ ٠
- (٣) النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٥١ ٠

— ٢٢٠ —

ثانياً - لم يأت هؤلاء إلى مصر غزاة محتلين كالفرس والروم والإنجليز ، وإنما جاءوا أفراداً ، وكانتوا في الغالب في سن الصبا ونشأوا لا يعرفون لهم وطنا إلا مصر ، وكانوا - عندما آتى لهم السلطان - يحكمون مصر من الداخل أي لا يخضعون لتعليمات من الخارج ، كما كانوا يحكمونها لصالحها ، فلا يرى إرث شراءها لموطن آخر .

ثالثاً - ارتبط هؤلاء بمصر ارتباطاً وثيقاً لدرجة أن بعضهم وقع في أسر تيمورلنك عندما هاجم الشام وبقي هؤلاء مدة مع تيمورلنك الذي عنى بهم وكل لهم وظائف ممتازة ، ومع هذا فقد تسلاوا عندما استطاعوا ، وعادوا إلى مصر (١) .

رابعاً - وصل المماليك إلى درجة عالية من القوة والنفوذ ، ولكن لم يحاول أي منهم أن يعود إلى بلده على الرغم من معرفته لصدر أسرته ، بل إن الكثريين منهم أرسلاوا يطلبون آباءهم وأهليهم للاستقرار بمصر (٢) .

خامساً - اتجه الباحثون المصريون إلى اعتبار المماليك شخصيات عربية إسلامية فشملت سلسلة أعلام العرب عدداً منهم مثل العدد عن الناصر محمد بن قلاوون والعدد ٥٢ عن الأشرف قنصوه الغوري .

سادساً - تمت زيارات كثيرة بين المماليك وبين العلماء والملفكيين مما يدل على اندماجهم بالمصريين في حالات كثيرة (٣) ، وكان الذين يزول سلطانهم السياسي من المماليك ينضوون في طيات الشعب تماماً .

(١) ابن تغري بردي : النجوم الظاهرة ج ١٥ ص ٥٢٦ - ٥٢٧ .

(٢) المرجع السابق ج ١١ ص ١٨٣ والسحاوى : الضوء اللامع ج ٣ ص ٢٨٤ .

(٣) انظر نماذج في « المماليك المصريون الذين لمعوا في بيدان الفكر » ص ١٠٠ رسالة دكتوراه للمرحوم الدكتور محمد عامر باشراقى .

سابعاً - عائلات كثيرة وقبائل متعددة وفدت إلى مصر على هو التاريخ من بلاد شتى ، ثم ذاب هؤلاء وأولئك في الشعب المصري ، وأصبحوا جزءاً منه تماماً ، ولم يبق مما يربطهم بجذورهم البعيدة إلا اللقب تتمم عن هذه الجذور وعن الأقطار التي ولدوا منها ، ولا يلتفت الناس عادة إلى هذه الأذناب إلا عند التعمق والتخصص ، ومن هذه الألقاب الجبرتي « عليي واليمني والجهازي والنجدى والشامى والبلسانى والمغربى » ، وكثير من المصريين لهم جذور تركية أو عربية أو سودانية وإن لم يظهر في اسمائهم لقب ينمّ عن ذلك ، وقد حدث العكس أيضاً فبعض المصريين رحلوا إلى أقطار أخرى واستقروا بها وممّهم لقب « المصري » الذي تراه بوضوح في السودان والعراق .

وعلى هذا فالطلويون والاخشيديون والفاطميون والابوبيون ومن نسميمهم الماليك وأسرة محمد على مصريون مائة في المائة ، وقد نقل الفاطميون معهم جنث آبائهم وأجدادهم عندما جاءوا من تونس إلى مصر ، وكتب الملك السابق فاروق وصيته أن يدفن بتراب مصر بعد أن نفى من البلاد .

وقد يكون بعض هؤلاء ضعيفاً أو حتى خائناً ، ولكن هذا شيء آخر ، فالخيانة تحدث أحياناً في كل البلدان من المواطن الأصلي أو الوافد ، وهي نقص في التربية والخلق ، وعندما تكتمل التربية والخلق فالإنسان لا يخون وطنه ولا أوطان الآخرين ، ولا يرتكب هذا الاتحراف .

وقد اندفع أئنور الساداتى في يوم من الأيام فقال إن عبد الناصر كان أول حاكم مصر منذ حوالي ألفى عام ، وذلك ادعاء باطل ، كان نوعاً من الملوك من جانب ، وكان من جانب آخر ليثبت أنه هو نفسه ثالثى حاكم مصر من المصريين ، وذلك قوله لا يتحقق مع العلم ولا مع التاريخ وبخاصة إذا لاحظنا أن بعض الأسر الملاكية في أوروبا وافدة من أقطار أخرى .

ديكتاتورية المالكية :

في احدى المحاضرات العامة التي ألقاها استاذ تاريخ قال : إن المالكية كانوا يحكمون مصر حكماً دكتاتورياً ، وعلى الرغم من نفوذ العلماء الذي كان واضحًا طيلة عصر المالكية ، فانني سألت المحاضر سؤالاً هادئاً هو : كيف كانت نظم الحكم في الأقطار الأخرى خلال عصر المالكية ؟ وهل كانت الديموقратية مائدة في تلك الأقطار ؟ وذكرت المحاضر بأسماء بعض ملوك الانجليز في القرن الثالث عشر مثل الملك هنري الثاني وأبنه الملك جون حيث خلع الابن أخيه بمؤامرة خائنة ، وتنسلط على الأمراء ورجال الكنيسة .. ومثل هذا حدث في فرنسا وألمانيا .

ما أشد الخطأ عندما ت الحكم على عصر سابق بقييم عصر حاضر ، لقد خلّقَ الإسلام الشورى وجعلها مبدأً من مباديء الحكم ، ولكن المسلمين تخلوا كثيراً من المباديء الإسلامية في عصور الظلم ، وطفت عليهم موجة العصر الذي عاشوه ، لقد كانت الديكتatorية هي سياسة ذلك العصر للأسف في كل البلاد والأوطان ، أو على الأقل في أكثرها .

المهام التي قام بها المالكية :

في مطلع الإسلام كان العرب مسيطرین على أمور الشرطة وال الحرب ، ولم يكونوا يسمحون للموالى بشيء من ذلك ، فلما بدأ الرقيق يظهر كان عولهم يتوجه للخدمة ، وقد ظل هذا حتى سقوط الدولة الأموية ، وفي مطلع الخلافة العباسية ظهر موالى الترك والروم والبربر ، وكانوا — وبخاصة في عهد المهدى والرشيد — بطانة للخلفاء ، فملئوا بهم الموالى في الأعياد وأصبحوا زينة في أيام السلم ، واكتافوا العصبية الخليفة (١) ثم أُسندت لهم حراسة الخليفة ونمان سلامته .

(١) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٣٧٠ .

فلما جاء المعتصم تغير الأمر ، فلقد واجه الخليفة حرباً كثيرة في الداخل والخارج واجه الرزط ، وبابك الخرمي ، والروم ، فاحتاج إلى تقوية جيشه ، ولم يكن يثق بالعرب مخافة أن يكون اتجاههم علويًا ، ولم يكن يثق بالفرس لأنهم حاولوا الاستيلاء على السلطة من المؤمن قبل أن يعود إلى بغداد من هرو ، وكان الذي ترأس ذلك الفضل بن سهل وأخوه الحسن ، وللهذا رأى ضرورة تقوية جيشه بعناصر عرفت بالشجاعة والبطولة من غير العرب والفرس ، فلجلأ إلى الأتراك وكون منهم جيشه .

وببدأ بذلك تدفق الأتراك ونظائرهم ليكونوا عناصر الجيوش في كثير من البلدان ، وببدأ ظهورهم في مصر في عهد الطولونيين وفي عهد الأخشيديين والفاطميين والأيوبيين ، وكانت جنسياتهم متعددة .

وهنا نعود إلى مصر لنسأل سؤالاً مهما هو : لماذا لم يتكون جيش من الشباب المصري عندما بدأت الحركة الاستقلالية بمصر ؟

والإجابة أن التاريخ القديم والحديث يذكر أنه كانت هناك جماعات تستأجر للدفاع وال الحرب ، سميت في الماضي « أهابيش » أو تجمعات عسكرية ، وسميت في الحاضر « مرترقة » ولم يكن هناك في العصور الوسطى من ضرر في الاعتماد على هؤلاء في نسائهم الحرب لتخصيصهم وبطولاتهم ، فكما شترى الدول الآن الآلات الحربية ، كانت الدول تستأجر الرجال .

أما أهل البلاد فكانوا يعملون في التنمية الاقتصادية والثقافية ، فكانت نسائهم الزراعة والتجارة والصناعة تشرفن ، كما كانوا يعملون في ميدان الفكر والبحوث والعلم .

ومع هذا فاننا نجد أن خمارويه عندما وجد من بين المصريين من لا يشتهي العمل الاقتصادي أو الثقافي ، تقدم وجمع هؤلاء وكون منهم

(٢) انظر الجزء الثالث من هذه الموسوعة :

— ٢٢٤ —

فرقة مهمة من فرق الجيش سماها «المختارة» وكان أعضاؤها معروضين بالشجاعة وشدة البأس وعظم الأجسام (١) ومثل هذا حدث في مختلف العصور، وبخاصة في جيوش صلاح الدين وقطز وبيرس ومحمد على، فكان المصريون يمثلون نسبة كبيرة في هذه الجيوش وأحياناً النسبة العظمى.

عيوب :

إن حديثنا السابق عن المعاليك لا يعني الانهيار لهم أو خلُوّهم من العيوب، فقد كانت قبتهم عيوب واضحة مصدرها أنهم جامعوا من مناطق مختلفة، وبذلك كانوا جماعات كثيرة ما ظهر التناقض فيها، وطالما نشأت عن التناقض حروب وصراعات.

ومن عيوبهم أنهم كانوا يتعزّلون عن الشعب، عند استقدامهم ويعيشون في معسكرات خاصة، مما جعلهم يحسون بالانعزالية من جانب، ويطبلتوك من جانب آخر لارتباطهم بسلطان البلاد ارتباطاً وثيقاً.

وقد ذكرنا من قبل أن بعضهم كان صفة باطلة من وجهة النظر الإسلامية، ولكن هذا التفكير لم يصل إلى عقولهم، وربما لم يشعر به آنذاك، ومن هنا فكان إحساسهم أنهم رقيق اشتروا بالمال، وقد تكون عند الكثيرين منهم عقدة نقص لهذا السبب، وكان لها رد فعل عنيف في تعلماتهم للسيادة.

ومن عيوبهم أن القوة كانت المسيطرة على مجتمعهم، ولا سيطرة للحكمة أو الموهبة غالباً، وعلى هذا فهم كانوا مستعدين للخضوع للقوة كما فعلوا مع العتصم والموفق والمعضد، وابن طولون، كما كانوا مستعدين أن يخضعوا الآخرين لقوتهم إذا شاهدوا في الآخرين جوانب ضعف أو تخاذل، ومن هنا كان التقى طابع الحياة في العصر المملوكي،

(١) ابن تمرى بردى : النجوم الراحلة ج ٣ ص ٥٩.

- ٢٢٥ -

فإذا لم يكن السلطان قوياً مهيباً الجانب فإنه يكون عرضة للثورات
وضياع التفوذ .

عصر المماليك في العالم :

لقد تحدثنا عن المماليك في مصر ، وننجب أن نقول إن عصراً طويلاً
كان المماليك فيه هم نواة الجيوش في بقاع مختلفة وأقطار متعددة ، ولعل
بدء ظهورهم مع العباسين في عهد العتصم كما ذكرنا من قبل ، ثم هذا
حدودهم السامانيون ، وسبعينات في الدولة الغزنية وأمراء الأندلس
وخلفاؤها ، كما كان العبيد والمماليك يكتونون الجيوش في العهد الاقطاعي
بأوروبا .

جنسيات المماليك :

والمماليك الذين نتحدث عنهم الآن لا يسمون أتراكاً لأنهم ليسوا
من بلاد تركستان فحسب ، وإنما هم من شبه جزيرة القرم وببلاد القوقاز
والقفقاس وآسيا الصغرى وفارس وتركمستان وببلاد ماوراء النهر ، ففيهم
عنصر الأتراك وفيهم الشركس والروم والأكراد ، وبعضهم من البلاد
الأوروبية أيضاً .

طريقة تربيتهم :

وكانت تربية هؤلاء المماليك وتربیتهم تمر بمراحل متعددة ، فـان
تجار الرقيق يجلبون أعداداً منهم ويعرضونهم على السلاطين ، وكـأن
السلاطين يختارون منهم أحـسنـهم قـامة وـصـحة ، وـمن يـبـدو عـلـيـهـ الذـكـاءـ
وـالـنـجـابـةـ ، فـإـذـاـ تـمـتـ عـلـيـهـ الشـرـاءـ وـضـعـهـمـ السـلاـطـينـ فـأـبـرـاجـ خـاصـةـ
بـهـمـ ، وـرـتـبـواـ لـهـمـ مـنـ الـقـهـاءـ وـالـعـلـمـاءـ مـنـ يـلـقـونـهـمـ الدـيـنـ وـالـعـلـومـ
وـيـأـخـذـونـهـمـ بـمـلـازـمـةـ الـفـرـائـضـ ، فـإـذـاـ تـمـ ذـلـكـ وـتـقـدـمـتـ بـالـمـالـيـكـ السـنـ
تجـاهـ الشـيـابـ ، وـكـلـوـاـ إـلـىـ مـدـرـبـيـنـ عـسـكـرـيـنـ لـتـقـيـنـهـمـ النـظـمـ الـعـسـكـرـيـةـ
وـفـنـونـ الـحـربـ ، فـإـذـاـ تـقـمـ لـلـمـلـوـكـ ذـلـكـ اـنـتـقـلـ لـخـدـمـةـ سـيـدـهـ لـيـلـحـقـ بـحـرـسـهـ

الخاص أو بديوانه أو بجيشه ، وسواء كان عمله هنا أو هناك فان موهبه
قد تدفعه الى الصدارة .

ماليك مصر نوعان :

ولنعد للحديث عن المالكين الذين حكموا مصر وسوريا بعد الدولة
الأيوبية ، وقد انقسم المؤرخون على تقسيم هؤلاء المالكين قسمين ، القسم
الأول يعرف بالمالكين البحريين ، وهؤلاء جلهم الملك الصالح نجم الدين
أبيوب الذى جمع من المالكين ما لم يجمع غيره من أهل بيته ، حتى كان
أكثر أمراء العسكر من ماليكه (١) ، وبنى لهم قلعة بجزيرة الروضة
وحشدهم بها ، ومعظم هؤلاء المالكين من الأتراك ، واحتار منهم الصالح
فرقة للأسطول سميت الفرقة البحرية أو الفرقة الصالحية ، وأذلك يسمى
هؤلاء المالكين : المالكين البحريين ، أو المالكين الأتراك ، والتقسمية الأولى
أشهر . ويزى فيليب حتى أنهم سمووا البحرية لأنهم كانوا يقيموا
بجزيرة الروضة التى يحيط بها النيل ، وكأن النيل يُدعى عندهم
بالبحر (٢) . وقد حكم هؤلاء المالكين من ستة ١٢٥٠ إلى سنة ١٣٨٢ ،
ومن الواضح أن هؤلاء المالكين انحدروا من أصول مختلفة ، ولا يربطهم
دم ولا عنصر ، وإنما يربطهم شيء واحد هو أنهم ماليك اشتروا بمال ،
وان كان أكثرهم أتراكا كما ذكرنا .

أما القسم الثاني فمجموعة أخرى من المالكين ليست مما جلب
الأيوبيون ، وليسوا أشتاتا ينتسبون الى عناصر مختلفة ، وإنما هم
شراكسة اشتراهم السلطان قلاوون أحد المالكين البحريين الذين تحدثنا
عنهم آنفا ، وقد كان يطبع في إقرار السيادة في ذريته وتم له ما أراد ،
فقد حكم هو وأولاده وأحفاده أكثر من قرن (من سنة ١٢٧٩ الى سنة

(١) العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٦٤٧ .

(٢) تاريخ سوريا : ص ٣٦٨ .

(١٣٨٣) ثم استولى أحفاد مماليكه البرجية على الحكم سنة ١٣٨٢ وظلوا يحكمون مصر حتى سنة ١٥١٧.

وسمى هؤلاء شراكسة نسبة إلى بلادهم، وهي بعض بلاد الكرج «جورجيا» بين بحر قزوين والبحر الأسود، وهي جزء من أقاليم الاتحاد السوفيتي في العصر الحاضر، وتوجد منطقة تعرف باسم شركس (Circassia) تطل على الشاطئ الشرقي للبحر الأسود، سكانها يُعرفون بالشراكسة، وهم مشهورون بالشجاعة والفروسية والجمال، وكانت تجارة الرقيق بينهم رائجة حتى أنهم كانوا يتبعون أبناءهم وبيناتهم.

ويسمى هؤلاء المماليك أيضاً «المماليك البرجية» وقد أطلق عليهم هذه التسمية السلطان الأشرف خليل بن قلاوون عندما قسم المماليك السلطانية إلى طوائف، وأسكن طائفة الشركس في أبراج القلعة، وكان عددهم آنذاك ٣٧٠٠ مملوك (١) وسلطانين المماليك الشراكسة كلهم من أصل شركسي، ماعدا اثنين هما خشقدم وقمرغا، فقد كانوا من أصل يوتاني.

وسلطانين المماليك البحرية هم :

أولاً : المماليك قبل قلاوون

- ١ - أبيك
- ٢ - علي بن أبيك
- ٣ - قطرز
- ٤ - الظاهر بيبرس

(١) الدكتور إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة

— ٢٤٨ —

٥٦٧٦ = م ١٢٧٧

٥ - بركة خان بن بيبرس

٥٦٧٨ = م ١٢٧٩

٦ - سلامش بن بيبرس

ثانياً : عهد قلاوون وابنيه خليل والناصر

٥٦٧٩ = م ١٢٧٩

٧ - قلاوون

٥٦٨٩ = م ١٢٩٠

٨ - الأشرف خليل بن قلاوون

٥٦٩٣ = م ١٢٩٣

٩ - الناصر محمد بن قلاوون [سلطنته الأولى]

٥٦٩٤ = م ١٢٩٤

١٠ - كتبغا

٥٦٩٦ = م ١٢٩٦

١١ - لاجين

٥٦٩٨ = م ١٢٩٨

الناصر محمد قلاوون [سلطنته الثانية]

٥٧٠٨ = م ١٣٠٨

١٢ - بيبرس الجاشنكير

٥٧٠٩ = م ١٣٠٩

الناصر محمد بن قلاوون [سلطنته الثالثة]

ثالثاً : أولاد الناصر

٥٧٤١ = م ١٣٤٠

١٣ - أبو بكر بن الناصر محمد

٥٧٤٢ = م ١٣٤١

١٤ - كشك بن «»

٥٧٤٣ = م ١٣٤٢

١٥ - أحمد بن «»

٥٧٤٤ = م ١٣٤٢

١٦ - إسماعيل بن «»

٥٧٤٥ = م ١٣٤٥

١٧ - شعبان بن الناصر محمد

٥٧٤٦ = م ١٣٤٦

١٨ - حاجى بن «»

٥٧٤٧ = م ١٣٤٧

١٩ - حسن بن «»

٥٧٤٨ = م ١٣٤٨

٢٠ - صالح بن «»

٥٧٥١ = م ١٣٥١

حسين بن الناصر محمد [سلطنته الثانية]

٢٠ - صالح بن «»

— ٢٢٩ —

رابعاً : أحفاد الناصر

- ٢١ - صلاح الدين بن حاجى م١٣٦١ = ٥٧٦٢
 ٢٢ - شعبان بن حسن م١٣٦٣ = ٥٧٦٤
 ٢٣ - على بن شعبان م١٣٧٦ = ٥٧٧٨
 ٢٤ - حاجى بن شعبان م١٣٨٢ = ٧٨٣ - ١٣٨١ = ٥٧٨٤
 وسلطانين الملاليك البرجية هم :

١ - برقوق م١٣٩٨ = ١٣٨٢ - ٧٨٤
 في خلال سلطنة برقوق استطاع يليغاً أن يتغلب عليه
 ويعيد للسلطة حاجى الملوك البحري لمدة عام واحد (٧٩١ - ٧٩٢هـ) ثم استطاع برقوق أن يستعيد مكانته .

- ٢ - فرج بن برقوق م١٣٩٨ = ٥٨٠١
 ٣ - عبد العزيز بن برقوق م١٤٠٥ = ٥٨٠٨
 فرج للمرة الثانية م١٤٠٦ = ٥٨٠٩
 ٤ - العادل المستعين بالله (الخليفة العباسى) م١٤١٢ = ٥٨١٢
 [أصبح سلطاناً مع الخليفة]
 ٥ - المؤيد شيخ م١٤١٢ = ٥٨١٥
 ٦ - أحمد بن المؤيد [لم يكمل العام في الحكم] م١٤٢١ = ٥٨٢٤
 ٧ - سيف الدين ططر م١٤٢١ = ٥٨٢٤
 ٨ - محمد بن ططر [لم يكمل العام في الحكم] م١٤٢١ = ٥٨٢٤
 ٩ - الأشرف بارستبائى م١٤٢٢ = ٥٨٢٥
 ١٠ - يوسف بن بارستبائى [حكم ٩٤ يوماً] م١٤٣٨ = ٥٨٤٢
 ١١ - حتمق [تشقمق] م١٤٣٨ = ٥٨٤٣

- ٢٣٤ -

١٢ - عثمان بن جعفر [لم يكمل العام في الحكم] م ١٤٥٣ = ٥٨٥٧

١٣ - سيف الدين إينال م ١٤٥٣ = ٥٨٥٧

١٤ - أحمد بن إينال [حكم أربعة أشهر] م ١٤٦٠ = ٥٨٦٥

١٥ - خسندم م ١٤٦١ = ٥٨٦٥

١٦ - بلباي م ١٤٦٧ = ٥٨٧٣

١٧ - تيمور بغا (*) م ١٤٦٨ = ٥٨٧٢

١٨ - قايتباي م ١٤٦٨ = ٥٨٧٣

١٩ - محمد بن قايتباي (***) م ١٤٩٥ = ٥٩٠١

٢٠ - الظاهر قانصوه الأشرف م ١٤٩٨ = ٥٩٠٤

٢١ - أشرف جان بلاط م ١٤٩٩ = ٥٩٠٥

(حاول مملوك اسمه طومان باي الاستيلاء على السلطة ولكن

الأمر لم يستقر له)

٢٢ - الأشرف قانصوه الغوري م ١٥٠٠ = ٥٩٠٦

٢٣ - طومان باي [الثاني إذا اعتبرنا سلطة الأول] م ١٥١٦ = ٥٩٢٢

(إلى ١٥١٢ (١))

(*) عزله خير بك وتسلط ليلة واحدة ثم زحف قايتباي .

(**) عزله قانصوه خمسة وعشرين يوماً وتولى بدلته مدة ثلاثة أيام .

(1) هذه القوائم من زامباورو Stanley Lane-Poole

- ٢٣١ -

وقيعاً يلى درامة عن أهم الأحداث في العصر المملوكي :

من الأيوبيين إلى المماليك

استطاعت الحملة الصليبية التي قادها لويس التاسع أن تتحل دمياط واتجهت إلى القاهرة ، وسار الملك الصالح لمقابلة الحملة ، ورابط في المنصورة ، ولكنه مرض هناك مرض الموت ، بيد أن السيدة أم خليل شجرة الدر شريعة الملك الصالح أرسلت تستدعي توران شاه بن الملك الصالح ، ودارت المعارك بين الجيش المصري وبين الصليبيين ، ومات الملك الصالح والمعارك تدور ، فأخفت شجرة الدر وفاته : وظلت تصدر الأوامر باسمه ، وأبدى الجيش المصري بقيادة المماليك بزاعة فائقة ودارت المعركة في أزقة المنصورة وشوارعها ، فسقط من جيش الفرنجية ألف وخمسمائة قتيل ، وأسر عدد كبير كان من بينهم لويس التاسع نفسه ، وقد سبق مكبلاً بالأغلال إلى دار فخر الدين ابراهيم بن لقمان حيث سجن (١) ، وحضر توران شاه عقب الموقعة فأسلمته شجرة الدر السلطة وأعلنَت وفاة الملك الصالح .

شجرة الدر :

وكانت شجرة الدر ذكية حازمة مظلة خلال هذا الموقف الدقيق كما رأينا ، وكانت تتطلع إلى اعتراف بالجميل من توران شاه ، ولكنه بدلاً من ذلك ظهرت عليه علامات الريبة فأخذ يتشكّ في أمانتها تجاه ثروة أبيه ، كما أنه لاحظ بوادر غرور من المماليك فأظهر النية لکبح جماحهم ، وتهدّدهم . ويروى أنه كان يشرب الخمر ويكتسب مجتمعه من الشموع أمامه وهو سكران ، ثم يمسك بسيفه ويضربها واحدة واحدة وهو يردد : « هكذا أفعل بالبحرية » ، وكان كلما ضرب شمعة ذكر اسم واحد

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٣٥٦ وابن تغري بردي : التجوم الظاهرة ج ١ ص ٣٦٧ .

من الزعماء (١) . وكان أن تأمت عليه شجرة الدر والماليك فقتلوه بعد سبعين يوما من توليته الملك .

وانتقمت كلمة الماليك على أن تتولى شجرة الدر سلطان البلاد ، وتولته فعلا حوالى ثلاثة أشهر (٢) ، ولكن الخلافة العباسية استقررت أن تلئي الأمر امرأة ، ويقول المقريزى أن الخليفة أرسل للماليك يقول :

إن كان الرجال قد عذرموا عندكم فأعلمونا لنرسل إليكم رجالا (٣) .
ونتيجة لذلك فكرت شجرة الدر في التخلى عن عرش مصر ، فتروجت
عز الدين أبيك وتنازلت له عن العرش ، ولم يكن أبيك ذا شخصية قوية ،
مما يفيد أن شجرة الدر اختارت مختارا لتحكم من ورائه ، ولكن أبيك
أراد أن يستبد بالسلطان دونها ، فحصل بينهما صراع انتهى بأن دبرت
شجرة الدر قتلها ، ثم قتلتها فيه ابنه .

بقي اسم صغير ينبعى أن نذكره قبل أن يتم الأمر للماليك ، ذلك هو
الصبي الأيوبي الأشرف موسى وهو ابن توران شاه الذى وضعه الماليك
مع أبيك كسلطان شرعى على أن يكون أبيك وصيا عليه ، ولكن أبيك
سرعان ما عزله واستبد بالأمر ، وبعزل الأشرف واستبداد أبيك بالأمر دون
شجرة الدر ، انتهى ملك الأيوبيين وأصبح الأمر في مصر للماليك .

وفي هذه الأثناء زحف الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب وضمَّ إليه
دمشق ، بل أنه زحف على الديار المصرية للقضاء على ما اعتقده تمردا
من الماليك على أسرته « سبتمبر ١٢٥٠ » ، وقد دار نزال بين الأيوبيين
والماليك انتصر الماليك في نهايته « فبراير ١٢٥١ » ، بيد أن الخلافة

(١) السلوك للمقريزى . ج ١ ص ٣٥٩ .

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ١٩٠٣ وخطط المقريزى ج ٢
ص ٣٢٧ .

(٣) كتاب السلوك ج ١ ص ٣٦٨ وحسن المحاضرة الشسيوطى ج ٢ ص ٣٩ .

— ٢٣٣ —

العباسية أنسنت بالخطر الذي يهدد العالم الإسلامي بسبب زحف التتار تجاه العراق ، فتدخلت بين المماليك والأيوبيين ، وتم اتفاق في أبريل ١٢٥٣ على أن تكون مصر وفلسطين حتى نهر الأردن بما في ذلك غزة والقدس والساحل للمماليك وتكون بقية الشام للأيوبيين (١) .

ولكن التتار تقدموا وقضوا على الخلافة العباسية وزحفوا تجاه الشام ، فأسرع الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب إلى اعلان خصوته للتتار ، وأرسل ابنه بذلك إلى هولاكو ومعه مجموعة من التحف والمهدايا ، ولكن هولاكو تغلب عليه حرصه على سفك الدم والتدمير فادعى أن عدم حضور الناصر بنفسه يُعدّ إهانة شخصية له وزحف على حلب فدمروا ، واتجه إلى دمشق فأنزل بها مثل ما فعل بحلب ، ولم يوقف زحفهم إلا المصريون في موقعة عين جالوت التي ستكلم عنها فيما بعد ، والمهم هنا أنه بهزيمة التتار على يد المماليك التقت الشام ومصر مرة أخرى تحت حكم واحد ، وأعيد الحصار حول الصليبيين .

وظلت السلطة في أيدي المماليك البحريية مدة ١٣٢ عاماً كما رأينا في القوائم السابقة ، وكان المماليك البرجية منذ اشتراهم قلاوون وأسكنتهم برج القلعة بعيدين عن معركة السلطان ، ولكن عندما اخترقت الأحوال إبان عهد أحفاد الناصر ، بسبب تولية الأطفال وثورات العريان وتمرد الحكام في الشام ، بدأ المماليك البرجية يزجّون بأنفسهم في المعركة ، فتولى بررقوق الوصاية على حاجي حفيظ الناصر وكان طفلاً في التاسعة من عمره ، وقد استطاع بررقوق أن يحيث الخليفة العباسي والقضاة والأمراء على عزل هذا السلطان الصبي وإسناد الأمر له رجاءً أن يعيد الاستقرار والأمن للبلاد ، وقد انتقلت بذلك السلطة من المماليك البحريية إلى المماليك البرجية .

(١) المقريزي : السلوك ج ١ من ٣٨٦ .

قولية السلطة وأساليبها

بملاحظة الحديث عن سلاطين دولتي المالكية نقرر أن المالكية البحريه حاولوا تقليل سلطتهم الأبيوبين في نظام الوراثة ، وقد بدأ الظاهر بيبرس بخلق نظام ولادة العهد فجعلها لأولاده من بعده ، وإذا كان الظاهر لم ينجح في تثبيت ولادة العهد في أسرته ، فإن قلابون نجح في ذلك فيبقى الملك في بيته حوالي مائة عام حتى سقوط المالكية البحريه كما ذكرنا من قبل .

ويبدو أن نظام التوارث فشل ، ولذلك لم يأخذ به المالكية البرجية أخذًا حقيقيا ، مع أن أكثر السلاطين حاولوا تعين أولادهم ليروا الأبوه بعدهم ، وكسان المالكية الآخرون يتظاهرون بالموافقة ويقدمون البيعة ويقسمون عليها الأيمان ، بل ينفذونها فعلا عقب وفاة السلطان ، ولكنهم سرعان ما يضيقون بالسلطان الصبي ويعزلونه ليتولى الأمر متغلب منهم وهو ما نشاهده بملاحظة قائمة المالكية البرجية ، ويقول Lane-Poole في ذلك بعد أن أورد قائمة المالكية البرجية إنه لا يوجد أكثر من هلكين من أسرة واحدة ولذلك فليس هناك ما يدعوه إلى رسم شجرة للسلاطين .

وقد تسبب عن هذا الموقف من السلاطين البرجية أن كثر الخلاف بينهم ، وأصبحت ولادة السلطة معركة لا تتقطع ، ويزيد أوارها إذ خلا العرش أو تولاه طفل من أبناء السلاطين ، وقد دعا ذلك بعض المعتلة إلى ازدراء هذا المنصب والحرس على عدم ثيله ، لما يحوطه من فتن وصخب ، ومن الذين زهدوا فيه الأمير أربك الذي أريد لهذا المنصب ، فاقسم بالطلاق ألا يقبله ، كما رفض السلطان قايتباى أن يعهد لابنه محمد بولادة العهد خلال مرضه لإدراكه أنه يضنه - لو فعل - في أتون دائم اللهب .

وليس العدول عن إخضاع هذا المنصب للتوارث ناشئا عن ديمقراطية ، بل كان ناشئا عن أطماع غمرت الجميع وجعلت كل واحد

من المالكين يحس أنه جديرون بشغل هذا المنصب ، وعلى هذا كان ذلك العهد عهد مؤامرات وعمل في الظلام ، وخيانات دنيئة ، وهذا النظام على العموم كان سائداً خلال العصور الوسطى في المجتمعات الاقطاعية ، فالسلطان وملكية الاقطاع يجتمعان لن يستطيع أن ينالهما بمؤامراته وسيوفه ، وكما ينالهما الاقطاعي يفقدهما بنفس الوسيلة .

تعريف بأشهر السلاطين

من مراجعة القوائم السابقة عن سلاطين المالكين ، نلاحظ أن بعض السلاطين لم يظهر لهم دوو يستحق الذكر ، وكان عدد كبير منهم في سن الطفولة والصبا ، فلم يكن غير ستار تحكم من خلفه قوى متضاربة ، ومن أجمل هذا يستقر هنا كلامنا على السلاطين الذين لعبوا دوراً مهماً في التاريخ .

الظاهر بيبرس :

إذا كان قطعاً قد انتصر على التتار في موقعة عين جالوت ، فقد شاركه في تحقيق هذا النصر قائد جيشه الظاهر بيبرس ، ولذلك فنحن نتخبط في تحديد لائق وقفة عند بيبرس الذي يُعد في القمة من سلاطين المالكين ، وسنرى اسمه بارزاً في النضال ضد التتار ، وفي النضال ضد الصليبيين ، وسنراه كذلك مؤسساً لخلافة العباسية في القاهرة ، وطممواها في استعادة بغداد من التتار ، وندع هذا إلى حينه لنتكلم عن نواحٍ غيرها في هذا السلطان العظيم .

كان بيبرس إدارياً حازماً ، دائب العمل لترقية شئون بلاده وتنمية مواردها ، حفرَ الترع وأصلاح الحصون ، وأسس المعاهد وبنى المساجد ، وكان له مقام كبير بين أمراء مصر حتى هابوه وخسوا بأسه ، ولم يكن أحدُ منهم يجرؤ على الدخول عليه إلا بإذنه ، وكان شجاعاً ضربت الأمثال ببطولته وشجاعته ، وكان مثلاً للحاكم العادل ، يجلس للنظر في

المظالم بنفسه ، ويعطف على الفقراء والمعوزين ، وكانت حكومته استبدادية ولكنها كانت مستترة ، وقد وضع بيبرس أحسن دولة المالك ، وابتدع طرقاً لحكمها ، واستحدث كثيراً من الوظائف الهامة ، ووجه عنايته للجيش ، ورفع شأن الأسطول المصري بعد أن اضمر في أواخر عهد الدولة الأيوبية ، وأصلاح نظام القضاء بأن عين قضاة من المذاهب الأربعة للفصل في الخصومات ، وأصدر عدة قوانين لرفع المستوى الخلقى في مصر ، ومنها أن أمر بمنع بيع الخمور وأغلق الحانات ونفى كثيرين من المفسدين (١) .

ومن أعماله المجيدة القضاء على فرقة الحشائين بسوريا ، تلك الفرقة التي عاشت بالقيم والمبادئ ، وامتد نشاطها في الدس والاغتيال حتى أصبحت خطاً جسيماً ، وقد تم لبيبرس سحق هذه الفرقة في سوريا إلى الأبد (٢) .

وفي سنة ٦٧٤ هـ استدار بيبرس إلى بلاد النوبة التي بدأ بها لون من التمرد على المعاهدة التي تربطهم بمصر والتي تحدثنا عنها من قبل وقد استطاع بيبرس أن يقضى على هذا التمرد ، ويرغم الثنائيين على الخضوع لنصوص المعاهدة ، وسنرى تفصيل ذلك فيما بعد .

وقد امتد ملك مصر في عهد بيبرس من الفرات إلى الحجاز وجنوب الجزيرة العربية وشمل كذلك بلاد الشام وبيت المقدس وسوائلن وغيرها على البحر الأحمر ، وخضع له عرب الصحراء وكثير من سلاطين المغول ، وتبادل السفراء مع أمبراطور الروم وشيد مسجداً في الأستانة ، وأرسل له خان المغول ابنته ليترويجها .

(١) دكتور علي ابراهيم : مصر في العصور الوسطى ص ١٦٥ يتصرف :

(٢) انظر ما كتبناه عن هذه الفرقة في الجزء الثامن ص ١١٨ - ١٢٢
وانظر تاريخ سوريا لنبيليب حتى ج ٢ من ٢٤٧ .

وقد عَثَّرَ بيبرس عناية كبيرة بالعلوم والمعارف ، وإصلاح الرى والزراعة ، ولم يغفل في فرض الضرائب مع كثرة حروبه ، بل خفَّضَها إلى أصغر حد كاف للقيام بمشروعاته العظيمة (١) .

ومن آثاره مسجده بالحسينية المعروف بجامع الظاهر ، والمستشفى المعروف بمستشفى قلاوون بالنحاسين .

أما ما عُزِّزَ عنه أحياناً من القسوة والميل إلى الغدر فيمكن أن يُعدَّ نتيجة طبيعية للظروف المحيطة به ، وللفوضى التي كانت طابع المماليك .

وهناك عَلَّامٌ شهير عاصر الظاهر بيبرس ، ويقال إنه اتصل به ، وهو السيد أحمد البدوى ، وينسب الرواة لهذا الولى ألواناً من المكرمات يتصل بعضها بالحرب وأسرى الحروب التي ملأت تاريخ هذه الحقبة ، ولسننا هنا نتحدث عن كرامات الأولياء فلهذه حديث مفصل في مكان آخر (٢) ؛ ولكننا هنا نقرر أن التاريخ الصحيح لم يَرُدْ شيئاً عن صلات السيد البدوى بهذه الحروب ولا بنتائجها ، ويروى بعض الباحثين (٣) أن السيد البدوى مفترى عليه ، وأن رواة الأخبار وخدَّامَ الصريح على مر الزمان اختلقوا كثيراً مما تسبَّب إليه لتهالك عليهم النذور .

قلاوون :

بعد ثلاثين عاماً من قيام دولة المماليك البحرية تولى قلاوون الحكم ، وبقى السلطان في بيته حتى نهاية هذه الدولة ، وسنرى صراع قلاوون

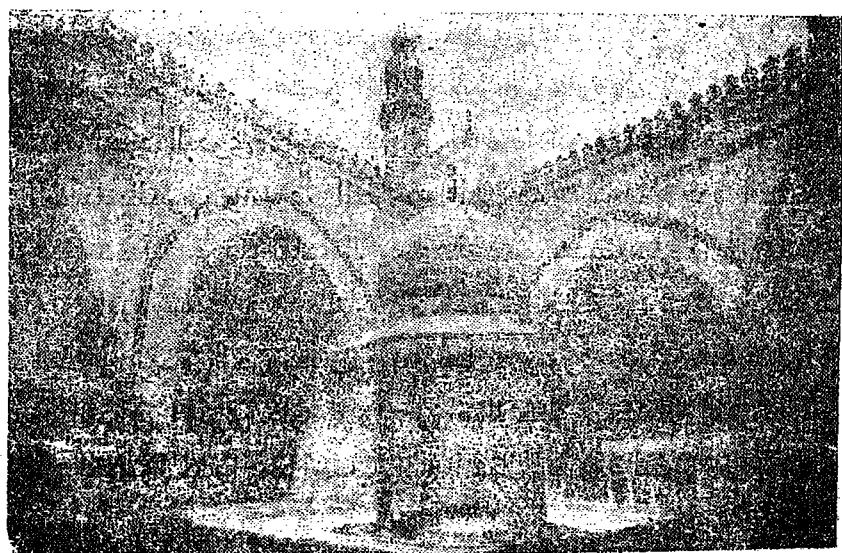
(١) عمر الاسكتندرى وسيفديج : تاريخ مصر إلى الفتح العثمانى ص ٢٣٤ .

(٢) الحياة الاجتماعية في التفكير الإسلامي للمؤلف .

(٣) انظر « السيد احمد البدوى : شیخ وطريقة » للدكتور سعيد

عششور ص ١٤٥ .

ضد الصليبيين ضد التتار ، ولكننا هنا نتحدث عن مظاهر أخرى ترتبط به ، فقد سار قلاوون سيرة بيبرس في العدالة وادارة شئون البلاد والتقارب إلى الشعب ، وهو الذي جلب المالكية الشراكسة كما ذكرنا من قبل ، ويبدو أنه عاش في حراستهم في أمّن فلم يلجاً كثيراً إلى سفك الدماء ، وتنسب له كثير من المنشآت العظيمة ، ومن أهمها المسجد والصريح والمستشفى التي أقامها على رقعة من أرض القصر الفاطمي الصغير الغربي بشارع المعز لدين الله بالتحاسين ، ومكان المستشفى الآن مصحة لأمراض العيون أقيمتها وزارة الأوقاف سنة ١٩١٥ .



مسجد قلاوون

وكان لقلوون ثلاثة أبناء هم : علاء الدين وخليل والناصر ، وكان علاء الدين ممتازا ، وكان موضع حب الجميع حتى أن أباه فكر في توليته السلطة بذاته وهو حري ، ويقال إن أخيه خليلا نفس عليه هذه المكانة فدس له السُّم فمات . ولم يعين قلاوون خليلا ولها لعنه لهذا السبب ، وقال عندما عُرِض عليه هذا الأمر : أنا ما أولئي خليلا على المسلمين (١) . كما أن قلاوون لم يول ابنه الثالث لصغر سنه ، وترك الأمر لقيادة المسلمين ؛ وهو موقف طيب يحسب لقلوون في الميزان ، ولكن السلطة وبعد قلاوون آلت على كل حال لابنه خليل (الأشرف خليل) الذي كان له دور عظيم في القضاء على الصابريين وسذركه فيما بعد .

الناصر محمد بن قلاوون :

هو الابن الثالث لقلوون ، تولى بعد أخيه الأشرف خليل ، وقد تولى الناصر الحكم ثلاث مرات ، وكان عندما تولى في المرة الأولى في التاسعة من عمره ، وقد استمرت ولايته هذه المرة عاما واحدا ، ثم اغتصب كتبغا فالمصوّر لاجين الملك منه مدة أربع سنوات ، وكان عهدهما مليئا بالفتنة والاضطراب ، وأعيد الناصر للسلطة للمرة الثانية ، ولكنه كان لا يزال دون سن الرشد (في الرابعة عشرة) ، فاستخف به الأشخاص ، وعلى الرغم من أن سلطنته امتد هذه المرة عشر سنوات إلا أنه لم يستطع أن يوقف الاستهانة التي بدأ الأشخاص يعاملونه بها منذ مطلع هذه السلطنة ، فاضطر إلى الرحيل إلى الكرك تاركا حياة المؤامرات والدسائس والاستخفاف ، واغتصب بيبرس الجاشنكير « بيبرس الثاني » ، السلطان لنفسه مدة عام ، ولكن الناس كانوا يدركون أن الناصر أكثر اخلاصا منه وكفاءة ، فكتبوا له يطلبون عودته ، وعاد الناصر ليتولى السلطة للمرة الثالثة وابتدأ هذه السلطة وقد اكتمل نضجه وازدهر شبابه إذ أصبح في منتصف العقد الثالث ، وقد دامت ولايته هذه ثمانية وثلاثين عاما ، وكانت -

(١) المقريزى : السلاوك ج ٤ ص ٧٤٥ .

بالاضافة الى طولها الزمني - حافلة بجلائل الاعمال ، وسندع الان موقفه الجبار ضد التتار والصلبيين لنتحدث عن بعض اصلاحاته واتجاهاته ، ويقول المؤرخون إن القاهرة في عهد الناصر كانت حاضرة لإمبراطورية شاسعة متحدة ، وبسيط نفوذها على اليمن والجهاز بالإضافة الى مصر والشام ، وخطب ودها ملوك من أوروبا وأسيا .

ولم يكن نشاط الناصر مقصورا على الحروب والغزوات ، بل امتد الى الناحية الاجتماعية وال عمرانية ، فـ^{سَعَنْتِي} بالشئون الداخلية للبلاد ، ومما يذكره له التاريخ أنه حـدّد الأثمان حتى لا تصعب على الفقراء ، وألغى كثيرا من الضرائب التي كان يلتزم بها جماهير الشعب ، واستعراض عنها بضرائب على كبار الموسرين ، وتشدد في منع شرب الخمر وفي حفظ الآداب ، ونشط في نشر العلوم والمعارف ، واهتم بفن المباني وبالنقوش العربية اهتماما كبيرا ، وهو المنشئ لقنطرة المياه الموصولة بين القلعة والنيل ، وإن كانت قد نسبت خطأ إلى صلاح الدين ، ووصل بين النيل والاسكندرية بقرعة ، وأنشأ طريقا عظيما بجانب النيل ، كان بالإضافة إلى فائدته كطريق ، يرمي المياه وقت الفيضان (١) .

وليس بعد الناصر سلاطين يستحقون الذكر إلا كلمة صغيرة عن السلطان حسن بن الناصر الذي بني المدرسة العظيمة المعروفة الآن بجامع السلطان حسن بجانب القلعة .

(١) عمر الاسكندرى وسيفدرج : تاريخ مصر حتى الفتح العثمانى ص ٢٣٦ .

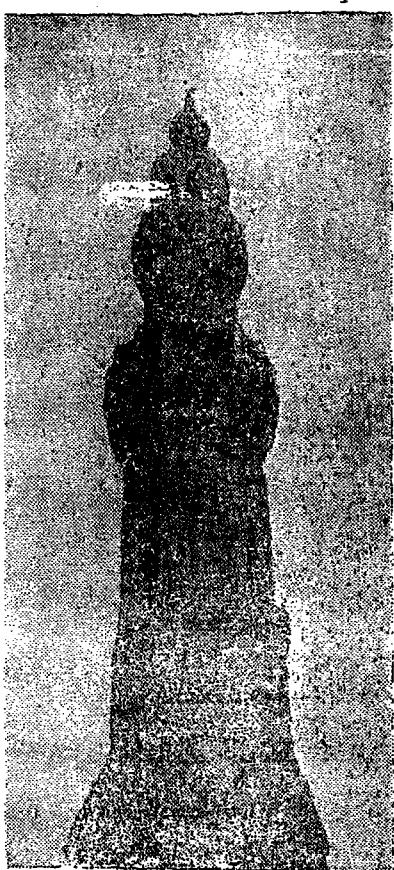


مسجد الرفاعي والسلطان حسن

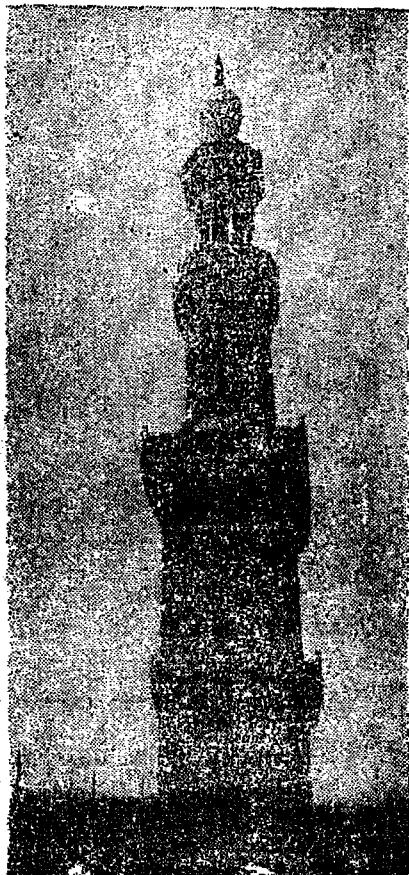
أما المماليك البرجية فليس بينهم من يستحق أن نقف عنده ، وكان عددهم عدد اضطراب وقلق ، كثُر تغيير السلاطين حتى كان منهم من حكم ليلة واحدة أو بضعة أيام أو بضعة شهور ، وعن بين سلاطين البرجية يمكن أن نذكر برباعي ، ولعله أقوى من ولی السلطنة منهم ، وإن لم يكن أفضalem ، ونذكر كذلك برقوق وجعفر ، وقلبيتساى وهم أطهول السلاطين عهداً ولهم آثار ذات شأن من أهمها مسجد برقوق ومسجد قلبيتساى ، وقلعة قلبيتساى بالاسم كثفريه *

وكان من أسباب عدم الاستقرار في هذا العهد – بالإضافة إلى الأرض طراب الداخلي – غارات البدو التي تكررت على مصر في عددهم ، وغارات قراصنة الفرتنجية في البحر المتوسط والبحر الأحمر ، وكشف طريق رأس الرجاء الصالحة ، ومنافسة العثمانيين للمماليك ، تلك المنافسة التي انتهت بزوال دولته المماليك ودخول مصر وسوريا ضمن الإمبراطورية العثمانية كما سنرى فيما بعد *

- ٢٤٣ -

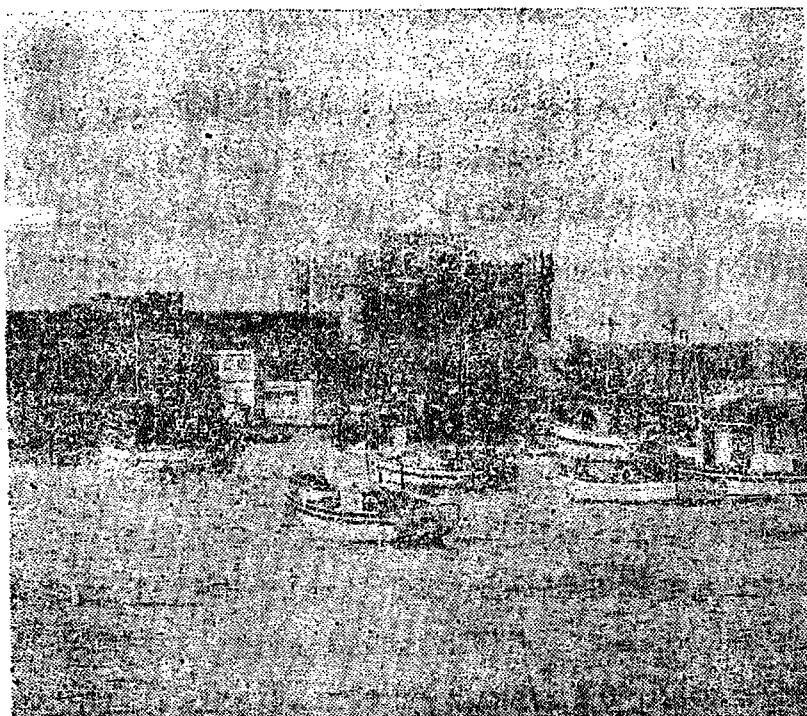


منارة مسجد قايتباى



منارة مسجد برقوق

- ٢٤٣ -



قلعة قايتباى بالاسكندرية



إبريق من الفضة مطعم بالنحاس - العهد المملوکي

الخلافة العباسية في مصر

كان إحياء الخلافة العباسية بمصر حدثاً مهماً من الأحداث الكبرى التي جرت في عهد المماليك، فقد سقطت بغداد سنة ٥٦٥٦ (١٢٥٨ م) في أيدي التتار على يد هولاكو وجنوده، وقتل الخليفة العباسى وانتهت الخلافة العباسية ببغداد، وبعد سنتين من ذلك بدأت سلطنة الظاهر بيبرس، وسرعان ما فكر في إعادة الخلافة العباسية، فاستدعى سنة ٥٦٥٩ (١٢٦١ م) أحد أبناء العباسيين الذين فروا من وجه الزحف المغولى وأسمه أبو القاسم، وعقد مجلساً حافلاً حضره القضاة ورجال الدين والأمراء والعلماء، وثبتَّتْ في هذا الاجتماع نسب هذا الواقد، وبايده الحاضرون بالخلافة ليكون خليفة الإسلام والمسلمين، ولقب «المستنصر بالله»، ثم أخذت له البيعة على الناس على اختلاف طبقاتهم، وبعد أن تمت هذه المراسيم والتقاليد قلد الخليفة الظاهر بيبرس حكم البلاد جميعها باسمه، وحكم ما سيفتحه الله عليه بالدعوة أو بالسيف، ونقشت المسکة باسم الخليفة والسلطان، ودعا لهما الخطباء في المساجد في صلاة الجمعة^(١).

وبهذا التصرف أحاط بيبرس عرش المماليك بالقداسة والإجلال وأصبحت سلطتهم شرعية^٠

وقد زادت أطماع بيبرس، فأراد أن يسترجع بغداد من المغول وبخاصة أنه كان قد أوقع بهم حديثاً (سنة ١٢٦٠ م) هزيمة ساحقة في عين جالوت فأعد جيشاً كبيراً جعل الخليفة العباسى قياده، وسيئره ليسترجع عاصمة آبائه وأجداده، ولكن المغول تصدوا له وقضوا عليه، ولما علم بيبرس بمقتل الخليفة حزن عليه واستدعى عباسياً آخر هو أبو العباس أحمد، وبعد أن ثبت نسبه تمت بيعته على النحو السابق،

(١) المقريزى: كتاب السلوك ج.١ ص. ٤٥٠ ، ابن ابياس ج.١ ص ١٠١ ٠

وبالتالى أعاد الخليفة "تقليد" ببعض الولاية على البلاد الإسلامية ، ثم أدرك ببعض أن من الخير له أن يستبقى الخليفة في القاهرة ، ليكون الخليفة منفذًا لرغباته ، فذلك أحسن من انتقال الخليفة إلى بغداد على فرض الانتصار على المغول ، لأن الخليفة في بغداد سيتصرف على نحو معاير لتصrفة وهو في القاهرة ، أو ستحكم فيه قوى أخرى كتلك التي تحكمت في الخلفاء العباسيين ابتداءً من العصر العباسي الثاني ٠

وهكذا أعيدت الخلافة العباسية في القاهرة ، وعاشت بها طيلة حكم المماليك البحرية والبرجية ، ولكنها لم يكن لها حول ولا طول ولا رأي في سياسة الأمور ، وإنما كان عملها أن تبارك سلطة من حصل على السلطة بسيفه ، وقد ظلت هذه الخلافة العباسية بمصر حتى الفتح العثماني ٠

المماليك والتتر

إذا كان الأيوبيون قد مهدوا الطريق للمماليك ليتتصروا في النصال ضد الصابريين ، فإن أحداً لم يمهد الطريق للمماليك ليوقعوا بالمغول ، وعلى العكس خرت قوى كبيرة في آسيا وأوروبا أمام زحف المغول الدمر ، ولذلك عَدَ انتصار المماليك عليهم حماية للحضارة العالية التي كانت — لو لا مصر والمماليك — على وشك أن تنهار وأن تدوسها أقدام المغول المخربة التي أتت على كل مدينة في كل وطن حلث فيه ، ولنعد لمسألة من أولها :

كان المغول قبائل همجية وحشية تنتقل في الهضبة الآسيوية الشاسعة التي تمتد من أطراف الصين إلى أواسط آسيا ، باختلاع عن الرزق والراغب ويفيدوا أن الراعي الحرة التي لا يملكونها أحد لم تف بحاجتهم ، فعمدوا إلى الاستيلاء على الراعي والمزارع المملوكة لآخرين ، وام يكتن استيلاؤهم عليها استيلاء من يرغب في الاستقرار والاستثمار ، وإنما كان استيلاء الباحث عن الفائدة السريعة دون عناء أو جهد ٠

— ٤٦ —

هذا مظاهر من مظاهر حياة المغول في حركاتهم الأولى ، ومظاهر آخر أنهم كانوا مدمرين يأتون على كل ما يقابلهم من مظاهر الحضارة ؛ فقد كانوا يرون الحضارة وسيلة للقضاء عليهم ، فأخذوا يهدمون المباني ، ويحرقون الكتب ، ويقتلون المفكرين والعلماء .

وف، أوائل القرن الثالث عشر الميلادي ، استطاع جنكيز خان أحد زعماء هذه القبائل أن يكون منها وحدة ، أصبحت آنذاك خطرًا على الحضارة الإنسانية ، وقدر له التجاج فبسط سلطانه على معظم الصين وببلاد التركستان حتى حدود إيران .

وقف خلفاء جنكيز خان على أبواب العالم الإسلامي ، وألت قيادتهم إلى هولاكو حفيد جنكيز خان الذي زحف بجيشه الجرار على العالم الإسلامي حتى وصل بها بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، وقبض على الخليفة وأباح العاصمة لرجاله مدة أربعة أيام ، ثم قتل الخليفة نفسه وكثيراً من أفراد أسرته ، وزالت بذلك الخلافة العباسية من بغداد سنة ٥٦٥٦ (١٢٥٨ م) .

ومن بغداد زحف هولاكو إلى الشام ، فاحتل حلب وأعمل السيف في خمسين ألفاً من سكانها ، ثم احتل حماه ودمشق وعقد معاهدة مع أنطاكية اللاتينية للتعاون ضد المسلمين ، ولاتقى المسلمون في دمشق وغيرها من مدن الشام ألواناً من الذلة ، وأظهر المسيحيون الشرقيون التشفى فيهم والانتقام منهم ، فسارت مواكبهم تحمل الصليبان ، وألزموا المسلمين القيام لهذه المواكب واحترام هذه الصليبان ، وما ساعدتهم ذلك أن « كيتوبوغا » نائب هولاكو كان مسيحياً متعصباً ، ومحظياً بشدّ القسوة على المسلمين (١) .

وعقب احتلال دمشق تقدم المغول بسرعة فاحتلوا نابلس وقتلوا

(١) الذهبي : دول الإسلام ج ٢ ص ١٢٥ . وانظر الجزء السابع من هذه الموسوعة للمؤلف .

حاميتها ، ثم تقدموا إلى غزة دون أن يلقو مقاومة ، وأصبحوا بذلك بالقرب من حدود مصر ، ويتجه ابن العبرى إلى أن المسيحيين الشرقيين أحوالاً على هولاكو ليندفع بجنوده إلى مصر ، ولم يكن هولاكو ي يريد ذلك ، وتحت ضغط المسيحيين وافق هولاكو على أن يتجه قائدته وخليفته لتحقيق منه الأطماع ^(١) وعاد هولاكو إلى إيران ليسهم في تدمير أمر "عاصمة بعد وفاة أخيه الأكبر منكوفا آن سنتة ٥٦٥٥ هـ وقيام خلاف بين أخيه قوبيلاي وأريق يوكا ، وكان هولاكو يؤيد تولية الأول عرش السلطة ، وقبل أن ييرح هولاكو الشام أرسل إلى قظر سلطان مصر رسالة قاسية يهدد فيها ويتوعد ، وما جاءه فيها قوله : قد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وقتلنا معظم العباد ، فعليناكم بالمرء ، وعلىنا الطلب ، ولكن أى أرض تؤويكم وأى بلاد تحميكم ، خيولنا سوابق ، وسيجوفنا حسوانق ، وقلوبنا كالجبال وعدنا كالرمال ^(٢) .

وتلقت مصر هذه الرسالة ، ودار حولها نقاش ، وكان معنى الاستسلام أن يضيع العالم الإسلامي ، إذ لم يكن قد يبقى إلا مصر بعد سقوط العديد من دول الإسلام تحت سلطان المغول ، وأحسست مصر بمسؤوليتها تجاه الإسلام والمسلمين مع ما في ذلك من مخاطرة ، ولم يكن من الممكن الاتفاق مع المغول فقد عرف هولاكوه بمنفعته العهود ، والقضاء على المسلمين ، ولم تبق إلا المواجهة ، وعلى هذا اتفق السلطان قظر وأمير الأمراء قائد الجيوش بيبرس ، وكل القادة المصريين ، وتتفيدا لذلك مسدرات الأوامر بقتل سفراء المغول الذين حملوا التهديد ، وكان ذلك إيذانا بقيام الحرب ^٣ .

ولم يقنع الجيش المصري بموقف الدفاع من داخل الحصون ، ذلك النظام الذي كان يلجأ له الأمراء في البلاد المختلفة التي هاجمتها المغول ، فقد كان ذلك يتيح للمغول أن يسحقوا الحصون ويدفنهوا أعدائهم في

(١) تاريخ مختصر الدول ص ٢٨٠ .

(٢) الرسالة في السلوك لأمثيري ج ١ ق ٢ ص ٤٢٦ .

خصوصهم ، وتحاشيا لذاك لجأ المصريون للمجوم ، فزحف بيبرس ، واقتحم غزة وقضى على حاميتها ثم زحف قطز إلى عكا ، وسمح له الفرنجة باحتياز طرقيهم فإذا كانوا يثقون في المسلمين أكثر مما يثقون في المغول .

عين جالوت :

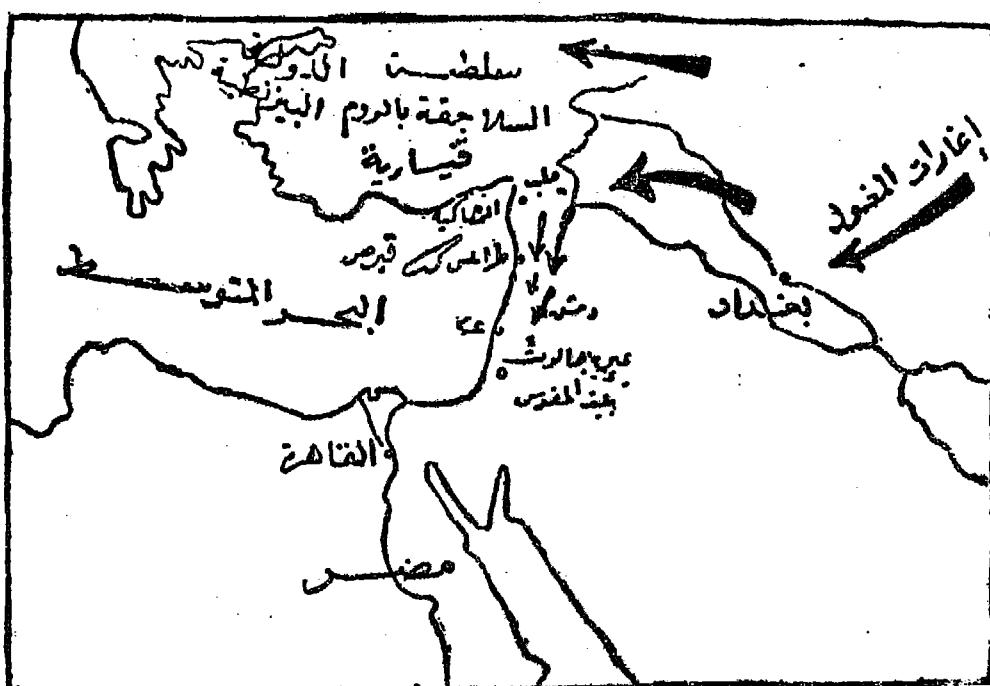
شهدت عين جالوت التي تقع بين بيسان ونابلس معركة من أخطر معارك التاريخ ، فقد اتجه لها كيتوبيقا مزجرا عندما وصلته أنباء اندحار جيشه في غزة واتجه لها كذلك جيش مصر الجب ، وكان اللقاء في يوم ١٥ رمضان سنة ٥٦٥٨^(١) ، وقد أعد قطز خطته للمعركة اعدادا عبريا ، فقدم بعض جيشه بقيادة بيبرس ، واحتقى مع بقية الجيش خلف بعض القلال القرية ، ونزل كيتوبيقا المعركة بكل جيشه ، وعندما حميت المعمدة تقدم قطز من مكتنه فأحاط بجيش المغول وكانت معركة

(١) بمناسبة هذه الموقعة الخطيرة التي حدثت في رمضان نذكر أن هذا الشهر المبارك شهر عدة مواقع فاصلة خاصها المسلمين بنجاح عظيم ، ومن هذه المواقع :

- غزوة بدر الكبرى في سنة ٢ للهجرة .
- فتح مكة سنة ٨ للهجرة .
- غزوة تبوك سنة ٩ للهجرة .
- نتح المسلمين لجزيرة رودس سنة ٥٣ هـ .
- نزول المسلمين شواطئ إسبانيا وغزو بعض الشعور الجنوبي سنة ٩١ هـ .
- انتصار طارق بن زياد على الملك رودريك في ٢٨ رمضان سنة ٩٢ هـ .
- ونصل إلى قمة النجاح في العصر الحديث في العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ هـ حيث الانتصار العظيم على اليهود وعبور القناة وتدمير خط برليف ..

واعتقادي أن حدوث هذه المعارك في شهر رمضان لم يكن مصادفة ، بل كان منحة من الله الكريم لهذا الشهر المبارك ، واعتقادي كذلك أن النجاح في هذه المعارك كان بعون الله مثله الآية الكريمة التي نزلت في غزوة بدر وهي قوله تعالى « فلم يقتلهم ولكن الله قتلهم » وما رميتك أذ رميتك ولكن الله رمى » ولو حدثت هذه المعرك في عهد نزول القرآن لكان من الممكن تكرار هذا المعنى .

هائلة بدأت من الفجر وظلت حتى منتصف النهار ، ويقال أن قطز أحس باضطراب في جيشه والحركة تدور فخلع خوذته وألقاها على الأرض وصرخ : وا إسلاماه واندفع يضرب في استماتة وقوية حتى هنرم المغول هزيمة كاملة ، وسقط الجيش المغولي بين قتيل وأسير وجريح ، ولما انتفع النصر للصريين عرض بعض المغول على قائدتهم أن يهرب بحياته ولكنه رفض ، وظل يصارع وحده حتى سقط جساده وأخذ أسيرا ، وعندما وقف بين يدي قطر أطلق لسانه بكلمات قذف وبسباب ف sider الأمر بالقضاء عليه (١) .



ولم يثمل بببرس — وقد آل له سلطان مصر — بالنصر الذي أحرزه مع قطر في عين جالوت ، بل انه لاحق المغول تجاه الشمال حتى أوقع

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاغرة ج ٧٦ من ٧٦ .

- ٢٥٠ -

بهم هزيمة أخرى في قيسارية (قيصرية) بأسيا الصغرى واستمر ذلك
مملكة الروم السلاجوقيين التي كان المغول قد أستولوا عليها (١) .

نتائج انتصارات عين جالوت :

يمكننا أن نوجز نتائج عين جالوت في النقاط التالية :

- ١ - عودة الوحدة بين مصر وسوريا ، فقد كانت بعض ولايات سوريا تأبى على سلاطين مصر إثارة قيام دولة المماليك كما قلنا من قبل .
- ٢ - يعتبر انتصار المماليك في عين جالوت انتصاراً للحضارة وإنقاذاً للبشرية من هؤلاء الهمج الذين لو لم تدرك عليهم الدائرة لأمتد ضررهم ، ولما كان من السهل درء خطرهم عن العالم والأنسانية .
- ٣ - القضاء على الفكرة التي كانت مساعدة عند الدول المسيحية بأن الجيش المغولي جيش لا ينته .
- ٤ - عجلت عين جالوت بزوال الصليبيين من الشام .
- ٥ - سلمت مصر وأثارها من الخراب الذي كان طبيعة النصر المغولي .
- ٦ - ارتفعت سمعة مصر بسبب ما حققته من انتصار على المغول وعلى الصليبيين .
- ٧ - أعادت الهزيمة بعض الرشد إلى المغول ففكروا في الإسلام ، ودخل الكثيرون منهم فيه .

(١) عمر الاسكندرى والماجر سيفدج : تاريخ مصر إلى الفتح العثمانى

بعد عين جالوت :

لم يكن النصر في عين جالوت وما بعدها مصادفة ، إذ تكرر هذا التلغر عدة مرات ، فقد أعد المغول عدتهم من جديد للزحف على مصر والشام ولكن شعبنا العظيم كان يصد هم ، وينزل بهم هزيمة إثر هزيمة ، ففي عهد السلطان قلاوون هاجم المغول حمص فزحف عليهم قلاوون وأوقع بهم هزيمة كبيرة ، أوقفت هجومهم عدة سنوات ، وفي عهد الناصر أغار المغول على دمشق واحتلوها ، ولكن الناصر أعد لهم جيشا ضخما والتقي بهم بالقرب من دمشق في موقعة « عين المشتر » فأوقع بهم هزيمة كبيرة وأسر منهم عشرة آلاف جندي واستعاد دمشق ، وأدرك المغول صعوبة انتصارهم على شعب مصر فعقدوا مع سلاطين مصر صلحًا سنة ٥٧٢٢هـ (١٣٦٢م) وعاشت مصر حتى نهاية هذا القرن في مأمن من غارات المغول .

المغول في عهد تيمورلنك :

في مطلع القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ظهر تيمورلنك في أواسط آسيا ، وقد جحالف المغول مرة أخرى ، واحتل بغداد وضاد إلى حلب فاحتلها ، ولكن بعد أن ضحى بعدد ضخم من رجاله ملأ جثثهم الخندق المحيط بالمدينة ، وكان ذلك في عهد السلطان فرج بن برقوق ، ومن حلب زحف تيمورلنك إلى حمص وبعلبك ودمشق فاحتلها بعد صراع طويل ، ودمر منشآتها ومظاهر الحضارة بها ، ثم اتجه إلى العثمانيين بآسيا الصغرى فسحق جيشهم عند أنقره واجتاح بروسيا وأذربيجان وأسر بايزيد الأول (١) ، ومن حسن حظ المماليك والعثمانيين أن تيمورلنك لاقى حتفه سنة ٤٠٤هـ ، وشب نزاع بين خلفائه انتهى إلى فتنية داخلية استنفدت قواهم جميعا ، وأتاحت للمماليك استعادة شمال الشام .

* * *

(١) ابن عريشاء : عجائب المقدور في أخبار تيمور ص ٦ ، وابن ايس

مواكب النصر :

وقد عنيت المراجع العربية بوصف مواكب النصر المملوكية العائدة من حرب المغول ، وفيما يلى وصف لموكب من هذه المواكب ، ذلك هو موكب السلطان الناصر بن قلاوون في عودته الظافرة من المعركة التي أشرنا إليها آنفا ، يقول أبو الحasan (ابن تغري بردي) إن القاهرة ترینت من باب النصر إلى باب السلسلة بالقلعة ، وتقاخرا الناس في الزينة ونصب الأقواس والقلاع ، واتصلت الزينات في منظر بهيج ، وهضر أهل الريف إلى القاهرة المفرجة ، على الزينة وعلى موكب السلطان ، وحضر العرب بخيولهم وخرجت جماهير الشعب مزينة بالحلبي والجواهر واللائى والحرير ، واحتشد الناس في الطرقات وعلى أسطح المنازل .

ولما وصل السلطان الناصر بباب النصر ترجل سائر الأمراء ، وكان أصحاب الزينات يقدمون لعسكر السلطان شراب الليعون من أحواض أعدوا لها لهذا الغرض (١) .

ويضيف المقرئي وصفه للأسرى ورؤوس القتلى فيقول أن الأسرى كانوا آلafa وكانتوا مقيدين بالسلسل ، وكانت رؤوس القتلى معلقة في رقبتهم وكانت طبولهم تسير أمامهم تعلن عن هزيمتهم وانتصارات السلطان المؤفّرة (٢) .

الماليك والصلبيون

ستتحدث فيما بعد حديثا منفصلا عن الحروب الصليبية ، نحصل فيه القول عن الدور الذي قام به الماليك في هذه الحروب العنيفة ، وفي كامة موجزة هنا نقرر أن الماليك عندما انتصروا في عين جالوت أعادوا وحدة

(١) انطولوجيا الزاهرة : ج ٨ ص ١١٦ .

(٢) المسنون ٢٠٣٣ ص ٩٣٨ - ٩٤٠ .

مصر والشام ، أو قل أعادوا أحكام الحصار حول الصليبيين ، فكان ذلك وسيلة لإكمال الانتصارات الضخمة التي بدأها صلاح الدين الأيوبي ، والماليك هم الذين أسقطوا امارة انطاكية وامارة طرابلس والجزء الذي كان باقيا من مملكة بيت المقدس ، وأهم أبطال الماليك الذين لعبوا دورا في هذه الحروب هم الظاهر بيبرس وقلاؤون والأشرف خليل الذي على يده سقطت عكا ودمرت آخر الحصون الصليبية واستسلمت كل البلاد التي كانت باقية لهم ، وانتهى عهد الصليبيين في الشرق ٠

الماليك وببلاد النوبة

نقرر أولا أن بلاد النوبة في التاريخ الوسيط تشمل ما يعرف الآن بشمال السودان تقريبا ، فهي تمتد من أسوان حتى مكان التقاء النيل الأبيض بالنيل الأزرق « المفرطوم حاليا » ثم تمتد مشتملة مناطق من حوض النيل الأزرق ضاربة إلى الشرق حتى أطراف الحبشة ، وضاربة إلى الغرب مشتملة أجزاء واسعة من كردفان ودارفور ٠

وكان المصريون القدماء يطلقون على هذه البقاع اسم « خنت » ، ومعناها الأرض الجنوبية ، إذ كان وادي النيل شماله وجنوبه يكون مملكة الراعنة (١) ، ثم ظهرت كلمة « نوبية » ابتداء من عصر البيهقي سنة ٢٠٠ ق.م ، وقد ظهرت هذه الكلمة فيما يبدو متصلة باسم شعب كان يعيش بها آنذاك ، وعلى مر التاريخ ظلت هذه البلاد مترابطة تماما مع الأجزاء الشمالية من الوادي ، أو متحدة معها ، وكانت الوحدة هي الغالبة ، زاحفة من الشمال أو منبعثة من الجنوب ، وكان الانقسام يوجد أحيانا إذا خضع الوادي لسلطان أجنبي ، وفي هذه الحالة كانت حركات الاستقلال والوحدة تسير جنبا إلى جنب ، وأوضح مثال لذلك ما قامت به دولة كوش في الجنوب ، فإنه على إثر تولية الملك شاشنق الأول الليبي

Budge E, A : History of Ethiopia, Nubia, and Abyssinia (1)
Vol. I p. I.

حكم مصر هجر طيبة مجموعة من سلالة الكهنة الى الجنوب ، وأنشئوا دولة كوش واتخذوا « ناباتا » عاصمة لها ، ثم أخذوا يعملون لتحرير الشمال ووحدته مع الجنوب ، ونجحوا في هذه المحاولة ، وعاد ملوك كوش الى العاصمة الموحدة طيبة وأسسوا الأسرة الخامسة والعشرين ، ولما زحف الآشوريون على مصر انكثروا الكوشيون وعادوا الى الجنوب والى عاصمتهم القديمة (١) .

ولم يكن الانفصال يستطيع أن يمس العلاقات الثقافية والاجتماعية التي تربط بين الشمال والجنوب برباط وثيق ، ويمكننا أن نرى ذلك في كثير من العادات المشتركة واللهجات .

ودخلت المسيحية مصر منذ مطلع العهد بال المسيحية ، وقد وجد الهاربون من عنت اليهود وطغیان الرومان في مصر مأوى أسوة بالسيد المسيح وأمه الذين لجأوا إلى مصر والمسيح طفل هرباً من هؤلاء وأولئك واضطهد الرومان المسيحيين في مصر كما اضطهدوهم في كل البلاد التي حكموها ، فلجماً إلى الجنوب جمع من القسس هاربين من الاضطهاد ، وبدأت المسيحية بذلك تدخل جنوب الوادي ، واتخذ سكان الوادي شماله وجنوبه الذين وسيلة لمقاومة الرومان والظهور سخطهم على حكمهم ، وفي القرن السادس الميلادي كانت المسيحية قد استطاعت أن تعمّ أكثر شعب النوبة وتكون مملكتين ، أحدهما مملكة مقرة في الشمال وعاصمتها دنقلاً ، والثانية مملكة على في الجنوب وعاصمتها سوبا ، وفي سنة ٦٥٨ م أصبحت المسيحية الدين الرسمي لهاتين الملكتين ، أما شرقى السودان (البجة) وغربه وجنوبه فقد ظلت على وثنيتها فترة طويلة ، وانتقلت غالباً من الوثنية إلى الإسلام فيما بعد (٢) .

(١) دكتور مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة ص ٢٣ - ٢٤ .

(٢) محجوب زيادة : الإسلام في السودان ص ١٦ .

ودخل الاسلام مصر في عهده البكر ، وسرعان ما أدرك قيادة المسلمين أن الزحف لابد أن يسير من الشمال الى الجنوب ، فأرسل عمرو بن العاص قائده عقبة بن نافع لبلاد النوبة ، ولكن هذه الحملة لم تتحقق نجاحا يذكر ، وإن كانت قد أبرزت ضرورة الارتباط بين الشمال والجنوب ، وعاد المسلمين لدخول بلاد النوبة مرة أخرى بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وانتصرت هذه الحملة ودخلت دنقلا سنة ٦٥٢ م ، ثم عقدت مع مملكة مقرة اتفاقية « البقط » وتعتبر معاهدة تبادل اقتصادي بين مصر ومقره ولا تتحقق هذه المعاهدة فوائد ذات بال لمصر ، ولكن كانت رباطا بين الجارتين ، ولذلك حرمت مصر على أن يظل العمل بها قائما كرمز للعلاقات بين شطري الوادي ، وقد كان ايقاف العمل بها مداعاة لحملات حربية تقوم بها مصر على النوبة ، كذلك التي قام بها صلاح الدين الايوبي بقيادة أخيه توران شاه ، وإن كانت هناك أسباب أخرى لهذه الحملة ، وقد ظلت هذه المعاهدة معمولا بها حوالي ستة قرون ٠

وجاء عهد المماليك والارتباط بين الشمال والجنوب يتخذ معاهدة البقط أساسا له ، وكان الاسلام قد انتشر في بلاد النوبة بين الأفراد ، وكانت مجموعات عربية قد هاجرت من الشمال الى الجنوب تحت ضغوط مختلفة (١) ومع هذا فالممالك التي كانت قائمة حتى مطلع عهد المماليك ظلت على المسيحية ، وقد أخذ المماليك أنفسهم بالقضاء على الصليبيين

(١) عند سقوط الدولة الاموية هرب كثير من بنى ابيه وانصارهم ، واتخذ بعضهم طريقه الى بلاد النوبة عبر مصر او عبر البحر الاحمر ، وهاجر من مصر الى النوبة عدد كبير من العرب عندما بذلت دولة احمد بن طولون بمصر ، وكان أحد شيوخ ربيعة واسمه ابو المكارم هبة الله حظيا عند الحاكم باسم الله الفاطمي لانه تقى على الشائز (ابي ركوة) ، وقد منح الحاكم هبة الله لقب كنـز الدولة ، وأصبحت رسمية معترف بيـنى كنـز ، ونعم اولاد كنـز الدولة بمكانة عظيمة في جنوب مصر حول اسوان ، ولكن العادل سيف الدين الايوبي هاجمهم فهاجرـوا الى بلاد النوبة ٠

في مصر ، فالقضاء على الصليبيين وعلى التتار كان هو النسب المذى يتقدم به المالك لينالوا السلطة على مصر وما يتبعها من أقطار ، وفي هذا الصراع بين المالك والصليبيين ظهر بشكل أو باخر تأييد المالك المسيحية بالنوبية للصليبيين ، وبخاصة عندما اقتحم الظاهر بيبرس ميناء سواكن واستولى عليها إثر اعتداء حاكمها على بعض التجار المصريين ، وكانت هذه الميناء هي التي يبحر منها مسيحيو النوبة في طريقهم الى الأسكندرية بفلسطين ، وبدأ على إثر ذلك توتر بين الشمال والجنوب ، وزاد التوتر حدة عندما قام الملك داود ملك مصر على أسوان أسر فيه جمعاً كبيراً من المسلمين سنة ١٢٧٣ م ونوب شروات الناس ، كما اعتدى على ميناء عيداب ، وكانت من موانى مصر الكبرى على البحر الأحمر في ذلك العصر ^(١) ، وكان الظاهر بيبرس مشغولاً في معارك كبرى عند حدوث هذه الغارة ، فاكتفى بإرسال حملة تأدبية ردت العتدين وبحرست الحدود وعادت بالأسرى النوبيين ، ثم جاء دور الحملات المنظمة التي تمت في عهد بيبرس وقلاؤون والشرف خليل والملك الناصر ، وقد تطورت نتائج هذه الحملات بالعلاقة بين النوبة ومصر تطوراً انتقائياً بسقوط العلامة المسيحية وقيام مملكة إسلامية في النوبة ، وفيما يلى حديث به شيء من التفصيل عن هذه الحملات :

ويبدأ حديثنا التفصيلي بالكلام عن الظاهر بيبرس وجهوده في هذا المجال ، ويختبر الظاهر بيبرس قمة سلطانه الملكي ، وقد قلنا من قبل إن نسب المالك كان بما يتحققونه للإسلام من انتصارات ، وقد وقعت نتيجة هذا الهدف في أول أمرها على الظاهر بيبرس ، وقد حقق الظاهر أهدافاً ضخمة ضد التتار والصليبيين ، فلا غزو أن ينتهي تجاه الجنوب وبخاصة ليتأثر من داود الذي كانت عواطفه مع الصليبيين ، وقد أتيحت للظاهر بيبرس الفرصة عندما استدرج رجل اسمه « شكتنة » يطالب

(١) النوبى : نهاية الارب ج ٢٨ ص ١٠٩

بعرشن « مقرة » سالفه الذكر ، وكان ابن أخيه « داود » قد انتزعه منه ، فانتهز الظاهر بيبرس هذه الفرصة ليقضي على داود ، فأعاد جيشا ضخما زحف على بلاد النوبة سنة ١٢٧٦ ، والتلى هذا الجيش بجيش داود فهزمه وفر داود ، وتم تتويج « شكتدة » في دنقلا في نفس العام ، وعقدت معاهدة معه تعيد الرباط الوثيق بين النوبة ومصر ، وتجعل سلطان مصر هو في الحقيقة سلطانا على كل الوادى ، وأهم شروط هذه المعاهدة ما يلى :

- ١ - يصبح الملك شكتدة تابعا لسلطان مصر ونائبا عنه في حكم بلاد النوبة .
- ٢ - على سكان بلاد النوبة بعد أن طلبوا الأمان أن يدخلوا الإسلام أو يدفعونا الجزية .
- ٣ - أن تكون بلاد العلا وببلاد الجبل ملكا خاصا لـ مصر .

وهناك شروط أخرى يمكن أن تدخل ضمن الشرط الأول ، ولكن المهم أن « مقرة » أضحت جزءا من السلطة المصرية وأن سلطان مصر أصبح بيده عزل ملوك النوبة وتعيينهم ، وأن مصر استعادت استعادة تامة بلاد العلا وببلاد الجبل ، وهي حوالي ربع بلاد النوبة ، وكانت جزءا من مصر ضاع منها عقب انسحاب القوات الرومانية في عهد دقلديانوس ^(١) ، ثم إن التوبيين بهذه المعاهدة أصبحوا أهل ذمة ، ولهذا أنشأ السلطان بيبرس ديوانا سماه ديوان النوبة لراقبة جمع الجزية والخراج وتعيين العمال ^(٢) .

(١) دكتور مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة ص ١٤٩ - ١٥٠ وانظر اليامش .

(٢) المريزى : السلوك جـ ٢ القسم الثاني ص ٦٢٣ .

وُقتل شكتبة في العام الذي توفي فيه بيرس ، فقفز على عرش النوبة أمير يدعى « برك » متجاهلاً أن تعين الملك بالنوبة لابدّ أن يتم بموافقة القاهرة ، وكان السلطان في مصر قد آتى قلابون خارسل هذا جيشاً قيضاً على برك وقتلته وولي مكانه أميراً يدعى سيمامون . وهذا الوضع أقنع ملوك علوة بالنوبة العليا بقوة سلطنة مصر . وأصرار ملوكها على مكانتهم بالنسبة لبلاد النوبة ، فتقرب ملوك علوة أيضاً من سلاطين مصر وأعلنوا لهم الولاء ، وتمت بذلك تبعية مملكتي النوبة لمصر ، ولكن سيمامون كان كثير الحث والغدر فاستهدفت بلاده لعدة حملات كان يفر منها ويختفى ثم يعود للظهور عقب عودة الحملة ، فتتعود الحملة أزجره وهكذا ، وانتهى الأمر بأن أقر قلابون سيمامون على الملك بعد أن أقسم على الولاء والطاعة والامتثال ودفع الجزية .

وفي أثناء عهد قلابون كان الإسلام قد زاد انتشاره في الجهة الغربية وظهرت دول إسلامية مثل الكائم وبيرنو ، وكانت تربطها بمصر علاقات وتفاهم مما جعل المملكة المسيحية شبه محصورة وسط نطاق من الدول الإسلامية المقاومة (١) .

وعقب وفاة قلابون انتهز سيمامون الفرصة فتمرد على سلطة مصر من جديد ولم يرسل ما تعهد به من جزية وضرائب ، خارسل له الأشرف حملة كبيرة ، ففر هذا كعادته منها ، وسارط الحملة حتى وصلت أرض الليفية والقردة والخنازير والزرافات والنعام ، مما يشير إلى أن سلطة مصر وصلت إلى جنوب السودان ، واختفى سيمامون فلم يظهر له أثر بعد ذلك ، ووأت سلطات مصر ملكاً جديداً هو بوديمما Boudemma وكان من الأمراء المسجونين بمصر قبل ذلك .

وجاء دور الناصر محمد ، وفي عهده كان ملك النوبة المسيحي اسمه كيرنيس وهو آخر الملوك المسيحيين ، وقد ظهر منه تذكر لسيادة مصر

(١) دكتور سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص ٨٢ .

سنة ١٣١٦ فامتنع عن تنفيذ معاهدة البقط ، وقد رأى السلطان الناصر أن الوقت قد حان لتعيين ملك مسلم على بلاد التوبيه ، إذ كانت جموع المسلمين قد كثرت ، وافتهر الملك الناصر فرصة تمرد كبرٍ تُبَيِّس فارسل حملة بقيادة الأمير عز الدين أبايك واصطحبـتـ الحـمـلـةـ معـهاـ أحدـ التـوـبـيـنـ المسلمينـ واسمهـ عـبـيدـ اللـهـ بـرـشـبـوـ ، وـكـانـ قـدـ قـرـبـيـ فـيـ مـصـرـ وـاعـتـقـ بهاـ الـاسـلـامـ ، وـرـأـيـ الـمـلـكـ الـنـاـصـرـ أـنـ تـعـيـيـنـهـ سـيـضـعـ الـعـلـاقـاتـ بـيـنـ مـصـرـ وـالـتـوـبـيـهـ وـضـعـاـ جـدـيـداـ ، وـعـنـدـماـ أـخـيـنـ الـمـلـكـ كـبـرـ تـبـيـسـ بـهـذـهـ الرـغـبـةـ مـنـ السـلـطـانـ الـنـاـصـرـ ، أـرـسـلـ اـبـنـ أـخـتـهـ كـتـزـ الدـوـلـةـ بـنـ شـبـاعـ الدـيـنـ إـلـىـ السـلـطـانـ الـنـاـصـرـ وـمـعـهـ رـسـالـةـ جـاهـ فـيـهاـ : إـذـاـ كـانـ يـقـصـدـ مـوـلـانـاـ السـلـطـانـ بـأـنـ يـولـيـ الـبـلـادـ مـسـلـمـ فـهـذـاـ مـسـلـمـ وـهـوـ اـبـنـ أـخـتـيـ ، وـالـمـلـكـ يـنـقـلـهـ إـلـيـهـ مـنـ بـعـدـ (١)ـ ، وـلـمـ يـسـمـعـ الـمـلـكـ الـنـاـصـرـ لـهـذـهـ الرـغـبـةـ وـعـينـ بـرـشـبـوـ مـلـكاـ ، وـدارـتـ عـدـةـ مـنـاـورـاتـ اـنـتـهـتـ بـأـنـ اـسـتـقـرـ الـمـلـكـ لـكـتـزـ الدـوـلـةـ الـذـيـ نـشـرـ الـاسـلـامـ وـتـوـطـدـ أـقـدـامـ الـعـرـبـ فـيـ عـهـدـ بـصـورـةـ وـأـضـحـةـ ، فـكـتـزـ الدـوـلـةـ — كـمـاـ سـيـقـ أـنـ ذـكـرـنـاـ — يـنـحدـرـ مـنـ أـرـوـمـةـ عـرـبـيـةـ أـصـيـلـةـ وـهـوـ مـسـلـمـ وـأـمـهـ مـنـ أـسـرـةـ مـلـوـكـ الـفـرـيـقـةـ ؛ وـسـرـعـانـ مـاـ بـنـيـ الـمـسـلـمـونـ مـسـجـداـ كـبـيرـاـ عـلـىـ أـنـقـاضـ الـكـتـبـيـسـ الـمـسـيـحـيـةـ بـدـنـقـلـةـ ، وـكـانـ ذـلـكـ فـيـ شـيـرـ يـونـيـوـ سـنـةـ ١٤١٨ـ ، وـبـذـلـكـ اـنـتـهـتـ الـمـسـيـحـيـةـ مـنـ مـلـكـةـ مـقـرـةـ ، وـبـإـسـلـامـ هـذـهـ الـبـلـادـ اـنـقـلـتـ الـعـلـاقـاتـ بـيـنـهـاـ وـبـيـنـ مـصـرـ إـلـىـ طـابـعـ جـدـيدـ ، هـوـ طـابـعـ التـعاـونـ وـالـوـدـ وـالـتـبـادـلـ الثـقـافـيـ وـالـتـجـارـيـ ، وـتـوقـفـتـ الـجـزـيـةـ بـطـبـيـعـةـ الـحـالـ ، وـفـيـ الـجـزـءـ الـمـسـادـسـ وـاـصـلـنـاـ درـاستـناـ فـشـرـحـنـاـ نـهـاـيـةـ دـوـلـةـ عـلـوـةـ أـيـضاـ وـقـيـامـ مـلـكـةـ اـسـلـامـيـةـ تـحـلـ مـحـلـ الـدـوـلـيـنـ الـمـسـيـحـيـتـينـ (٢)ـ .

(1) التوبي: نهاية الارب ج ٢٠ ص ٩٥ - ١٦.

(2) ج ٦ من ٣٠٥ وما بعدها.

استيلاء المالك على قبرص وتهديد رودس

استولى المالك في عهد السلطان بارسباي على جزيرة قبرص وهددوا جزيرة رودس، وكانت جزيرة قبرص قد خضعت لسلطة ريتشارد قلب الأسد منذ عهد الحروب الصليبية، وأصبحت قاعدة لإمداد الصليبيين بالمعونة العسكرية، وبعد طرد الصليبيين من الشام أصبحت هذه الجزيرة ملجأً للشرازم الأخيرة من الصليبيين الذين طردوا من الأرض الإسلامية، وبخاصة الاستبارية (فرسان القديس يوحنا)، كما أصبحت الجزيرة ملجأً للقراصنة ولأعداء العرب والمسلمين، ومن هنا بدأ التوتر يظهر بين قبرص ودولة المالك، وهاجم القبرصيون سواحل مصر والشام عدة مرات في مطلع القرن الخامس عشر الميلادي، وقد اضطر بارسباي أن يفكر في احتلال قبرص، فأرسل لها بضعة سفن لجسّ نبع القوة بالجزيرة، فعادت هذه السفن بالغنائم والأسرى، مما شجع بارسباي إلى الزحف للاستيلاء عليها، وقد تم ذلك سنة (١٤٦٣ = ٥٨٣) وبخرقت الجزيرة أمام قوى مصر وأسر ملكها وجىء به إلى القاهرة، وظل بها حتى افتدى نفسه بفدية كبيرة، وبقيت الجزيرة تحت سيطرة مصر، وظلت تندفع جزيرة سنية حتى دخل العثمانيون مصر^(١).

أما رودس – وكان الاستبارية قد انتقلوا إليها – فقد حاولت مناصرة جزيرة قبرص، ولكن قوى المالك تصدت لها في عهد السلطان جقمق وغزتها ثلث مرات حتى أُسكتت حسها^(٢)، ثم خضعت رودس الخيراً للسيادة العثمانية سنة ١٥٢٢، ومنذ ذلك التاريخ انتقل هوكمة الاستبارية إلى جزيرة مالطا، حيث ظلوا إلى أيام ثابليون بونابرت الذي

(١) دكتور سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ١٠٤ وما بعدها.

(٢) الم gio طى : غزوat قبرص ورودس ص ١٤ - ١٥

— ٢٦١ —

قضى عليهم متخدنا من ذلك وسيلة الدعاية لدى المسلمين (١) .

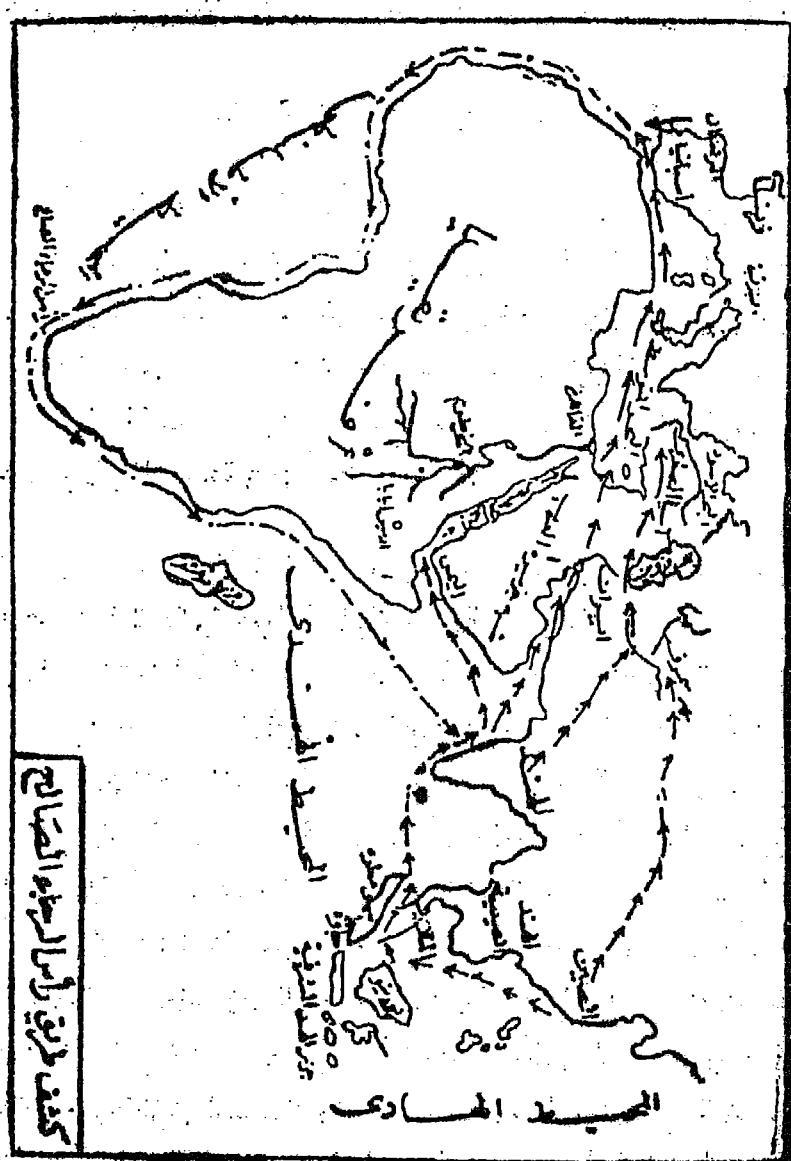
كتفف طريق رأس الرجاء الصالح وأثره

في أواخر القرن الخامس عشر استطاع البحارة البرتغاليون أن يجدوا طريقة إلى الهند والشرق الأقصى بالدوران حول إفريقيا ، وبدون المرور في البحر المتوسط والبحر الأحمر ، ويعرف الطريق الجديد بطريق رأس الرجاء الصالح ، وقد اشتراك عدد من البحارة البرتغاليين في المحاولة التي أدت لهذا الكشف ، وكان النجاح النهائي على يد « فاسكودي جاما » الذي بدأ رحلته سنة ١٤٩٦ .

وقد سبب هذا الكشف لمصر وسوريا خسارة مالية فادحة ، فقد كانت التجارة عبر دولة المماليك رائجة رواجاً كبيراً ، لأن مصر والشام حلاصلاً محل المراكز التجارية الصليبية التي كانت موجودة قبل سقوط الصليبيين ، ثم لأن الطرق البرية بين أوروبا وآسيا (عبر الأنضول) قد دمرتها تحركات المغول فأصبحت التجارة بين آسيا وأوروبا بحرية ، ومعنى ذلك أن أصبحت مصر والشام تلعب دوراً هاماً فيها بواسطة البحر الأحمر والبحر المتوسط ، وهكذا كانت سواحل مصر الشعماوية أسوأها يردد لها الأوروبيون من حين إلى آخر ليبيعوا من حاصيلاتهم ، ولبيتوا من حاصيلات الهند والصين والهند الصينية وإندونيسيا ، هذه المصانع التي كانت تقدم إلى الإسكندرية وإلى الموانئ العربية الأخرى ، ولكن البرتغاليين استطاعوا أن يكتشفوا الطريق إلى الهند والشرق الأقصى بواسطة الدوران حول إفريقيا ، ودون حاجة إلى الموانئ المصرية ، وقد خسر المماليك بذلك خسارة فادحة ، إذ كان جل اعتمادهم على الضرائب التي يجبونها من هذه التجارة العظيمة .

(١) دكتور ابراهيم طرخان : مصر في مهد المماليك الشراكسة من ١١٤ .

- ٢٦٢ -



ولم تكن الخسارة بِأعمال البحر المتوسط وتحول التجارة العالمية عنه واقعة على دولة المماليك فحسب ، وإنما أصبت بها كذلك المراكز التجارية بِجنوب أوروبا وبخاصة البندقية ، ولذلك اتفق السلطان الغوري مع البندقية على حرب البرتغال في محاولة لاستعادة مكانة البحر المتوسط ، وأنشأ السلطان الغوري لذلك أسطولاً كبيراً ، أسمى فيه البندقية بالأخشاب الازمة ، وسرعان ما ظهر هذا الأسطول في المحيط الهندي وتضىءى للأسطول البرتغالي ، ووَقعت معه موقعة بحرية بالقرب من شواطئ بمبای ، انتصر فيها المصريون انتصاراً كبيراً ، ولكن البرتغاليين سرعان ما أعدوا أسطولاً آخر لمواجهة المصريين ، وحدثت موقعة أخرى أمام بمبای سنة ١٥٠٩ م انتصر فيها البرتغاليون انتصاراً ثُبّعَت مرکزهم للحربى وكسب النصر للطريق الجديد ، وكان من عوامل هذا الانتصار أن دولة المماليك كانت تمر في هذه الأثناء بفترة الصراع التي سبقت الصدام بينها وبين العثمانيين .

وقد أدرك السلطان سليم — بعد فتح مصر — خطورة هذه الخسارة وبخاصة أن البرتغال أغرى المراكز التجارية بشمال البحر المتوسط بالتحول للخط الجديد ، فحاول أن يستعيد للبحر المتوسط مكانه التجارى ، لا عن طريق الحرب مع البرتغاليين ، وإنما عن طريق إغزاء المراكز التجارية بِجنوب أوروبا باستمرار استعمال الطريق القديم وعدم التعامل مع الطريق الجديد ، فعقد مع البندقية معايدة تجارية سنة ١٥١٧ كانت روح التسامح فيها وأضحة رجاء جذبهم مرة أخرى ، وكان مما ضمته لهم هذه المعايدة أن منتع قناصلهم في الإسكندرية والموانئ الأخرى حق الفصل في قضايا رعاياهم ، كما ضمّن تيسير وصول سفنهم للموانئ المصرية ، وتيسير التعامل مع ممثليهم على العموم ، وفي سنة ١٥٢١ م

— ٣٩٦ —

عقد السلطان سليمان معايحة أخرى مع البنديرين في ثالثين فصلاً،
 شملت فيها الامتيازات السساية وزاد عليها، وحصل الفرنسيون على
 امتيازتهم الأولى سنة ١٥٣٥ والإنجليز سنة ١٥٨٠ م، والعجيب أن
 هذه الامتيازات لم تأت بطالٍ فيما يختص بإحياء الخط التجاري عبر
 البحر المتوسط، وعلى العكس أصبحت أساساً للامتيازات التي صارت
 فيما بعد شيئاً عذلاً للترك وللبلاد التابعة لهم، ولم تتخلص منها هذه
 البلاد إلا بعد صراع طويلاً.

نهاية حكم المماليك

إن نهاية المغول في العراق وغرب آسيا ، أوقفت قوتين كبيرتين وجهاً لوجه ، هما قوة العثمانيين وقوة الدولة الصلوية ببلاد فارس ، ومع أن كلاً منها قوة إسلامية ، إلا أن الصفويين كانوا من غلاة الشيعة ، وكان الأتراك سنيين ، وهذا فرق بينهما إلى حد كبير ، وكانت دولة المماليك بحكم موقعها تتوسط هاتين القوتين ، وقد شُبِّهَ تزاع طويل بين العثمانيين والصفويين انتصار فيه العثمانيون في النهاية ، ودخل سليم الأول العراق سنة ١٥١٢ م وكان سلطان المماليك آنذاك هو قانصوه الغوري (١٥٠٠ - ١٥١٦) وقد اتهمه سليم بمعاملة الصفوين ، وبأنه آوى بعض الاجئين السياسيين من الأمراء العثمانيين الخارجين عليه ، وأخذ لذلك يُعدُّ الفددة للمجوم على مصر ، وقد استطاع سليم الأول أن يُرِشِّسُ بعض أتباع الغوري مثل خير بك نائب حلب وجان بر دى الفرزالي نائب حماة ، كما كان الجيش الانكشاري يستعمل الأسلحة النارية ذات الرمي بعيداً وقت كان المماليك لا يزالون يستمدون على البطولة الشخصية ، ولما دارت المعركة في هرج دابق سنة ١٥١٦ أظهر قانصوه الغوري ورجاله بطولة خارقة ، ولكن خير بك الفائز قائد الجناح الأيسر انهزم برجاله في ساعة حاسمة ، فدارت المعركة على المماليك وسقط قانصوه ميتاً ، واستولى الجيش العثماني على رجاله وأمواله (١) .

وتولى طومان باي السلطنة بعد قانصوه ، والتقي بجيش العثمانيين عند الريدانية (العباسية) سنة ١٥١٧ . وفاته أياضاً بعض أتباعه شحاتة عليه الهزيمة ، ولجا طومان باي إلى حسن بن مرعي وأخيه شكري من زحماء العريان وكانت له عليهم يد ، وعلى الرغم من أنهم أقسموا إلا يخونوه ، فإنهم سرعان ما أسلفوه للسلطان سليم الفاتح الذي شنته على

(١) ابن ايلس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٣ من ٤ وما بعدها .

باب زويلة في إبريل من نفس العام، وانتهت بذلك دولة المالكية، وببدأ حكم العثمانيين بمصر، والمؤرخ المصري في العصر الحديث يضع تعليقاً قصيراً على هذا الانتقال هو أن مصر تحولت من الاستقلال إلى التبعية.

عاقبة الفساد :

بقيت كلمة خاصة بالغدر الذي قام به حسن بن مرعي وأخوه بالسلطان الذي لجأ لهما، فلن يد للقدر عاقبت الفادر وثاركت منه، فقد انتهت حياة حسن بن مرعي وأخيه شكري على نحو ما انتهت عليه حياة طومان باي بل بمزيد من التشفي والسخرية، فقد أصدر خير بك أمره بإعدامهما التمرد ظهر لهما وخيانة بدت في تصرفاتهما، فأعدمهما الشراكسة وشرب بعضهم من دمها، وقطعت أجسامهما بالسيف قطعاً وعلقت رأساهما في عنق قرمن طومان باي، الذي كان يركبه يوم لجأ إليهما، وظيف بهما في القاهرة بين فرح الناس و سورهم، ويقول ابن أبياس إن عيال السلطان طومان باي لمسا رأواه رئيس حسن بن مرعي معلقة فزحوا وأطلقوا الزغاريد وتخاقوا بالزغاريد (١).

وينبغي أن نوضح حقيقة كبيرة الأهمية هي أن الإسلام كان عاملاً مهماً من بين العوامل التي كسبت للعثمانيين النصر، وقد وقفت مصر وسوريا بنجاح أمم الصليبيين وأمام المغول، وباسم الإسلام انتصرت في نزالها مع هؤلاء وأولئك، ولكن الزاحف هذه المرة كان مسلماً ويشيد باجتماع كلمة المسلمين وانتصار السنة، ولا شك أن هذا كان له تأثير يذكر في ميزان القوى المناضلة.

(١) تاريخ ابن أبياسن ج ٣ ص ٥٩.

حضارة مصر في عهد المماليك

التجارة والمال في عهد المماليك :

تحديثنا من قبل عن التجارة وكيف أن دولة المماليك كانت تستغل موقعها أروع استغلال بعد سقوط الإمارات الصليبية وبعد تدمير المغول للطرق البرية ، ونضيف هنا أن تجار مصر وسوريا أصبحوا وسطاء في هذه التجارة الرائجة ، واستخدموها في ذلك رعوس أموال كبيرة ، واتخذوا لهم وكلاء في عدن والخليج الفارسي والهند والشرق الأقصى ، ورحل بعضهم ليعيش في هذه المراكز ، ل المباشر النشاط التجاري الهائل البذري كانت دولة مصر تحميه وتربح عن طريقه ثروة كبيرة ، وقد توقف جل هذا النشاط — كما قلنا من قبل — بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، إذ باشرت أوروبا التجارة مع الهند بواسطة هذا الطريق الجديد وحلت الشبونة محل الاسكتدرية والسواحل العربية وانقطع بذلك مصدر كبير من مصادر الثروة إلى حكومة مصر والشعب العربي ، وخاصة أن التجارة بين أوروبا وبين الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح كانت — مع بعد المسافة — أيسر من التجارة عبر مصر ، فهنا كان يلزم أن تتنقل البضاعة من الشحن بالبحر الأبيض إلى السفن بالبحر الأحمر بواسطة القوافل البرية ، وأما عن طريق رأس الرجاء الصالح فكان السفن تتنقل البضاعة مباشرة إلى هدفها دون حاجة إلى تحكم المماليك وتتكاليف الوسطاء والعمال ولذلك تجد أن التجارة تحولت كلها أو أكثرها إلى هذا الطريق الجديد (١) .

(١) يلاحظ أن فتح قناة السويس أعاد لهذا الخط التجاري قيته ، فقد أصبحت المسافة من أوروبا إلى الهند متصلة اتصالاً مائياً واقرب بكثير من طريق رأس الرجاء الصالح ، فييد أن القاعدة هنا هي فقط في الواقع غيرائب التعبور في القناة ، وليس فيها من حاجة لآيد مصرية كبيرة كما كانت الحال أيام عهد المماليك .

الزراعة :

وتحدثنا من قبل عن الزراعة ، وأشارنا إلى ما بذله أكثر سلاطين المماليك من العناية بالترع والجسور ، ونهضت الزراعة نهضة واسعة في ظل الأمن ، ولكن الأضرار باتت التي حدثت في بعض العهود قلائل من النشاط الزراعي ، على أن الفلاح على العموم كان مظلوماً ، فإذا اهتم المالك بالزراعة فان مصدر ذلك رغبتهم في الحصول على ثروات أكبر ، أما الفلاح الكادح فلم يكن ينال مما تخرجه الأرض إلا الكفاف ، وعاش في دولة المالك تابعاً وكل أمره كان في يد مالك الإقطاع .

الإقطاع :

والجديد عن الإقطاع الذي أشرنا إليه آنفاً يحتاج إلى تفصيل وبيانه ، ومن العجيب أن الإقطاع في العصر الملاوكى لم يكن مقتضواً على الأرض ، وإنما تبعها إلى موارد الدولة الأخرى ، فكما تقطع مساحة من الأرض إلى أمير من الأمراء ، تقطع جزية مجموعة من أهل الذمة أو ضرائب المكوس إلى أمير آخر ، ولم يقبل الناصر محمد بن قلاون هذه السياسة ، فقصر الإقطاع على الأرض ، ولكن هذا لم يستمر بعده فعادت جميع الموارد تقطع حتى نهاية عهد المالك (١) .

وكان الإقطاع يتبع سياسة القراريط على اعتبار أن الدخل كله أربعة وأربعين قيراطًا ، للسلطان أربعة قراريط للأمراء ، والمنح عشرة ، وللأجناد عشرة ، هذا من ناحية الكم ، أما ناحية الكيف فتشير هذا الترتيب التنازلي بمعنى أن السلطان يخص نفسه بأجود الأرضي وألينا الإيزادات تحصيلاً وبليه الأمراء ثم الأجناد .

وكانت هناك مساحة محدودة للأوقاف ، ولكن هذه كثيرة ما كانت تمتد لها يد الإقطاع ، لأن يحلها السلطان ثم يقطعنها .

(١) صبح الاعتنى : ج ٢ ص ٤٥٠ .

وطبيعي أن الأضطراب الذي شمل عصر المماليك ، مسـ التنظيم الإقطاعي بمعنى أن أحدا لم يكن يضمن استقرار الإقطاع له أية فترة من الفترات ، فكل انقلاب يعقبه إعادة التوزيع بقصد حرمان أتباع السلطان السابق ومنع أتباع السلطـان الجديد ، وكان هناك إعادة توزيع أحيانا في عهد السلطـان نفسه ، ويكون ذلك جزئيا أو كليا حتى يتمكن السلطـان من مكافأة المجندين وتقليل الإقطاع المتـوـلح لن تـسبـ لهم الإهمـال أو ضـغـفـوا عن القيام بـتـبعـتهم ، وكان الإقطاع أحيانا يؤخذ كلـه من هؤـلاء ، وقد تكون إعادة التوزيع ناتـجاً عن حاجة السلطـان لـإقطاعـات جديدة يـمنحـها لـبعـضـ أـنصـارـهـ أو لـبعـضـ الطـالـعـينـ المـطـالـبـينـ بـمـزيدـ منـ الدـخـلـ ، وـفيـ هذهـ الحـالـةـ يـسـتـولـىـ السـلـطـانـ عـلـىـ بـعـضـ إـقـطـاعـاتـ منـ أـصـحـابـهاـ ، وـمـنـ عـوـمـلـواـ كـذـلـكـ ابنـ إـيـاسـ الـمـسـؤـلـخـ الشـهـيرـ فـقـدـ اـسـتـرـدـ السـلـطـانـ بـعـضـ إـقـطـاعـاتـهـ لـيـمـنـحـهاـ إـلـىـ بـعـضـ عـبـيدـهـ الـذـينـ مـاـ فـتـئـواـ يـطـلـبـونـ مـزـيدـاـ مـنـ العـطـاءـ (١) .

والإقطاعـاتـ الـقـىـ أـشـرـنـاـ إـلـيـهاـ آـنـفـاـ كـانـتـ كـمـ رـأـيـناـ مـرـتـبـةـ بـالـوـظـائـفـ ، وـمـنـ هـنـاـ كـانـ يـنـتـقـلـ إـقـطـاعـ مـنـ شـخـصـ إـلـىـ آـخـرـ تـبـعـ لـوـظـيـفـتـهـ ، وـهـوـ بـذـلـكـ إـقـطـاعـ اـسـتـغـلـالـ لـإـقـطـاعـ تـمـلـيـكـ ، وـمـنـ هـنـاـ كـذـلـكـ حـرـصـ كـثـيرـ مـنـ النـاسـ عـلـىـ أـنـ يـكـونـ لـهـمـ مـالـ ثـابـتـ يـوـرـثـونـهـ ذـوـيـهـ خـوـفاـ عـلـىـ إـقـطـاعـ الـذـيـ يـتـمـنـ وـيـمـنـ ، وـكـانـ طـرـيقـهـ لـلـحـصـولـ عـلـىـ ذـلـكـ مـالـ الثـابـتـ أـنـ يـشـتـرـواـ مـنـ بـيـتـ الـمـالـ قـطـعـةـ مـنـ الـأـرـضـ بـمـدـخـرـاتـهـ الـخـاصـةـ ، وـإـنـ كـانـ هـذـاـ مـالـ أـيـضاـ عـرـضـةـ لـلـمـصـادـرـةـ ، إـذـاـ شـاءـ السـلـطـانـ ذـلـكـ .

وـكـانـتـ وـفـاةـ شـخـصـ مـنـ الـمـقـطـعـ الـيـهـمـ لـمـرـضـةـ لـلـطـالـعـينـ لـيـنـالـوـاـ مـاـ كـانـ بـيـدـهـ ، وـمـنـ هـنـاـ تـعـجـلـ بـعـضـ النـاسـ وـفـاةـ الـمـرـضـيـ أوـ كـبارـ النـسـنـ ، بـلـ رـبـماـ قـتـلـواـ ذـلـكـ الشـخـصـ بـطـريقـ أـوـ بـأـخـرـ كـمـ حـدـثـ فـيـ عـهـدـ السـلـطـانـ الـغـورـىـ

(١) بدائع الزهور : جـ) من ، ١٥ و ١٧٥ .

— ٢٧٩ —

الذى ثبت له ذلك فحرم القتلة من الإقطاع الذين ارتكبوا ذلك الجرم
الكريم من أجله (١) .

حياة الإقطاعيين :

وكان الأمير المملوكي في انتطاعه يعدو كأنه سلطان في مملكة صغيرة ،
تکاد تكون مستقلة ، فهو يقيم في قصر ضخم ، حوله الحشم
والأتبع ، وله حرسه الخاص وله كذلك مماليكه ، الذين يسترهم بمماله
ويربيهم ليكونوا حرسه وأتباعه ، وهو يُدبر شئون إقطاعه ، فهو حاكم
مطلق بين فلاحيه وموظفيه ، يقضى بيدهم أو يعين لهم القضاة ، ويفرض
عليهم الضرائب ، وليس من حقهم مغادرة الإقطاع ، فإن غادروه أعيدوا
له قسراً وربما عوقبوا على هذا التصرف .

الصناعة :

ومن جهة الصناعة فقد نشطت بعض الصناعات في هذا العصر ،
كصناعة النسيج والأواني المعدنية والزجاج والجلود وأصبحت مصر
شهرة واسعة فيها ، وكصناعة الأسلحة والسفن ، واشتهرت في هذا
العهد الصناعات الدقيقة وفن الزخرفة ، وقد تعددت إليها من هذا المعهد
نمادج رائعة من المصنوعات الفنية التقديمية ، والأدوات النحاسية
 والأواني الزجاجية والمحفوظات الخشبية ، وما يستحق إشارة خاصة
 هنا الأدوات النحاسية ، والزهريات ، والأباريق والأطباق والشمامات
 والمباحر وغلافات القرآن ، وجميعها زاخرة بضروب الزركشة
 والتزييق (٢) .

الطبقات في العصر المملوكي :

وقد أشرنا في الأحاديث السابقة إلى الطبقات في المجتمع المملوكي ،

(١) دكتور ابراهيم طرخان : مصر في عصر دولة الملك الشراكسة من ٢٥٧ .

(٢) فيليب حتى : تاريخ سوريا من ٢٨٧ - ٢٨٨

وقد كان الفلاح في القاع بين هذه الطبقات ، وكان التجار والمصانع في منزلة أعلى من الفلاح ، إذ أن التجار والصناعة كانوا يعيشون غالباً في الدن بعيدين عن الانقطاع وما فيه من إذلال وقد يكون لبعضهم شراء جدير بالذكر ، أما أمراء الماليك فكانوا في القمة في هذا المجتمع ، وينغلب أن يكون أعضاء الجيش من الماليك المستوردين ، أما أبناء الماليك فلم يكن لهم أن ياتححوا بالجيش وإنما كانوا يعيشون العمليات الإدارية والكتابية ، أما النابهون من السكان الأصليين ، فكان يمكن أن توكل لهم الوظائف الحسابية والقضائية والتمليمية ٠

وهناك طبقة أخرى ظهرت في المجتمع المصري في مطلع عهد الماليك وهي طبقة طوائف التتار التي فرّت من حكم قادتهم ولجأت إلى مصر ، وقد اعتنقت هذه الطوائف الدين الإسلامي وأخذت على أخلاقه ، وقد رحب بهم سلاطين الماليك وبخاصة ببيرس رجاء أن يتذذهم أعوانا له وينتفع بما عُرف عنهم من قوة وشجاعة ضد منافسيه في الداخل وأعدائه في الخارج ، وقد أسكنتهم حىًّا (الحسينية) وكان فيهم جمال رائع مما جعل هذا الحي يشتهر بالجمال ٠

وطبيعي أن الماليك لهم يعيشون في جو عسكري اهتموا بالألعاب الفروسية وسباق الخيل ولعب الكرة بالصلوحان ، كما اهتموا بإحياء التقاليد في الأعياد الإسلامية والمسيحية والوطنية ٠

الآثار والمنشآت :

وقد نهض فن العمارة إبان عهد الماليك نهضة واسعة ، وآية ذلك تلك المؤسسات العظيمة من مدارس ومساجد ومستشفيات التي ترددان بها القاهرة والاسكندرية وغيرهما حتى الآن ، وهي بما تحويه من هندسة وزخرفة تدل على مدى الرقى الذي وصل إليه فن العمارة في هذا العهد ٠

وقد ذكرنا أهم منشآت الماليك البحرينية عند الكلام عن أشهر

سلاطينهم أما مؤسسات المالك البرجية وأثارهم فأهلها قبة بشبك الدوادار التي أنشأها خلال سلطنة قايتباى ، والمعروف مكانها اليوم بالقبة الفداوية ، وكثيرا ما استضاف الأمير بشبك السلطان قايتباى بها ، وكانت هذه القبة مكانا ينزله السلاطين للاستراحة والاستجمام عند خروجهم من القاهرة أو عودتهم إليها .

وكان للأمير أزيك قصر ضخم في المنطقة التي عرفت باسمه وهي الأربكية .

واهتم هؤلاء المالك ببناء المساجد وبخاصة السلطان قايتباى الذي بني عدة مساجد منها مسجد باب الفرق (الخلق) ومسجد وحوض سبيل بالعباسية ومسجد بالصحراء ، ومدرسة وضريح بالقرافة الشرقية .

ومن المساجد الشهيرة جامع المؤيد بجوار باب زويلة وكانت به مكتبة كبيرة ، ومسجد النورى بالقرب من الأزهر ، وله مسجد آخر خلف ميدان القلعة وهو الذى بني مئذنة الأزهر ذات الرأسين (١) .

ووجه المالك عنائهم للمدارس فبني ببرقوق مدرسته بين القصرين : وبنى الأمير جمال الدين الأستادار في عهد السلطان فرج مدرسته التي نسبت إليه فعرفت بالجمالية ، وبنى الأشرف بارسبياي ثلاثة مدارس إحداها بسرياقوس والثانية بالقاهرة وهي المعروفة بالأشرافية والثالثة بالصحراء وقد دُفن بها .

(١) مجالس السلطان الغورى : نشره الدكتور عبد الوهاب عزام ص ٢٣ وما بعدها وانظر تاريخ المساجد الأثرية للأستاذ حسن عبد الوهاب : ج ١ ص ١٢١ - ١٢٢ .

— ٢٧٣ —

ومن أهم آثار برقوق وابنه فرج الضريح والخانقاه بمقدابر الماليلك . والعجيب أن الماليلك كانوا كثيراً ما يستعملون في مدارسهم ومساجدهم مواد للبناء يأخذونها قسراً من أصحابها أو ينهبونها من مؤسسات أخرى ، وكانوا كثيراً ما يلجهؤن إلى السخرة فيرغمون العمال على العمل دون أجر في هذه المنشآت التي كان المفروض أنها خيرية .

ومن منشآت هؤلاء الماليلك مجموعة من الأبراج والقلاع الحربية ، ومجموعة من القناطر والجسور والخراجان .

وكان لكل أمير أو سلطان شارة تسمى « رنك » ينقشها على سلاحه وأدوات منزله ومبانيه ، فكان منهم من اتخذ الأسد شارة له ، أو الصقر وهكذا .

مزيد من الكلام عن آثار مصر في عهد الماليلك :

يعتبر عهد الماليلك عهداً غنياً بالآثار ، وقد امتدت هذه الآثار من مطلع عهد الماليلك حتى نهايته كما ذكرنا آنفاً ، فعن مطلع عهد الماليلك يبرز مسجد قاهر التتار (قطر) في القصيم احدى قرى فاقوس ، وعن نهاية عهد الماليلك تبرز آثار السلطان الغوري وبخاصة مذنته ومدرسته بالغورية وبين هذين توجد مجموعة ضخمة من المساجد من أهمها :

- مسجد الظاهر بيبرس ببحي الظاهر .
- مسجد وقبة قلاوون بالنحاسين .
- مسجد السلطان حسن بالقلعة .
- مسجد برقوق .
- مسجد قاقيبي .

- ٢٧٤ -

ويذكر في العهد المملوكي تشسييد الخوانق والتكايا والسبيل ، والخانقاه تعتبر أهم هذه المنشآت ، ومعنى الخانقاه : دار موقوفة لسكنى الزهاد والصوفية ، وينفق عليهم من أوقاف يحددها أهل الخير ، ولعل أقدم خانقاه بالقاهرة هي خانقاه سعيد السعداء التي أوقفها صلاح الدين الأيوبي على فقراء الصوفية الوفادين عن مصر ، ورتب لهم جميع حاجاتهم من طعام وأكسيه .

ومن خوانق مصر خانقاه بنيرس الجاشنكير وهو السلطان رقم (١٢) في قائمة سلاطين المماليك البحرية ، وخانقاه الناصر محمد بن قلاوون ولا تزال موجودة حتى الآن وتعرف « بالخانكة » .

أما التكايا فمؤسسات عرفت في العصر المملوكي أيضا ، وكانت أمكنة تضم العاطلين حيث يجدون بها حاجاتهم فلا يقدمون على مغامرات وحركات اضطرابات ضد السلطة .

أما السبيل غامكة تقدم الشراب للمارين مرورا سريعا حيث يجدون مكانا يستظلون به وقتا قصيرا ويشربون أو يأخذون حاجتهم من الماء ثم يواصلون رحلتهم ومسيرتهم .

ولا تزال آثار التكايا والسبيل موجودة في حي الدراسة والعباسية .

العلوم والمدارف :

يزدان عصر المماليك في مصر وسوريا بنخبة ممتازة من الفحول والعلماء في مختلف الميادين ، بحيث يصعب أن ينافسه عصر آخر ، وإن اسم كل واحد من هؤلاء العلماء يحمل معانى كثيرة ، ويشير إلى تفوق ونضج في ميدان الثقافة والفكر ، وسنذكر بعض هؤلاء فيما يلى مرتبين حسب تواريخ و NAMES :

، وأول من نقابل الطبيب العظيم « ابن أبي الصبيعة » (١٢٦٩ م) وقد تعلم الطب على أبيه في دمشق ثم استكمل دراسته الطبية في البيمارستان الناصري في القاهرة ، وقد وضع ترجمة للأطباء في كتابه « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » ويحوي ٤٠٠ ترجمة .

ويجيء في تاريخ الوفاة بعده ابن خلكان (١٢٨٢ م) وهو أبرز مؤلفي السير في الإسلام ، وقد جمع في كتابه العظيم « وفيات الأعيان » ترجمة حياة ٨٦٥ من الأعيان والعلماء ، ويعود كتابه مرجعاً هاماً للباحثين والدارسين .

و عمل ابن خلكان لأوحى المؤلفين متعاصرين أن يسيراً على نهجه ، أحدهما الكتبى الحلبي (١٣٦٣ م) الذى أكمل عمل ابن خلكان بكتابه « فوات الوفيات » وهو يضم ٥٠٦ ترجمة ، أما الكاتب الآخر فهو الصدقى (١٣٦٣ م) وقد كتب كتاباً بعنوان « الوافى بالوفيات » وبه ١٤٠٠ سيرة ثم يجيء على بن التفليس (١٢٨٨) وكان رئيساً للأطباء في مستشفى قلاعون .

وبعد ذلك يجيء الدمشقى (١٣٦٦) وقد ألف « نخبة التهر في عجائب البر والبحر » .

ومن علماء هذا العصر المشهورين ابن قيمية (١٣٣٨) وهو يقف في القمة بين الشيوخ والفقهاء ، وقد رفع صوته ضد تقدير الأولياء وتقديم التذور لهم ، وهو المذهب الذى اعتقد الإصلاحيون في نجد فيما بعد .

ومن مؤرخي هذا العصر « أبو الفدا » (١٣٣٢) صاحب التاريخ والسير ، ومؤلفاته تدعو للإعجاب والتقدير : والحديث عن أبي الفدا

- ٢٧٦ -

يشدّنا ل الحديث عن صديقه ابن نباته المصري (١٣٦٦) الذي كان من
الشعراء الممتازين .

ومن علماء هذا العصر ابن فضل الله العمري (١٣٤٩) الذي شغل
منصب صاحب الخاتم في بلاط المماليك بالقاهرة ، وهو مؤلف « مسالك
الأبصار في ممالك الأنصار » .

ومن فقهاء العصر السبكي (١٣٥٥) وقد ولد في بيت بال متوفية ،
وكان رئيس الشافعية في عصره ، ومن مؤلفاته طبقات الشافعية وشفاء
السقام في زيارة خير الأنام الذي يرد به على ابن تيمية .

وقد عاش في هذا العصر ابن خلدون (١٤٠٥) المؤرخ والباحث
الاجتماعي العظيم ، وهو الذي قرر لأول مرة أن الأحداث التاريخية
تقوم على أساس اقتصادية وجغرافية وأعيان محددة ، وألزم دراسة
ذلك عند دراسة التاريخ .

ومن مفكري هذا العصر محمد بن عيسى الدميري (١٤٠٥) مؤلف
كتاب : حياة الحيوان .

ومن مفكري هذا العصر كذلك ابن دقماق المصري (١٤٠٦) وهو
مؤلف : الانتصار لواسطة عقد الأنصار .

ونصل إلى القلقشندي (١٤١٨) صاحب الموسوعة العظيمة المسماة :
صبح الأعشى في صناعة الأنشاء .

ثم المؤرخ المصري العظيم المقريزي (١٤٤٢) وهو مؤلف الخطط
والسلوك واتعاظ الحنفأ ورسالة عن النقود . . .

ويجيء بعد ذلك إمام العصر ابن حجر العسقلاني المؤسس المصري

حياة (١٤٤٩) وهو مؤلف : الدرر الكامنة في علماء المائة الثامنة ، والاصابة في تاريخ الصحابة وفتح الباري في شرح أحاديث البخاري .

ثم يحيى العيني (١٤٥١) وقد ولد في حلب وولي التدريس والقضاء في القاهرة ، وكان يجيد التركية والعربية وساعدته ذلك على تأليف موسوعته العظيمة « عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان » .

ونصل إلى مؤرخ شهير وهو من عنصر المالكية وهو ابن تغري بردي (١٤٦٩) وكتابه : النجوم الزاهرة من أشهر الكتب في تاريخ مصر والقاهرة .

ومن علماء العصر الإمام السخاوي (١٤٩٦) مؤلف عدة كتب من أهمها الضوء اللامع في علماء القرن التاسع (المجري) .

ويحيى بعد السخاوي قلميذه وندشه الإمام السيوطي (١٥٠٥) وهو صاحب الموسوعات الكثيرة وبخاصة في الدراسات القرآنية .

وتختم هذه الدراسة بنموذج مملوكي شهير هو ابن اياس (١٥٣٣) مؤلف كتاب « بدائع الزهور » في تاريخ مصر .

علماء من صفوف المالكية :

أشرنا فيما سبق إلى بعض المؤرخين الذين بروزا من صفوف المالكية وأشغلاوا بتدوين التاريخ ، ولم يكن التاريخ وحده هو الذي جذب بعض المالكية ليتركوا السيادة والسلطة ولينخرطوا في صفوف العلماء ، فاق كثيرين من المالكية اتجهوا للعلوم الشرعية كالأمير عام الدين سنجر ، وتمر بن عبد الله الشهاب ، واتجه آخرون إلى الأدب مثل شهاب الدين بن بلبك والسلطان قنصول التغورى ، بدل اتجهوا كذلك لـ الرياضة والفلك والطب والكيمياء ، وقد خصصت دراسة علمية لذلك

تفاقدتْ موضوعها وأشرفت عليها حتى اكتملت وحصل المرحوم محمد محمد عامر على درجة الدكتوراه من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة و عنوانها « المصاليل المصريون الذين لعوا في ميدان الفكر » فليرجع إليها من أراد المزيد من المعرفة عن نشاط المصاليل في هذا المجال .

وهناك مجموعة من الأبطال يرجعوا في كتابة المؤلفات في الشؤون العربية ومن هؤلاء :

— عماد الدين موسى اليوسفى ١٣٥٧ وهو مؤلف كتاب « كشف الكروب في معرفة الحروب » .

— محمد بن منكى (١٣٧٧) مؤلف « التدبيرات السلطانية في سياسة الصنائع العربية » .

— سيف الدين الماردىنى (١٣٧٨) مؤلف « بقية القاصدين في العمل باليادين » .

مِصْرُ وَسُورَى

من الفتح العثماني حتى العهد الحاضر

الخلاف بين المماليك والعثمانيين

سنتحدث في هذا الجزء فيما بعد عن نشأة العثمانيين ، وتطورهم من إمارة صغيرة إلى إمبراطورية شاسعة ، فلندع ذلك الآن لنتحدث عن الأحداث التي سبقت وعاصرت قضاءهم على دولة المماليك ودخولهم سورياً ومصر .

ولا ننسى أننا أوردنا عند الكلام عن نهاية المماليك تصويراً لعلاقتهم مع العثمانيين التي انتهت بالحرب وهزيمة المماليك ، ولن نكرر هنا ما سبق أن أوردناه ، وإنما سنضيف بضم نقاط كانت ذات أثر كبير في مجريات الأمور آنذاك .

لقد رحبَ المماليك ترحيباً واضحـاً بالانتصارات التي حققها العثمانيون ضد بيزنطة ، وعندما سقطت القسطنطينية شاركت مصر وسوريا العثمانيين في أفراحهم وفي مواكب النصر التي ازدهرت هنا وهناك بمناسبة هذا الحدث البهيج ، ولكن إسقاط القسطنطينية زاد أطماع العثمانيين ، ولذلك حرصوا وقد ورثوا الإمبراطورية البيزنطية – أن يشروا الإمبراطورية الإسلامية ، وبخاصة أنهم من حماة الإسلام ، ومن العاملين على انتشاره وانتصاره ، وتحقيقاً لهذا الهدف احتلوا بغداد التي كانت عاصمة الإسلام فترة طويلة من الزمن ، ثم اتجهوا إلى مصر قلب العالم الإسلامي آنذاك ، حيث تتقدّم الخلافة العباسية مركزها الجديد .

أما الأحداث التي سبقت الحرب ومهدت لها فهي اتهام مصر بمعاملة الصوفيين ، وبحمائية اللاجئين الأتراك أداء السلطان سليم ، وهناك إمارة صغيرة ساعدت على حدود الخلاف بين المماليك والعثمانيين ، تلك هي الإمارة الغادرية إحدى الإمارات التي قامت على أنقاض دول التتار في أرمينيا وديار بكر ، وكان أميرها من أبناء ذي الغادر ، وكان

لصر نفوذ في هذه الولاية ، والمالكيّة لحق بتعيينها ، وحدث أن أحد الأمراء من أسرة ذي العادر المعاوين للأمير الذي عينه المالك ، لجأ به إلى العثمانيين ، وطلب عنهم لتصبح الامارة له ، فاستجاب له العثمانيون بـ « وأمدوه بالعتاد والرجال » ، حتى قضى على منافسه التابع للمالك وأخذ « الولاية لنفسه » ، واعترف بـ « نفوذ العثمانيين على ولايته » ، ولم ياخذ السلطان الغوري على ذلك ، كان ردّ السلطان سليم على هذا الاحتياج أن أرسل له رئيس الوالي الذي كان تابعاً له ، وكان معنى ذلك إعلان الحرب .

ونقطة أخرى يجدر بنا أن نوّضحها ، هي أن جيش العثمانيين كان — بالأسافة التي امتدّت الحديثة التي تكلمنا عنها من قبل — كثير العدد وافر الحماس ومتحدّد الكلمة والغاية ، ولكن جيش المالك آنذاك كان قليلاً ، وكانت عناصر الفرقّة واضحة به ، فـ « عكتقى الغوري ومماليكه كانوا في جانب ، وكان المالك الآخرون في جانب آخر » ، ثم إن دولة المالك كانت تشعّى اضطراباً اقتصاديّاً قاسياً بسبب تحول التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح كما ذكرنا .

ومع كل هذا فقد استطاع الغوري أن يصمد وأن يكسب النصر في عدة جولات في مرج دابق سنة ١٥١٦ ، لولا انسحاب الخونة في المساجفات الحرجية ، وبهزيمة مرج دابق أصبحت سوريا خاضعة للعثمانيين .

وسقط الغوري قتيلاً ولم يُعرف أحد على جثته ، ويقال إن بعض رجاله قطع رأسه حتى تسلم جثته من التشويه .

وقد حاول السلطان سليم بعد انتصاره في مرج دابق أن يسترضي طومان باي الذي « خلف » الغوري ، فراسله ليحكم مصر باسمه ، ولكن طومان باي رفض ذلك ، وأعد نفسه لعارك آخر ، ومع أنه هُزم في موقعة الريadianية (العباسية) فقد واجه الصراع في أمكنة أخرى بأحياء القاهرة ، وظلت المعارك تدور في شوارع القاهرة عدّي أيام ، وشهدت

أحياناً الصنوية والسيدة زيتب وبولاق ووردان، ملوك جحيرة بالتقدير، ولكن العثمانيين انتصروا في النهاية، وعندما لم يجد طومان باي وسيلة للكفاح لجأ إلى أحد رؤساء الأعراب بالبحيرة واسمه حسن بن مرعي واختفى عنده واستخلفه ألا يخونه، ولكن ذلك العدوى هان أميره وبعث للسلطان العثماني بأمره كما ذكرنا من قبل، فأرسل السلطان جنده فقبضوا عليه، وجاءوا به إلى السلطان، وقت استيقاه السلطان عدة أيام، وكان يحسن استقباله ويسأله عن شؤون مصر وإدارتها وجبائية خراجها، حتى إذا عرف منه ما أراد أسلمه إلى حبل المشنقة في ربيع الأول سنة ٩٣٣هـ (١٥١٧)، وانتهت بذلك دولة المماليك وأصبحت مصر وسوريا خاضعتين للحكم العثماني.

وقد بقى السلطان سليم بمصر ثمانية أشهر، سن خلالها بعض الأنظمة الإدارية، ونقل إلى القدسية أكثر ما في القلعة ومنازل الأمراء والسلطانين والمساجد والزوايا والأربطة من التفاصيل والذخائر والكتب حتى أعمدة الرخام ومركماته.

ونهى من مصر إلى القدسية الخليفة العباسى وأكثر العلماء، القضاة وكل من له نفوذ وإمرة بمصر.

ثم أمر بجمع رؤساء الصناعات المشهورين بإجاده العمل فيها من كل الطوائف، فجُمِع له منهم نحو ألف صانع فنقلهم إلى الاستانة لينشروا الصناعات الدقيقة فيها، وقد رجع بعضهم إلى مصر بعد عهده وبقى آخرين هناك، ويقال إنه قضى في مصر بذلك على نحو خمسين صناعة، فكان كل ذلك سبباً في تأخر مصر في مجال الصناعات.

أما ولاية مصر فالختار لها السلطان سليم في أثناء إقامته أكبر وزرائه (يونس باشا) واليا عليها، ثم رجع عن ذلك قيل بسفره من مصر وولي

عليها الخائن « خير بك » ووليٌ على الشام الخائن الآخر « جان برجي الغزالى » .

نظام الحكم العثماني بمصر وسوريا :

إن فلسفة الحكم عند العثمانيين كانت تقوم — كما يقول فيليب حتى — على أن الشعوب المغلوبة رعية يتعهد لهم الراعي لصلحته ، فهم بمثابة الموالى الإنسانية (يتحلّبُون) أو (يُثجَّرون) حسبما يشاء الراعي ، ولهم أن يعيشوا ماداموا أولاً لا يسببون المتاعب وثانياً يسعشُّون ، وفي مصر وسوريا كان هناك شعب أكثره من الفلاحين والصناع والتجار لا يطمعون إلى الانخراط في سلك الجنديّة ، ولا يسعون لتولى الملاصب الكبرى ، فليعيشوا ليكحوا ولينالوا ختن الطعام والمثياب ليؤخذ منهم ما تبقى بعد ذلك للسيد الراعي ، ولكن (التطيع) لابد له من (كلاب حراسة) غير أن الكلاب هناك لا تتولى فقط الحراسة كالشأن في الكلاب مع الغنم ، بل تتولى كذلك جمع المال لنفسها ولراعي ، وردع من يتوق للحرية أو يفكر فيها (١) .

ذلك هي خلاصة فلسفة الحكم عند العثمانيين في جميع البلاد التي فتحوها ، فلا يعنيهم أمر البلاد في قليل أو كثير ، وإنما يعنيهم أن يتذدوا الوسائل لدوام خضوعها اليهم ، والعجيب أنهم عادوا المالك وحاربوهم ، ولكنهم سرعان ما اتخذوا هم سلاحاً أو جلادين يطعنون به الشعب المصري والسوري ، حتى ليروي أن السلطان سليم حاول أن يستبقى طومان باي لو لا أن المالك الذين كانوا حوله خافوا من ذلك على أنفسهم وأخافوا السلطان سليم منه فأعدمه ، وكان إعدامه حدثاً فريدياً ، أما موقف السلطان سليم بوجه عام من المالك فيوضّحه وصيته بهم ألا ينالهم

(١) انظر تاريخ سوريا للدكتور فيليب حتى ٢ ص ٣١٢ .

أذى ، ويوضحه تركه السلطة في أيديهم وعدم المساس باقطاعاتهم وببقائهم بعد أن أطهان إليهم ، ونتيجة لذلك كان ترف المالك في العهد العثماني يفوق ترفهم قبل ذلك ، فقد تخلص المالك في العهد العثماني من المسؤولية ، فإذا كانوا إيان سيطرة الكاملة مسئولين عن البلاد شأنهم في هذا العهد غير مسئولين ، إذ أنهم في الظاهر يعملون لحساب سواهم وبناء على توجيهاته ، ولذلك انعموا في الترف في المسكن واللبس بعد أن كان في حياتهم الأولى كثير من الخشونة وشق العيش شأن الجندي المكافح .

ولما جاء السلطان سليمان بعد أبيه السلطان سليم زاد تقريره للمالك ، إذ استعلن بهم في حربه بجزر البحر الأبيض ، فأبدوا في الحروب ضربا من الشجاعة والاستبسال فكافأهم السلطان سليمان بأن أذن لن شاء منهم أن يعود إلى مصر ليعيش في ظل السيادة العثمانية ويدين بالطاعة للباشا الوالي مثل هذه السيادة ، فأسرع أكثرهم إلى العودة لمصر ^(١) .

وعلى هذا غنمن أمام اتفاقية غير مكتوبة ، وقد أغفل المؤرخون أو أكثرهم إيرازها ، وخلاصتها إضعاف الشعب العربي لتANDOM تبعيته للعثمانيين ، واقتسمام خيرات البلاد بين المالك والمعثمانيين .

وفي ضوء هذه الفلسفة رسم السلطان سليم سياسته بمصر وسوريا ، فبعد أن تم له فتح مصر ، أمضى بها ثمانية أشهر للتعرف على أحوالها كما سبق القول ، ووضع قواعد الحكم الجديد بها ، وتنظيم العلاقة الاقتصادية بينها وبين العاصمة العثمانية ، وفي طريق عودته من مصر

(١) الجبرتي : عجائب الآثار في القرآجم والأخبار « التمهيد للكتاب » .

- ٤٨٦ -

الى بلاده توقف طويلاً (بسوريا) لنفس الأغراض ، ونتيجة لهذه الدراسة أعلن نظام الحكم الجديد الذي يقضي بأن تكون هناك سلطات ثلاث بيدها مقاليد الحكم ، وهذه السلطات هي :

أولاً — إلى إى :

ويلقب الوالي بالباشا وهو نائب السلطان ، ووظيفته إبلاغ أوامر السلطان الى عمالة الحكومة ، والإشراف على تنفيذها ، وعليه جمع الضرائب ، وإرسال المقررات المفروضة على الولاية الى الخزانة العبرانية بالقسطنطينية ، ومن واجباته أيضاً ارسال المؤن والكسوة الى الحرمين الشريفين ، وكذلك الاشراف على دار سك النقود التي بالقلعة ، وتقديم حسابها ، وتدبيس أرقاق جنود الانكشارية بمصر وأرذاق رجال الشرطة ، ويتولى تعيين شيوخ البلد والصناجق من المالكين بعد موافقة السلطان ، وهو المسئول عن حفظ الأمن ونشر العدالة .

ثانياً — الديوان :

ترك السلطان سايم بمصر حامية تتالف من نحو اثنى عشر ألف جندى ، يتكون منها ست فرق « وجاقات » ورؤساء كل فرق يسمون « الوجاقية » ورئيس الوجاقية يسمى « الأغا » ونائبه أو وكيله يطلق عليه الكخيا أو « الكتخذا » ويكون من الوجاقية مجلس شورى الباشا المعروف بالديوان ، ويجتمع الديوان أربع مرات في الأسبوع ، ومهمته النظر في الشئون الاقتصادية والادارية ، ولا يجوز للوالى أن يتخذ قراراً في أمر من الأمور إلا بعد الحصول على موافقة الديوان .

ثالثاً — السناجق :

السناجق هم حكام الأقاليم ، ولكل منهم في إقليمه سلطة كاملة ، وهو يباشر رئاسة جميع الشئون الإدارية والاقتصادية ، ويكون السناجق

من المماليك ، ورئيسهم في مصر هو سنجق القاهرة ، وفي الشام سنجق دمشق ، ويلقب « شيخ البلد » وهو يلى الوالى في الأهمية ، ويشغل مكانه لو خلا لسبب من الأسباب حتى يجيء الوالى الجديد ، ولذلك كان يطلق عليه « كخيا الوالى » أى نائبه ، كما كان للاغا كخيا في تنظيمات الوجاقية ، وبالأضافة إلى السنجقة كان المماليك يشغلون عدة مناصب كبرى في مصر منذ مطلع العهد العثمانى ، منها عظيفة « الدفتردار » ويшибه وزير المالية في العهد الحاضر ، و « الخازنadar » ووظيفته تسليم الخراج سنويا إلى الحكومة العثمانية ، وأمير الحج ووظيفته مصادبة الكسوة وقيادة الحجاج إلى بيت الله الحرام وتوزيع الصدقات بالأماكن المقدسة ، وأمراء البحر الثلاثة وهم قباطين ثغور دمياط والسويس والاسكتدرية التي تمثل أبواب مصر البحرية .

وتبعاً لهذا التقسيم عين خير بك والياً مصر مكافأة له على خيانته ، أما سوريا فقد قسمت إلى ثلاثة ولايات هي : ولاية حلب وولاية دمشق وولاية طرابلس ، وتضم كل منها عدة سناجق ، وقد جعلت ولاية دمشق وهى أهم الولايات الشام مكافأة للخائن الثانى جان برمى غزالى ، وجعل له الأشراف على الولايات الأخرىتين بحيث أصبح النائب عن السلطان في سوريا كلها .

التنظيم الاقتصادي :

ذلك مجمل القول عن التنظيم السياسي ، أما التخليل الاقتصادي وهو الهدف الأسمى للعثمانيين فقد سار على النحو الذى كان متبعاً إبان عهد المماليك ، وقد كان من أهم ما عنى به السلطان سليم القيام بمسح الأراضي في مصر وسوريا وتحصيص مقدار منها للأجناد ومقدار لنفقات الوالى ، ومقدار للسناجق ، وما عدا ذلك سمى بالأراضي الديوانية أى التابعة للديوان الأعظم بالاستانة ، وسار العثمانيون سيرة سلاطين المماليك في استغلال هذه الأرضين طريق الاترام بالمزايدة ؛ بحيث يتبع بعد

المترم بدفع مقدار محدد من المال كل عام عن مساحة محددة من الأرض ، يُجْبِي من فلاحي هذه الأرض ما يستطيع من أموال ، وكان يشترك في المزايدة أغنياء المالكين وكبار التجار وبعضاً الموظفين (١) .

ومن الواضح أن هذا التنظيم الاقتصادي كان قاسياً جداً على الفلاح ، وركر المثراه كله في أيدي المترمين وأيدي السنافق ، فكان هؤلاء وأولئك سادة يحيون في بذخ وترف ، أما الفلاح فكان عبداً يعمل بعنف ولا يكاد يجد الكفاف .

تاريخ مصر وتاريخ سوريا :

في ظل هذا النظام أو في إطار هذا التخطيط انفصلت سوريا عن مصر ، بعد أن ظلت مرتبطة بها طيلة العهود الاستقلالية منذ حكم الطولونيين ، وأصبح لكل من مصر وسوريا قدرٌ وتاريخٌ ، صحيح أن التنظيم كان واحداً ، ولكن الولاة كانوا مختلفين ، وحدثت أحداث هنا وأحداث هناك وسُعِّرت الهوة بين الشقيقتين ، وقد ذكرنا في مطلع هذا الكتاب أن الاستعمار كان يفرق بين مصر وسوريا ، ونحن الآن في فترة استعمار ميرير فرق بين الشقيقتين ، ومن هنا كان لزاماً علينا أن ندرس تاريخ كل منها على حدة في هذه الفترة حتى نعود فنلتقي في ظل وحدة تتضمن الشقيقتين مرة أخرى .

(١) انظر رأى الاسلام في الالتزام بكتابنا «الاقتصاد في الفكر الاسلامي» .

تاریخ مصر من الفتح العثماني

تقديم :

دخل العثمانيون مصر سنة ١٥١٧ وفي سنة ١٩١٤ أعلنت الحماية الانجليزية على مصر وقطع آخر خيط كان يربط مصر بالإمبراطورية العثمانية ، قرون أربعة طويلة و Moriّة ارتبطت خلالها مصر بهؤلاء الغزاة الذين لم يكن لهم إلا خدمة مصالحهم ، وهناك في الاستانة قام رجل ادعى الخلافة الاسلامية ، رجل يعيش في كثير من الأحوال لنفسه ولنزواته وخليلاً ، يزعم أنه يجلس في المكان الذي جلس فيه يوماً أبو بكر وعمر بن الخطاب ، وباسم هذا اللقب طال عمر حامل هذا اللقب بالاستانة ، وكانت رائحة الفساد تفوح أحياناً فتركم الأنوف ، ولكن المسلمين يرونها خطيبة فردية ويتمون لو جاء لهذا خلف جدير بهذا اللقب ويحمل مسؤولياته ، ويجيء سلطان على هذا النط ، ولكن المسلمين أيضاً يظلون على أمهم رغبة في الحرص علىبقاء الوحدة الاسلامية ، وربما هيئت ثورات في وجه هؤلاء الخلفاء ، ولكننا كنا نشاهد مقاومة لهذه الثورات نابعة أحياناً من الأرض التي نبعت فيها الثورة ، حفاظاً على الوحدة الاسلامية أن تتخل .

شيء مهم نريد أن يثبت في نفوس القراء والمشترين ، هو أن الانصوات تحت الخلافة العثمانية لم يكن يُنتظر اليه على أنه تبعية أو احتلال ، وأكبر دليل على هذا أن وفود الجزائر سارت من تلقاء نفسها تطلب الانصوات أيضاً تحت الخلافة العثمانية ، وكانت هناك في الشرق الأقصى مملكة إسلامية في جزيرة سومطرة في حرب مع هولندا فطلب أن تحتويها الخلافة العثمانية ، وهكذا استطاعت هذه السلطة العثمانية أن تستغل هذا اللقب الكريم ، وأن تستغل دين الاسلام لتحقيق مآربها الذاتية ، بوسيلة واحدة هي شداع هذه الشعوب .

ولنعد الى مجيء لنقرر أن هذه القرون الأربع لم تسر على نمط

واحد ، وإنما تغيرت الملامح فيها من حين إلى حين ، ويمكنا بوجه التقريب أن نقسم هذه المدة إلى أربع فترات ، لكل منها طابع يكاد يكون خاصاً بها ، وهذه الفترات هي :

١ - من الفتح العثماني إلى على بك الكبير (١٧٦٣ م) ، وأبرز طابع لهذه الفترة (أنها فترة عثمانية) بكل ما في الحكم العثماني من خصائص وخلل ، وقد طالت هذه الفترة بسبب تناقض المماليك كما سررت بعد قليل .

٢ - من على بك الكبير إلى محمد على (١٨٠٥ م) وأبرز خصائص هذه الفترة (أنها فترة مملوكية) رجحت فيها سلطة المماليك على سلطة العثمانيين ، ومن أهم أحداث هذه الفترة سياسياً الحملة الفرنسية ، ومن أهم أحداثها الفكرية الدراسة الرائعة التي قدمها عنها الجبرتي المؤرخ العظيم ، وقد عنينا عناية تامة بهذين الموضوعين .

٣ - من محمد على إلى الاحتلال (١٨٨٢ م) ويمكن أن نسمى هذه الفترة (فترة الاستقلال) فإن العلاقات بين مصر وتركيا كانت قد ضعفت إلى درجة جعلت محمد على يهاجم الأرض التركية ، ويحقق نصراً عليها .

٤ - من الاحتلال إلى مطلع الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ م) ويمكن أن نسمى هذه الفترة (فترة تعدد السلطات) ، فالاحتلال الانجليزي كان يمثل أقوى حثبات النفوذ ، ولكن العثمانيين لا يزال لهم حقوق شرعية في البلاد ، وبجانب هذين هناك الحكام من أسرة محمد على ، ولهم على كل حال لقب السلطان ، ثم هناك سلطة الشعب التي بدأت تبرز في هذه الفترة في صورة حركات شعبية لها تخطيط وغاية ، من أهمها نضال الحزب الوطني .

تلك هي أهم الأقسام التي يمكن أن نقسم لها فترة الحكم العثماني ولكن تبقى فترتان متميزتان صارعتا الاستعمار الانجليزي الذي خالقَ

— ٢٩٣ —

الحكم العثماني ، وينبغي أن نتحدث عنهم لنصل بحديثنا عن مصر إلى العهد الحاضر وهاتان الفترتان هما :

— من الحرب العالمية الأولى حتى ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ وأهم طابع لهذه الفترة أنها كانت فترة (صراع) وقد ختم هذا الصراع بالثورة المذكورة .

— فترة الاستقلال من سنة ١٩٥٢ حتى الآن ، ومن الواضح أن الاحتلال البريطاني لم ينته سنة ١٩٥٢ ، ولكنه في الحقيقة انتهى حكماً ، من سنة ١٩٥٢ حتى تم الاتفاق على تصفيفه على ما سನوضحه في حينه ، ويدخل في هذه الفترة تلك السنوات المديدة التي احتل فيها العدو الصهيوني جزءاً من أرضنا (سيناء) عقب حرب يونيو سنة ١٩٦٧ . وقد ظل جائماً حتى زعزعت حرب ١٩٧٣ حياته وكيانه ، وقد استطاع جيش مصر أن يعبر القناة ويقيم له مراكز في سيناء ، ثم تدخلت الولايات المتحدة فأوقفت زحف مصر ، ولكن المفاوضات أكملت جانب النصر ، فجلت إسرائيل عن سيناء وعادت لنا أرضنا الطيبة تماماً في أبريل سنة ١٩٨٢ .

وستتحدث عن هذه الفترات كل على حدة فيما يلى :

١ - الفترة العثمانية ١٥١٧ - ١٧٦٣

يبدو لأول وهلة أن هذه الفترة طالت ، ولم يقفز المماليك قفزة واضحة لاسترداد السلطة من العثمانيين خلالها ، ولكن الواقع أن العثمانيين إبان هذه الفترة ضعف سلطانهم ، ولكن القوى الأخرى حرصت على الإبقاء عليهم ستارا تحكم من ورائه ، وكانت المنافسة بين العناصر الطامحة في الحكم هي التي أطالت هذه الفترة إلى هذه الحد ، وقد زار مصر في سنة ١٧٦١ - أي قبيل الحركة الاستقلالية التي قام بها على يد الكبير الذي كان شيخاً للبلاد - رحالة دانمركي اسمه « كارستن نيبور Neibuhr » ، ووصف حالة مصر إذ ذاك قائلاً : « إن القاهرة كانت مسرحاً للشعب والقلائل ، والأحزاب في حروب داخلية مستمرة ، وكانت تلك الأحزاب تضم فيما بينها أنصاراً من رجال الحامية يقتتلون في بعض الأحيان في الشوارع والطرقات ، وكانت منافسات أولئك الزعماء هي السبيل الوحيد الذي حفظ للدولة العثمانية ظلاً من السلطة والسيادة ، إذ كان كل زعيم يخشى على نفوذه من وصول زعيم آخر إلى حكم مصر ، ويفضّل وجود الباشا العثماني الذي فقد سلطانه وضعف نفوذه على مجيء زميل يتحكم في مصير البلاد ، ويكون له من القوة ما يقضى به على منافسيه ، وظل الباشا ألمعوبة في يد هؤلاء الزعماء من المماليك والقادات حتى أن نيبور يقول أنه في خلال اقامته القصيرة في مصر خلّع ثلاثة باشوات من الولاية على أثر ثورات قام بها الزعماء يغضّون أنصارهم » (١) .

ويوضح الجبرتي التناقض بين زعماء المماليك بقوله : إن المماليك استفحوا سلطانهم في القرن الأول للحكم العثماني ، ولكنهم كانوا فريقين ، فريق « الفقارية » نسبة إلى زعيم اسمه ذو الفقار ، وفريق « القاسمية »

(١) نقلًا عن الامة العربية للدكتور عبد الحميد البسطريقي ص ١٧ - ٨١ .

نسبة الى زعيم اسمه قاسم ، وكان التنافس شديداً بين الفقارية والقاسمية ، وقامت بين الفريقين حروب طويلة^(١) .

وينبغي أن نحاول تتبع خطوات الضعف الذي انتاب العثمانيين بمصر ، ونتعرف على أسبابه ، وبيدو لنا أن الذور الأساسية لهذا الضعف تكمن في الخلاف الذي نشب منذ عهد ممكر بين الوجاقيه والوالى ، فقد كان طابع الجنود العثمانيين التمرد ، ولذلك لم يستكينا لسلطان الوالى ، وظلوا يناؤونه من حين الى حين ، حتى فكر «أويس باشا» الذي أصبح والياً سنة ١٥٨٧ م أن يسمح للمصريين وللعرب بالاتخراط في سلك الجيش ، وكان يقصد بذلك أن يربى جيلاً لا يميل الى التمرد ، وأن يتخد من هؤلاء قوة ضد الجنود العثمانيين ، ولكن الجنود العثمانيين لم يسمحوا بذلك ، وقسموا باضطراب وفتن واسعة أرغمت أويس على التراجع عما قصد .

وفي هذا التناول بين الوالى وبين الجنود العثمانيين رجحت كفة الجنود ، حتى أصبح الوالى لعبة في أيديهم يعزلونه أو يعيقونه ، ويردون الولاة الجدد إذا لم يرضوا عنهم .

وقد وقف الماليك موقف المشاهد للأحداث السعيد بها ، وكان الخلاف بين القوتين العثمانيتين يزيد في قوة الماليك ونفوذه ، بيد أن الخلافات الداخلية بين الماليك ، تلك التي أشرنا لها فيما سبق أرجأت استعادتهم للسلطة ، كما أرجأها كذلك ترقب الأحداث ليتمكنهم استعادة السلطان دون صراع طويل ، وحدث أن حروب العثمانيين في أوروبا استلزمت سحب أكثر الجنود العثمانيين من مصر للاشتراك في هذه الحروب ، وقد تسبب عن ذلك أن وقف الماليك وجهاً لوجه أمام الوالى ، ولكن هذا كان سلطانه قد أصبح ضئيلاً متهماً من شدة ما عانى من تمرد الجنود

(١) الجبرتى : تمهيد المؤلف لكتابه عجائب الآثار .

العثمانيين ، وقد أتاح ذلك للملاليك أن يستكملاً نفوذهم ، وبخاصة أن على بك الكبير كان قد ظهر على مسرح الأحداث كما سفرى ، وكان شخصية جديرة بهذا الانتقال الذى ينشرجه في الفترة التالية من فترات الحكم العثمانى وهى الفترة المملوكية .

والآن نواصل كلامنا عن أهم مظاهر الفترة العثمانية :

الباشا :

سبق أن تكلمنا عن الباشا الوالى ومهامه ، ونريد هنا أن نقتبس من الخبرتى مزيداً من الحديث عن مثل الحكومة العثمانية بمصر ؛ يقول الخبرتى : كان إذا عين أحد رجال الدولة العثمانية واليا على مصر ، ينتقل إليها بأهله وحشمه ، فإذا بلغ القاهرة أعدوا له داراً ينزلها ليقضى بها ليتلته الأولى ، ثم يخرج لاستقباله رؤساء الحجابة يسكنون بأيديهم عصياً طويلة ، ولذلك سموا « أرباب العكافيز » ويتأوّهم في الموكب رؤساء الجنود الإنكشارية وترجمان الوالى وأمراء الملاليك ، ويذهب هذا الموكب إلى الدار التي نزل بها الوالى ليتلته الأولى فنيستطيعه ليدخل به القاهرة من باب النصر ويسيّر به وسط جموع الرجال والنساء الذين يقفون في الطرقات والشرفات لتحية الوالى الجديد ، فإذا وصل الموكب إلى القلعة ، المقر الرئيسي للوالى أطلقت المدفع تحية للوالى ، وبعد أن يستريح ثلاثة أيام يعقد الديوان ، ويجتمع أصحاب الشأن كالأمراء والعلماء وشيخ الأزهر ونقيب الأشراف وشيخ السادة البكرية وكبار التجار ، ويستلم فرمان التولية عليهم جمِيعاً ، ويخلص الباشا عليهم خلغاً ، تتناسب مع مقام كل منهم ، ويضيف الخبرتى قوله : إن ولاة مصر كانوا لا يقيمون في مناصبهم غالباً إلا سنة أو بعض سنة ، إذ كانت الاستانة تخشى أن يستبدوا بالسلطة ، ويستقلوا عن الخلافة ، وكان إذا زاد حكم الوالى عن السنة الواحدة صدر له فرمان جديد بتنبيه في عمله سنة أخرى ، وإذا عزِّلَ تقدم إليه أرباب العكافيز يبلغونه أمر العزل ، ويمشون أمامه

فـ نزوله من القلعة ، ويستولون منه على مهام دار سك النقود ، ولا يجوز له أن يمارح القاهرة حتى يحاسب على أموال الدولة الموكولة إليه ، ويبادر النساء بتعيين نائب الوالي من بينهن حتى يحضر الوالي الجديد (١) .

الالتزام :

فيما يتعلق بسياسة العثمانيين نحو الأرض الزراعية بمصر ، التي أطلق سليم النظام الإقطاعي الذي كان سائداً في عهد المماليك ، وأحل محله نظام الالتزام ، ومعنى الالتزام أن الحكومة كانت تملك كل أرض مصر ، وتعطى بعضها للحاكم والبعض لمنتفقات الجندي والمسناجق ، وتطرح الباقى للمزايدة مقسمة إلى أجزاء بين الراغبين فيها مقابل مبلغ محدد يدفعه فوراً أو متعدماً من ترسو عليه المزايدة ، وفي مقابل ذلك كان الملتزم يحل محل الحكومة في السيادة والإمارة على الأرض التي رست عليه ، فيجيء من الزراعين ما يشاء ، وكان تعييب أمراء المماليك من الالتزام عليهم ، وكان ليضمهم حق الالتزام على أرض قرية أو عدة قرى ، وكثيراً ما أصبح الالتزام حقاً يتجدد للملتزم أو يوثق بأبناؤه من بعده ، ومن الواضح أن حال الفلاح في ظل الالتزام كان بؤساً ولما وشقاء (٢) .

أشهر الولاة في هذه الفترة

يمكن القول عموماً إن الولاة لم يكونوا في مناصب يحسدون عليها ، فقد وضعوا منذ أول العهد بين شقي الرحمي ، فقد كانت الاستانة تخشى استقلالهم ولا تثق بهم ثقة كاملة ، ومن هنا قيدت سلطاتهم ، وحددت فترة ولايتهم ، وكان هناك الجنود ينتصرون ساطة الوالي من حين إلى حين ، وهناك كذلك المماليك الذين كانت لهم سيطرة كاملة

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ص ١٦ وما بعدها .

(٢) نفس المرجع ص ٢١ وما بعدها .

على الأقاليم ، ومن هنا لم يسجل التاريخ لأى من الولاية مكانة ممتازة ، ولم يكن هم أكثرهم — وقد دفعوا إتاوة كبيرة لتعيينهم — إلا أن يغدو أكابر معمم قبل أن تنسحب السلطة منهم ، وكان كثير منهم ينهبون ويختلسون ، حتى إذا أحسوا بالعزل أو الإبعاد بنوا المساجد والأربطة ليتظاهروا بالخير ولينالوا عطف الناس وربما غفران الله على ما ارتكبوا من آثام ٠

وعلى العموم فاستكملا للدراسة التي نقوم بها ينبغي أن نذكر عددا من أشهر الولاية في هذه الفترة ٠

خير بك

هو أول الولاية العثمانيين ، وقد أشرنا إليه من قبل وذكرنا أنه تولى الولاية مكافأة على خيانته ، وقد انصرف عنه الناس إيان ولايته ، وظهر ازدراؤهم له واحتقارهم للإثم السخى ارتكبه ، وقد اضطر نكالية في المسلمين الذين انصرفوا عنه أن يقربوا إليه اليهود والنصارى ، ولكن ذلك زاد من كراهيته الناس له ، فراح يحاول أن يسترضي الناس بإطلاق المسجونين وتوزيع الأموال على المساكين وتشجيع المعاهد الدينية ، ولكن ذلك لم يعن عنه شيئاً ، وقد ظل في كمه حتى مات بعد خمس سنوات من ولايته ودفن في مسجده بالقرب من باب الوزير بجهة الخيرية المسماة باسمه ، ومن الملحوظ أن مدته كانت طويلة لتناسب الجهد الذي قدمه للزحف العثماني ، ولم يلقب بالباشا وإنما ترك له اللقب الذي كان مستعماً مع الملك وهو لقب « بك » ، وببدأ لقب الباشا مع الولاية الذين أوفدتهم القسطنطينية بعده ٠

وخير بك اشتراه قايتباى وانتقل في الوظائف من سلطان إلى سلطان حتى أصبح صاحباً للسلطان الغورى فنائباً لمدينة حلب ، حيث بدأ يحوك مؤامرة ضد سيده ٠

— ٢٩٩ —

مصطفى باشا :

هو أول الولاة الذين أوفدتهم القسطنطينية ، وكسان زوج اخت السلطان سليمان القانوني ، وكانت تتمثل فيه العنجوية التركية بأدق مظاهرها ، فكان لا يعرف اللغة العربية ولم يحاول تعلّمها ، بل كان يظهر احتقاره للمتكلمين بها ، وكان يتعاظم على المصريين ويترفع عن التعرف عليهم .

أحمد باشا :

أهم ما ينسب إلى أحمد باشا الوالي الثالث أنه حاول الاستقلال بمصر ، فأمر بضرب السكة باسمه والدعاء له في الخطبة وقد دفع رأسه ثمناً لذلك .

سليمان باشا :

تولى سليمان باشا سنة ١٥٢٥ م ، وله إصلاحات اقتصادية وادارية ذات بال ، فهو الذي مسح الأراضي ورتب الترائب ، وشيد كثيرة من المباني النافعة ، وقد اشتُرك في حرب مع البرتغال تنفيذاً لأمر القسطنطينية لأن سفن البرتغال اعتدت على بعض موانئ البحر الأحمر ، وفي أثناء الحرب ناب عنه خسرو باشا في ولایة مصر ، ثم عادت الولاية لسليمان باشا بعد انتهاء الجملة وظل بها حتى استدعى للأستانة ليصبح الصدر الأعظم يهسا .

سنان باشا :

تولى ولاية مصر مدة عامين فتح في خلالها بلاد نايمون سنة ١٥٦٨ م ، ومن منشأته مسجده ببولاقي وهو من أعظم مساجد العصر العثماني بمصر ، وقد بني على النمط البيزنطي ، وكان محبوبًا من الأهلين كثير الإصلاحات والمبرات .

- ٣٥٦ -

مسیح باشا :

تولى سنة ١٥٧٤ م ، واستمرت مدة ولايته ست سنوات ، وكان من أكثر الولاية عفة واستقامة ، وكان شديد الحرث على نشر الأمن وإقامة العدل .

أويس باشا :

إن أعظم حادث ينسب لأويس باشا — هو كما ذكرنا من قبل — محاولته تجنيد المصريين وثورة الجنود العثمانيين عليه لهذا ، وفي عهده حدث زلزال ضخم انفلق بسببه جبل المقطم .

قرة مصطفى باشا :

ولى مصر سنة ١٦٢٢ م ، وببدأ عهده بشدة أعادت الأمان إلى تصابه ، وأخافت الجنود العثمانيين الذين دأبوا على الفتنة منذ عهد أويس باشا ، ولكنه أخذ يرتكب مع الأهالي ما كان يرتكبه معهم الجنود الثائرون من سلب ونهب حتى أنه عذّ نفسه وارثا لكل الموتى أو لأكثرهم ، مما جعل الناس يضجون بالشکوى منه ، وفي عهده ظهر وباء شديد وتلتله أوبئة متعددة في العهود التي جاءت بعده ، فقضت على كثير من القرى بالخراب والدمار ، وأتاحت الفرصة مرة أخرى للجنود العثمانيين ليفتنوا الفوضى التي كانت ديدنهم كلما أتيحت الفرصة وخفّ " ضغط الولاية .

أشهر المالك في هذه الفقرة

من الطبيعي أن أسماء المالكين اختفت في القرن الأول للفتح ، واتجه التاريخ إلى تسجيل المظاهر العثمانية لهذا العهد ، وكان المالك يعيشون خلف الستار ، ينظمون أنفسهم ويعدون قوتهم للبروز من جديد ، وقبيل نهاية القرن العشرين ، أخذوا ييرزبون للحياة العامة ويلعبون دوراً

- ٣٥١ -

فيها ، ذلك الدور الذى أكمله على بك الكبير كما سترى عند دراسة
الفترة التالية .

والآن نعطي صورة سريعة لأمراء المالك الذين بروزا في هذه الفترة
العثمانية التى نحكي الآن قصتها .

الأمير إيواز بك :

اسمه العربى كما يقول الجبرتى « عوض » وحرفته اللغة التركية
التي ليس بها حرفا العين والصاد إلى إيواز ، وقد تولى منصب شيخ
البلد سنة ١٦٩٥ م ، وقد ظهرت شهرته على إثر انتصاره في مكافحة
القوصى الذى أثارها بعض الأعراب بالوجه القبلى ، ثم انتدبته
الاستانة لمحاربة والى الحجاز وهو أحد الأشراف التائرين على سلطان
القسطنطينية ، فقاتلهم وانتصر عليهم ، ولما عاد كبر شأنه وعلا صيته
فنفس عليه بقية المالك هذه المكانة ، فاحتالوا عليه حتى قتلوه ، ومن
ماليكه الأمير محمد بك جركس الذى سنتكلم عنه فيما يلى :

محمد بك جركس :

ظهرت كفأته قبيل موت سيده الأمير إيواز ، وفي سنة ١٧١٦ م قاد
فيلقا من الجنود لمساعدة الدولة العثمانية في حروبها بأوروبا ، ولما عاد
بعد سنتين كان سيده قُتِّل ، ولم يقنع الأمير جركس بابن سيده إسماعيل
بك وثار عليه ، ولكن هذا انتصر على جركس وبقبض عليه ونفاه من مصر ،
بيد أن جركس استطاع أن يدخل البلاد متتكرا ، كما استطاع بمعاونة
أصدقائه أن يغتالوا إسماعيل بك ، وبذلك خلا الجو لجركس .

ويقول الجبرتى عنه إنه كان عسوفا جبارا مار فى الناس أسوأ
سيرة ، وكان له أتباع على شاكلته ، يأخذون ما يحبون من الباقة بغير

ثمن ومنْ امتنع منهم قتلوه ، ويختطفون النساء والأبنية ، ويدخلون حوانيت التجار ثم لا ينصرفون حتى ينالوا ما يريدون ٠

واشتد الخلاف بين الوالي وبين الأمير جركس ، وحاول كل منهما أن يضم إلى جانبه العلماء ، قادة الشعب بالإغراء أو التهديد ، وظهر من بين الأمراء الفقارية أمير اسمه عثمان بك ذو الفقار ، فقاتل جركس قتالاً طويلاً واستطاع في النهاية أن يحيط به من كل جانب فسقط جركس في النيل ومات ، واسترسل الفقاريون في التكيل بالقاسمين الذين كان جركس ينتسب لهم فقتلوا منهم الآلوف وكان ذلك سنة ١٧٢٩ م ٠

عثمان بك ذو الفقار :

لقد ظهر في أفق القاهرة خلال حكم الإرهاب الذي نشره جركس بك القاسمي ثلاثة من الأمراء الفقارية ، وكان سيد الموقف فيهم عثمان بك ذو الفقار الذي تولى الإمارة سنة ١٧٢٥ ٠

وكان عثمان بك ظاهر العدالة والمساند ، كريماً عادلاً ، أنصاف المظلومين وجعل للفصل في خصومات النساء ديواناً خاصاً ، وكانت أحكامه وفتاوى المشرعة الإسلامية ، وكان يباشر المسئبة بنفسه ، واختفت الرشوة في عهده أو قلت بعد أن كانت عملاً شائعاً قبله ، ولم يصادر أحداً في ماله ، ولا أخذ إتاوة على ميراث كما كان يفعل غيره من أمراء المماليك وال Ottomans ٠

وحولت السلطة بالاستانة لحسابه بإيراد بعض الأوقاف التي كانت وفقاً على الفقراء ، ولكن عثمان بك نفر من هذا وقال عن هذه الموارد إنها دموع الفقراء ، ولا تقبلها نفسى ، واتخذ عثمان بك من أهل العلم والفضل جلساً ومحاوياً ، ويقول الجبرتي أنه أول من دعا بالباشا الوالي إلى وليمة بقصره الخاص ، وكان الأمراء قبله يدعون الوالي إلى ولائهم **بقضاء الحكومة** ٠

ومن هذه الفضائل حسده المماليك وتجتمعوا ضده ، فتأثر أن يدع مصر إلى الاستانة ليقضي بها بقية عمره ، وفي سنة ١٧٤٤ غادر مصر إلى القسطنطينية وقد امتد به العمر هناك فمات بعد ثلاثين عاما ، ويقول الجبرتي أن خروجه من البلاد أصبح تاريخاً معاصرية ، يؤرخون به أحداً منهم وأخبارهم (١) .

رضوان بك كتخذا :

كان رضوان بك صنوا للأمير عثمان ورفيقا له في صباح ، وقد أعاشه عثمان بك بجاهه حتى جعله كتخذا الوالى ، وعرف رضوان بك ذلك الجميل لعثمان بك فترك له رتبة الرياسة وقنع بالقصور والترف ووظيفته الجديدة . وكان من أجمل قصوره قصره الذى كان يشرف على بركة الأزبكية ، وقد أباح للناس دخول حدائقه ، والاستمتاع بمقاتتها ، وكان هذا الأمير كريما سخيا سمحا ، مدحه شعراء مصر فكان منهم ندماً وجلاً .

عبد الرحمن كتخذا :

يعتبر عبد الرحمن كتخذا صنيعة من سنائمه عثمان بك ذو الشفار ، فلم أن عبد الرحمن كان ينحدر من معدن عريق ، إذ كان أبوه سيداً للأمراء المعاصرين له ، لكن ثراء الأب وجاهه استولى عليهما أحد عتقائه واسمه سليمان بك ، وعاش عبد الرحمن في ضيق من العيش حتى سنة ١٧٣٩ م ، حيث استطاع عثمان بك ذو الفقار أن يرد له ما سلب من أموال أبيه متهزأاً فرصة موت سليمان بك ، وبسبب هذه المساعدة أصبح عبد الرحمن أحد أعيان عثمان بك ذو الفقار .

ولعبد الرحمن كتخذا مآثر عظيمة إذ ينسب له إنشاء عدد كبير من

(١) الجبرتي : عجائب الآثار من ٢٩ - ٣٠ .

المساجد وتتجدد عدد آخر ، كما يتنسب له إنشاء كثير من الملاجىء ومكاتب التعليم والزوايا . وهو الذى بنى المشهد الحسيني ومسجده والمشهد الزينبى ومشهد السيدة نفيسة ، وأضاف إلى بناء الجامع الأزهر زيادة كبيرة من ممتلكاته .

صالح بك القاسمى :

أحد الأمراء القاسمية كان عظيمًا سيداً سليم الصدر لا يحب الأذى ، وقد عاش في عصر واحد مع على بك الكبير ، ولذلك جرت بينهما أحداث ستكون موضع حديثنا في الفترة التالية وهي فترة الاستقلال .

أشهر الأحداث في هذه الفترة

لقد رأينا فيما سبق بعض صور الاضطراب والمفوضى بين جماعتي المالكية ، القاسمية والفقاروية ، ويبيرز لنا الجبرتى مصدرًا آخر من مصادر النفوذ في هذا العهد الذى تعددت مصادر النفوذ فيه وسبب اضطراب والمفوضى ، وذلك المصدر الجديد هو بعض القبائل العربية التى كانت موجودة في مصر ، وبخاصة عرب الهوارة بالوجه القبلى وبنو حبيب بالوجه البحرى ، وكان زعيم الهوارة هو همام بن يوسف ، وقد اتخذ عاصمته قرية فرشوط إحدى قرى مركز نجم حمادى ، وامتد نفوذه على باقى القبائل التى كانت تعيش في مصر من أسوان إلى بنى سويف ، وقد تحالف هذا الزعيم مع الأمراء القاسمية الذين يتبعونهم صالح بك القاسمى ، وقد سلك همام بن يوسف مسلك زعماء المالكية في شرائطهم لحسابه وتدريبهم وتجنيدهم لحمايةته ، حتى أصبح واسع البأس مرهوب الجانب ، فنافس بذلك المالكية ، ولكن سماحة العرب وجودهم كانوا بارزين في خلقه .

أما زعيم بنى حبيب فهو الشيخ سليم بن حبيب ، وقد اتخذ بلدة

- ٣٠٥ -

دجوة ب مديرية القليوبية مركزاً له ، وكان له السلطان على كثير من مناطق الوجه البحري وبخاصة على مديرية القليوبية والشرقية ، وكانت لـه سيطرة على فرعى النيل من بولاق الى رشيد ودمياط ، وكان له بالنيل مراكب تسمى الخراجات عليها رجال علاوه شداد يجرون باسمه من السفن الصاعدة والهابطة ما يفرضون من ضرائب وإتاوات .

— ٣٥٦ —

٢ — الفترة المملوکية (١٧٣٣ — ١٨٠٥)

لماذا سُميت مملوکية؟

أطلقنا على هذه الفترة «الفترة المملوکية» إذ بدأنا نرى فيها أمراء الممالیک يفوق سلطانهم «الوالا» ، وقد بدأ هذه السياسة على يد الكبير الذي لم يكتفى بالتمرد على سلطان العثمانيين ، بل راح يرسل قواده للتعمرق في بلاد الدولة العثمانية ، ومنذ ذلك العهد أصبح الولاة يخالفون الممالیک ويخصبون لسلطانهم ، فمراد بك كان يصعد إلى القلعة ليتملى على الوالي ما يشاء بل كانوا يعزلون الوالي أحياناً ، وطالما كانت القسطنطينية توافقهم على ذلك وترسل لهم ولها جديداً ، ولا شك أن مثل هذا الوالي الجديد كان لا بد أن يسير في الطريق الذي يرسمه الممالیک وإلا كان نصيبي العزل كسلفه .

وشهد هذا العصر ظهراً آخر من سلطان الممالیک ، ذلك هو منعهم الجزية السنوية التي كانت تتحمّل إلى القسطنطينية ، ثم إنهم كثيراً ما صرحاً بأنّ البلاد بآدمهم وأن العثمانيين دخلاء عليهم .

وجاءت الحملة الفرنسية في أخيريات هذه الفترة ، وكان من أهدافها القضاء على الممالیک ، ولكن الحملة فشلت ، وعاد السلطان مرة أخرى إلى الممالیک .

وقد اضطر العثمانيون إلى إعادة غزو مصر لاسترداد سلطانهم ، وخاصة عندما توقف إرسال الجزية السنوية . وقد قبلهم الممالیک بدفعونهم بالقوة ، صحيح أنهم انهزوا ولكن مواجهتهم القوة بالقوة تضعهم ، لا في موقف التابع كما كانوا من قبل ، بل في موقف المنافس وصاحب الحق ، ولما خرج الجيش العثماني بعد هذه الجولة ليشتراك في الحرب ضد روسيا عاد الممالیک يستأنفون سلطانهم مرة أخرى .

من أجل ذلك أطلقنا على هذه الفترة «الفترة المملوکية» وتبدأ هذه الفترة بعلى يد الكبير الذي آن لنا أن نتحدث عنه .

على بن الكبير :

قبل الحديث عن على بن الكبير يجدر بنا أن نذكر لحة عن المحبة التي سبقته والتي مهدت الطريق إليه ليصل إلى السلطة ، ففي سنة ١٧٤٥م كان على رأس الماليك ابراهيم بن ورsonian بن وينتميان إلى نعماليك الفقارية ، وكان النفوذ في مصر قد أصبح في أيدي الماليك ، فدببت الاستانة مؤامرة يمكن أن تسمى بالسمم الأخير في جسدها ، تلك هي إرسال والي عزف بالشجاعة والكياسة للقضاء على الماليك بطريق التآمر ، وقد اختير لهذا العمل محمد راغب باشا ، الذي شغل منصب الصداررة العظمى في بلاده فترة من الزمن ، واستطاع راغب باشا فعلاً أن يقضى على عدد كبير من الماليك ، ولكن ابراهيم بن ورsonian بن أدرك ما يراد بهما وبذويهما ، فثاروا على الوالي وحاصروه وعزلوه ، وأمسك الماليك بالسلطة علانية ولم يَعُد للوالى بعد ذلك أى نفوذ ، وابراهيم بن هو أستاذ على بن الكبير وعمربىه ، فلما مات ابراهيم سنة ١٧٥٥م وتلاه نده رضوان بن في نفس العام بدأ على بن يظهر مع طبقته من الأمراء الذين جاءوا بعد هذين الزعيمين ٠

وعندما أصبح على بن الكبير في الطبقة الأولى بين مماليك مصر ، كانت الأحوال بالبلاد قد ساقت إلى أبعد حد ، فالخصومة بين زعماء الماليك شديدة ، وزعماء القبائل العربية يكتون بمصر دولاً داخل الدولة ، وقطاع الطريق منتشرون هنا وهناك ، والرثوة سائدة بين الموظفين ورجال الحسبة ، وأهل هذه الأحداث هي التي صبغت على بن الكبير بالصبغة القاسية التي سفر لها واضحة فيه ٠

وكان على بن كما يقول الجبرتى شديد المراس قوى الشكيمة ، عظيم الهمة ، لا يحب اللهو ولا المزاح ، ولا يعرف إلا الجد ، ويُرْوى أنه جرت مشاوره انتقليده مشيخة البلاد ، فزakah بعض الماليك وعارض آخرون ، ولما بلغه الأمر صاح قائلاً : إنني لا أتقن الإمارة إلا بسيفي ،

ولا أرضى العون من غيرى ، وظل يعمل مع عبد الرحمن كتخذا وتوظاهر بحبه والخلاص له ، فاعتبر به عبد الرحمن وركن اليه وجمع عليه قلوب النساء ، فخلع عليه الباشا الوالى خلعة الرياسة ومشيخة البلد ، وكان ذلك سنة ١١٧٧ = ١٧٦١ م ، وكان على بك عظيم الهيئة متقد الذكاء حادق الفراسة كثير القراءة لكتب التاريخ وسير الملوك ، وكذن يرى في العثمانيين مغتصبين ، وأن السلطة ينبغي أن تعود لأصحابها الشرعيين «الماليك في رأيه » .

وقد بدأ على بك نضاله فأوقع بقطاع الطريق والمفسدين ، وقطع دابرهم ، ورج على الموظفين الذين يقبلون الرشاوى ، فأنزل بهم أقصى العقاب ، وراح للعبشين بالأمن والمستهتررين يضرهم بيد لا ترحم .

وكان في أثناء ذلك يكثر شراء الماليك وتربيتهم ، حتى أصبح له بهم جاه عظيم ، وكان في قمته مملوكة الكبير محمد أبو الذهب ، فانبرى بسلطانه وبأتباوه يضرب بقصوة كل من يقف في طريقه ، ويصادر ما احتاج له من مال ليقوّي نفسه ، ويعد "جنه" ، ولا وصل إلى غاية عظمى في القوة والبأس ، انبرى إلى أعدائه الكبار من زعماء الماليك وأخذ يضرهم الواحد بعد الآخر ؛ يستصفي أمواهم ويقتلهم أو ينفيهم ويرد على رجاله ما كان بأيدي هؤلاء من الأموال ، بل وصل به أن أوقع بسيده عبد الرحمن كتخذا فنفاه إلى الحجاز ، وقد بقى هذا في منفاه اثنى عشر عاما ولم يرجع إلا وهو حطام لم يلبث أن مات ، وكان كبير الماليك القاسمية يدعى صالح بك القاسمي ، وكان على بك يضم له النسوة ، فلما نَفَى عبد الرحمن كتخذا أمر القاسمي "أن يشيشه إلى منفاه" ، فلما خرج صالح بك يشيع عبد الرحمن كتخذا أرسل على بك في أعقابه أمرا ثانياً بتنفي صالح بك إلى غزة ، ولكن صالح بك استطاع أن يفر والتلف حوله أبناء شيعته ، وفي الوقت نفسه تخلى أتباع على بك عنه وحاولوا القضاء عليه ، ولكن على بك فرّ منهم ولجا إلى عدوه السابق صالح بك وطلب حمايته ، وأعطاه الواثيق على الود والخلاص ، فصيدقه صالح بك القاسمي ،

وساعده حتى استعاد مكانته ، وحينئذ أخذ يقتل أولئك الذين تخلوا عنه ، وأسرف فيهم قتلاً وخفقاً بلا رحمة ولا شفقة ، ووصل إلى قمة جحوده إذ أسرع وتأمر ضد صالح بك الذي حماه وخرّب صالح قتيلاً بسيوف أتباع على بك (١) .

ولم يسلم شيخ العرب من فتك على بك الكبير ، فقد قُتِلَ شيخ الحبايبة ونهب أمواله وخرّب دياره ، وقتل شيخ الهوارة وخرّب عاصمتها وبعد ذلك أعوازه .

وبهذا دانت له البلاد من أسوان إلى الاسكتدرية ، ولم يعد في مصر من ينافسه ، ودفعه ذلك إلى أن يتوجه صوب سوريا عقباً لواليها عثمان بك العظم الذي أفسح صدره للمماليك الفارين من على بك وقوسته ، وقد سار في غزروه حتى وصل حلب ، بل أمر قواده أن يتقدموا إلى الأرض العثمانية فاتحين ، ويسبب هذه الانتصارات متّجهاً لقب الكبير فأصبح يسمى على بك الكبير .

ويبدو أن أكثر قواده ملثوا القتال وسفك الدماء ، فاتفقوا على مخالفة سيدهم ، وفي شتتهم رببه وزوج ابنته محمد أبو الذهب ، وأيدت القسطنطينية هؤلاء الخارجين ، وأمدتهم بالمال والسلاح ، فانتصروا على على بك وألقوا القبض عليه على الرغم من مساعدة ظاهر العمر حاكم الشام وخليف على بك الكبير ، وعلى الرغم من مساعدة الروس الذين كانوا يؤيدون الثوار ضد الحكم العثماني ، وكانت معركة الصالحية هي المعركة الفاصلة بين على بك والتأثيرين عليه ، وفيها سقط على بك جريحاً ، وحمل إلى منزله حيث مات بعد عدة أيام سنة ١٨٧٢ م = ١٦٧٢ هـ ، وخلأ

(١) انف أحد أتباع على بك من أن يشتراك في هذه الخيانة وهرب إلى الشام خوفاً من سيده وسنراه فيما بعد وعليها لعكا ومدافعاً عنها ضد هجمات نابليون ، وهو أحمد باشا الجزار .

الجو محمد بك أبو الذهب وقد استطاع هذا أن يستصدر أمراً من الأستانة بمحاربة ظاهر العمر عقاباً له على تأييده لعلي بك ، وبما صدر له هذا الأمر فتحت له بلاد الشام البلدة تلو البلدة دون عناء كبير ، ولكن أيام أبي الذهب كانت قصيرة فقد مات سنة ١٧٧٥ وأسلم موته البلاد إلى خالف مرير .

من أبي الذهب إلى الحملة الفرنسية :

بعد موت محمد بك أبو الذهب بُرِزَ في مصر ثالوث من المماليك هو : إسماعيل بك ، وابراهيم بك ، ومراد بك ، وقد طمع إسماعيل بك في أن تكون السيادة في يده لأنَّه أقدم الثلاثة ، وأقواهم علاقة بعلي بك الكبير ومحمد بك بو الذهب ، ولكن اتحاد ابراهيم بك ومراد بك أبعده عن السيادة وضمنها لهما ، واعتكف إسماعيل كأنَّه يعتزل السياسة ، ولكن كثيراً من المماليك السلاطين التقروا حوله ، وأدرك مراد بك ذلك فدبر مؤامرة للقضاء عليه ولكن إسماعيل فر من المؤامرة ، ثم عاد يقود جيشاً كبيراً اقتحم به القاهرة واستولى على السلطان ، ولكن أحد أتباعه واسمه حسن الجداوي خانه وهر في أوج انتصاره وانضم إلى خصومه ، فهرب إسماعيل إلى الشام وآكل السلطان إلى ابراهيم ومراد بك مرة أخرى ، وعاشت مصر فترة مليئة بالنكبات والآلام فقد كان مراد بك غسوناً ظلماً محباً للمال مُبغضاً للعدالة ، يقتل ويصادر وينهب ويُعذب من لحظة إلى لحظة ، وقسَّت الطبيعة على الشعب كما قسا عليه الأمراء فاجتاحت الأوبئةَ البلادَ وهبط منسوب النيل واشتدت المجاعة .

ولم يجد الناس ملجاً من هذا العسف إلا العلماء ، دقوا أبوابهم واستعنوا بهم لرد الظلم عنهم ، ومن أبرز علماء هذا العصر الشيخ عبد الله الشرقاوي ، والشيخ أحمد العروسي شيخ الأزهر والبكري

- ٣١١ -

نقيب الأشراف ، والشيخ أحمد الدرديرى من كبار العلماء ، وكان هؤلاء يحاولون - دون جدوى ايقاف تيار الظلم والطغيان .

وتعالت صيحات الشعب واتجه بهتافه نحو الاستانة ، ولكن هذه كانت في شغل عنهم ، بيد أن الجزية المقررة لم تصل إلى الاستانة منتظمة ، وهنا فقط تحركت وأرسلت بعض الكتائب البحرية بقيادة القبطان حسن باشا إلى الاسكندرية وفرح الناس ظانين أنها حملة انقاذ وسلامة ، وتطاھرت الحملة بذلك في بادئ الأمر ، فأصدر حسن باشا منشورات قسال فيها .

- لا تخشوا شيئاً فلن أول ما أوصاني مولاي السلطان أو صانى بالرعاية .

- كيف ترضون أن يملّكم مملوكان كافران وتقبلونهما حكامًا عليكم يسمونكم العذاب والظلم .

وأحسن الناس استقبال الحملة ؛ ولكن الحملة التي جاءت لرفع الظلم أنزلت مزيداً من الظلم بالفاس ، فقد انتشر الجنود ينهبون ويسلبون ، ومصادر حسن باشا أموال المالكين ونساءهم وذويهم وراح يبيعهم في الأسواق ، ولم يكتف حسن باشا بما صادر من أموال المالكين ، بل راح يفرض الضرائب الباهظة ويجبي الأموال بكثرة ، فضجّ الناس منه وعلا صراؤهم ، ولم تفلح إقامته في مصر على أى حال ، فقد اشتباك العثمانيون في حرب مع روسيا ، فاستدعاي حسن باشا وفيقه للاشتراك في هذه المعركة الكبرى ، فغادر مصر بعد أن عيّن اسماعيل بك شيخاً للبلد والجداوى أميراً للحج ، وعاد الصراع غير المباشر بين اسماعيل من جهة وبين إبراهيم ومراد من جهة أخرى ، ولكن الطاعون الكبير الذي اجتاح البلاد سنة ١٧٩١ التّهمَ اسماعيل بك فيمن التهم ، وكان إبراهيم

— ٣٩٢ —

بك ومراد بك يتربيسان في الصعيد ، وظن علماء مصر ومحهم السيد عمر مكرم أن الملوكين قد تم خبّيت أخلاقهما ، فأوفدوا السيد عمر مكرم لاستدعائهما إلى القاهرة ، ولكن هذين جاءوا إلى القاهرة ليستأنفها حياة القوة وابتزاز الأموال من جديد ، وكان الشعب يثور ولكن الثورة كانت تخمد بالقوة ، أو بالسياسة وظللت هذه الفترة على أي حال « فترة مملوکية » ، وبقيت مصر في هذا العناء ، ثم جاءت الحملة الفرنسية التي تستحق عملاً يكاد يكون مستقلاً وسخنوم به فيما يلي :

الحملة الفرنسية

مقدمة :

يعتقد بعض الباحثين أن الحملة الفرنسية استمرار للحروب الصليبية التي سيأتي ذكرها والتي تعد مشروعًا فرنسيًا ، وكان طابع الانتصارات فيها طابعاً فرنسيًا ، ومنذ فشلت المدحوب الصليبية ظلّ الفرنسيون يتطلعون إلى مصر لوقعها الاستراتيجي من جانب ، ولثرائها من جانب آخر ، ثم ليوضع في يد فرنسا مصير الدول الأوروبية التي كسوّت أمبراطوريات شرق السويس كبريطانيا في الهند وهولندا والبرتغال في الشرق الأقصى ، وهناك سبب رابع ينبغي أن نذكره هنا ، وهو اضطراب السلطة في مصر وضعف جيشه ، مما أوحى للفرنسيين أن فتح مصر لن يأخذ منهم جهداً كبيراً ، وتفيداً لهذه الأسباب فكر لويس الرابع عشر سنة ١٦٧٢ م في غزو مصر ولكنه عدل عن هذه الفكرة إيقاعه على علاقاته بتركيا ، وفي عهد لويس السادس عشر كتب سفير فرنسا بالاستانة سنة ١٨٧١ يحيث حكومته على فتح مصر ، وكان مما جاء في رسالته قوله : « إن جيش مصر ضئيل ، والجنود لم يقفوا في ميدان حرب منظمة ، وليس لديهم مدفعة واحدة » .

وهكذا كان هناك تدبیر قديم لترحف فرنسا لاحتلال مصر ، وقد رأى نابليون أن يحقق أمل فرنسا في هذا المضمار ، فأعاد العدة لهذا الرمح الذي كان يقصد استعمار مصر أولاً ، ويقصد ثانياً السيطرة على الطريق الذي يصل بين دول أوروبا ومستعمراتها في الشرق الأقصى ، حتى تكون هذه الدول تحت رحمته .

إعداد الحملة :

تولى قيادة الحملة نابليون بونابرت أبلغ قساد العصر الحديث ، وكانت تتّألف من ٣٦ ألف جندي ، ومن عدة سفن حربية ، وصاحب نابليون

— ٣١٤ —

معه عدداً من الضباط الأكفاء ، وطائفة من العلماء المتخصصين في مختلف العلوم والفنون ؛ من تاريخ وأثار ومن هنادسة وطب وكيمياء وغيرها .

سير الحملة وانتصاراتها الأولى :

وأبهرت الحملة من ميناء طولون الفرنسي في ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ ووصلت إلى ميناء الاسكندرية في أول يوليو من العام نفسه بعد أن استولت على جزيرة مالطة في الطريق ، ولما أحسن السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية بالخطر أرسى يخبر البراهيم بك ومراد بك ويطلب مساعدات حربية ، وتقدمت الحملة تجاه الاسكندرية فاحتلتها على الرغم من المقاومة العنيفة التي أبرزها السكان بقيادة حاكمها البطل ، وستشهد عن محمد كريم بعد قليل .

وعقب الاحتلال الاسكندرية تقدمت الحملة تجاه القاهرة ، ولما وصلت « دمنهور » واجهت استعداداً سليماً وانجذباً من السكان ستشير إليه عند حديثنا عن محمد كريم بعد قليل ، وقد اضطررت الحملة لذلك أن تعود إلى الاسكندرية لزيادة من الاستعداد .

وتقدم نابليون للقاهرة بعد ذلك فوجئت أولى المعارك عند شبراخيت بين الفرنسيين والمماليك بقيادة مراد بك ، ولكن المماليك لم يستطعوا الثبات أمام الدفعية الفرنسية ، فانسحبوا تجاه القاهرة .

وعند امباقة وقعت الموقعة الثانية ، وفيها أبدى المماليك والمصريون الذين كانوا معهم بسالة وشجاعة أدهشت الفرنسيين ، ولكن ذلك لم يتعذر شيئاً أمام الأسلحة الفتاكـة الحديثـة .

محمد كريم ونضاله ونهايته :

أشرنا آنفاً إلى مقاومة محمد كريم حاكم الاسكندرية للحملة الفرنسية ، ومن حق هذا الرجل علينا أن نبرز جهوده في هذا المجال ، فهو أسوة طيبة للمكافحين المخلصين .

ويقرر التاريخ أن محمد كريم عندما أحسنَ باتجاه الاسطول الفرنسي إلى الإسكندرية ، قام بتحصين المدينة بقدر ما وسعته الحيلة ، ولما تربَّط الاسطول من المدينة دافع عنها دفاعاً مستميتاً من قلعة قليوبى ، وعندما دخلت الحملة الإسكندرية جمع محمد كريم القوى الوطنية حوله ، حتى أدخل القلق في حياة العتدين بسبب المهمات المتتالية التي تعرضوا لها منه ومن رجاله ، ورفض تسليم المدينة ، وقاوم العتدين حتى آخر سهم في كفانته .

وقد قبض عليه نابليون ، ولكن سرعان ما أطلقه ليخدعه بذلك ، وليجذبه ويحذب المصريين للترحيب بالحملة والتعاون معها ، ولكن محمد كريم انطلق يحرض أهل البلاد على المقاومة ، ويحثهم على عدم التعاون مع الفرنسيين ، ومنع الماء والدواب عنهم ، ومواجعهم بالحرب والمقاومة في كل مكان ، ومضى يكثّل الشباب سراً ويدفعه إلى حمل السلاح والتصدي للفرنسيين في كمين وكمين للإذلة بهم ، ولم يدْخُر في سبيل ذلك وسعاً ، ووضع ماله كلَّه في سبيل هذه الغاية ، ولم يعرف الراحة ، وظل يعمل جاهداً على إيقاع هؤلاء الاحتلال وتغيير اقامتهم ، وتمزيق كل جبهة يحاولون إقامتها .

ولم يقف الأمر عند هذا ، بل ترعم حركة واسعة في سبيل المقاومة السلبية عندما عول نابليون على احتلال « دمنهور » إذ سرعان ما اختفت دواب الحمل وقرب الماء ولم يجد الفرنسيون رجالاً واحداً يعاونهم ، أو يقدم لهم شيئاً ، وقد أشرنا لذلك من قبل .

وكان من نصيب هذه الحملة الهزيمة المحققة وال وعدة من منتصف الطريق ، وقد وصف الجزء « ديموى » ما لقيه هو وكتيبة من المشقة ، ووصف الخسائر التي لحقتها وكيف نال ذلك من هيبة الجيش الفرنسي في الإسكندرية .

تال ديموى : لقد منعوا تزويد الكتائب بالماء ، وهرّبوا الجمال

لكيلا يستعين بها الفرنسيون ، ولقيت القافلة عنتا ومشقة بعملهم هذا .

ولم يجد نابليون بدا من اعادة اعتقال البطل محمد كريم ، فقبض عليه في ٢٠ يوليو وحكم عليه بالاعدام ، إلا أن يقتدى نفسه بفدية مالية ، ولكنه رفض أن يدفع الفدية مع امكان ذلك ، ورفض أن يجمعها الشعب له ، وقال : إن دمه سيكون معلولاً يقوّض قوة المحتل الأثيم .

وعندما سُيِّقَ إلى المقصة كان يهتف بالشعب قائلاً : قاوموا : اليوم بي ، وغدا بكم ، ونُفِّذَ فيه حكم الاعدام في السادس من سبتمبر سنة ١٧٩٨ (١) .

بيان نابليون :

دخل نابليون القاهرة عقب انتصاره في موقعة إمبابة ، واتجه بعد ذلك لتنبيه سلطانه ، فأصدر بيانه الذي أراد به خداع المصريين وتهديتهم ، وفيه أبرز أن اتجاهه الحقيقى هو القضاء على الملاليك الذين كان يعتقد أنهم غرباء عن مصر وأن المصريين يسعدون بطردهم .

وقد أورد الجبرتى نص البيان كاملاً ، وأهم النقاط التى وردت فيه هي :

- ١ - إدعاؤه الایمان بالله ويقر أنه وينبئه .
- ٢ - إدعاؤه الوفاق مع السلاطين العثمانيين والتقدير لهم حتى لا يستغلب سخطهم .
- ٣ - إغاؤه المصريين بالاتفاق حوله لينالوا المراكز السامية والمراقب الرفيعة .
- ٤ - إنذار من تسول له نفسه معارضته الفرنسيين .

(١) انظر ما كتبه عنه الإبستاذ أور الجندي في كتابه « من أعلام الحرية في العصر الحديث » .

- ٣١٧ -

٥ - يبرز البيان أن المالكين درجوا على اضطهاد الرعايا الفرنسيين والمتتكلل بهم ، وتعويق تجارتهم .

٦ - ويبرز البيان كذلك فساد المالكين وانحرافاتهم وأن الحملة جاءت لإنقاذ البلاد منهم .

٧ - وبالبيان نقطة دقيقة يحدر بها أن نوردها في نصها ، يقول البيان :
خبروني بالله عن الميزة التي تفرد بها المالكين عن بقية الناس حتى اختصوا بذلك مصر وحدهم ، ونعموا دون سائر الخلق بمحاسنها من الجووارى الغانيات والخيل المسومة والقصور العالية .
وكان نابليون يريد بذلك منافسة المالكين أو أن يجعل مطحهم لينعم بما في مصر من محاسن .

سياسة نابليون في مصر وإنشاء الديوان والمجمع :

ظن نابليون أن انتصاره في موقعة إمبابة وضع حداً لمقاومة المالكين والمصريين ، فأخذ يتوجه لبعض الأعمال التي توحى بالاستقرار ، فاتجه لاسترضاء الباب العالى والاتصال به مع ابداء الود والاحترام ، ثم اتجه إلى المصريين يسترضيهم ويجدبهم نحوه ، فأنشأ الديوان ، وكان الديوان يمثل حكومة أهلية في مصر وأعضاؤه تسعه يختارون بالانتخاب ، وقد اختير له المشايخ : الأشرقاوى والبكرى والصداوى والفيومى والعرىشى والسرسى والسدادات ومحمد الأمير والسيد عمر مكرم .

وأعلن نابليون أن من سلطات هذا الديوان تعين رؤساء البوليس والاشراف على الأسواق وبعض التنظيمات الاجتماعية .

وأنشأ نابليون بجانب الديوان المجتمع العلمي ليقوم بالأبحاث الصناعية والطبيعية والتاريخية التي ترتبط بمصر ، وجعل له أربع لجان للرياضية ، والاقتصاد السياسي ، والأدب ، والفنون .

وأمر برسم خرائط لصر والنيل ولفروده ، وأنشأ مطبعة عربية وفرنسية ، وأصدر صحيفة فرنسية ، واهتم المجتمع بإنشاء الماجد الصحية ، ومنع دفن الموتى في المنازل والمساجد

والذى يتبع هذه الأعمال من نابليون فى ذلك الوقت البكر يدرك أنه كان مقللاً ، وأنه ظن أن الأمور قد استقرت له ولكن ذلك كان شيئاً بعيداً الحال ، فان المصريين لم يكونوا يقبلون أن تتحلل بلادهم جماعة من « الكفار » ولذلك وقفوا موقف المترقب .

أحداث المقلولة وجوانبها

ونتوقف الآن لنتابع التحركات التى أهلاطت بالحملة الفرنسية ولشرح نتائجها :

أولاً - الملك وحرب العصابات ضد العساكرة :

اتضاع للمماليك أن الجيش الفرنسي يملك من الأسلحة ما لا يملكون وأن مواجهته المباشرة ستكون شديدة الضرب بهم وبأتبعهم ، لأن الفرنسيين يستطيعون ضرب التجمع المصرى بما فى أيديهم من أسلحة جديدة ، ومن هنا فقد اتجه المماليك إلى خطة جديدة كان واضحاً أنهم يستطيعون بها أن يتغلبوا على القوة الفرنسية وهذه الخطة هي الاعتماد على حرب العصابات التي لا يمكن أن ينتصروا فيها الفرنسيون لأنهم لا يستطيعون تجزئة حملتهم إلى فرق كثيرة تتبع العصابات المصرية الملوكيَّة .

ونفذ المماليك هذه الفكرة ، وقسموا أنفسهم إلى عصابات كثيرة غمرت القطر كله تقريباً ، وانضم لهم عدد هائل من المصريين لكافحة « الكفار » الذين اقتحموا البلاد ، وقد أفرزت هذه العصابات بالفرنسيين هزائم متعددة ، وهذا المعنى هو ما قصده الأستاذ اسماعيل عبد الله في بحثه عن « الجوانب العسكرية للحملة الفرنسية » ، وهو في ذلك يقول :

إن مهارة المالكين وقدراتهم القيادية ، وثقافتهم العسكرية مكتنفهم من القغلب على نقص التسلیح كماً ونوعاً وقلة عدده بالقياس إلى عدوهم ، فاستخدموا حرب العصابات في المدن لتفتيت قوة نابليون الذي كان يعتمد على الضربة المكررة التي تثير الذعر وتدعو للإسلام ، وهي التي اتبها في معركة إمبابة ، وقد استطاع المالكين أن يكشفوا أسلوبه ، ولم يمكنوه من تكرار هذه الضربة بعد ذلك ، كما كانوا على درجة عالية من التنظيم في معاركهم ، وأكبر دليل على ذلك أخلاق كثير من المدن أمام الغازى .

ويقرر الأستاذ اسماعيل عبد الله أن ما أشيع من طعون في المالكين لم يكن الا من اختلاف الحملة لضعف المقاومة المصرية ، واحاداث خلافات بين أبطالها أو إحداث نوع من عدم الثقة بين المصريين والماليك .

وقد أستمرت حرب العصابات حتى انتهت الحملة ، وخلال هذه الحملة أدرك المصريون براعة الدور الذي قام به أكثر المالكين ، ولذلك اتجهوا لإعادتهم للقاهرة عقب جلاء الفرنسيين كما سُرِّي فيما بعد .

ثانياً - موقعة أبي قير البحرية (أغسطس سنة ١٧٩٨) :

قلنا آنفاً إن الحملة الفرنسية وصلت الاستكبارية في يوليو سنة ١٧٩٨ وقد كان الأسطول الانجليزي يتبع من بعده تحركات الأسطول الفرنسي منذ أبحر من ميناء طولون ، وكان نلسن يقود الأسطول الانجليزي في البحر المتوسط ، فلما أدرك هدف الأسطول الفرنسي تركه فترة من الزمن حتى تعمق نابليون في مصر بجنوده وأحسن بحارة الأسطول بالأمن على الساحل ، وبعدها تقدم نلسن البحار ذو المواهب الفذة وحاصر الأسطول الفرنسي في خليج أبي قير ، ودارت بين الأسطولين معركة أحلت البحر إلى جحيم متقد ، وقد بدأت المعركة في الساعة الثالثة بعد الظهر من أول أغسطس ، وفي الساعة الثامنة أصيب بروديس قائد الأسطول الفرنسي بقنبلة قضت عليه ، وفي منتصف الليل كان الأسطول الفرنسي

حطاما ، ولم ينج منه إلا ما أسره الانجليز أو سفن قليلة فررت إلى مالطة .

وكانت نتائج موقعة أبي قير البحرية عميقة فقد وضعت الأساس لانهيار أمال الفرنسيين في اقامة امبراطورية في الشرق ، وعزلت جنودهم بمصر عن بلادهم ، وقضت بالنتيجة المطلقة للأسطول الانجليزي على سواه ، ولو لا شخصية نابليون القوية لما كان للفرنسيين أي بقاء في مصر بعد هذه الموقعة .

ثالثا - ثورة القاهرة الأولى (أكتوبر ١٧٩٨) :

ترك المصريون زمام الأمر في فترة من الفترات للعثمانيين باسم الاسلام ، وتركوا زمام الدفاع عن البلاد للمماليك باعتبارهم متخصصين في الشؤون العسكرية ، ومحملين مسؤولية السياسة ، ولكن المصريين فوجئوا باحتلال البلاد بجيش من الكفار « كما أطلق عليهم المصريون » ينحدر من أحفاد الصليبيين ، وفي الفترة الأولى من هذا الاحتلال لم يظهر للأتراك العثمانيين نشاط في مواجهة الفرنسيين ، بدل أدائهم نابليون في بيانه إنه على وفاق معهم ، مما قلل الأمل في الاعتماد عليهم .

واندلع جيش المماليك بعد معركة أمبابة ، وهذا وذاك جعل مسؤولية الدفاع عن البلاد تقع على عاتق المصريين ، ويكان علماء الأزهر هم قادة العهد الجديد ، وقد تعاون هؤلاء العلماء مع الحملة في مطلع عهدها بمصر ظانين أنها جاءت لغير الاستقرار ، ولكن سرعان ما اقتنص لهم أن نابليون يريد الاستقرار بمصر ، وهذا دفعهم لتحمل المسئلية في الدفاع عن البلاد ، وتشجعهم على ذلك هزيمة الفرنسيين في موقعة أبي قير البحرية ، كما شجعهم على ذلك أيضاً تشدد الفرنسيين في جمع المصاريف واستيلاؤهم على أموال الأوقاف ، وهدم كثير من المباني الأثرية بحجة التنظيم ، وهدم أبواب الحرارات والدروب ، وميل الجنود الفرنسيين للخلاعة والفسحور ، وإعدام حاكم الإسكندرية السيد محمد كريم .

الأزهر مركز القيادة لثورة القاهرة :

وقد اتخذت الثورة مركبها في الأزهر الشريف حيث تجمعت الجموع الكثيرة يحملون أسلحتهم ، ويحضرون الناس على مقاومة العدو المستعمر ، وكانت هذه الثورة مفاجئة للفرنسيين لأنهم ظنوا أنهم استمالوا المصريين وخدعواهم بما قاموا به من دعاية ، وفي ضوء هذا الظن خرج الجنرال (ديسوي) حاكم القاهرة العسكري ومعه بعض رفاقه يقتسمون جموع المقطايرين ، وكان يظن أنهم سينفضشون ، ولكن الجموع تكاثفت عليه ، وطعنه الناشرون طعنة أرداه قتيلا ، وكان ذلك شرارة أثارت العاصفة ، فقد صدرت الأوامر للجيش الفرنسي أن يدمر الأزهر ، وأن يقتل الجماهير دون رحمة . ويصفه الجبرتي ما فعله الجيش الفرنسي بقوله : تتسابع الرمي من القلعة والكيمان حتى ترزعزعت الأركان ، وهدمت حيطان الدور وسقطت بعض القصور (١) ، ولما انتهى الضرب زحف الفرنسيون إلى الجامع الأزهر فدخلوه بخيولهم وعاثوا بالأروقة والحرارات وكسروا القناديل وهشموا خزائن الطلبة ، وصدرت تعليمات نابليون بقتل كل من نسب له الاستراك الفعلى في المعركة ، ويقول نابليون في مذاكراته : فقد الناشرون ألفي قتيل وفي كل ليلة كانت تقطع رؤوس حوالي ثلاثة من الرجال وكثير من زعماء الأهالى ، وأظن أن هذا سيكون درساً قادرياً لهم ، وفقدت مصر في الثورة ذيولها حوالي أربعة آلاف قتيل ، وقضت هذه الثورة على خيوط الثقة الضئيلة التي ظنّ أنها وجدت بين المصريين والفرنسيين ، وأصبح واضحًا أن استقرار الفرنسيين بمصر مستحيل ، وأن المسألة لا تتعدى إجراءات تنظيمية يعقبها الجلاء .

وباندلاع ثورة القاهرة أصبح واضحًا أن هناك قوتين مصريتين يتناضلان الحملة ، وهاتان القوتان هما :

١ - المالكين في حرب العصابات الشاملة .

٢ - الأزهر بعلمائه وطلابه وأتباعهم من الأهالى .

(١) الجبرتي : عجائب الأثار . أحداث شهر صفر سنة ١٢١٣ هـ .

(٢) م - ٢١ - موسوعة التاريخ ج ٥

من نتائج ثورة القاهرة الأولى :

قضت ثورة القاهرة الأولى على خيوط الثقة الضئيلة التي كانت بين المصريين والفرنسيين ، فأخذ نابليون يعلن ما كان خلفيا ، واتخذ إجراءات عنيفة ضد المصريين كانت شديدة الأثر في دعم سوء الظن بالحملة وأهدافها ، ومن هذه الإجراءات ما يلى :

- ١ - ألغى نابليون الديوان الذي كان قد شكله من قبل ، وأعلن تشكيله من جديد على وجه لا يتفق مع رغبات المصريين ، فقد خدم له ممثّلين من جميع الطوائف والجاليات التي كانت تعيش في مصر ، وكان بعضها غير حريص على الأهداف الوطنية .
- ٢ - هدم الفرنسيون الكثير من المباني والمساجد التي تتف في طريق الحملة إلى الأزهر ، ليسهل على الجنود اقتحام الأزهر الذي أصبح يمثل مركز المقاومة .
- ٣ - تكوين فرق عسكرية من مقطوعي الأرواح وبعض العناصر المسيحية التي تعاونت مع العدو ، وكان يعقوب فام من أبرز من مثلوا الخيانة الوطنية آنذاك وسنقتلهم عنه بعد قليل .
- ٤ - زالت الفكرة التي كانت عند الفرنسيين والتي ترى أن المصريين يبالون للمسالمة ، وانتصح للعدو أن مسالة المصريين للعثمانيين كانت باسم الإسلام ، وتعاونهم مع الماليك كان باعتبار الماليك جزءاً من المصريين .
- ٥ - على أن أخطر نتائج ثورة القاهرة هي أن ثورات كثيرة قامت على أثرها بكل المدن والقرى من أسوان إلى الاسكتدرية ورشيد ، واشتركت فيها طبقات الشعب جميرا ، وكانت تعمق ثورة لتتبثق أخرى دون مبالغة بالخسارة والخسائر .

يعقوب فام الخائن واللواء القبطي :

في وسط الصراع الذي قام به المصريون جمِيعاً ضد الحملة الفرنسية كان هناك للأسف انحراف عن المسيرة تمثَّل في المعلم القبطي يعقوب فام الذي تعاون مع الفرنسيين وكان يصحبهم في حملاتهم داخل القطر، ويسهُّل لهم مهامهم، ويدلهم على عورات البلاد، ويقول الجبرتي عنه: سافر عدة كبيرة من عسكر الفرنساوية إلى جهة الصعيد، وصحبهم يعقوب القبطي ليعرفهم الأمور ويطلعهم على المخابات^(١) .

إنها خيانة لا يغفرها له التاريخ .

ومما يذكر أن رجال الدين المسيحي لم يكونوا راضين عن الجنرال يعقوب، وكان بينه وبينهم مشاحنات كثيرة^(٢) .

ويقول الأستاذ الصحفي محمد حسين هيكل في كتابه « خريف الغضب »^(٣) إن يعقوب شكل ما عرف باسم « اللواء القبطي » الذي عمل في خدمة الفرنسيين، ومنح يعقوب لقب « جنرال » وأصبح فيما بعد قائداً مساعداً للجنرال « دوسيه » على رأس الفرقة التي اتجهت للصعيد لتقاوم بعض صور النشاط العسكري في الصعيد .

ويذكر محمد حسين هيكل أن البطريرك عارض الدور العسكري الذي قام به يعقوب ورفاقه .

وكانت نتيجة الخيانة طبيعية، فإن الفرنسيين الذين استعنوا بالخائن كانوا في داخلهم يحتقرونه، وقد كان الخائن يظن أنهم سيكافئونه

(١) تاريخ الجبرتي : أحداث شهر ربيع الأول سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨) .

(٢) انظر وثائق للتاريخ بقلم الأنبا غرغوريوس ص ١٧ وما بعدها .

(٣) لم نحدد صفحات الكتاب لأنني قرأت صدوراً لصفحات جزيرة

« الوطن » التي نشرت الكتاب وهذا الموضوع نشر يوم الجمعة ٦ مايو

سنة ١٩٨٣ .

على خيانته فانسحب معهم عندما انسحبوا من مصر سنة ١٨٠١ ومعه بعض رفاقه من الخونة ، وتنكر الرواية أنه مات على البلاخرة التي كانت تقله إلى فرنسا ، وأغلبظن أن الفرنسيين دبروا نهايته .

أما باقى الخونة الذى بقوا في مصر ، فقد انماعوا في الشعب وأخفوا خيالاتهم حتى تتوسيط هذه الخيانة المريءة بسبب تسامح الشعب وطبيته .

رابعاً - تركيا والحملة الفرنسية :

كان تدمير الأسطول الفرنسي وثورة القاهرة الأولى من أهم الدوافع التي دفعت تركيا لأنخذ نصيب في مقاومة الحملة الفرنسية ، وقد وجدت تركيا آلا مناص لها من دخول المعركة لتردد على الدعاءات نابليون التي قال فيها إنه على وفاق مع السلطان العثماني ، ثم ل تستعيد مكانتها في مصر بعد أن أوشك الزمام أن يصبح في أيدي المصريين .

وتتفيدا لهذا الاتجاه أعلنت تركيا الحرب على فرنسا في أوائل سنة ١٧٩٨م وتحالفت مع إنجلترا لهذا الغرض ، وأعد السلطان جيشاً للزحف على مصر .

ووجد نابليون أن سياسة الهجوم أنساب من سياسة الدفاع فزحف على الشام ليهاجم القوى العثمانية التي تحاول أن تندفع إلى مصر ، وليواجه الأتراك الذين أرادوا الهجوم عليه ، وقد بدأت حملة نابليون على الشام في فبراير سنة ١٧٩٩ ، فاستولى في طريقه على العريش ثم غزة وبیافا واستسلمت له الحامية التي كانت بتلك المناطق إذ لم تكن قادرة على المقاومة ، ولم يتم الاستسلام إلا بعد أن أمنها نابليون ، وتعهد بسلامتها ، ولكن نابليون خان هذا العهد وأعمل السيف في هؤلاء المسلمين ، فحمل بذلك مسؤولية هذا العمل الإجرامي أمام الله والتاريخ .

وبعد ذلك يتوجه نابليون إلى عكا ، وقد صمدت هذه القوات نابليون

- ٣٢٥ -

صموذا رأثها ولم يستطع فتحها ، كما لم يستطع التناهم مع قوتها لتنسلم أذ أن خلق الفدر حال دون هذه المقاومة ، وكان لجهود أحمد باشا الجزار أثر كبير في صمود عكا .

وأتجه نابليون الى حصن عكا ودورها فسلط عليها مدافعه فدمرت الكثير من بنايتها ولكنه عجز عن اقتحامها فاكتفى بهذا متظاهرا بالنصر : ويقرر العودة الى القاهرة ولكن قواته تعرضت لصراع الطبيعة فأصابها الطاعون في طريق العودة فقضى على الكثير منها ، كما أرهقت هذه القوات بالحرارة عندما دخل موسم الصيف فنال ذلك من نابليون ومن قواته .

موقعة أبي قير البرية :

اتجهت تركيا لمضي الحملة في مصر فأرسلت جيشا كبيرا بقيادة مصطفى باشا وقد استطاعت هذه القوة أن تدخل قلعة أبي قير ولما علم نابليون بذلك سار الى القلعة وجرت معركة برية هائلة انتصر فيها الجيش الفرنسي وأسر القائد العثماني .

* * *

وبعد أن ذكرنا التحركات التي أحاطت بالحملة الفرنسية ، ووضعت الأساس لفشلها ، نتيجة لمصد الأحداث التي وضعت نهاية لهذه الحملة المسورة .

عودة نابليون الى فرنسا :

أدرك نابليون أن آماله في مصر قد انهارت وأنه لا يستطيع أن يتحقق أحالمه بين ثورات الشعب ومحاجمة تركيا وحضار بريطانيا ، ويبدو أنه لم يستطع أن يتحمل آثار الهزيمة فأثر الفرار والعودة الى فرنسا متذمرا بعد أن أناب عنه كاينير ليصبح قائدا للحملة وذلك في أغسطس سنة ١٧٩٩ .

الحملة البحرية التركية (نوفمبر ١٧٩٩) :

اتجهت تركيا الى الصراع البحري بعد أن فشلت حملتها البرية

- ٣٦٦ -

فأرسلت أسطولاً في نوفمبر سنة ١٧٩٩ بقيادة السيد على بك ومساعدة السير سيدنى سميث الأدميرال الإنجليزي ، وقد هزمها الفرنسيون عند عزبة البرج .

المفاوضات واتفاقية العريش «يناير ١٨٠٢» :

كانت أكبر المهام التي عُثِّيَ بها كثيير هي حراسة الجنود الفرنسيين ريثما يفاوض للانسحاب ، وقد جرت مفاوضات بين فرنسا وتركيا وانتهت هذه المفاوضات بمعاهدة العريش في يناير ١٨٠٢ وهي تقضي بجلاء الفرنسيين عن مصر بأسلحتهم وأمتعتهم في مدى ثلاثة أشهر على سفن فرنسية وتركية ، ولكن إنجلترا رفضت هذه الشروط وأصرت على أن يعامل الفرنسيون معاملة أسرى الحرب فيما يتعلق بالأسلحة والعتاد ، فلا بد من تسليم هذه الأسلحة لضمان خروجهم سالمين بأنفسهم : وقد كانت إنجلترا تتجه هذا الاتجاه لما كانت تدركه من حرج موقف الحملة الفرنسية ، ذلك المخرج الذي عبر عنه تقرير كثيير إلى حكومة فرنسا عقب هرب نابليون وكانت إنجلترا قد استطاعت أن تعرف مضمون هذا التقرير » .

وهكذا عادت الأمور إلى جو المصارع بعد أن توقف تنفيذ اتفاقية العريش .

معركة عين شمس (مارس ١٨٠٢) :

عاد العثمانيون إلى القتال البري فأرسلوا حملة لحرابة الفرنسيين وقد أسرع كثيير لواجهتهم عند عين شمس ، وقد انتصر الفرنسيون في هذه المعركة وأرغموا الأتراك على الانسحاب للحدود الشرقية .

ولكن هذه المعركة كانت لها نتائج خطيرة إذ أنها أشعلت ثورة القاهرة الثانية التي سنتحدث عنها فيما يلي :

— ٣٢٧ —

ثورة القاهرة الثانية (مارس وأبريل ١٨٤٠) :

انهزم المصريون — كما قلنا انتقاماً بخروج كثير وأكثر جيشه من القاهرة وقاموا بما يسمى ثورة القاهرة الثانية ، وقد حاصر المثائرون ما تبقى للفرنسيين من جيش داخل المدينة ، وسرعان ما انضم للثائرين أعداد كبيرة من المالكين والأئرال المثائرين ، وكانت هذه الثورة أطول وأقسى من ثورة القاهرة الأولى ، فقد أقام المثائرون المدارس وحفروا الخنادق وأنشأوا معامل للبارود في الخرنش وآسهم الأغنياء بالأموال الواسعة ، واشترك كل الأهالي من المسلمين والأقباط في هذه الثورة الهائلة ، ومن أبرز الشخصيات التي ينبغي أن تذكر هنا السيد المدروقى كبير التجار ، والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف وجرجس الجوهري من زعماء الأقباط .

وقد احتاج كثير إلى جهد واسع لإخماد هذه الثورة ، وبذل تضحيات واسعة لاستعيد القاهرة من القوات المصرية الهائلة التي سيطرت عليها حوالي شهرين ونصف شهر .

نهاية كثير :

ولما تم النصر للقوات الفرنسية لم يقف كثير من المصريين ذلك الموقف القابض الذى وقفه نابليون عقب إخماد ثورة القاهرة الأولى ، بل اتجه كثير إلى التظاهر ببعض الاصلاحات كتنظيم المجمع العلمى ، وإنشاء بعض المصانع ، ولكن الزمن لم يسعفه فقد سقط بطعنة من سليمان الحلبي في ١٤ يونيو سنة ١٨٠٠ وأذن ذلك بمزيد من ضعف الحملة وعسر حياتها .

كلمة عن سليمان الحلبي :

وي ينبغي أن نورد كلمة عن سليمان الحلبي ، فهو من مواليد حلب بسوريا سنة ١٧٧٧ ، وقد رحل إلى القاهرة والتحق بالازهر الشريف ،

وكلن ذلك إبان وجود الحملة الفرنسية بمصر ، وقد أخذ على عاتقه أن يقتل كلير دفاعاً عن مصر وعن الاسلام ، وشجعه بعض العلماء على ذلك ، وقد استطاع أن ينفذ خطته وقبض عليه عقب ذلك وحكم بإعدامه ونفذ الحكم فيه ، وأحرقت يده اليعنى ، وترك بعد موته طعاماً للطيور الجارحة كما حكم بالإعدام على ثلاثة من رجال الأزهر تعاونوا معه هم : عبد الله العزى ومحمد الغزى ، وأحمد الوالى ، وقد ذهب هؤلاء ولكنهم تركوا ذكرها طيباً في مجال الوطنية والدفاع عن الاسلام .

عبد الجنرال مينو :

عقب قتل كلير تولى مينو قيادة الحملة ، ولم يكن في كفاعة سلفه ، وكانت الأمور حول الحملة تسير في انحدار ، وقد واجهه مينو تصعيماً من إنجلترا وتركيا للقضاء على قواته ، وقد نزلت حملة إنجلزية عند أبي قير في مارس ١٨٠١ واتجه مينو لواجهتها ، ولكنه هزم وارتدى إلى الإسكندرية وتحصن بداخلها ، أما الانجليز المنتصرون فقد اتجهوا للقاهرة ، والتقوا في الطريق بالقوات العثمانية ، وقطعت القوات الانجليزية والعثمانية الطريق بين مينو في الإسكندرية وباقى قواته بالقاهرة .

واتجهت القوات الفرنسية في هذا المأزق إلى طلب الصلح ، فوافقت عليه إنجلترا وتركيا حقنا للدماء ، وإدراكاً أن الفرنسيين في هذا المأزق قد يتصرفون تصرف اليائس فتكثر الضحايا ، وقد وافق قائد الحامية الفرنسية بالقاهرة (بنيار) ثم وافق مينو في الإسكندرية على الخروج تبعاً لشروط اتفاقية العريش .

ومما دفع فرنسا إلى الاتفاق موت الأمير الخائن مراد بك الذي كان قد تحالف مع الفرنسيين ، وكان موته في مايو سنة ١٨٠١ .

وتم جلاء الفرنسيين عن مصر في أغسطس سنة ١٨٠١ .

الخداع والزيف

حول نتائج الحملة الفرنسية

تشوشك المراجع المصرية والعالمية أن تتجمّع على أن الحملة الفرنسية كانت لها نتائج حضارية باهرة ، والذى لا شك فيه أن خديعة فرنسية وأوروبية كانت خلف هذا الاعتقاد الخاطئ ، لقد كانت أوروبا تتطلع إلى الزحف إلى الشرق ، وكانت تحاول أن تصبّع حملاتها بخديعة حضارية ، لأنما خطط الأوروبيون للقدوم إلى بلاد الشرق الإسلامي والى إفريقيا يحملون مشاعل النور *

والحق إن فرنسا وسواءها من دول الاستعمار الأوروبي أو الأمريكي لم تأتِ إلى الشرق اللمحاري الإسلام من جانب ، ولسلب ثروات الشرق من جانب آخر ، ومن العبث أن يفكّر انسان أن هؤلاء كانوا حملة إصلاح أو دعاة حضارة لبلاد الشرق *

وعلى الرغم من أن إنجلترا اشتراكاً بتصنيف كبير في تدمير الحملة الفرنسية ، فإنها اشتراكاً بتصنيف كبير أيضاً في نشر هذا الوهم وهذه الخديعة بأن الحملة حققت لصر تقدماً حضارياً ، فمثل هذا الوهم يعين الزحف الأوروبي الذي كان يتّهّب للانسياق نحو الشرق *

وأذاعت أوروبا هذه الخديعة ، واهتمت فرنسا بوجه خاص بنشر هذه الفرّية ، وللأسف وقع بعض المصريين والشريين في الفخ ، وصدقوا تلك الكذوبة فراحوا يروجونها ويكتبون عنها ودخلت المدارس والجامعات ، وبلغتها التلاميذ والطلاب الأبرياء واعتقدوها الكثيرون منهم ، ونحن هنا نحاول أن نحق الحق وأن نبرز بطلان هذا الادعاء بالحقائق
المcisالية :

١ - قالوا إن الحملة كتبت كتاباً مهماً عن مصر عنوانه «وصف مصر» وهذا صحيح، ولكن هذا الكتاب لم يترجم حتى الآن للغة العربية، وكل ما ترجم منه هو أجزاء قليلة ترجمتها الأستاذ المرحوم زهير الشايب في السبعينات من القرن العشرين أي بعد حوالي قرنين من انتهاء الحملة، وبعد أن تغيرت معالم مصر بدرجة كبيرة، ثم بعد أن كتب المصريون ما يعنى عنه . . .

٢ - ويقولون إن مصر تطلعت بسبب الحملة إلى التغيير الهائل الذي يحدث في أوروبا، وبدأت مصر تقتبس من المدنية الغربية بعد ذلك . . .

ولكن الباحث في تاريخ مصر بعد الحملة يجد أن مصر عادت لحياتها الحالفة بالفوضى بسبب صراع السلطات، ولم تتجه لاقتباس أية مدنية، وكانت السنوات التي تلت الحملة حتى عهد محمد على سنوات حالة، وأن التغيير الذي ظرأ على بقية مصر بدأ مع محمد على الكبير، فهو وحده صاحب العقلية الجديدة التي قضت على القديم وفتحت أبواب الجديد، فانفتحت مصر به على العالم . . .

٣ - تحدثوا عن «الديوان» وهو أسلوب الدعاية لجذب بعض المصريين لصفهم عن طريق الوظائف اللامعة، ولم يظهر لهذا الديوان أثر، وقد وضخنا أن نايليون ألفاً بعد ثورة القاهرة الأولى وأعاد تشكيله على نمط لا يرعى مصالح البلاد . . .

٤ - تحدثوا عن تخطيط المصانع وقنطر وحسور، وإذا صح ذلك فهو تخطيط لم يدخل أبداً إلى حيز التنفيذ . . .

٥ - يتحدثون عن حجر رشيد، مع أن العثور عليه كان مجرد مصادفة، ولم تفك رموزه إلا بعد نهاية الحملة بحوالي ثلاثين عاماً . . .

٦ - وهناك أشياء كالشوري والوعى الصحي . . . والشوري في

الحقيقة كانت خداعاً والوعي الصحي كان إحياء للوعي الإسلامي المصري ، وليس فيه أي جانب لا ينكرهؤك الأستاذ محمد حسين هيكل ذلك بقوله : إن كثيراً من أفكار الحملة الفرنسية كانت أقرب إلى روح الإسلام (١) .

ويتحتم على الباحث المتصف أن يتذكر ما يلى وهو يدرس هذا الموضوع .

أولاً : دخل الفرنسيون مصر في يوليو سنة ١٧٩٨ ، وفي أوائل أغسطس أي بعد حوالي شهر واحد كان الأسطول الفرنسي قد تضىء عليه ، وبذلك انتهت آمال الفرنسيين في مصر وأصبحوا سجناء لا هم لهم إلا الوصول إلى وسيلة العودة إلى بلادهم ، وأسرع نابليون بالهرب متذمراً ، وكل هذا يوضح أنه لم يكن هناك وقت للإصلاح ، ولا جهد للأعمال الحضارية إن كانت خطوت بالبال ، وبتمدير الأسطول الفرنسي توقفت الصلات بين الحملة وبين فرنسا تقريباً ، وأصبح على قادة الحملة أن يعتمدوا على السلب والنهب والضرائب لتعطية نفقات الجيش ، وهذا زاد الأمور حدة وتآزماً .

ثانياً : ادعى نابليون الإسلام وكذلك ادعى مينو وهو من أكبر قواده ، وهذا يوضح سهولة الادعاء بأنهم جاءوا لرعاية الحضارة أو أنهم أسهموا فعلاً في خدمة الحضارة وكلها دعاوى باطلة .

ثالثاً : لقد كانت سنوات الحملة الفرنسية بمصر ثلاثة وهي مدة قصيرة جداً ، ثم إن الحرب كانت خلالها مشتعلة ، اشتركت فيها المصريون بكافة طبقاتهم وببلادهم ، واشتركت فيها بريطانيا وتركيا ، وكل هذا يجعل من العبث الاعتقاد بأن اتجاهها حضاري قد بدأ لهذه الحملة .

رابعاً : ذكرنا من قبل أن صراعاً مميراً دار بين هذه الحملة وبين

(١) خريف القusp المنشور بصحيفة « الوطن » يوم الجمعة ٦ مايو سنة ١٩٨٣ .

المصريين ، وأن آلاف المصريين قتلوا ، ولا يمكن في مثل هذا الجو أن تقام أي اتجاهات حضارية ، فطبيعة الحضارة تحتاج إلى استقرار وثقة .

خامسا : لم يكن هدم البوابات نوعا من الترقى ، وإنما كان لتمكين السيطرة على الشوارع والأزقة التي كانت دائما مصدر خطر على المستعمرون .

سادسا : لقد أحضر نابليون معه مطبعة ولعل استعمالها كان مقصورا على بيانات التخدير والتحذير للشعب المصرى ، وقد أخذتها الحملة معها عند انسحابها ، مما يدل على أن المظاهر الحضارية كانت لخدمة الحملة لا لخدمة مصر .

سابعا : وهو شيء مهم جدا ؛ لقد استعمرت فرنسا عدة أقطار في آسيا وأفريقيا ، وامتد هذا الاستعمار أحيانا عدة قرون ، ولم تشهد هذه الأقطار تقدما حضاريا تركه المستعمرون ، بل ترك دائم الخراب والدمار .

ثامنا : ونضمنا من قبل أن الأوامر صدرت للجيش الفرنسي بتدمير الأزهر الذى اتخذ منه المجاهدون مركزا لجهودهم وأن الجنود الفرنسيين ضربوه بالقنابل والمفرقعات حتى زُلزلت أركانه ، ثم دخلوه بخيالهم ٠٠٠ وواضح جدا أن هذه الأفعال قمة الغوغائية ، فان الفرنسيين بذلك حاربوا حضارة الإسلام وحضارة مصر متمثلة في الأزهر الشريف الذى كان ولا يزال مثارا فكر للعالم الإسلامي كله ، وبهذا نقرر أن الفرنسيين كانوا ضد الحضارة وليسوا بناء حضارة .

تاسعا : وأبو الهول الذى يقف شامخا منذ آلاف السنين لم يسلم من عدوان الغوغائية والغوضى ، فقد وجده له هؤلاء الأوغاد ضرباتهم ، حتىكسروا أنفه ، وهذا يدل على سوء تقديرهم للحضارات ، وأنهم لم يحضروا لصر لتنمية حضارة أو بناء مدنية .

الاستعمار الـانجليزى نتـيـجة من نـتـائـجـ الحـملـةـ الفـرـنـسـيـةـ :

عاشرًا : إن الباحث المـنصـف يـجدـ الحـملـةـ الفـرـنـسـيـةـ فـتـحـتـ على مصر بـابـ المـقـاـبـ وـالـاسـتـعـمـارـ ، فـقـدـ لـفـتـ أـنـظـارـ الـأـنـجـلـيـزـ إـلـىـ أـهـمـيـةـ مصر كـطـرـيـقـ لـلـهـنـدـ ، فـأـدـرـكـتـ انـجـلـتـراـ خـطـرـ قـيـامـ دـوـلـةـ كـثـيرـةـ كـفـرـنـسـاـ فـيـ مصرـ ، فـاشـتـرـكـتـ فـيـ تـدـمـيرـ الـحـمـلـةـ لـهـذـاـ الغـرـضـ ، بـلـ التـجـهـتـ إـلـىـ ضـرـورـةـ السـيـطـرـةـ عـلـىـ مصرـ بـطـرـيـقـ أـوـ بـأـخـرـ مـنـذـ ذـلـكـ الـحـينـ ، وـقـدـ بـدـأـ ذـلـكـ فـيـ وقتـ مـبـكـرـ ، فـقـدـ اـنـتـهـىـ انـجـلـتـراـ وـجـودـ قـوـاتـ فـرـنـسـاـ بـمـصـرـ وـدـخـلـتـ الـبـلـادـ عـنـ أـبـىـ قـيـرـ فـيـ مـارـسـ سـنـةـ ١٨٠١ـ ، وـنـسـارـتـ هـذـهـ الـقـوـاتـ تـجـاهـ الـقـاهـرـةـ وـدـعـتـ بـعـضـ زـعـامـ الـمـالـيـكـ لـلـانـضـمـامـ إـلـىـ هـذـاـ الـغـرـضـ ، بـنـدـ الـفـرـنـسـيـنـ ، وـقـدـ حـدـثـ ذـلـكـ فـعـلاـ ، فـوـصـلـتـ قـوـاتـ انـجـلـتـراـ إـلـىـ الـقـاهـرـةـ فـيـ يـوـنـيـوـ ١٨٠١ـ ، وـخـارـجـ الـفـرـنـسـيـونـ عـقـبـ ذـلـكـ فـيـ أـغـسـطـسـ مـنـ الـعـامـ نـفـسـهـ ، وـلـكـنـ الـأـنـجـلـيـزـ تـوـانـواـ فـيـ الـجـلـاءـ عـنـ الـبـلـادـ ، وـلـمـ يـخـرـجـوـاـ إـلـىـ سـنـةـ ١٨٠٣ـ بـعـدـ مـفاـوضـاتـ ضـعـفـةـ . وـعـاـدـ الـأـنـجـلـيـزـ مـحاـلـاـتـهـمـ ، فـأـرـسـلـوـاـ حـمـلـةـ فـرـيـزـرـ الـتـىـ سـتـتـحـدـثـ عـنـهـ بـعـدـ قـلـيلـ ، وـلـكـنـاـ أـيـضـاـ مـتـنـيـتـ بـالـفـشـلـ .

والـحـرـكـةـ التـبـشـيرـيـةـ أـيـضاـ :

ولـمـ تـقـنـعـ انـجـلـتـراـ بـالـمـصـاـوـلـاتـ الـعـسـكـرـيـةـ ، فـسـرـعـانـ ماـ اـتـجـهـتـ لـنـسـوـعـ جـدـيدـ يـكـسـبـهاـ النـفـوذـ فـيـ مـصـرـ ، وـكـانـ هـذـاـ النـوـعـ مـرـتـبـطاـ بـالـحـرـكـةـ التـبـشـيرـيـةـ الـتـىـ كـانـتـ لـهـاـ أـهـدـافـ سـيـاسـيـةـ وـديـنـيـةـ ، وـقـدـ وـصـلـتـ إـلـىـ مـصـرـ أـوـلـ اـرـسـالـيـةـ بـرـيـطـانـيـةـ تـبـشـيرـيـةـ سـنـةـ ١٨١٥ـ ، وـتـبـعـتـهـاـ إـرـسـالـيـاتـ مـتـعـدـدـةـ إـلـيـاجـنـاسـ ، وـكـانـ الغـرـضـ مـنـ هـذـهـ الـحـرـكـاتـ التـبـشـيرـيـةـ كـسـبـ النـفـوذـ مـنـ جـانـبـ ، وـإـحـدـاثـ فـجـوةـ بـيـنـ الـمـسـلـمـيـنـ وـالـأـقـبـاطـ مـنـ جـانـبـ آخـرـ .

ما أـشـقـ مـاـ حـمـلـتـ الـحـمـلـةـ الـفـرـنـسـيـةـ إـلـىـ مـصـرـ وـإـلـىـ الشـرـقـ مـنـ نـتـائـجـ .
وـقـدـ كـانـ الـاحـتـالـ الـأـنـجـلـيـزـ لـمـصـرـ سـنـةـ ١٨٨٢ـ هوـ أـحـدـ النـتـائـجـ الـمـشـؤـمـةـ
لـلـحـمـلـةـ الـفـرـنـسـيـةـ .

الأقباط المصريون يعانون من الاستعمار الغربي ، لماذا ؟

ويمكن أن نلخص في محاولة إيقاع خلافات بين المسلمين بمصر وبين الأقباط نقول أن أقباط مصر كانوا في الغالب ينتمون إلى وطنية عالية ، ويتحققون مع المسلمين في التصدي للمحاولات الاستعمارية الغربية ، وبخاصة أن تجربة المسيحيين المصريين مع المسيحيين الغربيين كانت مريرة وشاقة ، فلم يحدث أن حمل الرومان أو الأغريق أو الصليبيون أي نوع من الحرية أو الخير لل المسيحيين في مصر ، فقد كان مسيحيو الشمال يدينون بالذهب الكاثوليكي ، وكان المسيحيون المصريون يتبعون المذهب الأورثوذكسي ، ومن هنا فإن المسيحيين الغربيين كانوا يعدون المسيحيين المصريين هرطقة يجب القضاء عليهم ، وقد منعهم الصليبيون عندما كانت لهم السلطة على القدس من زيارة المدينة المقدسة ، كما منعوا المسلمين سواء بسواء ، وعندما حقق الصليبيون بعض الانتصارات في دمياط في الحملات الصليبية المتأخرة ، خطفوا أولاد الأقباط وباعوهم إلى أسقف عكا لتعميدهم تبعاً للعقائد الكاثوليكية ، وعندما أستطاع الملك بطرس ملك قبرص قبيل نهاية الحروب الصليبية من احتلال الإسكندرية بعض الوقت أسرع جنوده بالقيام بحركة نهب وسلب لكل الأموال دون تفرقة بين مسلم وقبطي ، كما راح هؤلاء يقتلون دون وازع كل من عارضهم ، وكثيراً ما كان الأقباط من ضحاياهم كما كان المسلمون ، دون تفريق .

وقد أدرك المسيحيون الغربيون هذه النتيجة ، فعدّلوا من سلوكهم ومن كراهيتهم للمذهب الأورثوذكسي ليكسبوا لهم أنصاراً من الأقباط ، وكان ذلك تضحية بالعقيدة من أجل السياسة ، ولكن نتائج هذا الاتجاه ليست موضع الحديث الآن .

إن زحف الغرب على الشرق سُمِّيَ «استعماراً» وهي كلمة مدلولها اللغوي متصل بالعمران ، ولكن هذا المدلول فقد تماماً ، وأصبح مدلولاً لها هو الغراب والهرمان والضيقط والظلم .

ويبدو أن فرنسا أرادت كلمة خداعة جديدة ، فتحديث عن التطور
الحضاري الذي قدمته مصر ، و تلك الكلمة تشبيه كلمة « استعمار » .

حجر رشيد :

وبمناسبة الحديث عن حجر رشيد نذكر أنه حجر من الجازلت يحمل
نصها مكتوباً بثلاث لغات هي الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية ، والنص
عبارة عن شكر الكهنة للملك بطليموس الخامس على مساعداته التي
قدمها للمعباد .

وقد عثر جنود الحملة الفرنسية على هذا الحجر سنة ١٧٩٩ على
مقربة من قلعة سان جوليان قرب رشيد ، وأهمية هذا الحجر ترجع إلى
أن اللغة اليونانية كانت معروفة آنذاك ، وبمقارنته اللغة الهيروغليفية بها
أمكن فك رموز الهيروغليفية ، وبالتالي أمكن التعرف على كثير من الأشكار
والعلوم المصرية القديمة التي كانت مكتوبة بالهيروغليفية ولم تكن في
متناول المعرفة حتى ذلك التاريخ .

ومنذ عشر على حجر رشيد حاول الباحثون اجراء هذه المقارنة وحلّ
الرموز الهيروغليفية ، ولكن قدّر أن يتم ذلك على يد العالم « شمبليون »
الذى كان بمصر سنة ١٨٢٨ - ١٨٢٩ وبواسطته اتضحت اللغة الهيروغليفية
لغة مصر القديمة ، واستطاع هذا أن يترجم كثيراً من نصوصها وأن
يضع لها أول أجروممية لقواعدها .

مصر بعد الحملة الفرنسية

خافت الحملة الفرنسية بمصر قوة إنجلزية تحت الاسكتدرية وبعض مناطق بالقاهرة ، وخلفت الأتراك الذين طمعوا في استعادة سلطانهم ، وخلفت المالك بقيادة زعيمين كبيرين هما شهان بك البرديسي ومحمد بك الألفي (١) ، وخلفت قبل كل شيء وبعد كل شيء شعبا يتوق إلى الحرية ، ويريد أن ينالها بنضاله وكفاحه .

مؤامرات للتخلص من المالك :

فاما الانجليز فقد أخلوا البلاد بعد أن ثبتو حكم الأتراك ، وأما الأتراك والمالك فقد وقعا في خلاف مستمر ، قصد العثمانيون التخلص من المالك وإزاد المالك التخلص من العثمانيين ، ومن الوسائل التي استعملها العثمانيون ضد المالك تلك المؤامرة التي دبرها القبطان حسين باشا إذ دعا زعماءهم للاجتماع به على إحدى سفن الأسطول للشاتور في شئون البلاد ثم أطلق القذائف على زورقهم : وقد قتل في هذه المؤامرة عدد منهم وجراح آخرون ، وفي القاهرة جرت مؤامرة أخرى ضدهم قبل جلاء الانجليز ، ولكن الخامسة الانجليزية حمت كثيرين منهم من لجيأوا إليها ، وعلى كل حال فقد أكلت الحملة الفرنسية بعض المالك ، وقضى العثمانيون على بعض ما تبقى منهم ، ولم يبق من المالك بعد ذلك إلا قلة ضئيلة يترעםها محمد بك الألفي وعثمان بك البرديسي ، وكان أولئك مويجاً من الانجليز وأكثر حنكة وذكاء ، ولكن دولة المالك على أي حال كانت على وشك الانهيار فلم يستطعوا مقاومة الأحداث ، وقد قضت عليهم نهاية المؤامرة التي دبرها ونفذها محمد على بالقلعة ، والذين نجوا من المالك بعد ذلك اندمجو في غمار الشعب ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة .

(١) مات مراد بك كما سبق ، وكان ابراهيم بك قد وصل إلى الشيخوخة فلم يعد له ذكر .

ضعف التفود العثماني :

وأما العثمانيون فقد متّلهم بعد جلاء الفرنسيين خسرو باشا الذي عيّن واليا سنة ١٨٠١ ، ولكن سرعان ما دبَّ الخلاف بينه وبين الجنود العثمانيين بسبب تأخير مرتباتهم ، وتحولَ الخلاف إلى مشادة وبنش ، فحاول طاهر باشا أركان حرب خسرو باشا أن يتوسط لحل المشكلة ، ولكن خسرو اتهمه أنه يمالئ المتمردين ، فانضم طاهر باشا فعلاً إلى المتمردين ، وأضطر خسرو باشا أن يهرب بأسرته إلى دمياط ، وعيّن طاهر باشا قائم مقام الوالي حتى ترد تعليمات الأستانة بشأن الوالي الجديد ، غير أن طاهر باشا سرعان ما لقي نفس المصير الذي لقيه خسرو باشا ، إذ ثار عليه الجند أيضاً لنفس الأسباب وقتلوه ، وعين الباب العالي بعده على باشا ، ولكنه لم يتمكن من الوصول إلى القاهرة وبقى محاصراً في الإسكندرية حتى قُتل سنة ١٨٠٤ ، وعيّن بعده أحمد خورشيد باشا ولكنه لم يستطع أن يكبح جماح الجند ولم يرض الشعب المصري كما سترى .

بروز القوة المصرية :

ونجيء الآن إلى القوة التي كانت تتربص بالأحداث ، وهي قوة الشعب المصري التي استردت كيانها وتصدت لمقاومة الفرنسيين ، وأصبحت تحسن أن من حقها أن تجني ثمار هذا الانتصار ، فرفضت هذه القوة أن تعود الأمور إلى ما كانت عليه قبل الحملة وإلى هذه القوة مال ضابط كان يقود فيلقاً من الفيلق العثماني بمصر ذلك هو محمد على ، وقد حصل على ثقة الشعب في النضال الذي كانت البلاد تخوضه ، وعندما هُوت قوى المماليك وأضطرب أمر الدولة العلية في مصر اندفع الشعب يفرض إرادته فخلع خورشيد وعيّن محمد على ، وبدأت بذلك فترة جديدة أسميناها «الفترة الاستقلالية» وسنعرض لها بالحديث بعد قليل .

و قبل أن ندع العثمانيين ^(١) يجدر بنا أن نقتبس بعض تعليقات المؤلفين عن هذه الحقبة القاتمة .

تركيا تتحدر للنهاية :

يقول محمد صبرى : إن تركيا ما كان يعنيها أن تسود الوحدة والنظام في مصر أو في أية ولاية من ولاياتها ، وإنما كل ما كان يعنيها هو الخراج الذي تجبيه من هنا وهناك ، ولما ضعفت تركيا حركة ضعفها الأطماع من الداخل والخارج ، وأبى ذلك على الولايات الخاضعة لها ، وكانت كثرة التغييرات في عاصمة الخلافة ، من العوامل التي حفمت الجيش بمصر في القرن السابع عشر إلى الغيبت بالنظام وقتل الولاية ، ففي سنة ١٦٥٤ قُتل الجيش التركي ابراهيم باشا الوالي ، وعاثت رأسه على باب زويلة ، فقد الولاية هيئتهم في أعين المصريين ، وأتاح ذلك الفرصة لنشاط توة المماليك ^(٢) .

والمماليك يتحدون كذلك :

ولما عاد النفوذ للمماليك كان هؤلاء في هذه الفترة غيرهم في الفترات السابقة للفتح العثماني ، ويصف « فولنى » المستشرق الفرنسي حياة الفرد منهم بأنها أصبحت سلسلة من جرائم القتل والغدر والمؤامرات والدسائس ، وقد انقطعت بينهم وبين الناس وبين بعضهم والبعض الآخر ، أسباب المحبة والعطف وصلات القرابة والرحم ، ومن هنا انتشر العندر بين الرجل ووليه ، وبين العتيق وعمقه ، وقد المماليك النظام والطاعة ، وبذلك لم يبق لهم شيء من الروح العربية التي هي أهم ما يحتاج لها الجندي : وأصبحت بيوت البكوات من المماليك مواخير تغمرها القدرة وتزخر بالذئارة ، بعد أن كانت في الماضي مثالاً للطهارة والاستقامة ،

(١) نتصور هنا أن العهد العثماني قد انتهى ، لأنه في الحقيقة لم يعدله نفوذ يذكر ..

(٢) تاريخ الفicer الحديث من ٢٢ .

وتورط المالك في الرذيلة ، ومعاقرة الخمر والفسق ، والسلب والنهب ، والترف ، وكانوا من قبل أكثر ميلاً للزيارة والبساطة والتردد .

يؤس الشعب المصري وضورة التقى :

أه! الشعب فقد كان في أتعس حال به لا وشقاء ، انتصر إلى العراقة والتنجيم والسحر والخرافات والبطالة ، وانقطع ما بينه وبين العالم الخارجي من صلات ، كما انقطع ما بينه وبين ماضيه من صلات ، ولم يكن أحد يأمن على أملاكه إلاّ بصعوبة وشدة ، وكانت العقوبة تحل بالواحد منهم دون محاكمة ، ولو كانت عقوبة الإعدام ، وكان الغنى يُعد جريمة حتى أن الأغنياء لم يروا وسيلة للاحتفاظ بما لديهم من مال ، إلاّ بالظهور بالفقرة والتربيه (١) .

مقارنة بين العثمانيين والمغول :

ويقول غوستاف لوبيون (٢) : وعلى ما بين الترك والمغول من شبه في الهمجية كان المغول أكثر استعداداً للثقافة ، فالمغول ، وإن لم يكونوا أهلاً لإبداع حضارة جديدة كما أبدع العرب ، استطاعوا أن ينتفعوا بحضارة العرب الذين ، وإن زال ملتهم في الشرق ، ظلت حضارتهم تهيمن عليه . ولكن الترك كانوا أهل حرب وقتل ، ولم يكونوا أهلاً ليصمدوا في سلسلة الحضارة ، ولم يقدروا على الانتفاع بتراث العرب فضلاً عن إيمانه ، ويروي غوستاف لوبيون قول العرب « لا ينبت العشب على أرض يطؤها الترك » ويعلق عليه بقوله : والحق أنه لم ينبت .

(١) نقلًا عن محمد صبرى ص ٢١ - ٢٢ .

(٢) حضارة العرب ص ١٤٦ و ١٤٧ .

- ٣٤٠ -

ونتيجة لهذه الأحوال المضطربة حل الجدب في البلاد ، فأصبحت أخصب البقاع فلوارات جرداً ، وشلت حركة التجارة والزراعة والصناعة وهي حال يئول إليها كل بلد زراعي لا توجد فيه حكومة تسهر على مصالحه ، وتتكلل الأمان وتنقشى النطرق والجسور والقنطر وتنعهد بها ، وقد عبر نابليون عن ذلك أدق تعبير حين قال : إن الإدارة الحسنة في مصر تكفل للنيل الغلبة على الصحراء ، والإدارة المعتلة تكفل للصحراء الغلبة على النيل .

مصر مركزا للدراسات الإسلامية في عصر الجبرتي

مقدمة :

في أبريل سنة ١٩٧٤ أقامت الجمعية التاريخية المصرية مهرجانا حافلا من :

« عبد الرحمن الجبرتي وعصره »

بمناسبة مرور ١٥٠ عاما على وفاة المؤرخ العظيم .

وقد اشتراك في هذا المهرجان عدد كبير من المؤرخين والباحثين من مصر ولمن أقطار العالم ، وأسندت لى الجمعية التاريخية الكتابة في هذا الموضوع « مصر مركزا للدراسات الإسلامية في عصر الجبرتي » ك جانب مهم من جوانب عصر الجبرتي ، وقد قمت بذلك ، واختير هذا البحث ضمن البحوث التي أقيمت ونوقشت في المهرجان ، ويمكن القول إنه لاقى كثيرا من التقدير ، ويسرى أن أثبتت هذه الدراسة هنا ، فهذا هو مكانها الطبيعي في سير التاريخ بالنسبة لمصر .

وقد كان الشيخ عبد الرحمن الجبرتي المركز الرئيسي الذى أشعل نور المعرفة حول هذه الفترة ، وللهذا كان كتابه « عجائب الآثار في التراث والأخبار » أهم مرجع قدم المادة العلمية لهذا البحث وأمثاله من البحوث التي تدور حول هذه الفترة ، وبدون كتاب الجبرتي كانت معارفنا عن هذه الحقبة ستظل ناقصة .

وفي تقديرى يمتد عصر الجبرتي حوالى قرن من الزمان ليشمل شيوخه ومعاصريه وبعض تلاميذه ، وذلك من حوالى منتصف القرن الثاني عشر الهجرى إلى منتصف القرن الثالث عشر تقريبا (١٣٣٧ - ١٤٣٤ م) ، وتلك هي الحقبة التى ستدور حولها دراستنا في هذا البحث .

المدرسة المصرية المبكرة للدراسات الإسلامية :

وفي التقديم لدراستنا عن عصر الجبرتي ، وكيف كانت مصر مركزاً للدراسات الإسلامية خلاله ، ينبغي أن نعود إلى الوراء هنئية لنرى المدرسة المصرية وهي تتشاءم وتطور في خدمة العلوم الإسلامية بوجهه خاص ، والعلوم العامة : وجهه عام :

لقد جذبت مصر إلى رياها منذ مطلع الإسلام مجموعة من المحدثين والفقهاء الأفذاذ ، وأنتجت مصر مجموعة لا تقل عن الوفدين وهبة وكفاءة ، ومن هؤلاء وأولئك تكونت بمصر مدرسة للدراسات الإسلامية ضارعت المدارس الأخرى في مختلف العواسم الإسلامية ، وقد تحدثنا عن هذه المدرسة بشيء من التفصيل فيما سبق (١) .

ثم همت مصر أكثر العبء في خدمة الفكر عندما اضطربت الأمور في بغداد بعد العصر العباسي الأول ، ثم استقلت مصر تقرباً بخدمة العلم وأصبحت ملحاً للعلماء عندما اجتاز الصليبيون قلب العالم الإسلامي في سوريا ، وزحف التتار على الجنان الشرقي ، وزحف الأسبان والبرتغاليون على الجنان الغربي (٢) .

وأصبحت مصر بذلك أزهى مركز فكري في العالم الإسلامي كله ، وشاع ذلك المثل الذي يتردد في كثير من الأقطار الإسلامية والذي يقول : من لم ير مصر لم ير عزَّ الإسلام .

وحملت مصر مسؤوليتها الإسلامية بكفاءة وجدارة ، على الرغم من أن الماليك آلت لهم السلطة بعد الدولة الأيوبية ، وكان أكثر هؤلاء

(١) انظر من ٦٧ - ٧١ من هذا الكتاب .

(٢) سنذكر تفاصيل ذلك عند حديثنا عن « مصر والحضارة الإسلامية » .

٣٤٣ -

لَا يُسْتَمْتَعُونَ بِعَقْلِيَّةِ عَالَبَا ، أَوْ عَبْرِيَّةِ تَشْيِيدٍ وَتَعْمِيرٍ ، وَلَكِنَ الْعُلَمَاءُ أَقَامُوا سُلْطَانَهُمْ غَيْرَ مَبَالِيْنَ بِالْحَاكِمِ .

وَجَاءَتِ الدُّولَةُ العُثْمَانِيَّةُ بَعْدَ الْمَالِكِ ، وَكَانَ عَهْدُهَا عَهْدًا حَافِدًا لِـ
بِالصَّرَاعِ الدَّاخِلِيِّ وَالصَّرَاعِ الْخَارِجِيِّ ، وَلَمْ تَكُنْ عَتْلِيَّةُ الْقَادِهِ العُثْمَانِيِّينَ
بِنَاءً أَوْ خَلَاقَةً ، فَعَمَلُوهُمْ فِي الْمَحَالِ التَّقَافِيِّ الدُّورِ الَّذِي هُنْتَهُ الْمَالِكُونَ قَبْلَهُمْ ،
أَوْ قَلْ بِتَعْبِيرِ أَدْقَى إِنَّ الْمَالِكَ وَالْعُثْمَانِيَّينَ امْتَزَجُوا مَعًا وَكَانُوا فِي عَسْتُوْيِّ
مُتَقَارِبٌ مِّنْ حِيثِ التَّقَافَةِ وَالْفَكْرِ ، وَلَكِنَ الشَّعْبُ الْمَصْرِيُّ حَمَلَ مَسْئُولِيَّتَهُ
الْفَكْرِيَّةِ بِنَجَاحٍ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ انْهِرَافِ الْقَادِهِ ، وَقَدْ عَاصَرَ الْجَبَرِيَّتِيَّ
الْفَتَرَةَ الَّتِي سَنْحَاوَلَ أَنْ نَعْرُضَ أَشْعَعَةَ الْفَكِيرِ الْإِسْلَامِيِّ خَلَالَهَا ، لِنَرَاهَا
أَوْهَى تَبَثَّتْ جُذُورُهَا وَتَنْهَوْ فَرْوَعَهَا عَلَى الرَّغْمِ مِنْ الاضْطَرَابِ السِّيَاسِيِّ
الَّذِي كَانَ سَائِدًا آنَذَاكَ .

مَلَامِحُ عَصْرِ الْجَبَرِيَّتِيَّ

لَقَدْ عَاصَرَ الْجَبَرِيَّتِيَّ فَتَرَةً مِّنْ أَخْطَرِ الْفَتَرَاتِ فِي تَارِيَخِ مَصْرَ ، عَاصَرَ
الصَّرَاعَ بَيْنَ الْمَالِكِ وَالْعُثْمَانِيَّينَ عَلَى الْحُكْمِ ، وَعَاصَرَ الْحَمْلَةَ الْفَرَنْسِيَّةَ
وَهِيَ تَقْتَحِمُ الْبَلَادَ ، وَتَتَخَذُ صُورًا مُخْتَلِفَةً لِتَتَخَذُ اِنْتَرَاطُنِيَّنَ وَلِتَنْتَسِيَّهُمْ دُونَ
جَدْوِيِّ مَرَارَةِ الْاسْتِعْمَارِ ، وَعَاصَرَ الْفَتَرَةَ الْكَالِحَةَ الَّتِي تَلَتْ خَرْوَجُ الْحَمْلَةِ
الْفَرَنْسِيَّةِ مِنْ مَصْرَ حِيثُ بَدَأَ صَرَاعَ جَدِيدٍ ضَدَّ أَرْضِ الْكَتَانَةِ كَانَ الْمَالِكُونَ
وَالْعُثْمَانِيُّونَ وَالْأَنْجِلِيزُ أَبْرَزَ أَطْرَافَهُ ، وَلَكِنَّ الْجَبَرِيَّتِيَّ عَاصَرَ شَيْئًا أَهْمَّ مِنْ
ذَلِكَ كُلَّهُ ، ذَلِكَ هُوَ بِرُوزِ الشَّخْصِيَّةِ الْمَصْرِيَّةِ وَاسْتِقْلَالُهَا اسْتِقْلَالًا كَانَ
شَدِيدَ الْعَوْيَ فِي التَّارِيَخِ ، فَإِنَّ مَصْرَ ارْتَبَطَتْ بِتُرْكِيَا بِاسْمِ إِسْلَامِ ، وَلِذَلِكَ
لَمْ تَعْمَلْ مَصْرَ بِحَمَاسَةٍ لِلتَّخَلُّصِ مِنَ الْعُثْمَانِيَّينَ عَلَى الرَّغْمِ مَا عَانَتْهُ مِنْهُمْ .

أَمَّا صَلَةُ مَصْرَ بِالْمَالِكِ فَكَانَتْ صَلَةً تَبَعُثُ مِنَ الاعْتِقَادِ السَّائِدِ بِأَنَّ
الْمَالِكَ لَيْسُوا أَغْرِيَّا عَنِ الْبَلَادِ ، وَهُمْ فِي مَصْرَ لَا وَطْنَ لَهُمْ سَوَاهَا ،
وَلَا يَسْتَغْلُونَ الْبَلَادَ لِصَالِحِ أَيْ بَلَدٍ آخَرَ ، كَمَا ذَكَرْنَا مِنْ قَبْلٍ وَمِنْ هُنَا يَسْمِيهِمْ

الجبرتي «الأمراء المصريين» ومن هنا كذلك كان لفيف من العلماء يعمل على تصفية الخلافات التي تنشأ بين بعضهم البعض الآخر.

وجاء الفرنسيون وقد أسعوا فهم هذا التصرف المصري الذي أشرنا إليه ، فاعتقدوا أن المصريين ميليون للسلم ، وأنهم سوف يرحبون بأية سلطة تحل محل العثمانيين والمماليك وبخاصة إذا كانت أحسن من هؤلاء وأولئك ، وكانت هذه غلطة كبرى دفع الفرنسيون ثمنها غاليا ، لأنهم لم يدركو الأسباب الحقيقة لسالمة المصريين للعثمانيين والمماليك .

ولكن الاحتلال الفرنسي فتح عيون المصريين على شيء مهم فيما يتعلق بعلاقتهم بالعثمانيين ، فإن هؤلاء تركوا مصر وذهبوا في الصراع ضد المستعمر الفرنسي ، وحمل المصريون وحدهم كل العباء في هذا الصراع ، ولم يكن معهم سلاح يؤبه به ، ولكن كانت معهم العقيدة الراسخة والدماء التي ترلزل قوى المستعمرين ، والأمل الذي لا يعرف الحدود ، واشتركت كل مدن مصر وقرارها في هذه الثورات ضد الفرنسيين من أسوان إلى الإسكندرية ورشيد ، واشتركت فيها كل طبقات الشعب ، وكانت تتفجر ثورة لثورة أخرى غير عبالية بالدماء والضحايا كما ذكرنا من قبل ، وعندما حقق المصريون آمالهم ، وحمل الاستعمار الفرنسي عصاً وأخلى البلاد لم تهدأ ثورات المصريين بعد ذلك ضد أولئك الذين خدعوهم من قبل فظلت صرخة المصريين تدوى ضد العثمانيين من جانب ، ومن جانب آخر ضد المماليك الذين كانت أخلاق الكثيرون منهم قد ساءت كما ذكرنا من قبل ، وتم التخلص عملياً من السلطتين ، وأصبح أمر مصر بيد المصريين وأصبحت الشخصية المصرية محددة المعالم ، وكان العلماء المسلمين قادة هذا التحول الكبير ، وقد آن لنا أن نعيش مع هؤلاء العلماء ونرى مصر وهي مركز مهم للدراسات الإسلامية خلال هذا العصر .

المراكز الثقافية بمصر في عصر الجبرتي

والراجح التي بين أيدينا تصور لنا مدى النشاط الفكري الذي كان موجوداً بمصر في تلك الفترة ، فنتحدث عن مراكز ثقافية تقف معالم شامخة لخدمة الدراسات الإسلامية هنا وهناك ، كما تتحدث عن الباحثين والطلاب ، وتصورهم نحلاً يسعى ليجتني الرحيق من الأزهر .

الأزهر :

وقد تتعدد المراكز الثقافية في هذا العصر ، فمنها المدارس ، ومنها المساجد والزوايا ، ومنها بيوت العلماء التي نافست هذه وتلك في اشعاعاتها ، ويُعدّ الأزهر قمة المراكز الثقافية بمصر ، فمن الواضح أن الأزهر واصل رسالته العظمى خلال هذا العصر كما واصلها عبر العصور المختلفة ، ووقف جامعة شاهقة ترعى كل العلوم الإسلامية ، وتحرس الإسلام والموطن الإسلامي ولن نطيل هنا حديثنا عن الأزهر ، فالأزهر جامعة الشرق الأولى منذ أحسن حتى اليوم ، ولنترك الأزهر لشهرته لنعيش بعض المراكز الثقافية الأخرى .

ولكنا نذكر عن الأزهر شيئاً ليس شائعاً هو ذكره صحيفة الوطن القبطية في ٥ مايو سنة ١٩١٦ من أنه كان للأقباط قدّيماً رواق بالأزهر يتلقون فيه العلوم المنطقية والشرعية ، وأن من درسوا بالأزهر قدّيماً أولاد العسال وهم من كبار مثقفي القبط ، ولهم مؤلفات مهمة ، ومنهم تعلم بالأزهر حديثاً من الأقباط ميخائيل عبد السيد صاحب صحيفة الوطن ، وقد انتقل إلى دار العلوم عندما أنشئت ، ومنهم وهبي تادرس الشاعر الذي كان يحفظ القرآن ويكتب الاقتباس منه ، وفرنسيس العتر الذي كان يحضر دروس الشيخ محمد عبد سنه ١٩٠٢ (١) .

(١) انظر هذه الصحيفة وكتاب « المسلمين والآباء » للأستاذ طارق

البشرى ، ص ٤٣ .

المدارس :

بعد الأزهر توقف مدرسة أبي الذهب عملاقة بين مدارس هذا العصر ،
ويذكر الجبرتي (١) أن أبو الذهب (١٧٧٥ - ١٨٨٩) بناها تجاه الجامع
الأزهر ، وكان مطها خرابش اشتراها أبو الذهب من أربابها ، وأمر ببناء
مدرسته فيها ، ورتب لنقل الأتربة وتحمل الجير والرماد والطين عددا
كبيرا من قطارات البغال والجمال ، واستعمل في بنائها الأحجار العظيمة ،
فكان الجمل لا يستطيع أن يحمل إلا حمرا واحدا ، وتم بناؤها سنة
تسع وثمانين ومائة وألف ، وقد نقشت هذه المدرسة بأجمل الألوان
والأصباغ ، وأعدت لها نوافذ عظيمة كلها من النحاس الأصفر الجيد
الصلع ، وكان للمدرسة فناء فسيح مفروش بالرخام والمرمر ، في وسطه
نافورة بد菊花 ، وحول الفناء مساكن للمتصوفة والطلاب ، وأعدت فيها
أمكنته للمفتين الكبار ليجلسوا بها حصة من النهار لإفادة الناس بعد إملاء
الدروس ، وفرشت المدرسة بالحصى ، ومن فوقها الأقبية الرومية في
الداخل والخارج حتى فتحات النوافذ ودرجات السلم ، وعملت بها
دواوين الدراسة كانت غاية في الروعة والإبداع ، كما بني معها مسجد
عظيم أسس تأسيسا عظيما ، وقرر أبو الذهب في مدرسته الشيخ أحمد
الدرديرى مفتى الملكية ، والشيخ عبد الرحمن العريشى مفتى الحنفية
والشيخ حسن الكفرانوى مفتى الشافعية ، وكان هؤلاء يقومون بالتدريس
إلى جانب الإفتاء ، وعين معهم مجموعة كبيرة من المدرسين الذين كانوا
يعملون بالأزهر مثل الشيخ على الصعيدى والشيخ محمد الأمير ،
والشيخ حمد يونس ، والشيخ أحمد السنندوى ، والشيخ على الشفويى
والشيخ محمد الحفنوى ، والشيخ محمد الطحلوى والشيخ حسن
الجداوى ، والشيخ أبو الحسن القلعاوى ، والشيخ البىلى ، والشيخ محمد
الحريرى ، والشيخ منصور المنصورى ، والشيخ أحمد جاد الله ، والشيخ
محمد المصيلحى وعين في وظيفة التوثيق الشيخ محمد الصبان ، وجعل
بها خزانة عظيمة للكتب وعيّن محمد أفندي حافظ خازانا لها ، وعين الشيخ محمد

(١) تاريخ الجبرتي : ج ٢ ص ١٨ وما بعدها .

الشافعى نائباً له ، ورتب للمدرسين الرواقب ، المنكية ، التى تتقاولت بحسب أقدارهم ، كما رتب للطلبة رواقب طيبة ، وقد افتتحت المدرسة بصلة الجمعة في مسجدها ، وعقب انقضاء الصلاة ألقى الشيخ الصعيدى درساً ، ولا انقضى منه ، قدم الأمير لكتاب الشيوخ الخان العثمينة ، كما أنعم على الخدم والمؤذنين بقطع الذهب والمساعدات الكبيرة .

ومن المدارس الشهيرة بهذا العصر المدرسة الصلاحية التى بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب ونسبت له ، وكانت المدارس الصلاحية منتشرة في أنحاء شتى بالبلاد ، ومنها المدرسة الصلاحية المجاورة لضريح الإمام الشافعى ، وكان يتولى التدريس بها الشيخ الصاوى ، الذى رُشح لشيخة الجامع الأزهر عقب وفاة الشيخ أحمد العروسى وكان ينافسه في هذا الترشيح الشيخ عبد الله الشرقاوى ، واستقرت الوظيفة للأخير وبقى الصاوى مدرساً بالمدرسة الصلاحية مما يدل على مكانة هذه المدرسة ، ويقول الجبرتى (١) إن شيخ الأزهر لا تتم له مكانته إلا إذا كان مدرساً بالصلاحية ، وقد لعبت الصلاحية دوراً كبيراً في خدمة الفكر الإسلامي وتخرج منها كثير من الشيوخ والقادة والمفكرين .

ومن مدارس ذلك العصر مدرسة الأشرفية التى كان يعلم بها الإمام محمد ابن أحمد الخالدى الشهير بابن الجوهرى (١١٨٢ = ١٧٦٨) ، ويذكر الجبرتى (٢) أنه كان يميل إلى التufff والانجماع عن خلطة الناس والترهد عما بأيديهم فأحببه الناس لذلك وصار له أتباع ومربيون كانت المدرسة تمتلىء بهم ، وكان منهم مجموعة كبيرة من علماء العصر الذين نهلوا من فيض علمه ، ثم راحوا يعملون هنا وهناك ، خالقين امتداداً فكرياً لشيخهم في عدد من الأماكن والمعاهد .

ولا يزال الشيخ الجوهرى صيت ذائع في مصر والعالم العربى

(١) الجبرتى : ج٤ ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٢) الجبرتى ج٢ ص ١٦٤ .

والإسلامى لعلمه وفضله ، وجهده فى خدمة الثقافة الإسلامية ، وقد اعترفت الدولة حديثاً بمنزلة مكاناً من الآثار الجديرة بالرعاية .

وهناك مدارس كثيرة على هذا التمتد تحدث الجبرتى عن نماذج كثيرة منها ، فلندعها الآن لتحدث عن طائفة أخرى من المراكز الثقافية وهى المساجد والزوايا .

المساجد :

وعن المساجد نذكر حقيقة كثيرة القردад هى أن القاهرة كانت تعرف بأنها مدينة الألف مئذنة ، ومعنى ذلك أن المساجد كانت بمصر في عصر الجبرتى كثيرة كثرة بالغة ، كما لا تزال حتى اليوم ، وكان أكثرها يتبع الفكر الإسلامي الأصيل عن المساجد ، وهى أنها ليست دور عبادة فقط وإنما يمكن أن تسمى مجمعات ذكرية ودينية ، فكان يتم فيها التقاضى والتعليم ، وفي بعض زواياها مكاتب لتعليم الأطفال ، كما كان يوجد بها منازل لطلاب الغرباء ، والدارس لعصر الجبرتى يجد صعوبة كبيرة لاختيار نماذج لهذه المساجد ، فإنها كانت كلها مصادر فكر وإشعاع، جلس بها العلماء ، وتحلق حولهم الطلاب ، وكان التعليم يدور بها كل يوم من وقت مبكر يبدأ بعد صلاة الفجر وأحياناً قبل الصلاة ، ويستمر طيلة اليوم تقريباً ، وفي بعض المساجد كانت هناك حلقات متعددة مختلفة المناهج والعلوم ، ولذلك كان يطلق على كل شيخ من شيوخ هذه المساجد لقب «شيخ عمود» فيجوار الأعمدة المتعددة كان يجلس عدد من العلماء .

على أن هناك مساجد كان لها صيت أوسع في مجال التعليم ، وكانت تمثل جامعات علمية بجوار مكانتها كمساجد ، ومن هذه جامع عمرو وجامع شيفون ، ومسجد الإمام الشافعى ، وجامع المحمودية ، ونعطي فيما يلى نموذجاً واحداً من هذه المساجد هو جامع المشهد الحسيني ، ففى هذا المسجد تصدى للإقراء والتدريس مجموعة عظيمة من شيوخ العصر ، وفطاحل المفكرين ومن هؤلاء الشيخ سليمان بن عمر العجيلي المعروف بالجمل (١)

(١) الجبرتى : ج ٢ من ١٨٣ .

(١٨٠٤ - ١٧٨٩) وينسب العجيلي إلى متبعة عجيل إحدى قرى محافظة الغربية حيث تلقى مبادئ العلوم الإسلامية ، وقد جاء إلى القاهرة لزيار من التعمق في الدراسات الإسلامية فلازم الشيخ الحنفي فشملته برسكته ، وأخذ عنه فكره واتجاهاته المتصوفية ، كما تفقه على غيره من فقهاء العصر ، حتى برر وعظم شأنه ، فنوه به الشيخ الحنفي وجعله أماماً وخطيباً بالمسجد الملحق لنزلة على الخليج ، ثم علت به همة مجلس للتدريس بالمشهد الحسيني ، وكان يعلم الفقه والتفسير والحديث ، وكثير عليه الطلبة يدونون من إملائه وتقريراته ، وقرأ الموابد والشمائل ، وصحيح البخاري وتفسير الجلالين بهذا المشهد بين المغرب والعشاء وكان يحضر دروسه أكابر الطلبة وتوفي سنة ١٢٠٤ھ = ١٧٨٩م وبعد الشيخ سليمان مجلس أخوه الشيخ عبد الرحمن مجلسه يعلم أيضاً على نمط ما كان أخوه يفعل وقد جذبت حفظه كثريين من مجاوري الأزهر والعلامة وكان خير خلف لخير سلف (١) ومن هؤلاء أيضاً الشيخ عبد الوهاب الشبراوي (١٢١٣ - ١٧٩٨) الذي تفقه على علماء العصر ، وحضر دروس الشيخ عبد الله الشبراوي والحنفي وللبراوى والأجهورى وغيرهم ، ثم تصدر للإقراء والتدريس والإفادة بالمشهد الحسيني ، وكان يحضر دروسه جمع غير من الناس ، وكان شديد الميل للتدين كتب الحديث كالبخاري ومسلم وكان – كما يقول الجبرتي (٢) – حسن الإلقاء ، سلس التقرير ، جيد الحافظة ، جميل السيرة ، مقبلاً على شأنه ، ويذكر الجبرتي كذلك أن الرجل لم يعط جهده كله للعلم وإنما اتجه كذلك لخدمة الوطن عن طريق السياسة فحرّك المظاهرات ضد الفرنسيين إبان احتلالهم للبلاد حتى أصبحت مجالسه منابع للثورات ومصادر قلق المستعمر » ولم يجد الفرنسيون بدّاً من القبض عليه وقتله ، كما أخفوا قبره حتى لا يكون ذلك القبر مصدر ازعاج لهم كما كان صاحبه في حياته ، ولكن روح الشيخ

(١) الجبرتي : ج٤ ص ٢١٦ .

(٢) الجبرتي ج٤ ص ٦٦ .

ظللت تدفع تلاميذه ومربييه ليقاوموا المستعمر الاثيم حتى كتب للمصريين النصر .

ومن المساجد الشهيرة كذلك مسجد كتخدا بالأزبكية ، وقد جلس فيه مجموعة كبيرة من العلماء والملائكة يعلمون العلم وينشرون المعرفة ، ولعل في قمة هؤلاء الشیخ محمد عبد المعطى الحريري (١٢٢٠ = ١٨٠٥) ، ويذكر الجبرتى (١) : أنه اشتهر في مطلع حياته بجودة الخط ، فكان ينسخ بعض الكتب لكتاب الشخسيات ، ويأخذ على ذلك أجراً عالياً ، وكان شافعى الذهب ثم تحف وحضر على أشیاچ الذهب مثل الدلنجي والعدوى لازم الشیخ حسن المقدس ملازمة كلية ، وانتسب له وعرف به ، وتلقى عنه الكتب المشهورة في الذهب ، كما تلقى باقى العلوم على الملوى والحفنى والشیخ على العدوى ، وكان يكتب الأجروبة عن الفتاوی على لسانه ، ولما توفى الشیخ العدوى أخذ مكانه بجامع كتخدا بالأزبكية وسكن بالدار المخصصة للمدرس ، وكانت في رحاب الجامع المذكور ، وكان شديد التأثير في دروسه حتى كان وعظه شديد الواقع على الناس لخلوه من التصنع ، وقد قصبه الناس للفتوی والأفادة من كل مكان وأقبلت عليه الدنيا ، وكان مرتبه عالياً من وقف عثمان كتخدا ، وانحصرت فيه وظائف الحنفية كالتدريس في مدرسة المحمودية والمحمدية وغيرها فكان يجلس في بعضها بنفسه وينصب عنه من يعلم في المدارس الأخرى ، وكان مسموع الكامة لدى الأمراء ، عظيم الهيئة بينهم ، ولذلك ترى عتقاء أحمد أغا يتلقون على اختياره ليكون حكماً بينهم عندما دبت المنازعات بينهم بعد موته سيدهم .

الزوايا :

ومن المراكز الثقافية في هذا العصر الزوايا وهي مكان كان ينشأ بجوار المساجد غالباً ، وكانت الدراسية في الزوايا تمثل للاتجاهات الصوفية بالإضافة إلى الدراسات الإسلامية العامة ، وقد حفلت مصر في عصر الجبرتى بمجموعة كبيرة من الزوايا من أهمها زاوية الخضرى التي جلس

فيها الشيخ أحمد الحماس الشافعى (١١٨٦ = ١٧٧٢) الذى تلمنذ على الشيخ البراوى حتى مهر وتفقه ، ثم التحق بحلاقة الشيخ الشمسى الحنفى ، والشيخ على الصعيدى وغيرهما ، ثم تصدى للتدريس والافتاء فى حياة شيوخه ، متقدماً من زاوية الخضرى مركزاً علمياً توافق عليه فيه طلابه ومربيوه (١) ومنها كذلك الزاوية التى كانت قريبة من المشهد الحسينى وكان يجلس فيها كثير من العلماء من أهمهم الشيخ أحمد بن شاهين الرشيدى (١١٨٨ = ١٧٧٤) الذى ينسب إلى بلدة راشدية بالغربية ، وكان بارعاً فى الحساب والفرائض وهو من تلاميذ الشيخ حسن الجبرتى ، وكان حسن التلاوة للقرآن الكريم ، حلو الأداء ، مع معرفته بأصول الموسيقى ولذلك ارتبط به كثير من الأمراء ، ويقول عنه الجبرتى (٢) إن قرائته كانت مثل سلاسل الذهب فى حسن السبك ، وقد انتفع به كثير من الأعلام وكان يمتاز بكمال العفة والوقار ، وكان الناس يتمنون أن يسمعوا تلاوته عرقلة من كان يحصل على مكان حوله بسبب الزحام الذى كان يحيط به .

ومن الروايات الشهيرة الزاوية الملحقة بالجامع الكبير بالمنصورة ، وقد أتى بها الشیخ الواقی الشافعی السندوی (١٩٩ = ١٧٨٤) وجلس بها حيث تجمع حوله عدد كبير من الرمادین ، وعقب وفاته جلس ابن أخيه عبد الله بن ابراهيم مكنته ، وقد تلقى هذا مختلف المعارف عن عهده ، وعن الشیخ احمد الجالی ، وكان يميل للأبتعاد عن الناس ، فلا يقوم لأحد ولا يدخل دار أحد ، ويذكر الجبرتی (٣) أنه نزل ضيفاً على الشیخ وهو في طريقه إلى دمياط سنة (١١٨٩ = ١٧٧٥) ويقول الجبرتی أنه دخل على الشیخ في حجرته فوجده نيرا بشوشنا ، رحب بضيوفه من العلماء ، وقدم لهم ألواناً من الحلوي والشراب ، ويختتم الجبرتی كلامه عنه ، أنه مات ولم يخلف بعده مثلاً .

(١) تاريخ الجبرتی : ج ١ ص ٣٧٥ .

(٢) تاريخ الجبرتی : ج ١ ص ٤٠٩ .

(٣) تاريخ الجبرتی : ج ٢ ص ٩٩ .

ولعل من أبرز الزوايا بالقاهرة زاوية الشيخ الدرديرى (١٢٠١ هـ = ١٧٨٦ م) الذى كان أوحد وقته في الفنون العقلية والفنية كما يقول الجبرتى (١) وكان شيخ الإسلام وبركة الأنام ، وقد أسس زاوية بخط الكعكين وسيب انشائه لهذه الزاوية أن مولاي محمد سلطان المغرب كانت له صلات وهبات يرسلها لعلماء الأزهر وأهل الحرمين من حين إلى حين وفي سنة ١١٩٨ = ١٧٨٣ أرسل هبة من هذه الهبات للشيخ الدرديرى وتصادف عندما تلقاها الشيخ الدرديرى أن كان بمصر ابن مولاي محمد سلطان المغرب وكان هذا عائداً من الحج ونقد ما معه من النفقة والأموال ، ولما عرف الشيخ الدرديرى ذلك أسرع إلى ابن السلطان وقدم له العطية التي أرسلها أبوه وقال : كيف لنا أن نتفكه في مال الرجل وابنه يعاني من الحاجة ، ولما عرف السلطان ذلك أرسل للشيخ عشرة أمثال الهبة مجازة للحسنـة بعشرة أمثالها فبني الشيخ الدرديرى بها هذه الزاوية .

المنشآت :

وهناك مركز ثقافى كان واسع الانتشار كبير القائدة ، وهذا المركز هو بيوت العلماء والأمراء ، فعلى الرغم من أن المسلمين لم يعودوا المنازل مكاناً صالحـاً للتعليم العام ، لأن السكان والطلاب جمـيعـاً لا يجدون الراحة واليسير في التوفيق بين هدوء المنزل وبجلـاهـ وـبيـنـ حلقة الدرس وما تستدعيه من حركة ونشاط (٢) ، على الرغم من ذلك اقتضـتـ الـضرورـةـ أحـيـاناًـ أنـ تـقامـ الحلقات العلمية بالمنازل ، لأن ذلك كان مـفـخـرـةـ لأصحابـ الـبـيـوـتـ منـ العـظـمـاءـ الذين لم يستطـعواـ أنـ يـجـمعـواـ المـريـدـينـ حولـهمـ ، لـقـلـةـ بـضـاعـتـهمـ منـ الـعـلـمـ فـجـمـعـوـهـ فـيـ بـيـوـتـهـمـ حـوـلـ شـيـوخـ الـعـصـرـ ، وـهـنـاكـ كـذـلـكـ بـعـضـ الـعـلـمـاءـ مـنـعـتـهـمـ ظـرـوـفـ الـصـحـةـ أـوـ غـيرـهـاـ منـ الـظـرـوـفـ مـنـ الـانتـقالـ إـلـىـ الـمـراـكـزـ الثقافية الأخرى بالمدارس والمساجد والزوايا : فـانـدـفعـ طـلـابـهـمـ فـوـهـمـ يـأـخـذـونـ عـنـهـمـ فـيـ بـيـوـتـهـمـ ، وـكـانـتـ مـتـعـةـ الـعـلـمـاءـ بـالـتـعـلـيمـ وـاسـعـةـ فـرـحـبـوـاـ

(١) تاريخ الجبرتى : ج ٢ ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٢) تاريخ التربية الإسلامية للمؤلف ص ٦٧ .

بمربيدهم في بيوتهم ، وبذلك لعبت المنازل دوراً كبيراً في مختلف العصور والبلدان ، وسنعطي فيما يلى نماذجين أحدهما من بيوت العظام والآخر من بيوت العلماء :

ويتحدث الجبرتي (١) عن منزل الحاج أحمد بن محمد الشرابي (١١٧١ = ١٧٥٧) وكان من أعيان التجار ومشاهيرهم ، وهو ينحدر من بيت مجد وعز ، وكانت أسرته في غاية الغنى والرفاهية ومكارم الأخلاق ، وكان يتتردد على منازلهم العلماء ، وكانت هذه المنازل مشحونة بكتب العلم النفيسة للإعارة وانتفاع الطلبة ، وكان آل الشرابي لا يكتبون على هذه الكتب ما يفيض أنها وقفية ، ولا يدخلونها في مواريثهم مع أنهم كانوا يشترونها بأغلى الأثمان ، وكان من عادتهم أن يضعوها على الرفوف المفتوحة ولكل من دخل إلى بيتهم من أهل العلم أن يأخذ ما يشاء من الكتب بالاعارة ، ولو لم يكن معروفاً لديهم ، وكان يترك للمستعير أمر رد الكتاب ، فلن رده أعاده إلى مكانه ، وإن استبقاءه أو بساعه لا يسأل عنه ، وفي بعض الأحيان كان يباع الكتاب لهم مرة أخرى ، بل عدة مرات دون أي تأثيث ، وكانوا يقدمون طعاماً في غاية الجودة لزوار مجالسهم العلمية ، وكان الأمراء بمصر يترددون على منازلهم دون دعوة ، ودون تحديد وقت ، وعلى هذا خدمت هذه البيوت الفكر ، وكانت منارات عالية الشأن كثيرة المأثر ٠

أما بيوت العلماء فكثيرة وشهيرة ، ولعل بيت الشيخ حسن الجبرتي يمكن أن يعد نموذجاً لهذه البيوت ، فقد كان بيته فسيحاً مفتوحاً للشيخ والعلماء ، وكانت حلقات الفكر فيه لا تكاد تتوقف وهناك طائفة من الشيخ كأنوا لا يكادون يerre من منزل الشيخ ، منهم الشيخ محمود الكردي والشيخ عبد الرحمن البشبيشي ، والشيخ محمد الفرماوي والشيخ العزيزى ، والهبابوى ، وهناك جمادات من غير الشيخ كانوا كذلك يرتادون

(١) ج ١ ص ١٠٤ ٠

(٢) موسوعة التاريخ : بـ :

بيت الشيخ حسن بانتظام ، ومنهم محمود النيشى والتونسى وهناك عدد من المهاجرين كان يرى في بيت الشيخ حسن مثابة علمية يتحتم عليهم أن يرتادوها ، ومن هؤلاء ابن السويدى البغدادى ، وابراهيم الصورى ، كما كان هناك عدد وفير من المریدين تجذبهم خزانة الكتب التى يملكها الشيخ للاطلاع أو النسخ ، والى جانب هؤلاء، جميعاً كان يفد لزيارة الشيخ عدد جمٌّ من الأمراء والأعيان والتجار ، اما للتبرك وأما للإستئناس ، وبيت الشيخ مفتوحة رحابه للجميع ، مبذول خيره لهم على السواء (١) .

وهناك منزل آخر ي ينبغي أن نشير اليه بإيجاز هو منزل الشيخ مصطفى الرئيس البولاقى (١٦٩٤ = ١٧٨٠) وهو مرشد للشيخ حسن الجبرتى ، وكان ملزماً له ، وكان الشيخ حسن يحبه لتجابتة ، وعينه مدرساً بجامع السنانية وجامع الواسطى ، والمهم هنا أن بيته أصبح مثل بيت أستاده ، ويصفه الجبرتى (٢) بقوله : ونماز بيته مثل المحكمة في القضايا والدعوى والخصومات ، وكان فيه شهامة وقوة جنان وصلابة .

أُسْ تهتم بالعلم جيلاً بعد جيل

وننتقل من بحثنا عن المراكز الثقافية الى موضع آخر هو أن كثريين من العلماء وجدوا في العلم خير الدنيا والآخرة فنششأوا أو زدتهم في نفس الطريق الذى سلكوه ، وتكونت بذلك بيوت علم بمصر كانت تتوارث الدراسات الإسلامية كابرًا عن كابر ، ومن الأسر العلمية التي ازدهرت في عصر الجبرتى نذكر بعض النماذج :

ولعل في مقدمة ما نذكر من بيوت العلماء بيت إمام السنة عبد الخالق ابن أبي بكر الأشعري الزبيدي (١٦٨١ = ١١٨١) ، ويقول الجبرتى (٣)

(١) خليل شيبوب : عبد الرحمن الجبرتى ص ٢١ .

(٢) الجبرتى : ج ٢ ص ٦٠ .

(٣) الجبرتى : ج ١ ص ٢٨٧ .

عنه إنه من بيت عام وتصوف ، جده الأعلى محمد بن محمد بن أبي القاسم وحفيده عبد الرحمن بن محمد ، وكان الشيخ عبد الخالق تلميذاً لشيوخ عصره بمصر وبالحرمين حيث وفد إلى مكة حاجاً وطالباً وزار المدينة كذلك حيث تلقى عن الشيخ محمد الكردي ، ولما عاد إلى مصر التق حوله طلابه نأخذوا عنه كثيراً من الفكر في « زينات العلوم الإسلامية » .

ومن هؤلاء الشيخ عيسى بن أحمد الزبيري (١١٨٢ = ١٧٦٨) وقد برع في الدراسات الفقهية براءة فائقة حتى سمي بالشافعي الصغير ، وله مؤلفات كثيرة وشرح واسعة على متون العصر ، وكان يملى ويفيد ويدرس ويعيد حتى توفي فاستقر ابنه العلامة الشيخ أحمد مكانه في التصدير والتدريس وتحاق حوله تلاميذ أبيه ، فواصل رسالته على أحسن وجه .

ومن هؤلاء الشيخ مصطفى بن محمد الطائي (١١٩٢ = ١٧٧٨) الذي تفقه على والده وتخرج على يديه ، وبعد وفاة والده تصدر في مجالسه ودرس وأفتقى ، وكان أماماً ثبناً متقدماً مستحضرًا مشاركاً في العلوم والرياضيات وله مؤلفات كثيرة في فنون شتى (١) .

ومن هؤلاء عبد الرحمن الحسيني العيدروسي القربي ، نزيل مصر وهو من أسرة عريقة في العلم والمعرفة ، يَعْدُ الجبرتي منها عدداً ، ويصفهم جميعاً بعمق الفكر واتساع المعرفة ، ولا غرو فهوذا الإمام ينحدر من جعفر الصادق فأسرته عريقة الجذور طيبة الفروع ، ويقول الجبرتي (٢) عنه أنه طوَّفَ البلاد ثم جاء مصر بعياله ، فألقى بها عصاه واستقر به النوى وهرع إليه الفضلاء للتلقى ، وخضع له أكابر الأمراء على اختلاف طبقاتهم ، وضارب مقيبل الشفاعة عندهم لا ترد رسائاه ، ولا يحرم سائله ، وطار صيته في المشرق والمغرب وتعددت رحلاته إلى مختلف بلاد

(١) الجبرتي : ج ٢ ص ٣٤ .

(٢) الجبرتي : ج ٢ ص ٣٥ .

القطر ، ثم خرج من مصر حيث زار كثيرا من بلاد العالم الإسلامي ، وأخيرا عاد إلى مصر حيث توفي بها سنة (١١٩٢ = ١٧٧٨) .

ومن هؤلاء الامام العلامة الشيخ أحمد بن عيسى تلميذ والده عيسى بن أحمد الزبيري ، وتلميذ رفاق هذا الوالد ، ويقول الجبرتي عنه : إنه لما توفي أبوه جلس مكانه في الجامع الأزهر واجتمع عليه طلبة أبيه واستمرت حلقة درس والده على ما كانت عليه من العظم والجلالة والرونق حتى توفي سنة (١١٩٢ = ١٧٧٨) .

وهناك بيوت علم كثيرة تصادف الباحث في هذا العصر المليء بالكرمات والحفائذ بالدراسات كبيت الحريري والحفناوى والطهطاوى والزبيرى والسجاعى ، والجناحى وغيرهم كثيرون .

العلماء الوفدون

في مطلع هذه الدراسة ذكرنا أن مصر استقبلت الوفدين والماجرين من الشرق ومن الغرب فحطوا بها عصا التسيير ، واتخذوها وطنًا لهم ، ومنذ ذلك الحين أصبحت مصر وطنًا للدراسات الإسلامية لا يستغنى باحث في هذه الدراسات عن ارتباطه والارتباط به ، والذى يدرس عصر الجبرتي يجد أن مصر استقبلت خلال هذا العصر كثيرا من الباحثين الذين جاءوا يستزيدون من الدراسات الإسلامية ، وكثيرا من العلماء الذين أرادوا أن ينشروا العلم ولم يجدوا كمداً مكانا يحقق لهم هذا الأمل ، ولا يكاد يوجد قطر من أقطار العالم الإسلامي لم يَفِدْ طلابه وعلماؤه إلى مصر في هذا العصر ، ومن مدارسها تاريخ الجبرتي يرى الباحث أن وفوداً من العلماء جاءوا من بغداد ومن دمشق والحجاج وببلاد الروم والحبشة وغزة وخان يونس والمقدس والميمن ، كما جاءوا من فارس والمغرب والجزائر وتونس ، وأن كثيرين من هؤلاء ذاع صيتهم في مصر واستوطنوها وعاملتهم مصر كما تعامل أبناءها ، ومنهم من أسندت لهم أرقى المناصب ،

ومنهم من لقى الغنى والجاه في مصر ، وستتحدث فيما يلى عن بعض نماذج من مشاهير العلماء الذين وفدوا إلى مصر واستقروا بها وذاع منها صيتهم ، وتعمقت فيها جذورهم ، ولعل في قمة هؤلاء أسرة الجبرتي التي يتحدث عنها الشيخ عبد الرحمن الجبرتي (١) فيقرر أن جده السابع عبد الرحمن الذي إليه ينتهي علم الجبرتي بالأجداد ، هو الذى ارتحل من بلاد جبرت في الحبشة ، فذهب إلى «جدة» ثم إلى مكة حيثجاور بها فترة من الزمن ، ثم انتقل إلى المدينة المنورة فجاور بها سنتين ولقى بالحرمين عدداً من الأشياخ ، ثم عاد إلى جدة ومنها جاء إلى مصر عن طريق بحر القلزم ، فدخل إلى الجامع الأزهر وجاور برواق الأحباش ، ولازم حضور الأشياخ ، واجتهد في التحصيل ، وتولى شيخاً على الرواق ثم تزوج بمصر واستوطنها ، ويتسلى الجبرتي متحدثاً عن أجداده حتى ينتهي إلى والده الشيخ حسن الجبرتي (١٦٧٩ = ١٧٦٥) شيطنب في الحديث عنه ، وفي ذكر أوصافه وكراماته دراساته (٢) وقد اتسعت الحياة للشيخ حسن الجبرتي وأفسحت له الدنيا بمصر ، فعاش بها في نعيم وغنى ، ويدرك المؤرخون (٣) أنه كانت له ثلاثة منازل أحدها على شاطئ النيل والثاني ببولاقي تجاه جامع ميرزه جوربجي والثالث في خطة الصنادية شمال الجامع الأزهر ، وله في كل واحدة من هذه المنازل زوجة وساري وخدم ومماليك وعييد ، وكان ينتقل بين منازله يحف به أصحابه وتلاميذه ومربيده ، فيعقد لهم حلقات التدريس ، ويملئ عليهم ما شاء من العلوم الدينية والوصفية والعقلية والنقلية حتى إذا فرغ من إمامته انقض البعض عنه ، وانتشر البعض الآخر في الحجرات أو خزانة الكتب ، وقد يبقى منهم من يحضر الطعام معه أو يبيت عنده .

ومن العلماء الوافدين على مصر الشريف على بن موسى (٤) = ١٦٨٦

(١) ج ١ ص ٣٨٨ .

(٢) ج ١ ص ٣٨٥ .

(٣) الاستاذ خليل بشيوب . عبد الرحمن الجبرتي ص ٦ وما بعدها .

(١٧٧٢) ويتصل نسبة بالامام زيد الشهيد بن الامام على زين العابدين بن الامام الحسين ، وقد ولد ببيت المقدس ونشأ بها ، وقرأ القراءان الكريم على شيخ مصرى هو الشيخ مصطفى الأعرج المصرى ، فغرس في نفسه حب مصر ، ولذلك طاف الشريف عدة بلاد واكتن اتجه إلى مصر في النهاية ، فجلس للتدريس بالمشهد الحسيني وعلا ذكره وانتشر صيته ، وكانت له في النثر طريقة رائعة فكان لا يتكلف الاستجاع ، ويصف الجبرقى (١) أسلوبه بأنه أحسن من الروض جاد به الغمام ، وأنه في الترسل يسرير على سجية بادرة ، وفكرة قادرة ، كما يصفه بأنه كان ذا جود وسخاء ، وكرم ومروءة ووفاء لا يدخل في يده شيء من مداع الدنيا إلا بذلك لسؤاليه ، وأغدق به على طالبيه ، وكان منزله بقرب المشهد الحسيني مورداً للأهلين ، ومحطاً لرجال الوفادين ، وكان يحب الخيل المنسوبة ، وكان اصطبلاه دائماً لا يخلو من اثنين أو ثلاثة ، كما كان يجيد الفروسية وركوب الخيل واللعبة بالرماح .

ومما ينسب لهذا الشريف أنه كان ييرز انحراف اليهود وتضليلهم ، وبعدهم من شريعة موسى ، ولذلك يقال إن إيقافه جاءت على يد رجل يهودي تقرب منه ، وأظهر الولاء له ، فلما هررض الشريف فصده اليهودي بسلاح مسموم غمات في أثر ذلك .

ومن العلماء الوفادين ذوى الشهرة الواسعة محمد بن محمد السنباوى الأزهري الشهير بالأمير (٢) (١٢٣٤ = ١٢٨١م) وهو رجل مغربى الأصل ، نزلت أسرته بمصر ، وقد عنى الشيخ الأمير بيتلقى الدراسات الإسلامية على شيوخ العصر ، فدرس عقائد النسفي والأربعين التنووية وموطأ مالك ، كما درس الهيئة والهندسة والفالكيات والحكمة ، ولما علا شأنه تصدر لإنقاء المuros ، وشاع ذكره في الآفاق وبخاصة

(١) ج ١ ص ٢٧٣ .

(٢) ج ٤ : ٢٨٤ .

ببلاد المغرب التي كانت تفخر به ، وكان سلطان المغرب يواليه بالصلات والهبات كل عام .

وقد وصل من علو ذكره أنه كان يلقى بعض محاضراته بدار السلطنة وصنف الشيخ الأمير عدة مؤلفات اشتهرت ببنية الدقة ، منها كتابه في الفقه المسمى « المجموع » وعدد كبير من الحواشى على الشنفوري ، والأزهرية والرحبية في الفرائض ، وله مؤلف اسمه مطلع الثريين فيما يتعلق بالقدرتين .

ومن الشيوخ الوفادين على مصر ذوي الشهرة الواسعة السيد محمد مرتضى الزبيدي (١) وهو وافد من اليمن هبط إلى مصر سنة (١١٦٧ = ١٧٥٣م) وسكن بخان الصاغة ثم راح يحضر دروس شيوخ وقته كالشهابيين الملوي والجوهري ، والشمس الحفنى وغيرهم كالمبلidi والمصعیدي والمابغى وأخذ عنهم جميعا وأجازوه وسافر ثلاث مرات إلى الصعيد ووضع رسالة عن رحلاته تلك ، ثم تزوج واتخذ مسكنه آخر لـه بعطفة العسال وانصرف إلى التدريس والتأليف ، وكان التأليف في تلك الأيام لا يudo حاشية على متن ، أو تعليقا على حاشية تدور موضوعاتها على بعض المسائل الفقهية المتعارفة ، ولكن مرتضى الزبيدي سلك طريقة آخر غير هذه الطريقة فوضع معجمه الشهير المعروف بتاج العروس في أربعة عشر جزءا ، وسلح في وضعه عدة سنين ، ولم يشاً أن يخرجه للناس كما شرخ المؤلفات العادية ، بل أقام مأدبة عظيمة يوم إخراجه دعا إليها المشايخ والطلاب وأبرز لهم تلك العروس وطلب منهم أن يذكروا محاسنها ومباهجها فتهافتوا عليها جميعا يقرّؤونها نثرا وشعرا فكانت هذه الدعوة سببا في إذاعة خبر هذا الكتاب والتعريف به ، حتى أن محمد أبا النهب لما فرغ من بناء مسجده المعروف باسمه أمام الأزهر وأضاف إليه

— ٣٦٠ —

خزانة كتب كبيرة أفهموه أنها لا تستكمل نفاستها إلا إذا ازدانت بهذا
العجم فاشتراه بمائة ألف درهم (١) .

و قبل أن نطوي الحديث عن الشيوخ الوفدين نبرز ما سبق أن
أشرنا اليه من قبل ، وهو أن هؤلاء الوفدين كانوا يجدون في مصر كل
إجلال وتقدير ، ولم يخطر بالبال قط أنهم غير مصريين ، وقد وصل بعضهم
إلى أعلى المناصب في مصر ، فالشيخ حسن العطار (١٢٥١ = ١٨٣٥) ،
وهو مغربي الأصل ، فقد أصبح شيخاً للأزهر ، والشيخ أحمد اليونسي
(١٢١٨ = ٨٠٣) الذي جاء إلى مصر من خان يونس ثم أصبح كبير القضاة
بالمحكمة العليا ، وكان عضواً في الديوان الذي عينه الفرنسيون أبان وجودهم
بمصر ، كما حظوا جميعاً برخاء العيش وبألوان من الثراء اتضحت فيما
أوردهم عنهم من أحاديث .

المصريون بالخارج :

و قبل أن ننتهي من الحديث عن العلماء الذين وفدوا إلى مصر
و استوطنوا يجدر بنا أن نقرر أن العكس حصل أيضاً ، أي أن كثيرين من
المصريين خرجوا من مصر ليشرعوا العلم خارجها فحملوا تلك الرسالة
ال الفكرية إلى أماكن شتى في العالم الإسلامي ، واستهانوا بالغربة ليعملوا
للمسلمين أفانين الفكر الإسلامي ، وإذا كان الآن نرى المصريين يعارضون
إلى مختلف الجامعات والمدارس بأقطار متعددة يحملون إليها رسالة
الفكر من القاهرة ، فإن ذلك امتداد للعصور الماضية حيث كان العلماء
المصريون يندفعون للخارج هنا وهناك ناقلين إلى الأقطار الإسلامية
إشعاعات من الدراسات الإسلامية التي تربت في القاهرة ، وسنعطي هنا
نمذج قليلة لهذا اللون من العلماء الذين كانوا من الكثرة بحيث لا يمكن
حصرهم .

(١) ٢٤ من ١٩٦ وما بعدها ، وانظر خليل شبيب : عبد الرحمن الطبرى
ص ٤٠ - ٣٩ .

وأول من نذكر من هؤلاء الإمام الثبت الشیخ عمر الطحالوی المالکی (١١٨١ = ١٧٦٧) الذى تلقى معارفه على سلسلة طويلة من شیوخ العصر ، وتمهر في الفنون والعلوم ، وجلس يعلم بالجامع الأزهر وبالشهد الحسینی ، واشتهر أمره وطار صيته ، فاتسعت حلقة اتساعاً كبيراً وكان مشهوراً بعذوبية البيان وجودة الإلقاء ، وكانت له هيبة عالية ووقار وجلال ، وكان لكلامه وقع في القلوب ، ومن أجل هذا اختاره الأمراء المالکی لليكون رسولهم إلى الأستانة ك وسيط بينهم وبين الخلافة العثمانية ، وقد استقبل هناك أحسن استقبال ونجمت وساطته ، ولكن المهم هنا أن الطلاب هناك والشیوخ انتهزوا فرصة وجود الشیخ بينهم فأحاطوا به ، وطلبوه أن يجلس منهم مجلس العلم ، وأن يتيض عليهم من معارفه ، فجلس في مسجد أیا صوفيا وألقى هناك دروساً في الحديث ، وتلقى عنه أكابر العلماء ، ووفد إلى حلقة طلب العلم من مختلف بلاد الروم كما يسمیها الجبرتی (١) .

وطالت مدته هناك ، ولو لا أنه كان من الضروري أن يعود إلى مصر لينقل للآباء نتائج وساطته لكان من الممكن أن تدوم إقامته هناك أو أن تطول أكثر مما طالت .

وإذا انتقلنا إلى نموذج آخر والتقيينا بالحدث الفقیه الشیخ على بن عمر القناوی ، فإننا نلتقي بما يمكن أن نسمیه جامعة منتقلة فقد كان الشیخ واسع المعرفة في المعقول والمقول وكأنما أحسن بالتراثه أن ينشر ما عنده من فکر في نطاق واسع فنظر إلى العالم الإسلامي كله كأنه قطر واحد ، ووضع خطته بأن يتخطى المسافات والبلدان ليجلس هنا وهناك معلماً وأستاذًا ، وعندما ينظر الإنسان إلى الأقطار التي زارها ، ويذكر أن وسائل الواصلات كانت آنذاك بسيطة هთوانية ، تتعريه الدهشة مما حققه الشیخ من أسفار وأفضل ، حيث شملت رحلاته الحرمين . وجدة والبصرة ، وبغداد ، وخراسان ، وكابول ، وقندھار ، وبنارس ، وبلاط

جاوة ، وصناعة وزبيد ، وغيرها من البلاد الإسلامية وكان في كل منها يجلس معلما ، ويغيب من معارفه على الطالب والمفكرين ، وقد استقبله الملوك والأمراء بكثير من هذه البلاد ورحبوا به وأكرموه ، كما احتفت به الشعوب الإسلامية حينما نزل ، ويدرك الجبرتي (١) أنه لسم يعن بالمال زمان يمكن أن يجمع منه الكثير في أسفاره تلك ، ولكن ذلك لم يكن هدفاً له ، وقد مات بمصر سنة (١١٩٨ = ١٧٨٣) وليس له ميراث يذكر .

ومن العمامء الذين حملوا العلم والمعرفة من القاهرة إلى سواها من البلاد الإسلامية الشيخ محمد الحسيني (١٢٠٠ = ١٧٨٥) الذي تعمق في الدراسات الإسلامية فبرع براعة فائقة ، ويدرك الجبرتي (٢) أنه ورد إلى اليمن ، وجلس بها وعلّم فيها ، واتخذ من زبيد مرکزاً له حيث تجمعت حوله أعداد كبيرة من الطلاب الراغبين في العلم ، وانتقل إلى بيت المقدس وهناك جلس معلما كما جلس في الخليل ونابلس ، ومن فلسطين عاد إلى مصر فجال في بلادها وبخاصة مدن الصعيد وقراه ثم سافر إلى الخارج مرة أخرى فزار نابلس ثم دمشق وهناك تجمع حوله علماؤها ، واعترفوا بفضلاته ونالوا من علمه وفكه ، ومن دمشق عاد مرة أخرى إلى نابلس ومرض هناك ، ولما حاولوا نقله إلى مصر ليلفظ بهما أنفاسه الأخيرة قال لهم أن بلاد الإسلام كلها وطن له لا يفرق بين دار ودار . وهكذا لقي ربه هناك .

العلماء بين الترف والزهد

كثير من علماء عصر الجبرتي جمعوا مع العلم ترف العيش وحياة الرخاء ، فكانت لهم قصور شاهقة وأرضاً زراعية شاسعة ، وخدم وحشم ، وغنائية كبيرة بالظهور واللباس ، وكانوا بذلك يمثلون الفكر الإسلامي الذي

(1) ج ٢ ص ٨١ - ٩٠

(2) ج ٢ ص ١٢٦ - ١٢٧

يرى أن لا رهبانية في الإسلام ، والذي يحث على أن الإسلام لا يتنافى مع المتع الحلال تبعاً لقوله تعالى : « قل مَنْ حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ① ٠ »

ومن أجل هذا الاتجاه وجد من العلماء من اشتهر بالأناقة وحسن المنظر وجمال السمع وواجهة الطلعة وجمال الهيئة ، كالشيخ على العزيزى ② (١١٩٩ = ١٨٨٤) والشيخ محمد المهدى الحفنى (١٢٣٥ = ١٨١٤) ③ ومن جذبته حاقيقه كثيراً من النساء بسبب ما امتازت به هذه الحلقة من ترف مع تعفف وبراءة في الفكر ويسر في الثاني ④ ٠

وسفهيين فقرة مع أغنياء العلماء ، وقد اتجهوا جميعاً إلى استعمال غناهم في خدمة العلم والإنفاق على الطلاب ، ورفع قيمة العلم والعلماء وبخاصة عند أولئك الذين يهتمون بالغنى ويجلّون الثراء ٠

فأوله من ذكره من هؤلاء الأئم الزبيدي الذي تحدثنا عن كتابه فيما سبق ، ويطيل الجبرتي حديثه عن الزبيدي ⑤ فيذكر فيما يذكر عنه أنه بـ . أن ترك مسقط رأسه زبيد ارتحل إلى مكة ومنها سار إلى الطائف ، وتعمق هنا وهناك في الدراسات الإسلامية والعربية ، ويرى الجبرتي عن الزبيدي قوله أن أحد شيوخه شوقيه إلى دخول مصر بما وصفه له من عمامتها وأمرائها وأدبائها ، وما فيها من المشاهد الكريمة ، فاشتاقت نفسه لصر ، ثم جاءها سنة ١١٦٧ = ١٧٦٠ م ، وسكن بخان الصاغة ، وسرعان ما علا فضله وانتشر صيته واتسع ثراوته ، فراج أمره ، وتزونق حاله ولبس

(١) سورة الأعراف : الآية ٣١ .

(٢) الجبرتي : ج ٢ ص ٩٥ .

(٣) الجبرتي : ج ٤ ص ٣٣٣ .

(٤) الجبرتي : ج ٢ ص ٥٣ و ٢٠٠ .

(٥) الجبرتي : ج ٢ ص ١٩٦ وما بعدها .

الفاخر وركب الخيول المسوقة ، ثم أخذ يطوف بلاد مصر ، وكان الناس يتلقونه بالترحاب والإجلال ، ولما عاد من رحلته انتقل إلى منزل جديد بسويةة الللا بالقرب من جامع محرم أفندي القريب من مسجد شمس الدين الحنفي وكانت تلك الخطة آنذاك عامرة بالأكابر والأعيان ، فأخذوا به واستأنسوا ، والتلف حوله التلاميذ وكانوا يجدون في قصره الكبير نزهة ومتعة بالاشارة إلى ما يحصلون عليه من علم ومعرفة ، واستمر صيته في ذيوع حتى عرفه ملوك الإسلام في مختلف البلدان ، وتراءفت عليه منهم الهدايا والصلات كما يعنوا اليه طيور البيضاء وطرائف الهند ، وأنواع العود والعنبر والمعطر ، حتى أصبح بيته يضاهى بيوت الأمراء أو يزيد عليها ، واتسعت حلقته ، وعمل المأدب للضيوف وأكرم الواذنين إليه من الآفاق البعيدة والقريبة ، وتعهد كثيراً من الطلاب ، وكان يجيد التركية والفارسية إلى جانب العربية ، ولذلك دعاه خلفاء العثمانيين لزيارة بلادهم والقاء الدروس بها .

ومن هؤلاء الشيخ إبراهيم محمد الشرابي (١١٧١ = ١٧٥٧) الذي يصفه الجبرتي بأنه أعز الأخوان وأخلص الأصدقاء والخلان ، وأنه من أهل بيته عرف بالثروة والمجده والعز والكرم ، وبوضوح أن من أبرز صفاته حرصه على فعل الخير ومكارم الأخلاق ، وتقديم الزاد ليوم المعاد ، والصدقات الخفية التي كان يتفقد بها طلبة العلم المنقطعين للدراسة ، كما كان يشتري المصاحف والألواح ويوزعها على الأطفال المسلمين ، وكان ينتفعه على العلامة عبد العليم الفيومي فكان ينفق عليه وعلى عياله بسخاء وكرم ، وهكذا تجدهنا مع عالم فاضل تعهد شيوخه كما تعهد تلاميذه ، واتخذ ماله وسيلة لخدمة العلم والمعرفة (١) .

ومن العلماء الذين كثر غناهم وامتد ثراؤهم الشيخ أحمد بن الحسين الشهير بالجوهرى ، وقد جاءت له هذه التسمية لأن والده كان يبيع الجوهر

— ٣٦٥ —

فعرف به ، وقد أشغل الشيخ الجوهرى بالعلم ، وجدَّ في تحصيله حتى أصبح من أئمة العصر ، ويورد **الجبرقى** عدداً هائلاً من شيوخ الجوهرى الذين علموه وأجازوه ، كما يتحدث عن حلقاته العلمية التي تجمع بها عدد كبير من الطلاب كانوا ينالون من علم الشيخ ومن ماله ، وظل كذلك حتى توفى سنة (١١٨٢ = ١٧٦٠) .

وهكذا حفل هذا العصر ببنية من الشيوخ كان لهم ثراءً عريضًا ضمن لهم رفاهية العيش ، كما ضمن لطلابهم يسر الحياة وطلب العلم .

ومع هذا الغنى الذي نعم به بعض علماء هذا العصر ، نجد طائفه أخرى من العلماء اتجهوا للزهد وأعرضوا عن المال ، وكأنما رأوا في المال مشغلاً لهم فاتروا التفرغ للعلم وخدمته قانعين من الحياة بأبسط طعام وأخفن لباس ، وسنعطي فيما يلى بعض نماذج لهذا النوع من علماء العصر ومفكريه .

أول من نذكر من هؤلاء الشيخ الناسك أستاذ الجبرقى محمود الكردى الخلوقى (١) (١١٩٥ = ١٧٨٠) وكان أبوه واسع الثراء ، ولكن الشيخ كان متغافلاً عن المال يميل إلى التجدد والمجاهدة والزهد ، وكان أخوه كثير اللوم له على ما يفعله من مجاهداته وتقشفاتاته ، ولكنه لم يكن يصيغ لأخيه ، وظل في اتجاه الزهد والحرمان دون اكتراشه بل ولم يوجهه ، ولما مات والده ترك ما يخصه من إرث لأخوه ، وواصل زهده وتفرغه لنيل العلم وتقديمه للطلاب .

ومن هؤلاء العلماء الزهاد كذلك الشيخ محمد الشنواني (١٢٣٣ = ١٨١٧) الذي نلقى العلم عن جلة الشيوخ في عصره كالشيخ فارس والدردير والقرماوى ، وتفقه على الشيخ عيسى الداوى ، وأجازه هؤلاء الشيوخ فأقام حلقة بالجامع المعروف بالفكهانى بالقرب من مسكنه ، وكان الشيخ

— ٣٦٦ —

مهذب النفس كثير التواضع ، معرضا عن الدنيا اعراضا تاما ، خشن الشياب ، يخدم نفسه ، ويعنى ببنطافة الجامع حتى أنه كان يكتسح بنفسه ويسرج قناديله بيده ، ولما توفي الشيخ عبد الله الشرقاوى اختاروه لشيخة الأزهر ، ولكنه امتنع وهرب إلى مصر العتيقة زهدا في المظاهر والأضواء ، ولكن علمه كان يرشحه لهذا المنصب فلاحقه ألو الأمر حتى أحضروه قبره عنه ، وعيونه شيخا للأزهر ، ولكنه ظل ملازما للتواضع والزهد ، ولم يقطع حلقة بجامع الفكهانى (١) .

ومن العلماء الزهاد كذلك الشيخ محمد بن شاهين الراشدى الذى برع في الحساب والفرائض وعلوم الشريعة ، وكان كثير الشيوخ ، ومن أخص شيوخه الشيخ حسن الجبرتى ، وفي ذلك يقول الجبرتى : إن الراشدى رافق الشيخ الوالد وعاشره مدة طويلة ، وتلقى عنه وهو أحد أصحابه من الطبقة الأولى وظل محافظا على وده ومؤانسته ، ولا جلس ليعلم تخلق حوله عدد كبير من الطلاب ، مأمورين بسعة اطلاعه منتفعين بحسن عرضه للموضوعات حتى طبقت شهرته الآفاق ، ولكنه مع هذا كان حريصا على الزهد ، وصوم الدهر ، وقيام الليل بين عابد ومعلم ، ولما بني أبو الذهب مدرسته أراده أن يكون خطيبها بها ، فامتنع ، فألح عليه وأرسل له صرة عينها دنانير ، فأبى أن يقبل ذلك ، ورد هذا المال الوفير ، فلم يكن للمال في دنياه حساب ، ولكن أبا الذهب داوم إلتحاحه حتى ألم به بأن يخطب فيها أول جمعة بها ، وألبسه فروة سمور وأعطاه صرة دنانير ، ولكن الرجل كان بعيدا عن هذا الاتجاه زاهدا في الأضواء والأموال ومن أجل هذا دعا الله لا يخطب بعد ذلك ، فنزل به مرض أقعده عن الذهب ، فتفرغ لتلاميذه من جديد حتى توفي سنة (١١٨٨) م ١٧٧٤ (٢) .

(١) ج ٤ ص ٢٩٤ .

(٢) ج ١.٢ ص ٤٠٨ .

وهناك عدد وفير من هذا اللون من الشيوخ كان الواحد منهم يقنع بأن يكسب رزقه عن طريق تجارة صغيرة يزاولها أو كتب ينسخها أو صناعة يدوية يقوم بها غير مكتثر بمال ولا ساعيا لجاه ، ولعلنا نذكر من هؤلاء الشيخ أحمد السنبلاوي (١١٨٠ = ١٧٦٦) ^(١) ، والشيخ محمد زين (١١٦٦ = ١٧٥٢) ^(٢) والشيخ على حجازي (١١٨٢ = ١٧٦٨) ^(٣) ، وسواهم كثيرون .

مواقف سياسية وعسكرية للشيخ

كان التمزن السياسي يغمر مصر في عصر الجبرتي ، فالامبراطورية العثمانية كانت تعانى ألمانيا من الاضطراب في مختلف الانحاء ، فلم تكن يدها قوية بمصر ، وتطلعات الدول الأوروبية كانت واضحة تجاه مصر ، وكانت هذه الدول ترى في مصر درة الشرق ، ومفتاح أفريقيا ، وهمة الوصول الى قارة آسيا ، وكان المالك يُقدمون وينقصون ، يتقدمون ويتأخرن ، وكان الصراع يدور بينهم وبين العثمانيين ، ويدور صراع بين بعضهم والبعض الآخر ، وكانت مواقفهم في مواجهة قوى الغرب مواقف غير قوية ولا باسلة .

وكل ذلك ترك فراغا كبيرا في قيادة الشعب ، فتقديم العلامة ملء هذا الفراغ ، وأصبح العلماء ملجاً للناس في الشدائـد وممثليـمـ الذين يـنـطـقـون باسمـهـمـ ، وقادـتـهـمـ في الصراع ضد القوى التي تناهـضـ البـلـادـ ، وأـصـبـحـ الأـزـهـرـ لا يـمـثـلـ مـرـكـزاـ علمـياـ فـقـطـ ، بل يـمـثـلـ كذلكـ دـارـاـ الشـوـرـىـ وـمـحـرابـاـ للـسيـاسـةـ ، كما أـصـبـحـ ثـكـنـةـ عـسـكـرـيـةـ تـرـبـيـيـ الأـبـطـالـ المـغـاـبـيرـ ، وهـكـذاـ نـخـدـ العـلـمـاءـ هـمـ الـذـيـنـ يـهـدـدـونـ الـمـالـكـيـهـ إـذـ انـهـرـفـواـ أوـ جـارـواـ وـيـلـزـمـونـهـمـ بـالـعـودـةـ للـصـوـابـ ، كما نـجـدـهـمـ يـتـصـدـونـ لـالـحـمـلـةـ الـفـرـنـسـيـهـ وـلـحـمـلـةـ فـرـيـزـرـ وـيـقـوـدـونـ

(١) ج ١ ص ٢٨٥ .

(٢) ج ٢ ص ٧٢ .

(٣) ج ١ ص ٣٣٧ .

الشعب ، ويقدمون الضحايا لرد الأعــداء ، ويعزلون الولاة الجائرين ويعينون من يشــعون لحكم البلاد ، والحديث عن دور العلماء في هذا المجال طــويل ومــمتع ، ونكتفى بأن نعود إلى الجبرــى لنقتبس سطورا قليلة في هذا الشــأن .

ذكر الجــبرــى (١) أنــ الحــاكم حــســين بــكــ المعــرــوف بــ « شــفت » بــ معنى يــهودــى كانــ رــجــلا طــاغــيا جــبارــا يــصــادر أــموــال الرــعــية ، ويــتــوجه علىــ البيــوت ، وأنــه ذــهــب بــجــنــوــدــه إــلــى بــيــتــ أــحــمــد ســالــمــ الــجــزاــرــ شــيخــ درــاــيــشــ الــبــيــوــيــىــ فــنــهــبــ ماــ نــيــهــ هــتــىــ النــرــاشــ وــهــلــىــ النــســاءــ ، فــخــضــرــ أــهــلــ الــحــســيــنــيــةــ إــلــىــ الــجــامــعــ الــأــزــهــرــ وــمــعــهــمــ الطــبــولــ وــالــنــفــتــ هــوــلــهــمــ الــعــامــةــ يــبــأــيــدــيــهــمــ الــعــصــىــ وــتــفــقــواــ فــيــ أــنــهــاءــ الــأــزــهــرــ وــأــغــلــقــواــ أــبــوــابــهــ وــصــدــعــ بــعــضــهــمــ إــلــىــ مــاــذــهــ يــصــيــحــوــنــ وــيــخــرــبــوــنــ الطــبــولــ وــأــنــقــشــ فــســرــيــقــ مــنــهــمــ فــيــ الــأــســوــاقــ الــقــرــيــةــ مــنــ الــأــزــهــرــ ثــمــ قــلــبــلــاــ الشــيــخــ الدــرــدــيــ فــذــكــرــواــ لــهــ مــاــ هــدــثــ ، فــغــضــبــ لــهــرــمــاتــ اللــهــ وــقــالــ لــهــمــ فــغــدــ نــجــمــعــ أــهــلــ الــأــطــرــافــ وــالــحــارــاتــ وــبــوــلــاــقــ وــهــرــ الــقــدــيــمــةــ وــأــرــكــبــ مــعــكــمــ ، وــنــهــبــ بــيــوــتــ الــمــالــيــكــ كــمــاــ يــنــهــبــنــ بــيــوــتــنــاــ وــنــهــوــتــ شــهــدــاءــ أــوــ يــنــصــرــنــ اللــهــ عــلــيــهــ ، فــأــرــتــاعــ الــمــالــيــكــ وــأــوــفــدــاــ رــســلــهــ إــلــىــ الشــيــخــ الدــرــدــيــ نــادــمــينــ طــالــبــيــنــ إــلــيــهــ أــنــ يــرــســلــ قــائــمــةــ بــمــاــ نــهــبــهــ حــســينــ بــكــ وــجــنــوــدــهــ لــيــرــدــوــهــ إــلــيــهــ ، وــفــعــلــاــ رــدــوــاــ إــلــيــهــ جــمــيــعــ مــاــ اــنــتــصــبــوــهــ .

وــكــثــيرــاــ مــاــ كــانــواــ يــلــفــتــونــ نــظــرــ الــحــاــكــامــ إــلــىــ أــنـ~ طــاــعــةــ الــحــاــكــامــ وــاجــبــةــ إــذــاــ لــمــ يــخــالــفــ الشــرــعــ ، وــأــنـ~ قــاــعــدــةــ الــحــكــومــةــ الــاســلــامــيــةــ هــيــ أــنـ~ أــنـ~ «ــ لــاــ طــاــعــةــ لــمــلــخــلــوقــ »ــ فــيــ مــعــصــيــةــ الــخــالــقــ »ــ وــفــ أــحــدــ الــمــوــاــقــفــ صــبــ الشــيــخــ عــلــىــ الصــعــيــدــ غــضــبــهــ عــلــىــ الــأــمــيرــ يــوســفــ بــكــ الــكــبــيرــ فــيــ وــجــهــهــ ، وــلــعــنـ~ مـ~ جـ~أـ~عـ~هـ~ ، وــمــنـ~ اـ~شـ~تـ~رـ~اهـ~ ، وــمـ~نـ~ جـ~عـ~لـ~هـ~ أـ~مـ~يـ~رـ~ ، فـ~أـ~سـ~تـ~رـ~ضـ~اهـ~ الـ~مـ~يـ~ر~ـ وــنــزــلــ عــلــىــ مــشــورــتــهــ وــأــخــذــ بــأــرــائــهــ (٢) .

وــكــانــ الشــيــخــ الدــرــدــيــ شــجــاعــاــ مــقــداــماــ لــاــ يــخــشــىــ فــيــ الــحــقــ لــوــمــةــ لــائــمــ ،

(1) ج ٢ ص ١٠٣ .

(2) ج ١ : ٤٦ .

— ٣٩ —

وقد حدث يوماً والشيخ في مولد السيد البدوى أن صادر أحد الحكماء أمر أموال بعض الرعية فطلب من بعض أتباعه أن يذهب إلى هذا الحاكم ليطلبوا إليه رد الأموال المغصوبة ، ولكنهم خشوا أن يذهبوا إليه ، فركب الشيخ بنفسه وتبعه كثير من العامة حتى دخل مقرَّ هذا الحاكم وهو راكب دابته ، وأغلظ له القول فاضطر إلى ارضايه وارجاع ما اغتصبه من أموال .

وفي سنة ١٢٠٩ = ١٧٩٥ ، حدث عداوان من أحد زعماء المماليك على بعض فلاحي مدينة بليبيس ، فحضر وفد منهم إلى الشيخ عبد الله الشرقاوي ، فغضب وتوجه إلى الأزهر فجمع شيوخه وأغلقوا أبوابه وأمرموا الناس بترك الأسواق والمتاجر ، وركب الشيوخ في اليوم التالي وتبعهم كثير من الناس إلى بيت الشيخ محمد السادس ، واحتشدت جموع عديدة من الشعب فأرسل إليهم الأمراء أحدهم وهو أيوب بك الدفتردار فسألهم عن أمرهم فقالوا : نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكرمات « أى الضرائب » وخشى إبراهيم بك زعيم الأمراء مغبة الثورة فأرسل إلى العلماء وكانوا يقضون ليلتهم داخل الأزهر قائلاً لهم : إنه يؤيدهم في غضبهم ويعيرئ نفسه من تبعة الظلم ويلقيها على كاهل شريكه مراد بك ، وأرسل في الوقت نفسه إلى مراد بك فردَّ ما اغتصبه من أموال ، وأرضى نفوس المظلومين .

وأستطيع الشعب تحت قيادة علمائه أن يرغم الخليفة العثماني على عزل واليه المستبد بمصر خورشيد باشا ، فقد قاد السيد عمر مكرم ومعه طائفة من العلماء جموع الشعب وحاصر هذا الوالى بالقلعة ، وأعلن عزله ، فأرسل إليه خورشيد باشا رسولاً يقول له : كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم ؟ وقد قال الله تعالى « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » فأجابه عمر مكرم بقوله : « أولو الأمر هم العلماء وحملة الشريعة ، والسلطان العادل ، وأنت رجل ظالم ، وللناس أن يعزلوا

— ٣٧٠ —

الحاكم الظالم ، وأن يخلعوه حتى الخليفة نفسه ، فالسلطان إذا سار في الناس بالجور كان من حق الرعية أن يعزلوه ويخلعوه » ٠

ولم يلبث السلطان العثماني أن نزل على حكم العلماء فعزل هذا الوالي الجبار ، وهنا تتجلّى سماحة السيد عمر مكرم حيث أرسل دائتين من الإبل حملت متعال الوالي والمحاصررين معه ، وأنزلهم في خيانته بضعة أيام ليحميهم من غضب الشعب ويسير لهم سبيل النجا ٠

وعندما غزا الفرنسيون مصر بقيادة نابليون قاومهم الشعب مقاومة عنيفة تحت قيادة علماء الأزهر حتى اضطر نابليون إلى أن يعود إلى فرنسا في أواخر أغسطس سنة ١٧٩٩ تاركا خليفته كليير قائدا للحملة الفرنسية بمصر فاغتاله طالب أزهري هو سليمان الحلبي في يونية سنة ١٨٠٠ ، وقد أعدم هو وأربعة آخرون من شيوخ الأزهر وطلابه ، وكان نابليون قد أعدم من قبل ثلاثة عشر عالما من علماء الأزهر سنة ١٧٩٨ ، وبعد كفاح مرير خرجت الحملة الفرنسية من مصر سنة ١٨٠١ وفتحت أبواب الأزهر بعد أن ظل مغلقا زهاء عام ٠

ولما جردت إنجلترا حملتها على مصر تحت قيادة الجنرال فريزر سنة ١٨٠٧ ثار الشعب تحت قيادة علماء الأزهر ، وقام السيد عمر مكرم بحشد المقاومة وإقامة الاستحكامات الدفاعية ، وحفر الخنادق حول القاهرة ، وكان يذهب صباح كل يوم مع الجماهير المحتشدة حيث يقوم العمال بعمل الاستحكامات الحربية ويظل سحابة نهاره بينهم ، وكان أحيانا يشاركون إقامة هذه الاستحكامات ، فيثير فيهم طلاقات من الحماسة والوطنية ، وحب الاستشهاد وباعت هذه الحملة بالفشل والخسران (١) ٠

ولقد استطاع علماء الأزهر أن يفرضوا على الخليفة العثماني الوالي

(١) ج ٤ ص ٥٠ ٠

— ٣٧١ —

الذى ارتفسوه وهو محمد على باشا بعد أن أخذوا عليه العهود والمواثيق
وأغلظ الأيمان .

* * *

وبعد هذا الموجز السريع عن نشاط العلماء في المجال السياسي والمسكري ، فنقتصر من الجبرتي لقطات سريعة عن طائفة أخرى من العلماء ارتبطت بهم مواقف رائعة ، فالعلماني الكبير ان الشیخ أحمد الشرقاوى (١٢١٣ = ١٧٩٨) والشیخ يوسف المصيلحى (١٢١٣ = ١٧٩٨) قتلهما الفرنسيون لترعهما المقاومة (١) . وكان الشیخ محمد بن عبد الكريم (١٢١٥ = ١٨٠٠) مهیب الجانب بحيث كانت شفاعته لا ترد (٢) ، وكان محمد بك الألکنی يستغثی بالفقهاء (٣) وكان محمد على يطلب من عمر مكرم أن يجمع مالا للجند كلما حزبه أمر (٤) ، وتصدى العلماء لمحمد على باشا يعارضون بعض آرائه ، ويطلبون رفع المظالم (٥) ، وكان العلماء يزورون البلاد ويتمرسرون على مشاكل كل الناس ، كما كانوا إذا اشتد النداء يعملون تسعايرة للمواد الغذائية ويفرضونها على الحكومة والتجار (٦) .

الجبرتي ينقد الحكم بصرامة :

أما الشیخ عبد الرحمن الجبرتي نفسه ، فيبرز لنا جلال العلماء وضيوفهم فيما كتبه عن حكام العصر غير هياب ولا خائف ، شھى ينتقد الديوان الذى أقامه محمد على باشا نقدا هرا ، ويلوم سياسة الباشا الذى أبقى دار الضرب على ذمته ، وجعل شـاله ناظرا عليها ، كما يلومنه لأن نفسه طمحت إلى مصادر بعض الأموال حسدا منه لبعض الناس الذين رأـهم يتجملون في ملابسهم ونراكبـهم ويقول عنه بالحرف الواحد : لأن*

-
- (١) ج ٣ ص ٦١ .
 - (٢) ج ٤ ص ١٦٤ .
 - (٣) ج ٤ ص ٣ .
 - (٤) ج ٤ ص ٥١ .
 - (٥) ج ٤ ص ٨ و ٩ .
 - (٦) ج ٢ ص ١٣٦ .

من طبعه داء الحسد والشره والطمع والتطلع لما في أيدي الناس وأرذاقهم (١) . ويثير الجبرى مدافعا عن الفلاح الذى تؤخذ منه الغلال بأسعار رخيصة وتتابع لحساب الحكومة بأسعار مرتفعة (٢) كما يعارض استمرار غلاء الأسعار وبخاصة في الأوقات التى لا يستغنى عنها الفقير ولا الغنى ، ويورد نماذج لهذه الزيادات (الثالثة) ، كما يشهر بالباشا لأنه وضع يده على بعض الأراضى المملوكة للناس ليزورعها لحسابه (٣) ، ويعيب على الباشا ظلمه في تحصيل بعض الجمارك المرتفعة التي يتسبب عنها ارتفاع الأسعار على المستهلكين (٤) .

المكانة الاجتماعية للعلماء

كان للعلماء في عصر الجبرى مكانة اجتماعية عالية تفوق مكانة الساسة والحكام ، ويذكر الجبرى عن الشيخ على أحمد بن مكرم الله العدوى (١١٨٩ = ١٧٧٥) أنه كان يستقبل كل من تعسر عليه قضاء حاجة ، ويكتبها فإذا تجمع لديه قائمة طويلة بمطالب الناس ذهب إلى الأمير وأخرج القائمة من جيشه ، وأخذ يقص ما فيها واحدة بعد واحدة ويؤمن الأمير بقضاء حاجات الناس ، والأمير لا يخالفه ، ولا ينثني عنه ، ويضيف الجبرى عن هذا الشيخ أنه كان لا يشرب الدخان في مجلسه تعظيمًا للعلم ولآله ، وإذا دخل منزله منازل الأمراء توقف هؤلاء عن شرب الدخان ، فان رأى آلة من آلاته كسرها ولو كانت في يد كبير الأمراء (٥) .

وحدث مرة أن كان الشيخ حسن الجبرى راكبا دابته وعائدا إلى بيته فالتقى بموكب الأمير أحمد البارودى ، وحاول الشيخ أن يفسح لموكب

(١) ج ٤ ص ١٣٨ .

(٢) ج ٤ ص ١٤٠ .

(٣) ج ٤ ص ١٤٢ .

(٤) ج ٤ ص ١٥٦ .

(٥) ج ٤ ص ١٥٧ .

— ٣٧٣ —

الأمير وينحرف في جانب من الشارع ولكن الأمير عندما رأه نزل عن فرسه وخف إلى الشيخ يقبل يده ويلاطفه ^(١) .

من الإهارة إلى الظم :

ولعل هذه المكانة التي كان يحظى بها علماء المسلمين هي التي دفعت بعض الأجناد والأمراء ليتخلوا عن الجنديه والإماراة ، وينضموا في سلوك الطلاب والفقهاء ، ومن هؤلاء الشيخ حسن المعروف بابن الكافش (= ١٢٢٩) ١٨١٣) الذي انخلع عن طبقة الأمراء ، وأخذ يحفظ القرآن ويجوده ، واللون ويتدارسها ، وتزيقاً بزى الفقهاء ، والتحق بحلقات شيوخ عصره حتى أصبح من خيرة العلماء المصريين ، وكان يقول إن ما حصل عليه من العلم وجاهه أرفع بكثير مما تركه من وجاهة الإماراة ، ومكانة الأجناد ^(٢) .

من المسيحية للإسلام :

وفي هذا النطاق كذلك ذكر إن بعض الطموحين من غير المسلمين تخلوا الإسلام ، وتعلموا في الدراسات الإسلامية ، ولعبوا دوراً كبيراً في حياة مصر في هذا العصر ، ومن هؤلاء الشيخ محمد المهدي الحفنى (= ١٢٣٠) ١٨١٤) (٣) ووالده كان من الأقباط ، وأسلم هو على يد الشيخ الحفنى ، واهتم هذا بـه حتى منحه اسمه ، ولازم دروس أشياخ العصر ، كالشيخ العذري والأجهورى والدرديرى والببلى والجمل والشرقاوي واجتهد في التحصيل ليلاً ونهاراً ، حتى مهر وأنجب ، وتصدر للتدريس بالأزهر ، فكانت له حلقة واسعة ويروى عنه أنه لما حضر الفرنسيون إلى مصر قام بدور إيجابي في حماية الناس من عسفهم ، فكان يبعث الأمان للفارين والهاربين ، ويطلب منهم العودة للبلاد ، كما يقدم الضمانات للمختفين من الأجناد والناس ليظهروا ويباشروا أعمالهم في أمن ، وكان يحمى دورهم وحررهم ويدافع عنهم في غيابهم ، ويقول الجبرتي عنه أنه

(١) خليل شبيوب : عبد الرحمن الجبرتي ص ٢١ .

(٢) ج ٤ ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(٣) ج ٤ ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .

- ٣٧٤ -

سد بعقله ثقوباً واسعة ، وداوى برأيه جروحها وفتحوها عميقاً ، فكان بذلك
حصناً للناس وهي لغفي .

وهكذا كان العلماء في عصر الجبرتي مكانة سامية دونها كل مكانة
وكل رياضة .

علماء في الدراسات الإسلامية

برزوا كذلك في الآداب والعلوم والفنون

كانت الدراسات الإسلامية طيلة عصر الجبرتي أساساً لكل الدراسات
الأدبية والمدنية ، فكان الطبيب والرياضي والفلكي والأديب يعرفون
الدراسات الإسلامية ويجيدونها قبل أن يصلوا إلى الدراسات الأدبية
أو المدنية ، وقد ظل الحال على ذلك حتى عصر محمد على الذي اختار من
بين الأزهريين من يرسلهم للتخصص في الدراسات العلمية في أوروبا ،
ويسعى بهم فيما يلي مع بعض علماء المسلمين الذين برعوا في الدراسات
الإسلامية ولهم أجادوا بها آلواناً من الآداب والعلوم والفنون :

وأول من نذكر من هؤلاء العالم الأديب محمد بن رضوان البسيوطى
الشهير بابن الصلاعى (١) (١١٧٨ = ١٧٦٤) ، وقد تلقى ابن الصلاعى
العلوم الإسلامية عن الشيخ محمد الحنفى وغيره من علماء العصر حتى
حقق في الدراسات الإسلامية مكانة عالية ! ولكن أكثر شهرته انتصحت
في الدراسات الأدبية فكان له شعر رائع مختلف الاتجاهات والصور وقد
روى الجبرتي منه ما يزيد عن عشرين صفحة يمكن أن تكون ديواناً مهماً ،
ويذكر الجبرتي : أن له مقامة بديعة في مدح سيدنا رسول الله ، وغير رأى من
الشعر في أغراض متباينة ونقتبس من شعره ما يلى :

هات لى قهوة الشتئا من شفاهك واسقنيها على فخامة جامعك

(١) ج ١ من ٢٦٥ وما بعدها .

— ٤٧٥ —

عاظنها يا أوحد العصر لطفاً
وبدين الشنان في أشياهاك
يا غزالاً لو مسحور البحر شخصاً
ليضايقك في البها لسم يضاهاك

وكتب إلى بعض الأخوان وقد أهدي إليه منديلاً :

يا كاملاً أحيت مكارمه الفندى
فعداً لأمراض القلوب طبيباً
وردت حديثك التي كانت لنا
كميسن يوسف إذ أتني يعقوبنا
مشديل سرك حسين جياء بشراً وقلوبياً
بالسود سر خواطراً وقلوبياً

ومن هؤلاء العلامة أبو السرفان الشيخ محمد بن على الصبان (١٢٥٦ = ١٧٩١) الذي حفظ القرآن والمتون واجتهد في طلب العلم وحضر أشياخ عصره، ووجهابذة مصره، وقرأ عليهم علوم العصر، وبرع فيها ببراعة فائقة، ثم مال مع ذلك إلى الأدب والعروض، فألّف في العروض رسالة مهمة، واهتمام بالمناظرات الأدبية، وكان له في النثر كعب على " : وفي الشعر كأس ملي" كما يقول الجبرتي (١)، ومن شعره نقتبس المقطوعة التالية :

أثيم جنى ذنبأ ورحب الحمى حلاً
إليك أبا الأنوار قد أبت مخالماً
أعيذك أن يسمع لبابك عائذ
إذا أنت بالغفران والصفح لم تجد
فهل من رضا عنه تجود به فضلاً
عمن ذا الذي يا سعيد قط مازلاً
وتكتوء من أجل ذنب له ذلة
عمن منهن رجو العفو والصفو والبدلا

ومن العلماء الأدباء قاسم بن عطاء الله المصري (٢) (١٢٠٤ = ١٧٨٦) الذي قرأ العلوم الإسلامية وتغلق في الأدب والتواشيح والزجل، وكان سريع الارتجال في الشعر، وكان شعره في غاية الجودة وقد برع كذلك في فن التاريخ وكان فيه معروفاً بالدقّة والوضوح والسلامة .

(١) ج ٢ من ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٢) ج ٢ : ١٨٤ .

ومن فقهاء العصر الذين برعوا في الأدب والشعر الشيخ محمد السنباوى (١) الأزهري (١٢٢٢ = ١٨١٦) الذى انتهت له الرياسة في العلوم في الديار المصرية وشاع ذكره في الآفاق ، ووفد له الطلاب من كل صوب ، وكان له مع ذلك شعر جميل نقتطف منه ما يلى في الغزل :

أيهـا السـيد المـدل ضـاعت فـي الـهـوى هـيـتـى وـأـنـسـيـتـ نـسـكـى
بـا لـك اللـهـ لـأـتـمـ لـسـسـوـائـى وـتـحـكـمـ وـلـو بـمـا فـيـهـ فـتـكـى

وإذا أكتفينا بهذا القدر من العلماء الأدباء واتجهنا شطر العلماء الذين بربروا في الدراسات العلمية والفنية نجد عدداً وافراً حقّ كبيراً من التقدم في هذه الدراسات ، وأول من نذكر في هذا المجال الشيخ أحمد بن عبد المنعم الدمنهوري (١١٩٢ = ١٧٧٨) الذي تولى مشيخة الأزهر سنة ١١٨٢ = ١٧٦٧ ، وهو يذكر سندًا طويلاً ، ودراسات واسعة نقتبس منها ما يلى : أخذتُ عن أستاذنا الشيخ محمد الريhani متن اكتنز والأشباه والنظائر وشبيئاً من المواقف في بحث الأمور العامة ، وأخذت عن الزعترى الميلقات والحساب والمقنطرات ، كما درست معه منظومة الياسمين في الجبر والقابلة ، والمنحرفات السبط المردينى في وضع المزاول ، وأخذت عن سيدى أحمد القرافى الحكيم كتاب الموجز واللمحة العقيقية في أسباب الأمراض وعلاقتها ، وببعضها من قانون ابن سينا ، وقرأت على أستاذنا الشيخ سلامة الفيومى أشكال التأسيس في الهندسة ، وكذلك علم الهيئة والمساحة ، وقرأت على الشيخ محمد الشحيمى منظومة علم الأعمال الرصيدية وروضة العلوم ، وبهجة المنطق والمفهوم لحمد بن ساعد الأنصارى وهو كتاب يشتمل على سبعة وسبعين علماً ، كما قرأت عليه رسالة في علم المواليد تشمل دراسة الحيوانات والنباتات (٢) .

(١) ج ٤ ص ٢٨٤ .

(٢) الجبرتى ج ٢ ص ٢٥ - ٢٧ .

وفي الفلك والهيئة نقابل الشيخ رضوان الفلكى (١) (١١٢٢ = ١٧١١).
وهو صاحب الزيج الرضوانى الذى حرره على أصول الرصد الدقيق ،
وهو مؤلف كتاب أسمى المawahب ، وكتب أخرى كثيرة في الحسابات
والتحقيقات ولم يجد جداول حسابية بارعة ، وقد استطاع أن يرسم الأرض
على شكل كرة من التحاس الأصفر ، ونقش حولها الكواكب المرصودة ومن
تأليفه النتيجة الكبرى ، والنتيجة الصغرى ، وكانتا في عهده مشهورتين
متداولتين بأيدي الطلبة بأفاق الأرض ، وله كتاب عن طراز الدرر في
رؤيه الأهلة والعمل بالقمر .

ومن العلماء الذين اشتهروا بالبراعة في الفلك كذلك الشيخ عبد الله
ابن خزام الفيومي (٢) (١١٩٥ - ١٧٨٠) الذي تولى الافتاء فسار فيها
بالدقة والتحرى ، وكان له معرفة تامة بالفلك والهيئة والمبينات وعنده كذلك
آلات كثيرة دقيقة .

وقد برع في الموسيقى الشيخ حسن ضيائى (٣) (١١٨١ = ١٧٦٧)
أحد أعيان عصره في الدراسات الإسلامية ، وكان مع ذلك له براءة في
الخط العربي ، واجادة له ، كما كان له معرفة واسعة بعلم الموسيقى
وأوزانها ، ويجيد استعمال كثير من آلاتها .

ومن العلماء الذين برعوا في علم الحساب والرياضيات الشيخ محمد
بن اسماعيل (١١٨٥ = ١٧٧١) ، وكان له باع واسع في الدراسات
الإسلامية مستحضرًا للمسائل الفقهية والعقلية ، ويقول عنه الجبرقى (٤)
أنه لما بلغ المتنهى في العلوم المشهورة تاقت نفسه للعلوم الحكيمية

- (١) ج ١ ص ١٧٤ .
- (٢) ج ٢ ص ٧١ .
- (٣) ج ١ ص ٢٨٥ .
- (٤) ج ١ ص ٣٦٧ - ٣٦٨ .

والرياضية فاتجه لتعلمها ، فبرع فيها براءة عظيمة ، وأصبح في الرياضة والصلب والهندسة لا يشق له غبار ٠

وقد برع في الحساب والرياضيات كذلك الإمام العلامة محمد بن يوسف الطائش (١) (١٩٢ = ١٧٧٨) كما برع فيها كذلك الشيخ محمد بن جوسي الجناحي (٢) (١٢٠٠ = ١٧٨٥) الذي دفعته الرغبة في التعرف على قسمة المواريث إلى إجاده الحساب ، ثم أحب الرياضيات ، فأجاد الجبر والمتقبلة والفن في الرياضيات رسائل مهمة ، وكان له في تحويله التقود بعضها إلى بعض رسالة نفيسة تدل على براءته وغوصه في علم الحساب كما كان بارعا في حساب الكسور والقصمة والجذورات ، مما انفرد به بين علماء عصره ٠

ومن برع في الطب من العلماء الشريف العفيف الشيخ محمد بن زين (٣) التاريبي الأصل (١٩٦ = ١٧٨١) نزيك مصر ، وكان واسع المعرفة بالعقل والنقل ولله معرفة دقيقة بدقة علم الطب ، وكانت وصفاته الطبية تهب الشفاء للمرضى ، وتزيل عنهم وصب الالام ٠

ومن الشيخ الأفاضل الذين كان لهم معرفة بالطب الشيخ حسن الجبرتي (٤) الذي كان يحتفظ في بيته بألوان من الدهون يعالج بها كثيرا من الأمراض والجراح ، كما كان له معرفة بكثير من الآلام وعلاجها ٠

وهكذا حمل رجال الدراسات الإسلامية عبه الفكر في اتجاهاته المختلفة ولم يتركوا مجالا علميا إلا طرقوه بمقدار ما أتيح لهم من جهد وطاقة ٠

(١) ج ٢ ص ٢٧ ٠

(٢) ج ٢ ص ١٢٥ ٠

(٣) ج ٢ ص ٧٢ ٠

(٤) ج ٢ ص ٤ ٠

ملامح أخرى عن علماء عصر الجبرتي

لغات أجنبية :

لا يزال عندنا أثافين من الفكر أجادها علماء الدراسات الإسلامية في هذا العصر فقد كان منهم من أراد اللغات الأجنبية ، وكان خطشه فيها غاية في الجودة ، ومن أجل هذا كان هؤلاء سفراء مصر إلى الخارج إذا حزب أمر ، وبين هؤلاء الشيخ على بن محمد الجزائري الأصل والمصري الثقافة والفكر (١١٨٥ = ١٧٧١) ويقول عنه الجبرتي (١) إنه زاحم العلماء بمناقبه في تحصيل أنواع العلوم وأجازه كثير من شيوخ العصر ، وكان يعرف اللسان التركي ، وقد جعله هذا على صلة وثيقة ببعض أمراء الأتراك وبخاصة الأمير أحمد أغا .

ومن هؤلاء محمد بن اسماعيل السكتدرى (١١٨٣ = ١٧٦٩) الذي كان يعرف الألسنة الثلاثة ، العربية والفارسية والتركية ، مع ميل إلى المخاورات واللطائف الأدبية ، ويقول عنه الجبرتي (٢) أن رسائله في الألسن الثلاثة كانت غاية في الفصاحة مع حسن خط ووفور حظ ، ومهابة عند الأمراء وكان والده اسرائيليا ، فأسلم وحسن إسلامه ، وكان يزور الشيخ حسن الجبرتي في آخريات حياته : ويقول الشيخ عبد الرحمن الجبرتي أنه رأى كتاب بهارستان لولانا جامي مكتوباً بخط يد السكتدرى ، وقد أحسن في كتابته وأتقن في سياقه ، كما رأى للسكتدرى كتاباً آخر فيه بعض التوادر ومجموعة من الشعر بالألسن الثلاثة ، ويطرب الجبرتي في مدحه الثناء عليه إطناباً طويلاً ، ويقتبس من كلامه ما يدل على إبداع وعمق وروعة .

ومن هؤلاء كذلك حسن الدرويش (١٢٣١ = ١٨١٥) الذي كانت له مشاركة في كل فن من الرياضيات والأدبيات ، والمعقول والمنقول كما

(١) ج ١ ص ٣٦٩ .

(٢) ج ١ ص ٢٣١ .

كانت له معرفة بلغات كثيرة حتى كأنه خالط أهلها وعاش في ديارها ولكن يعلم هذه اللغات من أراد أن يتعرف عليها ، ويعلم اللغة العربية للأعاجم الذين يفدون إلى مصر (١) .

ولا يمكن أن نطوي صفحة الحديث عن العلماء الذين أجادوا اللغات الأجنبية دون أن نتحدث عن الشيخ حسن الجبرتي الذي كان يعرف اللغة الأمورية ويجيد اللغة التركية ويخاطب بها الأمراء حتى كأنه منهم ، بل يضيف مترجم حياته أن جماعات من الأفرنج قصدوا بيته ، وأخذوا عنه علم الهندسة وذهبوا إلى بلادهم ونشروا بها ذلك العلم ، وأخرجوه من القوة إلى الفعل ، واستخرجوا به الصنائع البدعة مثل طواحين الهواء وجر الأثقال واستبطاط المياه (٢) .

وظيفة المعيد :

وقد عرفت المدارس المصرية في ذلك العصر وظيفة المعيد ، وكان المعيد يجلس في حلقة أستاذه أقرب ما يكون إلى الأستاذ ، ويتلقي الدرس مع الطالب ، فإذا انتهى الشيخ من القاء درسه وغادر المكان بدأ المعيد يشرح مما غمض من ذلك الدرس على الطالب ، ويجيب على أسئلتهم ، ومن الممكن أن يعود إلى أستاذه إذا سئل سؤالاً لم يعرف الجواب عنه ، وهكذا عرفت حلقات التدريس بمصر في عصر الجبرتي تلك الوظيفة التي تهتم بها الجامعات في العهد الحاضر ، لتكون أستاذة المستقبل ومن المعينين الذين تحدث عنهم الجبرتي الشيخ عبد القادر بن خليل (١١٨٧ = ١٧٣٧) الذي لازم الشيخ ابن الطيب ملزمة كلية حتى صار معيناً لدروسه : وهو رومي الأصل ، وقد جاء إلى مصر ، ثم خرج منها طوافاً معلماً ، وعاد لها - كما يقول الجبرتي (٣) بالفوائد الغزار وبما حمل في طول غيته من النوادر والأسرار .

(١) ج ٤ ص ٣٦١ - ٣٦٢ .

(٢) ج ١ ص ٣٩٧ .

(٣) ج ١ ص ٣٧٨ - ٣٧٩ .

ومن هؤلاء الشيخ محمد بن موسى الجنانى (١) (١٢٠٠ = ١٧٨٥) الذى كان معيداً للشيخ الصعیدى ، ومنهم كذلك الشيخ الجداوى وسليمان العجیلی والسمنودی والأجهوری والعدوی والصاوی والدسوقي .

ومن الواضح أن كلاً من هؤلاء تخطى بعد حين وظيفة المعيد ، وأصبح قمة من قمم الفكر وعائلاً عظيماً من علماء العصر ، وقد تحدثنا عن أكثرهم فيما سبق من دراسات .

علماء معoron :

ومن الناس من يعتقد أن الانكباب على العلم ، والمسهر لنيله ، والجلسة لتعليمه تضر بالصحة وتضعف الجهد ، لما تسببه من ارهاق ، ولكن الباحث في عصر الجبرتى يشاهد كثيرين من العلماء المعمّرين الذين طعنوا في السن على الرغم من جهودهم الكبيرة في خدمة العلم والمعرفة ، فالمعلم العالم الشيخ على بن محمد الشناوى (٢) (١١٨٦ = ١٧٣٢) الذى انتهت إليه الرئاسة في زمنه عاشر حتى جاوز المائة ، وكان طيلة عمره متمتعاً بالحواس ، ثاقب الفكر ، ومن جاوزوا المائة كذلك الشيخ سليمان بن محمد البھيرى (٣) (١٢٢١ = ١٨٠٦) الذى ظل يملئ على تلاميذه حتى ليلة رغاث ، ومن الشيوخ المعمّرين كذلك الشيخ خالد بن يوسف الديارى بكرى (٤) (١١٩٣ = ١٧٧٩) وأصله من ديار بكر ، وفد إلى مصر ولازم حضور الأشیاخي بها ، وزامل الشيخ عبد الرحمن الجبرتى في حلقة السيد محمد مرتضى بجامع شيخون حيث تلقيا دروس الصحيح ، وزامله كذلك في جامع أبي محمود الحنفى حيث تلقيا « الأمانى والشمائل » ثم اتجه الشيخ خالد للوعظ والتدريس ، وطال عمره حتى أصبح من المعمّرين ذوى شهرة في ذلك العصر .

(١) ج ٢ ص ١٢٥ .

(٢) ج ٤ ص ٢٤ .

(٣) ج ٤ ص ٥٧ .

(٤) ج ١ ص ١١ .

ومن الشيوخ المعمّرين كذلك الشيخ أحمد بن عبد السلام (١١٨٨ = ١٧٧٤)^(١) والشيخ زين الدين القاسم العبادي (١١٨٨ = ١٧٧٤)^(٢) والشيخ محمد أبو السعود المكتنى (١٢٠٢ = ١٧٨٧)^(٣) وقد تجاوز التسعين ، والشيخ أحمد البرماوى (١١٣٨ = ١٧٢٥)^(٤) .

وهكذا نجد في عصر الجبرى شيوخاً تخرج على أيديهم عدّة أجيال وطالت أيامهم في خدمة الفكر والاسلام ، وكان عمرهم الطويل مصدر يمن وبركة على الدراسات الاسلامية .

ونرة المؤلفات :

وقد دون علماء هذا العصر مجموعة من الكتب والمؤلفات في مختلف العلوم والفنون ولو تقدر لهذه المجموعة أن تبقى مخطوطه أو مطبوعة كانت ثروة هائلة ، ومكتبة رائعة ، ولكن ما بقى منها — على كل حال — يصور مدى الجهد الذي بذله رجال هذا العصر في خدمة العلم والمعرفة ، وقد أورد الجبرى صفحات طويلة عدّد فيها مؤلفات علماء عصره وكتموذج من هذا الجهد نقتبس ما كتبه عن مؤلفات الشيخ الدمنهورى (١١٩٢ = ١٧٧٨) فمنها حلية اللب المصنون بشرح الجسوهر المكتون ، ومنتهى الإرادات في تحقيق الاستعارات ، وإيضاح المعانى السكلم ، وإيضاح المشكلات في متن الاستعارات ، ونهاية التعريف بأقسام الحديث الضعيف ، والخداعة بأنواع العلاقة ، وكشف اللثام عن مخدرات الأفهام على البسملة ، وحسن التعبير في القراءات العشر ، وتنوير المقلتين بضياء أوجه الوجوه بين السورتين ، والفتح الربانى بمفردات ابن حنبل الشيبانى ، وطريق الاهتداء بأحكام الإمامة والافتداء على مذهب أبي حنيفة ، وإحياء

(١) ج ١ ص ٤١.

(٢) ج ٣ ص ١٦٥ .

(٣) ج ٤ ص ٧٦ .

(٤) ج ٢ ص ٢٦ — ٢٧ .

الفواد بمعرفة خواص الأعداد ، والدقاتق الألامية على الرسالة الموضعية ، ومنع الأئمـ الحائزـ على التـمـادـى في فـعلـ الـكـبـائـرـ ، وـعـيـنـ الـحـيـاةـ فـيـ اـسـتـبـاطـ الـمـيـاهـ ، وـالـأـئـمـ الـسـاطـعـاتـ عـلـىـ أـشـرـفـ الـمـرـبـعـاتـ ، وـخـلاـصـ الـكـلامـ عـلـىـ وـقـفـ حـمـزةـ وـهـشـامـ ، وـالـقـولـ الصـرـيـحـ فـيـ عـالـمـ التـشـرـيـحـ ، وـإـقـامـةـ الـحـجـةـ الـبـاهـرـةـ عـلـىـ هـدـمـ كـنـائـسـ مـصـرـ وـالـقـاهـرـةـ ، وـفـيـضـ الـمنـانـ بـالـضـرـورـىـ مـنـ مـذـهـبـ التـعـمـانـ ، وـشـفـاءـ الـظـلـمـانـ بـسـرـ قـرـاءـةـ الـقـرـآنـ ، وـإـرشـادـ الـمـاـهـرـ إـلـىـ كـنـزـ الـجـوـاهـرـ ، وـتـحـفـةـ الـمـلـوـكـ فـيـ عـلـمـ التـوـحـيدـ وـالـسـلـوكـ ، وـالـزـهـرـ الـبـاسـمـ فـيـ عـلـمـ الـطـلـاسـمـ ، وـمـنـهـجـ السـلـوكـ إـلـىـ نـصـيـحةـ الـمـلـوـكـ ، وـالـمـنـحـ الـوـفـيـةـ فـيـ شـرـحـ الـرـيـاضـ الـخـفـيـةـ فـيـ عـلـمـ الـكـلـامـ ، وـالـكـلـامـ السـدـيـدـ فـيـ عـلـمـ التـوـحـيدـ ، وـبـلـوـغـ الـأـرـبـ فـيـ اـسـمـ سـلـاطـينـ الـعـربـ .

ويختتم الجبرتي حديثه عنها بقوله إنه اطلع على أكثرها وانتفع بما ورد فيها .

وبعد ، لقد كان عصر الجبرتي عصراً حافلاً يسود فيه اضطراب الساسة ونشاط العلماء ، وقد استطاع الجبرتي أن يصور لنا هذا العصر أدق تصويراً ، فجعل القارئ يحس – وهو يقرأ ما كتبه الجبرتي – بأنه يعيش هذا العصر من جديد ، ينفعل بالأحداث فيه ، وتبهره مواقف العلماء وما بذلوه من جهد لخدمة مصر بوجه عام ، وخدمة الدراسات الإسلامية بوجه خاص ، وقد استطاع العلماء أن يدفعوا عن مصر كثيراً من الضر ، وأن يجعلوا مصر في هذا العصر مركزاً للدراسات الإسلامية ، فكان عصرهم بذلك امتداداً للنشاط العلمي الذي مارسته هذه البلاد عدة أجيال من قبل ، وكان عصرهم أيضاً مهيئاً لنهاية عظمى بدأت بعد حين ، ولا تزال تخطو وتحاول أن تتحقق مصر وللعالم العربي والإسلامي المكان اللائق في دنيا الفكر والعلوم .

٣ - الفترة الاستقلالية

من « محمد على » إلى الاحتلال البريطاني

طال بثا الحديث عن الفترة السابقة التي أسميناها « الفترة الملكية » لأنها حوت الحملة الفرنسية بما قدمناه عنها من دراسات مهمة فيها الكثير من الجديد ، ولأنها شملت كذلك دراسات رائعة اقتبسناها من الجبرتي عن هذه الفترة ٠

وننتقل الآن للحديث عن « الفترة الاستقلالية » ، ونطلق عليها الفترة الاستقلالية » لأن نفوذ تركيا في الواقع قد تقلص في مصر ، حتى لسم يعد يُحْسَب له حساب ، ثم إن المالكين الذين كانوا يأتون من الخارج فوجا بعد فوج ضعف شأنهم أو زال ، والجيش المصري تطور ليكون مصر يا حقيقة ، وتغلب كبار ضباطه بمرور الزمن على العقبات التي كانت في طريقهم أو على أكثرها ، وببدأت العناصر المصرية في الميادين المختلفة تظهر وتفرض نفسها ، فسلسلة الأبطال المصريين لم تتقطع طيلة هذه الفترة التي نتحدث عنها ، من عمر مكرم إلى عرابى ٠ ومحمد على وأولاده والقدون على مصر ، ولكتهم بعد قليل لم يجدوا سواها وطننا ، وقد نجحتم مصر ألوانا من الجاه فحرص بعضهم عليها ليستمر نه هذا الجاء والنفوذ ، وخانها بعضهم ليستمر نه الجاه أيضا ، ولكن مصر في الموقفين لم يكن يدفعها نفوذ يذكر من الخارج ، إلى أن جاء الاحتلال أو ظهرت معالله ، ومن أجل هذا كان جديرا بنا أن نسمى هذه الفترة « الفترة الاستقلالية » ٠

محمد على وأولاده

الزيف في تدوين التاريخ :

إن الحديث عن محمد على وأسرته في عصرنا حديث ليس سهلا ، فقد اتجهت الجهود منذ قيام عصابة ٢٣ يوليو إلى التقليل من قيمة الأسرة العلوية،

بل إلى الطعن فيها والنيل منها ، وأصبح هذا التاريخ الظالم هو المادة التي تقدّم لل תלמיד في المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية وهو المادة التي تتكلم بها وتنطلق بها السنة وسائل الإعلام الأخرى (١) ولسم تكن هذه الأسرة وحدها هي التي ظلّمها كتاب عصر الثورة ، بل إن أكثر عظماء التاريخ المصري الحديث أسّدّل ستار من الضباب فوق تاريخهم ، وحجبت جهودهم وأعمالهم عن الجيل الحاضر ، فلا تكاد تسمع كلمة حق عن مصطفى النحاس الذي كان زعيم الشعب والتاطق بلسانه حوالي ربع قرن ، ولا تكاد تسمع كلمة عن الدكتور محمد حسين هيكل ، وهو مفكر وسياسي مصرى عظيم ، ولا تسمع عن الرائد الدينى الكبير حسن البنا الا ما يمسه ويشين دعوته، ولم ينج من كتاب عصر الثورة الا قلة من القادة الأوائل كمصطفى كامل ومحمد فريد ، أما القمم السياسية ، والفكيرية التي لها جماهير شعبية غيرة ، فقد اتجهت كل المحاولات لطمس تاريخها والهجوم على كل نصراتها ، وساقبتهن فيما يلى لقطات سريعة مما يقدّم لأبنائنا في مدارس الحكومة :

الزيف مقرر على التلاميذ

من كتاب التاريخ المقرر على الفرقـة السادـسة الابـتدـائية :

— كان في الخاتمة العثمانية الموجودة بمصر ضابط ألباني يدعى « محمد على » (رأيت هذا التعبير الذي ينمّ عن جهل وخشونة) ٠

— رفض محمد على أن يشاركه زعماء الشعب في حكم البلاد ، وانفرد بشئون الحكم دون أن يشاركه الشعب في ذلك ، وببدأ في فرض الضوابط على المصريين ، ونقض بذلك عهده للمصريين ٠٠٠٠ وأصبح حاكماً مستبداً بشئون مصر ٠ (كتب هذا لإرضاء عبد الناصر ، كان عبد الناصر هو الذي أشرك الناس معه في حكم البلاد !!)

(١) بهذه المناسبة نستذكر الاسفاف الذى يظهر فى التمثيليات التليفزيونية مثل التمثيلية الغنائية « أوبيرت الليلة العظيمة » التى تصور الخديوى اسماعيل فى صورة لا يرسمها إلا جاهل بال تاريخ أو منافق .

- ٣٨٦ -

- بسط محمد على النفوذ العثماني على أنحاء الجزيرة العربية وعلى السودان (للاسف نسى المؤلف بعد لحظة هذا الكلام حينما تحدث عن حرب محمد على للعثمانيين) .

- لم يكن محمد على يهدف الى تحقيق الوحدة العربية ، بل كان همه أن يكون لنفسه ملكاً عريضاً له ولأسرته ، ولذلك لم ي عمل محمد على ما فيه الخير للبلاد ، بل كان همه استغلال ثروات البلاد العربية لصالحته الخاصة فسُئم الناس حكمه وتمنوا القضاء عليه . (ما رأى المؤلف في ثراء أشرف مروان وأسرة عبد الناصر وعصمت المسادات) .

- كان اسماعيل مسروقاً بطبيعته فتوسع في القروض الأجنبية لإقامة قصوره ورحلاته واستراحاته وحروبها ، ولتقديم الرشاوى إلى السلطان العثماني بين الحين والآخر ، وكانت هذه القروض من أهم الأسباب التي نتج عنها الاحتلال البريطاني .

(نسي المؤلف قروض مصر في عهد الثورة ، كما نسي أن أوروبا احتلت كل أفريقيا وأسيا في هذه الفترة المالكة من التاريخ ، وكان الاحتلال يقيم لسبب أو آخر أو بدون سبب) .

- كانت الأحزاب فاسدة ومتنافسة على الحكم ، وتتخضع لرغبات الملك والإنجليز .

- حديث طويل ورائع عن مصطفى كامل ينتقى عليه ويذكر أن أسرته مصرية كريمة ، وجهوده ميمونة في الداخل والخارج ، ومثل ذلك فيما يتعلق بمحمد فريد ، فإذا وصل الأمر إلى ثورة ١٩١٩ لا نجد كلمة ثناء على سعد زغلول ، ولا على دستور ١٩٢٣ الذي انبثق في عهد عبكر ، والذي قيل عنه إن البلاد لم تحظ بدستور مثله حتى الآن ، وإذا جئنا إلى معاهدة ١٩٣٦ نجد أن المؤلف لم يستطع ذكر اسم النحاس الذي عقدها ، وقال « وتفاوضت مصر مع إنجلترا ٠٠٠ » ونجده ييرز ما أسماء عيوب هذه المعاهدة

- ٣٨٧ -

ويختتم كلامه بقوله : ... حتى قامت ثورة ٢٣ يوليو بقيادة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر فأنقذت الموقف وحققت الجلاء والاستقلال .) يلاحظ أنه كتب هذا بعد وفاة جمال عبد الناصر ، وإسرائيل تحتل سيناء وقد دمرت مدن القناة واللوتس في مصر قواعد خطيرة ، ومع هذا يتحدث المؤلف عن الجلاء والاستقلال) .

ذلك هو الزيف التاريخي عن أسرة محمد على ، كما نراه في مقرر الفرقة السادسة الابتدائية وهذا الزيف ينبع مع فهو التلميذ المصري ، فنجد مصاعداً في المرحلة الاعدادية ، والمرحلة الثانوية ، ونجد صوراً منه في التلقيزبين والاذاعة .

كتابة تاريخ هذه الحقبة من جديد :

ومن أجل هذا الزيف علت الأصوات بأن تاريخ هذه الحقبة ينبغي أن يكتب من جديد ، وقد حاولت بإصرار أن تكون أميناً كل الأمانة فيما أكتب ، إذاً أن إحساسى عميق كل العمق بمسؤولية المؤرخ أمام الله وأمام الناس ، ولذلك أعدْ أن تكون منصفاً كل الإنصاف ، فأتنى على من يستحق الثناء ، وأهاجم من خان البلاد أو سبب لها كارثة من الكوارث وسرى في محمد على وأسرته موافق تستحق التقدير والثناء ، وتلك سنبزها ونشى عليها ، وسرى من بعض السلاطين والملوك انحرافاً بل خيانة ، وتلك سنبزها أيضاً ونهاجمها ، ومثل هذا ما ستفعله في عصر ما بعد أسرة محمد على ، فالعرض التاريخي سيتخذ الأمانة الدقيقة دستوره ، والخوف من الله نهجه مع كل الناس وبخاصة مع أولئك الملوك والرؤساء الذين عاصرنا عهدهم وعشنا الحياة معهم ، ورأيت بنفسي تصرفاتهم ، تلك التصرفات التي ألمّقى على كاهلى مع قلة من المؤرخين مسؤولية تدوينها لهذا الجيل ولما يأتي من أجيال .

ذلك عهدى أخطو في ظله نحو تدوين تاريخ هذه الفترة ومن الله التمس العون والسداد .

محمد على والطريق للرئاسة

ولد محمد على في قواته ، على الساحل المقدوني ببلاد اليونان سنة ١٧٦٩ ، وكان عمه يشغل منصب « نائب الوالي » وهو منصب عظيم آنذاك ولم يحظ محمد على بتربيه مدرسية يشتمل بها ، ولذلك آثر الاشتغال بالتجارة ، فعمل في تجارة التبغ ، وكان التبغ من أهم السلع في تلك المنطقة .

وخلال الحملة الفرنسية أرسل السلطان سليم الثالث حملة بحرية إلى مصر سنة ١٧٩٩ ، وكلف عم محمد على أن يرسل كتيبة مؤلفة من ثلاثة عشر شخص إلى مصر ، فأرسلها بقيادة ابنه الصغير يساعدته ابن عمه محمد على ، وسرعان ما تولى محمد على القيادة الفعلية ، واشترك في بعض المعارك ضد الفرنسيين ، وسار في سلم الترقية حتى أصبح الشخص الثالث بين قادة العثمانيين بمصر ، فلما تمرد الجندي على خسروباشا وقتلوا طاهر باشا بدأ نجم محمد على يتألق ، وعيّنت الأستانة خورشيد واليا على مصر ولكن محمد على استطاع بحيلته أن يرتبط بالملك ، واتخذ البرديسي بوجه خاص تكلاه له ، وكان البرديسي طموحاً في قسوة وجاه ، فوجده محمد على مركباً سهلاً ، وطالب الجندي بمرتباتهم فخلص محمد على بينهم وبين البرديسي ، وراح هذا الأحمق يفرض الضرائب بعنقها بقسوة ، مما أثار عليه الشعب والجندي ، وأضطر أخيراً أن يهرب إلى الشام .

ولم يبق أمام محمد على إلا خورشيد الوالي الجديد ، وقد جاء هذا إلى البلاد بعنجهية الأتراك وشغفهم ، وكان محمد على في الوقت نفسه حريضاً على التقرب من زعماء المصريين وشيوخهم ، وارتكب جند الوالي الجديد بعض المفاسد مما زاد في ثورة الشعب ، ونتيجة للميساة المملوكية والعثمانية ، اجتمع زعماء الشعب ، وأعلنوا عزل الوالي خورشيد باشا و اختيار محمد على واليا عليهم في مايو سنة ١٨٠٥ ، وألبسه السيد

عمر مكرم والشيخ الشرقاوى خلعة الولاية ، ولم يخضع خورشيد لقرار العزل الصادر من «الفلاحين» (على حد قوله) وتحصن بالقلعة ، ولكن الحكومة العثمانية وجدت من الحكمة أن توافق على ما ارتأه الشعب المصرى ، وصدر بذلك فرمان في يوليو سنة ١٨٠٥.

علم تكن تركيا ملخصة في هذا التصرف ، وإنما أرادت به تهدئة الأحوال مؤقتاً ، بدليل أنها بعد عام واحد أرسلت لمصر واليا جديداً اسمه موسى باشا بدلاً من محمد على الذى قررت نقله إلى سلانيك ، ولكن الشعب المصرى أحجم عن هذه المحاولة ثبت ضعف تركيا أمام العزيمة المصرية.

مشكلات في طريق الوالي الجديد :

لم تضع هذه العوامل حدّاً لقمع محمد على ، فالمالك لا يزالون يهددون مركزه ، وبخاصة أنه لم يعد ممثلاً لتركيا فقط ، وإنما لأنّه أصبح أيضاً ممثلاً للشعب المصرى الذى اختاره ، وتركيا لم تكن راضية عن محمد على ، وإنما أرغمت على تعينه ، ولذلك كانت تتحين الفرص للتخلص منه ، والانجليز كانوا يحتضنون محمد الألفى زعيم المالك ، وقد وضعوا معه مخططاً لإياب زيارته لإنجلترا ، ليجعلوا على وضعه في مكان القيادة ، وليس من لهم تيسيرات اقتصادية وسياسية في البلاد ، والشعب المصرى ممثلاً في شيوخه كان أيضاً عقبة في طريق الوالي الجديد الذى يرى فيه منافسين له فكان ينوي التخلص من سيطرتهم حتى يخلو له الأمر.

وتساعدت الظروف محمد على فتخلاص من هذه المشكلات واحدة واحدة ، فمن جهة تركيا استطاع أن يصل إلى اتفاق معها ، على أن يدفع جزية سنوية قدرها عشرون ألف جنيه ، وقد رضيت تركيا بذلك إذ أيد مستشاروها إبقاءه في منصبه ، وأما المالك فقد ساعده الحظ إذ مات البرديسي سنة ١٨٠٦ والألفى سنة ١٨٠٧ وأعمل محمد على الحيلة أو

الرشوة بالمال أو المناصب مع باقي المالك حتى سنة ١٨١١ ، فقام بمذبحه القلعة التي أشرنا لها من قبل وستحدث عنها بعد قليل ، والتي قضى بها محمد على على ذلك العنصر قضاء مبرماً .

حملة فريزير :

أما الانجليز فقد هالهم ميل محمد على تجاه فرنسا ، وكانوا قد أعدوا حملة بقيادة الجنرال فريزير لوزارة حليفهم محمد بك الألفي ، ولكن هذا مات قبل وصول الحملة بيد أن الحملة لم تتوقف وسارت تجاه مصر وفي مارس سنة ١٨٠٧ احتلت الإسكندرية بدون مقاومة ، إذ آخر حاكمها التركي « أمين أغا » أن يبيع المدينة برشوة حصل عليها من الانجليز ، واتجهت الحامية إلى رشيد فحاصرتها ، ولكن الشعب هب يناضل في حماس وقوة ، فانتصر على المع狄ين وردهم على أعقابهم ، وطلب الانجليز مفاوضة محمد على للجلاء ، وتم جلاءهم سنة ١٨٠٧ ، وينبغى أن نوضح أن فريزير لقى الهزيمة على يد أبناء الشعب في رشيد والحمد ، قبل أن يصل محمد على من الصعيد ، ولما وصل محمد على إلى الميدان قابله طلب الانجليز بالتفاوض للجلاء ، فأتممه وجئى بذلك نتائج جهود الشعب المكافحة .

والتقى الشعب المصرى حول محمد على ، ولما اختلف هذا مع عمر مكرم أبعده إلى دمياط ، وتلك عقوبة بسيطة جداً إذا قورنت بما أنزله عبد الناصر بمخالفته حتى من رفاقه الذين قاموا معه بما يسمى « الثورة » (١) .

والحكام من أسرة محمد على هم :

١ - محمد على سنة ١٨٠٥ م : تخلى عن الحكم ١٨٤٨ وتوفي سنة ١٨٤٩ .

٢ - إبراهيم بن محمد على سنة ١٨٤٨ م ، توفي في نفس العام .

٣ - عباس الأول (ابن طوسون بن محمد على) سنة ١٨٤٨ م .

(١) اقرأ عن الصراع بين عبد الناصر وزملائه في الجزء التاسع من هذه الموسوعة .

- ٣٩١ -

- ٤ - سعيد بن محمد على سنة ١٨٥٤ م .
- ٥ - اسماعيل (ابن ابراهيم بن محمد على) ١٨٦٣ م (اتخذ لقب خديوي - ثم عزل سنة ١٨٧٩) .
- ٦ - توفيق بن اسماعيل سنة ١٨٧٩ م .
- ٧ - عباس (الثاني) حاى (ابن توفيق) سنة ١٨٩٣ م (عزلته انجلترا سنة ١٩١٤ م) .
- ٨ - حسين كامل بن اسماعيل سنة ١٩١٤ م (اتخذ لقب سلطان سنة توليته) .
- ٩ - أحمد فؤاد الأول بن اسماعيل سنة ١٩١٧ (اتخذ لقب ملك سنة ١٩٢٢) .
- ١٠ - فاروق بن فؤاد سنة ١٩٣٦ (عزلته الثورة في ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢) .
- ١١ - أحمد فؤاد الثاني (طفل ، ابن فاروق عزلته ثورة يوليو وأنهت حكم أسرة محمد على وأعلنت النظام الجمهوري في ١٨ يوليو سنة ١٩٥٣) . وسنورد اهم الأحداث التي جرت في عهد كل من هؤلاء عند حديتها عن الفترة التي وُجِدَ فيها ، وسنعتمد أكثر الاعتماد على المراجع المعاينة في هذه الدراسة .

محمد على وبناء الدولة الحديثة

اهتم محمد على اهتماماً كبيراً بأن يجعل من مصر دولة حديثة تتحقق بركتب التقدم الأوروبي الذي كان محمد على على صلة ببنهضته ، وفيما يلي أهم معالم هذا الاتجاه مع بيان أبرز ما شاب ذلك من عيوب :

أولاً - الجيش والاسطول

من الواضح أن الحياة في مصر منذ مطلع عهد محمد على ، كانت تحتاج إلى جيش ، لضمان الاستقلال في الداخل ، ثم لتحقيق الأطماع التي بدأت في تصرفات محمد على من يوم إلى يوم .

وقد حاول محمد على أن يُحدِّد من سلطة الجنود الآرناود «الألبانيين» ولكن هؤلاء حاولوا الفتك به ، ولذلك عمل على تشتيتهم ، ثم وكل للكونونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوي) أن ينظم الجيش المصري تنظيماً حديثاً .

وسليمان باشا الفرنساوي (١٧٨٨ - ١٨٦٠) أحد الضباط الفرنسيين الذين كانوا ضمن جيش نابليون الذي زحف إلى مصر ، وقد بقى بمصر عقب انسحاب الجيش الفرنسي ، وتمصر واعتقل الإسلام ، فألحقه محمد على بالجيش المصري سنة ١٨١٩ ، وعيشه مدرياً للمشاة بأسوان ، شم تدرج في مناصب الجيش حتى أصبح رئيساً للأركان ، ووكل له محمد على مهمة تكوين جيش مصر يعارض الجيوش الحديثة وقد اشتراك في أغلب الحملات العسكرية التي شنها محمد على ، وتوفي بالقاهرة ودفن بمصر القديمة .

وكان جيش محمد على في أول الأمر من مماليكه ، ومن مماليك آخرين قدمهم أعيان القطر ، ولكن هؤلاء لم يألفوا النظم وحاولوا الاعتداء على قائد الجيش ولذلك تخلص منهم في الحروب السودانية ، وجند بدلاً منهم جنوداً من السودان ، من أهالي كريمان وستانار ، ولكن هؤلاء نُم يحققوا آمال محمد على ، ولم تلائمهم الأحوال خارج السودان ، فبدأ محمد يتذبذب جنوده من المصريين ، وأثبتت هؤلاء كفاءة ممتازة ، في حمل المسؤوليات التي نصبت لهم ، وعنهم يقول «كلوت بك» في تقرير له : إنه هدث في معركة قونية أن «ترك جميع المرضى الذين كانوا يستطيعون حمل السلاح أسرّتهم في المستشفى قاصدين إلى ميدان القتال ليشاركونا أخواتهم شرف الانتصار أو شرف الموت ، وإن فتوح الشام وانتصارات حمص وقونية ، أثبتت للأئراك ، سمو المصريين الذاتي عليهم باعتبارهم أفراداً ، كما أثبتت شوكتهم باعتبارهم جموعاً تسوقها قواعد خطط القتال وتدابيره .

- ٣٩٣ -

ومع هذه الكفاءة الممتازة فقد ظل الجنود المصريون يخضعون للقيادات الأجنبية من الأتراك وكان ذلك إجحافاً بهم ، كما كان من الأسباب التي أحدثت الثورة العربية .

وبنى محمد على لهذا الجيش القلاع والخمون كما أدرك أن قوة الجيش المصري لا بد أن يدعمها أساطول يحمي الشواطئ الطويلة التي تتطلع إليها مصر ، ومن أجل هذا اتجه إلى إنشاء أساطول كبير اشتري بعض سفنه من الخارج ، وبنى سفناً أخرى بالداخل ، وقد استلزم ذلك أن ينشئ « دار صناعة » عند بولاق لصناعة الأجزاء التي تتكون منها السفن ، وكانت هذه الأجزاء تنقل بطريق البر إلى السويس ثم تجتمع هناك وتنزل إلى البحر الأحمر ، كما أنشأ « داراً للصناعة البحرية » بالأسكندرية ، وكان رئيس الصناع اسمه « الحاج عمر » وقد أصبحت دار الصناعة المصرية ترسانة تضارع دور الصناعة الكبرى آنذاك وألحق بها مدرسة لتخریج الضباط البحريين ، ورغبة في مزيد من التقدم أرسل بعثات إلى أوروبا لدراسة أحدث العلوم البحرية ، ومن أجل هذا سرعان ما أصبح مصر أساطول حربي كبير يشمل ثلاثين قطعة ، ويعمل عليه الآلاف من البحارة والضباط والجنود .

وقد استلزم الجيش والأساطول ألواناً من الصناعات الحق بالترسانة ومنها أقسام لعمل البوصلات والناظارات وسبك الحديد ، ومادة الطلاء ومخازن الذخيرة والمهام .

ثانياً - التعليم والنهضة الفكرية

فتحت الحملة الفرنسية العيون تجاه العلم ، واحتاج الجيش الذي أنشأه محمد على إلى ألوان من الثقافات العسكرية والمدنية ، ومن هنا اتجه محمد على إلى إنشاء المدارس والجامعات لتخریج المئات من المثقفين لشئون الحكومة والدواوين وحاجات الجيش ، وبخاصة أن توظيف المخصصين الأجانب كان يكلف الدولة نفقات ضخمة .

وقد أرسل محمد على سنة ١٨٢٦ أول بعثة مصرية إلى فرنسا ، وكانت تتكون من أربعين شاباً زيد عددهم فيما بعد ، وكان مسيي « جومار » مديراً لهذه البعثة .

ولما عاد أعضاء البعثات اعتمد عليهم محمد على ، وأحلهم محل الأجانب الذين كانوا يشغلون مناصب كبرى في الدولة ، وقد نجح أعضاء البعثات المصريون في مهمتهم أكبر نجاح ، ولا تزال أسماؤهم تتعدد كرواد للنحو والحضارة في البلاد ، ومن أهمهم : رفاعة رافع الطهطاوى وعلى مبارك .

وأنشأ محمد على بمصر مجموعة من المدارس العليا مثل مدرسة الطب التي أنشأها كلوت بك ، ومدرسة الهندسة ، ومدرسة الصيدلة ، ومدرسة الزراعة ، ومدرسة الألسن ، والمدارس الحربية المختلفة ، كما أنشأ عدداً من المدارس الابتدائية والثانوية ، وقد وجه محمد على عناته كذلك إلى الأزهر ، فقد وجده فيه معيناً يستمد منه حاجاته من الطلاب لتغذية المدارس العالمية ولزيادة أعضاء للبعثات .

ومن منشآت محمد على الثقافية المطبعة الأمريكية في بولاق ، كما أنه أصدر أول صحيفة رسمية « الواقع المصرية » باللغة العربية ، واللغة الفرنسية سنة ١٨٢٨ .

ثالثاً — ملكية الأرض

كان الأقطاع سائداً في عهد المماليك ، وأحد السلاطين سليم محله نظام الالتزام ، فلما انهار نفوذ العثمانيين وعاد النفوذ للمماليك عاد سلطان المماليك على أكثر الأرض الزراعية ، وبجانب ذلك كان شطر من الأرض موقعاً على المساجد ومعاهد العلم والتکايا ، وكان الشايح والعلماء يديرون هذه الأوقات ، وبقى جزء ضئيل من الأرض يسير على نظام الالتزام الذي فرضه العثمانيون في أول عدهم ، وكانت هذه هي

الحال في أول عهد محمد على ، فلما قضى على المالك حل محلهم في السيطرة على الأرض التي كانت خاصة لهم ، ثم ألغى الأوقاف وملتزمي الأرض ، وعلى هذا أصبحت كل الأرض الزراعية مملوكة للدولة يستغلها محمد على لحساب الدولة . وأصبحت العلاقة مباشرة بين الحكومة وال فلاحين .

وأستثناء من هذا النظام حقق محمد على الملكيات الآتية :

— الوسليا : والوسيلة قطعة أرض كانت تمنح للملتزم نظير قيامه بأعباء الالتزام عندما كان الالتزام موجودا في أول عهد محمد على ، وهذه الأرض غير أرض الالتزام وكانت معفاة من الضرائب ، وقد أبقاها محمد على هبة للذين كانوا ملتزمين .

— الأبعاديات : سميت الأبعاديات بهذا الاسم لأنها استبعدت من مجموع الأرضي المساحة ، وقد وهب محمد على كثيرا من الأبعاديات لكتاب الموظفين ورجال الجيش ، وكانت كذلك معفاة من الضرائب .

— الجفالك والشفالك : وهي الاقطاعات الواسعة التي منحها محمد على لأفراد أسرته وكتاب حاشيته ، وكانت أيضاً معفاة من الضرائب .

وكانت ضرائب الأرض تتبع خصوبتها ، وكانت الضريبة تتراوح بين أربعة قروش ونصف وتنسمة وأربعين قرشاً للفدان .

رابعاً — الاقتصاد

إصلاحات زراعية مهمة :

في عهد محمد على حدثت مجموعة كبيرة من الإصلاحات الزراعية التي قصد بها تنمية الزراعة ، ومن أهم الإصلاحات التي أتمّها محمد على بناء القنطر الخيرية على رأس الدلتا ، يقاد أفادت في تنظيم توزيع المياه على فرعى النيل ، وكان من أغراضها أن تعود بالفائدة على أرض الصعيد .

— ٣٩٦ —

ومن اصلاحاته كذلك انشاء ترعة «المحمودية» بالبحيرة وقد نسبت الى السلطان محمود ، وترعة المنصورية بالدقهلية كما انشأ مجمعة أخرى من الترع والجسور والقنطر ، واستلزم انشاء بعض الجسور اقامة مدن ، أصبحت فيما بعد مدنًا كبيرة ، ومن هذه مدينة الزقازيق التي انشئت بمناسبة إنشاء قنطر بحر مويس . وقد زادت رقعة الأرض المصالحة للزراعة زيادة كبيرة بسبب هذه المنشآت .

ومن الاصلاحات الزراعية التي تُنسب الى محمد على أنه أدخل للبلاد حاصلات جديدة كالقطن والدخان وأشجار الزيتون وغيرها .

ولكن الفلاح المصرى لم ينعم بهذه النتائج كما يتبين وذلك لانتشار الاحتكار الذى يقول عنه المؤرخ عبد الرحمن الرافعى : إن احتكار الحكومة للحاصلات الزراعية عمل ينطوى على الظلم والإلهاق ، وفيه مصادر لحق الملكية ، وحرمان للمالك من الاستمتاع بحقه ، ومن الانتفاع بتزاحم التجار على الشراء ، ذلك التراحم الذى ينجم عنه مضاعفة الثمرة للبائع (١) . وتلك للأسف سياسة اتبعت مضاعفة في عهد الثورة الناصرية .

الصناعة :

وفي مجال الصناعة أدخل محمد على للبلاد مجموعة الصناعات المهمة بالإضافة الى مصانع الأسلحة وذلك مثل مصانع الغزل والنسيج ومصانع سبك الحديد ، ومصانع السكر والورق والصابون والزجاج .

وقد سرى مبدأ الاحتكار من الزراعة الى الصناعة لما كان يدره الاحتكار من الأرباح الطائلة ، وقد شمل الاحتكار كل شيء ، يقول الجبرتى : شمل الاحتكار كل ما يصنع بالموكع وينسج على نول ، من

(١) تاريخ الحركة القومية ج ٢ .

- ٤٩٧ -

جميع الأصناف ، من أبريسم وحرير وكتان إلى الخيش والخمير ، في
سائر الإقليم المصري طولاً وعرضًا من الإسكندرية ودمياط إلى أقصى
بلاد الصعيد^(١) .

(لقد مر "الزمن" وانتهت أسرة محمد على ، وأوشكنا أن ننلوي القرن
العشرين ، ومع هذا فلا احتكار الزراعي الذي شمّاك منه عبد الرحمن الرافعى
يوجد به مصر الآن منذ فرضه جمال عبد الناصر ، والاحتكار الصناعي قائم
كذلك فيما يسمى القطاع العام الذي خلقه جمال عبد الناصر ، وجعله
يملك أكثر الصناعات أو كلها) .

التجازة :

أما في مجال التجارة فقد حقق عهد محمد على انتعاشًا واسعًا لها
وذلك بسبب التطور الذي شهدته الزراعة والصناعة ، وما تحقق من تنظيمية
مطالب الشعب ، ثم ما تحقق من فائض للتصدير ، وقد ساعدت الطرق
البرية التي مهدّها محمد على من انتعاش التجارة الداخلية ، كما ساعد
الأسطول التجاري وإصلاح ميناء الإسكندرية على انتعاش التجارة
الخارجية :

المنشآت المعمارية :

ومن أهم منشآت محمد على جامعه في القلعة ، وهو تحفة فنية رائعة .
وسنعرض فيما يلى بعض صور حديثة لأجزاء منه ، وهي تدل على قدر
عظيم من التطور في مجال هذه المنشآت .

(١) الجغرافي ج ٢ ص ٤٧ .

- ١٩٨ -



مسجد محمد على بالقلعة تحفة فنية رائعة

- ١٩٩ -



مئذنة مسجد محمد على بالقلعة

حروب محمد على

خاض محمد على مجموعة من الحروب قام بها أحياناً ليظهر ولاءه للباب العالي؛ وقام بها أحياناً أخرى ضد الباب العالي، إذ كان ينوى أن يحقق بها طموحاً واسعاً، ولكن الظروف كانت أقوى منه، فحالات دون تحقيق أحالمه كاملة، وفيما يلى كلمة قصيرة عن أهم هذه الحروب:

مذبحة المماليك سنة ١٨١١ :

ترتبط مذبحة المماليك بحروب نجد التي ستحدث عنها عقب هذا، فإن محمد على أحسَّ أن من الخطر أن يبعث بجيشه إلى الخارج، ويترك المماليك يكتُون سلطة كبيرة بالداخل، فقد خاف أن ينتهزوا هذه الفرصة ويثيروا عليه، وكانت شوكة المماليك – كما ذكرنا من قبل – ضعيفة بسبب ما نالهم أيام نابليون وبعدِه، ولذلك استقر رأي محمد على أن يقضي عليهم حتى تتحرك جيوشه بالخارج وهو في مأمن من الأحداث والانقلابات، وقد انتهز فرصة إعداد الجيش للسفر إلى الجزيرة العربية، فدعا الأعيان والkeepers ومن بينهم المماليك لتوسيع هذا الجيش، واحتشد الناس في القلعة ورحب بهم محمد على، ثم بدأت الجموع تتحرك حتى وصل موكب المماليك إلى مضيق تصْعَبُ الحركة فيه، وهنا استدار من سبقوهم واستعد من لحقوهم ومن كانوا كامنين في الجانبين، وهطل الرصاص من كل جانب، وعملت السيوف عملها، ولم ينج منهم أحد تقريباً، ثم صدرت التعليمات بالقضاء على من تبقى من لم يحضر الاحتفال، وكان ذلك نهاية العهد بالمماليك؟ فقد قُتِلَ أكثرهم ونجت قلة ضئيلة انماعت في الشعب فلم يعد لها أثر.

ومثل هذا التصرف حدث كثيراً في التاريخ كنكبة البرامكة في عهد هرون الرشيد، وكمادحة الخندق أو الحفرة في عهد الحكم بن هشام

— ٤٠١ —

بالأندلس ٥٠٠٠ ويرى مرتكبوها أنهم بها ينقذون الشعب من المصاع
ويتحاوشون ثورات خطيرة التفجيج .

الحرب مع السعوديين سنة ١٨١٨ — ١٨١٩ :

ظهر الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية بفكر اصلاحي رائج (١٩٦) وخلاصة مذهبة القضاء على التوسل بالآتباء والأولياء ، وخدم مزاراتهم وقبابهم ، ومحاربة التدخين والموسيقى ، وقد تحدثنا عن حركة التوحيد التي يسمى بها البعض الحركة الوهابية بكثير من التفصيل في الجزء السابع من هذه الموسوعة عند الكلام عن تاريخ الجزيرة العربية ، والذي نريد أن نقوله هنا ، أن هذا الفكر عظم في مطلع القرن التاسع عشر بمعرفة محمد بن سعود أمير نجد ، فاحتل هذا مكة والمدينة سنة ١٨٠٣ ومنع حجاج مصر والأئم الراحل من الحج لوجود قباب في بلادهم ، وصار بذلك خطرا على نفوذ الدولة العلوية ، فطلب العثمانيون من محمد على القضاء عليهم ، وانتهز محمد على هذه الفرصة ليعيد صلة مصر بالحجاز ، ثم ليتخلص من الجنود الألبانيين الذين كانوا يثيرون المتابعين ضدّه ويتعدرن من حين إلى آخر ، فأعاد حملة كبيرة ووضع على رأسها ابنه طوسون ، ولما تعرّض هذا في الانتصار ، خرج محمد على بنفسه فلحق به ، وحقق بعض النصر ثم عاد ، وعقد طوسون صلحًا مع السعوديين ، ثم مات عقب عودته إلى مصر ونقض السعوديون الصلح ، فأرسل محمد على ابنه إبراهيم الذي استطاع أن يدمر « الدرعية » عاصمة السعوديين سنة ١٨١٨ وجاء إليه أميرهم عبد الله وسلم نفسه ، فأرسله إبراهيم إلى الاستانة حيث أعدم ، وكانت المروعة تقضي لا يفعل ذلك (١) .

(١) أقرأ أحاديث مفصلة عن هذه الأحداث في الجزء السابع من هذه الموسوعة .

— ٤٠٣ —

وعلى كل فقد عادت أفكار محمد بن عبد الوهاب إلى الانتعاش ،
ولا تزال سائدة في المملكة العربية السعودية حتى اليوم ، ومنها تنتشر
إلى كثير من البقاع .

ومما يذكر أن الأئمَّةِ الذين العرب والأجانب كانوا يعتمدُون على الجبرتي
في تصوير هذه الحروب وفي ذكر أسبابها ونتائجها ، وكانوا يدينون محمد
على تبعاً لرأي الجبرتي ، ولكنَّ عثرةً على كتب كتبها مؤرخون سعوديون
هم عثمان بن بشر (١) ومحمد بن عبد الله الأنصاري (٢) والشيخ إبراهيم
بن صالح (٣) وهي تذكر أنَّ السعوديين هم الذين نقضوا العهد وهاجموا
المصريين وحلفاءهم ، وهم يلقون نتيجةً هذه الحروب على الجانب السعودي .

وفي عهد الملك العظيم عبد العزيز آل سعود قرر الملك فتح بلاد
الحجاز للحجاج وإن وجدت القباب في بلادهم ، ورأى أن تسير دعوة
الإصلاح سلمية ، أحسن الله جزاءه (٤) .

حرب السودان سنة ١٨٢٠ :

ربط النيل بين مصر والسودان برباط مقدس ، وعلى مر التاريخ
حرص حكام مصر من وطنين أو فاتحين على أن يسيروا مع النيل جنوباً
لاعتقادهم أنَّ حوض النهر يكونَ وحدة واحدة ذات عناصر مشتركة
اقتصادياً وجغرافياً ، وهناك كذلك عناصر تاريخية بين سكان الوادي شماله
وجنوبه ، جاءت نتيجةً للروابط التي نمت بين هؤلاء السكان في عهد
الفراعنة والفرس والروماني والبطالسة والعرب وبخاصة العرب المسلمين ،

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٢) تحفة المستفيد ص ١٤١ .

(٣) تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ص ١٤١ .

(٤) اقرأ تفاصيل ذلك في الجزء السابع من هذه الموسوعة ص ١٢٨ - ١٣٨ .

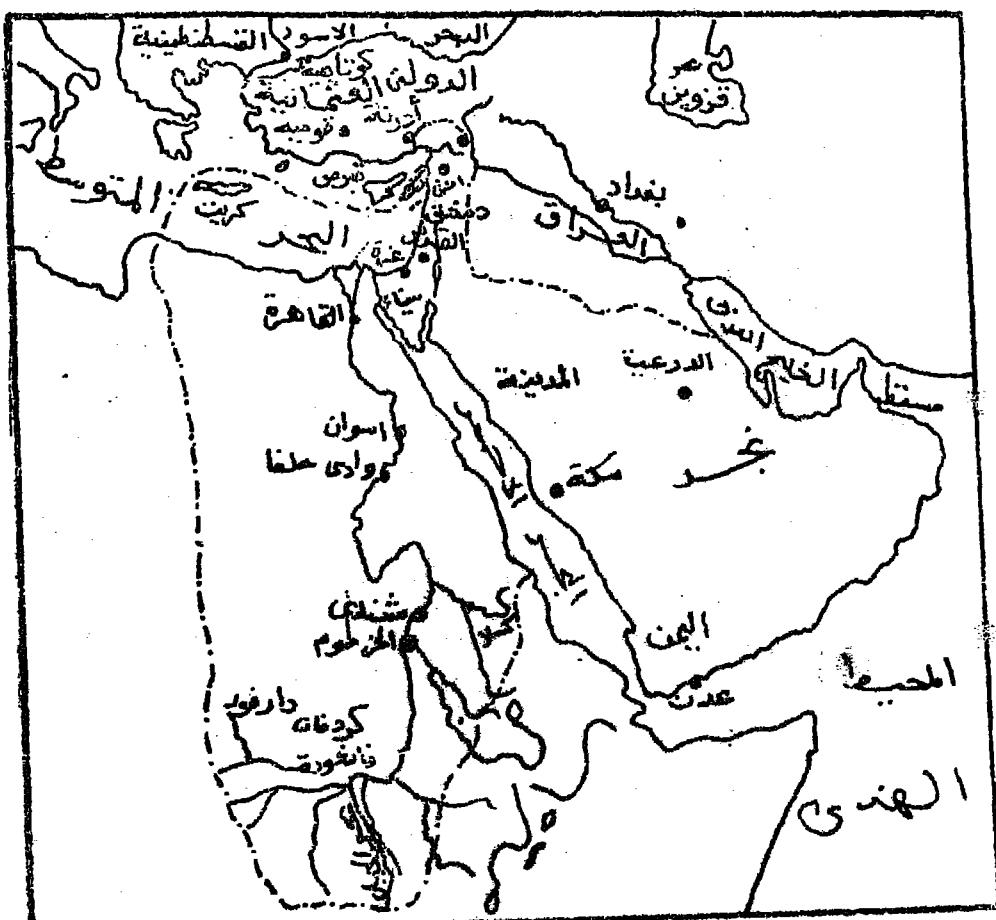
ولعل هذا كان السبب في زحف محمد على إلى السودان ؛ هذا بالإضافة إلى رغبته في القضاء على الملاليك الذين فروا إلى بلاد النوبة ، ورغبته في القضاء على من بقي بجيشه من الجنود الألبانيين كثيري الشغب وإحلال السودانيين في الجيش مطهوم ، ومن أطماعه في السودان كذلك البحث عن الذهب لينفذ مشروعاته الواحة .

وعرض محمد على رأيه على مستشاره العسكري محمد بك لاظوغلى ، وأعدت الحملة برا وبحرا بقيادة اسماعيل بن محمد على وتقدمت إلى الجنوب ، وكان مع الحملة مجموعة من علماء الشريعة الإسلامية ليدعوا المسلمين بالسودان إلى الوحدة والمؤاخاة وليديعوا غير المسلمين إلى الدخول في دين الله ، وحقق اسماعيل مجموعة من الانتصارات ، ففتح ببرير وشندى وستانار ، ثم أرسل محمد على جيشا ثانيا بقيادة ابنه ابراهيم فسار محاذيا للنيل الأبيض ، وسار اسماعيل محاذيا التيل الأزرق ، ثم عاد ابراهيم لرصن أصحابه ، وقف اسماعيل بعده عائدا ، فلما بلغ شندى حصل خلاف بينه وبين نمر ملك شندى فدبّر هذا مكيدة أحرق فيها اسماعيل وبعض خاصته في أثناء وليمة أقامها لهم .

واتجه محمد بك الدفتر دار صهر محمد على إلى شندى للانتقام من الملك نمر ، وقد استطاع هذا أن يدمر شندى ، ولكن الملك نمر فر منه تجاه الحبشة وأسس الدفتردار مدينة الخرطوم سنة ١٨٢٢ عند ملتقى التيل الأزرق بالنيل الأبيض .

ومن الواضح أن حملة السودان لم تتحقق الكثير من أغراضها ، ولكنها وصلت بين القطرين الشقيقين بهذه الصلة السياسية ، ولم يمنع محمد على في حرب السودان بل توقف عند الخرطوم إذ استدعاء الباب العالى لإخماد ثورة اليونان ، وقد تحدثنا حديثا مستفيضا عن التوسع المصرى في السودان وفي افريقيا بالجزء السادس من هذه الموسوعة .

- ٤٠٤ -



اتساع سلطة محمد على

حرب اليونان سنة ١٨٢٣ :

كانت تركيا في مطلع القرن التاسع عشر في منتهى الضعف ، وقد تركها موقف السلطان محمود الثاني من القضاء على الإنكشارية بدون جيش تقريباً ، وفي هذا الوقت ثارت اليونان متأثرة بالثورة الفرنسية التي نادت بمبادئ الحرية والمساواة ، ولم يجد الباب العالى وسيلة لإخماد هذه الثورة إلا محمد على .

وفرح محمد على بهذا الموقف الذى يجعله منقذاً ونبيلاً للباب العالى بعد أن كان تابعاً ، وعيّن الباب العالى محمد على واليا على جزيرة إقريطش سنة ١٨٢٣ وأمره باخמד الثورة هناك ، فسار لها ابراهيم باشا وهزم الثوار ، ثم عينه الباب العالى واليا على بلاد المورة وأمره باخضاعها ، فسار إليها ابراهيم باشا وأخضاعها بعد جهد كبير ، وبعد تصريحات واسعة ولكن روسيا وإنجلترا وفرنسا تحركت لمساعدة اليونان وقررت إرسال عمارة بحرية تحت قيادة القائد الانجليزى « كدرنجتون » وبخت هذه العمارة خليج « نوارين » حيث كانت ترسو البحرية المصرية التركية ، وحدث بعد ذلك احتكاك بين بعض الزوارق والبعض الآخر فهبت المعركة (أكتوبر سنة ١٨٢٧) وكان القائد الانجليزى يتحين الفرصة للقضاء على البحرية المصرية التي بدأت تتخذ مكانها في البحر المتوسط ، واستمرت المعركة ثلاثة ساعات دمرت فيها البحرية المصرية والتركية تماماً وقتله عدة الآف من البحارة المصريين والأتراك ، وكانت خسارة الطرف الآخر قليلة .

ولم يعد لمصر بقاء في اليونان بعد تدمير الأسطول ، وقد هدد كدرنجتون بتدمير الإسكندرية إذا لم ينسحب ابراهيم من اليونان ويتعهد بيد الأسرى .

وانسحبت مصر من اليونان ووافقت تركيا على استقلال اليونان في معاهدة أدرنة في سبتمبر سنة ١٨٢٩ ، وخسرت مصر في حرب اليونان

- ٤٠٦ -

حوالى ثلاثين ألفا من الجنود ، ونفقات باهظة ، وعماراتها البحرية الكبيرة ،
ويتمكن القول إن مصر لم تربح شيئاً .

حروب الشام والأناضول من سنة ١٨٣١ :

كانت خسارة مصر في حرب اليونان فادحة كما رأينا ، وطعم محمد على في تعويض من الباب العالى ، واتجهت أطماعه للشام فطلبها من الباب العالى نظير جزية كبيرة ، ولكن الباب العالى كان يعمل لهدم محمد على وانتقام سلطانه « لا لبنيه ومدّ دلكه » فرفض ملتزمـه .

وراح محمد على يدبـر الأمر ليـنـال ما يـريـدـهـ معـتمـداـ عـلـىـ القـوـةـ ،
وـاتـخـذـ لـذـلـكـ عـدـةـ أـسـبـابـ :

ـ أن حدود مصر الطبيعية من ناحية الشمال هي جبال طوروس
القاصـةـ بـيـنـ الـأـنـاضـولـ وـسـوـرـيـاـ .

ـ أن الاستيلاء على سوريا سيـعـدـ النـشـاطـ المـصـرىـ بـطاـقةـ بشـرـيةـ ،
وطـاقـةـ اقـتصـاديـةـ تـمـثـلـ فـيـ الأـخـشـابـ وـالـفـحـمـ وـالـنـحـاسـ وـالـحـدـيدـ :

ـ سوريا كانت كثـيرـ القـلـقـ تحتـ نـيـرـ العـشـمـانـيـيـنـ .

ـ فـتـحـ وـالـىـ عـكـاـ بـلـادـهـ لـمـهـاجـرـيـنـ مـنـ مـصـرـ ، وـلـمـ يـسـتـجـبـ لـنـداءـ مـحمدـ
عـلـىـ بـرـدـةـ .

وبـدـأـتـ الحـمـلةـ مـنـ البرـ وـهـنـ الـبـحـرـ فـيـ أـكـتوـبـرـ سـنـةـ ١٨٣١ـ فـاـحـتـلتـ
غـزـةـ بـيـافـاـ وـهـيـفـاـ دـوـنـ مـقاـوـمـةـ تـذـكـرـ ، ثـمـ حـاـصـرـتـ عـكـاـ وـأـسـقـطـتـهاـ وـسـلـمـ
قـائـدـهـاـ « عـبـدـ اللهـ بـاشـاـ الجـزارـ »ـ نـفـسـهـ فـيـ مـاـيـوـ سـنـةـ ١٨٣٢ـ ، وـدـخـلـ الـجـيـشـ
المـصـرىـ دـمـشـقـ فـيـ يـوـنـيـوـ سـنـةـ ١٨٣٢ـ وـأـنـتـصـرـ الـمـصـرـيـوـنـ اـنـتـصـارـاتـ حـاسـمةـ
عـلـىـ الـأـتـرـاكـ فـيـ مـوـقـعـةـ حـمـصـ (٩ـ يـولـيوـ)ـ وـدـخـلـوـاـ حـلـبـ (٣٦ـ يـولـيوـ)ـ ،
وـأـنـتـصـرـوـاـ فـيـ بـيـلـانـ (٣٠ـ يـولـيوـ)ـ وـتـمـ بـذـلـكـ فـتـحـ الشـامـ ، وـسـقـطـ آـلـافـ
الـأـتـرـاكـ قـتـلـ، وـجـرـحـ، وـأـسـرـىـ ، وـفـقـدـ الـأـتـرـاكـ ذـخـائـرـ هـائـةـ .

- ٤٠٧ -

وتخطى جيش مصر حدود الشام الى آسيا الصغرى فدحر جيشاً كبيراً يقوده الصدر الأعظم رشيد باشا في موقعة قونية (ديسمبر ١٨٣٢) ووقع الصرد الأعظم أسيراً، وتزغل الجيش متطلعاً الى آسيا الصغرى والعراق وتركيا الأسيوية.

معاهدة كوتاهية :

وهرعت تركيا تطلب مساعدة روسيا ودول أوروبا فاستجابت هذه للنداء، ففي هذه الاستجابة تدمير لتركيا ولمحمد على جمياً، وهو هدف أوروبا، وانتهى هذا التدخل بمعاهدة كوتاهية (مايو ١٨٣٣) التي قضت بضم سوريا وولاية أدنة الى محمد على وبأن يثبتت على كريت والنجاز بالإضافة الى مصر، على أن يجلو عن الأنضوص، وكان هذا انتصاراً لمصر.

بيد أن تركيا بدأت تقيق من كبوتها، وعقدت معاهدات مع دول أوروبا وبخاصة روسيا وإنجلترا، وكانت الأخيرة حريصة على إضعاف قوة محمد على لأنها في طريقها الى الهند، ثم إن ثورات داخلية بدأت تهب ضد إبراهيم في سوريا بتأييد تركيا وبزعامة رجال الانقطاع الذين أخذت اقطاعاتهم أو زيدت عليهم الضرائب، وقد قضى إبراهيم على أكثر هذه الثورات بتأييد حليفه بشير الشهابي، ولما أحسن محمد على بأصبح تركيا في دفع هذه الثورات بدأ يفكر في اعلن استقلاله عنها، بل أعلن ذلك في مايو سنة ١٨٣٨، وبذلت الحرب من جديد.

موقعة نصبيين واندحار جيش الترك :

وفي موقعة نصبيين (يونيو سنة ١٨٣٩) اندر جيش الترك ويقع أكثره بين قتيل وأسير، ومات بعدها السلطان محمود وتولى بعده السلطان عبد المجيد وعيّن خسرو باشا صدراً أعظم، فدفع ذلك التغيير فوزي باشا قائد الأسطول التركي والعدو اللدود لخسرو أن يلجاً بالأسطول الى مصر ويسمه محمد على.

تدخل أوروبا ومعاهدة لندن :

وقددخلت أوروبا من جديد واتفقتو دول أوروبا في معاهدة لندن (يوليو ١٨٤٠) ، على شروط أهمها أن يرد محمد على لتركيا كريت والأمكنة المقدسة وأدنة والشام وتبقى مصر وثانية وراثية له ولأسرته ، وأن تكون له عكا والجزء الجنوبي من الشام مدى حياته على أن يدفع جزية للباب العالي ويظل تابعاً له ، على أنه إذا لم يقبل ذلك في مدى عشرة أيام ، فقد ولادة الشام وأجبرته دول أوروبا على الانسحاب والقبول .

ورفض محمد على في بادئ الأمر هذه الشروط القاسية فتقدمت إنجلترا لارغامه بالحيلة وبالقوة وقدمت المساعدات للثائرين ضده ، واحتلت أهم الواقع بالشام وهددت الإسكندرية ، فأكره محمد على على الاستجابة وانسحب من الشام كله ومن جزيرة العرب ، ولم يبق له إلا مصر وراثية بضمان الدول ، وفقد الجيش المصري آلاف الرجال وهو ينسحب من الشام كما فقد كثيراً من المعدات .

نهاية محمد على

كانت السنوات الباقية من عمر محمد على مديدة ، فآثار الحرب وآثار الجهد ، وهبوط النيل ، كل ذلك خيم على الشعب ، بل أثر في أعصاب محمد على فاضطررت صحته واعتزل في أبريل سنة ١٨٤٨ ثم مات في أغسطس سنة ١٨٤٩ .

محمد على في الميزان

لا شك أن محمد على أتقى مصر مما كانت تعانيه من أمراض فتاكة قبل عهده ، فقد خلصها من فوضى المالكين ومن ظلام العثمانيين ، ووضع بذلك نهاية لفروع مديدة مرت بها مصر خلال مئتين العهود الكالحين .

ودفع محمد على الضوء الى مصر عن طريق البعثات العلمية التي أرسلها الى أوروبا وعن طريق المدارس والمعاهد العليا التي أنشأها بمصر ، وكون محمد على لصر قوة عسكرية هائلة جعلت العدو الصديق يحسب حسابها ، واهتم محمد على بالزراعة اهتمام عارف خير ، ولا تزال القنطرة التي أنشأها على النيل خير دليل على جهده .

ويمكنا أن نعرف قدر محمد على وقدر بعض خلفائه من بعده لو قارنا حالة مصر بعد الحرب العالمية الثانية بحالة سواها من الدول العربية التي ظلت تحت سلطان العثمانيين حتى الحرب العالمية الأولى ، ثم تسللها الاستعمار الأوروبي من العثمانيين حتى تحقق لها الاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية ، ويقول المطلعون ان من أسباب التسبق الذي أحرزته مصر هو استقلال محمد على بها عن العثمانيين في عهد مبكر ، وما حققه من إنجازات لم يكن لها مقابل في البلاد العربية الأخرى .

ويقول أحد الباحثين : ان محمد على هو مؤسس مصر الحديثة الذي بني جيشها الوطني ، وحرر ارادتها من التبعية التركية ، وأنشأ صناعتها ، وشيد معاهد العلم والتكنولوجيا فيها ، ونظم زراعتها ورفقاها ، وجعل منها أقوى دولـة في الشرق الأوسط ، وبنى كثيرا من جسورها الخضراء مع أوروبا (١) .

ذلك هو الجانب المضىء عن محمد على وما أكثر الجوانب المضيئة في حياته ، ولكن هناك جانب آخر ليس مضيئا فان محمد على بنشاطه وطموحه ازعج الدنيا حوله ، فتركيا لم تكن ترضى أن يكون لها تابع في مثل قوتها أو أكثر منها قوة ، ودول أوروبا لا ترضى أن تستبدل « بالرجل المريض » على ساحل الشام وعلى ضفاف النيل دولة ناهضة فتية ، وكان محمد على يزوج بأتباعه الألبانيين في حروب الوهابيين والسودان ليتخلص منهم ،

(١) أتيـث بـصـدـقـة الـاهـرـام الصـادـرـة فـي ١٥/٨/١٩٧٥ .

— ٤١٠ —

والعجب أنه لم يفطن إلى أن الدولة العلية تعامله بنفس السلاح فترجع به في حرب إثر حرب لتضعف قوته وتدمير نشاطه ، وساعدتها دول أوروبا لتحقيق نفس الهدف ليس فقط في اليونان الأوروبية المسيحية ، بل أيضاً في الشام الآسيوية المسلمة ، ولعل محمد على جهل هذه الحيلة عبر السنين الطويلة ، ونتيجة لذلك لاقى محمد على ولاقت مصر كثيراً من عن الأعداء .

ونقطة أخرى ثبّتها هنا هي أن جيلنا لا يرضي عن موقف محمد على من الحجاز ، ولا عما أنزله بالدرعية من دمار ، ولعل الإحساس العربي آنذاك لم يكن قوياً ، يحول دون هذا العدوان الذي تستذكره الآن ونستهجننه وللأسف نواجه حتى اليوم صراعاً يدور بين عربي وعربي أو بين مسلم وMuslim :

ابراهيم وعباس

كان ابراهيم جزءاً من حياة أبيه ، وقد رأيناه يقود أكثر جيوشه وينفذ خططه ويجنى ثمار انتصاراته وأعباء هزائمه ، ولم هذا ليس هناك ما تضيّفه عند الحديث عنه ، على أن فترة حكمه كانت قصيرة للغاية وكانت كلها في حياة أبيه ، فقد تولى في أبريل سنة ١٨٤٨ وتوفي في نوفمبر من العام نفسه .

وجاء بعده عباس بن طوسون بن محمد على ، (١٨٤٨ - ١٨٥٤) وقتل شخص أعماله في أنه كان يرى أن تقدم الشعب ليس من مصلحة الوالي ، فراح يعمل على العودة بهذا الشعب إلى الوراء ، فأقفل المدارس والمصانع وقضى على كل معالم النهضة ، وراح يساعد تركياً في حروبها رجاءً أن تغير نظام العرش ليصبح لأكبر أولاد الحكم بدلاً من أكبر أفراد الأسرة ، ولم ينجح في ذلك ، وقد قُتل سنة ١٨٥٤ في قصره ، ويقال إن مسألة ولادة العهد كانت السبب في هذا المصير . وبسميت « العباسية » باسمه وكانت من قبل تسمى « المریدانية » .

(سعيد ١٨٦٤ - ١٨٥٤)

هناك اصلاحات جديرة بالذكر ترتب الى سعيد ، فقد أصدر قانون الأراضي المعروف باللائحة السعيدية في أغسطس سنة ١٨٥٦ وهي تبيح ملكية الأرض ، وقد أقبل المصريون على شراء الأراضي اقبالاً عظيماً حتى أصبح بعض المصريين من كبار المالك ، وأصدر سعيد كذلك قراراً بقبول المصريين في الوظائف الكبرى ، فما أصبح ثالث مأمور المراكز منهم ، وكذلك ثالث المعاونين ، ومن أبرز الحكام المصريين الشريعي بك مدير الجبزة وسلطان بك مدير بنى سويف ، وألفي سعيد الاحتياط الزراعي ، وأتم الخط الحديدي بين الإسكندرية والقاهرة الذي بدأه عباس ، وفي نظام الجيش جنت أبناء المشايخ والعمد بعد أن كان التجنيد مقصوراً على أبناء الفلاحين (١) .

ومن أغلالات سعيد أنه أرسل حملة لمساعدة فرنسا في حربها بالعكس لا لشيء الا لصداقة شخصية بينه وبين نابليون الثالث وأكثر من منح الامتيازات للأجانب ، تلك الامتيازات التي بدأت في عهد الملك ومطلع عهد العثمانيين ، وبعد سعيد في الاستدانة ، وهو الذي منع امتياز شق قناة السويس بشروط مجحفة لمصر ، وقناة السويس سلاح – كما يقولون – ذو حدين ، فإذا استطاعت مصر حمايتها واستغلالها كانت لمصر خيراً ومركتة ، أما إذا كانت باباً نقلاً للأجانب ونجلب بسيبه استعمار مصر والسيطرة عليها لصالح الدول القوية التي تستعمل القناة ، فلا كانت القناة .

وقد أعطت مصر للقناة كل شيء : الأرض ، والماء ، والرجال ، نظير ١٥٪ من الأرباح ، ولكن سرعان ما فقدت مصر هذه الأرباح بسبب الديون التي تراكمت عليها ، وهكذا أصبحت القناة عبئاً على البلاد ما كانت تستطيع حمله ، وكانت تكليفها ١٨ مليوناً من الجنيهات دفعت مصر منها حوالي

(١) مذكريات عرابي ص ١١ .

- ٤١٢ -

١٧ مليونا ، وكان امتيازها لمدة ٩٩ سنة تنتهي سنة ١٩٦٨ ، ولكن مصر ألمتها في يونيو سنة ١٩٥٦ ، وقد تسبب عن هذا حرب وصراع (١) .

ومات سعيد في يناير سنة ١٨٦٣ .

الخديوي اسماعيل

(١٨٦٣ - ١٨٧٩)

يعتبر الخديوي اسماعيل مشكلة أمام المؤرخ المنصف ، فللرجل أعمال مجيدة حقاً مستراها مجددة وزاهية فيما بعد ، وله كذلك أخطاء صنعتها بنفسه ، أو تعسبت له وفرضت عليه فرضاً بسبب الزحف الاستعماري الذي كان عنيفاً آنذاك ، والذي اتخذ افريقياً هدفاً له في وقت كان الخديوي اسماعيل يمد شفوهه وسلطانه بإفريقيا بتجاه عظيم ، فوجد الاستعمار أن القضاء على اسماعيل خطوة ضرورية لتحقيق النصر للقوى الأوروبية الراكحة ، فرسم الاستعمار الخطط ليشوه سمعة الرجل وأصطنع قصة الديون ليزعزع أركانه .

وكان السلطان العثماني يخاف أن يتمرد اسماعيل عليه كما تمرد من قبل جده محمد على ، فلما ضيق الاستعمار الأوروبي الخناق على اسماعيل اتجه الخديوي إلى السلطان العثماني ليقوى به ضد المستعمر المسيحي ، فانتهز السلطان فرصة ضعف اسماعيل ، وبدل أن يقف معه وقف مع أعدائه وكتب وثيقة عزله التي كان يعمل لها الأوربيون .

* وبعد عهد اسماعيل أشرف أعداؤه على كتابة تاريخه فتنوسيت أعماله المجيدة وأبرزت أخطاؤه ، ولكن الحق لن يموت وسنحاول كتابة تاريخ اسماعيل بكل الدقة والاتصاف ما استطعنا لذلك سبلاً :

(١) عن تأليم قناة السويس ونتائجها اقرأ الجزء التاسع مع هذه الموسوعة .

شهادة باحث إنجليزي :

ف سنة ١٨٦٩ أى في عهد اسماعيل زار مصر وليام راسيل وكتب يصف القاهرة بقوله : أنها أكثر تحضرًا من القسطنطينية ، وهي غنية بالمناظر الشرقية والتقاليد الإسلامية ، وكان قد تم تجفيف مستنقعات الأزبكية في عهد محمد على ، ولكن اسماعيل كانت في جعبته خطط أكبر ، فقد أصبحت الأزبكية في عهده حديقة رسمية فريدة مليئة بالنماضير والأشجار والمقاهي ، وأقيم فيها ناد للمسابزة يديره فرنسي ، وقامت الفنادق حول مربع الأزبكية مثل شبرد والمدق الشروقى الكبير وغيرهما من الفنادق الحديثة ، وفتح اليونانيون والأوربيون محلاتهم في الشوارع المجاورة وملأوها بالمأكولات الأوربية وكافة وسائل الراحة التي يبحث عنها السياح قبل صعودهم في النيل ، وأقيمت دار للأويرا كتب « فيردى » خصيصا لافتتاحها أوبرا عايدة ، وهكذا أصبح في مقدور زوار الشتاء أن يتمتعوا أنفسهم في القاهرة كما لو كانوا في الريفيرا .

عهد اسماعيل وقائمة منجزاته

إذا استعرضنا عهد اسماعيل فاننا نواجه قائمة حافلة بجلال الأعمال ، ويمكننا أن نقسم هذه الأعمال ثلاثة مجموعات :

- ١ - توسيع وامتداد .
- ٢ - تطور ثقافي واجتماعي .
- ٣ - تطور سياسي وانتقال من سلطة الفرد إلى سلطة الجماعة .

و سنذكر فيما يلى القائمة الخاصة بكل مجموعة ثم نتبع ذلك ببعض الدراسات والتفاصيل عن هذا العهد :

— ٤٦ —

١ - توسيع وامتداد

- ١٨٦٦ ضم سواكن ومصوع لولاية مصر .
- ١٨٧١ رفع العلم المصرى عاى غندوكرو عاصمة مديرية خط الاستواء .
- ١٨٧٢ اعلان شفول مملكة أونبورو بالسودان فى أملاك مصر .
- ١٨٧٤ بسط الحماية المصرية على مملكة أوغندا .
- ١٨٧٤ فتح سلطنة دارفور .
- ١٨٧٥ فرمان بضم زيلع وبربرة لولاية مصر .
- ١٨٧٥ فتح هرر .
- ١٨٧٥ حملة مكيلوب باشا للصومال .

٢ - تطور ثقافى واجتماعى

- ١٨٦٣ تشكيل ديوان المدارس وإنشاء المدارس التجهيزية والابتدائية بالقاهرة والاسكندرية ، وأصدر أول لائحة للتعليم في مصر .
- ١٨٦٣ إنشاء خمس مدارس بالسودان .
- ١٨٦٣ افتتاح دار الآثار المصرية .
- ١٨٦٥ إنشاء مدرسة أركان حرب .
- ١٨٦٥ احياء جريدة الواقع المصرية وظهور الجريدة العسكرية المصرية .
- ١٨٦٥ إنشاء مدرسة المهندسخانة .
- ١٨٦٥ ضم نظام البريد الى الحكومة .
- ١٨٦٦ إنشاء مدرسة الطب البيطري .
- ١٨٦٧ نظام الاصلاح القضائى .
- ١٨٦٧ إنشاء مدرسة الادارة والقانون (الحقوق) .
- ١٨٦٧ وقف جفلق الوادى لنشر التعليم .

- ٤١٥ -

- ١٨٦٨ افتتاح مدرسة العمليات ببولا克 والمدرسة البحرية بالاسكندرية .
١٨٦٩ انشاء مدرسة المساحة والمحاسبة .
١٨٧٠ تكليف صموئيل بيكر بمقاومة الفخاسة في السودان وابرام معاهدة مع انجاترا في هذا الشأن بعد ذلك .
١٨٧١ انشاء المدرسة المصرية بباريس .
١٨٧٢ « دار الأوبرا المصرية .
١٨٧٣ « مدرسة اللسان القديم « اللغة الهيروغليفية » .
١٨٧٤ « دار الآثار العربية .
١٨٧٥ « دار الكتب .
١٨٧٦ الأمر بجعل اللغة العربية اللغة الرسمية بالدواوين .
١٨٧٧ انشاء مدرج المحاضرات العامة بتدريب الجماميز .
١٨٧٨ « مدرسة دار العلوم .
١٨٧٩ انشاء مدرسة السعوفية ثم مدرسة القربيبة للبنات .
١٨٨٠ قانون داخلية المدارس المصرية ولائحة دار المعلمين .
١٨٨١ افتتاح مدرسة العميان والخرسون .
١٨٨٢ تأسيس الجمعية الجغرافية .
١٨٨٣ انشاء مدرسة الألسن .

٣ - تطور سياسي وانتقال من سلطة الفرد الى سلطة الجماعة

- ١٨٦٦ انشاء مجلس شورى النواب وصدور لائحته وافتتاحه .
١٨٧٨ انشاء مجلس النظار .
١٨٧٩ توسيع اختصاصات مجلس شورى النواب .
١٩٠٠ ظهور الصحافة وتتطورها ، وظهور الرأي العام وتهيئة .

- ٤٦ -

والآن نتجه الى دراسة فيها شيء من التفصيل عما حققه عهد اسماعيل مصر ، وبعد ذلك نتدارس عيوب اسماعيل وما ارتبط بها من غفلة واهمال لنسططيع أن يكون حكمنا منصفا أو أقرب الى الانصاف :

شخصية مصر الدولية :

كان عهد الولاية العثمانيين عهد تخلف واضطراب وظلم ، وكان الوالي — كما وصفناه من قبل — لا يهتم الا بالاستيلاء على ما تصل اليه يده من الأموال ليستعيد ما دفعه من رشاوى وليجعل حظه من الشراء عظيما قبل أن يبتعد عن الحكم وعن البلاد ، وابتداء من عهد محمد على تخلصت مصر من هذا البلاء ، فلم يعد ولاية مصر يطلبون لها من الخارج ، ويدفعون الرشا لينالوا الولاية ، بل استقر الحكم لحمد على وأولاده ، صحيح أن محمد على ينحدر من أرض غير مصرية ، ولكنه لم يعد له وطن غير مصر ، وارتبط مجده بامجاد مصر ، حتى أنَّ مَنْ كان من هذه الأسرة يموت خارج البلاد كانت وصيته تحوى في أهم بنودها أن يوارى جثمانه في تراب مصر ، وصحيح أن آخر هلوکهم هرثَب الى بنوته اوريا كثيرا من الأموال ، ولكن كثيرين من الذين تولوا السلطة بعد هذه الأسرة ارتكبوا نفس الخيانة .

وعلى كل حال فقد ضمنت المهدود والمواثيق التي أشرنا لها عند الحديث عن محمد على أن تكون مصر له ولأولاده من بعده ، ولم يبن محمد على هذه الخطوة الا بحد السيف بعد أن أوقع المهزائم المتكررة بجيوش العثمانيين ، وبعد أن استولى على أسطولهم ووقف على أبواب عاصمتهم ، وكان معنى هذا أنه يقف منهم موقف اللد للند ، وليس تابعا كما كان غيره من الولاية .

وبناء على ذلك ظهرت شخصية مصر وأصبح لها كيان يكاد يكون مستقلا . ولم تعد تربطها بالعثمانيين الا روابط هزيلة لا تهز الاستقلال ولا تتال منه .

— ٤١٧ —

وفي عهد اسماعيل حصلت مصر على مزيد من النفوذ الذى قوّى مركزها الدولى وأثبتت لها كياناً أقرب الى الاستقلال عن العثمانيين ، فقد حصل على فرمان سنة ١٨٦٦ يجعل وراثة العرش لأكبر أبنائه من بعده ثم لأكبر أبناء هذا الابن وهكذا بدلاً من أكبر أبناء أسرة محمد على كما كان ينص فرمان سنة ١٨٤١ وقد ضمن هذا مزيداً من الاستقرار من جانب كما حدد من يقول له السلطان من جانب آخر دون تدخل السلطان العثمانى .

وفي سنة ١٨٦٧ حصل اسماعيل على فرمان يخوله هو وخلفاؤه لقب خديوى بدلاً من الوالى أو البائسا مع رفعه الى مرتبة الصدر الأعظم العثمانى ، وبموجب هذا الفرمان أصبح للخديوى الاستقلال في الادارة والتشريع والشئون المالية ، ومنح الحق في عقد الاتفاقيات الخاصة بالبريد والجمارك ومرور البضائع والركاب في داخل البلاد وشئون الضبط للجالبيات الأجنبية .

وفي سنة ١٨٧٣ استصدر الخديوى « الفرمان الكبير » الذى جمع الزايا التى حصلت عليها مصر في الفرمانات السابقة منذ عهد محمد على ، وقد نص في هذا الفرمان على حق مصر في عقد المعاهدات التجارية ، وحقها في زيادة الجيش الى أي عدد ، وبناء السفن الحربية (١) .

وهكذا نجد أن اسماعيل عمل على تحقيق غرضين كبيرين .

أولهما : تحرير مصر من الأغلال التى كان ينوء بها استقلال البلاد ، ولم يكتفى اسماعيل بما حققه في مجال الاستقلال عن تركيا ، بل أعاد النظر في الامتيازات التي كان سعيد قد منحها لشركة قناة السويس ، كما خلص مصر من مساوى التشريع القنصلى ، وفاوضت مصر دول العالم مباشرة دون وساطة تركيا .

(١) من بحث الدكتور محمد حامد فهمي نشر في كتاب عن « اسماعيل » .

ثانيهما : رفع اسم مصر بين الدول ، باشتراكها في كثير من وجوه النشاط الدولي ، كالاشتراك في حركة تحرير الرقيق ، واقامة قسم خاص بمصر في معرض عالمي عقد بباريس سنة ١٨٦٧ ، واشتراك مصر سنة ١٨٧٤ مع الدول المؤسسة لمؤتمر البريد الدولي وعدها ٢٢ دولة (١) .

توسيع وامتداد :

يقولون عن إسماعيل انه أراد أن يجعل مصر قطعة من أوربا وهذا صحيح ، ولكن إسماعيل لم ينس قط أن مصر جزء من إفريقيا ، ومن هنا اتجه إسماعيل في فتوحاته إلى إفريقيا وامتد في هذا المجال امتداداً واسعاً فحقق الحلم الذي كان يراود جده « محمد على » وتقدم بفتحاته بوادي النيل حتى ضم منابعه العليا وارتقت رايات مصر على كل بقعة في شاطئيه .

ومما يروى عن إسماعيل أنه وضع أخشاب السفن بعد اعدادها على ظهور الإبل ، وسارت الإبل بها حتى تخطت منطقة التسلالات ثم تم تركيب السفن لتسيير في النيل سنة ١٨٦٩ وبذلك فتح غندوكرو سنة ١٨٧١ وسعيت الإسماعيلية ورفعت عليها الراية المصرية .

وتتقدم الجيش المصري إلى « ما سندى » فعاذه ملكها « كابريقة » على اطاعة أمير مصر ، ثم نقض عهده وحارب الخامسة المصرية فهزمه وأقامت على عرشه منافسه « ريونجا » فبقى هذا على عهد الطاعة بقية حياته .

وبلغت أنباء الفتح ملك أوغندا فأرسل الوفود بالهدايا إلى قائد جيش مصر ، معلنًا ولاءه لصاحب الأريكة المصرية ، معتبرًا بسلطانه منجري النيل إلى الشاطئ الشرقي من إفريقيا .

(١) من بحث لأستاذ محمد رفعت عن مكانة مصر الدولية بالكتاب السابق .

وفي أثناء ذلك كانت الحملات المصرية تقدم في إقليم البحيرات فماطلقت على إحداها اسم « بحرية ابراهيم » ونزلت بسفينة بخارية في بحيرة « البرت » (مكتبة، هناك) بعد أن حملت أجزاءً منها من الخرطوم وكانت أول سفينة شهدتها الناس في أواسط القارة الإفريقية ، وكان للحمل المصري (البرت) على ساريتها شأن عظيم مقترب في نفوس الأهلين بشأن البلاد التي تصنع هذه الأعجوبة .

وقد أبلغت وزارة الهرية المصرية دول أوروبا باسم إقليم البحيرات إلى مصر ، ونشرت النبأ في الوقائع المصرية سنة ١٨٧٦ .

وكانت سلطنة دارفور من البلاد التي تذكر في فرمانات التولية التي تصدر من سلطان الدولة العثمانية إلى ولاة الديار المصرية ، ولكنها كانت في الواقع بمعزل عن مصر وعن تركيا مما في الادارة والشئون العسكرية ، ففتحها اسماعيل باشا أيوب بمساعدة الزبير باشا أواخر سنة ١٨٧٤ .

وفي الوقت الذي كانت حملات اسماعيل توالي الكشف والارتياح بأقليم البحيرات كانت عينه لا تغفل عن الشخوم الشرقية بين مجرى النيل والبحر الأحمر ، فاستأجر سواكن ومصوع وزيلع وبربرة من الدولة العثمانية ثم تملك هذه البقاع ، وأرسل إلى هرر سنة ١٨٧٥ حملة بقيادة محمد رعوف باشا تمكن من فتحها بغير كبير عناء .

وسيُشير في تلك السنة حملة بحرية قوية لإتمام فتح الصومال فقدت فيه تقدما سريعا ، ثم عاقدا عن المضى في فتحه إلى النهاية قيام مشكلة سياسية بين الخديوى وبريطانيا حول مناطق النفوذ على المحيط الهندى ، فاكتفى بما وصل إليه ، وتقاهم الفريقيان على الاعتراف بنفوذ مصر في شمال الصومال .

(١) سطور من مقال لـ الاستاذ عباس محمود العقاد بالكتاب السابق .

وقد تفرد عصر اسماعيل في التاريخ القديم والحديث بمزية لا يضارعه فيها عهد من المهد من قيام الدولة المصرية على أيدي الفراعنة إلى اليوم ، فقد مضت على قيام هذه الدول المصرية آلاف السنين ، فلم يتوحد مجرى النيل نقط خلال تلك الأحقاب الطوال في ظل راية واحدة إلا في عهد واحد هو عهد اسماعيل ، وكفى بذلك تشييعها باهرا يذكر لصاحب الجيد في صحائف الفتوح (١) .

وقد ادخلت مصر في هذه البقاع ألوانا من العمran والمدنية ، حتى كان الزحف المصرى يوصف بأنه زحف النور والحضارة على تلك البقاع ، فقد فتحت مصر المدارس والمستشفيات ، ومهدت الطرق ونظمت التجارة ونشرت الأمن والقوانين وقضت على تجارة الرقيق ، وانطلق علماء الأزهر الذين كانوا يرافقون الحملات يدعون للإسلام وينشرون مبادئه وأخلاقه ، حتى كان أقبال الناس على التبعية لمصر شرعا وكسرأ لحائط الجمود بين المدنية والخلف .

وسنرى فيما بعد أثر هذه الانتصارات في اثارة أوروبا ضد اسماعيل وضد مصر .

خيانة أمريكية لمصر :

وقد نزلت بمصر هزيمة وحيدة في افريقيا ، ولم تكن هذه الهزيمة بسبب ضعف وإنما بسبب خيانة ؛ ففي أثناء الحرب بين الأقباط ومصر سنة ١٨٧٥ - ١٨٧٦ ارتكب أركان الحرب الأمريكيون الذين كانوا موظفين في الجيش المصري خيانة عظمى وبخاصمة الجنرال (لورنج) ، الذي وضع اسماعيل ثقته فيه ، ولكنه كان ينقل أسرار الجيش المصري إلى الأقباط بواسطة أحد المبشرين الفرنسيين ، وعندما بدأت المعركة ، أعلن خيانته هو ومن معه من الضباط الأجانب ، فلخلوا الطريق للعدو ، ومنعوا الجنود

(١) من مقال للأستاذ الدكتور عبد الرزاق المستهورى في الكتاب السابق .

— ٤٢١ —

المصريين من أداء واجبهم ، وتقهقر هؤلاء والمعركة تدور ، وكان الخونة يلبسون شارة اتفق عليها حتى لا يمسهم الأحباش بسوء ، وقد ذكر الزعيم أحمد عرابي ألواناً من المخازى والخيانت عن هذا الموضوع بكثير من التفصيل (١) .

تطور ثقافي واجتماعي وأصلاحات داخلية :

شهدت مصر في عهد اسماعيل تطوراً عظيماً في مختلف الشئون بالداخل واتجهت يد الاصلاحات إلى شتى المرافق ، وقد أوجز القنصل الأمريكي فارمن في تقريره الرسمي المؤرخ في ٢٧ يونيو ١٨٧٩ أعمال اسماعيل ونتائجها بقوله : « ومهما يكثُر القول ضد اسماعيل يبقى شيء واحد لا جدال فيه هو أن مصر تقدمت في أعوام حكمه الستة عشرة في جميع نواحي المدينة الحديثة أكثر مما تقدمت في مئات السنين التي سبقت حكمه ، ومصر مدينة بهذا التقدم كله تقريباً لاسماعيل » .

وستورد فيما يلى موجزاً سريعاً لما تحقق لمصر في ذلك العهد من متغيرات ثقافية واجتماعية معتمدين على الحقائق الملموسة وعلى الأرقام ، حتى نظل في نطاق الإنصاف والدقة .

إلغاء السخرة :

وأول ما نذكره أن اسماعيل عنى عناية كبيرة بالمصريين ، فقرر إلغاء السخرة التي كان سعيد قد التزم بها ، إذ كان هذا قد القائم في عقده مع شركة قناة السويس بتقديم أعداد وفيرة من المصريين ليعملوا بطريق السخرة في أعمال الحفر ، ولكن اسماعيل توقف عن تنفيذ هذا المنكر ، وشب خلاف بين اسماعيل وبين الشركة من أجل هذا الموضوع ، وانتهى هذا الاختلاف بالاحتكام إلى نابليون الثالث إمبراطور فرنسا

(١) مذكرات عرابي : ج ٢٥ - ٢٨ .

الذى حكم بأن تدفع مصر لشركة القناة ثلاثة ملايين ومائة وستين ألفاً من الجنيهات ليعفى المصريون من هذه السخرة ، ودفعها اسماعيل .

نصف الحكم من المصريين :

ومن عناية اسماعيل بالمصريين أنه جعل نصف الحكم منهم ، بعد أن كان المصريون لا يشغلون إلا ثلث المناصب في عهد سعيد كما ذكرنا من قبل ، وعندما ظهر مجلس النظار في عهد اسماعيل كان أكثر النظار من المصريين .

المدارس والمعاهد والكلليات :

فإذا جئنا إلى التعليم وجءنا أن اسماعيل أعطى التعليم جهداً واسعاً ، وأنفق عليه بسخاء ، وقد عُثِّيَ عنْيَةً كبيرة بالتعليم في مختلف مراحله ، ونالت البتة عناية واسعة من اسماعيل ، فأنشأ لها مدرسة السيوفية ومدرسة التربيبة اللتين اندمجتا فيما بعد في المدرسة السنية .

ومما ينسب إلى اسماعيل أنه أعاد ديوان المدارس الذي يعتبر نواةً لوزارة التربية والتعليم ، وأصدر لائحة التعليم الابتدائي في المدن والقرى فقد أنشأ في عهد اسماعيل ٤٨١٧ مدرسة وكان عدد المدارس قبله ١٨٥ فقط وربط بين الكاتيب وبين المدارس الابتدائية وأكثر من المدارس التجهيزية والفنية والعالية ، فأقام بذلك نظاماً قومياً للتعليم المصري .

وكان نشاط اسماعيل في التعليم الفنى والجوى نشاطاً مزدوجاً ، أعاد من جانب المدارس العالية والفنية التي كان محمد على قد أنشأها ثم أهملت من بعده مثل : مدرسة الطب ، ومدرسة الهند سخانة ، ومدرسة العفلق ، وأنشأ من جانب آخر طائفة جديدة من المدارس العالية

كمدرسة الإدارة التي أصبحت فيما بعد مدرسة الحقوق ، ومدرسة الألسن التي تحولت إلى مدرسة المعلمين العليا ، ودار العلوم وستتكلم عنها فيما بعد ، هذا بالاضافة إلى مدارس حربية وبحرية كثيرة .

وعنى اسماعيل بالبعث ، فاختار مجموعة من الشبان أوفدهم إلى فرنسا وإنجلترا وأيطاليا وغيرها لدراسة الطب والهندسة والقانون والفنون الجميلة ، وبلغ عدد أعضاء البعث في عهده مائتين شخص . كما نال الأزهر عنية اسماعيل واهتمامه .

المخطوطات والفنون :

وعنى اسماعيل بجمع المخطوطات النفيسة من منازل العلماء ، ومن المساجد والأضرحة ، وأنشأ لذلك دار الكتب التي أودعها هذه المخطوطات كما أودعها عشرات الآلاف من الكتب في الفنون والعلوم المختلفة .

وعنى اسماعيل بالآثار المصرية ، وأنشأ لذلك : دار الآثار وأمر بتشييد دار الأوبرا ، واستخدم في تجميلها عدداً كبيراً من المصورين والفنانين والرسامين (١) .

و قبل أن نترك نشاط اسماعيل في مجال التعليم إلى سواه من المجالات الأخرى ينبغي أن نتكلم كلمة عن إحدى منشآت اسماعيل العملاقة ، عن « دار العلوم » .

دار العلوم :

أنشأ الحاكم بأمر الله دار الحكمة سنة ٣٩٥ هـ بمصر بعد أن قضى الصراع ببغداد على بيت الحكمة الذي أنشأه هرون الرشيد أو ابنه المؤمن ، وجمع الحاكم في دار الحكمة خيرة العلماء من جميع المجالات للبحث والدراسة والتأليف ، وكان إنشاؤها بجانب الأزهر الذي كان آنذاك

(١) من مقال للأستاذ الدكتور عبد الرازق السنورى في الكتاب السابق .

- ٤٢٤ -

منهمكا في الدراسة المذهبية الشيعية لتكون دار الحكمة منطلقة من قيود الاتجاهات المذهبية .

ويبدو لي أن التاريخ أعاد نفسه بصورة أخرى ، ففي عهد اسماعيل كان الأزهر مثلاً بالقديم متمسكاً بالحواشي والألفاظ على ما شرحتنا في مكان آخر (١) ، فانتشا على مبارك « دار العلوم » لتدرس بها الدراسات المختلفة منطلقة من كل قيد ، وأستعار لها كلمة « دار » من « دار الحكمة » تجديداً لماضي هذه الدار التي كانت جزءاً من نهضة مصر الثقافية .

وكانت مصر تابعة – ولو من الناحية الاسمية – لتركيا خلال عهد الخديوي اسماعيل ، وكانت جامعة الأستانة تسمى « دار الفنون » ومن ثم سميت كثيير من المنشآت العلمية والفنية في عهد اسماعيل بدار ٠٠٠٠٠ فظهرت دار العلوم ودار الكتب ودار الآثار العربية ودار الأوبرا ٠٠٠٠٠ وكان المضاف إليه يحدد طبيعة المؤسسة ؛ فدار الكتب مخصصة للكتب ، ودار الآثار مخصصة للآثار وهكذا ، وكانت دار العلوم مخصصة للدراسات العلمية والشرعية والعربية ، فقد كان يدرس بها الحساب والهندسة والكيمياء والطبيعة والعلوم الإسلامية من فقهه وتاريخ وحضارة وفلسفة ، والعلوم العربية من نحو وصرف وأدب ، فلا عجب أن سميت « دار العلوم » .

هل كانت هذه التسمية استمرار لدار الحكمة ؟ أو تقليداً واقتباساً من « دار الفنون » بالأستانة ؟ أو كانت جمعاً بين الاثنين ؟ قد يكون هذا أو ذاك .

وارتبطت « دار العلوم » في أول مراحلها بدار الكتب التي أشرنا إليها من قبل ، ففي نفس البناء بجوار الكتب والمخطوطات خصصت قاعة

(١) انظر بصل « دراستي في الأزهر » بكتابي « المجتمع الإسلامي » .

للمحاضرات في الأدب واللغة والهندسة وغيرها ، وكان يقوم بيلقاء هذه المحاضرات كبار الأساتذة المصريين والأجانب في العلوم الإسلامية والعربية وفي الهندسة وعلوم الطبيعة والكيمياء ، ومن هؤلاء الشيخ حسين المرصفى للأدب ، والشيخ عبد الرحمن البحراوى للفقه ، وأسماعيل الفلكى للفلك ، ومن الأساتذة الأجانب هنرى بروكاش للتاريخ العام ، ويراقس باشا للهندسة ، ومسيو بكتيت للطبيعة ، وكانت هذه المحاضرات تلقى لقبال رجل وزارة المعارف ، وكبار الموظفين في السكك الحديدية والمساحة وبعض المتفوقين من طلاب الأزهر والمدارس العليا^(١) .

وقد أثبتت هذه المحاولة نجاحا ملحوظا ، وهذا شجع على مبارك باشا أن يجعل هذه الدراسة مستقلة عن دار الكتب ، فاستصدر مرسوما في يونيو سنة ١٨٧١ بإنشاء مدرسة « دار العلوم » واختير للتدريس بها كبار الأساتذة في الدراسات الإسلامية والعربية وعلوم الطبيعة والكيمياء والهندسة والحساب ، وأصبح التخرجون منها يعلمون هذه المواد في مدارس الدولة .

دار العلوم والاحتلال البريطاني :

هناك وثيقة خطيرة يتحتم علينا أن نشير إليها هنا ، وهي تبين رأى الاحتلال في هذه الدار ، ولهذه الوثيقة قصة ثبدأها من أولها :

عقب الاحتلال البريطاني كان هناك مستشار إنجليزى بكل وزارة من الوزارات ، وكانت السلطة الحقيقة مركزة في يد هؤلاء المستشارين ، وكان على كل مستشار أن يقدم للمعتمد البريطاني تقريراً موجزاً عن الأمور المهمة في الوزارة التي يعمل بها ، وكان هؤلاء المستشارون يتداولون هذه التقارير لتوحيد سياسة الاستعمار في كل الوزارات ، وكانت هذه

(١) انظر تقويم دار العلوم الذي وضعه المرحوم الاستاذ محمد عبد الجواد .

التقارير سرية للغاية ، لأن هدفها خدمة الاستعمار مهما كان أثر ذلك على
البلاد والسكان .

ولننتقل الآن إلى نقطة أخرى في طريقنا لهذه الوثيقة فقد كان مدير
مكتبة وزارة المالية صهراً للأستاذ الدكتور مهدى علام ، وحدث أن زار
الدكتور مهدى علام صهراً بالمكتبة ، ومن الطبيعي أن حب الاستطلاع دفع
الدكتور مهدى للتعرف على بعض ما في المكتبة من كتب ووثائق ، فراح
يطلع هنا ويقرأ هناك .

ويبدو أن مستشار وزارة المالية أخلى منصبه فجأة ، فensi — وهو
يجمع أوراقه — تقرير دنلوب المستشار الانجليزي لوزارة التربية والتعليم
إلى كروم ممثل بريطانيا أو المعتمد البريطاني وكان تقرير دنلوب عن
التعليم في مصر ، ووقع هذا التقرير في يد الدكتور مهدى علام فرأى فيه
حديثاً عن دار العلوم ، فأغراه هذا أن يقرأ بدقة ، لأن الدكتور مهدى
ابن بار من أبناء دار العلوم ويهمه أن يعرف رأي الانجليز السريّ في
هذه الدار .

وخلاصة هذا التقرير التي وعاها ذهن الأستاذ الدكتور مهدى علام
وحفظها من طول ما رواها هي :

إن من أخطر الأمكنة على الاحتلال البريطاني في مصر مدرسة
«دار العلوم» لأن طلبتها يقومون بتدريس جميع المواد في مدارس الدولة
ما عدا اللغة الانجليزية ، وهم يتصلون بشباب الأمة ، ولهم عليهم تأثير
واسع عن طريق الثقافة الدينية والمدنية ، فهم بهذا أشبه ببورة نار
متقددة ضد الاحتلال ، وينبغي التخلص من هذه الدار بأى طريق
من الطرق .

ويربط الأستاذ الدكتور مهدى علام ومعاصروه بين هذه الوثيقة وبين
ألوان العناء التي شهدوها في هذه الدار وهم طلاب بها .

فيبدو أن تقل الدار لم يكن عملا سهلا ، وأن الاحتلال كان يتحاشى المواجهة الصريحة ، ومن أجل هذا اتجه الاحتلال إلى محاربة هذه الدار بطرق أخرى حتى يقضى على نفوذها أو يجعله قليلا للغاية ، وكان من آثار هذا الاتجاه ما يلى :

١ - لم يكن يجوز للطالب أن يرسب في دار العلوم ، فإذا رسب فُصل ، ويجوز له أن يتقدم من الخارج مرة واحدة ، وطبعي أن هذا أخلف الطلاب فتحاشى الكثيرون الالتحاق بها .

٣ - كانت الدراسة تبدأ في يناير وتنتهي في ديسمبر ، وكان يقتصر بهذا إبعاد طلاب هذه الدار عن الجماهير ، ويقصد به كذلك مضايقتهم حتى لا يقبل الآخرون على الالتحاق بها .

٣ - كان مرتب المخرج في دار العلوم ثمانية جنيهات ، ومرتب المخرجين في المدارس المناظرة لها اثنى عشر جنيهًا .

* * *

ويتضح من هذه الوثيقة مقدار العناء الذي احتملته هذه الدار في عهد الاحتلال .

وعانت دار العلوم ألواناً أخرى من الصراع بينها وبين الأزهر وبينها وبين أقسام اللغة العربية بكليات الآداب ، ولكنها خرجت من هذه المعرك سالمة وهي تحمل الوسام الذي أضفاه عليها الإمام محمد عبده عندما قال قوله الشهيرة :

« تموت اللغة العربية في كل مكان وتهيا في دار العلوم » .

ودار العلوم منذ سنة ١٩٤٦ كلية من كليات جامعة القاهرة ويتزايد طلبها وطلباتها بشكل ملحوظ ، والإقبال عليها واضح من كل الدول العربية والإسلامية ففيتحقق بها عدد كبير من هذه الدول ويقوم المخرجون

فيها والمتخرجات بتدريس اللغة العربية والدراسات الإسلامية في كل مكان بالعالم العربي والإسلامي والغربي ، ولأسانتها دور كبير في خدمة الدراسات العربية والإسلامية ، بما نشروه من كتب في كل مجال ، وبمحاضراتهم العامة والخاصة بمصر وبربوع العالم وجامعاته ، وبمقالاتهم التي تغمر مجالات العالم وصحافته في مختلف الدراسات الإسلامية والعربية ، وبما يذيعونه على الناس في أجهزة الراديو والتلفزيون .

وهناك كلمةأخيرة حول تسمية هذه الكلية ، فإنها حين انضمت للجامعة اتجهت بعض الأنظار للتخلص من الاسم القديم حتى لا تتعدد الإضافات ، وحتى تكون تسميتها الجديدة مطابقة لما يدرس بها من مواد ، فاقتصرت لها اسم « كلية الدراسات الإسلامية والعربية » أو نحو ذلك ، ولكن أكثر المفكرين تمسكوا باسمها القديم ، فقد رأوا فيه تراثاً ينبغي الحفاظ عليه ، وقد أصبح له مدلول في العالم كله هو رعاية الدراسات الإسلامية والعربية تراثاً وتطويراً ، وقد أطلق اسم « دار العلوم » على ١٤ معهداً من معاهد العالم تقوم بهذه المهمة في نيجيريا والمهد وماليزيا وغيرها من الدول ، واستلزم ذلك أن تحافظ « دار العلوم » على اسمها ، وأن تسبق هذه التسمية بكلمة « كلية » التي تسبق أسماء كل كليات الجامعة .

خريجو دار العلوم في مختلف المناصب :

بقي أن نقول إن الاحصائية الرسمية التي صدرت سنة ١٩١١ في كتاب « التعليم في مصر » توضح أن المتخرجين في دار العلوم منذ عهدها المبكر كانوا يشغلون مناصب متعددة في « نظارة المعارف » كما كانوا قضاة ومستشارين ورؤساء محاكم في « نظارة الحقانية » واشتغل بعضهم بنظارة الخارجية ونظارة الداخلية والخاصة الخديوية ، وبعضهم اشتغل معلماً بجامعة كمبردج وأكسفورد بإنجلترا واشتغل بعضهم بالمحاماة والأعمال الحرة ولا يزال المتخرجون في دار العلوم يعملون في مختلف

- ٤٢٩ -

الأعمال وبخاصة في الإذاعة والتليفزيون والصحافة بجانب مناصب وزارة التربية والتعليم .

والباخرة تسير باسم الله مجراتها ومرسالها .

* * *

اصلاحات اسماعيل القضائية :

وينسب إلى اسماعيل حركة الإصلاح القضائي التي أزالت المحاكم القنصلية وقللت من مثاب الامتيازات الأجنبية ، وكان هذا الإصلاح خطوة في سبيل إنشاء المحاكم الأهلية ، والقضاء على الامتيازات نهائياً .

أعماله الهندسية والزراعية :

أما الأعمال الهندسية التي تنسب إلى اسماعيل ، فهي جديرة بالتقدير والإعجاب ، فقد حفر اسماعيل شبكة من الترع عددها ١١٢ ترعة ، وبلغ طول هذه الترعة ١٣٠٠٠ كم ، وأعظم الترعة ترعة الابراهيمية وهي من أعظم الترعة في العالم كله ، وبلغ طولها ٢٦٨ كيلو متراً ، ومتوسط عرضها ١١٤ متراً وهي تبدأ من أسيوط وتنتهي عند أشمنت ب مديرية بنى سويف ، فهي تغذى المحافظات الثلاث أسيوط والمنيا وبنى سويف وبفضلها تحول نظام الري في هذه المحافظات من رى الحياض إلى الري الصيفي ، وتبلغ مساحة الأرض التي انتفعت بهذه الترعة ٨٥٠٠٠ فدان وهناك ترعة ثانية استمدت اسمها من اسمه هي ترعة الاسماعيلية التي تطلق الماء من النيل عند شبرا ، وتنتهي إلى الاسماعيلية ، ثم تتفرع فرعين أحدهما ينحدر إلى السويس والآخر يصعد إلى بورسعيد ، وقد أخذ منها فرع عَبَرَ إلى سيناء ، وقد حملت هذه الترعة عناصر الحياة إلى محافظتي القليوبية والشرقية ومنطقة القناة ، وبجانب هاتين الترعتين الكبيرتين أنشأ اسماعيل عدداً من الترع

التي تختلف أحواها وأعماقها — كما اتجه إلى الترعرع والرياحانات القديمة فعمقها وأعاد حشر ما انطمس منها ، وقد نضم اسماعيل بذلك ما يقرب من مليوني فدان للأراضي المزرعة .

وأنشأ اسماعيل مجموعة من القنطر والجسور ، ومن أشهر الجسور التي أنشأها كورني قصر النيل ، والكورني المغربي بكورني البحر الأحمر ، وقد ربط بهذين الكورنيين بين القاهرة والجيزة ، ووضع اسماعيل هيئات السويفين والاسكندرية وأسد بهمـا المـارات الـازمة لـزـاد السـفن ، ومـهـد اسماعيل آلـاف الأمـيـال من الـطـرق ، ومن هـذـه الـطـرق طـريق الـأـهـرام ، وـأـنـشـأـ اسمـاعـيلـ شبـكـةـ وـاسـعـةـ منـ السـكـكـ الحـديـديةـ رـبـطـتـ بينـ المـدنـ والـقـرـىـ بـالـدـاخـلـ كـمـاـ رـبـطـتـ بـيـنـ مـصـرـ وـوـادـيـ حـلـفـاـ وـشـنـدـىـ وـمـصـوـعـ ، وـمـدـدـ اسمـاعـيلـ فـيـ مـصـرـ وـالـسـوـدـانـ شبـكـةـ مـنـ الـخـطـوـطـ التـلـفـارـافـيـةـ ، وـأـنـشـأـ عـدـدـ مـكـاتـبـ لـلـلـفـارـافـ ، وـكـانـ الـبـرـيدـ فـيـ مـصـرـ يـتـبـعـ الـجـالـيـاتـ الـأـوـرـبـيـةـ ، وـلـكـنـ اسمـاعـيلـ اـشـتـرـىـ اـدـارـاتـ الـبـرـيدـ ، وـأـنـشـأـ مـصـلـحةـ مـصـرـيـةـ لـلـبـرـيدـ سـنةـ ١٨٦٥ـ ، وـأـنـشـأـ مـكـاتـبـ لـهـاـ بـلـغـ تـعـدـادـهـاـ ٢١٠ـ مـكـتبـاـ .

واهتم اسماعيل اهتماماً كبيراً بردم البرك والمستنقعات ، ومد أنابيب المياه العذبة ، واهتم بالمدن اهتماماً كبيراً فخط بها الشوارع ، وأنشأ المياطين والجسور ، وأقام المتحف والمسارح ، وشيد المساجد والمدارس ، وأنار طرقاتها بنغاز الاستباح ، وفي القاهرة والاسكندرية مجموعة كبيرة من الشوارع والقصور ارتبطت بحركة الإصلاح التي قام بها اسماعيل . ويسبب جزود اسماعيل في القاهرة والاسكندرية لم يتحقق الأجانب أن يقيموا لهم أحياء خاصة بهم كما فعلوا في أكثر عواصم آسيا وإفريقيـةـ (١)ـ .

وعنى اسماعيل بأن يخاف بالصناعات خطوات ثابتة للأمام فطور

(١) من مقال للمهندس حسين سرى في الكتاب السلابق .

- ٤٣١ -

ما كان موجوداً بمصر وأدخل للبلاد صناعات جديدة ، فطور الطباعة ، وأنشأ صناعة الطوب والبلاط والورق والنسيج والسكر .

من سلطة الفرد إلى سلطة الجماعة

ـ من الحق أن نقرر أن العهد كان غالباً عهداً سلطة الفرد في العالم ، وأن الحكم الاستبدادي كان طابع الحياة في الامبراطورية العثمانية التي كانت مصر تمثل جزءاً منها ، ومن الحق أن نقرر كذلك أن قليلين جداً من الحكماء في التاريخ منْ تنازلوا عن سلطاتهم الاستبدادية ، ولدوا إلى الشورى . وقد شهدت مصر في عهد محمد على وعهد اسماعيل خطوة في الطريق إلى الشورى ، وهي خطوة قصيرة المدى ولكنها فتحت الطريق للسير إلى الأمام .

وقد جاء محمد على باختيار الشعب ، وقد حاول الانفراد بالحكم عليهم ولكنه على كل حال لم يكن كباقي الولاة العثمانيين ، لأنَّه أحسن أن مصر بلاده ، وأن شعبها هو الذي اختاره ، وأن سلطات العثمانيين لعزله لم يعد لها وجود ، ومن هنا لرأي أن يوثق صلة بالمصريين الذين أصبحوا عدته وعونه ، فأنشأ المجلس المخصوص ومجلس شورى القوانين ، ولكن لم يكن لهذه سلطان ذو بال ، وسرعان ما ذوت ، بيد أن هذا الاتجاه ظل ينتظر من يعيد له نبض الحياة ، حتى جاء اسماعيل فخطا خطوات إلى الأمام في هذا السبيل ويسنمث فيما يلى إلمامة سريعة بالاتجاهات التي نقلت الكثير من سلطة الفرد إلى سلطة الجماعة .

أولاً : مجلس الشورى :

كان محمد على - كما ذكرنا من قبل - قد أنشأ مجلساً يضم أولى الأمر في البلاد وذوى الرأى فيها ، وسماه مجلس الأعيان ، وكان مجلس الأعيان ينعقد بالقلعة ويستشيره محمد على في الشئون العامة ، وتعطل هذا المجلس في أيام عباس وسعيد ، فلما جاء اسماعيل تتقدم في هذا المجال

- ٤٣٣ -

خطوة مهمة ، إذ أصدر في أكتوبر سنة ١٨٦٦ أمراً بتأسيس مجلس شورى النواب ، وانعقد المجلس في أول مرة في ٢٥ نوفمبر ١٨٦٦ وافتتحه اسماعيل بكلمة جاء فيها :

« كثيراً ما كان يخطر بيالي إيجاد مجلس شورى النواب ، لأن من القضايا المسألة التي لا ينكر نفعها أن يكون الأمر شوري بين الراعي والرعية ، ويكون كون الشارع حثّ عليه بقوله تعالى « وشاورهم في الأمر » وبقوله تعالى : « وأمرهم شـورـي بينـهـم » وللهـذا استقـبـت افتتاح ذلك المجلس بمصر تـذـاكـرـ فيـهـ المنـافـعـ المـفـيدـةـ ، وـتـبـدـيـ بهـ الآراءـ السـديدةـ » .

وكان أعضاء مجلس شورى النواب ينتخبون من الشعب ، ويقرر التاريخ أنهم لعبوا دوراً كبيراً في تطوير الحياة النيابية بمصر ، وأنهم حرصوا على أن يكون المجلس أداة فعالة في الاصلاح ، وطالبوـا بـحرـيةـ النـشـرـ ، وـفـرـضـ الـضـرـائبـ عـلـىـ الـأـجـانـبـ أـسـوـةـ بـالـمـصـرـيـنـ ، وـقـدـ ظـهـرـتـ فـيـ هـذـاـ الـمـجـلـسـ زـعـامـاتـ مـصـرـيـةـ قـوـيـةـ ، مـنـ أـبـرـزـهـاـ عـبـدـ السـلـامـ الـمـوـيلـحـيـ رـئـيـسـ الـمـجـلـسـ الـذـيـ اـسـتـطـاعـ بـمـعـاـونـةـ الـنـوـابـ أـنـ يـخـطـوـ بـمـجـلـسـ الـشـورـىـ خطـوـاتـ وـاسـعـةـ كـانـتـ الـأسـاسـ لـقـيـامـ الـحـيـاةـ الـنـيـابـيـةـ بـمـصـرـ ، بـلـ فـيـ الشـرـقـ كـلـهـ » .

ولا بد هنا أن نذكر أن ممثلي الأمة تمسكوا بالنظام الشورى حتى عندما انحرف عنه رياض باشا ناظر الوزراء وأراد تعوييقه ، فقد ذهب هذا إلى مجلس الشورى ليبلغ الأعضاء قرار الخديوي اسماعيل بحل المجلس فصرخ فيه عبد السلام المولىحي قائلاً : إننا هنا بسلطة الأمة ولن نخرج إلا على أسنة الحرب ، وأضاف المولىحي :

أن جميع الدول الراقية في أوروبا .. وفي أمريكا لها مجالس نيابية ..

- ٤٣٣ -

فقال رياض باشا : هل تريده بهذه العمائم .. وبهذهبلغ
(الأخذية الريفية) أن تقلد أوربا ؟

فرد المولىحي : أن العبرة بالرؤوس .. لا بالزى !

فصاح رياض باشا : أنتم عصاة ! أنتم همج !

فنادى المولىحي مصطفى وهبى باشا المسكرتير العام لمجلس شورى النواب وطلب أن يقيد في المضبوطة حرفيًا كل ما دار من حديث بين النواب وناظر الوزراء .. وقال : « حتى اذا ما نشر هذا في الجرائد ، واطلع عليه القراء علموا من هم الهمج : النواب أم النظار ؟ » .

وحاول رياض أن يمنع الصحف من نشر هذه الكلمات ولكن أحدا لم يستجب له ، ونشرت الصحف جميع ما دار في هذه الجلسة . واضطر الخديوى للتراجع حتى لا يقابل ثورة الجماهير ، وعزل رياض سنة ١٨٧٩ واستدعي شريف باشا لتأليف الوزارة .

وقبل أن نترك رياض باشا نذكر أن من مساوئه أنه عطل صحيقى « مصر » و « التجارة » لما كان ينشر فيهما من المقالات الوطنية القوية وأنه كان وثيق الصلة بالأجانب ، ولكن من محاسنه ما يذكره عنه الأستاذ محمد أمين أنه كان ذا رغبة إصلاحية في تنظيم الشئون المالية وتهذيب العقول ، وتشجيع الآداب ، وأنه أبطل السخرة والضرب بالكرياج (١) ولكنه على العموم لم يكن زعيما محبوبا لدى الجماهير .

ثانياً - مجلس الوزراء :

كان محمد على قد أنشأ مجموعة من الإدارات تشرف كل منها على جانب من جوانب ادارة البلاد ، وسميت هذه الإدارات بالدواوين وقد

(١) زعماء الاصلاح من ٣٠٢ و ٣٠٣ .

- ٤٣٤ -

تأسست هذه الدواوين تبعاً للاحتياجات الإدارية ديواناً بعد ديوان ، وأنشئ آخرها سنة ١٨٣٧ ، وحينئذ صدر القانون المسمى « السياسة » أي التنظيم السياسي ، وقد شمل هذا التنظيم سبعة دواوين هي :

الديوان الخديوي (الداخلية)

ديوان كافة الإيرادات (المالية)

ديوان الجماسادية (الدفاع)

ديوان البحر (البحري)

ديوان المدارس (التربية والتعليم)

ديوان الأفرنجية والتجارة المصرية (الخارجية)

ديوان الفاوريريات (الصناعة)

ومن رؤساء هذه الدواوين يتكون المجلس المخصوص الذي كان يعاون محمد على في إدارة شئون البلاد ، وهو شديد الشبه بما يسمى مجلس الوزراء الآن ، وكان هذا المجلس أشبه بالجامعة التنفيذى لأن السلطان الحقيقي كان في يد محمد على .

ثم قضى عباس على هذا المجلس كما قضى على غيره من صور النشاط .

وفي عهد اسماعيل عندما بدأ التدخل الأجنبي في الشئون المصرية تكونت لجنة التحقيق العليا الأوروبية ، وفي ابريل سنة ١٨٧٨ ذكرت هذه اللجنة في تقريرها أن كل المفاسد وفوضى الأوضاع المالية في مصر ناتج أساساً عن السلطة المطلقة التي يمارسها الخديوي في البلاد .

وبناءً على ذلك أوصت هذه اللجنة أن يشتراك مع الخديوي مجلس وزراء واحد وأن ذلك يخل الخديوي من المسئولية ، ورغبة من هذه اللجنة الأوروبية في أن يتحقق لها ما تشاء تدخلت في تحديد من يرأس هذه الوزارة ،

بل أصرت على أن يكون بها وزير إنجليزي وأخر فرنسي ذاكرة أنها بهذا التكوين تكون أعلى كفاءة وتستطيع أن تقف في وجه الخديوي ، وبعد حيل كثيرة أصدر الخديوي اسماعيل في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ أمراً بتشكيل أول نظارة مسئولة بمصر ، وكانت برئاسة نوبار باشا .

وولدت بذلك أول وزارة بمصر ، وكانت آنذاك تسمى « النظارة » إشارة إلى تبعية مصر للإمبراطورية العثمانية ، فلما انقطعت هذه التبعية سنة ١٩١٤ باعلان الحماية على مصر ، أصبحت النظارة وزارة ، ويعود النظارة المصرية تغير نظام الادارة الذى كان متبعاً من قبل ، وانتقل لها جزء من سلطة الخديوى ، وكان خطاب الخديوى إلى رئيس النظار يفيد هذا الاتجاه وقد جاء فيه : ٠٠٠٠ أردت أن أؤكد لكم ما توجه قصدى اليه وثبت عزمى عليه من اصلاح الادارة وتنظيمها على قواعد مماثلة للقواعد المرعية في ادارات ممالك أوروبا ، كما أنى أريد - عوضاً عن الانفراد بالأمر - قوة من مجلس النظار بمعنى أنى أروم القيام بالأمر من الآن فصاعداً بالاستعانة بمجلس النظار والمشاركة معه .

ولنعد إلى أول رئيس للناظار بمصر وهو نوبار باشا لنقرر أنه رجل أرمني الأصل مسيحي الدين ، كانت عواطفه وميله في جانب بريطانيا (١) ، وقد وصفه جوردون في مذكراته بأنه أرمني وضيق ، وكان من بين أعضاء هذه الوزارة وزير إنجليزي ووزير فرنسي ومن أجل هذا سميت الوزارة المختلطة ، ولم يطل عمر هذه الوزارة بسبب هذا العنصر الأجنبي فيها ، ولأنها اتجهت فيما اتجهت إليه من مظاهر الاقتصاد إلى تعطيل المرافق العامة ، وأحالت ٢٥٠٠ من رجال الجيش إلى الاستبداع ، مما هيج الرأى العام والجيش فاضطررت الوزارة إلى الاستقالة .

واتجهت الأنظار بعد ذلك إلى تعيين الأمير توفيق رئيساً للوزارة ،

(١) سافر نوبار إلى لندن سنة ١٨٧٧ لتمهيد الطريق لفرض حماية

بريطانيا على مصر (مصر المعاصرة للدكتور مصطفى صفتون ص ٥٦) .

ولكن وزارته لم تكن أحسن من سابقتها فأخذت الطريق إلى أول وزارة وطنية برياسة شريف باشا ، وقد أبعد شريف العنصر الأجنبي من وزارته ، ولكن الأوروبيين تأبوا عليه ، بيد أن الشعب أيداه وأيده كذلك الخديوي اسماعيل ، فكان أن عملت الدول الأوروبية على خلع اسماعيل ، وتولى توفيق العرش بعد أبيه فقدم شريف استقالته للخديوي الجديد ، ولكن الخديوي توفيق طلب منه إعادة تشكيل الوزارة تهدئة للأحوال ، بيد أن توفيق سرعان ما لاحظ اهتمام شريف بالحياة الدستورية الحقة التي لا تناسب ميوله ولا اتجاهات الدول التي جاءت به إلى الحكم ، فعارض ميول شريف مما دفع هذا إلى الاستقالة في أغسطس سنة ١٨٧٩ .

وأراد توفيق أن يعود بالبلاد إلى الوراء ، فألف وزارة يرأسها هو ، ولكن ذلك قوبل باستياء عام إذ كان معناه العودة للحكم المطلق ، فاستدعي توفيق رياض باشا من أوروبا وطلب منه تشكيل الوزارة فشكلها في ٢١ سبتمبر سنة ١٨٧٩ ، ولم يكن رياض هرضاً عنه ، وكانت ميوله استبدادية ، وكان ينفذ آراء سادته الانجليز الذين آثروا — كما يقول اللورد كرومـر — جر الخيوط من وراء ستار ، وعدم الظهور على المسرح إلا قليلاً (١) ، واكتفى رياض بالغاء أنواع من الضرائب الجائرة منها الضريبة الشخصية والجمارك الداخلية ، ولكن ذلك كان أقل كثيراً من أمانى البلاد .

وإذا سرنا بعد ذلك مع الوزارة المصرية نجد أن وزارة رياض قابلت عاصفة الحركة العربية ، ولم يستطع رياض أن يوفق بين ميوله الاستبدادية وولاته للإنجليز والخديوي وبين الفكر الذي كانت الحركة العربية تتبناه ، فأُقيلت وزارة رياض برغبة العرابيين وتولى شريف باشا في سبتمبر سنة ١٨٨١ ولكن هذا رأى أن يخلى الطريق للزحف العربي فاستقال وتآلفت وزارة عربية برياسة البارودي في فبراير سنة ١٨٨٢ وبعد بضعة شهور تم الاحتلال البريطاني (بوليـو ١٨٨٢) كما سُنـى فيما بعد .

(١) من مذكرات اللورد كرومـر .

- ٤٣٧ -

ومن الاحتلال البريطاني واجهت الوزارة المصرية مشكلات خطيرة
أهمها :

١ - تعيين اللورد كرومر في وظيفة الوكيل البريطاني والقتصل
العام بஸبر عقب الاحتلال ، وقد ظل يشغّل هذا المنصب حتى سنة ١٩٠٧
وكان خلال هذه المدة يعتبر مصدر السلطات بمصر ، فمما فاقته كانت ضرورية
لاختيار رئيس الوزراء ، وكان مسموع الكلمة في اختيار الوزراء ، وعندما
تخطى الخديوي عباس الثاني هذا التقليد الاستعماري وعين فخرى
باشا رئيساً للوزراء في يناير سنة ١٨٩٣ دون موافقة كرومر ، هدده كرومر
بالخلع من منصب الخديوى ، فتراجع الخديوى عباس ، واستقالت وزارة
فخرى باشا بعد ثلاثة أيام من تشكيلها ، ودعماً لنفوذ كرومر عين هذا
مستشارين من الانجليز للوزارات المصرية المختلفة يتكون منهم برئاسته
ما يمكن أن يعتبر مجلس الوزراء الحقيقى ، كما عين مفتشين من الانجليز
بالمديريات كانوا بمثابة عيون له في تلك المديريات .

٢ - ولكن التاريخ يسجل كثيراً من المقاومة التي أبدتها رؤساء
الوزارات والوزراء للسلطة الانجليزية ، فقد رفض شريف باشا سنة
١٨٨٤ أوامر الانجليز لاخفاء السودان ، وفضل أن يستقيل على ارتكاب
هذا المكر ، وجاء بعده نوبار فوافق على مطالب الانجليز ، ووقف سعد
زغلول موقف شريف من السودان سنة ١٩٢٤ عقب مقتل السردار ، وجاء
بعدم زیور ليستجيب لمطالب الانجليز ، على أن هناك صراعاً مشهوراً يرتبط
باسم سعد زغلول أيضاً حينما كان وزيراً للتربية والتعليم (١٩٠٦ - ١٩١٠)
فقد قاوم تعليمات دنلوب دون هوادة .

ويرتبط بالمقاومة كذلك ما يذكره التاريخ عن احجام رجال السياسة
عن تأليف وزارات أحياناً حتى لا ينزعلا عن جماهير الشعب ، وقد
ظلت البلاد بدون وزارة سنة ١٩١٩ مدة أربعين يوماً حتى أعاد حسين
رشدى باشا تشكيل وزارته في ٩ ابريل .

- ٤٣٨ -

٣ - و تعرضت الوزارات المصرية لألوان من الهجوم مصدره القوى الوطنية التي كانت تتربص بالوزراء الذين يخضعون للمحتل الغاصب ، وقد بلغت هذه المقاومة مداها عندما دفع الحماس الوطني أحد المواطنين ليقتل بطرس غالى رئيس الوزراء لاتجاهه للموافقة على مد امتياز شركة قناة السويس .

٤ - و حدث بعد تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٤٢ تغيير واضح في تقييم الشخصيات ليتم اختيارهم لمنصب الوزارة ، فقد أصبح ماضيهم السياسي ومكانتهم الحزبية تعادل أو تزيد عن مكانتهم الادارية أو الفنية التي كانت موضع التقدير من قبل .

ولكن الذى يتبع اتجاهات حزب الوفد يرى أنه كان يحرض على اختيار شخصيات لها كفاءة ممتازة ليضمها للوزارة وإن لم يكن مكانها واضحًا بين شخصيات الحزب ، ومن مؤلاء الدكتور صالح الدين والدكتور طه حسين .

٥ - اختفت وزارة الخارجية من بين الوزارات المصرية فترة خلال سعف الاستعمار إذ اعتبر الوكيل бритانى هو المسئول باسم حكومته عن صلات مصر بالدول الأخرى .

٦ - بعد قيام الحكومات الدستورية بمصر بدأ صراع مرير بين فؤاد وفاروق من جانب وبين الوزارات الوفدية من جانب آخر كما سنرى تفاصيل ذلك احصائياً بعد قليل ، وقد ظل الصراع محتدماً بين القصر وحكومات القصر من جانب وبين الحكومات الوطنية من جانب آخر حتى نهاية عهد الملكية بمصر .

ثالثاً - الصحافة :

بدأت الصحافة المصرية في عهد اسماعيل ، وقد شجعها اسماعيل في أول الأمر ليستعين بها على الانجليز ، بيد أن هذه الصحافة أصبحت في النالب تمثل الرأي العام ، وتقاوم ما وسعتها الحيلة تدخل الانجليز أو

— ٤٣٩ —

محاولة الخديوي العودة للاستبداد ، وكانت جريدة « أبو نظارة » التي أنشأها يعقوب صنوع سنة ١٨٧٧ من أولى الصحف المصرية ، وكانت واسعة الانتشار بين الشعب وشديدة التأثير فيه ، وكانت كثيرة الانتقاد لأعمال إسماعيل .

ومع « أبو نظارة » ظهرت جريدة « مصر » سنة ١٨٧٧ وكان من بين محرريها سليم نقاش وجمال الدين الأفغاني ، وأسس سليم تقا وبشارة تقلا جريدة « الأهرام » في نفس الفترة أيضاً ، وأصدر ابراهيم اللقاني جريدة « مرآة الشرق » سنة ١٨٧٩ ، كما أنشأ ميخائيل عبد السيد جريدة « الوطن » ، وتولى ظهور الصحافة بعد ذلك .

وعلى الرغم من اتحراف بعض الصحف وتأييدها التدخل الأجنبي أحياناً ، فإن أكثر الصحف سارت في الخط الوطني وكان الشعب في منتهى الذكاء ، فقد انقضَّ عن الصحافة المنحرفة فقضى عليها ، ولم يجدها نفعاً تأييد الانجليز أو القصري ، إذ لم يعد لها قراء فلم يبق له أى تأثير أما الصحافة الوطنية فقد سارت تؤيد الاصلاح ، وتعمل على حراسة حقوق الشعب ، ورد المعتدين على هذه الحقوق .

رابعاً – الجيش :

كان عملاً أهوج ذلك الذي أشرنا إليه من قبل وهو احالة ٢٥٠٠ من رجال الجيش إلى الاستيداع في عهد توبار وقد ثار الجيش لذلك ، وترافق نوبار واستقال ، وعاد رجال الجيش إليه ، ومنذ ذلك الحين ظهر الجيش قوة من قوى المعارضة الوطنية ، وأصبح وقوفه في وجه الاستبداد والانفرادية عملاً عادياً ، وظلت هذه القوة تنمو حتى تسلم عربي قمة المعارضة الوطنية كما سنرى فيما بعد .

خامساً — الرأي العام :

من الحق أن تقرر أن الرأي العام في مصر كان دائمًا موجوداً، ولكن صوته كان يكتم حيناً، وكان حيناً آخر يتغلب على الصعب فيرتقى ويزمجر، وقد رأيناه مدوياً في عهد الحملة الفرنسية، ورأيناه بارزاً حين عزّلَ الوالي العثماني وعين محمد على والياً على مصر، ورأيناه صاخباً وهو يناضل فريزر قبل أن يصل محمد على من الصعيد بجنوده وعتاده.

وفي آخر عهد اسماعيل ظهرت زعامات قوية من أبرزها شريف باشا الذي أصبح بفضل مواقفه القوية بطل الوطنية المصرية في عهده، وانضم إلى شريف، هعر لطفي وشاهين باشا وراغب باشا وسلطان باشا مكونين «الحزب الوطني» وأرسلوا أدبيًّا اسحق إلى باريس ليصدر جريدة «مصر القاهرة» على نفقتهم، وكانت توزع سراً في مصر، ثم انضم إلى هؤلاء عرابي وبعد العال وعلى فهمي والبارودي وسلامان أبااظة وحسن الشريعي ومحمد فهمي.

وكان لهؤلاء الزعماء مكانتهم بين الجماهير، فكانت حركاتهم مؤيدة من الرأي العام، وكان صوتهم عميق الصدى بين الجماهير وعبرًا عن مشاعر المواطنين.

وفي هذه الفترة الحساسة ظهر بمصر زعيمان من نوع جديد آنذاك، زعيمان لم تكن السياسة هي كل ما يشغلهما بل أضافا إلى ذلك عمقاً في الاتجاه الإسلامي، ودعوة للتجديد والاجتهاد والانطلاق، وهذان الزعيمان هما:

١. — العالمة جمال الدين الأفغاني.

٢. — الإمام محمد عبد

وكل منهما جدير بحديث خاص نقوم به عقب الانتهاء من سيرة اسماعيل.

عيوب اسماعيل

لعلنا فيما سبق حاولنا أن نثّلِمْ بما تر اسماعيل ، وألا نغفل شيئاً مما قدمه مصر من أياد وأفعال ، وقد آن الأوان لنتحدث عن عيوبه ونضع في الكفة الأخرى مثالية ، لنستطيع بعد ذلك أن نرى أى الافتين ترجع وأيهما تشـــيل .

قضية الديون :

ولا شك أن قضية الديون هي أبرز العيوب التي لصقت باسماعيل ، ولا شك أنه كان هناك اهمال وغفلة في موضوع الاستدانة ، وقد تسبّب عن الاعمال والغفلة صور من العنااء لبلادنا الحبيبة .

والحديث عن الديون له عناصر :

أولها : ما مقدار هذه الديون ؟ وماذا حصل في أرقامها من عبث ؟
وثانيها : فيم أنفقت هذه الأموال التي استداناها اسماعيل ؟
وثالثها : هل كانت هذه الديون هي السبب الحقيقي لعزل اسماعيل ؟
وستتكلّم عن هذه العناصر واحداً بعد الآخر .

١ - مقدار الديون والألاعيب حولها :

تدل الوثائق على أن القروض التي اقترضتها مصر في المدة من ١٨٦٢ إلى ١٨٧٣ كانت ٦٨٤٩٧ جنيه ، ولكن المبالغ الحقيقية التي تسلمتها الخزانة المصرية هي ٤٣٧٨٧٠٠٠ جنيه ، ومن الواضح أن العمولات والسمسرة قد أخذت جزءاً كبيراً من هذا الدين يزيد عن الثلث ، ومن الواضح كذلك أن جزءاً من هذا الدين عُقِد في عهد سعيد باشا ، وكانت فوائد هذه الديون تقارب من أربعة ملايين جنيه سنوياً ، مما جعل من الصعب تسديد الفوائد وأقساط الديون في وقت واحد ، وفك اســـاعيل

في توحيد أكثر الديون ، فعقد قرضاً بمبلغ ٣٣ مليوناً من الجنيهات ، ولكن الذي وصل فعلاً للخزانة المصرية من هذا المبلغ هو ٢٢/٤٠٠ بمعنى أن عمولات السماسرة والأتعاب المنوعة استغرقت حوالي عشرة ملايين .

ومن الممكن أن نقرر أن هناك غفلة وتعاوننا لا يمكن غفرانهما وتشمل الغفلة مبدأ الاستدامة لغير ضرورة قاهرة ، كما تشمل أصاغة جزء كبير من الدين للوسطاء والعمولات .

٢ - فيم أنفقت هذه الديون :

إن الوثائق تقر أن ٦٤ مليوناً أنفقت في التزامات مصر تجاه حفر قناة السويس ، والتحلل من الالتزامات التي كان قد ارتبط بها سعيد باشا ، كما أنفق جزء كبير منها في إنشاء الترع النيلية التي أشرنا لها من قبل ، وإنشاء الجسور (الكباري والقنطر) وإنشاء مصانع السكر ، وميناء الاسكندرية ، وأحواض السويس ، والسكك الحديدية ، والتلغراف والتأثير ، ويدرك بعض الباحثين المحدثين هذه الحقيقة فيقرر أن الخديوي أنفق أكثر هذه الأموال في حفر قناة السويس وفي حفر الترع وتوسيع الرقعة الزراعية بمساحة مليون فدان وفي ربط مصر بالسكك الحديدية والتلغراف وفي بناء جيش وطني قوامه نحو مائة ألف مقاتل ، بعد أن كان ١٨٠٠ مقاتل وقد بني به أمبراطورية إفريقية نيلية تصارع أمبراطورية محمد على العربية ، فرفع العلم المصري على أوغندا ولغو تجارة الرقيق حيثما سارت جنود مصر . كذلك نعرف أنه تسلم البلاد وليس فيها إلا نحو ١١٥ مدرسة وتركها بعد ١٦ سنة [فيها ٥٠٠ مدرسة] بعضها للبنات ، ولم تكن فيها صحفية واحدة شعرت عهده قرابة ٣٠ صحفية ومجلة ، ولم يكن فيها نظام قانوني واضح فادخل فيها أحد ثقانونى مدنى وبجنائى وادارى كل معروفاً في عصره (قانون نابليون) ولم تكن في مصر هيئة تشريعية فأنشأ اسماعيل فيها أول برمان مصرى ، بدأ استشارياً سورياً في ١٨٦٦ ثم نضم وانتأسد عبر ١٢ سنة حتى شارك اسماعيل في ١٨٧٩

٤٤٣ -

في قيادة الحركة الوطنية ضد النفوذ الأوروبي ، ثم ظاهر الثورة العربية الشعبية في سنة ١٨٨٢ (١) .

على أنه كانت هناك وجوه اتفاق فيها صور من البذخ ، وكان من المكن تأجيلها أو تقليلها ، ومن هذه اقامة القصور الشامخة وتأثيثها بأفخر الأثاث ومنها الاحتلال الباهر بافتتاح قناة السويس وقد تكلف حوالي مليون من الجنيهات مع ملاحظة أن بعض المبالغ تصوّر هذا الحفل وكأنه كان وحده سبب الديون ، ومنها الحملات العسكرية الكبيرة التي دفع بها اسماعيل للخارج لمساعدة تركيا أو غيرها ، وقد تكفلت تكاليف باهظة ، وهذه الأشياء نعييها وننتقدها بشدة .

٣ - الديون وعزل اسماعيل :

في الفترة التي كانت مصر تتجه إلى إفريقية في عهد محمد على ثم في عهد اسماعيل كانت قوى أوروبا المنسحبة من أمريكا قبيل حرب الاستقلال (١٧٧٦) وبعده ترى في إفريقية أملها بعد أن فقدت الأمل في أمريكا ، ومن هنا حدث صراع بين أوروبا ومصر .

على أن أوروبا كانت قليلة منذ عهد محمد على وكانت تخشى أن تصبح مصر دولة عظيمة بإفريقية ، وقد عبر متربص عن موقف أوروبا بقوله سنة ١٨٣٧ أن نشوء دولة إفريقية جديدة ، عظيمة بمواردها ومركزها الجغرافي يُعدّ من أكبر الأخطار التي تهدد أوروبا .

وقد كان خطر اسماعيل في إفريقية أوسع من خطر جده لاتساع ملكه وعظم تأثيره ، ومن هنا تكفل الأوروبيون ضد اسماعيل ، وقرروا ضرورة إبعاده من الطريق ، واتخذوا الوسائل لكيد له ، وكانت الديون وسيطهم لذلك ، فادعوا أنه هصرف مبذراً ، يستدين ليتفق على ملذاته ولهوه فأساعوا بذلك

(١) من بحث بجريدة الاهرام يوم ١٥/٨/١٩٧٥ .

سمعته ، ثم أرادوا تنفيذ الناس منه وايقاف موجة الاصلاحات التي كان يقوم بها ، فلازمه بانشاء مصدق الدين ، وعيّن فيه مندوب لكل دولة دائنة ، كما ألزموه بتعيين مراقبين أجنبيين لحساب الحكومة ، أحدهما للإيرادات والثاني للمصروفات ، واتجه كل هذا النفوذ الأجنبي لسداد الديون بدون نظام ، مما سبب توقف كل الاصلاحات وفصل بعض الموظفين ، وما أثار الارتكاك والتلوّي ، فأصبح وجود اسماعيل يمثل عائقاً في تيار الحياة ، وانتهت الأزمة بخلع الخديوي اسماعيل في يونيو سنة ١٨٧٩ وتولية ابنه توفيق ، ورحل اسماعيل إلى أوروبا ، وظل يعيش بها حتى سنة ١٨٨٨ ، ثم انتقل إلى الأستانة فعاش بها حتى مات سنة ١٨٩٥ ، ونقل جثمانه إلى القاهرة .

وقد وضح (شارمان) قنصل أمريكا في مصر آنذاك مأساة عزل اسماعيل في تقرير بعث به إلى حكومته في ٨ يونيو ١٨٧٩ ، وقد اقتبسنا نقوات من هذا التقرير في الجزء السادس من هذه الموسوعة (صفحة ٣٣٧ - ٣٣٨) وضح فيها أن حكومة الخديوي اسماعيل كانت أفضل حكومات الشرق ، بل كانت هي الحكومة الشرقية الوحيدة التي انفردت بمحاولة التقدم والرقي في كل ما يتصل بأسباب الحضارة الحديثة ، وأن من يستعرض ما تم في عهده من التقدم يجد أنه كان عظيماً جداً ، ويقرر «شارمن» أن المسألة المالية لم تكن إلا مجرد اعتذار لتجعل من الممكن «فيذ خطط سياسية معينة ، ولهم يسبق أن اعتذر عجز الدولة عن دفع ديونها سبباً يخول الدول الأجنبية الحق في أن تخلي حاكمها أو أن تغيير حكومتها .

* * *

وقد مر قرن على عمر اسماعيل فماذا على مصر من ديون بعد هذا القرن ؟ وفي أي النواحي أنفقت هذه الديون ؟ إن الإجابة عن هذا السؤال تختوّل دراستنا التفصيلية عن تاريخ مصر العاصر في الجزء التاسع من

هذه الموسوعة ، وهى على العموم توضح السرقات كما توضح أن طرق الانفاق في القرن الحالى كانت مأسى تدمى لها القلوب ، وليس بها أى جانب ذى بال من جوانب الاصلاح .

اسماعيل في الميزان :

ليس من العسير بعد هذا الشرح أن نقرر أن اسماعيل كان حاكماً عملاقاً ، وكان عهده منعطفاً هائلاً في تاريخ مصر السياسي والحضارى ، ولا شك أن حسنات اسماعيل ترجع ما ارتکبه من سيئات رجحانها عظيماً ، ونضجه في القمة مع القادة والمشاهير ، ومرة أخرى نقرر أن له أخطاء ، وأن بعضها جسيم ، وقد ذكرنا هذه الأخطاء وانتقدناها ، ولكن حسناته في الكفة الأخرى كانت أعظم وأكبر .

اسماعيل والتاريخ :

اصطنعت أوربا الوسائل لعزل اسماعيل كما رأينا وأخفت الأسباب الحقيقية التي دفعتها لعزله وهي التخلص منه ليخلو لها الجو بأفريقيا ، وبعد أن تم لها ما أرادت اتجهت لتزيف التاريخ ؛ فراح تصور الديون كأنها شبح مزعج ، وتداعى أنه أنفقها في السرف والترف ، غير ذكرة نواحي العمران التي اهتم بها ، والمؤسسات العلمية والاجتماعية التي أسسها ، فدوّنت عن الرجل تاريخاً غير صادق ، وانتقل هذا التاريخ من جيل إلى جيل دون تمحیص ، وساعد على ذلك أن معلمى الأجيال التي تلت اسماعيل تلقت ثقافاتها في إنجلترا الدولة المحتلة فتأثر هؤلاء بما قرعوا وما سمعوا عن اسماعيل ، وظل الرجل مظلوماً عند الكثرين حتى راح علينا يتحقق ويدقق ليكتب كلمة الانصاف لوجه الحق ، ونرجو أن يكون التوفيق قد حالفنا في رفع هذا الحيف عن وجه مشرق من وجوه قادة هذه البلاد ، ولا شك أنه كانت فيه غفلة ارتبطت بهذه الديون وبالوسطاء فيها ، ولكن الديون لم تكن قط سبباً في عزل حاكم البلاد .

بعد اسماعيل :

لقد طاب لنا أن ننصف محمد على وحفيده اسماعيل ، فذلك هو حق الأفذاذ من الناس ، ولكن الحال تغير بعدهما وشهدت مصر مجموعة من أحفاد محمد على كانوا الى الخرق والانحراف أقرب ، وسندرس تاريخ هؤلاء فيما يلى » وسنرى فيهم من خان البلاد مثل توفيق ، ومن خان الدستور يوم أصبح مصر دستور مثل فؤاد وفاروق ، فقد عاش هؤلاء أعداء الشعب ووضعوا بموافقتهم الأثيمة خيوط النهاية لهذه الأسرة .

و قبل أن نخطو لهذه المرحلة نقدم ترجمة موجزة لكل من جمال الدين الأفغاني والأمام محمد عبده ، فالتأريخ الذي ندوّنه يعني بالاحداث ، ويعني كذلك بالfilosofes ، وبالقيم الحضارية التي يرفع هؤلاء المفكرون لواءها :

جمال الدين الأفغاني

أجمل الإمام محمد عبده سيرة جمال الدين الأفغاني أجملها دقيقاً ، فذكر أن الناس اختلفوا في أمره فكانه حقيقة تجابت في ذهن كلّ بما يلائمه ، ومن أجل هذا عمد الإمام إلى ايضاح حقيقته التي يعرفها من طول العشرة ، وعن محمد عبده وسواه من الباحثين نقل الأستاذ محمود أبو رية نقولاً كثيرة لم يؤلف بينها (١) ، ولكنها على كل حال مادة يمكننا أن نقتنس منها ومن سواها صورة واضحة لجمال الدين :

— ينتمي جمال الدين الأفغاني إلى أسرة حسينية النسب ، كان لها قدر كبير من السيادة في بعض مناطق أفغانستان بالقرب من كابول ، وقد ولد سنة ١٢٥٤ هـ (١٨٣٨ م) وتعلم اللغة العربية والعلوم الإسلامية والعقلية بها ، ثم انتقل إلى الهند فاستراد من العلوم وحج سنة ١٢٧٣ هـ (١٨٥٧ م) وبدأت بعد ذلك حياته الحافلة على ما يلي :

— في بلاده اشتراك في بعض الحملات المhrبية مؤيداً أحد الأمراء وأسمه محمد أعظم ضد أخيه ، وتم لهذا الأمير النصر ، فزاد اقباله على جمال الدين ، ولكن رضا الملوك لا يدوم ، والانتصار تعقبه هزائم ، وهذا ما حصل بالنسبة لجمال الدين مما اضطره للرحيل عن أفغانستان إلى الهند ومن الهند وفد إلى مصر فبقى بها مدة قصيرة ثم سافر إلى الأستانة مركز الخلافة في عهد السلطان عبد العزيز .

— في الأستانة لقي ترحيباً واسعاً ، ولكن سرعان ما دب صراع محتمم بينه وبين بعض رجال الدين والسياسة ، واشتدت الخلافات بينه وبينهم ، وكان جمال الدين حاد الطبع فأخذت منه الحدة مبلغها ولحقه في طلب المخاصمة ، مما سبب صدور الأمر بجلالته عن الأستانة سنة ١٨٧١ .

(١) جمال الدين الأفغاني : تاريخه ورسالته بمقدمة :

— حضر من الاستانة الى مصر ، وكان رياض باشا ذا نفوذ في الادارة المصرية آنذاك فرحب به رياض وعين له مرتبها مناسبا ، وجلس في بيته يعلم ويقرأ لمن وفدوه عليه ، وكان الخديوى اسماعيل يشجع كل الكفاءات العلمية فوجد جمال الدين في رحابه أمينا واطمئنانا طيلة ثمانى سنوات .

— ولما تولى توفيق الأمر بعد أبيه سامت ظنونه بالأفغانى ، وبخاصة أن بعض العلماء ثار عليه لانتقاده المذاهب والاتهامات المسلم بها ، ولمقراءته كتب الفلسفة ، والكتب المنحرفة ، وكان رد الأفغانى أن الثابتين في إيمانهم لهم النظر في كل المعلوم سواء وافتقت مذهبهم أو خالقته ، وعلى كل حال لم تعد مصر أرضًا مفاسدة له ، فتلقى منها سنة ١٨٧٩ ، ومنها سافر الى الهند فأوربا ، وقد أسمهم اليارودى في اتخاذ قرار نفى الأفغانى من مصر (١) .

— في أوروبا ذهب الى لندن ثم باريس ، ومنها استدعي الإمام محمد عبده وكان هذا منفيا أيضا بسورية عقب الثورة العرابية ، وأصدرها معاً صحفة « العروة الوثقى » وقد صدر منها ١٨ عددا في المدة من مارس الى أكتوبر سنة ١٨٨٤ ، فثم ترققت لأنها كانت مثيرة فمنعتها إنجلترا من دخول الهند وغيرها من البلاد الواقعة تحت سيطرتها .

— عاد الى ايران سنة ١٨٨٦ بدعوة من الشاه ناصر الدين ، وأدناه الشاه منه ، ولكن العلاقة سرعان ما ساءت بينهما فغادرها الى روسيا ، ولكن الشاه طلبه بعد ذلك وألح في طلبه ، ولكن العلاقات ساءت من جديد فتلقى الى خارج الحدود (الى البصرة) .

— ومن البصرة سافر مرة أخرى الى لندن واشتد في محاربة الشاه بقلمه ولم يأنه .

— ٤٤٩ —

— استدعاء السلطان عبد الحميد إلى الأستانة ولأوح في طلبه فسافر إليها سنة ١٨٩٢ وطلب منه السلطان أن يكف عن الهجوم على الشاه فأجاب الأفغاني قائلاً : ما كتبت أنتى ترك الشاه حتى أنزله قبره ولكنى لأجلك قد غفرت عنه ، ويعلق الأستاذ أحمد أمين على هذا بقوله : وقد ارتاع السلطان لمثل هذا القول (١) .

على أن الشاه قتل بعد ذلك بقليل بيد رجل أطلق عليه الرصاص وهو يصبح : خذها من يد جمال الدين ، وقد اتهم جمال الدين بتدبير هذه الجريمة ، ولكنه نفى ذلك بشدة ، وحساسى أنتى أؤيد براءاته ، ولكن الشبهة كان لها أثراً في بلاط الخليفة بالأستانة (٢) .

— وقد ظل جمال الدين بالأستانة حتى توفي سنة ١٨٩٧ ، ويقول الأستاذ أبو ريه أنه مات مسموماً ، بل يتجه أنه دعى للإستانة ليتخلص من الخليفة منه ، ولا يمكن قبول هذا الرأي لأنه عاش في الأستانة بعد وصوله إليها خمس سنوات ولو كان القضاء عليه هدفاً للسلطان ما انتظر عليه هذه المدة .

أخلاق الأفغاني واتجاهاته الإصلاحية :

يتحدث الإمام محمد عبده عن أخلاق الأفغاني فيذكر « أنه كان فيه حلم عظيم ، ولكنه إن دنا منه أحد ليس شرفه أو دينه انقلب الحلم إلى غضب تنقض منه الشهب فاصحى أبداً وثاباً ، وكان عصبياً حديداً المزاج ، وكثيراً ما هدمت الجدة ما رفعته الفضة » وقد لكتب له الإمام محمد عبده مرة خطاباً وأرسله إليه دون توقيع على الأستانة يلمع فيه البعض الأشخاص والقضايا حتى يأخذ الأفغاني حذره ، فماح الأفغاني وأزبد ، وكتب

(١) زعماء الاصلاح ص ١٠٠ .

(٢) أبو ريه ص ١٣٨ .

لإمام كتابا قاسيا ، ويعلق الأستاذ أحمد أمين على هذا الخطاب بقوله : لقد كتب جوابه هذا وقد ملكته الحدة ، وكم ملكته (١) ، وكان طموحا إلى مقاصده السياسية يتجلل الوصول إليها إذا لاحت له بارقة ، وكثيرا ما كان التجلل سبب الحرمان ، وكان شديد الزهو بنسبه الشريفي ، شديد الوطأة على الحكم يعاملهم بالعجب والخجل ، عصبيا دموميا في مزاجه (٢) .

أما عن اتجاهات الأفغاني الاصلاحية فيقرر الإمام محمد عبد العالى الأفغاني كان واسع المعرفة ، دقيق التعبير ، مسترسل الأسلوب ، ومن أعرف الناس بالاسلام ، وكان قادرا على النفع بالاقادة والتعليم ، ولكنه وجه كل عنایته الى السياسة فضاع استعداده هذا ، ويقول محمد عبد العالى أعجب لجعل نبأء المسلمين وجرائهم ، كل همهم في السياسة وأهمالهم أمر التربية الذى هو كل شيء وعليه يعني كل شيء ، ولو أن جمال الدين صرف قدراته للتعليم والتربية لأفاد الاسلام أكبر قائد ، وقد عرضت عليه سلوك سبيل التربية ، وأكملت له أن ذلك سيكون الطريق الأمثل لنشر الاصلاح المطلوب فقال لي : إنما أنت مثبط (٣) .

ذلك مجمل سيرته ، وتعريف باتجاهاته وأخلاقته » وتنقل بعد ذلك إلى إبراز نقاط مهمة تتمثل بالأفغاني وتساعد على رسم صورة دقيقة لاتجاهاته حتى يتضح دوره الحقيقي فيما ينسب إليه من بعث الحركة الفكرية بمصر ، فقد لاحظت وبالغة هائلة من بعض الكتاب في ذلك ، وتلك بالغة تجاف الانصاف ، وتختفى جهود المصريين في بعث هذه الحركة :

١ - كان الأفغاني يقول بالجامعة الاسلامية ، وكان بادىء ذي بدء يرمى إلى ايجاد حكومة اسلامية واحدة ، ثم ظهر له استحالة هذا المدف

(١) زعماء الاصلاح في العصر الحديث ص ١٠٨ .

(٢) أبو ريه ص ٣٧ .

(٣) انظر الأستاذ محمود أبو ريه ص ٥٠ وأحمد أمين ص ٨٠ .

— ٤٥١ —

فاتهجه إلى الدعوة للتعاون بين ممالك المسلمين على أن يحكم كل ملك مملكته تبعاً لِالتعاليم الإسلامية ، وعندما نادى بِحكومة إسلامية واحدة كان مفهوماً أنه يقصد اندماج المسلمين تحت سلطان الخليفة المستبد الجائر ، السلطان عبد الحميد ، ويتعلق الأستاذ أحمد أمين على موقف الأفغاني في الأستانة بقوله انه كان في عاصمة العثمانيين يعيش في قفص من ذهب أحْكَم بابه (١) .

٢— ومثل دعوته للجامعة الإسلامية اتجاهه الذي عاش فيه فترة من الزمن ليقيِّم اتحاداً بين الأديان ، وهو يقول انه أخذ يضُع لنظريته خططاً ، ويخطط أسطراً ، ويحرر رسائل وأخيراً عاد عن نظريته والأخفاق ملء إهابه (٢) .

٣— انتسب الأفغاني لل MASONI وانضم إلى المحفَل الماسوني الاستثنائي بمصر ، وما وجد أعضاءه لا ينتخلون في السياسة ، والأفغاني عمله كله متصل بالسياسة استقال منه ، وانتشا مهولاً ماسونيا آخر (٣) .

ومن عجب أن الرجل لم يجد طريقة آخر يخدم أغراضه غير الماسونية التي كانت وما تزال متوسعة الريبة والشك ، والتي يعتقد أنها مؤسسة يهودية الجذور (٤) .

٤— ويقول عنه الأستاذ أبو ريه انه كان ينقد المذاهب الماسيم بها حتى مذهب أبي حنيفة (٥) ويتوسع في اتياي بعض المباحثات (٦) .

٥— عاش الأفغاني فترة طويلة في ظل رياض باشا ، وقد رأينا فيما

(١) زعماء الاصلاح في العصر الحديث من ٨٣ إلى ٩١ .

(٢) الأستاذ محمود أبو ريه من ١٧٦ .

(٣) أبو ريه من ٩٢ .

(٤) أبو ريه من ١١ .

(٥) أبو ريه من ٤١ .

سبق أن رياض قاوم النظام الدستوري ، كما قاوم حركة الاصلاح التي نادى بها عرابين وزملاؤه ، وأن وزارة أقيمت برغبة العرابيين سنة ١٨٨١ .

وعاش كذلك فترة في ظل تبوار الأرمني المسيحي الذي تحدثنا عنه من قبل ، ثم إن قرار نفيه قد سدر من البارودي باشا الذي كان يناظر الأوقاف آنذاك ، ومن الواضح أن البارودي كان قوة هائلة في الحركة العربية ، ومن هنا فنحن ندهش من الذين يقولون أن جمال الدين كان من مؤيدي الحركة العربية ، فقد نفى من مصر قبل أن تبدأ ، وكان نفيه على يد زعيم من زعمائها هو البارودي كما سبق .

٦ - وأبرز شيء في حياة الأفغاني أن السخط والقلق والثورة كانت دائمة في ركابه أشغى حل ، وقد رأينا ذلك في أفغانستان والهند ومصر والأستانة وإيران وكان من الطبيعي للصلح أن يجيد التائبي ، وأن تكون دعوته بالحكمة والوعظة الحسنة كما علمنا القرآن الكريم ، وأن يقيم علاقات طيبة يتخذها وسيلة لتحقيق اصلاحاته ، ولكن الأفغاني غفل تماما عن هذا السلوك .

٧ - كثيرون من الناس يبالغون في القول ، ويفسرون نتائج لا تتفق مع المقدمات التي يوردونها ، ويهم لذلك يجعلون جمال الدين الأفغاني موقظاً لهم في مصر ، وباعت التهشة بها (١) ونقل لهؤلاء إن جمال الدين عاش في أفغانستان وفي الأستانة وفي الهند وفي روسيا وفي إيران مرتين طويلة ولم تمر جيوبه أية ثورة ، ولو كان الفضل راجعاً إليه لنشر فكره حيث كان ، وقد لاحظ الأستاذ أحمد أمين ذلك فكتاب عنه يقول : لقد جرب السيد أن يبشر بذوراً في فارس والأستانة . . . فلم تثبت ، ثم جربها في مصر فانقلب (٢) .

(١) انظر ما كتبه عنه الأستاذ الشيخ البلقوري في تكريمه لكتاب « أبو ريه » .

(٢) زعماء الاصلاح ص ٦٦ .

من هنا فاننا نذكر الكتاب بفضل مصر وبالفكر المصري الذي لم يغب عن الوجود والجهود مهما كانت الأحوال . والأستاذ أحمد أمين يتباهى إلى أن مصر كانت ثائرة ضد المراقبة الثانية ، وأن الخديوي اسماعيل كان يشجع أى نقد ضد التدخل الأجنبي ، ويؤيد الصحافة الوطنية مثل « الوقائع المصرية » و « مصر » و « التجارة » ، حتى أصبحت البلاد أشبه بمستودع بنزرين ، وجاء جمال الدين فكان أشبه بعود ثقاب ، ولو لا هذه الظروف لخابت دعوته في مصر كما خابت في الأستانة (١) .

٨ - ومما يؤيد هذا الاتجاه أن الدروس المنتظمة التي كان يعلمها جمال الدين في بيته بخان الخليوي كانت في المنطق والفلسفة والتصوف ٠٠٠ وهي علوم كان الشيخ حسن الطويل يقوم بتدريسيها في نفس الوقت ، وكل ما كان من فضل لجمال الدين هو بعض الشرح والتعليقات التي كان يمكن أن تموت لو لا الجو الثائر الذي صادفه جمال الدين الأفغاني بمصر .

٩ - عندما أبعد الأفغاني عن إيران وذهب إلى إنجلترا اتجه هناك لكتابة المقالات العنيفة ضد الشاه وحكومته وكان يستخدم في ذلك أقصى الألفاظ .

ويعلق الأستاذ أحمد أمين على ذلك بقوله « وهذه زلة كبيرة من جمال الدين دعاه إليها حده ، وحبه للانتقام ، إذ كيف أجاز لنفسه التشهير بحكومة شرقية إسلامية في بلاد لجنبية تتخذ من أقواله حجة للتدخل في شئوننا الداخلية ، وكيف استباح أن يفضح هذه العيوب ، وينسل هذه الآثواب القدرة على مشهد من كل الناس » .

« لقد كان مدحت باشا في موقف كهذا أبل من السيد وأكرم ، إذ نفاه عبد الحميد » وأخذه رجاله من دست الوزارة إلى السفينة : لامال ولا ثياب ولا أهل . ومع هذا فما إن وضع قدمه في أوربا حتى أخذ يسعى في دفع الشر

عن أمره ، ويتكلم الكلام الكثير في فضل الأتراء على أوربا ، ولا ينطق بكلمة في ذم عبد الحميد ، في الحق إنها كانت غلطة من غلطات « السيد دعا إليها حدة مزاجه (١) » .

١٠ — وأخيراً فالباحث في التاريخ يجد أن شباب الجيل الذي عاش فيه جمال الدين ، لم يرفع جمال الدين إلى الدرجة التي يضعه فيها الجيل اللاحق ، وكان الشباب في عهد جمال الدين يعرضون عنه في أخرج الأوقات ولا يرتكبون رأيه ، وأمامنا على ذلك دليل قاطع ، فإن الفيلسوف « رينان » الذي في السريون مهاجرة أبوز فيها ثلات نقاط هي :

١ — خطأ المؤرخين في قولهم علوم العرب وفنون العرب وتمدن العرب .

٢ — الإسلام لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر .
٣ — الغضور العربي بطبيعته أبعد العقول عن الفلسفة والنظر فيها .

ولما نشرت هذه المحاضرة تصدى للرد عليها الأستاذ الفرنسي « مسر » فألقى محاضرة أنصفت فيها العرب والإسلام .

وتحصّن الشبان المسلمون في باريس بتعريف هذه المحاضرة ونشرها ، وبعد بضعة أسابيع كتب جمال الدين في نفس المجلة (الديبا) ردًا على رينان ولكنه كان ردًا هادئًا مدح فيه رينان وأعلن بأنه استفاد من آرائه ولذلك لم يقبله الشبان المسلمون بباريس ، فلهم يهتموا بترجمته أو نشره .

* * *

وقد اتهم العلامة الأفغاني بالإلحاد ، ولستنا نرى ذلك فيه بأي حال من الأحوال ، ولكن تهمة الإلحاد كانت سهلة عند بعض الناس يرمون بها من دخن السجائر أو جلس في المقهى ، ولعل مرجع هذا الاتهام

(١) زينة الاصلاح ص ٩٨ - ٩٩ .

— ٤٠٠ —

إلى ما ي قوله الأستاذ أحمد أمين (١) إن الأفغاني كان يدين بعقيدة المتصوفة وهي مبهمة غامضة تنتهي بوجدة الوجود ٠٠٠ وعلى كل حال فجهود جمال الدين لخدمة الإسلام والسلميين لا تؤى من أن تدع حياة لهذا الاتهام الباطل ٠

والآن نستطيع أن نقرر وبخاصة فيما يتعلق بدوره بمصر أن جمال الدين الأفغاني قام بدوره في تحريك الهم بمصر وبالعالم الإسلامي ، وفي إشارة الشعوب الإسلامية ضد الفعلم والاستبداد الذي ينبع من الداخل أو يرد من الخارج ، ولكننا نؤكد أنه كافع مع المكافحين ، وأن الوعي بمصر كان شديدا قبل مجيء الأفغاني بعشرين السنين ، وقد رأينا مظاهر هذا الوعي في مواقف مختلفة وبخاصة مع مطلع القرن التاسع عشر ٠

كما نقرر أنه كان في جمال الدين حدة في الطبع ، واتجاهات فكرية غير موقعة ذكرناها فيما سبق ، وقد حال هذا وذلك دون نجاحه فيما كان يمكن أن ينجح فيه ، وهذه الأشياء تتوضع في الحساب وتذكر عند تقويم الرجال ٠

زعامات مصرية سبقت الأفغاني وعاصرته :

وكلمة حق نقررها هي أن زعامات في الوطنية والدين والاسترسال اللغوي كانت موجودة قبل الأفغاني فلما جاء الأفغاني اشتراك في تنمية هذه الحركات ، ظهر جيل ثالث عنده وعن سواه من الرواد ثم خرج هذا الجيل يحمل الأعباء في كل اتجاه ، وإذا كما نعرف الرواد في مجال السياسة والدين هاين محمد عبده يذكر بين رواد الاسترسال اللغوي عبد الله باشا فكري وخيري باشا ومصطفى باشا فهمي ٠

وأخيرا فنحن لا نتجه أبدا لننعد حق الرجل ، ولكننا نضع المقدمات ونستنتج منها النتائج ، ويدعمنا أن بعض الناس يضعون نفس المقدمات ولكنهم يتتبّعون نتائج شاعت وإن كانت لا تتناسب بالمقدرات كما قلنا من

(١) زعماء الاصلاح ص ١١٢ ٠

— ٤٥٦ —

قبل ، وفي الكلمة موجزة نقرر أن مصر عرفت النهضة في عدة مجالات قبل أن يضي الأفغاني قدمه على تربة هذه البلاد ، ومن الرواد الذين سبقوه الأفغاني أو كانوا في أوج مجدهم عند مقدمه نذكر الجبرتي (١٨٢٥) وحسن العطار (١٨٣٣) ورفاعة الطهطاوى (١٨٨٣) ومحمد شريف وعبد الله النديم (١٨٩٦) وعبد الله فكري (١٨٩٠) وعلى مبارك (١٨٩٣) ثم جاءت الحلقة التي ضمت الأفغاني وقد نشأ عن هذه الحلقة جيل ممتاز من أمثال محمد عبده وأحمد عرابى ثم سعد زغلول وعبد الكريم سليمان . ٠٠٠ ولعب هؤلاء ، أدواراً عظيمة في مختلف المجالات بمصر .

ضعف كتابة الأفغاني :

بقى أن نتكلم كلمة عن الآثار المكتوبة لجمال الدين الأفغاني فنذكر أن أهمها رسالته في « الرد على الدهريين » و « تتمة البيان في تاريخ الأفغان » ثم مقالات عدة في الصحف والمجلات .

وكتابه في الرد على الدهريين عنوانه الكامل « رسالة في إبطال مذهب الدهريين وبيان مفاسدهم ، وإثبات أن الدين أساس المدنية وأن الكفر يفسد العمران » وقد ردّ فيه على نظرية داروين في التشوء والارتقاء ، وعلى المادية التي تقول إن المادة أساس كل شيء ، وليس هناك سوى المادة ، واستطرد ليذكر أهمية الإسلام للإنسان ، ومزايياً هذا الدين للفرد والمجتمع ، وأن الإسلام احترم العقل واحتكم إليه ، وساوى بين الناس دون تفرقة بسبب الجنس أو اللون أو اللغة . وقد كتب الأفغاني هذا الكتاب باللغة الفارسية ، وترجمه الشيخ محمد عبده إلى العربية بمساعدة بعض من يجيد الفارسية .

أما كتابه عن تاريخ أفغانستان فهو كتاب قليل الصفحات قليل الفائدة ، يتتحدث بسجع لا تقبله الأذن وأسلوب لا يسعني ، وهو يفضل القول في فترة قصيرة جداً ، ولذلك فمن الخطأ أن يسمى تاريخ أفغانستان لأنّه تاريخ

فرد واحد تقريراً من ملوك أفغانستان ، وقد قرأته وأنا أدوّن الجزء الثامن من هذه الموسوعة ، ولكنني لم أجده فيه فكرة واحدة تستحق الاقتباس .

وفي مقالات الأفغاني كانت تبدو رغبته في توحيد المذاهب والقضاء على وسائل الخلافات بين المسلمين ، وضرورة الأخذ بنظام الشورى ، والقضاء على الاستبداد وعلى البدع والخرافات .

وعلى العموم فإن جهود الأفغاني في مجال الكلمة المكتوبة كانت قليلة ، حتى أنه لم تكن له بحوث بقلمه في مجلة العروة الوثقى كما سترى فيما بعد ، ويعيده أن الكلمة المكتوبة لم تكن تستطيع أن تحمل الثورة التي كان يغرس بها دائمًا في أحاديثه .

رحمه الله وأجزل ثوابه .

الإمام محمد عبده

الحديث عن الإمام محمد عبده محبب إلى النفس ، فقد اتسع فكر الإمام لكل ميدان من ميادين الاصلاح ، كتب في العقيدة ، ومقارنة الأديان ، والتفسير ، واشتغل بالتربيـة ، والقضاء ، والضـافة ، ويقرأ الإنسان اليوم ما كتبه الإمام في القرن المـاضـي وفي مطلع هذا القرن فيـحـسـ أنـهـ سـيـقـ جـيلـهـ بـعـدـةـ أـجيـالـ ، ولـنـعـشـ مـعـ الـإـمـامـ ، فـتـرـةـ لـفـرـىـ هـذـاـ النـمـوذـجـ الرـائـعـ الـذـيـ يـنـبـغـىـ أـنـ يـحـتـذـىـ الـأـفـدـاذـ"ـ نـهـجـهـ .

وأول ما نبدأ به تعريف سريع بالإمام لفرى خطوات حياته :

ولد الإمام محمد عبده سنة ١٨٤٥ بمحلة نصر بمحافظة البحيرة ، وفيها حفظ القرآن ثم التحق بالجامع الأحمدى بطنطا ، ولم يرقه التعليم بالأزهر وماهده ، فعاد إلى قريته ليشتغل بالزراعة ثم عاد مرة أخرى للجامع الأحمدى ، وبعد أربع سنوات اتجه إلى القاهرة والتحق بالأزهر سنة ١٨٦٦ واتصل بجمال الأفغانى سنة ١٨٧٢ عندما كان هذا بمصر سنة (١٨٧١ - ١٨٧٩) .

وفي سنة ١٨٧٧ حصل الإمام على شهادة العالمية الأزهرية ، ثم اشتغل بالتدريس في دار العلوم والأزهر ومدرسة الألسن .

وفي سنة ١٨٧٩ عزل عن التدريس بهذه المعاهد وأمر بالإقامة في قريته لا ييرحها ، وذلك في نفس الوقت الذى نفى فيه جمال الدين من مصر وذهب إلى أوروبا .

وفي سنة ١٨٨٠ اكتُشِفَ بإبعاده عن الطلاب واستدعى ليكون محررا بالوقائع المصرية ، وفي آخر العام أصبح رئيس تحريرها .

وجاءت الثورة العربية فاشترك فيها وأيدتها ، ولما أخمدت حكم

- ٤٥٩ -

مع زعماها وحكم عليه بالنفي من البلاد ثلاث سنوات وثلاثة أشهر ،
ف干涉到了 بيروت ، وبقي بها ضعيف هذه المدة لسخط الخديوي عليه .

واستدعاء جمال الدين الأفغاني إلى أوروبا حيث اشتراكا في إخراج
مجلة « العروة الوثقى » حتى توقفت كما ذكرنا عند الكلام عن جمال الدين .

وفي سنة ١٨٨٩ أذن له بالعودة إلى مصر وعين قاضيا بمحكمة بنيها
الأهلية ومنها انتقل إلى محكمة الزقازيق فمحكمة عابدين ، وفي العام التالي
عين مستشارا بمحكمة الاستئناف الأهلية ثم مفتيا للديار المصرية سنة ١٨٩٩
وعضوا في مجلس شورى القوانين .

وفي سنة ١٨٩٤ عين عضوا في مجلس إدارة الأزهر .

وتوفي الأستاذ الإمام سنة ١٣٣٣ھ = ١٩٠٥ م .

وأبرز مؤلفات محمد عبده كتابه « الإسلام والنصرانية مع العلم
والدنيا » و « رسالة التوحيد » « وتفسير سورة عم » ، وبعض سور
أخرى من القرآن الكريم .

تلك هي مراحل حياة الإمام ومؤلفاته ، ولنا وقفات تحليلية قصيرة
مع هذه المراحل والمؤلفات :

محتدنة ونشأته الأولى :

كتب محمد عبده عن أبيه بأنه كان واسع النفوذ في البلدة ، يقصده
الناس والحكام ، وأن أمه كانت كبيرة العطف على الفقراء والمحاجين ،
وقد تعلم في صباه الرملية والسباحة ، وحفظ القرآن في القرية ، وجئوده
بجامع الأحمدى ، وكان خطة واضحة وأقرب إلى الجمال .

الأزهر ومشكلاته :

التحق الإمام بجامعة الأحمدى وهو أحد معاهد العلم الأزهرية ،

— ٤٦٠ —

وقد رأى الإمام في هذا الجامع كثيراً من البدع والخرافات التي أرْسَّقتْهُ ، وهي ترتبط بالندور وطلب كل شيء من السيد البدوي الذي كان يهرب إليه الناس من كل حدب ، وبالإضافة إلى هذه البدع التي كانت ترتكب باسم الدين ، رأى محمد عبد طريقة التعليم العقيمة بالأزهر من ناحية موضوعاتها وكتابها وأدائها ، فأفزعته ، وهو يصف حاله معها بقوله « قضيت سنة ونصفاً لا أفهم شيئاً لراء التعليم ، فادركتني اليأس من النجاح ، وهررت من المدرس ، واختفيت عند أخيه هرباً من أبي ، ثم عثرت على أخي وأخذني إلى المسجد الأحمدى وأراد إكراهى على طلب العلم فأبى ، وقلت له : قد أيقنت ألا نجاح لي في طلب العلم ، ولم يبق على إلا أن أعود إلى بلدى وأشتغل بالزراعة » ١٨٦٥ « . وتغلبت عليه وعدت للبلدة وتزوجت على هذا الأساس سنة ١٨٦٥ » ٠

ويكمل الأستاذ كلامه عن الأزهر بقوله « وهذا الأثر هو الذي يجده ٩٠٪ من الأزهريين ، ولكن أغلبهم تفتقشهم أنفسهم فيظنون أنهم فهموا شيئاً ، فيستمرون على الطلب إلى أن يبلغوا سن الرجال وهم في أحلام الأطفال ، ثم يبتلى بهم الناس ، وتصاب بهم العالمة ، فتعظم بهم الرزية ، لأنهم يزيديون العاجل جهة ، ويضللون من توجد عنده رغبة في الاسترشاد ويؤذون من يكون على شيء من العلم ، ويحولون بينه وبين نفع الناس بعلمه » ٠

والتحق بعد ذلك بخال أبيه وأسمه الشيخ درويش ، وهو شخصية مستنيرة فيها جانب من التصوف ممتزج بتعاليم السنوسية والوهابية وكان هذا اللقاء ذا أثر كبير في محمد عبد ، ومنبع هذا الأثر هو شخصية الشيخ درويش ، وما كان يحظى به في مجتمعه من اجلال وتكريم ، بسبب علمه ومحارفه ، مما جعل محمد عبد يتمنى أن يكون مماثلاً له ، ومن جهة أخرى فقد اتجه الشيخ درويش لتطويع محمد عبد ، ولتوجيهه اتجاهات مختلفة ، فمرة يعطيه كتاباً سهلاً في الآداب والأخلاق فيستسيغه محمد عبد

ويقبل عليه ، ومرة أخرى يثبت في روعه أنه سيقابل في مستقبله علوماً كثيرة جديرة بالتقدير وأن العلوم التي أفرغته ليست كل شيء ، وتأثر محمد عبده على كل حال ، وعاد إلى الأزهر من جديد ، ولم يقنع بعلوم الأزهر بل أضاف لثقافته الواتأ من الفكر يوماً بعد يوم .

وتخرج من الأزهر ، وعلّم فيه ، ولكنه لم يقنع بالنظام الذي كانت سائدة ، بل اتجه لتربية العقل ، وتهذيب الأخلاق ، والتعرف على الحركات العالمية ، ومن هنا فقد كان يقرأ لبعض طلابه تهذيب الأخلاق المسكوبي ، كما كان يدرس التوحيد وتاريخ المدنية في أوروبا ، وعلم الاجتماع وال عمران ، ووثق صلته بالحياة العامة مما جعل شخصيته تتوجه اتجاهًا فريداً في حينه .

وأتجه محمد عبده لإصلاح الأزهر وبخاصة بعد أن أصبح عضواً في مجلس إدارته ، وبعد أن اخترت لهجاً جديداً في التأليف وفي دراسة العلوم الإسلامية .

ولكن كانت هناك جماعة ترى الإصلاح ضلالاً ، فوقفت في سبيله ، ولم تتمكنه من تنفيذ إصلاحاته بالأزهر ، وهاجمته ، ومات مؤلاً وبقي فكر محمد عبده ومنهاجه يصارع الأحداث وسيظل يصارع حتى يتم له النصر .

مع جمال الدين الأفغاني :

حضر جمال الدين الأفغاني إلى مصر سنة ١٨٧١ وسمع المثقفون عنه فزاروه وجلسوا إليه ، وجرت في مجلسه محادثات وبحوث اشتراك فيها أكثر الحاضرين ، وأبرز محمد عبده اتجاهاته وشرح خواطره ، ويتوجه بعض النسائين إلى جعل محمد عبده تلميذاً للأفغاني ، وعندى أن هذا الاتجاه لا يستقيم ؛ فمحمد عبده كانت له شخصيته ، وكان يختلف مع الأفغاني في نقاط هامة هي :

١ - الأفغاني كان يبذل جهده كله في السياسة ، وقد انتقد محمد

عبده فيه هذا الاتجاه ، وعليه على نبياء المسلمين وداعهم الى العناية بال التربية
كما ذكرنا من قبل .

٢ — الأفغاني كان يميل للثورة ، اذ كان حاد الطبع كما وصفه الإمام ،
أما محمد عبد فيميل للشرح والعرض والتبيان .

٣ — اصلاحات محمد عبد كانت نابعة من تجربته التي لم يمر بها
الأفغاني وتجربة محمد عبد هي ملاحظاته وحياته بالجامع الأحمدي
وبالازهر .

ومن هنا فمحمد عبد لم يكن تلميذا للأفغاني وإنما كان مفكرا عاصره
و عمل معه ، انتفع به حيثما أراد ، ولا نقول أنه نفسه ، فالأفغاني كان
عارفا عن التلقى وتغيير برنامجه ، وقد رأيناه عندما دعاه محمد عبد
للعناية بال التربية والتقليل من الحماسة في السياسة يقول له : أنت مثبط .

والذي أكد لنا أن محمد عبد لم يكن تلميذا للأفغاني أن منهج محمد
عبد الأصlahi م معروف وستورده فيما بعد ، وعندما مقارن هذا المنهاج
بوجود الأفغاني لا نجد صلة بينهما ، وهذا يؤكد أن منهج محمد عبد نابع
من تجربته ومن ذاته ، صحيح أن محمد عبد ذكر أنه تعلم من الأفغاني ،
ولكن يبدو لي أن ذلك من باب المjalمة من جانب وأنه من جانب آخر كان
في المجال العام ، ولكن لا وريب عندي في أن محمد عبد خطأ خطاً خاصاً منبتقا
من داخله .

٤- محمد عبد المدرس :

عن محمد عبد عناية كبيرة بالتدريس ، قوف مدرسا بالازهر وبدار
العلوم ومدرسة الأسنان ، وكان التدريس عنده وسيلة للتربية النفسيه ، وبث
روح الوطنية والدين به ، وتعليم الشباب حقوقهم لدى الحكم وواجباتهم
نحوه ، ومحمد عبد بذلك يفتح الفمودج للمعلمين لا يقفو أمام النساج

سدنـة ، بل أن يجـولـوا ويـصـلـوا فـي الـمـوـضـوعـاتـ الـتـى تـشـفـلـ بـالـطـالـبـ وـتـجـذـبـ نـفـسـهـ ، وـكـانـ مـحـمـدـ عـبـدـ بـذـاكـ رـائـداـ عـظـيمـاـ وـمـرـبـيـاـ كـبـيرـاـ ، وـقـدـ أـدـرـكـ أـنـهـ يـسـتـطـعـ أـنـ يـقـيمـ لـهـ مـدـرـسـةـ فـكـرـيـةـ بـجـوارـ الـمـعـاهـدـ الـتـى يـعـلـمـ بـهـاـ ، فـجـلسـ بـمـنـزـلـهـ بـذـرـبـ سـعـادـةـ لـيـؤـمـهـ كـلـ طـالـبـ مـعـرـفـةـ دـوـنـ مـلاـحظـةـ سـنـ أوـ حـرـصـ عـلـىـ نـيـلـ دـرـجـةـ عـلـمـيـةـ ، وـاتـجـهـ كـذـاكـ لـتـأـلـيـفـ الـكـتـبـ فـيـ الـمـوـضـوعـاتـ الـتـى كـانـتـ تـشـفـلـ الـأـذـهـانـ فـمـلـأـ فـرـاغـاـ وـاسـعـاـ بـيـنـ الـمـقـفـينـ ، وـأـصـبـحـ بـذـاكـ مـدـرـسـةـ مـتـعـدـدـةـ الـجـوـانـبـ ، وـقـدـ أـدـرـكـ الـخـدـيـوـيـ تـوـفـيقـ خـطـرـهـ فـأـبـعـدـهـ عـنـ مـوـقـعـ الـمـلـمـ . وـعـنـدـمـاـ غـفـاـ عـنـهـ اـتـجـهـ لـتـوجـيهـهـ لـلـمـصـاحـافـةـ أـوـ الـقـضـاءـ وـلـيـسـ مـعـاهـدـ الـعـلـمـ .

محمد عبد الصحفى :

اتـجـهـ مـحـمـدـ عـبـدـ لـلـمـصـاحـافـةـ مـذـ مـطـلـعـهـاـ فـيـ مـصـرـ ، فـقـدـ كـانـ أـخـدـ كـتـابـ جـريـدةـ الـأـهـرـامـ مـنـ الـعـامـ التـالـىـ لـاـنـشـائـهـ أـىـ مـنـ سـنـةـ ١٨٧٦ـ وـكـانـ آنـذـاكـ أـسـبـوعـيـةـ ، وـاتـخـذـ فـيـ الـأـهـرـامـ طـرـيـقـ الـمـقـالـ الـذـى يـعـالـجـ قـضـيـةـ مـنـ الـقـضـيـاـ الـدـينـيـةـ أـوـ الـاجـتمـاعـيـةـ .

وـعـنـدـمـاـ اـتـجـهـ الـخـدـيـوـيـ تـوـفـيقـ اللـفـوـ عنـ مـحـمـدـ عـبـدـ أـصـرـ عـلـىـ أـنـ يـبـعـدـهـ — كـماـ قـلـنـاـ آنـفـاـ — عـنـ الـتـعـلـيمـ فـعـيـنـهـ مـحـرـرـاـ فـيـ الـجـرـيـدةـ الرـسـمـيـةـ (ـالـوـقـائـعـ الـمـصـرـيـ)ـ ثـمـ جـعـلـهـ فـيـ آخـرـ الـعـامـ رـئـيـسـ تـحـرـيرـهـ ، وـكـانـ هـذـاـ التـصـرـفـ وـهـمـاـ مـنـ الـخـدـيـوـيـ ، فـقـدـ كـانـ الـوـقـائـعـ الرـسـمـيـ مـقـصـورـةـ عـلـىـ نـشـرـ الـبـيـانـاتـ الرـسـمـيـةـ وـالـقـرـاراتـ الـحـكـومـيـةـ ، وـجـسـبـ الـخـدـيـوـيـ أـنـ مـحـمـدـ عـبـدـ سـيـسـيـرـ بـهـاـ فـيـ هـذـاـ النـطـاقـ ، وـلـكـنـ هـذـاـ اـنـتـقـلـ بـهـاـ مـسـافـاتـ وـاسـعـةـ لـلـأـمـامـ فـقـدـ جـعـلـ مـنـهـاـ مـنـبـراـ يـنـبـعـثـ مـنـهـ صـوتـ الـفـكـرـ ، وـمـدـرـسـةـ وـاسـعـةـ النـطـاقـ تـحـركـ كـلـمـاتـهـاـ النـفـوسـ وـتـهـيـجـ الـعـوـاطـفـ ، وـذـلـكـ بـأـنـ عـقـدـ بـهـاـ درـاسـاتـ عـنـ الـاصـلاحـ الـمـشـودـ وـوـجـوهـهـ وـوـسـائـلـهـ ، وـدـعـاـ إـلـىـ التـعـاـونـ عـلـىـ الـفـيـرـ ، وـجـبـذـ فـكـرـةـ الـحـرـيـةـ وـرـفـعـ الـمـظـالـمـ عـنـ الـشـعـبـ ، وـعـابـ عـلـىـ الـشـعـبـ كـسلـهـ وـتـوـالـكـهـ ، وـنـادـىـ بـإـصـلاحـ الـتـعـلـيمـ وـجـمـلـ عـلـىـ الرـشـوةـ ، وـبـيـنـ أـنـ الـحـقـ

- ٤٦٤ -

للقانون لا للقوة ، وعالج اصلاح المجتمع والأسرة ، وانتقد الذين يريدون الرقى طفرة ووثوبا ، ودعاهم الىأخذ سبيل الاصلاح بالتدرج .

وتحدثت عن تطهير الاسلام من البدع ، وضرورة المودة للإسلام الصحيح ، « مباشرة الاجتihad في الأمور التي جدعت بعد عصر الاجتihad .

وحارب السخرة ، ودعا الى السلام والاخاء بين الناس .

وهكذا قدم محمد عبده للصحافة طريقا لم يكن معروفا من قبل ، وخلع على الصحافة من عقله وفكرة فذاع صيته وعلا شأنه .

وعند ما نفى من مصر وسافر الى بيروت استدعاه الأفغاني ليصدرها معا « العروة الوثقى » وقد تكلمنا عنها من قبل ، ويقول محمد عبده : كان الفكر للأفغاني والعبارة لى ، وكان التعرض منها السعى لجمع المسلمين وايقاظهم من رقادهم .

ومن المجالات التي حظيت بمعناية الإمام « النار » التي كان يصدرها رشيد رضا وكان لعلم الإمام فيها جولات عظيمة .

وهكذا كانت الصحافة مدرسة وجد فيها محمد عبده بدليلا لما فقده من وقوفات في معاهد التعليم .

محمد عبده والثورة العربية :

قلنا من قبل إن طريق محمد عبده لاصلاح كان الكلمة والدعوة بالحكمة ، ولم يكن يرى أن تكون الثورة في يد العسكريين (١) ولكنه مع هذا كان يدخل في داخله فكرًا وطنيا متوجها ضد الظلم والغشم الذي كان يمثله الخديوي توفيق والاستعمار ، ولذلك ما إن هبت الثورة العربية حتى تناسى خطته الهدائة واندمج في الثورة ، وزاد من اشتغالها ، وألقى فيها

— ٤٦٥ —

من عقله ووطنيته مازادها قوة ولهيما ، ولذلك حوكم مع من حكموها بعد فشلها وكانت عقوبته المنفي ثلاث سنوات وثلاثة أشهر بعيداً عن البلاد فرحل إلى بيروت .

ولكن وطن الإمام كان فسيحاً : راح ينشر فكره حيث حلَّ : وعمل لتحقيق أهدافه في كل مكان نزل به ، وكان له في بيروت منتدى يؤمه كثير من المربيين والفقيرين .

محمد عبده والقضاء :

وعندما عاد محمد عبده من المنفى أبعده الخديوي عن المعاهد والصحافة جميماً وعينه في القضاء والافتاء ظناً منه أن ذلك ينأى به عن تربية الأجيال ولكن محمد عبده خطأ في هذا المجال خطوات طيبة ، وكان من أهم الأعمال التي قام بها في هذا المجال التقرير الذي قدمه سنة ١٨٩٩ عن الحالة التي آل لها القضاة الشرعيون (١) واقتراح في نهايته إنشاء مدرسة لتخريج القضاة الشرعيين ، وتغلب هذا الاقتراح على تعويق اللورد كروم الذي كان لا يوكل للمحاكم الشرعية قوة أو وجوداً ، وتكونت لجنة ببريسة محمد عبده وقدمت تقريراً بضرورة إنشاء مدرسة للقضاء الشرعي وأنشئت هذه المدرسة وكان لها مكان محمود في عالم الفكر والقضاء .

ومما عمله الإمام وهو في مناصب القضاء أن أدرك ضرورة اجادته اللغة الفرنسية التي كانت تستتمد منها أكثر القوانين آنذاك ، حتى يأخذ مكافحة بين القضاة والمستشارين الذين يفخرون بإجاده هذه اللغة ، وقد استطاع أن ينجح في هذا المجال فأجاد اللغة الفرنسية قراءة وكتابة وحديثاً وكان يقول : من لم يعرف لغة من لغات العلم الأوروبية فلا يعد عالماً في هذا العصر .

(١) انظره في كتاب « تاريخ التشريع والقضاء في الإسلام » للمؤلف من ٣٠٥ - ٣٠٦ .

مؤلفات الإمام :

يعد الإمام محمد عبده من رواد العصر الحديث الذين اتجهوا نوعاً ما إلى إحياء علم « مقارنة الأديان » بكتابه « الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » الذي وضع فيه موقف الإسلام والنصرانية من المعرفة والحضارة ، ومن مؤلفاته تفسير « جزء عم » وهو مطبوع متداول وتفسير سور أخرى من القرآن الكريم نشرت له في مجلة « المنار » وقد نحا نحواً جديداً في منهجه في التفسير فاهتم بهم الدلالة اللغوية لآيات الكريمة ، وطرح البدع والخرافات والاسرائيليات ، واستخدم العقل فيما انتهى له التقدم العلمي مما له صلة بالقرآن الكريم ، ومن مؤلفاته « رسالة التوحيد » وقد صور في هذه الرسالة العقيدة الإسلامية تصويراً سليماً .

منهاج الإسلام الاصلاحي :

كتب الشیخ محمد عبده بقلمه في ترجمته لنفسه ، ملخصاً لمنهجه الاصلاحي قال فيه : « أرفع صوتي بالدعوة إلى أمرین عظیمین : الأول تحریر الفکر من قید التقليد ، وفهم الدين على طریقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابیعه الأولى ، واعتبار الدين من موازین العقل البشري التي وضعتها الله لتفرد من شططه ، وتقتل من خلطه وخبطة ، لتقم حکمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني ، والذین على هذا الوجه يهدیونا للعلم باعثاً على البحث في أسرار الكون ، داعیاً إلى احترام الحقائق الثابتة .

« وأما الأمر الثاني : فهو إصلاح أساليب اللغة العربية في التحریر ، سواء كان ذلك في المخاطبات الرسمية بين دوایین الحكومة ومصالحها أو فيما يكتبه الأفراد في الصحف أو المراسلات ، أو كان في

الترجمات من لغات أخرى ، وكانت أساليب اللغة العربية متغيرة بين أشكال وأنماط غريبة ، وبين سجع وجناس رديء .

« وهناك أمر آخر كنت من دعاته والناس جمِيعاً في عمي عنه ، ربُّهُ عن تعقله ، ولكنه هو الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية ، وما أصحابهم الوهن والضعف والذل إلا يخلو مجتمعهم منه ، وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة .. نعم كنت من دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها .

« دعوناها إلى الاعتقاد بأنَّ الحاكم وإنْ وجبت طاعته ، هو من البشر الذين يخطئون وتطلبهم شهواتهم ، وأنه لا يرده عن خطئه ولا يوقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول أو الفعل .

« جهنا بهذا القول ، والاستبداد في عنفوانه ، والظلم قابض على صولجانه ، ويد الظالم من حديد ، والناس عبيد له وأى عبيد .

« نعم إنني في كل ذلك لم أكن الإمام المتبوع ، ولا الرئيس المطاع ، غير أنني كنت روح الدعوة ، وهي لا تزال في كثير مما ذكرت قائمة .

« ولا أرجح أدعوا إلى عقيدتي في الدين ، وأطالب بإتمام الإصلاح في اللغة ، أما أمر الحكومة فقد تركته للقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبّره ، لأنني قد عرفت أنه ثمرة تجنيها الأمم من غراس تغرسه ، وتنقوم على تتميّته السنين الطوال ، فهذا الغرام هو الذي ينبغي أن يعني به الآن . والله المستعان » .

ما هذ ومتناقضتها :

عاد محمد عبده من المنفى بعد أن قضى به ست سنوات أى خسيف

المدة التي حكم عليه بها تقريباً ، وكان ذلك بسبب سخط الخديوي توفيق عليه ، وفي مصر واجه محمد عبده الانجليز وتوفيق فمماذا كان رأيه فيما ؟

إن محمد عبده وضح رأيه فيما أياضحاً دقيقاً ، فقد سأله وزير الحربية الانجليزي السؤال التالي : ألا يرضى المصريون أن يكونوا في أمن وراحة تحت سلطة الانجليز ٠٠٠٠٠ ؟ فأجاب محمد عبده بقوة قائلاً : إن المصريين يحبون أوطانهم حب الشعب الانجليزي لبلاده ، والنفرة من ولاية الأجنبي من طبيعة البشر ، هذا بالإضافة إلى التعاليم الإسلامية في هذا الشأن ٠

وعن الخديوي توفيق يقول محمد عبده : إن توفيق باشا أساء إلينا أكبر إساءة ، لأنه مهد لدخول الانجليز بلادنا ٠ ورجل مثله انضم إلى أعدائنا أيام الحرب ، لا يمكن أن نشعر نحوه بأدنى احترام ، إننا لا نريد خونه ٌ وجهاتهم مصرية وقلوبهم انجليزية ٠

ومع هذا فعندما عاد محمد عبده من منفاه ، وجد أن السلطة الكاملة في يد الانجليز ، وأن نفوذهم قد امتد إلى جميع الواقع ، وأن وسيلة الاصلاح الذي ينشده لابد أن تكون عن طريقهم ، ومن هنا قدم تقريره عن اصلاح التعليم إلى اللورد كروم ، وطلب صوراً مختلفة من الإصلاحات عن طريقه ، وقد أثار عليه هذا الاتجاه كثيرين من الناس ، فالخديوي اتخذها وسيلة ليثأر لنفسه منه ، والحزب الوطني عارض فيه هذا الاتجاه ، وقاده الأزهر كانوا ينافسون محمد عبده ويضيقون بآراءه الإصلاحية التي تهاجم فكرهم وتراثهم فانضموا إلى معارضيه ، وفي هذا الجو عانى محمد عبده فترات مريرة وشهيرت به الصحف والمجلات ، وكان شاعراً ، بلائن على حساب أصحابه وصحته ٠ ومات

- ٤٦٩ -

رحمه الله ، واحتقلت الحكومة بتشييع جنازته ، ولكن الخديوي أُنكب من
اشترك في تشييع جنازته من رجال الماحشية وأعوان القصر ..

وإذا كان محمد عبده قد مات فإن أفكاره لم تتمت ، وكيف تموت
أفكار حافلة بالأصالة والعمق ؟ لتصبح محمد عبده الآن موذن الرضا
والتقدير بين أكثر طبقات الأمة .

رحم الله محمد عبده ، فقد كان من خيرة من عرفتهم البلاد في
الوطنية والعبقرية والعمل الراقي لخير الإسلام والمسلمين .

- ٤٧٠ -

٤ - فترة تعدد السلطات

من الاحتلال البريطاني إلى الحرب العالمية الأولى

١٨٨٢ - ١٩١٤

الخديوي توفيق (١٨٣٩ - ١٨٩٢) :

عُزِّل اسماعيل وتولى توفيق كما رأينا من قبل وكان توفيق ضعيفاً ، يحس من أول يوم أنه مدين بعرشه إلى القوة الأوروبية التي جاءت به إلى هذا العرش ، وكان الوعي العام يقوى ، وثورة الشعب على المسلطين الذين جلبو له الدَّيْن والنفوذ الأجنبي تشدّد ، وكل هذا دفع « توفيق » إلى أن يلقى بنفسه في أحضان الغرب ليتّكى بهم حَوْلة المصريين .

توفيق ورياض ورفقي : ثلاثي ردئ :

وكان شريف قد استقال وجاء بعده رياض ، وللهذا حظوظه لدى الأوروبيين حتى كان يُعَذَّث ممثلاً لهم ، ومحققاً لرغباتهم ، فنافس بهذه المكانة الخديوي الذي كان لا يريد أن يشاركه أحد في القرب من أولياء نعمته ، ثم كان وزير الحربية في هذه الوزارة هو عثمان رفقي ، وهو شركسي متучب ، تخطى المصريين في الترقية وقصرها على بنى جنسه ، فقدم زعماء الجيش المصريون (عرابي وعلي فهمي وعبد العال حلمي) شكوى ضده وطالبوه بعزله ، وكان نتيجة ذلك أن استدعاهم عثمان رفقي إلى ثكنة قصر النيل وهناك قبض عليهم وزج بهم في المعتقل ، ولما تأخرت عودة هؤلاء الزعماء زحفت قوة من الجند وأخرجتهم بالقوة من المعتقل ، وسار هؤلاء جميعاً إلى « عابدين » فيما يعرض ، بمظاهره عابدين الأولى مطالبين بالإنصاف والعدل وبسرعه عزل رشقي من الوزارة وتم لهم ذلك في فبراير سنة ١٨٨١ .

ومن هنا بدأت الأحداث تتوالى حول عرابي الذي « رعنان ما انتقل

من مثل للجيش الى ممثل للأمة ، إذ تلقى توقيعات الأمة بتفويضه للحديث باسمها ، وانتقل من قائد ينادى بالاضطهاد الواقع على الضباط والجنود الى زعيم يرد الاعتداءات عن المصريين وينادى أعداءهم ، وبهذا أصبحت ثورة عرابي حركة قومية يتمثل فيها الشم العربي والفسر الإسلامي ، واتجهت هذه الحركة الشعبية لتجاهه القوى المختلفة التي تألفت ضد صالح الشعب ، فلنبداً حذيناً يأخذ عن عرابي وعن الثورة العربية ونتائجها :

الثورة العربية والاحتلال

نضع فيما يلى الخطوط العريضة لجريات الأحداث في هذه الفترة
الحقيقة :

— عزّل رفقى باشا وعين محمود سامي البارودى بدلا منه وزيراً
للحربية ، في فبراير سنة ١٨٨١ وعدّ هذا انتصاراً لعرابي وزملائه .

— بدأ عرابي يوسع في سلطانه ، فلم يكتف بأن يكون متحدثاً
باسم الجيش ، وإنما أخذ يجمع التوقيعات من الأهالي والأعيان ليتحدث
باسمهم ويطالب بتحقيق آمالهم الوطنية كما ذكرنا آنفاً .

— عدّ البارودى مسؤولاً عن ذلك وعن جرأة رجال الجيش ، فعزله
رياض في أغسطس سنة ١٨٨١ وعين بدلا منه داود يكن وزيراً للحربية
وهذا ابن أخي الخديوى فأثار ذلك رجال الجيش .

— قام عرابي بعد ذلك بمظاهرة عسكرية في ميدان عابدين (سيتمبر
سنة ١٨٨١ وهي مظاهرة عابدين الثانية) ، قدم فيها مطالب الأمة إلى
الخديوى ، وهذه المطالب هي إقالة وزارة رياض ، وتشكيل مجلس نواب ،
وزيادة عدد الجيش ، وإنصاف الضباط المصريين .

— واستجاب الخديوى مكرهاً لهذه المطالب فعين شريف رئيساً

الوزارة ، وتم تكوين مجلس شورى النواب الذى أصر على فحص الميزانية فاثار بذلك مخاوف انجلترا وفرنسا ، وقررتا نزورة التدخل الحازم فى شئون مصر ، وأعلنتا مسؤوليتها لحماية عرش الخديوى ، وعد ذلك تدخلا صريحاً فى شئون مصر ، ولكن الخديوى رحب به .

— واستقالت وزارة شريف لعدم استطاعتها التوفيق بين الاتجاهات المختلفة ، وتألفت وزارة البارودى فى فبراير سنة ١٨٨٢ وعين عرابى وزيراً للحربية بها ، وكم بذلك نفوذ العرابيين ، وزاد قلق الدول الاستعمارية .

— وحدثت مؤامرة جركسية للقضاء على عرابى ، ولكن أحد المتأمرين أفشى سرها فقبض عرابى على المتأمرين وفيهم رفقى باشا ، ووُقعت عليهم عقوبات تشمل النفي والتجريد من الرتب والأوسمة ، وبيدو أنه كان الخديوى يدّ في هذه المؤامرة ، ولذلك حاول التخفيف من الأحكام التى صدرت ضد الذين قاموا بها ، ولكن الحكومة رفضت ذلك ، وظهرت إشاعات باتهام الخديوى ، وبالتفكير فى خلمه ، فالقى هذا بنفسه بين أحضان انجلترا وفرنسا .

— أرسلت انجلترا وفرنسا أسطولاً مشتركاً إلى مياه الاسكندرية لحماية الخديوى ولحماية الحاليات الأوروبية ، وسافر الخديوى من القاهرة إلى الاسكندرية ليكون على مقربة من هذا الأسطول ، ثم انسحب الأسطول资料 the french and the english navies بالبقاء .

— خشي عرابى من تدخل الأسطول فأخذ يحصن المدينة ويرمم قلاعها .

— حدث شجار بسيط بين رجل مالطي وبين رجل مصرى ، وتطور هذا الشجار إلى خلاف بين المصريين والأجانب ، وسد المرج والأخطواب .

— طلب قائد الأسطول التوقف عن أعمال الترميم والتحصين ، ولما لم يستجب له عرابي ضرب المدينة في 11 يوليو سنة ١٨٨٢ ثم احتل الجنود الانجليز المدينة في الثالث عشر من نفس الشهر ، وسارع عرابي لقاومتهم وأنزل المصريون بهم كثيراً من الخسائر ، ولكن الانجليز استداروا ليدخلوا مصر من الجهة الشرقية عند قناة السويس ، ولم يكن ذلك قد غاب عن عرابي ، فقد حاول ردم القناة ولكن ديليسبيس طمأنه بأن حيدة القناة لا تسمح للسفن الانجليزية الحربية بالعبور بها ، وخدع عرابي بهذا الوعد وركر نشاطه في الشمال ، ولكن الانجليز استداروا ودخلوا من القناة ، وأسرع عرابي لقتالهم عند النيل الكبير ولكنه هزم في المعركة هناك ووقع أسيراً .

— عض الخديوي الانجليز ودافع عنهم من أول زحفهم ووصف هذا الزحف بأنه مشروع ، وعبر كل عرابي وعده خائفاً ، وكل هذا كان من أسباب هزيمة العرابيين واحتلال مصر ، وفي أثناء الصراع انضمت الدولة العلوية إلى الخديوي والتي الانجليز في هذا العدوان ضد عرابي وضد الشعب المصري .

— وحكم عرابي وزملائه فصلوا الحكم عليهم بالإعدام . ثم خف إلى التقى والتجريد من الرتب العسكرية ومصادرة أملاكهم ، ولم ينفذ حكم الإعدام إلا في سليمان داود الذي أمر بحرق الاسكندرية حتى لا تقع في أيدي الانجليز ، وتقى زعماء الثورة إلى سيلان ، ومات منهم في التقى بعد العال طمبي ومحمود فهمي ويعقوب سامي ، وعاد طلبه عصمت والبرودي وعرابي وعلى فهمي فقضوا آخر أيامهم في الوطن وعلقوا به .

عرابي في الميزان :

قبل أن ندع عرابي يجدر بنا أن نقرر أن الحماسة الوطنية عنده كانت أعمق عن الحرص والاستعداد ، لقدس كانت كل القوى تقى، في وجه

عرابى » كان الباب العالى يقف ضده ، وكان الخديوى يعارضه لأنه عرف أن النهضة الوطنية سيكون فيها قضاء عليه ، وكان الانجليز والفرنسيون ودول أوروبا بوجه عام ترجموا وتنطع لاتهام إفريقية ، ولكن ذلك فيما يبدو غاب عن ذهن عرابى ، كان الشراكسة والعناصر الأجنبية بالجيش والحكومة ينادونه ، والرسوة اللعينة كانت تناسب في الظلام فتقتل بسمومها بعض الضباط أمثال الخائن على يومى الذى أخلى الطريق للانجليز عند التل الكبير ، وكان بعض ذوى المصالح يطمعون في إقطاعات الخديوى ومكافأة الانجليز » فأذروا القوى المعتمدة ، ومن هؤلاء عرب الهنادى وعبد الشهيد بطرس وأخرون . ولم يُعد عرابى لهذه القوى العدة اللازمة ، وراح بجيش قليل العتاد والذخائر يواجه كل هذه القوى .

وخدع عرابى أيضاً بكلمة قالها له ديليسبيس بأنه لن يسمح لأية قوى باختراع حياد القناة ، ونسى عرابى أن ديليسبيس أكثر حباً لبلاده وللخديوى الذى يمثل مصالح الغرب من جهة مصر ولشعب مصر .

لقد كان عرابى رجلاً عسكرياً حسن النية ، ولكنه لم يكن سياسياً ، وقد كان من الممكن أن يقمع عرابى ببعض ما حصل عليه من مطالب للأمة دون أن يبالغ فيطلب أسمى الأهداف من غير وسائل كافية لتحقيق مطالبه ، فسئلتم المجد يحسن أن يرقاها الإنسان درجة درجة ، ولكن عرابى أراد الطفرة ، ولم يكن الوقت قد آن لذلك ولا كانت معه مؤهلاتها فسقطت منه البلاد تحت الاحتلال .

قضايا حول عرابى :

بقيت نواح مهمة تتصل بعرابى وبالثورة العربية نشير لها فيما يأتى :

أولاً — لقد ذكرنا آنفاً أن الخديوى توفيق كان خائناً كالخوجة ، وكان الشعب كله يقف منه موقف العداء ، لأنه ألقى بنفسه في أحضان

عدو البلاد ، ولكننا يجب أن تذكر أن هذه الخيانة لم تكن طابع الأسرة المالكة كلها ، فقد كان منها عدد كبير في قمة الشرف والأمانة والوطنية ، فعندما احتاجت الثورة للمال تقدم الشعب بسخاء لمساعدة الثوار ، وتقدم مع الشعب عدد كبير من الأسرة المالكة في قمتهما الأميرة « خوشيار » أم الخديوي اسماعيل التي تبرعت بالكثير مما تحتاجه الحركة العربية وأقتنى بها كثیرات من الأمیرات .

واستمر تأييد المخلصين من الأمراء والأميرات لعرابي بعد هزيمته ، فقدم له الهدايا وهو في طريقه إلى المنفى ، وكن يصرحن بأن الحركة كانت لخير مصر والمصريين ، ولذلك كان تأييدها واجبا على كل مصرى ومصرية .

إننا نحيي هؤلاء المخلصين الأوفياء بنفس القسوة التي نلعن بها الخونة والانتهازيين .

ثانياً - من النقاط غير الواضحة في التاريخ أن عرابي عقب هزيمته أسرع للقاهرة وسلم نفسه لسلطات الاحتلال البريطاني والانسان يتتسائل : هل فعل عرابي ذلك لثقته في عدالة هذه السلطات وثقته كذلك في أن حنق الخديوى لن يرحمه وسيدفع به للمقصولة ، فاحتمنى عرابي بأخف النصرىن ؟

وقد كان من نتائج هذا التصرف من عرابي أن اتهمه بعض المفكرين بأن الثورة كانت صناعية ، وأن اتفاقا سابقا حدث بين عرابي والإنجليز ليقوم بثورة يفتح بها الباب لدخول الانجليز ، وساعد على ذلك أن الانجليز عملوا بكل الجهد حتى لا يحكم على عرابي بالاعدام .

والذى يعرف خلق الأوربيين يدرك أن نجاح الاحتلال يضع نهاية للحنق ، ويدفع هؤلاء لإظهار نوع من التسامح لجذب القلوب نحوهم ، وتهدئه الشعور تجاههم ; ومن أجل هذا نجد أن الشعب الانجليزى

- ٤٧٦ -

يسهم في توكيل محام إنجليزي ليدافع عن عربي ، وعلى الرغم من الصراع بين عربي والإنجليز ، فإن شعور الكثير من الإنجليز كان يتجه لاحترام المواطن المخلص لبلاده ، ولذلك لا نستبعد أن يبذل عربي احترام الإنجليز .

ثالثاً — من سياسة الإنجليز بعد الاحتلال مصر أن عملاً على تحقيق بعض آمال المصريين التي كان المصريون شديدي الحرث على نيلها ، لقد حاربوا السخرة والظلم ووضعوا هذا للتفوق الشركسي في المجتمع وفي الجيش ، وكانتوا بذلك يطمعون في التقرب من المصريين ، وخلق طبقة من المصريين تدين للإنجليز بمكانتها الاجتماعية والاقتصادية .

وهذا الموقف يساعدنا كذلك على فهم النقطة السابقة وهي موقف سلطات الاحتلال من عربي ورفاقه لنفس الغرض الذي ذكرناه وهو خدبة المصريين والتقارب إليهم .

ويرى المؤرخ أن الطبقة الجديدة من المصريين التي تكونت على هذا النحو هي التي ساعدت على قيام ثورة ١٩١٩ وهي التي قادت الثورة ، بعد أن خلا الميدان من الإثارة والشراهة ، وظهرت طبقة مصرية تماماً تعبّر عن أحاسيس المصريين .

رابعاً — وبالتالي فإن نجاح ثورة ١٩١٩ ووضع الدستور وقيام البرلمان والوزارات المصرية . وما تلا ذلك من تمصير واسع للنظام الاقتصادي وجعل الوظائف المصرية للمصريين ، والارتفاع في امتلاك الأراضي والثراء . وإنشاء الجامعات وما تلا ذلك من بروز طبقة عالية الثقافة بمصر كل ذلك مهد لحركة الجيش سنة ١٩٥٢ التي قضت على الحكم الملكي الذي وضع توقيف "بدور" فساده ، ولم يتوقف فيه هذا الفساد حتى اختفى .

وعلى العموم فإن فشل عربي استتبع الاحتلال المثير ، الذي قاومته

مصر أكثر من سبعين عاماً ، قدمت خلالها أغلى الدماء لقتزاح أقدام العدو اللعين عن الوطن المقدس .

في أعقاب الاحتلال :

كان من الخـدـع التي قامت بها بـرـيـطـانـيا بعد الـاحتـلـال أن أذاعت أن احتلالها للبلاد احتلال مؤقت زـيـثـما تستـقـرـ سـلـطـةـ الـخـديـوـيـ وـيـتمـ الـاطـمـئـنـانـ عـلـىـ سـلـامـةـ الرـعـاعـيـاـ الأـجـانـبـ وـمـصـالـحـهـمـ ، ولكن أعمالـهاـ كانتـ تـنـمـ عنـ إـصـارـ علىـ تـطـوـيلـ الـاحتـلـالـ ، فـقـدـ اـتـجـهـتـ لـفـحـصـ شـامـلـ لـحـالـةـ مـصـرـ ، وـعـهـدتـ بـذـلـكـ إـلـىـ الـلـوـرـدـ «ـ دـوـفـرـيـنـ »ـ فـاقـتـرـحـ إـنشـاءـ جـيـشـ صـغـيرـ جـدـيدـ يـرـأسـهـ ضـبـاطـ منـ الـأـنـجـليـزـ وـتـكـونـ المـوـادـ وـالـأـسـلـحـةـ الـلـازـمـةـ لـهـ منـ إـنـجـلـنـتـرـاـ ، وـلـذـاـ أـغـلـقـتـ الـمـصـانـعـ التـيـ كـانـتـ مـوـجـودـةـ بـمـصـرـ ، كـمـ أـزـيـلـتـ الـبـرـيـةـ الـمـصـرـيـةـ وـعـطـلـتـ تـرـسـانـةـ الـاسـكـنـدـرـيـةـ ، وـأـصـبـحـتـ مـهـمـةـ الـجـيـشـ الـمـحـافـظـةـ عـلـىـ الـأـمـنـ الدـاخـلـىـ ، وـاقـتـرـحـ دـوـفـرـيـنـ كـذـلـكـ إـلـغـاءـ الـحـكـمـ الـنـيـابـيـ كـمـ اـقـتـرـحـ بـعـضـ الـإـصـلـاحـاتـ مـثـلـ تـنـظـيمـ الرـىـ وـتـخـفـيفـ الـضـرـائـبـ عـنـ الـفـلاـحـيـنـ وـاصـلـاحـ الـشـرـطـةـ ، وـقـنـعـ بـعـضـ النـاسـ بـهـذـهـ الـاصـلـاحـاتـ ، وـبـالـهـدـءـ الـذـىـ أـعـقـبـ العـاصـفـةـ ، وـرـاحـ آخـرـونـ لـاـيـسـغـلـهـمـ شـىـءـ عـنـ تـحرـيرـ بـلـادـهـمـ مـنـ الـعـدـوـ أوـ مـنـ الـأـعـدـاءـ الـذـيـنـ تـلـبـواـ عـلـيـهـاـ ، وـلـئـنـ فـشـلـتـ ثـورـةـ عـراـبـيـ فـيـنـبـغـىـ أـنـ نـتـذـكـرـ أـنـهـاـ كـانـتـ تـمـثـلـ حـلـقـةـ فـيـ سـلـسلـةـ الـثـورـاتـ التـيـ هـبـتـ لـتـحرـيرـ مـصـرـ مـنـ الـعـثـمـانـيـنـ وـالـمـالـيـكـ الطـغـاهـ وـمـنـ الـخـوـنـةـ مـنـ أـسـرـةـ مـحـمـدـ عـلـىـ ، وـاـذاـ قـتـصـىـ بـالـفـشـلـ عـلـىـ حـلـقـةـ مـنـ سـلـسلـةـ الـثـورـاتـ غـلـمـ يـكـنـ ذـلـكـ فـيـ الـوـاـقـعـ إـلـاـ نـقـلـاـ لـقـوـتـهـاـ إـلـىـ الـحـلـقـةـ التـالـيـةـ ، وـهـذـهـ هـىـ طـبـيـعـةـ الـثـورـاتـ فـيـ كـلـ الـأـزـمـنـةـ وـكـلـ الـأـرـجـاءـ .

تعدد السلطات :

ترك فشل ثورة عرابي البلاد خاضعة لعدد من السلطات : كان في قمتها الانجليز ، وكان منها العثمانيون الذين كان لهم السلطان الشرعي ، ومنها الخديوي الذي كان الحاكم المباشر ، ومنها الشعب الذي سرعان

ما بدأ ينفخ عن نفسه غبار المهزيمة ويهب من كبوته ، ومن أجل هذا سميانا هذه الفترة بفترة تعدد السلطات .

على أن سلطة الانجليز أصبحت فوق كل السلطات ، وكان اللورد كروم - الذي يمثل انجلترا - هو الحاكم الفعلى لمصر ، وقد دامت سلطته ٢٤ عاما بدأت بالاحتلال وانتهت عقب مأساة دنشواي ، ومن الناحية المالية صدر مرسوم بالغاء الرقابة الثانية ، وأصبح المستشار المالي الانجليزي هو صاحب الأمر والنهي في الشئون المالية .

تشييت الاحتلال :

أما العلاقة بين انجلترا والباب العالى فقد بدا واضحا في أول الأمر أنه لا بد من تسويتها بطريق أو بأخر ، فقد استغلت انجلترا الباب العالى في احتلالها لمصر ، ولو بدأ الاحتلال بدون تأييد الباب العالى وبدون تأييد الخديوى لصادفت انجلترا ألوانا من المتعصب ، ومن أجل هذا أرادت انجلترا من حين إلى آخر أن تظهر للباب العالى حسناً نواياها واستعدادها للجلاء ، ولكن ذلك كان معلقاً في نطاق السياسة البريطانية المطاطة ، وفي وسط هذه الاتجاهات عقد اتفاق مبدئى بين انجلترا والباب العالى في أكتوبر سنة ١٨٨٥ ، وقد نصّ فيه على أنه اذا تم للدولتين اقرار الأمور في مصر ، يقدم مندوبي الدولتين فيها تقريرا إلى حكومتهما ، وحيثئذ تتظر الدولتان في عقد اتفاقية تتسحب بها الجيوش البريطانية في فترة مناسبة وفي ١٥ يناير سنة ١٨٨٦ أعلن لورد سولسيبرى في رسالة إلى مندوبيه في تركيا : إن حكومة جلالة الملكة عندها كل رغبة في إرضاء الباب العالى من ناحية الجلاء وأن كانت لا تستطيع لظروفها الخارجية تعين موعد قريب لهذا الجلاء قبل أن تطمئن إلى سلام مصر الداخلى والخارجى ، وأن هدف انجلترا هو حيدة مصر ، ولكن انجلترا لا بد عاملة على المحافظة على النظم التى أقامتها فى وادى النيل ، حتى لا تضيع سدى هذه التضحيات التى قدمتها ، وطالما حافظت الحكومة المصرية على مركبها ولم يقع أى اضطراب فان المغوب فيه الا يبقى بأرض مصر جندى أحلى واحد .

وبعد مباحثات طويلة ظهر أن إنجلترا تحرس على أن تطول اقامتها بمصر ، وأنها تستعمل جانب التسويف ، والارضاء بالألفاظ ، وأخذت تتكلم عن حماية الأجانب ، واستخدام ضباط انجليز في الجيش المصري ، بل ت يريد تصريحًا يتحقق في العودة إذا جدَّ ما يستلزمها ، واشترطت إنجلترا موافقة الدول ذات الشأن على هذا الاتفاق .

وعلى الرغم من أن السلطان وافق على مشروع هذه الاتفاقية فإن الدول رفضتها إذ رأت فيها اعتراضاً من السلطان بحق إنجلترا في السيطرة على جيش مصر وفي إعادة احتلالها في مناسبات كثيرة ، ووضحت روسيا وفرنسا أن هذه الاتفاقية تقضي على حيادة الدولة العثمانية ، وأضافت فرنسا أنها تقضي على التوازن الدولي في البحر المتوسط ، وصرحت الدولتان بأنه إذا نفذت هذه الاتفاقية كانتا في حلٍ من احتلال أي جزء من أجزاء الدولة .

ومرَّ الزمن وزاد تمسك إنجلترا بمصر أو انقض بعد غموض ، وأرضت إنجلترا الدول الأوربية في المعاهدة السرية التي عقدت سنة ١٩٠٤ بين إنجلترا وفرنسا والتي أطلقت يد إنجلترا في مصر نظير اطلاق يد فرنسا في سوريا ولبنان وفي الشمال الإفريقي كما أرضت روسيا في معاهدة ١٩٠٧ حيث وافقت لها على بعض مناطق الفنوج ، ووافقت ألمانيا وإيطاليا على هذه التسويفات نظير أطماع أقرت إنجلترا بالموافقة عليها . وعندما أعلنت الحرب العالمية الأولى وانضمَّت تركيا إلى جانب ألمانيا ، أعلنت إنجلترا قطع العلاقة بين تركيا ومصر ، كما أعلنت فرض حمايتها على مصر .

ثورة المهدى ولخلاة السودان

كانت الثورة العربية وما اتصل بها من الاحتلال المشئوم أهم حادث في تاريخ مصر في عهد توفيق ، وكان الحادث المهم الثاني في هذا العهد هو ثورة المهدى ولخلاة السودان ، وقد تحدثنا عن «السودان» حديثاً مستفيضاً

خاصاً في الجزء السادس من هذه الموسوعة ، وذكرنا عند الكلام عن محمد على زحفه على السودان ، وأهدافه من هذا الزحف وما تحقق له من هذه الأهداف .

وقد أقامت مصر في عهد أسرة محمد على بعض الاصلاحات في السودان كإنشاء مدينة الخرطوم ومدينة كسلا ، وتوطيد الأمن ، ودخول بعض المزروعات ، ولكن السودان حملت مع مصر نتائج حروب محمد على الفاشلة ، وعانت مصر والسودان معاً نزق عباس وديون اسماعيل ، وبالاضافة إلى هذه المتابع المشتركة كان بعض الباشوات ولاة السودان يسيئون معاملة الأهالي ويقيسون في تحصيل الضرائب أحياناً مما جعل بعض السودانيين يحسون أنهم يعاملون ، لا كجزء من الوطن الواحد ، بل كمستعمرة ترزح تحت ثقل المحتل ، والحق أن المصريين في مصر كانوا يعاملون نفس المعاملة ويعيشون تحت وطأة هذا العبء نفسه ، ولكن السودانيين كانوا بعيدين عن مركز السلطة بالقاهرة ، فثاروا على أسرة محمد على كما ثارت عليها مصر من حين إلى حين .

وشيء آخر حدد الوقت المناسب لثورة السودان ، ذلك هو التدخل الأجنبي في شؤون مصر ببـ الديون ، وامتداد هذا التدخل إلى السودان ، ثم الاحتلال البريطاني لمصر ، والخوف أن يمتد هذا الاحتلال الأثم إلى السودان إن لم يتخلص السودان من سلطان مصر تخلصاً تاماً .

كل هذا جعل السودانيين يلتقيون حول المجاهد السوداني محمد أحمد المقرب بالمهدى الذى ولد فى دنقلا سنة ١٨٤٣ ودرس فى شبابه الدراسات الإسلامية وال تعاليم الصوفية ، وشتهر بالبلاقة والذكاء ، ثم كاتب علماء السودان ورؤساء القبائل يدعوهـم للالتفاف حوله والجهاد فى سبيل الله والوطن ، واستجاب له أكثر السودانيـن ، وكانت مصر مشغولة بالثورة العرابية فنظم أمره ، ولم تـشـأ إنجلترا أن تدخل فى حرب مع السودان ، ولذلك نصحت باخـلاء السودان وبخـاصة بعد هزيمة الحملة التي قادها

« هكس باشا » وإيادتها وقتل قائدتها (نوفمبر ١٨٨٣) ، وقد سبقت هذه الحملة حملات أو محاولات قام بها الولاية بالسودان ولكن المهدى انتصر عليها جميعا وكانت انجلترا تقصد أن تعزل السودان عن مصر ، ثم تعود فتفتحه ليكون لقمة سائفة لها ، وهذا ما حدث وقد وضحت ذلك في الجزء السادس ، ولم يوافق شريف رئيس الوزراء على إخاء السودان - تمال قوله المشهورة « إذا تركنا السودان فالسودان لا يتركنا » ولكن الانجليز كانوا أصحاب الكلمة العليا ، فاستقال شريف ليخلع الطريق إلى نوبار الذي قبل الوزارة على أساس إخاء السودان ، وانتدب الجنرال « جوردون » الذي حكم السودان عدة سنوات في عهد اسماعيل باشا لينفذ إخاء السودان وليسحب القوات المصرية منه ، ولكن قوات المهدى حاصرته بالخرطوم وقضت عليه .

وينبغي هنا أن نتوقف قليلاً عن السير في مجريات الأحداث لنذكر أن كتاباً صدر حديثاً (١٩٦٦) يصور حياة جوردون و نهايته ، ومؤلف الكتاب هو انتوني ناتنج الوزير البريطاني الحافظ الذي استقال من وزارة إيدن استنكاراً للعدوان على مصر ، وعنوان الكتاب هو « جوردون شهيد في غير محله » ويزير ناتنج أن جوردون لم يكن كما أشيع قديساً وإن تظاهر بذلك ، فليس قديساً من كان يستأجر لضرب حركات الشعوب في الصين وفي أفريقيا ، والحق أنه كانت تؤثر فيه عوامل من الشذوذ ، فتظاهر بالتدبر أحياناً ، واندفع أحياناً أخرى يطلب الموت ، فالموت وحده يرحمه مما يحس به من رغبات شائنة ، ومن رسائله التي نشرت بعد موته واستدل بها على جانب الشذوذ فيه قوله : أعجبتني السيدة « فلانة » أنها جميلة وريقة ، ولكنني لا أطمئن في الزواج منها لأنني ميت والموتي لا يتزوجون ٠٠٠ وقد كان الميت فيه هو الرجل ، والذي ليس رجلاً لا يتزوج امرأة .

من أجل هذا كان جوردون يريد الموت ، لأن الموت يشبه النار التي يشعها اللصوص بعد عمليات السطو ، فالنار تمسح بصمات أصحابهم وتختفي معالهم وتضل العدالة ، ومن أجل رغبته في الموت ألقى بنفسه في عدة

معارك طاحنة ، ولكن الموت كان يخبطاه ، ربما ليطيل تعذيبه ، وقد بلغ به اليأس مبلغه إبان حركة السودان ، فلم يدافع عن نفسه بل أبعد جنوده ، وألقى بنفسه على التربير ينتظر الموت الذي كان فيه نجاته .

ولنعد بعد ذلك إلى أحداث السودان لنقرر أن الانجليز أحسوا قبيل نهاية جوردون بسوء الحالة بالسودان وبأن أتباع المهدى طرقوا باب الخرطوم ، فأرسلت الحكومة الانجليزية «اللورد ولسلى» لإنقاذ جوردون واسترداد الخرطوم ولكن جوردون قُتل قبل أن يصل «اللورد ولسلى» فآخر الإنجليز التوقف عن المسير في العمليات الحربية بالسودان وصدرت الأوامر باستدعاء ولسلى وانسحاب القوات المصرية من الجنوب في يونيو

سنة ١٨٩٥ .

تصفيية ممتلكات مصر :

وأغلبظن أن هذه كانت سياسة تتوى بها انجلترا تنفيذ خطتها الاستعمارية لصالحها وصالح أوروبا ، فإنه بعد سقوط السودان سوت انجلترا مع ايطاليا وفرنسا ومع بلجيكا وألمانيا أمر الممتلكات المصرية على البحر الأحمر وفي حوض النيل الأعلى ، ولم يبق لصر الا بعض الموانئ القليلة التي ظلت حتى سلمها زبور الى انجلترا عقب مقتل السردار لي ستاك سنة ١٩٢٤ (١) .

وفي هذا المعهد (عهد نجاح الحركة المهدية) لم يستطع السودان المحافظة على أطرافه وممتلكاته أمام الاستعمار الأوزبى الذى كان يرمي الى تقسيم القارة ، فأخذت انجلترا ببربرة وبعض مديرية خط الاستواء ، وأخذت الحبشة هرر ، واستولت ايطاليا على مصوع .

(١) انظر تاريخ الملوخدت المصرية البريطانية ص ٢٣ للأستاذ شفيف فريسل .

— ٤٨٣ —

انجلترا وأطماعها في السودان :

ولم ينج السودان نفسه من الاستعمار الأوروبي ، فان الجلاء عن السودان لم يكن في الحق لضعف قوة انجلترا أمام جيش المهدى ، ولكن الإخلاء كان وسيلة لعزل السودان عن مصر ليكون ذلك خطوة في طريق استيلاء انجلترا عليه استيلاً مباشرًا وكاملاً ، وقد حققت انجلترا ذلك على مرحلتين ، ففي المرحلة الأولى استعادت السودان باسم مصر ولكنها سرعان ما رفعت العلم الانجليزي مع العلم المصري دليلاً اشتراك في السلطة ، ثم استولت على السلطة الحقيقية ، ولم تدع مصر مكانة ذات بال ، وذلك بمقتضى معاهدتها ١٨٩٩ ، وكان الذي وقعاها باسم مصر بطريق خالي الرجل المشكوك في إخلاصه للوطن .

أما المرحلة الثانية فكانت استكمال السلطات لها ، وخروج الجيش المصري من السودان سنة ١٩٢٤ وكذلك اخراج الموظفين المصريين كما ذكرنا عند الحديث عن السودان في الجزء السادس من هذه الموسوعة .

نهاية توفيق :

وجاءت بعد ذلك نهاية توفيق ؛ أو قتل نهاية ذلك العهد الحالك الذي خسرت فيه مصر انساعها وخسرت استقلالها ، ومات الرجل سنة ١٨٩٢ تاركاً أمرَّ الذكريات .

عباس طعن (١٩٩٦ - ١٩١٤)

كان عباس غالباً عن مصر عندما ملت أبواه ، إذ كان متاحقاً بجامعات فرنسا ، وبعد وفاة توفيق صدر فرمان عثماني أن يخلف عباس أباه ، على أن تُسند أمور البلاد إلى رئيس الناظر مصطفى فهمي باشا حتى يعود الخديوي الجديد .

— ٤٨ —

وعاد الخديوي من الخارج ، شاباً متفتحاً كبير الآمال ، وأحسن الشعب استقباله والاحتقاء بمقدمه ، وكانت سنه لم تتجاوز الثامنة عشرة ، فظهر منه اقبال على الشعب ، ورغبة في تحقيق آماله ، وأحسن كروم باتجاه الشاب الجديد ، فحاول أن يوقفه عند حده وأن يضغط عليه ، ولم يستجب الشاب لهذا الضغط ، بل انحاز إلى العناصر الوطنية التي بدأت تظهر بزعامة مصطفى كامل ، واتضح بعد فترة أن هوة واسعة أصبحت واضحة بين كروم ومعاونيه في جانب ، وبين الخديوي والشعب في جانب آخر ، وكانت انجلترا تتمسك بأن يكون لها الرأي في الشؤون الكبرى وبخاصة في تعين رؤساء الوزارات ، ومن هنا ظهرت مجموعة من رؤساء الوزارات كان أخلاقهم الوطني مشكوكاً فيه ، وكانت سياستهم ضدى للرغبات الانجليزية أكثر من أن تكون صدى للأمانى الوطنية ، ومن هؤلاء مصطفى فهمي سالف الذكر ، ورياضن باشا ، ونبوار باشا ، ويطرس غالى باشا ، أما الجبهة الوطنية فقد شهدت في مصطفى كامل روحها وثابة وتهبة عظيمة ، وأدركت تركيا أن الانجليز لا ينونون الجلاء عن مصر فانضمت لهذه الجبهة ، وأيدت الخديوي وأنعمت على مصطفى كامل بلقب الباشوية ٠

مصطفى كامل وما سأله دنشواي :

وراح مصطفى كامل يزور بلاد القطر ويدعو الأعيان والكبار لمؤازرة الحركة الوطنية ، فانضم له الوجهاء والمتقون ، ودوّي صوته في كل مكان بمصر وبالخارج يهاجم الانجليز ويدعوهم للجلاء عن البلاد ، وصدرت صحيفه اللواء ، وكان بدء صدورها في يناير سنة ١٩٠٠ وكتب فيها مصطفى كامل ومحمد فريد وشوقى الشاعر وأسماعيل صبرى وغيرهم ، وأصبحت اللواء مدرسة لبث الروح الوطنية ، واهتم مصطفى كامل وأعوانه بتقوية الصلات التاريخية والوطنية التي تربط بين المسلمين والأقباط ، فأضعفه النعرة الدينية التي كانت انجلترا تحمل على تقويتها ، ثم حدثت

مأساة دنشواي (١٩٠٦) وتبعدى فيها استبداد المستعمر وفقدان الجانب الانساني فيه ، فقد راح ينتقم من فلاحي هذه القرية (بمديرية المنوفية) بقسوة لا يعرفها ضمير الحق ، لأنهم اتهموا بقتل أحد الجنود الانجليز ، وحكم المتهمون محاكمة صورية ، وصدرت الأحكام باعدام أربعة منهم وجاء ذلك ثمانية ، وبالأشغال الشاقة على اثني عشر ، ونصبت المشانق بالقرية ، ونفذ حكم الاعدام علينا ، كما نفذ كذلك حكم الجلد .

وكان المحكمة برئاسة بطرس غالى ، وتولى الهلباوى الدفاع عن وجهة النظر الانجليزية ضد المصريين ، وهكذا وقف الاثنان ضد مصر . ولم تغفر لهما مصر هذه الخيانة ، أما الأول فسقط بيد فدائى مصرى سنة ١٩١٠ لهذا الموقف ، ولأنه اتجه إلى الموافقة على مد امتياز شركة قناة السويس كما سياتى ، وأما الثاني فكانت عقوبته هربة طويلة ، كانت الاذراء والاحتقار ، وأمتد به العمر ليرى عيون الناس تتفقه بالنشر ، وقلوبهم تلعن ، وضاع ماله حتى عرف الفقر وانقض من حواله نووه ، حتى مات ذليلًا كسيه ، ولا تزال اللعنات تنزل على الاثنين وعلى كل خائن لوطنه وبنى جنسه .

لقد كانت هذه الحادثة وبالا على الاستعمار ، فقد أمسك بها مصطفى كامل وراح يبرر خلالها بالداخل والخارج طغيان كرومر ودولة كرومر ، واضطرب الانجليز أن يتقدروا ويسبحوا هذا الطاغية من البلاد بعد أن باشر سلطات لاحدود لها خوالى ربع قرن .

ومات مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ فأخذ محمد فريد مكانه ، وفي إيان زعامته أرادت شركة قنال السويس سنة ١٩١٠ أن تمد امتيازها ، وكان بطرس غالى رئيس الوزراء آنذاك يميل إلى الموافقة ، ودار نقاش عنيف بين الحكومة وبين أعضاء الجمعية العمومية ، وقد محمد فريد الجماهير معارضًا اتجاه الحكومة والشركة ، وأنتم بطرس غالى بالخيانة لكثره ما نسب له من أشياء تتنافى مع الوطنية ، فأطلق عليه ابراهيم الورداوى أحد

الشبان الفدائين الرصاصي قضى عليه (١٩١٠) وسلم نفسه فحكم عليه بالإعدام ، وبسبب هذا الوعي القومي خمد مشروع الشركة .

سياسة الوفاق وعزل الخديوي :

ومن أحداث الوعي بمصر كان الوعي بتركيا ينمو ويشتهد ، فنجمت سنة ١٩٠٨ الحركة الدستورية وأعلن الدستور ، وكان لهذا أثره في الحماسة المصرية ، وساعد على ذلك أن ممثل بريطانيا بعد كروم ، وهو « السير إلدن غورست » سار على سياسة تغافل سياسة خلفه ، أطلق عليها « سياسة الوفاق » فاشتدت الحركة الوطنية ، ولكن سياسة الوفاق كانت ترمي قبل كل شيء إلى وفاق مع الخديوي بارضائه وتوسيع سلطانه ، وقد جذبت هذه السياسة ذلك الخديوي من جانب الشعب إلى جانب المستعمر ، فأصبح هذا يخشى إن انتصر الشعب أن يسلب منه السلطان الذي وضعه الانجليز بين يديه ، فانحاز للإنجليز وابتعد عن معاضة الحركة الوطنية .

وتوفي إلدن غورست سنة ١٩١١ وخلفه كتشنر ، فتوقفت « سياسة الوفاق » بين الانجليز والخديوي ، وأثر اللورد كتشنر أن يتقرب إلى الشعب ، فأقام الجمعية التشريعية - سنة ١٩١٣ التي حاكت محل الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين ، كما عمل على حماية الفلاح ، وحوال ديوان الأوقاف إلى وزارة حتى لا يكون للخديوي الاشراف على هذه الأوقاف ، وكانت الحرب العالمية الأولى تطل على العالم ، وكانت تركيا تتفق ضد إنجلترا ، فانحاز الخديوي للاتراك ، ولذلك ما إن أعلنت الحرب حتى عزل الانجليز الخديوي وأعلنت بريطانيا الحماية على مصر ، وأنهت السيادة العثمانية بذلك إلى الأبد ، وانتقلت مصر بهذا من عصر إلى عصر .

أسرة محمد على وإنشاء جامعة القاهرة

تحدثنا من قبل عن المؤسسات العلمية التي أنشأها محمد على والخديوي اسماعيل ، فكان لها الفضل فيما أحرزته مصر من سبق علمي في المنطقة ، وقد حدث شيء رائع في هذا المجال في عهد الخديوي عباس حلمي ، هو قيام جامعة القاهرة أو الجامعة الأم كما نسميتها ، وقيامها بهبة مالية خاصة قدمتها الأميرة فاطمة الزهراء ابنة الخديوي اسماعيل ، وثبتت فيما يلى خلاصة كلمة تاريخية عن نشأة هذه الجامعة كتبها الدكتور عبد الحميد سلطان ، قال :

في ١٩٠٦/٩/٣٠ نشر الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد خطابا من مصطفى كامل الغمراوى وهو من أعيان بنى سويف يطالب فيه بإنشاء «جامعة مصرية» قائلاً أن ارتقاء المعرفة في مصر لن يتم إلا بإنشاء مثل هذه الجامعة وبعلن تبرعه بمبلغ ٥٠٠ جنيه لهذا الغرض النبيل ، فحاز سبق الشرف وكان أول المتبرعين ، وفي خلال أيام معدودة أرسل سعد زغلول وقاسم أمين رسالتين إلى الصحف يعلنان استعدادهما للكتابة في هذا المشروع بل إن سعد زغلول خططا خطوة مهمة لتنفيذ هذه الفكرة فقد تولى الدعوة لعقد اجتماع لهذا الغرض ، وفي هذا الاجتماع تشكلت اللجنة التأسيسية لمشروع الجامعة المصرية برئاسته ، وتم الاجتماع الأول لها في بيته يوم ١٢/١٠/١٩٠٦ وحضر الاجتماع ٢٧٦ عضواً مؤسساً كان من بينهم مصطفى كامل الغمراوى وقاسم أمين ومحمد فريد وعبد العزيز شهنى وعبد العزيز جاويش وويماس واصف وحفى ناصف وعبد الله أباطة ، وقد بلغت تبرعات الجميع في ذلك اليوم حوالي خمسة آلاف جنيه .

وفي ١٩٠٦/١٠/٢٨ استقال سعد زغلول من رئاسة اللجنة لأنه أصبح وزيراً للمعارف وتولى رئاستها قاسم أمين لمدة شهرين فقط ثم تناهى عن الرئاسة للأمير أحمد فؤاد الذي صار فيما بعد سلطاناً على مصر ثم ملكاً عليها .

ومن أهم التبرعات التي حصلت عليها الجامعة في عصرها المبكر مبلغ ٣٦ ألف جنيه بالإضافة إلى ٣٠٠ فدان أوقفها لصالحها كل من الأمير يوسف كمال وحسن شريف باشا وحسن بك زايد بالتساوي.

وفي ١٢/٢١ تم افتتاح الجامعة المصرية رسمياً في احتفال حضره الخديو عباس حلمي في مقرها المؤقت بقصر جناكلس حيث بدأت الدراسة في نفس اليوم، وهذا القصر هو الذي كان يشغل مكان الجامعة الأمريكية في ميدان التحرير وقد تم استئجاره بمبلغ ٤٠٠ جنيه سنوياً وكان ذلك يمثل عبئاً كبيراً على موارد الجامعة الوليدة التي بدأت تتغير مالياً، وهكذا ورغم كل العقبات فقد تم ميلاد الجامعة وتحول الحالم إلى حقيقة ولكنها كانت تحتاج إلى دعم مالي كبير فإن إنشاء الجامعة المصرية ثم استمرارها كاد يصبح من الأمور التي يصعب تحقيقها لو لا أنه في عام ١٩٠٩ تقدمت الأميرة فاطمة الزهراء ابنة الخديو اسماعيل وشقيقة الأمير أحمد فؤاد وأنقذت الجامعة من عثرتها بتبرعاتها التي خافت كل الخيال فقد أوقفت عليها أربعة آلاف فدان كانت تملكها في الدقهلية، كما وهبته مجموعة كبيرة من الحسل والمجوهرات، وأهبت إليها الأرض التي أقيمت عليها إدارة الجامعة وكلياتها في الجيزة، أي أنها قد تبرعت من مالها الخاص بما يساوي ١٠٠ مليون جنيه بعملة تلك الأيام لمشروع بناء الجامعة وقد تم الاحتفال بوضع حجر الأساس لها في الأرض التي تبرعت بها الأميرة وذلك في يوم ٣٠ مارس ١٩١٤.

ومن الغريب والمثير للخجل أنه في احتفالات العيد الماسي لجامعة القاهرة تبارى الجميع في ذكر كل من تبرع للجامعة من الرواد الأوائل ولكنهم كانوا ينسون اسم الأميرة فاطمة اسماعيل إلى أن ذكره أحدهم على استحياء وهذا طبعاً لأنها أخت الملك فؤاد وعمة الملك فاروق مع أنه لو لاما ملأت الجامعة بعد مولدها بقليل.

وهكذا ثري الأمير يوسف كمال يقدم للجامعة مائة فدان،

أما الأميرة فاطمة الزهراء فقد قدمت كل ما كانت تملكه فأنقتذت الجامعة
من نهاية كان يمكن أن تكون مريضة .

وإننا نتساءل منْ منْ ورثة عبد الناصر والسداد وأصحابها
يستطيع أن يقدم مما ربح ما يعادل أو ما يقرب مما قدمته الأميرة
العظيمة ؟ وبعض هؤلاء قد امتد ثراوته وشغله الناس بأمواله التي
تنقق أحياناً أموال دولة بأكملها ، ولتنذر في هذا المجال أشرف مروان
زوج بنت الرئيس وصاحب البلديتين ولتنذر كذلك عثمان أحمد عثمان
الذي يفرض الدول أحياناً بعض ملابسنه ، ويأتي بعد هذين كثيرون مثل
عصمت السادات وأخرون ، إنها صيحة لعلها تفتح القلوب .

٥ - فترة الصراع

من العرب العالمية الأولى إلى ثورة ١٩٥٢

كسا الإسلام - كما قلنا - الزحف العثماني على مصر هيية خدعت الكثرين من المصريين فترة طويلة ، وطال - باسم الإسلام - ارتباط العثمانيين بالعرب ، واحتملت الشعوب الإسلامية قسوة الأتراك العثمانيين حفاظاً على وحدة كلمة المسلمين ، وأملا في مجىء خليفة صالح ، فلما وضجع الانجليز حداً للسيادة العثمانية وأعلنوا الحماية على مصر ^١ لم يعد هناك ما يدفع المصريين ، وبذلت مصر تعبير عن نفسها وتقسام زمام أمرها بعد زوال عهد العثمانيين . وإذا كانت قسوة الحرب وضجيج المدفع ووعود المستعمر قد أرجأت ثورات المصريين ، فإن انتهاء الحرب كان بدءاً لصراع موري ثورات متلاحقة ضد الانجليز ، بسبب احتلالهم للبلاد من جانب ، وبسبب استبدادهم بالشعب وسلب أمواله إيان الحرب من جانب آخر ، ولهذا سميّنا هذه الفترة « فترة الصراع » وقد هدم هذا الصراع للشورة التي ألغت الملكية ، ولم يبق بعد ذلك المستعمر كيان ، فقد كان عصر الاستعمار قد ولى وجاء للعالم عصر الحرية والاستقلال ، ولم يكن الوقت الذي أفساده المستعمر بعدها بمصر إلا فترة نكروع لانزعاع ، وكان الاستعمار يبحث عن الوسيلة للنجاة بعد أن ضاعت كل آماله في البقاء .

وهناك لون آخر من الصراع في هذه الفترة ، ذلك هو الصراع الذي كان الملك والأحزاب أطراها فيه ، وهذا الصراع كان صراعاً على السلطة ، فقد رأت بريطانيا أن الجبهة الوطنية متحدة ضدّها بعد قطع علاقة مصر بتركيا ، فتحولت النشاط المعارض لها إلى نشاط داخلي بين الملك والشعب ، فالملك ^(١) يريد أن يكون مستبداً ، فراح يتمنى

(١) نؤاد غاروق ، فقد شغل كل هذه الفترة فيما عدا ثلاث سنوات للسلطان حسين كامل قضاها وال Herb مشتعلة فلم يكن في يده سلطنة .

- ٤٩١ -

الوسائل ليتّسم الاستبداد بطبع قابوني ، وهدأه تفكيره أو مستشاروه إلى أن يتّخذ بعض الأحزاب أدوات في يده يضرب بها ممثلي الشعب ، وعاشت البلاد في هذا الصراع ذلك الأمد .

ولنعد بهذه الفترة بشيء من التفصيل :

الحرب العالمية الأولى وأثرها على مصر :

هذه هي أول حرب تشارك فيها كل دول العالم تقريباً ، ومن ثم سميت العالمية ، وقد اشتركت فيها الدولة العثمانية اشتراكاً مباشراً ، ولهذا كانت هذه الحرب شديدة الخطر على العالم العربي الذي كان تابعاً قبل الحرب للعثمانيين .

وكانت الشرارة التي أشعلت النار تمثلت في قتل ولی عهد النمسا وزوجته بيد طالب من الصرب (يوغسلافيا) ، واحتاجت النمسا احتجاجاً قاسياً وأملت شروطها بظير ذلك ، ورفضت الصرب بعض هذه الشروط ، فاجتاحتها جيوش النمسا ، وكانت روسيا تعدد نفسها حامية لدول البلقان فتدخلت ضد النمسا ، فانضمت ألمانيا إلى النمسا ، وانضمت فرنسا إلى روسيا ، فالمعداوة بين فرنسا وألمانيا شيء تقليدي وبخاصة بعد انتصار الألمان في حرب السبعين . (١٨٧٠) ، واجتاحت الجيوش الألمانية بلجيكاً في طريقها إلى فرنسا منتهكةً بذلك حياد بلجيكاً ، فتدخلت بريطانيا لحماية حياد بلجيكاً ، ثم انضمت تركيا وبلغاريا إلى ألمانيا ، وانضمت إيطاليا واليابان والصين وأمزيكا والبرتغال إلى فرنسا وروسيا وبريطانيا ف تكون من هؤلاء ما يعرف بالحلفاء .

وقاسى العالم كله أحوال هذه الحرب ، وبلغ ما دمرته من البشر حوالي ١٥ مليوناً بين قتيل وجريح ومشوه ، ولم يكن لمصر ناقة فيها ولا جمل ، ولم يكن مامولاً. قط أن تطال أية نتيجة لو انتصر هذا الجانب أو ذاك ، ولكن كان من المؤكد أن يقع عليها القر على أى حال ، وهو

ما حدث ، ولم يستطع المؤرخون الغربيون أن يغفلوا ما حملته مصر من متابع ، فقد قرر بروكلمان أن حشوداً كبيرة من الفلاحين المصريين جنّدت للعمل قسراً داخل البلاد وخارجها ، وأن مصر احتملت ألواناً من الآلام في حرب لم تكن يوماً في مصلحتها ، وأن الفلاحين اقتتلعوا من بيوتهم وانتشرت بينهم ماشيتيهم وأئعامتهم ، وأن الجاعة نقلت وطأتها على الطبقات الفقيرة ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ (١) ٠

وإذا ذهينا إلى مراجع إنجليزية أخرى مثل تقرير لجنة ملنر (وستتحدث عنها فيما بعد) ومثل الكتاب الذي نشره الكولونيال أجود عن « مصر والجيش » نجد تفاصيل مريرة لما أصاب الشعب المصري في أرزاقه وأمواله ، من استيلاء على المحصولات والدواب ، وتسخير العمال في الأشغال والحركات العسكرية ، واستخدام المرافق العامة كالسكك الحديدية ، واستعمالها حتى تلتف من كثرة الاستعمال ، وتحويل مباني المدارس إلى مستشفيات ، وكالفسارة الفادحة التي نزلت بالزارعين بسبب التحكم في أسعار أقطانهم ، ومزاحمة الأهلين في غذائهم ، وجمع الأموال منهم في مناسبات مختلفة ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

ويعلق الأستاذ شفيق عربال على هذه النجات بقوله : كل هذا لا يعدل الجراح التي أصابت المصريين في عزتهم وكرامتهم وأمنهم ، فقد رأى المصري نفسه غريباً في بلاده ، ورأى هذه البلاد تتتحول إلى معسكر هائل تحشد فيه أخلاط الناس من أحمر وأصفر وأبيض ، ورأى نفسه وما يملك مسخراً لخدمة هذا المعسكر ، ورأى أن بلاده قد أصبحت قاعدة للغزو والتسلط ، تحركت منها حملة لاتهام مضيق الدردنيل والاستيلاء على القاعدة الإسلامية الكبرى « القسطنطينية » ، وتحركت منها حملات أقلام المخابرات والدعامة الغربية

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية : ج ٥ من ٤٥ - ٤٦ ٠

- ٤٩٣ -

للتآثير على العرب ، كما تحركت فيما بعد الحملات نحو فلسطين والشام شرقاً ، ونحو ليبيا غرباً (١) .

وفي خلال هذه الحرب بدأ الغرب ينفذ سياساته بعيدة العمق والمدى ، فاحتل فلسطين وأسند الانتداب عليها إلى بريطانيا التي سرعان ما عملت على تنفيذ وعد بلفور المشئوم الذي مسَّ فلسطين ومصر والبلاد العربية بظاهه .

سلطان مصر وملوكها في هذه الفترة :

سلطان مصر وملوكها في هذه الفترة ثلاثة هم : السلطان حسين كامل والسلطان فؤاد (الملك فؤاد فيما بعد) والملك فاروق ، وستتكلم الكلمة عن كل واحد من هؤلاء وعن أشهر أحداث عصره :

السلطان حسين كامل

مع مطلع الحرب العالمية ، ومع إعلان الحماية على مصر عزلت إنجلترا الخديوى عباس حلمى لأنه أيدَّ تركياً في موقفها من الحرب ضد الحلفاء ، واتجه الانجليز إلى الاستبداد بالسلطنة في البلاد ، وخطر لهم إلا داعي لسلطان يحل محل الخديوى المخلوع ، ثم عدلوا عن هذه الفكرة سيراً مع سياسة الخديعة التي كانت الحرب تدعوهم إلى اصطناعها ، فاختاروا للسلطنة رجلاً يرضى بالاسم ولا يحفل بمقتضياته ومستلزماته ، ذلك هو حسين كامل وهو عم الخديوى المخلوع وأكبر أفراد الأسرة العلوية سناً ، وقد استهجن المصريون موقفه وعدوه خائناً لأنَّه وقف مع أعدائهم الانجليز ، وقد وصلت الحماسة ببعض الشبان المصريين إلى تدبير القضاء عليه ، فأطلقى عليه أحدهم قنبلة فتاكه

(١) تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية : ص ٤٦ .

— ٤٩٤ —

ولكنه نجا منها ، ولعل هذه الوصمة التي لحقت حسين كامل هي التي دفعت ابنه الى أن يرفض منصب السلطنة بعد وفاة أبيه ، وأن يتخلى تخلياً صريحاً عن حقه في العرش ، وقنع السلطان حسين كامل بالمنصب دون أن يستلزم أي شرط لمصالح البلاد التي سيصبح سلطاناً عليها ، ويأوم الأستاذ شفيق غربال هذا السلطان وزيره رشدى لأنهما لم ينتهزوا فرصة حاجة انجلترا الى معونة مصر زمن الحرب ليطلبانها عهداً بالجلاء بعد الحرب أو بإعادة حقوق مصر لبنيها (١) .

ولم يطل عهد السلطان حسين إذ توفى سنة ١٩١٧ ، وليس هناك من عمل يمكن أن يسند اليه ، فقد كانت السلطة كلها في يد الحاكم الانجليزي (المذوب السامي) وبخاصمة إذ كانت الحرب الملعنة قدور بقوته وشراسة .

السلطان فؤاد والملك فاروق

أورد كارل بروكلمان مطروحاً قليلاً تمس حسين كامل والسلطان فؤاد وموقف الانجليز تجاه هذا وذلك ، قال : خسرت بريطانيا بوفاة حسين كامل سندها الرئيسي في البلاد ، وبذا لها أن تخسر مصر إلى إمبراطوريتها ، ولكن البريطانيين أثروا آخر الأمر أن يختاروا سبيلاً أكثر حسافة ، فداروا عوطفاً المصريين وأسندوا الأمر إلى الأمير أحمد فؤاد أخي السلطان على الرغم من أنه كان يحيى في الغالب في ايطاليا ، وكان قد أصبح غريباً عن البلاد أو يكاد (٢) .

وقد ظل فؤاد سلطاناً على مصر حتى صدر ما يعرف بمصرفيخ ٢٨ فبراير سنة ١٩٣٢ فاتخذ فؤاد لقب «ملك» .

(١) تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية .

(٢) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٦ ص ٤٧ - ٤٨

— ٤٩٥ —

وأبرز الأحداث في عهد فؤاد هي الحركة القومية التي أريد بها استعادة الحقوق الوطنية من الانجليز الغاصبين ، وقد تدخل الملك فؤاد فاروق فيها تدخلاً أرجأ نتائجها ، فكل منها لم يكن يريد أن تتحقق آمال البلاد على يد حزب الوفد الذي كان يضم المثاليين الحقيقيين للشعب خوفاً على سلطانه من هؤلاء المثاليين ، وبهذا خلق أحزاباً يسمى بالباحثون أحزاب القصر ليقرب بها ممثلي الشعب ، وقد انتفع الملك بهذا الصراع الذي دار بين الجبهتين ، أما ممثلو الشعب الحقيقيون فإنهم في آخر وزارة لهم هدموا من حماستهم بعض الشيء ضد القصر ولكنهم مع هذا لم ينالوا رضا القصر ، لأن القصر كان يدرك خطر الشعب وممثليه عليه .

ويدافع زعماء الوفد عن أنفسهم بأن ذلك التساهل لم يكن قط تساهلاً في حقوق البلاد ، وإنما كان نوعاً من التساهل الشخصي ، ليكون ذلك وسيلة للبقاء في الحكم رغبةً التمكّن من خدمة الشعب وأماله في الداخل ، وحل قضيته مع المستعمر ، ولقد لجأ ممثلو الشعب لهذه السياسة بعد أن أبعدوا فقرات طويلة من الحكم ، ففسد الحكم بالداخل وهدأت الجماجم لمقاومة الاستعمار . وهو دفاع تأخذ به الأغلبية الساحقة من الوفديين لأنّه الوسيلة لتحقيق آمال الشعب في الداخل والخارج ، والوسيلة لقطع الطريق على أحزاب القصر الذين كانوا يرضون بالفتات على حساب الصالح العام .

ومات فؤاد سنة ١٩٣٦ خلفه ابنه فاروق وهو صبي دون سن البلوغ ، فحكمت مصر بمجلس وصالية ريثما بلغ الملك هذه السن ، وكان فاروق صورة من أبيه ، وكل ما بينهما من فرق هو رعنون الصبا وطبيش الشباب في الابن ، ولنعد إلى هذه القضية بشيء من التفصيل :

الحركة القومية وثورة ١٩١٩ :

قلنا فيما سبق إن الشعب المصري احتمل ألواناً من الظلم خلا:

— ٤٩٦ —

الحرب ، وكانت وعود بريطانيا وسيلة من وسائل التخدير ، فلما انجابت الحرب هبَّ الشعب يطالب باستقلاله ويدعو المحتل أن يرحل عنه .

وقلنا كذلك إن الإسلام كان العامل الذي أطاح سلطان العثمانيين على مصر وعلى سواها من الدول العربية ، أما أن تخضع مصر لبريطانيا فشيء لا ترضاه الوطنية ولا يرضاه الإسلام ، وعلى هذا هيئت ثورة ١٩١٩ .

وشيء آخر نريد أن نضيفه هو أن حركات المقاومة المصرية كانت كثيرة ومتتابعة ، وكانت تتجه ضدَّ كلِّ الذين اعتدوا على حقوق البلاد ، وقد رأينا منها ثورة على بك الكبير ، وثورة مصر كلها ضدَّ الحملة الفرنسية ، وثورة مصر ضدَّ تركيا لصالح محمد علي ، كما رأينا الثورة العربية التي واجهت عدة قوى ، وبعدها جاءت الحركة الوطنية التي عبر عنها مصطفى كامل ومحمد فريد ، وعلى هذا ثورة سنة ١٩١٩ حلقة مهمة في النضال الوطني المتصل .

وكانت هذه الثورة التقاطاً من المصريين لحقهم في تقرير مصيرهم ، فقد التقى المصريون هذا الحق وبashروه ، لتسوية ما بينهم وبين إنجلترا من مشكلات ، ولم يخطر ببال إنجلترا — كما يقول الأستاذ شفيق غربال — أن التسوية الحقيقة بينها وبين مصر ستكون مع الأمة المصرية نفسها (١) :

وقادَّ الحركة القومية هذه المرة هو سعد زغلول ، وقد سبق له أن شغل عدَّة مناصب ، شعكراً من أرقى المناصب في الدولة ، ففى سنة ١٩٠٦ شغل منصب وزير المعارف فجعل اللغة العربية هي لغة التعليم بدلاً من الإنجليزية ، وأسهم في إنشاء الجامعة المصرية وفي سنة ١٩١٠ شغل منصب وزير الحقانية (العدل) وفي سنة ١٩١٣ انتخب وكيلًا

(١) تاريخ المؤسسات المصرية البريطانية من ١ - ٢

للجمعية التشريعية ، وقد اكتسب في هذه المنصب مكانة مهيبة ، وفي خلال الحرب لم يكن هناك سبيل للمنطق والحرية ، وإنما كان لسان القوة هو الناطق المسيطر ، فنما وضع الحرب أوزارها وأعلنت مبادئ الرئيس وليس الخاصة بحق تقرير المصير هي سعد زغول من مكمنه وجمع حوله لفيما من المناضلين وأعلن تكوين الوفد المصري في ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، وراح يطلب من المندوب السامي السفير ريجينالد وينجت ^{Reginald Wingate} أن يأذن له ولرفاقه في السفر إلى إنجلترا ليطالبوا بإعلان استقلال البلاد ، فرفض المندوب السامي ذلك ، فاتجه سعد وزملاؤه وجهة أخرى هي استعدادهم للسفر إلى باريس ليدافعوا عن قضية البلاد أمام مؤتمر الصلح ، وعدت بريطانيا هذا تمرداً منهم ، كما رأت تغافل الحركة الوطنية في نفوس المواطنين ، فأرادت أن تقضي عليها ، فألقت القبض على زعماء البلاد : سعد زغول وأسماعيل صدقي ومحمد محمود وحمد الباسل ونفتهم إلى جزيرة مالطة ، وأسلحت بذلك لهيب ثورة جارفة يصفها بروكلمان بقوله : أصبحت البلاد كلها في حالة تفرد وثورة ، وقطع كل اتصال مع القاهرة ، وخاصر التواري الحاميات الانجليزية الصغيرة في مصر العليا ، واستعملت الطائرات لنقل الجنود المحاصرين ، ووقعت سلسلة من الاعتداءات على الجنود البريطانيين ^(١) ، وبقيت البلاد بدون وزارة شرة طويلة .

وأسهمت المرأة المصرية بنصيب كبير في هذه الثورة ، فخرجت السيدات مطالبات بالحرية لمصر ، وأبدين ضربوا من العصالة والقتولة ، واشتركت الفلاحون والعمال بكل شجاعة في هذه المظاهرات ، واتجه بعضهم لقطع السكة الحديدية حتى يصيب الشلل خطوط الانجليز داخل البلاد .

وأنجت هذه الثورة نتيجتين مهمتين ، إحداهما تغير المندوب

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٥ ص ٥٠ - ٥١

(٢) موسوعة التاريخ ج ٥

السامي وإسناد هذا المنصب إلى اللورد أدموند اللنبي Edmund Allenby الذي كان قائد حملة فلسطين ، والنتيجة الثانية لجنة ملنر Milner لدراسة أسباب الثورة .

وأطلق اللنبي سراح المعتقلين وذهبوا إلى باريس من مالطة ، ولكن بعد أن دفع النفوذ البريطاني داسن إلى أن يعلن أن تقرير الصير لا ينطبق على الدول المستعمرة ومنها مصر ، ودفع هذا النفوذ أيضاً مؤتمر الصلح أن يرفض الاستماع لمطالب مصر ، وهذا مما زاد الثورة اشتعالاً ، وجعل المصريين يقاطعون لجنة ملنر التي كانت تباشر عملها في مصر وسعد ورفاقه في باريس ، فعادت لجنة ملنر إلى إنجلترا واستدعي سعد ورفاقه للتفاوض مع ملنر في إنجلترا ، فاستجابوا بعد أن توسط لذلك عدلی يكن ، وظلت المفاوضة حوالي ثلاثة أشهر ولكنها لم تسفر عن أية نتيجة ، واقتصرت لجنة ملنر أثر ذلك أن تعترف بريطانيا باستقلال مصر بشرط أن توافق مصر على بقاء قوة عسكرية في الأراضي المصرية ، كما اقتصرت تعيين مستشار بريطاني في وزارة العقانية وأخر في المالية ، وألا تعقد مصر معاهدة سياسية مع أية دولة بغير موافقة إنجلترا ، وأن تثمنَّح بريطانيا حق حماية الأجانب من تطبيق القوانين المصرية عليهم . وقد رفض الشعب المصري ذلك .

ذلك هي أول مفاوضة ، وللمحدث عن المفاوضات وعصرها دراسات دقيقة دونها المرحوم الاستاذ شفيق غربال والدكتور محمد حسين هيكل ، ومنهما نقبس لقطات قصيرة تناسب الأطار الذي حدده لـنا هذه الدراسة :

- في فبراير سنة ١٩٢١ سافر عدلی رئيس الوزارة آنذاك للمفاوضة مع كيزون ، ولكن سعداً أعلم أنه - باسم الشعب - لا يؤيد عدلی في مفاوضاته ولا يلتزم الشطب بنتائجها « لأن رئيس الوزارة عيفه

- ٤٩٩ -

المندوب السامي ، وهو بذلك ليس إلا موظفا من موظفى الحكومة الانجليزية يسقط ويترفع باشارة من المندوب السامي » وكان من جراء ذلك أن كثُرت الاضطرابات ، وفشل المفاوضات ، فألقت السلطات الانجليزية القبض على سعد وخمسة من زملائه ، هم فتح الله بركات وعاطف بركات وسيفوت هنا ، ومصطفى النحاس ، ومكرم عبيد ، ونفتهم إلى سيلان ، وهم من هناك إلى سيشل في ديسمبر سنة ١٩٢١ ، ثم حُول سعد إلى جبل طارق .

تصريح ٢٨ فبراير :

اتجه الجانب الانجليزى بتوصية اللنبي إلى العمل الفردى دون أن يلزم مصر بالتحفظات التى وردت في مشروع ملفر ، فصدر تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ وفيه أعلنت إنجلترا انتهاء الحماية على مصر ، وأن مصر مستقلة ذات سيادة ، وأن إنجلترا تتمسك بنقطتين أربعة لتسوي فيما بعد في مفاوضات ودية ، وهذه النقاط هي :

- ١ - تأمين مواصلات الامبراطورية البريطانية في مصر .
- ٢ - الدفاع عن مصر ضد أي تدخل أجنبي .
- ٣ - حماية الأقليات ومصالح الأجانب .
- ٤ - السودان .

وأعلن فؤاد (!!) عقب ذلك وثيقة استقلال مصر واتخذ القب « ملك » .

— ألف عبد الخالق ثروت الوزارء أثر ذلك ، وشكلت لجنة وتمسّكت الدستور الذي يعرف بدستور سنة ١٩٢٣ ، وأفرج عن سعد ورفاقه ، وجرت الانتخابات فحمل الوفد على أغلبية ساحقة ، وافتتح البرلمان في ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ وألف سعد زغلول أول وزارة برلمانية .

الملك والدستور :

وقف الملك فؤاد موقف الحياد خلال الصراع بين الشعب الشائذ المطالب بحريته وبين المستعمر الانجليزي ، فلما بدأ انتشارات الشعب وحقق بعض النتائج التي سعى لها وضحت من أجلها ، تقدم هذا الملك ليجنب ثمار كفاح الشعب ، وليرأس لنفسه السيادة التي انتزعها الشعب من فم المستعمر .

ويبدو أن نتيجة جهود سعد ورفاقه أذلت الملك فؤاد ، فهو يخاف التجمع الشعبي الذي لا بد سيعمل على الحد من نفوذه طبقاً للدستور ، ولذلك كان هذا الرجل حرياً على الدستور وحرياً على حزب الأغلبية ، وكان موقفه ذلك يمثل السبب الرئيسي في تأخير حصول مصر على استقلالها التام ، وقد وجد الانجليز في اتجاهه ضالتهم ، فأيدوه في حربه ضد ممثل الشعب وقادته ، وأيدوه في تعيينه ارادة الشعب ، وإذا كان المصريون قد زعزعوا قوى بريطانيا سنة ١٩١٩ في ثورتهم العارمة ، فإنهم الآن اتجهوا ليضربو بعضهم ببعض بتحريض الملك ، وتفرغ الانجليز للفرجة ، وأكبر دليل على ذلك أنه عندما مرض الملك باعت الشقاق وحاميه ، ونصر الاستعمار وراعيه أشار الانجليز باجتماع الأحزاب تحت رئاسة النحاس زعيم الأغلبية ، وسلكوا بالمعاهدة التي حققت بعض ما كان يطمع فيه المصريون ، ومرة أخرى نقرر أن مرض الملك فؤاد ، وملفولة ولئلا يهد ، جعلا الانجليز يحسون بفراغ كبير ، فسلموا ببعض مما كانت الأمة تطالب به .

ولنعد إلى تصوير سبيع للحرب التي شنها الملك على الدستور ، ولنأخذ الأرقام رائداً لنا في هذا المجال :

- كان يوم ١٥ مارس (سنة ١٩٢٤) عيداً للدستور .

- أوقف الملك هذا الدستور سنة ١٩٢٥ .

- ٥٤١ -

— أعيد الدستور سنة ١٩٢٦ ٠

— أوقفه مرة ثانية سنة ١٩٢٨ ٠

— أعيد سنة ١٩٢٩ ٠

— ألغى سنة ١٩٣٠ واستبدل به دستور صدقى العجيب الذى كان
ذا طابع رجعى ، إذ جعل الدستور منحة من الملك ، وجاء للهيئة
التنفيذية حق التشريع ، وجعل للملك حق إهمال أى قانون يقره البرلمان ٠

— ألغى دستور صدقى سنة ١٩٣٤ وبقيت البلاد بلا دستور حتى
أعيد دستور ١٩٣٣ في ديسمبر سنة ١٩٣٥ ٠

— ثم استقر رأى الملك على أن يبقى هذا الدستور لكن على أن
يكون حبرا على ورق فقط ، لا حياة فيه ولا مدلول له ، وسيصبح ذلك
من ملاحظة الفترات القصيرة التي أمضها حزب الأغلبية في الحكم ، فقد
كانت أحزاب القصر مضطربة حتى سنة ١٩٣٥ أن توقف الدستور أو تعينه
لتحكم ، ورؤى بعد ذلك أن تحكم بأية صورة من صور التحرير والتزوير ،
دون اعتبار لهذا الشيء المسطور ، وذلك مزيد من الانحدار والاستهانة ٠

والعجب أن رجلا اسمه أحمد زبور لا يمثل إلا نفسه بل لا يمثل
نفسه ، قولي رياضة الوزارة سنة ١٩٢٤ وأجرى انتخابات ، فلما فاز
حزب الوفد واختير سعد زغلول رئيساً لمجلس النواب قرر زبور الأئم ،
بايعاز الملك طبعا ، حل مجلس النواب بعد بدء اتفاقاه بب يوم واحد ٠

الملك والشعب :

وبعد أن أوضحنا كيف كان فؤاد حربا على الدستور ، نلتقت الآن
لتبين كيف كان فؤاد وابنه من بعده حربا على الشعب مثلا في حزب
الأغلبية (حزب الوفد) ، ووسيلتنا الدقيقة لاثبات ذلك أن نورد قائمة

بالوزارات منذ ثورة ١٩١٩ إلى ثورة ١٩٥٢ ليظهر لنا أن المدة التي
قصاماً حزب الأغلبية في الحكم كانت ضئيلة جداً :

- رشدى باشا سنة ١٩١٩ رئيس لجنة وضع الدستور فيما بعد
فترة بدون وزارة إبان ثورة ١٩١٩ *
- | | |
|-----------------|---|
| محمد سعيد | سنة ١٩١٩ |
| يوسف وهبة | » ١٩١٩ |
| على يكن | » ١٩١٩ |
| عبد الخالق ثروت | » ١٩٢٢ أسقطه الملك لتمسكه بمواد في الدستور |
| توفيق نسيم | » ١٩٢٢ |
| يحيى ابراهيم | » ١٩٣٣ صدر الدستور في عهده |
| سعد زغول | » ١٩٤٤ أول وزارة انتخابية |
| أحمد زبور | سنة ١٩٤٤ أرضي الاستعمار والملك ، وكان ستاراً لحكم القصر ، وحلَّ البرلمان يوم بدء انعقاده |
| على يكن | سنة ١٩٤٦ وزارتاً ائتلاف — سعد زغول رئيس |
| عبد الخالق ثروت | } ١٩٤٧ مجلس القوا |
| مصطفى النحاس | » ١٩٤٨ وزارة وفدية بعد تصدع الائتلاف — أقيمت في نفس العام |
| محمد محمود | » ١٩٤٨ حكم ديكاتورى — تعطيل الدستور |
| على يكن | » ١٩٤٩ وزارة انتقالية لإجراء انتخابات — فوز الوفد |
| مصطفى النحاس | » ١٩٥٠ وزارة وفدية |
| اسماعيل صدقى | » ١٩٥٠ استبداد وتغيير الدستور |

— ٥٠٣ —

- عبد الفتاح يحيى ١٩٣٣ «
- توفيق نسيم ١٩٣٤ « ألغى دستور صدقى
- [ثورة شباب الجامعات - الجبهة الوطنية]
- علي ماهر سنة ١٩٣٦ وزارة انتقالية لاجراء انتخابات -
فوز الوفد
- مصطفى النحاس ١٩٣٦ «
- محمد محمود (آخر ديسمبر) « ١٩٣٧ في عهده تألفت الهيئة السعدية
علي ماهر « ١٩٣٩
- حسن صبرى « ١٩٤٠ في عهده ألغى صندوق الدين
- حسين سري ١٩٤٠ «
- مصطفى النحاس ١٩٤٢ «
- أحمد ماهر ١٩٤٤ سنة
- محمود فهمي التقراشي « ١٩٤٥
- إسماعيل حشيش « ١٩٤٦
- النقراشي « ١٩٤٦
- ابراهيم عبد الهادي « ١٩٤٨
- حسين سري « ١٩٤٩ في وزارتين : التلافية يوليو - موفمبر
ومحايدة نوفمبر - يناير
- مصطفى النحاس ١٩٥٠ «
- علي ماهر ١٩٥٢ «
- نجيب الهملاوى ١٩٥٢ «
- حسين سري ١٩٥٢ «
- نجيب الهملاوى ١٩٥٢ «

ولنا تعليقات على هذه القائمة :

١ - كانت المدة قصيرة جداً في كل مرة من المرات التي تولى رئاسة الوزارة فيها سعد أو النحاس ، فكانت أحياناً شهوراً قليلة ولم تخط السنة إلا في حالات استثنائية ، ففي مرة كان فاروق قاصراً ، ولم يسع مجلس الوصاية أن يقوم بهذه الحماقة ، فما أن وصل الصبي إلى ما سُمي بالرشد حتى أقال وزارة النحاس بعد بضعة شهور ، ومرة أخرى كانت أيام الحرب العالمية الثانية ، وقد فرض الاستعمار الإنجليزي النحاس فرضاً على الملك ، فقد زحف مایلز لامبسون السفير البريطاني بالديبابات وأرغم الملك أن يأتي بحرب الوفد إلى الحكم تقريباً إلى الشعب في أزمة الحرب وظل النحاس أكثر من سنتين على الرغم من الملك ، فلما بدأت انتصارات الحلفاء ، تخلى الإنجليز عن الشعب وزعيم الشعب فاقله فاروق ، وفي مرة ثالثة جاء النحاس ليتفقد سمعة القصر وسمعة مصر عقب هزيمة فلسطين ، وصفقات الأسلحة الفاسدة ، ومستشرحها بإفاضة بعد قليل .

٢ - كان إخراج النحاس ينتهي باقتياته دائماً ، ولم تعرف إلاقلة لأى رئيسٍ من الرؤساء الآخرين .

٣ - في بعض الحالات رأى القصر وأعوانه والإنجليز أن تدمير مصر أيسر من بقاء حزب الأغلبية في الحكم ، وأول حادثة تؤيد هذه القضية مقتل السردار لى ستاك Lee Stack سردار الجيش المصري وحاكم السودان العام سنة ١٩٢٤ ، وقد جرى اغتياله في أحد شوارع القاهرة . واصبع العدالة تشير إلى أن قتله مدبر للنكارة بمصر وبحزب الأغلبية الحاكم ، ويتحقق هذا من الاعتذار الذي قدمه اللورد اللنبي إلى سعد زغلول ، وفيه يطلب مطالب لا علاقة لها بالبتة بمصرع هذا السردار ، فهي - بالإضافة إلى الاعتذار ودفع دية ثقيلة (نصف مليون جنيه) - تتبع المجرم والتأثير منهم - تحتم ارجاع الجيش المصري من

السودان ، وتقرر ضرورة الموافقة على أن تترع السودان أرضا لا حدود لها في الجزيرة بعد أن كانت المعاهدات تقضي بأن الأرض المترعنة لا تتجاوز ٣٠٠٠ فدان ، والموافقة التامة على أن تقوم بريطانيا بحماية المسالح الأجنبية في مصر . ورفض سعد بطبيعة الحال هذا الإنذار ، واحتلت بريطانيا جمرك الإسكندرية ، وجاء القصر بزيور الأئم ليوافق على كل شيء ، فكل شيء أجهون من سعد في رأي القصر ورجال القصر .

إلغاء معاهدة ١٩٣٦ وحريق القاهرة :

وحدث آخر شهداه ليس أقل خطرا من مصر السردار الإنجليزي ، ذلك هو حريق القاهرة الحبيبة في ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ، فقد جيء بالنحاس إلى الحكم عقب كارثة فلسطين كما أشرنا من قبل ، وكانت الكارثة عملاً أسمهم فيه فاروق بنصيب كبير عن طريق الأسلحة الفاسدة التي كسب فيها القصر وأعوانه عدة ملايين من الجنيهات ، وخسرت مصر كل شيء ، ثم عن طريق نزوات الملك ولذاته ، وهذا السبب مكن للنحاس هذه المرة ، ومكّن له كذلك موقفه الجرىء من معاهدة ١٩٣٦ فقد صاح في البرلمان : باسم الشعب وقعت هذه المعاهدة وباسم الشعب أعلن إلغاءها ، وترتبت على هذا توقيف المصريون الذين كانوا يعملون في القاعدة البريطانية عن العمل فأقصيَت القاعدة بالشلل ، وتوقف التجار عن إمداد القوة الإنجليزية بالطعام والمطالب الأخرى ، فأخذت جرعة الماء تكلف الإنجليز ثمنا باهظا ، ونشط الفدائيون من الطلاب والشباب نشاطا كبيرا ، فأخذوا يخطفون الجنود الإنجليز وينقضون عليهم ، وأوجد حزب الأغلبية عملاً لكل من توقف عن العمل

— ٥٠٦ —

وشجع الفدائين ، والمهم أن هذا وسواء مكن لحزب الأغلبية في التفوس ،
فلم يكن في مقدور فاروق أن يُقيِّل الوزارة في هذا الجو من النجاح ،
فليجيئ أصبعه القذرة متضامنة مع الانجليز والخونة ، فأشعلت النار في
عاصمتنا الحبيبة ، ورأى كاتب هذه السطور القاهرة وهي تحرق ،
وأشترك مع جموع الشبان المخلصين في اطفاء النيران وایقاف الشعب ،
ويشهد الله أن دموعنا كانت تهطل بزيارة ونحن نعمل في اطفاء اللهب ،
وقد هدأنا صرخاتنا من حماسة الغوغاء المخدوعين ، وكانت القاهرة تحرق
والملك (يعتقل) كبار رجال الجيش في مأدبة أقامها لهم بالقصر حتى
لا ينقذوا العاصمة من الدمار ، وعلى حطام القاهرة أقال فاروق زعيم
الأغلبية .

العلاقات بين بريطانيا ومصر

نعود لاستكمال الكلام عن العلاقات بين بريطانيا ومصر ، وقد شرحنا الجولة الأولى من هذه العلاقات ، تلك الجولة التي انتهت بتصريح ٢٨ فبراير الذي حقق نوعاً من الاستقلال وشيئاً باهتاً من الديمقراطية سبق أن شرحناه .

وجاءت الجولة الثانية التي أريد بها تصفيية التحفظات الأربع التي ذكرها تصريح ٢٨ فبراير ، وبدأت هذه الجولة سنة ١٩٢٤ وانتهت بمعاهدة ١٩٣٦ ، وقد اشترك فيها عدد كبير من الزعماء كما يلى :

سعد حاكم ونالد ١٩٢٤ :

طالب سعد بسحب جميع القوات البريطانية ، وسحب المستشار البريطاني القضائي ، والعدول عن دعوى حماية الأجانب والأقليات بمصر ، وعن دعوى الاشتراك في حماية قناعة السويس ، ورفضت بريطانيا هذه المطالب ، وخافت من أن يشغل سعد ثورات ضدّها كذلك التي هبت سنة ١٩١٩ ، لفّقامت بالاعياز بطريق أو آخر بقتل السردار ، للتخلص من سعد ، ولمزيد من تفصيق قبضتها على مصر كما سبق القول .

ثروت - تشميران ١٩٣٧ :

(في وزارة الائتلاف الوفدى الدستورى)

اتفقنا في هذه المفاوضة وجهات النظر على أكثر النقاط السابقة ، ولم يكن هناك خلاف إلا في نقطتين :

- ١ - تمسكت بريطانيا بضرورةبقاء بعض الضباط والعاملين من أبنائهما بالجيش المصرى ، على أن يكونوا بعثة عسكرية .
- ٢ - تمسكت بريطانيا بإبقاء عدد من موظفيها في إدارة البوليس

- ٥٥٨ -

والامن لصالح الأجانب ، ريثما يستقر الأمر في مسألة الامتيازات ، وفي هذه الأثناء تصدع الاشتلاف ، وأسندت الوزارة لزعيم الوفد سنة ١٩٢٨ الذي أعلن عدم موافقته على هذا المشروع .

فعاد ثروت دون نتيجة ، وسرعان ما أقيمت حكومة الرفد .

محمد محمود — هندرسون ١٩٢٨ :

أوشك الاتفاق أن يتم على النحو السابق ، ولكن بريطانيا تمسكت بأن يصدق برلان منتخب انتخاباً حراً على هذه المعاهدة فعاد محمد محمود لأنّه كان يعرف أنّ أي انتخاب حر سيقصيه عن الحكم .

النهاس — هندرسون ١٩٣٠ :

كانت المفاوضات السابقة ترجى الكلام عن السودان ، فلما جاء دور النحاس أثار مشكلة السودان ، وأصر على أن تكون موجة المصريين إليه غير محدودة لا يشرط الأمان والصحة ، وأن يعود الحكم الثنائي على أن تكون مدة عاماً واحداً ، ثم يتم الوحدة بين مصر والسودان . وفشل المفاوضات على صفرة السودان .

الحرب العالمية الثانية وأثرها على العلاقات

إن الحديث عن الحرب العالمية الثانية يُستتبع عودة للوراء لنتذكر نتائج الحرب العالمية الأولى ، فقد خرجت ألمانيا من هذه الحرب جريحة مهزومة ، واستبعد بها المنتصرون ، ومن أجل هذا كانت تسمى بجد للنصر ، وتبحث عن الزعيم الذي يثأر لها ، وفي هذا الجو ظهر هتلر ، والتقت ألمانيا حوله باعتباره القائد والرائد الذي يسقى للبلاد مكافتها ، وفي سنة ١٩٣٣ وصل هتلر إلى الحكم فأصبح رئيس الوزارة ، وفي سنة ١٩٣٤ أصبح رئيس الدولة بالإضافة إلى رئاسة الوزارة .

وبينما كانت ألمانيا تتجه نحو القوة كان العالم يعاني من الأزمة المالية الطاحنة التي حملت به ابتداء من سنة ١٩٢٩ ، وقد أعاد هتلر سبب هذه الأزمة إلى جشع اليهود واستبدادهم الاقتصادي ، فاتخذ اليهود مختلف الحيل للإيقاع به ، وواجهه هتلر بجسارة خيانات اليهود ، كما واجه سطوة الحلفاء التي نكلت بألمانيا عقب هزيمتها في الحرب العالمية الأولى ، فاتجهت سياسته إلى التخلص من معايدة فرساي وبالتالي إلى إضعاف فرنسا وأغضت بريطانيا الطوف عن تصرفاته الأولى ، ولكنها سرعان ما أحست بالتزامها بمعاجمته ، فاتجهت إلى تسوية أمورها مع مصر حتى تتفرغ إلى هذا الصراع الذي بدأ يهدد العالم في الثلاثينيات .

و قبل أن نواصل حديثنا عن أثر التهديد بالحرب العالمية الثانية في العلاقات بين مصر وبريطانيا نستكمل حديثنا عن أهم الخطوات التي قادت لهذه الحرب وعن أهم معالمها :

— في سنة ١٩٣٥ أعاد هتلر التجنيد الإجباري ، واستعاد أقليم السار .

— في سنة ١٩٣٦ أعاد تحصين منطقة الراین ، وبدأ يطالب باسترجاج المستعمرات الألمانية .

— في سنة ١٩٣٨ نجح هتلر في ضم النمسا ، واستعد لهاجمة تشيكوسلوفاكيا حتى اضطرت إلى أن تتنازل لألمانيا عن الأقاليم التي طالب بها هتلر .

— وفي سنة ١٩٣٩ ضمت ألمانيا ما تبقى من تشيكوسلوفاكيا .

— وفي سنة ١٩٣٩ عقد هتلر ميثاق عدم اعتداء مع روسيا في ٢٣ أغسطس ثم اندفع يغزو بولندا ، وكان ذلك مطلع الحرب ، إذ أعلنت إنجلترا وفرنسا الحرب عليه .

- ٥١٠ -

وكانت البلاد العربية وبخاصة مصر ولبيبا مسرحاً من مسارح الحرب العالمية الثانية ، فقد كانت ليبينا خاضعة لـإيطاليا وكانت إيطاليا تخوض الحرب بجانب ألمانيا ، وكانت مصر خاضعة لأنجلترا وقد زحفت الجيوش الإيطالية الألمانية بقيادة روميل من ليبينا فاحتلت بعض الواقع المصرية ، وحققت هذه القوات ألواناً من الانتصارات في سني الحرب الأولى سواء في الميدان الأوروبي أو في الشمال الأفريقي ، وفي سنة ١٩٤١ بدأت الحرب تأخذ منحى جديداً ، ففي هذا العام هاجم هتلر روسيا ، وحقق أشواطاً من النصر في الفترة الأولى ، ولكن الميدان الروسي شغله عن استمرار الانتصار في الشمال الأفريقي ، ويعبر شهر نوفمبر ١٩٤٢ بدء تحول بالنسبة للحرب في المنطقة العربية ، ففي هذا الشهر بدأ روميل في التقهقر غرباً أمام زحف مونتجمرى ، واستمر مونتجمرى في الزحف حتى استعادت قوات الحلفاء بقيادة مرسى مطروح واتجهت تحتمل طبرق فبني غازى ، فنصراته ، فطرابلس ، واستمر تقهقر القوات الألمانية الإيطالية إلى تونس ، ومنها عبرت هذه القوات المهزومة إلى أوروبا .

وفي نفس الوقت كانت قوات الماتيا تواجه هزائم متتالية في الميدان الروسي والميدان الأوروبي ، وفي سنة ١٩٤٥ أطبقت قوات الحلفاء على ألمانيا ودمرتها ، وقضت على جيوش النازى وانتحر هتلر .

ولنعد الآن لنبين أثر التهديد بهذه الحرب على العلاقات بين مصر وبريطانيا :

الجبهة الوطنية — ميلز لايسون ١٩٣٦ :

(تكونت الجبهة من ٨ وقدرين و١٠ من الأحزاب الأخرى
برئاسة مصطفى النحاس)

تكونت هذه الجبهة سنة ١٩٣٥ نتيجة للثورة الوطنية التي قام بها الشبان واستجابة لهم الزعماء ، وفي الوقت نفسه كانت بريطانيا في

- ٥١١ -

حاجة لاتمام معاهدة مع مصر لتضمن نوعا من الاستقرار في هذه البلاد ، فقد كانت نذر الحرب العالمية الثانية تظهر ، وكانت ايطاليا في الحبشه ترأز ، وكان فؤاد يئن من المرض وليس له وريث رشيد يقف عونا للاستعمار بعد وفاته ، وفي هذا الجو تمثلت معاهدة ١٩٣٦ وأهم نصوصها :

- المادة الأولى : ينتهي الاحتلال مصر عسكريا .
 - المادة السابعة : تقدم مصر لبريطانيا جميع المساعدات اللازمة داخل حدودها في حالة الحرب أو خطر الحرب أو قيام حالة دولية مفاجئة .
 - المادة الثامنة : موافقة مصر على احتفاظ بريطانيا بقوات عسكرية في منطقة القناة لا يتتجاوز عددها عشرة آلاف جندى و ٤٠٠ طائرة حتى يتفق الطرفان على استطاعة الجيش المصرى حراسة القناة دون عنون .
 - المادة الحادية عشرة : الحكم الثنائى يعود للسودان وتكون هجرة المصريين إليه دون قيد .
 - المادة الثانية عشرة : المسئولية عن أرواح الأجانب وأموالهم من اختصاص حكومة مصر .
 - المادة الثالثة عشرة : نظام الامتيازات لا ياثم روح العصر وينبني الغاؤه .
 - المادة السادسة عشرة : مدة المعاهدة عشرون عاما ، ويمكن إعادة النظر فيها اذا طلب أحد الطرفين ذلك بعد هذه المدة ، كما يمكن إعادة النظر فيها بعد عشر سنوات اذا اتفق الطرفان على ذلك .
- وكانت هذه المعاهدة خطوة على الطريق ، ومن مميزاتها البارزة الغاء

- ٥١٢ -

الامتيازات الذي تم في مونتريه في العام التالى بناء على هذه المعاهدة ، وتخفيض قسوة الاحتلال ، وان ظل جائما ، وفي مسألة السودان تقرر العودة لاتفاقية يناير ويوليو سنة ١٨٩٩ ٠

بعد الحرب العالمية الثانية :

جاءت الجولة الثالثة للمفاوضات بعد الحرب العالمية الثانية بسبب التغير العميق في الحياة العالمية الذي أحدثته هذه الحرب ، فطالبت مصر بالجلاء التام عن مصر والسودان ، واتخذت مصر في هذا الشأن الخطوات التالية :

— مذكرة قدمها التقراشي في ٢٠/١٢/١٩٤٥ الى الحكومة البريطانية ، ولكن هذه تمسكت بمعاهدة ١٩٣٦ ٠

— مفاوضة بين صدقى الذى تولى الوزارة بعد التقراشى وبين بىفن ، انتهت الى المشروع الذى يُعرف بالدفاع المشترك ، ولكن الشعب ثار على هذا الارتباط وأنسقَ الوزارة والمشروع ٠

— قررت الحكومة السعودية التى جاءت بعد صدقى عرض القضية على مجلس الأمن ، وراح التقراشى الى المجلس حيث صرخ في وجه الاتجليز قائلا إنهم قراصنة ، ولكن مجلس الأمن لم ينصف مصر لوقوعه تحت سيطرة الانجليز والأمريكـان وأوصى بـمـفاوضـة مـباشرـة بـينـ الطـرفـينـ ، ولعل مما أضعف جانب التقراشى أن حزب الوفد أبرق للـمـجلسـ بعدم شـرعـيـةـ المـتحـدـ بـاسـمـ مصرـ ٠

— وجاءت حكومة الوفد الحكم بالانتخابات الحرة التي أجرتها حسين سرى ، فبدأت المفاوضات من جديد بين صلاح الدين وبين بىفـنـ ، وطال أمدهـاـ دون نـتيـجةـ ، فاضطـرـتـ الـوزـارـةـ الـوـفـدـيـةـ إـلـىـ اـتـخـاذـ مـوـقـفـ فـرـدىـ ، فأـعـلـنـتـ سـنـةـ ١٩٥١ـ قـطـعـ المـحـادـثـاتـ وـاـنـهـاءـ الـعـمـلـ بـأـحـكـامـ مـعـاهـدـةـ ١٩٣٦ـ وـبـاـتـفـاقـيـتـىـ ١٩ـ يـانـيـرـ وـ١٠ـ يـولـيوـ ١٨٩٩ـ الـخـاصـيـتـيـنـ بـالـسـوـدـانـ ،

وتعديل مواد الدستور بما يتنقق ووجهة النظر المصرية ، وبناء على هذا ألغيت جميع الأعفاءات المالية التي كانت ممنوعة للسلطات العسكرية البريطانية ، وأمنتت الجمارك عن بذل التسهيلات الجمركية ، كما توقفت السكك الحديدية عن نقل مهامات الجيش البريطاني ، وممتنع هبوط الطائرات العسكرية البريطانية بالطائرات المصرية ٠٠٠ وقد كان — من الممكن أن تتوجه هذه الخطوة ، ولكن مما يؤسف له أن الأحزاب الأخرى لم تتفق موقعاً وطنياً في هذه الأزمة التي وقفت فيها مصر وجهاً لوجه أمام المستعمر الغاصب : وعلى اثر الأحداث التي تلت الغاء المعاهدة تأزمت الأمور كما شرحنا من قبل بين الانجليز والمصريين وأقيمت الوزارة بعد حريق القاهرة ، وجاءت وزارات القصر مرة أخرى ، فلم يكن لها من فضل إلا أن قررت قيام الثورة التي حملت عبء المرحلة الأخيرة في العلاقات بين مصر وبين بريطانيا ، ويسنسرح هذا الجزء في حينه ٠

الأحزاب :

هل كانت في مصر أحزاب ؟

في الحق أن الانتخابات المتعددة التي جرت بمصر في جو من الحرية أثبتت أن جماهير الشعب تقف حول حزب واحد هو حزب الوفد ، وقد اتضحت ذلك من أول انتخابات جرت عقب صدور دستور سنة ١٩٢٤ وتكرر ذلك كلما أجريت انتخابات حرة سواء تلك التي أجرتها عدلي يكن أو على ماهر أو حسين سرى ٠

وقد بلغ من ارتباط الشعب بحزب الوفد أن مرشحيه كانوا ينجحون ضد رؤساء الوزارات في الدوائر المختلفة ، بل حدث في دائرة المرانقة شيء جدير بالذكر هو أن هذه الدائرة كان بها بعض الشيوخ والعلماء الأجلاء من غير الوفديين ، وكانتوا يظنون أن تكون الدائرة مؤيدة لهم ، فرضح سعد زغلول خدم شاباً مسيحياً هو « بطرس حكيم » وكان ذلك قمة

التحدى ، ونجح مرشح سعد وسقط منافسه ، فقد قال سعد : إن المسيحيين لا بد أن يكون لهم ممثلون في البرلمان ، وقد أخترت هذه الدائرة ليتمثلها أحد المسيحيين ، وأيد الشعب اتجاه زعيمه (١) .

وبجوار حزب الوفد كانت هناك جماعات أسمت نفسها أحزاباً وليست في الحق إلا تكتلات، خلقها القصر وأمدّها بعونه ، ليسارع بها حزب الجماهير ، وهي عبارة عن أسر وأفراد يجمع بينها كرهها لحزب الأغلبية واتجاهاته وقياداته ، ويجمع بينها خصوصها للقصر واستمداد السلطان منه ، وليس لها حول سوى ذلك ، وكان بعضها أدلة في يد القصر للتكميل بالشعب ، وكانت هذه الأحزاب تدرك بوضوح أن وسائلها إلى الحكم هي أرضاء السيد الرايس في « عابدين » ، فاصطنعت الوسائل لارضائه والخضوع إليه ، وكان هذا السيد يدرك أن وسائله للتكميل بالشعب هو اصطناع هذه الأحزاب الزائفة ، ولكن ذلك لم يتحقق منه إلى جهد ، فهذه الأحزاب كانت نفعية تهreu اليه لقتال من قاتله كلما دعاها .

ونقر بدقّة وعمق من تتبع الأحداث أن أحزاب القصر هذه لم ينجع في الانتخابات فيها فرد واحد بحكم انتقامه إليها ، أما القلة القليلة التي كانت تتبع فان نجاحها كان بسبب مكانة شخصية أو نفوذ خاص ، وكان الوفد يرشح أحياناً بعض شبابه في دوائر باشوات أحزاب القصر ، وكان «الباشوات» يبذلون أقصى الجهد وأغلقى الملال لكي ينتصروا على مؤلاء الشبان الذين لم تكن لهم بضاعة إلا الانتقام لحزب الوفد .

وشيء آخر عمد إليه الملك ليinal من حزب الأغلبية ، ذلك هو اغراءاته ووسائله المتعددة لإحداث فرقة فيه وخلق عمليات انفصال به ، وربما كان نجاح فاروق في هذا الميدان أقوى من نجاح أبيه ، ففي عهده انسلخت

(١) رواية الاستاذ ابراهيم نرج الوزير الوفدي سابقاً .

قوى كبيرة من "الوفد" متمثلة في الهيئة السعدية ، وفي الكتلة الوفدية ، وفي نجيب الهلالي ومن التقدّم حوله ، وأغروى فاروق "مكرم" عبيد الذي طاللت صحبته للنحاس باشا ، فأخرج « الكتاب الأسود » يكتسح به حرباً على من كان بالأمس زعيمه ورئيسه ، ولكن هذه الحرب كانت فاشلة وانقضتْ عنده الناس .

ويتجه خصوم الوفد إلى نقده ذاكرين أنه ضم إلى جموعه رجال الإقطاع وأنه من الصعب التوفيق بين أمني الشعب ومصالح الإقطاع ، ويقولون إن أمجاد الوفد كانت قائمة على موقفه الأبي من القصر ، ولكنه في السنين الأخيرة عمد — كما قلنا من قبل — إلى سياسة الملاينة رجاء أن يرضي الملك ، ولكن الملك ما كان ليرضى عن قوى تدفعها الشعوب ، وأخيراً فأحزاب الأقلية تهاجم استجابة الوفد للدعوة لتولى "الحكم في" فبراير سنة ١٩٤٢ اثر الانذار الانجليزي الذي بعث به مايلز لامبسون للملك ونصه : « إذا لم أسمع قبل الساعة السادسة مساءً أن النحاس باشا قد دعى لتأليف وزارة ، فإن جلالة الملك فاروق يجب أن يتحمل ما يترتب على ذلك من نتائج » . ويتساءلون : لماذا جاء الوفد إلى الحكم في هذه الظروف ؟

وقد انتهز خصوم الوفد هذه المواقف ليشهروا به ، ولكن رجال الوفد يردون هذه الاتهامات ويفكرون أن الآتياء لم يكونوا فقط عقبه في طريق أي اصلاح ، وأن الزعامة الوفدية لم تخضع قط للقصر ، وسنرى فيما بعد أن مصطفى النحاس ظل حتى آخر دقيقة قبل الثورة وهو يقف موقف المتأضل من القهر وأعوانه ، كما يذكرون أن أحزاب الأقلية تولكت الحكم عدة مرات دون تأييد إلا من الانجليز وأذناب الانجليز ، فكيف ساغ لهم أن يتكلموا عن هذا الموضوع ؟ ثم إذا طلبَ مثل الأمة ليتولى حق الأمة هل كان له أن يتحدى عن واجبه ؟

حادث } فبراير :

وهذا الحادث جدير بكلمة تفصيلية ، فإن أعداء الوفد لا يزبونه ، معتقدين أنهم بذلك قد أمسكوا بسلاح يطعنون به الحزب الحقيقي الوحيد الذي عرفه تاريخ مصر العاشر . وأحدث ما نعرفه من ذلك صيحة « جريدة مصر » في يناير ١٩٧٨ وكانت هذه الجريدة تمثل حزباً قصيراً العمر هو حزب مصر العربي الاشتراكي ، وكان هذه الصيحة كانت لعنة ضد الحزب صاحب الجريدة ، فلم تمض الا شهور قلائل حتى هرول أعضاء الحزب جمِيعاً ليُنضمُوا الى الحزب الوطني الديمقراطي الذي كونه الرئيس أنور السادات في نفس العام ، ونظر رئيس حزب مصر « ممدوح سالم » حوله فلم يجد أحداً من نوابه وأتباعه وشعبيته التي ادعاهَا فترة من الزمن ، فاستقال من رئاسة الحزب ، والتَّقَفَ حزبه في طيات النسيان والظلم ، وافتقت « جريدة مصر » الى غير رجعة ، وعلى كل حال فستتكلم عن أحزاب عهد السادات في الجزء العاشر من هذه الموسوعة .

ماذا قالت جريدة مصر ؟

عندما أعلن قيام حزب الوفد الجديد في يناير سنة ١٩٧٨ كتبت جريدة مصر مقالها الافتتاحي بعنوان : عودة حزب ٤ فبراير .

وأحتوى هذا المقال نفس العبارات القديمة التي قيلت سنة ١٩٤٢ مثل : عاد الوفد على أسنة الرماح البريطانية وغيرها من العبارات الجوفاء .

ومن الواضح أن القصر كان قد تردد في القاع ، وساعت سمعته كثيرة ، وكان يدير الأمر به عصابة من الدمى تستجيب لها وزارات الأقليةات وكان الانجليز في فترة الاحتلال لمصر ضالعين مع القصر ، فالانجليز ، والملك كانوا أعداء للشعب ويختلفون القوى الشعبية ، ولذلك كان الملك بموافقة الانجليز يلْجأ للأحزاب الصناعية ، أحزاب الأقليةات ليكون منها

الوزارات ، وكانت هذه الوزارات بالتالي تعمل بجد لارضاء القصر والإنجليز والضغط على كل الاتجاهات الشعبية .

ولكن الإنجليز في ظروف الحرب أو التهديد بها ، كانوا يحتاجون لتهيئة الشعوب ، ويختلفون ثوراتها ، ومن هنا كانوا يختلفون مع الملك في هذه الظروف ويذمرون على وزارة ممثلة للشعب تمثيلاً حقيقياً لارضاء الشعب .

وفي يونيو سنة ١٩٤٠ كان على ماهر رئيساً لوزارة مصر ، وكانت إيطاليا قد دخلت الحرب العالمية حديثاً ، وكان الإنجليز يشكّون في ولاء على ماهر وبخاصة في تلك الظروف الحرجة ، فتقدّم الإنجليز يطّلبون من الملك بـمطلبين : أولهما تتحية رئيس وزرائه على ماهر عن الحكم لشكّهم في ميله مع ألمانيا وإيطاليا وثانيهما تشكيّل حكومة حديقة لبريطانيا تتولى تنفيذ المعاهدة نصاً وروحاً ، واستجاب فاروق لإنذار البريطاني فقدم على ماهر استقالة حكومته وبادر الملك بتكليف أحد كبار المستقلين من أصدقاء الإنجليز وهو جسن صبرى بتشكيل حكومة جديدة في ٢٧ يونيو عام ٤٠ . كانت تضم ستة من الوزراء المستقلين وعشيرة وزراء تمثل أحزاب الأقلية : ٤ من السعديين و ٤ من الدستوريين وممثل واحد لكل من الحزب الوطنى وحزب الاتحاد .

وهذا الموقف هو الذى تكرر تماماً فى فبراير سنة ١٩٤٢ ، فقد ضيّفت وزارة حسين سرى — التي جاءت للحكم سنة ١٩٤٠ عقب وفاة حسين صبرى — ولم تستطع مواجهة الأحداث وبخاصة عندما زحف روميل تجاه حمود مصر ، وهتف بعض الشبان المصريين : « تقدّم يا روميل » فحينئذ تقدّم الإنجليز بطلب إلى الملك أن يستدعي النحاس باشا لتأليف وزارة شعبية ليستطيع أن يضمن تأييد الشعب وعدم ثورتهم على النظام القائم .

ولكن الملك رفض ذلك لكراهة شخصية للنحاس باشا ، ولم يقف

الموقف الذي وقفه قبل ذلك بعامين ، وكان من نتيجة ذلك أن ساق الانجليز الدبابات والعربات المدرعة البريطانية لتضليل الحصار حول قصر عابدين في الساعة التاسعة مساء يوم ٤ فبراير ٤٢ ، وبعد أن ألقى السفير على فاروق بياناً حمله فيه مسؤولية انتهاء المادة الخامسة من المعاهدة قدم إليه وثيقة تنازله عن العرش كي يوقعها وعندها انهار فاروق وطلب من السفير في ذاته واستجداء أن يمنحه حرمة أخرى وطلب الاجتماع بزعامة الأحزاب ، فاجتمعوا في القصر ، ووضع الملك الأمر بين أيديهم وتركهم ، وطلب زعماء الأحزاب من النحاس أن يؤلف وزارة قومية تمثل فيها كل الأحزاب فرفض النحاس ليقينه أن مثل هذه الوزارات لا تننجح ، وكان عجيباً أن يكون تأليف النحاس باشا لوزارة قومية مقبولاً لدى الأحزاب ، أما تأليفه وزارة وفدية فيعد مجيئاً للحكم على أسنة رماح الانجليز ! !

لقد كان عزل الانجليز للملك فرصة لدى الوفد للقضاء على الملك الصال الذي حاول النحاس باشا خلعه سنة ١٩٣٦ ولكن الانجليز حموا الملك إلى أن عزلته ثورة ٢٣ يوليو بعد ذلك ، وتعتبره بأذن التصوّت ، ولكن الوفد لم يستقل رغبة الانجليز سنة ١٩٤٢ لعزل الملك لسبعين مهمين : أولهما — أن خلع الملك في تلك الظروف على يد الانجليز وال الحرب العالمية في أوج لهيبها كان سيفسح مصر في موقف يخشى منه .

ثانيهما — إن فاروق تتعرض للنحاس باشا أن ينقذ الموقف المصري ويؤلف الوزارة ، وقال له : إنك الوطني الوحيد ، وإن قبولاً للحكم تضحيه بذلك تضييقها إلى تصريحاتك السابقة التي يعرفها الجميع . وقد أثبت النحاس باشا هذه العبارات في كتاب تأليف الوزارة ، ونصها :

... وقد أعرابتم جلالتكم المرة بعد المرة والكرة بعد الكرة عن ثقتكم في شخصي وأثبتم عنى انكار الذات ، وذكرتم أن هاتين الصفتين الكريمتين يقضيان علىَّ أن أتقدم لإإنقاذ الموقف وأتحمل مسؤولية تطورات لم يكن لي يهد فيها .

فلما اكتشفت الغمة عن الانجليز وتراجع الألمان ، واتحسر الضغط الانجليزى عاد الملك من جديد إلى أحزاب الأقلية التى كانت دائماً تتجاهل الشعب وتعيش في رحاب القصر والإنجليز ، فألقت هذه الأحزاب الوزارات ، وراح زعماؤها يرمون الأبرياء بما فيهم من عيوب ومثالب .

عود إلى الحديث عن الأحزاب :

تحديثنا آنفاً عن الأحزاب في عهد الدستور لنبرز أنها كانت تتتمثل في اتجاهين : اتجاه الأمة ويمثله حزب الوفد ، واتجاه القصر وتمثله أحزاب متعددة لم يكن لها هم إلا الخضوع للقصر الذي كان بالتالي خاصاً للإنجليز .

وإذا عدنا إلى ما قبل الدستور وجدنا مصر عرفت الأحزاب أيضاً ، ومن أشهر الأحزاب آنذاك حزب الأمة الذي أسسها سنة ١٩٠٦ برئاسة حسن عبد الرزاق باشا والذي كان يهادن دولة الاحتلال ويدعو للاستقلال الذاتي ، وكان لهذا الحزب صحيفة تسمى «الجريدة» شغل لطفى السيد رئاسة تحريرها .

ومن أحزاب ذلك العهد كذلك حزب الإصلاح الذي أسسه سنة ١٩٠٧ الشيخ على يوسف ، وكانت صحيفة «المؤيد» لسان حاله ، وكان ينحاز للخديوى .

وبعد هذين الحزبين نورد تعريفاً بأهم الأحزاب الأخرى وهي :

- الحزب الوطني : أسسه مصطفى كامل سنة ١٩٠٧ .

ولمصطفى كامل تاريخ وطني حافل أشرنا إليه آنفاً ، ونضيف هنا أنه كان شاباً ثائراً ، ظهر نشاطه السياسي وهو طالب بالجامعة ، وقد خدمته الظروف فدفعته إلى الزعامة وهو في مطلع الشباب ؛ فإن العثمانيين كانوا يتعلمون إلى عودة نفوذهم بمصر ، ويبحثون عن قيادة بمصر

تؤيدهم وبيؤيدونها ، وهنا التقى بهم مصطفى كامل فأنعموا عليه برتبة الباسوية ودفعوه إلى الزعامة ، وبالتالي كان مصطفى كامل يدعو للتعاون مع الإمبراطورية العثمانية ، وفي نفس الوقت كان سلطان مصر (عباس حلمي) شاباً ينادى الانجليز ويصارع بقاءهم في البلاد ، فأيد مصطفى كامل كذلك ، وسقط الاستعمار الانجليزي سقطته الكبرى في حادثة دنشواي الأئية ، فانتهزها مصطفى كامل فرصة وراح بالكلمة المقوله والكلمة المكتوبة يهاجم الاستعمار الانجليزي بمصر ، ومات مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ وهو في مطلع الشباب أي في الرابعة والثلاثين من العمر وألت رياسة الحزب إلى محمد فريد الذي جاهد جهاداً صادقاً ضد الاستعمار حتى مات غريباً سنة ١٩١٩ ، وبوفاته أو قبل ذلك بفترة انتهى العصر الذهبي للحزب وإن ظل قائماً من الناحية الاسمية ، وقد تعاون زعماء الحزب الوطني بعد ذلك مع أحزاب الأقلية وقنعوا بالفتات ورحباً بكراسي الحكم .

بقي عن مصطفى كامل وعن الحزب الوطني نقطتان مهمتان توضحان بعض زوايا التاريخ .

أولاًهما : لو لا الظروف التي ساعدت مصطفى كامل ، والتي ذكرناها من قبل ما استطاع أن يصل لما وصل إليه من صيت في هذه السن المبكرة ، وبخاصة أنه لم توجد نتائج ذات بال لجهوده ، ثم إن عبد الناصر بعد ثورة ١٩٥٢ عمد إلى إغفال دور حزب الوفد وزعمائه ، وجماعة الإخوان المسلمين وزعمائهم ، وراح يتغنى في دور مصطفى كامل والحزب الوطني ، وكان ذلك تتفيداً لسياسته التي حاول بها القضاء على كل القوى الحقيقة بالبلاد .

ثانيهما : ألت زعامة الحزب الوطني إلى حافظ رمضان منذ سنة ١٩٢٣ .

ولن نتحدث عن حياة هذا الرجل الشخصية ، مع أن بها ما يمس

حياة مصر ، ولكننا نروي حادثة واجدة توضح كيف كان الرجل خالي الوفاض في مجال الثقافة الإسلامية فقد روى لي الأستاذ نجيب الطيعي حفيد الشيخ محمد بخيت الطيعي مفتى الديار المصرية سابقاً أنه سمع حافظ رمضان يقرأ آية من القرآن الكريم كانت ضمن خطاب سلقيه ، وحرف حافظ رمضان الآية وهو يقرؤها ، فاندفع الأستاذ نجيب يصحح له خطأه ، فضحك حافظ رمضان ضحكة عالية طولية ، ولما سأله الأستاذ نجيب عما يضحكه قال له : إنك ترددت في حماسة وغضب لأنني أخطأت في البخاري !!

يا الله !! كيف صالح مثل هذا الرجل مثل هذه الزعامة في مصر ؟

- حزب الوفد : تأسن في ١٩١٨/١١/١٣ مع صحوة الشعب في ثورته الكبرى بزعامة سعد زغول فمصطفى النحاس ، وظل يمثل الأغلبية حتى حلت الأحزاب ، وسنتحدث بعد قليل عن شخصية سعد زغول وشخصية مصطفى النحاس .

- حزب الأحرار الدستوريين : أوجده على في أكتوبر سنة ١٩٢٢ ويقول عنه أحد الكتاب « كان أعضاؤه في أكثر مواقفهم يعملون للوصول إلى الحكم بأى ثمن » ، وعلى حساب مصلحة البلاد العليا ، وهو الحزب الذى انتهك حرمات الدستور واستباح مقدساته ، وقال أحد رؤسائه « عبد العزيز فهمي) عن الدستور إنه ثوب فضفاض ، وجاء للحزب رئيس آخر هو محمد محمد الذى مثل على مسرح السياسة المصرية الدكتاتورية الحمقاء ، فاطلق على نفسه « ذا القبضة الحديدية » وأوقف العمل بالدستور » (١) .

وقد تحدث عبد الرحمن الراافعى أحاديث طويلة عن الوفد وعن

(١) محمد مصطفى عطا : مصر بين ثورتين من ٦٩ - ٦٨ .

الأحرار الدستوريين ، وكان — كما يقول الأستاذ شفيق غربال — يعامل الوفديين أحياناً بالعتب وأحياناً بالإنكالن وأحياناً بالرضا ، ولكنه لم يغير رأيه في الدستوريين أبداً ، فكانوا في نظره دائمًا وصوليين ونفعيين ورجعيين ^(١) .

— حزب الاتحاد : وقد أنشأه القصر سنة ١٩٢٥ برئاسة حسن نشأت كبير الأمناء بالقصر ، وكان من أعضائه على ماهر .

— حزب الشعب : وقد أنشأه صدقى سنة ١٩٣٠ ، وكان عدوًا للشعب على الرغم من هذه التسمية .

— الحزب السعدي : ألهه أحمد ماهر والتقراشي بعد انشقاقهما على الوفد سنة ١٩٣٨ .

— حزب الكتلة الوفدية : ألهه مكرم عبيد بعد انشقاقه على الوفد سنة ١٩٤٣ .

وهناك قوى أدعى أنها مستقلة ، وكان معنى الاستقلال عدم الانتماء إلى الأحزاب رسمياً ، وإن كانت تميل إلى كراهية الوفد والتعاون مع سواه على تناولت بين الأشخاص ، وأبرز هذه القوى على ماهر بعد استقالته من حزب الاتحاد وحسين سري وحسن صبرى .

(١) عبد الرحمن الرافعى : في اعتتاب الثورة في عدة أمثلة ، وشفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية من ١٥

سعد زغلول ومصطفى النحاس

في حديثنا عن الحركة القومية ونتائجها ، وعن المجزات التي حققتها هذه الحركة في الداخل والخارج ، وفي حديثنا عن الأحزاب وعلاقتها بالشعب وبالقصر يقفز لهذه الدراسة شخصان من العمالقة ، منحا مصر كل الجهد وكل العرق ، ونالا من مصر كل الود وكل الولاء ، هذان هما سعد زغلول ومصطفى النحاس ، ومن عجب أن هذا وذلك لم ينجبا أطفالا وكأنهما استعاضا بالأولاد جماهير الشعب التي أخلصت لهما أكثر من الأولاد والأحفاد ، ومن عجب كذلك أن يموتا في تاريخ واحد هو الثالث والعشرون من أغسطس (سنة ١٩٢٧ للأول وسنة ١٩٦٥ للثاني) وكأنهما قاما بذكرى واحدة لهما تظل تجمع بين اسميهما وهما في عالم الخلود كما جمعت الدنيا بينهما في ميدان凱فا (كفاح واحد ؛ ويلتقى الاثنين كذلك في ظاهرة قل من قناع بها من القادة والزعماء ، وهي الرضا بالكافاف في حياتهما حتى إذا ماتا لم يتراكا شيئا من المال ظاهرا أو مستترا ، بل أن الزعيم مصطفى النحاس استبدل بجانب من معاشيه مالاً) كان في مسيس الحاجة إليه كما قال مریده عبد الفتاح حسن (١) .

وكان يقال عن سعد إنه من يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ حتى وفاته سنة ١٩٢٧ كان تاريخه الشخصي تاريخ مصر (٢) ، وذلك اسمى ما يوصف به زعيم يعترف له الشعب بالتقدير والحب والولاء ، ويمكنا أن نقول عن خليفة الزعيم البطل مصطفى النحاس إنه حمل اللقب بكفاءة نادرة مع سعد ، واستقل بالعبء بعد سعد بنفس النضج والإخلاص والمواهب الممتازة ، وارتبط به تاريخ مصر منذ وفاة سعد سنة ١٩٢٧ حتى قيام الثورة سنة ١٩٥٢ ، وقد بقى هذه المدة الطويلة عملاً ما هائلاً لم تضعه الأحداث ولم تقل منه مؤامرات الأعداء ، وظل كالطود الشامخ ، يلتقط حوله الشعب كله ، ويعيش هو للشعب كله ، ويصفه الباحثون (٣) أنه

(١) الأخبار في ٢٤/٨/١٩٧٥ .

(٢) انظر ترجمة سعد زغلول في الموسوعة العربية الميسرة .

(٣) مقال المصور في ١٢/٩/١٩٧٥ .

كان خلال هذه المدة قائد مصر وضميرها، وأنه بلغ الذروة في الشجاعة والاتقادام والتضحية بكل شيء من أجل مصر وأبناء مصر .

ومن أوجه التشابه بين الزعيمين أنها علا بخلاص لقوية الروح الوطنية بين أفراد الشعب ، لا فرق بين مسلم ومسحي ، وبذلك لم يتاح فرصة للمستعمر ليتخذ من الدين وسيلة للتفرق بين الأمة ، وأذا استعرضنا مريدي سعد ومصطفى النحاس وجدنا نخبة طيبة من المسيحيين كانت تختل الصفوف الأولى بالحزب مثل سينوت هنا ومكرم عبيد وابراهيم شرج ...

وعندما قامت الثورة واعتزل النحاس الحياة السياسية أو أرغم على ذلك ، بقيت الروابط المتينة بينه وبين مريديه ومؤيديه ، وكانت أحاسيس الولاء تتنقل الفرصة لتلعن عن نفسها ، وللأسف جاءت الفرصة ولكنها كانت مريضة ، كانت وفاة البطل سنة ١٩٦٥ بعد اختفاء زاد عن ثلاثة عشرة سنة ، ولكن هذه السنين الطوال ، لم تتو على أن تزرع النسيان في نفوس الناس على الرغم من الأوامر طيلة هذه المدة كانت تمنع ذكر اسمه بالصحف ، وعلى الرغم من المحاولات التي أرادت تشويه اسمه أو النيل من سمعته ، وما إن أذيع خبر الوفاة حتى انطلق الشعب غير مكتوف بالوعيد وبقوى الشر التي كانت تحكم البلاد آنذاك ، وراح يحمل الجثمان الطاهر ، ويهتف بالشکوى الى الله مما يعاني بعد أن أبعد الزعيم الحقيقي عن الشعب الذي عاش معه واليه ، وكان مريدي النحاس يفعلون ذلك وهم يتوقعون الضرب من قوى الشر ، وقد وقع الضرب فعلا فقبض على مئات منهم وظل بعضهم في السجن لهذا السبب عدة سنوات حتى مات (١) .

وبعد وفاة سعد وجد الشعب الفرصة ليعلن لهذا الزعيم عن العرفان بالجميل ، فإن حزب الوفد حمل باسم الشعب هذه المسؤولية ، فأقليم

(١) انظر نماذج من هؤلاء في كتاب « مصر في حربين » للمؤلف ص ٦٦ .

للزعيم ضريح عظيم ، وحُسْنَه منزله إلى متحف ، وأقيمت له التماثيل الشاهقة في أعظم الأماكن بالقاهرة والاسكندرية .

ولكن مصطفى النحاس اختفى عن ميدان السياسة في عهد عبد الناصر حيث كانت شريعة الغاب هي شريعة مصر ، وحيث غاب القانون وطلالت غيبته ، وحيث كان من مظاهر العصر أن يُعْتَدَى على كل الكفاءات ، وأن يُسْدَل الستار على الماضي ، وأن تظهر مصر وكأنها ولدت من جديد بدون تاريخ سابق أو جهود قاموا بها الأجيال الماضية . وعلى هذا لم ينزل مصطفى النحاس حقه ولا جزءاً منه ، بل بروزت محاولات أشرنا لها من قبل لتغمس الرجل ولقتل منه ، وعلى هذا فحق مصطفى النحاس علينا حق مزدوج أن ننصرقه من الظلم ، وأن نحيطه بما يستحق من أضواء واعتراف بالجميل .

وبالإضافة إلى أوجه التشابه التي أوردناها بين الزعيمين ، هناك تشابه في السلوك ، وهذا التشابه يرويه لنا الأستاذ محمد كامل البنا سكرتير مجلس الوزراء في عهد مصطفى النحاس ، فهو يقول : سألت النحاس باشا كيف تقابلون الملك وكيف تسلمون عليه ؟ فقال : إن جميع رؤساء الوزارات والوزراء ما عدا المرحوم سعد زغلول وأنا يسلمون عليه ويقبلون يده ، أما سعد وأنا فتعودنا مع الملك فؤاد والملك فاروق أن نحنن انحناء بسيطة ونسلم عليه دون تقبيل يده وكذلك تعودنا في كتاب الرد على التكليف بتشكيل الوزارة أن نكتب له (يا صاحب الجلالة) بينما يكتب جميع الرؤساء سوانا (مولاي صاحب الجلالة) .

وكلن سعد زغلول شديد الاعتزاز بالشعب وبإمكانه منه قائد وزعيم ، كما كان شديد التمسك بالحقوق التي كفلها الدستور ، فعقب الانتخابات البرلمانية الأولى في يناير سنة ١٩٤٤ التي أجرتها يحيى إبراهيم رئيس وزراء تلك الفترة ورسب فيها نفسه أمام أحد مرشحي الوفد ، وحصل الوفد علىأغلبية ساحقة ، عقب ذلك أصدر الملك فؤاد في ١٧ يناير أمراً لزعيم الوفد سعد زغلول بأن يؤلف الوزارة الجديدة ،

ولكن الملك لم ينس أن يضع في أمر التكليف غمة لا تتناسب حقوق الأغلبية ، فذكر أن اختيار سعد لتأليف الوزارة جاء عن صدق ولاء سعد عظيم خبرته وحكمته ومسداد رأيه في تصريف الأمور . . . ولكن سعد فطن للأمر ، ولم تخديعه أساليب المدح في شخصه ، فكتب في خطابه للملك الذي أسف به الوزارة أن الانتخابات العامة أظهرت بكل جلاء إجماع الأمة على تنافتها حول الحزب الذي يرأسه وأن تأليفه للوزارة التي عهد له بها قد نبع من إرادة الأمة .

ولما جاء موضوع الشيوخ الذين يعينون نشأ نزاع جديد تمسك فيه سعد كما تمسك فيه النحاس من بعده فقد رأيا أن حق تعين الشيوخ ليس للملك وحده ، بل له من خلال الوزارة .

وابتداء من وزارة سعد التي أشرنا إليها آنفاً طرأ تقليد جديد على العلاقات بين بريطانيا ومصر ، فقد كان من المتبع قبل ذلك أن يبادر رئيس الوزراء الجديد بزيارة المنصب السامي ، ولكن المنصب السامي بادر بزيارة سعد في مكتبه عقب تأليف الوزارة .

وفيما يتعلق بالسودان نجد لسعد موقفاً رائعاً ، ففي ١٧ مايو سنة ١٩٢٤ ألقى سعد تصريحاً في مجلس النواب اعترض فيه على وجود السردار بالسودان بل وعلى منصب السردار نفسه قال فيه « لا يتفق مع كرامة الدولة المصرية أن يكون الرئيس الأعلى لقواتها أجنبياً بل ولا الرئيس الأدنى أيضاً ، ولكن هذا كان من قبل ويجب علينا أن نمحوه كما أن إقامة السردار بالسودان لا تتفق مع مصلحة العمل وهذا واقع من قبل ويجب أن تتخذ الوسائل لإزالته ذلك » . وفي الأسبوع التالي قال سعد في المجلس: « من المحال ترك السودان غنيمة باردة للانجليز » . وفي نوفمبر أ'Brien اللورد اللنبي إلى حكومته بأنه ينتظر الفرصة المناسبة لتحدي الحكومة المصرية ، وجاءت هذه الفرصة بحادثة اغتيال السردار في ١٩ نوفمبر التي عبر عنها الجنرال ويفل قائلاً « إن الأقدار قد أرسلت جثة السردار حلاًً لوقف لم يعد محتملاً ، فقد تقدم المنصب السامي

البريطاني في مظاهرة عسكرية يإنذار إلى رئيس الوزارة حمل كل المهانة للحكومة المصرية مما كان لا يمكن أن تقبله حكومة ذات كرامة أو حكومة حريصة على الاستقلال الوطني ناهيك بحكومة يرأسها سعد .

ولم يكن أمام الوزارة الشعبية في مواجهة أعمال القوة التي شرع البريطانيون في القيام بها لتنفيذ الإنذار إلا التقدم باستقالتها إلى الملك في ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٤ وقبل الملك الاستعفاء في اليوم التالي وطويت بذلك صفحة من أهم صفحات تاريخ الوزارات المصرية (١) .

وجاء زبور ليستجيب لكل مطالب الانجليز كما ذكرنا من قبل .

مصطففي النحاس :

تحدثنا فيما سبق عن سعد زغول ومصطفى النحاس معاً ، فقد كان الثاني امتداداً حقيقياً للأول ، ولكن هنا نضيف للنحاس سطراً آخر ، فقد كان العناء الذي قبله النحاس أكثر هرارة من ذلك الذي قبله سعد لطول المدة من جانب ، وللسعار الذي اندفع فيه المكان فؤاد وفاروق من جانب آخر ، ثم لوجود أحزاب القصر أدوات للتكميل بالشعب ، وقد ظهرت هذه الأحزاب الوهمية في عهد النحاس أكثر من ظهورها في عهد سعد ، ولكن مصطفى النحاس كان جديراً بحمل العبء ، ومقاومة كل هذه القوى الجائرة ، وتذكر الوثائق موافق كثيرة من التحدى قام بها مصطفى النحاس ، وهي تدل على رسوخ قدم ، وعمق إيمان واتجاه أكيد للحرص على مصلحة الشعب دون سواه .

وأول ما نذكره أن مصطفى النحاس كان من الرعيل الأول الذي حمل المسؤوليات مع سعد ، فقد صرخ معه ضد الانجليز عقب الحرب العالمية الأولى ، ونفى مع سعد إلى سيشل سنة ١٩٢١ .

(١) رحلة وسط الوثائق البريطانية (الأهرام في ١٥/٨/١٩٧٥) .

وعندما ألتئف سعد وزارته الأولى سنة ١٩٢٤ كان النحاس وزيراً للمواصلات بها ، كما كان وزيراً في الوزارة الائتلافية التي رأسها عدلي يكن سنة ١٩٢٦ وكان سعد زغول رئيس مجلس النواب ، وبعد وفاة سعد اختير مصطفى النحاس بالإجماع خلفاً لسعد في رئاسة الوفد ورياسته مجلس النواب *

النحاس والملك :

وعاش مصطفى النحاس صلباً في مواجهة استبداد الملك ، ويروى أنه طلب مرة من الملك الإنعام على أحد الوزراء برتبة البشوية ، ولكن الملك رفض ، فصاح النحاس في الملك : أنا لسانك . وتمَّ للنحاس ما أراد ، ويعتبر هذا التعبير « أنا لسانك » أرقى ما تصل له الديمقراطية في معاملة الملك *

وفي مرة أخرى حاول الملك أن يتدخل في الشؤون الحزبية الخاصة بالوفد عندما عقبَ على قرار الحزب بفصل أحد أعضائه ، ولكن مصطفى النحاس لم يتحمل هذا التدخل وضرب المائدة ضربة احتجاج اهتزت لها كل الأدوات التي كانت على المائدة (١) .

وهذه المواقف وسواء حدثت في الوزارة الونشدية الأخيرة مما يدل على أن النحاس باشا ظل صامداً على مر السنين حتى آخر لحظة ولم يضعف أبداً أمام طغيان الملك الذي اتخذ عدة وسائل لاضعاف حزب الوفد ، وقد رأى الملك أن الأحزاب لم تغنه شيئاً فلجاً للأزهر ، وعن طريق بعض الرعامتين فيه اتجه كثير من الأزهربيين لمعارضة الوفد ، وراح كثير من هؤلاء ينادون الأحرار الدستوريين في الانتخابات ، وصُرِفت لهم بعض المكافآت المالية لهذا الغرض فأخذوا يخطبون في الجماهير ويطوفون بالقرى ولكن دون جدوى *

(١) من كتاب نشرها المرحوم الاستاذ عبد الفتاح حسنين في صحيفة الأخبار بتاريخ ٢٤/٨/١٩٧٥ *

بقيت نقطة أثارها أحد أعداء مصطفى النحاس ، وقد وجد فيها بعض الحاقدين وسيلة للنيل من الرجل العظيم ، وهذه النقطة هي الادعاء بأن النحاس قبَّل يد الملك فاروق ، وراوى هذه الحادثة هو حسين سري ، وقد أخذها موسى صبرى مطعناً في الرجل العظيم ، ولكن قوى الحق اتجهت لقتل هذه الشبهة الحقيرة ، وفي الحق أن هذه الشبهة ولدت ميتة ، ويكتفى أن مصدرها حسين سري الذي كان منافساً شديداً للمصطفى النحاس ، وكذبَّه في هذا الادعاء ظاهر ، وقد رد عليه عبد الفتاح حسن رداً مُفْحِماً أثبته بمحاضر جلسات محكمة الثورة فقال إن طرف الواقعة اثنان : الملك والنحاس ، والملك لم يقل هذا أبداً قبل رحيله أو بعد الرحيل ، والنحاس باشا أنكر ذلك وما كان يمكن أن يقبل ذلك ، وقد ادعى حسين سري أنه كان وراء ستار وخلف حجاب يتمتنَّ لما يجري من حديث بين الملك والنحاس ، وموقف التجسس هذا ينحط بالرجل فلا يجعل كلامه موضع اعتبار ، ويفيد كلامنا ضد حسين سري كتاب الاستقالة الذي قدمه مصطفى مرعي من الوزارة التي كان يرأسها هذا الرجل ، وقد جاء في كتاب الاستقالة أنه (مصطفى مرعي) لا يقبل أن يبقى في وزارة يرأسها رجل مثله .

ولا يزال موسى صبرى وأمثاله يت Sheldon بهذه القصة على أنها نفيضة ارتتكبها النحاس ، ونحب أن نصرح أن زعماً كهذا طالت زعامته ، وكثير أعداؤه ، ثم لا يجد هؤلاء فيه مطعناً إلا هذه المسألة لجدير بكل تقدير ، لقد عجز أعداؤه وما أكثرهم عن أن يجدوا في الرجل ثلة تمس وطنيته ووجهه وتضحياته وأمانته ، فراحوا يتغافلون بهذه الحادثة الكاذبة ظانين أنها تساعدهم على النيل منه ، ولكن هذا الموقف يثال منهم ويعرف من قدر الرجل الذي لم تعلق به شبهة ، مع وجوده في تيار السلطة والصراع من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٥٢ .

الزعيم الفقير :

بقيت عن مصطفى النحاس نقطتان سمعتهما حديثا من مربيه الأستاذ
ابراهيم فرج وزير الشئون البلدية في وزارة الوفد الأخيرة .

أما النقطة الأولى فيرجع العهد بها إلى مطلع الثلاثينيات ، ففي سنة ١٩٣٣
كان صدقى رئيسا للوزارة رب خلق له حزبا وحكومة من هوادة الجاه ولو
على أشلاء الناس والبلاد ، واتجه صدقى بكل قواه للنيل من زعيم البلاد ،
ووصل في تعسفه إلى حد محاولة أن يتجربه (وليس مسمح لى القاريء أن
أضع هنا بين قوسين حادثة مشابهة هي أن عبد الناصر حاول بإصرار أن
يحيى كثريين من الناس في عهده ، وكان كاتب هذه السطور واحدا منهم ،
فيبدو أنه كان تلميذا مخلصا لإسماعيل صدقى : انظر تفاصيل ذلك في
الجزء التاسع من هذه الموسوعة) فأصدر صدقى قرارا يقضي بأن مدة
نفي النحاس باشا في سينبل لا تحسب في معاشـه ، وبذلك انخفض
المعاش من ١٢٠ جنيها إلى ٧٠ جنيها ، ويقول الأستاذ إبراهيم فرج
إنه فوجيء بهذا الوضع الذى كان لا بد أن يحدّث أزمة اقتصادية في
حياة النحاس لأن إبراهيم فرج كان وكيله ، وكان يقبض معاشـه كل
شهر فيرسل لأخت الزعيم في سمنود ١٥ جنيها ويرسل لأولاد أخيه بحلوان
٢٥ جنيها ويسلم مدير بيت الرئيس ٦٠ جنيهات لحاجات المنزل ، ويعطى
القدر الباقى (٢٠) جنيها للنحاس باشا للمصاريف الخاصة النشرية ،
وكان معنى تخفيض المعاش إلى ٧٠ جنيها أن يحدث ارتباك واضح في
اقتصاد الزعيم الذى عاش فقيرا ومات فقيرا ، وقد قام إبراهيم فرج
برفع دعوى ضد هذا القرار الظالم ووافقه طلعت حرب أن يقدم للزعيم
سلفة ريثما يبعث القضاء في الدعوى ، وقد حكمت المحكمة بالغاء هذا
القرار وإعادة المعاش إلى ما كان عليه .

ونحن هنا نحيي الزعيم الذى لم يكتثر بالمال وأثر الخلود ونشفق
على أولئك الذين تطلعوا للمساك لأنفسهم وذويهم فنالوه ، وفقدوا
الخلود إلى الأبد .

مَدْفُونُ الزَّعْيْمِ :

أما النقطة الثانية فتتصل بخاتمة حياة هذا الزعيم فقد اتجه تلاميذه ومربيوه أن يطلبوا من كانت بيدهم السلطة عند وفاة النحاس باشا أن يسمحوا بأن يدفن زعيم مصر مع سلفه سعد زغلول في نفس الضريح ، ولكن، هؤلاء كانوا - فيما يبدو - يرجفون من أي لقاء يتم بين الزعيمين ولو كان ذلك بعد صعود روحيهما إلى الباري، الأعظم ، ورفض هؤلاء ذلك الطلب العادل وأبعد جثمان الرجل إلى مكان بعيد في مقابر الجماهير بالبساتين ، وأغلبظن أن الأجيال القادمة ستتحقق للزعيمين اللقاء وستتحقق فيما لم ينجح فيه الذين حاولوا هذه المحاولة يوم وفاة **الزعيم الخالد** ۱

وبعد ، تلك الكلمة قصيرة قصدت بها وجه الله ، وقصدت بها ابراز الوفاء والعرفان بالجميل لن يستحق الوفاء والعرفان بالجميل ، جزى الله مصطفى النحاس خير جزاء على ما قدم للوطن والمواطنين من جهود وأعمال ، وليت خلفاه في حزب الوفد يقرءون سيرته بامان وينهجون نهجه ، فذلك هو الطريق الأمثل لنجاحهم إن أرادوا النجاح ، وليعلموا أن الشعب مفتوح الفينين قوى البصيرة ، وهو لا يؤيد إلا من يستحق التأييد ۰

حالة مصر الاجتماعية والاقتصادية في عهد الاستقلال

يمكن القول إن أساس تاريخ مصر الحديث وضع في هذه الفترة ، فقد انقضى الاستعمار العثماني بكلله وقوته ، وأما الاحتلال الانجليزي فقد وجَدَ صوراً من المقاومة فبدأ يتقهقر ويضمحل نفوذه ، ومع تقهقره وأضمحل نفوذه أخذ يظهر النفوذ المصري ، وفي هذا العهد ظهرت الوزارات المصرية الصميمية ومجالس النواب ، وفي ظل هذا وضع أساس نهضتنا الحديثة .

صحيح أن اختلاف الزعماء عاق البلاد عن مزيد من التقدم ، ولكن أساس التقدم وضعت فيه على أي حال .

وسنذكر فيما يلى لحة سريعة عن صور التطور الذى نعمت بها البلاد خلال هذه الفترة :

في مجال التعليم :

في مجال التعليم نهضت البلاد نهضة واسعة ، فكثرت بها المدارس كثرة هائلة ابتداء من رياض الأطفال حتى التعليم الجامعى ، ومن مفاجئ هذه الفترة أنها قضت على الأزدواج في التعليم فلم تعد هناك مدارس أولية ومدارس ابتدائية بل أصبحت جميع مدارس المرحلة الأولى ابتدائية تصب في المدارس الاعدادية بواسطة امتحان منتظم ، صحيح إن تنظيم هذه الخطة تم بعد الثورة ولكن بذورها ترجع إلى السنين التي سبقت الثورة ، ومن مفاجئ هذه الفترة أن أنشئت بها جامعات مصر التي لها مكانة عظمى في العالم ، ومن الحق أن الجامعة المصرية القديمة أنشئت في العقد الأول من هذا القرن ، ولكنها أصبحت جامعة رسمية حكومية بها كل نظم الجامعات ودرجاتها منذ سنة ١٩٢٥ ، وجاء بعدها جامعة

الإسكندرية فجامعة عين شمس فجامعة أسيوط ، وقد نال الأزهر عناء
كبير في هذه الفترة فصدرت قوانين إصلاحه ، وأنشئت به الكلية
وكثرت المعاهد وانتشرت في عدة بلدان .

في مجال الزراعة :

وفي هذه الفترة نظم الري والمصرف وتم بناء قناطر نجم حمادي
ووجهت عناء كبير للزراعة وأنشئ المتحف الزراعي وكثير استصلاح
الأراضي .

في مجال المواصلات :

ونالت المواصلات اهتمام الحكومات ، فكثرت الخطوط الحديدية
وخطوط البرق والتليفونات وعمت الطرق المرصوفة أرجاء البلاد .

في المجال الاقتصادي :

واستمراراً لذكر الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية في هذا العهد
نقتبس بخاصة سطور من كتاب « مصر بين ثورتين » ، يقول المؤلف (١) :

ومن نتائج ثورة ١٩١٩ اليقظة الاقتصادية : فإن المصريين رأوا
أن مدافعة الاحتلال من شعب أعزل لن تجدي إلا إذا حرب المحتل حرباً
اقتصادية ، وعمدت البلاد إلى الاعتماد على نفسها ، والأخذ بنظام
الاكتفاء الذاتي ، وكان أن نجحت فكرة الدعوة إلى إنشاء « بنك مصر
وشركاته » على يد طلعت حرب ورفاقه بعد أن أخفقت هذه الفكرة قبل
ذلك بسنوات ، فتم تأسيس هذا المصرف سنة ١٩٢٠ .

المرأة : ومن نتائج هذه الفترة الواضحة اشتراك المرأة اشتراكاً فعلياً

(١) محمد مصطفى عطا : مصر بين ثورتين : ص ٦٣ . (سلسلة
اخترنا لك) .

٦ - فترة الاستقلال القائم

من ثورة ١٩٥٣ حتى الآن

هذه الفترة شهدت من التاريخ المعاصر بالنسبة لى ، فقد بدأت "عملية موسماً للتاريخ بجامعة القاهرة من ١٥ مايو سنة ١٩٥١ ومنذ ذلك الحين عنيت بتدوين تاريخ مصر المعاصر ، وأحمد الله أن هذه العناية أثمرت كتابين عن هذه الفترة ، هما :

١ - ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم (عهد محمد نجيب وعهد جمال عبد الناصر) : عهد المظلوم والمهزائم وهو يمثل الجزء التاسع من موسوعة التاريخ الإسلامي .

٢ - ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم (عهد أنور السادات) وهو يمثل الجزء العاشر .

وقد أصدرت قبل ذلك كتاب « مصر في حربين » وهو يتحدث عن بعض ملامح العصرين جميماً ، ففيه دراسة موثقة عن أسباب المزائم التي منيت بها مصر في عهد جمال عبد الناصر ، وأسباب الانتصار الذي حققه مصر في حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ التي ذكر لها وأدارها أنور السادات ، وقد أخرجت هذا الكتاب على وجه السرعة ريثما يتم إخراج الجزء التاسع والعشر من هذه الموسوعة .

وقد صدر الجزء التاسع الخاص بعصر جمال عبد الناصر ، وصور العصر أدق تصوير ، أما الجزء العاشر الخاص بأنور السادات فهو على وشك الظهور إن شاء الله .

وعلى هذا فإن عملى في هذا الجزء من الموسوعة (الجزء الخامس) يتوجه أساساً لتصوير تاريخ مصر الإسلامي كله ، من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر ، وإبراز دور مصر في خدمة العالم الإسلامي ورعاية الثقافة الإسلامية ، ويتجه بعد ذلك ل الحديث موجز عن عهدى عبد الناصر والسداتى

تاركا التفاصيل للجزأين التاسع والعasier المذكورين ، ومن هنا فإننا في هذا المكان نبرز الحلقة الأخيرة من حلقات العلاقة بين مصر وبريطانيا .

المفاوضات مع الانجليز في عهد الثورة :

انشئت المفاوضات مع الانجليز في عهد الثورة بسمة لم تتوافق لها من قبل ، وأصبح المفاوض المصري يملك زمام الأمر كلّه ، فليس هناك ملك يخسّى أو أحزاب قصر تشاور ، وكانت المفاوضة منها اتفاق على الجلاء وعلى تحديد المدة اللازمة لذلك .

ووصل الطرفان إلى حل سريع في مسألة السودان ، فقد عقدت اتفاقية في ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣ كان طابعها الصراحة في مواجهة الحقائق ، فأعطت الشعب السوداني الحق في تقرير مصيره بعد انسحاب القوات العسكرية البريطانية والمصرية ، وبعد انتهاء فترة انتقال حدد لها ثلاثة سنوات ، وبذلك انتهت أصعب مشكلة في المفاوضات ، وقد تحدثنا في الجزء السادس عن تنفيذ هذه الاتفاقية ، وما حدث من تغيير في الخطة عند التنفيذ .

أما عن المفاوضات في المسائل الأخرى فقد اتخذت بريطانيا طريقاً ملتوياً في أول الأمر ، فتوقفت المفاوضة بسبب ذلك ، وبدأ كفاح الفدائين ، ذلك الكفاح المنظم الذي وضع حداً للمساومة ، لأنّه أقلق المستعمر وأزعجه ، وجعله يدرك أنه في حاجة إلى من يحميه في البلاد التي جاء لحمايتها ٠٠٠٠ وبدأت المفاوضة في هذا الجو مرة أخرى ، وفي سرعة هائلة وقعت اتفاقية الجلاء في ١٩ أكتوبر سنة ١٩٥٤ ، وقد وقعا جمال عبد الناصر عن الجانب المصري وسيّر رالف ستيفنсон السفير البريطاني عن الجانب البريطاني ، وخلاصة هذه الاتفاقية جلاء قوات الاحتلال في مدى عشرين شهراً تبدأ من تاريخ توقيع الاتفاقية ، وعندما يتم الجلاء يحتل الجيش المصري قاعدة القناة ، ويدمر المنشآت والورش في هذه القاعدة مدنيون

مصريون ، وبريطانيون لا يتجاوزون الألف ، ومدة هذه الاتفاقية سبع سنوات من تاريخ توقيعها ، تظل خلالها قاعدة القتال على أهمية الاستمداد والعمل ، وللجيش البريطاني الحق في العودة لها إذا هوجمت تركيا أو إحدى الدول العربية خلال هذه المدة ، وتم الجلاء في ١٨ يونيو سنة ١٩٥٦ .

وبعد ذلك بقليل أسرفت بريطانيا عن نواياها الحقيقة ، وعن أن ما نسميه معاهدات الصداقة ليس في الحقيقة إلا زيفا ، فما كادت مصر تستعمل حقها في تأميم قناة السويس في ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ حتى زمجرت بريطانيا وراحت تحالف مع فرنسا ، ومع إسرائيل أشد الدول عداء لمصر ، وببدأ العدوان الثلاثي في ٢٩ أكتوبر ، وأغارت القوات الجوية البريطانية والفرنسية على مصر بينما كانت إسرائيل تدخل سيناء ، وسرعان ما قطعت مصر علاقاتها مع إنجلترا وفرنسا في ٣١ أكتوبر ، ثم نزلت ميدان الجهاد ، وبمساعدة الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي انسحبـت القوات التي كانت قد نزلت أرضنا الطاهرة ، في نفس العام ومطلع العام التالي ، والمهم هنا أن الحكومة المصرية أعلنت في أول يناير سنة ١٩٥٧ إلغاء اتفاقية الجلاء مع بريطانيا ، واعتبار هذه الاتفاقية منتهية من الساعة السادسة مساء ٣٠ أكتوبر وهـى ساعة بدء العـدوان البريطاني ، وفي يوم ١٢ فبراير سنة ١٩٥٧ رضخت بـريطانيا لهذا الإجراء واعتبرـت معاـهـدة ١٩٥٤ منتهـة .

وأسدل الستار على هذه العلاقة المزيرة بين بريطانيا ومصر .

نقد هذه المعاشرة :

وهناك كلمة عن هذه المعاهدة التي وقّعها عبد الناصر ، وتلك الكلمة هي أن المعاهدة أضاعت السودان ، ولو وافق النحاس أو غيره من الزعماء على ما وافق عليه عبد الناصر لتمت مثل هذه المعاهدة من وقت طويل .

وكان استقلال السودان خطرا على السودان وعلى مصر ، فقد قسم القطر الواحد قطرتين ، وأهـس " القطران بذلك الخطر فـسراحت مصر والسودان تعالجـانـه بما يسمـى التـكـامـل ، ولكنـه عـلاـج تـلـيلـ الجـدوـي .

إن بعد السودان عن مصر ، وبعد مصر عن السودان خطـرـ سيـاسـيـ واقتـصـادـيـ ضدـ الـبـلـدـيـنـ ، وقدـ أـذـرـكـ الجـيلـ إـنـ ذـلـكـ ، وـتـمـسـكـ بـالـوـحـدةـ ، ولكنـ عبدـ النـاصـرـ كانـ أـبـعـدـ ماـ يـكـونـ عـنـ فـهـمـ حـقـائقـ التـارـيـخـ .

والسماح لـأـلـفـ منـ الـبـرـيطـانـيـنـ بـالـبـقـاءـ فـيـ القـنـاةـ ، والسماح لـأـنـجـلـترـاـ ، بالـعـودـةـ لـلـقـاعـدـةـ إـذـاـ هـوـجـمـتـ تـرـكـياـ أوـ اـحـدـىـ الدـوـلـ الـعـرـبـيـةـ ، كلـ هـذـاـ يـجـمـلـ هـذـهـ الـمـعـاهـدـةـ عـلـاـ أـخـرـقـ ، كـانـ عبدـ النـاصـرـ كانـ يـرـيدـ مـعـاهـدـةـ بـاـيـ شـكـلـ .

وقد جـهـلـ عبدـ النـاصـرـ أـنـ الـظـرـوفـ بـمـصـرـ وـبـالـعـالـمـ قدـ تـغـيرـتـ ، ولـوـلاـ هـذـاـ الجـهـلـ لـأـنـتـفـعـ الـفـاوـضـ الـمـصـرـيـ بـنـهاـيـةـ نـارـوقـ الـذـيـ كـانـ يـحـمـيـ الـاسـتـعـمـارـ وـيـحـمـيـهـ الـاسـتـعـمـارـ ، وـلـاـنـتـفـعـ كـنـالـكـ بـبـيـروـزـ قـوـةـ أمـريـكاـ وـالـاتـحـادـ السـوـقـيـيـتـيـ وـيـاتـجـاهـ بـرـيطـانـيـاـ لـلـأـفـولـ ، وـلـكـنـ أـنـىـ لـعـبدـ النـاصـرـ أـنـ يـفـهـمـ هـذـهـ التـغـيـرـاتـ ؟ـ وـقـدـ اـنـتـفـعـتـ أـقـطـارـ كـثـيرـ بـهـذـهـ التـغـيـرـ .ـ الـعـالـىـ فـحـصـلـتـ عـلـىـ مـعـاهـدـاتـ اـشـرـفـ مـعـاهـدـ الـمـصـرـيـةـ كـالـهـنـدـ وـانـدونـيـسـيـاـ بـعـدـ أـنـ هـاتـينـ مـعـاهـدـاتـ اـشـرـفـ مـعـاهـدـ الـمـصـرـيـةـ كـالـهـنـدـ وـانـدونـيـسـيـاـ مـعـ أـنـ هـاتـينـ

المؤـرـخـ المـعاـصـرـ وـتـدوـينـ التـارـيـخـ

بـقـيـتـ كـلـمـةـ قـلـقـلـهاـ فـيـ الطـبـعـاتـ السـابـقـةـ مـنـ هـذـاـ الـكـتـابـ ، ثـمـ تـغـيـرـتـ الـأـحـوـالـ كـثـيرـاـ وـلـكـنـ أـبـقـيـهاـ فـيـ هـذـهـ الطـبـعـةـ كـمـاـ كـانـتـ .ـ فـذـلـكـ حقـ التـارـيـخـ ، وـهـذـهـ اـكـلـمـةـ تـرـتـبـطـ بـتـدوـينـ التـارـيـخـ المـعاـصـرـ وـمـوـقـفـ الـمـؤـرـخـ مـنـهـ ، وـهـذـاـ نـصـهاـ :

المـفـروـضـ أـنـ الـمـؤـرـخـ المـعاـصـرـ إـذـاـ كـانـ مـخـلـصـاـ فـطـنـاـ مـنـ جـانـبـ ، وـكـاملـ

- ٥٤٠ -

تاریخ يرتبط بالدين الإسلامي وقواعده وآدابه وسلوكه ، والكذب فيه من أبغض الفجور كما قال رسول الإسلام .

ولكن، أمامي عقبة صعبة هي قلة الوثائق التي تتيح لي السبيل ، فهناك أحداث لم تنشر وثائق عنها حتى الآن ، ومن هذه الأحداث سقطة المحاكمات الجائرة التي قام بها عبد الناصر ورفاقه ، وحرب اليمن ، والهزيمة في الحرب ضد إسرائيل سنة ١٩٦٧ والمحاكمات التي جرت بعد حركة مايو سنة ١٩٧١ ، إذ جرت هذه المحاكمات وتلك بطريقة سرية فلم تذاع . الحقائق التي ترتبت عليها الأحكام القضائية ، واختفاء مجوهرات أسرة محمد على وقلة الوثائق في هذه الأحداث ونظائرها لا يلقى الضوء على المشكلات ، فلا يتتيح الفرصة لدراستها وإبداء الرأي فيها بدقة .

ومع هذا فسأحاول جاهدا أن أجعل ما سأكتبه أقرب للحق والواقع .

* * *

ثورة ٢٣ يوليو وأسبابها :

الأسباب التي مهدت للثورة ودفعت الشعب لحسن استقبالها هي :

– عبث الملوك بالدستور وبحقوق الأمة ، وعداؤهم السافر لحزب الأغلبية الذي كان يمثل الأمة أقوى تمثيل .

– حرب فلسطين وما كشفت عنه من تهاون وخيانات .

– الاستعمار الطاغي الذي اتخذ من القصر ورجاله ومن سادة الإقطاع عونه ودعاماته .

– حريق القاهرة الذي اتخذه أساسا لإقالة حكومة الوفد (حكومة الأغلبية) ولم تستطع الوزارات أن تستقر بعد هذه الإقالة ، فخلا المكان ولم يوجد من يشغله بنجاح .

برنامج الثورة :

طبع فجر الثالث والعشرين من يوليو على صوت يعلن الثورة على هذه الأوضاع ، ويعلن برنامج المستقبلا كالآتي :

- القضاء على الاستعمار وأعوانه .
- القضاء على الإقطاع .
- القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم .
- إقامة عدالة اجتماعية .
- إقامة جيش وطني قوى .
- إقامة حياة ديمقراطية سلية .

وهي مبادئ لم تعرف الطريق للتصبح واقعا ، فقد كان قادة الثورة جماعة لا يربطهم ود ولا هدف ، ولم تكن لهم ثقافة أو خطة ، فلم تتحقق هذه الثورة لصالح أي حسب ، ونجحت على البلاد والعباد ، ومن ثم ذلك مفصلا في الجزء التاسع والعشر . من هذه الموسوعة .

عبد محمد نجيب

ظهر محمد نجيب قائدا للثورة صباح الثالث والعشرين من يوليو سنة ١٩٥٢ ، وكان محمد نجيب واسع الشهرة بين المثقفين ومحروفا لدى الجماهير ، وكان يحمل رتبة « اللواء » وهي أعلى رتبة يحملها فرد من أفراد « الشوارز » وقبل قيام الثورة كان هناك انتخاب لنادي القسوات المسلحة ، وكان محمد نجيب مرشح أغلبية الضباط ، واعتراض الملك فاروق عليه وأراد أن يكون رئيساً لنادى من أعوانه ، ولكن محمد نجيب نجح على الرغم من تدخل الملك ، وكانت هذه الأسباب هي التي جعلت الرجل موضع تقدير الجميع وحبهم ، فلما ظهر قائدا للثورة الجيش رحب

الشعب بهذه الثورة وأيّدّها ، والتف الناس جميعاً حوله ، فأصبحت ثورة
الجيش هي ثورة الشعب .

ومحمد نجيب من مواليد سنة ١٩٠١ بالخرطوم ، تلقى علومه
بالمسودان ، والتحق بالمدرسة الحربية ، وتدرج في المناصب العسكرية حتى
نال رتبة «اللواء» سنة ١٩٥٠ وخلال خدمته العسكرية درس القانون
ونال ليسانس الحقوق واجازة كلية الأركان ، وفي ٩ سبتمبر سنة ١٩٥٢
ألف الوزارة ، ثم عيّن رئيساً للجمهورية عند إلغاء النظام الملكي بمصر في
١٨ يونيو سنة ١٩٥٣ فكان أول رئيس لجمهورية مصر .

على أن الأمور سرعان ما تغيرت كما وضّحنا ذلك بالتفصيل في الجزء
الثامن من هذه الموسوعة ، فلم تكن الثورة تطمئن على تأييد الشعب
للتغيير بسبب الكراهة التي كانت تغمر نفوس الشعب لفاروق ونزة
ورجاله ، أقول أن الثورة لم تكن تطمئن لهذا التأييد حتى بُرِزَ شخص
لم تكن الجماهير تعرفه ، ذلك هو العباشي جمال عبد الناصر ، وكانت
له خطط شريرة وأعوان من الصحف الثاني في كل مكان ، فقبض على محمد
نجيب ، وأصبح رئيساً للثورة ورئيساً للوزارة ثم رئيساً للجمهورية ،
وللأسف تم القبض على محمد نجيب وهو يزاول عمله بمكتبه بقصر عابدين .

القبض على الرئيس محمد نجيب :

من المعروف أن الاعتداء على أي موظف أو أي شرطي وهو يؤدى
عمله يعتبر عملاً فظيعاً يحاكم عليه القانون بقسوة ، فما بالك بالاعتداء على
رئيس الجمهورية ، وهو بملابسه الرسمية وجسالس في مكتبه بقصر
الرياسة ؟

إننا نقدم للقارئ صورة شنيعة توضح رئيس الجمهورية وقد
أنسّك به جنديان من رجال عبد الناصر ، واقتاداه إلى الاعتقال :

- ٥٤٣ -

الرئيس محمد نجيب سلطة النجس عليه في إنشاء تأدية عمله



- ٥٤٤ -

والصورة تبرز الذعر والدهشة على وجهه رئيس الجمهورية ، وهي بالنالى تتكلم عما نال المواطن العادى من عنت فى ذلك المصر المظلوم ، فاذا كان رئيس الجمهورية يقبض عليه على هذا النحو ، ويقتاد للاعتقال دون مساعلة ، فكيف كان الحال مع الآلاف من المصريين العاديين ؟

لابد يوماً أن يحاكم هؤلاء الأئمون .

وقد ظل محمد نجيب في الاعتقال عشرين عاماً ، وجرت له أحداث فظيعة رويناها عند حديثنا عن عبد الناصر الطاغية في الجزء التاسع من هذه الموسوعة ، ومات أبناؤه وهو في الاعتقال ، فلم يسمح له بالخروج للجنازة ، ولا بذكر اسمه في النعي . يا لها من قسوة بشعة لا تحترم الحياة ولا الموت .

وقد مات محمد نجيب في ٢٨ أغسطس سنة ١٩٨٤ رحمة الله واسعة .

عبد الناصر : عهد المظالم والهزائم والفساد

لم يستطع عبد الناصر أن يحقق شيئاً من برنامج الثورة ، فقد كانت تطلعاته كلها لأمجاده الشخصية وإسعاد أسرته ، وقد ناقشنا ذلك بالتفصيل في الجزء التاسع من هذه الموسوعة ، وفي عهده توالت الهزائم على مصر في حرب سنة ١٩٥٦ وفي حرب اليمن (١٩٦٢ - ١٩٦٧) وفي حرب ١٩٦٧ ، حتى أصبح الناس يتندرون بأن طائرات الورق يمكن أن تقلب طائرات عبد الناصر ، إذ لم تعرف مصر الانتصار في عهده في أي موقع أو موقعة ، وقد عاش شعب مصر أسوأ فترات التاريخ طيلة هذا العهد المريض ، فعانت مصر من الظلم والقلق والسجون والاغتيالات والمصادرات والسرقات ، وقد سئل عبد الناصر من أحد رفاته هذا السؤال : لماذا هذه المخالفات في القسوة ؟

فأجاب : إنها لحمايةكم ، وبذوتها ستكونون فريسة للفاوضين من الشعب .

وهذا اعتراف صريح ودقيق .

أبرز أحداث هذا العهد

فيما يلى نسجل أبرز أحداث هذا العصر :

— إقصاء الملك فاروق في ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ ، ثم إلغاء الملكية وإعلان الجمهورية في ١٨ يونيو سنة ١٩٥٣ وبذلك استبعد ملك ولكن جلس على عرش مصر ملوك كانوا أكثر طغياناً من فاروق .

قانون الاصلاح الزراعي وما سيه :

— إصدار قانون الاصلاح الزراعي في ٩ سبتمبر سنة ١٩٥٢ ، وقد اتضح منه أنه كان يرمي لإذلال الأغنياء وافقارهم ، وقد دمر هذا القانون الثروة الزراعية بمصر بسبب تفتت الملكية ، وقد قال الساداتى يصف أشتراكية عبد الناصر : إنها أشتراكية الفقر .

— ٥٤٦ —

وكان ضمن هذا القانون أن يكون إيجار الفدان من الأرض الزراعية سبعة أمثال الضريبة أي حوالي عشرين أو ثلاثين جنيها : وأن المالك ليس من حقه أن يسترد الأرض الزراعية من زراعها ، حتى لو كان هو نفسه يريد أن يزرعها .

ونسى الثوار الجهلة هذا القانون الذي أصدروه ، فقد تغيرت الأمور المالية تغيرا هائلا بعد حزب ١٩٧٣ وحدث تضخم عظيم ، وغلت الأسعار فتجاوزت عشرين ضعفا أحيانا ، والقانون هو هو ، بمعنى أن الزارع يدفع للمالك ثلاثين جنيها لفدان قصب ايراده عدة آلاف من الجنيهات أو لفدان قطن محصوله يزيد بمئولة عن ألف جنيه .

وشب أطفال كان أبوهم أو أمهم أجبرت أرضها الزراعية للغير وعجز الأطفال عن استرداد أرضهم ليزرعواها .

إنها مجموعة من المأسى والمظالم قنكتها الجمال ونسوها ونسوها من جاء بعدهم حتى كتابة هذه السطور سنة ١٩٨٦ .

قانون إيجارات المساكن :

ومثل ذلك يقال عن إيجار الشقق والفيلات حيث توجد شسقق ضخمة في الزمالك والمعادى وجاردن سيتى إيجار الواحدة منها حوالي ثمانية أو عشرة جنيهات ، في حين نجد حجرة في البدروم بها سرير وكرسي يصل إيجارها إلى مائة جنيه لأنها تسمى مفروشة .

إنها النتيجة الطبيعية عندما يتولى الأمر جهال ، لا يخافون الله .

وكانت نتيجة ذلك أن توقف القطاع الخاص تماما عن البناء للاستغلال ، وقامت أزمة الاسكان ، التي تردد من يوم إلى يوم ، واندفعت الناس إلى المقابر يعيشون بها ، ومن كثرة الذين يعيشون في

المقابر أقامت وزارة التربية مدارس من أحواش الموتى ، ولا أحد يعالجه المشكلة ، لأن هذه هي الحياة التي لابد أن تتبع عن حكم الجمال .

— في فبراير سنة ١٩٥٣ تم الاتصال المصري البريطاني بشأن السودان الذي اتخذ أساسه حرية تقرير المصير ، وببرقصات صلاح سالم في الجنوب ، وأموال مصر التي نشرت هنا وهناك اتضحت للسودانيين أن ارتباطهم بمصر سيكون حافلا بالضرر فاختاروا الانفصال عن مصر ، وكان ذلك مثار ضرر لمصر والسودان جميعا .

— بعد مسألة السودان كان الطريق ممهدا لمعاهدة بين مصر وبريطانيا في بدأت مفاوضات انتهت باتفاقية الجلاء في ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ تلك الاتفاقية التي ألغتها الجانب المصري اعتبارا من ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٥٦ ووافق الجانب الإنجليزي على هذا الإلغاء في ١٢ فبراير سنة ١٩٥٧ كما سبق التوصل .

— تم الجلاء في ١٨ يونيو سنة ١٩٥٦ واعتبر ذلك اليوم عيدا قوميا ، وما يذكر أن جيوش بريطانيا وفرنسا وغيرها من الدول الاستعمارية قد جلت عن المستعمرات في العالم كله ، فلم يعد العصر عصر استعمار بجيوش .

تأمين قناة السويس ونتائجها :

— في ٢٦ يوليو ١٩٥٦ أعلنت مصر تأمين قناة السويس ، وتلا ذلك أحداث انتهت بالعدوان الثلاثي ثم انسحاب العتدين كما سبق القول ، وفي الجزء التاسع حديث مفصل عن أهداف التأمين ونتائجها الخطيرة .

الوحدة مع سوريا وفشلها :

— في ٢٢ فبراير سنة ١٩٥٨ تمت الوحدة بين مصر وسوريا في « الجمهورية العربية المتحدة » برئاسة جمال عبد الناصر بناء على اقتراح

- ٥٤٨ -

سوريا؛ وبعد استفتاء شعبي في البلدين، وفي ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٦١ تم الانفصال، ولم تقاوم مصر اتجاه سوريا للانفصال وظلت مصر تحتفظ باسم «الجمهورية العربية المتحدة» حتى جاء عهد أنور السادات كما سُنِّي فيها بعد، وقد كانت الوحدة مطلباً شعبياً، ولكن سوء إدارة جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر قضى على هذه الوحدة، بل خلق حوا من الحقد بين السلطتين في سوريا ومصر، وعندهما عجز عبد الناصر عن مقاومة المنشقين بسوريا اتجه بطيئاً وهقدة إلى المصريين خانزلاً بهم صنوفاً من التضليل عقب الانفصال.

الاشتراكية التي أفرغت الأغنياء وأجاحت الفقراء:

- صدرت القوانين التي عُرِفت بالقوانين الاشتراكية، وقد وضحتنا في الجزء التاسع من هذه الموسوعة أن اشتراكية عبد الناصر أفرغت الأغنياء وأجاحت الفقراء، وقد وصفها الرئيس أنور السادات في خطابه في ٢٦ يوليو سنة ١٩٧٦ بقوله: أنها كانت صنماً بُثُّتْ ليُهْبَطْ، ولم يكن يباح لأحد أن ينادشها أو يتدارسها، وأنها كانت «اشتراكية مزاجية» أي لا يحكمها قانون ولا مبادئ.

حرب اليمن وضياع رسيد العلة:

- حرب اليمن من سنة ١٩٦٢ إلى سنة ١٩٦٧؛ وهي مأساة مريرة تحدثنا عنها بالفقرة في الجزء التاسع من هذه الموسوعة.

ويرى بعض الناس أن حرب اليمن من إيجابيات عبد الناصر، لأنها بثها نقل اليمن من ظلام العصور الوسطى إلى النور، ونقلت لهؤلاء أن مهمة الرئيس أولاً أن يهمّ شعبه، ولا ينفق ثراء بلاده خارجها إلا إذا اكتفى شعبه، فلما مال الشعب قبل كل شيء.

ونقول ثانياً إن ظلام العصور الوسطى كان في طريقه للانكماس في

العالم كله ، سواء دخل عبد الناصر اليمن أو لم يدخلها . لقد ترکنا عبد الناصر جياعا ، وراح لليمن يبذل الذهب دون حساب فألفني رصید العملة ودمّر الجنيه المصري .

ونقول ثالثا لهؤلاء ، إن عبد الناصر قتل من اليمنيين الكثير ، ودمّر الكثير ، ولذلك غرس الحقد في نفوس اليمنيين ، وقد كانت اليمن من أول الدول التي استجابت لقطع جميع العلاقات مع مصر في مؤتمر بغداد ، ولا تزال على موقفها حتى كتابة هذه السطور سنة ١٩٨٦ على الرغم من أن بعض الدول العربية أعادت العلاقات مع مصر .

ونقول رابعا لهؤلاء الذين يعدون حرب اليمن من منجزات عبد الناصر ، ألا تتفقون أيها الكتاب أموالكم على المحتاجين هنا وهناك وتتركون أولادكم جائعين ؟ إنكم أن فعلتم ذلك – ولستم بفاعليه – تستطعون أن تمدحوا عبد الناصر لأنّه أجاع شعبه وأضاع ثراء بلاده من أجل اليمن والكونغو وغيرها من البلاد .

حرب ١٩٦٧ وأنهيار جيش عبد الناصر في دقائق :

– الحرب مع إسرائيل سنة ١٩٦٧ ، وهذه الحرب كانت الموضوع الرئيسي لكتابنا :

« مصر في حربين ١٩٦٧ و ١٩٧٣ : دراسة مقارنة »

ولم تكن حربا بالمعنى الصحيح ، وإنما كانت نزقا من القيادة ، ومن يوم إلى يوم تكتشف مواقف مخزية من الذين أعلنوها ، أو كان في يدهم سلطات إدارتها ، ويكفي أن نذكر أن المنافسة بين الرئيس ومشيره كانت من أهم أسباب الهزائم ودوافعها ، وفي الجزء الناتسح من هذه الموسوعة تفاصيل واسعة عن هذا الموضوع .

ويينبغى أن نذكر أن خليج العقبة والملاحة فيه تshed من المسائل

- ٥٥٠ -

الحساسة التي سببت المصالح بين مصر وإسرائيل : ولهذا فإننا سنشرح
بعد قليل قضية خليج العقبة والملاحة فيه .

وتبقى كلمة نطوي بها عهد عبد الناصر هي أنه مات في ٢٨ سبتمبر
سنة ١٩٧٠ ويقول الباحثون إن عبد الناصر مات بالهزيمة الدمرة سنة
١٩٦٧ مع الآلاف الذين دفعهم إلى الموت ، ومن !! الذين العرب الذين
دفعهم بهذه الهزيمة إلى الخزي والعار .

أسرة عبد الناصر وتراثها :

ومن مخازى عصر عبد الناصر بالإضافة إلى المزائيم المتكررة والتي
الظلم والتكميل بالأبريا ، والاعتقالات التي ابتدأت برئيس الجمهورية
« محمد نجيب » ثم امتحنت الشعب كله ، بالإضافة إلى هذا ، هناك مشكلة
السرقات التي شملت مجوهرات أسرة محمد على كما شملت قوت الشعب
وثراءه ، وقد ظهر هذا الثراء في أيدي أولاد عبد الناصر وأصحابه ، فقد
ذكرت صحيفة الأخبار في ٤٤ أغسطس سنة ١٩٨٤ أن المهندسين من أولاد
عبد الناصر قد وصل حجم أعمالهم العادلة بمصر مائتي مليون جنيه ، وأن
أشرف مروان زوج ابنة عبد الناصر قد اشتري مجموعة أسمم في دار نشر
كبير بإنجلترا يبلغ ١١ مليون جنيه استرليني .

يا ترى كم مائة مليون يملك هذا الشباب ؟ وكم مائة مليون يملك
أبناء عبد الناصر الآخرون وأحفاده وكم مائة مليون يملك الآخرون من
اشتركتوا مع عبد الناصر في الحكم ؟

الانطلاق والافتتاح :

كان عهد عبد الناصر عهد انغلاق اقتصادي ، فلا تستورد شيئاً من
الخارج حتى ولا الدواء ، وكان الفقر هو المظاهر العام للشعب ، ومسعى

الفقر الحرمان وشظف العيش . وفي نفس الوقت كان عبد الناصر وأعوانه يجمعون المال ويختزنه .

وجاء الانفتاح في عهد السادات ، وكان افتتاحاً أهوج ، فأخرج أتباع عبد الناصر مدخراتهم وما اختزنوه من أموال باهظة ، وظهر في أفق الحياة المصرية اصطلاح جديد ينمي نمال بسرعة هو « التصدير والاستيراد » فظهر أصحاب الملايين وأصحاب البليارات .

التوقف بالإضافة إلى المظالم والهزائم :

تعودنا أن نصف عبد الناصر (١٩٥٢ - ١٩٧٠) ومن كانوا معه من رجال عصابته بأنه عهد المظالم والهزائم ، أي عهد هتك الأعراض ، والإذلال ، والاجاعة ، والمصادرات ، والاعتقالات ، وزوار الليل ، والتعذيب والكلاب البوليسية التي تنهش الأجسام ، والفصل من الوظائف ، والقلق وقوانين الإسكان الغبية وكل ما يستطيع الإنسان جمعه فيما يتعلق بالظلم والعربدة والقسوة على الأفراد والجماعات .

ثم المظالم المتكررة الفتاكة سنة ١٩٥٦ وفي اليمن (١٩٦٢ - ١٩٦٧) ومعركة اليمن أكلت كل شيء الرجال والسلاح - الرصيد ، ثم معركة أو خيبة ١٩٦٧ التي مسحت ما تبقى ومسحت الطاغية نفسه .

ولكن ليس هذا كل شيء فيما يتعلق بعصر عبد الناصر ، وليس المسرقات التي أشرنا إليها آنفا هي كل شيء ، بل إن هناك الداء الذي استشرى وسيكتب مصر خسائر جسمية ، إنه الذي نسميه « التوقف » ومعنى التوقف أن كل حركات الإصلاح التي تتلزم لكل دولة قد توقفت تماما ، لأن الرجل أسرع في مطلع عهده يرسل أنور السادات وأمين شاكر إلى الشرق الأقصى ، إلى اندونيسيا ليمد نفوذه إلى هذا المدى البعيد ، وهناك قدم المعونات والأعمال . وأسرع فأرسل صلاح سالم صغير السن

وقليل الثقافة إلى الفاب الزرقا، بالعراق إلى نوري السعيد، وأرسل أسلحته وجيشه إلى الكونغو وغيرها ٠٠٠٠٠ وكل هذا صرفه تماماً عن المرافق بمصر، وبعدها يوماً بعد يوماً بعد عام، توقفت المرافق بل قُتِلَّ. أوشكت أن تتوقف الحياة، فالاتليونات خرست تماماً؛ وكانت مثل قطعة من الحديد، والمجاري طفت في كل شارع، حتى في جاردن سيتي والزمانك والمعادى، والكهرباء بدأت تتقطع، والمواصلات تعثّرت، والطرق تكسرت، والمدارس والمعاهد نالتها التدمير، وقل مثل هذا عن المستشفيات والاسكان وجميع أنواع المرافق ٠

وبينما كان التوقف يصيب بالشلل كل هذه المرافق كان تعداد السكان يزيد ويزيد، مما كان يستدعي ليس فقط تحسين المرافق بل تطويرها وأساليبها وأسلوباتها ٠

ولكن الرجل وصيبه كانوا مشغولين عن ذلك أو جاهلين بما يلزم أن يكون، فلما انتصري عده، كانت الأمية قد انتشرت، والحياة قد توقفت، ولم يقع في مصر إلا هوت الدعاية الجوفاء التي خائفتها الرجل، وأنفق عليها ما يتعي بالخرازة بعد السرقات والتفاقات الخارجية، وظللت هذه الدعاية ترتعن مقرة حتى خفت صوتها، إذ توقف الماء الذي كانت تنتجه من أموال ٠

لذا تكتب هذه الأشياء ليس فقط لندد بماضي ولكن لنحذر زعماء العاضر والمستقبل من الوقوع في مثل هذا الباطل، فتلحقهم اللعنات إلى الأبد كلّك التي تلتحق روح هذه العصابة، منبئه بهذه اللعنات من الغرين مسمم الفم أو الذين يسكنون في المقابر وهم أحياه ٠

شىء: مكان بيراد بالإسلام :

هذا العنوان وضعته في الجزء التاسع من هذه الموسوعة وهو الجزء الخاص بتاريخ عبد الناصر، وفصّلت تحته عدة نقاط، نوجزها فيما يلى :

١ - حلّ هيئة كبار العلماء .

٢ - كان شديد القسوة على جماعة الاخوان المسلمين ، القاهم جميعا في السجون ، وعرّضهم للتعذيب البشع ؛ وأجاع ذويهم ، رغبة أن يدفعهم للرذيلة .

٣ - قتل شنقاً صفوه من علماء المسلمين في قمتهم الشهيد سيد قطب .

٤ - أجرى ما أسماء « تطوير الأزهر » الذي اقتبسنا ما يقوله عنه الأزهريون وسواهم بأنه تدمير لا تطوير .

ـ الثورة والاحتلال :

قلنا عن هذه الفترة إنها « فقرة الاستقلال التسامي » ونعني بذلك أننا تخلصنا من الاحتلال البريطاني ، ولكننا لا ننسى أن عبد الناصر جلب بهزائمه احتلالاً أخطر على مصر ، ذلك هو احتلال الصهاينة لسيناء ؛ وهو احتلال كان يدعى ملكية الأرض ، ولا يُسمى بالجلاء ، ثم هو احتلال لأقدر وأقسى طائفة عرفها التاريخ ، ولم تتحرر هذه الأرض إلا بعد عبد الناصر ، بل لا تزال هناك ذيول ، منها منعنا من تسليح سيناء كما نشاء ، ومنها « طابا » التي لا تزال تحت سلطان العدو ، فليريط القاريء بين عبد الناصر واحتلال جزء من البلاد .

وبعد تلخيص أى بعد حديث قصير عن « الساداتي » سنتكلم عن « ثورة ٢٣ يوليو في الميزان » حيث يؤمل أن نضيف مجموعة أخرى من حماقات أو جهالات هذه المعاشرة التي حكمت مصر ردهاً من الزمن .

مشكلة الملاحة بخليج العقبة

تاريخ المشكلة وتطورها :

- لم يكن لإسرائيل وجود على خليج العقبة عند توقيع اتفاقية الهدنة المصرية الإسرائيلية في ٢٤ فبراير ١٩٤٩ ، إلى أن أخلت القوات الأردنية - بدون أي مبرر - منطقة بير قطار وبلدة أم رشش (إيلات) يوم ٩ مارس ١٩٤٩ وأحتلتها القوات الإسرائيلية في اليوم التالي وأنشأت ميناء إيلات ، وتقدمت مصر وقتها باحتجاج إلى لجنة الهدنة .

- في ٣ أبريل ١٩٤٩ تم توقيع اتفاقية الهدنة الأردنية الإسرائيلية دون أن تشير الأردن مسألة احتلال إسرائيل للمنطقة .

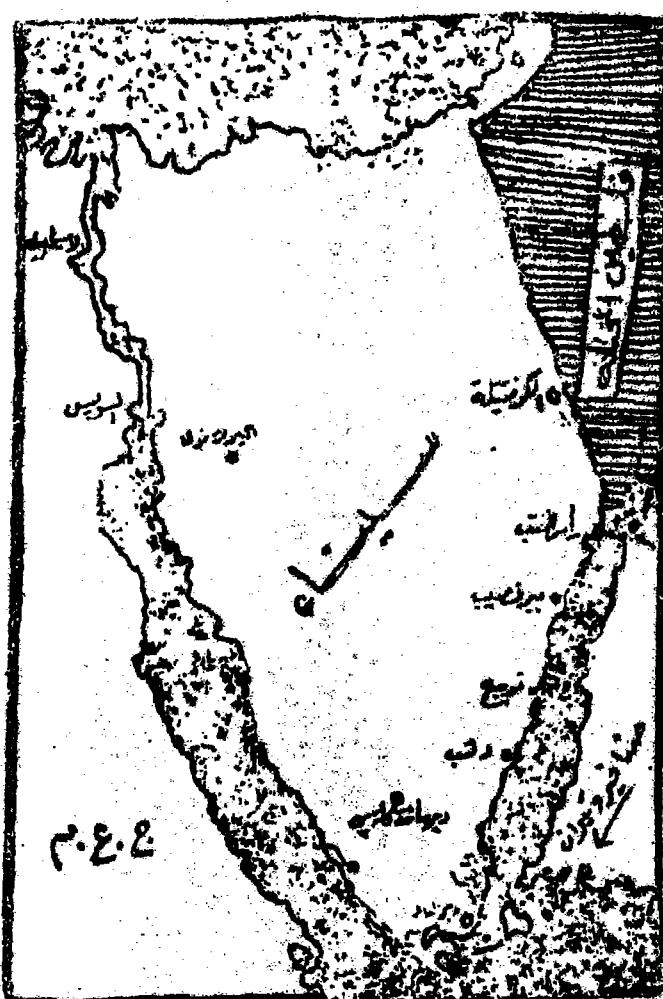
- اتفقت الحكومة المصرية مع المملكة العربية السعودية ، على أن تقوم القوات المصرية باحتلال جزيرتي « صنافير » و « وتيران » وهما الجزرتان اللتان تتحكمان من الناحية الشرقية في مدخل خليج العقبة .

- قامت القوات المصرية بتركيب مدفعية سواحل في منطقة « رأس نصراني » وفي « شرم الشيخ » سيطرت تماماً على الملاحة في الخليج ، وشم الشيخ تقابل تيران من الجهة الغربية لخليج العقبة .

وأصبح المرور بهذا المضيق خاصاً لإشراف مصر ، ولا يجوز لإسرائيل أن تستعمل هذا المضيق على الإطلاق ، وأخذت مصر منذ ذلك التاريخ تباشر حقها في تفتيش كل السفن التي تزيد عبور مضيق تيران .

- وقد حدث في شهر يوليو ١٩٥١ خلال حكم وزارة النحاس باشا أن خالفت السفينة الإنجليزية « إمبائر روتش Empire Roach » التعليمات الخاصة بالمرور ، فأوقفتها السلطات البحرية وحجزتها ٢٤ ساعة ، ووضعت حرساً عسكرياً على ظهرها ، وقد احتجت السفارة البريطانية على هذا الإجراء في ١١ يوليو ١٩٥١ دون جدوى ، وكذلك قدم السفير البريطاني بالقاهرة في ٢٩

— ٦٦٠ —



(مضيق نهري مياه مورية (القليوبية))

يوليو ١٩٥١ ، مذكرة إلى وزير الخارجية المصرية موضحا فيها استعداد حكومة المملكة المتحدة بقيام السلطات الجمركية المصرية في السويس بإجراء التفتيش على السفن غير الحربية التي تبحر إلى ميناء العقبة ، على أن تقوم السلطات الجمركية بها بإخطار السلطات البحرية في جزيرة « تيران » حتى لا تقوم بزيارة هذه السفن وتفتيشها مرة أخرى ، وقد وافقت وزارة الخارجية المصرية على هذا الإجراء في نفس اليوم ، وجاء في كتاب وزير الخارجية المصري أن هذه التدابير والإجراءات « مطابقة لحقوق مصر في موانيها ومياهها الإقليمية » ، وبذلك تكون المملكة المتحدة قد اعتبرت الإجراءات التي اتخذتها السلطات المصرية بخصوص الملاحة في خليج العقبة إجراءات مطابقة لأحكام القانون الدولي .

- حاولت إسرائيل سنة ١٩٥٤ أن تحصل من مجلس الأمن على قرار بأحقيتها في المرور بقناة السويس وخليج العقبة ولكن مجلس الأمن لم يتخذ قرارا في صالحها .

- وجاء الاعتداء الثلاثي سنة ١٩٥٦ فانسحبت القوات المصرية من سيناء ، وسارعت القوات الإسرائيلية فاحتلت شبه جزيرة سيناء ومنطقة شرم الشيخ بوجه خاص ، وعندما بدأ انسحاب القوى العتيدة رفضت إسرائيل الانسحاب إلا بشرط أعمها :

(أ) مراقبة القوات الدولية في منطقة شرم الشيخ عقب انسحاب القوات الإسرائيلية في خليج العقبة .

(ب) أن تكفل القوات الدولية في منطقة شرم الشيخ حرية الملاحة الإسرائيلية في خليج العقبة .

ورفض السكرتير العام هذه الشروط وذكر أن القوات الدولية لن تستعمل لحل أية مسألة سياسية أو قانونية ، ولن تتعدى وظيفتها محاولة منع وقوع الأعمال الحربية .

— وبعد مفاوضات طويلة أعلنت جولة طير وزير خارجية إسرائيل في المجتمع الجمعية العامة في أول مارس ١٩٥٧ أنها قد ثلقت مذكرة من وزير خارجية الولايات المتحدة بتاريخ ١١ فبراير ١٩٥٧ ، يؤكد فيها أن الولايات المتحدة تعتبر خليج العقبة ومضيق تيران من المياه الدولية ، وهي لذلك ، تحذر عن عدم إسرائيل ، على الانسحاب من شرم الشيخ ومن قطاع غزة .

— ولكن الدكتور محمود فسوسي وزير الخارجية أعلن في نهاية النقاش الذي دار في الجمعية العامة أن التصريحات التي أدلى بها مندوب إسرائيل وبعض مندوبي الدول الأخرى بشأن انسحاب القوات الإسرائيلية المتقدمة لا يمكن أن يكون لها أي أثر على حقوق مصر أو على مشروعية هذه الحقوق ، من غير قيد أو شرط .

وأخذت القوات الدولية — بموافقة مصر — أماكنها على الحدود بين إسرائيل ومصر ، كما تسللت منطقة شرم الشيخ المطلة على المضيق من جنوب إسرائيل ، وفي ستار عن القوات الدولية وبموافقة غير مكتوبة من عبد الناصر بدأت إسرائيل تستعمل خليج العقبة دون أي سند قانوني فكان ذلك من أهم الأسباب لنشوب حرب ١٩٦٧ التي تحدثنا عنها في كتاب خاص . ولعل مما يلقى خواصاً على موضوع الملاحة أن ذكر هنا بعض تصويم اتفاقية جنيف للمضائق ، وبخاصة التصويم التي كان لها صلة أو صدرت خصيصاً من أجل مشكلة تيران ، ووجهة النظر المصرية العادلة بهذا الخصوص .

ستكون الفقرة الرابعة من المادة ١٦ من اتفاقية جنيف المنعقدة في ٢٩ إبريل ١٩٥٨ على مساميلى :

« لن يكون هناك أى وقف للمرور البري » للسفن الأجنبية عبر المضائق التي تستخدم في الملاحة الدولية بين جزء من البحار العليا وجزء آخر من البحار العليا ، أو مياه البحر الأقليمية لدولة أجنبية » .

وتکاد تكون هذه الجملة الأخيرة قد وضعت خصيصاً كى تتطبق على حالة مضيق تيران الذى يصل بين مياه خليج العقبة ومياه البحر العالى .

— وقد خالف هذا النص الذى يسوده التحiz لـ إسرائیل ، الحكم الذى أصدرته محكمة العدل الدولية في قضية مضيق كورفو عام ١٩٥١ ففي ذلك الحكم أوضحت المحكمة المعيار الذى يميز المضايق الدولية التي لا يجوز تقييد الملاحة فيها وحددت لذلك أساسين :

(أ) أن كون المضيق موصلًا بين بحرین من البحار العالية ، وهذا الشرط لا يتتوفر في مضيق تيران ، لأنّه يربط بين بحر عال و مياه إقليمية .

(ب) أن يكون العرف الدولي قد توّات على استعمال المضيق في الملاحة البحريّة الدوليّة . ومضيق تيران لم يسبق له أن استعمل لهذا الغرض ، ولا يجوز الاحتجاج بما حدث في أثناء وجود قوة الطوارئ الدوليّة في شرم الشيخ .

— بالإضافة إلى ذلك فإن تطبيق الفقرة الرابعة من المادة ١٦ من اتفاقية جنيف لا يؤدي إلى إيجاد مبرر لمرور السفن الإسرائيلية في مضيق تيران لأن شروط هذه الفقرة لا تتطابق على المضيق لما يأتى :

(أ) حكم الفقرة خاص بالمضيق الذي يصل ما بين أجزاء البحار العالية ، أو ما بين البحر العالى والبحر الإقليمي ولا ينطبق هذا على هذه الحالة ، إذ أنه يفصل بين البحرين حوالي ٩٧ ميلاً من المياه المغلقة التابعة للسيادة المشتركة لكل من السعودية والأردن ومصر .

(ب) إن مرور السفن الإسرائيلية بمضيق تيران لا يمكن أن يوصف بالمرور البري ، الذى تشرطه الفقرة الرابعة ، إذ أن مرور هذه يعد ضاراً بالسلم وحسن النظام وأمن الدولة الشاطئية وهي مصر .

(ج) إن أحكام اتفاقية جنيف لا تسرى إلا في حالة السلم وبذلك لا تسرى على الأوضاع القائمة الآن بين مصر وإسرائيل نظراً لحالة الحرب القائمة بينهما .

كلمة عن سيناء : في الماضي والحاضر

في دراستي عن « اليهودية » ضمن سلسلة « مقارنة الأديان حديث طويل عن سيناء يرتبط بالفترة التي اقتص خلالها العبرانيون بالمنطقة من عهد يعقوب (إسرائيل) إلى عهد خروج بنى إسرائيل من مصر وفترة التيسه .

ولعل من الأفضل أن نقدم كلمة شاملة وموجزة عن تاريخ سيناء ، ويمكن الاعتماد على الكتاب السابق وعلى الكتب التالية :

١ - تاريخ سيناء تأليف نعوم شقير .

٢ - سيناء : الطبيعة والتاريخ والانسان والأمل الذي اضدرته دار الهلال : يونيو ١٩٧١ وكانت واحداً من كتاباته .

٣ - دير طور سيناء تأليف أهانجلوس بابا يوانو وترجمة صليب خوري وفيليب دحابره .

٤ - سيناء أرض المعارك والقدسية تأليف Burton Bernstein الذي لخّصمه الأستاذ محمد النزب موسى .

وهيما يلى هذه الكلمة الموجزة عن أرض سيناء الحبية :

سيناء أرض مصرية :

سيناء أرض مصرية منذ قديم الأزل ، وأحداثها لا تفصل عن أحداث مصر ، وتاريخها جزء لا يتجزأ من تاريخ مصر .

وقد كانت سيناء دائماً هي العقبة العصبية التي ينبعى على أي جيش أن يتغلب عليها ويغزوها من أجل الحصول على جائزة أكبر ، سواء كانت هذه الجائزة في الغرب (مصر) أو في الشرق (سوريا وفلسطين) .

وشهدت سيناء ما لا يقل عن ٥٠ حرباً كبرى في تاريخها الطويل ، قدימה ووسطها وحديثنا ، كما شهدت مرور عشرات الجيوش شرقاً وغرباً ، مما كان يقطع سلامها الهدىء ، الصامت المستقب .

أهداف الفراعنة في سيناء :

وقد سيطر الفراعنة على سيناء ، منذ أقدم العصور وجعلوها جزءاً من الوطن المصري المقدس ، وبالإضافة إلى ذلك كان هدفهم ذا ثلاثة شعب :

- ١ - حماية الوادي من الغزارة .
- ٢ - والسيطرة على طرق الحرب والتجارة .
- ٣ - واستغلال مناجم النحاس والفيلوز في منطقة سيرابييت الخادم .

وعلى جبال المنطقة نقشَ المصريون انتصارتهم على السكان المحليين الساميين . وخلال الأسرات الأولى توسيع المصريون في عملية استغلال مناجم المنطقة ، وفي البداية تأثروا فكرياً بالساميين الذين أخضعوهم ، فلأنهم قبلوا عبادة القمر المستقرة في المنطقة ، ولكن بدلاً من « سين » أصبحت المراسم تقدم إلى الآله المصري « تحوت » وهو أيضاً الله « القمر » في البابيون المصري الذي نراه ممثلاً على جدران مناجم سيناء في شكل القرد (البابوني) أو في شكل الطائر (ايبيس) . وعلى هذه الجدران أيضاً نجد صورة الفراعنة الأوائل الذين « سحقوا البرابرة » وحكموا كل مصر من أمثال سنفرو وخوفو اللذين استغلا مناجم الفيلوز ، وأقساها أن يحميا قداسة سيناء .

صراع بين المصريين والهكسوس :

وغزا الهكسوس مصر عبر سيناء وحكموا البلاد في ١٧٠٠ ق.م . وفي عصرهم تدهورت صناعة التعدين في سيناء ، وهجرت

- ٥٦١ -

المتاجم ، فقد رکر المكسوس على اقرار السلام في الوادي ، أى اخضاع المصريين وتركوا تطوير الحضارة وهى مهنة المصريين ! ولكن في الأسرة الثامنة عشرة طردتهم المصريون من البلاد ، واستأنفوا بعثاتهم إلى سيناء ، وفي سيرابيت الخادم ^{أثنان} معبدا رائعا تكريما لحتور ، ربة الفيروز ، والحب ، والفرح ، والمرح ، في شكل بقرة ، وأرسلت هدايا ثمينة من الفراعنة إلى معبد « الأم حتحور إلهة الفيروز » بسيناء . وفي المقابل نقل الفيروز السينائى إلى معابد وادى النيل ، وحوّلَ معبد حتحور المقدس في سيرابيت الخادم نشأت^{*} مجموعة ضخمة من المؤسسات لا تزال آثارها وأطلالها قائمة . . . أفنية وصروح وحجرات وحمامات وأروقة ونصب وعمد ومنصة احرق للاضاحى بالإضافة إلى ثكنات كبيرة للجنود المصريين الذين وكلت إليهم مهمة إقرار الأمن وحماية المتاجم من الطامعين .

سيناء والحرف الأبجدية :

وخلال هذه الفترة تقريباً وقع حدث ثقافي ذو أهمية بالغة في سيرابيت الخادم . فقد ظهر على جدران النجم بعض النقشون ذات الشبه بالرموز الكنعانية ، كانت تحويراً ضخماً للهيروغليفية المصرية ، فبدلًا من الصور التي تعبر عن كلمات كانت هناك رموز تعبر عن أصوات أساسية يمكن عن طريق إعادة تركيبها أداء كلمات جديدة لا حصر لها . وكانت هذه بداية الأبجدية السينائية ، وهي حلقة الوصل بين الهيروغليفية المصرية والأبجدية الفينيقية . وأصبحت الأبجدية السينائية أم الأبجديات التالية كلها . . . بما فيها الأبجديات الأوروبية القديمة والمعاصرة .

— ٥٦ —

سيناء معبر الجيوش المصرية والغازية :

وخلال الألف سنة التالية لذلك ، وحتى أسرة البطالمة قبل المسيح بعده مئات من السنين ، شهدت سيناء سلسلة طويلة من الغزوات والانسحابات ، فقد احتلت مصر الشرق ، ثم احتلت هي دورها ، فقد غزتها جيوش الآشوريين والحيثيين والبابليين والفرس والأغريق ، وهزت هذه الغزوات المتلاحقة سلطة الفراعنة المهيأة وسيطرت على طرق التجارة بين الشرق والغرب ، وال عبرانيون الذين كانوا عبيد المصريين ثاروا عليهم وفروا شرقاً من مصر إلى سيناء . وطبقاً للتواتر تاهوا في سيناء أربعين عاماً بعد الخروج خلال حكم رمسيس الثاني على الأرجح (١٣٠٠ ق.م) قبل أن يدخلوا إلى أرض الميعاد حاملي رسالة التوحيد وتاركين خلفهم سيناء كإقليم مصرى مهجور سرعان ما عاد إلى حياته البدائية .

البطالمة والروماني :

وابتداء من القرن الرابع ق.م . أبدى البطالمة اهتماماً متجدداً بشبه الجزيرة ، فأرسلوابعثات إليها ، وبنوا بعض الموانئ على طول ساحلها المطل على البحر المتوسط ، وهناك واجهوا قوة النبطيين الصاعدة ، وهم شعب سام من شرق نهر الأردن ، كان مقراً لهم البتراء ، واحتل النبطيون العقبة ، وفتحوا طريقاً من العقبة إلى غزة ، وسيطروا على طرق الموانئ في سيناء ، وعبر طرق تجارتهم ترکوا على جدران سيناء نقوشهم الأرامية ، واستطاعوا أن يصمدوا في مواجهة البطالمة ولكنهم في النهاية انهزموا أمام الرومان عام ٤٠٦ ق.م .

وأصبحت مصر محمية رومانية ثم بيزنطية من عام ٣٠٠ ق.م . إلى عام ٦٤٠ م وخلال هذه القرون السبعة زادت أهمية سيناء العسكرية والتجارية والاجتماعية ، فقد أنشأ الرومان سلسلة من المراكز العسكرية الحصينة

على طول الساحل، السينائي البحير المتوسط تفصل بين الواحد والآخر مسافة ١٤ ميلاً (طول مسيرة يوم لفرقة الرومانية) وبعض آثار هذه المراكب لا تزال قائمة إلى اليوم .

سيناء في العهد المسيحي :

وتدورت الامبراطورية الرومانية الغربية ليصعد في أثرها نجم الامبراطورية البيزنطية الشرقية ، وفي العصر البيزنطي بلغت سيناء قمة جديدة من حيويتها ، وأهميتها ، والسبب في كلمة واحدة هو : المسيحية ، ففي القرن الرابع الميلادي اعتنق الإمبراطور قسطنطين وأمه الامبراطورة هيلانة الديانة المسيحية وقررها لأسباب تكتيكية ودينية أن يطورا الأرضي المقدسة وسيناء وهبت رياح النفوذ البيزنطي والثقافة البيزنطية تكتسح شبه الجزيرة ، ففي رينوكولوروم (العريش) مثلاً أقيمت كاتدرائية ودير وصومع للرهبان ، واتسعت المدينة لتغطي ثمانية أميال مربعة ، وظهرت الكاتدرائيات تباعاً في المدن السينائية الأخرى . وكانت سيناء حتى قبل انتصار المسيحية النهائي قد أصبحت ملذاً للهاربين بالعقيدة الجديدة من وجه الكلفة والطفاة ، فمنذ القرن الثاني الميلادي لجأ الكثيرون من المسيحيين الفارين من فلسطين ومصر إلى وادى فيران وهو وادٌ خصب نسبياً ذو ماء وختصرة في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة ، وهؤلاء قدسوا جبل سريل باعتباره طور سيناء الذي عليه تجلى الله الموسى ، وازدهرت المنطقة وأصبحت مقراً لابرشية صغيرة . وفي عام ٣٣٧م زارت الامبراطورة العجوز هيلانة الأرضي المقدسة ووصلت إلى جبل موسى حيث أعجبت بتلك المستوطنة في وادى فيران وامر ببناء كنيسة صغيرة فيها للعذراء المقدسة ، وقام الامبراطور جوستينيان في عام ٥٣٠ م بتوسيع هذه الابرشية الصغيرة كي تعتبر كنيسة منيعة وقلعة وديراً .

دير سانت كاترين :

وفي القرن التاسع الميلادي سُنَّ هذا الدير بِدِير سانت كاترين ، وذلك عندما بدأت شهادة هذه القديسة الشكتدرية تتواءد وتتأخذ الطابع العالمي .

وقدّمة هذه التديّنة تبدأ من مطلع القرن الرابع ، فقد دخلت هذه الفتاة المسيحية وهي في عمر الزهور ، وتقول الرواية إنها رأت السيد المسيح في النّاس يخطبها ويقسم خاتماً في أصابعها ، وفي الصباح وجدت الخاتم فعلاً ، وقد ذهبت إلى الوالي الروماني تکهّنه المسيحيّة ، وقد أعجب بها الوالي ولكنه أرادها أن تعود للوثنية فلترجحها ، ولما امتنع أحضر لها خمسين فرساناً لاقناعها فاستطاعت أن تؤثّر فيهم وتحولهم للمسيحية .

وحيثّذا أصدر الوالي قراره بإعدامها .

وتستمر الرواية لتقول أن الملائكة جملوا جسم التديّنة إلى قمة جبل قريب من الدير السابق ، ورأى أحد الوحوش أن القوم أن جسم التديّنة قريب من الدير ، فلما استيقظ ذهب إلى قمة الجبل فوجده الجسم فحمله وخفته في الدير ، ومنذ ذلك الحين أطلق على الدير « دير سانت كاترين » .

مسجد وسط الكثبانية :

وقد بني الخليفة الناطلي « الامر » (٥٥٤ - ٦٥٦) - (١١٣٠ م) مسجداً داخل دير سانت كاترين ، ولكن بناء هذا المسجد رادعاً للأعراب الذين كانوا أحياناً يهاجمون الدير بعاطفة دينية منحرفة ، ولذلك يقولون ان هذا المسجد حمى الدير كما أن الدير حمى المسجد .

- ٥٦٥ -



المسجد الذي بناه الخليفة الفاطمي الامر بن المستعى داخل
كاتدرائية سانت كاترين (يضم الكنيسة وتحميه الكنيسة)

سيناء في العهد الاسلامي :

ولنعد الى مطلع الاسلام في مصر لنتقرر أن سيناء شهدت دخول قوات
الاسلام في طريقها غربا لفتح مصر وشمال افريقيا . وقد سارع مواطنو
سيناء الى التخلى عن عقائدهم الوثنية واعتقاد ديانة أبناء عمومتهم من
البدو القادمين عبر خليج العقبة . وقد كونوا على ذلك بأن كانوا بمسئوليية
حماية طرق الحج عبر شبه الجزيرة الى مكة .

وقد ظل بدو سيناء يقومون بهذه المهمة عدة قرون .

سيناء والغزو الصليبي :

وأصطدمت الفتوحات الاسلامية بالمصالح المسيحية وكانت النتيجة
اندلاع الغزو الصليبي الذي كلفت سيناء مائة سنة أخرى من الغزو

والاحتلال والأذى . كان الهدف الأول للصلبيين الاستيلاء على القدس لتكون مقراً لملكة مسيحية في الأرض المقدسة ، وتحقق هذا الهدف بعد أن سفكوا دماء كثيرة في عام ١١٠٠ م ونتيجة لذلك اقتطعت شريحة من سيناء تمتد من رفح إلى العقبة وضمت إلى مملكة الفرنج ، كما استولى الصليبيون على مدينة أosteAsia الرومانية القديمة وأبقوها تحت سيطرتهم عدة سنتين ، وعبر سيناء قدم الصليبيون إلى مصر في أربع حملات كان آخرها في عام ١١٩٠ ، ووحد المسلمون في مصر وسوريا قواهم ضد الخطر الداهم وهزموا بقيادة صلاح الدين قوات الصليبيين على مشارف القاهرة وتعقبوهم في انسحابهم عبر سيناء حتى غزة .

وقرر الصليبيون أغاثة المسلمين بقطع طريق الحجيج إلى مكة ، وأقاموا لهذا الغرض قلعتين صليبيتين على رأس خليج العقبة أكبرهما في جزيرة فرعون (وتعرف أيضاً بجزيرة كورال) وتمكنوا بذلك ، ولفتره من الزمن ، من قطع الحج إلى مكة بما في ذلك الطرق البرية والبحرية . وأقام المسلمون من جانبهم قلعة عسكرية لهم فوق جبل سيناء لحماية الطريق الجنوبي إلى مصر في مواجهة الصليبيين . وفي عام ١١٧٠ استولى صلاح الدين على منطقة العقبة ، وما أن حل عام ١١٨٢ حتى كان يقود قواته الخفيرة عبر وسط سيناء في الحملة الأخيرة والكبرى ضد الصليبيين والتي انتهت بتحرير القدس .

سيناء في العصر الحديث :

كان عهد ثورة ٢٣ يوليو عهداً مشئوماً بالنسبة لمصر بوجه عام ، ولسيناء بوجه خاص ، فقد أبقيت الثورة على القيود التي كان الانجليز قد وضعوها على

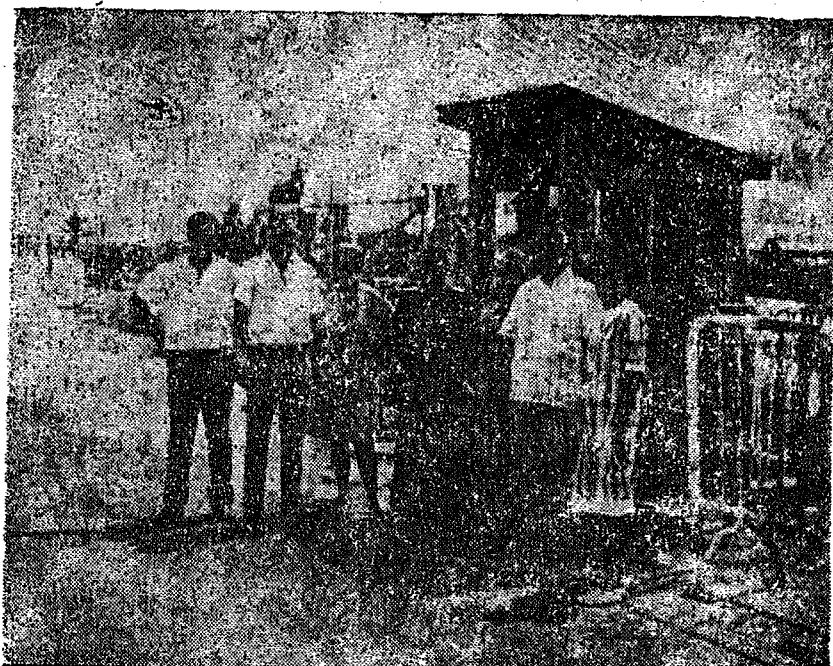
المصريين بحيث لا يكون من السهل دخولهم سيناء ، فعانت سيناء وكانها ليست جزءاً من الوطن .

ولم تزل سيناء حظاً يذكر من الرعاية والتعهير خلال عهد عبد الناصر ، وعلى المكس واحدتها وسائل التخريب للأرض وللذمم ، فقد اقتحمتها جيوش إسرائيل سنة ١٩٥٦ بمساعدة بريطانيا وفرنسا ، ولم تخرج منها إسرائيل الا بأوامر مشتدة من الولايات المتحدة التي لم يؤخذ رأيها في هذا الاحتلال ، وقد تركت إسرائيل ذيولها في سيناء ، وكانت هذه تتمثل في قوات طوارئ دولية كانت تعسكر في شرم الشيخ لتضمن السماح لإسرائيل بالالحاق في خليج العقبة .

وفي مايو سنة ١٩٦٧ طلب عبد الناصر من السكرتير العام للأمم المتحدة سحب هذه القوات ، وأغلق الملاحة أمام السفن الإسرائيلية فقامت على أثر ذلك كارثة يونيو التي دمرت المعدات وجندود عبد الناصر الذين سيقوا دون نظام إلى الكارثة ، واحتلت إسرائيل سيناء من جديد ، وطالاحتلالها هذه المرة ، فلم تخرج منها إلا في أبريل سنة ١٩٨٢ بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ وبعد جهد ومقاومة وتضحيات واسعة .

وكان لحرب ١٩٦٧ نتائج أخرى خطيرة ، فقد احتلت إسرائيل خلالها الضفة السورية (الجولان) وغزة والضفة الغربية .

وقد زرت سيناء في سبتمبر سنة ١٩٨٥ ، وعند الحدود التي تفصل سيناء عن غزة التلقيت بوفود مصرية كانت تزور المنطقة أيضاً ، وتطلعنا إلى الأرض العربية بغزة ، ولكننا كنا نَمَدُّ لها الطرف ولا نستطيع أن نَمَدُّ لها الخطأ ، وتذكروا هذه الحرب الخاطئة التي خسرنا فيها كل شيء بسبب ضعف القيادة وجهلها . حسابهم على الله .



تجمعات مصرية على حدود غزة
تنتظر للأرض العربية ولا ندخلها

قرية ياميت في سيناء :

و قبل أن نترك سيناء نذكر أن الاتفاق كان قد تم في عهد الرئيس السادات بين مصر وأسرائيل لتجلو أسرائيل عن سيناء ، وقد تنازلت مصر عن كثير من اتجاهاتها لتحصل على هذا الجلاء ، فمثلاً اعترفت باسرائيل ، وقررت تبادل التمثيل الدبلوماسي معها ، و خاصمتها العرب من أجل ذلك ، وقبلت مصر شروطاً مجحفة فيما يتعلق باعادة تسليح سيناء ، ٠٠٠٠ ومع هذا لم تكن اسرائيل مخلصة في هذه المعاهدة ، وإنما وافقت عليها لتنزع اعتراف مصر بها ، ولتعزل مصر عن العرب ، ثم تبدأ بضرب العرب وهم بدون مصر ، فأسرفت في عدوانها على لبنا ن وعلى الفلسطينيين ، وضررت

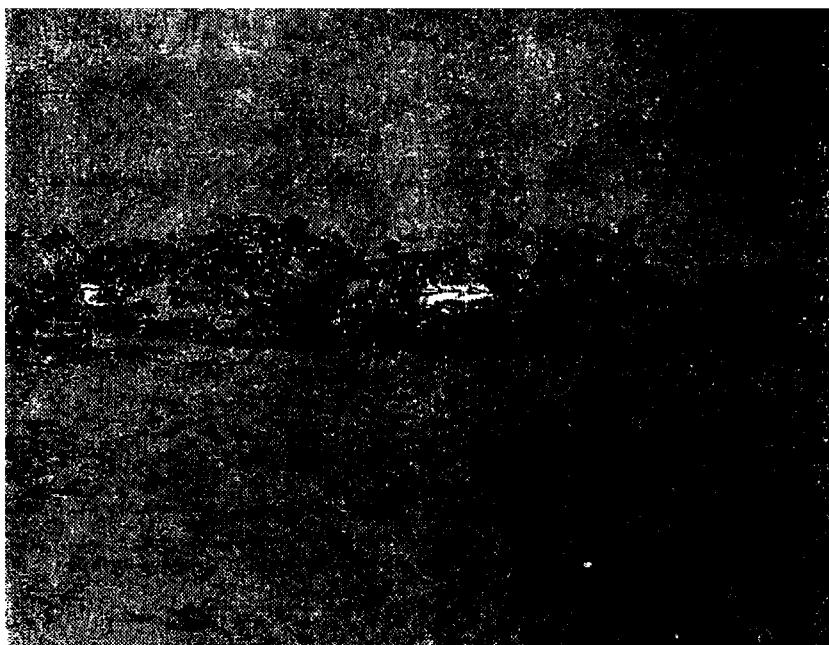
المفاعل الذرى في العراق وضررت بعض قرى تونس وهددت كل الدول العربية .

وفيها يتعلق بعلاقاتها بمصر لم تسر اسرائيل سيرا محمودا بل كانت علاقاتها بمصر حافلة بالخداع والذريان والعدوان ، فلهم تسلّم « طابا » لمصر وهي جزء لا ينفصل عن سيناء ، ووقفت من ياميت موقفا بعيدا عن روح المعاهدة ، وياميت قرية هائلة بنته اسرائيل في المسافة بين العريش ورفح ، وجرت مفاوضات لتركها اسرائيل عند الجلاء أو لتبني المبانى لمصر ، ولكن هذه المفاوضات غشت ، فقد رفضت اسرائيل كل العروض ، وطمعت أن يبقى بها سكان صهابية تحت سلطة مصر ، وطبعي أن هذا الطلب رفض رفضا قاطعا ، وكانت النتيجة أن دمرتها اسرائيل تدميرا تماما عقب اخلائها .

وقد زرتها في أغسطس سنة ١٩٨٥ ، وشاهدت بقايا خراسانة نادرة المثال قوة وصلابة ، وقد تحركت وتساقطت سقوفها بفعل التفجير العنيف ، ولابد أن قدرًا كبيرا من أدوات التدمير قد استعمل فيها بحيث لم يترك حجرة واحدة في هذه القرية الكبيرة ، ولم يبق بها إلا الميد الذي لم يزد الصهابية هدمه .

ومع هذا بعض الصور التي التقيناها لأنقضاض القرية ، وهي تدل على هذه الجريمة ضد العمran وضد العلاقات الودية والانسانية .

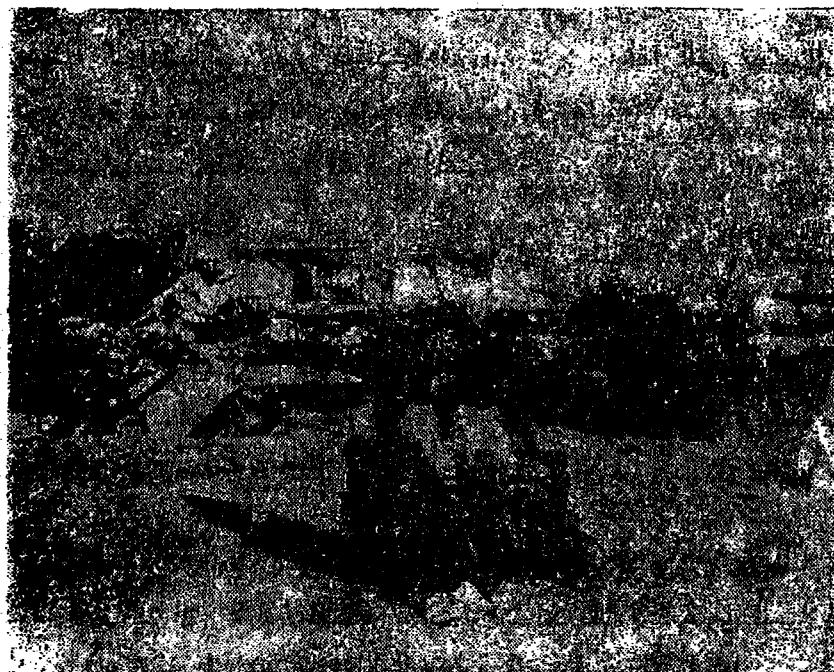
— ٥٧٠ —



أطلال قرية «ياميت» تتطرق بالسخط والاشمئزاز



وقفة حزينة بجوار الأطلال



الحديث : سقطل هذه الأطلال تذكرنا بقصة اسرائيل وبتعدها عن
المفاسد والآنسانية .

طابا :

بقى من سيناء جزء لا يزال موضع خلاف بيننا وبين اسرائيل ، ذلك
هو « طابا » وهي منطقة تمثل جزءا لا يتجزأ من أرضنا ، ولكن اليهود
يعدون جشعهم لهذا الجزء ، وللتعرية بالشكلة نورد دراسة موجزة
وواضحة عن هذه المشكلة :

ـ طابا هي نقطة على الساحل الغربي لخليج العقبة – تقع داخل
الحدود المصرية بثلاثة أو أربعة أميال . وهي على بعد ستة أميال من
جنوب ليلات . وترجع أهميتها إلى قرب آبار البترول منها – بالإضافة
إلى تحكمها في الممرات التي توصل إلى سيناء من رأس الخليج فضلاً عن
تحكمها في طريق غزة .

— نصت المعاهدة المصرية الاسرائيلية على أن تنسحب اسرائيل من سيناء كلها لتمارس مصر سيادتها الكاملة على المنطقة التي تعتقد الى الحدود المعترف بها دولياً بين مصر وفلسطين في فترة الاقتدار ، وكانت « طابا » بالتأكيد داخلة ضمن الحدود المصرية .

— وعند تنفيذ هذه المعاهدة ادعى اسرائيل أن منطقة « طابا » لا تدخل ضمن الحدود المصرية ، وتسلك مصر بمقتضها ويتحققها الثابت ، فتم الاتفاق في ٢٥ ابريل ١٩٨٢ (أي عند اتمام انسحاب اسرائيل من سيناء) على أن يتم انسحاب اسرائيل من هذه المنطقة والا تتدخلها السلطات المصرية وتوجد بها القوة متعددة الجنسيات الى أن يتم الاتفاق بشكل تفصيلى .

— ومع ذلك قامت اسرائيل ببناء فندق سياحي في وادي « طابا » توسيعاً للإقليم التي تحيط بمنطقة ايلات ، وقد تم ذلك دون ابلاغ الحكومة المصرية ، أو تم في غفلة الحكومة المصرية أو بتساهلها .

— ولا يزال الصراع قائماً لالانتهاء من هذه المسألة بالملوحة أو بالتحكيم .

محمد أنور السادات

مقدمة :

حديثنا عن السادات هنا حديث قصير ، فللسدات جزء خاص من موسوعة التاريخ الاسلامي هو الجزء العاشر يصف السادات وعهده وصفاً دقيقاً وأرجو أن يوفقني الله للأصداره قريباً إن شاء الله .

اسم السادات :

إن الاسم الحقيقي الثابت في شهادة ميلاد أنور السادات وفي ملف

خدمته عصري :

محمد أنور السادات (١)

ولذلك مستحب هذا الاسم الحقيقي من حين إلى حين ، تذكيراً للحق وارتباطاً بالأمور الرسمية .

وبناءً على التاريخ ولواعد اللغة العربية هناك « الشیخ السادات » الذي كان له جاه عظيم في عهده ، وكان مع عمر مكرم والشیخ عبد الله الشرقاوى والبکرى ... أعضاء الديوان الذى أنشأه نابليون .

أما « للسداتى » فاسم ينسب إلى « السادات » فهو ليس من أمرته ولا يصل اسمه ولكته قد ينسب له بسبب من الأسباب .

السدات والسلطنة :

كلن السادات أحد زعماء ثورة أو حركة يوليوا ، ولعله كان من أذكي زعماء هذه الحركة ، وكان بالتأكيد من أكثرهم ثقافة ، ويندو أنه لاحظ بيروت عبد الناصر وسطوته فتحاشاه ، فمرة يعمل لإرضائه بان يؤلف

(١) في كتاب الاستاذ عبد الله امام « قضية عصمت السادات » اورد المؤلف هذه القضية التي ذكرناها هنا ، واستند إلى صورة زنگوغرافية لتقرير سرى سنوى صادر من وزارة الحرية والبحرية المصرية سنة ١٩٥١ .

كتاباً يمدحه فيه ويرفعه إلى السماء كما يقولون وعنوان الكتاب هو : « يا ولدى هذا عمل جمال » .

ومرة كان يفتح له بيته ليكون المكان الوحيد الذي يرتاده ويمضي به سهراته ، وكانت طلاقة السادات وثقافته تهيئ الابتسامة للزعيم .

ومرة كان يجلس مجلس القاضى في محكمة الثورة أو محكمة الشعب ليصدر الأحكام التى تُرْكِس عبد الناصر ضد من يكرههم ويحقد عليهم .

على أننى أتصور أن ذكاء السادات ساعده ليتفاصل من هذا الجو ، فاتجه أو وجهه حسن حظه ليكون الأمين العام للمؤتمر الإسلامي أو أن يكون رئيساً لمجلس الأمة ، وهذا قليل ارتباطه بالسلطة الطاغية .

على أن عبد الناصر قضى على زملائه تماماً الواحد بعد الآخر ، عزل بعضهم ، وسجن آخرين ، وقتل من لم يقو على عزله أو سجنه ، ومن هنا خلا الجو للسادات ، فاستدعاه عبد الناصر وعيشه نائباً لرئيس الجمهورية سنة ١٩٦٩ عندما كان جمال عبد الناصر على وشك أن يسافر إلى الاتحاد السوفيتى .

ولما مات عبد الناصر أصبح أنور السادات رئيساً مؤقتاً للجمهورية تبعاً لدستور ذلك العهد ، وواجه السادات بذلك عقارب السلطة ومركزاً التفاؤل ، وساعد ذكاؤه مرة أخرى فتظاهر بأن أحنى رأسه لهم وتملقهم ، وبذا كأنه سيكون طوع أيديهم ، وفي ١٥ أكتوبر سنة ١٩٧٠ أجرى استفتاء لريادة الجمهورية ، وقد قضى هذا الاستفتاء باختياره رئيساً للجمهورية .

وتمكننا الملك والاختفاء للعاصفة دخل السادات مجلس الشعب عقب اختياره رئيساً للجمهورية ، واتجه لصورة عبد الناصر ، وأنحنى أمامها اختفاء طويلة جلبت عليه سخط الكثرين ، ولم تنسف غليل الحاسدين والأعداء ، فالاختفاء والركوع لا يكون إلا للخالق الأعظم .

مرتبات ومخصصات بدون ضرائب :

ومن وسائل الملك الذى أبداء السادات ليصل الى غايتها أن أسرع فى فترة الهلع الذى كان يعم البلاد عقب وفاة عبد الناصر ، أن أرضى أسرة الزعيم وأرثه ، مراكز القوى ، فاستخدم مجلس الوزراء أول قرار له ، وكان خاصاً بمنع زوجة عبد الناصر وأولاده جميع مرتباته ومخصصاته بدون ضرائب ، وأن تظل تعيش فى قصر الدولة الشاسع الفاخر طيلة حياتها ، ويظل لها كذلك قصر الاسكندرية .

لقد كان هذا تصرف لا يرتضيه عقل ولا ضمير ، وهو تصرف لا تعرفه أية دولة من الدول ، وقد تكلمت الصحف عن زوجة تشرشل الذى قاد بريطانيا في أخطر معارك التاريخ ، ثم بعد موته — أخذت تتبع ما عندها من تحف لستكملى حاجاتها في الحياة ، ومثل هذا قيل عن الزعيم العظيم شارل ديغول الذى قاد فرنسا واستعاد لها استقلالها بعد أن اكتسحتها جيوش النازى ، وبعد وفاته عاشت زوجته بما عندها من مال وما استحقت من معاش ، ولما مات رئيس جمهورية الولايات المتحدة « هاردينج » كان على زوجته أن تفادر البيت الأبيض فوراً ، ولكنها لم يكن لها مسكن خاص فبقيت بخمسة أيام ريثما وجدو لها حجرة في فندق .

أما مصر فغيرى عليها ما جرى ، ولا تزال مصر حتى كتابة هذه السطور سنة ١٩٨٦ تدفع هذه المبالغ الباهظة على الرغم من الضيق الاقتصادى الذى تعانى ، وعلى الرغم من التراء الفادح الذى ظهر فى أيدي أولاد عبد الناصر الذى تجاوز الملايين أو البليارات ، ولسنا نعرف إلى متى ستظل مصر تدفع مئات الآلاف لسيدة تعيش وحدها بعد زواج أولادها في هذا القصر المنيف أو تقتله لتعيش متنقلة في عواصم العالم .

ويبدو أن السادات هيأ ذلك لزوجة عبد الناصر وأولاده حتى يتبع فرصة التكرار ذلك مع أسرته بعد وفاته ، فقد تقرر مثل ذلك للسيدة جيهان السادات وأولادها منه (وليس لأولاده الآخريات من زوجته الأولى

السيدة اقبال) ولذلك فمصر تدفع الآن (١٩٨٦) مرتبات و مخصصات يدون ضرائب لثلاثة رؤساء وهي البلدة الوحيدة التي تفعل ذلك .

ويلاحظ أن كلمة مخصصات كلمة رهيبة ، فالمخصصات تفطئ التزامات الرئيس التي يستلزمها منصبه ، والرئيس قد هات ، ولم يعد يشغل هذا المنصب ، فكيف بالله تدفع هذه المخصصات لزوجة لم تعد تواجه هذه الالتزامات والمسؤوليات .

وإذا كانت زوجة عبد الناصر تعيش غالباً في لندن ، فإن زوجة السادات تعيش غالباً في الولايات المتحدة ، وقد ذكرت الأنباء أنها أرسلت من هناك أطباء متخصصين لعلاج « نستاس » لها بالقاهرة ، وحق لها أن تفعل ذلك فعما الشعب الفقير يدفع لحسابها بسخاء .

وكلمة أخيرة عن هذا الموضوع هي : هل سنظل نفعل ذلك ؟
ومعنى هذا أنتا في يوم من الأيام سندفع مرتبات و مخصصات لأعداد كبيرة من الرؤساء ، وهي نكبة ونزيف لابد من إيقافه .

مصر اقتصادياً في مطلع عهد السادات :

عندما تولى أنور السادات السلطة كانت مصر تعاني أشد البلاء من الهزائم التي تزلت بها في عهد جمال عبد الناصر ، ومن الانطراب الاقتصادي الذي كان قد أكل كل ثراء مصر ، وتركها على النحو الذي وسمه أنور السادات أذ قال : إن مصر كانت شخص ترف كل دمه ، وخلت شرايينه من الدم .

وكانت مصر بالإضافة إلى ذلك تعاني من سخرية العالم بعد هزيمة ١٩٦٧ وتعاني التعبيء من كثير من الدول ، وأخذ أنور السادات يتحسس طريقه برفق في الميدان السياسي والعسكري والاقتصادي حتى انفجرت مشكلة مأبى التنس .. تتحدث عنها فيما يلي :

حركة مايو :

شهور قليلة مرت بين بدء رئاسة السادات للجمهورية في ١٥ أكتوبر ١٩٧٠ وبين حركة ١٥ مايو من العام التالي ، وهذه الشهور كانت حافلة بالتربيص والاتهام ، فقد سبق أن أشرنا إلى أن السادات لم يكن على وفاق مع المعطيين بعد الناصر ، وكان يُعتبر دخila عليهم ، فكانت الكراهية متبادلة بين الطرفين ، ولكن ذكاء السادات جعله يحنى الرئيس خلال الفترة الأولى ليظفر بالرئاسة ، فلما تم له ما أراد ، بدأ يدير المكائد لينقض على هؤلاء .

وفي نفس الوقت كان هؤلاء يدبرون الخطط للتخلص منه ، وكان الأسبق سينال الفوز ، فال PTRية الأولى كثيراً ما تكتب النصر لصاحبتها ، وايستر رأى السادات على أن يضرب بسرعة قبل أن يتعرض لهجوم أعدائه ، واعتمد في ذلك على شخصين مهمين أحدهما لقيادة الجيش وهو الفريق محمد صادق ، والأخر لقيادة الشرطة وهو ممدوح سالم ، وانتقدا معهما سرًا على أن يكون الأول وزيراً للدفاع ، والثاني وزيراً الداخلية وفي لحظة خاطفة استولى كل منهما على السلطة التي أصدر السادات قراراً بتعيينه فيها ، وتم القبض على القيادات العسكرية والسياسية المقاومة للسادات ، وفي قمتهما على صبرى وشعاوى جمحة وسامى شرف ومحمد فوزى ولم يكن لأحد من هؤلاء مكان في نفوس الشعب ، فبارك الشعب نهاية هذه الشرذمة التي طالما نكلت به وامقتت دماءه وأعانت عبد الناصر عليه وقد جرت محاكمة هؤلاء ، فأدينوا وصدرت ضدهم أحكام مختلفة ، وعلى الباغي تدور الدوائر .

ويلاحظ المطلعون أن السادات قبض على أعدائه الذين كانوا ينافسونه ، ليتمكن لسلطانه ، ولم يقبض على باقى أعداء الشعب ، فالقصوص ، وتجار المخدرات ، والذين أثروا بالباطل لم يُحببهم منه سوء .

ثورة التصحيح :

بقيت كلمة تدعو للسخرية هي استعمال كلمة « ثورة » فلقد قام بحركته التي دمّرت البلاد والعباد وأسموها « ثورة » وهي في طلاح الحقيقي ليست الا انقلابا ، ثم قبض السادات على أعدائه ، أخرى استعمل كلمة ثورة فقد طابت له هذه الكلمة فأسمى حركة ابن من أعدائه « ثورة » أو « ثورة التصحيح » .

يعقب ثورة التصحيح أعيد تكوين مجلس الوزراء والاتصالاتي ومجلس الشعب ومجالس الادارات ، كما أعيد انتخاب مجالس الأندية وأصبح للحكم وجه سادati جديد .

يعتبر عهد أنور السادات عهدا يختلف في قيمه واتجاهاته اختلافا عهدا سلفه ، وقد ظهرت به معالم من الفوضى ، ووُجِدَت به التذكر هشّتّسّكـر ، وان ظهرت بجانب ذلك بعض البقع السوداء ، ثم هذا العهد هي :

١ - عودة اسم مصر ، ففي أول سبتمبر ١٩٧١ صدر اعلان دستوري يقرر لاسم « جمهورية مصر العربية » .

٢ - اطلاق الحريات الى حد كبير ، وسيادة القانون فيما لا ينافي رغبات الرئيس ، واعلان الدستور الدائم وهو أيضا دستور غير شعبي ومستقى من عقليه عند الحديث عن عصر حسني مبارك .

٣ - أنهى عقود الخبراء السوفيات ، واستعاد القاعدة الجوية التي كانت قد مُتّحـتـ لهم ، فأنقذ مصر من الشيوعية المحددة .

٤ - العبور وهزيمة اسرائيل ، وقد سقط من اسرائيل عدد ضخم

- ٥٧٩ -

من الجنود والضباط قتلى وجرحى وأسرى ، واستعادت مصر قنطرة السويس ، واهتركت إسرائيل اهتزازاً عنيفاً في كل مجال وتآزمت الأمور عند الأعداء حتى صع أن يقال إننا صدّرنا إلى إسرائيل حالات التمزق التي كان يعيش فيها العرب عقب هزيمة ١٩٦٧ .

٥ - أعيد فتح قناة السويس للملاحة الدولية في ٥ يونيو ١٩٧٥ . واختيار ٥ يونيو لذلك كان ذكاء من السادات ليداوي جراح هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ .

٦ - اعلن ذلك الارتباط الثاني في أواخر أغسطس سنة ١٩٧٥ وبمقتضاه تقرر انسحاب إسرائيل إلى ما خلف المراتب في سيناء ، كما تقرر أن تعود منابع بترويل أبو روديس والبلاعيم إلى مصر ، وهكذا حاربنا وانتصرنا فاستطعنا أن نستعيد القناة ، وجزءاً من سيناء مجاوراً لها ، ثم تفاوضنا واستعدنا باقي سيناء ولكن بشروط فيها نوع من انتقاص السيادة ، وعلى كل حال فالحديث عن معاهدتي كامب ديفيد سيأتي بالتفصيل في الجزء العاشر .

٧ - من أبرز معالم هذا العهد أن عادت الابتسامة لشفاه المصريين ، وأمن الناس على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ، وذلك ما لم يتحقق لهم طيلة العهد القائم السابق .

٨ - ومن الاصلاحات الداخلية التي برزت في عصر السادات إنشاء المدن الجديدة : العاشر من رمضان ، والسداد ، ومايو ، والسلام ، وإنشاء نفق أحمد حمدي والطرق الكثيرة والكباري العلوية ، واصلاح التليفونات ٠٠٠٠

٩ - حاول أنور السادات أن يخلق في البلاد جوًّا من الديمقراطية ، ولكنه حرص على أن تكون ديمقراطية مستأنسة أو خاصة له ، وهذه في الحقيقة لا يمكن أن تكون ديمقراطية حقيقية ، وعلى كل حال فقد اتجه للاتحاد الاشتراكي ليخلق فيه ما أسماه « منابر » لليمين واليسار والوسط ، ثم اتجه لخلق الأحزاب فكلف « ممدوح سالم » أن يؤلف حزب

مصر ، وكلف ابراهيم شكرى أن يؤلف حزب العمل ، وظهر حزب الوفد الجديد ، وكانت هذه ديمقراطية عرجاء ، ولنا حديث طويل عن الأحزاب والديمقراطية والدستور بعد عبد الناصر ، ويستندتم هذا الحديث ضمن أحاديثنا عن عبد حسنى مبارك بعد قليل .

١٠ - كانت زوجة أنور السادات تسمى نفسها « سيدة مصر الأولى » ومن الواضح أنها تحدر من ذم ليس عريقاً في مصرية ، ولذلك كان هذا اللقب يؤذى شعور المصريين دون استثناء ، وكما نهض دائماً بأننا جميعاً خدم مصر وليس أحد سيدها لها ، ولكن هذه السيدة عشقت هذا اللقب اللعين الذي جر عليها كثيراً من السخط واللعنات ، والذي لم تستعمله زوجة عبد الناصر ولا زوجة حسنى مبارك .

١١ - بالإضافة إلى ما حققه أنور السادات من انتصارات في المعركة ، نجده قد حقق نصراً في المفاوضات مما أتسارح الفرصة لاستعادة سيناء واعادة فتح قناة السويس واستعادة بترول المنطقة ، ولكن الساداتى عقب ذلك تكاله وتکبر وتتجبر ، وكان عليه أن يشك الله وينحنى إليه .

١٢ - وفي عهد السادات - للأسف - ظهر كثير من الانحراف والاعمال والاثراء على حساب الشعب وكان ذلك نتيجة لما سمي « الافتتاح » فقد ظهرت طائفة مسحورة لكسب المال بأى وسيلة من الوسائل ، عن طريق ما سمي التصدير والاستيراد أو عن طريق تغيير العملة وظهر كثير من يملكون الملايين أو البليارات بدون وجه حق .

١٣ - وفي الخامس من سبتمبر سنة ١٩٨١ أي قبل نهاية الساداتى بشهر أصدر هذا أوامره باعتقال حوالي خمسة آلاف شخص من المصريين وزوج بهم في المعتقلات ، وكان فيهم الشيخ الكبير والشاب والرجال والنساء والمسلمون والأقباط والشيوعيون والإخوان المسلمين ، فكان التشفي ظاهراً في هذا العمل المزري .

وفي السادس من أكتوبر ١٩٨١ سقط المسادات في حادث المنصة ،
وب سبحان الباقى وسيشمل الجزء العاشر من هذه الموسوعة ان شاء الله
تفاصيل ما أوجزنا هنا من أحداث .

الحيدة الكاملة في تدوين التاريخ :

وفي ختام حديثنا الموجز عن أنور المسادات نبرز نهجنا في الدراسة ،
ذلك النهج الذى يقوم على الحيدة المطلقة ، فقد مدحنا أنور المسادات في
حركة مايو حين خلّصنا من بعض أعداء الشعب ، ومدحنا بعمق في
إعداده لمعركة رمضان ، وادارته لها ، واستعادة سيناء ، وإعادة فتح
قناة السويس ، واستعادة مصادر البترول المصرى ، وهذه مواقف چديرة
بالتقدير ، وانتقدناه في قضايا أخرى كما مرَّ .

ونريد هنا أن ننتهى على صحفية «الوفد» : فإنها — على الرغم
مما عانى حزب الوفد وزعيمه من تصرفات المسادات — كتبت في عدد
١٩٨٦/٥/٢٢ الكلمة التالية ويجوارها صورة المسادات :

يungan خالدان في تاريخ مصر :

يungan عزيزان على المصريين جميعا ، خالدان في تاريخ مصر وشعبها
العربيق ، اجتمعا معا في أسبوع واحد ، واحتفل بهما كل بيت وكل قلب
يتحقق بحب هذا الوطن . اليوم الأول هو الخامس عشر من مايو ،
الذى تحطم فيه قيود المصريين ، وانهارت دولة الظلم والطسلام
والارهاب . واليوم الثانى هو العاشر من رمضان ، يوم حرب التحرير
الخالدة ، وذكرى استرداد الأرض والكرامة ، وصفحة التاريخ المشرقة ،
التي سطرها أبناء مصر وأبطالها بدمائهم الطاهرة ، إننا في هذه الذكرى ،
ننوجه بالتحية إلى أبطالنا ، ونترحم على شهدائنا ، ونذكر الرجل الشجاع
الذى كان صانع القرار الجسـور في الـيـومـين .. الرئيس الراحل
أنور المسادات .

ثورة ٢٣ يوليو في الميزان

هذه «القفزة» التي تسمى نفسها ثورة ، والتي يسمّيها بعض الناس «عصابة» أو انقلابا ، قامت سنة ١٩٥٢ ، واستغرقت حماستها ونارها عهدي عبد الناصر والسدادات مع خلاف كبير بين العهددين ، وبخاصة بالنسبة للإصلاحات والاضطهادات ، .. أقول أن هذه الثورة انقضت بانقضاء عهد السدادات ، ولم يبق لها الا ملامح قليلة في عهد محمد حسني مبارك ، ملامح من بقايا هيئة التحرير التي تحركت الى الاتحاد القومي ، فالاتحاد الاشتراكي ، فحزب مصر ، فالحزب الوطني الحاكم عند كتابة هذه السطور سنة ١٩٨٦ .

ومعنى هذا أن الثورة لم تختف بعد ، فلا يزال دستورها هو الدستور المعمول به ، ولا تزال مؤسساتها قائمة ، ولا تزال كثيرون من القواعين الفاسدة التي أصدرتها معمولاً بها ، وعلى كل حال فالآن أكثر الآن في أن نطوي صفحات هذه الثورة ، وأن نبدأ من جديد حياة جديدة ، سائلين الله أن يعوضنا عن عشرات السنين التي أضاعها الجهل وسوء التدبير ، وأن يساعدنا لتفعيل العمران لبلادنا التي دمّرتها هزائم عبد الناصر الساحقة (انظر صورته بعد هزيمة ١٩٦٧) على الصفحة التالية .

وقد كتبت عن هذه العصابة كثيرا حتى ظن بعض المترعين أنني متحامل ، أو متشدد ، والحق أنني أدوّن التاريخ بكل إنصاف ، وأحسن وأنا أدوّنه بالمسؤولية الكبرى أمام الله وأمام الناس ، ولأجل أن أزيد الموضوع أيضاً فيما يلي آراء صفوة من المفكرين المصريين في هذه الثورة وبخاصة في الديكتاتور الظالم عبد الناصر .

- ٣٨٠ -



منظور لصانع الهراء

وهو يحاول الهرب من هزيمة ١٩٦٧ فيلاعب نفسه «الشطرنج» ولكن تلاحمه أصداء الهزيمة الساحقة ، وتدفق رأسه أرواح الآلاف الذين دفع بهم للموت ، وتركت جثثهم للوحوش والهوام في سيناء .

محمود أبو الفتح والثورة :

يقول الأستاذ محمود أبو الفتح في أحدى مقالاته يصور ما حدث
لصر خلال هذه الثورة :

« في مطلع عهد الثورة فقدت مصر أهم العناصر التي تحمى الإرادة
المستقلة وهي الحرية ، والاكتفاء الغذائي ، والتقدم الانتاجي ، ثم
سار الحاكم في أسلوب حكمه كالآتي :

* * ضرب الحاكم كل الحريات واستباح القتل والشنق والتعذيب
الوحشى والاعتداء على شرف السيدات .

* * اباح الحاكم للانصار كل ما يمكن تصوره من جرائم الافراط
الهaram .

* * انقضت الشهور الجامحة على الثروات كانقضاض الوحوش
الجائحة ، وسغان ما اختفت الثروات وتم احتلال القصور وخطف
النامسيب .

* * « انقضاض » رهيب وصل الى القمة للبحث عن الرفاهية في صورة
مصالح في جزيرة الشاي بحقيقة قصر المتنزه يمتنع على أي مصري أن
يقربها أو يدخل أرضها ..

* * المتأسف والقصور حافظت عليها الثروات الهمجية في فرنسا
وفي روسيا .. أما في مصر فقد نهبت واختفت المجوهرات والتحف التي
كانت في قصور أسرة محمد على ، وحتى رخام مقبرة أسرة محمد على
قد نهب وسرق .. تصورووا بيتهما بيني برخام مسروق من مقبرة !!

* * وكل ذلك يتم والويل كل الويل لمن ينقد أو حتى يتهم
زيما بأنه ينقد .. فقد أصبح القانون وأجهزة « الأمن » لحماية الجريمة !!

ودفن الحاكم المصرى عزة مصر :

* * ولأول مرة في تاريخ مصر منذ العهد الفرعونى يمسد الحاكم

— ٥٨٥ —

يده يطلب المعونات . . يطلب الأكل . . ويمدها من . . لأمريكا . .
التي ينادي بها يعاديها ويحارب امبرياليتها . .

* * ي يستطيع كل انسان أن يدرك مدى سعادة حكام أمريكا إذ
يرعون حاكم مصر يطلب الغذاء منهم .

* * افتقرت مصر وضاعت ثرواتها وبدأ حاكم مصر يقترب ويطلب
المزيد من المساعدات من الاتحاد السوفياتي والكتلة الشرقية .

* * وتم دفن استقلال الارادة الوطنية المستقلة ، فالجائع الذي
يلتمس المعونات والقروض ليس له ارادة وليس له استقلال .

خبراء وقواعد عسكرية وانكشارية :

* * ١٧ ألف خبير روسي يسيطرؤن على كل أمور مصر وخصوصا
جيش مصر .

* * قاعدة بحرية على أرض مصر لاساطيل الاتحاد السوفياتي .

* * الجيش المصري يتم قتل شبابه بحجة الدفاع عن لومومبا
في الكتفو وفي سبيل تحرير اليمن .

* * ولا يمكن الجيش من الدفاع عن أرض الوطن ، بل يقتذف به
قتضا في نزق وطبيش لم يُعرَف تاريخ « نيرون » بمثله ليموت الآلاف
وتقدمر أسلحة بآلاف الملايين ويستولى العدو على بترول مصر ويجلس
جنود العدو وقد أدلوا أحديتهم في مياه قناة السويس التي كان الحاكم
الفاشل ينادي بتاميها .

انتصارات . . وانتصارات :

* * قضى الله أمره وتغير الحاكم وحقق الحاكم الجديد بسرعة
مذهلة عدة انتصارات ، إذ انهى تظليل الخبراء الأجانب ، والمقاعدة الغربية
الأجنبية ، وخفف القيد على الحرريات الشخصية للمصريين ، ثم توج
الانتصارات إذ أذنخ الجيش مصر الباسل فرصة الانتقام من العدو .

* * كان من الممكن أن يقفز بمصر ، ولكن مرة أخرى انقضت الشهورات التي لا تشع على الثروات ، وكان الوليمة قد أعيد نصبها للكواسر الجائعة .

* * وعم الفساد وانتشر وارتفعت أرقام الديون ارتفاعاً رهيباً ..
وتصدرت امتيازات «الثوار» والمحاسيب .

وأصبحت مصر :

* * وهكذا أصبحت مصر من دولة تملك أراضيها المستقلة بتأييد شعبها ورخاء اقتصادها إلى دولة فقدت أراضيها لأنها في حاجة إلى ٧٠٪ من قوت الشعب .

* * تحولت مصر من دولة دائنة إلى مدينة . من دولة مسلمة إلى دولة مدمرة المراقق ومن دولة ينعم شعبها بالقناعة والرضا إلى دولة تعج بالرشوة والفساد وضياع مئات الملايين ...

* * وأخيراً وليس آخرًا تحولنا من دولة كانت لها أحزابها التي تتكون بارادة شعبها وكانت لها صاحفتها الحرة وقانون انتخاب مثالى ..
إلى ما نحن فيه ..

ومع ذلك يحتلون :

* رغم كل هذه الحقائق لا تزال الحكومة تحتفل بعيد تلك «الثورة» وتسميه العيد القومي .. ولكن ليس في الأمر غرابة فالحزب الذي يحكمنا هو الذي أيد كل ذلك والذى انتفع من كل ذلك .. ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

جلال الدين الحمامصى والثورة :

ولنترك الأستاذ محمود أبو الفتاح إلى كاتب حر آخر ، هو الأستاذ جلال الدين الحمامصى ، وله عن الثورة وعددها كتب وبحوث ضافية ،

ولكنا نقتبس منه كلمة قالها في الأخبار يوم ٢٩/١٩٨٦ عن زعماء الثورة الذين ينشرون مذكراتهم بالصحافة العربية ، قال سعادته :

يعرض أقطاب عهد ما بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ « في هذه الأيام » أوراقهم السياسية على شعوب العالم العربي ، إذ لا تخوا جريدة أو مجلة عربية من « حلقات مسلسلة » يكتبهما هذا أو ذاك من الشخصيات التي حكمت مصر ، وأمسكت بخيوط سياستها الخارجية والداخلية . ومن مضمونها يمكن أن تحكم على نوعية العقول التي حكمت مصر وقادتها إلى هذه التركة المثلثة التي دوخت الشعب وجعلته يفقد اتزانه ويغرق في ديون خارجية ومشكلات داخلية متراكمة .

ومع هذا ورغم كل ما فعلوا فلنهم يطفون الآن على السطح بلا خجل أو حياء ويتكلمون ، ولا يعتذرون بل وتسهر لهم الحريات – التي خاصموها وعطلوها ممارستها لسنوات فوق سنوات – بعودتهم كى يكونوا جزءاً يتفاعل مع الجميع يحاول إزاللة آثار عداوتهم على كل شيء .

مصطفى أمين والثورة :

أما الكاتب العملاق الأستاذ مصطفى أمين ، فهو يمثل الآن قلب الحرية الخافق ، وهو يكتب كل يوم ما يجيش بنفوس المصريين ويعبّر عن مشاعرهم ، ولا يتوقف قلمه عن عرض مساوىء هذا المهد الأسود ، ولذلك لا تستطيع أن تقتبس منه شيئاً ، فكل ما يكتبه يمكن أن يكون شيئاً من النور يبرأ أوكار الخفافيش ، ومثابئ الطفاة الذين حكموا مصر في هذا العهد القاتم ، وتحليل القارئ إلى « فكره » ففيها في أكثر الأيام تتذبذب بالطعنة الفاسدة التي أخذت يوماً مكان الرعامة ، وكان جديراً أن تختفى في ركن مظلم مع السفاكين واللصوص .

وفي « فكره » بتاريخ ٢٢/٣/١٩٨٦ يصف أسباب ما نعيشه اقتصادياً بقوله :

قد بدأت المصيبة عندما بعثنا احتياطي الذهب لنصرف على حرب اليمن ، وعندما اشترينا مصانع قديمة نصف عمر على أنها مصانع جديدة ، وعندما خسرنا أسلحتنا في الحروب التي خسرناها .

وعندما أرسلنا قواتنا إلى الكونغو لتنسفن ثومومبا ، وأرسلنا قواتنا إلى العراق لتحمي عبد السلام عارف ، وعندما أرسلنا طيانتنا إلى نيجيريا ليضرب سكان بياfra بالقناابل ، وعندما أرسلنا جيوشتنا لتحمي العمال في اليمن ، كل هذا وغيره من المغامرات هو الذي أرهق الجندي المصري الذي كان في يوم من الأيام يساوى خمسة دولارات وكان أعلى من الجندي الاسترليني بقرشين ونصف قرش ، كما نصدر القمح وأصبحنا نستورده ، ونصدر الأحذية وأصبحنا نستوردها ، ونصدر مختلف أنواع القطن والحرير وأصبحنا نستوردها .

دكتور نعمان جمعة والثورة :

ويذكر الأستاذ الدكتور نعمان جمعه بعض ما تبقى في محمد حسني مبارك من أسباب الأضطراب الاقتصادي ويقرر ضرورة الارتفاع في إلغائها والتصرف بشأنها وهي :

مجلس الشوري ، وال المجالس القومية المتخصصة ، وأكاديمية البحث العلمي ، (اكتفاء بالمركز القومي للبحوث) وهيئة الكتاب الجامعي ، وجهاز المدعى الأشتراكي ، ومحاكم القيم ، وعديد من السفارات والقنصليات ، وبعض الوزارات ، ومخصصات عائلتي رئيس الجمهورية السابقين ، وببيع أراضي العمارة المحيطة بتصربيهما ، والرسادرة إلى مراقبة الميزانيات السرية التي ينفق من خلالها على شراء معدات الجيش ونفقات الرئاسة ، ومنع سفر أي موظف رسمي إلى الخارج وأداء أي عمل مطلوب بواسطة سفاراتنا ، وتأجير قصور أسرة محمد على في أنحاء مصر كفنادق عالمية لآذame أثرياء العالم ، وعلى رأس هذه القصور « المقترن » ، ورئيس المحكمة ، وكتيج « بريوط » .

دكتور ابراهيم عبده والثورة :

وننتقل الى كاتب خامس هو الأستاذ الدكتور ابراهيم عبده الذي كتب في ١٣/٢/١٩٨٦ يقول :

وأحب أن أُبصّر أبناءنا الذين أسعدهم الحظ فلم يعيشوا مثلنا أيام عبد الناصر ، فقد سجنَ عشرات الآلاف من المواطنين ، وليت الأمر قد اقتصر على السجون ، فقد صحب السجن تعذيب هؤلاء المواطنين بكىً موائمه حساسة من أجسامهم ، وتعليقهم كالذبائح ، وضربهم بالسياط ، ليعرفوا بجرائم لم يرتكبواها ، ومن المضحكات البكيرات أن بعض إخواننا الأقباط قبض عليهم وسجناً وعذبوه على أنهم من خلانيا الأخوان المسلمين ؟ !! ولم يقف الأمر عند هذا التعذيب الوحشى ، بل تعداه الى كفر لا ترضى عنه شرائع الأرض والسماء ، فكان زبانيته يأتون بزوجات وبنات المسجونين ، وكم فسقوا وهتكوا من أعراضن ، وكم من ضحاياه ماتوا نتيجة التعذيب ؟ فضلاً عن مصادرة أملاكهم وطردهم من بيوتهم والاستيلاء على مقتنياتهم .. وهذا الذي أحكى لهكم يا شباب أسجله نقلًا عن أحکام المحاكم التي أدانته ، ووصفتة بأخط الأوصاف ، وفي حكم منها صورت المحكمة لنا كيف أمر بتدريب الكلاب مواطأة الرجال وهو ما لم يفعله الفاشيون والتازيون ، ولا مر على سجن الباستيل ؟ !

ثم ماذا يا شباب ؟ أحدثكم عن آخر مأسى عبد الناصر في سياساته الداخلية ، فقد كان له صديق حميم يدعى عبد الحكم عامر الذي رقام من رتبة الرائد في الجيش الى رتبة اللواء متخطياً في ذلك جميع زملائه أربع درجات ونصبه قائداً عاماً على الجيش ! ثم رقام الى رتبة المشير وهي ذروة الترقى ، ثم اختلف معه عقب هزيمة ١٩٦٧ فاعتقله ثم دس له السم وقتله ، ودعنا من حياته الخاصة حين كان في الجيش في رتبة الرائد أو في رتبة المشير .. فقد ذكرت الصحف منذ عدة أيام أن بناته

- ٥٩٠ -

سُرِقَ قصرُهن ، وأن التحقيق في أمر السرقة كشف لنا أن خدم البنات قد بلغ عددهم سبعة عشر خادماً وخادمة !! وأن المسروقات مجموعة من الجوائز الفاخرة !! ونجو ألفى جنيه كانت موجودة في البيت للمصاريف العاجلة ، فمن أين لهن كل ذلك الثراء !!

منْ هرَبَ الملايين ؟

ويستمر الدكتور ابراهيم عبده فيروى ما يلى :

يقول كاهن الناصرية الأكبر (يقصد محمد حسين هيكل) أن خمسة وأربعين بليونا (بلياردا) من الدولارات ، خرجت من مصر إلى حسابات بعض المصريين في بنوك الخارج ! وما لا شك فيه أنه يعني بذلك عبد الناصر وحاشيته وأولاده وأصحابه .

والفساد كله بدأ عبد الناصر فهو الأستاذ في هذه المجالات : الديكتاتورية ، التعذيب ، سرقة الأموال ، الجهل بالسياسة . . . ثم سار تلاميذه في طريقه ولا يزالون يسيرون ، وقد ذكرت صحف القاهرة في فبراير ١٩٨٦ أن ٧٠٠ قضية اختلاس قد حررتها النيابة ، وأن عصابة يترعها وكيل أول وزارة الصناعة قد قبض عليها متلبسة برشوة قدرها خمسة ملايين من الجنيهات لتجزىء إقامة مصنع ألماني للورق في الصعيد .

إنها آثار الزعيم الذي لا يزال بعض الجهل يصفقون له .

الضعفاء وشبح عبد الناصر :

ومات عبد الناصر ، ووسّد التراب ، ولكن خياله كان يلاحق الضعفاء ، وسطوته كانت لها سيطرة ، ولهذا انحني السادات أمام صورته بمجلس الشعب ، وهو تصرف وثني ما كان يليق ، ثم انطلق مجلس الشعب يقرر منح أسرة عبد الناصر مرتباته ومخصصاته بدون ضرائب ،

ويمكنها قصرين شاسعين بالقاهرة والاسكندرية وما حولهما من الحدائق والمنتزهات ، مع السيارات والتليفونات ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

ووافق أنور المسادات على ذلك كأنه كان يمهّد لتصريف مماثل لأولاده من بعده ، وقد نال ذلك أيضا من مجلس الشعب الذي لم يكن في عهد عبد القادر أو المسادات يمثل رأي الشعب على الاطلاق .

نقاش حول القصور والحدائق :

وجاءت الأزمة الاقتصادية التي ترکزت أساسها في عهد عبد الناصر للأسباب التي ذكرناها ، واتجه الناس جميعاً للمساهمة في تسديد ديون مصر ، وفي محاولة الحصول على موارد تساعد على تخفيف هذه الأزمة ، وكان من ذلك ما كتبه الكتاب لتتنازل أسرنازعيم عن مئات الأندية بين القصررين الكبيرين بالعمور ، وهنا شحذ خالد عبد الناصر قلمه ليدافع عن هذه الأرض ، وذكر أنها ثراث الزعيم ، ومنها صدرت القرارات التي غيرت وجه الحياة في مصر والعالم العربي ويشتبهه — للأسف بالأهرام والقلعة .. يالله ..

وعلى الأستاذ وجيه أبو ذكرى في « الأخبار » يوم ١٥/٤/١٩٨٦ على هذا الرد ساخرًا بقوله : بودى أن أرى البيت الذى أصدر الزعيم فيه قرار دخول قواتنا إلى اليمن ، وقرار حرب يونيو ١٩٦٧ بدون استعداد ، وقرار الانسحاب من سيناء الذى ترك الأرض والرجال والآلات لإسرائيل .

والذى صدرت به قرارات التغريب والاضطهادات وزيارة الليل ؟

وأنبرى أحد كتاب صحيفه «الوفد» وهو المهندس محمد منير سسأل :

- اذا كان قصر المعمورة وملحقاته مثل الأهرام والقلعة ، فاخرجوا منه فهو ملك للشعب كالأهرام والقلعة .

- ٥٩٢ -

- وإذا كان قد صدرت منه قرارات لصالح الأمة العربية ، فلتسمم
الأمة العربية في شرائه ووقفه للتاريخ .

- ثم انبرى هذا الكاتب يخاطب ابن عبد الناصر فقال له :

وإذا كنتم عريصين على التراث والتاريخ :: لم تقوموا بشراء
شقة شارع الجالى حيث تزوج أبوك وأنجب وماذا لم تختفظ بالسرير
المهدى الأسود كتراث وذكرى للوالد العظيم ؟ لماذا التشفى والرياش
فقط لا غير .. وإذا كنت عائضاً للذكرى فاما مك حارة اليهود .. لماذا
لا تعودون الى حارة خميس عدس رقم ٣ بحارة اليهود حيث عاش
عبد الناصر شبابه .. عودوا الى حارة اليهود فهو الأصل والتاريخ الأول
الواجب الحفاظ عليه .. وليس قصر المعمورة الذى بنى من مال الشعب
المظلوم ، لماذا لا تدعوا الأسرة والأحباب لجمع خمسين مليون جنيه
مثلاً - وأنتم القادرون على دفع المليارات - لشراء قصر أو أهرام
المعمرة من الشعب المطحون ؟

وتراجعت الأستان أمام هذا الضغط الشعبي وتتنازلها عن قصرى
المعمرة ، ولكنها للأسف لم تتنازل عن قصور القاهرة وعن المربات
والخصصات ، ليستمر لها سيل الترف بينما مصر تتن من الديون
التي جلبتها الثورة فأاحت ظهر البلاد .

ماذا عن محاسن الثورة ؟

وإذا كانت مساوىء الثورة قد شملت كل شيء ، فاننا نسأل سؤالاً
مهمماً هو : أليس لهذه الثورة من محاسن ؟

إن المتسرعين يذكرون أن من محاسنها جلاء المستعمر الإنجليزي ،
والسد العالى وقانون الاصلاح الزراعي ، وانهاء الملكية الفاسدة ،
ومساعدة اليمن والكتفو ..

أما الاستعمار فقد انكمش من العالم كله واحتفى ، ولم يكن محتاجا إلى ثورة ليحلو ، وأما السد العالى فمشكلة شديدة التعقيد ، وبعض المهندسين الكبار عارضوه ، ولا يزالون يعارضونه ، وقد عرف النيل أنواعا من السدود على مر التاريخ ، وفي الجزء التاسع أوردنا دراسات مفصلة عنه ، واقتبسنا آراء كبار المهندسين ، وأما الملكية فكانت في عهدها الأخير فاسدة فعلا ، ولكننا قضينا على ملك ووضعنا في السلطة ملوكا كثيرين لا نزال نعاني من سلطتهم ، وأما مساعدة اليمن والكونغو بما يحتاجانه فسخريّة وجهل ، لأن تطعم محتاجا في الطريق وتترك أهله ولدك يتضورون من الجوع ، وقد أفلتت روسيا أبوابها وكانت تعيش خلف ما يسمى «الستار الحديدي» حتى بنت نفسها ، ولكن عبد الناصر كان متوجلا ي يريد أن يحكم العالم بسرعة ، فخر في الطريق وخرت معه مصر . وأما قانون الاصلاح الزراعي فقد فتحت الملكية ، ولم يكن فقط لهدف الاصلاح ، وإنما كان لضرب بعض الناس الذين اعتتقدت الثورة أنهم لا يؤيدونها *

وعلى كل حال فاننا نقر أنّه لا توجد محسن لدولة حَرَمتَ^٠
الإنسان من حقوقه ، ونكّلت به ، فالإنسان قمة ما خلق الله ، واضطهاده هو اضطهاد لكل القيم ، وقد نكل عبد الناصر بالجميع بما في ذلك من كانوا أقرب الناس إليه كمحمد نجيب وعبد الحكيم عامر وكمال الدين حسين ، فما بالك بالآخرين *

محاسن الثورة في رأي رجالها :

في ٢٩ / ٥ / ١٩٨٦ طالعتنا صحفة الأخبار بمقال للأستاذ موسى صبرى ، وهو ضليع في ولائه للثورة ، وفي هذا المقال يوجز الكاتب محسن الثورة ومساوئها ، ونحن ننقل كلماته عن ذلك فيما يلى :

عبد الناصر غير وجه التاريخ ، من ملكية فاسدة يحميها الاستعمار البريطاني ، إلى جمهورية تحكم باسم الشعب . قضى على الاقطاع *
(٣٨٢) — موسوعة التاريخ ج ٥

ملك المعدمين • انتصف لحقوق العمال • أعاد قناته السويس إلى المصريين •
الهُب بثورة مصر حركات التحرير وثورات الاستقلال في العالم الثالث •
هذه الأمجاد تقابلها أخطاء وخطايا أهدرت الحريات في ظل نظام حكمه •

هذا هو عبد الناصر في رأي أحد كتابه فلشنقاش هذا الرأى هنافشة سرية :
غير وجه التاريخ : كلام عام يقول به من لا يجد حقائق يرويها ،
ويتمكن أن يفهم أنه جعل وجه التاريخ قاتما •

ـ الملكية : كانت فعلاً فاسدة ولكن الملوك والأباطرة الذين جامعوا
بعد فاروق كانوا طغاة فاقوا فاروق في كل شيء ، وما كان فاروق بجوارهم
 شيئاً •

ـ وألا يتقى موسى صبرى ربئه عندما يقول : إن عبد الناصر حوصل
السلطة إلى جمهورية تحكم باسم الشعب !! وكيف سمى الديكتاتورية
ال fasde حكما باسم الشعب ؟ حسابه على الله •

ـ تقى على الإقطاع : لم يكن عندنا إقطاع ولكن ملكيات كبيرة ،
والفرق عظيم بين الإقطاع والملكيات الكبيرة وبالقضاء على الملكيات الكبيرة
أمسيحنا نشتري رغيف الخبز من أعدائنا ، وافتتحت أرضنا الزراعية التي
ورثناها من عهد الفراعنة •

ـ ملك المعدمين : المعدمون في زيادة فقرًا وعدها •

ـ العمال : صرخة تدوى بمصر الآن لتحسين الانتاج والجد في
العمل •

ـ إعادة قنادة السويس : في الحق أنه بهزائمه أضاع قنادة السويس
فقتل من سنة ١٩٦٧ إلى سنة ١٩٧٥ •

ـ حركات التحرير في العالم الثالث : تقابلها حركات الاستبعاد في
مصر ، وكيف يهتم بالعالم الثالث ويهمل بلاده ؟

ـ أما جملة موسى صبرى الأخيرة « أخطاء وخطايا أهدرت الحريات
في ظل نظام حكمه » هذه الجملة صادقة ، وهي تتبع كل محاسن إن كانت
هناك محاسن •

عهد محمد حسني مبارك

(من ١٣ أكتوبر ١٩٨١)

خصصنا جزءاً من موسوعة التاريخ للحديث عن عصر عبد الناصر هو الجزء القاسع ، وخصصنا الجزء العاشر للحديث عن عصر أنور الساداتى ، فقد كان كل منهما من صناع ثورة ٢٣ يوليو ، وبانتهاء عصر أنور الساداتى نحسّ بـأن مصر عادت رويداً رويداً إلى الحياة الطبيعية ، وأن ظلام هذه الثورة قد زال ، وإن كانت آثار هذا الظلام لا تزال باقية كما ذكرنا من قبل ، وكما سنذكر فيما بعد .

ومن أجل هذا لا نخصص جزءاً من الموسوعة للحديث عن حسني مبارك أو من يخلفه ، بل نعود لنرصد تاريخ مصر ، بعد أن زال هؤلاء الذين كانوا لا يمثلون مصر تمثيلاً حقيقياً ، وبخاصة عبد الناصر الذي كان بحق عدواً ظاهر العداوة لمصر وتراث مصر .

وقد كان أنور الساداتى قد تخلص نهائياً من بقایا أعضاء مجلس قيادة الثورة ، عقب حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، وكان حسين الشافعى عزراً هذه الحرب لا يزال نائباً لرئيس الجمهورية ، وكان سعادته قانعاً باللقب وأمیازاته الأدبية والمالدية في حدود مكتبه الفاخر وسيارته الأنيقة ، ولم يكن له أى نفوذ في الداخل أو الخارج .

وبعد حرب أكتوبر أنهى أنور الساداتى مهمة حسين الشافعى وعين محمد حسني مبارك نائباً لرئيس الجمهورية ، وقال إن هذا الرجل يمثل جيل أكتوبر .

ولم يكن لنائب الرئيس نفوذ يذكر طيلة عهد الساداتى اللهم إلا رسائل وافكاراً يحملها من وإلى الساداتى .

وكان حسني مبارك يجلس بجوار الساداتى على المنصة ، وشاهد حسنى مبارك عن قرب مصرع السادات وهو وسط جيشه وفي كامل أبيهته ، واعتقادى أن هذا المشهد لن ينساه حسنى مبارك لأنه هز كل من شاهده هزاً عيناً ، فلم يكن الفرق بين الموت والحياة الا شعره بسيطة .

وعلى كل حال فقد حفظ الله حسنى مبارك ، وبعد أسبوع جرى استفتاء اختيار بمقتضاه حسنى مبارك رئيسا للجمهورية .

منجزات في عهد حسنى مبارك :

لقد مضى على عهد حسنى مبارك حوالي خمس سنوات حتى الآن ، وأبرز أحداث هذه الفترة هي :

— اكتمل في عهده الانسحاب الإسرائيلي من سيناء في أبريل سنة ١٩٨٢ .

— ألغى قرار الاعتقال الذي كان الساداتى قد أصدره ضد رجالات من زعماء مصر ، وخرج الزعماء من المعتقلات إليه حيث استقبلهم وحادthem وأستمع منهم .

— عادت مصر تواصل نشاطها في المؤتمر الإسلامي ، وكانت عضويتها به مجمدة ، وما يذكر ان الرئيس الراحل المرحوم سيكوتوري رئيس جمهورية غينيا والرئيس الباكستانى محمد ضياء الحق كان لهما دور كبير في استعادة مصر لకانتها .

ومن الحق أن نقر أن مواقف متعددة وقفها حسنى مبارك من قضایا افريقية والعرب والعالم رجحت كفته ولفتت الأنظار إليه ، وقربت بينه وبين من كانوا يقفون من مصر ومن الساداتى مواقف العداء .

— حدث في عهد حسنى مبارك تقارب ملموس بين مصر والعرب .

وقد كان المسادات يساعد العراق في حربها ضد ايران ، وواصل حسني مبارك ذلك بكثير من الاهتمام ، كما كانت له موقف قوية ضد اتجاهات اسرائيل العدوانية على الفلسطينيين وعلى لبنان ، وكل هذا قارب بين مصر والعرب .

- وقف حسني مبارك وقفه طيبة للسماح للأحزاب المعارضة بالظهور ، فسمح لحزب الوفد باستئناف نشاطه ، وأيد الغاء القرار الذي كان يقضى بحرمان رئيسه محمد فؤاد سراج الدين من الحقوق السياسية .

- ظهر في عهده مزيد من الحريات الصحفية للمعارضة .

- بدأت بعض الاصلاحات الداخلية تظهر للناس مما أحيا الأمل في حياة أفضل .

آمال يتطلع الشعب لها :

ولكننا نريد أن نقول كلمة للحق والتاريخ ، لقد كانت سياسة عبد الناصر سياسة جور وانغلاق وسرقات أتاحت الفرصة لكثير من الاتباع أن يحصلوا على الثراء بوجه غير مشروع ، ولكنهم أخفوه وتظاهروا بالفقر .

وجاء انور المسادات كما قلنا من قبل فابتكر سياسة الافتتاح ، وكانت هذه فرصة للصوص المafى أن يظهروا ثراءهم ويعملوا على تنميته بصور خارقة جعلت السـفنـى مرکـزاً في أيـدـىـ قـلـيلـةـ ، وأضـيفـ لـهـؤـلـاءـ لـصـوصـ العـهـدـ الجـديـدـ .

ماذا فعل حسني مبارك إزاء ذلك ؟ وما هي سياسته في هذا المجال ؟

لم يتضح موقفه بعد من هؤلاء اللصوص الذين لم يسألواقط : من أين لك هذا ؟

و دستور السادات لا يزال معمولا به ، وهو الذي يتبع لرئيس الجمهورية أن تتجدد رئاسته عددا غير محدود أى أن يبقى مدى الحياة ، فهو نظام ملكي مفتوح ، أو هو في نظر التاريخ أسوأ من النظام الملكي لأن الأسر المالكة العربية تحرص على مكانتها من الشعب و تعمل لخده ، و تقت أمم أى عضو منها ينحرف عن الغاية أما النظام البشيري بهذا الوضع فقد جمع أسوأ ما في النظم السياسية .

واختفاء" للأيدي العاملة في جميع الحرف والصناعات تماما ، مع رحام في الإدارات وأمام مكاتب القوى العاملة .

ودفع" للمواهب للعمل بالخارج استمرا لعبودية الدولار مع توقف النشاط بالداخل في مجالات متعددة .

وتوك" لقرارات طائفة أصدرها عبد الناصر ولم يفكر خلفاؤه في مراجعتها ، وقد أشرنا لها من قبل كايغارات الأرض الزراعية وايجارات المساكن حتى أصبح ايجار الفدان أقل من ثمن أرنب من القمح مع أنه ينتج في العام الواحد عشرة أرانب من القمح وعشرة من الذرة ، وعدم امكان أخذ الأرض من زارعها حتى اذا كان المالك فلاحا يريد أن يزرعها بنفسه .

وأما ايجار المساكن فقضية لا نظير لها في العالم ، ففي الزمالك وجاردن سيتي والمعادى شقق فخمة ايجارها بعد التخفيضات الناصرية ستة جنيهات أى ثمن بطيحة كثيرا ما تكون رديئة ، ويسكن بهذه الشقق أصحاب الملايين ، فكان النظام يرعى الأثنياء على حساب الفقراء ، وكان هذا سببا مهما من أسباب أزمة الاسكان فمستأجر هذه الشقة لا يتركها وان ملك العمارت والفيلات ، ويدفع ايجارها الزهيد ويعينها مقلة للظروف أو للترف ، وقد تحدثت عن هذا الموضوع فيما سبق ، ولكن آثرت التكرار لعل هناك من يستفيد بالتكرار ، حتى نرفع ظلما طال السكوت عليه ، وأنا في ذلك أتبع المنهج القرآني ، ففي القرآن الكريم تكرار لبعض

الآيات أو بعض الأفكار ، ونقول في تفسير ذلك أن الله سبحانه وتعالى يكرر لعل من فاته الانتفاع بأية أن تقابلها مرة أخرى فينتفع بها (١) .

وأنسياه أخرى كثيرة يتبين أن تمتد لها يد حسن مبارك والا شارك في المسئولية الخطيرة التي تهز البلاد والعباد .

قرارات ضرورية مرجوة :

ومن نبض الجماهير ، وما تذيعه الصحافة الحرة يتضح أن هناك قرارات لا تحتمل التأخير ، وينبغي اصدارها سريعا ، وفي قمتها :

١ - تعديل الدستور ، ولن أخوض هنا في عرض هذا الدستور ، وعرض ما ينبغي تعديله أو حذفه منه ، وأكتفى بالإشارة بضرورة تعديل المادة (٧٨) والمادة (١٣٩) بحيث يكون انتخاب رئيس الجمهورية ونائبه بالترشيح المطلق والانتخاب الشعبي المباشر ، وأن يكون ذلك لمدة لا تتجاوز أربع سنوات يمكن تكرارها مرة واحدة فالرئيس عندما يطول بقاؤه في الحكم ينسى الشعب تماما وينسى مشكلة أراد أو لم يريد .

والمادة (٣٢) بحظر إنشاء الرتب ، نريد لها واقعا لا خيالا ، فلقب الباشا لم يتوقف أبدا عن الذين وضعوا هذا النص ، ولو خاطبهم أى واحد بدون اللقب كان عليه أن يتحمل نتيجة سوء أدبه ، وتقسيم المجتمع المصرى إلى عمال وفلاحين وفلاحات أسطورة يجب القضاء عليها (المادة ٢٦) .

والمادة (٨١) التي تمنع رئيس الدولة من الكسب عن طريق الشبهات والبيع والشراء والإيجار مع الدولة يجب أن تشمل أسرته أيضا حتى الدرجة الرابعة مثلا .

(١) انظر « المكتبة الإسلامية لكل الأعمار » للمؤلف ح ٢٥ .

٢ - الغاء مخصصات أسرتي عبد الناصر والسداد والتبنيه الى عدم تكرار هذه المهزلة .

٣ - استرداد مجوهرات أسرة محمد على وقصور هذه الأسرة والانتفاع بها لصالح الشعب .

٤ - تصحيح كثير من القرارات الطائشة التي أصدرها الديكتاتور وبخاصة ما يرتبط منها بالعلاقة بين المالك المستأجر الذي تكلمنا عنه آنفاً احتراماً لحق الملكية الذي كفلته الأديان وكفله الدستور .

٥ - تعويض أدبي على الأقل للذين وقع عليهم الضيم في عهد عبد الناصر بدون أسباب حقيقة .

٦ - الحرية الحقيقة لقيام الأحزاب وللانتخابات ، والغاء الانتخابات بالقائمة .

٧ - مشكلة التعليم في مصر :

مشكلة التعليم في مصر مشكلة خطيرة ، ومن الخجل أن توجد هذه المشكلة في مصر التي تحاول أن ترعى التعليم في بلاد المنطقة كلها ، فهى كالمبصر الذى يدل الناس على الطريق ، ولكنكه يسير فيه مسيرة العميان .

إنها مشكلة من بقايا عبد الناصر ، ويبدو أن المسؤولين ينظرون إلى قرارات عبد الناصر على أنها مقدمة لا يجوز تعديها أو الغائها ، وقد حكمنا الرجل بأقصى ما يعرف من جهل وجور ، وعندما اختفى ترك قوانينه حيئه تُوقع بنا ما أوقعه في حياته .

تعال بنا ندرس معاً مشكلة التعليم وما بها من متناقضات ومفارقات :

- يقولون ان التعليم بالمجان ، وهناك اجماع على أن هذه

- ٦٠١ -

المقوله أكذوبة أو أسطورة ، فقد أوشك التعليم أن يختفى من المدارس ،
وحلقت الدروس الخصوصية بالبيوت محل التعليم بالمدارس ، وهذه
الدروس تكلف أضعاف ما كان يتتكلفه أولياء الأمور عندما كان التعليم
بمصروفات !

- يدفع الكثيرون من الأسر آلاف الجنيهات لأطفالهم ليتحقروا
بمدارس الحضانة ، أما الطالب بكلية الطب والهندسة فلا يدفع شيئا !!

- بعض الحاصلين على الثانوية العامة لا يحصلون على درجات
تؤهلهم للالتحاق بالجامعات بمصر ، أو لا يحصلون على درجات تؤهلهم
للالتحاق بالكليات التي يريدونها ، وهنا يلعب المال دوره ، فيتحقق بعضهم
بجامعة القاهرة فرع الخرطوم ، أو جامعة الاسكندرية فرع
بيروت ، أو جامعة في بلغاريا أو العراق أو الباكتستان ، ويتكلف هذا
الوضع آلاف الجنيهات وصورا من العناء ، والاحتراف ، فإذا قلنا :
افتتحوا في مصر جامعة أهلية بمصروفات ، مثمن ذلك ، وهو منطق غير
مفهوم ، أن تفتتح مصر "جامعة" بمصروفات خلف الحدود ولا تفتحها
داخل البلاد .

- والتعليم مجانا كما ذكرنا ، وهناك مئات الطلاب يذهبون
للجامعة بسيارات فخمة ، ويعيشون في بذخ ظاهر ، ولا أحد يدرك لماذا
نعطي من لا يستحق أخذ العطاء .

- وقد فتحت الجامعات بسعة ، ففقد لها كثيرون جداً من
لا تؤهلهم مواهبهم للحياة الجامعية ، ونقابل طلابا في الجامعة كان أحدر
بهم أن يتوجهوا للصناعة أو الزراعة فذلك أجدى لهم وللوطن . ويتخرج
من الجامعات كل عام أفواج وأفواج ، ولا يجدون عملاً عدة سنوات ،
حتى تمن عليهم القوى العاملة بوظيفة يأخذون عن طريقها مرتبًا دون أن

- ٦٠٢ -

يؤدوا عملا ، وينتقل هؤلاء من طابور العاطلين تماما الى طابور الموظفين
اسما ، العاطلين حقيقة ٠

ومرتب خريج الجامعةأربعون جنيها ، ومرتب خادمة من الفلبين
مائتا دولار ! !

- وإذا كان هناك عاطلون من هذا النوع ، وكذلك من خريجي
المدارس المتوسطة ، فهناك نقص كبير جدا في الأيدي العاملة في الزراعة
أو الصناعة أو الحرف ٠٠٠٠ وهي معاذلة عجيبة لا توجد في غير مصر ،
وقد أوشكت المزارع ألا تجد من يعمل بها ، وأحسنت الأعمال الحرة بنقص
كبير في كثير من مستويات العمل بها ، لأن كل انسان يتمنى الوظيفة ولا
يفكر في العمل ، وذلك هو جيل الثورة الملعينة ، فطالما كان عبد الناصر
يقول : ان الحرية أن نهيء لكم رغيف الخبز ، وأن نعيث أبناءكم في
الوظائف ٠

- في مصر اثنتا عشرة جامعة ، وكليات تنتشر في أكثر المدن ،
بالإضافة إلى جامعة الأزهر وكلياته ومعاهده ، وبالإضافة إلى عدد هائل
من المدارس بمختلف درجاتها وتخصصاتها ٠٠٠٠٠٠ ومع هذا فالأهمية
تريد من عام إلى عام ، حتى أصبحت مصر في الواقع بالنسبة لازدياد
الأمية ، وهو شيء يدعو للخجل والمحنة ٠

اقتراحات :

ان نظم التعليم واضحة وموجودة في أرقى دول العالم ، ويتحقق
أن نعيد النظر في أسلوب التعليم في مصر ، وفيما سمي مجانيه التعليم ،
وذلك حرصا على التعليم وعلى مستقبل البلاد بوجه عام ، وخلاصة هذه
النظم هي :

- التعليم الابتدائي يكون بالمجان ويكون شاملًا لكل الأطفال حتى

- ٦٠٣ -

نقضى على أهمية الجيل القادم اذا كنا عجزنا عن القضاء على أهمية جيل الثورة .

- بعد الابتدائى تتجه غالبية الأولاد الى الاعمال والحرف في كل الحالات ويتاح للأولاد المتفوقين أن يدخلوا المرحلة التعليمية التالية التي تكون بمصروفات الا للنابهين الفقراء .

- الفقراء النابهون يتعلمون بالمجان في كل مراحل التعليم ، وينبغى أن تصرف لهم بالإضافة للمجانية معونات كافية تساعدهم على مواصلة التعليم .

- يختار لكليات الجامعات اعداد من الطلاب تتناسب مع حاجة الدولة مع زيادة قليلة لاحتمال طلبات اعارة للخارج ، لنستطيع بذلك أن نقضى على طابور الحاصلين على شهادات جامعية ، ويقفون تحت رحمةقوى العاملة .

- وأخيراً فلا بد من تحسين حالة المعلم حتى لا يلجم الدروس الخصوصية التي خربت الذمم في كثير من الحالات .

- وتوجد مدارس ثانوية حرة (أهلية) وجامعة أهلية لن أرادوا أن يتعلموا من لم تسمح لهم مواهبهم بالالتحاق بالمدارس والجامعات ، وتكون هذه بمصروفات تغطي كل التكاليف دون استثناء .

والعجب أن الذين يدافعون عن مجانية التعليم يستدلون إلى ورود ذلك في الدستور ، لأن الدستور كائن مقدس ، وكم بالدستور من أخطاء وانحرافات .

أحداث خطيرة في عهد

حسني مبارك

تحدثنا آننا بإجمال عن عهد حسني مبارك ، ولكن هنالك بعض القضايا التي رصدها التاريخ خلال هذا العهد تحتاج إلى مزيد من التفاصيل ، وهذه القضايا هي :

- ١ - سفينة وطائرة *
- ٢ - طائرة مصرية وفتح ليبى *
- ٣ - أحداث الأمن المركزي *
- ٤ - الأزمة الاقتصادية *
- ٥ - الأحزاب السياسية بعد عبد الناصر *

وستتدارس هذه الأحداث فيما يلى :

١ - سفينة وطائرة :

هناك حادثان متشابهان حدثا في نهاية سنة ١٩٨٥ ، ووجه التشابه أن كلا منهما يتصل بطاولة مدنية من طائرات « مصر للطيران » .

طائرة مصرية وقرصنة أمريكية :

والحادث الأول ارتبط بسفينة إيطالية - اسمها « أكيلي لاورو » وكانت تحمل مئات الأشخاص سيطر عليها وهي في عرض البحر الأبيض بعض « الإرهابيين » ووجهوها إلى سوريا ولكن سوريا رفضت قبولها ، ودفعت الشهامة مصر إلى التدخل ، وحدث اتصال بين مصر وبين المختطفين ، فطلب هؤلاء زعيمها اسمه « أبو العباس » فقد كانوا يعملون بارشاده ، وجاء أبو العباس واستسلم المختطفون ، ونجت السفينة ،

ثم ظهر أن أمريكا عجوزاً كان بها وأنه قد قُتِلَ ، واتهم المختطفون بقتله ،
إذ اعتقدوا أنه لم يكن هناك من يقدِّم على هذا العمل غيرهم .

ورأت مصر أن تقدم هؤلاء المختطفين إلى منظمة التحرير بتونس
لحاكمتهم ومعهم زعيمهم أبو العباس ، ووضعت في طائرة مصرية طارت
بهم تجاه تونس ، ولكن تونس التي كانت قبل ذلك أيام تعرضت لعدوان
إسرائيلي سافر ، رفضت استقبال الطائرة بعد أن كانت قد وافقت على
ذلك من قبل .

وأخذت الطائرة طريق عودتها للقاهرة ، ولكن مجموعة من الطائرات
ال العربية الأمريكية اعترضت طريق الطائرة المصرية وأمرتها بالهبوط في
قاعدة عسكرية بصفلية ، وكان الاعتراض خشناً ومثيراً مما أغضب المصريين
جميعاً ، وتعرضت العلاقة بين مصر وأمريكا إلى أزمة قاسية .

والعجب أن الزعيم « أبو العباس » أفضى بعد ذلك بحديث قال
فيه أنه نجح في تحقيق المهدف الذي أراده ، وهو إساءة العلاقات بين
مصر وأمريكا ، وكأنه كان يرى أنه خدعاً بهذا التصرف .

٢ - طائرة مصرية وفجّ ليبى :

ومرت أيام ليست كثيرة وجاء الحادث الثاني ، وللتقديم للحديث
عن الحادث الثاني نذكر أن بعض الليبيين المعادين للنظام الليبي يعيشون
في مصر ، وهم للأسف يزاولون بعض الأنشطة ضد هذا النظام ، وقد
أوفد إلى مصر بعض عمالء النظام الليبي ليفتكونا بهؤلاء المنشقين في
أثناء اجتماع كانوا قد دبروا له في الإسكندرية .

وقد أفضى واحد من هؤلاء سرّه هؤلاء العمالء ، فأتاح الفرصة لرجال
المخابرات المصريين ليتبعوا هؤلاء العمالء ويقبضوا عليهم .

وثار النظام الليبي وبدأ يدبِّر أمراً ضد مصر ، ويبدو أنه رصد

— ٦٠٦ —

لذلك مبالغة ضخمة ، وفي اعتقادى أن مصر شملت بالقبض على هؤلاء العملاء ، ونسى المسؤولون أن يأخذوا الاحتياطات اللازمة التى تحميمهم من ثأر الزعماء الليبيين ، فكان ذلك أساساً لنكبة الطائرة المصرية الثانية تلك النكبة التى حدثت في الأيام الأخيرة من شهر نوفمبر .

الثار الليبي يفتک بالأبریاء :

كانت طائرة ركاب مصرية (للأسف هي نفسها الطائرة السابقة المشوومة) قادمة من أثينا للقاهرة ، وبعد دقائق من طيرانها ظهر بها خمسة من الإرهابيين أعلنوا سيطرتهم على الطائرة ، وبلغة أخرى اختطفوها ، وأرغموا قائدها على الهبوط بها في مطار « لوفتا » بماليطا وارتبط الشك بليبيا ، لأن المختطفين طلبوا مقابلة السفير الليبي بماليطا ، وحضر لهم السفير ، ولكنه سرعان ما انسحب وغادر البلاد فوراً إلى طرابلس .

وتتابعت عقب ذلك الأحداث الأليمية ، غالطائرة كان بها حوالي تسعين راكباً من جنسيات مختلفة ، وكان بها أربعة حراس مصربيين ، ولما ظهر المختطفون أطلق الحراس نيرانه على واحد منهم فأرداه قتيلاً ، وتعرض عقب ذلك لنيران المختطفين الآخرين الذين جعلوه هدفاً للتعذيب ، فكانوا يطلقون نيرانهم على أماكن من جسمه غير قاتلة أزيد من تعذيبه ، وقتلت وسائل الإعلام المصرية أنهم أخذوا يهددون بقتل راكب كل ساعة ، بل بدعوا يقتلون فعلاً ، بل اتجهوا لجعل المدة ربع ساعة .

لم تكن للمختطفين مطالب إلا أن يُنْزَّلُوا بالوقود ليواصلوا رحلتهم ، ولكن الطائرة كان قد حدث بها عطب نتيجة النيران ، ثم انه لم تكن هناك «وجهة معينة لهم اذ رفضتهم كل الدول التي ذكروا انهم سيسيرون اليها .

وتأنمت الأمور ، فرأى مصر أن تهاجم الطائرة بواسطة رجال الصاعقة ، وتم ذلك فعلاً ، ولكن النتيجة كانت مريرة جداً ، فما ان دخل رجال الصاعقة من باب البضاعة أسفل الطائرة ووجهوا نيرانهم للمختطفين

حتى ألقى المختطفون بمقابل حارقة (فسقورية) في مقدمة الطائرة ومؤخرتها ، وأصبح الموت جماعيا بالنار والدخان والرصاص ، فمات ستون راكبا وقتيل الإرهابيون إلا واحدا منهم ، وربما جاز القول أنه لم ينج أحد من هذا الجحيم ، أما ما يقال عن نجاة ثلاثة أو أربعين من الركاب ، فأغلبهم من الذين أطلق المختطفون سراحهم أول الأمر من النساء ، يضاف لهم بعض الجرحى والذين عشر عليهم بين الموت والحياة ، فضلاً عن المستشفيات .

وتعليقنا على هذا الحادث من عدة وجوه :

أولاً : كان على مصر - بعد أن أزدادت حدة الخلاف بينها وبين ليبيا - أن تبذل جهداً كبيراً في حراسة طائراتها ، وقد يكون من ذلك أن يوجد بداخل هذه الطائرات احتياطات كتلك التي تستعمل في المطارات للتأكد من عدم وجود أسلحة مع الركاب ، وألا تكتفى بالاحتياطات في المطارات المختلفة .

وأذكر بهذه المناسبة أنني كنت مدعواً لحضور حفل افتتاح مؤتمر المسيرة والسنة بقاعة الامام محمد عبده قبل هذا الحادث بحوالي أسبوعين وعند دخال القاعة شرحت أنا وساي لأجهزة التعرف على الأسلحة ، وتعرفت هذه الأجهزة على مفاتيح السيارات التي كان يحملها الدعوون .

ليت المسؤولين اهتموا بالطائرات على هذا النحو .

ثانياً : إن مطار أثينا بالذات تربط به بعض الشبهات ، فمنذ فترة ليست طويلة خطفت طائرة أمريكية بواسطة ركاب صعدوا لها من مطار أثينا ، وعلى هذا فقد كان على المسؤولين المصريين أن يوجهوا عناية أكبر لهذا المطار .

والذي نصبه أن خيانة حدثت ، فلا يمكن أن تشرب للطائرة كل هذه الأسلحة دون أن تترجم عليها الأجهزة المستعملة بالمطارات ، ويتمثل

ان الملايين قد قدّمت رشوة لتسهيل دخول الارهابيين وأسلحتهم ، وأنهم دخلوا بطريق غير عادٍ .

ثالثاً : كان رئيس وزراء مالطة في مستوى المسؤولية ، فقد انتقل للمطار وبات به مع بعض الوزراء المختصين ، وكان ذلك مع شدة البرد ، وهذا يدفعنا للعجب أن نذكر أنه في نفس هذا الوقت حيث الشدّة قد بلغت قمنها ، كان الرئيس حسني مبارك يزور بعض القرى بالقلويية ، وأُعدت له استقبالات حافلة ، ارتفعت فيها الزغاريد وكثُرت الهتافات ، ورقشت الخيول التي كان يركبها رجال الحزب الوطني ، ووضعوا على صدورها شارات الحزب .

ولم ينس التليفزيون المصري أن يذيع هذه الاستقبالات مما جعلنا نرى في وقت واحد طائرة مخطوفة ، رابضة في أئن وقلق ، عليها ركاب مصريون أو ضيوف على مصر ، يعانون القتل والتعذيب والتهديد ، ورئيس وزراء مالطة يشارك في الأسى بنفسه وجهده .

وبجانب ذلك أذاع التليفزيون المصري أخبار زيارة الرئيس المقرى وما أُعدَ لهـذه الزيارة من هتافات وتصفيق وخيوـل راقصة ، وتجـمعات يملـأ المرح قلوب أصحابها .

وكأنما أحسن المسؤولون بعد فوات الأوان استتكار الناس لهذا الوضع فأوزعوا لأحدى الصحفيات أن تسأل الرئيس في المؤتمر الصحفي الذي عقده يوم الثلاثاء ٢٧/١١/١٩٨٦ سؤالاً نورده هو واجبته فيما يلي :

يسأل الرأي العام عن قيام سيادتكم بجولة إلى قرى الدقهلية في وقت اختطاف الطائرة فـما هو تعليـقـكم على ذلك ؟

قال الرئيس .. من غير المعقول انه من أجل طائرة مختطفة تقف البلد بأكملها ، هذه دولة لها مؤسسات تعمل وتخطط وكان كل شيء تحت

- ٦٥٩ -

السيطرة ، وفي كل خطوة أخطوها كان بيني وبين المسؤولين اتصال لمعرفة آخر التطورات وكانت أعطى التعليمات من آن لآخر .

وليس هناك من يقول إن البلدة يجب أن تتفق بأكملها ، أى ليس هناك من يرى أن تقبل المستشفيات والمدارس والمتاجر . . . ولكن تأجيل الزيارة لهذا الحادث كان ممكنا ، وذلك لا يوقف مسيرة البلاد .

وفي اعتقادى أن الرأى العام قد يسمح بالزيارة تنفيذاً لتخطيط واستعداد سابق ، ولكن في صمت يناسب حالة الحداد والجد التي كان ينبغي أن تسود البلاد .

وفي صحيفة الأخبار الصادرة يوم الاثنين ١١/٢٥ رأى القارئ صورتين متجلوريتين ؛ إحداهما للظاهرة المنكوبة والدخان ينبع منها ، والثانية للجماهير التي حشدت لتعتلى وترقصن وتتهفف .

ومن هذه المفارقة المريرة كتب الأستاذ أحمد أبو الفتح في صحفة ١١ / ٨٥ يقول :

* * * وسط الهم والقلق على حياة الركاب والحزن على من قتلوا سمعت الزغاريد ففزعت وصرخت وتصورت أن أصواتها آتية من بعض الجيران

* * * وكانت الفجيعة الكبرى عندما اكتشفت أن الزغاريد آتية من التليفزيون

* * * الزغاريد يذيعها التليفزيون في الوقت الذي أعلنت فيه صحف

- ٦١٥ -

الصباح الحكومية أن الخاطفين للطائرة قد قتلوا سبعة من الركاب !
وهددوا الباقين .

* * هل انعدم الاحساس الى هذه الدرجة ؟

ونواصل تعليقاتنا على هذا الحادث فنقول :

رابعا : هل كان إنتهاء هذه الحالة بواسطة رجال الصاعقة هو الحل
الوحيد لمواجهة الأزمة ؟

وهل طريقة الاقتحام التي حدثت كانت الطريقة الوحيدة ؟ ومن
المعروف أن الكوماندوز المصريين الذين اقتحموا الطائرة في مالطة ينتهيون
إلى فضيلة لكافحة الإرهاب تلقت تدريبات مختلفة في الولايات المتحدة وألمانيا
الغربيتين وان قنابل الشلل والغاز المسيل للدموع والعصى الكهربائية والأسلحة
الأوتوماتيكية الخفيفة هي الأسلحة النموذجية لهذه اللورة الخاصة .

أم يكن من الممكن استخدام هذه الأسلحة النموذجية حتى يحال دون
الحظ في إنقاذ الركاب .

وهل غفل رجال الصاعقة والمسؤولون عن احتمال وجود قنابل
فسقوروية مع الإرهابيين ؟

وقد أكد تقرير الطبيب الشرعي في مالطة عقب تشريح أكثر من نصفه
حيث ثمنهايا حادث طائرة الركاب المصرية أن جميع الضحايا تقريبا قد لقوا
مصرعهم بسبب الاختناق والحرق نتيجة التبران التي استعملت في الطائرة
بعد أن فجر الإرهابيون ثلاث قنابل دخلها لحظة اقتحامها بواسطة قوات
الصاعقة المصرية .

- ٦٦ -

وأكَدَت المصادر الطينية التي اشتَرِكت في عملية تُشْريع جثث الضحايا
أن ثلاثة أشخاص قد ثبَّت أنهم قُتلوا بالرصاص .

والمأمول أن عملية الاقتحام قد تخفيف في المستقبل من يحاول أن
يقدم على مثل هذه الجريمة لأنه سيرى فيها حتفه .

والذى يتَابِع أقوال قائد الطائرة البطل يدرك أنه فتح المجال عدَة
مرات لاقتحام الطائرة بطريقَةً أيسِر ، ولكن أحداً لم يستفِد بمحاولاتِه ،
فقد فتحَ باب الطائرة للطعام وللمضيِفَة الشهيدة التي خرجت وعادت ،
وكان يرجو أن يدخل رجال الصاعقة في ثوب عَمَال طعام أو ممرضين .

خامساً : إن الذي يكتب عن هذا الموضوع لا يمكن أن ينسى بطلين
عظيمين من أبطال مصر ، هما قائد الطائرة الكابتن هانى جلال وكبيرة
المضيِفات الشهيدة شادية سلامه ، فبين الدماء والدموع التي كانت تغمر
الطائرة أراد الإرهابيون أن يرسلوا رسالة إلى المسؤولين في المطار ، وطلبوا
من قائد الطائرة أن يختار لهم من يحمل هذه الرسالة ، ووقع الاختيار على
كبيرة المضيِفات « شادية سلامه » ، ويقول رئيس ثورة مصر للطيران :

بمجرد هبوط الطائرة على أرض المطار في مالحة .. طلب الإرهابيون
تكليف أحدى المضيِفات لإبلاغ رسالة للمؤولين بالمطار .. فاختار الكابتن
هانى جلال رئيسة المضيِفات للقيام بهذه المهمة .. وعندما حذرها المخطفون
من عدم العودة إلى الطائرة وأبلغوها أنهم سيقومون بنسف الطائرة
بركابها وكل من فيهَا إذا هي رفضت العودة مرة أخرى .. أعطاها قائد
الطائرة إشارة فهمت منها أنه يطلب منها عدم العودة والنجاة بِنَفْسِهَا ..
ورغم تكرار نفس الطلب بعدم العودة للطائرة من المسؤولين بالمطار لرئيسة

- ٦٦٢ -

المضيقات . . فانها أصرت على العودة مرة أخرى للطائرة بعد ابلاغ الرسالة .
وانتهزت هذه الفرصة لاعطاء صورة مفصلة لكل ما تجري على الطائرة
وعدد المختطفين والقتلى وأماكن تمركز الإرهابيين في مقدمة ومؤخرة ووسط
الطائرة . . وقد استشهدت شادية أثناء عملية الاقتحام واختفت من
الدخان . . .

واحتاج الإرهابيون الى ارسال رسالة أخرى ، واختاروا هذه المرة
قائد الطائرة لحملها ، وذلك بعد أن أطمأنوا الى شخصيات طاقم الطائرة
الذين لا يعرفون الأثنانية ، وانما يعملون لأداء الواجب على أعلى مستوى ،
وخرج قائد الطائرة وبلغ الرسالة وعاد يحمل روحه على كفه .

تحية اجلال لهانى ، وداعاً للشهيدة شادية .



الكابتن هانى جلا



شادية سلامة المصيحة الشهيدة

- ٦٤ -

٣ - أحداث الأمن المركزي :

الأمن المركزي أو شبع الذعر والتدمير والمدوان ؟

كان الأمن المركزي حامياً للسلطة ولكنه انقلب عليها ، وأصبح ناراً تكتوئي به هذه السلطة .

كنا نراه هول الجامدة وفي الأزقة والمناطقات كأن الدولة تخفيه عن الأنظار لإحساسها أنه ممقوت من المثقفين والجماهير على السواء .

وفي ليلة ظلماء هب هذا الأمن المركزي يضرب مصر ، مما يدل على أنه غير جدير بالثقة التي حملها ، وقد أعلن رئيس الجمهورية بياناً بذلك جاء فيه :

« في ساعة مبكرة من مساء أمس الثلاثاء ٢٥ فبراير سنة ١٩٨٦ سرت شائعات مغرضة لا أساس لها من الصحة في أوساط المجندين بمعسكر قوات أمن الجيزة بأول طريق مصر اسكندرية الصحراوى مفادها انه تقرر مدة فترة التجنيد للأفراد المحققين بقوات الشرطة لمدة عام ٠٠ وقد استغلت بعض العناصر الخربة تلك الشائعات الكاذبة لترويج زملائها الجنود في المعسكر وأثاروا مشاعرهم مما أدى إلى خروج مجموعات كبيرة منهم إلى الطريق العام تورطت في ارتكاب كثير من أعمال العنف والتدمير اسفرت عن اتلاف عدد كبير من السيارات وأشعلت النار في الفنادق والنشأت السياحية الواقعة بالقرب من المعسكر المذكور .

« وقد أدى هذا التصاعد والشائعات التي صاحبتة الى امتداد الشغب الى بعض معسكرات الأمن في الواقع المجاورة فانطلقت مجموعات منها مسلحة بالأسلحة النارية والعصى التي كانت في حوزتها أثناء عودتها من موقع خدمتها وانعمست في عمليات التخريب والاتلاف ضد المحال العامة

- ٦٦٥ -

والمنشآت السياحية ووسائل النقل وقتلت وأصابت بعض حراس الأمن
في هذه المؤسسات .

« وفي الساعات الأولى من صباح اليوم شهدت بعض معسكرات الأمن
بمحافظات القاهرة والجيزة والقليوبية وأسيوط وسوهاج والاسمهاعية
أحداثاً تخريبية مماثلة تجمت عنها أضرار بالغة شملت ثلاثة فنادق
سياحية كبرى وتمطيم عدد كبير من سيارات المواطنين وسيارات الأتوبيس
وعربات النقل ووحدات المترو . »

« كما امتد التفريب إلى مستودع لتعبئة الأرز في أسيوط ومستودع
آخر في سوهاج ، واقتحام سجن طره ، وإطلاق سراح بعض المسجونين
غيره » .

وفي ضوء هذا الوضوح أعلن محافظ الجيزة أن الخسائر بمحافظته
هي :

• تم احتراق ١٠٨ سيارات بشارع الهرم وبأماكن انتظار الفنادق ،
منها ٩٦ سيارة خاصة برواد الفنادق والعاملين فيها و ١٢ سيارة ميكروباص
ونقل عام .

* احترقت أيضاً أربع فنادق هي الجولاني فيل وهوليداي إن سفنكس
وهو ليداي إن بيرامدز والفاندوم ومدخل فندق مينا هاوس . وكذلك
مطعم وكازينو ومحلات عامة .

* تم احتراق واجهتي قسم شرطة الهرم وقسم شرطة السياحة
ومكتب بريد الهرم وكشك تصوير بميدان الجيزة ونقطة شرطة المنيرة
بامبابة .

وبالإضافة إلى هذا هناك تدمير حدث في منطقة المعادى وفي بعض
جهات أخرى من القطر ، وقد قدم النائب العام حصراً للمنشآت التي

أُخربها المتهمون وهي ٢٥٦ منها ٩ فنادق و ٤٢ منشأة سياحية و ٦٥
منشأة قطاع عام أو حكومة و ٢٠ منشأة شرطة و ١٢٠ منشأة خاصة .

اما السيارات التي خربت واحتقرت فقد بلغ عددها ٢٠٠٦
سيارات منها ٢١٩ سيارات حكومية و ٤٦٢ سيارة شرطة ، وسيارات خاصة
بالمواطنين عددها ١٣٣٥ سيارة .

وذكر أن عدد القتلى ٥٤ عسكرياً و ١٦ مدنياً والمصابون ١٥٨ عسكرياً
و ٤٨ مدنياً .

وأعلن النائب العام أن تحقيقات النيابة العامة أكدت أنه لا تأمر
ولا تحريض على القيام بهذه الأحداث من الداخل أو الخارج ، وليس
للمتهمين انتقاماً سياسياً ، وأضاف أنه بالإضافة إلى اشاعة المذكرة سنة كانت
هناك أسباب مساعدة لإحداث هذه الفتنة هي :

- * وسائل الإعاشة المؤلاة الجنود بسيئة .
- * أماكن الإيواء حالتها لا تسمح بإقامة مناسبة .
- * عدم منحهم إجازات ، وزيادة فترات تشغيلهم .
- * سوء معاملة بعض الضباط لهم إلى حد التعذيب .
- * عدم وجود رعاية صحية مناسبة .
- * أماكن المعسكرات غير مناسبة في مواجهة منشآت سياسية على
جانب كبير من الترف .

وأعلن النائب العام أن نتائج التحقيقات تؤكد أن قوات الأمن على
مستوى الجمهورية عددها ٣٠٠٠ لم يتحرك منها إلا نفر قليل .

وقد استذكر الشعب المصري بجميع طبقاته وأحزابه وهيئاته هذا

الشعب وبخاصة من فئة يقترض فيها أن تكون حلسته للأمن لا مثيرة للفرز ، وكان موقف الشعب من الفتنة موقفاً محظوظاً جعل من اليسير القضاء عليها .

واستقال فقط وزير الداخلية « أحمد رشدي » بعد هذه الأحداث ، ويقول المطلعون إن الخسائر هنا كانت أضعاف خسائر حريق القاهرة سنة ١٩٥٢ الذي أتى بقتل وزارة الورق بسببه .

٤ - الأزمة الاقتصادية الطائفية وتسديد الديون :

ورث العصر الحاضر أعباء اقتصادية ثقيلة خلقتها العهد السابق ، فالحروب الكثيرة الخاسرة ، والبرقات المتالية ، والبذخ والإسراف ، ومحاولة شراء الذمم ، والصحافة التي كان يصدرها عبد الناصر في بيروت لتبنيه بمحضه ، واللاجئون الذين استقدمهم عبد الناصر ١٠٠٠

ثم القضاء على الفشاذ الزراعي بموجة تصنيع البلاد ، وضعف ذلك التصنيع الذي كان يسير بصورة ارتتجالية ، والوظائف التي استحدثت في الداخل والخارج ، كل ذلك ومسواه مما تعرف وما لا تعرف قضى تماماً على ثراعصر ، وأصبحنا دولة مهيبة الجناح .

وأهل عبد الناصر المرافق تماماً ، فلما انقضى عهده أو قبيل ذلك كانت التليفونات صامتة لا تتكلم ، والمجاري مندفعة لا تتوقف ، والطرق منهارة أخرجت ما في جوفها ، والاسكان لا نشاط له مما دفع الأحياء السكنية مع الأموات في القبور ، وحاول المسادات أن يرقد الأمر فلجاً للقروض ، وجاء أوان التسديد فأصبحت أقساط الديون وفوائدها عبئاً تتوء به الميزانية المصرية .

وبينما مصر ترحب تحت هذه الأقلان إذ طرأت أحداث اقتصادية ضاعفت المشكلة ووصلت بها إلى حافة الفطر ، وهذه الأحداث هي :

- ٦٦٦ -

- هبوط أسعار البترول هبوطاً شديداً وصل إلى ثمانى دولارات للبرميل أى ما يقرب من تكاليف إنتاجه .

- تأثرت بذلك قناة السويس تأثراً شديداً فانخفض عائداتها إلى درجة كبيرة .

- بدأت دول البترول العربية تستغنى عن بعض العاملين بها من المصريين تماشياً مع قلة دخلها فقلّ ما كان يرسله المصريون من عملة حرة .

- نقصان السياحة نقصاناً ظاهراً بسبب حركة الأمن المركزي التي حرقت الفنادق وعددت السياح .

واستعانت الأزمة استعانتاً قياسياً ، وأخذت تهدد سمعة مصر .

وأبناء مصر غرّفوا على مر التاريخ بحب بلادهم والتفاني في الدفاع عن سمعتها ، ولذلك قامت دعوة شعبية بالمساهمة في تسديد الديون المصرية ، وانتقض الجميع يتهدّون عنها ويستجّبون لها ، فكتب الأستاذ جلال الدين الحمامصي عدة مقالات في هذا الشأن ، وقد حركة ضخمة لتحقيق هذا الأمل ، وكان الحديث أصواتاً هائلة عند الكثيرين من الكتاب والباحثين ، واستجاب الشعب بكل طبقاته تقريباً لهذه الدعوة .

ولكن الأوضاع الرسمية قاومت بتصرفاتها وأعمالها هذا المشروع العظيم ، فبينما يندفع الشعب ليعين الدولة في حمل أعبائها ، اتجهت وزارات مختلفة إلى نفقات لا توصف فقط بأنها اسراف ، بل يمكن أن توصف بأنها خرق وبعد عن العقل والمنطق ، وعدم ادراك لحالة البلاد التي كانت تستدعي الاتجاه للتوفير في كل مجال .

فما رأيك في احتفال بعيد فضي للتليفزيون تتفق فيه مئات الآلاف على مظاهر كاذبة .

وماذا قدم التليفزيون أكثر مما يلزم أن يقوم به .

- ٦١٩ -

وما بالك في مباريات كرة تنتقل بواسطه الأقمار الصناعية مما يجعلها تتکلف الآلاف والملايين لتسجيل مشاهدتها بدلا من انتظار عرضها عن طريق شريط سيصل للقاهرة بعد يوم أو يومين .

ومما يبالك بدعوة وزراء الإعلام الأفارقة لاجتماع غير عادى بالقاهرة مع ما يتکلفه هذا الاجتماع والضيافة والحراسة من نفقات باهظة .

و قبل أن يعود هؤلاء إلى بلادهم يدعى وزراء الداخلية الأفارقة لاجتماع في القاهرة

ثم يدعى رجال الصحافة الأفارقة ، وعدهم مئات ينتسبون لعشرين دولة

ثم تقوم وزارة الثقافة بعمل مهرجانات حافلة لرجال الفن وتسخنوا في توزيع الأوسمة عليهم ، وتدعى رجال الصحافة لحضور هذه المهرجانات بما يستلزم ذلك من تذاكر للسفر وفنادق للاقامة وغيرها ، وقد أحسن مندوب صحفة الوفد بما في ذلك من إسراف في هذا الوقت فأعاد للموزارة تذاكر السفر واعتذر ، وكتبت صحفة الوفد في ٢٨/١١/١٩٨٥ يقول :

* مصطفى شردي رئيس تحرير « الوفد » وسعيد عبد الخالق نائب رئيس التحرير تلقيا « شنطتين » فاخرتين من وزير الثقافة واكتشفت « العصفورة » أن كل شنطة بها دعوة من الوزير لحضور مهرجان احتفالات معابد فيلة بالأقصر ، وتذكرة ذهب وآيات للأقصر ، وميدالية فاخرة وشريط كاسيت ، وأصبحت « العصفورة » بذهول ، بعد حسبة بسيطة ، اكتشفت خلالها ، ان كل شنطة بمحفوبياتها بالإضافة إلى الاقامة في فندق ٥ نجوم طوال أيام المهرجان تبلغ حوالي ١٠٠٠ جنيه ، واقتربت « العصفورة » على رئيس التحرير ونائبه ، التبرع بالشنطتين إلى صندوق سداد ديون مصر ، ووافقا بسرعة ، وأكدا رفضهما لهذه

الدعوة ، والتبذير السافر ، في وقت اضطرت فيه الدولة إلى جمع تبرعات من المواطنين لسداد ديون مصر ، كما أن بلادنا تعيش « محرفة » بسبب حادث اختطاف الطائرة المصرية .

وأعضاء البرلمان يرسلون وفداً منهم إلى الولايات المتحدة ليسمعوا لخطاب الرئيس حسني مبارك هناك ، وربما ليصفقوا لبعض مقاطعه . ولصوص هنا وهناك من كبار المسؤولين يحكم عليهم بالسجن وهكذا وجد المصريون أنفسهم أمام ما يمكن أن يسمى « القرابة المقطوعة » فالشعب يحاول أن يساعد ولكن المسؤولين مفرغون بالبغيضة عن اليمين واليسار .

فتوقف مشروع تسديد الديون .

وأخذت الحكومة تبذل الجهد لتحمل على بعض الأموال من المواطنين ؟ فقضاعت الرسوم على رخص السيارات ورسوم استخراج جوازات السفر ، وألزمت الذين يسافرون للخارج أن يدفعوا رسوماً لذلك ولكن هذه الأشياء التي أرهقت الكثيرين لم تأت بأية نتيجة ذات بال .

وبينما كان المواطنون يبحثون عما أصابهم من ضرائب جديدة ، نشرت صحف المعارضة قائمة خطيرة عن أولاد السادة الذين حصلوا على شقق من الدولة ، وفي هذه القائمة ظهرت أسماء كثيرين جداً من علية القوم ، ولم يدل أحد من أبناء الشعب العاديين أى حظ في هذه الشقق .

ولما تزال البلاد ترزح تحت وطأة هذه الأزمة الاقتصادية ، والله المسئول أن يحمي بلادنا من نتائجها .

ومن العجيب أنه في وسط صيحات الألم من هذه الأزمة ، وفي وسط محاولات التخفيف منها بالوسائل التي ذكرناها لم يحاول أولو الأمر أن يوقفوا سيل المال الذى تدفعه خزانة الدولة لأصحاب الملايين من أولاد عبد الناصر أو أولاد السادات ، مما جعل الكثيرين يغضبون بفكرة الملايين فى تسديد الديون ، وإن كنا نصيغ بأن تخفيف آلام وطننا واجب بصرف النظر عن حقوق بعض أبنائنا أو سوء تصرفهم ، كما يتقدم الابن البار لمساعدة أبيه أو مساعدة أمه ولو كان هذا أو ذاك قد أضاع ثراءه بالإسراف وسوء التصرف .

وأخذت صحف المعارضة قضية الديون وتسديدها مادة لتقترح لها الحلول المناسبة ، وفي مقال طويل نشره الدكتور ابراهيم عبد بصحيفة الوفد ، يقترح سبادته وسائل حاسمة لتسهيء في تسديد الديون ، ومن الوسائل التي اقترحها ما يلى ، وقد ذكرنا أكثرها فيما سبق :

- ١ - ايفاف دفع المخصصات للرؤساء السابقين
 - ٢ - التقليل من عدد الوزراء ووكلا الوزارات ومن في مرتبهم فقد بلغ هؤلاء عدة آلاف .
 - ٣ - عدم استعمال القمر الصناعي في عرض المباريات والخطب .
 - ٤ - استعادة مجوهرات أسرة محمد على وهي كافية لتسديد الديون مما بلغ قدرها .
 - ٥ - وزير الدولة للشئون الخارجية يمضي عمره مسافراً وممهوفاً . لماذا ؟
 - ٦ - إعادة النظر في ميزانية مجلس الشعب ، وفي مدى الحاجة لمجلس الشورى .
 - ٧ - الحد من الدعوات والاستضافة الا للضرورة القصوى .

٥ - الأحزاب في عهد السادات ومبارك :

ذكرنا في الجزء التاسع من هذه الموسوعة أن الانتفاضة العسكرية التي سمت نفسها ثورة، ألغت الأحزاب بمصر وصادرت أموالها في يناير سنة ١٩٥٣ ، وأحلت محلها دائرة مقيينا كريماً للناس هو ما سمي « هيئة التحرير » وقد صدر أول بيان عنها في ١٥ يناير سنة ١٩٥٣ .

وسرعان ما أحس عبد الناصر بابتعاد الناس عن هذه الهيئة وأحساسهم إنها جسم مصطنع فحولها إلى ما أسماه « الاتحاد القومي » سنة ١٩٥٦ ووضع دستوراً على هواه .

وقف المصريون من هذه المؤسسة موقفهم من الهيئة التي سبقته فتحوله عبد الناصر إلى ما أسماه « الاتحاد الاشتراكي » عقب قوانين المصادرات التي أسموها « التحول الاشتراكي » وكان ذلك سنة ١٩٦١ .

وعجزت هذه المحاولات أن توجد علاقة بين الحاكم الطاغية ومماليقه المنتفعون ومراعي القوى الخطرة وبين الشعب ، وظلت هذه المؤسسات ذريلاً للحاكم وبعيدة عن آمال الشعب وتأييده .

السادات والمنابر فالاحزاب :

و جاء عصر السادات وأدرك بذلكه بُعدَ الجماهير عن السلطة ، وأراد أن يحقق نوعاً من « القرب الديمقراطي » ، ولكن محاولته كان يشوبها الحذر والقلق ، وكانت محاولة عرجاء ، وقد ابتدأ محاولته بأن ابتكر موضوع « المنابر » في ظل الاتحاد الاشتراكي ، وكان هذا ابتكاراً سقينياً لأن الناس كان يكرهون أو يحتقرن الاتحاد الاشتراكي وكل ما يتصل به ، وكان السادات قد عبر عن اتجاه التشبّث حين قال إن

— ٦٢٣ —

البند الخاص بالديمقراطية الذي ورد في البيان الأول للثوار لم يعرف طريقه للنور .

وقد زاد ابتكار المنابر بعدها عن الناس عندما أوعز السادات لرجل تربطه به رابطة مصاهرة هو « المほوم محمود أبو رية » بأن يؤلف منبرا ، وكان السادات يرمي إلى أن يجعل في الاتحاد الاشتراكي منبرا يميل لليمين ومنبرا يميل لليسار ومنبرا وسطا .

السادات يعيّن رؤساء الأحزاب :

وقف الشعب موقف الساخر من هذه المحاولة ما دامت امتدادا للاتحاد الاشتراكي ، ولذلك كانت هذه المحاولة قصيرة العمر ، وأذن السادات بقيام الأحزاب بدل المنابر ، ومن الغريب حقاً أن يكون قيام الأحزاب بإذن ، فالمعروف أن الأحزاب اتجاهات شعبية يقيمها الشعب ، وتتخذ من نفسه قوتها ، وخلق أنور السادات حزباً أسماه حزب مصر ، ووضع على قميته ممدوح سالم رئيس الوزراء وفي غيبة من التعقل والخطط السليمية أصبح ممدوح سالم زعيمها ، وكان هذا عملاً أخرى ، فالزعماء تخلقهم الشعوب ، ولا يمكن أن يخلقها الرؤساء ، ويجواز حزب مصر أوعز أنور السادات إلى أحد وزرائه وهو « ابوهيم شكري » أن يؤلف حزباً أسماه حزب العمل ، وألف مصطفى كامل مراد حزب الاتحاد ، وألف خالد محيي الدين حزب التجمع . وببدأت الأحزاب تدب في حياة مصر ، ولكنها كانت أحزاباً من الورق .

وكان قانون الأحزاب يخاف من الكلمة « الوفد » ، حتى لا يُبعث من جديد ذلك العملاق الذي حاربته الثورة دون هوادة حوالي بسبعين قرناً ، ولذلك كان في قانون الأحزاب بند "ألا تعود الأسماء القديمة للأحزاب للظهور ، وكان هذا عنتاً فهم الناس دوافعه ."

وجرت حركة عجيبة فإن أنور السادات تطلع للزعامة الشعبية فخلق

- ٦٤ -

خربا جديدا أسماء الحزب الوطني الديمقراطي وأضاف كلمة الديمقراطي حتى يصبح لنفسه قيام حزب يحمل اسم «الحزب الوطني» وهذا الاتجاه جعل حزب الوفد يعود مرة أخرى للوجود باسم «حزب الوفد الجديد» .

وفيما يتعلق بالحزب الوطني الديمقراطي نذكر أنه هو حزب مصر وكل ما حدث فيه هو تغيير الرئيس ، وكان أشرف لأنور السادات أن يتربع حزب مصر ويجعل «مدوح سالم» نائبا للحزب مثلا ، ولكن السادات أعلن قيام حزب جديد ، وهرول السادة الذين كانوا أعضاء هيئة التحرير فالاتحاد القومي فالاتحاد الاشتراكي فأعضاء حزب مصر هرولوا إلى الحزب الجديد الذي يرأسه رئيس الجمهورية وتركوا «مدوح سالم» وحده في حزبه قصرين عمر ، وتوقفت صحيقته «مصر» التي كانت حدية عمر معه .

أما حزب الوفد فهم تطل أيامه فالحياة العسكرية لا تسمح بالديمقراطية الحقيقية ، وكان عمره مائة يوم ثم جمد نشاطه بسبب التحديات التي واجهها ، وبسبب صدور قرار بحربان رئيسه «محمد فؤاد سراج الدين» من حقوقه السياسية .

وانتهى عهد المسادات على هذا الوضع .

مبارة الأحزاب :

وجاء عهد مبارك فسمح فعلا بتصدر الأحزاب ، ونال محمد فؤاد سراج الدين حكما ببطلان حرمانه من الحقوق السياسية ، كما صدر حكم آخر بأن حزب الوفد الجديد لم يحل نفسه بعد المائة يوم وإنما جمد نشاطه ، ومن حقه أن يظهر وقتها يرى الوقت مناسبا .

وظهر حزب الوفد ، وكان معبرا دقينا وحقينا عن اتجاهات شعبية ،

- ٦٢٥ -

فلم يأخذ مقرًا له من دور الحكومة ، وأصدر صحفة « الوفد » دون أن يطلب معاونة من الحكومة ، وسرعان ما أصبح له مقارن في كل عواصم المحافظات وفي غيرها من المدن ، ونجحت صحفة « الوفد » نجاحا هائلا .

وعند كتابة هذه السطور في منتصف عام ١٩٨٦ كان بمصر الأحزاب الآتية :

- ١ - حزب الوفد الجديد ، ومما يذكر أن كلمة « الجديد » توضح صغرى الحجم تقليدا للقانون الذي يمنع أسماء الأحزاب القديمة ويتبخ من تصغيرها رغبة الغرب في استئناف اسمه وتشطّه ، وحذف أكثر من ثلثين عاما عانى مصر خلالها شن عنا من الثورة ورجالها .
- ٢ - الـالعزبيـةـ الوـطنـيـةـ الـديمقـراـطـيـ .
- ٣ - حزب العمل الاشتراكي .
- ٤ - حزب التجمع .
- ٥ - حزب الاتحاد .
- ٦ - حزب الأمسـةـ .

ويطلع المفاسدون للوطن الى انتخابات حرة تماما ليعرف كل حزب ثقله ومكانته في الدولة ، ونرجو الـأـلـاـ يطول انتظارنا لهذا اليوم .

تلك هي أهم أحداث عصر محمد حسني مبارك حتى منتصف شهر يونيو سنة ١٩٨٦ سجلتها من يوم الى يوم بكل الإنصاف والدقة .

الرئيس مبارك بين اهتماماته وآمالنا فيه :

نحن نلحظ بوضوح اهتمامات الرئيس مبارك بافتتاح كوبرى أو

- ٦٦ -

بمشاهدة معارض «الأسر المنتجة» ٠٠٠ ولا يأس في ذلك ، ولكن المطلوب من رئيس الدولة أهم وأعظم ، وقد تحدثنا من قبل عن تعديل الدستور لتأخذ بلادنا جبو الاستقرار الحقيقي بأن يكون اختيار رئيس الجمهورية ونائبه بالانتخاب المطلق ، وأن تختفي إلى الأبد بدعة الانتخاب بالقائمة ، فقد أفرزت هذه الانتخابات هيكل لا صلة لها بالناسين ٠٠٠ وطالبنا رئيس الجمهورية أن يوقف التزيف الذي تدفعه مصر الدينية المرهقة للمعاملات المترفة الثرية ، عائلات عبد الناصر والسدادات ٠

ونطالب رئيس الجمهورية باسترداد أموال مصر التي هربها أصحاب النفوذ للخارج ، وكان الأستاذ محمد حسين هيكل قد قدر هذه الأموال بعدد من المليارات ، وفي عدد الأخبار المصادر في ١٩٨٦/٤/٣٠ نقلت الأستاذة مها عبد الفتاح سطوراً من تقرير «مؤسسة مورجان الأمريكية» جاء فيها أن مصر من بين الدول الفقيرة التي خرجت منها مليارات الدولارات بطريق التهريب أو التحويل للخارج ٠ نحن نطالب بمحاولة جادة لاستعادة هذه الأموال ومعرفة الذين خانوا البلاد ، ونقلوا ثرائها ، وتركوها تعاني الأزمات ٠

وموضوع آخر مهم يتلخص أن ينال عنابة الرئيس وحكومته ، ذلك هو موضوع النقص الغذائي الذي نعانيه ، والذي يجعل لقمة العيش في أيدي أعدائنا ٠

ونتبّه إلى السبق الذي أحرزته دول كثيرة كانت مثناً تعانى ، وتستورد ، ولكنها بسرعة حققت الكفاية ، بل اتجهت لتصدير فائض كبير ، أما نحن في عهد الثورة القاحلة فأننا نتراجع من يوم إلى يوم ٠

تقول التقارير إن الصين استطاعت — بعد أن حققت حاجة الآلف مليون نسمة من سكانها — أن تصدر التموج والقطن وغيرهما من الخامات ٠

- ٦٢٧ -

وكانت بنجلادش تشير أشفاق العالم لنقص مواردها في الغذاء ، ولكنها قررت إلى تحقيق الكفاية ومحاولة التصدير .

أما الهند التي كانت بلاد مجاعات فقد أصبحت تصدر كثيرة حاصلالتها بعد أن حققت الكفاية وما فوق الكفاية .

ومثل هذا يقال عن إندونيسيا وتايوان والفيلبين ، وتحاول تركيا إصلاح ثمانية ملايين من الهكتارات للزراعة .

ثم نطالب الرئيس مبارك بإزالة آثار الماضي ، تلك الآثار الكثيرة التي سمح لها الرئيس مبارك بالحياة حتى الآن ، وهي لا تستحق الحياة لحظة واحدة ، ومنها محاكم أمن الدولة ، ومحكمة العدالة ، وقانون حماية الجبهة الداخلية ، وقانون حماية الوحدة الوطنية . . . فليست هذه القوانين إلا قيوداً للشعب لصالح الحاكم .

ماذا فعلت هذه القفزة التي تسمى نفسها ثورة ؟ إنها بخلافها يمكن أن تسمى ثورة على الخير والإصلاح ، ولكنها انتهت على كل حال ، والعصر الحاضر لا يمكن أن يستمر دون حراك ، إن العباء ثقيل ، ولكن النهوض به لا يتحمل أي تأخير ، حتى نلحق بركب العالم الذي يسرع الخطأ ، ومن عجب أن تسبقنا دول كانت أكثر مما تختلف ، ولكنها النتيجة الطبيعية عندما تحكم البلاد بالآثاثين الجلاء .

مِنْشَاتُ حَدِيثَةٍ بِمِصْرَ

شهدت مصر في القرنين التاسع عشر والعشرين نهضة عمرانية عظيمة في مجال المنشآت العمومية، التي أصبح بعضها في عدد الآثار المهمة، وبعضها من علامات النهضة الحديثة.

ومن منشآت القرن التاسع عشر نذكر :

— مسجد محمد على بالقلعة، وهو تحفة نادرة، أكمل به محمد على بهجة القلعة وجلالها.

— مسجد وضريح أبي الحجاج الأقصري الذي توفي سنة ٦٤٢ هـ وسنكلم عنه بعد قليل، وقد بنى ضريحه بالأقصر في القرن التاسع عشر.

ومنشآت القرن العشرين :

أما القرن العشرين فقد شهد مجموعة هائلة من المنشآت، أقيم بعضها قبل الثورة، وأقيم الحشد هنا في زيارة أنور السادات وحسني مبارك وبخاصة في عهد الأخير، ولا ينسى لعبد الناصر منها إلا المسند العالى مع ما حوله من الكلام مدحًا أو هجومًا أوردهناه في الجزء التاسع من هذه الموسوعة، وكانت منشآت السادات وحسني مبارك لدفع عجلة الحياة التي أوشكت على التوقف أو توقفت فعلاً لإهمال المرافق تماماً خلال عهد عبد الناصر.

والمنشآت التي تمت في القرن العشرين قبل الثورة هي :

— مسجد السيدة زينب التي توفيت بمصر في القرن الأول وبنقته وزارة الأوقاف في القرن العشرين (وبهذه المناسبة ذكر أن المشهد

- ٦٢٩ -

الحسيني أقدم من المشهد الزييني بكتير ، خلفه مقل رأس الإمام من عسقلان للقاهرة سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) بني له مشهد ، ثم ظل يتطور مع الزمن اتساعاً وفخامة حتى المهد الحاضر (١٩٨٦ م) .

- مسجد السيدة سكينة بالخليفة .
- مسجد السيدة عائشة بالقلعة .
- مسجد زين العابدين (ابن على زين العابدين بن الإمام الحسين) .

- مسجد وضريح عبد الرحيم القنواوى الذى توفي سنة ٥٩٢ وبنى ضريحه في القرن العشرين .

ومنشآت محمد السادس هي :

- نفق محمد حمدى الذى يمر تحت قنطرة السويس ، فيمثل سيناء بالوطن الأم ، وهو عمل حائل من الناحية الوطنية والناحية العمرانية ، وستذكره الأجيال دائماً بكل الثناء والتقدير .

- الكبارى العلوية وبخاصة كوبرى ٦ أكتوبر و ١٥ مايو ، وقد أنقذا حركة المرور بين الجيزة والقاهرة وكانت امتداداتها كبيرة الفائدة .

- هذا بالإضافة إلى إعادة الحياة للتليفونات وعلاج محدود لمشكلة الصرف الصحى والاسكان .

وأهم منشآت محمد حسنى مبارك هي :

- امتدادات واسعة جداً في شريانين الحياة ، أى في الطرق والكبارى تلك التى اقتحمت الصحراء ، وامتدت للريف والحضر ، ومنها

— ٦٣٠ —

ذلك الامتدادات المائلة لكونبرى ٦ أكتوبر و ١٥ مايو وكوبري باغوص
وكوبري مهمشة ، ومترو الأنفاق ٠٠٠٠٠

— الجراجات متعددة الطوابق ٠

— الأنفاق التي عملت بدل الكبارى العلوية أحياناً مثل النفق في
طريق المطار ونفق شيراتون القاهرة ٠

— إعادة بناء جامع عمرو بن العاص وتوسيعه ومحاولة جعله مركزاً
لجامعة إسلامية ٠

— وبمناسبة الحديث عن إعادة بناء جامع عمرو بن العاص نذكر أن
هذا العصر شاهد نهضة شاملة لترميم الآثار وتجميلها ، سواء في ذلك
الآثار الفرعونية أو المسيحية أو الإسلامية ، ويمكن للرأى أن يرى نتائج
هذه التحسينات في الواقع كثيرة ، شكرنا للدكتور أحمد قدرى الذى قاد
تركيب هذه الإصلاحات ، وشكرنا للحكومة التى أمدته بالمال اللازم
لهذا العمل الكبير ٠

مصر والحضارة الإسلامية

في ختام الحديث عن مصر يجدر بنا أن نذكر كلمة عن دور مصر في خدمة الحضارة الإسلامية ، فالتأريخ يسجل أن مصر أتيحت لها ظروف لم تتحقق لسواماها لتقديم أجمل الخدمات لهذه الحضارة ، فقد بدأت المدرسة المصرية للدعوة للإسلام ودراسة علوم القرآن واللغة العربية مبكرة ، في نفس الوقت الذي بدأت فيه مدارس العراق بالبصرة والكوفة وبغداد (١) ، ومن الطبيعي أن العصر العباسي الأول منح مدارس العراق وبخاصة بغداد مزيداً من العناية والاهتمام ، فقد زها خلال هذا العصر بيت الحكمة الذي أنشأه الرشيد ومنحه المؤمن تأييداً يحصر دونه الوصف ، بيد أن الحركات السياسية والمذهبية بعد العصر العباسي الأول صبغت بغداد بالدم والقلق ، فقد جاء عصر الأتراب المالكية ، فعصر بنى بويه ، وأختفى خلال هذه العصور نفوذ الخلفاء وهان شأن الكثرين منهم ، ولا تزدهر الثقافة في هذا الجو الصاخب الضطرب .

تراجع بغداد وتقدّم مصر :

وبينما كانت بغداد تحتى أمام هذه العواصف ، كانت مصر تتلقى نوعاً من الاستقلال وصل في أكثر الأحيان إلى اكتماله ونضجه ، فالمطلوبون والإخشidiون استقروا بمصر الاستقلال الذي وصفله ، واهتم هؤلاء وأولئك بالعلوم والمعارف وجنبوا الفقهاء والباحثين ليعيشوا في كففهم ، وأسبغوا عليهم ألواناً من الخيرات ومنحوهم أسمى مكانة ، ثم جاء من بعدهم الفاطميون ، ولم يكن هؤلاء تابعين لبغداد بطبيعة الحال ، بل كانوا منافسين لها ، ومحاولين أن يسيطروا عليها أحياناً ، ومن ثمَّ وجهاً عنایتهم إلى ألوان من خدمة العلوم والمعارف ، فأنشئوا الأزهر ، وأنشأوا الحاكم بأمر الله بالقاهرة دارَ الحكمة ينافس بها أو

(١) راجع حديثنا عن « حضارة مصر في عهد الولاة » في هذا الجزء
ص ٧ وما بعدها .

- ٦٣٢ -

يرث بها بيت الحكمة الذي كان يبغداد ، ولا يهمنا أن الأزهر كان يعلم التشريع في وقت ما ، فالذى لا شك فيه أن الأزهر سرعان ما خدم الوان الثقافات المختلفة في شتى المياذين ، وظل على مرّ القرون ، المذارة التي يشع نضوئها على الإسلام والمسلمين في كل الأنحاء ، وأصبحت القاهرة تسمى «مدينة الآلاف بيتون» كما قالت في هي الأزهر صناعات دقيقة نالت شهرة عالمية واسعة .

مصر عندما زحف الصليبيون على سوريا قلب العالم الإسلامي :

ثم حلّت مجموعة من الكوارث بأكثر أقطار العالم الإسلامي ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي ، شرحت قلبه وجناحه الأيمن وجناحه الأيسر ، فسوريا قلب العالم الإسلامي زحف عليها الصليبيون ، واحتلوا الساحل وعمقوا بالداخل وأقاموا لهم عدة إمارات ، وبقيت المناطق التي لم يصيّبها الاحتلال مهددة تدافع عن نفسها ، وظلت الحروب حساوى القرنين من الزمان ، وبين قصف المدفع وصليل السيوف ضعف سير الحضارة وتواتي نشاطها ، وقد حاول الصليبيون أن يمدوا نفوذهم إلى مصر ولكن محاولتهم كانت قليلة النجاح قصيرة العمر ، فبقيت مصر تمثل بها جانب النشاط العلمي الذي كان يعم سوريا ومصر قبل هذه الحرب ، وكانت مصر درعاً عسكرياً قضت على النفوذ الصليبي وأزالته من المنطقة وخلال هذه الأزية هو عدد من علماء الشام لمصر .

مصر عندما زحف التتار على الجناح الشرقي :

وحلت الكارثة الكبرى بالجناح الشرقي ، وهي كارثة زحف التتار على العراق وسوريا ، وقد صحب التتار معهم الدمار أينما حلوا ، وكانوا أعداء للثقافة والحضارة ، فقضوا على كل شيء ، وأذروا معلم المجد التي كانت بعاصمة الرشيد كما أذروا كثيراً من معالم دمشق ؟ أما العلماء الذين فروا من هذا السيل الجارف ، ومعهم بعض الكتب فلم يجدوا لهم وجهة إلا مصر ، ولم يستطع إلا جيش مصر أن يوقف زحف التتار

- ٤٣٣ -



القاهرة مدينة الالف مئنة

- ٤٣٤ -



من معالم القاهرة

خان الخليلى والصناعات اليدوية الدقيقة

— ٦٣٥ —

ويقًا لهم أظفارهم في موقعة « عين جالوت » ، والواقع التي جاءت بعدها وحرس جيش مصر بذلك حضارة الإسلام وثقافته وبقية رجاله الباحثين فيه ٠

مصر عندما زحف الفرنجة على مسلمي الأندلس والجناح الغربي :

وقرباً من الوقت الذي زحف فيه التتار من الشرق ، كان الفرنجة يقضون على البقية الباقيّة للإسلام بالأندلس ويزحفون على الشمال الأفريقي وهو الجناح الغربي ، فيقضون على استقلاله ويحاربون الثقافة الإسلامية به ، وهب^ه جيش مصر بقيادة صلاح الدين الأيوبي فضرب الفرنجة وأنزل بهم أشد الهزائم ، ومرة أخرى فر^ه خلال هذا الصراع عدد كبير من العلماء والباحثين من الأندلس ومن الشمال الأفريقي ، ولم يجد هؤلاء موطنًا لهم إلا مصر حيث وجدوا الأمان والملاذ الكريم ٠

الشرق الإسلامي والغرب والشمال هدف للصداقة :

ويتبين قبل أن نورد أسماء نماذج من تعرف من العلماء الذين وفدوا إلى مصر من العراق والشام والمغرب والأندلس أن نضع تواريخ الهجوم على هذه المناطق حتى ندرك الارتباط بين هذا الهجوم وبين فرار العلماء إلى مصر :

— بدأت الحروب الصليبية بالشام سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٧ م) وظلت حتى سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢ م) ٠

— وببدأ التتار هجومهم على شرق العالم الإسلامي سنة ٦١٩ هـ (١٢١٩ م) ووصلوا إلى بغداد ودمروها سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ثم زحفوا على الشام بعد ذلك ٠

— وببدأ انتصار الفرنجة في الأندلس فالغرب عقب هزيمة الموحدين في موقعة « حصن العقاب » سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) ٠

ومن هذا يتضح أن سنوات القرن السادس والسابع الهجريين (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين) كانت سنوات مهن بهذه المناطق ،

- ٦٣٦ -

وفي نفس الوقت كانت مصر أحسن حالاً في عهد الأيوبيين والمماليك ،
فتصدى جيشها للجيوش الراحة وحقق عليها نصراً عظيماً .

وفي ضوء هذا نستطيع أن نذكر بعض أسماء العلماء الذين وفدوا
إلى مصر خلال هذه الفترة الكالحة .

**وفود العلماء من كل الجهات إلى مصر
من الشرق : (العراق وإيران)**

يوسف بن عبد الرحمن وشهرته أبو الحجاج :

ولد ببغداد ثم رحل إلى مصر وجلس يعلم بها ، واتخذ من الأقصر
مكاناً لحلقته وتوفي سنة ٦٤٢ هـ في عهد نجم الدين أيوب ، وله ضريح عظيم
بالأقصر وله كذلك مسجد خارج .

ومما يذكر أن المنطقة التي يوجد بها الضريح والمسجد تعتبر منطقة
أديان ، إذ كان يوجد بها معبد آمون الفرعوني ثم كنيسة مسيحية ،
وأخيراً مسجد أبي الحجاج الأقصري .

سليم أبو مسلم :

هو من أحفاد الإمام الحسين رضي الله عنه ، وقد ولد بمدينة
همدان بإيران سنة ٥٣١ هـ ، وبنى في العلوم والمعارف وحضر إلى مصر
في أواخر القرن السادس الهجري ، وعُرِفَ بين المصريين بعلمه وزهده ،
فقد له صلاح الدين الأيوبي خطبة الجمعة بمسجد عمرو ، وطال عمره حتى
تجاوز المائة ومات سنة ٦٤٥ هـ ، وله ضريح عظيم بمدينة بحثطيط بمحافظة
الشرقية .

عبد العزيز عبد القادر البغدادي :

ولد في بغداد وتعلم بها مختلف العلوم الإسلامية ، وكانت بغداد
آنذاك في فترة الدمار عقب الأعصار المغولي ، ولذلك لم يطب له المقام فيها ،

- ٦٣٧ -

فهاجر الى القاهرة ، وأكمل بها ثقافته ثم جلس يعلّم بها ، وظل فيها حتى
مات سنة ٧٤٨ هـ

محب الدين البغدادي :

وهو فقيه ومحدث ولغوی وهو كذلك أحد علماء المستنصرية ، وكان
يعلّم بها عندما عادت لها الحياة بعد الاعصار المغولي ، ولكن الحياة في
بغداد لم تطب له فهاجر الى مصر ، ورحب به مصر ، فأصبح قاضياً
ل الجنابة ، ومفتي الديار المصرية ، وتوفي بالقاهرة سنة ٨٤٤ هـ

على بن جمعة البغدادي :

ولد في بغداد ، ونال ثقافته الأولى بها ، ولكن بغداد كانت لا تزال
تعيش في أعقاب الزحف المغولي ، ومن جامعوا بعدهم من الجلاثيريين
والتركمان ، الذين لم يكن لهم معرفة بالاسلام ولا تقدير لعلمائه ، ومن
هنا هاجر الى القاهرة وجلس يعلّم بها حتى توفي سنة ٨٦٨ هـ

من الغرب (المغرب والأندلس) :

الطرطوشى (ابن أبي رندقة) :

ولد في طرطوشة بالأندلس ، ودرس العلوم الاسلامية ، وتخصص في
التاريخ ، وقد أحسن باضطرابات الأندلس خلال عهد الطوائف ، فجاء إلى
الحجاز وبغداد والبصرة ودمشق ، وانتهى به المطاف إلى مصر ، وظل
بها حتى مات سنة ٥٢٠ هـ ومن مؤلفاته « سراج الملوك » و « الحوادث
والبدع » .

الغافقي (اليسع بن عيسى) :

عاش في بلنسية بالأندلس ، ودرس على شاعرها ابن خفاجة ، ثم
سافر إلى الاسكندرية والقاهرة ، وخدم في بلاط صلاح الدين الأيوبي ،
وقد شمله السلطان بعنانية ورغایة ، وأهداه منزلة على ضفاف النيل ،

- ٦٣٨ -

وطلب منه كتابة كتاب عن المغرب ، فكتب كتابه « المغارب في محاسن أهل المغارب » وتوفي بالقاهرة سنة ٥٧٥ هـ .

القاسم الشاطبي :

ولد بمدينة شاطبة بالأندلس سنة ٥٣٨ هـ وحفظ بها القرآن ثم ذهب إلى معاهد بلنسية فتلقى القرآن والعلوم الإسلامية حتى أصبح أماماً في مختلف الدراسات الإسلامية .

حضر إلى مصر وعمره أربع وثلاثون سنة وذهب إلى الإسكندرية ثم رحل للقاهرة فاستقبله القاضي الفاضل عبد الرحيم البيهاني وعيّنه مدرساً بمدرسته « الفاضلية » وتوفي سنة ٥٩٠ هـ ودفن بمقبرة القاضي الفاضل .

وله ابن هو محمد الشاطبي الذي دفن بالإسكندرية والذي ينسب له هي الشاطبي لوجود ضريحه في هذا الحي .
عبد الرحيم القناوي :

من أقليم سبته بالغرب الأقصى ، ولد سنة ٥٢١ هـ ، وحضر إلى مصر في عهد الخليفة العاضد ، وعيّنه صلاح الدين شيئاً لعلماء قضايا ، وذلك اعترافاً بفضله ، وقد التقى حوله العلماء والطلاب واستشاروا به ، استفادة واسعة ، وتوفي سنة ٥٩٢ هـ وله ضريح شهير بقنا .

العبدري (عبد الله بن الحسين) :

andalusi المولد ، كان فقيهاً من أعظم فقهاء الأندلس ، وقد وفد إلى مصر واستقر بها ، وأنشأ مدرسة ورباطاً بالقرب من داره ، وتُوفى سنة ٦٢٢ هـ .

أبو الخطاب بن دحية :

هو المحدث الحافظ الأندلسي ، وفُد إلى مصر في العهد الأيوبي ، فعيّنته الملك العادل مؤديباً لأبنه الكامل ، وعندما تولى الكامل الملك بنى

- ٦٣٩ -

لأستاذة مدرسة للحديث في المكان المسمى « بين التصرفين » وتوفي سنة
٦٣٣ هـ

أبو الحسن الشاذلي :

ينتهي نسبه إلى الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب ، ولد بالمغرب بمدينة غمارة قرب طنجة حيث تلقى العلوم الإسلامية ، وطاف بالبلاد الإسلامية حتى وصل إلى مدينة « الشاذلة » فبقى فيها فترة حتى نسب لها بعد ذلك .

وهو يقول انه رأى الرسول صلوات الله عليه في المنام يطلب منه أن ينتقل إلى الديار المصرية ، فأسرع بالاستجابة وفي مصر التقى بعلماء العصر : العز بن عبد السلام ، وأبن الحاجب ، وأبن الصلاح ، وأبن عصفور ، وتوف أبو الحسن الشاذلي وهو في طريقه للحج عند ميناء عيذاب على البحر الأحمر ، وكانت عيذاب وقتها ميناء مصر إلى جهة قبل الانتقال للسويس .

السيد أحمد البدوى :

ولد بمدينة فاس سنة ٩٩٦ هـ ، وفي شتن نسبه إلى الإمام الحسين وأمه مغربية ، ورحلت الأسرة إلى مكة واستقرت في طريقها لكة بالقاهرة مدة خمس سنوات ، بعدها تمت رحلتها إلى مكة ، وعاشت بعض سنوات هناك ، وفي سنة ٦٣٤ هـ رحل أحمد إلى العراق وفي الموصل التقى أحمد مع « فاطمة بنت بري » فكانت لها مع أحمد قصة شهيرة لأنها كانت فاتقة الجمال فأرادت إغراء أحمد ، ولكنه لم يستجب لها بل نصحها فالتحقت به ودرست اتجاهاته الصوفية .

وقد جاء أحمد البدوى إلى مصر سنة ٦٣٧ ويقال أنه ذهب إلى طنطا نتيجة لرؤيا رآها .

- ٦٤٠ -

ومن تلاميذه عبد العال وأخوه عبد المجيد .

وقد توفي بطبلطا سنة ٦٧٥ هـ وله بها ضريح عظيم يعتبر من أشهر أضرحة مصر .

محمد بن الشياط :

هو من مدينة « توزر » بالفريقيه (تونس) انتقل الى مصر واستوطن القاهرة ، وحفيده محمد بن عاد الى توزر ، وكان يعرفه بالمصري لطول حياة الأسرة بمصر ، وتوفي في مطلع القرن السابع الهجري .

أبن حيyan :

مؤرخ شهير ولد بغرناطة وتعلم بالأندلس ، ثم رحل الى مصر وعاش بها يتعلم ويعلّم حتى مات سنة ٧٤٦ هـ .

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) :

ولد في تونس ، وهو فيلسوف ومؤرخ ، وواضح علم الاجتماع ، ودرس النطق والفلسفة والفقه والتاريخ ، وشغل عدة مناصب سياسية ، وكان سفير ابن الأثير لملك قشتالة .

رحل الى مصر ودرس في الأزهر وتولى قضاء المالكية ، ولما حاصر تيمور لنك دمشق قصده ابن خلدون راجيا انقاذ المدينة ، ولكن الطاغية المغولي لم يقبل رجاءه ، ألف المقدمة التي تشمل فلسفة علم الاجتماع وفلسفة التاريخ توفي بمصر سنة ٨٠٨ هـ .

من الشام :

عمر بن الفاروق :

ينتسب نسبه الى قبيلة حلية السعدية مرضعة الرسول عليه السلام ، وكان أبوه يعيش في « حماه » ، ثم جاء أبوه الى مصر وشغل مناصب عالية ،

- ٦٤١ -

أما عمر فقد ولد بمصر سنة ٥٧٦ هـ تقريباً ، وعاش في كنف الدولة الأيوبية ، وتوفي بالقاهرة سنة ٦٣٣ هـ وكان كثير السياحة في جبل المقطم .

الشيخ عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب :

وفد أبوه إلى مصر جندياً في جيش نور الدين زنكي الذي كان يقوده أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبى واستقر في مصر ، وقد ولد عثمان في مدينة اسنا ، ثم انتقل الأب وأبنه إلى القاهرة في أواخر عهد الخليفة العاضد ، وتوفي ابن الحاجب بالأسكندرية سنة ٦٤٦ هـ وله فيها ضريح شهير .

العز بن عبد السلام :

كان يعيش في دمشق في عهد الملك الصالح إسماعيل الأيوبى ، ولكن هذا الملك باع أسلحة لفرنسا فثار عليه العز ، وأوقف الدعاء له في خطبة الجمعة ، ثم حضر لصر خفية ، وقد استقبله الأمراء والعلماء أحسن استقبال ، وعاش في مصر مكرماً حتى مات سنة ٦٦٠ هـ .

الشيخ محمد العتريس وأسرة العتريسي :

ينتهي نسب الأسرة إلى الإمام زين العابدين بن الحسين رضي الله عنه ، وهو أحد عشرة أخوة من الذكور تلقوا جميعاً تعليماً دينياً وكانت لهم اتجاهات صوفية ، ومن أشهر أخوته الشيخ إبراهيم الدسوقي الذي ولد سنة ٦٢٣ هـ أما الشيخ العتريس فولد بعد ذلك ببعض سنوات ، وللشيخ العتريس ضريح بالركن الشمالي الغربي بجامع السيدة زينب أما أخوه الشيخ إبراهيم الدسوقي فله ضريح بدسوق ، وقد وفدت أفراد أسرة العتريسي إلى القاهرة في القرن السابع الهجري .

عمر الباقيني :

كان قاضياً بدمشق ثم جاء إلى مصر ، وولى القضاء بها ، كما ولى التدريس في بعض مساجدها ومدارسها ، وتوفي بمصر سنة ٨٠٦ هـ .

وأصبحت مصر بذلك أزهى مركز فكري في العالم الإسلامي كله ، حتى شاع ذلك المثل الذي يقول : من لم ير مصر لم ير عزَّ الإسلام .

جهود مصر في العصر الحديث :

وحدث شيء آخر في العصر الحديث ، كانت له نفس النتائج تعميرياً ، ذلك أن العالم العربي خضع للأثاراك العثمانين منذ مطلع القرن السادس عشر ، وكان العصر العثماني حافلاً بالحروب والقلق ، ولم يكن به استقرار قط ، وكانت العناية بالثقافة في عواصم العالم العربي ضئيلة أو معدومة ، مما جعل الظلام يجثم على البلاد العربية ، وما أخفقت صوت العلم فيها ، وفي مطلع القرن التاسع عشر استقلت مصر ، وبدأ يتكون بها جيل من أبنائها يحيون الماضي ويوقفون الفكر ، وسبقت مصر بذلك شقيقاتها العربيات بحوالى قرن ونصف قرن ، وخطت مصر خلال هذه المدة إلى الإمام خطوات طيبة لخدمة العلوم وال المعارف ، وأنشأت بجانب الأزهر أنواعاً من المدارس : منها العسكرية والفنية ، ومنها دار العلوم ، ومدرسة القضاء الشرعي ، كما أنشأت دار الكتب ، وفي مطلع القرن العشرين أنشئت جامعة القاهرة ، وتلتها سواها من الجامعات ، ولما أطلقَ عهد الاستقلال والتحرر على العالم العربي ، وأرادت الدول العربية أن تحيي الدراسات الإسلامية والعربية وغيرها ، تطلعت مصر ، فأمانتها هذه بالأساتذة والعلماء والكتب ، وتعاونت معها ولا تزال ، تعاوناً كاملاً للوصول إلى الهدف الشترى ، ودفعت مصر بعلمائها كذلك إلى أكثر أقطار الأرض لتعليم اللغة العربية والحضارة الإسلامية ، ولسنا في حاجة إلى أن نورد أرقاماً عن عدد الأقطار التي استجابت لها مصر ، ولا عن عدد العلماء الذين أوفدتهم ، لسنا في حاجة إلى ذلك ، فهو من الشائع والذريع بحيث لا يحتاج إلى دليل .

وهكذا قامت مصر بدور كبير في خدمة الإسلام وحضارته وكل الدراسات حوله .

تاریخ سوریا من القلع العثمانی

تقسيم :

نستطيع أن نقسم تاريخ سوريا من العهد العثماني (١) حتى الآن ثلاثة أقسام متميزة هي :

١ - فترة العثمانيين (١٥١٦ - ١٩١٨) والسيطرة خلالها كانت للعثمانيين غالباً ، ولكن كان هناك نوع من الاستقلال لبعض المناطق في جبال لبنان .

٢ - فترة الاحتلال الأوروبي (١٩١٨ - ١٩٤٦) وتميز بتقسيم سوريا إلى عدة دول عادت بعضها إلى الاتدماج وبقي بعضها حتى الآن محافظاً على استقلاله كما سترى .

٣ - فترة الاستقلال من ١٩٤٦ حتى الآن وتميز بالوحدة الكاملة بين سوريا ومصر في « الجمهورية العربية المتحدة » (١٩٥٨ - ١٩٦١) التي عدّت آنذاك نواة للوحدة العربية الكبرى .

وسنصف معالم كل فترة من هذه الفترات فيما يلي :

(١) من الواضح أننا درسنا تاريخ سوريا قبل العهد العثماني مرتبطاً بتاريخ مصر في نفس الفترة : إذ كان البلدان يتبعان حكماً واحداً ، ويكونان دولة واحدة .

— ٦٤٦ —

١ — الفترة العثمانية

١٩١٨ — ١٥١٦

تتفق سوريا مع مصر في بعض ملامح الحياة في ظل العثمانيين ، وهناك ملامح أخرى اختلفت هنا عنها هناك ، ومن أبرز الملامح التي اتفقت فيها سوريا مع مصر مكانة الباشا ، ونظام الالتزام ، والنتائج السياسية والاقتصادية والاجتماعية للحكم العثماني ، ولن نعيد هنا الكلام عن هذه الملامح المشتركة اكتفاء بما أوردناه عنها من قبل ، وسنعني باللامح التي انفرد بها سوريا .

السولا :

كانت الولاية في سوريا منصباً دسماً للباشا ، إذ لم يكن هناك مماليك كأولئك الذين كانوا في مصر ينافذون البasha سلطانه أو ينفصرون عليه عيشه ، ثم أن قوب سوريا من تركيا ضمن لولاية الباشوات نوعاً من المهمية ، ومن هنا كان تكالب الولاية على سوريا ملحوظاً ، وكان الطامعون في الولاية مستعدين أن يدفعوا رشوة باهظة لينالوها ، فكثر بذلك عدد الولاية في كل من ولايات سوريا ، إذ بلغ عددهم في ولاية دمشق ١٣٣ وإليها خلال السنين المائة والأربع والثمانين التي ابتدأت بالفتح العثماني (١) ، ولم يكن بين هؤلاء من أتم السنين في وظيفته ، وكانت الحالة في حلب مماثلة للحالة في دمشق ، بل قد توالى تسعه من الباشوات على المدينة خلال ثلاث سنوات ، وكثيراً ما كان الوالي يعزل قبل أن يحصل من الولاية على ما يعوّنه الرشوة الباهظة التي دفعها ، ولذلك نجد بعض الولاية يتمسكون بالولاية على الرغم من صدور فرمان بتولية والجديد ، بل هي أحياناً حروب طاحنة بين الباشوات الذين كانوا يتذارعون السلطة ،

٦٤٧ -

وكانت عاصمة العثمانيين تترك هؤلاء الولاة في صراعهم لأنها تعرف أنها ستتقاضى الجعل من من تكون له الغلبة منهم .

تقسيم سوريا ومشكلة لبنان :

يعتبر تقسيم سوريا أضخم ألوان العناء التي نزلت بها بل وبالعالم العربي نتيجة للحكم العثماني ، صحيح أن الاستعمار في المرحلة التالية هو الذي أبرز هذه المشكلة ، ولكن أساس التقسيم وضع في العهد العثماني ، وستتكلم هنا عن هذا الموضوع كله سواء ما تم في العهد العثماني أو في العهد الذي جاء بعده .

والعجب أن يقع التقسيم في سوريا مع أنها قلب العالم العربي ، وفكرة الوحدة عريقة وأصلية في سكان هذه البلاد ، ليس فقط بين أجزاء سوريا بعضها وبعض الآخر ، ولكن بينها وبين الأقطار العربية جميعا كما سجل التاريخ ذلك عدة مرات ، وكما سترى ذلك فيما بعد .

ال التقسيم بعيد الجنور :

وقصة تقسيم سوريا بعيدة الجذور ، ربما ترجع إلى أيام فتحها ، فقد اشتراك في فتحها عدد من جيوش المسلمين ومجموعة من القواد ، وقد اشتراك هذه الجيوش في بعض المعارك الكبرى كمعركة أجنادين ودمشق واليرموك ، ثم انقسمت جيوش المسلمين قسمين : اتجه قسم إلى الشمال بقيادة أبي عبيدة ومعه خالد بن الوليد ، واتجه قسم آخر إلى الجنوب بقيادة عمرو بن العاص وشريحيل ، وبقى يزيد بن أبي سفيان في منطقة دمشق ليحمي ما حققه المسلمون من انتصارات بها ، وبعد أن تم للمسلمين فتح الشام ولئن عمر بن الخطاب يزيد ولاية دمشق كما جعل معاوية واليا على الأردن ، وعين عمرو بن العاص واليا على فلسطين (١) .

(١) التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية للمؤلف ج ١ ص ٢٥٥ وبـ

بعدها و ج ٢ ص ٢٩ .

ولعله منذ ذلك الحين بدأت سوريا تتشعب إلى ولايات ، وربما أمكن القول أن هذا الصدف وضع من جديد خلال العهد العباسي ، فلعله كان ضروريًا لدى العباسيين أن تظل سوريا مفككة ، إذ كانت بغداد تخشى وتبات أهل الشام ، وأصبح ذلك شبه تقليد فيما بعد ، حتى انخلعت حلب عن الشام نهائياً وكونت مع الموصل دولة بني حمدان في فترة من الفترات سبق ذكرها ، وحتى أن صلاح الدين الأيوبي عندما قسم مملكته جعل دمشق لأحد أولاده وجعل حلب لابن آخر ، وفي عهد المماليك كانت سوريا مقسمة إلى « نيابات » ستة ، هي نيابة حلب وحماء ودمشق وطرابلس وصفد والركك وكان حاكم كل منها مستقلًا عن الآخرين ، له قصره الذي هو صورة مصغره من بلاط القاهرة ، وقد أبقى الأتراك الدوائر النيابية في سوريا على نحو ما كانت عليه في عهد المماليك ، ولكنهم بدأوا بعض الشيء في نظام التقسيمة ، قد عُيّت النيابة ولاية ، وأصبح الحاكم يسمى الوالي بدل النائب ، ثم اندمجت هذه الولايات بعضها في بعض عقب الحركة الاستقلالية التي قام بها « جان برمي غزالى » وسنكلم عنها فيما بعد ، فأصبحت الولايات سوريا ثلاثة ، هي ولاية دمشق وحلب وطرابلس ، ثم حملت صيدا ولاية سنة ١٦٦٠ م لتكون مركزاً للرقابة على لبنان (١) ولم تكن هذه الولايات بطبيعة الحال تقييماً لسوريا ، ولكنها على كل حال وضعت الأساس لتجزئه الوطن الواحد .

لبنان وجعاعات الجبل :

والحديث عن لبنان الذي ختمنا به الفقرة السابقة يقودنا إلى موضوع يحتاج إلى مزيد من التفصيل عن حركات الانشعاب في الشام ، ففي لبنان كانت تعيش أسر اقطاعية منذ عهد الفاطميين ومنذ عهد الصليبيين ، فقد لجأ إلى جبال لبنان الحصينة جماعة الدروز الذين يرتبط تاريخهم بالحاكم

(١) فيليب حتى : سوريا ولبنان وفلسطين ج ٣ ص ٢٧٤ و ٣٠٧ -

بأمر الله الفاطمي ، كما كان يعيش هناك جماعات الموارنة معتصمين بالجبال ، وقد أدعت فرنسا مسؤوليتها عن الموارنة الكاثوليك ؟ متذكرة الاتجاه بأن فشل الحروب الصليبية ألقى عليها مسئوليات دينية تجاه المسيحيين الذين يعيشون في هذه المنطقة منحدرين - في ادعائهم - من التجمّع الصليبي الذي كان قد أفل نجمه .

جماعات غريبة للوظائف في لمنار :

و جاء الحكم العثماني فأدرك قوة الانقطاع في لبنان ، ولكنـه أدرك في الوقت نفسه أنـ لبنان ليس مصدر خطر عليه ، فاتجه إلى مواطن الخطر في مصر وفارس ، وأكتفى من أمراء لبنان ومن شيوخ قبائله بالتبغية الأسممية ، ولعلـ هذا ساعد فرنسا أنـ تتمـ يدها إلى الـ موارنة ما دامـوا يـنعمون بـمركز مـمتاز في الـإمبراطورية العثمانية ، لـقوـسيـ بذلك اـمتيازـاتهم ولـقدـعمـ سلطـتهاـ بهـمـ ، فـتقدـمتـ إلـىـ السـلطـانـ العـشـمـانـيـ وـهـوـ فـأـوجـ مـجـدهـ تـطـلـبـ -
بـاسـمـ الصـدـاقـةـ وـالـدـبـلـومـاسـيـةـ -ـ مـركـزاـ لـرعاـيـاهـاـ دـاخـلـ الدـولـةـ يـمتـازـ عنـ رـعـاـيـاهـ باـقـيـ الدـولـ ،ـ وـقـدـ نـجـحـتـ سـنـةـ ١٥٣٥ـ فـ عـقـدـ مـعاـهـدـةـ بـهـذـاـ الـامـتـياـزـ ،ـ وـأـضـيفـ فـيـ هـذـهـ الـمـعاـهـدـ حـقـتهاـ فـ رـعـاـيـاهـ الـمـسـيـحـيـنـ الـكـاثـولـيـكـ فـيـ الدـولـةـ ،ـ وـكـانـ الـمـقصـودـ مـنـ كـلـمـةـ «ـ رـعـاـيـاهـ »ـ بـعـضـ الـشـدـمـاتـ الـثـديـيـهـ وـالـثـقـافـيـهـ ،ـ وـلـمـ يـكـنـ هـذـاـ يـضـرـ الدـولـةـ العـشـمـانـيـةـ لـأـنـهـ كـانـ قـوـيـةـ تـسـتـطـعـ فـأـيـ وقتـ مـنـ الـأـوقـاتـ التـدـخـلـ وـأـيـقـافـ هـذـهـ الرـعـاـيـاهـ ،ـ وـلـكـنـ "ـ تـطـورـ الزـمـنـ "ـ وـمـاـ أـصـابـ الدـولـةـ مـنـ وـهـنـ ،ـ نـقـلـ مـدلـولـ «ـ الرـعـاـيـاهـ »ـ إـلـىـ «ـ الـحـمـاـيـهـ »ـ وـجـعـلـهاـ حـقـاـ ثـابـتاـ لاـ يـمـكـنـ التـخـافـ عـنـهـ .

وما ان حصلت فرنسا على هذا الحق حتى حصلت روسيا على حق
مثيل له بالنسبة للمسيحيين الأرثوذكس .

ولم يكن المقصود من هذا التدخل دينياً ، ولكن ذلك كان - كالعهد ياوريا دائماً - استغلالاً للدين للحصول على نفوذ سياسي ، وأوضاع دليل

— ٦٥٠ —

على ذلك أن إنجلترا عندما رأت تدخل فرنسا وروسيا باسم الكاثوليكية والأرثوذكسية تدخلت هي أيضاً مدافعةً عن الدروز، وهكذا أصبحت جبال لبنان باعتبارها شعّةً بالمسيحيين والدروز منعزلةً من الناحية العملية عن باقي سوريا، وأتاح ذلك للأجانب فرصة التدخل في شؤونها منذ ذلك العهد المبكر.

وفي ظل هذه الامتيازات تقدمت أوروبا نحو الموارنة الكاثوليك تساعدهم وتقوى صلتها بهم، ويقرر الدكتور فيليب حتى أن المؤشرات الثقافية الغربية ممثلةً في بعثات الجزوئية وغيرها من الارساليات المسيحية عرفت طريقها إلى جبال لبنان منذ سنة ١٦٢٥ م، وأن دائرة اللاهوت الماروني في روما أتاحت لنصارى لبنان فرصة نادرة لتحصيل العلم؛ فقد اختارت المتفوقيين منهم ليديربوا في تلك الدائرة، وبعد أن يُتّهموا دروسهم، يعود بعضهم إلى الوطن ليشغلوا مناصب إكليриكية رفيعة، وينقى آخرون في روما يكتبون على الدرس والتاليف^(١).

وكانت دول أوروبا تتتهزّ الفرصة من حين إلى آخر لتحصل على مزيد من الامتيازات للمسيحيين، وبالتالي مزيد من حقوق التدخل باسم حمايتهم، وكانت هذه الفرصة تتموّل كلما تدهورت الدولة أو تقهقرت في معركة، وطالما حدث ذلك التدهور في عمر هذه الدولة آنذاك، وهكذا جُددت هذه الامتيازات سنة ١٧٤٠ كما جددت بفرمان الكلخانة سنة ١٨٩٩ عقب حرب القرم، والذي كون من المسيحيين ما يمكن أن يُسند دولة في داخل الدولة.

صراع الموارنة والدروز :

ونتيجةً لذلك بَرَزَ الموارنة في لبنان مؤيدين بفرنسا، ووقف الدروز مواجهين لهم مؤيدين بإنجلترا، ومؤيدين كذلك بالزعماء الذين كانوا يعملون

(١) المرجع السابق من ٣٢٠ و ٣٢٢ .

للاستقلال منذ القرن السادس عشر ، (وسنكلم عنهم عند كلامنا عن أشهر الولاية والأمراء) ، وبعوطف الباب العالي ، الذي — من أجل أن يستعيد نفوذه كاملاً في المنطقة — حرك الدروز للثورة ضد الموارنة سنة ١٨٤٢ م . وكان ذلك عقب جلاء ابراهيم باشا عن سوريا ، وقد ترك هذا الجلاء القوتين المتصارعتين وجهاً لوجه ، وبخاصة أن ابراهيم كان يقرب الموارنة نكارة في الدروز الذين كانوا يتوجهون إلى الاستانة ، وتقرباً من فرنسا التي كانت ترعى الموارنة .

وهناك موضوع آخر يتصل بهذا الجلاء أيضاً وهو أن ابراهيم باشا كان قد انتزع أراضي كثيرة من الدروز وسلمها للموارنة ، فلما تم هذا الجلاء حاول الدروز أن يستردو أراضيهم من الموارنة .

تقسيم لبنان :

وهكذا تجمعت للثورة أسبابها فاندلعت ، وتحرك الباب العالي متظاهراً بالرغبة في إخماد الثورة ، ولكن الدوافع الحقيقة كانت محاولته استعادة السلطان المباشر على الجبل كلّه ، بيد أن دول أوروبا تدخلت باسم الامتيازات السابقة ، فتقرر تقسيم لبنان إلى منطقتين إداريتين يحكم أحدهما عين من أعيان الدروز ، ويحكم الأخرى عين من أعيان الموارنة ، ويحمل كلّ منهما لقب « قائم مقام » . أما الأماكن المختلفة فانها تحكم بنائبين يعين أحدهما القائم مقام بمنطقة الموارنة ويعين الثاني القائم مقام بمنطقة الدروز ، وهبت الثورة من جديد سنة ١٨٤٥ فعمد الباب العالي إلى نزع السلاح من كل من الطرفين وعين مجلساً يتمتع بصلاحيات إدارية وقضائية إلى جانب كل قائم مقام ، وكان كل مجلس يتالف من ممثلين لمختلف طوائف الشعب ^(١) .

^(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٤ ص ٢٦ .

ولكن هــذا النظم الثنائى أثبت فشله لأن القوى المحركة من الخارج كانت دائمة العمل لإثارة الفتنة ، وقد عمدت الدول الى استصدار « التنظيمات الخيرية » سنة ١٨٥٦ كما سبق القول ، فزاد هــذا التصرف الأمر حدة ، وأثار ثائرة الدروز والمسلمين جميعا ، فبدأت في سنة ١٨٥٩ مذبحة هائلة كان سببها أن اعتدى بعض الموارنة على الدروز فقتلوا عددا منهم ، فهب الدروز للثأر ، وسقط في هــذه المجازرة آلاف الموارنة ، وخربت الدور ، وارتكتب الفظائع ، وامتد لهاب المجازرة إلى غير لبنان فدخل بعض البلاد السورية ومنها دمشق ، وتدخل بعض من عرف بالحكمة من المسلمين من أمثال عبد القادر الجزائري فتوقفت هذه المجازرة بعد أن سقط فيها ضحايا كثيرون ، وبعد أن تركت في جسم الدولة آلاما استعصت على الشفاء ، وقد تدخلت الدولة بعنف لإيقاف هذه المجازرة ، فحكمت بالإعدام على عدد من الدروز ونفت آلآف آخرين خارج الجبل ، ولكن بريطانيا تدخلت لإنقاذ أنصارها ، فأوقفت حكم الإعدام ، وعملت على السماح للمنفيين بالعودة إلى بلادهم .

وفي خلال هذه المجازرة اتفقت دول أوروبا أن ترسل فرنسا حملة إلى لبنان لحماية أرواح المسيحيين على لا تزيد مدة احتلالها للبلاد عن ستة أشهر ، وقد أرسلت الحملة فعلا ، ولكن الاجراءات الصارمة التي اتخذتها الدولة العلية لم تدع للحملة فرصة لإطالة مدة إقامتها بلبنان بالإضافة إلى أن الدول الأوروبية أصرت على أن تخرج فرنسا حتى لا تسقط باحتلال هذه المنطقة فجلت الجيوش الفرنسية عن لبنان في يونيو سنة ١٨٦١ (١) .

(١) انظر « في التاريخ الاسلامي الحديث » للدكتور ضياء الدين الرئيس من ١١٩ وما بعدها .

الحكم الذاتي في لبنان :

ولم يكن من الممكن أن تشرك أهوال الجبل على هذا الوضع ، فالحكم المباشر له يثير ثائر الموارنة ، والبعد عنه يثير ثائر الدروز ، ولذلك جرت مداولات طويلة بين الدول وبين الدولة العلية تقرر على إثرها أن يُمنح لبنان استقلالاً ذاتياً تحت ضمان الدول على أن يكون حاكم لبنان مسيحياً ومن غير لبنان ، وعلى أن تعترف هذه الحكومة بالسيادة القانونية للدولة العثمانية ، وصدر بذلك قانون سنة ١٨٦٤ ، وبذلك انسلخت لبنان رسمياً عن الأم سوريا ، وظلت لبنان تحكم في ظل هذا القانون حتى قيام الحرب العالمية الأولى ، وقد أتاح استقلال لبنان لفرنسا مزيداً من التدخل في الميدان الثقافي وميدان المال فعملت منذ ذلك التاريخ جاهدة ليتم صبغ لبنان بالصبغة الفرنسية .

ولعلنا نستطيع أن نتخبط بضم عقود من السنين لنضيف إلى حديثنا عن لبنان موضوعاً هاماً ، هو أنه بعد الحرب العالمية الأولى وبعد أن حصلت فرنسا على حق الانتداب على سوريا ولبنان ، أصدر الجنرال « غورو » قراراً في ٣١ أغسطس سنة ١٩٢١ نص على إيجاد « دولة لبنان الكبير » مكونةً من سنجق لبنان في العهد التركي ممسافاً إليه مساحات جديدة من الأرض السورية القديمة تضاعف مساحتها الأصلية ، وتجعل معظم الساحل السوري في أيدي لبنان الكبير .

لبنان تنتزع من سوريا وتنبع دوله مستقلة :

وقد كانت المصلحة التي توخاها الجنرال غورو من ذلك أن يوسع الإقليم الذي يتأثر ثقافياً بفرنسا ، بما يجعله دولة تستحق الوجود المستقل ، إلا أنه كان قصيراً النظر في ذلك ، إذ أن معظم الاتصالات الجديدة كان أهلها من المسلمين وبذلك انكمشت النسبة المئوية للمسيحيين ، فبعد أن كانوا كثرة ساحقة في سنجق لبنان القديم ، أصبحوا لا يكونون في الوضع الجديد أغلبية تستطيع فرنسا المسيحية

الاعتماد عليها ، فكان ذلك - حتى من وجهة نظر الاستعمار - عملاً مرتجلاً ينبع عن قصر النظر ، فضلاً عن أنه خلق سبباً جديداً من أسباب الخلاف في بلد يشكو من كثرة الخلافات ^(١) ، أما الأجزاء التي نصمت إلى لبنان هذه المرة فهي لواء بيروت ويشمل بيروت وميدا وصور وطرابلس ، وأقصىية أربعة هي بعلبك وحاصبياً ورانسياً والبقاع .

وفلسطين تنتزع من سوريا أيضاً :

وكان إخراج لبنان من سوريا أول تقسيم نزل بهذه البلاد ، وتلته تقسيم آخر تم بعد الحرب العالمية الأولى ذلك هو انتزاع فلسطين من سوريا ، وإخضاعها للانتداب الإنجليزي بناء على ما قرره مؤتمر سان ريمو في أبريل سنة ١٩٢٠ ، وقد نص في صك الانتداب على أن تعمل إنجلترا لتحقيق وعد بلفور بجعل فلسطين وطناً قومياً للميهود .

وقصة المملكة الأردنية :

وكان أول ما اتخذته بريطانيا لتحقيق هذا الوعد أن أضافت جديداً في سياسة التقسيم ، فاقتطعت من فلسطين المنطقة الواقعة شرق نهر الأردن وجعلتها إمارة ؛ وكان الذي فعل ذلك هو هربرت صموئيل اليهودي ، الذي عين مندوباً ساماً لبريطانيا في فلسطين وكان هربرت يقصد بذلك أن يحمي الدولة اليهودية التي ي يريد إنشاءها من هجمات البدو وثوراتهم بأن يقيم على حدودها دولة صديقة للاستعمار يخدعها بما يسميه الاستقلال ، وقد اتفق هربرت صمويل مع زعماء البدو في هذه المنطقة على قيام هذه الإمارة سنة ١٩٢١ ، ثم وفد إلى هذه المنطقة الأمير عبد الله بن الحسين في فبراير سنة ١٩٢٢ وكانت بعض أجزائها تابعة لسلطان أبيه في الحجاز ، وكان على رأس قوة عربية في طريقه لمحاجمة

(١) محمد حبيب احمد : نهضة الشعوب الإسلامية ص ١٨٦ .

فرنسا في سوريا انتقاماً لأخيه ففيصل الذي أزاله فرنسا ملكه وهو في مطلع العمر ، فأرادت إنجلترا أن تصيد عصافورين بحجر واحد ، أي أن تثبتت كيان الإمارة التي خلقتها بشرق الأردن من جهة ، ومن جهة أخرى أن تستجيب لفرنسا حليفتها التي طلبت منها إيقاف شغب الأمير عبد الله ، فعينته إنجلترا أميراً على شرق الأردن وأعطته سلطة محدودة ، وفي سبتمبر سنة ١٩٢٢ استصدرت إنجلترا قراراً من مجلس عصبة الأمم بإعفاء شرق الأردن من أحكام صك الانتداب المتعلقة بإنشاء وطن قومي لليهود *

وتطورت هذه الإمارة وزيادة سلطات الأمير شيئاً فشيئاً في حدود السيادة البريطانية حتى مارس سنة ١٩٤٦ حيث أصبحت الإمارة مملكة والأمير ملكاً عليها *

وعندما شبت حرب فلسطين ضم الملك إلى مملكته جزءاً من الأرض الواقعة غرب الأردن واتخذ مملكته اسم «المملكة الأردنية الهاشمية» *

ويقول الدكتور فيليب حتى (١) عن هذه الإمارة إنها خلقت لتكون دولة حلبة ما بين منطقة الانتداب البريطاني وريوبو القبائل البدوية الثائرة ، وقد أسهمت بوضفها ذاك في حماية الدولة الصهيونية التي كانت بريطانيا تنشئها منذ توالت الانتداب على فلسطين *

إسرائيل أيضاً في جزء من فلسطين :

ثم اقتطعت بريطانيا من فلسطين أكثر بقاعها وكانت به دولة إسرائيل *

والآن تعيش في أرض سوريا دول خمس هي : سوريا الحالية (التي تكون من البقية الباقية من سوريا الحقيقة بعدما اقتطع منها

(١) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ٣٥٤ .

من أرض على ما سبق) وللإنسان والملكة الأردنية الهاشمية وبقية الوطن الصليب (فلسطين) وأسائل الدولة الداخلية التي ينبغي ألا يطول لها في هذه المنطقة بقاء .

محاولات أخرى لتقسيم باقي سوريا :

وليس هذا كل ما نشأ بسوريا من تقسيم ، فإن السلطة الفرنسية التي وكل لها الانتداب على سوريا عقب الحرب العالمية الأولى عمدة إلى مزيد من التقسيم في هذه الدولة فاقتطعت منها لواء الاسكندرونة وجعلته تحت إشراف حاكم عسكري ثم تهافتت فيه وأسلنته ظلما إلى تركيا كما سترى فيما بعد وجعلت من باقي سوريا بعد ذلك أربع دوبيلات هي دمشق ، وحلب ، وجبل العلوين ^(١) ، وجبل الدروز في الجنوب على حدودالأردن ، وكان المقصود من ذلك اتباع سياسة « فرق تسد » ولكن الثورية السورية قضت على هذا التقسيم ، وأعلنت حكومات هذه الدوليات الأربع رغبتها في العودة إلى الاندماج مكونة الوطن الأصيل « سوريا الحالية » ونفذت هذه الرغبة فعلا .

(١) سنتحدث عن العلوين ومذهبهم عند الحديث عن « تركيب المجتمع السوري » .

أشهر الولاة والأمراء

ظهر في سوريا إبان العهد العثماني مجموعة من الولاة والأمراء جديرة بالذكر ، ومن الواضح أن هناك فرقاً بين الولاة وبين الأمراء ، فالأولون تولوا المناصب بكافعتهم واختيار الباب العالي لهم ، أما الأمراء فكانوا يمثلون أسرهم بلبنان ، تلك الأسر التي كان لها السلطان فترة قصيرة أو طويلة على بقعة صغيرة أو كبيرة من الجبل كما سبق ، وكان الحكم في هذه الأسر وراثياً ، ولم يكن للباب العالي في أكثر الحالات من السلطان إلا أنْ يجيز تعين من ألت له السيادة ، وستتكلم فيما يلي عن مجموعة من أولئك ومن هؤلاء :

جان بردى غزالى

سبق أن قلنا إن جان بردى خان الماليك في معركتهم ضد العثمانيين ، وفتح الطريق للجيش العثماني الزاحف ، وقد كفأ السادة الجدد بأن عينوه واليَا على دمشق وجعلوا له السيادة على باقي الولايات سوريا ، وقد أخذ غزالى يدعم سلطانه بالقضاء على الزعماء العرب الذين وقفوا بجانب الماليك في معركة الغزو ، فاجتاز رأس بعضهم كابن الحنش وابن الحرقوش ، وألقى بزعماء بني بحتر في السجن ، ولما اطمأن إلى قوة يده وغلبته على زعماء عصره في هذه المنطقة استدار لسيده العثماني وحاول أن يخلع طاعته ، وقد حدث ذلك عقب وفاة السلطان سليم سنة ١٥٢٠ وأعلن نفسه في المسجد الأموي حاكماً مستقلاً واتخذ لقب « الملك الأشرف » وضرب النقود باسمه ، ولكن سلطنته لم تستمر طويلاً فلما سقط السلطان سليمان القانوني أرسل جيشاً لجيأ من الانكشارية فأباد التمردين وقتل غزالى الخائن سنة ١٥٢١ ، وأنزل جيش الانكشارية بدمشق وضواحيها ألواناً من التخريب والتدمير والإبادة (١) .

(١) ابن ايسن ج ٥ من ٣٦٣ و ٣٧١ وما بعدها .

وجان بردى كرميله خير بك من مماليك قايتباى ، اشتراه وأعتقه فعينه الأمير تغري بردى في وظيفة مشرف في ضيعة في الغربية يقال لها منية غزال فنسب إليها ، ثم ترقى في الوظائف حتى صار محاسب القاهرة في عهد الغورى ، ثم أصبح كبير الحجاب فنائب حماة ، وبهذا أصبح في الخطوط الأمامية مع زميله خير بك ، فدبرا معاً مؤامرة الخيانة ضد المماليك ، وتتقاضى ولاية دمشق ثمناً لهذه الخيانة .

فخر الدين المعنى الأول : (يرجع نسبة إلى بنى معن)

عندما اشتعلت الحرب بين المماليك والعثمانين انضم الأمراء التوخيون إلى المماليك ، أما المعنيون بقيادة فخر الدين فقد استمعوا إلى نصيحة أميرهم بالتزويث حتى ترجح إحدى الكفتين فينحازوا لها ، فلما رجحت كفة العثمانين أسرع فخر الدين إلى السلطان العثماني معلنًا ولاءه ودعاه في خطبة بلية أوردها حيدر الشهابي المؤرخ اللبناني (١) ، وكفأه السلطان على ذلك بأن ثبته في إقطاعه ، وأيد امتيازه ، وفرض عليه جزية خفيفة ووسع ملكه ولقبه « سلطان البر » ، واستطاع المعنيون بذلك أن يقضوا على سلطان باقى الزعماء الإقطاعيين ، وأن يكون لهم اليد الطولى على الجبل كله ، وقد ظل فخر الدين يباشر سلطانه زعيماً للدروز والجبل حتى سنة ١٥٤٤ حيث قتل غداً ، ويُظن أن بعض عمالء الباب العالى هم الذين تخلصوا منه بهذه الطريقة .

فخر الدين المعنى الثانى :

بعد وفاة فخر الدين الأول أمير جبل الدروز ، قسام مقامه ابنته قورقماز ولكن الباب العالى أوعز إلى بعض عمالئه فقتلوه بالسم ، ولم يختلف إلا ابنا في مطلع الصبا سُمى باسم جده فخر الدين ،

(١) تاريخ سوريا ص ٥٦٠ .

وقد خافت أم الصبي عليه من اضطهاد العثمانيين فأخفته عند آل الخازن
في كسروان (١) .

ولما شب الصبي وأنس في نفسه القدرة عاد إلى منطقته حيث تولى
الحكم مكان أبيه سنة ١٥٩٠ ، وقد وفع فخر الدين أمامه أهدافاً
ثلاثة عمل طيلة عمره على تحقيقها بأية وسيلة من الوسائل شريرة كانت
أو دنيئة ، وهذه الأهداف هي :

- توسيع رقعة لبنان .
- العمل على استقلاله التام عن العثمانيين .
- العمل على جلب ألوان التقدم والازدهار إلى مملكته الكبيرة
المستقلة .

وببدأ وسائله لتحقيق هذه الغايات ، فكان منها أن حارب جاره
ووالد زوجته « يوسف سيفه » وانتزع منه إمارة بشمالي لبنان ، وكان
منها ألوان من الرشاوى قدمها لزعماء البدو في البقاع وفي المنطقة الجنوبية
حتى الجليل ، ورشاوي أخرى خدر بها حماسة معارضيه بالقدسية ،
ولما أحس بأن قوته ترايدت ، ونفوذه عظم ، أعلن الثورة على الباب العالي
سنة ١٦٠٣ ، وكانت الدولة آنذاك مثقلة بالحروب والمتابع فعمدت إلى
تسوية الأمر باللين والمسالمة .

ووصل فخر الدين في وسائله لتحقيق أطماعه إلى درجة بها كثير
من الشطط ، فقد استعان بآحفاد الصليبيين ضد السلطان العثماني ،
فعقد معاہدة مع فرديناند الأول أمير توسكاناً بشبه الجزيرة الإيطالية ،
وعمل على التقرب من البابا ومن أسبانيا ليحصل على ما أراد ، وفي

(١) دائرة المعارف الإسلامية : مادة : فخر الدين الثاني .

حماية هذه القوى ، وبمساعدة المالى الذى حصل عليه من فتح أسواق جديدة ببلاده للتجارة مع فلورنسا ، استطاع أن يكون جيشاً كبيراً استولى به على بعلبك سنة ١٦١٠ وهدد به دمشق نفسها ، وإزاء هذه الأطماع التوسعية والانفصالية ، أرسلت له الدولة جيشاً برياً من دمشق فأسطولاً كبيراً سنة ١٦١٣ فاضطر الأمير إلى انتزاع أنى ايطاليا مخلفاً إمارته في أيدي ابنه « على » يساعده أخوه عثمان ، واستطاع هذان مع جدتهمما أن يوقفا تدخل الباب العالى وباشا دمشق ، وبعد خمس سنوات عاد الأمير فخر الدين إلى لبنان وواصل نضاله باسم ابنه على الذى آثر أن يبقى أميراً لللامارة ، وقد استطاع الأمير فخر الدين فى نضاله الجديد أن يسترد ما كان قد اقتطع من إمارته فى أثناء عيابه ، كما استطاع أن يحقق مزيداً من الانتصارات ، ووجد الباب العالى نفسه مضطراً أن يعينه حاكماً على المناطق التى فتحها ، ووصل بذلك إلى العمل على تحقيق هدفه الأخير ؛ فاستقدم من ايطاليا ومن سواها من المالك الأوروبية خبراء ومهندسين نظموا له شئون الرى وحسنوا له مظاهر المدينة وبنوا له أعظم القصور ، كما قرب الإرساليات الأوروبية وأكثر من المستشارين الموارنة ، ومن أجل هذا كله كان ينتمى فى دينه ، واعتقد بعض الناس أن إسلامه كان فى الظاهر وأنه كان يخفي المسيحية .

وفي ذلك العهد الجديد أخذت الدولة العلية على « فخر الدين » أنه يحابى النصارى ويواصل اتصالاته بالأوربيين ويزيد في عتاد جيشه وفي عدده ، فساورتها المخاوف وبخاصة أن تاريخه مع الدولة لم يكن يدعى إلى الاطمئنان إليه والثقة به ، فقررت القضاء عليه نهائياً ، فأمر السلطان مراد الرابع واليه بدمشق كوتشك باشا أن يزحف عليه بجيشه لجب ، كما وجه إليه أسطولاً كبيراً بقيادة جعفر باشا ، وقد أبلى فخر الدين وبنوه في الدفاع عن إمارتهم بلاء حسنة ، ولكن الموالين له من آل سيفا وحرقوش بدعوا ينفصرون عنه ، وسقط ابنه « على » في الصراع ، ولم يجد فخر الدين وسيلة إلا الاستسلام فأخذ هو وبنوه

- ٤٦١ -

إلى القسطنطينية حيث تم إعدامهم سنة ١٦٣٥ وقد حاول ملحم بن يونس وهو ابن أخي فخر الدين أن يستعيد سلطنته ولكنه لم يحصل إلا على سلطان خثيل تحت رقابة عثمانية حاسمة ، ومن بعده تولى الحكم ابنه أحمد الذي توفي بعد فترة بدون عقب فانقرضت بموته الأسرة المعنية .

أبناء من أسرة العظم :

أُنجبت أسرة العظم مجموعة من الأمراء تولوا الإمارة عدة مرات على عدد من إمارات سوريا فكان منهم حكاماً على دمشق وصيدا وطرابلس وحماة وغيرها ، وكانتوا على العموم موضع ثقة سلاطين بني عثمان ، كما كانوا جديزين بهذه الثقة الشديدة ولاائهم ووفائهم لهؤلاء السلاطين ، ولكن ذلك لم يجعلهم بمنحة من سخط هؤلاء السلاطين في بعض الأحيان ، وبخاصة عندما كان يشتد ثراؤهم أو يسودون عليهم مظهر الغزور ، فحينئذ كان الباب العالي يوعز باغتيالهم أو يقضى عليهم جهراً ويعزلهم ويصادر أموالهم ، ومن أشهر ولادة هذه الأسرة اسماعيل باشا العظم الذي أُسنحت له ولادة دمشق سنة ١٧٢٤ وأبنه أسعد الذي تولى على صيدا ثم على حماة وأخيراً على دمشق والذي يُعد عمر أزهى عصور الحكم العثماني في منطقة ولادته ، والأسعد هذا قصر في دمشق بناء سنة ١٧٤٩ يعتبر أروع آثر عربي ظهر في هذا القرن ، فطرازه الهندسي وما استعمل عليه من فنون الفسيفساء والحرف في الخشب تمثل أروع ما بلغه الفن الإسلامي آنذاك (١) .

بشير الشهابي :

إذا أطلق هذا الاسم انصرف إلى بشير الشهابي الثاني ، (بشير الكبير) ، وقد سبقه بشير آخر هو بشير الأول وجاء بعده والي يحمل هذا الاسم أيضاً هو بشير الثالث .

(١) محمد كرد على : خطط الشام ج ٢ من ٢٨٩ - ٨٩١ .

وعندما أفل نجم المعينين في أواخر القرن السابع عشر ، عادت البلاد إلى السلطة التركية المباشرة ، بيد أن نزعة الاستقلال عبرت عن نفسها باجتماع عقده أعيان لبنان سنة ١٦٩٧ وانتخبوا الأمير بشير الشهابي (الأول) حاكماً عليهم وأرسلوا بقرارهم إلى والي صيدا معلنين ولاءهم للسلطان العثماني واستعدادهم لأداء ما يفرضه عليهم عن طريق البشير الجديد ، وقد استقر بشير الأول في الحكم إلى سنة ١٧٠٧ ، وتولى بعده أمراء من الشهابيين في فترة كثيرة القلاقل والاضطراب ، حتى جاء بشير الكبير أو بشير الثاني سنة ١٧٨٨ ، وقد استطاع هذا أن يضم حدأً للقلاقل ويقضي على كل المناوئين قضاء حاسماً ، ويبدو أن مفتاح سياسته كان متوجهاً نحو كراهية الآتراك بل كراهية الدين الذي استغلوه الآتراك لينالوا هذه المكانة ، ويقال إنه لذلك فقد تتحسن سرعاً ، وأن هذا هو سبب مساعدته لنابليون عندما زحف لاحتلال الشام ، بيد أنه أرض العثمانيين عندما أوقف زحف الوهابيين على الشام سنة ١٨١٠ وراح بعد ذلك يقوى سلطانه ، ويتوسّع إقليمه ، ويمد سلطانه إلى الأقاليم المجاورة ، ويبدو أنه بالغ في هذا الاتجاه ، مما أدى إلى إبعاده عن لبنان مدة عام واحد سنة ١٨٢١ - ١٨٢٢ وقد أمضى هذا العام في مصر حيث عقد صلة وثيقة مع محمد على رأس الأسرة العلوية بمصر ، وكانت هذه الصلة سبباً في تعاون الاثنين عندما زحف محمد على على سوريا وعبر جبال طوروس موغلًا في بلاد الترك .

وعندما أُرغِمَ إبراهيم باشا على الانسحاب من الشام فرَّ
الأمير بشير إلى مالطة .

وبشير الثاني كبير الشّبه في اتجاهاته الاستقلالية والإصلاحية بالأمير فخر الدين ولكنّه يفوقه في هذه الاتجاهات ، كما كان يفوقه في حسن السمعت والقامة ، فقد كان فخر الدين قزماً ذمياً ، ولكن بشير كان حسن القامة مهيب الهيئة .

وبعد بشير الثاني جاء بشير الثالث (١٨٤٠ - ١٨٤٢) وكان هذا

يختلف عن بشير الكبير في براعته ومكانته وميله ، وكان من ترعموا الحركة التي ثارت في لبنان ضد ابراهيم باشا عندما أراد ابراهيم أن يجرد اللبنانيين من السلاح ويزيد في الضرائب المطلوبة منهم ، وكوفئ على ذلك بأن أسفدت له إمارة الجبل بعد بشير الكبير ، ولكن سياسة الأفراط كانت قد اتجهت نحو إثارة الفضائح بالجبل بين الموارنة والدروز ليتخذوا من ذلك وسيلة لحكم الجبل حكماً مباشراً ، فبدأت سلسلة القلاقل والمذابح التي تحدثنا عنها من قبل .

ظاهر العمر :

ينحدر ظاهر العمر من أصل حجازي ، وقد انتقل أجداده من شمالي الحجاز إلى فلسطين إبان عهد صلاح الدين الأيوبي ، حيث كانت القوى الناهضة تتجمع في منطقة الكفاح ، وأبو ظاهر العمر هو « عمر أبو ظاهر » وكان عاملاً على صفد من قبيل بشير الأول ، وبعده خلفه ابنه ظاهر العمر حوالي سنة ١٧٣٧ ثم أخذ يمد نفوذه من صفد إلى ما حولها وضمّ منطقة طبرية ونابلس والناصرة ، ثم استطاع أن يضم عكا إليه سنة ١٧٥٠ + وبهذا عظّم سلطانه وكبر شأنه وأخذ يهدّد الدولة العثمانية التي لم تكن ترضي عن توسيعاته تلك التي أجرأها دون إذن من الدولة ، ومن أجل هذا اتجه ظاهر العمر إلى إحياء عكا وإعادة تعميرها وكانت آثار الدمار الصليبي لا تزال واضحة بها ، ثم اتخاذها ثغراً يصدر منه الحرير والقمح وغيرها من منتجات فلسطين ، وبهذا أصبحت عكا تمثل حصناً سياسياً واقتصادياً ، وكان ظاهر العمر قوياً في غير تعسف ، مسلماً دون اضطهاد لغير المسلمين ، فنعت بلاد في عهده برخاء واطمئنان ظاهرين .

- ٦٦٤ -

وتحركت الدولة للقضاء على هذه الحركة الاستقلالية ، ولكن حدث في نفس الوقت أن أعلن على بك الكبير في مصر استقلاله وتحالفه إلى الشام ، فتحالف معه ظاهر العمر وسار الحليفان بيوغان بجيوش الدولة هزيمة بعد هزيمة ، واستطاع الجيشان دخول دمشق سنة ١٧٧١ ، وكفأه على بك الكبير بأن خصم له مدن يافا وغزة والرملة ، ووصل ظاهر العمر بذلك إلى قمة مجده ، ثم بدأ الانهيار على القوتين المتحالفتين عندما غدر محمد أبو الذهب بسيده على بك الكبير وقضى عليه وأعاد اعتراه بالدولة العلية ، وبذلك تفرغت الدولة للقضاء على ظاهر العمر ، ورمته بمملوك آخر لعلى بك الكبير هو أحمد الجزار الذي سنتكلم عنه فيما بعد ، وقد حاصر الجزار عكا ، وظل ظاهر العمر يقاوم الحصار حتى كلت قواه وفرغت ذخيرته ، فحاول الهرب ولكن محاصريه قبضوا عليه ، وقتل عام ١٧٧٥ بعد أن كون دولة مستقلة مدة مترين على ربع قرن ٠

أحمد الجزار :

كان أحمد مملوكاً لعلى بْنِ الْكَبِيرِ فِي الْقَاهِرَةِ ، وَفَدَ أَئْسَ فِيْهِ سَيِّدُهُ الْقُوَّةِ وَالصَّرَامَةِ وَوَجَدَهُ غَلِيظَ الْقَلْبِ قَلِيلَ الْعَاطِفَةِ فَعَيْنَهُ جَلَادًا لَهُ ، وَقَدْ أَظْهَرَ مِنَ التَّقْنُنِ فِي إِنْفَاذِ مَهْمَتِهِ وَالرَّغْبَةِ فِي الْقِيَامِ بِهَا مَا أَكْسَبَهُ لَفْظَ «الْجَزَارِ» ، وَكَانَ شَدِيدُ الْإِفْتَخَارِ بِهَذَا الْلَّقْبِ ، بِالْعَلْمِ الْحَرْصِ عَلَى أَنْ يَظْلِمْ جَدِيرًا بِهِ (١) ٠

وَهَدَثَ خَلَفٌ بَيْنِهِ وَبَيْنِ سَيِّدِهِ عَلَى بْكِ الْكَبِيرِ ، يُقالُ إِنْ سَبَبَهُ الْأَلوَانُ الْغَدَرُ الَّتِي اشْتَهِرَ بِهَا عَلَى بْكِ الْكَبِيرِ وَمَحَاوَلَةُ الْقَضَاءِ عَلَى مَنْ ٠

(١) فِيلِيبُ حَتَّى : تَارِيخُ سُورِيَا وَلِبَنَانَ وَفَلَسْطِينَ ج ٢ ص ٣٣٨ ٠

أمعنهم ، فهرب أحمد الجزار من مصر واتجه إلى الدولة العثمانية التي رحب به ، فلما انهاز على يك الكبير أرسلت الجزار إلى ظاهر العمر حليف على يك الكبير وزعيم الحركة الاستقلالية في عكا كما رأينا آنفاً ، وقد استطاع الجزار أن يقضى على ظاهر العمر وعلى حركته ، فعينته الدولة مكانه وأمتد سلطان الجزار جنوباً وبنى الحصون وكوئن الجيوش والأساطيل ، وأصبحت عكا قلعة حصينة في عهده ، وقد بلغ أوج مجده سنة ١٨٩٩ عندما استطاع أن يوقف زحف نابليون ، وأن يصمد في الدفاع عن عاصمته صموداً قوياً ، حتى اضطر نابليون أن يوقف الخمار وأن يسحب جنوده عائداً بأذىال الخيبة ، وقد ظل يحكم هذه المنطقة حتى سنة ١٨٠٤ حيث مات وهو ناعم بكثير من المهدوء ورغد العيش .

حضور سوريا في العهد العثماني وأثرها في الحياة العربية :

يمكن القول إن لبنان كان النافذة التي دخلت منها ثقافة الغرب الحديثة إلى البلاد العربية ، وقد رأينا الموارنة فيما سبق يتصلون بفرنسا ، وبدائرة اللاهوت برومَا كما رأينا الصلات التي عقدت بين الأمير فخر الدين والأمير بشير الشهابي من جانب وبين إمارات الأوروبية من جانب آخر ، ورأينا كذلك الصلات التجارية التي اتخذت من لبنان معبراً إلى الشرق ، وعلى هذا حظيت لبنان بمرحلة متقدمة في المعلوم والمعارف التي ازدهرت في القرن السابع عشر بأوروبا ، وفي لبنان ظهرت أول آلة طابعة في الشرق العربي في مطلع القرن السابع عشر وكانت تطبع باللغة السريانية وباللغة العربية مكتوبة بالحروف السورية ، على أن المطبعة العربية ظهرت في أوروبا في أواخر القرن السابع عشر ، إذ اتجهت

- ٩٦ -

الرغبة البابوية الى طبع الكتب الدينية والمدرسية لاستخدامها في المعاهد المسيحية العربية بلبنان ، ثم انتقلت هذه المطبعة الى الجبل في القرن الثامن عشر وربما في مطلعه .

على أن الجبل لم يتسم لهذه التقاليف ولا للمثقفين الذين كانوا يعيشون به ، فاندفعوا هذه التقاليف الى الخارج ، ورحل كثير من المثقفين الى القاهرة ، حيث أصبحت مركزاً ثقافياً واسعاً ، نشر العلوم والمعارف في كل أرجاء الوطن العربي عن طريق الصحفة الكبرى ، والمجلات واسعة الانتشار ، والمطابع التي أذاعت الفكر والمعرفة على أوسع نطاق .

- ٥٦٧ -

٢ - فترة الاحتلال الأوروبي

١٩٤٦ - ١٩١٨

لا يمكن الحديث عن فترة الاحتلال الأوروبي لسوريا دون أن نوضح
كيف تم الاحتلال ، وما المؤامرات الاستعمارية التي سبقته ، وأعدت
له وانتهت به . وبسيط يوضح ذلك من بيان القوى التي تنازعـت السلطـان
في سوريا .

القوى التي تنازعـت السلطـان في سوريا:

أولاً - رأينا فيما سبق كيف كانت فرنسا تتطلع إلى سوريا ،
وكيف ناصرت الحركات الاستقلالية في لبنان ، وكيف احتلت الجبل سنة
١٨٦٠ مدة عام تقريبا ولم تخرج منه إلا تحت ضغط الدول ، وكيف نشرت
بين الموارنة ثقافتها ولغتها ، وفي سنة ١٩٠٤ عندما عقدت فرنسا اتفاقا
سريـا مع بـريـطـانيا حرـصـتـ علىـ أنـ يـنـصـ هـذـاـ اـتـفـاقـ عـلـىـ أـنـ تـنـطـلـقـ يـدـهاـ
فـسـورـيـاـ وـلـبـنـانـ مـقـابـلـ اـطـلاقـهاـ يـدـ اـنـجـلـتراـ فـيـ مـصـرـ ، وـكـانـ ذـلـكـ كـلـهـ تمـهـيدـا
لـفـرـصـةـ قـدـ تـسـفـحـ لـاحتـلـلـ فـرـنـسـاـ لـسـورـيـاـ وـلـبـنـانـ ، فـلـاـ عـجـبـ أـنـ أـصـرـتـ
عـلـىـ أـنـ يـتـمـ لـهـ ذـلـكـ عـقـبـ الـحـرـبـ الـعـالـمـيـ الـأـوـلـىـ .

ثانياً - تطلعـتـ إـنـجـلـتراـ إـلـىـ الـجـزـءـ الـجـنـوـبـيـ مـنـ الشـامـ (ـ فـلـسـطـينـ)
عـلـىـ الـأـقـلـ ، لـحـمـاـيـةـ قـنـاـةـ السـوـيـسـ ، وـتـأـمـيـنـ قـوـاتـهاـ فـيـ مـصـرـ ، وـضـمـانـ سـلـامـةـ
الـطـرـيقـ إـلـىـ الـهـنـدـ .

ثالثـاـ - كانـ النـقـوذـ الصـهـيـونـيـ قدـ بدـأـ يـتـضـعـ فـيـ الـمـجـالـ الـعـالـمـيـ ،
وـقـدـ لـعـبـ خـلـالـ الـحـرـبـ دورـاـ عـسـكـرـيـاـ وـاقـتصـادـيـاـ وـسـيـاسـيـاـ أـتـاحـ لـهـ أـنـ

يفرض نفسه على القوى الغربية لاتخاذ هذه القوى معبرة عن آماله ، عاملة على أن تتحقق له أهدافه ، وقد تركت هذه الأهداف قبيل الحرب وخلالها في جعل فلسطين وطنًا قوميًا للمسيحيين .

رابعاً كان هناك أيضًا الأشراف ، وهم طلاب، مثلك ، ولا يهمهم أين يكون هذا الملك ولا كيف يتحقق ، على أن سوريا كانت أقرب البلاد لكة حيث كانوا يعملون ولاة منذ عهد طوبيل ، ومن هنا اتجهت لسوريا أطماعهم مع هؤلاء الذين اتجهوا بالأطماع إلى سوريا .

خامساً — هناك قوة خامسة كان لها السلطان على سوريا حتى الحرب العالمية الأولى وكانت تطمع في أن يظل لها هذا السلطان ، تلك هي تركيا ، بيد أن أحداثاً جرت فباعت دين الأتراك والعرب ، وقد أن لنا هنا أن نوضح العلاقة بين هؤلاء الأتراك وأولئك العرب :

ماذا كان أساس هذه العلاقة ؟ وكيف تطورت ؟ وإلى أي غاية انتهت ؟

هل كان الأتراك مستعمرين للبلاد العربية ؟

أو تكون منهم ومن العرب دولة اتحادية إسلامية ؟

كان الاتجاه الذي صحب الزحف العثماني يمثل الوحدة الإسلامية ، وقد اتخذ الترك وسائل لتغيير هذا الموقف ، فحمل رؤساؤهم لقب الخلفاء ، وأصبح الدين الإسلامي دين الدولة ، ورفع الخلق العثمانيون أفراداً من المسلمين الذين ينتهيون إلى أقطار عربية مختلفة إلى مناصب كبرى في دولتهم ، مثل أحمد عزت باشا وأبو الهدى الصيادي من سوريا وعزيز على المصري من مصر ومحمد شوكت باشا من العراق وغيرهم .

وتؤكد هذا الاتجاه بالحركات المسيحية ضد الدولة ، تلك الحركات التي أبرزت الجموع المسلمة ممثلة في الإمبراطورية العثمانية في جانب ، والجماع المسيحي الأوروبية في جانب مضاد ، وتؤكد هذا الاتجاه كذلك بالعداء

الذى أعلنه المؤرخين المسيحيون للامبراطورية العثمانية . وعلى العكس من ذلك وقف المفكرون والمؤرخون المسلمين موقف الذود عن هذه الامبراطورية ، وأتجهت جماعة المسلمين الى اعتبار الارتباط بالترك نوعاً من التجمع الاسلامي مقتضي بالوسائل العثمانية التي أوردنها آننا ، وأأملين في هذا التجمع القوة التي تمكنتهم من رد العدوان المسيحي الذى طالما احتشد وتألف ضدتهم ، ومما قوئى عند المسلمين هذا الاتجاه ما كانوا يعانون من ضغط القوى الصليبية الزاحفة على البلاد العربية من الأندلس أو من قلب أوروبا وشرقها ، وما قواه كذلك أن الانتصارات التركية بأوروبا حملت معها الاسلام الى كثير من البقاع ، وكان الدعاة المسلمين يصاحبون الجيش أو يتبعونه .

لو هكذا انتصر الاتجاه الاسلامي حتى أصبح الانضمام لكتلة الاسلامية عملاً ملوفاً نفعه بارباروسا بالشمال الافريقي ، وهدد به قادة أتشيه احدى مناطق جزيرة سومطرة ، أما ما بُرِزَ في بعض الخلفاء من عيوب فقد عَدَ خطأً شخصياً لا يدفع لفصم التجمع وإنما يدعو لمحاولة إصلاح هذا الخطأ أو تغيير هذا الخليفة ؛ وهذا هو ما حدث عندما استطاعت « جمعية الاتحاد والترقي » بقيادة أنور ونيازى وشوكت أن تتبح في ثورتها وأن ترغم الداهية عبد الحميد على إعادة الدستور ثم أن تخليه سنة ١٩٠٩ ، فقد قامت الأفراح في البلاد العربية وتغنى شعراً بها بهذا النصر ، وكان مما قاله حافظ ابراهيم الشاعر المصري في هذه المناسبة .

ثلاثة أساد يجانبها الردى وإن هي لاقاها الردى لا تجانيه
روت قول بشار فثارت وأقسمت وقامت إلى عبد الحميد تحاسبه
(إذا الملك الجبار صغر خده مُسْعِينا إليه بالسيوف نعاته)

ولكن الدولة العلية كانت كثيرة المروب ، وكان العرب يكتونون بنار
الهزائم ولا ينالون أي نصيب من الانتصارات إن كانت هناك انتصارات ،

— ٦٧٠ —

وتدهورت الحضارة العربية خلال هذه الفترة ، حتى أصبحت البلاد تعيش في ظلام دامس وجهل مطبق ، وكان الولاة ظالمين في الغالب ، والقطاع مسيطرًا يضع الثراء في أيدي قليلة ويترك ما سواها تعانى الفقر والجوع ، وكان الشعب يئن من الآلام ويحار بالشکوى ، ولكن الدولة العلية لم يكن يძنيها من أمر الرعية شيء مادام أنوئي يرسل للاشتانة هداياه ، ويوافق دفع الفسقية المقررة عليه .

ثم إن الدولة العلية منيت بهزائم ساحقة بأوروبا ، وانعكست هذه المهزائم على الدول العربية لها فتختطفتها الأيدي الاستعمارية القاسية فاحتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠ وتونس سنة ١٨٨١ ، واحتلت إنجلترا مصر سنة ١٨٨٢ وتحفظت إيطاليا لاحتلال طرابلس وأتمت الاحتلال سنة ١٩١١ ووقفت الدولة مكتوفة اليدين إزاء هذه الأحداث .

اتجاه تركيا الى القومية التركية :

وعقب عزل السلطان عبد الحميد تولى الاتحاديون الحكم سنة ١٩٠٩ واتجهوا اتجاهها قاسيا نحو ضرورة سيطرة القومية التركية وتطهير اللسان التركي من الألفاظ الغربية ، بل راحوا يتذكرون للإسلام ، ويرفعون أسماء الخلفاء الراسدين من المساجد ، وشاعت في هذه الفترة تلك العبارة التي تمثل اتجاههم تجاه العرب والاسلام وهي قولهم « إن العودة إلى عبادة الذئب الأبيض أجزى لنا من دين العرب » .

واشتبك الترك في هذه المرحلة بقوميتهم فاتجهوا الى نظام المركبة ومحاربة اللغة العربية حتى في بلادها ، وقاوموا بالعنف كل حركة تنادي بالاصلاح وتحسين الأحوال .

وهكذا تجمعت الأسباب التي تدعو الى انشقاق العرب على تركيا ، واعتبار الخصوص لها نوعا من الاستعمار ، وقد بدأ العرب نشاطهم بالتشكييلات العبرية وبالجمعيات العربية ، كجمعية العربية الفتاة التي

أسست سنة ١٩٠٠ في باريس ثم نقلت إلى بيروت ثم إلى دمشق ، وكذلك تأسيس حزب العهد سنة ١٩١٣ لمقاومة العنصرية التركية الطورانية ، وقامت كذلك جمعيات أخرى مماثلة ، كجمعية الإخاء العربي ، والمنتدى الأدبي ، والجمعية القحطانية وغيرها .

وظهر مجموعة من الرجال العمالقة الذين بعثوا هذا الاتجاه وغذوه بأقلامهم وخطبهم ، وفي قمة هؤلاء عبد الرحمن الكواكبي وأبراهيم البازجي وغيرهما ، وقد أصدر الأول في ذلك كتابين هما « أم القرى » و « طبائع الاستبداد » وألقى الثاني بقصائده الوطنية القوية فهيجت العرب وحمسنهم نحو التحرر من ظلم الترك ، ومن شعره في ذلك قوله يخاطب العرب .

لا دولة لكم يشتد أزركم بها ، ولا ناصر للخطب ينتقدكم
أقداركم في عيون الترك تازلة . وحكم بين أيدي الترك مفترض .

نخلص من هذا إلى أن قوة تركيا كانت في نزعها الأخير ، وأن حرصها على البقاء في سوريا كان قد أصبح ضئيلاً لاأمل في تحقيقه ، وبهذا يمكن أن تُبعد تركيا عن مسرح الطامعين في سوريا ، بل، إن حرصها جلب عليها مزيداً من السخط ، فان جمال باشا قائد الجيش التركي والحاكم العسكري في سوريا ولبنان عندما أحسن بانصراف العرب عن الأتراك أنزل غصبه القاسي على الزعماء ، وراح يعدم شنقاً وينكل بهم تكتيلاً فظيعاً وضع حداً نهائياً للعلاقة بين سوريا وتركيا .

سوريا من العرب العالمية حتى الاستقلال :

إذا كانت تركيا قد أبعدها فإن سوريا عند مطلع الحرب العالمية الأولى كانت تتشاركها القوى الأربع المتنافدة فيما سبق ، ولكن ينبغي أن يتضح أن هناك قوة خامسة كانت قد عقدت العزم على أن تنتصر مهما كلّفها الصراع من دم ونصال ، تلك هي القوة السورية والقوى العربية

- ١٧٣ -

على التهوم ، وسنرى فيما يلى ماذا تحقق لكل من هذه القوى من أطماع
وآمال ، فلنتابع بايجاز مجريات الأحداث من بدء الحرب العالمية الأولى .

- دخلت تركيا الحرب في نوفمبر سنة ١٩١٤ في صف ألمانيا ، وكان
ذلك منها عملا غير مفهوم ، فلسم تكن صلتها بألمانيا أقوى من صلتها
بالخلفاء ، وبدخول تركيا الحرب على هذا الوجه ، قررت إنجلترا وفرنسا
تنفيذ تقسيم الدول العربية حسبما كان مقررا في الاتفاقيات المسرية ،
وبخاصة اتفاقية سنة ١٩٠٤ .

- وفتحت الحرب بفرصة للدول العربية لتعلن سيطرتها على تركيا
ورغبتها في الاستقلال عنها ، وقد تجمعت كلمة زعماء جمعية العربية الفتاة
وجمعية العهد بالاتفاق مع فیصل بن الشريف حسين على المطالبة باستقلال
العرب ، وهكذا أصبح الشريف حسين ممثلا للفكرة العربية .

- وأيدت إنجلترا اتجاه العرب ، ولوحت باستقلال ، وتعهدت
بتقديمه ، وتبدلت رسائل عن ذلك بين ممثلها بالقاهرة هنري مكماهون وبين
الشريف حسين ، ومجموع هذه الرسائل ثمانية وكان تبادلها في الفترة
ما بين ١٤ يوليو سنة ١٩١٥ و ٣٠ يناير سنة ١٩١٦ ، وقد حددت هذه
الرسائل حدود المملكة العربية في المستقبل ، وضمنت استقلالها ، كما
أيدت زعامة الشريف حسين الدينية والسياسية للعرب ، وتعرف هذه
الرسائل في التاريخ برسائل حسين - مكماهون .

وأعلن الشريف حسين الثورة العربية في يونيو سنة ١٩١٦ وقدمت
له إنجلترا مساعدات مادية وأدبية كبيرة ، كان من أبرزها عشرة ملايين
من الجنierات الاسترلينية ومقادير كبيرة من الأسلحة والذخائر ، كما قدمت
إنجلترا للشريف ، الكولونيل لورانس الذي أصبح الرئيس المدبر للثورة
والعقل المذكر للإشراف ، وقد استطاع هذا أن يكسو نفسه بفروة عربية

— ٤٧٣ —

خدع بها الشريف وأعوانه ، ودارى بها أحاسيس غربية مسيحية صهيونية متطرفة (١) ، وتقدمت الثورة بنجاح تجاه الشمال حتى دمشق وأعلن الشريف حسين استقلال العرب ، ونودى به ملكا على العرب في ديسمبر سنة ١٩١٦ .

— وفي نفس الوقت الذى كانت بريطانيا تجري مباحثاتها مع الشريف حسين وتعهد باستقلال العرب ، كانت تجري مباحثات أخرى مع فرنسا تقسم بها ثروة « الرجل المريض » وتمت بذلك الاتفاقية : ساينكس - بيكون سنة ١٩١٦ وقد قبلت روسيا القيصرية هذه الاتفاقية إذ مثّحت من ثروة الرجل المريض ما أرادت . ويهمنا من هذه الاتفاقية أنها قسمت المنطقة العربية موضع التزاع إلى قسمين ، أحدهما يشمل المناطق الآتية :

١ - المنطقة الزرقاء وتمتد على الساحل السوري شمال فلسطين وتخضع لإدارة فرنسا .

٢ - المنطقة الحمراء وتمتد من خليج البصرة بحذاء حدود ايران حتى شمال بغداد وتخضع لإدارة بريطانيا .

٣ - المنطقة السوداء وتشمل فلسطين وقد تقرر أن تخضع لنظام إداري دولي .

أما القسم الثاني فيشمل المنطقة الواقعة بين المدينتين الزرقاء والحمراء ، وتقام دولة عربية بهذا القسم تشرف بريطانيا على الشطر المتصل بمنطقتها وتشرف فرنسا على الشطر المتصل بمنطقتها كذلك .

(١) انظر مذكرات وايزمان ص ٥ - ٦ وانظر كذلك كتاب « اليهودية » للمؤلف ص ٩٠ .

و عند نجاح الثورة البلشفية سنة ١٩١٧ في روسيا ، نشرت روسيا وثائق الأرشيف السرى لروسيا القيصرية ومنها هذه الاتفاقية ، ولكن بريطانيا توصلت منها مدعية أنها كانت محادثات عامة قد تمت قبل الثورة العربية ، وتقبل الشريف حسين هذا التفسير لشدة ثقته بخلفائه الإنجليز .

— وفي نفس الوقت كذلك كانت اتجاهات بتأييد الخلفاء تصدر تصريح بلفور في نوفمبر سنة ١٩١٧ و تتبعه بإنشاء وطن قومى لليهود في فلسطين ، و أكتفى الشريف حسين كذلك بتفسير خداع لا يحمل أى معنى الا تهدئة الخواطرو .

— انتهت الحرب في نوفمبر سنة ١٩١٨ وبدأ الاستعمار يسفر عن نياته الحقيقية ، وكان أول ما حرص عليه تعديل اتفاقية سايكس — بيكون بعد انسحاب روسيا من الميدان ، ويفضى هذا التعديل بما يلى :

١ — يكون انتداب فرنسا على كل سوريا لأن بقاء الجزء الداخلى مستقلًا سيسبب لها المتاعب .

٢ — تتنازل فرنسا عن الموصل لبريطانيا مقابل منحها حصة المائة من بيروت والوصل .

٣ — توضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني لتعمل على تحقيق وعد بلفور .

— وكان شكري باشا الأيوبي أحد زعماء الثورة العربية قد أعلن قيام السيادة العربية في بيروت في أكتوبر سنة ١٩١٨ ورفع العلم العربي ، وبعد أيام دخلت قوات الاحتلال سوريا وأنزلت العلم ، ثم انتهت الحرب ومرت فترة أدرك العرب فيها خداع الوعود البريطانية ، فاجتمع المؤتمر السوري في دمشق في ٨ مارس سنة ١٩٢٠ وقرر إعلان استقلال سوريا

. ومعها فلسطين ولبنان دولة ذات سيادة ملكية دستورية ونادى بالأمير فيصل ملكاً عليها ، ولكن بريطانيا وفرنسا لم تعترقا بهذا القرار .

— ووسط هذا الخلاف رأى الرئيس ويلسون أن يتعارف على الأحوال في هذه المنطقة فأرسل اللجنة التي عرّفت بلجنة «كتيج كرين King Crane Commission » وقد أخذت اللجنة تتصل بالهيئات والأفراد ، وقررت في النهاية المحافظة على وحدة سوريا بما فيها فلسطين ، فيما عدا الأماكن المقدسة التي تتوضع تحت اشراف دولي ، ووضع سوريا تحت وصاية لمدة محدودة على ألا تكون فرنسا هي الدولة الوصية بأى حال من الأحوال والمدعول عن فكرة إقامة وطن يعودى بفلسطين ، والموافقة على جعل الأمير فيصل رئيساً للدولة ، ولكن هذه القرارات القربيّة من العدالة لم تجد أى صدى عند المنتصرين .

— واجتمع المجلس الأعلى للحلفاء في أبريل سنة ١٩٢٠ في سان ريمو وفي هذا المؤتمر تمت تقسيمات المنطقة العربية ، على نحو التعديل الذي أجري في اتفاقية سايكس — بيكر .

— وزاد بذلك الخلاف، حدة ، فالمؤتمر السورى في مارس يعلن استقلال سوريا ويضع فيصل ملكاً عليها ، ومؤتمر سان ريمو يضع هذه البلاد تحت الانتداب ، وقد عينت فرنسا الجنرال غورو مندوباً لها ، وقد أرسل هذا إلى فيصل إنذاراً حاسماً بقبول الانتداب دون قيد ولا شرط ، وإلغاء التجنيد الإجباري ، والسماح للجيش الفرنسي باحتلال حلب ومحطات السكة الحديد ، ومال فيصل إلى قبول الإنذار بل قبله فعلاً ، فخلق هوة بينه وبين الشعب السوري ، ومع هذا كان غورو لم يحفل برد الفعل السوري تجاه الإنذار شيئاً أو رفضاً بل تحرك بقواته إلى دمشق وتصدت له القوى العربية الثائرة التي لم يكن معها ذخائر تذكر ، وكان يقودها البطل

يوسف العظمة ، والتقى الجيشان عند ممر ميسلون وهو مضيق جبلي بين سوريا ولبنان ، وانتصرت القوة الغاشمة ودخلت دمشق وأبعدت الملك فيصل عن البلاد ، وبدأ بذلك عهد الانتداب المقيت .

— وقامت ثورات متتالية في سوريا ضد هذا الانتداب ، من أهمها ثورة البطل إبراهيم هنفيو التي قامت في شمال سوريا سنة ١٩٢٠ والثورة التي قامت في منطقة الفرات في نفس العام واستولت على دير الزور ، ولم يستطع الفرنسيون استردادها إلا بعد عام ، وثورة حوران جنوبي دمشق في نفس العام أيضا ، على أن أعظم الثورات السورية ضد الانتداب الفرنسي هي الثورة الكبرى سنة ١٩٢٥ — ١٩٢٧ ، وقد حدثت في الجبل بقيادة سلطان الأطرش ، وفيها استطاع الثوار إسقاط طائرة فرنسية ، فتوجهت لهم حملة فرنسية كبيرة ولكن الثوار أبادوها عن آخرها ، وامتدت الثورة من الجبل إلى دمشق وغيرها من البلدان ، ولم تستطع فرنسا القضاء عليها إلا بعد جهد كبير ، وقد أحسست فرنسا بعد ما عانته في هذه الثورة أن من المهم أن تغير سياستها ، وأن تعطى للمواطنين حقهم أو بعضه على الأقل ، وبهذا بدأت سلسلة المباحثات التي انتهت بمعاهدة سبتمبر سنة ١٩٣٦ بين سوريا وفرنسا ومعاهدة نوفمبر من نفس العام بين فرنسا ولبنان على أن فرنسا لم تقدم هاتين المعاهدتين للبرلمان الفرنسي وبذلك ظلتا معطلتين ، وضفت اللثنة بين فرنسا وبين سوريا ولبنان ، وأضطرب النظام وأهانت الحرب العالمية الثانية والحالة في سوريا على هذا الوضع .

— وللهارت فرنسا أعلم المانيا ، وبقيت سوريا تحتنأ عنها قوة الفرنسيين التابعين لحكومة فيشي الموالية للألمان ، وقوة فرنسا الحرة بقيادة الجنرال دي جول ، وانتهى الأمر بانتصار قوة فرنسا الحرة مؤيدة بقوة جيش بريطانيا ، ودخلت هاتان القوتان سوريا في يونيو سنة ١٩٤١ ، وسرعان ، ما أعلن الجنرال كاترو القائد العام للقوات الفرنسية الحرة ، بيانا قال فيه : « لقد أتيت لوضع حد لنظام الانتداب ، ولأعلن لكم أنكم أحرار ومسقطون ،

وعلى هذا ستكونون منذ هذه اللحظة شعوبًا مستقلة ذات سيادة ، وسيكون في أماكنكم أن تنظمو أنفسكم في دول مستقلة ، أو أن تتحدوا في دولة واحدة ، وفي أي من الحالتين سيؤكّد استقلالكم وسيأقرّكم في معاهدة تحدّى فيها علاقاتنا المتبادلة ، وسوف تبدأ المفاوضات حول هذه المعاهدة بين ممثليكم وبيني في أقرب فرصة .

وفي ٢٧ سبتمبر ١٩٤١ أعلن الجنرال ديغول استقلال سوريا دون قيد ولا شرط ، وفي ٢١ نوفمبر من العام نفسه أعلن استقلال لبنان مشرطاً بعقد معاهدة تحدّى العلاقات بينها وبين فرنسا .

كما أصدر السفير البريطاني في مصر السير مايلز لا مبسون باسم حكومته التصريح الآتي : « انتهى مفول من قبل حكومة صاحب الجلالة في المملكة المتحدة أن أعلن أنها تحض وتشترك في تأكيد الاستقلال الذي أعطاه الجنرال ديغول لسوريا ولبنان » .

- وتحت ضغط الحرب خطت هذه الوعود نحو التنفيذ ، فقد أجريت الانتخابات العامة في سوريا سنة ١٩٤٣ وانتخب شكري القوتلي رئيساً للجمهورية ، وعين سعد الله الجابري رئيساً للوزارة ، وفي لبنان انتخب بشارة الخوري رئيساً للجمهورية وعيّن رياض الصلح رئيساً للوزارة ، وخطت الدولتان نحو تحقيق الاستقلال التام ، فأعلنت الحكومة اللبنانيّة أن اللغة الفرنسية لم تتمّ لغة رسمية ، كما أعلنت استقلالها التام ، فثارت فرنسا لذلك وألقت القبض على رئيس الجمهورية اللبناني وزرائه ، فهاج الرأي العام في سوريا ولبنان وفي العالم العربي كله ، وانضمّت إنجلترا وأمريكا لهذا الاتجاه ، فأعيد رئيس الجمهورية والوزراء ، واتخذت الخطأ لتسليم السلطات إلى ذويها ، ولكن فرنسا أبدت الرغبة في الاحتفاظ بقواتها لها في سوريا ولبنان ، ورفضت سوريا ولبنان هذه الرغبة .

— وتقدمت الحرب نحو النهاية وضمن الحلفاء النصر ، فبدأت فرنسا تعود القهقري في اتجاهاتها ، وصدر من ديجون تصريح في أكتوبر سنة ١٩٤٤ وأخر في يناير سنة ١٩٤٥ يقرر فيها ضرورة الاحتفاظ بمركز فرنسا المتفوق في سوريا ولبنان ، وفي فبراير سنة ١٩٤٥ أدى بيرو وزير الخارجية الفرنسية بتصريح قال فيه : إن فرنسا مسؤولة عن حفظ النظام في سوريا ولبنان وأنها تدافع عن امتيازاتها بالقوة المسلحة التي تحت تصرفها ، ووضعت فرنسا أسلوباً للمفاوضات تحتم ضمان استقلال المؤسسات الفرنسية ، وضمان حقوق فرنسا الاقتصادية ، وضمان السماح لفرنسا بانشاء قواعد بحرية وجوية في الجمهوريتين ، وقوّت فرنسا اتجاهها بأن أرسلت إمدادات عسكرية إلى بيروت في مايو سنة ١٩٤٥ ، وإذاء ذلك قررت سوريا ولبنان عدم السير في إجراءات المفاوضات وأشتد التوتر بين القوات الفرنسية والقوات الوطنية وضررت فرنسا دمشق بالقنايل ، فثار السوريون ثورة قوية شملت جميع أرجاء البلاد ، وهددت بريطانيا بالتدخل ، فتوقف العدوان الفرنسي ، ولكن بريطانيا بدأت تعمل أيضاً لترسخ قدمها من البلاد .

— ورفعت الحكومتان السورية واللبنانية احتجاجهما إلى جامعة الدول العربية وهيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، وتحتم أن تجري مفاوضات يمنع فيها صاحب الحق حقه ، وفي ٤ مارس سنة ١٩٤٦ أُعلن أن بريطانيا وفرنسا قررتا الجلاء في وقت واحد على أن يبدأ في ١١ مارس وينتهي في ٣٠ إبريل فيما يخص سوريا وقد تم ذلك فعلاً ، أما عن لبنان فقد تم جلاء الجنود البريطانية في ٣٠ يونيو وتم جلاء الفرنسيين في آخر أغسطس من العام نفسه ، وزال بذلك كابوس الاستعمار عن سوريا ولبنان وبذلت صفحه جديدة من الحياة المرة المستقلة .

— ٦٧٩ —

٣ - فترة الاستقلال

من ١٩٤٦ حتى الآن

نحن الآن في المقد الخامس من القرن العشرين ، وقد أصبحت الشام مقسمة إلى سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن ، ولما أعلنت العصابات اليهودية قيام دولتهم وفي الوقت نفسه اتسعت مملكة شرق الأردن أصبح بالشام خمس دول ، وليس لنا في التاريخ لسوريا العربية أن نتحدث عن الدولة التي أعلنتها العصابات اليهودية فذلك وضع مؤقت كبير الشبه بالإمارات اللاتينية التي أقامها الصليبيون بنفس المنطقة في القرن الحادى عشر ، وكما زال ملك الصليبيين سيزول ملك الصهيونيين ، وسنعود في يوم من الأيام — نرجو أن يكون قريبا — لضم هذه البقعة العربية المقدسة إلى الوطن العربي ، وبالتالي للتاريخ لها في مجال التاريخ الإسلامي ، أما الآن فنتوقف أقلامنا مؤقتا عن السير في التاريخ لهذه المنطقة المكتوبة التي نرجو أن يدفع عنها التمر وتعود إلى الوطن الأم ، وفيما عدا هذه المنطقة نواصل حديثنا عن دول الشام .

سوريا :

خرجت سوريا من هذه المعممة الطويلة جريحة ، فقد فقدت أجزاء عزيزة من كيانها ، وأصبحت بعض هذه الأجزاء عدوة كاسرائيل أو مختلفة معها في الشرب ، كما حدث ذلك في فترات طويلة بالنسبة للأردن .

وقامت بسوريا مجموعة من الأحزاب اختلفت اتجاهاتها ، وظهر بها جيل من السياسيين الجدد بالإضافة إلى السياسيين القدامى ، وكان كل من الطائفيين يرى أنه أحق بالسيطرة على مقاليد الأمور .

وتعرضت سوريا الى ألوان من الضغط من الاستعماريين أو من أولئك الذين ساروا زمانا في ركبهم ، فتركيا تهدد حدودها ، وطف بغداد تدفعه القوى الاستعمارية ليضم سوريا ، والملك عبد الله يعلن في أغسطس سنة ١٩٤٧ مشروع سوريا الكبرى بقصد تجمع الشام من جديد على أن يكون ملكا عليه ، أو على الأقل قيام دولة اتحادية من سوريا والأردن ولبنان وفلسطين ويبقى لكل دولة من هذه الدول استقلالها ، ويكون هو رئيس الدولة الاتحادية ، وبسبب هذه الاحاديث تعرضت سوريا لانقلابات عسكرية متالية هي :

— انقلاب حسني الزعيم في مارس سنة ١٩٤٩ •

— انقلاب سامي الحناوى في أغسطس سنة ١٩٤٩ •

— انقلاب أديب الشيشكلى في ديسمبر سنة ١٩٤٩ • ويقال إنه هو الذي دبر الانقلاب الأول ووضع على قمته حسني الزعيم ، ثم قضى عليه ووضع سامي الحناوى حتى اشتد عوده فقضى على الحناوى وأعلن زعامته •

الوحدة مع مصر ثم الانفصال :

— انقلاب ن يصل الأنبا في ٢٢ فبراير سنة ١٩٥٤ وقد أعاد هذا الانقلاب الحياة الدستورية والانتخابات ، فأصبح هاشم الأنبا رئيساً للجمهورية ، وصار خارمس الخورى رئيساً للوزارة ، ثم أجريت الانتخابات فأصبح شكري القوتلى رئيساً للجمهورية من سنة ١٩٥٥ وصبرى العسلى رئيساً للوزارة ، وقد وصلت سوريا في هذه الفترة إلى قمة التأثر بالاتجاه القومي العربي الذى ذابت فيه كل الاتجاهات والذي انبثق عن الرغبة في الوحدة الكاملة مع مصر ، وقد تمت هذه الوحدة في ٢٢ فبراير سنة ١٩٥٨ بناء على استفتاء أجرى في مصر وسوريا ، وأصبح جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية العربية المتحدة ، وقد كانت هذه الوحدة تعبيراً عما يجيئ في صدور العرب منذ فقدوا وحدتهم . التي عاشت عدة قرون قبل الزحف العثماني .

فهذا الانقلاب كان في الحقيقة عودة للحياة الدستورية السليمة وكان قصاء على الانقلابات .

ويبدو أن الفصل بين سوريا ومصر من ناحية الأرض مكّن لهوادة التفرقة أن ينفثوا سموهم ، وقد حدثت بعض الأخطاء خلال الوحدة ، ولكن الذي نعتقده أن أرض سوريا لو كانت متصلة بأرض مصر لما استطاعت قوة انتقالية أن تَبْرُز وأن تتجدد ، ولا تتجدد القوى التي تصحّح الأخطاء لا إلى تقسيم الدولة التي كانت أمل العرب .

وعلى كل حال فقد حدث الانقلاب ، وفيما يلي حديث عنه وعن الانقلابات التي تلتة :

— انقلاب الانفصال في ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٦١ يقوده عبد الكريم النحلاوي ، وموفق عصاصة ، وبعد الغنى الدهمان ، ومهيب هندي وفائز رفاعي وفخرى عمر ، وقد تولى ناظم القدسى رئيسة الجمهورية ومأمون الكبيرى رئيسة الحكومة ، ثم جاء بعده عزة النص فمعروف الدوالىبي ، وأعلن الرئيس جمال عبد الناصر رأى مصر في هذا الانقلاب بقوله « ليس من المستحب أن تبقى سوريا قطعة من الجمهورية العربية المتحدة ولكن من المحتمن أن تبقى سوريا » .

- انقلاب ٢٨ مارس سنة ١٩٦٣ الذي أطاح بزعماء الانقلاب السابق ونظامه خارج البلاد ، وكان عبد الكريم زهر الدين يقود هذا الانقلاب ويقى نظام القدسي رئيساً للجمهورية وتولى رئاسة الوزارة بشير العظمة ثم خالد العظم .

وكان زعماء هذا الانقلاب يتكونون من فريقين رئيسيين ، أولهما الفريق الذى يميل الى الوحدة ويسعى لإعادتها ، والثانى فريق حزب البث ، ولكن البعتين استطاعوا أن يتغلبوا على الوحدويين ويخلصوا مذموم

- ٢٨٢ -

— وفي يناير سنة ١٩٦٣ تم انقلاب جديد بقيادة قادة الانفصال الذين كانوا قد عادوا خلسة الى دمشق ، ولكن هذا الانقلاب لم ينجح .

— وفي ٨ مارس سنة ١٩٦٣ حدث انقلاب آخر في سوريا بقيادة اللواء زياد الحريري واللواء راشد قطيني ، وقبض زعماء الانقلاب على رئيس الجمهورية والوزراء ولجا خالد العظم الى سفارة تركيا ، وقام مجلس ثورة يرأسه لؤي الاتاسي ، وتولى صلاح البيطار رئاسة الوزارة ، وفي هذا المهد بدأت اتصالات جديدة لإعادة الوحدة مع مصر ، بل لتوسيع نطاق الوحدة بضم العراق اليها بعد أن سقط عبد الكريم قاسم ، لكن هذا الاتجاه لم يكمل خطواته الى النهاية ، فقد استطاع البعض أن يستولوا على زمام السلطة ، إذ أنه في يوليو سنة ١٩٦٣ تولى أمين الحافظ السلطة وأمسك بجميع المناصب القيادية باسم حزب البعث متعاوناً مع حزب البعث في العراق .

— في فبراير سنة ١٩٦٦ هب جناح آخر من حزب البعث بانقلاب جديد في سوريا قضى فيه على «أمين الحافظ» ، وكان هذا الانقلاب بقيادة يوسف زعین وابراهيم ماخوس ، وفي ظل هذا الانقلاب أصبح نور الدين الاتاسي رئيساً للدولة .

— استولى هafez al-Assad على السلطة في مطلع سنة ١٩٧١ وفي ١٤ مارس انتخب رئيساً للجمهورية وهو الذي يشغل هذا المنصب الآن . (١٩٨٦) .

وفي سبتمبر من نفس العام أُعلن قيام «اتحاد الجمهوريات العربية» من مصر وسوريا ولبيها بعد استفتاء شعبي أيدّت الجماهير فيه قيام هذه الدولة الاتحادية ، ولكن الزمن مر دون أن يظهر لهذا الاتحاد شأن يذكر .

رعا الله سوريا ومنها الاستقرار والسلام .

لبنان ورؤساؤه من عهد الاستقلال حتى الآن :

عقب استقلال لبنان ظل بشاره الخوري يشغل منصب رئيس الجمهورية حتى سنة ١٩٥١ ثم انتخب كميل شمعون رئيساً لهذه الجمهورية ، وظل حذا في منصبه السنوات الست، التي حددتها الدستور ، وقد حاول قبيل انتهاء المدة أن يغير من مواد الدستور بحيث يصبح له الحق في أن يعيد ترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية ، ولكن معارضيه كانوا أقوىاء فوتفوا له بالمرصاد ، ووصلت الحالة بلبنان إلى نوع من الصدام الداخلي المسلح ، فلم يستطع تعديل الدستور ، وانتخب فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية سنة ١٩٥٨ فأزال الخلافات التي كانت موجودة في لبنان ، ومشى بلبنان شوطاً نحو الاستقرار ، وفي سنة ١٩٦٤ انتخب شارل حلو رئيساً للجمهورية ، وفي سنة ١٩٧٠ انتخب سليمان فرنجية رئيساً للجمهورية ، وفي مطلع سنة ١٩٧٦ انتخب الياس سركيس لرئاسة الجمهورية ، وتسلم سلطاته في ٢٢ سبتمبر من نفس العام .

وبقبيل نهاية مدة كان لبنان يشتعل ناراً من الخلافات الداخلية ، ومن الجيوش الخارجية التي كانت تحتل بعض أراضيه ، وبخاصة الجيش الإسرائيلي الذي كان يحتل جنوب لبنان ، ووسط هذه الاضطرابات اختير بشير الجميل رئيساً للبنان في أغسطس سنة ١٩٨٢ على أن يتسلم سلطاته في ٢٢ سبتمبر ، ولكن القدر لم يمهله لتسلم هذه السلطات ، فقد لقى مصرعه في ١٤ سبتمبر من نفس العام ، وكان مصرعه في انفجار هنوع دمر مبني حزب الكتائب الذي يرأسه ، وكان بشير موجوداً في المبنى الذي انهار على من فيه ، فلقى حوالى ٥٠ شخصاً من زعماء الكتائب مصرعهم أيضاً ، ويقال إن هذا التدبير كان جزاء له لصلته

بإسرائيل .

وقد اختير عقب ذلك أخوه أمين الجميل لرياسة لبنان ، ولا زال يشغل هذا المنصب حتى الآن (١٩٨٦) مع ما يحيط به من عناء وألام .

الأديان والطوائف في لبنان :

ولبنان ينظم حياته السياسية طبقاً للأديان والمذاهب به ، فرئيس الجمهورية ينتمي إلى طائفة الموارنة ، ورئيس الوزراء ينتمي إلى أهل السنة ، ورئيس مجلس النواب ينتمي إلى الشيعة ، ومقاعد البرلمان توزع بين الطوائف والمذاهب ، رجاء أن يخفف ذلك من حدة التفرقة الدينية والمذهبية به .

وبالنسبة للجيش مثلاً نجد إنه يتبعه أن يكون القائد الأعلى ورئيس المخابرات من المارونيين ، وأن يكون رئيس الأركان من الدروز ، وأن يكون ٦٠٪ من الضباط من المسيحيين و ٦٠٪ من الجنود من المسلمين .. وعندما وقع صدام الحرب الأهلية ذاب هذا الجيش حسب طوائفه وانقسم إلى مجموعة انضمت للمسلمين ، ومجموعة انضمت لكتائب المسيحيين ، وثالثة انضمت للسوريين ، ورابعة وهي أصغر هذه المجموعات ظلت موالية للحكومة ورئيس لبنان .. وهكذا انتهى الأمر بأن أصبح لكل طائفة وكل فئة في لبنان جيشها بينما رئيس لبنان الشرعي لا جيش له ولا قوة ..

الطوائف اللبنانية :

ولا توجد في لبنان أية احصائيات رسمية حول التركيب السكاني للمجتمع بطوائفه وطبقاته الاجتماعية إلا في حدود ضيقة ومحدودة وغير رسمية وذلك منذ بداية الثلاثينيات ، وحتى المرحلة الراهنة ، غير أنه في عام ١٩٧٧ أجرت المنظمة الفرنسية لتنظيم الأسرة مسحاً شاملًا لسكان لبنان وطوائفه ، كانت أبرز نتائجه بالنسبة للتوازن السكاني ما يلى :

- ٦٨٥ -

- ١ - الشيعة ٨٥٠ - ٩٠٠ ألف نسمة ٢٨٪
- ٢ - الموارنة ٧٥٠ - ٨٠٠ ألف نسمة ٢٤٪
- ٣ - السنّة ٦٠٠ ألف نسمة ١٩٪
- ٤ - الأرثوذكس ٣٠٠ ألف نسمة ٩٪
- ٥ - الدروز ٢٥٠ ألف نسمة ٦٪
- ٦ - الكاثوليك ٣٥٠ ألف نسمة ٦٪
- ٧ - الأرمن ١٦٠ ألف نسمة ٥٪

وهنالك طوائف مسيحية أخرى قوامها ٥٠ ألفاً وهذا القعداد له دلالاته في التوازن السياسي بين الطوائف المتصارعة فالثابت إن هذه النسب توضح اختفاء التوازن بين الطوائف ، فالطوائف الإسلامية مثلًا قد نَمَتْ تنموًّا يجعلها تحسُّ بأنه ليس لها نصيب عادل في الثروة والسلطة .

(الأهرام في ١٨ / ٥ / ١٩٨٤ بتصرف)

ويسمح لبنان بالحرية الثقافية إلى أقصى مدى ، فهناك الجامعات الأمريكية ومدارس الإرساليات ، وهناك الكليات التابعة لجامعة الإسكندرية ، إلى جانب المدارس والمعاهد اللبنانيّة ، والتي جانب دور النشر والمصحّفة المختلفة الاتجاهات التي تتّخذ من لبنان مقراً لها .

الحرية الثقافية في لبنان وأخطارها :

وباسم هذه الحرية الثقافية طالما كانت لبنان أرضًا تخرج منها المطبوعات التي تهاجم الإسلام ، وترتفع منها الأصوات المأجورة ، وهذه الكلمات تكتب وفي يدي مجموعة من الكتب المنحرفة التي صدرت في لبنان تحت عنوان « دروس قرآنية » وهي كتب حافلة بالانحرافات الفكرية والدينية مما يجعل فكرة الحرية يساء استعمالها في كثير من الأحوال .

- ٩٨٦ -

حروب أهلية في لبنان :

وقد شهد لبنان ابتداء من سنة ١٩٧٥ وحتى كتابة هذه السطور في شهر ابريل سنة ١٩٨٦ صراعاً دموياً عصبياً ، تارة بين حزب الكتائب والمدائين ، وتارة بين المسلمين والسيحيين ، ووقفت طرابلس الشام مواجهة بلدة زغرتة فترة طويلة ، واستعملت في هذه الحروب الأهلية مختلف أنواع الأسلحة بما في ذلك الأسلحة الثقيلة ، والدبابات والصواريخ .

وقد تدخلت سوريا في هذه الحرب مرة مع الفلسطينيين ومرة ضدتهم ٠٠٠٠٠

ويرى رئيس جمهورية لبنان أن قوات المقاومة الفلسطينية تكفلت في لبنان وأنها تكون دولة داخل الدولة ، وترى مصر أن حركة سوريا ورئيس جمهورية لبنان مؤيدة بكميل شمعون وبالمسيحيين ترمي إلى القضاء على المقاومة الفلسطينية وأن إسرائيل وأمريكا تؤيدان هذه القسوى .

وقد سئل محور بصحيفة « الأهرام » عن هذه الحرب فأجاب في عدد ٢٦/١٢/١٩٧٥ إيجابة فيها كثير من الحق ، وفيما يلى السؤال والجواب :

هناك تساؤلات : ما نوع هذه الحرب ؟ وما سببها ؟ وهل هي مجرد صراع سياسي أم أنها حرب أهلية طائفية ؟

وأجاب بقوله : « إن الحرب الدائرة في لبنان هي « ميني » حرب عالمية ثلاثة بمعنى أن معظم الدول الأساسية في العالم لها ضلع فيها ؛ فالولايات المتحدة لها ضلع ، وروسيا لها ضلع ، وبعض الدول الثورية والاشراكية لها ضلع ، وإسرائيل لها ضلع ، وبعض الدول العربية لها

ضلع ، وكل الضالعين في هذه الحرب يمدون الجماعة المتصارعة في لبنان بالمال والسلاح . ولو أن هذه الحرب كانت بأموال لبنانية لما أمكنها أن تستمر أكثر من أيام قليلة . أسبوع أو أسبوعين أو ثلاثة أسابيع على الأكثر .

« كذلك يمكن تصنيف هذه الحرب في بعض أوجهها على أنها مثل حرب اليمن التي قاتل فيها اليمني شقيقه اليمني بأموال الغير .

« وال الحرب الدائرة في لبنان ليست طائفية تماماً ، وليس طبقية تماماً ، ولكن الخريطة الاجتماعية للناس تجعل هذه الحرب تبدو طائفية وطبقية في الوقت نفسه . وبشيء من التفصيل إن الحرب دائرة بين فريق من الموارنة وفريق من المسلمين وليس بين كل الموارنة وكل المسلمين » .

وهذه الكلمات تكتب وقد زادت مشكلة الحرب الداخلية في لبنان تعقيداً ، ولم تعد الحرب داخلية بل اندفعت لها عناصر خارجية ، وفيما يلى خلاصة الأحداث حتى كتابة هذه السطور في أبريل سنة ١٩٨٦ .

تطور الحرب الأهلية في لبنان

قلنا آنفاً أن الحروب اتجهت — بقصد أو بغير قصد — إلى أن صارت حرباً بين المسلمين والمسيحيين في لبنان ، ومن الأسباب التي جعلت الحرب تصل إلى هذا المدى أن بعض القوات الفلسطينية هناك كانت تمارس درجة متطرفة في لبنان مما جعلها تكوّن دولة داخل الدولة ، بل يصفها بعض الصحفيين بأنها وصلت لدرجة أفقدت السلطة الرسمية اللبنانية شرعيتها ، وأفقدتها احترام الشعب لها ، ووقف التقديميون المسلمون اللبنانيون إلى جانب المنظمات الفلسطينية ، فاستجذب الجانب المسيحي بسوريا وتقول الصحافة المصرية إن السوريين رحبوا بالدعوة . وزحفوا بقوتهم داخل الحدود اللبنانية ، واشتركوا في الحرب الأهلية إلى جانب المسيحيين ، ولم تقبل سوريا التدخل في الحرب ، بما في الجانب المسيحي ، ولا كرهاً للجانب الفلسطيني الإسلامي ، وإنما تدخلت لأنّها لا تتضع لها قدرها فوق الأرض اللبنانية ، التي ما زال السوريون يعتبرونها أرضهم التي انتزعوها منهم الاستعمار الفرنسي وأطلق عليها اسم « دولة لبنان » ولا شك أن هذا الاحساس جدير بالتقدير .

ورحب حافظ الأسد بالدعوة ليضرب عصافيرين بحجر واحد . فهو لا يكتفى باحتلال التواجد السوري المسلح ، داخل لبنان ، وإنما يضيف إليه توجيه ضربة عنيفة إلى المنظمات التي تمردت عليه ، .

وتحقق لحافظ الأسد ما أراده تماماً ..

فقواته احتلت لبنان ، بتأييد معظم العاصمة العربية ، وبدعوة من الجانب المسيحي اللبناني ! وبنادقته ، نجحت في « تأديبه » المتمردين .

سوريا تخلّى عن المسيحيين وتنضم للمسلمين :

وبعد أن حققت سوريا أغراضها بضرب الفلسطينيين وتأديبهم ،

- ٢٦٩ -

وتبثيت أقدامها في لبنان صحت موقفها ، فقرر الرئيس حافظ الأسد توجيه غوهات بنادقه ، ودباباته ، إلى صدور رجال الميليشيا المسيحية المتدينة ، وأن يمد يد التحالف ، والتعاون ، إلى رجال المنظمات الفلسطينية التي أعلنت ولاءها له وإلى التقدميين المسلمين ।

المسيحيون يطلبون العون من إسرائيل :

ونظر لبنان أول ما نظر إلى الدول الغربية المسيحية ، ولكنه لم يجد منها سوى الواسطة ، والكلمات الطيبة ، والمعونات الغذائية ، والطبية . واضطرب المسيحيون اللبنانيون إلى التحالف مع الشيطان . وكانت إسرائيل هي الشيطان المقصود . وتمت اتصالات بين الجانبين . ورحب الشيطان بالدعوة المفتوحة التي قدمت إليه . وقامت إسرائيل بتقديم السلاح للمسلحين المسيحيين . وذهب رجال الميليشيا المسيحية إلى داخل إسرائيل للتدريب في معسكرات الجيش الإسرائيلي . كما تعود قادة من القوات المسلحة الإسرائيلية على الذهاب إلى داخل لبنان ، لتفقد استحكامات الميليشيا ، وتقديم النصح ، والخبرة .

إسرائيل تدخل لبنان :

ولم تتقنع إسرائيل بأن تعيش بلبنان في الظل ، ولم يقنع الموارنة بالأسلحة والتوجيه من إسرائيل ، فطلب حزب الكتائب من إسرائيل أن تدخل لبنان بجيشه لخارج العدو المشترك وهو الفلسطينيون والسوريون ، ودخلت إسرائيل لبنان .

الولايات المتحدة تدخل لبنان :

عندما دخلت إسرائيل لبنان اتجهت لضرب الفلسطينيين . وحاصرتهم

- ١٩٠ -

في بيروت ، وألزموهم مغادرة لبنان ، ولكن الفلسطينيين رفضوا الخروج الا اذا جاءت قوة تحمي ظهورهم في أثناء الخروج ، وقاوموا مقاومة شديدة ، فدخلت أمريكا لبنان لهذا الغرض ، ولكنها سرعان ما خرجت من بيروت .

افتياض بشير الجميل :

كان بشير الجميل الذي انتخب رئيساً لجمهورية لبنان كما سبق ، قائداً من قواد الكتائب ، وشديد التعمق للموارنة ، واحسست الجماعات الأخرى في لبنان أن الرئيس ليس رئيساً للشعب كله ، وأنه منحاز لأحد طرق الخصومة في لبنان ، واتجهت المقاومة لمصارعته . فسقط صريعاً في الانفجار المروع الذي أشرنا له من قبل ، والتهب لبنان ناراً ، ثم اختير أمين الجميل ، وهو أكثر هدوءاً من أخيه ، ويقولون أنه شخصية غير دموية .

مجازرة صبرا وشاتيلا :

انتهزت إسرائيل فرصة قتل بشير الجميل وتعاونت مع الكتائب لانتقام مثير وغادر ، بأن دبرت لحوادث أعظم مجازرة عرفها العصر الحديث ، وهي مجازرة مخيّمَيْ صبرا وشاتيلا ، فقد خططت القوات الإسرائيلية للقضاء على هذين المخيمين قضاء تماماً بواسطة رجال الكتائب ، وكان بيجهن وشارون يمثلان التدبير وحركة التدمير باللغة الأُسْرَى .

وقدمت القوات الإسرائيلية للكتائب السلاح وحرست الزاهفين ، وأيدتهم بكل الوسائل فاتجه هؤلاء في المدة من ١٦ الى ١٨ سبتمبر سنة ١٩٨٢ . وهاجموا المخيمين وذبحوا الآلاف من الرجال والنساء والأطفال واستولوا على ما كان يملكه الضحايا من أموال وثروات .

وقد فزع العالم بهذا العدوان وهذه المجازرة فألفت لجنة

تحقيق دولية للنظر فيها ، وقد جاء في تقريرها أن الأدلة التي تجمعت لديها تؤكد أن القوات الاسرائيلية قدمت مساعدة جوهرية للمجرمين الذين اجتاحوا مخييم صبرا وشاتيلا في بيروت وذبحوا المئات من الفلسطينيين .. بل أن هؤلاء الجرميـن كانوا يتحركون تحت قيادة اسرائيلية ..

وأوضح التقرير أن اسرائيل قدمت المساعدة في التخطيط لذبحـة تستهدف الإبادة كما قدمت امداداته وتسهيلات في عمليات القتل الفعلية ، وذكر التقرير أيضاً ان الهدف الرئيسي لاسرائيل من غزو لبنان لم يكن القضاء على المقاومة الفلسطينية بل تدمير شخصية الشعب الفلسطيني وتحطيم موجة الاعتراف المتزايد بحقه في إقامة دولة في الضفة الغربية وقطاع غزة وكذلك تشتت السكان الفلسطينيين عن طريق نسف مخيّماتهم وارتكاب المذابح ضدهم ، وذكر أربعة من أعضاء اللجنة ان « التدمير التعمدي » للحقوق الوطنية والثقافية الفلسطينيين يمثل « أحد أشكال جريمة الإبادة » ..

وكانت اسرائيل قد رفضت التعامل مع هذه اللجنة الدولية وحضرت على أي مواطن اسرائيلي الا أدلة بشهادته أمامها ، وتذرعت بأنها قامت بتشكيل لجنة اسرائيلية ..

وشهد شاهد من أهلها :

أما اللجنة التي كونتها اسرائيل لدراسة هذه المجزرة فقد نشرت تقريرها في أوائل فبراير سنة ١٩٨٣ ، وفيما يلى خلاصة ما أذاعتـه وكالات الأخبار عن هذا التقرير :

اذاعت لجنة التحقيق الاسرائيلية تقريرها عن نتائج تحقيقاتها بشأن مذابح مخيـمـيـن صبرا وشاتيلا في سبتمبر الماضي ، وأوصـتـ اللجنة باستقالـةـ أوـ أـقلـةـ اـرـيـلـهـ شـارـونـ،ـ وزـيـرـ الدـفـاعـ وـعـزـلـ الجـنـرـالـ،ـ يـهـوشـواـ سـاجـيـ مدـيرـ المـخـابـراتـ الحـرـبيـةـ ..ـ وأـعـلـنـتـ اللـجـنـةـ أـنـ شـارـونـ اـرـتكـبـ أـخـطـاءـ جـسـيـمةـ

- ٦٩٢ -

بسماحه للميليشيات اليمينية بدخول المخيمات الفلسطينية رغم علمه
بالنتائج التي قد تترتب على هذه الخطوة وهي ارتكاب المذابح ضد
الفلسطينيين .

وقد اتهمت اللجنة مناحم بيغين بأنه اتخذ موقف اللامبالاة من
القرار العسكري بالسماح للميليشيات بدخول المخيّميين ، وهو لهذا يتحمل
قدرًا من المسؤولية .

وأدانت اللجنة بعض المسؤولين الإسرائيليّين ، وعلى رأسهم أرييل
شارون وزير الدفاع واسحق شامير وزير الخارجية .

المظاهر الديمقراطية مفتعلة :

ومن الغريب أن هذه المظاهر الديمقراطية المفتعلة . . . لم تتحقق
اثرًا . . . فقد ظل شaron وزيرا بلا وزارة لمدة ١٨ شهرا . . . ولكنه عاد
مرة أخرى وزيرا للتجارة والصناعة في الحكومة الجديدة . . . وكوفه شامير
بأن وجد نفسه بعد هذه المذبحة بعام واحد . . . رئيساً للحكومة . . . وبتهوى
إيتان منصباً أكبر في الجيش الإسرائيلي . . . وهكذا . . . والأغرب أن
الشعب الإسرائيلي الذي ثار في ذلك الوقت . . . عاد لي منتخب الحاخام المتطرف
مائير كاهن - زعيم حركة كاخ - عضواً في الكنيست .

عدد القتلى ودور إسرائيل :

وقد أذاع رالف شويمن سكرتير الفيلسوف البريطاني الراحل
« راسل » في مؤتمر صحفي عقد في نيويورك في أول أكتوبر سنة ١٩٨٢
أن المعلومات الوثيقة تؤكد أن القوات الإسرائيليّة اشتربت بالفعل
في مذابح صابرا وشاتيلا في بيروت الغربية ، وأن أربعة مبعوثين فلسطينيين
كانوا قد توجهوا لراكل القيادة الإسرائيليّة لاعتذار استسلام المخيّميين قد
عشر عليهم قتلى ، وأن عدد الضحايا في هذه المذبحة كان عدّة آلاف .

- ٦٩٣ -

نحن نحترم :

الليل لا يظل ليلًا ، والنهار لا يبقى نهارا ، وسيجيئ يوم يصبح المغلوب غالبا كما حدث في الحروب الصليبية ، وويل للطغاة مما يرصده التاريخ ، ونحن نرصد هذه الأحداث حتى لا يلام العرب أنهم في يوم من الأيام ثاروا لأنفسهم .

القوة متعددة الجنسيات :

وازاء تفجر الموقف بعد مجزرة صبرا وشاتيلا طلب الرئيس اللبناني الجديد (أمين الجميل) من أمريكا أن تدخل للمساعدة في حفظ الأمن ، فقبلت أمريكا ، وعادت قواتها فدخلت لبنان مع بعض القوات الفرنسية والإنجليزية والإيطالية باسم « القوة المتعددة الجنسيات » .

عملية خدائية ضد الولايات المتحدة :

تعرف من مقر القيادة الأمريكية بلبنان الى عملية انتقامية باللغة الخطورة لم يتضح بالضبط من الذى قام بها ، فهناك سيارة كانت تحمل قدرًا هائلاً من المتفجرات ، وكان الذى يقودها يلبس الملابس الأمريكية ، واندفع بها إلى مقر القيادة فحوله إلى كومة من التراب ، وراح المئات من الأمريكيين وبعض الترنسين شحانياً هذا الحادث .

وقد اختلفت الآراء حول من قام بهذا الحادث ، هل هم الفلسطينيون الذين أرادوا الانتقام من الأمريكيان الذين يساعدون إسرائيليين الذين قتيلوا شحانياً صبرا وشاتيلا بأسلحتهم ؟

هل هم الكتائب الذين يرون أن الأمريكيان جاءوا الى لبنان للحد من نشاطهم والانتقام منهم ؟

هل هي إسرائيل التي لا صاحب لها والتي يهمها أن تثير في المنطقة كل المتابع ، ويهمها إسالة الدماء ، أي دماء ؟

— ٦٩٤ —

هل لايران أصبح في هذه المؤامرة ؟

لم تتحدد التهمة حتى الان ، وربما لن تتحدد أبدا .

اتفاق لبناني اسرائيلي والغافه :

في مايي ١٩٨٣ تم توقيع اتفاق لبناني اسرائيلي كمعاهدة صلح :
ولكن اسرائيل اشترطت أن تجلو كل القوات من لبنان ، وكانت تقصد
بذلك اخراج القوات السورية ، ولكن سوريا لم تستجب طبعا لهذا الأمر ،
ودافعت عن نفسها وعن اتجاهاتها أروع دفاع مما هز القوات الأمريكية
وهددتها .

وكان هذا "الاتفاق" على كل حال قصير العمر .

ان المشكلة اللبنانية لا تزال معقدة ، لأن جذورها قديمة ومتعددة
كما رأينا ، وقد خسرت لبنان كثيرا بسبب هذه الحروب ، وخسر العالم
العربي مركزاً يذكرها كان يشع نوراً على المنطقة بأسرها .

مواكب الشهداء اللبنانيين ضد اسرائيل :

في ابريل سنة ١٩٨٥ قادت فتاة اسمها « سناه مهيدلة » عمرها ١٦ سنة عملية انتحارية خطيرة ضد الجيش الاسرائيلي بلبنان ، وقد سجلت
البطلة حديثاً للاذاعة قبل قيامها بالعملية قالت فيه أنها قررت الانضمام
لوكب الشهداء الذين استشهدوا وهم يقاومون الاحتلال الاسرائيلي للبنان ،
وكانت هذه الفتاة قد قادت سيارة ملغومة من طراز بيجو ٥٠٤ تحمل ٤٠٠ كج من المتفجرات وهاجمت بها قافلة عسكرية اسرائيلية ، وقد أسفرت
هذه العملية عن مصرع وأصابة خمسين جندياً اسرائيلياً .



سناء مهيدلة : في موكب الشهداء

اتفاق وتنفسه :

وفي ديسمبر سنة ١٩٨٥ تم توقيع اتفاق السلام بين الميليشيات اللبنانية الرئيسية الثلاث « اليمينية والدرزية والشيعية » في دمشق وقد وقع الاتفاق الذي يستهدف إنهاء الحرب اللبنانية كل من : إلى حبيقة رئيس اللجنة التنفيذية للقوى اللبنانية (عن الميليشيات اليمينية) ووليد جنبلاط زعيم الدروز ورئيس الحزب التقدمي الاشتراكي ونبيه بري زعيم حركة « أمل » الشيعية . وقد تم التوقيع في مكتب عبد الحليم خدام نائب الرئيس السوري وفي حضوره . وقد عقد اجتماع قصير قبل التوقيع على الاتفاق خص لأول مرة زعماء الميليشيات الثلاثة وحضره خدام . وبعد توقيع الاتفاق تصافح الزعماء الثلاثة بينماأخذ مساعدوهم يتبادلون التهنئة .

وكان زعماء الميليشيات الثلاثة قد وصلوا إلى دمشق لتوقيع

- ٦٩٦ -

الاتفاق لإنهاء الحرب الأهلية التي راح ضحيتها ١٠٠ ألفاً قتيلاً على الأقل خلال ١٠ سنوات وأدت إلى خسائر قدرت بـ ٢٠ مليار دولار . ووصل كل من بري وجنبلاط في الصباح بينما وصل حبيقة بعد الظهر مما أدى إلى إرجاء التوقيع الذي كان مقرراً أن يتم في العاشرة صباحاً .

ولكن هذا الاتفاق سرعان ما صاع أثره تباعاً، أن يجف حبره .

والله ندعوا أن يرعى بلادنا العربية ، وأن يعيد للبنان هدوءه واستقراره ، ويبعد عنه شياطين الإنس وفي مقدمتهم العدو الأصيل للعرب والمسلمين والأنسانية : أسرائيل .

المملكة الأردنية الهاشمية :

تحدثنا من قبل عن المملكة الأردنية الهاشمية حتى وصلنا بها إلى ضم الأرض الواقعة غرب فهر الأردن في أثناء الحرب التي قام بها الدرج لتحرير فلسطين من عصابات اليهود ، ولقد ورث الملك عبد الله طموح أبيه الشريف حسين عند ما ضم هذه المنطقة ، وقد ظل الطموح يدفعه فأعلن مشروع سوريا الكبرى ليضعها بطريق أو بأخر تحت سلطانه ، وليكون منها ومن العراق حيث كان يجلس أخوه فيصل مملكة اتحادية .

وقد قُتِلَ الملك عبد الله في القدس سنة ١٩٥١ ، وتولى الحكم بعده ابنه طلال ولكنه اتجاهها عربياً عارض به خطط بريطانيا الاستعمارية ، ياشهم بالجتون ، وأبعد عن العرش سنة ١٩٥٣ . وتولى العرش بعد إبعاده ابنه الملك حسين ولا يزال يشغل هذا المنصب حتى كتابة هذه السطور سنة ١٩٨٦ فهو بذلك أقدم الملوك والرؤساء العرب الموجودين الآن ، أما الملك السابق طلال فقد عاش في تركيا بعد عزله حتى مات سنة ١٩٧٢ .

والأردن يعيش في جو من القلق لسبب بسيط هو قلة موارده ، واعتماده على الهبات والمساعدات التي يحصل عليها من دول الغرب ، وفي

خلال وزارة سليمان النابلسي ١٩٥٦ - ١٩٥٨ ، رأت مصر وسوريا والملكة العربية السعودية أن تدفع للأردن ما يكفل ميزانيته وما يجعله في غنى عن مساعدات الغرب ، وعلى الرغم من توقيع اتفاقية بذلك في يناير سنة ١٩٥٨ تتضمن على أن تدفع هذه الدول ١٢ مليونا من الجنيهات للأردن كل عام لمدة عشر سنوات ، فإن الاتفاقية لم توضع موضوع التنفيذ ، لأن مؤامرات الغرب تدخلت - فيما يبدو - فباعدت بين الأشقاء ،

وقد رأى مؤتمر القمة السابعة الذي عقد بالرباط في أكتوبر سنة ١٩٧٤ أن يعود للفلسطينيين كل جزء يتحرر من فلسطين ، ووافق الملك حسين على ذلك واتخذ الإجراءات الدستورية لتنفيذ ذلك ، وهذا موقفه
يحمد للملك .

موقف الأردن جدير بالتقدير :

قررت أكثر الدول العربية مقاطعة مصر عقب معايدة «كامب ديفيد» وحالت القطيعة محل الإحاء ، ولم ترفض هذا الإجراء إلا عمان والسودان والصومال ، ومرت السنوات على هذا النحو ، ثم ارتفع صوت الملك حسين يعلن عودة العلاقات مع مصر ، وعودة تبادل السفراء ، فكان موقفها جديرا بالتقدير من المصريين الذين قشتدا رغبتهم على دوام الصلة بين الأشقاء ، ويرون أن ما بين مصر والدول العربية يعلو على القطيعة ، شكر الأردنيين على هذا الموقف العظيم .

فلسطين :

نجا من فلسطين في الجولة الأولى جزء نرجو أن يكون المركز الذي ستقطلك منه القوة التي تحرر الوطن السليب ، وذلك الجزء هو قطاع غزة ، وكذلك الجزء الذي ضمته الأردن إليها ، ومنذ النكبة سنة ١٩٤٨ ساح الفلسطينيون في البلاد العربية يحيطون بأرضهم المحتسبة ويترقبون ساعة الزحف لتحرير هذه الأرض ، وقد بدأت الاتجاهات لابراز الكيان

الفلسطيني ، وكان مطلع هذه الاتجاهات أن تتحقق غزة الحكم الذاتي تحت اشراف جمهورية مصر ، وأعلن الدستور المؤقت للشعب الفلسطيني في مارس سنة ١٩٦٢ ، كما بدأ تكوين جيش فلسطيني كبير العدد قوى العدة ، وفي دورة الجامعة العربية التي عقدت في سبتمبر سنة ١٩٦٣ وافقت الدول العربية على مشروع يقضي بالمحافظة على الشخصية الفلسطينية والعمل على تجميع قوى الشعب الفلسطيني المستندة لانطلاقته العودة ، وأصبح السيد أحمد الشقيري ممثلاً لفلسطين في المجامع الدولية ، وقد اتصك بالفلسطينيين في جميع البلاد العربية واستطاع بعد الزيارات والمشاورات أن يقترح مشروع الميثاق القومي الفلسطيني ومشروع منظمة التحرير الفلسطينية ، وقد عرض المشروع على المؤتمر الفلسطيني الذي عُقد بمدينة القدس في مايو سنة ١٩٦٤ وأصدر المؤتمر توصيات أهمها :

- ١ - اقرار الميثاق القومي الفلسطيني وهو يتكون من ٢٩ مادة .
- ٢ - انشاء منظمة تحرير فلسطين على أساس تنظيمين أحدهما شعبي والأخر عسكري .
- ٣ - انشاء الصندوق القومي الفلسطيني لتمويل منظمة التحرير ، وأصدار سندات تحرير فلسطين بكتالة الجامعة العربية .
- ٤ - يخصص أسبوع باسم أسبوع فلسطين يبدأ في ١٥ مايو من كل عام .

وأخذ الفلسطينيون شعاراً لهم هو « اننا عائدون » وقد بدعوا فعلاً في اقلال مصحح اليهود بفلسطين اقلالاً يكاد يكون متصلًا ، فان الفدائيين يتسللون الى بلادهم وببلاد أجدادهم ، وهم أعرف الناس بمسالكها ومساربها فينشرون الرعب والذعر بين الغاصبين .

— ٦٩٩ —

وقد اخترى ياسر عرفات مكاناً لأحمد الشقيري ، وبذل جهداً كبيراً في إبراز هوية المعارضـة ، وإن كانت لم تصل بعد إلى ما يرجـى لها من مكان .

وقد شهد عام ١٩٧٥ تصاعد العمل الفدائي الجـريء وأنزل بالعدو كثيراً من الضربـات ، وبعثـ الخوف والقلق في كل منزل ونـادـ .

والصراع الآن يدور ، ويـشـتركـ فيهـ كلـ عـربـيـ وكلـ مـسـلمـ ، وـيـتـبـغـيـ إلاـ يـقـصـرـ أحـدـ منـ هـؤـلـاءـ فـيـ دـفـعـ نـصـيـهـ بـسـخـاءـ وـحـمـاسـةـ وـأـمـلـ ، وـهـذـاـ الـطـلـبـ يـتـطـلـبـ الـجـهـودـ مـنـ كـلـ الـفـئـاتـ ، يـتـطـلـعـ إـلـىـ بـرـاعـةـ السـاسـةـ ، وـعـقـولـ الـفـكـرـيـنـ ، وـأـقـالـامـ الـكـتـابـ ، كـمـاـ يـتـطـلـعـ إـلـىـ مـاـ لـمـ الـغـنـىـ ، وـبـسـالـةـ الـجـنـدـىـ ، وـيـقـظـةـ الـمـشـرقـيـنـ .

وقد تحدثنا من قبل عن جولة يونيـوـ سنة ١٩٦٧ وـعـنـ النـكـسـةـ التـيـ خـلـقـهاـ الـأـهـمـالـ وـالـانـحرـافـ ، وـقـدـ سـاعـدـ ذـلـكـ اـسـرـائـيلـ عـلـىـ اـبـلـاعـ غـزـةـ وـالـضـفـةـ الـغـرـبـيـةـ لـتـهـرـرـ الـأـرـدـنـ وـلـكـنـ الـعـربـ يـعـرـفـونـ أـنـ الـحـرـبـ الصـهـيـونـيـةـ لـنـ تـكـوـنـ سـهـلـةـ يـسـيـرـةـ ، وـلـذـلـكـ فـانـ الـعـربـ يـتـبـغـيـ أـنـ يـتـنـقـعـوـنـ بـالـنـكـسـاتـ كـمـاـ يـتـنـقـعـوـنـ بـالـانتـصـارـاتـ ، وـلـاـ بـدـ هـمـ لـيـسـ مـنـهـ بـدـثـ .

وقد تحدثنا في كتاب خاص (مصر في حربـينـ) عن انتصارـاتـ أـكتـوبرـ ١٩٧٣ـ التـيـ اـسـتـعـادـ بـهـ الـعـربـ مـكـانـهـمـ فـيـ التـارـيـخـ السـيـاسـيـ وـالـعـسـكـرـيـ ، وـالـقـيـمـةـ فـتـحـ الـبـابـ لـتـصـوـيـةـ سـلـيـمـةـ لـلـمـشـكـلـةـ الـفـلـسـطـيـنـيـةـ .

وـفـ مؤـتمرـ الـقـمـةـ الـذـيـ عـقـدـ بـالـرـيـاضـ فـيـ ٢٦ـ أـكـتوـبـرـ سـنـةـ ١٩٧٤ـ اـجـتـمـعـتـ كـلـمـةـ الـقـادـةـ — كـمـاـ سـبـقـ — عـلـىـ الـاعـتـرـافـ بـمـنظـمةـ التـحرـيرـ الـفـلـسـطـيـنـيـةـ مـمـثـلاـ وـحـيدـاـ لـلـشـعـبـ الـفـلـسـطـيـنـيـ ، وـعـلـىـ أـنـ أـيـ جـزـءـ يـتـحرـرـ مـنـ فـلـسـطـيـنـ يـعودـ لـلـفـلـسـطـيـنـيـنـ بـزـعـامـةـ مـنظـمةـ التـحرـيرـ ، وـقـدـ وـافـقـ الـمـلـكـ حـسـنـ عـلـىـ ذـلـكـ ، وـهـذـاـ فـتـحـ الـبـابـ لـعـودـةـ حـمـيـدةـ لـفـلـسـطـيـنـ الـحـبـيـةـ .

وـوـافـقـتـ الـأـمـمـ الـمـتـحـدـةـ عـلـىـ بـحـثـ تـصـيـيـةـ فـلـسـطـيـنـ مـنـ جـدـيدـ فـيـ نـوـفـمـبرـ

سنة ١٩٧٤ وعلى دعوة منظمة التحرير لتمثيل فلسطين في هذه الدورة ولتشهد باسم فلسطين ، وكانت قضية فلسطين قد شطبت وحلت محلها قضية اللاجئين ، ثم تنوسيت قضية اللاجئين ، ولكن انتصار أكتوبر سنة ١٩٧٣ بعث الحياة من جديد في قضية فلسطين .

وفي الأمم المتحدة ألقى ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير خطابا خطيرا نقتطف منه بعض الفقرات :

« إن الأمم المتحدة قامت وسط تحركات حربية عام ١٩٤٧ بتقسيم ما لا يجوز لها تقسيمه وهو أرض الوطن الواحد . وحين رفضنا هذا القرار فإننا كنا مثل أم الطفل الحقيقة ، التي رفضت أن يقسم شليمان طفلها . حين نازعتها عليه امرأة أخرى . »

« ومع ذلك .. فقد منح قرار التقسيم المستوطنين الاستعماريين ٥٤٪ من أرض فلسطين وكان ذلك لم يكن كافيا بالنسبة لهم فشنوا حربا إرهابية ضد السكان المدنيين العرب واحتلوا ٨١٪ من مجموع مساحة فلسطين وشردوا مليون عربي . متفصبين بذلك ٥٢٤ قرية ومدينة عربية ، دمروا منها ٢٨٥ مدينة وقرية تدميرا كاملا ومحوها من الوجود ، وحيث فعلوا ذلك أقاموا مستوطناتهم ومستعمراتهم فوق الأنقاض » وبين بساتيننا وحقولنا ، ومن هنا تكمن جذور المشكلة الفلسطينية .

« ولم تكتف إسرائيل بذلك ، بل شنت حربين للتوسيع سنة ٥٦ و ٦٧ ضمت فيها سيناء والجولان وبباقي فلسطين حتى نهر الأردن . »

« وجاءت حرب ١٩٧٣ لتأكد للعدو عقم سياسته الاحتلالية واعتماده على شريعة القوة ولكن العدو لم يتعظ بذلك . »

« ويقولون إننا أرهابيون ، والحق أن الجانب الذي يقف فيه حامل السلاح هو الذي يميز بين الناشر والارهابي فمن يقف في جانب

قضية عادلة ومن يقاتل من أجل حرية وطنه واستقلاله ضد الغزو والاحتلال والاحتلال والاستعمار لا يمكن بأي حال أن تتطبق عليه صفة ارهابي والا اعتبر الشعب الأمريكي حين حمل السلاح ضد الاستعمار البري !! إن ارهابيا ٠٠ واعتبر كثيرون منكم في هذه القاعة ارهابيين ٠٠ واعتبر نضال الشعوب في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ارهابا ٠

« إن الإرهاب الصهيوني هو الذي استلب حق الشعب الفلسطيني لاجلائه عن وطنه ٠٠ واقتلاعه من أرضه ٠٠ ومدوئن لديكم في وثائق رسمية وزعت في الأمم المتحدة أن العدو ذبح الآلاف من أبناء الشعب في قراهم ٠٠ ومدنهم ، وأجبر عشرات الآلوف تحت نار البنادق وقصف المدافع والطائرات ٠٠ أن يتربوا ببيوتهم وما زرعوا في أرض أجدادهم ٠

« ولقد قدم شعبنا في السنوات العشر الأخيرة من نضاله آلاف الشهداء ، وأضعافهم من الجرحى والمشوهين والأسرى والمقودين من أجله لا يفني أو يذوب ٠٠ ومن أجل انتزاعه حقه في تقرير مصيره على وطنه وفي عودته إلى هذا الوطن ٠

وتعيش جماهير شعبنا الآن تحت الاحتلال الصهيوني تقاوم بكل الكبرياء المناضل فيها ، وبكل الشموخ الثوري الملائم لها ٠

« إنني كرئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية ٠٠ وكائد للثورة الفلسطينية أتوجه إليكم أن تتفقوا مع نضال شعبنا من أجل تحقيق حقه في تقرير مصيره ٠٠ هذا الحق الذي قرره ميثاق منظمتكم وأقرته جمعيتكم الموقرة في مناسبات عديدة ، وإنني أتوجه إليكم أيضاً أن تتمكنوا شعبنا من العودة من منفاه الإجباري ٠٠ الذي دفع إليه تحت طلقات البنادق ٠٠ وبالظلم ٠٠ ليعيش في وطنه ودياره وتحت ظلال أشجار مزارعه حراً سيداً تفتعا بكلمة حقوّة !! القومية ليشارك في ركب الحضارة البشرية وهي مجالات الابداع الانساني بكل ما فيه من المكانيات وطلقات ولديهم قدسية

الحبية كما فعل دائماً عبر التاريخ ويجعلها قibleة حرة لجميع الأديان بعيداً عن الإرهاب والفقر كما فعل عبر القرون النبوية .

«أتوجه إليكم لأن تمكنا شعبنا من إقامة سلطنته الوطنية المنشقة ..»

«لقد جئتم بسيادة الرئيس بغضن الزميتون في يد وبندقية التائير في يدي الأخرى فلا تسقط الغصن الأخضر من يدي ..»

وفي ١١/٢٢/١٩٧٥ وافقت الجمعية العامة بأغلبية ساحقة على قرار بالاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في الاستقلال والسيادة الوطنية ، وعلى قرار آخر يقضى بمنع منظمة التحرير الفلسطينية وضع «مراقب» في الأمم المتحدة .

ويبدوا القرار الأول إلى منع الشعب الفلسطيني حق تقرير المصير والاعتراف بحقه في الاستقلال والسيادة الوطنية ويعلن القرار :

— أن الفلسطينيين طرف رئيسي في آية تسوية للأزمة في الشرق الأوسط .

— تأكيد حق الفلسطينيين في المودة إلى ديارهم وممتلكاتهم التي انتزعوا منها .

— أن هذه الحقوق أمر لا غنى عنه لتسوية الشكلة الفلسطينية ومن حق الشعب الفلسطيني أن يستردتها بكل الوسائل بما يتمشى مع مبادئ الأمم المتحدة .

— على جميع الدول والمنظمات الدولية أن تساعد الفلسطينيين في نضالهم .

— ينبغي استشارة منظمة التحرير الفلسطينية في جميع المسائل المتعلقة بفلسطين .

- ٧٥٣ -

وكانت الدول التي عارضت هذا القرار هي الولايات المتحدة وأسرائيل وشيلي وكوستاريكا وايسلندا ونيكاراجوا والترويج .

وينص القرار الثاني على منح منظمة التحرير الفلسطينية الحق في الاشتراك كمراقب في دورات الجمعية العامة وجميع المؤتمرات التي تعقدها أية هيئة من هيئات المنظمة الدولية .

وتحصلت يوسف تيكواه مذووب اسرائيل بعد صدور القرارين فقال إن هذه أيام حزينة بالنسبة للأمم المتحدة ، وانضم المنظمة الدولية بالاستسلام .

مذبحة جديدة في «عين الحلوة» ببنان :

وقد تعرض الفلسطينيون في فلسطين وفي لبنان إلى مذابح مريرة قام بها الجيش الإسرائيلي ، وقد تحدثنا من قبل عن مذبحة صبرا وشاتيلا ، ونتحدث هنا عن مذبحة أخرى في معسكر «عين الحلوة» وقد وقعت في ١٦/٥/١٩٨٤ وكانت عنها وكالات الأنباء ما يلى :

اقتحمت القوات الاسرائيلية مخيم «عين الحلوة» للباحثين على بعد حوالي ٤ كيلو مترا جنوب بيروت في ساعة مبكرة من صباح أمس مستخدمة الدبابات والبلدوزرات والعربات المدرعة .

أسفرت عملية الاقتحام التي بدأت في منتصف ليلة أمس الأول (الثلاثاء) واستمرت حتى الساعة الخامسة من صباح أمس عن تدمير أكثر من ٤٠ منزلًا ومصرع وأصابة حوالي ٤٠ شخصا كانوا بداخلها كما أقتحمت السلطات الإسرائيلية القبض على ١٥٠ شخصا آخرين من سكان المخيم .. وذكرت وكالة غوث اللاجئين أن القوات الإسرائيلية نسقت ٨ منازل بالديناميت بسكنها وهم نائم ..

وقد وقع الحادث بعد يوم واحد من المظاهرة التي وقعت في

- ٧٠٤ -

المخيم وصدر بيان معاد لاسرائيل احتجاجا على ذكرى (وعد بلفور) .

وكانت كلمة « الأخبار » عن هذه المذبحة هي :

مذبحة « عين الحلوة » .. مذبحة جديدة تضاف الى التاريخ الأسود للمذابح الاسرائيلية ضد الأبرياء العزل من أبناء الشعب الفلسطيني ذلك التاريخ الذي يبدأ بمذبحة دير ياسين وينتهي بمذابح صبرا وشاتيلا .

ولا يختلف سيناريو المذبحة الجديدة كثيرا .. ففي حوالي منتصف ليلة الثلاثاء حاصر الجيش الاسرائيلي مستخدما سبع عشرة دبابة ومدرعة مخيم عين الحلوة الذي يسكنه ٢٥ ألفا من الفلسطينيين .. وبعد قليل اقتحم الجنود الاسرائيليون المخيم ثم انتشروا في المخيم وتسللوا بالдинاميت دون هواة ١١ مسكنها وأثقوها عشرة أخرى .. وأسفرت العملية عن اصابة العشرات واعتقال العشرات .. كانت الانفجارات تدوى داخل المخيم ب معدل انفجار كل خمس دقائق .. وأصيب السكان بالهلع وتذكروا ما حدث في صبرا وشاتيلا .. وما يثير الأسى والحزن في هذه المذبحة إن هذا المخيم بالذات كان قد أُبيد عن آخره خلال الغزو الإسرائيلي عام ١٩٨٢ .. ولكن سكانه الفلسطينيين استطاعوا في زمان قياسي إعادة بنائه ..

إن استمرار القوات الاسرائيلية في هذه العمليات التي تستهدف التصفية الجسدية للشعب الفلسطيني يستدعى من الأمة العربية كلها أن تتصدى لها لكي تكتف إسرائيل عن المضي في جرائمها فإن حماية الوجود

- ٧٠٥ -

المدنى للفلسطينيين الخاضعين للاحتلال الاسرائيلى هي مهمة كل عربى ..
وكل انسان حر شريف ومهمة كل المنظمات والهيئات الدولية ..

وعلى اسرائيل أن تعلم إن العنف لن يولد الا العنف .. وإنها مهما حاولت فلن تستطيع أن تبعد الشعب الفلسطينى .. فالشعوب لا تموت أبداً ..

وسيظل العدو ان من جانب والثأر الفلسطينى من جانب آخر حتى يعود الحق الى نصابه في المستقبل القريب او البعيد ولن ينال اليهود الأمان في فلسطين بسبب هذه السياسة التي تولد التذعر لا الأمان ..

النضال الفلسطينى داخل فلسطين فقط :

أعلن السيد ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية في ١٩٨٥/١١/٨ شجب المنظمة وادانتها لجميع عمليات الارهاب سواء تلك التي تتورط فيها الدول أو التي يرتكبها أفراد أو جماعات ضد الأبرياء والعزل في أي مكان ..

وأكيد ياسر عرفات إن المنظمة سوف تتخذ ابتداء من اليوم كافة الاجراءات الرادعة ضد المخالفين ، ودعا عرفات - في بيان باسم المنظمة أعلنه في القاهرة - المجتمع الدولي بسان يلزم اسرائيل بوقف جميع الأعمال الإرهابية في الداخل والخارج ..

وأعلن عرفات في بيانه أن الأحداث تؤكد اقتطاع منظمة التحرير الفلسطينية بأن العمليات الإرهابية التي تخذ في الخارج تسىء إلى قضية الشعب الفلسطينى وتشوه كفاحه المشروع في سبيل الحرية ..

ولكن عرفات أكد مجدداً تمسك المنظمة بحق الشعب الفلسطينى في

- ٧٠٦ -

مقاومة الاحتلال الاسرائيلي لأراضيه بكل السبل المتاحة بهدف تحقيق
الانسحاب من هذه الأرض .

وناشد رئيس منظمة التحرير الفلسطينية كافة الشعوب المجهدة للسلام
في جميع أنحاء العالم الوقوف إلى جانب المنظمة وهي تتخذ هذه الخطوة
لإنسهام في تخلیص العالم من ظاهرة الإرهاب وتحرير الأفراد من الخوف
ووقايتهم من الخطر .

وأكد ياسر عرفات أن المقاومة الفلسطينية لن تباشر نشاطها إلا في
الأرض الفلسطينية المحتلة حتى يتم جلاء العدو عنها .

تركيب المجتمع السوري

هناك عوامل خطيرة ساعدت على ما شاهدناه من حركات الانقسام في سوريا ، ولا تزال هذه العوامل موجودة في سوريا الحالية وفي لبنان ، ولعلها أسممت أيضاً في الحركة الانفصالية بين سوريا ومصر ، ولدينا بحث خطير كتبه عالم سورى هو الأستاذ محمد المبارك يبين عناصر المجتمع السوري الحالى والاتجاهات فيه ، وعنه نقتبس بعض المعلومات التي تووضح لنا هذه العوامل :

فمن ناحية الجنس يوجد في سوريا الأجناس الآتية :

١ - العرب : والجنس العربي بسوريا يختلف بعضه عن بعض ، فمن عرب سوريا من وصل في الحضارة والمدنية درجة كبيرة ، ومنهم البدو الرحل بالجزيرة وحلب وجبل الدروز وغيرهما ، ومنهم جماعة يقرون بين البداءة والحضارة يرعون الإبل ويمارسون شيئاً من الزراعة .

٢ - الأكراد : ويكترون في مناطق الحدود التركية والعراقية وعدهم حوالي ٣٥٠ ألفاً ، وأكثرهم مسلمون سنيون ، ولهم ماضٌ ناصع في الحركات الوطنية ، ولكن حركة القومية الكردية تغزوهم . كما أن الشيوعية تجذب طريقها لهم ، وبخاصة أن الأكراد يكترون جمهورية كردستان إحدى جمهوريات الاتحاد السوفياتي ، ومنهم خالد بكداش أهم مؤسسى الحزب الشيوعى في سوريا .

٣ - الجركس والداغستان والشاسان : وهم مهاجرون من قفقاسيا

- ٧٦ -

في أواخر القرن التاسع عشر إلى ما بعد الثورة الشيوعية بالاتحاد السوفييتي ويسكرون جنوب سوريا ، وهم مسلمون سنيون .

٤ - التركمان : ويكثرن في محافظة اللاذقية ، وهم أقلية تركية أو تركمانية أصبحوا من سوريا نتيجة لتنظيم الحدود بين سوريا وتركيا وهم مسلمون سنيون .

٥ - الأرمن : هاجروا إلى سوريا خلال الحرب العالمية الأولى ويكثرون في الجزيرة وبعض قرى اللاذقية ، ولهم نشاط واسع في الصناعة والأعمال الحرة ، وهم مسيحيون ، أكثرهم يتبع طائفة الأرثوذكس ، والباقي يتبعون المذهب الكاثوليكي .

٦ - السوريان : وقد هاجر السوريان إلى سوريا من تركيا إبان عهد الانتداب الفرنسي وعددتهم حوالي ٣٠ ألفاً ، وهم مسيحيون .

٧ - الكلدان والآشوريون : وقد هاجروا إلى سوريا من العراق عقب الحرب العالمية الأولى ، وعددهم ليس كثيراً (بحسبة ألف) .

ومن ناحية اللغة : يلاحظ أن كل جنس من هذه الأجناس يتكلم لغته ، وقد يعرف بجانبها اللغة العربية ، ولكنها أحياناً شبه رطانة ، ولغتها الأصلية عنده هي اللغة القومية ، ولبعضهم صفات خاصة كالأرمن ، وأندية يلتقدون بها ، ومدارس خاصة لأبنائهم .

ومن ناحية الآيان والمذاهب نجد في سوريا عدداً كبيراً له أثر عميق في المجتمع ، وذلك لميل أكثر هذه الجماعات إلى الطائفية ، والتوزيع الطائفي حسب إحصائية سنة ١٩٥٦ هو :

- ٧٠٩ -

١ - المسلمين :

| | |
|---------------------------------|---------|
| السننون | ٣٨٧٠٠٠٠ |
| العلويون | ٤٢٩٠٠٠ |
| الإسماعيليون | ٤٠٠٠٠ |
| الجعفريون وستتكلم عنهم فيما بعد | ١٥٠٠٠٠ |
| الدروز | ١٢٥٠٠٠ |

وقد مرَّ حديث طويل عن الدروز عند الكلام عن الحاكم بأمر الله .

٢ - المسيحيون :

| | |
|-----------|--------|
| الأرثوذكس | ٣٥٠٠٠ |
| الكاثوليك | ١٢٦٠٠٠ |
| بروتستانت | |
| كلدان | ٢٩٠٠٠ |
| نسطوريون | |

٣ - اليهود

٤ - اليعزدية (يقدسون الشيطان)

وفيما يلي لمحات عن هذه الأديان والمذاهب .

- يدخل في السننين أكثر العرب والأكراد والجركس والتركمان .

- بعض الإسماعيلية الأخلاقية والدروز بعدوا عن الإسلام بعد شاسعا .

- الفرقة المعروفة بالعلويين يكثر بينها الغلو في التشيع وتتذر الخرافات ، ولكن بدأت أحوالهم العلمية والدينية تتحسن ، نوعاً ما . وستتحدث عنهم بشيء من التفصيـل فيما بعد .

— تكثر الشيوعية في المسيحيين الأرثوذكس لصلة روسيا بهذا المذهب . كما توجد بين قلة من الأكراد والأرمن ٠٠٠

— يتوجه الكاثوليك إلى الغرب بعواطفهم ويكرهون الشيوعية ٠

ومن ناحية العقائد الفكرية يتضح لنا ما يأتي :

— يميل أكثر السوريين إلى دعم الحركة العربية والاسلامية ، واعتبارها حركة واحدة قائمة بعدم إمكان الفصل بين الفكرتين والاتجاهين ٠

— يوجد حزب البعث العربي وهو يتوجه بكل قواه للجانب العربي ويتناهى الجانب الإسلامي ٠

— توجد جماعة الإخوان المسلمين وهي تتوجه للجانب الإسلامي ٠

— الحزب القومي السوري ويرمى لعزل سوريا عن العرب وعن المسلمين ، وتكوين قومية خاصة بسوريا ، ومؤسس هذا الحزب « أنطون سعيدة » ٠

الجعفرية :

تحدثنا في الجزء الثاني من هذه الموسوعة عن مدحى التشيع وأدعائهم ، وكيف تتغولوا الأكاذيب عن الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه ، وقد بالغ بعض هؤلاء وقتلوا أن الإمامة وفقت عند جعفر الصادق السادس في سلسلة الإمامة ، ولم تتركه إلى سواه لأنها لم يمت ، وإنما استقر وسيعود ، ويتبubo ل الإمام آراء منحرفة هو منها بريء ، وبذلك مثل الغيبة والرجعة والتناسخ والحلول وغيرها من الاتجاهات الشديدة الوافية ، وقد ظهرت بعض هذه الآراء في أثناء حياة جعفر ، وتبرأ منها الإمام ، ولعن القائلين بها ٠

العلميين أو النصرية:

طائفة من غلاة الشيعة يعتقد الكثيرون منهم أن الإمام عليا له طبيعة إلهية ، وهم يعرفون بالنصيرية ، نسبة الى محمد بن نصير الكوفي ، وهو أحد متطرف الشيعة (أواخر القرن الثالث الهجري) أو الى نصير مولى الإمام علي ، وهم يسكنون المنطقة البابلية . وهي باسم « جبال العلوين » ، وقد كونوا دولة خاصة بهم سنة ١٩٢٢ تسمى جبل العلوين وكانت الماذقية عاصمة هذه الدولة ، ولكنها سرعان ما اندمجت في الدولة الأئم (سوريا) .

و مع الش سط في الناحية الدينية ، فقد وجد من العلميين بعض الزعماء السياسيين والعسكريين ، ومن هؤلاء صالح العلي الذى قاد ثورة ضد الغزو الفرنسي سنة ١٩١٩ .

ويذكر الأستاذ محمد عبد الله عبان أن التصيرية طائفة من الباطنية ،
وهم ينظامون بالإسلام ولكنهم يدعون أن علي بن أبي طالب إله ،
وأفكارهم شديدة الاتصال بأفكار الدروز ، ولهم تشریعات لا يترها الإسلام
وبخاصة فيما يتعلق بالمرأة ، والمحرمات في الزواج (١) .

ويقول عنهم الدكتور فيليب حتى ان النصيرية لهم مذهب له طابع
السرية ، كهنوتي النظام ، باطنى التعليم ، وهو في الحقيقة رواسب من ملل
سورية وثنية مُغَائِّة بغضائه من التعليم الشيعي المنحرف ، مع بعض
ظواهر المسيحية المسطحية كاحتقالهم مع التنصاري بعيد الميلاد وعيد
القيامة ، واستخدامهم أسماء اتفقدها النصارى مثل يوحنا وهيلانة
ويبلغ عددهم حوالي نصف مليون وأكثرهم من المزارعين (١) .

والذى أعتقده أن هذه المعتقدات تضيق الأن وتنتجه للأقوال ، فحب على ابن أبي طالب لا يمكن أن يدفع المحبين إلى الاعتقاد باللوحية ، فإن ذلك كان من اتجاهات فترات الظلام ، وهذه الفترات هي ونتائجها في الطريق للزوال .

٣٢٢ - (١) الحاكم بأمر الله حز

(٢) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ٢٦٠ م - ٢٣١

الكتروب المصليبية

دواتها - أدوارها - نماجتها

١٢٩٢ - ١٠٩٨ = ٢٩٤ - ٤٩١

هيئت الحروب الصليبية حوالي نهاية القرن الحادى عشر الميلادى ، وظلت مائتى عام تقريباً ، أكلت خاللها ملايين البشر واستفدت الكثير من جهد الغرب وجهد الشرق ، وسنحاول في هذه الدراسة تصوير الأحداث في هذه الحروب تصويراً سرياً وشاملاً .

أسباب الحروب الصليبية

اتخذت الحروب الصليبية تسميتها من الصليب دلالة على أن الدين كان أهم أسبابها ، ولكن مع حقد الصليب وحماسه في هذه المعارك ، فقد كانت هناك أسباب أخرى تدعّم روح الشر الصليبي ، وسنحاول هنا أن نلم بأسباب هذه الحروب سواء في ذلك الأسباب الدينية وغير الدينية ، ولكننا نشرع فتشير على القارئ أن يطالع الكتاب الجديد الذي أصدره المؤلف مرتبطة بالحروب الصليبية وعنوانه :

الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الإسلام وامتداداتها حتى الآن

أما الأسباب الأخرى التي دفعت الصليبيين للزحف على الشرق الإسلامي فهي :

١ - الأسباب التاريخية :

يرى الدكتور فيليب (١) أن الحروب الصليبية في وضعها الصحيح فصلٌ متوسط من فصل تلك القصة الطويلة ، قصة الخلاف بين الشرق والغرب ، مبتدئة بمحروب طروادة وفارس في الأزمنة الغابرة ، ومتعمدة بالتتوسيع الاستعماري الأوروبي في العصر الحديث ؛ فالحروب الصليبية حلقة من هذه السلسلة ، وقد شنتها أوروبا ليس على سوريا وآسيا الصغرى فحسب ، بل على الشرق الأوسط كله .

وهذا الصراع التقليدي القديم الذي ظهر بوضوح في النزاع بين

الفرس واليونان ، ثم بين الفرس والروم ، لم يكن مرتبطا بأى عامل ديني ، حيث أنه بدأ عندما كان هؤلاء وأولئك وثنيين ، ولكنه كان مرتبطا بالعامل الحضارى ، فبدا صراعاً بين حضارتين مختلفتين وعقليتين متقابليتين ، وقد ظل هذا الصراع بين الشرق والغرب يهدأ ويثور كالبركان في هدوئه وثورته ، فلما جاء القرن الحادى عشر اشتد غليان البركان فثار متخذا الصليب في هذه المرة أداة له ، ومظهراً لغليانه .

٢ - أسباب ترتبط بالديانة المسيحية :

ترعرعت المسيحية في أوروبا ، بعد أن وجئها بولس وججهتها الجديدة وأبعدها عن رسالت السماء (١) ، وانتشرت الديانة الجديدة بين كنائس أوروبا وجامعاتها ، مع أن الشرق كان المهد الحقيقي لدين المسيح .

وهناك أديان راحمت المسيحية في عصور مختلفة ، وذلك مثل اليهودية والبوذية والكونفوشية والاسلام ، ولكن الاسلام كان الدين الوحيد الذى زحف بقوه جارفة على المستعمرات الاوروبية المسيحية فى سوريا ومصر وشمال افريقيا وضمنها اليه ، ولم يكتفى الاسلام بهذا بل اقتحم على أوروبا المسيحية أبوابها من الغرب عن طريق الاندلس ، ومن الشرق عن طريق القسطنطينية التي دق المسلمون أبوابها من شبه الأموى ، وكان الاسلام في الحالتين مشجعا نحو قلب أوروبا ، ومتخذا حول البحر المتوسط حركة تشبه ما يسمى في الحروب الحديثة بحركة الكماشة .

ولا غرو إذن أن تختلف أوروبا من الاسلام وتعلن عليه العداء ، على نحو ما تفعل حتى الآن ، وأن تتلمس الوسائل لتقليل أظافره والتغلب عليه .

وقبيل قيام الحروب الصليبية كانت الكماشة التي فرضها الاسلام بدأت تنفك وأعقب الماء جزر ، وببدأت قوى المسلمين تتراجع وتشقق ،

(١) انظر البحث العلمي الدقيق الذى كتبه المؤلف فى كتابه «المسيحية» ضمن سلسلة «مقارنة الأديان» .

وأتميل إلى القول بربط أحداث الشرق بالغرب ؛ فنسقط الخلافة الأموية بالأندلس ، وقيام ملوك الطوائف بها ، وما تبع ذلك من هزائم متلاحقة متensi بها المسلمين ، وتقهقر مستمر ترك بهم في الميدان الغربي (الأندلس) ، كل هذا شجع المسيحيين أن يقوموا بضريه من جهة الشرق لمحاولة تدمير قوى المسلمين من الطرفين ، ثم للقضاء على المحاولات التي كانت تظهر من حين آخر في القسم الشرقي من العالم الإسلامي ، تلك المحاولات التي كانت ترمي إلى مساعدة المسلمين بالأندلس ، ومد يده العون إليهم حتى يستردو قوتهم أمام العدو المسيحي .

والتناظر إلى تاريخ هذه الحقبة يجد صراعاً في الشام ، ومحاولات لاحتلال مصر ، كما يرى زحفاً مطرداً في الأندلس يعقبه تحاولات لاحتلال شمال إفريقيا صادف بعضها أنواعاً من النجاح .
فلا غرو بعد هذا أن تؤكد أن نشاطاً دينياً انتصرا في تاريخ المسيحية في هذه الأثناء كان يرمي إلى القضاء على الإسلام الذي مثل خلال فترة من الزمن إشارة الخطر ضد المسيحية الأوروبية .

ومن الأهداف المحددة للبيضة الدينية المسيحية في أوروبا آنذاك ، الاستيلاء على الأماكن المقدسة في فلسطين ، لتوسيع الكنيسة البابوية بروماد حماية هذه الأماكن المقدسة وإدارتها .

ومن الأهداف المحددة كذلك أن الكنيسة الغربية رأت أن تنتهز هذه الفرصة لمحاولة بها توحيد الكنيسة المسيحية ، وجعل قيادة المسيحيين جميعاً في يدها ، وقد كانت الكنيسة المسيحية قد انشقت إلى كنيسة شرقية وكنيسة غربية عقب مجمع روما الذي عقد في سنة ٨٦٩ م ، ومجمع القسطنطينية الذي عقد سنة ٨٧٩ ، إذ قرر الأول انبعاث الروح القدس من الآب والابن ، وقرر الثاني انبعاث الروح القدس عن الآب فقط ، وأصبحت لكل كنيسة عقب ذلك مجتمعها الخاصة ، ولم تعد أى منها تخضع لقرارات الكنيسة الأخرى (١) .

(١) انظر مقارنة الانبيان للمؤلف : الجزء الثاني الخاص باليسوعية .

ولهذا كله أسرعت الكنيسة الغربية بتلبية نداء البيزنطيين الذين هالهم ما حققه المسلمون ضدهم من انتصارات ، ولذلك يعتبر بعض المفكرين أن الحروب الصليبية كانت امتداداً للحروب بين البيزنطيين والمسلمين في الشام والأناضول وشمال إفريقيا خلال المئويات والقرون التي سبقت الحروب الصليبية .

ويدخل في الأسباب الدينية كذلك ما يذكره المؤرخون من أن البابا رأى في الحروب الصليبية وسيلة يحول بها إلى الشرق وجوه البارونات والفرسان الذين يعانون من القارة الأوروبية بالحروب والمغامرات وأعمال اللصوصية ، ويسعون إلى رجال الإكليروس متذمرين عليهم ما يحرصون عليه من إكرام واحترام ، ثم أن انسياق هؤلاء في الحروب الصليبية استجابة لنداء البابا ، معناه خضوع الملوك والإقطاعيين لسلطان البابوية (١) .

٣ - الأسباب التجارية :

وهناك أسباب تجارية عظيمة الشأن جعلت التجار المشاهير بالساحل الشمالي للبحر المتوسط وبخاصة في البندقية وجنوا وبيزا يبذلون المال والسلاح للتشجيع على الحروب الصليبية ، وتلك الأسباب هي الرغبة في امتلاك بعض الموانئ على الساحل الشرقي والجنوبي للبحر المتوسط لتكون هذه الموانئ مراكز لتجارة الغرب في الشرق ، ولتنفصل تجارة أوروبا عن طريق هذه المأذنة بالخطوط التجارية بالشرق ، ويُعزّزَ المتجار اليهود التشجيع على هذا الاتجاه ومساعدته مادياً وأدبياً مما يجعل اليهود أسباباً مستقرة خلف إثارة الحروب الصليبية (٢) .

(١) قدرى قلعجي : صلاح الدين الايوبي ص ١٦ - ١٧ .

See : «The Jews» by James Hosmer p. 137 (٢).

See also Medieval Europe by Ephraim Emerton p. 395 f.

٤ - أسباب تتصل بالنظام الاقطاعي بأوروبا :

كان النظام الاقطاعي سائداً في أوروبا قبيل الحروب الصليبية فكان لكل أمير اقطاع ، وكانت العلاقة بين أمراء الاقطاع بعضهم البعض سيئة للغاية ، فالحروب توشك ألا تقطع ، والتدمير سمة العصر ، وقد تسبب عن ذلك ما يلى :

(أ) رغب أمراء أوروبا في الحصول على أرض جديدة في الشرق أكثر خصوبة وأمنا من أرض أوروبا التي خضبتها الدماء ، واستوطن بها شبح الحرب .

(ب) كانت قوانين الوراثة الاقطاعية قد خلفت طائفة عظيمة العدد من الشبان المعدمين الذين حجوا عن الميراث والتملك إخوتهم الأكبر سناً منهم ، فهؤلاء وغيرهم من الأفاقين ذوى الأهمال العريضة طمعوا في الثراء واقتناه للأملاك عن طريق النزوح إلى بلاد جديدة (١) .

(ج) وجَدَّ رقيق الأرض تحت النظام الاقطاعي ، فرصة في الحروب الصليبية للتحرر من الرق وفك رقابهم ، فانضموا للصليبيين بنشاط وحماسة .

(د) كثرة الحروب بين أمراء الاقطاع أنتجت فئة من الأبطال والشجعان الذين احترفوا الحروب ، حتى أصبحت ضروب الشجاعة هوايتهم ، وقد دفعهم ذلك إلى الرغبة في اشعال نار الحروب في أرض جديدة حتى يُظهروا قوتهم ويصبحوا بذلك أبطالاً عالميين .

(هـ) تعطلت الزراعة أو ضعفت في أوروبا بسبب استهلاك الحروب ، فقصب عن هذا مجاعات طاحنة في أوروبا ، وقد دفعت هذه المجاعات الأوروبيين إلى التفكير في الهجرة للشرق حيث الأمن والخصوصية والاستقرار .

(و) تسبب عن كثرة الحرروب ظهور ألوان من الأوبئة بأوروبا نتيجة الجهد والجوع وأجسام المرضى التي قد يتأخر دفنتها ، وكان ذلك من أسباب الميل للذهاب للشرق فراراً من هذه الأوبئة .

٥ - أسباب تتصل بالجبهة الإسلامية :

شجعت الجبهة الإسلامية المعاصرة الأوروبية على هذه المجازفة الخطيرة ، وذلك للدواعي الآتية :

(أ) قبيل الحروب الصليبية كان العالم الإسلامي يعاني من الانحلال والضعف ، فدولة السلاجقة قد ذهبت شوكتها وانحكأت إلى عدة دول بعد أن مات (ملكشاه) سنة ١٠٩٢ ، واقتسم أبناؤه الأربعه محمود وبيركياز وسنجر ومحمد مملكته بعد حروب طويلة استنزفت قوى السلاجقة ، فظهرت سلطנות الفرس ، وكرمان ، والعراق ، والشام مستقلة بعضها عن بعض ، كما أنكر حكام المدن والولايات المعروفة بالأتراكية سيادة حفدة سلجوقي .

وكان سلاجقة الشام أكثر تنازعاً ، فقد استولى عليها تنوش بن ألب أرسلان ، ولكن ابنيه رضوان ودمشق تنازعوا السلطة بعد مقتل أبيهما ، وقد اتخد رضوان (٤٨٨ - ٥٠٧) مدينة حلب عاصمة له ، واختار أخوه دقاق (٤٨٨ - ٥٤٩٨) دمشق عاصمة له ، ودارت رحى الحرب بين الأخوين منذ سنة ٤٩٠ (١٠٩٦ م) وشغلت جزءاً كبيراً من عهديهما (١) .

(ب) كانت الخلافة الفاطمية متربعة مما نالها من ضعف هو إلى ذلك التاريخ ، فقد خلف الأشطراط الذى حدث في عهد الحكم بأمر الله كثيراً من البلاء والفوضى لم يصلحه عهد ابنه الظاهر الذى تولى الخلافة

(١) ابن الأثير : الكامل (حوادث سنة ٤٩٠) وانظر سديو : تاريخ العرب العام ص ٢٥٥ ويعجم الأنساب والأسرات الحاكمة لزاماً بأوروبا من ٣٣٥ - ٣٣٣ .

— ٧٢١ —

وهو صبي ، ومات الظاهر خالد الخليفة إلى ابنه الطفل « المستنصر » ، ووضع زمام الأمر في يد أمه ويد الوزراء حتى شب فقسم مقاليد الأمور ، ولكنْ كان عهده مليئاً بالكوارث التي نشأت عن المجاعات والوباء حتى أكل الناس الجيف ، وقد ظل المستنصر في الخلافة ٥٨ عاماً (١٠٣٦ - ١٠٩٤) ، ولما مات قبيل الزحف الصليبي كانت مصر ظاهرة الضعف .

(ج) كانت بلاد الشام منطقة نزاع بين الفاطميين والسلاجقة منذ وطئتها أقدام السلاجقة في عام ٤٦٣ هـ (١٠٧٠ م) ، وقد استطاع السلاجقة انتزاع فلسطين من الفاطميين ، ثم استولوا على دمشق واستقر نفوذهم في الشام في عهد ترش بن ألب أرسلان ، وبسطوا سيطرتهم على حلب والرها والموصى ، غير أن الفاطميين تمكناً بفضل أسطولهم القوي من الاستيلاء على جميع مدن الساحل ومنها عسقلان وعكا وصور حتى جبيل شمالاً في عام ٤٨٢ هـ ، كما عادوا إلى القدس سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٦ م) وظلوا فيها إلى أن سقطت في أيدي الصليبيين سنة ٥٤٩٢ (١) ومعنى هذا أن استيلاء المصريين على بيت المقدس كان قبل سقوطها في أيدي الصليبيين بفترة قصيرة ، ولهذا لم يكن تحصينها قوياً ولا الدفاع عنها راسخاً مما يسرّ سقوطها في أيدي الصليبيين الغزاة .

وتقول بعض المصادر أن الصليبيين حاولوا الاتصال بالفاطميين في القاهرة للاتفاق معهم لعل ذلك يُبَيِّسُ حصول الصليبيين على بيت المقدس وكان ردّ القاهرة حاسماً ، هو السخرية من هذه المحاولة التي أرادت استغلال الخلاف المذهبي ، وتقدم المصريون لأخذ القدس للدفاع عنها بدل السلاجقة الذين كانوا قد أفل نجمهم .

وهكذا كانت بلاد الشام مسرحاً للمنازعات بين السلاجقة والفاطميين ،

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٨ ص ١٨٩ .

وكان السلاجقة كما أشرنا على مذهب أهل السنة ، والفااطميون على مذهب الشيعة ، وكانت أجزاء الشام التابعة للسلاجقة موضع نزاع بين الأمراء من أولاد تتشن كما سبق القول (١) .

(د) وبجانب السلاجقة الذين يسيطرُون على الشمال والفااطميين الذين يسيطرون على الجنوب ، كانت البلاد السورية في الداخل مجزأة إلى مقاطعات عليها عدة زعماء من العرب يتمتعون باستقلال محلي ، ولم يكن للشعب فيها صيغة واحدة تقسم بها عناصره المختلفة فهناك الدروز في جنوبي لبنان والنصيرية في جبالهم الشماليّة ، وجيرانهم الاسماعيلية (المشاشون فيما بعد) قد انقسموا فرقاً ثلاثة تختلف كل واحدة منها عن الأخرى ، وتختلف جميعها عن مذهب أهل السنة ، أما الطوائف النصرانية بالشام فكان الانقسام بينها عظيماً على نفس المنوال الذي انقسمت له طوائف المسلمين بهذه المنطقة (٢) .

(ه) كان سلطان المسلمين بالأندلس يميل إلى الأقوال ، فتقبل بده الحروب الصليبية كان عهد ملوك الطوائف (٤٢٤ - ٤٨٤ هـ) سائداً بالأندلس ، وهو عهد — كما وصفناه في الجزء الرابع من هذه الموسوعة — حساظ بالانحصار والهزائم والخيانات ، ولم تشجد إسعافات المرابطين والموحدين التي عبرت لإنقاذ الأندلس من زحف المسيحيين ، وكل ما استطاعت أن تفعله هذه الإسعافات أن أجثت المصير المؤلم بضعة سنوات ، وقد شجع هذا الوضع فرسان أوروبا إلى الزحف على العالم الإسلامي ، إذ زال خطر المسلمين بأوروبا ، فاتجهت كل القوى المسيحية للعدوان على المسلمين في بلاد الإسلام .

(١) انظر سلاجقة ايران وال العراق للدكتور عبد النعيم حسين ص ١٠٦ - ١٠٥ .

Hitti : History of the Arabs p. 748. (٢)

(و) كانت مواكب الحجاج المسيحيين تَفْدِي من أوروبا إلى بيت المقدس مكونة شبه مظاهرة أو فيلق حربى ، فكان الحجاج عبارة عن فوج كبير من الناس يحمل بعضهم المشاعل ، ويلعب آخرون بالسيوف ؛ وحولهم الطبلول والزمرور ، ويحيط بهم حرس مدججون بالسلاح ، وعندما كان السلطان في يد العرب قبل العهد السلاجقى لم يكن هناك اعتراف على هذه المواكب ، فقد كان التسامح الدينى من أظهر صفات العرب فلما انطلق النفوذ على بيت المقدس إلى السلاجقة سنة ١٠٧٠ لم يستطع هؤلاء أن يتسامحوا مع هذه المواكب إلى هذا الحد ، وبخاصة أن هذه الجموع مارست فعلاً أعمال استفزاز واعتداء ، ويدرك غوستاف لوبيون أن رئيس أساقفة ما يانس وأربعة أساقفة قادوا قافلة من سبعة آلاف حاج تستعمل على بارونات وفرسان ، فحاربت هذه القافلة الأعزاب والتركمان (١) ، وللهذا السبب منع السلاجقة السلاح والمشاعل والطبلول والحرس المدجج بالسلاح ، وأعلنوا أنهم هم المسؤولون عن سلامة الحجاج الأوروبيين وأمنهم ، وقد أثار هذا التصرف ثائرة الغرب واعتبروا تصفيقاً على الحجاج ، ومقاومة للمشاعر الدينية ، وقضاء على تقاليد أصبحت لدى المسيحيين حقوقاً لم يستطيعوا المتنازل عنها ٠

(ز) وقد دفع التوتر رجال الدين بأوروبا أن يشجعوا بعض الشجعان والقساة ليصحبوا ركب الحجاج ليدافعوا عنه عند اللزوم ، ووجد رجال الدين في المجرمين والمصابة طليتهم ، فأعلنوا أن الحج وحده هو الذي يكفر عن الكبائر والمنكرات ، وقد نتج عن ذلك أن وفد للأمكنة المقدسة عدد كبير من المجرمين المفطورين على ارتكاب أخطر الجرائم ، وقابل المسلمون هذا التصرف بشدید الرقابة ، ففتح عن ذلك مزيد من الحدة والتوتر بين الجانبين (٢) ٠

(1) حضارة العرب ص ٣٢٠ ٠

(2) انظر حضارة العرب لغوستاف لوبيون ص ٣٢١ ٠

(ح) مرت على المسيحيين في مصر فقرة اضطهاد في بعض سني خلافة الحكم بأمر الله ، وقد استغل الأوربيون هذه الحركة المدعائية ضد الاسلام ، وللعمل لانقاذ المسيحيين والأماكن المقدسة من اضطهاد الحكام المسلمين .

٦ - موقعة ملازكرد (مانزيكرت Manzikert) وما تسبب عنها :

في سنة ١٠٧١ حدثت موقعة ملازكرد بين المسلمين والبيزنطيين ، وكان ألب أرسلان قائداً لجيش المسلمين ، وكان الامبراطور رومانوس الرابع قائداً للبيزنطيين ، وتعتبر هذه الموقعة من المواقع الحاسمة في التاريخ ، فقد هزم البيزنطيون هزيمة ساحقة ، فقتل منهم عدد لا يathom حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى كما يقول ابن الأثير (١) ، ووقع الامبراطور في الأسر ، ويروى ابن العبرى أن ألب أرسلان عندما رأى الامبراطور الأسير وبعنه وقال له : ألم أرسل لك في المهاجمة فائيت ؟

فأجاب الامبراطور : دعنى من التوبیخ وافعل ما شاء .

قال السلطان : ماذا كنت تفعل لو أسررتني ؟

فأجاب الامبراطور : القبيح .

قال السلطان : فما تظن أنى فعل بك ؟

فأجاب الامبراطور : إما أن تقتلنى ، وإما أن تشنمنى بي في بلادك ، والأخرى بعيدة وهي العفو وقبول الأموال واصطناعي .

قال ألب أرسلان : ما عزمت على غير هذا (٢) .

أما صدى كارثة ملازكرد في القسطنطينية فكان أن أُعلنَ ميخائيل

(١) الكامل في التاريخ : حوادث سنة ٤٦٣ .

(٢) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول : من ١٨٥ .

— ٧٣٥ —

السابع امبراطورا (١٠٧١ - ١٠٧٨) ، ولا أطلق سراح رومانوس الرابع اللى الامبراطور الجديد القبض عليه واعتبره مفرطا في حقوق البلاد فحكم عليه بأن تسهل عيناه ويقتل .

وفي أواخر عهد بيشتائيل السابع شهدت بيزنطة ألوانا من الثورات الداخلية ، مما عرض البلاد إلى اضطراب داخلى بالإضافة إلى المهزائم الخارجية .

وكذلك هذا جعل الدولة البيزنطية غير قادرة على حماية المسيحية من ضغط المسلمين ، وغير قادرة على حراسة الباب الشرقي لأوروبا من الغزو الإسلامي ، وبذلك صار على الغرب الأوروبي أن يقوم بدوره في حماية هذا الباب بدلاً من اعتماده على الامبراطورية البيزنطية .

دعوة البابوية للحروب الصليبية

وفي سنة ١٠٨١ اعتلى الكسيوس كومين الأول عرش الامبراطورية البيزنطية ، وقد شغل هذا العرش حتى سنة ١١١٨ ، وبذلك يكون هذا الامبراطور أهم انسان عاصر الفترة الخطيرة التي تشمل مطلع الحروب الصليبية ، وهو يختبر أول من وضع الانتدابات السابقة موضع التنفيذ ، فقد أدرك أن لا تمكن لجيشه بمواجهة المسلمين فأرسل استغاثته إلى البابا .

الاستغاثة بيزنطية بالبابا :

وقد تلقى البابا جريجوري السابع هذه الاستغاثة ، فرأى فيها اعترافاً شخصياً بسلطانه المسيحي العام ، وقد كان جريجوري السابع من أعظم البابوات وأكثرهم نشاطاً ، وهو الذي جعل اختيار البابوات يتم بطريق الكراولة وكان الأباطرة قبل ذلك يعيثون البابوات ، وأراد جريجوري أن يتوجه انتصاراته بأن يُخضع لسلطانه الكنيسة الشرقية ، فاعلن أن الكنيسة الغربية ستقود المعركة ضد المسلمين ، انتصاراً لبيزنطة

وللمسيحيين على العموم ، ولكن جريجورى مات قبل أن ينفذ هذا الوعد ، فجاءت استعاثة جديدة من الإمبراطور اليكسيوس الى البابا الجديد « أوريان الثانى » ، وسرعان ما تحرك هذا البابا للاستجابة لهذا النداء ، فقد ذهب الى فرنسا وعقد هناك اجتماعا في كليرمونت فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٠٩٥ م واتى خطابه الشهير الذى أعلن به بدء الحروب الصليبية ، وقد جاء فيه :

Let the truce of God be observed at Home, and let the arms of the Christians be directed to conquering the infidels.

« بأمر الله توقف العمليات الحربية بين المسيحيين في أوروبا ،
ويتجه هؤلاء بأسلحتهم إلى هزيمة الكفرة (يقصد المسلمين) » .

وصاح البابا يخاطب الجماهير : لقد كنتم تحاولون من غير جدوى
إثارة نيران الحروب والفتن فيما بينكم ، فالآن اذهبوا وأزعجووا البرابرة
وخلصوا البلاد المقتسة من أيدي الكفار ، وامتلكوها لأنفسكم فأنها كما
تقول التوراة تقipس لينا وعسلا .

وأعلن البابا أن كل من يشترك في هذه الحروب تغفر له ذنبه ويدخل
في حماية الكنيسة .

ولعل هذه الخطبة كانت أشد الخطب في التاريخ وقعا وأبعدها أثرا ،
هذا ولم يكن اختيار البابا جنوبى فرنسا مكانا لخطابه من قبيل المصادفة ،
إذ كانت تلك البقعة من القارة الأوروبية قد اكتسحتها جموع المسلمين
الزاحفة من إسبانيا ، ولذلك كان سكانها أشد استجابة لدعوة البابا
لحربة المسلمين .

وما ان فرغ أوريان الثانى من خطابه حتى تقدم الآلوف من
سامعيه وحملوا الصليبان رمزا للاستجابة لحامل الصليب الأكبر وبهذا
عرفت هذه الحروب بالحروب الصليبية .

ولم يكُف أوريان الثاني بما قاله في كلير مونت وإنما أخذ ينتقل بين المدن والبلدان داعيا للحروب الصليبية ، فقد مجمعا في ليموج (ديسمبر ١٠٩٥) لهذا الغرض ، وكرر الدعوة نفسها في أنجرز وغان وتورز وبواتييه وبوردو وتولوز وغيرها (يناير - يونيو ١٠٩٦) ، وأخيرا اصطبب البابا معه الأمير ريموند الرابع إلى مجمع نيم (يولية ١٠٩٦) ، مما يثبت أن هذا الأمير قام مع البابا بدور جذري في الأعداد للحملة الصليبية الأولى ، وإن لم يعين رسميا قائدا لثالث الحملة (١) ، ثم ان ريموند هو الذي نبه البابا إلى ضرورة الاعتماد على مساندة قوة بحرية لتنفيذ مشروع الحرب الصليبية ، فأرسل أوريان الثاني بعثة إلى جنوة لتدفعها للمشاركة في المشروع الصليبي الكبير . ولم يلبث تجار جنوة أن استجابوا لدعوه البابا ، فأعادوا اثنتي عشرة سفينة حربية لمساندة الحملة ، فضلا عن ناقلة كبيرة ، وبذلك حققت جنوة لنفسها سبقا كبيرا مكناها من اكتساب حقوق في بلاد الشام ، وهي حقوق لم يستطعها البيازنة أو العنادقة الظفر بها إلا بعد جهد طويل .

وأقبل الأمراء وكثير من الناس على المشاركة في الحركة الجديدة ، ليس فقط من البلدان القريبة ، مثل فرنسا وإيطاليا وأسبانيا ، بل أيضا من البلدان البعيدة مثل اسكتلندا والدانمارك وغيرها (٢) .

وكان ضمن الجموع التي استجابت لحمل الصليب عدد وافر من أرباب الخيال البعيدة ، والنفوس الضخمة ، وعشاق المغامرات ، فمؤلاة كانوا على قدم الاستعداد دائمًا للانضمام إلى كل حركة بارزة ، وكذلك المجرمون وأصحاب الخطايا الذين أمثلوا الغرمان بالحج إلى الأرض المقدسة التي لستها قدما المسيح ، ومثلهم من مئتو الشفاء الاقتصادي

Cambridge Mid History vol 5. p. 273. (١)

(٢) انظر الحركة الصليبية للدكتور سعيد عاشور ج ١ ص ١٣٥ .

والاجتماعي ، فكان حمل الصليب راحة وتقريرا لهمومهم أكثر منه تضحيه (١) .

وقد أذن أوريان عنه في قيادة المقطوعين أحد الأساقفة واسعه ادهمار Adhamer ليكون للكنيسة السيطرة على الحركة الصليبية ، وحدد أوريان يوم ١٥ أغسطس سنة ١٠٩٦ بدءاً لتحرّك قوات الصليبيين ، كما حدد القدسية مكاناً لاتقاء الجيوش الأوروبية الزاحفة إلى الشرق ، وبعد أن أتمّ أوريان هذا الترتيم غادر فرنسا عائداً إلى إيطاليا في أوائل سنه ١٠٩٦ .

ومن الملاحظ أن فرنسا كانت الأرض التي شهدت أول صيحة تعلن الحروب الصليبية ، ولهذا ، ولأنّ البابا الذي أعلنها ينحدر من أصل فرنسي ، فإنّ الحروب الصليبية تعتبر مشروعًا فرنسيًا ونشاطًا فرنسيًا فرنسيًا ، وكانت الانتصارات التي حققها هذا النشاط انتصارات لها الطابع الفرنسي ، فالامارات التي انشئت في الشرق عقب نجاح هذه الحروب كانت إمارات فرنسية اللسان والعادات والمظاهر ، وكما يقول الأوروبيون إنها كانت إمارات فرنسية الحسنات والسيئات ، ولعل فرنسا كانت أقدر من سواها على تنفيذ هذه الحروب بالقيادة والأبطال والأمراء والمحاربين وما تتطلبه هذه الحروب من أعيان .

ويرى Barker (٢) أن انتداب فرنسا على سوريا بعد هزيمة مركباً في الحرب العظمى الأولى يعدّ أثراً من آثار الحروب الصليبية .

الجهاد الإسلامي يواجه الحروب الصليبية :

ويبيّن بنا أن نذكر أننا سنستعمل هذا التعبير «**الحروب الصليبية**» عندما يشنّ المسيحيون حرباً على المسلمين ، أما الحروب الفساد التي يشنّها

August Krey : The First crusade pp. 24-25. (١)

The Legacy of Islam p. 14. (٢)

ال المسلمين ضد المسيحيين فسنطلق عليها التعبير العربي الإسلامي «**الجهاد**» وعلى هذا فإن الحروب الصليبية السبعة التي سنذكرها هنا كانت حملات مسيحية ناجحة أو فاشلة ضد المسلمين ، أما حملات المسلمين المتكررة التي انتهت بالقضاء على الصليبيين فلا تُعد من الحروب الصليبية في الاصطلاح الذي اتبّعه أكثر الباحثين وجريتنا عليه في هذه الدراسة ، على أن الحملات المسيحية كانت في الواقع أكثر من سبع حملات ، بل إن حملات الصليبيين على الوطن العربي لم تقطع تقريبا طيلة هذين القرنين ، ولم ينقطع **الجهاد** كذلك الا ليهب من جديد ، ويبدو أن السر في تمييز الحملات السبع بالذكر يرجع الى ما حصلت عليه من شهرة ؛ بسبب ما حققته من نجاح في الأرض المقدسة كالحملة الأولى ، أو لخروجها تحت زعامة ملوك الغرب كالحرب الثانية والثالثة والرابعة والسادسة والسابعة ، أو لاتجاهها اتجاهها غير مألوف كالحرب الرابعة التي اتجهت الى القسطنطينية ، أو الخامسة التي اتجهت الى مصر ، ومن العجيب أن تسمى الحرب الرابعة حربا صليبية مع أن الصليب كان فيها يحارب الصليب .

أما **الجهاد** فلم يحفل المسلمين باخضاعه الى عَدَدِ أيا كان الملك أو الزعيم الذي قاده ، إذ اعتبر المفكرون المسلمين جميع الملوك والمجاهدين واحدة متكاملة ، وتتساووا أشخاصا هؤلاء ولم يذكروهم الا في سياق التاريخ ، دون أن يجعلوا كلاً منهم وحدة قائمة بذاتها كما يفعل المؤرخون الغربيون ، وكان ذلك الاتجاه هو أيضا اتجاه الملوك والسلطانين أنفسهم واتجاه الشعب الإسلامي أيها ، اذ اعتبروا **الجهاد** سلسلة متصلة الحلقات يحمل كل من المسلمين عباءة فيها ، ويترك ما تبقى منها ليحمله الجيل الذي يليه .

مطلع الزحف الصليبي

بدأت حملات الحروب الصليبية بقوى شعبية هيجها بطرس الناسك وأمثاله من الدعاة المسيحيين الذين أخذوا يطوفون بأوروبا ويخطبون الناس ويدعونهم لإنقاذ الأماكن المقدسة من أيدي المسلمين ، وكان بطرس الناسك أشد هؤلاء حماسة ونشاطا ، وهو جندي قديم قد تربى وأصبح مجذوبا شديداً للتعصب ^(١) ، ويقول عنه Wells ^(٢) انه طراز من الرجال جديدين في أوروبا وإن كان يذكرنا بعض الشيء بالأنبياء العبرانيين ، قام هذا الرجل يعيش بالحروب الصليبية لعامة الناس ، وكان يقص عليهم إن صدقا وإن كذبا ، قصة حجه إلى بيت المقدس ، ويحدثهم عن التدمير المنظوي على الاستهانة البالغة الذي أتزله الأتراك ^{*} السلاجوقيون بالقبر المقدس ، ويحدثهم عن ضروب الغصب والابتزاز الجائر والفظائع الوحشية والقساوات المتعددة التي يتزلونها بالحجاج المسيحيين الوافدين إلى الأماكن المقدسة ، وطوف هذا الرجل حاف القدمين وفي ثياب خفيفة ومتعلية حماراً وحملها صليباً ضخماً ، بأنحاء فرنسا وألمانيا وهو يخطب في كل مكان به جماهير حاشدة ؛ في كنيسة ، أو شارع ، أو سوق .

وقد استجاب له بطرس الناسك ^{*} وإمثاله من الشعاعات آلاف الناس وتكون من هذه الآلاف خمسة فيالق يطلق علىها في التاريخ «الحملة الصليبية الشعبية » ، وقد سارت هذه الفيالق متوجهة إلى القدسية ، وكان من مميزاتها أنها جموع شعبية تحركها فكرة دينية ، ولكن ليست لها قيادة عسكرية تجيد فنون الحرب ، ولا قيادة ادارية مسموعة الكلمة ، وقد لقيت هذه العصبات الزاحفة إلى الشرق كل إكرام في البلدان الأوروبية التي كانت تعرّى بها في بدء الأمر ، ولكن لم يك الفيلقان اللذان

(١) غوستاف لوبيون : حضارة المغرب ص ٢٠١ .
A Short History of the Middle East p. 71. (٢)

— ٧٣ —

كانت في المقدمة يصلان إلى بلغاريا حتى التقى بأناس أقل تعصباً فأبوا أن يُضيّقوهم مجاناً ، وسأله هذا الرفضُ الصليبيين ، ولم يحجموا عن اغتصاب ما متعوه ، وعن نهب قرى تلك البلاد وذبح أهلها ، ولم يصبر الأهلون على ذلك ، فأخذوا ينتقمون لأنفسهم ويقتلون فريقياً كثيراً من الصليبيين أو يغرقونه حتى قضوا على الفيلقين^(١) ، وجاء فريق ثالث ابتدأ عمله بمذبحة أعملها في يهود أرض الراين – ذلك أنَّ الدم المسيحي كان ثائراً ، وكان يريد العداوة على كل من يتبع ديناً آخر وبخاصة اليهود الذين كانوا أول من حاول التخوّف على المسيحية وهي في أول عهدها ، ثم تعرّق ذلك الجمع أيضاً في هنغاريا ، واخترق الفيلقان الأخيران أوروبا بقيادة بطرس ووصل إلى القسطنطينية ، وكم كانت دهشة الإمبراطور البيكسيوس وجزعه بالغين ، ذلك أنهم دأبوا على طول الطريق ينهبون وينتکون للرمات ، فحملهم الإمبراطور آخر الأمر عبر البسفور إلى أرض السلاجقة بآسيا الصغرى ، وهناك أفنادهم السلاجقة عن آخرهم ، ولم يكن لهم أي أثر اللهم إلا تقوية حملة الأوربيين وسخطهم على المسلمين .

والآن نمشي مع الحروب الصليبية المبعثة الشهيرة ، خطوة خطوة ، مع ما تخلّلها من جهاد قام به المسلمون ، يردون العداوة عن أنفسهم وعن ديارهم :

(١) غومستاف لوبون : حضارة العرب من ٢٤٢ .

— ٧٧٧ —

الحرب الصليبية الأولى

(١٠٩٧ - ١٠٩٩)

الحروب الحقيقة التي تمثل الزحف الصليبي الأول ، كانت بقيادة الأمراء ، وكان هذا الزحف يتكون من ثلاثة فيالق كبيرة تضم نحو مائة وخمسين ألفاً يقودهم الأمراء : جودفري وبوهيموند وريموند ، وسارت هذه الفيالق تجاه القدسية فوصلتها في نهاية سنة ١٠٩٦ ومطلع العام التالي ، وكان الفيلق الذي يقوده جودفري ومعه أخوه بولدوين أسبق العملات في الوصاول إلى القدسية ، ولقد تردد هذا القائد من بادئ الأمر في أن يقسم يمين الولاء لامبراطور القدسية ، لانه تابع للامبراطورية الغربية وهو في الوقت نفسه أمير كاثوليكي جسأ على رأس حملة دعا لها بابا الكنيسة الكاثوليكية ، فهو لا يستطيع أن يكون تابعاً للامبراطور البيزنطي راعي الكنيسة الأورشودكسيه وكان هذا الموقف من جودفري سبباً في تلزيم العلاقة بينه وبين الامبراطور لدرجة أدت إلى حدوث نوع من الصدام المسلح بين القوتين ، أدرك جودفري بهذه أن لا طاقة له بحرب الامبراطور فقدم الولاء الذي طلب منه .

أما الفيلق الشمالي فكان بقيادة بوهيموند النورماندي ، وسرعان ما قدم هذا القائد ولاءه للامبراطور وأعلن تبعيته له ، وجاء بعده الفيلق الثالث وأخذ من إيطيم برونانس بقيادة ريموند ومعه الأسكناف أدهمار مندوب البابا ، وقد تردد ريموند طويلاً من أن يقسم يمين الولاء للامبراطور ، وقال أن ولاء السيد المسيح فقط ، ولكن وساطة مندوب البابا حستت العلاقة بين الأمير والامبراطور ، واتケى الامبراطور بأن يقسم ريموند على احترام حرمة الامبراطور وشرفه (١) ، وتعهد

- 4 -

الجميع أن يردوا أملاك الامبراطورية إليها عقب استردادها من المسلمين ، وباركهم الامبراطور وسلمهم علماً القديس بطرس ، وقدم لهم المؤن والذخيرة ، وأمدتهم بفرق من جيشه للإرشاد والمساعدة .

مقدمة ونتائجها:

في مطلع عام ١٠٩٧ عبر الصليبيون مضيق البوسفور كالسيل العرم ، ونزلوا آسيا الصغرى وهى آنذاك إمارة كلج أرسلان ، وأول عمل حربى قاموا به كان حصـار نيقية ، وقد سقطت المدينة فى أيديهم فى ١٨ يونيو ١٠٩٧ بعد حصار شهر ، واستقرت بيزنطة بذلك ما فقدته فى شمال الأناضول ، وتقدم الصليبيون بعد ذلك حيث دارت معركة حربية عند صورليوم الى الجنوب الشرقى من نيقية فى نهاية هذا العام ، وقد انتصر فيها الصليبيون انتصارا حاسما استطاعوا بعده أن يتقدموا في عدة اتجاهات دون مقاومة تذكر ؛ فاستولوا على جنوب الأناضول وعلى منطقة طوروس .

الأهمن يساعدون الصالحين :

ثم اتجه بولدوين إلى الرّها : وكان سكانها من الأرمن الصّليبيين وقد استجدوا بالصّليبيين وتعاونوا معهم ، وتبني ملكهم « توروس » بلهوين ليصبح وريثاً له بعد وفاته ، وهذا سهل للبلدوين أن يستولي على الرّها سنة ١٠٩٨ ، واستولى غليق آخر بقيادة بوهيموند على أنطاكية في الثالث من يونيو سنة ١٠٩٨ بعد حصار استمر تسعة شهور (١) .

بوهمند يتمرد على الامير اطوار :

وفي أثناء هذا الحصار الذي قاتل الصليبيون فيه أهواه وشدائد

^٥ ابن الأثير : حوادث سنة ٩١ ، وابن خلدون : العبر ج ٥

رهيبة ، تحول بوهيموند من ولائه للإمبراطور إلى اتجاهه لخدمة أهدافه الخاصة ، فقد أبدى في الحصار ضرباً من الشجاعة جعلت المحاصرين يدركون أهميته لهذه الأعمال الحربية ، بيد أنه فجأة أعلن رغبته في الانسحاب والعودة إلى إيطاليا معللاً ذلك بأنه لم يكن يتوقع كل هذا العناء ، ولا يستطيع أن يصبر على رؤية رجاله وفرسانه وخيوله تتلقى قحط صرعي من الجوع أمام أسوار أنطاكية ، وقد هزَّ هذا التهديد جموع الصليبيين فتوسلوا له أن يبقى معهم ، ووعدهم بأن يسلموه الولاية عقب سقوطها ، وسار بوهيموند مزيداً من الخطأ في هذا الشوط فاتهم القائد البيزنطي الذي كان معهم في الحصار بأنه يتآمر مع المسلمين سراً ضد الصليبيين ، وخلا بذلك الجو لبوهيموند وأسفر العداء بين الصليبيين وإمبراطورية بيزنطة (١) *

وعقب سقوط أنطاكية استولى بوهيموند على أكثر قطاعاتها واحتل ريموند القطاع الجنوبي الغربي ، ولم يقبل أن يسلمه إلى بوهيموند طمعاً في أن تكون أنطاكية إمارة له ، ولم تتحل هذه الأزمة إلا عندما بدأ الزحف نحو بيت المقدس وترעם ريموند ، وقُطع بوهيموند بالمقصلة في أنطاكية ، وأخذ ريموند يتطلع إلى إمارة أوسع في الأماكن المقدسة (٢) *

والموارنة يساعدون الصليبيين :

وتحركت جموع الصليبيين بعد أنطاكية تجاه بيت المقدس وفي الطريق اتصل الصليبيون بالموارنة ، وهم قوم أشداء ، ومقاتلون بوسائل ، فاسدوا هؤلاء إليهم خدمات جليلة لعرفتهم تلك المنطقة فكانوا الأدلة

(١) انظر الحركة الصليبية الدكتور سعيد ناشور ج ١ ص ١٩٥ -

* ١٩٦

(٢) المرجع السابق ص ١٢٤ .

لهم (١) ، أما أمراء طرابلس وببيروت فقد خانوا بلادهم وقدموا للجيش الزاحف المؤمن والهدايا لينالوا السلامة لهم ولذويهم (٢) .

القدس تقاوم ثم تسقط :

وقد قاومت المدينة المقدسة - وقد كانت آنذاك في أيدي المصريين كما ذكرنا من قبل - مقاومة دامت حوالي أربعين يوماً ، حققت خلالها الولانا من الانتصارات على الصليبيين ، حتى أن الصليبيين اعترفوا بأن ضحاياهم خلال فترة الحصار كانوا أكثر من ضحايا المسلمين ، ثم سقطت بيت المقدس في يد المهاجمين في ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ .

المجازر والتكميل :

بعد سقوط بيت المقدس حدثت مجزرة أليمة وحشية ، ذُبح فيها الرجال والنساء والأطفال من المسلمين واليهود والمسيحيين الذين لم ينضموا للصليبيين ، ويصف غوستاف لوبيون (٣) هذه المجزرة بقوله : لقد أفرط قومنا في سفك الدماء وبخاصة في هيكل سليمان حيث لجا كثير من المسلمين والنصارى واليهود ، وكانت جثث القرى تتسبّح في محيط من الدماء ، ولم يكتفى قومنا الصليبيون بالإنتياء بضروب العسف والتدمير والتكميل حتى اتباعوها ، بل عقدوا مؤتمراً أجمعوا فيه على زيادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود وخوارج النصارى الذين كان عددهم ٦٠ ألفاً ، فأغنوهم عن آخرهم في ثمانية أيام ولم يستثنوا منهم امرأة ولا طفلاً ولا شيخاً .

ويقول ابن خلدون (٤) : استباح الفرنجة بيت المقدس وأقاموا في

William of Tyre vol. 2 p. 429. (١)

Ibid. p. 331. (٢)

(٣) حصار العرب ص ٢٨٧ .

(٤) العبر : ج ٥ ص ١٨٤ .

- ٤٣٦ -

المدينة أسبوعاً ينهبون ويدمرون وأحصى القتل بالمساجد فقط من الأئمة والعلماء والبعياد والزهاد المجاورين فكانتوا سبعين ألفاً أو يزيدون ٠٠٠٠٠

ويقول : Wells (١) حدثت ببيت المقدس مذبحة رهيبة ، وكان دم المقهورين يجري في الشوارع ، حتى لقد كان الفرسان يصيّهم رشاش الدم وهم راكبون ، وعندما أرخى الليل سدوله جاء الصليبيون وهو ي يكون من فرط الفرح ، وخاضوا الدماء التي كانت تسيل كالخمر في معصرة العنبر ، واتجهوا إلى التلّاوين ورفعوا أيديهم المضرجة بالدماء يصلون الله شكرًا ٠

ويقول الأستاذ نقولا زيادة : والحملة الصليبية الأولى ، والفتائع التي ارتكبها في طريقها وفي احتلال القدس ليست مما يشرف ، وقد تظهر لنا اتجاهات الصليبيين من خلال تصرفهم المسيء مع مسيحيي فلسطين أنفسهم ، فقد استولوا على أدبيتهم وطردوهم من الكنائس والبيوت ، فتبشر المسيحيون في جهات فلسطين وشرق الأردن ، وساروا بطريقهم إلى القاهرة ليعيش في حماية الفاطميين ٠

وبجوار القتل هام الصليبيون بعمليات سلب ونهب كبيرة شملت ما بالبيوت من ذهب أو فضة أو ملابس أو حيوان كما أخذوا قناديل الذهب من المسجد وكانت مائة وخمسين قناديل ، وغنموا من المساجد ما لا يقع عليه الإحصاء (٢) ٠

ولم يسلم الصليبيون المنتصرون لامبراطور القسطنطينية كل

(١) Short History of the Middle East p. 74. (١)

(٢) الكامل في التاريخ ... الانجليزي ... ٨٠ ص ١٦٦ .

ما تغلبوا عليه وعدّوا العهد الذي تعطوه على أنفسهم خاصـاً بـآسيا الصغرى فقط ، فسلموه ما اقتحموه من بلاد الأنضول ، واستقلوا بما سوى ذلك فكونوا في الشرق الامارات الآتية :

١ - إمارة الرئـها سنة ١٠٩٨ ويحكمها بـلدوين .

٢ - إمارة أنطاكية سنة ١٠٩٨ ويحكمها يـوهيموند .

٣ - مملكة بـيت المقدس سنة ١٠٩٩ وقد اختير جـودفـري حـاكمـاً لها ، ويلاحظ أن حـلم رـيمـونـد لم يـتحقق فـلم يـقع عـلـيـه الاختـيار ليـكون حـاـكـمـاً لـبيـتـالـقـدـسـ ، عـلـىـ الرـغـمـ مـمـاـ كانـ يـتـمـتـعـ بـهـ مـنـ مـزاـياـ ، إـذـ اـتـهـمـ رـيمـونـدـ بـإـفـرـاطـ فـيـ التـوـدـدـ لـأـمـبرـاطـورـ بـيـزـنـطـيـةـ ، وـاخـتـيرـ جـودـفـريـ حـاـكـمـاـ بـيتـالـقـدـسـ فـيـ يـولـيوـ سـنـةـ ١٠٩٩ـ ، وـقدـ رـفـضـ أـنـ يـتـخـذـ لـقـبـ «ـمـلـكـ»ـ وـأـنـ يـضـمـ تـاجـاـ عـلـىـ رـأـسـهـ مـنـ ذـهـبـ حـيثـ حـمـلـ السـيـدـ المـسـيـحـ تـاجـاـ مـنـ الشـوـكـ ، وـاخـتـارـ أـنـ يـلـقـبـ «ـحـامـيـ القـبـرـ المـقـدـسـ»ـ (١)ـ ، وـعـيـّنـ لـبـيتـالـقـدـسـ بـطـرـيرـكـ كـاثـوليـكـ ، وـسـرـعـانـ مـاـ تـوـفـ جـودـفـريـ ، فـاخـتـيرـ أـخـوهـ بـلـدوـينـ حـاـكـمـاـ لـبـيتـالـقـدـسـ بـلـقـبـ «ـمـلـكـ»ـ سـنـةـ ١١٠٠ـ ، وـلـمـ يـنـافـسـهـ أـخـدـ فيـ ذـلـكـ لـأـنـ يـوهـيمـونـدـ كـانـ فـيـ هـذـهـ الـأـشـتـاءـ أـسـيـراـ فـيـ يـدـ الـمـلـكـ الغـازـىـ كـمـشـكـىـنـ التـرـكـانـىـ (٢)ـ .

وـقـدـ اـعـتـبـرـ اـنـتـصـارـ الـمـسـيـحـيـيـنـ فـيـ مـعرـكـةـ بـيتـالـقـدـسـ وـاستـيلـأـهـمـ عـلـىـ الـأـمـاـكـنـ الـقـدـسـةـ نـجـاحـاـ لـلـحـرـوبـ الـمـسـلـيـةـ ، إـذـ أـنـهـاـ حـقـتـ أـهـمـ أـهـدـافـهـاـ .

(١) Agiles p. 654. نـقـلاـ عـنـ تـارـيخـ سـورـيـاـ لـدـكـتـورـ فـيـلـيـبـ حـتـىـ جـ ٢

صـ ٢٢٩ـ .

(٢) ابن القلانسي صـ ١٣٨ـ .

٤ - إمارة طرابلس سنة ١١٠٩ :

لم تتوقف حروب الصليبيين بالشام بعد سقوط بيت المقدس ، فقد عهد ملك القدس إلى ريموند سنة ١١٠١ أن يفتح طرابلس الشام لتكون إمارة له وهي تقع بين إمارة أنطاكية ومملكة بيت المقدس ، وقد قاومت المدينة حصار الصليبيين ثمانى سنوات ولم تسقط إلا سنة ١١٠٩ ، وكان ريموند قد توفي سنة ١١٠٥ وهو يحاصر المدينة ، وقد قاد الحصار بعده وليم جورдан ، فلما مات هذا سنة ١١٠٨ قاد الحصار برتراند وفي عهده سقطت طرابلس .

ومما يذكر أن الذي حدث في بيت المقدس حدث مثله في طرابلس ، فقد كانت طرابلس آنذاك خاضعة لبقاءيا السلاجقة ، فلما أحسن سكانها بشغف حكامها عن مواجهة الصليبيين اتصلوا بالأفضل بن بدر الجمالي بمصر ليضم طرابلس إلى سلطانه ، واستجاب الأفضل وأرسل جيشا كبيرا استولى على طرابلس ، بيد أن الصليبيين شددوا من حصارهم على المدينة ، وسار أسطول مصرى لجب ليقاوم هذا الحصار ، ولكن - للأسف - قاومت الريح هذا الأسطول فتأخر وصوبه وسقطت المدينة (١) .

و قبل طرابلس كان الصليبيون قد استطاعوا الاستيلاء على عكا سنة ١١٠٤ ثم صور سنة ١١٢٤ (٢) .

الصراع حول صور وتعاون المسلمين :

وأتجه الصليبيون لحصار صور ، وحول صور ظهر تعاون المسلمين على الرغم من الخلافات التي كانت موجودة ، فقد تعاون طغتكين صاحب دمشق الذي كانت تتبعه صور مع الأفضل بن بدر الجمالي صاحب النفوذ في مصر

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ : ٨ : ٢٥٩ .

(٢) ابن خلدون : البر ج ٥ ص ١٩١ - ١٩٢ .

- ٧٣٩ -

آنذاك لرد الصليبيين عن « صور » مما جعلها تصمد وقتا طويلا أمام الزحف الصليبي ، ويعبر طفتكين عن سبب تعاونه مع مصر بقوله : إنما فعلت ما فعلت الله تعالى وللمسلمين غير ناظر في مال ولا مملكة (١) .



وكانَتْ هـذه الفتوحُ أَهْمَّ نَتْائِجِ الْحَرُوبِ الصَّلَبِيَّةِ الْأُولَى وَقَدْ تَحَقَّقَتْ مَعَ هـذه الفتوحاتِ نَتْائِجٌ أُخْرَى ، مَثَلْ نَشَاءِ الْجَمِيعَاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ ، وَتَأْسِيسِ أَهْلِ الْبَنْدِيقِيَّةِ وَجُنُوَّةِ الْمَرَاكِزِ التَّجَارِيَّةِ فِي مَوَانِيِّ سُورِيَّةِ ، وَنَمُوا

(١) ابن القلنسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨١ .

العلاقات التجارية ببقية أجزاء آسيا ، والاتصال بها للأعمال التبشيري
الديني (١) .

عوامل ضعف صليبي عقب انتصار الصليبيين :

وما إن تأسست هذه الإمارات حتى أسرع الأمراء إلى التخلص من الجنود الذين جاموا لهدف الحرب الدينية ، فقد اعتقاد الأمراء أن هذه المهمة قد انتهت ، وأسرعوا متوجهين لتكونن اقطاعات استغلالية لهم ، وهكذا تركت هذه الإمارات في أيدي الأمراء الذين اتخذوا الدين وسيلة لتحقيق الأطماع الدينية ، وكانت الأرض الزراعية التي قامت بها الإمارات خصبة للغاية ، ولكن اليد العاملة أصبحت قليلة بعد أن عاد الماربون ، وقتل السكان الأصليون أو هربوا ، ومرّ الأمراء بفترة يأس عندما وجدوا إمارات لا وسائل لاستغلالها ، فاتخذوا طريقين لجلب العمال المزارعين ، يتمثل أحدهما في السماح لن يقو أحياء من السكان الأصليين بالعودة لديارهم وبالقسام الدينى معهم ، وتشجيعهم على العمل ، أما الطريق الثاني فكان بالتأمر مع بحارة البندقية وجنة بأن يجلبوا لهم من أوروبا وفودا كبيرة باسم الحج ويغروهم برخص التكاليف وتيسير الرحلة وجمالها ، واتخذت معهؤلاء وسائل كثيرة ليبقائهم أو لإبقاء أكثرهم في الإمارات المفتوحة ، وعلى كل حال فقد أخذ الطابع الدينى الذى قامت عليه هذه الإمارات ينهار ويزد الطابع الدينوى ، مما كان له أعظم الأثر في فشل الحروب الصليبية ، ومن جهة أخرى فقد أصبح واضحاً أن هذه الإمارات لم تكن بها وسائل كافية للدفاع عن نفسها ضد أية هجمات يقوم بها المسلمين (٢) .

Barker : The Legacy of Islam p. 82. (١)

Emerton : Mediaeval Europe pp. 363-309. (٢)

بين الحملة الصليبية الأولى والثانية

(الجهاد بقيادة عماد الدين زنكي)

تغيرات في المعسكر الصليبيين :

جاءت ظروف خطيرة في الفترة التي وقعت بين الحرب الصليبية الأولى وال Herb الثانية ، وكان لهذه الظروف أثر كبير في قيام الحرب الثانية وفي نتائجها ، فمن جهة الجبهة المسيحية ضعفت جبهة الدفاع بعودة رجال الحروب كما ذكرنا آنفًا ، ثم حل الشناق محل الوفاق بين الجبهات المسيحية ، فامبراطور القسطنطينية لم ي يكن يتوقع أن الصليبيين قدموه لينشئوا لأنفسهم إمارات وممالك مستقلة بسوريا ، وقد بدأ الخلاف عقب إنشاء إمارة أنطاكية سنة ١٠٩٨ . فإن الكسيوس أعلن تبعية هذه المنطقة لإمبراطوريته وأيدوه ريموند في ذلك ، ولكن بوهيموند تمسك بإمارته واستقلالها .

وقد أراد إمبراطور القسطنطينية أن يضيق على بوهيموند فلا يدع له فرصة للتوسيع فساعد هذا الإمبراطور زيرند على أن يفتح طرابلس لتكوين إمارة له وبذلك يقف في طريق توسيع بوهيموند .

وسرعان كذلك العلاقات بين هذه الإمارات بعضها والبعض الآخر ، فقد كان بوهيموند وهو أبرز العباقرة الذين قادوا الصليبيين في حروبهم الأولى يطمع أن تكون أنطاكية عاصمة للمملكة وأن يتمتد سلطانه إلى بيت المقدس ، ولكن جودفري تفزع لمركز السيادة ببيت المقدس ، فأثار حقده بوهيموند والنورمانديين على العموم ، وزاد من هذا الحقد أن نفوذ مملكة بيت المقدس أخذ يزداد وينتشر في كل الإمارات . حتى في أنطاكية نفسها .

وهكذا كانت الجبهة المسيحية تضعف بسبب ضعف التعاون بينها ، وبسبب الحقد بين الامارات الصليبية من جهة وإمبراطور القسطنطينية من جهة أخرى ، وبسبب التناقض بين الإمارات الصليبية بعضها والبعض الآخر .

وتغيرات في الجبهة الاسلامية :

وبينما كانت الجبهة المسيحية تضعف ، كانت الجبهة الاسلامية تشتد وتقوى حول الصليبيين فقد أفاق المسلمون من هول الخسارة ، وأحسوا بالنكبة الخطيرة ، فهربوا من سباتهم ينفضون الغبار ويعملون لاستعادة ما فقدهم ، وقد رأوا تحالف المسيحيين على اختلاف بلادهم ولغاتهم وأصواتهم فتجمعوا هم كذلك حول قائد واحد وشعار واحد سواء في ذلك العرب والتركمان والأكراد والهزوز .. ولم يشذ منهم إلا بعض إسماعيلية الساحل الذين كانوا يعملون لتكوين دولة خاصة بهم (١) .

جهود علماء المسلمين :

وقام العلماء بدور كبير لتجمیع كلمة المسلمين ، فقد سارت وفود منهم إلى الخليفة العباسى ببغداد تطلب منه التدخل لصد المسيحيين ، وعلى الرغم من الصراع بين الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية فإن الخليفة العباسى تناهى ذلك الخلاف الداخلى وكلف أمير الموصل بحمل هذه الأمانة باسم الخلافة العباسية واسم المسلمين ، وسار العلماء كذلك يندبون السلاطين والرؤساء والمسلمين لإنقاذ الأرض المقدسة فاستجاب الجميع لهم ، وسرعان ما وجده الصليبيون أنفسهم أمام قوة إسلامية كبيرة لم يحسبوا حسابها عندما اندفعوا نحو الأرض المقدسة .

(١) محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٣٠١ .

مصر تستعيد الرملة :

وبهذا تعرضت المنطقة المسيحية إلى هجوم من الجنوب. قامت به مصر فاسقطت على الرملة سنة ١١٠٢ بعد موقعة انتصر فيها المسلمون وقتل من الصليبيين مقتلة عظيمة (١) .

وعماد الدين زنكي يسقط إمارة الرها :

كما تعرض المسيحيون إلى هجوم من الشمال أكثر قوة قامت به دول الآتابك التي تكونت في آسيا الغربية على أنقاض السلاجقة ، وكان من أهم الدول آتابكية الموصل التي آل حكمها سنة ١١٢٧ ، لعماد الدين زنكي ، وعلى يد هذا البطل الشهير حل "الجزر محل الدار" في الحروب الصليبية ، فقد أخذ يغير على إمارة الرها ، ويستعيد البلدة تلو البلدة حتى استطاع أن يُسْقِطِ الإماراة كلها سنة ١١٤٤ (٢) ، وقد اغتيل عماد الدين زنكي سنة ١١٤٦ فتولى ابنه نور الدين مكانه ، واتخذ حلب عاصمة له (٣) .

غارات مصرية خطيرة على الصليبيين :

ترجملت مصر دورها في بعث القلق والاضطراب في جموع الصليبيين في هذه الفترة ، وقد شهد عهد الصالح طائع بن رزيك وزير الفاطميين غارات كثيفة على أممكنا متعددة وببلاد كثيرة كان الصليبيون قد احتلواها ، ففي سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٥ م) فتك الجيش مصر بحمامية صور ، واستولى على سفن الصليبيين في الميناء بما بها من رجال وعتاد ، ودخل الجيش المصري (صور) عقب ذلك ، فحرق مؤسسات الصليبيين بها ،

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٩٦ .

(٢) عماد الدين الأصفهاني : تاريخ آل سلجوقي ص ١٨٦ .

(٣) المرجع السابق ص ١٩٠ .

- ٧٤٤ -

وخرّب كلّ ما بنوه ، وبقى الجيش المصري فيها ثلاثة أيام ثم خرج قبل أن تأتى نجدة صليبية لمحاربته .

وفي أثناء عودة الجيش المصري قابل بعض سفن الحجاج الصليبيين فهاجمها وقتل منهم وأسر .

وفي سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) هاجم الجيش المصري غزة وعسقلان وحقق انتصارات كبيرة .

وأرسل طلائع بن رزيك حملات بحرية إلى بيروت فقتلت وأسرت واستولت على مجموعة من الفناشيم .

وهاجم الأسطول المصري مدينة عسّاكا ، وأسر من حاميتها أكثر من سبعمائة شخص .

أبو الغارات :

وهكذا لم تتوقف هجمات مصر على المراافئ والبلدان المختلفة في البر والبحر طيلة عهد الصالح طلائع بن رزيك مما أضفى عليه لقب (أبو الغارات) وقد كان موقف طلائع شديد الخطورة على الصليبيين فقد جعلهم في حرب دائمة لا يحسون بالأمن ، ولا ينعمون بالاستقرار .

- ٧٤٥ -

الحرب الصليبية الثانية

بقيادة ملك فرنسا وامبراطور المانيا
(١١٤٩ - ١١٤٧ م)

الدowافع لهذه الحملة :

كان سقوط الرها في أيدي المسلمين ، وما تبع ذلك من إحساس الامارات الغربية بضعفها أمام قوى المسلمين التي أخذت في النهوض ، سبباً دعا إلى الحرب الصليبية الثانية ، فقد أحس الصليبيون أن بقاءهم بالشرق رهن باللون الذي يطلبهم من الغرب ، فتوالت أصوات الاستغاثة إلى البابا والى ملوك الغرب ، واختار البابا أوجانيوس الثالث داعية يتحدث باسمه ويثير الرأي العام الأوروبي لمساعدة الصليبيين بالشرق ، وهذا الداعية هو القديس برنارد ، وقد استطاع هذا القديس أن يؤثر على لويس السابع ملك فرنسا ، وكراد الثاني إمبراطور المانيا لقيادة حملة جديدة لإنقاذ الامارات المسيحية بسوريا .

فشل المكين وتدمير جيوشها :

وبدأ الزحف في صيف سنة ١١٤٧ ، وكان الألمان أسبق من الفرنسيين في التحرك تجاه الشرق ، فعبروا نهر الدانوب إلى القسطنطينية ، وهناك قابلو الإمبراطور ما نويل الذي كان شديد الحرص على سرعة القخلص منهم من غير تفكير في الطريق الذي يحقق الهدف الذي جاؤوا من أجله ، وما إن وصل الألمان إلى آسيا الصغرى حتى قابلهم المسلمون فقضوا على الأغلبية العظمى منهم ، وجاء، الفرنسيون بعدهم إلى القسطنطينية فدفعهم الإمبراطور إلى آسيا الصغرى كذلك ليلقوا نصيبيهم ، وفني أكثر الجيشين قبل أن يصلا إلى سوريا ؛ أفناهم المسلمون في آسيا الصغرى أو قضى عليهم الجموع والمرض اللذان فتكا بهم فتكا ذريعاً على طول الطريق .

وبالاضافة الى عدم التعاون بين الامبراطور والسيحيين الاربعين ، والى ما انزله الجموع والمرض بالجيشين ، فإنه لم يكن هناك وفاق بين هذا الجيش وذاك ، ولم تكن الثقة متبادلة بينهم من جانب وبين حكام الامارات اللاتينية بالشرق من جانب آخر .

واتجهت الشرادم التي رصلت سوريا الى دمشق خاصتها ، ولكن نور الدين زنكي سار بجيشه تجاه دمشق فأسرعت القوات الغربية تفك الحصار ، ونجت دمشق من الصليبيين وعاد المكان الغربيان يجران أذىال الخيبة بعد فشلهم في حصار دمشق ، وكان ذلك نهاية الحرب الصليبية الثانية ، وليس لها من أثر يذكر إلا الأسلحة التي خلفها الجيشان ليستعملها حكام الولايات في الدفاع عن أنفسهم (١) .

الجهاد بين الحرب الصليبية الثانية والثالثة

عن نور الدين زنكي وصلاح الدين الايوبي

استعادة بعض مدن إماراة أنطاكية :

أغرى هزيمة الصليبيين في الحرب الثانية نور الدين زنكي ليعواضل هجومه ضد الامارات الصليبية في سوريا : وتمكن استطاع نور الدين أن يهزם أمير أنطاكية سنة ١١٤٩ وقتل هذا الأمير في نفس العام ، فافتتح بذلك المجال لنور الدين ، مما مكّنه من إخضاع عدّة مدن من هذه الإمارة ، كما استطاع نور الدين أن يخضم باقى مدن الرها التي لم تكن قد خضعت من قبل ، وحمل أميرها أسرىً سنة ١١٥١ ، وفي سنة ١١٦٤ تقدّم نور الدين خطوات أخرى داخل أنطاكية وقبض على أميرها بوهيموند الثالث وحليفه ريموند الثالث صاحب طرابلس ، ولم يطلقهما

إلا بعد دفع فدية كبيرة ، وقد أطلق الأول بعد سنة والثاني بعد تسعة سنين (١) .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن نور الدين لم يشا أن يترك دمشق في يد حاكمها الضعيف معين الدين أثر ، الذي خاف على سلطانه من نور الدين فأثار الخيانة وحالف الصليبيين ، ولكن رجال دمشق الأبرار ثاروا على هذا الحاكم الخائن ، واتصلوا بنور الدين وسلموه دمشق لتكون حلقة من حلقات الحصار حول الصليبيين .

وهكذا أحاط نور الدين بالصليبيين من الشمال والشرق فلم تبق لهم وسيلة للتوسيع ولتقوية أنفسهم إلا بالاتجاه إلى الجنوب حيث تقع مصر ، ذلك القطر الغنى ، ذو التاريخ الطويل المجيد ، والذي آل أمره آنذاك إلى يد ضعيفة مرتعشة هي يد خلفاء العهد الأخير من الدولة الفاطمية .

ولكن نور الدين زنكي كان محيطا بالأحداث مدركاً سير الأمور ، فقدَر من جانبه ضرورة حماية مصر والتدخل في شؤونها لصد تيارات الصليبيين ، وساعدَه على ذلك نداء استغاثة جاءه من أحد المتقاعدين على الوزارة بالقاهرة ، فأرسل نور الدين أحد قواده الأبطال وهو شيركوه حيث عُتن انتصارات حرية كبيرة كما ذكرنا من قبل ، وعيّنه الشيف الفاطمي الأخير « العاضد » وزيراً له سنة ١١٦٩ ، ولكن العمر لم ينفعه لشِير كوه فمات وتولى مكانه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي الذي أصبح وزيراً للعاضد (٢) .

وهكذا طوق نور الدين الصليبيين ، وهزمهم ، وززع حياتهم ولم يحقق الصليبيون أي نصر في هذه الفترة إلا ضد عسقلان سنة ١١٥٣ لملكة بيت المقدس ، وكانت عسقلان على الساحل تلعب دوراً كبيراً في صد غارات الإفرنج ، ولكن انشغال نور الدين بالجبهات الشمالية

(١) عماد الدين الأصفهاني : تاريخ آل سلجوقي ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٢) أبو شامة : تاريخ الدولتين ج ١ ص ١٥٥ . وأبو الفدا ج ٣ ص ٤٧ .

والشرقية والجنوبية أتاح الفرصة لضياع عسقلان التي قاومت الإفرنج أكثر من نصف قرن قبل أن تستسلم .

وجرت الأحداث بمصر بعد ذلك تباعاً على نحو ما شرحنا عند الحديث عن الدولة الأيوبية ، فقد وضع صلاح الدين نهاية المخلافة الفاطمية وأعاد مصر إلى رحاب السنّة ، ثم مات بعد ذلك نور الدين زنكي فابنه اسماعيل ، وسيطر صلاح الدين على مملكة نور الدين خطوة بعد خطوة ، ثم ضم لسلطانه أملاكاً أخرى لم تكن خاضعة لنور الدين .

والمهم هنا أنه بقيام صلاح الدين انتقل مركز النضال ضد الصليبيين من الشمال إلى الجنوب ، وأصبحت مصر عاصمة الكفاح ضد الغاصبين ، وللهذا اتجهت أكثر الحملات الصليبية بعد ذلك إلى ضرب هذا المركز ، ومحاولة السيطرة عليه كما سترى .

ولنعد إلى صلاح الدين لتقرر أن خطته بدأت بالعمل على توحيد العالم العربي ، والقضاء على كل صراع داخلي فيه ، وقد استجاب له العالم العربي أو أكثره ، فلم يمض وقت طويل حتى أضاف إلى مملكته الفسيحة بلاد النوبة والسودان واليمن والجهاز .

مصر تحارب الفرنجة والصلبيين :

ثم اتجه بعد ذلك إلى الدخاء الغاصبين فوجه لهم ضرائعه وقوته ، وكان هؤلاء يحتلون مركزيين خطيرين في العالم العربي ، أحدهما في الشمال الإفريقي الذي كان قد احتله الفورمانديون والثاني فلسطين التي انتصروا الصليبيون كما سبق القول ، وقاموا باستطاع صلاح الدين أن يقنسى على التورمانديين بسرعة ، فاستولى على طرابلس الغرب وتونس حتى مدينة قابس سنة ٥٦٨ هـ واتجه بعد ذلك إلى الجهاد الأكبر ضد الصليبيين .

ولنأخذ لأن ن تتبع بواتب البطولة والشهامة التي وقفها صلاح الدين خضمنت له إجلال الصديق والعدو على مر السنين :

صلاح الدين والصلبيون

يقدم Emerton مقارنة دقيقة بين صلاح الدين ومعاصريه من حكام الامارات اللاتينية ، ويصدر بنا أن نوجز هذه المقارنة فهى اعتراف مؤرخ غربى كبير يضع صلاح الدين فى مكانه العظيم من التاريخ . يقول Emerton (١) :

« بعد الحرب الصليبية الثانية مرت فترة لم تقم أوروبا خلالها بأى نشاط عسكري ضد المسلمين ، وفي هذه الأثناء حدث أكبر حادث في تاريخ الحروب الصليبية ، وهو ظهور صلاح الدين الأيوبى ، وبينما كان المعسكر الإسلامي يقوى بهذا البطل كلن معسكر المسيحيين ينهار ، فقد كانت الامارات اللاتينية تعيش في أقصى الظروف التي يخلفها النظم الإقطاعي ، وبمال المحطلون إلى الدعة يوما بعد يوم ، ونسوا ما تتطلبه حياتهم كفاسدين من موام ومسئوليات ، أما المعسكر الإسلامي فقد حصل في هذه الأثناء على مكانة حققها له القائد الجديد الذى كان أعظم شخصية عرفها عصر الحرب الصليبية ليس فقط في بطولته الحربية بل في صفاته الشخصية التي تضنه في القمة بين العظام والمصلحين ، لقد كان صلاح الدين يعرف أهدافه الحربية ويجيد التخطيط لها ، وكان من رعاة الطوم والمعرف ، وكان مثالا طيبا في الوفاء بالوعيد والشهامة والكرم ، وعلى النقيض من كفاساته ومن صفاته ، كان يتسم معاصروه من حكام الولايات اللاتينية ، الذين كانوا همبا وبرايرة » .

وفي مطلع عهد صلاح الدين كانت المشكلات جمة حوله (تلك التى أشرنا إليها من قبل) ولذلك اتجه صلاح الدين إلى مهادنة الصليبيين ،

فظهر في سياسته معهم نوع من المسالمه ، ولكن هذه السياسة قوبلت من الصليبيين بالتحدي وبروح متعصبة ، وفي حالات كثيرة نقضوا المعاهدات بينهم وبين صلاح الدين ، وكأنما كان صلاح الدين في انتظار هذه الأحداث التي كان يُعدُّ لها العدة منذ أمد طويل ، فانقلبـت العلاقة السلمية إلى حرب ضروس بـدأها الفرنـجـة ، وقد كان هجومـهم الأول قويـاً عـاتـيـاً حـاـولـوا خـالـلـه الاستـيلـاء على بـعـلـبـكـ وـغـزـو دـمـشـقـ ، وقد حقـقـ الفـرنـجـةـ فيـ هـذـهـ الجـوـلـةـ بـعـضـ الـانتـصـارـاتـ ، فـهـزـمـوا جـنـدـ صـلاحـ الدـيـنـ وأـسـرـوا قـائـدـهـ وأـسـرـعـ صـلاحـ الدـيـنـ منـ مصرـ لـعاـونـةـ جـيـشـهـ فـيـ فـلـسـطـيـنـ ، وـلـكـنـ مـلـكـ بـيـتـ الـقـدـسـ قـابـلـهـ عـنـ الرـمـلـةـ وـدارـتـ مـعرـكـةـ عـنـيفـةـ بـيـنـ الـجـيـشـيـنـ سـنـةـ ١١٧٨ـ مـ هـزـمـ فـيـهاـ جـيـشـ صـلاحـ الدـيـنـ ، وـكـادـ نـفـسـهـ يـقـعـ أـسـيـراـ ، وـعـادـ صـلاحـ الدـيـنـ إـلـىـ مـصـرـ لـيـعـدـ نـفـسـهـ مـنـ جـدـيدـ ، وـأـنـتـهـزـ الفـرنـجـةـ فـرـصـةـ الـاتـصـارـاتـ ، فـرـاحـوا بـيـنـونـ القـلـاعـ وـالـحـصـونـ وـيـنـظـمـونـ الـمـؤـنـ وـالـذـخـيرـةـ ، وـالـرـجـالـ ، كـمـ اـشـتـدـتـ حـمـاسـتـهـمـ وـاتـحدـ زـعـمـاءـهـ ، وـلـكـنـ صـلاحـ الدـيـنـ أـخـذـ يـعـدـ لـلـأـمـرـ عـدـتـهـ فـكـوـنـ جـيـشـاـ كـبـيـراـ حـشـدـ لـهـ الـمـؤـنـ وـالـذـخـيرـةـ ، كـمـ كـوـئـنـ جـيـوشـاـ اـضـافـيـةـ عـيـنـ لـهـاـ كـبـارـ الـقـوـادـ وـالـأـطـيـالـ ، وـسـارـ هـذـهـ جـيـوشـ تـدـكـ الـأـرـضـ ، وـسـارـ جـيـشـ صـلاحـ الدـيـنـ غـاصـرـ قـلـعـةـ يـعـقـوبـ فـيـ سـهـلـ بـانـيـاسـ ، وـهـىـ مـنـ أـفـقـىـ قـلـاعـ الفـرنـجـةـ ، وـمـنـهـاـ كـانـ الـمـؤـنـ وـالـذـخـيرـةـ تـرـسـلـ إـلـىـ جـيـوشـ الفـرنـجـةـ ، هـنـاـ وـهـنـاكـ ؛ فـكـانـ حـسـارـهـاـ مـعـنـاهـ إـيقـافـ إـلـمـادـاتـ عنـ جـيـوشـ الفـرنـجـةـ ، وـسـارـ أـحـدـ جـيـوشـ صـلاحـ الدـيـنـ بـقـيـادـةـ فـروـخـ شـاهـ ابنـ أـخـيهـ لـمـقـابـلـةـ بـلـدـوـيـنـ الـرـابـعـ الذـيـ حـاـولـ دـخـولـ دـمـشـقـ ، وـقـدـ أـنـزلـ فـروـخـ شـاهـ بـجـيـشـ الفـرنـجـةـ هـزـيمـةـ سـاحـقةـ ، وـسـقطـ بـلـدـوـيـنـ جـريـحاـ وـكـانـ عـلـىـ وـشـكـ أـنـ يـقـعـ أـسـيـراـ ، وـأـرـسـلـ صـلاحـ الدـيـنـ جـيـوشـاـ أـخـرىـ لـتـهـاجـمـ الفـرنـجـةـ فـيـ بـيـرـوتـ وـصـيـداـ ، ثـمـ اـشـتـدـ صـلاحـ الدـيـنـ

في حصاره لقلعة يعقوب ، وضيق عليها الخناق حتى أبسـقطها وأشر من فيها وأسر بدمها ، وأدرك الفرنجة ألا أمل في هذا الصراع ، فراحتوا ينشدون الهدنة من جديد ، وقد وافق صلاح الدين على مهادنة بعضهم ، وظل في صراع مع البعض الآخر لمفرق بين جموع الفرنجة من جهة ، وليردع الذين خانوا الهدنة السابقة من جهة أخرى .

ومما دفعه إلى قبول الهدنة مع بعض الفرنجة ، أن أحداثاً جدّت بالعالم العربي آنذاك ، وكان لابد أن يتفرغ لها صلاح الدين ، وقد أشرنا إلى هذه الأحداث من قبل ، ومن أهمها أن يضمَّ الموصل وحلب بعد وفاة الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين ، ولما انتهت صلاح الدين من تحقيق أهدافه في العالم العربي عاد من جديد إلى النضال مع الفرنجة ، وساعدة على ذلك أن رجلاند أمير الكرك الصليبي نقض المعاهدة التي كانت بين إمارته وبين صلاح الدين ، والعجيب أن يحافظ الجانب القوي على شروط الهدنة ، ولا يحافظ عليها الجانب الضعيف ، فقد قام الصليبيون ببعض الأعمال الطائشة وبخاصة رجلاند هذا ، إذ جرد أسطولاً يبعث بشواطئِ الحجاز ويهاجم الحجاج المسلمين ، كما دأب على مهاجمة القوافل وسلب ممتلكاتها وأسر أفرادها ، وحدث في إحدى هذه الغارات أن أسرَّ هذا الأمير أختَ صلاح الدين وكانت مسافرة في إحدى القراءات ، وقد كان ذلك بمثابة الشرارة التي أضرمت النار وأدت إلى موقعة حطين الشهيرة .

موقعة حطين :

تعتبر موقعة حطين من أشهر المعارك في تاريخ العالم ، وقد وقعت في الثالث والرابع من يوليو سنة ١١٨٧ م وحطين سهل جبلي بالقرب من بحيرة طبرية المجاورة لبيت المقدس ، وكان عسكر الإنفرنج يتكون من عشرين ألفاً ، بقيادة ملك القدس غي دي لوسيينيان ، ورجلاند (أرنات) أمير قلعة الكرك وقد قضى المسلمون على هذا الجيش كله ، فسقط بعض

رجاله قتل ووقع الباقيون في الأسر ، وكان ملك بيت المقدس وأمير قلعة
الكرك بين الأسرى ٠

وتتحدث المصادر العربية عن موقعة حطين فتصور بأسلوب طلي
مواقف البطولة التي وقفها صلاح الدين والمسلمون في هذه المعركة ،
وفيما يلى مقتطفات من هذه المصادر ٠

— في يوم السبت ٢٥ من ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ — ٤ من يوليه
سنة ١١٨٧ م ، التقى الناصر صلاح الدين بجيوش الصليبيين غربي
بحيرة طبرية في موضع يعرف باسم اللوبيا ، وحال بجيشه دون وصول
الصليبيين إلى ماء بحيرة طبرية ، وطاف صلاح الدين على جيوش
الإسلام ، يحرضهم على القتال ، وكلما توجه فريق من الصليبيين نحو
البحيرة كان مصيره القتل أو الأسر ٠

— ورثت القسى وغنت الأوتار ، وبرزت السيف في الملا عارية ،
واشتعلت الحرب ، فرجأها الفرنج فرجأ ، وهياهات أن ينالوا مخرجاً ، فكلما
خرجوا جرحوا ، وبرح بهم الحرب فما برحو ، وكلما ساروا وشدّوا
أسروا وشدّدوا فعادت أسودهم قتافذ ، وضائقتهم السهام فوسيع
فيهم الخرق المانفذ ٠

— ولما اشتد القتال والفتاء بصفوف الصليبيين ، لجأ من استطاع
منهم الفرار إلى جبل حطين ، وحطين قرية عندها قبر النبي شعيب
عليه السلام ٠

— آوى هؤلاء إلى جبل حطين رجاءً أن يعصمهم من طوفان الدمار ،
فأحاطت بحطين بوارق البوار ، ورشفتهم الطبا ، وفرشتهم على الربا ،
ورشقتهم المنايا ، وقرشتهم البلايا (١) ٠

(١) ابن جبير : الرحلة ، وابن شداد ٠

— ويصف الأفضل على بن الناصر صلاح الدين موقعة حطين
فيقول :

كنت إلى جانب أبي في ذلك المكان ، وهو أول مصاف شاهدته ،
فلما صار ذلك الفرنج على القتل في تلك الجماعة ، حملوا حملة منكرة على
من يزأتهم من المسلمين حتى أحقوا بهم وبالدى ، فنظرت إليه وقد عله
كابة ، واربـَد لونه ، وأمسك بلحيـَته وتقـَدم وهو يصـَحـَّ : كذب الشيطان
فعاد المسلمون على الفرنج ، فرجعوا ، فصعدوا على القتل ، فلما رأيت
الفرنج قد عادوا ، والمسلمون يتبعونهم ، صحت من فرحي : هزمـناهم
هزـمنـاـهم : فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى ، حتى أحقوا
المسلمين وبالدى ، وفعل هو مثل ما فعل أولاً ، وعطف المسلمون عليهم
فـالـحقـوـهـمـ بالـقـتـلـ فـصـحـتـ أـنـاـ : هـزـمـنـاـهـمـ ،ـ غـالـقـتـ الـىـ وـالـدـىـ
فـقـالـ : اـسـكـتـ ،ـ مـاـ نـهـزـمـهـمـ حـتـىـ تـسـقـطـ تـلـكـ الـخـيـمـةـ ~ـ أـيـ خـيـمـةـ الـمـلـكـ ~ـ
ـ هـمـوـ يـقـولـ ذـلـكـ وـاـذـاـ الـخـيـمـةـ قـدـ سـقـطـ ؟ـ فـنـزـلـ الـسـلـطـانـ وـسـجـدـ شـكـرـاـ اللـهـ
ـ تـعـالـىـ ،ـ وـبـكـىـ مـنـ شـدـدـةـ فـرـحـهـ » .

— وقد حدث أن استسلم من نجا من القتل من الصليبيين ونزلوا
عن دوابهم وجلسوا على الأرض ، فصعد المسلمون إليهم ، واستغلوها
على خيمة الملك ومن بها ، وأسروا الجنود الأحياء عن بكرة أبيهم .

— فمن شاهد القتلى في ذلك اليوم ، قال ما هناك أسير ، ومن عاين
الأسرى قال ما هناك قتيل .. وتمت هذه النصرة يوم السبت ، وضررت
ذلة أهل السبت على الأحد » .

— استعرض الناصر صلاح الدين بعد ذلك كبار الأسرى بعد أن
صلى الله تعالى صلاة الشكر على نعمته النصر ، وأجلس ملك القدس
الصليبي بجانبه وأذن له بشربة ماء مشلوج ، وأجلس ارنات =

ارنولد = رينالد أمير الكرك بجانب الملك ، وهو ينوي تنفيذ نذره فيه لمساءاته السابقة وشدة عناده فلم يكن في الفرنج أشد عداوة منه للمسلمين :

ولما ناول الله الملك كأس الماء الى رجله قال له صلاح الدين :
لم آذن لك في سقيه الماء (حتى لا يوجد ذلك أماناً له) .

وأخذ الناصر يذكر ارنولد بجرائمها : ويسأله كم تحالف وتنكر ؟ ثم أمر بنقل الأسرى الى موضع عينه لهم . واستحضر أرثراط (ارنولد) وقال له : « هأنذا أنتصر لمحمد صلى الله عليه وسلم » فقد كان أرنولد عندما غدر بالقافلة القادمة من مصر الى الشام قال لها : قولوا ل محمد يخلصكم ..

وعرض صلاح الدين الاسلام على ارنولد خاتمها ، فاستغل التمنجاه (خنجر مقوس يتسببه السيف القصير) من وسطه وضرره بها فعل كتفه وأجهز عليه من كان عنده من الخدم . وقال الناصر : كنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به ، بإحداهما لما أراد المسير الى مكة والمدينة ، والثانية لما أخذ القافلة غدرأ (١) .

ويعلق Emerton (٢) على هذه الموقعة بقوله : إنها وضفت سلطة الحياة والموت في يد صلاح الدين ، ولكنه استعمل هذه السلطة في أضيق المحدود . وظهر الفرق جلياً بين معاملة صلاح الدين للفرنجية ومعاملة الفرنجية للمسلمين التي حدثت قبل ذلك بثمان وثمانين سنة ؛ والموقف الصارم الوحيد الذي وقفه صلاح الدين كان مع أرنولد الذي يصفه المؤرخون بأنه كان مغامراً أهوج ، حتى لقد أنزل قواه مرة على أرض الحجاز المقدسة ، وشاع أنه ينوي نقل جثمان الرسول محمد

(١) مقتطفات من الفتح القسى في الفتح القدسى لعماد الدين الاصفهانى ومن مخرج الكروب لابن واصل ومن الكامل لابن الاثير .

(٢) Midiaeval Europe p. 377.

(ﷺ) الى الكرك ؛ وأن يفرض رسوماً فادحة على حجاج المسلمين ، ولم يصده عن هذا إلا فرقه مصرية نقلتُ الى هناك على جناح السرعة في أسطول جنرال بوجلة ؛ وبهذا ولسوء أقسام صلاح الدين أن ينحره بيده ، وقد كان آنذاك الوقت للبر بالقسم ، وقد حاول أرنولد أن ينال النجاة فشرب الماء في خيمة صلاح الدين معتقداً أن التقليد العربي يؤمّن من أكل طعام المضييف أو شرب ماءه ، ولكن صلاح الدين أجاب بأن هذا لا يؤمّنه لأن الماء طهير ولم يقدّم ، وهو صلاح الدين بالسيف على عنق هذا الطاغية ، وقد ارتعد ملك بيت القدس آنذاك ، ولكن صلاح الدين رد الأمان الى نفس الملك بقوله : إن الملك لا يقتل الملك (١) .

بعد موقعة حطين :

كانت موقعة حطين المعركة الحقيقة التي دمرت قوى الصليبيين ، وتركت أجسامهم دامية وعقولهم خاوية ، وكانت نتائجها بعيدة المدى ، فقد سقط فيها أكثر الأمراء والقبلاء والقادة ما بين قتيل وأسير ، حتى أصبحت جيوشهم لا تكاد تجد من يقودها أو من يدبر أمرها ، كما أن من مأثر هذه المعركة أن اسم صلاح الدين أصبح شديد الرهبة ، وأصبح يحمل معنى الموت الزؤام للصلبيين ، فلم يعد سهلاً على جيوشهم أن تقابلها ، ولم يعد عيباً أن تستسلم الجيوش اليه ، وقد انتهز صلاح الدين هذه الفرصة فراح يجذى ثمار جهاده الناجح في موقعة حطين .

اتجه صلاح الدين الى حصن طبرية فاستسلم اليه ، وسار الى عكا فاحتلتها وأقام بها قليلاً ، ومنها أرسل الجحافل فاستولت على

(١) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ٧٥ وما بعدها — وبهاء الدين ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦٠ - ٦٥ .

الناصرية وقيسارية وحيفا ، ثم اتجه صلاح الدين الى صيدا فاستولى عليها ، وواصل سيره الى بيروت فاستسلمت له بعد حصار قصير ، وهكذا سقطت كل الدن الكبرى وكل القلاع في يد صلاح الدين (١) ، فاتجه الى بيت المقدس ليتوج بفتحه انتصاراته .

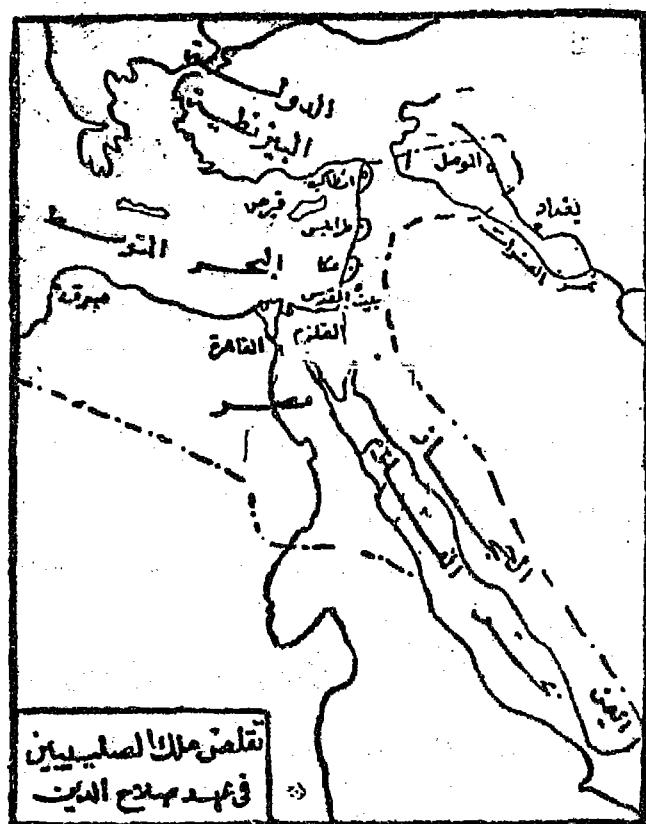
تثريز بيت المقدس :

حاول صلاح الدين أن يدخل المدينة المقدسة مسلحًا لما لها من مكانة روحية في نفوس المسلمين وحرصاً على أن تسلم من دمار الحرب لو هبت بها الحرب ، ولكن القدس كانت قد أصبحت أقوى حصنون الفرنجية ، إذ هرب اليها كل من نجى من المعارك السابقة ، أو أفلت من حصار ، أو خرج من الدن والقلاع التي استسلمت أو فتحت عنوة ، ثم إن أمير الرملة (باليان دى إبيالين) كان أسيراً في يد صلاح الدين منذ سقوط الرملة ، وكانت أسرته في القدس ، فاستأذن باليان أن يذهب للقدس لأحضار أسرته ، وأقسم أن يبر بوعده وألا تطول بالقدس إقامته ، ولما وصل باليان استقبله جند الفرنجية وأحاطوا به ، فقد كان باليان طلبهم وكان القائد الذي يشنونه ليقودهم في الدفاع عن العاصمة المقدسة ، وأغرىه الفرنجية بحنث عهده مع صلاح الدين فاستجاب لهم ، واستكملت المدينة به عدتها للصراع .

وأحاط صلاح الدين بالمدينة واتخذ جبل الزيتون مركزاً لحيشه وهناك نصب المجانيق وأخذ يلقي على أسوار المدينة وابلًا من الحجارة ، ففرّ المدافعون واحتلوا بالأسوار الضخمة ، وبذلك تقدم المسلمون من الأسوار وأخذوا ينقبونها تحت وابل من السهام المتبادلة بين المهاجمين والمدافعين ، وقد اتضحت للفرنجية أن النصر سيحالف العرب كما حالفهم

(١) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ٧٥ .

من قبل ، وينسوا من تحقيق أي انتصار في خصوء ما رأوه من استماتة العرب والمسلمين ، وبهذا مال هؤلاء للصلح وطلبوه ، واتفق الطرفان على أن يخرج الفرنجة سالمين من المدينة في مدى أربعين يوماً ، وأن يدفع الرجل منهم عشرة دنانير والمرأة خمسة ، والصبي دينارين ، ووفى المسلمين بهذا الوعد متناسين الدماء الغزيرة والأرواح الكثيرة التي أزهقتها الفرنجة يوم انتصارهم في بيت المقدس منذ حوالي تسعين عاماً ، وكان ضمن من خرجوا طبقاً لهذه الشروط البطريرك الأكبر يحمل أموال البيع وذخائر المساجد التي كان الصليبيون قد غنموا في فتوحهم ، وقال بعض المسلمين لصلاح الدين : إن هذا البطريرك يقوى بهذا المال على حرب المسلمين ، فأجاب صلاح الدين : الإسلام لا يعرف الغدر ، لقد



أنفكاه علينا البقاء . وخرج الرجل بهذا الشراء ويروى أن مجموعة من النبيلات والأميرات قلن لصلاح الدين «هن يغادرن بيت المقدس : أيها السلطان ، لقد منت علينا بالحياة ، ولكن كيف نعيش وأزواجهنا وأولادنا في أسرك؟ وإذا كنا ندع هذه البلاد إلى الأبد فمن سيكون معنا من الرجال للحماية والسعى للمعاش؟ أيها السلطان هب لنا أزواجاًنا وأولادنا فإنك إن لم تفعل أسلمتنا للعار والجوع» فتأثر صلاح الدين بذلك ، وكانتها أحسن «أن من واجبه أن يحمي هذه الأعراض من قسوة الطغاة ، فهو بلهن رجالهن وأضاف بذلك جديداً على شهامته وعلو نفسه .

ويقرر Stanley Lane Poole (١) أن كثيرين من الفرنجة الذين سقطت قلاعهم وبلادهم راحوا يطرون أبواب المدن التي كانت لا تزال في أيدي الفرنجة ، ولكن هذه المدن أقفلت أبوابها في وجههم ، وقد عبر بعضهم البحر إلى أوربا . وكثيرون منهم اندمجوا في غمار الحياة في ظل الإسلام . فوجدوا رعاية طيبة وترحيباً كريماً ، أما المسيحيون العرب فقد عادوا في ظل صلاح الدين للعيش التنهى الذي ضمته لهم الإسلام فيما ضمن من حقوق لغير المسلمين في المجتمع الإسلامي .

وعاد بيت المقدس إلى أحضان الإسلام ، ودوى صوت المؤذن في المسجد الأقصى ، وسكت ناقوس المسيحيين ، وأنزل رجال صلاح الدين الصليب الذهبي من فوق قبة الصخرة .

صلاح الدين والصلبيون في رمضان :

ومما يذكر أنه عندما حلَّ رمضان سنة ٥٨٤ هـ كان صلاح الدين

- ٧٥٩ -

الأيوبي قد أحرز الانتصارات الكثيرة التي أثبّرنا إليها واستخلص من الصليبيين معظم البلاد التي كانوا قد استولوا عليها ، فلما دخل رمضان أشار رجال صلاح الدين عليه أن يرتاح في شهر الصوم ، ولكنه تخوّف من انقضاض الأجل قائلاً :

« إن العمر قصير ، والأجل غير مأمون وإبقاء أعداء الإسلام في أرض المسلمين لحظة مع القدرة على طرد هم منكر لا أرتکبه » وواصل زحفه حتى استولى على مزيد من الأرض حول بيت المقدس في منتصف رمضان .

- ٧٦٠ -

الحرب الصليبية الثالثة

حرب الملوك الكبار

(١١٩٢ - ١١٩١)

بسقوط بيت المقدس عادت الأحوال إلى ما كانت عليه قبل الغزو الصليبي ، فain بيت المقدس كان الهدف الرئيسي الذي سعى الغرب للسيطرة عليه ، وقد عاد بيت المقدس لل المسلمين فلتبدأ المعركة من جديد .

ومع التشابه في الهدف بين الحرب الصليبية الأولى والثالثة فإن هناك خلافاً واضحاً بين الحربين في عدة توازح أخرى نذكرها فيما يلى :

١ - كان البابا هو رائد الحرب الصليبية الأولى ولكن الحرب الثالثة كانت منبعثة عن العلمانيين ورجال السياسة .

٢ - تقابلت في الحرب الأولى جيوش متحدة من الغرب مع قوى متاخذلة متفرقة في الشرق ، أما في الحرب الثالثة فقد كان الأمر بالعكس .

٣ - كان الدين من أهم الدوافع التي بعثت بالغربيين إلى الحرب الأولى ، أما في الحرب الثالثة فقد حمل بعض الغربيين السلاح وأشتركوا فيها هرباً من النزية التي فرضت على كل من لم يأخذ فيها بمنصب .

ضرائب باسم الغزو الصليبي :

فابتداء من الحملة الصليبية الثانية فرض لويس السابع ضريبة بمقدار العشر على جميع المقولات ، يدفعها من لم يسهم في الغزو الصليبي ، وفرض فيليب أوغسطس وريتشارد قلب الأسد ضريبة عشرة

على رجال الدين والعلمانيين جميعاً للمساعدة في الحروب الصليبية ،
ولذلك سميت هذه الضريبة «عشور صلاح الدين » (١) .

وقد تولى قيادة الحرب الثالثة ملوك أوروبا الكبار وهم : فرديريك برياروسا امبراطور ألمانيا ، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، وفيليبي أغسطس ملك فرنسا ، وكان فرديريك أكثرهم نشاطاً وحماسة ، وقد أخذ طريق البر ، ففرق وهو يعبر نهراً بأرمينيا بالقرب من الراها ، وانتهز جيشه هذه الفرصة فعاد من حيث جاء ، ولم يتبع ابنه إلى المعارك إلا عدد ضئيل ليس له غناء . أما الجيشان الإنجليزي والفرنسي فاتخذا من أوروبا طريقاً البحر ، وتقابلوا في صقلية حيث أمضيا الشتاء ، وفي خلال هذا الاجتماع دب الشقاق بين القيادتين ، فأبخر كل منهما وحده ، واتجه ريتشارد إلى قبرص حيث استولى عليها في طريقه إلى فلسطين ، واتجه فيليب مباشرة إلى فلسطين حيث حاصر عكا بمساعدة من تبقى من جنود فرديريك ، وانضم إلى الحصار اللاتين المقيمون في سوريا بقيادة الملك « غي » مع أنه كان قد أقسم لصلاح الدين ألا يعود إلى شهر السلاح في وجهه ،

Cambridge Mediaeval History Vol. 5, p. 324. (1)

^(٢) Ibid 323. وانتظر كتاب «المسجدة» من سلسلة مقارنة

الأديان للمؤلف .

صراع حول عكا وسقوطها :

وأتجه صلاح الدين إلى المعركة ، وظهر أن كفته مسترجحة ، غاستجده الصليبيون بريتشارد فهرُع اليهم ، وشهدت معركة عكا أقوى هجوم من الصليبيين وأقوى دفاع من البطل صلاح الدين ، وأظهر المسلمون اللوانا من التضحيات والبطولة ، كما أظهر الصليبيون صوراً من النسخة ، إذ عَدَ الملوك الكبار هزيمتهم ضربة تهدد أوروبا بالفناء ، وقد رجحت كفة الصليبيين بسبب بحريتهم القوية وسيطرتهم على المراfa ، مما أدى إلى استسلام المدينة مقابل شروط أهمها لا يتعرض الصليبيون لقوة الدفاع بسوء ، مقابل خدية باهظة ، ولما تواني المسلمون في تقديم القدية فتى النصارى بأسراهم (١) ، فدل هذا التصرف على أن أسلوب أوروبا هو هو لا يتغير في كل زمان ومكان .

ولم يكن سقوط عكا كافياً لثبتت أقدام النصارى بفلسطين ، وظهر أنه ليس في مقدورهم الحصول على فتوحات أخرى ، ومل ريتشارد الحرب ، وخاف على ملكه بعيد ، فجرت مراسلات ومشاورات بين الطرفين أوردتها ابن شداد ، ونقتبس منه أهم ما جاء بهذه المراسلات (٢) :

مراسلات :

كتب ريتشارد إلى صلاح الدين يقول : إن المسلمين والفرنج قد هلكوا وخرّبوا ديارهم ، وتلتفت الأموال والأرواح ؟ وليس هناك حديث سوى القدس والمسيب ، والقدس متبعدينا ما ننزل عنه ، والصلب خشبة عندكم لا مقدار له ، وهو عندنا عظيم ، فيمِنْ به السلطان علينا ونسقريبح من هذا العشاء .

فأجاب صلاح الدين : القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٦٤ .

(٢) سيرة صلاح الدين .

— ٧٦٣ —

ما هو عندكم ، انه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة ، فلا يمسكوا هر أَنْ تُنْزَلَ
عنه ، وأما البلاد فهي لنا واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف المسلمين ،
واما الصليب فهلاكه علينا قتيبة عظيمة فلا يجوز أن نفرط فيه الا لصلحة
أوفي منه .

صلح الرملة :

وقد ظلت المراسلات والمشاورات مدة طويلة وانتهت بعقد صلح
الرملة في الثاني من تشرين الثاني سنة ١١٩٧ شترٌك للنصارى فيه قطعة
ضيقه من الساحل بجوار عكا تمتد من صور حتى حيفا ، وتشتمح لحجاجهم
بزيارة الأماكن المقدسة عزلاً من السلاح ، واحتقظ صلاح الدين بفتوحاته
في اللد والرملة وعسقلان كما احتقظ بداخل البلاد وانتهت بذلك الغرب
الثالثة .

ويذكر Emerton (١) أن السبب في فشل الحرب الصليبية الثالثة
أن الملوك الثلاثة لم يحملوا السلاح ك الرجال يدافعون عن الدين وإنما كملوك
يعملون لأمجادهم الخاصة ، أما ريتشارد الذي يُعدَّ أحد أبطال الغرب
الصليبي ف أنه لا يمكن أن يحمل هذا اللقب إلا في حدود تفكير العصور
الوسطى ، فلقد كان الرجل من البرابرة الذين لا يحترمون القوانين ولا
يتخلّبون بسجايها رفيعة ، ولذلك فإن ريتشارد إن مكّن كقائد عسكري
لا يصلح قط حاكماً لأمة أو مديراً لحركة خطيرة من هذا النوع .

نهاية صلاح الدين :

مات صلاح الدين بعد هذا الصلح بفترة وجيزة وعمره خمس
وخمسون سنة ، ويقول عنه كارل بروكلمان مَا يلى (٢) : والحق أن حروب
صلاح الدين ضد الصليبيين قد جعلته من أشهر ملوك الشرق في أوروبا ،

Midiaevel Europe p. 378. (١)

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ص ٢٣٢ .

أما في الذاكرة الشرقية فلا يزال خالداً إلى جانب كبار الخلفاء والسلطانين كرمز لحقيقة من أسمى حقب التاريخ وأهنتها ، وليس من شك في أن قلة فضيلة من أمراء المسلمين كانت تضارعه من حيث تجرده عن أية نزعة للكسب الشخصي ، ومن حيث انصاره إلى خدمة دولته ورعاياها ليس غير ، ولم يستطع أعداؤه أنفسهم إلا الاعتراف له بالشهمة والتجل في معاملة الخصم المغلوب على يديه هذا فحسب ، بل كان صلاح الدين بالاخصافة إلى ذلك نصيراً للعلم ، وقد عاشن في رحابه نفر من خيرة العلماء كابن العماد الأصفهاني الذي أرخ لفتح القدس ، وكالقاضي بهاء الدين بن شداد الذي كتب سيرة صلاح الدين ، وكالقاضي الفاضل .

رحم الله صلاح الدين ، لقد كان قائداً موهوباً تمثلت في شخصه كل المعاني التي كانت تدور في ثفوس العرب والمسلمين ، فأبرزها جائسهم العرب والمسلمين .

بين الحرب الصليبية الثالثة والرابعة

(فترة اضطراب في المعسكرين)

تعمل هذه الفترة لدى الصليبيين بالصراع المتصل حول تنفيذ مبادئ الكنيسة والسلطات المدنية ، وقد حاولت الكنيسة أن تستعيد مكانتها في الإشراف على المروءات الصليبية وتوجيهها ، ولكن شخصية الملك هنري السادس حالت دون ذلك ، فقد كان هنري السادس أعظم رجال السياسة في عهده ، وأعظم إمبراطور بعد شرمان ، وقد دان له بالولاية والتبغية ملك قبرص وملك أرمينيا مما مد نفوذه هنري إلى الشرق ، ودفعه لاستعادة قيادة المروءات الصليبية الإمبراطورية التي قادها أبوه .

وفي معسكر الفرنج كذلك كان هناك خلاف آخر بين بقايا الصليبيين

- ٧٦٥ -

باليشام بعضهم والبعض ، وقد ضعفت قوتهم بسبب هذا الخلاف ، ويسرب
الحسد ، ورغبة كل فريق في أن يكون له السلطان والغلوة على الآخرين .

ولم يكن المعسكر الإسلامي أحسن حالا ، فإن صلاح الدين كان قد قسم الدولة بين أولاده ، فجعل دمشق وجنوبى سوريا لابنه الملك الأفضل وبجعل له السلطة العامة ، وجعل مصر للملك العزيز ، وجعل حلب وشمالى سوريا للملك الظاهر ، أما الملك العادل أخوه صلاح الدين فقد منح بعض الممتلكات فى الجزيرة الفراتية ، وقد شب نزاع بين أولاد صلاح الدين ، وتدخل الملك العادل فأثار بعضهم ضد البعض الآخر ، وقد شجعت هذه الاضطرابات الامبراطور هنرى على العزم على الزحف للشرق .

الملك العادل يقود معسكر المسلمين :

وحدث بعد أقليل تغيير فى معسكر الفرنج ومعسكر المسلمين ، أما الأول فإن الامبراطور هنرى قد مات وهو يستعد للزحف ، وقد أعطى موته الفرصة للكنيسة لتعيد سيادتها وقيادتها للحروب الصليبية ، أما معسكر المسلمين فقد آل أمره إلى نوع من الوحدة ، إذ استطاع الملك العادل أن يقضى على أولاد أخيه الواحد بعد الآخر . وان يتولى السلطة (١٢١٨ - ١٢٩٩) في أغلب ملك صلاح الدين ، ولم يبق لأولاد صلاح الدين ، الا قطاع حلب الذى استمر تحت سلطانهم حتى زحف المغول

سنة ١٢٦٠ .

وفي وسط هذا الجو جاءت الحرب الصليبية الرابعة .

- ٧٦٦ -

الحرب الصليبية الرابعة

تحول إلى حرب داخلية بين المسيحيين

(١٢٠٤ - ١٢٠٢)

دفعت الكنيسة جماعات المسيحيين للقيام بهذه الحروب ، وكانت هذه الحروب قريبة الشبه بالحروب الصليبية الأولى من ناحية أنها كانت فرقسية القادة والروح ، ولكن هدفها هذه المرة كان مصر للسبعين الآتين :

١ - أصبحوا واضحًا أن نجاح المروء الصليبية لن يتم إلا إذا سيطر الصليبيون على مصر فقد أصبحت مصر مركز القوة الإسلامية .

٢ - السيطرة على مصر ستحقق الكسب التجاري المنشود ، فعن طريقها يمكن الاتصال بالبحر الأحمر والأخذ بنصيب في تجارة الهند وجزر الهند الشرقية « اندونيسيا الآن » .

الاتجاه ضد القسطنطينية :

ولكن حدث شيء لم يكن في الحسبان وجّه هذا الزحف وجهة أخرى فقد انحرف الغزاة تجاه القسطنطينية وقرروا الاستيلاء عليها ، وهذا يبين لنا إلى أي حد انحرف الصليبيون ونسوا أهدافهم التي من أجلها زحفوا على الشرق ، وهي الاستيلاء على بيت المقدس ، وأصبحت السياسة والتجارة هي المركب الحقيقي لهذه الجموع ، وقد اتضحت لنا مما سبق أن القسطنطينية لم تعد تتعاون مع الصليبيين ، وأن الصليبيين لم يفوا بوعدهم مع إمبراطور القسطنطينية بأن يعودوا إلى سلطانه كل ما يفتحون أو على الأقل يدفعون جزية له ويعترفون بسيادته العليا .

هذا من الناحية السياسية ، أما الناحية التجارية فيوضحها أن

المدن التجارية باليطاليا وبخاصة فينيسيانا قد نعمت بالغنى العظيم عن طريق تجاراتها مع الشرق ، وكانت هذه المدن لذلك لا تريد تدمير خطوطها التجارية بالحرب ، ومن أجل هذا حرصت هذه المدن على أن تكسب السلام لهذه الخطوط ، وحرصت في الوقت نفسه على توجيه النشاط الصليبي ضد القسطنطينية لأن هذه كانت سبعة العلاقة مع العواصم التجارية بأوروبا ، ويقول (١) Emerton إن العواصم التجارية باليطاليا لم تتردد أن تقتل الإوزة التي تبيض لها بيسة الذهب .

وبالإضافة إلى الأهداف التجارية ، رحبـت الكتبـية الغربية بهذا الاتجـاه ، إذ وجدـتـ به فرصة إسقـاطـ الكتبـية المـاقـسة لهاـ فيـ الشـرق .

كما اعتـقـدـ الصـليـبيـونـ أنـ السيـطـرـةـ عـلـىـ القـسـطـنـطـيـنـيـةـ سـتـجـعـلـ السـيـطـرـةـ عـلـىـ سـوـرـيـاـ سـهـلـةـ وـيـسـيـرـةـ .

الاستيلاء على القسطنطينية :

وهـكـذاـ تحـولـتـ الحـروـبـ الصـلـيـبيـةـ إـلـىـ حـرـبـ ضدـ المـسـيـحـيـيـنـ ،ـ وـوـصـلـ الغـزـاةـ إـلـىـ القـسـطـنـطـيـنـيـةـ فـيـ يـوـليـوـ سـنـةـ ١٢٠٣ـ وـأـسـطـوـهـاـ فـيـ اـبـرـيـلـ ١٢٠٤ـ بـعـدـ مـقاـومـهـ هـزـيلـةـ ،ـ وـعـيـّنـ (ـبـالـوـيـنـ)ـ أـوـلـ اـمـبـراـطـورـ لـاتـيـنـيـ علىـ القـسـطـنـطـيـنـيـةـ ،ـ وـقـدـ ظـلـتـ القـسـطـنـطـيـنـيـةـ خـاصـةـ لـلـاتـيـنـ مـدـدـةـ سـتـينـ عـامـاـ ،ـ وـهـكـذاـ كـانـ النـهـاـيـةـ غـيرـ المـتـوقـعـةـ لـلـحـروـبـ الصـلـيـبيـةـ الـرـابـعـةـ (٢)ـ .

وـاقـتـسـمـ الغـزـاةـ الغـنـيـمـةـ كـمـاـ كـانـواـ قـدـ اـنـفـقـوـاـ قـبـلـ الزـحفـ ،ـ فـأـخـذـتـ فيـنيـسيـاـ /ـ المـنـطـقـةـ التـيـ اـسـتـوـلـىـ الغـزـاةـ عـلـيـهـاـ ،ـ وـأـخـذـتـ الـحقـ فـيـ تـعـيـنـ الـبـطـرـيرـكـ ،ـ أـمـاـ الـفـرـنـجـ فـكـانـ التـاجـ نـصـيـبـهـ مـعـ مـسـؤـلـيـةـ الـحـكـمـ (٣)ـ .

Midiaevel Europe p. 379. (1).

and Momber : A Short History of the Crusades p. 201.

Bears, Edwin : The Fall of Constantinople p. 187. (2)

Ibid. p. 192. (3).

بين العرب الصالحة الرابعة والخامسة

(زحف الاطفال ونهايتهم)

لا تزال الأسباب التي دعت للحرب الصليبية الرابعة قائمة ، فبيت المقدس لا يزال في أيدي المسلمين ، ولا يزال واضحًا أن أي حرب مقدسة لابد لنجلتها أن يستولى الصليبيون على مصر ، وبينما كانت الحماسة تشتد في أوروبا لهذا الغزو كان الملك العادل يعقد سلسلة من المعاهدات مع المسيحيين كان من شأنها تخفيف الحدة وتنقيل الحماسة ، وقد عقدت هذه المعاهدات في السنوات التالية : ١٢٠٢ ، ١٢٠٤ ، ١٢١٠ ، ١٢١١ ، ١٢١٦ ، وكان أهم ما في هذه المعاهدات تيسير الحج ، وعدم الاعتداءات بين الجانبين ، وتعديل قليل في الحدود .

وعلى الرغم من ذلك فقد حدثت أحداث في هذه الفترة هي جت
النفوس ودفعت إلى الحرب الخامسة ، وأهم هذه الأحداث زحف
الأطفال الفرنسين سنة ١٩١٢ بقيادة طفل من الرعاة اسمه ستي芬 لتخلص
الأرض المقدسة ، وزحف الأطفال الألمان بقيادة طفل اسمه منغولا لنفس
الغرض ، وقد خطف تجار الرقيق هؤلاء الأطفال وباعوهم في أسواق
النخاسة ، مما أثار أهليهم وذويهم ، ودفع البابا نفسه إلى أن يتذمّر
وسيلة للاثارة ، فقد كتب عقب هذا الحدث يقول : لقد سجل الأطفال
 علينا الخزي والعار ، فبينما نفرق نحن في النوم يهب الأطفال لتحرير
 الأرض المقدسة (١) .

وفي سنة ١٢١٥ انعقد المجلس الأولي فافتهر البابا فرصة هذا الاجتماع ، وحرث النار الكامنة ، ووجد استجابة لذلك ، فحدد سنة ١٢١٧ موعداً للزحف الصليبي الجديد .

- ٧٦٩ -

الحرب الصليبية الخامسة

اتجاه الغروب الصليبية إلى مصر

(١٢١٨ - ١٢٣٨)

اتجهت القوى الصليبية بزحفها هذه المرة تجاه مصر ، تنفيذاً للخطة التي سبق شرحها ، وكانت مصر آنذاك تحت سلطان الملك العادل الذي لم يلبث أن مات في مطلع هذه الحملة وأآل السلطان على مصر من بعده لابنه الملك الكامل (١٢١٨ - ١٢٣٨) ولكن الملك الكامل قابل في مطلع عهده ألواناً من الصاعب كان لها أثر كبير في إضعاف قوة المسلمين ، ثم إن المغول كانوا قد بدأوا زحفهم تجاه العالم الإسلامي فاستقطعوا خوارزم ، وبلاد ما وراء النهر وم معظم بلاد فارس سنة ١٢٢٠ ، وبدعوا يوغلون تجاه بغداد ، مما قسم الجهود الإسلامية وقتاً في عهد المسلمين ، يُضاف إلى ذلك أن الصليبيين اتصلوا بنجاشي الحبشة المسيحي ليتعاونن معهم في ضرب الإسلام والمسلمين عن طريق غزو الخجاز وهدم الكعبة (١) .

أما جيش الصليبيين فكان في حالة طيبة ، إذ تلقى جموعاً ضخمة من أوروبا جاءت تلبية للدعوة التي وجهها البابا إيوسنت الثالث ، ثم البابا هوفريوس الثالث من بعده ، وكان يقود جموع الصليبيين الملك يوحنا دي بوين ملك ما يبقى من مملكة بيت المقدس ومه المندوب البابوي بلا جيوش ، وتقدمت الحملة تجاه دمياط التي كانت تعتبر باباً ل مصر ، وكان بها برج السلسلة الذي يُعدّ « قفل الديار المصرية » (٢) ،

Coulbeaux : His. d. Abyssinie pp. 259-266. (١)

نثلاً عن الحركة الصليبية للدكتور سعيد عاشور ج ٢ من ٦٦٥ .

(٢) أبو شامة : ذيل الروضتين ج ٢ من ١٠٩ .

(م ٤٩ - موسوعة التاريخ : ٥)

وقد استطاعت الحملة أن تستولى على هذا البرج في أغسطس سنة ١٢١٨ ، وأن تستولى على دمياط عقب ذلك ، ولكن بعد أن قاومت دمياط مقاومة صلبة ، وأرغمت المهاجمين على دفع أعلى ثمن لسقوطها .

ولم يسرع الصليبيون بانتزاع تجاه القاهرة بل انتظروا الامبراطور فرديريك الثاني الذي أذيع أنه في الطريق للانضمام للمهاجمين ، كما أن المصريين لم يمنوهم فرصة الزحف للقاهرة بسبب الاستعدادات الهائلة التي تدفقت من كل صوب لتحيط بالصليبيين في دمياط ، وقد أنسهم في هذه الاستعدادات الخليفة العباسي والملك الأشرف مؤمنى ابن الملك العادل والملك المعظم عيسى والمنصور صاحب حماة ، ٤٠٠٠، كمال مدقق الأبطال من شتى النواحي المصرية والإسلامية لواجهة الصليبيين ، وتمكنكت القوة الإسلامية من إإنزال كثير من الخسائر بالصليبيين فقتلوا منهم وأسرموا واستولوا على كثير من المعدات والسفن الخزفية والعتاد .

ولكن الملك الكامل كان حريصاً على أن تنجو مصر من التدمير الصليبي ، فاتجه إلى التضحية ببعض الاقتصار الضخم الذي حققه عمده صالح الدين ، رجاءً أن يجعل الصليبيون عن دمياط ، فورض عليهم شروطاً سخية هي أن يغنمهم بيت المقدس ، ويطلق أسراهم ، ويعيد الصليب الذي كان صالح الدين قد أنزله من فوق قبة المصورة عقب استردادها .

وكان المسلمون قد خربوا هاميات القدس حتى إذا استعادها الصليبيون لا يسيطرون الانقطاع بها .

ولعل الملك الكامل كان يظن أن بيت المقدس هو هدف الصليبيين ، وأن منه لهم سيفضع حدأً لهذه الحرب التي طالت وشقي بها الناس في الشرق والغرب ، ولكن الصليبيون أعنوا عن

أهدافهم عندما رفضوا هذا العرض متطلعين إلى الاستيلاء على سوريا
ومصر جمِيعاً؛ وتقديموا فعلاً تجاه القاهرة.

ولم يبق أمام الملك الكامل إلا النضال، بيد أن فكرة ذكية خطرت
ببال المصريين فجعلت الحرب تسير في جانبهم، فقد قطع المصريون جسور
النيل فأغروا الأرض بالماء وعجز الصليبيون عن الاستمرار في الزحف
بل أصبحوا مهددين بالجوع والهلاك، فطلبوا الصالح على أن يتركوا
دمياط دون مقابل، وقد رفض بعض أمراء الأيوبيين ذلك وأصرّوا على
القضاء على الصليبيين، وأسرعوا فأحاطوا بهم من الشمال ومن الجنوب،
وماتوهم من العودة إلى دمياط، ولكن الملك الكامل كان يريد أن يتفرغ
لشُكلاته الداخلية، ثم إنه كان قسم أذيع أن الإمبراطور فردریک، على
ويشك الوصول، فثار الملك الكامل أن يظهر مصر من الصليبيين، قبل
وصوله، مخافة أن يتضمن لهم وهو محاصرون بدمياط، وتم الاتفاق
على الجلاء دون تقييد، وجلا العدو مكلاً بالخيبة والعار.

وانتهت بذلك هذه الحملة القاسية وتظاهرت أرض الوطن بعون
الله والنيل الذي طالما قدّم لواناً من العون للمقيمين على ضفافه.

الحرب الصليبية السادسة

امتداد "للحرب الصليبية الثامنة"

(١٢٢٨ - ١٢٢٩)

تعتبر الحرب الصليبية السادسة تكملة للحرب الخامسة أو ذيلاً لها ، فان فردريك جاء الى سوريا ومعه حامية قليلة ، ولم يضرب ضربة واحدة ولكنه حاول أن ينتفع بالعرض الذى كان الملك الكامل قد عرضه على الصليبيين ابان الاحتلال دمياط ، وكانت هناك مشكلات داخلية كثيرة تحيط بالملك الكامل ، فأرسل فردريك الثانى يتطلب المفاوضة معه على أساس تسليم بيت المقدس ، ولكن الملك الكامل رفض المفاوضة على هذا الأساس ، فقد كان مستعداً أن يضحي بها لفتح مصر ولكن مصر نجت بدون هذه التضحية الباهظة ، بينما أن فردريك اتخذ جانب الاستعطاف واللين مع الملك ، وفي بعض المراجع أنه أرسل له رسالة جاء فيها : « أنت تعلم أنى أكبر ملوك البحر ، وقد علم البابا والملوك باهتمامي وطلوعى فان زجعت خائباً انكسرت حرمتى بينهم ، وهذا القدس هو سبب ضجرهم والمسلمون قد خربوا المدينة فلم يعد لها طائل ، فان رأى السلطان أن يشتم على بقعة البلد والزيارة ، كان ذلك منه حدة ورفع رأسى بين الملوك (١) » ولا يسبعد الباحثون أن يستعطف فردريك الملك الكامل على هذا الوجه ، فقد نشأ فردريك في صقلية وتربى في كتف الحفارة الإسلامية ، وشبّ على حب المسلمين وحضارتهم (٢) .

الثانية يائياً والتنازل عن بيت المقدس :

هذا من جانب ، ومن جانب آخر فان الملك الكامل كان يميل الى

(١) الواقي بتوغيات : ذيل الباب الثاني والسبعين .

(٢) دكتور سعيد عاشور : الحركة الصافية ج ٢ ص ٩٦ .

التسامح ، وكان يريد أن يتم اتفاق على بيت المقدس ، اتفاقاً يترافق مع المسلمين والمسيحيين ، وقد رأى أن العلاقة الطيبة بالامبراطور فردرريك الثاني تتيح الوصول إلى حل وسط ، فسار في المفاوضة وتمت اتفاقية ياشا سنة ١٢٢٩ وجعلت مدتها عشر سنوات ، وبمقتضاهما سلم الملك الكامل لفردرิก الثاني بيت المقدس وبيت لحم والناصرة مع شريط يصل هذه البقاع بعكا التي كانت قد صارت عاصمة مملكة بيت المقدس ، منذ استولى صلاح الدين على بيت المقدس التي كانت عاصمة المملكة من قبل ، وقد نص في الصلح « على أن تبقى بيت المقدس على ما هي عليه من الخرائب ولا يتجدد سورها وأن تكون سائر قرى القدس للMuslimين لا حكم فيها للفرنج ، وأن الحرم بما تحتواه من الصحراء والمسجد الأقصى يكون بأيدي المسلمين لا يدخله للفرنجة إلا للزيارة فقط ويتولاء قوام من المسلمين ، ويقيمون فيها شعائر الإسلام من الأذان والصلوة (١) » .

وبهذا بقيت عكا عاصمة المملكة إذ كانت أكثر حصانة وتسلينا .

والنظرة السريعة ترى في هذا الصلح خسارة ، وقد هاجمه المسلمون في حينه وبيتوا على ضياع بيت المقدس ، ودافع الكامل عن نفسه بتوله : « إنما لم نسمح للفرنج إلا بكتائش خربة ، والمسجد على حاله ، وشعار الإسلام قائم ، ووالى المسلمين متحكم في الأعمال والضياع (٢) » .

ولم يَعْدَ المسيحيون هذه الاتفاقية كسباً واضحاً ، وهاجموا كثيرون منهم ، ولسنا نستطيع أن نوافق على تسليم شبر من الأرض الإسلامية طوعاً ، وربما رأى الساسة ما لا نراه ، وقد رأوا عواقب أخرى فضحتوا بالقليل ليحموا الكثير ، وهؤلاء سيساعدون ما عُرف عن الملك الكامل

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢١٠ .

(٢) المرجع السابق .

من الصفات الطيبة ، فقد ذكر أبو الغدا (١) ، أنه كان ملكاً جليلاً مهيناً حازماً حسن التدبير ، وذكر المقريزى (٢) أن الأمان كان مستيناً في عهد الملك الكامل لهيته وبقيظته ، حتى كان الواحد يمر بالذهب الكثير والأعمال من الثياب من العريش إلى مصر فلا يحس بخوف .

وفي نفس العام عاد فردريك إلى أوروبا إذ كان البابا قرر حرمته لأسباب كثيرة منها تباطؤه في المسير لسوريا مما سبب خياع دمياط ، فلما استعاد فردريك بيت المقدس أخذت البابوية تتقلل من قيمة استرداده على الوجه الذى تم عليه ، على أن صلحاً تم بين فردريك والبابا سنة ١٢٣٠ رفع على أثره قرار الحرمان .

ونقطة أخرى تتصل بفردريك وكانت ذات أهمية عظمى بالنسبة لمستقبل مملكة بيت المقدس آنذاك ، تلك أن الامبراطور تزوج سنة ١٢٢٥ من الأميرة يولاند ابنة يوحنا دى برین ملك بيت المقدس ، وكانت الأميرة هي الوريثة الوحيدة للملكة عقب موت أبيها في نفس العام (١٢٢٥) وبهذا الزواج أصبح الامبراطور ملكاً لمملكة بيت المقدس ، وظلت هذه المملكةتابعة للامبراطورية الرومانية المقدسة حتى سنة ١٢٦٨ ، وسقى بعد قليل أثر هذا الوضع على مستقبل بيت المقدس .

بين الحرب الصليبية السادسة والسابعة

(صراعات داخلية)

إن الفترة التي مضت بين الحرب الصليبية السادسة وال Herb الصليبية السابعة أي بين ١٢٢٨ و ١٢٤٨ تعتبر فترة حاسمة في تاريخ الشام وتاريخ الإسلام على العموم ، وفي كلمة موجزة نقرر أن اخطر ابا

(١) المختصر في أخبار البشر : حوادث ٦٣٥ .

(٢) السلوك : ج ١ من ٢٥٩ .

فاسيا هز المجتمع الإسلامي آنذاك ، فبعد أن أسقط المغول دولة الأئراث الخوارزمية هاج الفوازرمية وشاروا في أرض الإسلام يعيثون فسادا ، فكانوا في تدميرهم يسيرون على أسلوب المغول أو أشد ، ثم كان الأيوبيون في تفكك وانحلال وصراع ، والسلاجقة بينهم خلاف جلل لهم في الأحداث والحروب الداخلية نحيانا كعبا ، وفي هذه الفترة توفى الملك الكامل سنة ١٢٣٨ ، وتولى بعده ابنه الملك العادل الثاني (١٢٣٨ - ١٢٤٠) ولكنه كان ضعيفا فلم يستطع أن يقاوم أخاه الصالح نجم الدين أيوب فأخلى له عرش مصر (١٢٤٠ - ١٢٤٨) .

ولم يكن المعسكر الصليبي أحسن حالا من معسكر المسلمين ، وقد رأينا عند الحديث عن الحرب الصليبية السادسة بذور الاضطراب والقلق التي ثمت من يوم إلى يوم ، فالامبراطور فردرريك الثاني أصبح ملكا لملكة بيت المقدس ، ولكن مصالحه في الغرب كانت بطبيعة الحال أهم من مصالحه في سوريا ، ولذلك سرعان ما عاد إلى أوروبا تاركا مكانه خاليا ، وتاركا المملكة التي لها الاشراف على الصليبيين في الشام دون ملك مقيم يدبر شأنها بطريق مباشر وحاشم وسريع ، ثم ان اتفاقية يافا ألزمنت - كما قلنا آنفا - ألا يحصن بيت المقدس . ومن هنا فقدت هذه المدينة أهميتها الحربية ، وكان من السهل أن يقتسمها المسلمون في أي وقت ، لو لا ما كان بينهم من خلاف ، وكان للخلاف بين الامبراطور والبابا أثر لم ينته بانتهاء الخلاف ، بل ظلت له آثار بعد ذلك .

وكان الصليبيون بالشام في اضطراب وتفكك ، وقام صراع ممتد بين أمراء الاقطاع الامبراطوري النورماندي .

وهكذا وقف بيت المقدس - وهو المركز الذي كانت تدور حوله

الأحداث العسكرية آنذاك — بين القوى المتعادلة ضعفاً وخوراً ، وأخذ بيت المقدس يتربع مستحيياً لمن يحاول أن يتسلمه .

الصالح اسماعيل يستولى على بيت المقدس :

وفي سنة ١٢٣٩ حصلت معركة قوية عند غزة اشتربت فيها جيوش الصالح اسماعيل ملك دمشق (١) وجيوش العادل الثاني ملك مصر ، وقد مزقت هذه الثورة جيش الصليبيين وقتلت ألفاً وثمانمائة وأسرت عدداً كبيراً ، وكان كثير من الزعماء والأمراء بين القتلى والأسرى ولم يقتل من المسلمين غير عشرة (٢) ، وتنبه استولى جيوش الصالح اسماعيل على بيت المقدس عقب هذه الموقعة (٣) .

الصالح اسماعيل يعيد بيت المقدس للصليبيين :

بيد أن استيلاء الصالح نجم الدين أيوب على السلطة بمصر

(١) كان ملكاً لدمشق بضعة شهور خلال سنة ١٢٣٧ ثم أخلى الطريق لأخيه الملك الكامل ، وبعد الكامل جاء ابنه العادل سنة ١٢٣٨ ملكاً على مصر والشام ، بيد أن الصالح نجم الدين أيوب استولى على دمشق من أخيه العادل ١٢٣٩ ثم ذهب إلى مصر واستولى عليها سنة ١٢٤٠ ، ولكنه بعد أن ترك الشام إلى مصر تقرر الصالح اسماعيل للسلطان مرة أخرى بالشام ، وقد استمر هذه المرة ست سنوات ١٢٣٩ - ١٢٤٥ ثم عاد فأنهى مأمور الصالح أيوب .

(٢) أبو شامة : ذيل الروضتين ص ١٧ .

(٣) أبو الفدا : المختصر حوارث سنة ١٢٧ وترى بعض المراجع أن الناصر داود صاحب الأردن هو الذي استولى على بيت المقدس دون أن تربط هذا الاستيلاء بموقعية غزة ، ولكننا نؤثر الرأي الذي قلنا به لأن الصالح — وليس الناصر — هو الذي عاد فسلم بيت المقدس للصليبيين سنة ١٢٤٠ بجماع المراجع ، وليس طبيعياً أن نفترض أن الناصر داود سلم بيت المقدس للصالح اسماعيل وهذا سلمه للصليبيين .

من الملك العادل أثار الصالح اسماعيل الذى خالف على ملكه فتحاً لـ
مع الصليبيين ضد نجم الدين وأعشار لهم بيت المقدس سنة ١٢٤٠ ،
فاستهدف غضب المسلمين وشنعوا عليه وأكثروا عليه السخط (١) ،
وفي اللقاء الذى أعد للصدام بين الصليبيين والصالح اسماعيل من جانب
وبين الجيوش المصرية من جانب آخر سنة ١٢٤٠ استدار جند الشام
المسلمون وانضموا إلى القوات المصرية ومالوا جميعاً على الفرج
فهزموهم عند غزة وأسرّوا منهم خلقاً لا يحصون (٢) ، ولكن المسلمين
لم يعودوا للسيطرة على بيت المقدس .

الخوارزمية يستعيرون بيت المقدس :

وبعد ذلك بأربع سنوات أي في سنة ١٢٤٤ ، انتزع الخوارزمية حلفاء
الملك الصالح نجم الدين أبيب آنذاك ، بيت المقدس من الصليبيين ، وقد
تبّع الخوارزمية الصليبيين الفارين من المدينة المقدسة إلى يافا فقضوا
على الكثرين منهم ، أما كنيسة القيامة وغيرها من الأماكن الدينية المسيحية
داخل بيت المقدس فقد اعتدى عليها الخوارزمية ودمروا وأتلفوا معظمها ،
وأعادوا بيت المقدس تائهياً إلى المسلمين ، ولم يقدر لجيش مسيحي
أن يقرب من هذه المدينة بعد ذلك حتى العرب العالمية الأولى (٣) .

حطين الثانية وتدمير الصليبيين والخوارزمية :

وحدثت بعد ذلك موقعة غزة الثانية في أكتوبر سنة ١٢٤٤ بين الملك
الصالح نجم الدين وحلفائه الخوارزمية وبين الصليبيين ومعهم الاستبارية
والداوية وبعض المنحرفين المسلمين ، ودارت الدائرة على الصليبيين

(١) أبو الفدا : المختصر حوادث سنة ٦٣٩ والسلوك للمقرنزي ج ١

من ٣٠٤ ، ٣٠٨ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الظاهرة ج ٦ من ٣٢٣ .

(٣) دكتور سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ من ١٠٤٥ .

وَهُلْفَائِيهِمْ وَخَرَّ مِنْهُمْ أَكْثَرُ مِنْ ثَلَاثِينَ أَلْفًا وَسِيقَ الْمَئَاتُ مِنَ الْأَسْرَى
إِلَى مِصْرَ ، وَتُسَمَّى هَذِهِ الْمَوْقَعَةُ لِهَذَا « حَطِينُ الثَّانِيَةِ » ، وَعَلَى أَثْرِهَا
اسْتَولَى الصَّالِحُ أَيُوبُ عَلَى دَمْشَقَ ، وَلَا وَاجَهَ أَطْمَاعَ الْخَوارِزمِيَّةِ وَعِبْرَهُمْ
حَارَبُوهُمْ وَقَتَلُوهُمْ سَنَةً ١٢٤٦ ثُمَّ اسْتَولَى عَلَى خَصْنَ طَبْرِيَّةَ سَنَةً
١٢٤٧ مِنَ الْصَّلَيْبِيِّينَ وَعَلَى عَسْقَلَانَ فِي نَفْسِ الْعَامِ مِنَ الْأَسْبَتَارِيَّةِ ، وَقَدْ
أَحْدَثَتْ هَذِهِ الْاِنْتِصَارَاتُ ذُعْرًا فِي أُورَبَا وَدَفَعَتْ لِحَرْبِ صَلَيْبِيَّةِ جَدِيدَةِ هِيَ
الْحَرْبُ الصَّلَيْبِيَّةُ السَّابِعَةُ •

- ٧٩ -

الحرب الصليبية السابعة

لويس التاسع وأسرة في مصر

(١٢٤٩ - ١٢٥٠)

كان هدف هذه الحرب أن يعود الصليبيون مرة ثالثة إلى بيت المقدس ، ولكن أصبح من المتأكد لديهم أن بيت المقدس من غير مصر لا يمكن أن يبقى في أيديهم ، ولذلك اتجهت هذه الحرب إلى مصر كما اتجهت حروب مثلها من قبل ، وكانت هذه الحرب بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وقد حمل لويس الصليبي عند سقوط بيت المقدس سنة ١٢٤٤ وأخذ يدعو إلى حرب صليبية جديدة ولكنه تأخر في البدء بها لأنه كان مشغولاً بمحاولة الاصلاح بين البابا وامبراطور المانيا ، ولم تتوجه هذه المحاولة ، فاصطحب أخوه وحاشيته وبدأ رحلته الصليبية في أول الشتاء سنة ١٢٤٨ وأمضى الشتاء في قبرص ثم استأنف سيره موجهاً حملته إلى مصر كما قلنا .

لويس التاسع في دمياط :

وكان سلطان مصر (الصالح نجم الدين الذي سبق الكلام عنه) موجوداً بالشام يزاول بعض الحركات العسكرية التي يحاول بها أن يثبت ملكه ، فانتهز الصليبيون هذه الفرصة ونزلوا دمياط واحتلواها سنة ١٢٤٩ ومرض الملك الصالح فعهد لولده العظيم توران شاه بالسلطنة على مصر وكان آنذاك أميراً على حصن « كييف » (١) وجعل الأمير حسام الدين بن على نائباً للسلطنة بالقاهرة والأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ قائدًا عاماً على الجيوش المصرية التي عسكرت في جديلة والمصورة لواجهة

(١) بلدة تاريخية على دجلة الاعلى ، وهي الآن داخل الحدود التركية

المجاورة للعراق ، ويطلق عليها حالياً اسم « حرف » هو « حسنكيف » .

الزحف الصليبي ، ومات الملك بعد ذلك فأخفت زوجته شجرة الدر خبر وفاته وأخذت تصدر باسمه الأوامر إلى المماليك ، وفي الوقت نفسه أرسلت تسددعى توران شاه ٠

الصليبيون يصلون إلى ضواحي المنصورة :

ولم تستطع حملة لويس التاسع أن تواصل سيرها إلى الجنوب من دمياط بسبب أنواع العقبات المائية والعينية التي تختلف عن مياه الفيصلان في هذه المنطقة المعروفة باسم جزيرة دمياط ، وذلك فضلاً عن العمليات التعوييقية التي قامت بها الخيالة الأيوبية المصرية خير قيام (١) وأخيراً وبعد جهد جهيد استطاعت الحملة الصليبية أن تصفل إلى معسكر يقابل المعسكر المصري الموجود في جديلة إحدى ضواحي المنصورة ، ولم يبق من فاصل بين القوتين إلا البحر الصغير ، وقد أخذ لويس التاسع يُعدّ العدة لعبور هذا النهر ، ولكن القوى المصرية قضت على كل الوسائل التي اتخذها ، وأخيراً اهتدى الصليبيون إلى مخاضة سلمون حيث يمكن للخيالة أن يعبروا النهر راكبين خيولهم ، وفي أمسية من أيام فبراير سنة ١٢٥٠ قفز الخيالة بقيادة روبرت كسونت أرتو وأخوه الملك لويس ومعه طائفة الفرسان الداوية وفرق أخرى عن الفرسان ، واستطاعوا أن يصلوا إلى الشاطئ الآخر وأن يفاجئوا المصريين في معسكر جديلة فسقط تل جديلة في أيديهم وقتيل الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ وهو يناهض المعتدين ، وانسحبت القوة المصرية متراجعة إلى المنصورة ، ووَقَعَتْ أخبار هذا الزحف المفاجيء وقع الصاعقة على المصريين في المنصورة والقاهرة ٠

معركة عنيقه بالمنصورة :

غير أن روبرت لم يكتف بهذا الانتصار بل أصر على أن يتعقب القوات النسحبة إلى مدينة المنصورة دون أن ينتظر القوات البرية التي كان

(١) دكتور محمد عصطفى زيادة : حملة لويس على مصر ص ١٣٨ .

يقودها أخوه الملك والتي كانت تنتظر عون الفرسان لاقامة جسر تعبير عليه ، وكان هذا غوررا دفع روبرت شمنه غاليا ، فان الظاهر بيبرس قائد القوات المصرية بالنصرة أفسح الطريق للمهاجمين ، وأكمن فرقا من جنده في مناطق خاصة ، وأمر الأهلين بالاختفاء في بيوتهم مؤقتا ، وفي لحظة مفاجئة صدرت الأوامر بالانقضاض على الصليبيين ، واذا بهؤلاء بين وائل ينسب عليهم من الجنود ومن الأهلين جميعا ، حتى أصبحت البيوت والأرقة مقابر لعدد كبير منهم ، وسقط روبرت نفسه قتيلا في أحد شوارع النصورة .

على أن الملك لويس استطاع بين صخب المعركة أن يقيم الجسر المطلوب ويعبر بالمشاة إلى معسكر جديلة ، وهكذا وقف الجيشان وجهًا لوجه ، وقف الصليبيون في جديلة ، ووقف المصريون في النصورة .

ولم يتمكن الظاهر بيبرس بالنصر الذي أحرزه مع الفرسان ، بل راح يهاجم معسكر الملك في جديلة ، وقد أحرز نصرا مؤزرًا في هجماته ، وفي أحدي معاركه القارية أوشك شارل كونت آنجو الأخ الثاني للملك لويس أن يسقط في أيدي المصريين ، لو لا أن الملك غامر فانقض إليه وأنقذه ، ويعرف هذا اليوم بيوم جديلة الكبرى ، وقد حدث في ٢١ فبراير سنة ١٢٥٠ .

توران شاه يقود المعركة الفاصلة :

وحضر الملك توزان شاه عقب ذلك ، وتغيرت خطة المعركة فأدارها توران شاه بحرثة ، وقد استطاع أن يقطع التموين عن الجنود ، حتى عز عليهم الطعام ، وحاول الملك لويس التاسع أن يلجمأ لوسيلة المفاوضات ، ولكن أحدا لم يسمع اليه ، وحاول أن ينسحب بجيشه إلى دمياط ، ولكن المصريين سدوا عليه المنفذ ، وحدثت عدة معارك بحرية انتصرت فيها القوى المصرية انتصارات باهرة ، وسقط أكثر جنود الصليبيين قتيلى وجراحى ، كما مرض كثيرون منهم بسبب الأوبئة

التي انتشرت والجماعة التي تقشت ، ولم يقبل المصريون الا التسليم دون
قيد ولا شرط .

لاستسلام وأسر الملك وصحبه :

وعلا فجأة صوت جاويش فرنسي اسمه مارسيل بأن الملك لويس أصدر أوامره بالتسليم العام للقوات الأيوبيية ، ولم يُعرف بالضبط الدافع الذي دفع ذلك الجاويش لهذه الصيحة ، على أن الأحوال كانت مهيأة لهذا التسليم ، ولم يقبل الملك على أي حال أن يستسلم وداعم غنه جمع من الخيالة الصليبية بقيادة كونت شاتيون ، ولكن القوى المصرية حكت هذا الدفاع وقبضت على الملك وعلى أخويه شارل كونت آنجو والفونس كونت بواتيه وجماعة كبيرة من باروناته وجاشيته ، وساق الملك إلى ذار ابن لقمان حيث سجن ، أما مجموعة الأسرى وعدتهم عشرة آلاف من الفرسان يضاف إليهم كبار البارونات وعدد هم كبير فقد وضعوا في خيمة كبيرة تحت حراسة مشددة ، ودارت المباحثات بعد ذلك للجلاء دون قيد ولا شرط على أن يدفع الصليبيون فدية كبيرة لتحرير الملك السجين . ودفع الملك الجزية وأفرج عنه ، وانسحب الجيش من دمياط خائبا (١) .

وعد ونكث :

وقد تعهد لويس التاسع في اتفاقيته مع الملاليك الا يقصد شواطئ الإسلام مرة أخرى ، ولكن ثسق عليه عقب إطلاق سراحه في مايو سنة ١٢٥٠ أن يعود إلى بلاده مباشرة وقد لطخت سمعته فضيحة المزيمة وعار الأسر ، واختار أن يقصد بلاد الشام أولاً عسى أن يتمكن من القيام ببعض الأعمال الصليبية التي تعيد إليه ماء وجهه ، وكان الصليبيون في بلاد الشام وقتئذ أحوج ما يكون إلى زعيم قوى ينظم صفوفهم ويحل

مشكلاتهم وبيث فيهم روح الأمل والثبات، ولذلك فرحوا بمقدم لويس التاسع إليهم ورحبوا به ترحيباً كبيراً (١) . وقد قضى لويس التاسع بالشام أربع سنوات (مايو ١٢٥٠ - أبريل ١٢٥٤) عمل فيها جاهداً لتصفية الخلافات بين أمراء الصليبيين بعضهم والبعض الآخر من ناحية، والاحتفاظ بكيان الصليبيين وسط الخلافات التي تأججت بين بني أيوب في الشام والماليك في مصر من ناحية ثانية، ثم القيام بمبادرات هامة مع التتار من ناحية ثلاثة، ولكن كل ذلك لم يأت بطائل، فقاد الشام وهو مدفوع بعصبية مجنونة ضد المسلمين، فهاجم تونس قبل أن يصل إلى بلاده ومات بها ودفن في أحدى مدنها وهي مدينة قرطاجنة (٢) .

(١) الدكتور سعيد عاشور : العصر الماليكي في مصر والشام من ٥٦ .

(٢) التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية للمؤلف ج ٤ من ١٧٢ .
ومن الكتب المفصلة الدقيقة عن الحرب الصليبية السابعة ينبغي أن نذكر كتاب «حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة» لاستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة ، وهو مرجع حائل ، انتفعنا به كثيراً فيها اوردناه عن هذه الحرب .

- ٧٤ -

الحروب الصليبية تقرب من نهايتها

قتلت في مكان آخر من كتابي (١) إن أوروبا قد توقفت عن مدّ يد العون للأمراء الصليبيين في فلسطين بمقربتهم يهودون تحت أقدام المسلمين ، لسبب ظاهر هو ظهور المغول في التاريخ ، وستامهم بحركة التدمير للعالم الإسلامي ، وإراقتهم دماء المسلمين ، وتنكيلهم بالملائكة والعلماء ، ولهذا أحسست أوروبا أن المغول يقومون بالدور الذي كانت أوروبا قد اضطاعت به ، وهو القضاء على الإسلام والمسلمين بشكل يشبه في بشاعته وقسوته اتجاهات الغربيين .

ولهذا توقفت أوروبا عن مساعدة الصليبيين بالشرق ، وإذا كان المسلمون سينتصرُون عليهم فإن هذا ليس كبير خطر ، فالمهم هو القضاء على الإسلام والفكر الإسلامي .

وعلى هذا كانت حملة لويس التاسع آخر عون ذي بال قدمته أوروبا لحملة الصليب ، وترك هؤلاء الساكين تحت رحمة المسلمين ، ولما حقق المسلمون النصر ضد المغول في عين جالوت وفي المعارك التي تلتها يئس الصليبيون من الانتصار على المسلمين الذين أوتوا النزاشم بقوه المغول الرهيبة التي كان الصليبيون يعتقدون أنها لا تهزء .

الجهاد حتى النصر :

وهكذا إذا كانت حملات أوروبا للشرق قد توقفت ، فإنه كان على المسلمين أن يباشروا « الجهاد » كى يحرروا البلاد التي كانت لا تزال في أيدي المسيحيين الأوروبيين ، وحدث بعد موقعة المنصورة أن قتل توران شاه فكان آخر سلاطين الأيوبيين ، وانتقل السلطان إلى شجرة الدر

— ٧٨٥ —

التي كانت زوجة أبيه الملك الصالح نجم الدين يعاونها عز الدين أيشك ، وبهذا انتقل السلطان إلى الماليك ، وتم لهم السلطان عقب التخلص من شجرة الدر ، وتحمّل الماليك بذلك عبء القضاء على بقايا الغاصبين ، وكان في الماليك سلاطين جديرون بحمل هذا العباء الكبير .

وقد كان في وسع الماليك أن يعجلوا بطرد الصليبيين ، ولكن عاملًا مهما ، أتاح لهم البقاء بالشام حوالي أربعين سنة بعد سقوط بيت المقدس ، ذلك أن المغول كانوا قد بدأوا زحفهم على العالم الإسلامي كما قلنا من قبل ، ثم أسقطوا الخلافة العباسية سنة ١٢٥٨ م وراحوا يحرقون المدن ويدمرون الحضارة الإسلامية ، ووصلوا في زحفهم إلى الشام متوجهين إلى مصر ، وكان الماليك يدعون العدة لاستقبالهم في معركة حياة أو موت ، لا بالنسبة لمصر فقط بل بالنسبة للعالم الإسلامي كله ، ومن ثم فقد أجل الماليك صراعهم مع الصليبيين ، وكان هؤلاء مشغولين في خلافتهم الداخلية فلم يستثروا ضد الماليك ، وتقابل الجيش المصري بقيادة البطل السلطان قطز وبجواره « الظاهر بيبرس » في ٢٥ من رمضان سنة ١٢٦٠ بالغول في عين جالوت ، فاندحر المغول وانهزموا هزيمة ساحقة ، وأتيحت الفرصة للماليك ليستذيروا الصليبيين ويصارعونهم للقضاء عليهم ،

وفيمما يلى أبرز السلاطين الذين قادوا الجيوش الإسلامية و Paximosa معارك حاسمة ، قضوا فيها على بقايا الصليبيين المعتدين .

الظاهر بيبرس

بطل عظيم من الأبطال الذين أنجبتهم مصر ، وسلطان من خيرة سلاطين الماليك ، له في كل جانب موهبة ، وفي كل مجال قدرة ومكانة ، فأيادييه واضحة في الصراع ضد الصليبيين ، ضد المغول وأصلاحاته الداخلية ناطقة بجهده ومكانته .

ويقول عنه ابن خلكان : كان ملكاً على الهمة ، شديد البأس لم نر في هذا الزمان ملكاً مثله في عزمه وهمته (١) .

ويقول عنه صاحب كنز الدرر : إن بيبرس كان ملكاً هماماً شجاعاً مقداماً لا يرهب الموت كثيراً الحيل ، حسن السياسة ، جميل التدبير ، ميمون الحروب ، مؤيد العزم (٢) .

ويقول عنه استانلى لين بول : كان شجاعاً يطمع في أن يكون نظيراً لصلاح الدين (٣) .

ويقول عنه بزوكلمان : إن محمد بيبرس كان كعهد الرشيد / وصلاح الدين أحد عصّور الإسلام الذهبية (٤) .

ماذا فعل بيبرس مع الصليبيين ؟

سنورد فيما يلى لحات عن معاركه الكثيرة الرائعة :

قيسارية :

— في سنة ٦٦٣ هـ = ١٢٦٥ م خرج بيبرس إلى قيسارية الشام ، وضربها ضرباً استسلامت عقبه ، ودك ما بها من حصون .

وكان لويس التاسع قد حصنها عندما كان بالشام ، ولكنها لم تستطع الصمود أمام قوة مصر ، فسقطت في أيدي جنود بيبرس .

حيفا :

وبعد فترة وجيزة هاجم حيفا وقلعتها وأمر بتدميرها ، وقتل الكثيرين من حراسها ، وفر الآخرون إلى السفن الرئيسية بالميناء .

(١) وفيات الأعيان ح ٤ ص ١٥٥ .

(٢) كنز الدرر : ح ٨ ص ٢١٤ .

The Story of Cairo p. 214 (٣)

(٤) تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٣ ص ٢٣٥ .

أرسوف :

ثم سار ببيرس الى قلعة أرسوف البحرية ، وهى الى الجنوب من قيسارية ، وبعد حصار طويل استسلمت القلعة له .

صسفد :

ثم سار ببيرس الى صسفد ، وحاصرها قرابة شهر ، واستولى عليها ، وخرّب قلعتها ، وطلب الفرنجية منه الأمان على أن يخرجوا بدون سلاح أو مال عائدين الى أوروبا ، فوافقهم السلطان على ذلك . وكان كل من يخفي منهم مالاً أو سلاحاً يدفع ذمه نظير هذا الغدر ، وبعد أن استولى على القلعة أعاد بناءها ، وكتب على المجدaran عبدة نارة تصور مدى سروره بانتصاره على الصليبيين فيها ، وهذه العبارة هي :

عماد الدين الظاهر ببيرس الذي حوال
الكتائب الى مساجد ، ورنين النواقيس الى
أنصوات المؤمنين ، والهممة بالانجحيل
الى ترتيل القرآن ..

يافا :

وسار ببيرس بعد ذلك الى يافا ، وكانت شديدة التحصين ، وقد بدأ مسيرته ليلاً فلما أصبح الصباح كان الظاهر بجيشه يدق أبوابها وعجز جنودها على المواجهة بعد هذه المفاجأة البخطيره ، وأخذوا يولون الأدبار ، فاندفع جنود ببيرس الى المدينة ودخلوها ، وطلب سكانها الأمان فوافق السلطان على ذلك ، وخرجوا من يافا الى سفنهم التي حملتهم الى عكا ، وأمر الظاهر بهدم قلاع يافا .

حسن الكرك :

ثم استولى ببيرس على حصن الكرك ، وللهذا الحصن في تاريخ النهضـال أهمية عظمى من عهد صلاح الدين الأيوبي :

امارة أنطاكية :

وقد هيأت له هذه الانتصارات أن يتوجه بضريبة شديدة ضد امارة أنطاكية ، وكانت أقوى الإمارات الصليبية الباقية بالشام إذ كانت تلقى امدادات من أوربا ، ثم لأنها كانت قد عقدت معاهدة حربية مع المغول ضد المسلمين ، وقد حاصرها الظاهر بيبرس واستفاد حصارها جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً ، ولكن بيبرس تغلب عليها ، وأحال مدتها أطلالاً ، وكان لسقوطها صدى ضخم ، إذ أدركـت الجيوب الباقية للصلبيين عدم استطاعتها البقاء في وجه المصريين ، فطلبت عقد صلح مع السلطان ، وكان ذلك الصلح بمثابة راحة واستعداد لجولات أخرى قام بها السلاطين المصريون بعد بيبرس .

ومما يذكر لبيبرس أنه كان يستعمل الزعيم النفسي ليقلق أعداءه بالإضافة إلى قوته العسكرية ، ومن ذلك أنه كتب إلى بوهيموند أمير أنطاكية ، وكان هذا عند سقوط امارته مقيناً في طرابلس ، فأراد الظاهر أن يدمر نفسيته حتى لا يفكر في استرداد امارته ، فكتب له خطاباً طويلاً جاء فيه :

نزلنا أنطاكية في مستهل رمضان وخرج عساكرك
ثم بارزة فكسروا ، وتناصروا ثما نصروا ،
وفتحناها بالسيف رابع شهر رمضان ، وقتلنا كل
من اختerte لحفظها والدفاع عنها ، فلولا رأيت خيالك
وهم صرعى تحت أرجل الخيول ، وديارك والنهاية
فيها تصمول ، وأموالك وهي توزن بالقططار ،
وجواريك وكل أربع منها تبعن بدینار ، ولو رأيت
كنائسك وصلبانها قد كسرت ، وقوزـ البطارقة
قد بُعْثِرَت لتيقنت أن قوة الله أعادت
أنطاكية إلى أهلها إلى الأبد ، وتركـت بدون عنون
او مدد .

وبالاخصافة الى البلاد التي فتحها الظاهر بيبرس كانت هجماته هنا وهناك لا تتقطع ، فلم يخل يوم من أيامه من ضربة للصلبيين وتدمير سلطانهم ، وكان أحيانا ينال النصر كاملا ، وأحيانا يتبرأ الخوف والرعب ، تمهدأ لهجوم آخر تكون فيه النهاية للأعدائه ، وقد وصف الظاهر بيبرس هذه السياسة بقوله : أجيء عاما لأرعى زر عكم وأخرّ بـ دياركم ، ثم أعود في العالم التالي اليكم الأخذ أرواحكم .

ولا شك أن الذي يقرأ من المسلمين سيرة الظاهر بيبرس في عصرنا الحاضر ، يتجه إلى الله خائسـا متضرعاً أن يمنحكـا قائدـا في صـلبـته وهوـبـته ، ليستعيد الأرض المسيحية ، ولـيـقـضـي على أـعـدـاءـ اللهـ الذـينـ فـجـرـواـ فيـ فـلـسـطـينـ مـحاـولـينـ الـاسـتـقـرارـ فـيـ أـرـضـهـمـ ، وـدـيـارـهـمـ بـدـيـارـهـمـ .

قلابون

بعد الظاهر بيبرس جاء ابنه بركة خان وسلمش ، ولكن عصرهما كان قصيراً للغاية ، كان عصر الأول سنتين والثانية سنة ، ثم جاء إلى الحكم واحد من أبطال المسلمين هو قلابون . وفي عهده أغاث المغول على حمص في أول عهد قلابون ، فزحف لهم السلطان وأوقع بهم هزيمة ساحقة مما جعلهم ينكحشون طيلة عهده ، وبهذا تفرغ قلابون للصلبيين ، وكانت أولى معركة ضدهم معركة اللاذقية التي حاصرتها جيوش مصر حتى استولت عليها ، ثم جاء بعد ذلك دور امارة طرابلس وهي آخر امارات الصليبيين في الشرق .

أهارة طرابلس :

كانت طرابلس محصنة تحصيناً قوياً مكنتها من أن تصمد حتى ذلك الوقت ، وما مكّن لطرابلس أن البحر يحيط بها من أكثر الجهات ، وبالتالي تتلقى فيض المعونات من أوروبا ، ولكن قلاؤون اختار الوقت المناسب ، للهجوم ، وفاجأ حرباس طرابلس مفاجأة كانت شديدة التأثير عليهم ، فقد جاءهم من طرق لم يتوقعوها ، وبعدها وعدة لم يحسبوا لها أي حساب .

وحاصر الجيش المصري طرابلس ، وبدأ يخربها بالمجانق ، وأخذ بعض الجيش في نصب الأسوار ، ولم تستطع طرابلس أن تصمد أكثر من شهر ، ثم سقطت بعد أن دمرتها قوات قلاؤون وخربت حصونها ، ودخل المصريون المدينة وأسروا عدداً كبيراً من جنودها واستسلم السكان .

وعقب سقوط طرابلس أرسل السلطان قلاؤون إلى الملك المظفر صاحب اليمن رسالة توضح فزع الصليبيين من هجوم جيش مصر ، وقد جاء فيها : قد تركتم مسلوبين المزايا ، مشفولين بالرزايا ، اذلتم عدم النسي ، وأصارتم الخوف بدون نصي .

ولم يبق للصلبيين إلا صور وبيروت وعكا ، وقد حاول قلاؤون أن يستولى على هذه المدن ولكن المنية عاجله وهو في الطريق .

الأشرف خليل ومقدمة إمساق عكا

قاد الأشرف خليل الجيش الكبير الذي كان أبوه قد أعدّه وزحف على عكا آخر مدينة محصنة بأيدي الصليبيين ، وقد تركز بها المنسحبون من الصليبيين من كل مكان ، ولذلك كانت منيعة وقوية ، وقد حاصرتها جيوش الأشرف خليل وألقت عليها وأبلأ من أسلحة الدمار ، ويقدّم شاهد عيان من المؤرخين صراع المسلمين حول عكا بقوله : حارب المسلمون

- ٦٩١ -

مرة بالأبراج وأخرى بالتجنيقات ، ورادفة بالدبابات ، وأحياناً بالكباش وآونة باللوالب ، وطوراً بالتنقب وآنا بضم الخنادق وآونة بالقرص أو نصب السالم بالاضافة إلى الزحوف في الليل والنهار من البر أو من فوق السفن (١) حتى ظنوا أن القيامة قد قامت ، ولم تجده عكا بـ^{هـ} من التضوع للقوة فاستسلمت ، ودخلها جنود المغولين ودمروا حصنها وأسروا أكثر رجالها .

وباستسلام عكا استسلمت صور وبيروت دون مقاومة فسلمتا من التخريب ، ودلت بذلك دولة الصليبيين في الشام ، وانتهت فصول هذا الصراع الطويل .

ملاحة الصليبيين لخارج الحدود

الناصر محمد بن قلاوون :

وفي عهد الناصر حاول الصليبيون انطرودون والفارثون من الشام الهجوم على الساحل الاسلامي متذمرين بعض الجزر في البحر المتوسط مراكز لهم ، وقد تصدى الناصر لهذا العدوان وأعد أساطولاً بحرياً قوياً ، لم يكتف بالذماع عن الساحل الاسلامي ، وإنما هاجم مراكز العدوان حتى أسكن صوتها .

برسيباي :

وقد حدث في عهد برسيباي حدث كبير هو استيلاء المماليك على جزيرة قبرص وتهديد جزيرة رودس ، وكانت جزيرة قبرص قد خضعت لسلطان ريتشارد قلب الأسد ، وأصبحت قاعدة لإمداد الصليبيين بالمعونة العسكرية ، وبعد طرد الصليبيين من الشام أصبحت جزيرة قبرص ملحاً

(١) نقل عن « الاسلام والحضارة العربية » للأستاذ محمد كرد على ج ١ ص ٣٠٢ .

للسراذم الأخيرة من الصليبيين الذين طردوا من الأردن الإسلامية ، كما أصبحت الجزيرة ملحاً للقراصنة ولأعداء العرب والمسلمين ، ومن هنا بدأ التوتر يظهر بين قبرص ودولة المماليك ، وهاجم التبرصيون سواحل مصر والشام عدة مرات في مطلع القرن الخامس عشر الميلادي ، وقد اضطر برسيبى أن يفكر في احتلال قبرص ، فأرسل لها بضم سفن لجس نبض القوة بالجزيرة ، فعادت هذه السفن بالغنائم والأسرى مما شجع برسيبى على الزحف للاستيلاء على الجزيرة ، وقد تم ذلك سنة ٨٣٠ - ١٤٢٦ م وخرّت الجزيرة أمام قوى المصريين وأسر ملكها وجىء به إلى القاهرة ، وظل بها حتى افتدى نفسه بفدية كبيرة ، وبقيت الجزيرة تحت سيطرة المماليك ، وظلت تدفع جزية سنوية حتى دخل العثمانيون مصر .

أما رودس فقد حاولت مناصرة جزيرة قبرص ، ولكن قوى مصر تصدت لها في عهد السلطان جقمق وغزتها ثلاثة مرات حتى أستكتت صوتها .

أسباب فشل الحروب الصليبية

أعلنت أوروبا كلها العداء للشرق ، واختارت الوقت المناسب لتعلن العداء وأهدافه ، ووضعت أوروبا كل إمكانياتها وكل شبابها في خدمة هذا الهدف ، ولكن الفشل كان نصيبيها وآتى من هذه الجولة الطويلة بخفي جنحين كما يقول المثل العربي ، ويختلف الكتاب : الفرنجة في ذكر الأسباب التي أدت لهذا الفشل الذي تلاه الحروب التي قضت دون نتيجة على مئات الآلاف من القتلى ، والتي دمّرت الكثير من العمارة طيلة قرنين حالكين من الزمان ، وسفقتيس فيما يلى خلاصة ما يذكرون من أسباب :

سوء سياسة الكنيسة :

فيري بعض الكتاب أن الفشل كان نتيجة لسياسة الكنيسة التي كانت تضيع مصلحتها فوق كل مصلحة ، وكان لا يهمها النصر بمقدار ما يهمها أن تخفي هي نتائجه ، ومن هنا لم تبارك التنصير العجيب الذي حصل عليه فريدريك الثاني ، وأعلنت حberman الامبراطور المتصر ، وحاصرت روحياً الأماكن المقدسة فتوقف سيل الحجاج إليها طيلة إقامة فريدريك بها .

أراء الإقطاع :

ويلى بعض الكتاب اللوم على أراء الإقطاع الذين اهتموا بمصالحهم الخاصة وتكونن إمارات يحكمونها ويورثونها أولادهم ، أكثر من اهتمامهم بالصالح العام الأوروبي والسيحي ، فلم يكن الصليب إلا وسيلة للتغريب بالجماهير ، كأنه غطاء يخفون به أطماعهم الشخصية ، ولكن هذا الإحساس اتضاح لكثير من المسيحيين فقلل من حماستهم للحرب .

التجار الأوروبيون اتجهوا للمال :

وجماعة ثلاثة من الكتاب تنسب المزيمة للتجار الأوروبيين الذين أقدموا في كثير من الحالات على عقد معاهدات تجارية مع المسلمين ، إذ كان

الهدف الاقتصادي هو أهيف باعث لهم على خوض هذه الحروب والتشجيع
عليها ، فلما رأوا الهدف يتحقق بطريق المعاهدات مع المسلمين آثروا
السلامة وخذلوا ذويهم من المسيحيين .

الصلبيون يكتفون بزحف التقا :

ومن أسبابه فشل-الخروب-الصليبية زحف التتار المدمر الذي بدأ على العالم الإسلامي في مطلع القرن الثالث عشر ، وراح يهدم المدن ، ويلهب السيووف في رقاب المسلمين . ويهدم الحضارة الإسلامية . فقد كان الصليبيون يعملون لنفسهم الغالية ، فلما رأى الأوروبيون مزحف التتار يحقق لهم نفس الهدف أغناهم ذلك عن مواصيـلة مذل الجهد من جانبـهم ، وقنعوا بهـذا السيف الحاد الذي تسلط على رقاب أعدائهم المسلمين . فلم يقدموا متـيـدا من العون للصلـبيـين بالـشـرق (١) .

وقد عقد الصليبيون حلفاً مع التتار ليعاونوا معاً ضد المسلمين ، ولكن التتار كانوا يؤدون المهمة التي أرادها الصليبيون ولو بدون حلف أو مساعدة من أحد ، ولذلك رأى الصليبيون أن التتار وحدهم يوفون بالغرض ، فتركوا الميدان لهم ، وتوقف عنون أوربا لفتيانها المعذبين (٢) .

تجمع المسلمين وقت الشدة :

ومن أسباب فشل الصليبيين تجمّع المسلمين من مختلف الأحياء
لواجهتهم ، وسرعان ما انتصروا للصليبيين أنهم ليسوا فقط أمام مصر
وسوريا ، بل أمام القوى الإسلامية من مختلف البقاع .

ومن أسباب فشل الصليبيين في هذه الحروب تلك الحماسة التي

⁽¹⁾ انظر المجتمع الاسلامي للمؤلف ص ٢٩١ - ٢٩٢.

Kirk : A Short History of the Middle East p. 79. : ظاهر (۲)

— ٧٩٥ —

أظهرها المسلمون ولم تكن في حسبان **المسيحيين** • فلم يكدر المسلمون
يئذ من في الشوط الأول من هذه الغزوـب حتى تناسوا إلى حد كبير
ما بينهم من خصومات ، وتجمـعـت كلـعـتمـاـتـ لـاستـعـادـةـ الـأـرـضـ التـىـ
اقـنـدوـهـاـ ،ـ وـيـتـضـعـ هـذـاـ مـنـ مـيلـ المـصـرـيـنـ إـلـىـ نـورـ الدـيـنـ زـنـكـيـ وـتـرـحـيمـ
بـصـالـحـ الدـيـنـ الـأـيـوبـيـ ،ـ وـمـيلـ حـلـمـ حـمـشـقـ لـنـورـ الدـيـنـ وـتـسـلـيمـ الدـيـنـ إـلـىـ
كـمـاـ يـتـضـعـ فـيـ ظـرـوفـ كـثـيرـةـ تـقـلـبـ الـجـانـبـ الـعـامـ فـيـهـاـ عـلـىـ الـمـصـالـحـ الـخـاصـةـ ،ـ
وـوـقـفـتـ الـجـمـاهـيرـ تـقـرـرـ مـنـ يـعـدـ لـتـجـمـيعـ الـكـلـمـةـ ،ـ وـتـخـذـلـ مـنـ يـسـعـيـ لـصـالـحـ
ذـاتـيـةـ كـمـاـ رـأـيـناـ مـنـ قـبـلـ •

نتائج الحروب الصليبية

فشل الصليبيون في استعمار الشرق خلال العصور الصليبية ، ولكنهم على العموم كسبوا الحرب مع المسلمين أوواياً من الفوائد الثقافية والدينية والاجتماعية ، وقد دون مؤرخو الفرنجة هذا الكسب ، ومنهم نقيس العبارات الآتية :

اقتباس الثقافة الإسلامية :

يقول Kirk إن للحروب الصليبية أهمية لا تقدر في تاريخ الثقافة بأوروبا ، بسبب ما كان لها من عظيم الأثر في تقييد ذهان الناس إلى مستوى الحضارة في الشرق الأوسط ، ذلك المستوى الذي كان يفوق حضارة الغرب بكثير ، ولم تقد بلاد شرق البحر المتوسط من معارف الصليبيين شيئاً يذكر اللهم إلا في بعض المنشآت والخطط الغربية (١) .

ويقر Emerton (٢) أن الثقافة التي حصل عليها الصليبيون من المسلمين انتزعت الصليبيين من الحياة البربرية ودفعتهم قدماً إلى عالم الحضارة ، ويُرجع هذا الباحث تاريخ اقتباس الأوروبيين من المسلمين إلى عهد شرماز، مقرراً أنه منذ ذلك العهد أخذت حضارة المسلمين الأصيلة ، وحضارة اليونان التي أعاد المسلمون إبرازها في حالة جديدة ، أخذت طريقها إلى أوروبا ، ولم ينقطع اقتباس الأوروبيين من المسلمين طيلة القرون التي سبقت الحروب الصليبية ، وكان هذا الاقتباس عن طريق لقاء المسلمين بالأوروبيين في صقلية وأسبانيا ، فلما جاءت الحروب الصليبية كانت سوريا ميداناً لهذا اللقاء ، وبخاصة في فترات السلم والمعاهدات ، حيث زاد الاختلاط وكثير التعامل ، وبالتالي كثرت الاقتباسات العلمية ..

^١ A Short History of the Middle East p. 71. (١)

Midiaevel Europe p. 393. f. (٢)

وفي الناحية الأدبية كان اقتباس الصليبيين أكثر وأوسع ، فلقد أصبح الصليبي واسع الخيال كثير الحساسية ، فالبعد عن الوطن ، والتحرر الذي حصل عليه العبيد لأول مرة ، والمخاطر التي شهدها في الطريق وفي المارك ، كل هذا انعكس شعراً جميلاً وأيقونياً ممتازاً .

تصحيح فكر الغربيين عن المسلمين :

وكان الأوربيون يسمعون من القسّيس أشياء كثيرة عن المسلمين ، ولكن هاهم المسلمون أصبحوا في مرأى العين بالنسبة للصليبيين فوجدوا فيهم إنسانية عالية ، وشرفًا وشجاعة ووفاء بالوعيد ، وغيرها ذلك من الصفات التي لم يكونوا يسمعون بها وهم في ديارهم ، وقد ساعد ذلك على تكوين الناحية الإنسانية في الأوربيين ولم تكن هذه الناحية من قبل ذات بُرَاءَةَ عندهم .

أخلاق جديدة عاد بها الصليبيون :

وعندما عاد الصليبيون إلى أوروبا لم يعودوا إلى مباشرة حياتهم على النحو الذي كانوا عليه قبل هذه الرحلة ، بل عادوا بأخلاق جديدة ، وتقانة جديدة ، وتفكير جديد ، وأكثر من ذلك ، لقد ألفوا التجمّوال والرحلات ، ولم تعد حدود الاقطاع تتفّحّل أمامهم ، فراحوا في كل ربوع أوروبا ينشرون هذا الفكر الجديد ، حتى أن كثيرين منهم كان يمكن أن يُعَذَّبوا مدارس منتقلة في ربوع أوروبا .

تقليد المسلمين في التجارة والصناعة :

ومن الناحية التجارية كانت هناك علاقة كبيرة بين المسلمين والصليبيين ، إذ وضع الصليبيون أيديهم على كثير من موانئ المسلمين بسوريا ، فأصبحت هذه الموانئ مفتوحة للتجارة حتى يحصل الأوربيون على حاجياتهم ، ومن الملاحظ أن الأوربيين عجزوا عن تطوير الصناعة

بالشرق الأوسط ، بل عجزوا عن تقليد غيرائهم فيما وصلوا له من إتقان في هذا المجال ، وذلك لأن حكام الإمارات لم تكن لهم خبرة بالأمور الصناعية ، فقد جاءوا من عالم الإقطاع فلم يكن الواحد منهم يصلح إلا كملك للأرض ، وكان كل منهم حريصاً على أن يحصل على الربح دون كثير عناء ، وهكذا أصبح الصناعيون في حاجة إلى كثير من منتجات المسلمين وبخاصة إلى الأسلحة والخيول والملابس والحبوب .

صلة النقود :

وأضطرهم ذلك إلى صك النقود ، ولم تكن النقود ضرورية لهم من قبل ، إذ أن النظام الإقطاعي لم يكن يمنع الموظفين به نقوداً ، ولا مرتبات منتظمة ، بل كان يمنحهم شيئاً مادياً يمكنهم استبداله بما يحتاجونه ، ولكن هذه الحال لم تكن ممكناً في سوريا ، فالبائرون لم يكونوا ليمنحوا حاصالتهم دون أثمان يتقاضونها عند التسليم .

الإلهام والأساطير :

ويختتم Emetron (١) حديثة عن نتائج الحروب الصليبية بقوله إن حياة أوروبا اغتلت خلال الحروب الصليبية ، لأنها أقتبس من حياة المسلمين ألواناً من الفكر والثقافة ، ولا شك أن أفق أوروبا اتسع بارتباطها ببلاد الشرق ذات الإلهام والأساطير ، ولئن فشلت أوروبا في تحقيق هدفها فقد كسبت ما هو أعظم منه ، فالحقيقة أنه ليس مما أن تسيطر أوروبا على الأماكن المقدسة ، وإنما المهم أن هذا الهدف حقق مالم يكن في الحسبان وهو النهضة الأوروبية ، ولم تغفل أوروبا ، ولا عيون الأوروبيين بعد أن تفتحت هذه العيون في الشرق .

جهل الصليبيين قلل استفادتهم :

ويرى غوستاف لوبيون أن استفادة الصليبيين من علوم العرب كانت أقل مما يجب ، ويعلل ذلك بقوله : أن الجيوش الصليبية كانت جاهلة ، ولم تكن تتبالي بالمعارف ومن أجل هذا كانت عناديتها أكبر في ميدان البناء والعمارة والصناعة أكثر منها في ميدان الفكر والفن (١) .

تلמיד آماد علماء المسلمين :

ويقول هرنشو المؤرخ الانجليزي (٢) وقد خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين ، ولكنهم سرعان ما جلسوا عند أقدامهم يأخذون عنهم أقانين العلم والمعرفة . ولقد بعث أشباء الممتحن (الصلبيون) عندما رأوا المسلمين ينعمون بحضارة علمية ترجح حضارتهم رجحان لا تصلح معه المقارنة بينهما (٣) .

مقارنة :

ويقول الدكتور فيليب حتى (٤) : إن الإنكليز قضدوا الأذافي القدس وهم يحسبون أنفسهم أرفع منزلة من أهلها ، وكانوا يظلون أن أهلها وثنيون يعبدون محمدا ، ولكن ما كادوا يتصلون بهم حتى زالت الغشاوة عن عيونهم .

أما الآخر الذي تركه الفرنجة في مخيلة المسلمين فأن أسامة بن منقذ (٥) يعبر عنه بقوله : أنهم بهائم فيهم فصيلة الشجاعة والقتال لا غير .

(١) حضارة العرب ص ٣٣٨ .

(٢) علم التاريخ له رنشو تعریف الاستاذ عبد الحميد العبادي .

History of the Arabs p. 761. (٣)

(٤) الاعتبار ص ١٣٢ .

— ٨٠ —

ويقول الدكتور فيليب حتى في موضع آخر (١) : وغالب الظن أن تدابير الاستشفاء إنما انتظمت في الغرب بحواجز تصرفت من الشرق ، ففي القرن الثاني عشر ظهر في أوروبا عدد من المستشفيات ودور الصحة ، لا سيما محاجر الأمراض السارية ، بحيث يسوغ اعتبار المستشفيات الأوروبية وليدة نظائرها في سوريا .

ويقول كذلك : لقد أبدع الصليبيون حقاً في مجال البطولات والمعارك ، إلا أنهم كانوا دعاة لخيالية الأمل في مآتم الفكر وما ثاره الحضارة ، فكانوا من حيث فاعليتهم الحضارية أبعد تأثيراً في الغرب منهم في الشرق ، إذ فتحوا أمام بصائر الأوربيين آفاقاً جديدة ، صناعية وتجارية واستعمارية ، ولم يختلفوا في الشيّرقي إلا التفوار بين المسلمين والنصارى الذي لا يزال باقى الأثر حتى اليوم .

التأثير الاجتماعي :

وتتأثر الفرنجة كثيراً بغير أنهم المسلمين في اللباس ، فقد أقلعوا عن لباسهم الأوروبي وتعلقوا بالأزياء الوطنية التي كانت أدلى إلى الراحة ، واكتسبوا شيئاً من الذوق الشيق في الأطعمة والأشربة ، أخصه ما يتعلق بالسكر والتوابل ، وأثروا بذلكناهم البيوت الشرقية الطراز ، وما فيها من إيوانات واسعة ومياه جارية .

ويرى Henne - Am Rhyn's (٢) أن تطورات العصور الوسطى في شتى النواحي بأوروبا معززة إلى هذه الحروب ، فقد عملت في المحيط الديني على محو نفوذ البابية ، ناهضت الرهبة مناهضة لم يمكن أن ترجع بعدها إلى عهدها الأول ، وفي المحيط الاجتماعي والاقتصادي أدت إلى مساواة أعم بين الطبقات ، وإلى تقدم الصناعة والتجارة ، وفي ميدان

(١) تاريخ سوريا : ج ٢ ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٢) التاريخ العام من ٤٩٨ - ٥٠٠ .

- ٨٠١ -

السياسة أعقب هذه الحروب قيام الدول والحكومات المركزية ، وفي عالم الثقافة الواسع ظهر كبار المفكرين في الفلسفة بعد الحروب الصليبية وما تبعها من اتصال بالعرب ، وحتى التصوف تلون بلون العلم ، واتسع نطاق دراسة اللغات القديمة ، وازدادت خصوبتها ، واكتسبت علم التاريخ والجغرافية نشاطاً جديداً .

يرى Hans Pantz (١) أن الحروب الصليبية كانت العامل الوحيد في تقدم أوروبا وانتقالها من عهد إلى عهد .

ويرى Oman (٢) أن استخدام الدرع للفارس ولفرسه في الغرب مأخوذ عن الشرق إبان الحروب الصليبية ، كذلك كان استعمال الحمام الزاجل في الحروب شيئاً جديداً عرفته أوروبا من العرب .

نواة الاستشراق :

ووضعت الحروب الصليبية نواة الاستشراق ، إذ اتجه الرهبان لدراسة اللغة العربية والفكر الإسلامي لمعرفة اتجاهات المسلمين في مختلف الشئون ، وقد أُسست كلية للرهبان سنة ١٢٧٦ م . في ميراما لدراسة اللغة العربية ، كما أنشئت الكراسي للغات الشرقية في باريس ولوغان (٣) .

الإرساليات والتبيشير :

ولجا المسيحيون للاعتماد على الإرساليات المسيحية للتبيشير بين المسلمين ، فقد اقتنع رجال الفكر بفشل الحروب ، واحتفاق الوسائل

Kulturgeschichte der Kreuzzuge. (١)

Oman C. W. The Art of War in the Middle Ages p. 112. (٢)

Barker : The Legacy of Islam p. 125. (٣)

- ٨٠٢ -

العسكرية في معاملة المسلمين ؛ فأخذوا يركزون الاهتمام على الوسائل السلمية ، ومن مؤسساتهم في هذا المضمار مدارس الفرنسيسكان والدومنيكان التي أنشئت في أوائل القرن الثالث عشر في سوريا وتنتسب الأولى إلى القديس فرنسيس والثانية إلى القديس دومينيك (١) ، وكان المبشر يشعد لهذه المهمة قبل أن يرسل لمباشرتها ، ومن أهم وسائل اعداده ، تعليم اللغة العربية و شيئاً من الدراسات الإسلامية ، وأصبح ذلك دستور التبشير إلى العهد الحاضر .

نهاية النظام الإقطاعي :

وكان النظام الإقطاعي من أهم الدوافع للحروب الصليبية ولكن النظام الإقطاعي انتهى تقربياً مع انتهاء هذه الحروب ، فقد أدرك الصليبيون أن الدول أبقى وأقوى من امارات الإقطاعي ، وبخاصة أنهم أدرکوا أن عدم التجانس في جيوشهم وقلة الوحدة في قيادتهم كانت من أسباب هزائمهم أمام الجموع الإسلامية ، ومن ثم بدأ تظهر الدول ، واتجهت هذه الدول إلى نوع من الوحدة الأوروبية لا يزال واضح الأنثر في حياة أوروبا .

تحرر رقيق أوروبا :

ومما يتصل بالقطاع الأوروبي كذلك نذكر أن الحروب الصليبية كانت عاملة هاماً من عوامل تحرير رقيق القطاع ، فالذين تتحققوا بالجيوش الصليبية من الرقيق نالوا حريةهم كما ذكرنا من قبل ، وقد أشاع هذا الوضع فكرة إمكانية التحرر للعبيد ، وبخاصة أن الصليبيين لم يجدوا أرقاء في الجيوش الإسلامية ، ووجدوا فكرة التحرر سائدة في الشرق بوسيلة أو بأخرى ، من كان الرق قد فرض عليهم ، ثم إن مثلاً القطاع باعوا بعض اقطاعاتهم ليُعِدُّوا أنفسهم للمساهمة في الجيوش الصليبية ،

(١) غلبيب حتى : تاريخ سوريا ج ٢ ص ١٣ .

وباعوا أحياً لسكان الأقطاع حريتهم ، وبذلك أصبح شراء المدن لحرفيتها مبدأ عاما ، فقامت مدن مستقلة ، وأصبح ارتباط هذه المدن بملك فرنسا مثلًا ارتباطاً مباشراً وليس عن طريق مالك الأقطاع (١) .

بروز سلطان الملوك أو أمراء الاقطاع :

ولعل مما يتصل بذلك أن نذكر أن أمراء الاقطاع في فرنسا وإيطاليا أسهموا في الحروب الصليبية أكثر مما أسهم أمراء الاقطاع في إنجلترا وألمانيا ، وقد نتت عن ذلك فيما يتعلق بفرنسا وإيطاليا بروز سلطة الملك على حساب انحصار سلطة أمراء الاقطاع ، وحدث عكس ذلك بالنسبة لألمانيا وإنجلترا فإن ملوكها تورطوا في هذه الحروب دون أمراء الاقطاع ، مما قوى نفوذ المرأة على حساب سلطان الملوك ، وييرى بعض الباحثين (٢) — كنتيجة لذلك — أن أصول دستور إنجلترا السياسي المبتنى ترجع إلى حوادث الحروب الصليبية .

وقد وجد على الشام أمراء الاقطاع لتكوين ثروات لهم عن طريق الزراعة في أرض الشرق الخصبة الواسعة ، ولكن الحروب المستمرة حالت دون تطور الزراعة وكسب المال عن طريقها ، ولذلك لجأ كثيرون من الصليبيين إلى إنشاء المدن والاشتغال بالتجارة لكسب المال عن طريق التجارة ، فكان إنشاء المدن التجارية من نتائج هذه الحروب ، وقد ظهرت عملة مشتركة يمكن أن تستعمل في البلاد الإسلامية ، وفي إمارات الصليبيين ، بل في أوروبا نفسها ، وكانت هذه العملة من عمل الصليبيين وتحمل بعض آيات قرآنية كما تحمل التاريخ الهجري (٣) .

(١) انظر حضارة العرب لغوفستاف لوبيون : ص ٣٤٥ .

(٢) غوفستاف لوبيون : حضارة العرب ص ٣٣٦ .

The Legacy of Islam p. 621. (٣)

- ٨٠٤ -

عداء صافر من القسطنطينية :

ومن نتائج الحروب الصليبية أن المسلمين رأوا في القسطنطينية عدوا يجب التغلب عليه وازالته من الطريق ، فالقسطنطينية هي التي استعانت بالصليبيين ضد المسلمين ؛ وهي التي مهدت لهم الطريق وأمدتهم بالوالان من العون في مواجهة هذه الحروب ، وعلى هذا بدأت حماسة المسلمين التي انتهت باسقاط العاصمة الكبيرة على يد الأئمَّة العثمانيين بعد ذلك بحوالي قرن ونصف (سنة ١٤٥٣ م) وانتهت بذلك الحروب حول القسطنطينية ، تلك الحروب التي استمرت حوالي ثمانية قرون .

نواة التجسس :

ومن نتائج الحروب الصليبية أن المسلمين أدركوا أن هزائمهم الأولى كانت بسبب جهلهم بمعرفة أخبار عوهم ، في حين كان العدو يعرف أخبارهم بدقة ولذلك عمل المسلمون على تلافي هذا النقص فأصبحوا أكثر عناية باستقصاء أخبار الصليبيين بحيث لا تفوتهم صغيرة ولا كبيرة من أحوالهم ، فلم يعد يخلو مكان من صاحب خبر ويريد ، بحيث لم تعد تتفى على المسلمين أخبار الأشخاص والأدلة ، وكان ذلك من الأسباب التي حققت انتصارات المسلمين فيما بعد (١) .

أضرار لحقت بال المسلمين

تدمير الكثير من المدن الإسلامية :

ولكن وجود الصليبيين بهذه البلاد مدة قرنين من الزمان عاد عليها بأبلغ الأضرار لما اقترن به انتلاؤهم النهائي عنها من تدمير بعض المدن العظيمة أمثال أنطاكية وطرابلس وعكا .

ويزيد بعض الباحثين إلى هذه الحروب مسؤولية الانهيار الذي

(١) محمد كرد على : الإسلام والحضارة العربية ج ١ من ٢٠٦ .

تعرضت له البلدان العربية في أواخر العصور الوسطى بعد أن استنفدت هذه البلدان جهودها في الدفاع عن كيانها ، وكرست مواردتها ونشاطها للقضاء على الأخطبوط الصليبي الذي شُبّكَ أقدامه في بقعة بمثابة القلب من الوطن العربي ، وأخذ يسعى من ذلك المركز المتوسط إلى تهديد بقية الشام والعراق ومصر والجaz ، فضلاً عن المغرب والأندلس (١) .

الاستعمار :

ومن النتائج القاتمة للحروب الصليبية أنها فتحت عيون الأوروبيين للاستعمار ، فقد كانت هذه الحروب أول تجربة من الاستعمار الغربي قادت بها الأمم الأوروبية خارج أوروبا لتحقيق مكاسب اقتصادية واسعة النطاق ، وقد بقيت الأطماع الاستعمارية حتى اليوم .

عدم التسامح :

ومن أشأم نتائج الحروب الصليبية أن ساد عدم التسامح العالم عدة قرون ، وأن صبغته هذه الحروب بصبغة القسوة والجور وهو مالم تعرفه ديانة من قبل خلا اليهودية ، أجل ، كان العالم قبل الحروب الصليبية يعرف الشيء الكثير من عدم التسامح ، ولكن نذكر أن كان عدم التسامح يصل إلى هذا المدى من الجور والطغيان ، وأن ما نعانيه الآن من نفرة بين الشرق والغرب ليس إلا نتيجة لعدم التسامح الذي خلّقه الحروب الصليبية ، ثم ان رجال الدين المسيحي بعد أن حرضوا على القتل والتعذيب في الشرق عساوا إلى الغرب وقد تأصلت فيهم هذه الروح ، فمارسوا هذه الفظائع مع كل من خالفهم في دين أو مذهب ، وقد نتج عن سرطان روح عدم التسامح ، مذابح اليهود ، والفظائع التي أرتُكِيت في الحروب العيلامية ومحاكم التفتيش وأمثال هذه مما ضرّج أوروبا بالدماء على مر السنين (٢) .

* * *

(١) دكتور سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ من ٣ .

(٢) غوستاف لوبيون : حضارة العرب ص ٣٤٥ - ٣٣٥ .

— ٨٥٩ —

نهاية بطولات اسلامية

وفي ختام هذا البحث نورد بعض تماذج قليلة لأعمال البطولة والشرف التي قام بها المسلمون والتي شهدوا عصر الحروب الصليبية ، فقد أبرزت هذه الحروب صوراً ينحني أمامها القلم مأخوذاً بما بها من شرف الإسلام ومجده العربي ، وبطبيعة الحال كان هناك أشياه رجال آثروا أمجادهم الشخصية وفضلوا الدنيا الزائلة على خلود الذكر وثناء التاريخ ، ويروى لنا المقريزي وأبن تغري بردي صوراً تحمل هذين الاتجاهين نوراً منها صورة عبقة ، سبق أن أشرنا لها آنفاً ، ففي سنة ١٢٤٠ تحالف اسماعيل صاحب دمشق مع الصليبيين على غزو مصر ، وجمع هذا جيشاً من أهل الشام سار به متعاوناً مع الجيش الصليبي لتحقيق هذا الهدف ، ولما أشرف الجيش الشامي على غزة وأصبح عليه أن يتخذ موقفه ضد الجيش المصري مؤيداً للصليبيين ، حدثت المفاجأة التي لم يتوقعها الحاكم الخائن ، ولم يتوقعها الصليبيون ، تلك أن عساكر الشام استداروا في لحظة سريعة ، وانضموا إلى الجيش المصري ، ومالوا جميعاً على الجيش الصليبي فهزموه شر هزيمة (١) .

* * *

بطولات فلقية :

وعندما دخل صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس ظافراً وضع شروط الصلح ، وكان منها أن يؤدى الفرنجة مالاً يفتدون به أنفسهم ، ولكن كثيرين من فرقائهم عجزوا عن تأدية ما فرض عليهم ، فأخلى صلاح الدين سبيل ألف منهم نزواً على رغبة أخيه ، وتتوسط البطريرك لفريق آخر منهم فأطلقه السلطان ، ثم قال صلاح الدين : لقد زكي كل من أهى والبطريرك عن نفسيهما وأنه ينبغي لا يفوتنى أن أزكي عن نفسي ، وأطلق سراح الباقيين دون فدية .

(١) الساولية ١ ص ٢٠٥ والنجوم الظاهرة ج ٦ ص ٣٢٣ .

مراجع لوجه الله :

وفي أثناء حصار عكا كان هناك رجل من دمشق يشرف على آلات النفط وتحضير المواد اللازمة للمفرقعات ، فأُلْهِرَ قِيلَةً ثلاثة أبراج للعدو ، فأمر صلاح الدين بأن يمنع جائزة ، ولكن الرجل رفض قبولها وقائل إنما فعلته لله ولا أريد الجزاء إلا منه (١) .

* * *

أدى الأمانة وهو ميت :

وكان هذا الحصار محكما ، وكانت وسيلة صلاح الدين للاتصال بحامية عكا هي التحمام الزاحل والسباحون ، وفي أحدى المرات غرق سباح شد على وسطه أكياس المال وعدة رسائل للجند ، وغاصت الجثة في الماء وحملها التيار حتى قذف بها البحر عند الحامية المحاصرة ، فتعرف المسلمون على الجثة وأخذوا المال والرسائل ، وأوحىت هذه الحادثة لابن شداد أن يقول : فما روى من أدى الأمانة في حياته وبعد مماته إلا هذا الرجل (٢) .

* * *

عنده :

وفي أثناء المراجعة حول عكا غنم المسلمون فيما غنموه طفلا رضيما ولما عرفت أمه ذلك صاحت باكية مستنيئة ، وأمضت ليلة مريرة ، ولما يئس قادة الفرنجة من تهدئتها ، حاولوا التخلص منها فألوغزوا لها أن تذهب إلى معسكر المسلمين تطلب استعفادة الطفل ، وكانوا يرميدون دفعها إلى

(١) ابن خادون ج ٥ ص ٣٢١ .

(٢) سيرة صلاح الدين ص ١٢٠ .

حتفها ، ولم تفك المرأة في مصيرها ، ولكنها اندفعت نحو هذا المعسكر طلب مقابلة صلاح الدين ، وقادها جند صلاح الدين إلى معسكره ، وهناك وجدها راكباً في طريقه إلى الميدان ، فاعتبرته واستغاثت به ، فرَّقَ لها قلبه وسألها عن حاجتها ، ولما عرف قصة طفلها لم ييرح المكان حتى أعيد إليها ، فاحتضنته وأرْضَعَته ساعة ، وصلاح الدين وافق يظهر السعادة بهذا إذن ، ثم أمر بها فحملت على فرس وألحقت بمعسكر الفرنجة مع طفلها .

* * *

جهود المرأة :

ولم تقتصر الشجاعة التي أبدتها المسلمين في العروبة الصليبية على الرجال ، بل أسهمت المرأة بتصنيب كبير في هذه المعارك ، ويروى أسامة ابن منقد أن عجوزاً يقال لها فنون ، أخذت سيفاً وخرجت إلى القتال وأبلت فيه .

وأن امرأة من شيزر استطاعت أن تأسِّر ثلاثة من الصليبيين واحداً بعد الآخر ، وكانت كلما أسرت واحداً حبسه في بيته ، ثم استدعت جيرانها ليسلموا الأسرى ويأخذوهم إلى معسكر القائد .

وقد أشرنا من قبل إلى أن الباطنية (الخاشسين) تعاونوا أحياها مع أعداء صلاح الدين ، كما تصدوا إلى حربه ومحاولة الاعتداء عليه ، وفي النضال بين قوات صلاح الدين وبين قوات الباطنية حول حصن شيزر ارتدت أم ليث الدولة يحيى خوذة وزرداً ، وتسلحت بسيف وثروس وشاركت في القتال .

ويروى أسامة كذلك أن أمّاً زودت ابنتها الكبيرة بالسلاح وأمرتها بالخروج للقتال ، وفي معركة المعركة كشفت هذه الفتاة عن نخوة أشد من نخوات الرجال ، كما يروى أسامة ذلك .

* * *

الوطن أغلى من الولد :

ولم تأخذ الناس ولا قادتهم هداة فيمن كانوا يفتون في عضد المسلمين ، أو يتهمون بأن هواهم كان مع الصليبيين حتى أن صفة الملك (خاتون) عندما علمت أن ابنها شمس الملك متعاون مع الصليبيين دبرت بن يقتله ، فقد كانت باردها أغلى عليها من ابنها الخائن (١) .

(١) محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ج ١ من ٣٢٠

الإمبراطورية العثمانية
«تركيا»

- ٨١٣ -

الأتراك العثمانيون : نشأتهم وتطورهم

آسيا الصغرى مفتاح لشريش طويل :

انتهى الزحف الإسلامي الأول شمالي الشام عند حافة آسيا الصغرى ، وأصبحت الحدود بين المسلمين والبيزنطيين في هذه المنطقة مثار معارك متصلة تقريرياً ، ولكن هؤلاء وأولئك اكتفوا بالمقارات، التي لم يقصد بها الاحتلال والاقامة وإنما قصد بها التخويف والاستيلاء على الغنائم والأمتدة . وظل الحال كذلك حتى عهد السلجوقية ، وفي هذا العهد اقتحم السلجوقية آسيا الصغرى ، وخاضوا معارك كان يقصد بها القضاء على البيزنطيين في تلك البقاع وطرد سكانها الروم من آسيا نهائياً ، وقد نجح السلجوقية في ذلك فأوقعوا سنة ١٠٧١ م هزائم حاسمة بالجيوش البيزنطية في موقعة ملاز كرد، التي سبق أن تحدثنا عنها ، واستولوا في أثرها على معظم آسيا الصغرى التي لم يتحقق للعرب فتحها قط ، وجعلوها مقراً لنزول الأتراك فيها (١) .

وقد كان هذا التصرف مثيراً لأوروبا فكان من العوامل التي سببت الحروب الصليبية كما رأينا من قبل .

هذا من جهة ومن جهة أخرى كان الأتراك العثمانيون من بين الطوائف التي اشتراك في هذه المعارك وأقامت في آسيا الصغرى واضحة بذور الدولة العثمانية التي ستظهر في الأفق فيما بعد .

(1) Kirk : A Short History of the Middle East p. 67.

وانظر سلاجقة ايران وفارس لدكتور عبد النعيم حسين ص ٥٧ .

أصل الأتراك العثمانيين :

والأتراك العثمانيون ينسبون إلى عشيرة قابى أحدى قبائل الغزو التركية ومتسلّلها بلاد تركستان ، وأقدم زعيم معروف لهذه العشيرة اسمه سليمان ، وكان يهيم بقبيلته في آسيا الصغرى بعد موقعة ملازكرد ، وقتل سليمان عند مشارف حلب ، وترددت فروع القبيلة بين العودة لوطنه الأصلى أو مواصلة المغامرة ، وانقسمت القبيلة في ذلك ، فاختار ابنه أرطغرل مواصلة السير ، فدخل آسيا الصغرى والتحق بخدمة الأمير السلاجوقى (علاء الدين الثاني) الذى كان يواصل الحرب ضد البيزنطيين وساعدهم في هذا الكفاح ، وأبقى فى ذلك ملاء حسنا ، فأقطعه السلطان السلاجوقى المستقحات الواقعة على الحدود البيزنطية ، وترك له توسيع ممتلكاته على حساب البيزنطيين ، فاتخذ « شكود » عاصمة له ، وولد له ابنه عثمان سنة ١٢٥٨ ، ونشأة أبوه تنشئة حربية ، وأصبح خير عنون لأبيه في حروبه وفي أعماله الإدارية ، وفي هذه الأثناء كانت الحروب الصليبية تدور وشغلت جانبا كبيرا من نشاط البيزنطيين مما أتاحت فرصة الاستقرار للعثمانيين .

عثمان :

توفى أرطغرل سنة ١٢٦١ متقدماً على التسعين من عمره فتولى عثمان مكان أبيه بموافقة علاء الدين السلاجوقى ، وسار عثمان سيرة أبيه في مساعدة السلاجوقيين وتأييدهم في حروبهم ، فزاد علاء الدين في إكرامه ، ومنحه نوعاً من الاستقلال ، وأقطعه كافة الأراضى والقلائع التى فتحها ، وأجاز له ضرب العملة باسمه ، كما أجاز أن يذكر اسمه في خطبة الجمعة مقروناً باسم السلطان السلاجوقى ومنحه لقب (بك) ، وهكذا قرب عثمان من الاستقلال القائم ، وصار زعيم إمارة من أهم الإمارات ، واستمر في التوسيع حتى استولى من دولة الروم الشرقيه على مدينة « قرية حصار » فاتخذ هذه المدينة عاصمة له .

السلطة العثمانية :

زالت دولة السلاجقة من آسيا الصغرى سنة ٦٩٩ = ١٢٩٩ بدمارها
المغول ، وتوفى السلطان علاء الدين في نفس العام ، فأعلن عثمان استقلاله
الثامن مكوناً السلطنة العثمانية التي أخذت تسميتها من اسمه ، ووفد له
أبناء البيت السلاجقى وأعيانه ليعيشوا في كنته وحمايته ، ووفدت له أيضاً
جماعات المجاهدين ضد التتار ، كما وفد له الصوفية والغامرون وبعض
العلماء ، إذ لم يبق في هذه البقاع الا العثمانيون ملجاً للمسلمين بعد
زحف التتار وطفياتهم ، ولم يبق الا العثمانيون بيرفعون السيف ضد
أعداء الإسلام البيزنطيين . ووفد كذلك على الدولة العثمانية الجديدة
عناصر تركية قرقد الأتراك العثمانيين .

وانهز عثمان فرصة انشغال المغول بمحربهم مع سلاجقة قونية
فسار في فتوحاته ووسع مملكته .

وانتهى الطوفان الأول للمغول ، ذلك الطوفان الذي قاده جنكيز خان
وهو لا كوا ، ولم يصل منه شيء يذكر للعثمانيين .

التوسيع العثماني في آسيا الصغرى :

بعد وفاة عثمان جاء ابنه أورخان سنة ١٣٢٦ ففتح مدينة بروسة
وفي العام التالي سقطت أزمير ، وفي ١٣٣٠ استولى على طاوشانلى ،
وفي سنة ١٣٥٤ استولى على أشقره بقيادة ابنه سليمان ، وفي عهد أورخان
تم تكوين أول فرقه من طوائف الانكشارية (العسكر الجديد) ومنتكلم
عنها فيما بعد .

الدولة العثمانية تتقدّم إلى أوروبا :

توفي أورخان سنة ١٣٥٩ فخلفه ابنه مراد (الأول) فتحظى الضيق
متوجهها نحو أوروبا وهاجم شبه جزيرة البلقان بعد أن أقرَّ النظام وتنقلب على

وفي سنة ١٣٩٠ فقد البيزنطيين آخر ممتلكاتهم في آسيا الصغرى وهي مدينة آلا شهر وفي سنة ١٣٩٤ متوجه الخليفة المتوكل بالقاهرة بموافقة السلطان برقوق سلطان مصر ، لقبه سلطان الروم لباليزيد بناء على طلبه ، وكان سبب موافقة برقوق على هذه المفحة أن الخطر المغولي كان يهدد كلا من المالكية بمصر والعلمانيين بآسيا الصغرى وشرق أوروبا ، وكان برقوق يأمل أن يكون العثمانيون حلفاء ضد هذا الخطر الذي يهدد الآشين .

دوري مسابقة ضد المثانيين:

عمَّ الْوَلَ وَالْفَزْعُ مُعْنَمُ الْأُورَبِيِّينَ ، مِنْ كُثْرَةِ فَتْوَحِ الْعُشَمَانِيِّينَ وَسُرْعَةِ تَقْدِمِهِمْ فِي أُورِيَا ، وَقَاتَتْ ضَرْبَةُ دِينِيَّةٍ لِلْحُضُورِ عَلَى حَرِبِهِمْ ، فَقَامَ الْبَسَابَا يَدْعُو النَّاسَ بِاسْمِ الدِّينِ إِلَى مَقَاوِلِهِمْ ، وَخَرَجَ لِذَكِّرِ جَيْشِ أُورَبِيِّ عَظِيمٍ بِقِيَادَةِ « سِجِّسْمَنْدُ » مَلِكِ الْمَجْرِ ، فَسِمَ بَيْنَ كَتَابِهِ كَثِيرًا مِنَ الْفَرَسَانِ فَرِنْسَا وَالْمَائِنَا ، وَكَانَ بِإِيزِيدِ إِذَا ذَاكَ غَلَبَّا فِي آسِيا ، فَفَازَ الْأُورَبِيُّونَ فِي بَادِئِ الْأَمْرِ ، وَامْسَتَرُوا مِنَ الْتُرْكِ كَثِيرًا مِنَ الْمَدِينَ ، ثُمَّ

— ٨١٧ —

شرعوا في حصار مدينة «نيقوبولس» وهي من أمنع المدن على نهر «الطونة» فلما علم بايزيد بذلك أسرع للقائهم فهزمه هزيمة تعد من أنكر الهزائم التي دوّنها التاريخ ، بحيث لم ينج من جيوبهم إلا النزاليسي ، وكانت هذه الموقعة سنة ٧٩٩ هـ (١٣٩٦ م) .

الفطر المغولي يعترض الزحف العثماني :

في ذلك الحين كان خطر المغول يشتد في دورهم الثاني تحت قيادة بطل عسكري شهير هو تيمورلنك الذي ولد سنة ١٣٣٦ واستولى سنة ١٣٦٩ على خراسان وما وراء النهر واتخذ سمرقند عاصمة له ثم خطأ خطوة أخرى نحو استعادة ملك جنكيزخان (١١٥٦ - ١٢٢٧) وهو لاكتو (١٢١٧ - ١٢٦٥) الذي امتد من موسكو إلى الصين فسوريا .

أدرك بايزيد أنه لابد من نزول معركة فاصلة بينه وبين تيمورلنك فأخذ يعد نفسه لها ، فقوى جيشه ، واستولى على بعض مناطق استراتيجية متاخمة لآسيا الصغرى كانت خاصة لبعض الأمراء فقرهؤلاء الأمراء ولجئوا إلى تيمورلنك طالبين عونه .

وقامت المعركة الأولى بين القوتين المهايتين سنة ٤٠٠ مـ (١٤٠٢) ضد سيواس وانتصر فيها المغول وقتل القائد أرطغل أكبر أبناء بايزيد .

وفي سنة ٤٠٢ بدأ المعركة الحقيقة بين المغول وال Ottomans عند جبوق آباد فانتصر فيها المغول واتجهوا نحو أنقرة ، وكان المغول قد دخلوا الإسلام ، ولهذا كانت جيوب العثمانيين تتقصها الخامسة الدينية التي كانت من قبل عملاً مما في انتصاراتهم ضد البيزنطيين ، وكان بايزيد نفسه يقود المعركة ، وقد صمد صموداً باسلاً أمام الزحف المغولي

(١) عمر الاسكندرى وسليم حسن : تاريخ مصر من الفتح العثمانى ص ٢٠

(٢) م ٥٢ - موسوعة التاريخ ج ٥ .

- ٨١٨ -

ولكته هزم في النهاية ووقع في الأسر في «أنقرة» هو وأبنه موسى ومات
بأبيزيد سنة ١٤٠٣ ٠

الدولة العثمانية تحت سلطة المقول :

تولى سليمان بن بأبيزيد مكان أبيه ، ووافق تيمورلنك على ذلك على أن
يحكم سليمان البلاد كتابع للسلطان المغولي ، ولكن هذه الفترة كانت
قصيرة ، فقد مات تيمورلنك سنة ١٤٠٥ وتقسم أبناؤه مملكته ووافت
خلافات بين بعضهم والبعض الآخر وبينهم وبين بعض جيرانهم ، مما
أضعف سلطانهم في آسيا الصغرى وفي أكثر مملكتهم ، فأخذ سلطان
المماليك يعود لهم مرة أخرى ، ويدعوا يتظلمون من سلطة المغول ٠

صراع بين أمراء العثمانيين :

ولكن العثمانيين عندما تخلصوا من القوة الخارجية ظهر باسمهم
بينهم ، فكثر الخلاف الداخلي على السلطة بين أبناء أبيزيد (محمد جلبي
وعيسى سليمان وموسى) وكان سليمان بعض النصر ولكنه لم يكن
مستقيماً في خلقه بل كان مستهتراً خليعاً فلم يحتفظ بالنصر الذي أحرزه
وهزم أخيه موسى ، فهرب سليمان فقبض عليه بعض الملايين وقتلوه
سنة ١٤١٥ ٠

أما محمد جلبي فقد رجحت كفته بعد ذلك ، إذ استطاع أن يتعصب
على أخيه عيسى ، ثم استدار إلى أخيه موسى فقتله سنة ١٤١٣ ٠ وبذلك
آلت أمور العثمانيين للسلطان محمد ، فأخذ يستعيد ما فقدته الدولة من
أملاك خلال خضوع العثمانيين للقتار ، وخلال الخلاف بين أمراء
العثمانيين بعد القتار ٠

وفي سنة ١٤٢١ توفي محمد في أدرنة خلفه مراد الثاني الذي وضع
قواعد الأمن والصلاح ثم اتجه للفتحات فاحتل سالونيك عنوة
من البناجقة سنة ١٤٣٠ ، ولكن تكتلاً مسيحياً جديداً قام في وجهه بقيادة
« هونياد » القائد المجري العظيم ، وقد حقق هذا القائد كثيراً من
النصر في البلقان ، ثم عقدت معااهدة إبرجين سنة ١٤٤٤ وفيها تنازل
العثمانيون عن بلاد الصرب وأعطوا الأفلاق للمجر ، ولكن المسيحيين نقضوا
المعاهدة واستأنفوا القتال فاللتقي بهم مراد الثاني مرة أخرى وأنزل
بالمسيحيين هزيمة شاملة (نوفمبر سنة ١٤٤٤) . وقتل في المعركة بعض
ملوك أوروبا وأمرائها وتم إخضاع البوسنة والصرب ، ووصل العثمانيون
 بذلك إلى ما يُعرف بعصر التسوية

عصر القسوة

فتح القسطنطينية :

مات مراد الثاني سنة ١٤٥١ فتولى مكانه ابنه محمد الفاتح أو محمد الثاني وأخذ يخضع الثوار في آسيا الصغرى ، فانتهز الإمبراطور البيزنطي (قسطنطين التاسع) فرصة انشغاله بهذه الحروب ، وأرسل إليه يهدده بأنه اذا لم يضاعف مبلغ الجزية السنوية التي كان يدفعها والده إلى البيزنطيين لقاء احتفاظهم بالأمير أورخان حفيض سليمان ، فإنه سيدفع بالأمير للمطالبة بالعرش ورؤيده في ذلك وقد غصب محمد من هذا التهديد ، فعمد إلى إقامة حصار حول القسطنطينية ، فلما بعث الإمبراطور بسفراه للاحتجاج على هذا التصرف ، قطع محمد رعيوسهم وكان ذلك بمثابة إعلان للحرب ، وهاجم العثمانيون القسطنطينية سنة ١٤٥٣ وكانوا قد أحاطوا بها من جميع الجهات ، وقد تم لهم النصر فخضعت لهم المدينة ، وقتل الإمبراطور في المعركة ودخل محمد القسطنطينية ، ثم اتجه إلى كنيسة آيا صوفيا الشهيرة فدخلها وحوّلها مسجدا ، وبفتح القسطنطينية انمحى العقبة الباقية من بيزنطة ، وأصبحت القسطنطينية تسمى « استانبول » أو دار السعادة ، وأصبحت عاصمة الامبراطورية العثمانية ، حتى نقل اياتورك العاصمة إلى أنقرة سنة ١٩٢٣ م.

القسطنطينية : ملخصات من تاريخها :

كانت روما هي عاصمة الدولة الرومانية حتى عهد قسطنطين الأكبر (١) الذي أصبح إمبراطوراً من سنة ٣٠٦ إلى سنة ٣٣٧ ، وفي سنة ٣٣٠ اختار قسطنطين مدينة « بوزنطة » الواقعة على شاطئ البوسفور

(١) قسطنطين هذا هو الذي أعلن حرية الدين المسيحي سنة ٣١٣ في بقرار ميلاده ثم دخل المسجدية بعد عشر سنوات ولم يعمد إلا وهو على ذراش الموت.

لتكون عاصمة للإمبراطورية وأطلق عليها اسمه فأصر بحث تعرف بالقسطنطينية ، (ظلت تعرف بهذا الاسم حتى استولى عليها العثمانيون فأشهرت باسم قديم هو « إستانبول ») وعندما قسمت الإمبراطورية الرومانية قسمين سنة ٣٩٥ م يقيت القسطنطينية عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وعادت روما عاصمة للإمبراطورية الرومانية الغربية (١) ، بيد أن هذه سقطت سنة ٤٧٦ في أيدي القوط بعد غارات المغيرة الطويلة عليها ، وظهرت على أثر ذلك سلطة الكنيسة الغربية التي أعلنت أن لها دوراً سياسياً وأن لها سلطاناً على الملك .

وإذا كانت الدولة الرومانية الغربية قد سقطت فإن الدولة الرومانية الشرقية ظلت تصارع بعد ذلك حوالي ألف عام ، وقد تصدت لها قوة الفرس فالعرب من الشرق ، كما هاجمتها الأمم المتبربرة من القوط والسلavs من الغرب ، وقد استطاعت أن تحمى نفسها من المتبربرين ، ولكنها مقهقرت أمام العرب المسلمين الذين حرروا من سلطانها سورياً وفلسطين ومصر وشمال إفريقياً وجزر البحر المتوسط الشرقية ، وبالإضافة إلى ذلك الق ACS فقد جدّت أحـدـاثـ آخـرىـ أـضـعـفتـ الإـمـبرـاطـورـيـةـ ،ـ وـأـهـمـ هـذـهـ الأـهـدـاثـ ماـ يـلـىـ :

١ - احتمام الصليبيين للقسطنطينية في الحرب الصليبية الرابعة كما شرحنا من قبله وبقاوهم بها سنتين عاماً ، وكان الإمبراطور يتخذ من نيقية بآسيا الصغرى عاصمة له خلال هذه الفترة ، وعندما ضعف الصليبيون وأسقعاد الإمبراطور القسطنطينية وجدها مملوءة بالفتن والانحلال وما يترتب على ذلك من فساد وفقر .

(١) حدث اشتباك بعد ذلك (سنة ٤٣١) في الكنيسة قامت على أثره الكنيسة الشرقية (الأرثوذكس) والكنيسة الغربية (الكاثوليك) .

— ٨٢٢ —

٢ — أراد أباطرة القسطنطينية — وقد أحسوا بقوة البابوية في روما — أن يوحدوا الكنيسة المسيحية تحت سلطة بابا روما فأثار ذلك رجال الدين بالقسطنطينية وتم توحيد الكنيستين على أي حال سنة ١٤٣٩ دون موافقة عامة من قساوسة الشرق ، بيد أن ضعف البابوية بعد ذلك قسمَي جانب المعارضين للتوحيد ، فكثُرت الاضطرابات في القسطنطينية .

٣ — ويضاف إلى ذلك خلافات على السلطة ، وغارات من شعوب البلقان لم تنقطع ، والوباء الأسود الذي اجتاح أوربا والذي بدأ ظهوره سنة ١٣٣٧ م .

٤ — وهناك قسوة دقت بباب القسطنطينية عدة مرات ، وكانت تتربص لها وهي قوة المسلمين ، وجدير بنا أن نخصص فراغاً أوسع لنتحدث عن تاريخ هذه القوة التي آل لها النصر في النهاية على يد الأتراك المسلمين .

ومن تكتُبُ التاريخ يتبيّن لنا أن المسلمين حاربوا خلال عهدي أبي بكر وعمر في جبهتين كبيرتين هما جبهتا الفرس والروم ، وكانت انتصاراتهم في الجبهة الأولى حاسمة وسريعة ، وأما الجبهة الثانية فقد طال أمد الحرب فيها واستغرق عدة قرون ، ويعود المؤرخون أن من الأسباب الهامة التي أدت إلى سرعة انهيار الفرس سقوط العاصمة (الدائن) ، والعاصمة دائمًا مكان الذخيرة والمال والجاه ، فسقوطها يسبب اضطراباً وارتباكاً ، أما جبهة الروم فقد حقق المسلمون فيها انتصارات كبيرة ولكن الحروب طالت بها لأن العاصمة (القسطنطينية) كانت بعيدة المنال ، وظلت تدبِّر الأمر ، وتجدد العدة كلما هزمت الدولة في آية موقعة من الواقع : وكان المسلمون يدركون هذه الحقيقة ، ولذلك بذلوا غالية الجهد رجاء الاستيلاء عليها ، ولكن موقع المدينة أخْرَى

- ٤٤ -

هذا الحديث الجليل ، وقضى أن مثل محاولات المسلمين قائمة عدة قرون .

وقد شهد القرن الهجري الأول همتيين كبارتين وجيههما دمشق عاصمة المسلمين للاستيلاء على القسطنطينية ، وكانت الأولى في عهد معاوية بن أبي سفيان وقادها ابنه يزيد سنة ٤٩ هـ وكان من أبطالها الصحابي أبو أيوب الأنصاري الذي استضاف الرسول صلوات الله عليه في دار الهجرة ، وقد استعمل المسلمون في هذه الحلة ما غنموه من سفن ومعدات حربية وبحرية في موقعة ذات الصواري التي حدثت سنة ٣٤ هـ ، وقد أحسن أبو أيوب الأنصاري بدنو أجله ، كما أحسن بأن النجاح في فتح القسطنطينية لا يزال بعيداً ، ولذلك أراد أن يسهم – حتى بعد موته – في إثارة حماسة المسلمين ليعيدوا الكرة مرة أخرى ، فكان أن أوصى وصيته الشهيرة ياد يروى أنه قال ليزيد بن معاوية :

« اذا مت فاركب بي ، ثم سني بي في ارض العدو ما وجدت مساغاً ، فاذا لم تجد مساغاً خاذفني ثم أرجم » .

وتوفى أبو أيوب سنة ٥٢ وحصار المسلمين للمدينة لا يزال قائماً ، فأنفذ يزيد وصيته ، ودفنه تحت أسوار القسطنطينية ، وفشل الحملة وعادت أدراجها ، ولكن المسلمين ظلوا يحسون بهتاف أبي أيوب بهم ، ودعائهم لهم أن يعادوا الكرة حتى لا يظل جثمانه غريساً عن الأهل والشيرة .

أما الحملة الثانية فقد كانت في عهد سليمان بن عبد الملك ، وكان قائدها مسلمة بن عبد الملك ، وهو رجل شجاع مشهود له بالصرامة ، وقد حققت الحملة في طريقها صوراً من النجاح ووصلت إلى القسطنطينية

— ٨٢٤ —

وحاصرتها ولكتها لم تتحقق مدهما الرئيسي ، وجاء عمر بن عبد العزيز فأمر بفك الحصار ^(١) .

وفي خلال العصر العباسي قامت محاولات لاسقاط القسطنطينية خلال عهد المهدى والرشيد ، ولكن النجاح لم يحالفها ^(٢) .

وهكذا قاومت العاصمة العتيدة محاولات المسلمين حوالى ثمانية قرون حتى تم فتحها على النحو السابق سنة ١٤٥٣ هـ (٨٥٧ م) ويعتبر فتح القسطنطينية أهم نجاح حققه الأتراك العثمانيون ، وبه أصبحت مملكتهم تعد من الامبراطوريات الإسلامية العظيمة ، إذ حققت ما طمع فيه المسلمون عدة قرون ، وقد هيأ لهم ذلك أحوالاً من الانتصارات الأخرى في العالم الإسلامي ، إذ اعتبر الانضمام إليهم نوعاً من الوحدة الإسلامية لا من الخصوص المستعمر غريب كما سبق القول ، وهكذا دافت لهم مصر وسوريا والعراق فيما بعد دون مقاومة تذكر .

الإسلام والتسامح الدينى :

وبعد فتح القسطنطينية عاد محمد الفاتح إلى أدرنة وأمر ببناء جميع الحصون المغربية ليجعل من هذه المدينة عاصمة لامبراطوريته ، وعمل السلطان على تنظيم أحوال اليونان (الروم) المغلوبين للتو وال ساعة ، و الواقع أنه أبقى على استقلال البلغار الكتسي ، فجعل أسلاقه من قبله ، واعتبره — وفقاً لفكرة الإسلامية المعززة بالتقاليد الدينية — بجميع السلطات الدينية اليونانية ، بل إنه زادها قوة بأن وكل إليها أمر القضاء المدنى وتطبيق أحكامه على أتباعه ^(٣) .

(١) اقرأ تاريخ هذه المحاولات مفصلاً مع المراجع الأساسية لها في الجزء الثاني من هذه الموسوعة .

(٢) اقرأ تاريخ هذه المحاولات في الجزء الثالث من هذه الموسوعة .

(٣) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ص ٢٠٠ .

— ٨٢٥ —

ويصف فولتير الفيلسوف الفرنسي الشهير موقف الانتصار المسلم من المهزوم المسيحي بقوله : ان الأتراك لم يسيئوا معاملة المسيحيين كما نعتقد نحن ، والذى يجب ملاحظته أن أمة من الأمم المسيحية لا تسمح أن يكون لل المسلمين مسجد في بلادها بخلاف الأتراك فأنهم سمحوا لليونان المقهورين بأن تكون لهم كنائسهم ٠٠٠ وما يدل على أن السلطان محمد الفاتح كان عاقلا حليما ترك للنصارى المقهورين الحرية في انتخاب البطريريك ، ولما انتخبوه ثبته السلطان وسلمه عصا البطارقة وألبسـه الخاتم ، حتى صرـح ذلك البطريق عند ذلك بقولـه : إنى خجل مما لاقـته من التـمجـيل والـحفـاة ، الأمر الذى لم يـعملـه مـلـوكـاـ النـصـارـىـ مع أـسـلـافـ (١) ٠

ولعل من الخير أن نشير هنا إلى الفرق بين هذا التصرف وتصـرفـ غير المسلمين مع المسلمين عندما يـحظـىـ غيرـ المسلمينـ بـأـيـةـ اـنتـصـاراتـ ضدـ المسلمينـ ، كـانتـصـاراتـ المـسيـحـيـينـ الدـمـرـةـ فـالـحـرـبـ الـصـلـيـبـيـةـ الـأـوـلـىـ ،ـ وكـانتـصـاراتـهمـ فـيـ أـسـبـانـياـ عـلـىـ الـمـسـلـمـيـنـ فـيـ عـهـودـهـمـ الـأـخـيـرـةـ ،ـ وكـالـأـنـصـارـاتـ الـزـائـفـةـ لـلـيـهـودـ ضدـ الـعـربـ فـيـ فـلـسـطـيـنـ ،ـ فقدـ كـانـتـ دـائـمـاـ اـنـتـصـارـاتـ فـيـهاـ حـقـدـ وـغـلـ وـدـمـاءـ وـدـمـارـ ٠

بعد القسطنطينية

استقر العثمانيون يسيرون بنجاح في فتوحاتهم بأوروبا ففتحوا بلاد الصرب وشبه جزيرة المورة وببلاد الباانيا الى حدود البندقية ، وهذا أول محمد أن يفتح ايطاليا ليرفع علم الاسلام على روما كما رفعه على القسطنطينية ، ولكنه نكس عن ذلك لشاغله الكثيرة ، ولم يستول من ايطاليا الا على مدينة « أترانتشو » سنة ١٤٨٠ ومات محمد الفاتح سنة ١٤٨١ فأخلف خلفه هذه المدينة ٠

(١) نـقـلاـ عـنـ دـائـرـةـ مـعـلـفـ الـقـرـنـ الـعـشـرـينـ لـلـاسـتـاذـ فـرـيدـ وجـدـيـ جـ ٢

— ٤٧٩ —

وكان محمد قد أوصى بالملك لابنه الأصغر « جم » ، ولكن الابن الأكبر باليزيد (الثاني) تغلب عليه واستولى على الملك بعد مفاوضات استمرت حتى سنة ١٤٨٨ ، وفي آخر عهد باليزيد أوصى هذا بالعهد لابنه أحمد ولكن الابن الثاني (الأصغر) واسمه سليم ثار في وجه أبيه وأخيه ، وقام صراع مرير انتصر فيه سليم سنة ١٥١٢ ويقال انه دس السم لأبيه ليختفي منه كما سيأتي .

واراد سليم أن يؤدب الأسرة المالكة الجديدة في فارس وهي أسرة الصفوين لمساعدتها لأخيه خلال الصراع بينهما ، وبالتالي أراد أن يمد سلطانه إلى آسيا ، ولكن حال دون ذلك منافس آخر هو العالىك وبمصر الذين كان سلطانهم معتمدا إلى سوريا ، وكان نفوذهم يشمل الأماكن المقدسة بالحجاج ، فوجد سليم أن لا بد من البدء بسوريا ومصر قبل أن يدخل المعركة مع فارس له .

فتح سوريا ومصر :

كانت الدولة المملوكية بمصر وسوريا قد أصبتت – كما سبق – بانهيار اقتصادى فى نهاية القرن الخامس عشر عندما استطاع البرتغاليون كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، فارتبطت تجارة أوروبا بالهند دون المرور بموانئ مصرية و العربية ، وقد بدأ هذا الكشف بواسطة هنرى الملائج (١٣٩٤ - ١٤٦٠) الذى استطاع أن يصل إلى سيراليون (Sierra Leoni) ، وتلاه برتولوميو دياز (Bartholomew Diaz) الذى دار حول رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٨٨ ، وبعد ذلك بعشرين سنتين استطاع فاسكودى جاما (Vesco de Gama) أن يسير من شواطئ إفريقيا الشرقية إلى شواطئ الهند ، وبذلك انسقت البرتغال بالهند وبجزر الهند الشرقية عن طريق البحر مباشرة دون الحاجة للموانئ العربية وللخطوط العربية ، وقد حاول المماليك الوقوف في وجه البرتغاليين منعهم من سلوك هذا الطريق ، ولكن محاولاتهم ذهبت هباء إذ استطاع

البرتغاليون احتلال جزيرة سوقطرى قرب مدخل البحر الأحمر وجزيرة هرمز عند مدخل الخليج العربي بتأمل حبس الاساطيل الإسلامية داخل البحر الأحمر والخليج العربي (١) .

ومن الواضح أن الاكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح لم يقض على التجارة عبر الخطوط العربية قضاء تاماً ، ولكنه أنسفها بشكل ظاهر ، وبقيت الخطوط العربية تباشر نشاطها المحدود بجوار الخط البحري الجديد الذي اجتذب أكثر النشاط .

وكان الضغط الاقتصادي الذي طرأ على الجبهة المملوكية من الأسباب التي يسرت على العثمانيين التغلب على المماليك في سوريا ومصر .

في نسخة هذه الأحداث قامت معركة بين المماليك والعثمانيين فخرج دايرق (ثمالي حلب) سنة ١٥١٦ م انتصر فيها العثمانيون وسقط قتصوه الغوري (سلطان مصر) قتيلاً فيها ، وضم العثمانيون بذلك سوريا لملكاتهم ، وتقدم سليم إلى مصر فجرت معركة بينه وبين السلطان المملوكي الجديد طومان باي ، وهي معركة الريدانية على أبواب القاهرة سنة ١٥١٧ ، وانتصر فيها الأتراك أيضاً وعقب ذلك اعترفت الأماكن المقدسة للعثمانيين بالأنفود والتبعية ، وقد سبق أن أوضحنا أن العثمانيين خطوا هذه الخطوات باسم الإسلام مما يسر الطريق أمامهم ، ومات السلطان سليم سنة ١٥٢٠ فتولى ابنه سليمان العرش ، وهو المعروف بـ سليمان القانوني .

نشاط سليمان في أوروبا وأسيا :

وبلغت الدولة أقصى قوتها في عهد سليمان القانوني أو العظيم كما يسميه الأوروبيون ، وقد شمل نشاطه الميدانيين الغربي والشرقي ، ففي

(١) انظر مزيداً من الدراسة حول هذا الموضوع في الجزء السابع من هذه الموسوعة عند الحديث عن عمان .

- ٨٢٨ -

أوربا استطاع السلطان الجديد أن يستولى على بلغراد سنة ١٥٢١
وجزيرة رودس سنة ١٥٢٢ .

وفي سنة ١٥٦٦ حصلت موقعة مهاج الأولى بينه وبين ملك المجر ،
وقد انتصر السلطان سليمان انتصاراً كبيراً فيها ، فقتل الملك الشاب لويس
وصفوة رجاله ، ولما تنازع أمير ترانسلفانيا وملك النمسا حول تاج المجر
تدخل السلطان سليمان وناصر أمير ترانسلفانيا واحتل بودابست .

حصار فيينا :

وقد حاصر العثمانيون العاصمة الساحرة (فيينا) عدة مرات كانت
أولاًها عقب الانتصار السابق وتمت سنة ١٥٢٩ ، وكانت الثانية سنة
١٥٣٢ ، وفي سنة ١٦٨٣ حاصر العثمانيون العاصمة للمرة الثالثة بقيادة
الصدر الأعظم عمر مصطفى ولكن تحالف ألمانيا وبولندا أنقذ العاصمة من
السقوط .

وقد ظهر سليمان بالبحار من أعدائه ، وكان المقاومة الأثيرة
السيطرة الكاملة على البحر الأبيض والبحر الأحمر .

فتح العراق والمدائن مع الفرس :

وفي آسيا حارب سليمان القانوني الفرس ، إذ أن عامل بغداد من
قبل الصفوين تمرد عليهم لتشييعهم وأنهز إلى سليمان القانوني لأنه
سنن ، ليحمي نفسه وأتباعه السنن بالعراق من ضغط الشيعة ، فجهز ،
الشاه الصفوی حملة ضدّه وأخضعه ، فهُبَّ سليمان يدافع عن حليفه
وانتصر له سليمان ضدّ الفرس ، وتقدم حتى وصل « تبريز » عاصمتهم ولكنه
رجع اكتفاء بسيطرته على العراق ولحدوث تمرد في جيشه ، وكان فتح
سليمان للعراق سنة ١٥٣٤ .

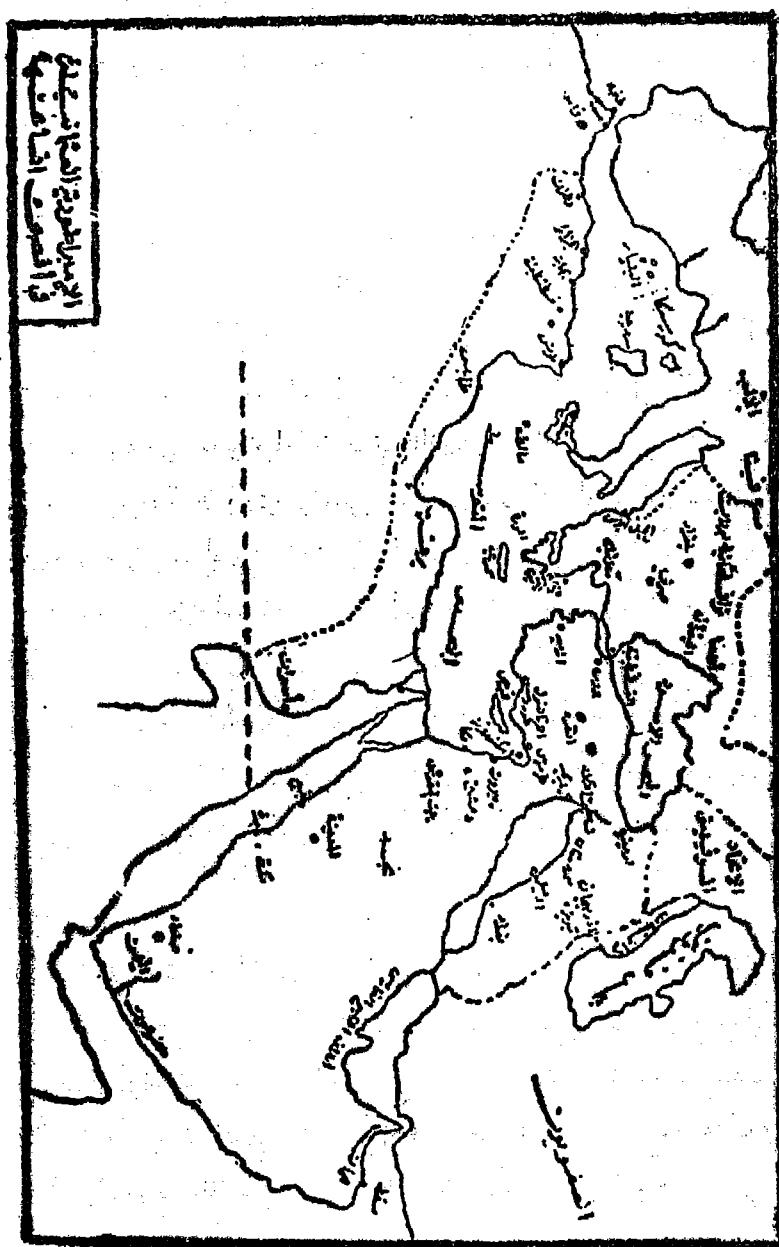
الشمال الإفريقي وباقى البلاد العربية :

وكانت دول الشمال الإفريقي مضطربة بسبب محاولة أسبانيا الاستيلاء عليها عقب هزيمة المسلمين بأسبانيا وانسحابهم منها ، وقد انتهز الأتراك هذه الفرصة فتدخلوا في شئون هذه البلاد ، واستولوا على الجزائر بواسطة خير الدين بوبروسا سنة ١٥١٨ ، واستولى خير الدين على تونس باسم الباب العالي سنة ١٥٣٤ من بنى حفص ، واستولى سنان باشا على طرابلس وطرد فرسان القديس يوحنا الملاطيين سنة ١٥٥١ ، وهكذا دخل الشمال الإفريقي تحت سلطان العثمانيين ما عدا المغرب الأقصى ، وقبيل منتصف القرن السادس عشر قامت حملة تركية بقيادة « بيري رئيس » أحد الأمراء البحريين ببعض الأعمال البحرية على شواطئ الجزيرة العربية الجنوبية والشرقية ، فاحتلت عدن سنة ١٥٣٨ ثم واصلت زحفها باليمن حتى احتلت صنعاء سنة ١٥٤٧ ثم احتلت مسقط سنة ١٥٥١ ووصلت حتى رأس الخليج العربي وساررت حملة من مصر فأكملت احتلال اليمن سنة ١٥٦٨ (١) ، وبذلك بلغت الامبراطورية العثمانية أقصى مداها ، فقد امتدت من بودابست على نهر الطونة إلى أسوان بالقرب من شلالات النيل ، ومن نهر الفرات وقلب ایران الى باب المدب جنوب الجزيرة العربية .

وفي التصف الثاني من القرن السادس عشر توقف نشاط العثمانيين على أثر خلاف بين أبناء السلطان سليم على السلطة ، وتجمعت عوامل متعددة أوقفت تقدم العثمانيين ، ثم جعلتهم هدفاً لهجمات الآخرين ، فان田野وا من الهجوم للدفاع ، ثم تقهقرت أمام زحف أعدائهم وأخذت الامبراطورية تتقلص وتنهار على ما سنوجزه فيما بعد .

(١) للحديث عن نشاط العثمانيين بالجزيرة العربية اقرأ الجزء السابع من هذه الموسوعة .

- ٨٣٠ -



جدول تسلیطین آل منان

(أولاً) دور القرنة :

سلیمان

أرسطور

١ - منان الأول ١٢٩٩ م

٢ - أورستان ١٢٣٦

٣ - مراد الأول ١٢٥٩

٤ - بايزيد الأول ١٢٨٦ - ١٢٠٢

فترة خلافات بين أولاد بايزيد وفود أجنبي (متول) (١٢١٣ - ١٢٠٣)

سلیمان

محمد الأول

موسى

٤ - ١٢١٠ - ١٢٠٢ ١٢١٣ - ١٢٠٣

٥ - خاخ سلطان كلوب وانفرد محمد بالسلطنة من سنة ١٢١٣

٦ - مراد الثاني ١٢٧٦

٧ - محمد الثاني (القانع) ١٢٥٦

٨ - بايزيد الثاني ١٤٥٦ استمرت سلطنته ١٣ يوماً فقط أخيه الأشرف جرجى كان أبوه ولاه العهد

٩ - سليم الأول ١٤١٤

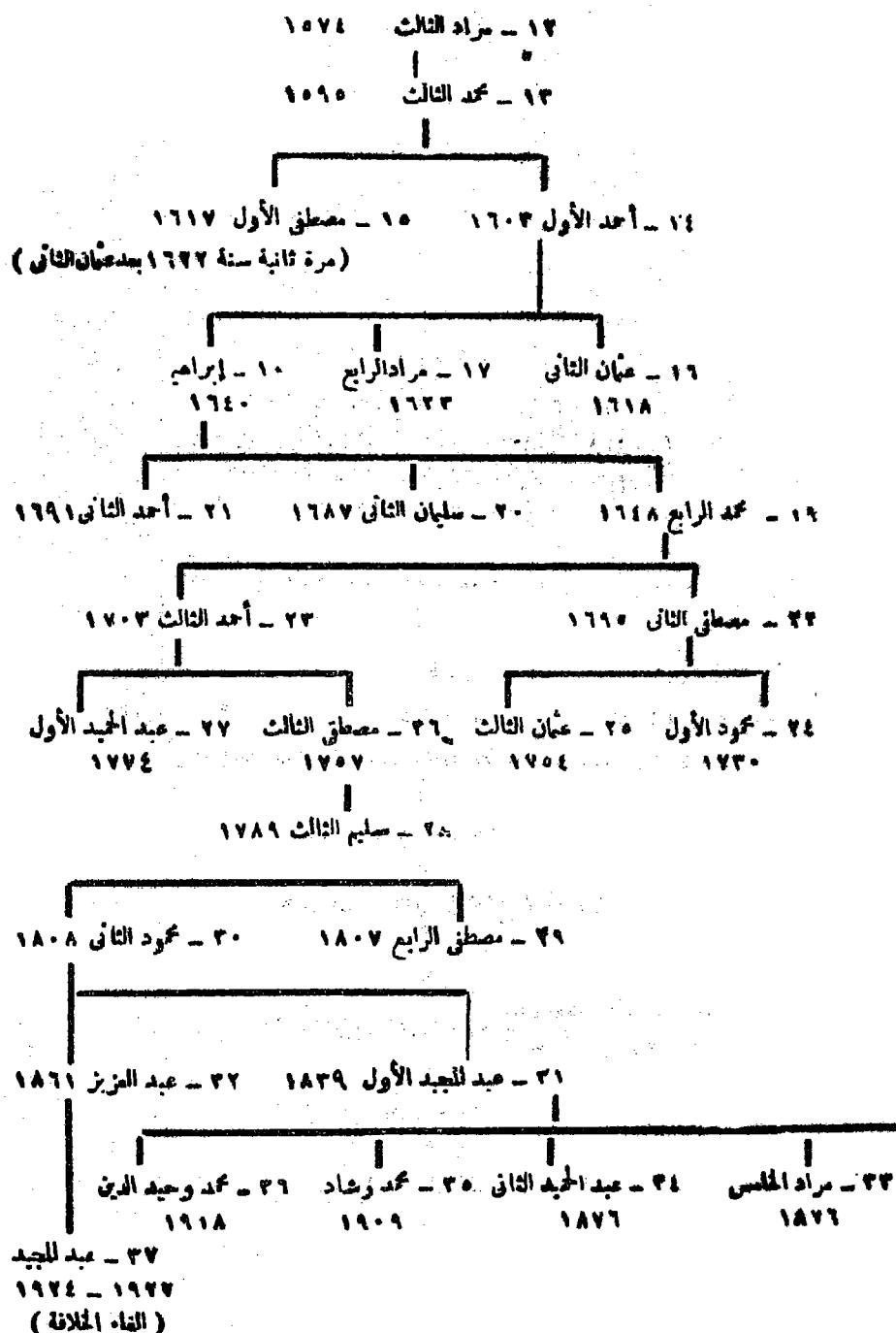
١٠ - سليم الأول (الثانى) ١٤٢٠

١١ - سليم الثانى ١٤٦٦

١٢ - مراد الثالث ١٤٧٤

- ٨٣٢ -

(ناباً) دور الضفاف :



— ٨٣٣ —

وقد تحدثنا بشيء من التفصيل عن دور القوة ، وستنسرح فيما بعد ظروف انهيار الدولة وأسباب ذلك الانهيار ، ولكننا هنا نعادر فخضوع أمم المسلمين الذين لم نتحدث عنهم أهم الأحداث التي شغلت عهودهم وأدئت بالدولة إلى الاتهادار ، وهي كالتالي :

سليم الثاني : — فتح قبرص

— هزيمة تركيا في موقعة ليبانتو ضد الحلفاء ثم
عودة النصر إلى تركيا في البحر .
— استعاد تونس من دون جوان

مراد الثالث : هزّم البرتغال والفرس

محمد الثالث : بدء تدخل نساء القصر في شؤون الدولة

أحمد الأول : — صمدت التمسا لأول مرة في حروبها مع الترك
فاستمرت الحروب خمسة عشر عاما ، مما قلل من
هيبة الترك في نظر الأوروبيين ، وحُشّلت الجزية
إلى هدية غير ثابتة المقدار .
— انتصارات للفرس .

حسطفي الأول : سادج خليع أصدر شيخ الإسلام فتوى بخلعه .

عثمان الثاني : غلام في الثالثة عشرة .

مراد الرابع : — كان لا يخرج من السرای الا نادرا ، واشتد
سلطان نساء القصر .

— ثورة للإنكشارية عزلت السلطان .

محمد الرابع : — اتمام فتح كريت .

— قيام اتحاد ضد الترك من البندقة وبولونيا والبانيا
ورهبة مالطة وروسيا والقوزاق وتوسكانه

— ٨٣٤ —

- والنمسا باسم «الاتحاد المقدس» .
— موقعة مهاج (١) الثانية التي هزّت فيها الأتراك
على يد شارل الخامس ملك لورين .
— أسرة كوبيريل .
- سلیمان الثاني : كوبيريل زاده يحقق للدولة بعض الانتصارات
الحرب العادية :
مصطفى الثاني : — عاد يقود الجيوش بنفسه أملأ في اصلاح
الأحوال .
— صلح كارلووبيج
— قتيل شيخ الاسلام واستقالة السلطان .
- أحمد الثالث : — انتصارات على روسيا في عهد بطرس الكبير
— قبول المهر الأعظم رشوة من زوجة بطرس
الكبير لينجو الامبراطور الروسي وجيشه من
أسر محقق .
- محمود الأول : حروب عادية مع الفرس والروس والنمسا .
عثمان الثالث : عهد سلام لانشغال أوروبا بحربه السبعية أعوام
مصطفى الثالث : انتصارات روسية .
- عبد الحميد الأول — حروب مع الروس والفرس
— معاهدة قينارجة

(١) — مهاج أو موهاج مدينة على الدانوب .
— موقعة مهاج الأولى حقق فيها سليمان القانون سنة ١٥٦٦ نصراً
لها ضد لويس الثاني ملك المجر .

- سلیم الثالث : - هزائم الدولة من الروس
- ظهور نساد الانكشارية
- محاولة للاصلاح الداخلى في الجيش والادارة
- حروب انجلترا ضد فرنسا لاحتلالها مصر
- عزل السلطان
- مصطفى الرابع : - نكسة للاصلاحات الداخلية التي قدمها سليم
الثالث
- عزل السلطان
- محمود الثاني : - القضاء على سلطان أمراء الاقطاع
- ثورة اليونان وتدخل مصر
- موقعة ناورين
- إبادة الانكشارية
- عبد المجيد الأول : - فرمان الوراثة لأسرة محمد على
- اصلاحات داخلية (الدارسون الحديثة - تنظيم
الميزانية - استقلال المحاكم)
- هزائم في الخارج وثورات في الداخل (ثورة بين
الموارنة والدروز)
- عبد العزيز : - هزائم في الجبل الأسود والمغرب والأخلاق
والبغدان
- الثورة الوهابية وتدخل مصر
- تدمير عام ضد السلطان
- خلع السلطان
- انتخاره أو قتله بعد خلعه بأربعة أيام وستشرح
ذلك عند الكلام عن عبد الحميد الثاني
- مراد الخامس : - عزله بعد فترة قصيرة لتخلطيه أو اتهامه بالجنون

- ١٣٩ -

- عبد الحميد الثاني : - مشكلة الدستور
- مدحى أبو الدستور
- الثورات الداخلية والاستبداد الحميدي
- هزائم خارجية
- ماهدة سان استفانو ومعاهدة برلين .
وستقدم عن عبد الحميد الثاني ومدحت دراسات
مهمة وواسعة فيما بعد .
- محمد رشاد : - السير نحو النهاية .
- الحرب العالمية الأولى وهزيمة تركيا .
- محمد وحيد الدين : - تركيا الفتاة
- الخد من سلطان الخليفة
- مصطفى كمال يتسلم السلطة المدنية
- عزل السلطان وتوليه بدلته سنة ١٩٢٢ .
- عبد المجيد : - اعلن الجمهورية سنة ١٩٢٣ وجعل الخلافة
للسئون الدينية فقط .
- انتهاء الخلافة وطرد بيت السلاطين سنة ١٩٢٤ .

حضارة العثمانيين

مقدمة :

لعل من الأفضل أن نتحدث هنا عن حضارة العثمانيين وألوانها ، قبل أن نصف الدولة وهي تنهر وتختفي ، وذلك لأن الحضارة التي سنتكلم عنها الآن هي في الحقيقة ولدية عصور القوة ، وقد طرأت ظروف على عصور الضعف جعلت بها اتجاهات من نوع آخر ستكون موضوع حديثنا عند الكلام عن هذه العصور .

مصادر الحضارة العثمانية :

يقول الدكتور فيليب حتى : إن ثقافة العثمانيين كانت مزيجاً من العناصر المتعددة ، فقد أخذَ الترك عن الفرس كثيراً من الأفكار الأدبية ، كما أخذوا منهم بعض الأفكار السياسية كتعظيم الملك ، وقد أقتبس الترك هذه الموضوعات عن الفرس لصالحهم بهم قبل هجرتهم إلى غرب آسيا وبعد هذه الهجرة ، وكان مما منحته بذلة آسيا الوسطى للترك النزعة للحرب والفتح والميل للاختلاط بالآخرين والامتناع بهم ، وقد انتقل إلى الترك أيضاً من البيزنطيين بعض المؤسسات العربية والنظم الحكومية ، ولكن العرب كانوا قبل الجميع معلمي الأتراك كما كان اليونان معلمي الرومان ، فقد أخذ الترك عن العرب علومهم ودينهم بما فيه من المبادئ الاقتصادية والاجتماعية والتشريعات المقدسة ، وأخذوا أيضاً الحروف العربية للكتابة ، فظلت شائعة حتى سنة ١٩٢٨ ، وباعتناق الترك دين الإسلام واقتباسهم الحروف العربية انتقل إليهم من اللغة العربية ألف الأصطلاحات الدينية والعلمية والشرعية والأدبية ، ولا يزال كثير من هذه الأصطلاحات في قلب اللغة التركية على الرغم من المحاولات القومية الأخيرة لإخراجها منها (١) .

(١) فيليب حتى : تاريخ العرب ج ٢ من ٤٨٢ - ٤٨٣ .

ولكن المطلع على حضارة العثمانيين التي سبتم بها يرى ألوانا منها بعيدة عن الفكر الإسلامي وعن الشهمامة العربية كالنزعة للغدر ومصادرة الأموال والانهك في اللذات أحيانا ، ولذلك فنحن نرى أن الآتراك تعلموا من الإسلام ومن العرب الكثير ولكنهم لم يعملا بها في كل الأحوال ، وغلبت عليهم أحيانا نزعة البداءة والجمالية في سلوكهم السياسي والعسكري .

الهيئة الحاكمة

السلطان وحكمه المطلق :

كان السلطان العثماني يحكم حكما مطلقا في أغلب الأحوال ، وكان هذا الإتجاه مخالفًا للإسلام وسببا من أسباب الكوارث ، وقد قامت محاولات دستورية ولكنها كانت عقيمة ، وكان السلطان يحس أنها حرمه من اكمال السلطة فكان يحاول التمرد عليها والعودة لحكم الفرد ، مع أن التحريم اللازم في الإسلام تخفف العبء عن الرؤساء ، وتتشير كمعهم في المسؤولية بعض أولى الأمر ، ولكن متعة السلطة كثيرا ما أعممت الرؤساء المستبددين .

ويعترض بعض الباحثين عن العثمانيين بأن الحكم المطلق كان أسلوب العصر ، ولم تكن الفالبية العظمى من دول أوروبا يمارس فيها الحكم النبائي الذي هو من معلمات الديمقراطية ، وكان أكثر ملوك الأرض يتبعون الحكم المطلق . (١)

ولكننا لا نوافق هذا الباحث فيما قال ، فملوك أوروبا لم يكن عندهم كتاب الله الذي يلزم بالشوري ولم يكن عندهم التاريخ الشامخ للرسول وصحابه الذين كوتوا حولهم مجالس الشوري قبل العثمانيين بعشرين

(١) دكتور عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية : دولة إسلامية مقتدى عليها من ١٠٧ .

— ٨٣٩ —

وعلى كل حال فقد كانت الشريعة الإسلامية تحول دون انتساق الديكتاتورية وتخفف من غلوائها ، فهناك كثير من الأحكام وردت نصوص واضحة فيها ، وكان على الخلفاء العثمانيين أن يمثلوا لها ، وإن كان الواقع يقرر للأسف أن السلاطين العثمانيين كانوا يجدون في جميع الحالات — إلا ما ندر — استجابة فورية لرغباتهم من كبار علماء الدين : شيخ الإسلام وأمين الفتوى وقاضي العسكر ، إذ كانوا يصدرون فتاوى تحقق مآرب الخلفاء ، وتتصفى على تصرفاتهم طابع الشرعية ، ونخلص من هذا كله إلى أن الاستبداد الذي مارسه السلاطين لم يكن استبداداً مقيداً بل كان استبداداً مطلقاً (١) .

ويجب أن نوضح أن الاستبداد المطلق كان يوجد إذا كانت هناك رغبة خاصة للسلطان ، أما في الأمور التي لا دخل لرغبات السلاطين فيها ، فإن الشريعة الإسلامية تأخذ مجريها الطبيعي ، فمشروعات القوانين العادلة كانت تتعرض على شيخ الإسلام ليقرر مدى مطابقتها للشريعة الإسلامية ، وأحكام الاعدام على المتهمن في القضايا الجنائية كانت تتعرض على شيخ الإسلام قبل تنفيذ حكم الاعدام للتتأكد من سلامة المسير في القضية .

الثواب السلطان :

وكان للسلطان التركي سلسلة من الألقاب لعلها اكتملت في عهد القوة إبان حكم سليمان القانوني ، وقد كتبها سليمان في مطلع رسالة منه إلى فرنسيس ملك فرنسا ، ونعن نقبيتها من Roger Mirreman (٢) .

أنا سلطان المسلمين ، وملك الملوك ، مانح التيجان للملوك على وجه البسيطة ، ظل الله في الأرض ، سلطان البحرين الأبيض والأسود :

(١) المرجع السابق ج ١١٠ .

Suleiman the Magnificent p. 130. (٢)

وخلقان البرين ، وملك الرهطى والأناضول ، وببلاد الكرمان وببلاد الروم ،
وديار بكر وكردستان ، وأذربیجان وفارس ، ودمشق وحلب والقاهرة
ومكة والمدينة والقدس واليمن وكل البلاد العربية وببلادا كثيرة أخرى
افتتحها آباء الشهراون وأجدادى الأمجاد نور الله مراقدهم بقوه
سلامهم ، وجعلتها جلالتى المهيءة تابعة لسيفى الم��ب وميندي المنتصر .

لقب «الخلقة» :

أما لقب « الخليفة » فكان الأتراء يضمونه لأنقابهم منذ عهد مراد الأول (١٣٥٩ - ١٣٨٩) ، ويقول كارل بروكلمان (١) : أن ما يقال من أن سليمان الأول حمل الخليفة العباسى بالقاهرة على أن يتنازل له عن هذا اللقب سنة ١٥١٧ لم يرد إلا في رواية متأخرة . ويفيد سير توماس أرنولد اتجاه كارل بروكلمان ويعطى الأدلة ليبين أن هذا التنازل لم يتم (٢) .

ويبدو أن الآتراك العثمانيين لقبوا أنفسهم بلقب الخلافة قبل دخولهم مصر بزمن طويل حتى ليقال إن مرادا الأول (١٣٥٩) اتخذ لنفسه هذا اللقب عقب الانتصارات التي حققها في آسيا الصغرى وفي أوروبا ، ومن الواضح أنه لم يكن بسلطان العثمانيين حاجة لينتظروا حتى يتنازل لهم الخليفة العباسي عن هذا اللقب ، فقد عرف المسلمون قبل ذلك بأمد طويل فكرة تعدد الخلفاء ، ففي آخر القرن الثالث الهجري وأوائل الرابع (العاشر الميلادي) اتّخذ الفاطميون لقب الخليفة لقباً لهم بالشمال الأفريقي إذ كانوا شيعة ، لا يعترفون بالخلافة السنّية ببغداد ، وبعد ذلك بقليل أعلن عبد الرحمن الناصر بالأندلس أن هذاللقب حق له امتداداً لأبائه وأجداده بدمشق ، ولام من سبقوه بالأندلس الذين اكتفوا بلقب الأمير ، وعلى هذا فما حاجة العثمانيين للانتظار إذا كانوا يريدون حمل هذا اللقب ؟

^{١١)} تاريخ الشهوب الإسلامية ج ٢ ص ٩٣.

The Caliphate p. 139.

ويقول فيليب نحشى : وسواء أصحت الدعوة بذلك إن الخليفة العباسى بالقاهرة أوهى بالخلافة للسلطان العثمانى أو لم تصم ، فالواقع أن أمير القسطنطينية التركية اكتسب تدريجياً امتيازات الخلافة ، ثم اتخذ أخيراً لقب الخلافة لنفسه ، وأول وثيقة تبلو ملasse معرفة أشير فيها إلى السلطان العثمانى بلقب الخلافة ، واعترف فيها بسلطته الدينية على المسلمين خارج الولايات العثمانية هي المعاهدة الروسية التركية الموقع عليها في كوتتشوك كينرجى سنة ١٧٧٤ (١) .

السلاطين بين القوة والضعف :

كأن سلاطين العثمانيين قسمين :

١ - قسم يمكن تسميته «السلاطين العظام» . وعددتهم عشرة ، يبدأون بعثمان أول السلاطين وينتهون ب السلطان سليمان القانوني وقد حكموا ٢٦٧ سنة من سنة ١٢٩٩ إلى سنة ١٥٦٦ م وقاموا على سواعد هؤلاء عظمة الدولة من حيث التوسيع الاقليمي في آسيا وأوروبا وأفريقيا ، ومن حيث النظم والنشأت التضاربية .

٢ - والقسم الثاني هم السلاطين الضعاف . وعددهم ٣٧ . سلطاناً أولهم السلطان سليم بن سليمان القانوني وأخرهم محمد السادس آخر الخلفاء وقد حكموا حوالي ٣٥٧ من سنة ١٥٦٦ إلى سنة ١٩٢٤ ، وفي عهد أكثر هؤلاء تدخلت مبادرات التصور في ادارة الدولة ، كما مال الخلفاء للترف وطالت اقامتهم بين الجنواري والمنيات ، وأصبح الصدر الأعظم في كثير من الأحوال صاحب السلطة في الدولة ، وقد بلغ من هوان سلاطين هذا العصر أن سمى بعضهم باسم «السلاطين التتابلة» وكان بعضهم فيه لوثة عقلية ، وعدم قدرة على السيطرة .

— ٨٤٢ —

ونتيجة لهذه الأوضاع أعقب المدّ جزر" ، وترأجعت الدولة في كثير من الميادين وكثير من النظم (١) .

ولالية العهد وأثارها القاتمة :

لم يكن هناك قانون ينظم ولاية العهد في الامبراطورية العثمانية ، وهذا فتح الباب لمصراع دام لشئـن منصب السلطان عقب خلوـة لسبب من الأسباب .

وكانت القصور خلابة جذابة ، والمطامع في شغل هذا المنصب قوية وواضحة ، وبخاصة أن من يتولى السلطنة كان يمكنه أن يتخلص من منافسيه بالقتل ، ومعنى هذا أن المنصب كان هو الذي يحمي الإنسان من القتل ، ومن هنا نشط الكثيرون لنيله حتى يحظوا بعمق القصور من جانب وبالسلامة من جانب آخر .

وفي فترة من الفترات جثمـلت ولاية العهد للابن الأكبر وذلك لوضع حد للمنافسة والصراع ، ولكنـ أحمد الأول (١٦٠٣ - ١٦١٧) اختار أخاه مصطفى ولـياً لـعهده ، وتـخطـى ابنـه عـثمان ، ولكنـ هذا كافـح حتى أخذـ السـلطـنة من عـمه سـنة ١٦١٨ وـبـقيـت معـه أربعـ سـنـوات ثم أـمـبـعـ مـصـطـفـىـ الـأـوـلـ سـلـطـانـاـ مـرـةـ أـخـرىـ ، وـكـنـ الـبـابـ يـقـعـ عـلـىـ مـصـاعـيـهـ للـقـتـالـ كـلـاـ خـلـاـ مـنـصـبـ السـلـطـانـ ، وـاـنـ كـانـ الـصـرـاعـ عـلـىـ المـنـصـبـ كـانـ قدـ بدـأـ قـبـلـ ذـالـكـ بـعـدـ طـوـيلـ كـمـاـ اـتـسـعـ ذـلـكـ مـنـ الـدـرـاسـاتـ الـقـدـمـنـاـهاـ فـيـماـ سـبـقـ وـالـقـىـ سـتـورـدـهاـ هـنـاـ بـعـدـ قـلـيلـ .

وقد وصلـت مشـكلـةـ إـرـاقـةـ الدـمـاءـ مـنـ أـجلـ هـذـاـ المـنـصـبـ قـمـتهاـ وـفـظـاعـتـهاـ عـنـدـمـاـ أـصـدرـ مـحـمـدـ الـفـاتـحـ (١٤٥١ - ١٤٨١) قـلـونـىـ يـتـبعـ لـنـ يـتـولـىـ الـعـرـشـ أـنـ يـقـتـلـ مـنـ يـرـىـ مـنـ أـخـوـتـهـ تـامـيـنـاـ لـسـلـامـةـ الـدـوـلـةـ ،

(١) انظر كتاب الدكتور الشناوى سالف الذكر ص ٢٤٥ وص ٦٧٢ .

— ٨٤٣ —

ولم يقف الأمر عند قتل الإخوة بل تعداهم إلى قتل الأبناء ومن يحتمل أن ينافسوه بوجه عام . ويقول كارل بروكلمان (١) إن محمدا الفاتح استهل عهده بأن أمر بقتل أخيه أحمد ، ومن ذلك الحين صار قتل السلطان إخوته عادة شبه مطردة ، فلما جاء محمد الثالث (١٦٩٥ هـ = ١٦٠٣) أمر بقتل إخوته الذكور وكان عددهم تسعه عشر أميرا ، وأمر بإغراق نساء أبيه وجوارى أبيه الحوامل ، وكان عددهن عشر نساء (٢) ويقول الأستاذ محمد كرد على ما يلى :

ولا شك أنه من أعمال العنف والوحشية أن يتعدع العثمانيون ذلك القانون باسم اقرار الأمن ، وقد نشأت عن ذلك سلسلة من الفجائع ، ورأى الزمان لهذا النوع من القتل مبررا ، فوُضِعَ في قالب الحرمن على سلامه الأمن العام ، ولم يقف الأمر عند الإخوة ، بل تعداهم إلى غيرهم ، فأصبح قتل السلطان إخوته وأولاده وأحفاده وبناته والحاملات من نساء السلاطين مما لا يُستذكر ، وظلت هذه العادة القبيحة جاريا حكمها حتى عهد محمد الرابع (١٧٤٨) إذ حاول قتل شقيقه فمنعته أمه ، وصحا الفتى الأكبر فأورد للسلطان كلام الله وحذره عقابه ، وبذلك انتقضى دور قتل أبناء الملك بعد أن دام فترة طويلة ، وأخذ كل سلطان بعد ذلك يرافق أولياء العهد مراقبة شديدة ويقيمه بمعرض من الناس لا يختلفون بهم (٣) .

وأكثر من ذلك ، لقد كان العقوق واضحاً بين الأب وابنه والابن وأبيه ، ويرجع أكثر المؤرخون أن سليما الأول هو الذي دس السم لأبيه بايزيد الثاني ليحصل على السلطة لنفسه بدلاً من أخيه الأكبر « أحمد » الذي كان يرشحه الأب ، ومن أجل هذا كان سليم يخاف

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ٢ : ٤٠ .

(٢) محمد غريد وجدى : دائرة معارف القرن العشرين ٢ : ٥٩٣ .

(٣) الحضارة العربية ٢ ص ٢٨ و ٥٢٩ .

ابنه سليمان وينظر اليه نظرة شست وريمة ذاكراً حداثته هو ، ومن أجل هذا عاش سليمان طيلة حياة أبيه مستكينا خوفاً من نعمة أبيه الذي كان يمكن أن يأمر به فيلقى للفناء ٠

وأحياناً كان يدور الصراع بين أبناء السلطان في حياته كما حدث في حياة بايزيد ، إذ اقتل ابنه أحمد وسلم ، أو بعد وفاته كما حدث في حالات أخرى كثيرة من أهمها ما وقع بين بايزيد الثاني سالف الذكر ، وبين أخيه « جم » الذي كان أبوه محمد الفاتح ولاه عهده ، وقد بدأت هذه الحرب بعد وفاة محمد الفاتح سنة ١٤٨١ ، وظلت حتى تغلب بايزيد على أخيه سنة ١٤٨٨ ٠

تحديد الإقامة :

وعندما توفرت إرادة الدماء استجابة للاستكبار الإسلامي والشعور العالمي ، اتجه السلاطين اتجاهها جديداً لحماية أنفسهم من منافقين ، وكان ذلك الاتجاه هو أن يحددو إقامة الإخوة والأبناء ، بأن يوضع كل منهم في قصر صغير ، تحيط به حدائق ، وتكثر به الجواري والقيان ويكون له سور مرتفع صائم ، بحيث لا يراه أحد من الخارج ، ولا يرى هو أحداً بالخارج ، وتوضع مع هذا المسكين بعض الكتب الدينية وبخاصة التي تحت على طاعة ولـى الأمر ٠

وكانت هذه القصور الصغيرة تسمى « أقفاصاً » (١) ، وطالما تحول السجين فيها إلى معتوه أو أصابته علة صحية أو نفسية ٠

وعلى العموم فكل جانب القصبة التي ذكرناها كانت ردًّا فعل للثورات العنيفة التي قام بها الطامعون في السلطة من حين إلى حين ٠

(١) دكتور عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية .. ص ٣٥٠

أعوان السلطان :

وبجانب السلطان كان يوجد الم cedar الأعظم ، وهو يعادل منصب رئيس الوزراء في العهد الحاضر ، وكانت الرشوة الباهظة ، والتعهد بقابلية مطالب السلطان وسد حاجة بلاطه من أهم الشروط للترشيع لهذا المنصب الخطير ، ويجرى بعد هذا المنصب الولاية (الباشوات) وهم حكام الولايات ، وكان الوالي لا يعين إلا إذا أجزأ العطاء لل Cedar الأعظم ، بل لقد فرض على باشوات الولايات أن يجددوا مراسيم تعينهم كل عام لتتكرر الرشوة التي يدفعونها ، وكلما كان يخلو منصب والي كانت المساوية تظهر ، فلا تمنع الولاية إلا أن يدفع أكثر من سواه ، وطبيعي أن الوالي يسترد ما دفعه وأضعافه أضعافه من السناجق أو الألوية ، التي كانت تتقسم لها الولاية ، إذ كان تعين حكام الألوية من اختصاص الوالي ، وكان ذلك يتم بعد دفع الرشوة الكافية ، ويسترد حكام السناجق ما دفعوه من الملتزمين أو من الرعية مباشرة .

الباب السادس :

ومن الواضح أن cedar الأعظم كان هو المنصب التالي لوزيرية السلطان ، وابتداء من عهد السلطان محمد الرابع ينتهي ببعض لهم يتقيم به cedar الأعظم وأخواته ، وكان درويش محمد باشا أول cedar أعظم سكن هذا المبنى ، وسمى هذا المركز الذي تصدر منه cedar الأحكام « الباب العالي » .

غير الترك في الوظائف الكبيرة :

كان عنصر الأثراك في الإمبراطورية الشاسعة أقلية صغيرة وكانت المناصب الكبيرة تُسند إليهم عادة ، ويقول Kirk إن الأثراك فتحوا الباب لكفاءات أخرى للترقى ، فكان لكل رجل مهما كان مولده مجال لتقليد مناسب الدولة بشرط مراعاته للتقاليد المرعية في الدولة

واصطباغه بالصبغة الثقافية العامة فيها ، وبشرط موافاة مذهب أهل السنة ، وتعلم الفنون الحربية مع التدرب عليها ، وإجاده اللغة التركية ، تلك اللغة التي — مع اقتباسها لكتير من العبارات والألفاظ العربية والفارسية — قد ناصرها العثمانيون حتى صارت اللغة الرسمية في الحكومة وتغلبت على اللغتين العربية والفارسية اللتين تمتلا كل منهما إلى حضارة أعمق وأرقى من الحضارة التركية (١) .

ولسنا نتفق مع Kirk في هذا الإطلاق ، فحقيقة كان عدد الأتراك أقل من عدد المناصب الكبرى ، ومن ثم احتاج الترك إلى عناصر أخرى لتنشئن لها هذه المناصب ، ولكتهم اتجهوا في الكثير الغالب إلى الأوروبيين ، واكتفوا منهم بالظهور بدخول الإسلام فأسسندوا لهم أرقى المناصب ، ويدلنا الإحصاء الذي أورده جلزز (٢) على أن الصدور العظام الذين تعاقبوا على الحكم خلال ازدهار الامبراطورية العثمانية (١٤٥٣ - ١٦٣٣) كانوا ثمانية وأربعين ، خمسة منهم فقط يجري في عروقهم الدم التركي أما الباقون فكان توزيعهم على الشكل التالي :

١١ البانيا كانوا حديث عهد بالإسلام .

١١ صقليا (سلانيا) .

٦ من اليونان كانوا حديثي عهد بالإسلام .

١ جركسي واحد من القوقاز .

١ إيطالي واحد حديث عهد بالإسلام .

١ أرمني واحد .

A Short History of the Middle East p. 90. (١)

H. Gelzer : Geistliches und Weltliches aus dem griechisch. (٢)

Turkischen orient p. 179.

١ كرجي من جورجيا (بلاد الكرج) *

١٠ من أصول غير معروفة (١) *

وهكذا ليس من بينهم عربي واحد أو مسلم عميق الأصول في الإسلام ، ولم يستند للعرب إلا أئتها الوظائف ، وكانت الطبقات الفقيرة من العرب والمصريين تعامل معاملة مزرية (٢) *

الإقطاع

وكانت الدولة تقوم على أساس النظام الإقطاعي الذي نظمه العظام الأولون على الغرار البيزنطي ، وكان الإقطاع الأصغر يدعى (تيمار) ويمنح لبعض الطموحين ، ويطلق الفلاحون بالإقطاع يزرون لصاحب التيمار وينتمون له المحاصيل (الإيجاز أو الحالات فيما عدا ما يمسك حياتهم) ، وعلى المقطع إليه تنظير هذا الإقطاع أن يقدم للدولة عدداً من الفرسان يتراوح بين اثنين وأربعة أو عدداً من البحارة لخدمة الأسطول ، بالإضافة إلى بعض الضرائب المالية *

وهناك إقطاع أكبر يدعى (زعامت) ويمنح أن يقدمون خدمة شخصية لل الخليفة أو الدولة ، ويقدم (الزعيم) وهو لقب صاحب هذا الإقطاع ، مالاً للسلطة المركزية وجنوداً للجيش يترايد عددهم تبعاً لإيراد الإقطاع *

والتيمار والزعامة كانا يخضعان لتفتيش رجال الإدارة المركزيين *

و هناك إقطاع أعلى هو (الخاص) ويمنع للولاة ولا يخضع لتفتيش *

(١) يلاحظ أن المجموع ٤٧ لا ٤٨ كما ذكر في الأصل .

(٢) انظر موجز تاريخ الشرق الأوسط لكريك من ٩١.

ولما اتسعت الإمبراطورية كثُر البالشوارات الذين كانوا يعيثون حكاماً للأقاليم ، وكان الأقاليم إقطاع لكل منهم يتولى هو توزيعه إقطاعات صغيرة على أتباعه وعبيده ، وظل الحال كذلك حتى أصدر سليمان (قانون نامه) سنة ١٥٣٠ الذي جعل حق منح الإقطاع في يد الباب العالي (ديوان الصدر الأعظم) وأصبح البالشا يقترح من يستحقون الإقطاعات وتصدر البراءات لهم من ديوان الصدر الأعظم ، ولكن كثيرين من البالشوارات احتلوا على (قانون نامه) وظلوا يمارسون سلطاتهم الكاملة . ولم يكن هناك قانون واضح للوراثة في الإقطاع ، فكان ابن صاحب الإقطاع أحياناً يكتفى بتيمار ليبدأ به ، وأحياناً كان يقسم الإقطاع بين الأولاد ، وفي آسيا كانت الوراثة جائزة في الإقطاعات حتى للنساء .

وطالما حاول ملوك الإقطاعات أن يتمرسوا من الالتزامات العسكرية والمالية التي يفرضها عليهم النظام الإقطاعي .

الالتزام

وبجوار الإقطاع وجده في الإمبراطورية العثمانية نظام الالتزام في الأقاليم والمناطق التي لا تتبع نظام الإقطاع ، وبمقتضى هذا النظام تسلم مساحة من الأرض المملوكة للدولة من يديرها ويشرف عليها ، ويجبى هذا خراجها ويلتم بتسليم الدولة مقداراً معيناً منه يتحقق عليه ، وقد شرحت نظام الإقطاع والالتزام بكتابي « الاقتصاد في الفكر الإسلامي » وبيّنت رأى الإسلام فيه (١) .

والقرىزى يصوّر الالتزام (٢) تصويراً دقّيقاً حين يقول : إن متولى الخراج في مصر كان يجلس في مسجد عمرو بن العاص في الوقت الذي

(١) الاقتصاد في الفكر الإسلامي من ٢٠٢ - ٢٠٤

(٢) النهاية لالمقريزى ج ١ - ٨٢

- ٨٤٩ -

تنتهي فيه قبله الأرض (أوائل شهر سبتمبر) ويجتمع الناس من القرى والمدن ، ويقوم رجل ينادي على البلاد صفقات صفقات وكتاب الخراج يكتبون ما تنتهي إليه المزايدة ، وعلى من يرسو الالترام .

ويلاحظ أن الذين يدخلون المزایدات كان يجامد بعضهم بعضا في الغالب ، وكان لكل منهم منطقة يندر أن يقتسمها غيره ، وكان هذا يجعل المزايدة صورية في أكثر الأحوال .

تكوين الجيش التركي ونشأة الانكشارية :

اعتمد الأتراك العثمانيون في إقامة دولتهم على كفافتهم الحربية ومقدرتهم كفرسان بارعين فيهم جرأة إلى حد التهور ، ولكنهم كان ينقصهم التنظيم الفنى ، غير أن هذا النقص لم ينبع في الفترة الأولى ، فقد كان التنظيم الفنى ناقصا عند أكثر الجيوش ، ولكن صدام العثمانيين بالغربيين أضطررهم إلى تكوين جيش يستكمل مقدراته الحربية والفنية ، إذ كان الأوروبيون قد تعلموا من صراع العرب في العصور الوسطى ألوانا من التنظيمات التي خلقتها التجارب العسكرية ، وعلى هذا كون الأتراك لهم جيشا نظاميا من رجالهم الأشداء ، وأمكن هؤلاء الجنود كانوا لا يحسنون بإحساس الجندي ، وكانوا يرون لأنفسهم الحق في أن يكونوا سادة ، فبالغوا في مطالبهم المالية مما دعا أورخان (١٣٥٩ - ١٣٣٦) إلى حل هذه التنظيمات .

ولجأ الأتراك بعد ذلك إلى تكوين جيش من غير الترك ، ومالوا إلى تكوينه من النصارى الذين كانوا يتألفون من التنظيمات العسكرية ، غير أن الترك كدولة إسلامية لم يكن في إمكانهم أن يكون جيشهم من النصارى ، فلجأوا إلى حيلة هيأخذ أولاد النصارى منذ طفولتهم ، ودفعهم إلى الدخول في الإسلام ، وتشيّعهم تنشئة إسلامية ، وتعليمهم

فنون الحرب ، وقد أقبل هؤلاء الغلمان على هذه الوجهة بشغف أهلاً في الجاه والسلطان ، ومن هؤلاء تكونت نواة الانكشارية ، وكان الغلمان النصارى الذين يختارون لهذا العمل ينشئون في قصور خاصة بأدرنة واستانبول ، وكانت تقطع صلتهم بأهليهم تماماً ، وبدلًا من ذلك تعقد الصلات بينهم وبين السلطان ، فيرون فيه كل شيء لهم ، وكان تدريسيهم يسير في صرامة وشدة ، وكانوا يختارون كل خمس سنوات ثم تناصرت المدة حتى أصبحت عامين فعاماً واحداً ، وكان بعض غلمان الأسرة يؤخذون ويترک الباقون للأسرة ، ولكن بسبب كثرة الحروب أخذت الدولة في بعض لآوقات جميع الغلمان الذين يتراوح سنهم بين العاشرة والخامسة عشرة ، وهناك مناطق كانت تتمنع بالإعفاء ، كما كان نظام البدل معروفاً وهو عبارة عن دفع مقدار من المال لإعفاء بعض الغلمان ، وكان الغلمان يظلون في معسكرات التدريب حتى سن الخامسة والعشرين ، وأحياناً كانت تتفصل هذه السن في ظروف الحرب ، وكانت التنظيمات العسكرية من هذا اللون تعرف بالانكشارية ، ولم يسمح لجنود الانكشارية بالزواج إلا في نهاية القرن السادس عشر ، فكان ذلك سبباً في أن أصبح الالتحاق بهذه الفرق بالوراثة بصرف النظر عن المقدرة العسكرية .

وبجوار الانكشارية كان يقوم جيش من جنود الإقطاع الذين كان أصحاب الإقطاع يقدمونهم للحكومة المركزية كما سبق ، ومن هؤلاء كان يتكون جيش « الطوبيجية » .

وبواسطة الانكشارية حق الأتراك العثمانيون كثيراً من ألوان النصر في الميادين المختلفة وبخاصة في الفترة الأولى ، ولكن سرعان ما أصبح الانكشارية مصدر قلق واضطراب في الدولة ، وبخاصة عندما سمح لهم بالزواج وعندما أتيح لهم أن يعملوا في التجارة والصناعة ويسرد لنا الأستاذ محمد فريد مؤلف « تاريخ الدولة العثمانية » صوراً من هذا العصيان العتيف نقتبس بعضها فيما يلى :

- في سنة ١٥٢٥ تأمر الانكشارية بعد عودة السلطان من مدينة أدرنة التي كان قد توجه للإقامة بها في فصل الشتاء ، ونهبوا سرای ابراهيم باشا الصدر الأعظم الذي كان إذ ذاك بمصر ، ونهبوا محل الجمرك ، وعدة أماكن أخرى من منازل الأعيان ، وحارة اليهود ، ولولا أن تدارك السلطان الفطب بنفسه لامتد العصيان ، لكنه أسكنهم عن السلب والنهب بتوزيع العطايا عليهم ، ثم بعد ذلك عزل بعض رؤسائهم الذين كانوا سبب هذا العصيان وقتل بعضهم (١) .

في سنة ١٦٣١ أصدر السلطان أمره بعزل خسرو باشا وإعاده حافظ باشا للصدارة ، فسعى المزول لدى الجند وأفهمهم أنه لم يعزل إلا لمساعدته لهم ، فثاروا وأرسلوا إلى الاستانة يطلبون ارجاعه ، ولما لم يتّجّب السلطان طلبهم ساروا إلى القسطنطينية وقاموا بثورة شديدة خيف فيها على حياة السلطان ، إذ دخلوا السرای السلطانية سنة ١٦٣٢ وقتلوا حافظ باشا ، فاعتُنِّقَ السلطان وقتل خسرو باشا محرك هذه الفتنة ، وأزمع السلطان العزم على مجازاة رعوّس الانكشارية وغيرهم من كان يهيج الخواطر (٢) .

- في سنة ١٧٢٧ ثار الانكشارية على السلطان وحاشيته ليطلبوا للصلح مع ملوك العجم ، وأهاج الانكشارية الأهالي ، وطلب زعيم هذه الثورة من السلطان قتل الصدر الأعظم ، والمفتى ، وقيودان باشا أمير الأساطيل البحرية ، بحجة أنهم مائلون لسلالة العجم ، فامتنع السلطان عن إجابة مطالبهم ، ولما رأى منهم التصميم على قتلهم طوعاً أو كرها سلّم لهم بقتل الصدر الأعظم والأمير ال دون المفتى ، فقطلوا هما وألقوا جثتيهما في البحر ، ولم يكتفوا بذلك بل نادوا باستقطاب السلطان نفسه ، وأعلنوا ذلك واختاروا للدولة سلطاناً جديداً (٣) .

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٨٣ - ٨٤ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٦ .

(٣) تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٤٦ - ١٤٧ .

وهكذا أصبحت الانكشارية خطراً على الدولة ، ولذلك حاول السلاطين محاولات متكررة أن يتغلبوا على هؤلاء العصاة الذين وجهوا خطراً لهم للدولة والسلطان وأصبحوا يعصون الأوامر إذا صدرت لهم بالتصدي لأعداء الدولة أو الاشتراك في الحروب ، كما كانوا يعصون الأوامر التي تتصل بالتطور الحربي والعسكري . ولذلك أجمعوا الاتجاهات على التخلص من هذه الفئة الباغية ، ويقول الأستاذ محمد فريد مؤرخ الدولة العثمانية ما يلى (١) .

لما تحقق السلطان محمود فأفضلية التنظيمات العسكرية المستعملة في جيوش أوروبا ، وسمع بما أنته الجنود المصرية المنتظمة من الأعمال الباهرة في شبه جزيرة المورة نتيجة للتنظيم العسكري الحديث الذي يسيرون عليه ، زاد تملقه بإصلاح العسكرية ، وأراد اتمام المشروع الذي لم يتمكن السلطان سليم الثالث من إتمامه ، فجمع أعيان المملكة وكبار ضباط الانكشارية في بيت المفتى سنة ١٨٣٦ ، ولما تكامل الحضور خطب فيهن الصدر الأعظم مظهراً ما وصلت اليه حالة الانكشارية من الضعف والانحطاط وعدم الانقياد لرؤسائها حتى صارت من أكبر دواعي تأخر الدولة العلية بعد أن كانت هذه الفئة من أكبر عوامل تقدم الدولة وامتداد فتوحاتها ، ثم أبان لهم ضرورة ادخال النظام العسكري الأوروبي في فرق الانكشارية ، إذ لا يمكنها بحالتها هذه الوقوف أمام الجيوش الأوروبية المنتظمة ، ووافق الجميع على ذلك ، ووقعه جميع الطافرعين ، وأصدر المفتى فتاواه بجواز ذلك ومعاقبة من يعارضه .

ولكن موافقة الانكشارية كانت ظاهرية ولذلك سرعان ما ثاروا عندما بدءوا في تنفيذ هذه الاصلاحات بتدريبهم حسب التعليمات الجديدة ، وأعلنوا أن هذه التنظيمات ستفقدتهم أمتيازاتهم وأنهم يعارضونها واستعدوا للثورة وتبعهم بعض الغوغاء .

وفي يونية سنة ١٨٢٦ بدأت الثورة ، فاستدعي السلطان مستشاريه ، فأعلنوا خروجة مقاومة الانكشارية هذه المرة ، واستدعي السلطان فرق الطوبجية ونزل بهم يتبعه العلماء والطلبة ميدان معركة ضد الانكشارية ، وأطلقت دافع الطوبجية نيرانها على الانكشارية التائرين فأخذت تحصدتهم ، وصدرت الأوامر بقتل الفارعين منهم وبتفكيهم إلى الأطراف على الأقل ، ولجا بعضهم إلى الثكنات فدمرتها المدفعية عليهم ، وانتهت بذلك هذه الطائفة ، التي كانت مصدر تقدم الدولة يوماً ومصدر تخلفها فيما بعد (١) .

البحرية العثمانية :

كانت أهم عنية العثمانيين متوجهة إلى الجيوش العبرية ، ولكن سرعان ما أرغمنهم الظروف على العناية بالقوة البحرية ، فقد خاضوا غمار حروب مع اليونان والبنادقة ، فكان على الأسطول أن يلعب دورا هاما في هذه الحروب ، كما كان عليه أن يلعب دورا هاما في فسم الشimal الأفريقي للدولة ، وقد بلغت قوة البحرية التركية غايتها في أواخر القرن السادس عشر حتى لم يكن من الممكن لأية بحرية أخرى أن تجول في البحر الأبيض المتوسط بدون اذن من سلاطين الأتراك ، ولما أعطى السلطان محمد الثالث امتيازا لفرنسا بحرية جولان أسطولها في البحر المتوسط اغتناظ الإنجليز وعملوا لدى السلطان حتى حصلوا على مثل هذه الامتياز لأسطولهم .

الموقف تجاه تكوين الانكشارية :

قبل أن تترك الانكشارية ينبغي أن نوضح موقف أتباع الديانات المختلفة تجاهأخذ أبناء النصارى لي تكون منهم جيش الانكشارية .

(١) انظر تاريخ الدولة العلية وتاريخ الشعوب الإسلامية لكل بروكلمان . والمنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ، للأستاذ أحمد النائب الانصاري ح ٢٣٣ . ٢٤٤ -

وكان من الواضح أن النصارى كانوا يضيقون بهذا التصرف وبأخذ أولادهم منهم ، ويرون ذلك هرمانا لهم من أولادهم من جانب والزاما لهؤلاء الأولاد بدخول الإسلام وهو شيء لا يقبلونه من جانب آخر ، ومن أجل ذلك كانت أسر كثيرة من أسر النصارى تحتال لينجو أولادهم من الانضمام للانكشارية ، فكانوا يدفعون فديات واسعة ، أو كانوا يزوجونهم وهم في سن هبكرة لأن قانون الجيش كان يحتم أن يكون المترافقون بالانكشارية غير متزوجين .

ومرَّ الزمن واتضح ما يستمتع به الانكشارية من تربية عظيمة ، ونفوذ كبير ، فبدأت الانتظار ترنو لهذه المناصب في شفف ، حتى أن بعض المسلمين والمسيحيين كانوا يدفعون أبناءهم لأسر النصارى لتدفع هذه الأسر بهؤلاء الأولاد إلى الانكشارية ، كما أن النصارى أحسوا بالقوس في أيديهم إذ كانت الانكشارية من أولادهم ، فلم يكن خافيا على الأولاد تحقيق أنسابهم وأديانهم الأولى ، وكان هذا من الأسباب التي أدت لثورات الانكشارية وكثرة هياجتهم .

الأثار المعمارية

يعتبر المسجد الذي تحولت له كنيسة القديسة : جوزيا عقب الفتح أهم مساجد العاصمة ، وقد بذل مهندسو السلطان محمد الفاتح جهدا كبيرا لجعل هذه الكنيسة مسجدا ، فغطّيت صور الكائنات الحية بطبيقة من الكلس ، إذ كان معروفا أن الإسلام يعارض التصوير ، وأدخل في وسط جناح الكنيسة الجنوبي محراب للقبلة ، وإلى يمين المحراب شيد المبر ، وابتعدت مساحات واسعة كتب فيها الخطاطون بعض أسماء الله الحسنى وأسم الرسول وأسماء الخلفاء الراشدين . وفي خارج الكنيسة شيدت مآذن شاهقة ، أولها في عهد السلطان محمد وباقيتها بعده .

ولم يكتف السلطان الفاتح بهذا المسجد ، بل بني مسجدا آخر بدأ

فيه سنة ١٣٦٣ وسماه الحمدى أو جامع السلطان محمد الفاتح ، كما بني مساجد أخرى هنا وهناك ، وبالاضافة إلى ذلك فقد بني المسلمين العثمانيون مجموعة كبيرة من المدارس والربط والمستشفيات ومطاعم للفقراء ، ومجموعة من الخانات والحمامات والأبار والملاجئ وغيرها .

ومن الآثار المعمارية العظيمة التي تتسب للسلاطين العثمانيين مسجد أبي أيوب الأنصارى الذى سبق الحديث عنه . وقد شيد في عهد محمد الفاتح ، وكان هذا المسجد موضع اجلال سلاطين العثمانيين ، فكان الخلفاء الجدد يذهبون إليه حيث يتقدلون سيف عثمان أشعاراً بيضاء خالق THEM ، وبالقرب من هذا المسجد كان مدفن المسلمين وكبار رجال الدولة .

ومن أهم آثار العثمانيين مسجد بايزيد الذى يمتاز بخامة مواده البناءية وبزخرفته على الطريقة الفارسية ، ومسجد سليمان القانونى الذى تضاعلت أمامه جميع مساجد العاصمة لضخامته وجلاله ، وألوان الابتكار في تصميمه ، والارتفاع في مآذنه ، والسخاء في الاتفاق عليه .

وكان كثير من الوزراء وولاة الأقاليم يبنون الربط والمساجد والمدارس ، وكان يدفعهم لذلك تهريب الأموال . أ . حاولة التخلص منها بطريق يخدع ولاة الأمور ، إذ كانت الرشوة منتشرة وكان هؤلاء ينالون منها نصبياً كبيراً ، فإذا أحس الواحد منهم بأن مصادره مالية مستقرة عليه بادر بأأن يعلن أنه سيقوم ببعض الأعمال الخيرية ، ويبدأ فعلاً في تشييد المدارس والربط والمساجد وما ماثلها .

إهمال المؤسسات الزراعية والصناعية :

ويلاحظ في الآثار المعمارية أنها ذات صلة بالدين بين مساجد ومدارس دينية وربط وزوايا في أكثر الأحوال ، وليس في الآثار المعمارية التركية شق طرق أو إقامة سدود ، قان الأتراك لم يبذلوا عناء تذكر بالزراعة والصناعة وغيرها مما يرفع شأن الرعية ويكتب لها الرفاهية .

المؤسسات الدينية للتمويل :

كانت بعض المؤسسات الدينية تعبيراً عن روح الإسلام وخدمة المسلمين ، ولكن في كثير من الحالات شيدت هذه المؤسسات للتمويل وال搆ليل ، فكثير من المسلمين الذين عرفوا بالمجون وادعاء الخمر أنشئوا مساجد شامخة بلغت غاية الروعة في الجمال ، وكانوا يقصدون بذلك تضليل الناس ، وصرفهم عن الحديث عن المجون والغلاعة التي كانوا يعيشون فيها ، ومن هؤلاء الذين فعلوا ذلك : السلطان سليم الثاني ، والسلطان أحمد الثالث .

سيدات البلاط والشأن (المسجد) :

وقد اشتراكن كثيرات من سيدات البلاط في إنشاء المساجد الضخمة في أمثلة متعددة ، ولكن ذلك ظهر عن صفاتهن التقوى ، كما كان يصرفن النساء عن تدخل النساء في الحياة السياسية .

تعالي الترك على طلاقه لورها :

قبل أن نتحدث عن حرف الامبراطورية العثمانية والبلاط، ينبغي أن نورد لحة عن عذمة المسلمين إيسان قوتهم ، تتقول المصادر أن سلطان العثمانيين كان من شأنهم الاستسلام على الملوك المعاصرین لهم بالدول الأوروبية ، بل كانوا يعودون هذه الدول كأنها إمارات تابعة لهم ، ويقمع ذلك لمن ينظر في اتفاقية الهدنة التي وقعت بين العثمانيين والنمسا ، فقد وردت العبارة التالية في مقدمة الاتفاقية :

منحت هذه الاتفاقية عصى تقضيل من السلطان
أبدى "انتصار إلى ملك النمسا المنظوب دوماً

- ٨٥٧ -

وقد ظل سلاطين العثمانيين أمدا طويلا يرفضون تعيين سفراء لهم لدى الدول الأوربية ، اعتقادا منهم أنهم في غنى عن سائر العالم ، أمّا الدول الأخرى فكان لها تعيين سفراء في استانبول باعتبارها عاصمة العالم .

وكانت مقابلة السفراء للسلطان تتم وسط مراسم وتقاليد هزيرية لهؤلاء السفراء^(١)

وعندما انتصرت أوروبا المسيحية أنزلوا القصاصن الظالم بالامبراطورية العثمانية ، وبالدول العربية جميعا

(١) انظر الدولة العثمانية للدكتور عبد العزيز الشناوى ص ٣٢١.

الخلافة العثمانية في الميزان

لماذا لم ينتفع العثمانيون بالفكر الاسلامي أو بالفكر الغربي؟

لقد اتضحت لنا مما سبق أن العثمانيين لم تكن لهم ثقافة إلا في الشؤون العسكرية ، ثم انهم عاشوا عصرهم في نضال عسكري ضد أوروبا وضد روسيا وضد الصوفيين باليان ، ومن هنا لم يجدوا الوقت الكافي ليجلسوا مجلس المريد أمام الفكر الاسلامي الذي كان العرب يحملون لوعه ، ولا أمام الفكر الحديث الذي كان الأوروبيون يقودون آنذاك نهضته ، وظلوا يعيشون في صراعهم العسكري دون الاهتمام بالاتجاهات الفكرية .

وتعزفوا أحياناً على بعض الأفكار الصالحة أو التقوى ببعض المصلحين ، ولكن طبيعتهم العسكرية لم تكن خصبة تحسن استقبالاً بذور الاصلاح وتنميتها ، فكانت هذه البذور تذوي في رحابهم وتضليل .

وبسبب ذلك وقعوا في كثير من الأخطاء في مجالات متعددة كما أشرنا من قبل .

ولكن ، ألم تكن لهم حسناً تذكر فتشكر ، وتوضع في الكفة الأخرى من الميزان؟

في الحق أن الخلافة العثمانية كانت ولا تزال هدفاً للمهاجم وللحراب ، وإن قارئ تاريخهم يواجه سلسلة من الأخطاء تتسبّب لهم ، ولا يكاد يقابل حسنة ذات مآل . هل ما نقرؤه يمثل الحق ويعطي صورة صادقة للذى حدث أو أن أفلام المؤرخين انحرفت ضدهم ، فأهملت جانب الخير وأبرزت جانب الشر وضفتته؟

في الإجابة عن هذا السؤال نقرر أنه لا يمكن أن تخلي دولة كالأمبراطورية العثمانية من الحسنات ، وما كان من الممكن أن تعبر هذا

الزمن الطويل وهى تعيش في سلسلة من الظلام والتخلف ، ولابد أن لها بعض الحسنات ولكنها ضاعت في ضجيج الأخطاء من جانب ، وبسبب تحييز المؤرخين من جانب آخر .

ولهذا فمن الأفضل هنا أن نعرض موضوع مهم سيساعدنا في التعرف على أهم الأسباب التي زرعت الضباب حول تاريخ العثمانيين ، وهذا الموضوع هو :

تدوين تاريخ العثمانيين :

يعتبر تاريخ الخلافة العثمانية من التاريخ الغامض الذي تحيط به الشبهات ، وذلك راجع إلى الانحراف في تدوينه ، فمن الذي دون تاريخ العثمانيين ؟

ان المحايدين الذين دونوا تاريخ العثمانيين قليلاً ، وقد اعتمدنا عليهم في هذه الدراسة ، ومح رغبتهم في الحيدة فان عناصر غير منصفة دخلت دراساتهم من المصادر بعيدة عن الحيدة .

ان الغربيين كانوا أكثر اهتماماً بتدوين تاريخ العثمانيين ، وهؤلاء كانوا بعيدين عن الأسف ، وشديدي العداء للدولة العثمانية ، وبالتالي ظهر في كتاباتهم اتجاه التعمق ضد العثمانيين الذين كانوا خلال فترة طويلة ممثلين للاسلام وعاملين على نشره بأوروبا ، وذلك شيء يضاف إلى الغربيين الذين لم يستطعوا التقدم العلمي أن يقتلع جذور الصليبيين القديمة من رءوسهم (١) .

ودونوا التاريخ العثماني بواسطة العرب ، ولكن العرب حينما دونوا التاريخ العثماني كانوا يعيشون فترة صراع مع العثمانيين بسبب

(١) شكيب ارسلان : حاضر العالم الاسلامي - ٢ من ٢١٧

— ٨٦٠ —

العناء الذي لاقوه من هزائم العثمانيين ومن بعض ولائهم ، ثم ان العرب كانوا آنذاك قد ساد في حياتهم الثقافية أثر الفكر الغربي الذي كان يمقت العثمانيين ، وقد جاء الفكر الغربي الى مصر عن طريق الاحتلال الانجليزي ، ووفد الفكر الغربي الى سوريا ولبنان مع النفوذ الفرنسي الذي بكر في غزو الشام ، ثم أن العرب تأثروا بالصحافة العربية المبكرة ، تلك التي كان محرروها من المارونيين غالباً ، وكان هؤلاء مسيحيين تربوا في معاهد الارساليات التي كانت مركزاً لعداء الاسلام والمسلمين ٠

ودون تاريخ العثمانيين كذلك بواسطة الآثار بعد سقوط الخلافة ، ومن الواضح أن مدوني التاريخ من الآثار آنذاك كانوا واقعين تحت نفوذ النظام الجديد المعادى للخلافة وللإسلام ٠

من أجل هذا ولسواه يعتبر تاريخ الخلافة العثمانية غير دقيق ، وقد حاول الدكتور عبد العزيز الشناوى أن ينصف هذا التاريخ ، وبدأ كتابه بروح فيها وُدٌّ ، وسمى كتابه :

الدولة العثمانية : دولة اسلامية مفترى عليها

وهو كتاب جاء في ثلاثة أجزاء ، ولكن تقرؤه فتجد أن المؤلف يقدم القضايا التي تدين العثمانيين أكثر مما تتصف به ، ويمكن أن يلتمس له العذر لأسباب التي أوردنها ٠

وعلى كل حال هناك حسنات ومساويه لا يمكن تجاهلها ، وفيما يلى أهم ما يمكن تدوينه منها :

حسنات العثمانيين :

إن الدارس لحياة العثمانيين يستطيع أن يسجل لهم مجموعة كبيرة من الحسنات ، ويمكن إيجازها فيما يلى :

- ٤٦١ -

أولاً - توسيعات عسكرية فتحت مجالاً للإسلام :

يوضع في القمة في هذا المجال اسقاط القسطنطينية العاصمة البيزنطية التي قاومت المسلمين عدة قرون واستحصت عليهم ، وكان سقوط هذه العاصمة في نفس القرن الذي سقطت فيه أسبانيا في أيدي الفرنجة فاندلل بذلك جرح المسلمين بعض الشيء ، وعند ما حصلت الانكماش الإسلامية في غرب أوروبا كان هناك زحف إسلامي يخطو من جهة الشرق .

ومن الواضح أن العثمانيين لو اتجهوا بفتحاتهم إلى مناطق آسيا لكان الطريق أكثر يسراً ، فان هناك مناطق في الهند وفي جنوب شرقى آسيا كانت ترحب بالعثمانيين وتهدى بهم الأعداء ، ولكن زحف العثمانيين على أوروبا حمل ثأراً للضيم الذى أنزلته أوروبا بال المسلمين في الأندلس منذ وطئت أقدام المسلمين هذه البلاد ، وسواء قصدت الخلافة العثمانية ذلك أو لم تقصد ، فإن ذلك كان أمراً واقعاً لا يمكن تجاهله .

ومن أبرز ما ينسب للعثمانيين كذلك أنهم استطاعوا الاستيلاء على عدد من جزر البحر المتوسط ، فدخلوا رودس سنة ١٥٢٢ وبيرص سنة ١٥٧١ ، وكربيت سنة ١٦٦٩ ، وجذبوا لهذه الجزر دين الإسلام عن طريق الهجرات التركية إليها وبخاصة إلى قبرص وعن طريق دعوة غير المسلمين إلى الإسلام .

وحرص العثمانيون على أن يجعلوا البحر الأحمر منطقة إسلامية ومن هنا مدوا نفوذهم في عهد سليمان القانوني إلى مصوع وسواكن سنة ١٥٥٧ .

وكان امتداد الإسلام بأوروبا واسعاً في عهد العثمانيين فقد وصلوا إلى فيينا عاصمة النمسا ، وقد حرص العثمانيون على نشر الإسلام بالبقاء التي دخلوها بأوروبا ، إذ كانت حملاتهم العسكرية يصاحبها الوعاظ والعلمون الذين يقومون بنشر الإسلام في الامتدادات التي وصلت لها

الدولة ، كما أن السلاطين والأمراء والآثرياء العثمانيين اهتموا اهتماماً كبيراً بإقامة المساجد والمعاهد والخوانق لتعليم الإسلام والمدعوة له مما جعل عدداً كبيراً من الأوروبيين يعرفون الإسلام ويرتبطون به حتى الآن .

ثانياً : الدفاع عن الأرض الإسلامية ضد الزحف الأوروبي :

وبذل العثمانيون جهوداً مشكورة في مجال الدفاع عن الأرض الإسلامية التي تعرضت لمحاولات غربية للسيطرة عليها ولعل من أقدم المحاولات التي قام بها الغرب للتضييق على العالم الإسلامي هذا الكشفُ الذي قامت به البرتغال حين دارت ح حول إفريقيا واكتشفت طريق رأس الرجاء الصالح وحاولت أن تسيطر على الإمارات العربية الساحلية وعمان وقد حققت البرتغال بعض النجاح ، ولكن جهود السكان العرب بهذه المناطق وجهود العثمانيين ، قضت على المحاولات البرتغالية التي كانت سياسية ودينية في نفس الوقت .

ومن أهم ما قدمته الدولة العثمانية لخدمة الإسلام أنها وقفت في وجه الزحف الصليبي الذي اتجه بخطبه للمساس بالأماكن المقدسة بالحجاز في أوائل القرن السادس عشر حيث كان الزحف البرتغالي يجعل من خطبه اجتياح الحجاز عن طريق السيطرة على البحر الأحمر ، ولكن الأسطول العثماني وقف لهم بالمرصاد وأرغمهم على التراجع عن هذا العدوان .

ومن المعروف في التاريخ أن الشمال الأفريقي تعرض لزحف من الفرنجة عقب انتصار هؤلاء على المسلمين بالأندلس واتجه الصليبيون الغربيون إلى احتلال أجزاء واسعة من الشمال الأفريقي وبخاصة الجزائر وطرابلس ، وقد لجأ سكان الشمال الأفريقي للدولة العثمانية يطلبون عندها ضد المعتدين فاستجابت الدولة العثمانية لهذا الطلب ، وكمان في

ذلك حماية للشمال الافريقي ، أوضحتها بشيء من التفصيل بالجزء الرابع من هذه الموسوعة .

ومن الواضح للمؤرخين أن الصليبيين عندما طردوا من الشام لم يستسلموا استسلاما تماما أمام المسلمين وأخذوا يسعذون العدة لزحف جديد وأرادوا في هذه المرة أن يكون زحفهم أوسع ، وغير متوجه إلى الشام فقط ، ولكن وجود الدولة العثمانية قاوم هذا الاتجاه ، مما يمكن معه أن نقرر أن الوحدة الإسلامية في ظل الإمبراطورية العثمانية قد أخفقت الزحف الاستعماري إلى الدول العربية ، وقاومته بشدة ، ولم تنجح الدول الاستعمارية في تحقيق غالياتها إلا بعد أن ضعفت الإمبراطورية العثمانية .

ثالثاً : الإمبراطورية العثمانية تواجه الصهيونية :

اتجه الصهاينة منذ عهد بعيد للسيطرة على فلسطين وبخاصة المناطق المقدسة بها ، وكانوا يزعمون في هذا النطاق أنهم يستعيذون بأرضهم التي عاش فيها أجدادهم الأبعدون فترة من الزمن ، وكان مولد الحركة الصهيونية الجديدة معاصرًا للنشاط العثماني في الأرض العربية ، ولكن الصهاينة لم يحققوا أي مأرب لهم في ظل العثمانيين .

وقد تجددت محاولة الصهاينة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ - ١٩٠٩) ولكنه رفض بقوة السماح باقامة وطن يهودي للصهاينة بفلسطين ، ويُروى أنه بعد عقد مؤتمر بالسويسي سنة ١٨٩٧ الذي قرر اقامة وطن لليهود بفلسطين ذهب أحد قادة التنظيم الصهيوني وأسمه « فره صو » إلى الخليفة عبد الحميد وذكر له أن الحركة الصهيونية مستعدة أن تقدم قرضاً للدولة قدره خمسون مليوناً من الجنيهات وأن تقدم هدية لخزانة

السلطان الخاصة قدرها خمسة ملايين من الجنسيات نظير منح اليهود الحق في اقامة وطن قومي لهم بفلسطين ، وكان رد السلطان أن صرخ في حاشيته قائلاً « منْ أدخل علىَّ هذا الخنزير ؟ » وطرده من البلاد وأصدر أمراً بمنع هجرة اليهود إلى فلسطين ، ويقال ان هذا الصهيوني كان ضمن الذين أعلنا أقصاء الخليفة من السلطة سنة ١٩٠٩ مما يزعزع الثقة في الاتحاديين ، وبخاصة أن حكمهم سرعان ما انقلب إلى عنفه وطغيان .

رابعاً : الدولة العثمانية وحماية سيناء من اليهود :

اتجه اليهود إلى سيناء لتكون مهاجراً لهم ، وبخاصة أن منطقة الطور هي المنطقة التي تلقى فيها موسى رسالته زرمه ، وقد اتجه اليهود إلى الهجرة نحو هذه المنطقة ، واتخاذها مكاناً لمigration اليهودية واسعة إلى سيناء ، وقد أحسن سلاطين العثمانيين منذ فتح مصر بهذه المحاولات اليهودية ، ولذلك أصدر السلطان سليم الأول وأبنه السلطان سليمان القانوني فرمانات تمنع اليهود من الهجرة إلى سيناء ، ولكن في عمود ضعف الخلفاء العثمانيين بدأ اليهود يهاجرون سراً إلى إدريسي وجماعات إلى هذه المنطقة ، بيد أن رهبان دير سانت كاترين أحسوا بالخطر يهدد المنطقة ، فشكوا إلى الوالي العثماني بالقاهرة من أن اليهود سيكونون مصدر خطر على الدير وعلى مصر ، واستجابت الدولة العثمانية لهذا النداء ، وأمرت باخراج اليهود وأسرهم من منطقة الطور ، وعدم السماح في المستقبل بهجرة اليهود إلى سيناء جميعها .

خامساً : الدولة العثمانية ومحاربة التشيع :

ذُكرت في الجزء الثاني من هذه الموسوعة خطر من أسميناهم (مدعى التشيع) هؤلاء الذين لم يتمتعن بالإسلام في قلوبهم ولم يعرفوا التشيع الصحيح لآل البيت ، وإنما أدعوا الإسلام ، وادعوا التشيع ليحدثوا بالعالم الإسلامي صوراً من الصراع والتدمير ، وذكرنا أن هؤلاء ينحدرون من الأصول اليهودية التي كانت قد بقىـت ببلاد فارس منذ عهد الأسر

- ۸۷۰ -

البابلي ، كما ينحدرون من حاشية الأباطرة التي روّعها انتصار المسلمين
وسب سلطانها .

وذكرنا كذلك أن مبادئ هؤلاء انسابت بين الشيعة الحقيقيين في فترات ضعف الشيعة أيام أعدائهم الأمويين حتى أصبح من العسير التمييز بين المبادئ المفترضة لمدعى التشيع ومبادئ الشيعة الحقيقيين ، فقد أصبح موضوع الامامة موضوعاً رئيسياً عند أكثر الشيعة أو كلهم ، ويتبين الاعتقاد بأن علياً خير البشر ، وأنه قد تم تعيينه اماماً بعد الرسول ، وأن استبعاده عن السلطة كان اغتصاباً لها . . .

والمهم أن شيعة الفرس الذين أصبحوا يمثلون التشيع الجديد حرصوا على نشر مذهبهم في الأماكن المتعددة ، وبخاصة في العراق وبلاد الخليج لاتصالها باليران ، بيد أن هذه البلاد كانت تدين بالسلطة للعثمانيين ، وقد استطاع العثمانيون أن يوقفوا المد الشيعي الفارسي ، ولو لا العثمانيون لكان من الممكن أن تناسب أفكار مدعى التشيع إلى عدة مناطق بالعالم الإسلامي .

وبهذه المناسبة نذكر أن الشيعة الحقيقة تتمثل في حب آل البيت وتقديرهم ، وفي مظاهر الاجلال الكامل لعلی " بن أبي طالب رضي الله عنه لقربه من الرسول ، ومصايرته له ، ولعلمه وفضله وخدماته للإسلام ثم لأولاده كذلك . وذلك شيء يتضح تماما لدى كثريين من المسلمين ، ولدى المصريين يوجه خاص .

أيضاً التشيع بمعنى الامامة الالزامة لعلى وأولاده ، ومعنى الظاهر والباطن فلا يميل لها أكثر المسلمين .

ذلك حديث موجز عن حسنات العثمانين ، أما الحديث عن المأخذ فقد تناولناه عند حديثنا عن أسباب « ضعف الامبراطورية العثمانية » ولكننا هنا نستطيع أن نضيف بعض المأخذ التي لم يشملها كلامنا فيما سبق :

ما خذ على العثمانيين

هناك ما خذ خطيرة تؤخذ على العثمانيين ، وقد ورد أكثرها في وثيقة مهمة من « الخط الهمایونی » أى الإعلان السامي الذي أمره السلطان عبد الحميد معدّاً أمراض الدولة ، وواعداً بإصلاحها .

الحكم المطلق :

ويقف في قمة السيئات نظام الحكم المطلق وقد تحدثنا عنه من قبل ، وكان هذا النظام يضع مقدرات هذه الامبراطورية الفسيحة في يد شخص واحد هو السلطان ، ف يجعله مصدر القوانين ، ويجعل سلطاته بدون حدود ، وطبعي أن الاستبداد والحكم الفردي المطلق كانا من الانحطاط وأسباب ضعف الدولة ، وقد عبرت الامبراطورية أكثر عبّراً ما في ظل هذا النوع من الحكم ، وكانت النتيجة انتشاراً في الداخل وغزائم في الخارج ، وقد تحدثنا من قبل عن الغزائم التي مسّ بها العثمانيون في الميدان الخارجي ، ونريد هنا أن نقول كلمة عن صور الاضطراب الداخلي :

تدخل خارجي باسم الأديان :

كانت الدولة خليطاً من أجناس غير متعاونة : وكان هذا يتجسد فيما نفوا وإنطروا دون انقطاع ، وكانت الدولة كذلك خليطاً من الأديان ، غالبيود لا يعرفون الولاء للدولة وهم ينتهزون الفرص للاثراء ولا هم لهم سواه ، والمسيحيون يوثقون صلاتهم بالدول الأوروبية التي تدعى أنها مسؤولة عن حمايتهم ضد التنصب الديني الذي كانت تشنّ به زوراً الدولة العثمانية ، وال المسلمين مغلوبون على أمرهم ، ليس لهم نصير في الداخل ولا لهم عنون خارجي .

اضطرابات اقتصادية واجتماعية :

ومالية الدولة فاسدة ، فلا ميزانية ، ولا اصلاحات ، والرشوة تملأ كل مكان كأنها فانون لا يعترض عليه ، والحرية مفقودة ، والمصادرات

- ٨٦٧ -

تهدد كل مالك ، حتى لم يعد أحد يحس بالاطمئنان لغده ، والدولة تستدين من الخارج حتى بلغت ديون الدولة في عهد السلطان عبد العزيز ٥٣٠ مليون ليرة ، والفقر الشائع والجوع المنتشر يدفعان الناس للسرقات وقطع الطرق .

وصحة أبناء الشعب تتدهور ، والجهل يتنفس ، والذاء يضر صاحبه ، والثقافة ينظر إليها على أنها تدفع للتمرد والعصيان ، والجواسيس ينتشرن في كل مكان ، حتى أصبح أهل البيت يخشى بعضهم بعضاً ، والشعودة والدجل تسيطر على أكثر العقول ، وصاحب « الجلالة الشاهانية » وبخاصة في بعض الفترات كما سرى بعد قليل ، لا يهمه غالباً إلا هواه ، والا الموسيقى والبذخ والنعيم ، وأما العدالة فليست كاملة ، فالمحاكم كثيراً ما تحكم في التقاضي المهمة كما تريد شهوة الحكم لا كما يشاء القانون .

صور من طفيان المسلمين :

وتولى المسلمين المترفون على الحكم ، واشتدت أزمات الدولة في الداخل والخارج ، ولكن هؤلاء ظلوا في طريقهم ، وظلوا يهيمنون بالطبع ينعمون، بما على حساب الشعب المحتاج ، وشهد القرن التاسع عشر مجموعة من أشد الخلفاء استبداً وأعنفهم بطشاً ، بدأت بمصطفى الرابع (١٨٠٧) فمحمود الثاني (١٨٠٨) فعبد الحميد الأول (١٨٣٩) فعبد العزيز (١٨٦١) فمراد الخامس (١٨٧٦) فعبد الحميد الثاني وليس في هؤلاء واحد يفضل الآخرين ، وكان كل منهم عندما يتولى يُعدّ بإصلاح الحال ، ولكن سرعان ما تصبح كلمة الإصلاح أبغض الكلمات إليه وأكثرها إثارة ، بل صارت كلمة إصلاح أو مصلح في كثير من الأحيان تهمة يذكرها أكثر الناس خوفاً من عاقبها ، كتهمة الشيوعية والإلحاد في بعض الدول في العهد الحاضر . وبلغ عبد العزيز في التعسف مداه ، فاحتلال عليه هوادة التجديد ودبوا مؤامرة عزلوه

- ٨٦٨ -

بها ثم قتلوه ، وتولى بعده مراد ولكن سرعان ما ظهر اختلاط عقله فعزل ، وجاء بعده عبد الحميد الثاني الذي سينكلم عنه فيما بعد .

وهناك مأخذ اقتصادية يمكن أن يستخلصها الباحث على الدولة العثمانية ولكننا ننادر فنقرر أن أكثر هذه المأخذ راجع إلى الصراع الطويل القاسي الذي دار بين العثمانيين ، وبين الصليبيين الغربيين ، فقد استند هذا الصراع إلى السلاح والمال والجهاد ، ولم يكن للدولة خيار فيه فالعمدوان صليبي يُعتبر امتداداً للحروب الصليبية بالشرق .

صراع مدمر مع الصوفيون :

ثم كان هناك صراع آخر بين العثمانيين والصوفيين وكم أربع
شيشة من دماء ، وضاعت فيه من أموال .

حالة العرب :

وكان طبيعياً أن تؤثر هذه الحروب وبذلك على الجانب الاقتصادي للدولة ، وبالتالي على مستوى معيشة الفرد في الإمبراطورية العثمانية يوجه عام والشعوب العربية بوجه خاص ، فمن الثابت تاريخياً أن العالم العربي عانى اقتصادياً خلال تبعيته للعثمانيين فقد كانت العاصمة العثمانية تتطلب من الضرائب أكثر مما يطيقه الشعب ، ولم تكن تقدم خدمات ذات بال في المرافق نظير هذه الضرائب ، ومن هنا فإن مستوى معيشة الفرد في العالم العربي أصبح هابطاً للغاية ، بل إن كثيرون من المقدرين اضطروا أن يخوضوا أموالهم حتى لا يتعرضن للمصادرة ، أو السلب وتظاهر هؤلاء بالفقر مما يجعل الفقر يسيطر على القادر والمسكين على حد سواء .

مذابح باسم الدين :

وقد حدثت في الدولة مذابح بين المسلمين والمسيحيين ، وكان المسيحيون يبدأون بهذا العمل الوحشي ، ولكن الانتقام يجيء عقب

ذلك ، ويكون من باب معالجة الخطأ بخطأ مثله مما زاد الدولة اضطرابا وصراعا .

ويأخذون عن الدولة العثمانية أنها متذ عهدها المبكر في مصر صدرت أوامرها بترحيل أعداد كبيرة من علماء الفكر الإسلامي ورجال الأفتاء ، والنوابغ في الحرف ، ورجال الأعمال ، وقد بلغ عددهم زهاء ألف وثمانمائة رجل ، أنتزلاهم السلطات العثمانية تباعاً في سفن نيلية شقت طريقها إلى الاسكندرية ومنها استقلوا السفن العثمانية إلى استانبول (١) .

ويعلق ابن إياس (٢) على هذا التصرف بقوله: تعطل في مصر نصوص خمسين صنعة .

ويمكن أن نقول : إن هذا العدد لا يمكن أن يكون شديداً التأثير على الحياة الفكرية والصناعية بمصر ، هذا بالإضافة إلى أن السلطان سليمان القانوني عندما جاء إلى الحكم سنة ١٥٢٠ بعد ثلاث سنوات من فتح مصر ، أصدر فرماناً بعودة المصريين إلى مصر (٣) .

ويذكر الدكتور عبد العزيز الشناوى أن كثيرون منهم رفضوا العودة وأثروا البقاء في استانبول (٤) .

وهكذا عندما نضع في الميزان حياة الإمبراطورية العثمانية نجد الميزان متراجحاً ، وبخاصة إذا لاحظنا المساوىء التي سفردها فيما يلى عند حديثنا عن أسباب ضعف الإمبراطورية .

(١) دكتور عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة منتدى عليها ص ٦٩٠ .

(٢) تاريخ مصر ١٥٢٠ م ٢٧ جوان شعبان سنة ٩٢٣ .

(٣) ابن إياس : تاريخ مصر ١٥٢٠ م ص ٣٩٤ .

(٤) المرجع السابق .

ضعف الامبراطورية العثمانية

تهاوت الامبراطورية العثمانية كما أشرنا من قبل وكما سنرى فيما بعد ، حتى انتهى أمرها إلى دولة صغيرة في الأراضي مع شريط ضيق في الجانب الأوروبي لبحر مرمرة ، ما العوامل التي هدمت هذا الوحش الكاسر وحطمت أنبيائه ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال ستحمل المزيد من مساوىء الحياة العثمانية ، وهكذا هذه الإجابة :

اتساع الرقعة مع سوء الإدارة :

يقول الدكتور أحمد السعيد سليمان (١) إن إدارة بلد واسع إلى هذا الحد أمر صعب جداً ، وبالاضافة إلى ذلك فقد كان فقدان العدالة وفساد الإدارة والرشوة والسرقات كان كل ذلك من العوامل الداخلية التي ساعدت على التدهور ، ولقد كان من الممكن أن يتاخر الانهيار لو قنع العثمانيون بمساحة صغيرة من الأرض دون هوس الفتح الذي وسم ملوكهم وأدخلهم حروباً كثيرة دمرتهم ، وجعل امبراطوريتهم محاطة بالأعداء من كل جانب .

ضعف السلاطين المتأخرین :

ابتداء من حكم سليم الثالث سنة ١٧٨٩ بدأ ضعف السلاطين يتضح ، فلم يعودوا يقودون الجيوش ، أو يرأسون جلسات الديوان السلطاني ، وتركوا تلك المهام للصدر العظام ، وانجذب السلاطين لأجنحة الحريم مما جعل بعض الحريم يطمئن في السلطة وأصدر الأوامر ، وهان الخلفاء بذلك فصدرت قرارات عزل بعضهم ، بل قتل بعضهم على يد الانكشارية وغيرهم .

(١) تاريخ الدول الإسلامية ج ٢ ص ٤٤٤ .

تختلف بالنسبة للأوربيين :

كانت الامبراطورية على صلة بأوروبا منذ تعمقت في القارة ، ولكنها عجزت عن تطوير حياتها عسكرياً وسياسياً واقتصادياً بالنسبة للدول الأوروبية المحيطة بها ، وهذا أبرز عجزها وضعفها .

تعدد الأجناس والأديان :

ويقول الدكتور فيليب حتى (١) « إن دولة يوضع نظامها لغرض حربى دون الالتفات إلى مصلحة الشعب ، وتنتسب رقعتها فقمة إلى حدود بعيدة وتشمل مساحات غير متشابهة دون أن ترتبط بوسائل منظمة للنقل ، فيها خليط من السكان غير متجانسين ، بل مختلفون شيئاً وأحياناً دينية وطائفية وعنصرية . . . إن دولة مثل هذه لتحمل في طيات كيانها بذور الانحلال والفساد » .

مساوية القسطنطينية تتبعكن على الدولة :

ويقول Sir Mark Sykes (٢) : كان فتح القسطنطينية تاجاً يزيّن مفرق الترك ولكنه كان لهم – إلى جانب ذلك – ضرورة قاصمة ، فلقد ورث الترك فيها « ناسد بيزنطة » ، ومساوية، أبنائها ، من الخصمان وحراس القصر ، والجواسيس ، والمرتشين ، والوسطاء ، إذ ظل هؤلاء جميعاً كما كانوا ، لقد حسب العثمانيون أنهم وجدوا كنزًا ، ولكنهم في الحقيقة ترددوا في وباء .

الزواج من الأوربيات :

وتزوج السلاطين من بنات أمراء الغرب المغلوبين ، ففتح هذا الزواج الطريق إلى خلق عيون للغرب في بلاط الخلفاء المسلمين ، وطالما

(١) تاريخ العرب ج ٣ ص ٨٤٤ .
The Turkish Empire p. 185. (٢)

أفشت هؤلاء الزوجات من أسرار المسلطين ما يسبب لهم المزائم حتى، حروبيهم وسبب كشف خططهم ، كما أدى نظام الحرير إلى صور دنيئة من الفتن والاغتيالات والمؤامرات هذه ذلك من كيان الدولة وأضعف الناحية الروحية بها .

انحدار الانكشارية :

وانحدر الانكشارية كما رأينا من قبل إلى المساوىء والمفاسد ، فكانوا معمولاً يقوض بناء الدولة بعد أن كانوا دعائم لقوتها وانتصاراتها .

نبع الرشوة :

وأسرف الولاة وكبار الموظفين الترك في سوء السيرة ، وكانت الرشوة تمارس كثيئه مشروع لا غبار عليه ، ومن أعجب صور الرشوة ما تقاضاه الصدر الأعظم من الروس أعداء الدولة ليهينه بطرس الأكبر وجيشه أن يفلتوا من أسر كاد يكون أمراً لا مفر منه في المعارك التي جرت بين الروس والثمانين سنة ١٧٦١ على نهر البروت .^(١) ويحكي الأستاذ محمد فريد وجدي خبر هذه الحادثة فيقول : « إن الصدر بالطة جى محمد باشا تقدم على رأس جيش كثيف ليرد زحفاً قام به الروس بقيادة بطرس الأكبر متبعين شارل ملك السويد الذي كان قد هزم في معارك ضد الروس ولجا إلى البلاد العثمانية ، ونجح الصدر في تقدمه فعبر نهر الدانوب وأحاط بطرس الأكبر وبجيشه ، ونفذت المؤمن من الروس كما نفذت الذئاب ، وأوشك الجيش والأميراطور أن يقعوا أسري في أيدي الترك ، ولكن كاترين امرأة بطرس جمعت جميع حليةها وحطى من معها من الأميرات

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٣ ص ١٥٥ .

ونهر بروت يصب في الدانوب وينفصل بين الاتحاد السوفياتي ورومانيا .

وأرسلتها هدية الى الباشا فقبلها وأبرم صلحاً مع بطرس الأكبر أنجاه وأنجبي جيشه من الأسر^(١) .

انحلال القصور :

وانتشرت المفاسد في القصور وأصبح بعض الخلفاء يحيون حياة غريبة عن روح الإسلام وعن العقل السليم ، ويقول الاستاذ محمد كرد على^(٢) إن مراد الثالث كان مظهراً من مظاهر الإفراط في كل شيء ولا سيما في الاسترسال في مساوئه ، وقد سهلت له أمّه وزوجته الطريق للحصول على شهواته ، وخلفت ١١٦ ولداً . وكان ابراهيم الأول متهتكاً سبيلاً الشيرة ، قيل إنه قتل ١٠٠٠٠ إنسان ، منهم ٢٥٠٠٠ أمّام عينيه ، وكان يبكي كل أسبوع بيكر وتقام له الأفراح ، وكان بايزيد الثاني على جانب من السفاحة ، فانتشرت المفاسد والمنكرات في أيامه في كل مكان بين الخاص والعامل ، ونسى الناس الشرع وعيثوا بأحكام الدين ، وكانت تتحمل إليه أطيب المسكرات وألطاف المغنيين والمغنيات والموسيقيين والموسيقيات ، ولا شأن للكراء إلا أن يأتوه بما ترغب فيه نفسه من الجواري والغلمان .

الحروب ومواجهة آنفوي دول العصر :

ومن عوامل الضعف أيضاً تلك الحروب التي طال أمدها في ميادين مختلفة وما تأكله من أرواح وما تطلب من أسلحة وأموال ، وبخاصة مع امتداد خطوط القتال والابتعاد عن مراكز الإمداد ، والتوجه في جهات مختلفة من العالم ، فحروب في المجر ، وحصار لدببة فيينا ، ومعارك في الجزائر ، وحملات إلى اليمن ، وصراع في فارش ، ولا شك أن هذه الحروب تنهك الجنود وتستنزف الأموال^(٣) .

(١) دائرة معارف القرن العشرين ج ٢ ص ٦٩ .

(٢) الإسلام والحضارة العربية ج ٢ ص ٥٠١ - ٥٠٣ .

(٣) انظر تركيا والسياسة العربية من ٤٢ .

على أن من أهم عوامل ضعف الدولة اصطدامها بدول ثلاثة كبيرة في الشرق والغرب هي الروس والألمان والصفويون ، ويوضح Kirk أثر الحروب التركية الفارسية في اضعاف الأتراك فيقول (١) :

قد كانت دولة الأتراك العثمانيين ، كسابقتها الدولة البيزنطية مضطرة إلى توزيع عناصر قوتها الفعالة ما بين الشرق الأوسط وبلاط البلقان ، التي ربما أربكت مصالحهم فيها على مثلها في الشرق الأوسط ، وقد كان المركز الرئيسي لكلّ من الدولتين الشطر الشرقي من البحر الأبيض المتوسط ، ولكنهما جمعيا طرحا بمواردهما في حروب مستمرة ضد خصم قوي هو دولة فارس التي تبعدها عن حظيرتهما اختلافات دينية (أو مذهبية) شديدة ، كما أن الحروب البيزنطية الفارسية كانت غير حاسمة وأضعفـت من شوكة الدولتين المترابتين وعرضـتهـما لغزو العرب وفتحـهم بلادـهـما ، كذلك كانت الحروب العثمانية – الفارسية التي دامت من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر غير حاسمة أيضا . وأضعفـت الدولـتين معا ، وعرضـتهـما لسيطرة التجارة الأوروبية التي أفضـت في القرن التاسع عشر إلى تدخل الدول الأوروبية في شؤونـهـما رغم أنـهـما ، وفي عهد العثمانيـن ، كما في عهد الدولة البيزنـطـية ، كان امتلاكـالـعراق مـثـارـا للمقاومةـ منـ هـذـاـ الجـانـبـ أوـ ذـالـكـ .

الاقرـوـضـ :

لـجـاتـ الـإـمـبرـاطـوريـةـ العـقـمـانـيـةـ لـلـقـرـوـضـ ، ولـلـأـسـفـ كـانـتـ تـقـرـرـضـ منـ أـعـدـائـهـاـ الـأـورـبـيـينـ ، فـأـتـاحـ هـذـاـ الـوـضـعـ الفـرـصـةـ لـهـذـهـ الدـوـلـ وـبـخـاصـةـ انـجـلـتراـ وـفـرـنـساـ لـتـدـخـلـ فـيـ الشـؤـونـ الـاـقـتـصـادـيـةـ لـلـدـوـلـةـ ، وـأـضـطـرـتـ الدـوـلـ لـاـنـشـاءـ الـبـنـكـ الـعـمـانـيـ بـرـيـاسـةـ فـرـنـسـىـ . وـكـانـ لـهـ نـائـبـ انـجـلـيزـىـ ، وـكـانـ ذـلـكـ سـنـةـ ١٨٣٦ـ مـ وـبـعـدـ ذـلـكـ بـحـوـالـىـ شـرـسـنـوـاـتـ أـعـلـنـتـ الـحـكـوـمـةـ عـجزـهـاـ عـنـ سـدـادـ فـوـائـدـ الـدـيـوـنـ فـأـسـاءـ ذـلـكـ لـحـقـهاـ اـسـاءـ كـبـيرـةـ .

إغفال مصالح الشعب :

ومن أسباب الاحتلال والضعف في جسم الدولة العثمانية ما يقرره كل الباحثين من إغفال الحكومة للخطط الإنسانية ، واغفالها التام لمصالح الشعب . ويقرر Kirk أن تشكيل الدولة في جوهره كان حربياً يوميًّا في صرامة إلى الحافظة على قوة العاهليَّة وزعالية مصالحها المثلثة في شخص الجالس على عرشه ، دون اعتبار يذكر لمصلحة رعاياها ، فالحكم العثماني لم يسفر عن إنشاء شيء يذكر من الطرق أو المستشفيات أو المدارس ، وقد كان أحد السياح يمر بمدينتي حلب ودمشق عام ١٨٣٨ أى بعد طول عهدهما بالحكم العثماني فلم يجد غيرهما متجرًا واحدًا للكتب ، كذلك لم يستُبدِ الإثراك اهتماماً يذكر بتحسين حال الزراعة والرى أو صيانة مرافقهما . وقد هجر الفلاحون الكبير من القرى ، وانكمشت رقعة الدن حتى انتقلت الإسكندرية من مدينة زاهرة عاملة بالسكان إلى بلدة لا يكاد يبلغ سكانها ١٠٠٠٠٠ من الأتنفس .

وكان الفلاح لا يفلح من أرضه سوى ما يكتفى لانتاج محصول يستطيع جنبه على عجل وإخفاكه عن أعين جامع الضرائب ، وفي سوريا هجر الزراع حقوليم ، وهرع بعضهم إلى الدن يتلمسون فيها العيش ، ولهم آخرون إلى أودية الجبال الوعرة الوصول ، وفي مصر أهمل الري حتى تدهورت حالة الزراعة واحتل نظام نوبات المياه ، فكانت القرى يقتتل بعضها مع بعض على مورد الماء ، وما اشتد العرمان بالفلاحين ، وضاقوا بما يلاقونه من المالك ، هجر الكثير منهم الأرض وتحولوا إلى طوائف من اللصوص ، وقطاع الطرق ، ومرتكبي الاجرام في الخلاء المحيط بالقرى (١) .

ونتيجة لكل ذلك كثُرت المجاعات والأوبئة ، وكانت أحياناً تشد حتى

تفصي على مئات الآلاف من البشر وتدع بعض القرى خالية تماماً ، وفي أواسط القرن السابع عشر كانت شركات الأراضي الواقعة بين حلب وأقرب أطراف الفرات إليها ، خصبة وفيرة الحاصلات فاستحالـت إلى صحراء مقفرة بعد قرن من الزمان (١) .

القوميات والآحلاف المقدسة :

ومن عوامل الضعف كذلك أن القوميات المختلفة التي كان يضمها نطاق الدولة أخذت تستيقظ ، فاتجه المسيحيون منهم كالآرمن واليونان إلى الدول الغربية يستعدونها على الدولة ، وانتقض الأكراد في جبالهم ، والعرب في صحاريهـم ووديانـهم ، وساعد على ذلك فقدان الكفاءة وانتشار روح التمرد بين الجند ، وتفشـي الفساد والرشوة بين الموظفين في مختلف نواحي الدولة ، وإهمال الدولة للشئون العامة ، من تعليم وأمور الصحة وأمور الواصلـات ، فقد كانت نسبة التعليم أقلـ من ١٪ ووصلـت نسبة وفيات الأطفال ٨٠٪ وكانت السـكـكـ الحديدـيةـ بالـدوـلـةـ قـليلـةـ وـمضـطـرـبةـ (٢) .

وهـذاـ تـجمـعـتـ كـلـ هـذـهـ عـوـامـلـ وـسوـاـهـاـ عـلـيـ الـإـمـبرـاطـوريـةـ فـأـخـذـتـ فـيـ الـضـعـفـ وـالـانـكـماـشـ وـالـانـهـيـارـ اـبـتـداءـ مـنـ الـقرـنـ السـادـسـ عـشـرـ ، وـقـدـ اـتـخـذـ الـصـرـاعـ الـأـيـرـيـ ، فـ تـرـكـياـ شـكـلاـ دـينـيـاـ وـاضـحاـ ، اـذـ تـكـونـ نـصـداـهاـ «ـحـلـفـ مـقـدـسـ»ـ مـنـ اـمـبـراـطـورـ النـسـماـ وـمـنـ بـولـنـدـ وـبـنـدـقـيـةـ ، وـكـانـ لـهـذـاـ الـحـلـفـ أـثـرـ كـبـيرـ فـيـ التـغلـبـ عـلـىـ تـرـكـياـ وـضـعـضـعـةـ قـوـتهاـ ، ثـمـ دـخـلـتـ روـسـياـ بـاسـمـ الدـيـنـ أـيـضاـ هـذـهـ حـرـبـ تـؤـيـدـهاـ جـمـيعـ الـدـوـلـ الـمـسـيـحـيـةـ ، وـأـنـزـلـتـ بـالـخـلـافـةـ الـاسـلـامـيـةـ ضـرـبـاتـ قـاـصـمـةـ وـخـسـائـرـ فـادـحةـ ، وـكـانـتـ نـتـيـجـةـ هـذـهـ الـأـحـدـاثـ أـنـ هـوـتـ تـرـكـياـ مـنـ شـاهـقـ ، وـهـاـ أـمـرـهـاـ حـتـىـ أـصـبـحـتـ تـعـرـفـ «ـبـالـرـجـلـ الـمـرـيـضـ»ـ ، وـكـانـ مـنـ الـمـكـنـ الـقـضـاءـ عـلـىـ «ـالـرـجـلـ الـمـرـيـضـ»ـ بـسـرـعـةـ لـوـلـ اـخـتـلـافـ دـوـلـ أـوـرـبـاـ عـلـىـ تـرـكـتهـ ، فـمـنـ الـذـيـ يـبـرـثـ بـوـغـازـيـ الـدـرـدـنـيـلـ

• والبُوْسْفُور ؟ إنَّ ورثتُهُما رُوسِيَا امْتَدَّ تفوْذُهَا إلَى الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ وَهَدَدَتْ مَصَالِحَ اِنْجِلْتَرَا وَفَرْنَسَا ، وَإِنَّ ورثتُهُما اِتْجَلْتَرَا خَنْقَتْ رُوسِيَا فِي الْبَحْرِ الْأَسْوَدِ ، وَحَلَّ لِهَذِهِ الْمُشَكَّلَةِ اِتَّفَقَتِ الدُّولَ عَلَى أَلَا تُجْهِزَ عَلَى « الرَّجُلِ الْمَرِيضِ » وَأَنْ تَبْقِيهِ عَلَى قِيدِ الْحَيَاةِ لَا حَرْصًا عَلَيْهِ وَلَكِنْ « كَرَاهَةً لِـ ما يَنْجُمُ مِنْ خَلْفِ حَوْلِ مِيرَاثِهِ (١) ». وَمَوْقَفُ أُورْبَا مِنَ الْإِمْپَراَطُورِيَّةِ العُثْمَانِيَّةِ تَسْوَاءَ إِيَّانَ اِمْتَدَادُهَا وَزَحْفُهَا أَوْ اِبَانَ اِنْكِمَاشُهَا وَانْهِزَامُهَا يَعْرُفُ فِي الْعُرْفِ السِّيَاسِيِّ بـ (الْمَسَالَةِ الشَّرْقِيَّةِ) وَسَنَتَحَدَّثُ عَنْ هَذِهِ الْمَسَالَةِ الشَّرْقِيَّةِ فِيمَا يَلْيُونَ :

المسالة الشقيقة

هل المسألة الشرقية مسألة سياسية أم مسألة دينية؟
يدعى أكثر المؤرخين الغربيين أن المسألة الشرقية مسألة سياسية،
ويقولون إنها ليست الاتحرادات للحدود ضماناً للأمن، وهذه التحرادات
تحصل بين المسلمين بعضهم والبعض الآخر.

والذى نراه أن المسألة الشرقية مسألة دينية ، وأنها تعبر يساوى التعبير الذى استعمله المسيحيون من قبل وهو « الغروب ، الشلوبية » ، وقد أراد المسيحيون باستعمال التعبير الجديد التمويه وعدم اثارة المسلمين ، ويقول الأستاذ محمد فريد مؤرخ الدولة العثمانية معلقاً على معركة ليبانتو البحرية ما يلى (٢) : وأشتراك البابا في هذه المعركة يدل على أن المحرك الأول لهذه التالثبات ضد الدولة الإسلامية هو الدين كما أيكده الحوادث والغروب فيما بعد لا السياسة كما يدعون ، وكان لفوز المسيحيين رنة فرح في قلوب المسيحيين أجمع ، حتى أن البابا خطب في

^{١١}) المجتمع الاسلامي، المؤلف ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

^(٢) تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١١٢ .

كنيسة ماري بطرس برومدة وشكراً دون جوان قائدها على انتصاره على السفن الإسلامية ، وذلك مما لا يجعل عند المطالع أقل حرية أو شك في أن المسألة الشرقية مسألة دينية لا سياسية كما ادعاه ويدعوه الأوربيون ويغترّ به السذج غير المطلعين ^٤

وعندى أن مفهوم « المسألة الشرقية » قد تغير لدى الأوربيين من عصر إلى عصر ، ففى القرن الخامس عشر والنصف الأول من القرن السادس عشر كانت الامبراطورية العثمانية قد وصلت إلى مدى واسع واحتلت جانباً كبيراً من جنوب أوروبا الشرقي يشمل القسطنطينية وأملاك الدولة البيزنطية وأملاك الامبراطورية الصرب وامبراطورية البلغار في البلقان ، كما استولت على ولايتي الأفلاق والبغدان (رومانيا الحالية والقرم) فأصبح البحر الأسود بحيرات تركية ، واستولت كذلك على دول المجر ومدت مدينة فيينا أكثر من مرة . وقد أزعج هذا الزحف دول أوروبا ، وبدأت هذه الدول تتعاون للوقوف في وجه ما أسموه « المسألة الشرقية » ، وهنا كان مدلول هذا التعبير التصدى للأتراك ، والتعاون لإضعاف شوكتهم . والصراع هنا أقرب للاتجاه الصليبي .

ثم بدأ الضعف والهزال يظهران في جسم الدولة لأسباب التي سبق ايرادها ، من اضطرابات في صفوف الجيش التركي ، وإنهال للرعايا ، وحرب ضد الفرس ، وثورات داخلية قادها في البلاد العربية بعض القيادة والمفكرين ، ومن ظهور النمسا وروسيا كدولتين وأخذتا في مهاجمة الدولة ، وكذلك ظهور إنجلترا وفرنسا كدولتين تتأثران بما سئول إليه أملاك الأتراك العثمانيين وتتنافسان في هذا المجال ، وهذا أصبح تطلع دول أوروبا لما سئول إليه أملاك الامبراطورية العثمانية يعرف في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بـ « المسألة الشرقية » ، ويمكن أن يُعدَّ الصراع هنا صراعاً سياسياً .

وإذا كانت « المسألة الشرقية » بمعاناتها الأولى وحّدت أو قاربت بين

وجهات نظر الأوروبيين للوقوف في وجه القوة الشرقية الزاحفة بدينها وعاداتها على أوروبا ، فان « المسألة الشرقية » بمعناها الثاني أثارت الالوانا من الخلافات والخروب والمؤامرات بين دول أوروبا بعضها والبعض الآخر ، تلك منها أطماع تتعارض مع أطماع الأخرى ، ولذلك أدت هذه الخلافات - كما ذكرنا من قبل - إلى اطالة عمر « الرجل المريض » ريشتا يحل الزمن أهم المشكلات المتصلة بتراثه .

وفيما يلي أبرز أطماع الدول الأوروبية في ممتلكات الامبراطورية العثمانية :

روسييا: تطلعت روسيا باهتمام إلى الوصول للبحر الأسود الذي كان يعتبر بحيرة تركية لأن أملاك الترك تحيط به ، فلما وصلت روسيا إلى البحر الأسود تطلعت إلى السيطرة على المصايف التي تصله بالبحر الأبيض المتوسط لتكون على صلة حرية وتجارية بجنوب أوروبا وببلاد الشرق ، كما تطلعت إلى أن تصبح وريثة للدولة البيزنطية لتكون لها حماية المسيحيين وبالتالي تستعيد عاصمة الدولة المسححة الغامرة .

النمساء : كان يهمها تأمين حدودها بياضعاف العثمانيين الذين طالما
هددوا هذه الحدود ، ولذلك عملت النمسا على الحصول على أجزاء كبيرة
من الأراضي المتصلة بها والتي كانت خاصة للأئراث العثمانيين كالبوسنة
وطريق سالونيك ، وقد تم لها ذلك ، وأخذت تعمل على تحرير المساواة
الأخرى المجاورة لها والقائمة للعثمانيين كالهر و البلقان .

إنجلترا : خافت أن تتصل روسيا بالبحر الأبيض المتوسط فيس ذلك خطرا على مصالحها السياسية والاقتصادية في الشرق ، وتنطل انجلترا الى الخليج العربي ، كمنطقة لها ثروات في الخطوط الملاحية بين إنجلترا والهند ، ولما حفرت قناة السويس زاد اهتمام إنجلترا بمد كطريق رئيسى بين أجزاء الامبراطورية البريطانية .

فرنسا : كانت تتطلع إلى الشمال الأفريقي المواجه لحدودها الجنوبية ، كما كانت تحاول السيادة على مصر والشام لتضرب بذلك إنجلترا ، وكانت المنافسة بينها وبين روسيا قوية حول رعاية شؤون المسيحيين بالإمبراطورية العثمانية ٠

وهكذا صفت هذه العلاقات عمراً أطول للإمبراطورية العثمانية ، بل كانت تركيا أحياناً تتسلل مساعدات وتشجيعات من بعض الدول لايقف نشاط دول أخرى مما حقق لها بعض الانتصارات حتى في فترة الوهن والانحلال ، كما مدّ في عمرها أيضاً فرصة ظهور أسرة كوبيريللي على مسرح السياسة وتوليهم الوزارة (١٦٥٦ - ١٦٩٠ م) ، وكان لكفاءة أفراد هذه الأسرة وأخلاقها أثر ظاهر في إعادة القوة التي ضعفت العثمانيين حينما من الزمن ، ولكن هذا كله لم يكن دواء ناجحاً ، وإنما كان أسبابه بحقيقة تبعث نشطاً صناعياً وسرعان ما يختفي النشاط مع اختفاء أثر الدواء ، لتعود الدولة إلى وهنها وضعفها ٠

إضعاف العرب ونتائجها على الآتراك :

للدول العربية دور سلبي هام أثير في المسألة الشرقية ، فلو أن الدول العربية أتيحت لها الفرصة لتقوم بدورها الإيجابي لكان من الممكن أن تتغير نتائج المسألة الشرقية ، ومنشرح هذا الرأي فيما يلى :

أثبتت العرب في أزمات كبيرة من أزمات التاريخ أنهم أبطال معاوier ، وأنهم يصدرون أمام الأحداث ولا يهبون أمام المشكلات ، وحسبك أن تتذكر اكتساح الجيش العربي لدولتي الفرس والروم في مطلع الإسلام ، وأن تتذكر كذلك موقف الجيش العربي المصري من المغول حيث دحرهم وهزمهم شر هزيمة في عين جالوت سنة ١٢٦٠ م ، ومنح النجاة والسلامة للثقافة العربية والإسلامية بل وللإنسانية من شر هؤلاء البرابرة ، وحسبك أن تتذكر كذلك موقف مصر والشام من الصليبيين حيث ناوروهم ونازلوهم

طيلة قرنين من الزمان حتى كتب لهم النصر ، ومن أجل هذا كان المسيحيون يحسبون ألف حساب للبطل العربي قبل أن يقدموا على الهجوم عليه .

وجاءت الدولة العثمانية واستطاعت باسم الاسلام أن تشق طريقها للنصر في الصفوف العربية ، ولا تم لها النصر جردت المارد العربي من أسباب القوة ، فحرمته الأسلحة والتدريب ، كما حرمتها الثقة والتقدير ، بل حرمته الأمن ولقمة العيش .

ولقد كانت فرصة المسيحيين أن يخلو الجيش العثماني من الرجل العربي الذي كان يبعث الرعب في قلوبهم بتاريخه الطويل ونضاله القوى .

ومما زاد الأمر سوءاً في هذا المجال أن الدول العربية كانت تقف موقف العداء من تركيا عندما كانت هذه تناضل في أوروبا ، فقد هبت بمصر والشام والعراق حركات استقلالية وقفت وجهها لوجه أمم العثمانيين وحققت أحياناً كثيراً من الانتصارات ، حتى أن دول أوروبا أرجأت أحياناً نضالها ضد الأتراك العثمانيين بل ساعدت الأتراك العثمانيين ليكبحوا انطلاقه المارد المصري والمارد العربي على العموم .

انهيار الإمبراطورية العثمانية

والآن ، بقى علينا أن نصف واقع الأحداث كما جرت لنرى ما آل إليه أمر الإمبراطورية ، مع ملاحظة أن انكماش الدولة لم يكن مطرباً ، بل أثرت العوامل التي سبق ذكرها على هذا الانكماش ، فإذا الدولة بين مد وجزر تفقد بلاداً اليوم وتعود فتنشرده غداً ، وقد أورد (Harry Hazard) صورة سريعة لحركات هذا المد والجزر فتحدث عن إحدى وسبعين مقاطعة

من المقاطعات التركية تناولتها هذه التحركات ، ونحن نورد منها بعض النماذج لترينا مدى هذا الاضطراب الذي طال ولم يصل الى نهايته الا خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها :

الصرب وتبعيتها للامبراطورية العثمانية : تبعية وجزية ١٣٨٦ — ١٤٠٢ ، خروج على السلطة ١٤٠٢ — ١٤٣٩ ، تبعية وجزية مرة أخرى ١٤٣٩ — ١٤٤٤ ، ضمها للامبراطورية ل تكون ولاية ١٤٥٦ — ١٨٧٨ ، في فترة ١٨٠٤ — ١٨١٣ ، ١٨١٥ ، ١٨١٧ — ١٨١٧ ، شبه مستقلة ذاتياً ١٨٢٩ — ١٨٣٩ مستقلة ذاتياً ١٨٢٩ — ١٨٧٨ استقلال تام بعد ذلك — بلغراد العاصمة تتبع الامبراطورية في السنوات الثانية : ١٥٢١ — ١٦٨٨ ، ١٦٩٠ ، تبعية ١٦٩٠ وانشقت بعد ذلك حتى استقلت سنة ١٨٦٧ .

البوسنة : تبعية ١٣٨٩ — ١٤٠٢ ، ١٤٦٣ ، ١٤٦٣ — ١٩٠٨ ; وتقسيل هذه المدة كالتالي : تابعة ١٣٨٩ ١٤٠٢ ، ١٤٠٢ ، في فترة ١٨٢١ — ١٨٥١ — ١٨٧٥ ، ١٨٥١ ، في حكمهم بالاسم ١٨٧٨ — ١٩٠٨ .

ألبانيا : ١٤٣٠ — ١٤٤٣ ، ١٤٦٧ ، ١٤٦٧ — ١٩١٢ — في حكمهم وان كانت قبضتهم عليها متراجبة .

فلسطين : ١٥١٦ — ١٧٩٩ الحملة الفرنسية ١٧٩٩ — ١٨٠١ العثمانيون مرة أخرى ١٨٠١ — ١٨٣٢ ، مصر (محمد على) ١٨٣٢ — ١٨٤٠ — العثمانيون ثالثاً ١٨٤٠ — ١٩١٧ — الاحتلال الإنجليزي ١٩١٧ .

هذه أمثلة موجزة لتحركات الحدود العثمانية ، وهي تحركات طبيعية اقتضتها العوامل التي سبق شرحها ، ومن هنا لم يكن من الممكن أن نورد حديثاً منتظماً عن تقلص الدولة وانكماسها ، وكل ما يمكن ايراده هو بعض الواقع الحربي الهامة وبعض المعاهدات التي دفعت حدود الدولة نحو الانقضاض والانصار .

في أوروبا والأناضول

موقعة ليانتو :

موقعة بحرية هامة تتسبّب إلى خليج ليانتو اليوناني ، حدثت سنة ١٥٧١ بين الأسطول العثماني وأسطول مسيحي مؤلف من البحريّة الإسبانية وبحرية البندقة وبحرية البابا وبعض سفن رهبة مالطة ، وكان يقود أسطول المسيحيين دون جوان الأسپانى ، وقد انتصر أسطول المسيحيين على أسطول الأتراك انتصاراً حاسماً ، فأسر آلافا من رجال البحريّة العثمانية ، وضاعت أكثر السفن الحربيّة العثمانية بين غرق واحتراق ، وكان لهذه الموقعة صدّى كبير في نفوس المسلمين والمسيحيين ، ومن العجيب أن دون جوان لم ينتفع بانتصاره ولم يهاجم أية بلدة عثمانية ، واكتفى بالاحتلال تونس عند عودته من هذه الموقعة سنة ١٥٧٢ . وقد تم له احتلالها دون مقاومة نظراً لهزيمة أسطول العثمانيين الذي كان يحمي الشاطئ الأفريقي ، ولكن هذا الاحتلال لم يدم طويلاً ، فقد جددت الدولة أسطولها واسترجعت تونس سنة ١٥٧٥ بمعرفة سنان باشا (١) . وهكذا كانت هذه الموقعة الضخمة قليلة النتائج .

صلح كارلووبيج :

في أواخر القرن السابع عشر من العثمانيون بهزائم متالية أمام القوات الألمانيّة وقوات البندقية ، وبولندا وروسيا وختمت هذه المعارك بمعركة مهاج الثانية (٢) في المجر سنة ١٦٨٣ حيث كانت هزيمة العثمانيين قاصمة في الميدان وتلتها اضطراب داخلي ، وهزيمة أمام الجيش الروسي

(١) محمد فريد : تاريخ الدولة العثمانية ص ١١١ - ١١٢ .

(٢) مهاج الأولى حدثت سنة ١٥٦٦ وكانت القيادة للسلطان سليمان القانوني ومعه الصدر الأعظم إبراهيم باشا وقد حقق الترك فيها انتصارات كبيرة ، وأمتد سلطانهم إلى المجر . وقد سبق الحديث عنها .

أدت إلى أن يستولى القيصر بطرس على آزوف ، وكان من نتائج هذا كله أن عَقِدَ صلح يصفه كارل بروكلمان (١) بأنه « صلح غير مجيد » بالنسبة للعثمانيين ، هو صلح « كاللوویج » سنة ١٦٩٩ ، وفي هذا الصلح تخلى الباب العالي عن ترانسلفانيا (مقاطعة نمساوية) لأن هابسبورج ، وعن المجر برمتها تقريباً ، وعن القسم الأعظم من سلوفاكيا وكرواتيا ، وتنازل البولنديين عن أوكرانيا وغيرها من المناطق التي فتحوها ، وتنازل البنادقة عن المورة .

معاهدة قينارجية :

شهد النصف الثاني من القرن الثامن عشر معارك طاحنة بين الروس وبين الأتراك العثمانيين ، وكان النصر للروس في أغلب هذه المعارك ، وقد استطاع الروس سنة ١٧٧٠ أن يجتاحوا البغدان والأفلاق وأن يصلوا إلى نهر الدانوب ويأخذوا يمين الولاء للملكة كاترينينا (١٧٩٦) أرملة بطرس الثالث (٢) التي كانت تعتبر نفسها وريثة القيصر بطرس الأكبر (١٧٢٥) وأداة لتحقيق أحشامه ، وفي نفس العام (١٧٧٠) أضرم الروس النار في الأسطول العثماني المرابط في خليج جسمة مقابل جزيرة ساقىز بالأرخبيل اليوناني ، ولما توالت هزائم العثمانيين عقدوا صلحاً مع الروس سنة ١٧٧٤ يعرف بمعاهدة قينارجية ، وقد أورد الأستاذ محمد فريد نص المعاهدة (٣) ، وأهم ما جاء فيها أن تتنازل تركيا لروسيا عن بعض الموانئ بالبحر الأسود من أهمها آزوف ، فصار لروسيا قواعد حربية على هذا النحو ، ومتنحَّ أسطول روسيا حقاً عبر المضائق التركية إلى البحر الأبيض المتوسط ، ومنها الاعتراف باستقلال بتار القرم ، وأن

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٣ ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(٢) كانت أحب إلى القادة من زوجها بطرس الثالث فتقرر خلعه وجعلها قيصرة روسيا ، ثم مات زوجها عقب ذلك ، واتخذت بطرس الأكبر مثالاً لها .

(٣) تاريخ الدولة العثمانية العلية ص ١٦٠ - ١٧١ .

تبني روسيا كنيسة بالأسنانة ، ويكون لها حق حماية جميع المسيحيين التابعين للمذهب الأرثوذكسي من رعايا الدولة العلية ، واعفاء الرعايا الروس الذين يذهبون للحج من دفع أية ضرائب ، وتسهيل الحياة لن يفضل من الرهبان أو الرعايا أن يبقى بالدولة العلية ، وجاء في المحرى السبكي لهذه المعاهدة أن الآئتمان ملزم بدفع غرامة كبيرة متسطة على ثلاثة سنوات ١٧٧٥ ، ١٧٧٦ ، ١٧٧٧ •

ومن الملاحظ في هذه المعاهدة أنها لم تكتف باقتطاع أجزاء من الدولة العثمانية ، بل تعدت ذلك إلى اعطاء الروس حق حماية المسيحيين من رعايا الدولة ، وذلك يفتح الباب لتدخل الروس في الشؤون الداخلية للإمبراطورية ، وهو انتهاك كبير لسيادتها •

موقعة تواريين ومعاهدة لندن :

وفي القرن التاسع عشر كانت قوة نابليون ترعب أوروبا وترعب العالم كلّه ، وأصبحت فرنسا بذلك عدواً كبيراً للأئتمان العثمانيين ، وقد رسمت فرنسا خططها على اقتحام الدول العربية التي كانت تابعة لتركيا ، وعلى إشارة الأضرار التي تلقاها فيما تبقى لتركيا في أوروبا من أملاك ، وساعد على ذلك رغبة هذه الدول في التحرر من قبضة فرنسا الضغط على تركيا من جهات متعددة ، ولكن المصراع بين الدول الأوروبية بعضها وبعض لمواجهة قوة نابليون أطاح حياة تركيا ، ولما انتهى نابليون بدأ الثورة في جزيرة كريت سنة ١٨٢١ ثم عمّت شبهة جزيرة المورة ، وقد استعان السلطان بواليه على مصر آنذاك محمد على فأرسل هذا ابنه إبراهيم على رأس جيش كبير استطاع به أن يخوض الثوار ، وهنا تدخلت دول أوروبا ، إذ عقد حلف بين روسيا وإنجلترا وفرنسا ، وانضمّت له بروسيا فيما بعد ، للتدخل بين تركيا واليونان على أساس استقلال اليونان • وكانت هذه الدول تتّوّج أن ترفض تركيا ومصر • ولذلك أرسلت أسطولاً مشتركاً بقيادة كورنوجتو إلى المياه اليونانية ، وكان من أهداف هذا الأسطول القضاء على القوة

المصرية النامية ، ولذلك تلمس القائد الأسباب للاصطدام بالأسطول التركي المصرى واستطاع أن يضربه خربة قاصمة في موقعة نوارين سنة ١٨٢٧ وتلا ذلك أن أعلنت روسيا الحرب على تركيا ، وفي ضوء هذه الأحداث تم في لندن في نوفمبر سنة ١٨٢٨ اتفاق بين محمد على والدول المتحالفة على جلاء المصريين عن اليونان ، وفي ٣٠ مايو سنة ١٨٣٠ اضطر الباب العالي أن يصدق على « معاهدة لندن » التي قضت باستقلال اليونان .

معاهدة سان استيفانو ومعاهدة برلين :

وجاءت نهاية الأتراك في أوربا بمعاهدتي « سان استيفانو » و « برلين » ففي سنة ١٨٧٧ هبت الحرب بين روسيا وتركيا ، واجتاحت روسيا الأراضي العثمانية بأوربا وبالأناضول ، وأدركت تركيا إلا قبل لها بمواسلة الحرب فطلبت الصلح ، وعقدت بينها وبين روسيا معاهدة سان استيفانو في مطلع سنة ١٨٧٨ ، وبمقتضاها خسرت تركيا الولايات الأوروبية جميعها ، وأنشئت دولة بلغاريا تابعة للروس بحيث تكون منفذًا لهم على البحر المتوسط ؛ كما أذن للروس في الاحتلال فارص وباطسوم في أرمينية ، وفرض على الأتراك غرامات حربية كبيرة (٣٩١٢٤٥٢١٧) جنيهًا تركيًا .

وثارت أوربا لهذه المعاهدة التي أخذت فيها روسيا نصيباً كبيراً من تركية تركيا ، وكان الانجليز والألمان أكثر أوربا ثورة على هذه المعاهدة أما الانجليز فعارضوا وصول الروس إلى البحر المتوسط خوفاً على طريق الانجليز إلى الهند ، وأما الألمان فاحتجوا باضطراب ميزان القوى بسبب ما حصل عليه الروس من مناطق في آسيا وفي أوربا ، ودعا دژرائیلی رئيس وزراء إنجلترا لعقد مؤتمر جديد لإعادة النظر في معاهدة سان استيفانو ، وأنقترح بسمارك أن تكون برلين مكان الاجتماع ، وعلى هذا عقد مؤتمر برلين في يونيو سنة ١٨٧٨ الذي اشتهرت فيه

— ٨٨٧ —

ألمانيا والنمسا وال مجر وفرنسا وبريطانيا و ايطاليا و روسيا وتركيا ، وأرسلت بعض الدول الأخرى مندوبيها لها لتقديم طلباتها إلى المؤتمر ، ولم يصرح لهذه الدول بحضور الجلسات إلا إذا استدعيت لإيضاح نقطتها ما تخص دولهم ، وهذه الدول هي رومانيا ، والصرب ، والمجلب الأسود ، واليونان ، وشانس ، كما أرسل الأرمن واليهود مندوبيهم لنفس الغرض .

وعقد هذا المؤتمر جلسات بدأت في ١٣ يونيو واختتمت في ١٣ يوليو وقد اشتغلت فرنسا لا يناقش المؤتمر مسألة مصر والشام مما يدل على أن نية كانت تدبر للانقضاض على الدول العربية ، ويعتبر هذا المؤتمر خطوة هامة نحو تصفيية « المسألة الشرقية » ومن أهم قرارات هذا المؤتمر ؟ منح الاستقلال التام لرومانيا والمجلب الأسود والصرب ، ومنح البوسنة والهرسك للنمسا وتوسيع حدود اليونان ، وضم ميناء (بارى) على بحر الأدرية لصالح المجلب الأسود ، هذا بالإضافة إلى بعض الشروط الخاصة بالآصالح الدينية لغير المسلمين (١) .

ومن الواضح أن هذه الخسارة الكبرى حلت بالعثمانيين في مطلع عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، وقد تسببت عن هذه الخسارة ، وعن تردد السلطان بين الاصلاح والحفاظ على القديم أن هبّت حركة « تركيا الفتاة » وجماعة « الاتحاد والترقي » وسنراهما فيما بعد تضاعف نهاية للخلافة العثمانية وتتجهان بتركيا اتجاهها جديدا .

العثمانيون يخسرون أملاكهم في أوروبا

والملهم هنا أن الدولة أخذت تخسر أملاكها بأوروبا جزءاً بعد جزء ، ولكن بين شد وترابع حتى أفلتت جميع أملاكها بهزيمتها مع ألمانيا في الحرب العالمية الأولى ، وتكون من أملاك الدولة بأوروبا الدول التي تعرفت

(١) أقرَّ هذه المعاهدة في تاريخ الدولة العلية محمد فريد ص ٣٨٧ —

- ٨٨ -

الآن بالأسماء الآتية : اليونان ، رومانيا ، بلغاريا ، يوغسلافيا ،
البانيا ، والجزر ، ويمكن لميراد بيسان موجز عن استقلال الأجزاء الأوربية
عن الدولة العثمانية فيما يلي :

المجر : فقدتها الدولة العثمانية سنة ١٦٩٩ وكتسبتها
النمسا .

القرم وجنوب روسيا : فقدتها الدولة العثمانية سنة ١٧٧٤ ثم ضمت
إلى روسيا سنة ١٧٨٤ .

صربيا(جزء من يوغسلافيا) : فقدتها الدولة العثمانية سنة ١٨١٥ إذ استقلت
جزئيا ، ثم استقلت استقلالا ذاتيا سنة ١٨٢٩
وأستقلالا تماما سنة ١٨٧٨ .

رومانيا : فقدتها الدولة سنة ١٨٢٩ بزوال الحماية التركية
عنها واستقلت استقلالا تماما سنة ١٨٧٨ .

اليونان : فقدتها الدولة سنة ١٨٢٩ ثم استقلت استقلالا
 تماما سنة ١٨٣٠ وبعد ذلك أضيف إليها بعض
مقاطعات عثمانية في الأعوام ١٨٨٢ ، ١٩١٣ ، ١٩٢٠ ،
١٩٢٠ .

القوقاز : فقدتها الدولة سنة ١٨٨٢ ثم خض بعض أجزائها
إلى روسيا .

بلغاريا : فقدتها الدولة سنة ١٨٧٨ إذا أصبحت الحماية
أسمية ، ثم خض إليها الروماني الشبرقى
سنة ١٨٨٥ وتم استقلالها سنة ١٩٠٨ .

قبرص : فقدتها الدولة سنة ١٨٧٨ إذ ضمتها بريطانيا
لمستعمراتها .

- البانيا : فقدتها الدولة سنة ١٩١٣ .
- مقدونية : فقدتها الدولة سنة ١٩١٣ وتم تقسيمها بين صربيا واليونان وبولغاريا .
- تراقية : فقدتها الدولة سنة ١٩١٣ وقسمت فيما بعد بين بلغاريا واليونان .
- جزائر بحر إيجي وكريت : فقدتها الدولة سنة ١٩١٣ ووضمت إلى اليونان (١) .

في آسيا وإفريقيا

الدولة الصفوية في مواجهة تركيا :

قامت الدولة الصفوية الشيعية في فارس (١٥٠٢ - ١٧٣٦) بعد فترة من الاضطراب تلت الحكم المغولي ، وكان العراق — كما أثبنا آنفاً — مثار الحروب بين الدولتين الكبيرتين ، فكان كالكرة تلتقطه هذه الدولة أو تلك من حين إلى آخر ، ولم تنتهي الأطماع عند العراق بل كان المنتصر يحاول أن يتجاوز حدود العراق ، وقد نص على ذلك صلح سنة ١٦١٢ الذي تلا انتصارات الشاه عباس ، على أن تكتُرَّ الدولة العلية لملكية العجم جميع الأقاليم والبلدان والقلاع والمحصون التي فتحها العثمانيون من عهد السلطان سليمان القانوني بما فيها مدينة بغداد (٢) .

الدول العربية في مواجهة تركيا :

أما الدول العربية فقد قامت بعدها انتفاضات ، والحقيقة أن الدول العربية كانت تقع بين عاملين كبيرين أحدهما يجذبها إلى تركيا وهو

(١) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية من ١٢٠ وما بعدها .

(٢) انظر : «الشرق الأوسط» للدكتور عبد الرحمن زكي ص ١١٥ —

العامل الاسلامى فقد كان معروفاً أن الامبراطورية العثمانية وريشة الامبراطوريات الاسلامية الكبيرة كالآمويين والعباسيين ، وكان ارتباط الدول العربية بها لا يُعد من الاستعمار والتبعية كما سبق القول ، وإنما كان نوعاً من الوحدة الاسلامية ، أو هكذا كان يذيع الأئراك من حين إلى آخر ، أما العامل الثانى فهو رغبة الدول العربية في الاستقلال وبناء نفسها بعيداً عن الدولة العلية التي اتضحت أنها تستغل الاسلام لاخضاع الدول العربية ، ولا تدين بهذا الدين الا بقدر الانقطاع به في عالم السياسة . وعلى هذا هي حركات استقلالية من حين إلى آخر ، وكانت هذه الحركات تتৎسرس أحياناً بسبب انتعاش العامل الأول ، أو بسبب ضربات قاسية ي Siddha الأئراك العثمانيون لزعماء هذه الحركات ، وأخيراً بسبب تدخل الدول الأوروبية التي لم تنشأ أن ينطلق الأسد العربي من القفص الحديدى الذى صنعته له تركيا .

على أن القومية العربية زادت قوة وأصراراً إبان الحملة الفرنسية وهبت في كل قرية وكل مدينة ثورة طاحنة ضد المستعمر الفرنسي ، واشتركت الشعب العربي في غير مصر مع مصر في نضالها ضد الاستعمار الفرنسي ، وانسحب جيش ثابليون ولكن الصيحة الاستقلالية لم تتوقف ، فاشتدت الحركات الاستقلالية ضد تركيا في كل البازد العربية تقريباً ، ومن أبرز هذه الحركات ما يلى :

في مصر : حركة على بك الكبير في القرن الثامن عشر وحركة محمد على في القرن التاسع عشر .

في فلسطين : حركة الزعيم البدوى صاهر العمر الذى كان معاصرًا على بك الكبير .

في لبنان : حركة الأمير فخر الدين المعنى الثانى في القرن السادس عشر وحركة الشهابيين في القرن التاسع عشر .

- ٨٩١ -

في العراق : حركات الباشوات الماليك وفي قمةهم سليمان باشا
(أبو ليلى) في القرن الثامن عشر *

في اليمن : حركة الزيدية التي نجحت في فصل اليمن عن سلطان
العثمانيين في القرن السابع عشر (عاد العثمانيون للبيمن في القرن
التاسع عشر) *

في الجزيرة العربية : قيام الدولة السعودية مع فكر الشـيخ
محمد عبد الوهاب *

في شمال افريقيـة : حركات استقلالية في ليبيا والجزائر وتونس
انتهت بنجاح جزئـي ، فقد استبد بالسلطة في كل منها زعماء مواطنون أو
مستوطنون ولم يتحقق الا خيط دقيق يربط بين هذه الدول وبين العثمانيـين
في تركـيا ، وقد لعب السنوسيـون دوراً كبيرـاً في مصير بعض أجزاء الشمال
الافريقي *

وهناك أحـاديث مفصلـة عن هذه الحركـات ترتبط بهذه الأقطـار العربـية ،
وردت مع كل قطر عـربـي عند الحديث عنه (١) ، فلن نتكلـم عنها هنا ، بل
سيظلـ حديثـاً الآـن « رـتـبـطاً بـالـإـمـبرـاطـوريـة العـثـمـانـيـة التـى نـحـكـى قـصـة اـنـخـالـلـاهـا ،
وـهـذـهـ الـحـرـكـاتـ الـاسـتـقـلـالـيـةـ دـفـعـتـ أـورـيـاـ لـلتـفـكـيرـ فـيـ أمرـ الدـوـلـ الـعـرـبـيةـ ،
وـكـانـ وـاضـحـاـ أـنـ «ـ الرـجـلـ الـمـيـضـ »ـ لـمـ يـعـدـ يـسـطـعـ أـنـ يـحـقـقـ بـسـلـطـانـهـ
عـلـىـ هـذـهـ الدـوـلـ ،ـ كـمـ أـصـبـحـ وـاضـحـاـ أـنـ اـسـتـقـلـالـ هـذـهـ الدـوـلـ مـعـنـاهـ عـودـةـ
الـمـارـدـ الـعـربـيـ إـلـىـ النـشـاطـ ،ـ وـبـخـاصـةـ أـنـ مـصـرـ حـقـقـتـ اـنـتـصـارـاتـ فـيـ الـيـونـانـ ،ـ
وـامـتـدـ سـلـطـانـهـ إـلـىـ سـوـرـيـاـ وـأـخـذـتـ فـيـ أـوـاـلـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ تـوـسـعـ
فـيـ الـجـزـيـرـةـ الـعـرـبـيـةـ عـقـبـ اـنـتـصـارـاتـهاـ فـيـ الدـرـعـيـةـ ،ـ وـاتـصـلتـ بـأـمـيرـ

(١) رصدـناـ أحـادـيثـ مـفـصـلـةـ عنـ حـرـكـاتـ سـوـرـيـاـ وـمـصـرـ بـهـذـاـ جـزـءـ وـعـنـ
الـحـرـكـاتـ بـالـشـمـالـ الـافـرـيقـيـ بـالـجـزـءـ الـرـابـعـ وـعـنـ الـحـرـكـاتـ بـالـجـزـيـرـةـ الـعـرـبـيـةـ
وـالـعـرـاقـ بـالـجـزـءـ السـابـعـ .

البحرين ، وأصبح هذا يعني أن نفوذ مصر ونشاطها سيهدد مصالح بريطانيا ويحف بالخطر طريقها البحري إلى الهند . كما أن سيطرة مصر على الشام (١٢٣٢ - ١٨٤٠) هدد مصالح فرنسا ونفوذها الثقافي والاقتصادي في هذه المنطقة .

هذا وأمثاله دفع أوروبا إلى التدخل للسيطرة على العالم العربي ، فأخذت تنتهز الفرص لاحتلاله دولة بعد دولة ، ولما جاءت الحرب العالمية الأولى وهزّت تركيا مع ألمانيا ، أتيح للخلفاء أن يستكملوا احتلال البلاد العربية ، وهكذا وقعت هذه البلاد فريسة الاستعمار الأوروبي على النحو التالي : -

الجزائر : احتلتها فرنسا سنة ١٨٣٠ .

تونس : احتلتها فرنسا سنة ١٨٨١ .

مصر : احتلتها بريطانيا سنة ١٨٨٢ .

المغرب : احتلتها فرنسا سنة ١٩١١ .

ليبيا : احتلتها إيطاليا سنة ١٩١١ .

العراق : احتلته بريطانيا سنة ١٩١٧ .

الشام : تم تقسيم الشام إلى الدول الآتية : سوريا - لبنان - فلسطين - شرق الأردن ، وقد احتلتها قوات الحلفاء في أثناء الحرب العالمية الأولى ثم تم توزيعها سنة ١٩٣٠ - فوضعت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي ووضعت فلسطين والأردن تحت الانتداب البريطاني كما سبق القول .

جنوب الجزيرة العربية : احتلت بريطانيا جزيرة بريم المواجهة لباب المندب سنة ١٧٩٩ ومكنت لنفوذها في لحج بمعاهدة عقدتها مع سلطانها سنة ١٨٠٢ ، ثم احتلت عدن وهي من أملاك هذا السلطان سنة ١٨٣٩ ومكنت

— ٨٩٣ —

لتفوذهـا كذلك مع سلطان مسقط والبحرين والكويت بسلسلة من المعاهدات تمت في القرن التاسع عشر ، وكانت كل معايدة منها تضيف جديداً للفوز البريطاني الذي رأى في ذلك حماية لطريق بريطانيا للهند .

وهكذا كان مصـيـ الدول العربية التي خضـعت عـدة قـرون لـلـامـبرـاطـورـيـة العـمـانـيـة ، والعـجـيبـ أنـ تـرـكـياـ أـعـلـنـتـ فـيـ مؤـتـمـرـ لـوزـانـ الـذـيـ عـقـدـ سـنـةـ ١٩٢٣ـ تـنـازـلـلـهاـ المـطـلـقـ عنـ السـيـادـةـ العـمـانـيـةـ عـلـىـ مـصـرـ وـالـدـوـلـ الـعـرـبـيـةـ منـ غـيرـ أنـ تـحـدـدـ المـتـنـازـلـ إـلـيـهـ أوـ تـذـكـرـ اـسـتـقـلـالـ هـذـهـ الـبـلـادـ ، وـقدـ أـصـبـحـ مـفـهـومـ هـذـاـ الـاعـلـانـ اـعـتـرـافـ تـرـكـياـ بـالـأـمـرـ الـوـاقـعـ ، وـبـالـاحـتـالـ الـذـيـ نـزـلـ بـالـدـوـلـ الـعـرـبـيـةـ نـتـيـجـةـ اـنـهـيـارـ السـيـادـةـ التـرـكـيـةـ المـقـوـتـةـ .

معاهدة سيفر سنة ١٩٢٠ ونتائجها

ولنـعـدـ إـلـىـ الـأـنـاضـولـ لـنـرـىـ أـنـهـ أـيـضاـ قدـ مـسـتـهـ الـهـزـائـمـ الـتـيـ وـقـعـتـ بـتـرـكـياـ فـيـ الـحـربـ الـعـالـمـيـةـ الـأـوـلـىـ .ـ فـاتـجـهـتـ لـهـ أـنـظـارـ الـمـتـصـرـينـ وـبـخـاصـةـ روـسـيـاـ الـتـيـ اـسـتـولـتـ عـلـىـ بـعـضـ مـمـتـكـلـاتـ الدـوـلـ الـوـاقـعـةـ شـرـقـ الـبـحـرـ الـأـسـوـدـ وـدـفـعـتـ حدـودـ تـرـكـياـ تـجـاهـ الـجـنـوبـ ، وـاحـتـلـ الـيـونـانـ كـذـلـكـ أـزـمـيرـ سـنـةـ ١٩١٩ـ ثـمـ جـاءـتـ مـعـاهـدـةـ سـيـفـرـ الـتـيـ عـقـدـتـ سـنـةـ ١٩٢٠ـ بـيـنـ السـلـطـانـ محمدـ السـادـسـ سـلـطـانـ تـرـكـياـ وـبـيـنـ الـحـلـفاءـ (ـبـدـونـ روـسـيـاـ وـأـمـرـيـكاـ)ـ وـكـانـتـ هـذـهـ مـعـاهـدـةـ بـمـثـابـةـ تـصـفيـةـ نـهـائـيـةـ لـلـامـبرـاطـورـيـةـ العـمـانـيـةـ ، وـقـدـ أـرـغـمـ الـحـلـفاءـ فـرـيدـ باـشاـ رـئـيسـ الـوـزـراءـ عـلـىـ قـبـولـ هـذـهـ مـعـاهـدـةـ ، وـبـمـقـتـصـاـهاـ لـمـ يـقـ للـعـمـانـيـنـ إـلـاـ مـاـ تـبـقـىـ مـنـ الـأـنـاضـولـ بـعـدـ مـاـ اـقـطـعـتـهـ روـسـيـاـ مـنـهـ ، وـإـلـاـ اـسـتـانـبـولـ وـمـاـ حـولـهـ فـيـ أـورـبـاـ ، وـفـصـلتـ أـرـمـينـيـةـ وـأـصـبـحـتـ جـمـهـورـيـةـ ، وـمـنـتـحتـ تـرـاقـياـ لـلـيـونـانـ وـوـضـعـتـ أـزـمـيرـ تـحـتـ الـادـارـةـ الـيـونـانـيـةـ حـتـىـ يـجـرـىـ اـسـقـفـتـاءـ حـولـ وـضـعـهاـ ، وـدـوـلـتـ مـنـطـقـةـ الـمـصـايـقـ ، وـمـنـحـتـ إـيـطـالـيـاـ مـنـطـقـةـ الـأـنـاضـولـ الـجـنـوـبـيـ وـأـصـبـحـ الـحـلـفاءـ الـأـثـرـافـ الـفـعـلـىـ عـلـىـ اـقـتصـادـيـاتـ تـرـكـيـسـاـ .ـ

وعلى العموم فقد اتجهت هذه المعاهدة الى استعمال القوة لتحقيق أطماع المنتصرين والى تعكين اليونان من سلب أكبر قسط من الممتلكات العثمانية .

انحراف المسيرة :

ولكن الأمور لم تسر في هذا الطريق ، بل ظهر في تركيا قائد جديد نال في مطلع ظهوره ثقة مواطنيه وثقة أوربا جميما ، فتغيرت على يده الأمور ، ثم سرعان ما اتجه بتركيا اتجاهها مجافيا للإسلام ، فزاد قرب أوربا المسيحية منه ، ذلك القائد هو مصطفى كمال « أتاتورك » الذي اضطربت عنه الأخبار حينا ، ثم أخذت الأصوات تبرز صداقته للصهيونية وبعده عن الإسلام ، وستنتبع فيما يلي حركات هذه الفترة وانعطاف « جماعة الاتحاد والترقي » وزعيمها أتاتورك بالأمبراطورية العثمانية من حال إلى حال .

ثورة الاناضول وظهور مصطفى كمال

ثار الاناضول ثورة عنيفة ضد اليونان وضد معاهدة سيفر سالفة الذكر ، وتلقى الثائرون الوانا من العون المادي والأدبي من الدول الإسلامية ، وانضم للثوار فيلق من الجيش العثماني بقيادة مصطفى كمال ، وكان لمصطفى كمال وصاحبه صلات مشبوهة ، ستحدث عنها فيما بعد ، فانتهزت أوربا المسيحية هذه الصالات ، وأرادت أن تجعل منه صنيعة لها ، فتاختت قبضتها في معركة أزمير ، وأنارت له بعض الانتصارات العسكرية والسياسية لخدع جماهير الأتراك والمسلمين حتى يسلّموا له القيادة ، ويستطيع أن ينفذ خطط أوربا عقب ذلك ، وسنشرح فيما يلي بعض الانتصارات التي حققها أتاتورك وجيشه بعد أن تخلت أوربا عن مصارعته ، وتركت اليونان وحدها ل مقابلته :

انتصارات مزيقة :

استطاع أتاتورك أن يحصل على انتصار عظيم في معركة «إين أوكي» في يناير سنة ١٩٢١ ، وعلى اثر ذلك عقد الطرفاء مؤتمراً في لندن في فبراير سنة ١٩٢١ لتعديل معاهدة سيفر التي اتفق أنها لن تضع حداً للحروب والمشكلات ، وقرر المؤتمر إيفاد هيئة إلى أزمير وتراتيا ، ولكن اليونان رفضت هذا القرار ، فاستمرت الأعمال الحربية في الأناضول ، وانهزمت اليونان مرة أخرى في «إين أوكي» أيضاً في مارس سنة ١٩٢١ ، ثم دعىت الجمعية الوطنية للانعقاد بأنقرة فانعقدت في أبريل سنة ١٩٢١ وانتخبت مصطفى كمال رئيساً لها *

واستعد اليونانيون استعداداً كبيراً لمواجهة هذا الخطر واستطاعوا أن يحققوا بعض النصر في قرة حصار وكوتاهية في نفس العام ، وأخذوا يستعدون للزحف إلى أنقرة ، ولكن الجيش التركي قرر أن يخوض المعركة ضد اليونان باستماتة وصمود هائلين ، وبدأت ملحمة كبرى في سقاريا بين الدولتين في أغسطس سنة ١٩٢١ واستمر النزال حتى منتصف سبتمبر ، ونزلت باليونان هزيمة قاسمة جعلتهم يتقهرون بدون نظام ، ولم تفلح بعد هذه المعركة محاولات اليونان ، ولم يأت أغسطس سنة ١٩٢٢ حتى كان جيش اليونان الذي كان تعداده يزيد عن مائتي ألف رجل قد انتهى بين قتيل وأسير وهارب ، وبناء على هذا النصر منحت الجمعية الوطنية لقب «غازي» لمصطفى كمال ، وأصبح سلطان تركيا مستقراً في يده دون منافس *

وعلى هذا عقد مؤتمر لوزان (١٩٢٣) الذي سبق أن أشرنا إليه وتهت فيه معاهدة بسطت تركيا بمقتضاها سلطاتها من جديد على جميع آسيا الصغرى وعلى القسطنطينية وتراتيا الشرقية ، وتعيين على اليونانيين الذين كانوا يقيمون بآسيا الصغرى أن ينتقلوا إلى وطنهم على أن يعود الأتراك المقيمين باليونان إلى الأناضول *

- ٨٩٦ -

وقد فرح المسلمون فرحاً عظيماً بهذه الانتصارات ، وحسبوا أنها انتصارات إسلامية سينتلوها ازدهار للإسلام والمسلمين ، ولكن أثاتورك سرعان ما أعلن ما كان يضمّ ، فأعلن عداءه للخلافة وعداءه للإسلام والمسلمين ، ولقد عبر الشاعر المصري أحمد شوقي عن فرح المسلمين بانتصارات تركيا ، وحزنهم لوقف أثاثورك من الخلافة ومن الإسلام بقصيدة رائعة ينمّ مطلعها عن أفكارها وهذا المطلع هو :

عادت أغاني العرس رجُعَ نواح
ونشعيت بين مُعَبَّدَاتِ الْأَفْرَاح

أوريا وأثاثورك ومراحل إلغاء الخلافة :

وفكت أوريا بعهدـها المصطفى كمال ، فأتاحت له أن ينتصر على اليونان وتوقفت عن صراعها ضده ، ووفـى الرجل بوعودـه المقابلة ، فأسرع بالغاـءـ الخلافـةـ التيـ كانتـ رـبـاطـاـ بـيـنـ دـوـلـ الـعـالـمـ الـاسـلـامـيـ ، وـلـمـ يـفـكـرـ فـيـ تـصـحـيـحـ وـضـعـهاـ ، أوـ اـخـتـيـارـ خـلـيـفـةـ صـالـحـ ، بلـ اـتـسـجـهـ للـعـقـدـ فـقـرـرـ أـنـ يـقـضـيـ عـلـيـهـ وـأـنـ يـعـشـرـ حـيـاتـهـ ، وـاتـجـهـ لـلـخـلـافـاءـ بـالـعـزـلـ وـالـتـنـكـيلـ شـمـ بالـغاـءـ الـخـلـافـةـ ، وـعـلـمـانـيـةـ الـدـوـلـةـ ، وـكـلـ ذـلـكـ تـمـ بـسـرـعـةـ حـتـىـ يـرـضـيـ انحرافـهـ الـخـاصـ وـسـادـتـهـ الـجـددـ .

فـفـيـ سـنـةـ ١٩٢٢ـ عـزـلـ مـحـمـدـ السـادـسـ (ـ وـحـيدـ الدـينـ)ـ وـاخـتـارـ بـدـلـهـ
عـبـدـ الـمـجـيدـ بـنـ عـبـدـ الـعـزـيزـ .

وـفـيـ أـكـتوـبـرـ ١٩٣٣ـ أـوـزـ الـىـ الجـمـيعـ الـوـطـنـيـ الـتـيـ أـلـفـهـاـ خـاتـمـتـ
قـرـارـاـ بـإـعـلـانـ الـجـمـهـورـيـةـ وـاخـتـيـارـ مـصـطـفـىـ كـمـالـ رـئـيـسـاـ لـهـ ، وـكـانـ معـنـىـ
هـذـاـ أـنـ يـصـبـحـ مـنـصـبـ الـخـلـيـفـةـ مـنـصـبـ دـيـنـيـاـ ، وـليـسـ لـهـ سـلـطـاتـ سـيـاسـيـةـ .

ولـلـمـيـالـفـةـ فـيـ التـقـليلـ مـنـ مـرـكـزـ الـخـلـافـةـ أـعـلـنـ أـثـاثـورـكـ اـتـخـاذـ أـنـقـرـةـ
عـاصـمـةـ الـدـوـلـةـ ، وـاـكـتـفـىـ بـأـرـسـالـ مـمـثـلـ لـحـكـومـةـ أـنـقـرـةـ الـجـمـهـورـيـةـ لـدـىـ

- ٨٩٧ -

ال الخليفة بالاستانة ، و سترى فيما بعد أنه عرض على الاتجليز الفاء
الخلافة ليضمون صداقتهم .

وفي مارس سنة ١٩٢٤ أصدرت الجمعية قرارا بالغاء الخلافة
و إخراج الخليفة وأسرته من البلاد .

و تهياً لصطفي كمال بذلك أن يتحقق باقى وعوده لأوروبا وأن يقف
بتركيا بعيداً عن الإسلام والمسلمين كما سترى .

ثورات ضد أتاتورك وقمعها :

كان من نتائج إلغاء الخلافة وابعاد الدولة عن الفكر الإسلامي أن
هيئت ثورة الأكراد سنة ١٩٢٥ بقيادة الشيخ سعيد شيخ مشائخ الطريقة
الدقشنبندية ، وشملت الثورة الولايات الشرقية التي يكون الأكراد أغلبية
فيها ، ولقيت هذه الثورة تأييداً ظاهراً أو خفياً من منافسي مصطفى كمال
الأتراك ، وقد ضرب مصطفى كمال هذه الثورة بيد من حديد ، وانتهزها
فرصه للقضاء على كل منافسيه السياسيين فالغنـى أحزاب المعارضة بحجة
أنها ساندت ثورة الأكراد ، وأقاموا محاكم الاستقلال حيث حكمت على
الكثير من منافسيه بالاعدام والسجن المؤبد والنفي ، وهكذا لم ينج من
حكم المحاكم كل من نجا من معارك القتال ، وانتهت هذه الحركة باطلاق
يد مصطفى كمال واطلاق فكره واتجاهاته التي سترحها بعد قليل (١) :

(١) من المقارنة التاريخية نذكر أن جمال عبد الناصر اقتدى بأتاتورك
في إلغاء الأحزاب والسيطرة على المصحف وإقامة المحاكم للتنكيل بأعدائه .

- ٨٩٨ -

أسماء و هيئات

أسهمت في التحرّكات بتركيا بدءاً من عهد عبد الحميد الثاني :

ان الدارس للتاريخ الامبراطورية العثمانية بدءاً من العقود الأخيرة في القرن التاسع عشر إلى الآن يتحتم عليه أن يقف وقفات طويلة عند الأسماء والهيئات التالية :

- ١ - السلطان عبد الحميد الثاني .
 - ٢ - مدحت (أبو الدستور) (١٢٢ - ١٨٣ م) .
 - ٣ - جماعة الاتحاد والترقي .
 - ٤ - أثاتورك (أبو الأتراك) الذي لم يخلّف لوطنه إلا الآلام .
 - ٥ - تركيا الحديثة والعودة للإسلام والثقافة الإسلامية .
- وفيما يلى حديث عن هذه الموضوعات :

السلطان عبد الحميد (الثاني) (١٨٧٦ - ١٩٠٩)

هو السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية ، وهو ابن السلطان عبد الحميد ، وأمه من أرمنية ، ولد باستانبول سنة ١٨٤٢ م وتوفيت أمه وهو في الثامنة من عمره ، ثم توفي أبوه عام ١٨٦١ وهو في مطلع الشباب ، فتبنّت أختي زوجات أبيه .

أجاد اللغة العربية والفرنسية ، كما أجاد الفروسية وأصابة الهدف ،
وكان بعيداً عن اللهو والخمر ، ولكنه كان مولعاً بالتدخين .

تولى عمه عبد العزيز الخلافة بعد أبيه فكان عبد الحميد من خواص عمه ، وصحبه في زياراته للقاهرة سنة ١٨٦٣ وهي أول زيارة ي يقوم بها

أحد خلفاء العثمانيين مصر ، وكانت في عهد اسماعيل باشا بن محمد على ، وبمقتضى الصلة الطيبة بين الخليفة ووالى مصر منح اسماعيل لقب خديوى كما منح امتيازات أخرى .

وقد جرت أحداث خطيرة في استانبول تقرر فيها هزيل السلطان عبد العزيز في مايو سنة ١٨٧٦ ولم يمض على عزله بضعة أيام حتى أعلنت وفاته ، وقد اتهم مدحت باشا بأنه كان وراء اغتياله .

وبعد عبد العزيز تولى ابن أخيه (مراد الخامس) ولكن اضطراب الأحوال أثر في نفسية الخليفة الجديد ، فاتهم بالجنون وعزل ، وتولى عبد الحميد الثاني السلطة بعد نهاية مريرة لسلطانين قبله ، واتخذ قصر « يلدز » مقرًا له ، وكان ذلك في سبتمبر سنة ١٨٧٦ .

ويعتبر عبد الحميد الثاني من أشهر سلاطين العثمانيين ، ومن أطولهم خلافة ، ويعتبر عهده مفترق الطرق ؛ ففيه اتجاهات إلى الاصلاح ثم نكوص عنها وعودة للتشيّب بالماضي ، وقد بدأ عهده باعلان « خط همايوني » سجل فيه الأخطاء والمقاسد التي أشرنا إليها : وقد جاء فيه :

« ... وقصارى آمالى ومقاصدى معطوفة بالحصر لتأييد أساس شوكة دولتنا ومكانتها ، بحيث تثال صفو رعيتنا - بلا استثناء - الحرية ، وينعمون جميعاً بنعمة العدالة والرفاهية ، وقد عرف الناس أجمع أن حال الاختشاش الملم بدولتنا له جهات وأسباب متنوعة يمكن أن تجمع في نقطة واحدة هي عدم جريان القوانين والنظمات المؤسسة على الأحكام الجليلة والشرعية ، واتباع كل فرد أهواء نفسه في ادارة الأمور ، واتساع ميدان عدم الانتظام الطارئ على ادارة دولتنا ملكاً وما لا ، وتعذر وصول المحاكم الى الدرجة المكتففة بتأمين حقوق الناس ، وتأخر استفادة دولتنا من وسائل العمران والتقدم في الزراعة والصناعة والتجارة ... »

- ٩٠٠ -

« أول ما يلزم لاصلاح الحال هو أن نبدأ ب نقطة مهمة هي أن يكون مجلس عموم تكون أفعاله وأثاره مستوجبة لثقة العموم واعتمادهم ، ويكون موافقاً لقابلية ملوكنا وأخلاق أهلها . . . يتَّسْطُرُ كذلك في موازنة واردات الدولة ومصاريفها . . . »

« ثم لا كانت مسألة توديع المأموريات الى غير أهلها من المأمورين وتبدلاتهم التوالية من غير سبب مشروع هي من جملة الأمور الباعثة على ايقاع القوانين والنظمات في حيز الاشكال ، فينبغي أن يتعين من الآن فصاعداً مسلك مخصوص لكل نوع من الخدم والمأموريات وتتَّخذ قاعدة ثابتة ليستخدم بمقتضاها في كل عمل من يكون أهلاً له ، ولا يعزل أحد أو ينحل من مأموريته بلا موجب . »

« ومن المعلوم أن ترقىيات ملل أوربا المادية والمعنوية إنما حصلت لهم بقوة الفنون وال المعارف ، ولما كان استعداد كافة رعيتنا وما خطروا عليه من الذكاء — والحمد لله — يؤهلهم من كل وجه للترقيات ، وأهم ما لدينا من الأمور الأسراع بتعظيم المعارف ، فأخص ما ننتمناه والحالة هذه أن يحصل الاجتهاد بابلاغ تخصصات المعرف الى الدرجة الكافية : حسبما يساعد الامكان ، وأن تستحصل الوسائل الموصولة لتعظيم نشر المعارف على الفور ، ويسادر عاجلاً باصلاح أصول الملكية والمالية والضبط في الولايات بحيث توضع ضمن دائرة الانتظام في صورة مناسبة للقاعدة التي تَتَّخذ في المركز » (١) . »

ومن هذه الفقرات التي اقتبسناها من هذا المنشور الذي بدأ السلطان عبد الحميد به عهده يتبيَّن لنا أن أمراض الدولة كانت معروفة ، وأن وسائل العلاج كانت معروفة كذلك ، وفي قمتها الحياة الدستورية حيث

(١) أقرأ المنشور كله في تاريخ الدولة العلية لـ محمد فريد ص ٢٣٦ — ٣٢٨

— ٩٠١ —

يمكن أن تكون الأعمال المالية والأدارية وغيرها تحت رقابة ممثلي الأمة ، وسنعود للحديث عن الدستور والحياة الدستورية بعد قليل .

متاعب في طريق السلطان :

واجهت السلطان عبد الحميد مجموعة من المتاعب «نـ أـيلـ عـهـدـ» ، فقد سقط قبله سلطانان عبد العزيز الذي خلع ثم قتل ، ومراد الذي جـنـ ، وقد شارك كبار ضباط الجيش ورجال الدولة وبخاصة مدحت باشا في الصدتين .

و恃سلم عبد الحميد دولة مثقلة بالديون ، وكان الجيش والأسطول في عهد أخيه السلطان عبد العزيز قويين مما أزعج الروس والفرنسيين والإنجليز فحاولوا بواسطة عمالائهم اسقاط السلطان عبد العزيز بالشائعات ، ونجحوا في ذلك ، وتم تمرق الجيش والأسطول عقب ذلك (١) .

واقترنـتـ السـتـانـ الأولـيـانـ منـ حـكـمـهـ بـهزـائـمـ عـسـكـرـيـةـ أـلـيـمـةـ ،ـ نـزـلتـ بالـدوـلـةـ الـقـىـ وـاجـهـتـ تـكـلـاتـ دـولـيـةـ أـوـرـيـةـ مـسيـحـيـةـ لـمـ تـسـطـعـ الدـوـلـةـ لـهـاـ دـفـعـاـ ،ـ وـفـقـدـتـ الدـوـلـةـ بـهـذـهـ الـهـزـائـمـ شـطـراـ لـأـ يـسـتـهـانـ بـهـ مـعـتـلـاتـهاـ فـيـ أـورـباـ وـآـسـيـاـ وـأـفـرـيـقـيـةـ ،ـ وـوـصـلـ الـجـيـشـ الرـوـسـيـ إـلـىـ ضـواـحـيـ الـعـاصـمـةـ .ـ

وـاسـتـغـلـ خـصـومـ الـخـالـفـةـ فـرـصـةـ هـذـهـ الـهـزـائـمـ ،ـ وـقـامـواـ بـمـحاـلـاتـ عـزلـ السـلـطـانـ ،ـ وـلـاـ فـشـلـواـ فـيـ مـحاـلـاتـهـمـ عـمـدـواـ إـلـىـ إـحـرـاقـ الـبـابـ الـعـالـىـ ،ـ فـقـابـلـ السـلـطـانـ هـذـاـ التـصـرـفـ بـمـسـائـلـ قـمـعـ عـيـفـهـ .ـ

وهـكـذـاـ قـابـلـ السـلـطـانـ فـيـ مـطـلـعـ عـهـدـهـ مـشـكـلـاتـ خـارـجـيـةـ وـداـخـلـيـةـ قـاسـيـةـ (٢) .ـ

(١) شـيخـ الـاسـلـامـ مـصـطـفىـ صـبـرىـ :ـ الـاسـرـارـ الـخـفـيـةـ وـرـاءـ الـفـاءـ الـخـالـفـةـ الشـمـائـيـةـ صـ ٩٩ .ـ

(٢) دـكـتورـ عـبدـ الـعـزـيزـ الشـنـاوـيـ :ـ الـدـوـلـةـ الـعـثـنـائـيـةـ جـ ٣ـ صـ ١١٥٣ـ ـ ١١٥٠ـ بـتـصـرـفـ .ـ

وحل عهده بهزائم دولية واسعة ، فقد احتلت بريطانيا قبرص سنة ١٨٧٨ واحتلت فرنسا تونس سنة ١٨٨١ ، ثم احتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢ بالإضافة إلى فرض الرقابة المالية الدولية على الدولة سنة ١٨٨١ وضم الروملي الشرقي إلى بلغاريا سنة ١٨٨٥ ، وفرض المراقبة الدولية على مقدونيا سنة ١٩٠٣ ، وهذه التقدمة الأخيرة أثنات لشادة الجيش العثماني في مقدونيا مزيداً من الحرية والحركة والاتصال بالأوربيين .

قصته مع الدستور :

ذكرنا أن الخط الهمایوی الذي أصدره السلطان عبد الحميد كانت فيه إشارة إلى ضرورة الحكم النبیابی ، والتقى السلطان بمدحٍت باشا ، وأسندت له الصداررة العظمى ، وكان هذا قد أعد العدة خلال عهدي عبد العزيز ومراد مثل هذا اليوم المشهود ، ولم يمض عليه في منصبه الأربع أيام حتى جعل السلطان يعلن مجموعة من القوانین الهامة ، ويعلن كذلك الدستور المؤسس على الشورى ، وعلى اشتراك جميع الرعایا في شؤون تحسین الدولة من غير تفرقة بين عنصر ودين ، ونظمت الدولة مجلسين مجلس ينتخب من الأهلی ويسمى « مجلس المبعوثان » ومجلس تعین الدولة أعضاءه ويسمى « مجلس الأعيان » ، وتتلئيَّ هذا الدستور الشتمى على ١٦ مادة بالاستانة في محفل عام في ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٧٦ ، وأمر السلطان بأن يكون العمل بمقتضاه في جميع أنحاء المملكة العثمانية ، وأطلقت الدافع من القلاع البرية والبحرية واستبشر الناس خيراً ، وأقيمت الأفراح ، والليالي الملاح ، وكان هذا الدستور يتضمن حقوق الدولة وواجبات الوزراء ، ورجال الادارة ، والختصاص كل مجلس من المجلسين ، وتنظيم المحاكم ، وللديوان العالى ، والمالية . . . وغيرها من الشؤون الرئيسية (١) . ومن أهم ما جاء به من تفصيلات أنه ضمن لجميع

— ٩٥٣ —

رعاية الدولة الحرية والمساواة أمام القانون ، وأباح حرية التعليم مع جعله اجباريا على جميع أفراد العثمانيين ، وضمن حرية المطبوعات وبين حق الانتخاب وكيفيته ، وأن جميع الرعایا يطلق عليهم اسم عثماني ، وأن الدين الرسمي هو دين الاسلام ، واللغة الرسمية هي اللغة التركية ، وقرر ابطال المصادر في الأموال ، والتعذيب في التحقيق ، وابطال السخرة ، ووضع ميزانية سنوية تعرض على هيئة المبعوثان ثم الأعيان ، وإذا أقرها المجلس تكون واجبة التنفيذ ، ونصل على عدم جواز عزل القضاة الا بسبب شرعى (١) .

وجرت انتخابات عامة عقب ذلك ، واجتمع مجلس النواب ، كما اجتمع مجلس الأعيان وكان أعضاؤه يعيثون مدى الحياة .

إيقاف الدستور :

ولكن قبل أن يُتمَّ المجلس دور انعقاده الأول أصدر السلطان عبد الحميد قراراً في ١٤ فبراير سنة ١٩٧٨ بفرض^(١) المجلس وتأجيل اجتماعاته إلى أجل غير مسمى . وقيل في أسباب ذلك ان الدولة كانت تواجه حرباً وصراعات تستلزم أن يكون بيد السلطان تصريف الأمور حتى لا تتقطع حاجات الدولة في هذه الحالات الخطرة بين المؤيدين والمعارضين ، على أن لا لأن في الحق اندفع بسبب تقييد سلطاته إلى تعطيل هذا المجلس وظل الدستور معطلاً احدى وثلاثين سنة ، مما يؤكد أن تعطيله لم يكن لواجهة حالة طارئة ، بل لتحقيق رغبة السلطان في الحكم المطلق ورغبة أعوانه الذين يستفيدون من انطلاق الحكم وعدم الرقابة .

ويجب هنا أن نذكر أن الدستور ضائق دول أوروبا ، لأن وجود الدستور معناه انتظام الحياة وجود المراتبة ، وهذا سيصيب بالشكل

(١) في مخطوطات قصر عابدين صورة نوتونغرافية للدستور ممهورة بتوقيع السلطان عبد الحميد .

- ٩٠٤ -

طموح أوريا أو على الأقل سيقلل من نشاطها الذي كانت ترمي به إلى افساد الحياة في الامبراطورية العثمانية ، ولذلك أثاروا السلطان بطريق غير مباشر ضد الدستور ، وعندما أحس السلطان بأن أوريا لا تزيد الدستور أتخذ من ذلك قوة تأوّق العمل به ، ووقع بذلك في قاء الخديعة .

ونجحت جمعية الاتحاد والترقي في إبراز كيانها ، واتخذت من سالونيك مركز قوّة لها ، وكان على رأسها الفريق شوكت باشا والأمير لاي صادق بك والضابطان أنور بك ونيازي بك ، وأعلن هؤلاء الدستور في سالونيك وما حولها سنة ١٩٠٨ عندما أحسوا بالقوّة .

إعادة الدستور :

ولما بلغت هذه الأخبار للسلطان انزعج لها ، وحاول التغلب على هذه الجماعة المتمردة ، ولكنّه عجز ، وبدأت هذه الجماعة تتحرك للزحف على العاصمة ، فأسرع السلطان وأعلن إعادة الدستور ، وكان ذلك في ٢٤ من يوليوز سنة ١٩٠٨ وأصدر أمره بإجراء الانتخابات ، وأطلقت الدافع مرة أخرى كتلك التي أطلقت منذ أحدى وثلاثين سنة ، وأجريت الانتخابات العامة ولكن نفوذ جماعة الاتحاد والترقي كان واضحاً فيها فتّجح في الانتخابات كثير من ارتضتهم هذه الجماعة .

الإيقاف الثاني للدستور :

وبعد تسعه شهور من الإعلان الثاني للدستور اندلعت ثورة بالعاصمة ، أغلبظن أنها كانت ثورة مصطنعة ، وكانت تتداعى بإلقاء هذا الدستور والعودة للشريعة الإسلامية ، وعدم التدخل في سلطة السلطان الذي يمثل السلطة التشريعية بالبلاد . وكانت هذه الثورة بقيادة الدراويش وإنضم لهم بعض الجنود ، وأُرِيقت فيها كثير من الدماء ، وقتل في هذا الشغب وزير الحقانية وجراح وزير المغربية ، فتظاهر البطلان بعاطفة التوفيق بين المجلس النيابي والجنود الثائرة ،

فعدّل الوزارة التي كانت قد اقترحتها جماعة «الاتحاد والترقي» وعين توفيق باشا صدرًا أعظم ، وعهد إليه إعادة الشريعة أو القانون المقدس إلى حيز التنفيذ ، وفر آنذاك الأعضاء البارزون في مجلس المبعوثان وأصبحوا أن السلطان قد تم له التسلط على مجلس المبعوثان وعلى الحكومة ، ولكن جيش سالوتينيك كان بالمرصاد فزحف إلى الأستانة بقيادة محمود شوكت باشا وأوقع الهزيمة بالجيش الموالي للسلطان ، وأمن الحياة الدستورية ، وعاد الفارون من مجلس المبعوثان .

عزل السلطان :

وانعقدت جلسة أجمع فيها جميع الأعضاء على وجوب خلع السلطان عبد الحميد ، فخلع بناء على فتوى من شيخ الإسلام ، وأخرج من سريري يلذر إلى سالوتينيك ، وصودرت جميع أمواله ومجوهراته لصالحة بيت المال ، وكان ذلك في أبريل سنة ١٩٠٩ .

تركيا الفتاة :

قلنا من قبل إن السلطان أوقف العمل بالدستور في فبراير سنة ١٨٧٨ بعد إصداره بمدة وجيزة ، وقلنا إنه أعاد العمل بالدستور بعد حوالي إحدى وثلاثين سنة تحت ضغط جمعية الاتحاد والترقي ، والذي نريد أن نقوله هنا أن أحداثا خطيرة جرت خلال هذه المدة ، ومن أهم هذه الأحداث تكوين جمعية «تركيا الفتاة» .

وقد كان قيام جمعية «تركيا الفتاة» نتيجة لإيقاف الدستور من جانب ، وللهزائم التي نزلت بالدولة من جانب آخر ، وهذا وذلك دفع مجموعة من الأتراك بالمنشق إلى تأليف جماعة «تركيا الفتاة» واتخذت الجماعة من باريس وجنيف مركزاً لها ، وانضم لها بعض القادة العرب ، وكان من أبرز ما قصدهم وضع حد للتدخل والهزائم الخارجية ، وإصلاح الأحوال الداخل ، وأخذ هؤلاء الأحرار يكتبون

ويخطبون ليثيروا الرأى العام بتركيا معهم ، كما حاولوا أن يوصلا
أمسواتهم للجيش التركي لينضم إليهم . ونحوها أخيراً في عقد رباط
بينهم وبين الجيوش التركية في مقدونيا حيث تألفت جمعية « الاتحاد
والترقي » كما سترى بعد قليل .

الجامعة الإسلامية :

وننتقل هنا من الحديث عن « تركيا الفتاة » للحديث عن الجامعة
الإسلامية ، فلن السلطان عندما أحس بصوت المجاهدين الأحرار من
أبطال « تركيا الفتاة » يثير الناس عليه ، أراد بذاته ودهائه أن يقوم
بعمل مضاد يرعب به أوروبا ويظاهر به أنه راغب في الإصلاح ليؤجل
 بذلك العاصفة أو يقضي عليها ، فكان أن هب يدعو للجامعة الإسلامية
 معلنا أنه يريد لربط المسلمين في شتى البلاد بأصارة قوية هي آصرة
 الدين ، متخلية عن عصبية الجنس واللغة ، وأنه ينوى أن يهيئ للبلاد
 الإسلامية صنوف الحرية والرخاء ، ووجد هذا الاتجاه صدى كبيراً
 في نفوس المسلمين ، وحسبوا أنهم يستطيعون به أن يردوا اعتداءات
 الأوروبيين التي بدأت تأخذ شكل الاحتلال لأكثر أقطار الإسلام ، فانجلترا
 مد نفوذها في جنوب الجزيرة في أوائل القرن التاسع عشر واحتلت مصر
 سنة ١٨٨٢ وأطبقت بنفوذها على الهند ، واحتلت فرنسا الجزائر فتونس
 وأخذت تتدخل في شؤون سوريا ولبنان ، كل هذا دفع المسلمين إلى
 الاستجابة لنداء الجامعة الإسلامية .

والجامعة الإسلامية فكرة قريبة الصلة بنفوس المسلمين ، وقد
 عاشوا فيها أنصار أيامهم في ظل الخلفاء الراشدين وغيرهم من خلفاء
 المسلمين ، وهي حلم لذيذ يرجو كل مسلم أن يتحقق ، وأن يبني على
 على أساس سليم ، وقد هتف بها حديثاً دعاة الوهابيين والسنوسين ،
 فجذورها عميقة في التاريخ عميقاً في نفوس المسلمين ، والدعوة إليها
 متتجدة من حين إلى حين .

وقد بدأ السلطان نداءه للجامعة الإسلامية باتجاه ذكي ماهر ^١ هو أن أحاط نفسه بكلئف من المفكرين المسلمين في طليعتهم العلامة السيد جمال الدين الأفغاني الذي استدعاه السلطان لينزل ضيفاً عليه في الاستانة ، وقربَ به إليه ، وأغدق عليه المال ، وأنسح له من صدره ليتكلم ويقترح وينتقد ، وكان السلطان بذلك يرمي إلى إبعاد جمال الدين عن جماعة تركيا الفتاة إذ كان جمال الدين قد اجتمع بهم في باريس ^٢ ، وعرف خطتهم في الاصلاح وأيدوها ، كما كان السلطان يرمي أن يضع هذا التأثير العالم قريباً منه ليعسيطر على حركاته شاء أو لم يشاء ، ويقول الأستاذ أحمد أمين ^(١) : «إن جمال الدين ما أن وضم قدمه في الاستانة حتى كان في قفص من ذهب أحكم بابه» ، ولم يكن جمال الدين الأفغاني هو وحده الذي افتتن بالدعوة للجامعة الإسلامية بل افتتن بها كثيرون من زعماء العرب ، وروج لها الدعاة الذين كانوا ينتشرؤن في الولايات العربية ، يحاولون إقناع الناس بأن الخلافة هي أملهم الوحيد في النجاة من أطماع الغرب ، وأن الجامعة الإسلامية هي السبيل لإنقاذ الشرق من براثن الغرب ^(٢) .

وهتف كثير من الناس للدعوة الحميدية ، وأملأوا أن تتحقق الجامعة الإسلامية ليتحقق بها إيقاف الزحف المسيحي وإعادة القوة إلى معسكر الإسلام ولاقت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية نجاحاً كبيراً في العالم الإسلامي ، واستقبلتها الشعوب المسلمة التي كانت ترثى تحت عباء الاستعمار الأوروبي بالحماسة والابتهاج ، وكان لها في مصر صدى بالغ تمثيل فيما كتبه المجاهد مصطفى كامل عندما قال : «الخلافة الإسلامية هي لكل مسلم السلطة العالمية التي يستمد منها القوة والنور والمهدىة» ، وهي الحصن الحصين الذي يصان به الإسلام ويعتز به المسلمون

(١) زعماء الاصلاح ص ٩٩ .

(٢) دكتور عبد الحميد البطريرق : الأمة العربية ص ٨٥ .

— ٩٠٨ —

ولقد أدرك الأوروبيون قوة الخلافة الإسلامية ومعنى سلطتها على المسلمين ، فسعوا لحل عقدها ، وتقويض أركانها وتدمير بنائها ، ليسهل لهم استبعاد مناطق العالم الإسلامي ، وامتلاك بلاده وربوته » (١) .

وهكذا استغل السلطان عبد الحميد شعور المسلمين بالحاجة إلى التضامن والتكتل ، لجعل نفسه زعيماً للدعوة للجامعة الإسلامية ، ليدعم مركزه في الداخل ، ويرهب الدول الأوروبية في الخارج ، واسقطاع أن يخفى عن رعاياه حياته الخاصة في قصر « يلدز » (٢) وأن يظهر للناس أنه متدين وأنه يسعى لخدمة المسلمين .

امثليات عبد الحميد :

هناك امثليات مهمة تنسب للسلطان عبد الحميد الثاني ، وفي مقدمتها الاهتمام بالتعليم ، فقد كانت الجمود متوجهة للتعليم العسكري وحده ، فاهتم السلطان بالتعليم المدني أيضاً ، فأنشأ جامعة إسطنبول وكانت تعرف باسم « دار الفنون » ثم أطلق عليها « جامعة إسطنبول » وكانت تضم أربع كليات هي : كلية العلوم العالمية الدينية وكلية العلوم الرياضية وكلية العلوم الطبيعية وكلية العلوم الأدبية (كلية الأدب) ، وأعتبرت مدرستا الحقوق والطب كليتين ملحقتين بالجامعة .

كما أنشأ مدرسة الفنون الجميلة ومدرسة التجارة ومدرسة الهندسة المدنية ومدرسة الطب البيطري ومدرسة الشرطة والمدرسة السلطانية للشؤون المالية (٣) .

(١) المرجع السابق ص ٨٤ .

(٢) كان سكانه في عهد السلطان عبد الحميد ١٢٠٠٠ نسمة .

(٣) د. عبد العزيز الشناوى ص ١١٥٩ نقل عن :

Bernard Lewis : The Emergence of Modern Turkey p. 182.

- ٩٠٩ -

وأنشأ كذلك عدداً من دور المعلمين وعدداً من المكتبات العامة والجلات ، وخطت الصحافة والمجلات في عهده خطوات واسعة ، ومن إصلاحاته جهوده لاصلاح القضاء وتنظيم المحاكم .

ومن إصلاحاته الاهتمام بالسكنى الخديوية من ناحية النوع ومن ناحية الزيادة في الخطوط ، كما اهتم كذلك بالطرق البرية وبالبريد والاتصالات البرقية (١) .

* * *

وعلى العموم فالرجل كانت له حسناته وسيئاته ، وأخطر سيئاته هو حرصه على الحكم المطلق الاستبدادي ، ولكن الرجل واجه تكتلاً مسيحياً ضده ، لم يكن ينفصل حتى يجتمع ، كما واجه الصهاينة الذين وقفوا مصارعين له لأنّه رفض مطالبهم ، وواجه كذلك جيشاً يقوده جماعة انحرفت ذممهم وأخلاقهم كما سترى ، وخلفت سيرة لا تزال بين مادح ومهاجم ، ولكن الذي لا شك فيه أنّ الذين جاءوا بعده كانوا أشراراً هاجموا الدين ودمّروا الدنيا ، جاءوا لمقاومة الاستبداد ولكنهم كانوا في محل الاستبداد أقسى مئات المرات من السلطان العزول ، وقد عاشوا فترة من الزمن خللت ستار من الكذب والوهم ، ولكن المستار قد سقط فظهرت انحرافاتهم للعيان .

مدحت باشا (١٨٣٣ - ١٨٢٢)

ولد مدحت باشا باستانبول سنة ١٨٢٢ م وحفظ القرآن الكريم ، وتعلم بالديوان الهمایونی وجاور بمسجد الفاتح .

(١) المرجع السابق ص ١١٦٠ وما يبعدها .

— ٩١٠ —

ثم درس العلوم السياسية ، واتصل بالثقافة الغربية وشغف بها ، وتنقل في الوظائف العالمية حتى أصبح صدراً أعظم ٠

كان زعيم حزب الاصلاح الذي خلع السلطان عبد العزيز ، وكان متزعم حركة المطالبين بالدستور ، وقد ذكرنا من قبل أنه كان قد أعدَ الدستور ، فلما اختاره السلطان عبد الحميد الثاني صدراً أعظم حتى السلطان على إعلان الدستور ، فوافق السلطان ، وأعلن الدستور بعد بضعة أيام من توليه منصبه ٠

ظن مدحت باشا (أبو الدستور) أن آماله تحققت ، وأن البلاد ستستقبل عهداً جديداً ، ولكن سرعان ما ظهر له ولوفاقه المجددين أن آمالهم قد بنيت على غير أساس ، وأن السلطان أقرَ رأيهم ريثما يثبتُ عرشه ويقوّي شأنه ، وأن حول السلطان قوى كثيرة تجده في الحكم المطلق بعثتها ، وفي الاضطراب فرصتها ، وأن كثيراً من رجال الدين اشتُرِيت ذممهم بالمال ، فهم يذيعون في الناس أن كل تجديد بدعة وكل بدعة ضلال ، وحول السلطان كذلك محترفو السياسة الذين روجوا لأفكارهم المضادة للدستور مدعين أن الحكم النيابي لا يصلح للدولة العثمانية لاختلال العناصر شهباً ، ولم يلْ كثير من المسيحيين إلى خدمة مصالح الأمم الأوروبية ٠

أما الجواسيس وتجار الرشاوى الذين كسدت سوقهم أو كادت فلم يخلدوا للسكون ، بل راحوا يدبرون المؤامرات ضد مدحت ورفاقه ، ووجدوا من السلطان أدناً واعية ، فسُكِّبوا فيها سموهم منذرین أن مدحت يسعى لإقامة الجمهورية ولفصل الدين عن الدولة ، ولا إعادة مراد إلى الحكم ٠٠٠ وغير ذلك مما أزعج السلطان وأثاره ٠

ولم يكتُم السلطان غيظه ، فسرعان ما عزل مدحت وألقى القبض عليه ونفاه قبل أن يتم شهراً على إعلان الدستور ، وضاعت كل المشروعات

التي كان مدحت قد بدأ بتنفيذها ، وكذر^{*} للرماد في العيون سمح باتخاذ الاجراءات الخاصة بالانتخابات ، ولكن حياة المجلس كانت قصيرة لم تتجاوز بضعة أشهر فقد أصدر السلطان قراراً في ١٤ فبراير سنة ١٨٧٨ بارجاء اجتماعه لأجل غير مسمى ، وأوقف الدستور كما ذكرنا من قبل .

ولنسر مرحلة أخرى مع مدحت لنذكر أن السلطان سجنه بتهمة قتله أو اشتراكه في قتل السلطان عبد العزيز ، وحوكم مدحت محكمت عليه المحكمة بالإعدام ولكن السلطان عفا عنه ونفاه إلى الطائف ، وتقول بعض الروايات أن السلطان دبر قتله هناك ، ونفذ تدبیره .

ويدفع شيخ الإسلام مصطفى صبرى هذا الاتهام ، ويقسم بعض الأدلة لذلك ، ونحن نقتبس بعض كلامه في هذا الموضوع (١) ، ولنا بعد ذلك تعليق على ما يقول :

١ - ينكئ شيخ الإسلام من مذكرات السلطان عبد الحميد أن مدحت ارتكب بعض الأخطاء الجسيمة مثل تعيين ولاة من الأقلية في مناطق أكثرها مسلمون ، وأنه قبل طلبة من الأروام في المدرسة الحربية ، وهذا وذاك خطأ كبير .

٢ - كان مدحت من الماسونيين ، وبالقالى كان متعاوناً مع الانجليز .

٣ - قبل بعض الأموال والرشاوي من الانجليز .

٤ - لم يكتُر الشعب لعزل مدحت باشا ، ولكن الذي ثار هو انجلترا مما يدل على صلة بين مدحت وسامية الانجليز .

(١) الاسرار الخفية وراء الغاء الخلافة العثمانية من ١٠٣ - ١٠٨ .

- ٩٢ -

٥ - عندما حوكم مدحت وأدينَ وعفا عنه السلطان ، لجأ إلى
قنصلية إنجلترا حتى يخرج من البلاد ، فلما وجد القنصل في اجازة
لجاً إلى القنصلية الفرنسية ، وكانت هذه خيانة وطنية منه .

ويتحقق الشيغ مصطفى من ذلك إلى تبرئة السلطان من قتل مدحت
أو الإيمار بقتله ، ويقول : لو أن السلطان أراد أن يغفر عليه لترك حكم
المملكة ينفذ .

والنظر في هذه الاقتباسات لا يتحقق تمام الثقة فيها ، فمصدرها
السلطان المتهم . ثم إن التهم التي نسبت لمدحت ياشا عامة لم تتضح ،
فمن هو الوالي من الأخليات الذي عينه بولالية أكثرها مسلمون ؟

ومن هم الطلبة الأروام الذين قاتلتهم بالدار من العسكرية وما حددهم ؟
وإذا كان الشعب لم يثر لعزل مدحت ، ياشا بذلك كان نتيجة لسلوك
طويل تموّد عليه الشعب تجاه أعمال السلاطين .

ولجوء مدحت للقنصلية الانجليزية أو الفرنسية عمل لا يقرره ،
ولكنه كان الوسيلة الوحيدة لسلامته .

ويتحقق بعد ذلك أن يترك الأمر في غموضه ، أو أن نرجح تورط
السلطان فيه .

جماعة الاتحاد والترقي

قلنا من قبل أن بعض الأتراك الذين كانوا بعيدين عن تركيا أثروا
جماعة أطلقوا عليها « تركيا الفتاة » واتخذوا من المعاصرم الأوربية
مراكز لهم ، وأخذوا يكتبون المقالات ، ويخطبون في المحافل لمقاومة
الحكم المطلق الذي لجأ له السلطان عبد الحميد بعد أن ألغى الدستور
أو أوقف العمل به ، وكذلك لمقاومة الهزائم التي نزلت بالدولة تباعاً .

وكان رجال « تركيا الفتاة » حريصين على توصيل نداءاتهم للجيش لعلهم يجدون القوة التي تهبي، النجاح لأفكارهم ، وقد وجد زعماء « تركيا الفتاة » طلبتهم في مقدونيا ، ففي هذه المنطقة كان يوجد نظام الرقابة الدولية على الشئون المالية وأجهزة الأمن ، وكان قوام هذه أثربة خمس دول هي : بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا وإيطاليا ، وكان معنى هذه الرقابة ضعف سلطة استانبول على المنطقة من جانب ، ومن جانب آخر إمكان الاتصال بالقوى الأجنبية الموجودة بها ، وهذا هي الفرصة لزعماء « تركيا الفتاة » للاتصال بالجيش التركي بهذه المنطقة ، وهي الفرصة كذلك لعقد تفاهم بين قيادة الجيش التركي وبين ممثلي أوروبا المسيحية لتحقيق الأغراض المشتركة »

وفي هذا الجو تكونت جماعة « الاتحاد والترقي » بقيادة شوكت باشا وأنور بك ونيازى بك من قادة الجيش ، وهي التي أعلنت إعادة الدستور كما ذكرنا من قبله .

وقد انضم أتاتورك إلى جماعة الاتحاد والترقي .

الصهيونية والاتحاديون :

ويذكر الدكتور عبد العزيز الشناوى أن جماعة الاتحاد والترقي كانت على صلة بالصهاينة ، وأن الصهاينيين كانوا يتعاونون مع بريطانيا في تأليب أعضاء جمعية الاتحاد والترقي ضد السلطان عبد الحميد ، لأن السلطان كان حازما في منع الهجرة اليهودية لفلسطين ، وكان متعاونا مع الألمان في مواجهة الانجلترا ، وكان مكروها من جمعية الاتحاد والترقي ، وعندما تلاقت أهداف الجماعات الثلاثة (الصهاينة والإنجليز والاتحاديون) تعاونت ضد السلطان ، ولهذا عمل الصهاينيون للوصول إلى الانقلاب الدستوري سنة ١٩٠٨ والانقلاب العسكري الذي عزل السلطان سنة ١٩٠٩ ، وأيدوا حدوث هذا وذاك بحماسة .

وكان من نشاطهم لاحداث هذين الانقلابين أن أصدروا في العاصمة العثمانية صحفة باسم « التركى الشاب » وكانت تساند رجال الاتحاد والترقى .

وقد وجد الصهاينة في قرار عزل السلطان فرصة نادرة فاشتروا للأصف في حل قرار العزل للسلطان ، فقد كان الوفد الذى حمل هذا القرار مكوناً من ثلاثة أفراد أحدهم يعودى اسمه « قوه صو » وكان السلطان قد طرده من قصره عندما عرض على السلطان أن يتمناهيل فى أمر هجرة اليهود الى فلسطين ، وهو هو الآن يحمل قرار طرد السلطان من سلطنته ومن قصره بل من الامبراطورية كلها (١) .

ديكتاتورية رجال الاتحاد والترقى :

ويعزل السلطان عبد الحميد انتهى ثفوذه السلاطين من الناحية العملية ، فأخوه السلطان الجديد كان طاعناً في السن من جانب ، وكان متساهلاً للأحداث التي غلب فيها عبد الحميد من جانب آخر ، وللهذا ترك السلطة الفعلية لرجال الاتحاد والترقى ، وكان يقول انه سلطان دستوري ، والحق أنه لم تكن له وسيلة لغير هذا الموقف ، وكان مثله أو أقل منه في السلطة السلطانان الأخيران اللذان جاءا بعده وهم وحيد الدين وعبد المجيد ، وكان هذا آخر السلاطين .

والهم أنه عندما آلت السلطة الفعلية لرجال الاتحاد والترقى باشر هؤلاء حكماً مطلقاً غير مبالغين بالدستور وال المجالس الدستورية ، وأسرفوا أسافاً شديداً في الاستبداد حتى أن الأتراك آنذاك كانوا يتربّخون على حكم السلطان عبد الحميد (٢) الذي كان يوجد في التشريع الإسلامي

(١) الدولة العثمانية : ج ٣ ص ١٠٢٣ - ١٠٢٧ بتصريف .

(٢) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ص ١٧٨ .

- ٩١٥ -

ما يوقفه في كثير من الأحوال عند حد لا يتجاوزه ، ولكن رجال الاتحاد والترقي لم يحترموا الدستور ، ولم يخضعوا للتشريع الإسلامي ، فكان حكمهم مطلقاً بدون حدود ، وجاء على شاكلتهم بعد قليل « كمال أتاتورك » الذي ستحدث عنه فيما يلى :

مصطفى كمال

الغازي - أتاتورك (أبو الأنوار)

(١٨٨١ - ١٩٣٨)

زعيم تركي ، ولد في سالونيك ، والتحق بالجامعة العسكرية ، وأصبح ضابطاً بالجيش العثماني ، اشتراك في « تركيا الفتاة » التي تحدثنا عنها من قبل ، وأبْعَدَ من أجل ذلك إلى دمشق ، ثم اشتراك في حرب طرابلس ضد إيطاليا ، ويزّ اسمه سنة ١٩١٥ عندما استطاع رد هجوم المدافعين على الدردنيل ، وفي عام ١٩١٩ نظم الحزب الوطني التركي الذي حل محل جماعة الاتحاد والترقي .

ومن أشهر أعماله حروبه ضد اليونان وضرب جيشه الذي احتل أذربيجان وانتصاراته العظيمة في سقاريا وقد أشرنا لها من قبل ، واستطاع بذلك أن يطرد اليونان من الأناضول ففتح لقب « الغازي » وكانت له ميول غربية غير متمسكة بالروح الإسلامية مما وثق علاقاته بالغرب وسهل حياته معهم فعقدوا معه معاهدة لوزان (١٩٢٣) التي بسطت تركيا بمقتضها سلطانها من جديد على جميع آسيا الصغرى وعلى القسطنطينية وتراتقيا الشرقية ، وقد أشرنا لها من قبل .

مهادنة أوروبا وصداقنة الصهيونية :

وتدل الدراسات والبحوث المختلفة التي سنشير إليها أن أتاتورك أدرك أن تكتل أوروبا ضد تركيا كان لأنها تمثل الإسلام وتدافع عنه :

وتأكد له كذلك أن الصهاينة سيوقفون الصراع ضد تركيا لو أنه ألغى الخلافة ، وهكذا أدرك الرجل أن بإمداد بلاده عن الإسلام ، والقضاء على الخلافة الإسلامية سيضمن له تأييد الغرب والمدنية مع الصهاينة ، كما يضمن له النفوذ الكامل ولو باسم الديكتاتورية التي تظاهر بمحاربتها ، فالخليفة وأصبح رئيساً للجمهورية ولكنه رئيس مدى الحياة فهو رئيس ديمقراطية فقد انتخب سنة ١٩٣٣ رئيساً للجمهورية ، ثم جدد انتخابه سنة ٢٧ و٣٥ وكان كل مرة ينتخب بالاجماع ولم ينفرد الناس منه إلا موته سنة ١٩٣٨ وقد أهيا عبد الناصر ببعده هذا النظام

بعض

وابتعد أنتورك تعلما عن الإسلام ، وحاول - عبثا - أن يثبت بعد تركيا عنه . وسنعمل فيما يلى بعض التفاصيل عن حياة مصطفى كمال ، تلك الحياة التي دفعت تركيا إلى ما يسمى « علمانية الدولة » :

الكماليون :

تحدثنا من قبل عن جماعة « الاتحاد والترقي » وتلك الجماعة كانت تسمى « الاتحاديين » وكان لمصطفى كمال مصلات بها ، ولكنه لم يلبي أن كونه لنفسه جماعة نشست له فسميت « الكماليين » فهل الكماليون امتداد للاتحاديين ؟ أو أنهم جماعة متغيرة ؟

يقول شيخ الإسلام (١) : إن المجموعتين تمثلان شرذمة مختلفة العروق والأجناس حرمت على اختلاس السلطة واحتكارها بقصد المنافع الذاتية ، فيما سبّب ذلك من خراب للدولة ، وقد تسمّعوا إلى نهاية الحرب العالمية الأولى باسم « الاتحاد والترقي » وانساقوا خلف جمال وأنور وطلعت (من العجب أنها نفس أسماء جمال (عبد الناصر) وأنور (المسادات)) وبعد المدنية جمعوا ثيابهم تحت قيادة القائدين

(١) الأسرار الخفية ص ٢١١ و ٢١٢ (الهامش) .

الجديد مصطفى كمال وسموا « الكماليين » وهم هم بأعيانهم وموiolهم المنحرفة وأهدافهم الخطرة ، وقد يوجد من بين الكماليين من يشنّع على الاتحاديين كما فعل « فالح رفقى بك » الذى نشر مقالا طويلا في صحيفة « اقشام » في ٢٨/١٢/١٩٣٣ ضد الاتحاديين ، انتهى فيه قادتهم بأنهم نروا بمدمرة أجيبيه بعد أن سلموا الأمة الإسلامية إلى الأعداء الأوروبيين وأن الاتحاديين لهذا ولمسواه كانوا مجرمين في حق الدين والوطن ، وهم الذين دفعوا الأمة للحرب العالمية الأولى بجهلهم وحماقتهم ، فغرقت الأمة وفرّوا هم .

ويضيف شيخ الاسلام أن الكماليين لم يتدينوا الاتحاديين بل ساروا في نفس الطرق ، فهم جميعا في التبر سواه .

جذور يهودية :

يقول شيخ الاسلام أن مصطفى كمال عميق الصلة بـ طائفـة « الدونـة » اليـهودـية ، بل هو منها (١) وينقل الدكتور يوسف القرضاوى عن هربـتـ ابرـىـ أنه لم يكن أحدـ منـ النـاسـ يـجرـؤـ علىـ أنـ يـتـكـبـأـ أنـ هـذـهـ الفـتـةـ المـعـوـرـةـ المـرـوـفـةـ بـ الدـوـنـةـ سـتـلـبـ دورـاـ رـئـيـسـياـ فيـ ثـوـرـةـ كانـ لـهـ نـتـائـجـ خـطـيـةـ فيـ سـيـرـ "تـارـيـخـ" (٢) ، واستـمرـارـاـ مـعـ هـذـهـ الصـلـاتـ العـرـقـيـةـ يـذـكـرـ شـيـخـ الـاسـلـامـ أـنـهـ لمـ يـسـلـمـ مـنـ اـعـتـدـاءـ الـاتـحـادـيـنـ وـالـكمـالـيـنـ إـلـاـ يـهـودـ ،ـ وـفـيـماـ عـدـاهـمـ فـقـدـ وـقـعـ الـاضـطـهـادـ عـلـىـ كـافـةـ الـعـنـاـصـرـ مـنـ الـأـلـبـانـ وـالـعـرـبـ وـالـأـكـرـادـ وـالـرـوـمـ وـالـشـرـاكـسـ وـالـأـثـرـاـ (٣) .

صلة بالمسؤولية :

ينقل شيخ الاسلام عن بعض المؤائق التي نشرتها الحكومة البريطانية أن أعضاء جماعة الاتحاديين والكماليين تابعون جميعا لحفل

(١) الأسرار الخفية ص ٤٦ و ٤٩ .

(٢) د. يوسف القرضاوى : الطول المستوردة ص ١٥٣ .

(٣) الأسرار الخفية ص ٤٦ - ٤٧ .

— ٩٩٨ —

الشرق الماسوني ، وعند هزيمة الامبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى اتفقت أحزاب ايطاليا جميعها على أن تتحلل ايطاليا طرابلس الا جماعة الماسونية الايطالية التي أعلنت قولها : لا يجدر بنا أن نصول على الآثار حمل كون حكومتهم في أيدي الماسونيين (١) .

سوء صلة مصطفى كمال باستهنية وباتباعه :

يروى كتاب الأسرار الخفية لشيخ الاسلام أن مصطفى كمال عُرِفَ بأساليب المذابح والغدر والكذب والحيل اللا أخلاقية التي لم يسلم منها حتى زوجته وأقرب المقربين اليه من أصحابه وزملائه ومعاونيه الذين استخدموهم للوصول الى أغراضه ثم لفظهم في النهاية (٢) . ولم يتبق على زميل أو صديق علوته ، بل كان مصيرهم جميعاً القتل غيلة (٣) .

تضحيات مصطفى كمال لإرضاء الغرب :

في تقديمها لهذا الموضوع ذكر أن الغرب كان يصارع التجمع الاسلامي ويخشى الخلافة الاسلامية لأنها ملأ المسلمين ، وبخاصة أن بعض الدول المسيحية كانت تحكم أجزاء من العالم الاسلامي ، وترى في الخلافة تهديداً لها ، وقد جاء في مذكرات عبد الحميد الثاني ما يلى عن هذا الموضوع « ولكن الدول الكبرى التي تحكم شعوباً مسلمة في آسيا مثل انجلترا وروسيا ترتعد من سلاح الخلافة الذي أحمله ، ولهذا اتفقوا على إنتهاء الدولة العثمانية » (٤) .

وكان من وسائل الغرب لإنهاء الدولة العثمانية تلمس الأسباب لإعلان الحرب على هذه الدولة ، وكان الخليفة يتحاشى الحرب بقدر الامكان ، ولكن الاستفزاز والعدوان المباشر كان يقع من الأعداء .

(١) شيخ الاسلام : الاسراء الخفية .

(٢) المرجع السابق ص ٦ .

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة الدكتور محمد حرب ص ٦٧ .

الغرب يتطلع إلى مصر والقسطنطينية :

وأتجه الغرب إلى الأقطار الحساسة ليأخذها من الدولة العثمانية وقد كتب الفيلسوف الفرنسي « لينيتر » سنة ١٦٧٢ إلى لويس الرابع عشر ملك فرنسا يقول : « انه اذا انتزعت مصر من يد الأتراك آل أمرهم إلى البار » (١) ويتعلق لذلك بقوله « أنها وكر الدين الإسلامي ، وملاذ المسلمين » (٢) وأتجه الغرب كذلك إلى القسطنطينية وعنها يقول نابليون : « من ملك القسطنطينية أمكنه أنه يسود الدنيا » ووصفها مرة أخرى بأنها « مفتاح العالم » (٣) .

هذا كان طموح الغرب للقضاء على الإمبراطورية العثمانية ، فماذا قال مصطفى كمال لأرضاً الغرب ؟

يقول الشيخ محمد المسواف (٤) :

إن مصطفى كمال أو فد زميه عصمت آينونو إلى لندن برسالة يقول فيها :

ماذا تقاتلوننا مرة أخرى ؟ لقد كنا إمبراطورية كبيرة وكنتم تخشون جانبنا فانسلخت عننا أكثر البلاد ، ولم يبق إلا التنصر التركي في الأناضول ؟

وبعد محادثات طويلة اشتراك فيها حايم تاخوم حاخام اليهود الأكبر في تركيا ، قال الانجليز : إننا نخشى أن تعودوا مركز تجمع المسلمين ونواة لوحدتكم .

(١) شكيب ارسلان : حاضر العالم الإسلامي ٢ ص ٣ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق ص ٢٩١ .

(٤) المدخلات الاستعمارية لمكافحة الإسلام ص ١٧٤ .

- ٤٢٠ -

وهنا عرض مصطفى كمال الشروط الأربعة الآتية لإرفاقهم :

- ١ - إنهاء الخلافة الإسلامية نهائياً في تركيا .
- ٢ - أن تكتسب تركيا كل صلة لها مع الإسلام والدول الإسلامية .
- ٣ - أن تصنف تركيا تجسيد وشل حركة جميع العناصر الإسلامية بتركيا .
- ٤ - أن تستبدل الدستور العثماني القائم على الإسلام بدستور مدني بخت .

وهكذا كلن موقف مصطفى كمال من الخلافة ومن الإسلام والمسلمين .

خيانة وطنية :

نشرت صحيفة Sunday Times برقية السفير البريطاني في أنقرة إلى وزارة الخارجية البريطانية التي ذكر فيها أن أئتيورك استدعاء وهو مريض ووجهه لأن يخلفه في منصب الرئيس ، وقد نقلت صحيفة الأهرام المصرية نص هذه البرقية في عددها الصادر في ١٥/٢/١٩٦٨ (١) .

مخالفاته للإسلام :

كان مصطفى كمال مدمناً لشرب الخمر ، وكثير السخرية بالقدسات الإسلامية ، وأباح زواج المسلمات من غير المسلمين ، وترك الحليف باسم الله في الأيمان الرسمية ، وعوقل سفر الأتراك لأداء فريضة الحج ، ومن حجاب المرأة ، وأزال الفوائل التي كانت تفصل بين الرجال والنساء في وسائل المواصلات .

ومن أجل هذا كان الأتراك يتهمون الحكم الجدد باللحاد واعتنق

(١) انظر كذلك كتاب الفكر الصهيوني للاستاذ مصطفى السعدني
ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

البلدي ، الهدامة ، ويقولون عنهم : إنهم يعودون وملسوبيون وليسوا أتراكا ولا مسلمين ، وكل ما يهدون إليه هو القضاء على الإسلام والخلافة^(١) .

ويقول السيد رشيد رضا في مجلة النار^(٢) : إن ملاحقة الترك هي الذين يمتحنون الدعوة إلى تشويه الدولة العثمانية ويشنون الدعوة إلى الإنحطاد ويحرّضون الزنادقة على ترك الإسلام وأحتقار شريعة وأدابه ، وليس قاتل الأقرحة ولثارة النورة القومية والعصبية الجنسية ، وقتلها ثبت لها لاء الملاحة نسب صحيح في الشعب التركي الذي كان عريقا في الإسلام ، بل هم أوشاب ، منهم الروسي والرومني والبلغاني ، واليهودي الأهل ، وإن السواد الأعظم من الترك يعتقدون هؤلاء الكماليين أشد مما كانوا يعتقدون أخواتهم الاتحاجين .

الكتورات وطبقة الدولة :

اتجّهت جماعة الاتحاد والترقي في سياستها اتجاهها مطينا ، واستبعدت منذ سنة ١٩٠٩ الإسلام والوحدة الإسلامية ، ووجهت كل عنايتها إلى تركيا وإلى الآتراك ، في عمود نظرتهم العادلة للإسلام ولكن مصطفى كمال صوت هذه الأفكار والاتجاهات ومنفذها ، ولهذا دفع تركيا إلى الشلّانية عندما ألت له السلطة .

وما المقصود بالعلمانية ؟

لم يقصد للتفيق بالعلمانية هو إلا يتدخل دين الشخص أو مذهب الدين في تقدير قيمته أو يقف حائلا دون تليه ما تستحقه مواهبه ، ولكن المعنى الشائع للعلمانية يكاد يعادل معنى اللادينية ، وذلك المعنى هو الذي اتبّع بالنسبة لتركيا آنذاك ، وقد آن لنا أن نستكمّل ذكر أهم صور الانقلاب

(١) أرمسترونغ : مصطفى كمال ص ٢٨ .

(٢) تقلّا عن كتاب « تاريخ الصحافة الإسلامية » لـ الاستاذ انور الجندي ص ١١١ .

— ٩٦٢ —

الديني والاجتماعي الذي أحدثه أتاتورك (أبو الأتراك) في حياة تركيا في عهد الكماليين امتدادا لاتجاهات جماعة (الاتحاد والترقي) : ففي الجلسة التي عقدها الجمعية الوطنية في مارس سنة ١٩٢٤ ، وقررت فيها الغاء الخلافة ، وافقت الجمعية الوطنية أيضا على قانون بالغاء وزارتي الشرعية والأوقاف ثم سارت خطوات مصطفى كمال دون توان لإكمال الصورة التي رسمها لتركيا الحديثة بابعادها عن الدين تماما أو قريبا من التمام ، فأعلن الغاء المحاكم الشرعية وأضافة أعدالها إلى المحاكم المدنية ، وألغى المؤسسات والمدارس الدينية ، وجعل إنشاء المدارس مقصورة على وزارة المعارف .

أتاتورك ينادي الإسلام :

وألفى الفازى من الدستور النص على أن دين الدولة الإسلام ، وألفى التشريع الإسلامي الذى أطلق العهد الجديد عليه « تشريع عتيقت » أى القانون البالى واستبدل به القانون المدنى السويسرى والقانون الجنائى الإيطالى ، وأصدر الفازى قانونا يجعل العطلة الأسبوعية يوم الأحد بدلا من يوم الجمعة ، وألغى التقويم الهجرى ، وغيره أحكام المواريث فسوى بين الذكر والأنثى ، وجعل أصحاب الحق في الارث هم الفروع دون غيرهم (١) .

وخطت حكومة أتاتورك خطوات أخرى في سبيل التخلص من الإسلام أو اضعافه ، فحددت عدد المساجد ولم تسمح بناء واحد منها في كل دائرة من الأرض يبلغ محطيتها خمسة متر ، كذلك خفض عدد الوعاظ الذين تدفع الدولة أجورهم إلى ثلاثة واعظ ، وفرض عليهم لا يقتربوا خطبة الجمعة على الأمور الدينية فحسب ، بل أن يضموا إليها فوائد عملية فيما يتصل بالمسئولون الزراعية وغيرها أيضا ، وأوصدت حكومة أتاتورك

(١) انظر تركيا والسياسة العربية للأستاذ سعيد العريان وآخرين من ١٠٢ - ١٠٥ .

أبواب جامعين من أشهر جوالمع استنبول في وجه المسلمين ، ليحوّل أولهما (أيا صوفيا) إلى متحف ، وثانيهما (مسجد الفاتح) إلى مستودع ٠

وأصبح تعدد الزوجات - بسبب اقتباس القانون المسويسى - محرّماً وقد كان من الوجهة العملية مقتضاً على الطبقات الموسرة ٠

وهكذا أدارت تركيا ظهرها للإسلام واتجهت لأوروبا ، و يؤثر عن هذه الجماعة جملة في هذا المعنى وهي : « شرقت وداع » أي وداعاً إليها الشرق ٠ وأكمالاً لهذا حرم مصطفى كمال الزى الدينى (الجبة والعمامة) الا على رجال الدين ، وفرض الزى الأوربى والقبعة ذات الحافة ، وأصدر قانوناً يقضى بأخذ اسم الأسرة ولم يكن ذلك معروفاً من قبل في تركية ، وحرّمت جميع الطرق الصوفية وأغلقت زوايا الدراويش ، وقضت الحكومة في قسوة وعنف على كل نقد ديني لتدانيرها ، وزنلت المرأة التركية ميدان العمل ، وألغيت الحروف العربية واستبدلت بها الحروف اللاتينية ، وأصرّ الغازى نفسه أن يظهر أمام الناس بظهور العلم لهذه الأحرف ، وأنشئت المدارس في طول البلاد وعرضها لتعليم الناس على اختلاف أعمارهم الحروف الجديدة التي أصبحت « وطنية » ومحذف من مناهج الكليات تعليم اللغة العربية والآداب ..ية ، رهباً اللتان كان الأتراك يعتبرون دراستهما ضرورية لفهم الأدب التركي ، وحرم استعمال الحرف العربي لطبع المؤلفات التركية ، أما الكتب التي سبق لطبع استانبول أن أخرجتهما في العهود السابقة - وهي كثيرة لا تكاد تشعد - فقد صدررتُ ٠ إلى مصر وفارس والهند ٠

والواقع أن هذا الانقلاب أدى إلى قطيعة صعبة بين تركيا وماضيها الإسلامي من جهة ، وبينها وبين إخوان الآتراك في الدين فيسائر الأقطار الإسلامية من جهة أخرى ، وهي قطيعة قاسية النتائج (١) ٠

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ص ١٧ - ٢٠ .

- ٩٢٤ -

ومن أبرز اتجاهات تركيا الحديثة اتجاهها نحو الغرب في ميولها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وتقليلاً علاقاتها مع الشرق الإسلامي ، وقد دفعها مصطفى كمال في هذا الطريق بقوة وعنف .

خلافات سنتي كمال

وانتهى مصطفى كمال الذي لقب نفسه (أبو الأتراك) ولكنه لم يختلف للأتراك الا الفقر والضياع وقد ظل مصطفى كمال يشغل منصب رئيس الجمهورية حتى توفي سنة ١٩٣٨ فخلفه عصمت اينونو الذي ظل رئيساً للجمهورية حتى مات سنة ١٩٥٠ وجاء بعده جلال بايار في رئاسة الجمهورية وشغل عدنان مندريس معه منصب رئيس الوزراء .

ثورة عسكرية :

وفي مايو سنة ١٩٦٠ حدث انقلاب عسكري قاده جمال جورسيل وقد جمع زمام الأمور في يده بصفته العسكرية ، ثم رشح نفسه لرئاسة الجمهورية ، دون منافس فاختير لهذا المنصب في العام التالي ، وقد أدانت الثورة رجال العهد الماضي باللوان من الرشوة واستغلال النفوذ وأعمال مصالح البلاد تحقيقاً للمصالح الشخصية وحكمت بالإعدام على عدد كبير من كبار الرجال من بينهم عدنان مندريس نفسه ، وقد نفذ فيه حكم الإعدام .

وهذه الأحكام دليل على انحراف القادة انحرافاً قضى باعدامهم ولم تغير ثورة جمال جورسيل من اتجاه تركيا ، بل سارت في نفس السياسة الغربية التي كانت طريق تركيا منذ عهد مصطفى كمال .

وقد ظل جمال جورسيل في الحكم حتى مرض في أوائل سنة ١٩٦٦ ، وفي مارس اشتد عليه المرض وفقد الأuel في شفائه فأنهى البرلمان وياساته

- ٩٢٥ -

واختار لرياسة الجمهورية « جودت سوناي » . وبعد جودت سوناي اختير فخرى كورتك سنة ١٩٧٣ .

انقلاب عسكري جديد :

وفي سبتمبر سنة ١٩٨٠ هب انقلاب عسكري آخر بقيادة الجنرال كيناي ايغرين فأطاح بحكومة سليمان ديميريل ، وأعلن مجلس الأمن القومي « الذى تشكل من العسكريين أن هدف الانقلاب هو منع فشوب حرب أهلية وایقاف موجة العنف السياسى التى تجتاح تركيا منذ ٤ سنوات والقى بيروح ضحيتها حوالي عشرين شخصا كل يوم .

وقد تم حل الحكومة والبرلمان التركى وتعديل الدستور ، وتم القبض على كثير من الزعماء ، وهذه الانقلابات أكبر دليل على أن ثورة أناتورك كانت مدمرة ولم تؤد للبلاد شيئاً ذا بال .

وبعد استقرار الأمور عاد الحكم المدنى الدستورى للبلاد .

رؤية شاهد عيان :

وقد زرت تركيا سنة ١٩٥٠ أى بعد إعلان الجمهورية وبعد سيرها في ركب الغرب أكثر من ربع قرن ، ولكنني وجدت تركيا كما لا تزال حتى الآن شرقية الشعب غربية الحكم ، ولا يزال شعبها يعيش في مستوى اجتماعي متدهور ، وقد حسب قادة الأتراك حينما أن الاسلام كان سبب تخلفهم ، فاطرحوه الاسلام ولكن تخلفهم لم يعالج وربما زاد ، وقد عثرت الثورات على بعض الأسباب الحقيقية لتختلف هذه الدولة من رشوة واستغلال نفوذ ٤٠٠٠ وليتها تتعثر على باقى الأسباب ، ثم ليتها تحاول أن تعالجها ، وربما كان من أنجح الأدوية أن توقف الاتجاهات الروحية التي تُشَدِّد في الشرق دافعاً قوياً نحو الخلق الصالح وحارساً أميناً على الأهداف السامية .

— ٩٢٦ —

تركيا في العهد الحاضر

تبلغ مساحة تركيا الآن ٥٣٦ كم² ، منها ٤٨٥ كم² مأهولة والباقي بآسيا ، وأهم المدن التركية إسطنبول وأزمير وأدنة وبورصة واسكي شهر ، ويبلغ عدد سكان تركيا حوالي ٣٠ مليون نسمة تقريباً منهم ١٤ مليون من الأتراك والباقيون ينحدرون من أجناس متعددة أهمها الأكراد والتركمان والأرمن ، والمسلمون من سكان تركيا هم ٩٨٪ وهم يتبعون مذهب السنة .

نشاط إسلامي بعد أتاتورك :

وابتداء من سنة ١٩٤٠ نشط الفكر الإسلامي واستعاد قوته ، بعد وفاة أتاتورك ، وبعد أن زالت الأسباب التي كانت تدعو إلى التردد والشدة ، فعثّر عاطل وأئمة وانضموا للجيش التركي ، كما كان متبعاً في عهد الخلافة ، ويقول الدكتور برنارد لويس انه قد ظهر اتجاه جديد في الحكومة التركية التي جاءت في أعقاب أتاتورك ، وهذا الاتجاه أزال كثيراً من مظاهر الدكتاتورية التي اتصف بها عهد مصطفى كمال ، فانتهزت العناصر الإسلامية هذه الفرصة وجددت حماسها لبعث الحياة الدينية من جديد في تركيا (١) .

ومن الواضح أن الدكتور برنارد لويس ينبه بذلك من يفهم الأمر وبخاصة من دول الغرب ليوقفوا هذه الحماسة الدينية قبل أن تعود جذورها إلى ما تخشاه هذه الدول من تعمق وأصالة .

وقد بدأ تحويل الاتجاهات الدينية بواسطة كلية الدراسات الدينية التي أنشئت في جامعة إسطنبول ، والتي وضعت مناهجها لتخرج عالماً عربياً النزعة ، مسلم العقيدة عارفاً بمقارنة الأديان وبالدراسات المختلفة يجيد

(١) من مقال في مجلة الشئون الدولية عن "بعث الإسلام في تركيا" .

- ٩٢٧ -

عبدا من لغات الغرب ، يدين بالولاء لتركيا الديمocrاطية ويعتنق
الاسلام (١) .

مؤتمرات اسلامية في تركيا :

ولكن الحق، أن تركيا اتجهت بعد ذلك نحو ماضيها الاسلامي دون
توقف ، وفي سنة ١٩٧٦ عقد بها مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية
وكان أول مؤتمر اسلامي يعقد بتركيا منذ الخلافة سنة ١٩٢٣ ، وقد كان
العنوان الرئيسي بصحيفة :

Turkish Daily News هـ :

Istanbul Again Heart of Islam

أى « استانبول تعود مرة أخرى لتصبح قلب العالم الاسلامي » .

وتقول صحيفة الاهرام الصادرة ١٩٧٦/٥/٢١ عن هذا المؤتمر ان
الحكومة التركية طبعت بمناسبة المؤتمر كتابا عن الدول المشاركة في مؤتمر
وزراء خارجية الدول الاسلامية اسمته « الانقطاع المائة في طريق
الصواب » .

وذلك كانت مفاجأة المؤتمر الحقيقة .

وثمة حماس شديد للإسلام في تركيا تنجر بعد طول كبت وخوف ،
بل أن هذا الكبت دفع الناس إلى مزيد من التمسك بالاسلام لا التحول
عنه ، وهذه ظاهرة اكتشفها الساسة الاتراك قبلنا في انتخابات عام ١٩٧٣ .
عندما تأسس في ذلك العام حزب السلام الوطني الاسلامي النزعة ،
وخاص المعركة الانتخابية ، وفوجيء الجميع بأن هذا الحزب الوليد قد
 جاء ترتيبه الثالث من بين ٨ أحزاب في تركيا .

- ٩٢٨ -

وقد فرض الحزب نفسه داخل الحكومة ، وعين زعيمه الدكتور نجم الدين اريكان نائباً لرئيس الوزراء . مشتركاً في الائتلاف الوزاري الذي حكم البلاد عقب هذه الانتخابات .

ومنذ ذلك الوقت - عام ١٩٣٣ - تنبأ الجميع إلى أن الإسلام لا يزال مزدهراً في تركيا ، وأن قرار إلغائه ظل حبراً على ورق .

وتقول مجلة « ديانة » التركية : إن معالم المنظر الديني بتurkey تحددها الأرقام والحقائق التالية : في تركيا الآن ٤٤ ألف مسجد ، تتزايد بمعدل يتراوح بين ٨٠٠ وألف مسجد كل عام - والمسائل الإسلامية من اختصاص هيئة الشئون الدينية التي يعمل في فروعها ستة آلاف من الأشخاص ، بينهم ٤٣٩ مفتياً ، و ٨٨٠ واعظاً ، و ١٤٠٠ مدرس لتعليم القرآن ، و ٤٣٣ إماماً وخطيباً - أما مدارس تعليم القرآن فمعدداتها ألفان تضم ٥١ ألف طالب وطالبة - ومدارس الأئمة والخطباء عددها ١٧١ وفي جامعة أنقرة كلية للآلهيات ، وفي جامعة أرضروم كلية للعلوم الإسلامية .

وتتهم تركيا اهتماماً كبيراً في العهد الحاضر بالمؤتمرات الإسلامية وبرعاية القرآن الكريم وعلومه .

بلاد زراعية :

وتركياً بلاد زراعية عموماً إذ أن أكثر سكانها يشتغلون بالزراعة ، والملكيات الزراعية الآن موزعة بين الملايين ، وأهم حاصلات تركياً الحبوب والتبغ ، والحركة الصناعية بها ناشئة ونشطة ، وبتركيا بعض المعادن أهمها الفحم والحديد والنحاس .

تركيا والعالم العربي الآن

مرت السنون ، واستطاعت الدول العربية أن تحصل على استقلالها بعد صراع طويل ، كما استطاع الشعب التركي أن يسترد أنفاسه بعد المسيرة المجهدة التي عانى بها ابن الخلافة وبعدها ، والملخصون يتوقعون أن تزدهر الصلات الطيبة بين تركيا والدول العربية ، احتراماً وتقديراً للدين والتاريخ والجوار وغيرها من الصلات التي ربطت الترك بالغرب ، وإن معرفتي الشخصية بجماعات من المثقفين الأتراك تعطيني أحسن بيتناول عميق نحو مستقبل العلاقات بين الترك والعرب ، وقد عبر لي صديق تركي عن عقب بعض المفكرين الأتراك عما ي قوله العرب عن الإمبراطورية العثمانية ، وأجبته بأنه ليس سهلاً أن ينسى العرب ما ألقوه من عناه ، ولكن من ييسير أن نتعلمون لخلق مستقبلاً أحبل وأنصع ، يضع على الماضي غلامة أو ساتراً حتى يوشك أن يمحى عن الفكر ، واتفقنا على الدعاء مخلصين أن يتوجه الساسة الترك إلى الشرق بوجه عام وإلى العرب بوجه خاص لنعيد رباط الود ، متناسين مشكلات الماضي ومؤمثلين في مستقبل أحسن وأنفع ، وأنا أقول كلمة «الساسة» وأعنيها ، أما الشعب التركي فقد عانى معنا قسوة الخلافة ، والحكام الذين وسخط مثلكنا بسبب الانحراف عن هدى الدين ، وأنا أعرف هذا الشعب في داره ، وأعرفه في بلادى العربية ، متعلمًا وزائراً ، وأكثر هذا الشعب ينادلنا ونبادله الأحساس الطيبة وبيارك نهضتنا ويويد جهادنا ، ونحن بالتالي نتصنن بأحساسه ، ونرجو له كل تقدم ورقي .

مشكلة الموصل والاستثنونة

، بقيت مشكلتان عريبتان تستحقان مزيداً من الشرح والإيضاح ، وهاتان هما مشكلة الموصل ومشكلة الاستثنونة ، وذلك أن المؤتمرات التي عقدت لتصفية أملاك « الرجل المريض » لم تضع حلاً لمشكلتي الموصل والاستثنونة ، وتنازعت العراق وتركيا الموصل ، كما تنازعت سوريا

وتركيماً الاسكتدرونة ، وكان مصدر التزاع في نظر تركياً مبنياً حول عنصر السكان ، فأكثر سكان منطقة الموصل من الأكراد ، وهم من عتصر سكان الأقاليم التركية الشرقية ، ومنطقة الاسكتدرونة يبلغ عدد الاتراك فيها ٤٠٪ من السكان ، ومن هنا ادعت تركياً أن المتطقين تابعوان لها . ولم تكن العراق وسوريا مستقلتين آنذاك ، وكانت انجلترا تتكلم باسم العراق وفرنسا تتكلم باسم سوريا ، وكان الاحتلال البريطاني للعراق يطمع في أن يثبت قدمه في هذه البلاد وبخاصة أن البترول كان قد بدأ يتغير في هذه المنطقة ، ولهذا تمسك بالموصل على أنها جزء من العراق ، وفي معاهدة لوزان اشتفق على أن تبقى الموصل تحت الاحتلال البريطاني رجاءً أن يمكن الوصول إلى حل في خلال عام ، فإذا لم يتحقق الطرفان المتنازعان على حل في خلال العام رفع الأمر إلى عصبة الأمم . ولم يصل الطرفان إلى حل خلال الفترة المحددة فرقعت بريطانيا الامر لعصبة الأمم التي ألفت لجنة لدراسة المشكلة ، وقررت اللجنة خصم الموصل للعراق على أن يبقى العراق تحت الوصاية البريطانية مدة لا تقل عن ٣٥ عاماً ، ووافق مجلس عصبة الأمم على هذا القرار في ديسمبر سنة ١٩٢٥ .

ولكن تركيا عارضت هذا القرار ، بيد أنها أحسنت بأن الأمل ضعيف في الحصول على الموصل ، فآثرت الاتصال مع بريطانيا اتفاقاً ودياً فـ٢٠٣٠ءـ بها معااهدة في يونيو سنة ١٩٣٩ نالت بمقتضاها ٥٠٪ من إنتاج البترول في الموصل لاستعمالها الخاص نظير تنازلها عن معارضته قرار مجلس عصبة مجلس الأمم .. وبهذا انتهت مشكلة الموصل وعادت جزءاً من الوطن العربي .

أما مشكلة الاسكندرية فقد انتهت على نعط آخر جعل الخلاف لا يزال قائماً حتى الآن ، وقصة ذلك أن فرنسا التي كانت تتكلم باسم سوريا وقفت موقفاً مضطرباً في هذه المشكلة ، فنراها تعتقد اتفاقية مع تركيا سنة ١٩٢١ تنص فيها على إيجاد نظام إداري خاص يُحكم به هذا اللواء ، وكان معنى هذا النص خلُم هذه المنطقة من الوطن الأم

- ٩٣١ -

(سوريا) ، ثم نراها تعقد معايدة مع سوريا سنة ١٩٣٦ تَعِدُ فيها بمنع سوريا استقلالها بما في ذلك لواء الاسكندرية .

وثارت تركيا ضد هذه المعايدة التي تناقض الاتفاق الذي أجرى معها بشأن المنطقة المتنازع عليها ، ورفعت شكوى ضد ذلك إلى عصبة الأمم سنة ١٩٣٧ ، وقضى مجلس العصبة بعدم تسليم اللواء إلى سوريا وبمحكم ثنائي له ، وبضمانات خاصة للسكان الأتراك ، وأطل شبح الحرب العالمية الثانية عقب ذلك ، واتجهت فرنسا إلى الاستعداد ضد تحركات النازيين واستعداداتهم ، ومن أجل هذا تساهمت في الاتفاق مع تركيا حول هذه المشكلة ، فعقدت معها اتفاقاً في يونيو ١٩٣٨ يقضي بمحكم ثنائياً للمنطقة وأن تقوم دوريات فرنسية تركية بحراسة اللواء إلى أن يثبت في مصيره بانتخابات عامة .

ودخلت القوات التركية اللواء ، وأجريت الانتخابات في هذه الظروف التي لم تتكافأ فيها القوى ، فلدت إلى فوز تركيا بأغلبية المقاعد التي كانت المُنافسة تجري عليها ، إذ حصلت على ٢٢ مقعداً من ٤٠ مقعداً ، وفي ٢ سبتمبر أعلنت أغلبية المجلس المنتخب الحكم الذاتي تحت اسم « جمهورية هاتاي » وأرسلت وفداً إلى أنقرة يطلب الانضمام إلى تركيا .

وتم لتركيا ما أرادت تحت ضغط تهديد الحرب العالمية الثانية ، فسرعان ما اعترفت فرنسا رسمياً بسيطرة تركيا على لواء الاسكندرية ، وكان ذلك ضمن معايدة عدم الاعداء التي عقدت بين فرنسا وتركيا في ٢٣ يونيو سنة ١٩٣٩ .

وانتهت المشكلة بالنسبة لفرنسا ، ولكنها لم تنته بالنسبة لسوريا وبالنسبة للوطن العربي ، فهذه المنطقة عربية والمناظر إلى الخريطة يجد أنها زاوية انحدرت بها تركيا إلى ما وراء حدودها الطبيعية ، وليس من حق فرنسا أن تمنع من أرض سوريا ما شاء لتركيا أو لغيرها ، ومن هنا فإن سوريا لا تزال ترى أن اللواء جزء لا يتجزأ من أراضيها وأن احتلال الترك له ليس مشروع .

تركيا والمشكلة القبرصية

وبناءً على الحديث عن مشكلة الموصل والإسكندرية، هناك مشكلة مهمة يجدر بنا أن نتحدث عنها هي المشكلة القبرصية.

والناظر لخريطة البحر الأبيض المتوسط يجد بين جزء جزيرة^١ تعتبر جزيرة آسيوية فهى تقع في شرق البحر المتوسط وتحتضنها تركيا، لأنها تقع إلى الجنوب منها وعلى مسافة غير بعيدة من حدودها، والمسافة بين هذه الجزيرة وبين اليونان طولية جدًا إذا قيست بالمسافة بين الجزيرة وتركيا، وكان من الطبيعي أن تتبع هذه الجزيرة تركيا، كالجزر الكثيرة التي تتبع الأقطار التي تقع هذه الجزر قريبة من حدودها، ولكن السياسة دفعت الكثرين من اليونانيين لسكنى هذه الجزيرة فكثروا بها وأغلبية تصل إلى حوالي ٨٠٪ من السكان، أما الأتراك فيمثلون حوالي ٢٠٪ فقط من السكان يعيشون في شمال الجزيرة، وهذا الوضع خلق مشكلة لتركيا لا تزال مشكلة قوية وحساسة.

وجزيرة قبرص (Cyprus) جزيرة جبلية، بها سلسلة جبال «سرين» شمالي و«كرودس» جنوبًا، وبينهما سهل «نيقوسيا» وهو سهل زراعي خصب تجود به الحبوب والفاكهه والزيتون، وعاصمة الجزيرة «نيقوسيا» أو «نيقوسيا».

ومن الناحية التاريخية نذكر أن معاوية بن أبي سفيان استولى على هذه الجزيرة وهو والي على الشام سنة ٥٤٨ (م٦٤٨) في عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه، وذلك لأن هذه الجزيرة قريبة من حدود سوريا من جهة الشرق، ونقل لها معاوية كثيراً من الأسر الإسلامية، ثم تناقلتها أيدي العرب والرومانيين واليونانيين، خالل الصراع على

- ٩٣٣ -

جزر البحر المتوسط ، ثم استولى عليها الأتراك سنة ١٥٧٠ م وظلت تحت سلطة الأتراك أكثر من ثلاثة قرون ، وفي خلال الصراع بين الامبراطورية العثمانية وأوربا الصليبية استولت بريطانيا على قبرص سنة ١٨٧٨ م ظلت الجزيرة خاضعة لسلطاتها حتى سنة ١٩٣١ وفي خلال هذه المدة دفعت بريطانيا الكثيرين من اليونانيين للحياة بها ، فاليونان أقرب الدول المسيحية للجزيرة ، ولهم بها صلات تاريخية ، وبدأت بذلك المشكلة الموجودة الآن ٠

وفي سنة ١٩٣١ أعطى للجزيرة نظام الحكم الذاتي ، ولكن السكان اليونان طالبوا سنة ١٩٤٧ بالاتحاد مع اليونان ٠

وظهر الأسقف مكاريوس وكان أميل للإعدال ، فتوّقعت اتفاقية سنة ١٩٥٩ بين بريطانيا وتركيا واليونان لإقامة جمهورية قبرصية مستقلة ، ذات مجلس شريعي ثالث من القبارصة الأتراك وثلاثة من القبارصة اليونانيين ، واختير الأسقف مكاريوس رئيساً للجمهورية ، ونالت الجزيرة استقلالها سنة ١٩٦٠ ٠

وفي السنتين اشتد التناقض بين الطائفتين ، ووقعت معارك دموية ، وأحسست تركيا أنها مضطرة لحماية الأتراك بالجزيرة فأرسلت قوة تركية قوامها ٣٠ ألفاً احتلت شمال الجزيرة في يوليو سنة ١٩٧٤ ، وزادت المشكلة بذلك تعقيداً ٠

وفي نوفمبر سنة ١٩٨٣ أعلن القبارصة الأتراك تأسس جمهورية خاصة بهم في شمالي الجزيرة ، وسارعت تركيا فاعترفت بالجمهورية الجديدة ، وكان ذلك ردًا على بعض المحاولات التي اتجهت لضم الجزيرة لليونان ، واختير رعوف دنكاش رئيساً لهذه الجمهورية التي تسيطر على حوالي ٤٠٪ من أرض الجزيرة ٠

— ٩٣٤ —

وقد اقترح السكرتير العام للأمم المتحدة حلولاً لهذه المشكلة قوامها إعادة توحيد الجزيرة في ظل حكومة اتحادية بين طائفتين ومناطقين ، على أن يكون رئيس الدولة من القبارصة اليونانيين ونائبه من القبارصة الأتراك ، مع منح الجانبين سلطة الاعتراض على أية قرارات يصدرها البرلمان الذي يتكون من مجلسين . واقتراح أن تشكل الحكومة الاتحادية من عشرة وزراء سبعة منهم من القبارصة اليونانيين وثلاثة من الأتراك ، مع تطبيق نفس النسبة على أعضاء مجلس النواب ، أما مجلس الشيوخ فيكون مناسبة بين الطائفتين ، مع كفالة الحريات الأساسية لكل المواطنين على السواء .

ومع أن رؤوف دنكاش قد أعلن قبوله للمقترحات التي قدمها السكرتير العام للأمم المتحدة مؤخراً لتكون أساساً لفاوضات بين زعيمي الطائفتين اليونانية والتركية ، فقد رفضها الرئيس القبرصي سبيرو كبريانو الذي يُصرّ على انسحاب قوات الاحتلال التركية ومعهم المستوطنون الجدد من الأتراك ، وتقديم ضمانات دولية لاستقلال قبرص ووحدة أراضيها . وعودة حوالي ٢٠٠ ألف قبرصي يوناني إلى منازلهم التي طردوا منها إبان الاحتلال التركي وذلك قبل الجلوس أمام مائدة المفاوضات حول مقترنات السكرتير العام للأمم المتحدة .

ولما تزال المشكلة قائمة حتى كتابة هذه السطور في أواخر عام

١٩٨٦ م

نظرة الدول الإسلامية للإمبراطورية العثمانية

اتجاه المسلمين إلى الوحدة :

كان الاتجاه العام في الدول الإسلامية هو الوحدة والتكامل ، وهذا الوضع عميق الجذور في تاريخ الإسلام ، فقد نشأ الإسلام وامتد مكوناً دولة واحدة ، وهو كذلك عميق الجذور في الفكر الإسلامي الذي يرى أن المؤمنين إخوة ، ويبحث المسلمين على التعاون والتآزر ، ويتفق في هذا كل الدول الإسلامية على السواء .

جرفة البعض القادة الترك :

هذه هي الفكرة العامة ، ولكن موقف أكثر المتردك من الدول التي خضعت لهم كان موقفاً مشيناً ، فقد رأينا أن الإسلام لم يكن إلا هدفاً يحاول العثمانيون أن ينتصروا به كلما اشتدت عليهم الخطوب ، أما روح الإسلام ، وأداب الإسلام ، واتجاهات الإسلام ، فلم يكن لها صدى في قصور الخلافة الذين حكم الكثيرون منهم هذه الدول باسم الإسلام دون أن يديروا بفلسفاته وتعاليمه .

واتجاه الفكر التركي في أواخر عهد الخلافة العثمانية إلى « تترىك » العرب ليكون ذلك خساناً لاستمرار سيطرتهم على العالم العربي ، وفي ذلك يقول جلال نوري أحد كتاب الترك المشهورين في كتابه (تاريخ المستقبل) :

« وما لا مندوحة لنا عنه للدفاع عن كياننا أن نحول جميع الأقطار العربية إلى أقطار تركية ، لأن النصر العروبي الحديث صار يشعر اليوم بعصبية جنسية ، وهو يهددنا بنكبة عظيمة يجب أن نحتاط لها من الآن » .

ويقول أحد كتاب المصحفيين في جريدة (طنين) : إن العرب لا يزالون يلهجون بلغتهم ، وهم يجهلون اللغة التركية جهلاً تاماً ، كأنهم ليسوا تحت حكم الترك . فمن واجبات الباب العالى في هذه الحال أن ينسفهم لغتهم ويجب لهم على تعلم لغة الأمة التي تحكمهم ، فإذا أهمل هذا الواجب كان كمن يسعى إلى حتفه بنفسه ، لأن العرب إن لم ينسوا لغتهم وتاريخهم وعاداتهم فإنهم سيعملون عاجلاً أو آجلاً على استرجاع مجدهم الصائغ وتشييد دولة عربية على أنقاض الترك (١) .

وبالاضافة إلى ذلك ذاقت الدول التي تبعت تركياً صوراً من المراة والحرمان المادى والأدبى ، وطالما تصور قادة المسلمين أن الاضطراب والطغيان يصدران عن شخص الخليفة فوجهوا بغضهم نحوه فقط وعملوا على خلعه وتغييره ، ولذلك ظل الكثيرون منهم تحت ضوء هذه الفكرة يدين بالولاء للخلافة والوحدة الاسلامية كما رأينا في ميل جمال الدين الأفغاني ومصطفى كامل وغيرهما .

فريقيان :

ومرت الأيام وجاءت الحملة الفرنسية إلى مصر ، وفتح المصريون عيونهم على التقدم والمدنية والرشان التي حرمهم الترك منها ، وهب المصريون يناضلون الاستعمار الفرنسي وحققوا بالاستقلال ونالوه ، واستمر هناف الكثيرين يذوّي ضد تركياً ويسعى للتبشير بالقومية العربية كما كانت جماعة الاتحاد والترقي تبشر وتعمل للقومية التركية ، وهذا ينضرط المسلمين في تفكيرهم ، فيتجه المسلمون الذين ذاقوا الآلام تحت سلطان الترك إلى التخلص من هذه الخلافة ، ويبقى المسلمين الذين لم يخضعوا للاتراك على ما كانوا عليه من ولاء للخلافة وعمل على تأييدها واستهجان لناؤتها ، وكانت هذه المجموعة من الدول الاسلامية ترى في الترك حماة من الاستعمار ، ومما يدل على اتجاه هذه الدول

(١) نقل عن الامة العربية للدكتور عبد الحميد البطريق ص ٩٥ - ٩٦ .

- ٩٣٧ -

أن سلاطين آتشة بسومطره تقدموها — عندما هددتهم الهولنديون — إلى سلاطين آل عثمان بالولاء ، وهددوا بهم المستعمر الهولندي ، وطلبوها من الترك العون لدفع الخطر عن الوطن الإسلامي ٠

ومثل موقف سلاطين آتشة موقف مسلمي الهند الذى نقتبسه من الباحث الكبير الأستاذ عباس العقاد (١) فيما يلى :

« والمسألة التي تضاعلت إلى جانبها كل مسألة من مسائل العالم الإسلامي في حساب مسلمي الهند ، هي مسألة الخلافة الإسلامية ، التي كانت في آل عثمان بالقسطنطينية ٠ فقد كان أمراء الهند أنفسهم يستقبلون تلك الخلافة في الشدائد ، ويتظرون إليها نظراتهم إلى البقية الباقية من الإسلام ودولته الدنيوية ٠

« ومنذ عهد الاحتلال البريطاني ، توجهت الأنظار إلى سلاطين آل عثمان ، وكان في طليعة المتوجهين إليه سلطان « ميسور » على مقربة من سلطنة حيدر آباد ، فإنه كتب إلى الخليفة يبلغه حقيقة الخطر على الديار الآسيوية ، ولم يكن في وسم الخليفة أن ينجده بالعون الذي أراد ، فكتب إلى نابليون يطلب منه العون ، وجاءه الجواب منه بانتظار المدد في بيش جرار يضرب الدولة البريطانية في مقتلها ، ويختى الطريق إلى الهند من شباكها ٠

« ولم يزل أمراء الهند — فضلاً عن سوادها — يتطلعون إلى الخلافة في القسطنطينية حتى زالت وانتهت بخاتم الخلفاء السلطان عبد المجيد ، فسعى سلطان حيدر آباد إلى الترويج من إحدى بناته ، وقيل فيما قبل من أسباب هذا الزواج إنه « زواج سياسي » يمهد به السلطان إلى إمامية المسلمين في الهند على الأقل ، إن لم تتعقد له الإمامية على العالم الإسلامي بأجمعه ٠

(١) القائد الأعظم محمد على جناح .

« ولم يتحقق لسلمي الهند ما يضعف مكانة الخلافة بينهم ، كما اتفق لل المسلمين الذين حكمتهم الدولة العثمانية فتمردوا على حكمها ، وتعلبت في نفوسهم دفعه الوطنية على الولاء لحكومة ساءت سياساتها ، وخرجت في رأى الأكثرين عن أحد كام دينها ، فقد كان مسلمو الهند يزدادون عطفاً على دولة الخلافة كلما اشقدت بهم المحن من داخلها وخارجها ، وينسبون الثورات عليها أحياناً إلى دسائس الاستعمار ، وغواية الدول الأجنبية بالرشاوي والوعود الكاذبة » .

وهكذا عاشت الإمبراطورية العثمانية أربعة قرون ثم سقطت ، وكان عهدها في الغالب عهد ظلام ، وقد أسلمت العالم العربي إلى الاستعمار الأوروبي ، بعد أن ضعفت بيتهانه وانهار كيانه ، وعندما تحملت تركيا عن مكانها القيادي اتجه قادتها الاتحاديون والكماليون إلى الغرب متلقسين هذا التاريخ الطويل الذي ربطها بالشرق وبالإسلام ، ومن المؤكد – كما تلنا من قبل – أن أي هسوت ينبع في تركيا لإبعادها عن الإسلام وعن الفكر الإسلامي سيكون صرخة في واد ، فالشعب التركي عريق في إسلامه وفي تمسكه بسواد من الشعوب الإسلامية .

* * *

ولنختم حديثنا عن تركيا بالدعاء أن تزدهر الحياة فيها ، وأن يتحقق شعبها ما يطمح له من مجده وسؤدد ، في ظل الإسلام والتعاون الشامل مع الدول العربية والاسلامية .

مراجع البحث

ملاحظات:

١ - الكتب التي ستفكر في هذه القائمة هي فقط الكتب التي وردت في ذيل صفحات "الكتاب" ، أما الكتب التي أسممت في هذا البحث بطريق غير مباشر فلم تثبت في هذه القائمة لكتورتها .

٢ - نظمت المراجع فيما يلى حسب الترتيب الأبجدي للاسم الذي اشتهر به المؤلف مع صرف النظر عن الملاحقات (ابن - إلخ) .

١ - Encyclopaedia of Islam —

٢ - Encyclopaedia Britannica —

٣ - مصحف ومجلاط كثيرة .

٤ - وثائق رسمية ومعاهدات .

٥ - مقليلات شخصية لزعماء اسمعوا في صنع التاريخ .

٦ - لقطات مما أذاعه الزعماء بالراديو أو بالتليفزيون .

٧ - سيناء : الطبيعة والتاريخ والانسان والأمل (دار الهلال بيونيو ١٩٧١) .

٨ - الكتاب المقدس (العهد القديم والمهد الجديد) .

٩ - Cambridge Mediaeval History

١٠ - ابراهيم بن صالح : تاريخ بعض العوادث الواقعة في نجد .

١١ - ابراهيم طرخان : مصر في عهد دولة المماليك الشراكسة .

١٢ - أبو شلبة : كتاب الروضتين في تاريخ التولتين .

١٣ - أبو شامة : ذيل الروضتين .

١٤ - أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر .

١٥ - أبو المحاسن بن تغري بردى : النجوم الزاهرة .

١٦ - أبو يوسف : الخراج .

١٧ - ابن أبي اصيحة : عيون الآباء .

١٨ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ .

١٩ - Armstrong : مصطفى كمال : الذئب (الترجمة العربية) .

— ٩٤٠ —

- ٢٠ — افتجلوس بابا يوانو
- ٢١ — ابن ايلس
- ٢٢ — احمد أمين
- ٢٣ — دكتور احمد شلبي
- ٢٤ — دكتور احمد شلبي
- ٢٥ — دكتور احمد شلبي
- ٢٦ — دكتور احمد شلبي
- ٢٧ — دكتور احمد شلبي
- ٢٨ — دكتور احمد شلبي
- ٢٩ — دكتور احمد شلبي
- ٣٠ — دكتور احمد شلبي
- ٣١ — دكتور احمد شلبي
- ٣٢ — دكتور احمد شلبي
- ٣٣ — دكتور احمد الصاوي
- ٣٤ — احمد عرابى
- ٣٥ — الشيخ احمد كاتب الشونة : تاريخ ملوك السودان
- ٣٦ — احمد النائب الانصارى
- ٣٧ — نور الجندي
- ٣٨ — نور الجندي
- ٣٩ — *Midiæval Europe : Emerton*
- ٤٠ — *A Short History of the Fatimid Caliphate : O' Leory*
- ٤١ — *The Art of War in the Middle Ages : Oman C. W.*
- ٤٢ — *The Frist Crusade : August Krey*
- ٤٣ — *The Legacy of Islam : Bsrker*
- ٤٤ — *The Fall of Constantinople : Bear Edwin*
- ٤٥ — *The Origin of Ismailism : (Dr.) Bernard Lewis*
- ٤٦ — *The Emergence of Modern Turkey : Bernard Lewis*
- ٤٧ — *Religions of the World : Berry G.*

- | | |
|--|---|
| ٤٧ — Burton Bernstein | : سيناء ارض المبارك والقدسية |
| ٤٨ — بل | : مصر من الاسكندر حتى الفتح العربي (الترجمة العربية) . |
| ٤٩ — البلافري | : نقوش البلدان . |
| ٥٠ — البلوى | : سيرة احمد بن طولون . |
| ٥١ — History of Ethiopia, Nubia and Abyssinia : Budge. F. A. | |
| ٥٢ — The Arab Conquest of Egypt : Butler | |
| ٥٣ — The Caliphate : Thomas Arnold | |
| ٥٤ — الشهابي : يتيمة الدهر . | |
| ٥٥ — Turkistan Orient : Gelzer H. | |
| ٥٦ — The History of the Decline and Fall of the Roman Empire : Gibbon E. | |
| ٥٧ — الجبرتي | : عجائب الآثار في التراثم والأخبار . |
| ٥٨ — ابن جبير | : الرحلة . |
| ٥٩ — The Syrian Desert : Grant C. P. | |
| ٦٠ — Children Crusade : Gray G. Z. | |
| ٦١ — The Jaws : James Hosmer | |
| ٦٢ — جورجى زيدان | : تاريخ التمدن الاسلامى . |
| ٦٣ — جورجى زيدان | : تاريخ مصر الحديث . |
| ٦٤ — ابن حجر | : الدرر الكامنة في علماء الملة الثالثة . |
| ٦٥ — دكتور حسن ابراهيم | : الناطميون في مصر . |
| ٦٦ — دكتور حسن ابراهيم | : عمرو بن العاص . |
| ٦٧ — دكتور حسن ابراهيم | : تاريخ الاسلام . |
| ٦٨ — دكتور حسن ابراهيم ودكتور طه شرف | : المعز لدين الله الناطمي . |
| ٦٩ — حسين عبد الوهاب | : تاريخ المساجد الاثرية بمصر . |
| ٧٠ — دكتور حسن محمود | : مصر في عهد الطولوبيين والاخشيديين . |

— ٩٤٢ —

- ٧١ — جسین سری : بحث عن «الأعمال الهندسية والمنشآت العلمية في عهد اسماعيل» نشرته وزارة المسارف المصرية في كتاب عن «عهد اسماعيل» سنة ١٩٤٥ .
- ٧٢ — حنا النقيوسي : تاريخ هنا النقيوسي .
- ٧٣ — ابن حوقل : صورة الأرض .
- ٧٤ — ابن خلدون : المقدمة .
- ٧٥ — ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر .
- ٧٦ — ابن خلكان : وفيات الأعيان .
- ٧٧ — خليل شيبوب : عبد الرحمن الجيرتى .
- ٧٨ — ابن الداية : سيرة احمد بن طولون .
- ٧٩ — الذهبي : دول الاسلام .
- Suleiman the Magnificent : Roger Merriman — ٨٠
- ٨٠ — زامباور : معجم الأنساب والاسيرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي .
- ٨١ — دكتور زكي حسن : كنوز الفاطميين .
- ٨٢ — زكي شنودة : تاريخ الاتصال .
- ٨٣ — ساويرس «ابن المقفع» : سير الآباء البطارقة .
- Histoire Générale des Arabes : Sédiot L. B. — ٨٥
- Muhammadan Dynasties : Stanley Lane Poole. — ٨٦
- ٨٧ — السخاوي : الضوء الامامي في علماء القرن التاسع .
- Egypt in the Middle Ages : Stsnley Lane Poole — ٨٨
- ٨٩ — ابن سعيد «على بن موسى» : المغرب في حل المغرب والشرق في حل الشرق .
- ٩٠ — دكتور سعيد عاشور : العصر الماليكي في مصر والشام .
- ٩١ — دكتور سعيد عاشور : الحركة الصليبية .
- ٩٢ — دكتور سعيد عاشور : السيد احمد البدوى : شيخ وطريقة .
- ٩٣ — سعيد العريان وآخرون : تكيا والسياسة العربية .
- ٩٤ — دكتورة سيدة كائشف : مصر في عهد الولاة .

— ٩٤٣ —

- ٩٥ — دكتورة سيدة كاشف : سيرة أحمد بن طولون .
- ٩٦ — السبيوطى : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة
- ٩٧ — السبيوطى : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة
- ٩٨ — السبيوطى : غزوات قبرص ورويس .
- ٩٩ — شاهنشاه بن آيووب : ذيل التوادر .
- ١٠٠ — ابن شداد « بهاء الدين » : سيرة صلاح الدين .
- ١٠١ — شكيب ارسلان : حاضر العالم الإسلامي .
- ١٠٢ — الصندى : الواقي بالوفيات .
- ١٠٣ — طارق البشري : المسلمين والأقباط في السياسة المصرية
- ١٠٤ — الطبرى : تاريخ الأمم والملوك .
- ١٠٥ — عباس العقاد : القائد الأعظم محمد على جناح .
- ١٠٦ — عباس العقاد : بحث عن « الفتوح في عهد اسماعيل » بالكتاب الذي نشرته وزارة المعارف عن « عهد اسماعيل » .
- ١٠٧ — عثمان بن بشر : عنوان المجد في تاريخ نجد .
- ١٠٨ — ابن عبد الحكم : متوح مصر والمغرب .
- ١٠٩ — عبد الحميد البطريرق : الأمة العربية .
- ١١٠ — عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية .
- ١١١ — عبد الرحمن الرافعى : مصر من عهد اسماعيل .
- ١١٢ — عبد الرحمن الرافعى : في اعتتاب الثورة .
- ١١٣ — عبد الحميد العبادى : علم التاريخ (مترجم) .
- ١١٤ — دكتور عبد الرحمن زكي : الشرق الأوسط .
- ١١٥ — دكتور عبد الرزاق السنهوري : بحث عن « التعليم في عهد اسماعيل » .
- ١١٦ — دكتور عبد العزيز السنواوى : الدولة المماثية : دولة إسلامية مفترى عليهما .
- ١١٧ — عبد اللطيف البغدادى : الإفادة والاعتبار .
- ١١٨ — دكتور عبد النعيم حسنين : سلاجقة ايران والعراق .
- ١١٩ — دكتور عبد الوهاب عزام (ناشر) : مجالس السلطان الغوري .
- ١٢٠ — ابن العبرى « أبو الفرج » : مختصر تاريخ الدول .

— ١٤٤ —

- | | |
|---|---|
| ١٢١ — ابن عريشاه ١٢٢ — ابن عمساكر ١٢٣ — دكتور على ابراهيم ١٢٤ — دكتور على ابراهيم ١٢٥ — عماد الدين الاصفهانى ١٢٦ — عماد الدين الاصفهانى ١٢٧ — عمر الاسكندرى ومجير سندج : تاريخ مصر الى الفتح العثمانى . ١٢٨ — عمر الاسكندرى ومجير سندج : تاريخ مصر من الفتح العثمانى . ١٢٩ — العينى ١٣٠ — الآتبا غرغوريوس ١٣١ — غوستاف لوبيون ١٣٢ — تدري قلمجى ١٣٣ — القبطى ١٣٤ — ابن القلانسى ١٣٥ — التلشنندي ١٣٦ — ابن القيم ١٣٧ — كارل بروكلمان ١٣٨ — Caulbeaux ١٣٩ — Kirk ١٤٠ — كروم ١٤١ — الكندى ١٤٢ — Syria : Lammance ١٤٣ — The Turkish Empire : Sir Mark Sykes ١٤٤ — مجير الدين ١٤٥ — محجوب زيادة ١٤٦ — دكتور محمد حامد فهمى ١٤٧ — محمد جميل بيهم ١٤٨ — محمد حبيب احمد | : عجائب المقدور في تاريخ تيمور . : تاريخ دمشق . : مصر في العصور الوسطى . : جوهر الصقلى . : تاريخ آل سلجوقي . : الفتح القىسي في الفتح القدسى . : عصر الاسكندرى ومجير سندج : تاريخ مصر الى الفتح العثمانى . : عصر الاسكندرى ومجير سندج : تاريخ مصر من الفتح العثمانى . : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان . : وثائق للتاريخ . : حضارة العرب . : مسلاح الدين الأيوبي . : اخبار الطيام بالخبراء الحكماء . : ذيل تاريخ دمشق لهلال الصابئى . : صبيع الاعمى . : زاد الملاع . : تاريخ الشعوب الاسلامية . Hist, d' Abyssnie : A Short History of the Middle East : : مذكرات كرومر . : كتاب الولاية والقضاء . : الانس الجليل . : الاسلام في السودان . : بحث عن « مركز مصر الدولى فى عهد اسماعيل » . : غلستة التاريخ العثمانى . : نهضة الشعوب الاسلامية . |
|---|---|

— ٩٤٥ —

- ١٤٩ — محمد حسنين هيلك : خريف الغضب .
- ١٥٠ — محمد حسنين هيلك : مذكريات في السياسة المصرية .
- ١٥١ — محمد الحسيني زنخا : خلاصة تاريخ مصر الحديث .
- ١٥٢ — د. محمد حرب : مذكريات السلطان عبد الحميد (تحقيق) .
- ١٥٣ — محمد رفعت : بحث عن « مكانة مصر الدولية في عهد اسماعيل » .
- ١٥٤ — محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية .
- ١٥٥ — محمد صبرى : تاريخ العصر الحديث .
- ١٥٦ — الشيخ محمد الصواف : المخططات الاستعمارية لائلحة الاسلام .
- ١٥٧ — دكتور محمد ضياء الدين الرئيس : تاريخ الشرق العربي والخلافة العثمانية .
- ١٥٨ — دكتور محمد ضياء الدين الرئيس : في التاريخ الاسلامي الحديث .
- ١٥٩ — دكتور محمد عامر : المالك المصريون الذين لمعوا في ميدان الفكر .
- ١٦٠ — محمد عبد الجاد : تقويم دار العلوم .
- ١٦١ — محمد بن عبد الله الانصاري : تحفة المستفيد .
- ١٦٢ — محمد عبد الله عنان : الحكم بأمر الله .
- ١٦٣ — محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية .
- ١٦٤ — دكتور محمد فؤاد شكري : مصر والسودان .
- ١٦٥ — محمد كرد على : خطط الشام .
- ١٦٦ — محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية .
- ١٦٧ — دكتور محمد المبارك : تركيب المجتمع السورى .
- ١٦٨ — دكتور محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة .
- ١٦٩ — محمد مصطفى عطا : مصر بين ثورتين .
- ١٧٠ — محمود ابو رية : جمال الدين الانجعاني : تاريخه ورسالته ومبادئه .
- ١٧١ — محمود الشنطي : قضية ليبيا .

(٦٠ — التاريخ الاسلامي ج ٥)

- 187 -

- ١٧٢ - مصطفى السعدنى : الفكر الصهيونى .

١٧٣ - مصطفى صبرى (شيخ الإسلام) : الأسرار الخفية وراء الغاء
الخلافة العثمانية .

١٧٤ - دكتور مصطفى صفوت : مصر المعاصرة .

١٧٥ - دكتور مصطفى مسعود : الاسلام والنوبة .

١٧٦ - الملعوف : تاريخ الامير فخر الدين الثاني .

١٧٧ - المفريزى : السلوك .

١٧٨ - المقريزى : الخطوط .

١٧٩ - المقريزى : اتعاظ الحنفاء (تحقيق الدكتور محمد
حليمي) .

A Short History of the Crusades : Mombert — 14.

- | |
|---|
| ١٨١ - ابن الميسر : تاريخ مصر . ١٨٢ - نعوم شفیر : تاريخ سيناء . ١٨٣ - النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس . ١٨٤ - التويري : نهاية الارب . |
|---|

History of the World : Hall H. R. — 188

Kulturgeschichte der Kreuzzüge : Hans Prantz — 181

Atlas of Islamic History : Harry Hazard 147

His. Générale : Hence - am Rhy's

History of the Arabs : Hitti Ph. 141

History of Syria : Hitti Ph. 14

- | | |
|---|--|
| : علم التاريخ (الترجمة العربية) . : تاريخ دمشق . : مفرج الكروب في أخبار بنى ابيه . : مذكريات وايزمان . | ١٩١ - هرنشو ١٩٢ - هلال الصابري ١٩٣ - ابن واصل ١٩٤ - وايزمان |
|---|--|

- ٩٤٧ -

History of William al Tyre : William of Tyre — ١٩٦

- ١٩٧ — ياقوت : معجم الأدباء .
- ١٩٨ — ياقوت : معجم البلدان .
- ١٩٩ — يحيى بن آدم : الخراج .
- ٢٠٠ — يحيى بن سعيد : تاريخ يحيى بن سعيد .
- ٢٠١ — د. يوسف القرضاوى : الطول المستوردة .

فهرس الأعلام

ملاحظتان :

- ١ - تحاشياً للإطالة لم أضيّن هذه الفهارس أسماء المؤلفين اكتفاء بورودها في ذيل صفحات الكتاب وفي قائمة المصادر والمراجع .
- ٢ - رتبت هذه الأسماء ترتيباً أبجدياً مع عدم اعتبار الملحقات (ابن - إلخ) ومع عدم اعتبار الألقاب (الملك - الخديوي - باشا - بك ...) .
- ٣ - حرف (م) يوضع بعد الرقم للدلالة على أن الاسم تكرر في الصفحة أكثر من مرة .

| أبو تمام ٧٥ | حرف الآلف |
|---|---|
| أبو الحسن الأخشيدى ١٠٨ ، ١١١ | أبجر الطيب ٧٢ |
| أبو حنيفة ٨٨ | أبراهيم (سلطان عثماني) ٨٣٢ ، ٨٧٢ |
| أبو روكة ١٣٩ | أبراهيم باتسا « الصدر الأعظم » ٤٠٥ |
| أبو طاهر الزهلى ١١٤ | أبراهيم باتسا « ابن محمد على » ٤٠١ ، ٣٩٠ ، ١٤٧ ، ٢٧ |
| أبو الطيب المتنبى ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٩ | أبراهيم بن خمارويه ٤٠٥ |
| أبو العباس أحمد ٢٤٤ | أبراهيم بن صالح العباسي ٤١ ، ٦٦ |
| أبو مبيدة بن الجراح ٤٠ | أبراهيم فرج باشا ٥٣٠ |
| أبو العساكن جيش ٩٣ | أبراهيم عبد الهادى ٥٠٣ |
| أبو العلاء المرزن ١٧٤ | أبراهيم بن محمد « ابن الصوف » ٩١ |
| أبو داود الكلدى ١١٥ | أبراهيم هنانو ٦٧٦ |
| أبو فراس الحمدانى ١١٨ | أبراهيم الورданى ٤٨٥ |
| أبو القاسم (الخليفة العباسي بمصر) ٢٤٤ | أبراهيم البازاجى ٦٧١ |
| أبو قرة ٥٦ | أبو اسحق الروزى ١١٥ |
| أبو المظفر بهرام ١٥٥ | أبو أيوب الانصارى ٨٢٣ ، ٨٥٥ |
| أبو موسى هارون ٩٤ ، ٩٥ | أبو بكر الصديق ٣٥ |
| أبو نصر الفارابى ١١٨ | أبو بكر بن الناصر محمد ٢٢٨ |
| أبو الهدى الصيادى ٦٦٨ | |
| أبو الهيجا بن عبد الله ١١٧ | |
| أحمد الأول ٨٤٢ ، ٨٣٣ | |

اديب الشيشكلى ١٨٠
 اسلامة بن منقذ ٨٠٨
 اسحاق بن كنداج ١٧ ، ١٦
 اسعد العظم ٦٦١
 اسماعيل باشا (بن محمد على) ٤٠٣
 اسماعيل (الخديوى) ابن ابراهيم ٤٢١ ، ٤١٨ ، ٤١٧ ، ٤١٢
 ٨٩٩
 اسماعيل بن صالح ٤٣
 اسماعيل صبرى ٤٨٤
 اسماعيل العظم ٦٦١
 اسماعيل بن لؤلؤ ١٧
 اسماعيل بن الناصر محمد ٢٢٨
 اسماعيل بن نور الدين ١٩٦
 ٢٠١ ، ١٩٧
 الاشرف بارتباتي ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٣٠
 ٢٧٢
 ازيك ٢٤٤
 اشرف جانبلات ٢٢٠
 الاشرف خليل خليل ٢٢٧ ، ٢٥٣ ، ٢٥٠
 الاشرف قاقصوه الغوزى ٢٢٠
 ٢٦٥
 الاشرف مظفر الدين موسى ٢٢٢
 الاشرف موسى ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨
 افتكتن التركى ١٢٨ ، ١٦٥ ، ١٦٦
 الانضل (الملك) ٧٦٥
 الانضل بن بدر الجمالى ١٥٥
 ١٥٨ ، ١٥٩
 الانضل بن صالح الدين ٢٠٤ ، ٢٠٣
 الب لرسلان ٧٢٤

احمد الثاني ٨٣٤
 احمد بن الانضل ١٥٩ ، ١٦٠
 احمد لمن ٥٣٤
 احمد بن اينال ٤٢٠
 احمد بن بليزيد ٨٢٦
 احمد باشا الجزار ٣٢٥ — ٦٦٤
 احمد خورشيد باشا ٣٣٧
 احمد زكي باشا ١٨٩
 احمد زبور ٥٠٢
 احمد الشقيرى ٦٩٨
 احمد شبوقي ٨٩٦ ، ٥٣٤
 احمد بن طولون ٤٥٥ ، ٤٣٠ ، ٤٣٠
 ٤٨٨ ، ٤٨٥ ، ٤٨٤ ، ٤٨٣
 ٤٧٦ ، ٤٧٠ ، ٤٢١ — ٦٦٨
 احمد عزت باشا ١١٣
 احمد بن على بن الاخفيد ١١٣
 احمد قواد الاول (الملك) ٩٣
 ٤٩٤
 احمد قواد الثاني (الملك) ٣٩١
 احمد بن كيفلغ ١٠٨ ، ١٠١
 احمد ماهر ٥٢٤
 احمد بن محمد بن المبر ٩٠
 احمد بن محمد الواسطي ٩١
 احمد بن محمد التميمي ١١٥
 احمد بن المؤيد ٢٢٩
 احمد بن الناصر محمد ٢٢٨
 احمد بن يحيى التجسي ٧١
 الاخشيد ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩
 ادريس بن عبد الله ٦٧
 ادموند النبى ٤٣٨
 ادهمار ٧٣٢

— ٩٥ —

برجوان التركي ١٣٢ ، ١٣٣
 بركلة خان بن بيرسون ٧٨٩
 برسبياى ٧٩١ ، ٧٩٢
 برقوق ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٤١
 برنارد (التديس) ٧٤٥
 برنارد لويس (دكتور) ٩٢٦
 برويس ٣١٩
 البسلسيرى ١٥٣
 بسمارك ٨٨٦
 بشارة الخوري ٦٧٧ ، ٦٨٣
 بشير الشهابي ٤٧ ، ٦٦١ ، ٦٦٥
 بشير العظمة ٦٨١
 بشير الجبيل ٦٨٣ ، ٦٩٠
 بطرس الأكبر ٨٧٢ ، ٨٧٣ ، ٨٧٤ ، ٨٨٤
 بطرس غالى ٤٣٨ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥
 بطرس الناك ٧٣٠
 بكار بن قتيبة ٩٨
 البكري ٢١٠
 بلباى ٢٣٠
 بلغور ٧٠٤
 بنيلمين ٣٩
 بوروز ١٨٥
 بولدوين ٧٣٢ ، ٧٣٣ ، ٧٣٧ ، ٧٣٨
 ٧٤٠ ، ٧٤١
 بولس ٧١٦
 بوهيموند ٧٣٢ ، ٧٣٤ ، ٧٣٦ ، ٧٣٧
 ٧٤٦
 بيرس الجاشنكير ٢٢٨
 ببرو ٦٧٨

التونس كونت بواتيه ٧٨٢
 الكسيوس كومتين ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، ٧٣١
 الياس بن مصوص ١١
 لم كلثوم ٥٣٤
 أم ليث الدولة ٨٠٨
 الأمين ٦٧
 الأمر ٢٩ ، ١٥٤ ، ١٥٥
 أمين العلاظ ٦٨٢
 انتوكس ناتنج ٣٨٦
 أنجور (أبو القاسم) ١١١
 أنور بك ٨٩٦ ، ٨٩٥
 أوجاتيوس ٧٤٥
 أوريان الثاني ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨
 آمرخان بن عثمان ٦١٥
 اورخان حميد سليمان ٨٢٠ ، ٨٣١
 اويسر باشا ٢٩٥ ، ٣٠٠
 آيلان ٢٣٢ ، ٢٥٩
 انتام التركي ٤٤
 ابواز بلق ٣٠١
 حرف الباء

بل بك التركي ٨٩
 باليان دى آيلان ٧٥٦
 بالطة جى محمد باشا ٨٧٢
 بليزيد الأول ٤٥١ ، ٨١٦ ، ٨١٧ ، ٨١٨
 بليزيد الثاني ٨٤٤ ، ٨٣٦
 البحترى ٧٥ ، ٧٦
 بدر الجمالى ٨١ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٥٧
 بدر الدين لولو ١٧.
 برتراند ٧٣٨

- ٩٥١ -

جعفر بن الفضل بن الفرات ، ١١٣
 ١١٥
 جعفر بن ملاح ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ٢٧٢
 جتمق ٩٢٥
 جلال بليار ، ٨٦٦ ، ٨٦٦
 جم بن محمد الفاتح ، ٨٢٦ ، ٩٢٦
 جمال جورسيل ، ٥٩٠ ، ٥٩٠ ، ٥٧٦ ، ٥٤٢ ، ٥٣٦
 جمال عبد الناصر ، ٣٨٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٨
 جمال الدين الألفي ، ٤٤٠ ، ٤٤٠ ، ٩٠٧ ، ٩٠٧
 جنكيز خان ، ٢٤٦ ، ٨١٧ ، ٨١٥ ، ٨١٧
 جودت سونای ، ٩٢٥
 جوردون ، ٤٨١
 جونفري ، ٧٣٧ ، ٧٣٧ ، ٧٤١
 جولدا ماير ، ٥٥٧
 جوهر المصطلي ، ١٢٣ ، ١٢٤

حرف الحاء

ابن الحاجب ، ٦٤١
 حاجي بن شعبان ، ٢٢٣
 حاجي بن الناصر محمد ، ٢٢٨
 حافظ ابراهيم ، ٥٣٤ ، ٦٦٩
 حافظ الأسد ، ٦٨٢ ، ٦٨٨
 حافظ رمضان ، ٥٢٠
 الحكم بأمر الله ، ١٣٣ ، ١٣٣ ، ٧٠١ ، ٦٣٢ ، ١٣٨ ، ١٣٦
 ٧٢٠
 ابن الحرقوش ، ٦٥٧
 حسام الدين بن علي ، ٦٧٩
 الحسن بن أحمد القرمي ، ١٦٥ ، ١٦٦

حرف اللاء

تاج الملوك يوري ، ١٦٨
 تتش ، ١٦٨
 تتش بن البا ارسلان ، ٧٢١ ، ٧٢٠ ، ٧٢١
 تشرشل ، ٥٧٥
 تشمبولن ، ٥٠٧
 تقى الدين عمر ، ١٩٥
 تكين التركى ، ١٠١
 توران شاه ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٣٢
 توران شاه اخوه صلاح الدين ، ٧٧٦ ، ٧٨٤ ، ٧٨١
 توفيق (الخطيبى) ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢
 توفيق نسيم ، ٥٠٢
 تيمور بنا ، ٢٣٠
 تيمور لتك ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٥١ ، ٢٥١
 ٨١٧
 تيدورز ، ٤٢

حرف اللاء

ثروت باشا ، ٥٠٧
 ثوبان بن ابراهيم المصرى « تو
 النون » ، ٧٢

حرف الجيم

جان برودى فزالى ، ٢٦٥ ، ٦٥٧
 الجداوى ، ٣١٠
 الجرجائى ، ١٤٩
 جركس ، ٣٠١
 جريجورى السابع ، ٧٢٥ ، ٧٢٦
 جعفر البرىكي ، ٤١ ، ٣٣
 جعفر المصدق ، ٧١٠ ، ١٥٢

حرف اللام

- خالد العظم ٦٨١
 خالد بن الوليد ٤٠ ، ٤٤٧
 خسرو باشا ٣٣٧ ، ٤٠٧ ، ٨٥١
 خشقدم ٢٢٠
 خليل بن قلدوون ٢٣٢
 خليل مطران ٥٣٤
 خمارويه ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٢٢٢
 خورشيد باشا ٣٦٩
 خوشيار ٤٧٥
 خير بك ٢٦٥ ، ٢٩٨
 خير الدين برباروس ٨٢٩

حرف الدال

- دانتى ١٧٥
 داود يكن ٤٧١
 دحية بن مصعب ٦٦
 نزارائيلي ٨٨٦
 نفاق بن الب أرسلان ٨٢٠
 نفاق بن نتنس ١٦٨
 نقلبيانوس ٢٥٧
 الدهنورى ٢٨٢
 دوغرین (اللورد) ٧٧
 ديجول ٦٧٦
 ديليسپس ٤٧٣ ، ٤٧٤
 حرف الدال
 ابن ذكرويه ٩٤
 ذو النون ٧٢ ، ٧٣

حرف الراء

- راشد الدين سنان ١٩٣
 رالف ستيفنسن ٥٣٦

الحسن بن رشيقه المبرى ١١٥

- الحسن بن الحافظ ١٥٥
 حسن صبرى ٥١٧
 الحسن بن عبيد الله بن طنج ١١٣
 الحسن بن على بن أبي طالب ١٥٢
 حسن بن مرسى ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧
 حسن بن الناصر محمد ٢٤٠
 حسن بنيات ٥٢٢
 الحسن بن الهيثم ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧

الحسن البازوري ١٥٠

- حسنى الزعيم ٤٨٠
 الحسين بن احمد المزواتى ١٠٢
 الحسين بن جوهر ١٣٩
 حسین (الملك) ٦٩٦ ، ٦٩٧
 حسین (الشریف) ٦٧٢ ، ٦٧٤
 الحسين بن ابی زوجة ١١٤
 حسین رشیدی باشا ٤٣٧
 حسین سری ٥٠٣ ، ٥٢٢
 حسین شفت ٣٦٨
 الحسين بن على بن ابی طالب ١٥٢
 الحسين بن على بن التعلم ١٣٦ ، ١٣٧
 حسین ١٣٩

حسین الرصفي ٤٢٥

- حسین کامل ٤٩٣
 حفص بن الوليد ٣٣
 الحكم بن تیس ٣٣
 الحكم بن عثیم ٤٠٠
 حمد الباسل ٤٩٧
 حمان بن حمدون ١١٧
 حیزة بن احمد ١٤٥
 حمید بن تھطیة ٦٦
 ابن الحنفی ٦٥٧
 حبیر الشهابی ٦٥٨

- ٩٥٢ -

سليمان الصناوي ٦٨٠
 سليمون ٥٥
 سنت الملك ١٣٣ ، ١٣٤ ، ٤٤٠ ، ٤٤١
 سعيد ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤
 سفيان ٧٨
 سرج الغول ٣٧
 السرى بن الحكم ٣٦ ، ٦٧ ، ٨٦
 سعد الدولة ١١٨
 سعد الله الجبيري ٦٧٧
 سعد زغلول ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨
 سعيد ٥٣٧ ، ٥٣٩ ، ٥٤١ ، ٥٤٢
 سعيد حمدان ١١٧
 سعيد الدولة ١١٨
 سعيد بن يزيد ٦٥
 سيف الدولة ١١٧ ، ١١٨
 سعيد شيخ الشافعى التحتسبى ٨٩٧
 سعيد بن محمد على ٣٩١ ، ٤١١
 سفيان الثورى ٧٤
 ابن السلام ١٦١
 سلامش بن ببرس ٧٨٩
 سالم (السلطان) ٢٦٢ ، ٣٦٥
 سليمان ٨٢٧ ، ٨٢٨
 سليمان الثقى بن ابراهيم ٨٣٤
 سليمان بلاشا « ابو ليلى » ٢٩٩
 سليمان ٨٩١
 سليمان بن يزيد ٨١٨
 سليمان قميريل ٩٤٩
 سليمان بن العلاظ ١٥٥
 سليمان الطبى ٣٣٧ ، ٣٣٨
 سليمان الثاقوى ٢٨٥ ، ٢٩٩
 سليمان ٨٣٧ ، ٨٣٨ ، ٨٤١ ، ٨٤٢
 سليمان ٨٧٩ ، ٨٨١

ابن رائق ١٠١ ، ١٠٢
 رجاد بن أبي الحسين ١٣٩
 رجند ٧٥١ ، ٧٥٣ ، ٧٥٤
 رذيك بن ملاشع ١٥٦
 رشيد بلاشا ٤٠٧
 رشيد الدولة بن شبى الدولة ١٦٧
 رشيد رضا ٩٦١
 رضوان بن نتش بن الب ارسلان ٧٢
 رسول بك كتفدا ٣٠٧ ، ٣٠٨
 رضوان بك الولخنى ٤٠٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧
 رغاعة الطهطاوى ٤٥٦
 رفقى بلاشا ٧١
 روبرت كونت أرچوا ٧٨١ ، ٧٨٢
 روجر بلكون ١٧٣
 روميس الرابع ٧٢٥
 روفد دنكش ٩٣٨
 رياض الصط眷 ٤٨٤ ، ٤٨٥
 ريتشارد قلب الأسد ٢٦٠ ، ٢٧٠ ، ٧٦١ ، ٧٦٢ ، ٧٦٣
 ريموند الرابع ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٢٩ ، ٧٣٢ ، ٧٣٣
 روف الزائى

زكا الروس ١٠١
 زيد الحريرى ٦٨٢
 ابن زولاق ١٨٣

حرف المسين
 المسادات (الشيخ) ٥٧٣
 سامي البارودى ٤٧١

شعبان بن حسن ٢٢٩
 شعبان بن الناصر محمد ٢٢٨
 شفيق غرمال ٤٩٢
 شكري الأيوبي ٦٧٤
 شكري القوتى ٦٧٧ ، ٦٨٠
 شكري بن موصى ٦٦٦
 شكتدة ٢٥٧
 شكيب ارسلان ١٤٨
 شمس الدين الدمشقى ١٩٦
 شمس الملك اسماعيل ٨٠٩
 شهاب الدين محمود ١٦٨
 شيبان بن احمد بن طولون ٩٥
 شيكوه ١٥٦ ، ١٦٢ ، ٧٤٧

حرف الصاد

الصالح اسماعيل ٢٠٦ ، ٧٧٦ ، ٧٧٧

صالح بن على ٣٨
 صالح بن مرداس ١٦٧ ، ١٧٤
 صالح بن الناصر محمد ٢٢٨
 الصالح نجم الدين أيوب ٢٠٦ ، ٧٨٥ ، ٧٧٨ ، ٧٧٦
 صالح القاسى ٣٠٤ ، ٣٠٨
 صبرى العسلى ٦٨٠
 صدقى ٤٦٧ ، ٤٨٢
 صلاح الدين الايوبي ١٥٦ ، ١٦٢ ، ٢٠٣ — ١٨٥ ، ١٧١ ، ١٦٩
 صلاح البسطار ٦٨٢
 صلاح الدين بن حاجى ٤٢٩

سليمان بن محمد بن مصل ١٥٥
 سليمان فرنجية ٦٨٣
 سليمان الفرنساوى ٣٩٢
 سليمان النابلسى ٦٩٧
 سنان باشا ٢٩٩ ، ٨٨٣
 منجر بن ملکشاه ٧٢٠
 سوليسبرى ٤٧٨
 سوويلم بن حبيب ٣٠٤
 سيد قطب ٥٥٣
 سيف الدولة ١١٧ ، ١١٩
 سيف الدين ايصال ٢٣٠
 سيف الدين غازى ١٦٩ ، ١٩٦
 سيف الدين ططر ٢٢١
 سيكو توري ٥٩٦
 سينوت حنا ٤٩٩
 سيمامون ٢٥٨

حرف الشين

شادى (جد صلاح الدين) ١٨٥
 شارل حل ٦٨٣
 شارل تونت آنجو ٧٨٢
 شارللان ٧٦٤
 شاشنق ٢٥٣
 الشانعى «الابا» ٧٠١
 شاور بن بجير ١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٨٧
 شبىل الدولة ١٦٧
 شجرة الدر ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٠٣ ، ٧٨٥ ، ٧٨٤ ، ٧٨٠
 شرجيل ٦٤٧
 شرف الدين عيسى ٢٠٦
 شريف باشا ٤٣٣ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٤٠

عباس شاه ٨٩
 عباس العقاد ٥٣٤
 عبد الحكم ماهر ٥٨٩ ، ٥٩٣
 عبد الحميد الأول ٨٣٤
 عبد الحميد الثاني ٨٣٦ وما يبعدها
 عبد الخالق ثروت ٩٩
 عبد الرحمن بن عمر (الأوزاعي) ٧٤
 عبد الرحمن الكواكب ٦٧١
 عبد الرحمن الناصر ٨٤٠
 عبد الشهيد بطرس ٤٧٤
 عبد الصمد بن علي ٣٣
 عبد العزيز (السلطان) ٨٢٥ ، ٨٢٦
 عبد العزيز بن برتوق ٢٢٩
 عبد العزيز الجارود ٦٧
 عبد العزيز نهوى ٥٢١
 عبد العزيز مروان ٣٧ ، ٣٢
 عبد الغنمي الدهمان ٦٨١
 عبد الفتاح حسن ٥٢١ ، ٥٣٣
 عبد الفتاح يحيى ٥٠٣
 عبد الكريم زهر الدين ٦٨١
 عبد الكريم تاج الدين ٦٨١
 عبد الكريم النحلوي ٦٨١
 عبد الله بشتبو ٢٥٩
 عبد الله الجزار ٤٠٦
 عبد الله بن الرشيد ٤٩
 عبد الله بن سعيد بن أبي سرح ٢٥٥ ، ٣٥
 عبد الله بن ظاهر بن الحسين ٦٨
 عبد الله بن عبد الملك ٢٧ ، ٣٨
 عبد الله بن علي ٦٩
 عبد الجيد الأول ٨٢٥
 عبد الجيد بن عبد العزيز ٨٣٢ ، ٨٣٣

حرف النساء

ضرغام بن عامر ١٥٦ ، ١٦٢

حرف النساء

ظاهر باشا ٣٣٧
 ظاهر بن الحسين ٤١
 طفج أبو الأخديد ١٠٧
 طلال « الملك » ٦٩٦
 طلائع بن رزيك ١٥٦ ، ١٦١ ، ١٦٢
 طلسون ٤٠١
 طوغنكين ١٦٨ ، ٢٣٨
 طوماي باي ٣٦٥ ، ٣٦٦

حروف النساء

الظافر ١٦١
 الظاهر بيبرس ٢١٥ ، ٢٢٤ ، ٢٣٤ ، ٢٥٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥
 الظاهر بن الحكم بيبر الله ١٤٣ ، ٧٢١ ، ٧٢٠
 ظاهر العبر ٣٠٩ ، ٦٦٢ ، ٦٦٤ ، ٨٦٠
 الظاهر بن صالح الدين ٢٠٢
 الظاهر قتصوه الأشرف ٢٣٠

حروف العين

الملك العادل ٧٦٥ ، ٧٦٨ ، ٧٦٩ ، ٧٧٧ ، ٧٧٥
 العادل سيف الدين ١٩٩
 العاضد ١٥٦ وما يبعدها
 عائشة (السيدة) ١٢٨

— ٩٥٦ —

| | |
|---|--|
| علي بن رضوان ١٧٣ | |
| علي بن السلار ١٥٥ | |
| علي بن عبد الله المغافري ١١٥ | |
| علي بن فخر الدين المعنى ٦٦٠ | |
| علي فهمي ٤٧٣ ، ٤٧٠ | |
| علي بك الكبير ٢٩٦ ، ٢٩٢ ، ٣٠١ ، ٢٩٦ ، ٢٩٢ | |
| ٨٩٠ ، ٣٠٧ ، ٤٩٦ ، ٣٠٧ | |
| علي ماهر ٥٢٢ ، ٥١٧ | |
| علي يوسف ٤٨٧ | |
| علي بن يونس ١٧٣ | |
| عماد الدين زنكي ١٦٨ ، ١٦٩ ، ٧٤٣ ، ٧٤١ ، ١٨٦ | |
| عماره اليمني ١٩٣ | |
| عمر الغيلاني ١٧٥ | |
| عمر بن الخطاب ٤٤٢ ، ٤٤٢ ، ٤٤٧ ، ٤٤٧ | |
| ٢١٨ ، ٩١ ، ٧٧ ، ٥٩ | |
| عمر بن عبد العزيز ٣٧ ، ٤٩ ، ٤٩ ، ٧٠ | |
| ٨٢٤ ، ٧٣ | |
| عمر مكرم ٣١٢ ، ٣٢٧ ، ٣٦٩ ، ٣٦٩ | |
| ٣٩. | |
| عمرو بن العاص ، ٤٤ ، ٣٥ ، ٣٤ | |
| ٢٥٥ ، ٧٨ ، ٦٥ ، ٥٩ ، ٤٣ | |
| ٦٤٧ | |
| عنبرة بن اسحق ٣٩ | |
| عيسي بن محمد التوشرى ٨٦ ، ١٠١ | |
| عيسي بن نسطورس ١٣٢ | |
| حرف الغين | |
| غلاب بن مالك ١٣٩ | |
| غوث بن سليمان ٦٢ | |
| الغوري « السلطان » ٢٢٠ ، ٢٢٥ | |
| غورو ٦٥٣ | |

| | |
|---------------------------------------|--|
| عبد الملك بن صالح ٤١ ، ٣٣ | |
| عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصیر ٣٣ | |
| عبد الملك بن هشام ٧٢ | |
| عبد الملك بن مزيد الخراسانى ٣٣ | |
| عبد الوهاب بن ابراهيم الامل ٤١ | |
| عتبة بن ابي سفيان ٢٢ | |
| عثمان ذو الفقار ٣٠٢ ، ٣٠٣ | |
| عثمان بك البرديسي ٣٣٦ | |
| عثمان بن سعيد (ورث) ٧١ ، ٥٣ | |
| عثمان الاول ٨١٤ ، ٨١٥ ، ٨١٥ | |
| عثمان الثاني ٨٣٣ | |
| عثمان الثالث ٨٣٤ | |
| علي يكن ٥٢٨ | |
| عذنان مندريس ٨٤١ | |
| عز الدين اييك ٧٨٥ | |
| عز الدين بن مسعود الاول ١٦٩ | |
| العزيز عثمان ٢٠٦ | |
| العزيز غيلاث الدين ٢٠٧ | |
| العزيز بن صالح الدين ٢٠٢ ، ٢٠٢ | |
| العزيز بالله النقاطي ١٢٩ ، ١٦٥ | |
| ١٦٦ | |
| العزيز بن الظاهر ٢٠٤ | |
| عزه النص ٦٨١ | |
| عصمت اينونو ٩٢٤ | |
| علاء الدين بن قلاوون ٢٣٩ | |
| علاء الدين السلجوقي ٨١٥ ، ٨١٤ | |
| علي بن ابي طالب ٣٤ ، ٤٩ ، ٣٤ | |
| ٦٤ ، ٦٤ ، ٩١ ، ٦٧ ، ٦٧ ، ٦٥ | |
| ٧١١ | |
| علي بن اماجور ٨٩ | |
| علي بن اييك ٢٢٧ | |

— ٩٥٧ —

حرف القاف

- قایقیای ٢٢٤ ، ٢٤١ ، ٢٩٨
 قاسم زعیم القاسمیة ٢٩٥
 قیدان باشا ٨٥١
 قره صو اليهودی ٩١٤
 قراقوش ١٩٩
 قرة بسطی باشا ٣٠٠
 قرة بن شریک ٣٨
 قسطنطین ٨٢٠ ، ٥٦٣
 قطب الدين مددود ١٦٩
 قطر الندى ٩٣
 قظر ٧٨٥ ، ٢٢٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٥
 قلاون ٢٢٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٧ ، ٢٥١ ، ٢٥١
 ٧٩٠ ، ٧٨٩

حرف الكاف

- خاترینا « الملكة » ٧١١ ، ٧٢٤
 خافور الاختبیدی ١١٥ ، ١١٢ ، ١٠٨
 الخامیل « الملك » ٧٦٩ ، ٧٧١ ، ٧٧٢
 ٧٧٦ ، ٧٧٥ ، ٧٧٣ ، ٧٧٢
 ختبقا ٢٢٨
 نکشنر ٤٨٦
 هیچک ٢٢٨
 کربیس ٢٥١ ، ٢٥٨
 کروم ٤٢٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٦ ، ٤٦٥
 کلییر ٣٢٥
 کیبل شمعون ٦٨٣
 کمشتکین ١٩٦ ، ١٩٧
 کنراد ٧٤٥
 کنز الدولة بن شجاع ١٩٣ ، ٢٥٩
 کوباریلی ٨٨٠ ، ٨٨١
 کورنجلتون ٤٠٥ ، ٤٠٥
 کوتشك باشا ٦٦٠

غی ده لوسيان ٧٥١ ، ٧٦١

حرف الفاء

- خانک الرومی ١١٤
 خارس الخوری ٦٨٠
 خاروق. « الملك » ٥٩٤ وما بعدها
 خاسکو دی جاما ٦٦١
 الفائز ١٥٦ ، ١٦٢
 خایر رفاغن ٦٨١
 فتح الله برکات ٣٣
 خخر الدين المعنی الاول ٦٥٨ ، ٨٩٠
 خخر الدين المعنی الثاني ٦٥٨ ، ٦٥٩
 خخر الدين بن لقمان ٢٣١
 خفری عمر ٦٨١
 خروخشاد داود ٧٥٠
 خرج بن برقوق ٢٥١
 خریز ٣٩٠
 خردیناند دیلسپس ٤٧٤ ، ٤٧٣
 خرنبریک بلن ارسا ٧٦١ ، ٧٧٢ ، ٧٧٣
 ٧٧٤ ، ٧٧٥ ، ٧٧٦
 خردیک الثاني ٧٧٣ ، ٧٧٤
 الفضل بن صالح ٦٦ ، ١٣٩
 غنون ٨٠٨
 فؤاد شهاب ٦٨٣
 فولتیر ٨٢٥
 فيصل الانانی ٦٨٠
 فيصل بن الشریف حسین ٦٧٢ ، ٦٧٣
 قیلیب اوغسطس ٧٦١ ، ٧٦٠
 القیومی ٣١٧

محمد بك بيركس ٣٠١
 محمد بن الدفتر دار ٤٠٣
 محمد بن رائق ٩٧ ، ١٠١
 محمد رشاد ٨٣٦
 محمد بن مسعود ٤٠١
 محمد بن سليمان الكتبي ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠١
 محمد بن ططر ٥٠٣
 محمد بن طنطع ١٠١ ، ١٠٧ ، ١١١
 محمد عبد الوهاب ٥٣٤
 محمد بن عبد الوهاب ٤٠١ ، ٤٠٣ ، ٨٦١
 محمد عبد الله ١٨ ، ٢٦٥ ، ٤٤٠ ، ٤٦٩
 محمد علي ياشا ١٧ ، ٢٨٤ ، ١٨ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩
 محمد بن على الخالنجي ١٠١ ، ٨٦
 محمد بن على المغراشى ١٠٨
 محمد الفاتح ٨٢٦ ، ٨٢٥ ، ٨٢٠
 محمد بن ملكشاه ٧٢
 محمد فريد ٤٨٤ ، ٣٨٦ ، ٣٨٥
 محمد كريم ٣٢٠ ، ٣١٤
 محمد بك لاظوغلى ٤٠٣
 محمد محمود ٤٩٧ ، ٥٢١
 محمد نجيب ٥٤٤ ، ٥٤١ ، ٥٤٥
 محمد وحيد الدين ٨٣٦
 محمود الثاني (السلطان) ٤٠٥
 محمود سامي البارودي ٧١ ، ٧٣
 محمود فهمي التقراشي ٥١٢ ، ٥٠٣

كيزون ٤٩٨
 كيناي ايترين ٩٢٥

حرف اللام

لاجين ٢٢٨ ، ٢٢٩
 لوراس ٦٧٤
 لويس السالجع ٧٦٠ ، ٧٤٥
 لويس الخامس ٧٨٠ ، ٧٧١ ، ٢٣١
 ٧٨٢ ، ٧٨٣ ، ٧٨٤
 لوى الاتنسى ٦٨٢
 لى استاك ٥٠٤
 الليث بن سعد ٧٢

حرف العين

مارسيل ٧٨٢
 المامون ٦٧ ، ٥٦ ، ٦٨ ، ٦٣١
 المامون البطائحي ١٥٩
 مامون الكبيرى ٦٨١
 ماليز لاميسون ٥١٠
 المتقى ١١٠ ، ١٠٩
 المتوكل ٦٧ ، ٣٩ ، ٨٨ ، ٧٥ ، ٩٥
 ١٠٧
 مجاهد شيركوه الثاني ٢٠٨ ، ٢٠٥
 مجرير الدين أبي ١٦٨
 محمد الثالث ٨٥٣ ، ٨٣٣
 محمد الرابع ٨٤٥ ، ٨٣٣
 محمد السادس ٨٩٦ ، ٨٩٣
 محمد بن أبي بكر ٣٥ ، ٦٥
 محمد أحمد المهدي ٤٧٩
 محمد بك الالنى ٣٣٦ ، ٣٨٩
 محمد بن أبي حذيفة ٦٤
 محمد بن باليزيد ٨١٨ ، ٨١٩
 محمد بن بدر الصيرفي ١١٤

مصطفى كمال «أناورك» ٨٩٤ ،
 ١١٨ ، ٨٩٦ ، ٨٩٨ ، ٨٩٩
 ٦٠ وما يبعدها
 مصطفى مرعي ٥٦٩
 مصطفى النحاس باشا ٣٨٥ ،
 ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤
 مطر مونى المنصور ٣٣
 المظفر الاول تقى الدين ٢٠٥ ،
 ٢٠٧
 المظفر الثاني محمود ٢٠٥ ، ٢٠٧
 المظفر الثالث ٢٠٥ ، ٢٠٧
 معاوية بن أبي سفيان ٦٦ ، ٦٧
 المعتصم ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ،
 ٦٧ ، ٦٩
 المعتصم ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧
 ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠
 المعتمد ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ،
 ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧
 معروف الدوالبي ٣٨١
 معز الدين سنجر شاه ٧٧٠
 المعز الدين الله الفاطمي ١٢٢ -
 ١٢٨ ، ١٧٤ ، ١٨٠
 المعز بن ياديس ١٥٣
 معين الدين انر ٧٤٧
 المعلم عيسى ٢٠٤
 المفوض بن المعتمد ٦٦
 الموقوس ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١
 المكتنى ٩٥ ، ٩٧ ، ١٠١
 مكرم عبيد ٤٩٩ ، ٥٢٢
 ملحم بن يونس ٦٦١
 ملكشاه ٧٢٠
 ملفر ٤٩٨
 منشا اليهودي ١٣٢
 المنصور الأول ٢٠٥

محمود فوزى ٥٥٧
 محمود بن ملكشاه ٧٢٠
 محدث (أبو الدستور) ٩٠٩ ، ٨٩٨
 وما يبعدها
 مراد الأول ٨١٥
 مراد الثاني ٨١٩
 مراد الثالث ٨٧٣ ، ٨٣٣
 مراد الرابع ٨٣٣
 مراد الخليس ٨٣٥ ، ٨٦٧ ، ٨٦٩
 مراد بك ٣١٣ ، ٣١٠
 مراد بن اورخان ٨٣١
 مروان بن محمد ٦٦ ، ٣٨
 مزاحم بن خاقان ٣٤
 المستعلي ١٥٥ وما يبعدها
 المستنصر ١٤٩ وما يبعدها
 مسعود بن غياث السلوقي ١٨٥ ،
 ١٨٦
 مسلمة بن مخلد ٣٧
 مسلمة بن عبد الملك ٨٢٣
 ابن مصال ١٦١
 مصطفى الأول ٨٤٢ ، ٨٣٣
 مصطفى الثاني ٨٣٤
 مصطفى الثالث ٨٣٤
 مصطفى الرابع ٨٦٧ ، ٨٣٥
 مصطفى باشا ٣٢٥
 مصطفى صبرى (شيخ الاسلام) ٩١١
 مصطفى غھمى باشا ٤٥٥ ، ٤٨٣
 ٤٨٤
 مصطفى كامل ٣٨٥ ، ٣٨٦
 ٤٨٤
 ٥٢٠ ، ٥١٩

نفيضة بنت الحسن بن علي ٢٧

تلسن ٢١٩

توبيل بيشا ٤٨٤

نوح بن أسد العسالتي ٨٧

نور الدين الاتسي ٦٨٢

نور الدين ارسلان ١٦٩

نور الدين زنكى ١٦٢ ، ١٦٩ ، ١٧١

١٨٣ ، ١٩٣ ، ١٩٠ ، ١٩٢

٧٤٨ ، ٧٤٣

حرف الهاء

هارون الرشيد ٤٢٣ ، ٤٤٠

هارون بن خمارويه ٨٧

هاشم الاتسي ٦٨٠

ابن هاشم الانطسی ١٥٨

هاطر ٥٠٨ ، ٥٠٩

هربرت صموئيل ٦٥٤

هرثمة بن اعين ٣٣

هشام بن عبد الملك ٥٥

حسن باشا ٤٨١

همام بن يوسف ٣٠٤

هندریسون ٥٠٨

هربرت ابری ٩١٧

هنرى السادس ٧٦٤ ، ٧٦٥

هنرى مكمانون ٦٧٢

هنرى الملأ ٨٢٦

هولاکو ٢٣٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٦

٨١٧

هونريوس الثالث ٧٦٩

حرف الواو

ولسن ٨٢

وليم جورдан ٧٣٨

النصرور الثاني ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩

النصرور، ابراهيم ٢٠٥

النصرور بن العزيز ٢٠٢

مهبب هندي ٦٨١

نوسى بن يلزيه ٦٧٣ ، ٦٧٣

٦٨٧

الموفق ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٦ ، ٩٧

٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩

موفق عصامية ٦٨١

المؤيد ابو الفدا ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧

المؤيد شيخ ٢٢١

مُوسى بن عيسى بن موسى ٣٨

ميخائيل السابع ٧٢٤ ، ٧٢٤

السلطان ميسور ٩٣٤

حرف التون

نابليون بونابرت ٢٦٠ ، ٣١٣

٨٥

نزار المستنصر ١٥١ ، ١٥٢

الناصر داود ٢٠٤ ، ٢٠٥

الناصر كلج ارسلان ٢٠٧

الناصر محمد بن قلاوون ٢٢٨

٧٩١ ، ٢٤٠ ، ٢٣٩ ، ٢٢٩

ناصر و خسرو ١٥٢

ناصر الدولة الحمداني ١٥١

ناظم القدس ٦٨١

نصر بن عباس ١٦١

نجم الدين اركان ٩٢٨

نجم الدين ايوب ١٨٥ ، ١٨٦

٢٢٦ ، ٢٠٣ ، ١٩٩ ، ١٩٥

نجيب الريhani ٥٣٤

نجيب الهلالى ٥١٥

نظام الملك ١٧١

- ١٦١ -

يوسف زعین ٦٨٢
يوسف العظمة ٦٧٦
يوسف وهبة ٥٠٢
يوسف وهبي ٥٣٤
يوليوس قيصر ٤٢
يوهان كيلر ١٧٣

حرف الياء
يحيى ابراهيم ٥٠٢
يزيد بن حاتم ٣٣
يزيد بن ابي سفيان ٦٤٧
يعقوب بن كلس ١٥٦، ١٠٦
يوحنا القديس ٨٢٩
يوحنا البحوي ٤٣.

فهرس المکان

لم أضمن هذا الفهرس الكلمات الآتية : مصر - القاهرة - سوريا ،
لكره ورود هذه الكلمات في أكثر الصفحات بما لا يجعل ذكرها مفيدة للكاتب .

| |
|---|
| <p>حرف الالف</p> <p>آسيا الصغرى ٢٢٥ ، ٧١٥ —</p> <p>آسيا الصغرى ٨١٦ ، ٨١٤ ، ٨١٣ ، ٧٤٥</p> <p>آسيا الصغرى ٨٢١ ، ٨١٨ ، ٨١٧</p> <p>آفرنقو ٨٢٥</p> <p>آفرنقة ٨٥١ ، ٨٥٠ ، ٨٤٤ ، ٤٥٠</p> <p>آفرنقة ٩٢٦ ، ٤٠٨ ، ٤٠٧</p> <p>آذربيجان ١٨٥</p> <p>الاردن ٨٩٢</p> <p>ارمينية ٢٨١ ، ٨٦٨ —</p> <p>ارسوف ٧٨٧</p> <p>اوضروم ٩٢٨</p> <p>ازمير ٩٢٦ ، ٢٥١ ، ٨٩٣ ، ٨٩٥</p> <p>اسبانيا ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨</p> <p>استانبول « الاستانة » ٢٣٦ —</p> <p>استانبول ٣٤١ — ٣٣٧</p> <p>استانبول ٨٥٧ — ٨٥٠ ، ٨٢١ — ٨٢٠</p> <p>استانبول ٨٩٣</p> <p>اسكدرونة ٩٢٩ ، ٩٣٠ ، ٩٣١</p> <p>الاسكندرية ٨٧٥</p> <p>اسوان ٩١ ، ٣٠٩ ، ٢٥٦</p> <p>اثشة ٩٣٤</p> <p>اقريطش ٤٠٥</p> <p>الأشهر ٨١٦</p> <p>الباتيا ٨٨٩ ، ٨٨٢</p> <p>أم ررشش (ايلات) ٥٥٤</p> <p>أمريكا ٥٨٥</p> |
| <p>حرف الباء</p> <p>بابليون (حصن) ٥٩ ، ٧٧</p> <p>باريس ٤٤٨</p> <p>باتياس</p> <p>البجة ٧٤</p> <p>بربرة ٤٨٢ ، ٤١٩</p> <p>البرتقال ٣١٣</p> <p>برقة ٩١</p> <p>برلين ٨٦</p> <p>بروسه ٨١٥ ، ٢٥١</p> <p>بروسيا ٨٨٥</p> <p>بريمة ٨٩٢</p> |

— ٩٧٣ —

تولوز ٧٢٧
 تونس ، ٧٤٨ ، ١٩٨ ، ١٠٢ ، ٩١ ، ٧٤٨
 ٨٩٢ ، ٨٨٣ ، ٧٨٣
 تبران ٥٥٦ ، ٥٥٤

حرف الجيم

جبل الدروز ٧٠٧
 جبل طوروس ٦٦٢
 جبل الطوبيين ٦٥٦
 جدة ٧٤
 جديلة ٧٨٠ ، ٧٧٦
 جزيرة المورة ٤٠٥
 الجزائر ، ٨٧٣ ، ٢٩١ ، ٨١١
 جنوة ٧٤٠ ، ٧٢٧ ، ٧١٨
 جولان ٥٨٤

حرف الحاء

حاصبيا ٦٥٤
 الحبše ، ٧٤٨ ، ٨٥ ، ١٠٧ ، ١٥٣ ، ١٥٣
 ٧٦٩ ، ٧٤٨ ، ٤٠٧ ، ١٩٨
 ٨٣٦ ، ٨٠٥
 حران ٧٤
 حضريوت ١٥٣
 حطين ٧٥٥ ، ٧٥٢ ، ٧٥١
 طب ، ١٠٩ ، ٧٦ ، ٥١ ، ٧٦
 ، ١٦٦ ، ١٦١ ، ١٤٥ ، ١١٧
 ، ٢٥١ ، ٢٤٦ ، ٢٢٢ ، ١٦٦
 ، ٧٢٠ ، ٧٠٧ ، ٤٠٦ ، ٢٩٨
 ، ٨٧٥ ، ٧٥١ ، ٧٤٣ ، ٧٢١
 حلوان ٧٨ ، ٣٧
 حماه ٢٤٦ ، ٢٠٢ ، ٩٤
 حمص ٧٥ ، ٢٥١ ، ٢٠٢ ، ٩٤

ال بشناق

بغداد ٦٥٤ ، ٢٠٢ ، ٩٤ ، ٧٤
 ٩٧ ، ٩٢ ، ٨٥ ، ٧٦ ، ٢٩
 ، ٢٢٣ ، ١٥٣ ، ١١٨ ، ١٠٧
 ، ٦٣٢ ، ٢٥١ ، ٢٤٤ ، ٢٣٥

٨٢٨

البقاع ٦٥٤ ، ٤٩
 بلبيس ١٨٨ ، ٥٥ ، ٤٩
 بلغاريا ٦٠١
 بلغراد ٨٢٨
 بلقان ٨٢٢ — ٨١٦
 بمباي ٢٦٣
 بنزان ٨٨٤ ، ٨٧٨
 البندرية ٨٨٣ ، ٨٧٦ ، ٢٦٣
 بوانتيه ٧٢٧
 بودابست ٨٢٩
 بروسه ٨١٥
 البوستة ٨٨٢
 بولاق ٣٩٣ ، ٣٠٥ ، ٢٨٣
 بولندا ٨٣ ، ٨٧٦
 بيت المقدس ٨٠٦ ، ٢٥٣ ، ٢٣٦
 بيروت ٦٥٤ ، ٧٦ ، ٧٤ ، ٤٠
 بيزنطة ١٥٢

حرف الناء

تراتية ٨٩٥ ، ٨٨٩
 ترانسلفانيا ٨٨٤
 تركستان ٢٢٥ ، ٢١٧ ، ٨٧
 تركيا ٨٧٦ ، ٧٠٨ ، ٨٢٧
 تكريت ١٨٦
 النل الكبير ٤٧٤ ، ٤٧٣
 تونس ٧٤ ، ٣٩
 تورز ٧٢٧

حروف الـ

رأس نصرانى ٥٥٤
 راشيا ٦٥٤
 رشيد ٤٨ ، ٤٠٥ ، ٣٩٠
 الرقة ٩٦
 الرملة ١٦٥ ، ٧٤٣ ، ٧٥٠ ، ٧٦٢
 الراها ٧٤ ، ٧٣٧ ، ٧٣٢ ، ٧٢١ ، ٧٠٣ ، ٧٦٣
 رونس ٢٦٠ ، ٧١١ ، ٧١٢
 روسيا ٧١٠ ، ٨٧٣ ، ٨٧٧ ، ٨٧٩

حروف الزاي

الزاب ٣٨
الزناريق ٣٩٦
زيلع ٤١٩

حروف المسمى

سالوفينك ٣٨٩ ، ٨١٦
 سامر ٩٦ ، ٩٩ ، ٨٨
 سان ريسو ٦٥٤
 سلمية ٩٤
 سمرقند ٢١٨
 سنار ٣٩٢ ، ٤٠٣
 العیند ٧٤
 سواكن ٢٣٦ ، ٤٥٦ ، ٤١٩
 سوبيا ٢٥٤
 السودان ٢١٧ ، ٧٤٨
 سومطرة ٤٩١
 سيراليون ٨٢٦
 سيشل ٤٩٩

حیدر آباد ۷۶۶

٧٥٦ ، ٤٠٦ حينا
٢١٨ خوارزم
٢١٧ الحزر
٥٥٨
٥٥٦ ، ٥٥٤ خليج العقبة
٤٨٠ الخرطوم
٦٦ خراسان

حروف الماء

| | |
|---|-----|
| دارفور | ٢٥٣ |
| دانبرك | ٧٢٧ |
| المرئيل | ٨٧٦ |
| الدرعية | ٤٠١ |
| دمشق | ١٨ |
| ، ٤٠، ٣٧، ٢٩، ٤٠، ٣٧، ٢٩، ١٠٧، ٩٤، ٨٥، ٧٦ | |
| ، ١٦٥، ١٦١، ١٣٦، ١١١ | |
| ٢٠٢، ١٨٧، ١٦٩، ١٦٧ | |
| ٧٢١، ٧٢٠، ٢٨٧، ٢٣٢ | |
| ٨٢٣، ٧٥٠، ٧٤٧، ٧٤٦ | |
| ، ١٩٠، ١٧٨، ٧٤، ٤٨، دمياط | |
| ٣٩٠، ٣٣٧، ٣٠٥، ٢٨٧ | |
| ٧٧٩، ٧٧٩، ٧٧٩، ٣٩٧ | |
| ٧٨٢، ٧٨١ | |
| بنشوابي | ٥٢ |
| بنقطة | ٣٥ |
| ٤٨٠، ٢٥٥، ٢٠٥ | |
| ديار بكر | ٢٠٢ |
| ٢٠٣، ٢٠٢ | |
| دياري، بيعة | ١١٠ |
| دير سانت كلثرين | ٥٦٤ |
| دير سبتاء | ٤٧ |
| الدلم | ٢٤٦ |

— ٩٦٥ —

حرف الطاء

طبا ٥٥٣ ، ٥٦٩ ، ٥٧١ ، ٥٧٢
 طبرق ٥١٠
 طبرية ٦٦٣ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦
 طبرية (بحيرة) ٧٥٩
 طبرية (حصن) ٧٨٨ ، ٧٩٠
 طرابلس ٦٢ ، ٧٩٨ ، ٢٥٣
 ٧٣٥ ، ٦٠٦ ، ٥١٠ ، ٢٨٧
 ٧٨٨ ، ٧٤٨ ، ٧٤٦ ، ٧٣٨
 ٧٨٩
 طرسوس ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠
 طنجة ٧٤
 الطونة ٨١٧
 طوروس ٧٣٣

حرف العين

عدن ٨٩٢ ، ٧٤
 ٧٢٠ ، ٧٠٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠
 العراق M٩
 العريش ٧٧٦ ، ٣٢٤
 عسقلان ٧٤٤ ، ٧٣١ ، ٧٧٨
 ٧٧٨ ، ٧٦٣ ، ٧٣٨
 العسكرية ١٩٤ ، ٨٠ ، ٧٩ ، ٣٨
 عكا ١٩٩ ، ١٧٨ ، ١٧٥ ، ٩٨
 ٧٦١ ، ٤٠٨ ، ٤٠٦ ، ٣٢٤
 ٧٧٣ ، ٧٦٢ ، ٧٥٥ ، ٧٣٨
 ٧٦١
 علوة ٢٥٤
 عمان ٧٤
 عمورية ٧٥
 عيذاب ١٧٨ ، ٢٥٦
 عين جلابت ٢٣٥ ، ٢٣٣ ، ٢٠٣ ، ٢٣٥

السويس ٧٣ ، ٧٨ ، ٢٨٧ ، ٦
 ٣٩٣ ، ٣١٣
 سيلان ٤٧٣ ، ٤٩٩
 سيناء ١٨ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٥١ ، ٥٠ ، ٥٠٩
 ٥٣٧ ، ٥٥٦ ، ٢٩٣
 ٥٧.

حرف الشين

السلم ٧١٧ ، ٧١٨ ، ٧٢٠ ، ٧٢١
 ٨٢ ، ٨٠ ، ٣٧٩ ، ٣٧٨
 ٨٦٢ ، ٨٨٨ ، ٨٨٥
 شاتيلا ٦٩٠
 شبراخيت ٢١٤
 شرم الشيخ ٥٥٤ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨
 شكود ٨١٤
 شندى ٨٠٣
 شيزر ٨٠٨

حرف الصاد

الصالحية ٣٠٩
 صابرا ٦٩٠
 الصرب ٨٨٢ ، ٨٨٧
 صند ٧٨٧
 صقلية ١٩٣ ، ٦٠٥ ، ٧٦١
 ٧٦٦ ، ٧٧٢
 صنافير ٥٥٤
 صنعاء ٧٤
 صور ٣٧٨ ، ٧٢١ ، ٣٧٦
 ٦٥٤ ، ٧٩٠ ، ٧٤٣ ، ٧٣٩
 ٧٩١
 صوفيا ٨١٦
 صيدا ٧٥٦ ، ٧٥٠ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦
 الصين ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٦ ، ٢٦١ ، ٢٦١

— ٩٧ —

القطائع ٨٠ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٩٤
 التسلطية ١٥٢ ، ٢٨١ ، ٢٩٨
 ٤٩٢ ، ٧١٦ ، ٧٢٤ ، ٧١٧
 ٧٣٢ ، ٧٣٩ ، ٧٢٨
 ٨٧١ ، ٩١٩

القتباك ٢٢٥
 قلعة يعقوب ٧٥١ ، ٧٥٠
 قناة السويس ٤٤١ ، ٤٣٠
 القوقاز ٢١٥
 قوله ٢٨٨
 قونيه ٣٩٢ ، ٤٠٧
 قيسارية ٢٥٠
 قينارجة ٨٨٤

حرف الـ كاف

كامب دينيد ٥٧٩
 كردستان ٨٤٠
 كرمان ٣٩٢ ، ٢٥٣
 الکرج ٢٢٧
 الکرك ٧٨٧ ، ٧٥٥ ، ٧٥١
 کربلا ٨٨٩ ، ٤٠٨ ، ٤٠٧
 کسلا ٤٨٠
 کليرمونت ٧٢٦
 کوتاهية ٤٠٧
 کوش ٢٥٤
 الكوفة ٩٤
 کينا ٧٧٩

حرف الـ لام

اللاذقية ٧٠٨ ، ٧١١ ، ٧٨٩
 لبنان ٦٩ ، ٢٠ ، ٥١ ، ١٤٧ ، ١٤٦ ، ١٤٧
 ٨٩٠
 اللد ٧٦٣

٦٢٥ ، ٢٥١ ، ٢٥٠ ، ٢٤٨
 ٨٨٠ ، ٧٨٥
 عین شمس ٣٢٦

حرف العين

غزة ٢٣٣ ، ٣٢٤ ، ٤٠٦ ، ٧٤٤
 ٧٧٧ ، ٧٧٧
 غندکرو ٤١٨

حرف الـ فاء

غارس ٢٢٥ ، ٧٦٩ ، ٧١٥ ، ٨٧٣
 فرشوط ٣٠٤
 الفرما ٧٤
 فرنسا ٧٣٠ ، ٧٢٨ ، ٧٢٧ ، ٧٢٦
 ٩١٣ ، ٨٨٠ ، ٨٧٨
 الفسلطان ٣٤ ، ٦٥ ، ٧٨ ، ٧٧
 ١٩٤ ، ٩٩ ، ٨٠
 فلسطين ١٩ ، ٥٢ ، ٢٠ ، ١٩٤
 ٥٦٣ ، ٤٩٣ ، ٢٢٣ ، ١٩٥
 ٨٩٠ ، ٨٨٢
 فينيسيا ٧٦٧
 فينا ٨٧٣

حرف الـ حاء

قباس ١٩٨ ، ٧٤٨
 قبرص ٧٤ ، ٧٩ ، ٢٦٠
 ٩٣٢ ، ٨٨٨ ، ٧٩٢
 قبة الصخرة ٧٥٨ ، ٧٧٠
 القدس ٢٢٣ ، ٧٢١ ، ٧٥٦
 ٧٦٧ ، ٧٦٦ ، ٧٦٤
 قرطاجنة ٧٨٣
 القرم ٢٢٥
 قره حصار ٨١٤

— ٦٧ —

حرف التون

نيلاتا ٢٥٤
 نايلس ٢٤٦ ، ٢٤٨
 الناصرية ٧٥١
 نجد ٤٠١
 تصيير ٤٠٧
 التمسا ٤٩١ ، ٨٧٦ ، ٨٧٨ ، ٨٧٩
 ١١٣ ، ٨٧٩
 نوارين ٨٨٥
 التوبة ٣٥ ، ٦٣ ، ٢١٧ ، ٧٤
 ٧٥٦ ، ٢٥٣
 نهاوند ١١٧
 سقية ٧٣٣

حرف الهاء

هاناي ٧٤٧
 هرر ٤٨٢ ، ٤١٩
 هرمز ٨٢٦
 الهند ٢٠ ، ٢٦١ ، ٧٤ ، ٣١٣
 ٧٦٦
 هولندا ٣١٣ ، ٢٩١

حرف الياء

يانا ٣٢٤ ، ٤٠٦ ، ٧٧٢ ، ٧٧٥
 ٧٧٧
 اليمن ٧٤ ، ١٥٣ ، ١٦٩ ، ١٩٨
 ٧٩٠ ، ٧٨٨ ، ٢٠٢
 يوغسلافيا ٤٩١
 اليونان ٨٨٨

لندن ٤٤٨ ، ٨٨٥

لوزان ٨٩٣

ليبيا ٦٠٧ ، ٤٩٣ ، ٨٩٢

حرف الميم

مسندى ٤١٨
 بالطة ٤٩٧ ، ٣٢٠ ، ٣١٤ ، ٢٦٠
 ٧٠٧
 ما وراء النهر ٢١٧
 المدائن ٨٢٢
 المدينة ١١٠
 المجر ٨١٦
 مرج دابق ٢٨٢ ، ٢٦٥
 مسقط ٨٩٣
 مصراته ٥١٠
 مصوع ٤٨٢
 المغرب ٨٩٢
 معرب النعمان ٩٤
 مقيرة ٢٥٧ ، ٢٥٤
 مقدونية ٨٨٩ ، ٨١٦
 مكة ٣٦٣

ملازكرد ٨١٣ ، ٧٢٤

المنصورة ٧٨١ ، ٧٨٠

مهاج ٨٣٤

الموصل ١٠٩ ، ١١٧ ، ١٦٨

١٢٩ ، ٧٥١ ، ٧٢١ ، ١٩٦

٩٣.



رقم الايداع ٥٠٨٥ لسنة ١٩٨٦

مطبع سجل العرب

**HISTORY and CIVILIZATION
of ISLAM**

A study, in Ten Volumes,
on History and Civilization of Islam
in All Muslim Ages and Lands

- 5 -

- Egypt and Syria from the Beginning of Islam up to the Present Time.
- Crusades: Reasons, Evolution, Results.
- Ottoman Empire (Turkey) from its Rise up to the Present Time.

By

AHMED SHALABY,

B.A. (Hon.) Cairo University,
Ph. D. Cambridge University,

Professor and Head of the Department of
Islamic History and Civilization

Faculty of Dar El Ulum, Cairo University

Seventh Edition (1986) Revised

Published by :

THE RENAISSANCE BOOKSHOP

9 Adly Street, Cairo.



دكتور أحمد شلبي

- تلقى دراساته في الأزهر وفي كلية دار العلوم (جامعة القاهرة) وفي جامعة لندن وجامعة كمبريدج.
- زار الولايات المتحدة الأمريكية كما زار أكثر دول أوروبا وأسيا والشرق الأوسط، ومثل مصر في عدة مؤتمرات دولية.
- درس مجموعة من اللغات الأجنبية وعبيد الإنجليزية والأنجليزية.
- اشتغل بالتدريس بجامعة القاهرة حتى وصل إلى درجة أستاذ رئيس قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، وقد حاضر منتدياً وزائراً ومحاضراً في جامعة الأزهر، وعين شمس، واندونيسيا، والسودان، ومالطا، والملكة العربية السعودية، ولبنان، وفي معهد الدراسات الإسلامية، ومعهد البحوث والدراسات العربية، ومعهد الدراسات الدبلوماسية.
- مؤلفاته تزيد عن خمسين كتاباً ظهرت الطبعة الثامنة عشرة من بعضها وأهم هذه المؤلفات :
 - ١ - موسوعة التاريخ الإسلامي في عشرة أجزاء.
 - ٢ - موسوعة الحضارة الإسلامية في عشرة أجزاء.
 - ٣ - مقارنة الأديان في أربعة أجزاء.
 - ٤ - كيف تكتب بحثاً أو رسالة.
- المكتبة الإسلامية لكل الأعمار : ١٠٠ جزء من السير والتاريخ وقصص القرآن للأولاد والشباب والسيدات والرجال.

ISLAM: BELIEF, LEGISLATION, MORALS - ٦
HISTORY OF MUSLIM EDUCATION - ٧

- كتب بعض كتبه بالإنجليزية والأنجليزية، وترجمت أكثر لغاته إلى الأوردية، والتركية، والأنجليزية، والمالطية، والفرنسية، والفارسية.